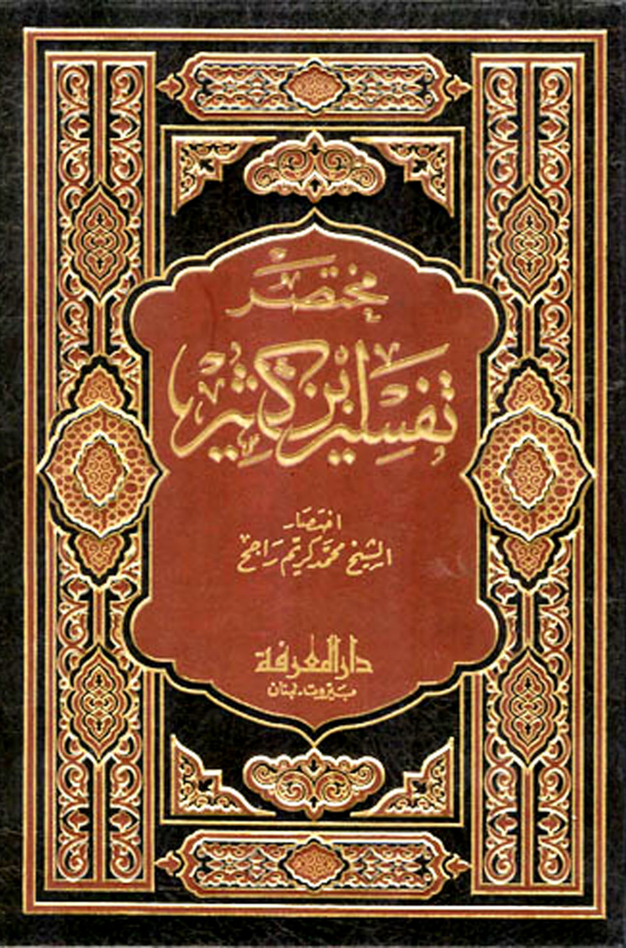

مختصر
تفسير ابن كثير
اختصار
الشيخ محمد كريم راجح
دار المعرفة
بيروت . لبنان



(تفسير القرآن العظيم)

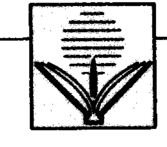
للإمام الحافظ أبي الفداء اسماعيل بن كثير

إختصار
الشيخ محمد كريم راجح

المجلد الأول

دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

الطبعة السابعة 1420 هـ 1999 م



دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing

مستديرة المطار، شارع البرجاوي، ص.ب: ٧٨٧٦، هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢، فاكس: ٦٠٣٣٨٤، برقياً: معرفكار بيروت - لبنان
Airport Square, P.O.Box: 7876, Tel: 834332, 834301, Fax: 603384, Beirut - Lebanon

مختصر

تفسير ابن كثير

١


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أرسله الله بالهدي ودين الحق ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان .

أما بعد : فمنذ زمن طويل كنت أنظر في كتب التفسير فأجد فيها المطول والمختصر ، وكنت أرى أن التطويل قد لا يسمح لكل قارىء أن يقرأ تفسير القرآن ويتمه ، وأن الاختصار قد لا يستوعب كل ما رمز إليه المفسر . وكنت أرى أن تفسير القرآن الكريم للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ كتاب جمع فأوعى ، ففيه الدراية والرواية ، وفيه الاستدلال بالآية على نظائرها من الآيات ، وفيه الاستشهاد بالحديث فيما يتصل بالآية ، وفيه أسباب النزول وفيه السيرة ، وفيه الرواية عن الأئمة ، وفيه تخريج الأحاديث وذكر أسانيدها ، إلى غير ذلك مما أمتع الله به الشيخ رحمه الله من القوة العلمية والبيانية ، مما آثر أن يجعله في تفسيره لتقرأه الأمة الإسلامية على توالي الأجيال .

وكان مما مَنَّ الله به أن جعل لهذا التفسير فتحاً ، فكان محبباً إلى القلوب ، قريباً من الأفكار ، عبارته سهلة ، وغرضه ظاهر ، وأهدافه

واضحة ، فهو يشرح لك المعنى من أسهل الطرق ، وبأسهل الألفاظ ، فتخال نفسك وأنت تقرؤه كأنك تقرأ قصة تستهوي فكرك وتأخذ بلبك ثم أنت حين تقرأ فيه ينقلك من الآية إلى معناها ، ومنه إلى الحديث الشريف ، ومنه إلى الأمر ، ومنه إلى الحكم ، ومنه إلى الحكمة ، وهكذا تعيش فيه مع خيرة القرون : الأول والثاني والثالث وأنت في نعيم مقيم وقد رأيت أن أختصره في جزء واحد يجمع أكثر ما فيه من المعاني ، فالشيخ رحمه الله قد يأتي للآية الواحدة بعدة شواهد ، فلا مانع من الاقتصار على بعضها وبعدة أحاديث بروايات متعددة كلها تؤدي غرضاً واحداً ، فلا مانع من الاجتزاء ببعضها . وبأكثر من أثر للمسألة الواحدة ، فقد يجوز أن يؤخذ بعضها ، ناهيك بالأسانيد التي لا مانع في أيامنا هذه من حذفها ، إذ هي محفوظة في الأصل ومن أرادها يستطيع في كل وقت أن يعود إليها . والمهم أن يقرأ الناس القرآن وتفسيره ، وأن يدخلوا إلى ذلك من أقرب الطرق وأخصرها غير أنني حين حاولت الاختصار رأيت الكتاب بحراً لا ساحل له فغلبني ما فيه من الجواهر فكان في جزءين .

واسأل الله أن ينفع بهما ، وأن يجزل المثوبة للشيخ الذي هو الأصل وصاحب الفضل وللمختصِر ، وللقارىء وأن يجعل ذلك كله زلفى لديه .

وكل ما أرجوه من الله أن لا أكون قد أسأت للكتاب ، فالكتاب قمة ولا شك ، وأرجو أن يكون هذا المختصَر فيه من الكفاية للقارىء ما يغنيه عن أن يقلب طرفه في تفاسير كثيرة .

والفضل من الله الكبير أن الإقبال على القرآن بكل علومه وتفاسيره وأحكامه هواية الناشئة من ذكور وإناث وذلك يعود إلى أن الشباب تعلموا ، والعلم يهدي إلى الرشاد ولم يجدوا الرشاد والطمأنينة إلا في كتاب الله عز وجل ، فهرعوا إليه وانكبوا عليه ينهلون منه ومن علومه وتفاسيره ، وذلك ولا

شك يبشر بخير ، ونسأل الله أن يمن بالهداية وأن يعود بالمسلمين إلى مهيع دينهم ، ومعين عقيدتهم ، وصافي شراب تشريعهم ، وأن يعملوا بما علموا ، إنه سميع قريب .

هذا وقد حرصت على عبارة الشيخ كل الحرص ، والتزمت ألفاظه كل الالتزام ، حتى لا نخرج في هذا المختصر عن نور عبارة الأصل ، ولا عن غاية مراميها وأبعادها ، فالشيخ رحمه الله ذو نور في القلب وإشعاع في الفكر ، وعبارته متأثرة بنور قلبه وضياء فكره ، فكان لا بد من التزامها كما هي ، وما كان للجوهر أن يبدَّل ولا للذهب أن يغيَّر ومهما جيء بمثله فإنه لا مثل له .

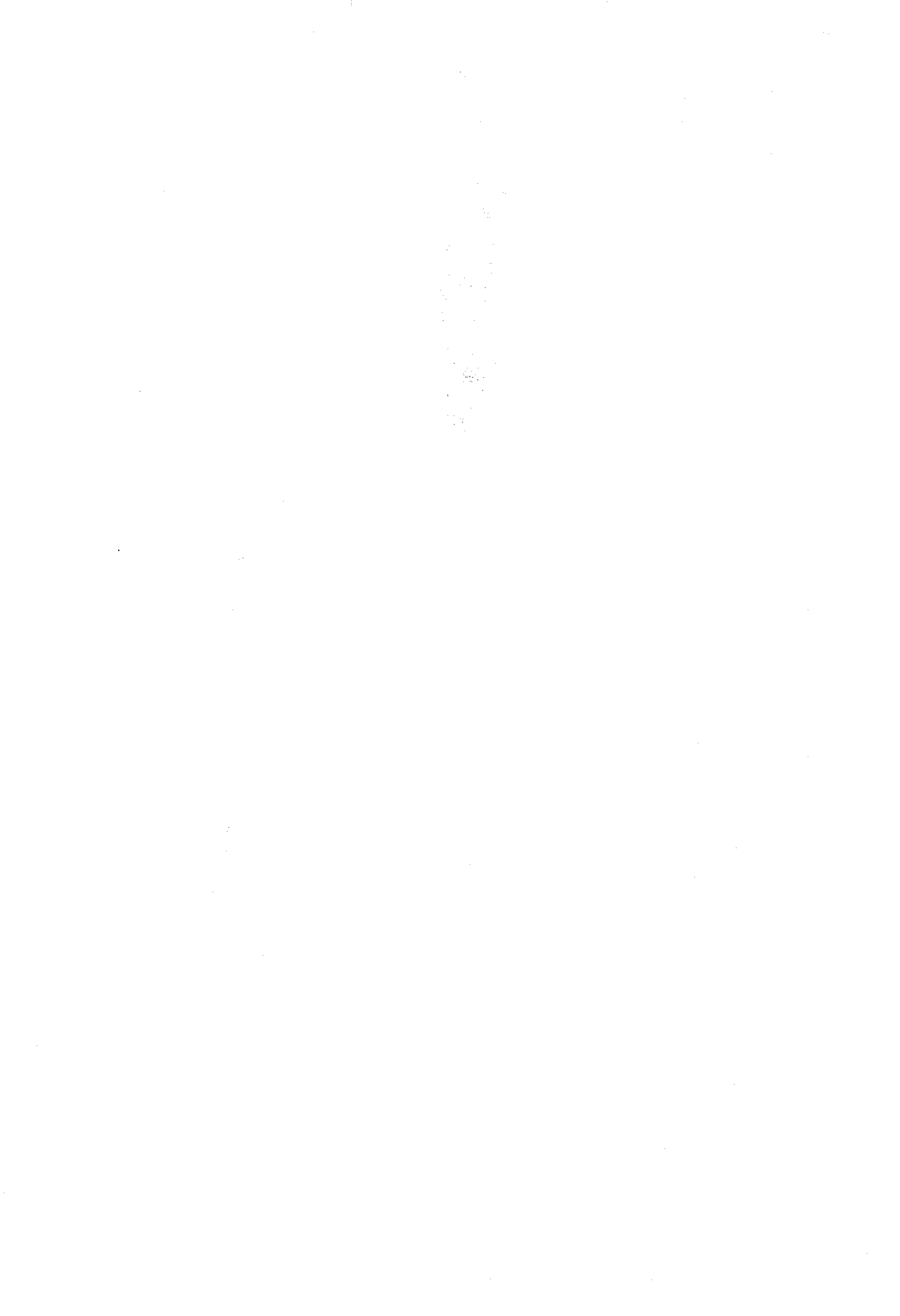
وأرجو من القارىء إذا قرأ فاستفاد أن يشملني بدعوته فذاك هو الذخر الذي أرجوه يوم الدين .

كما أنني أتقدم بالشكر الجزيل إلى أصحاب دار المعرفة للطباعة والنشر في لبنان على ما أبدوه من عناية فائقة في سبيل نشر هذا المختصر ، وأسأله جلت قدرته أن يكتب لهم هذا الجهد في صحائف أعمالهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

مشق في ٢٩/ ٨ / ١٤٠٣

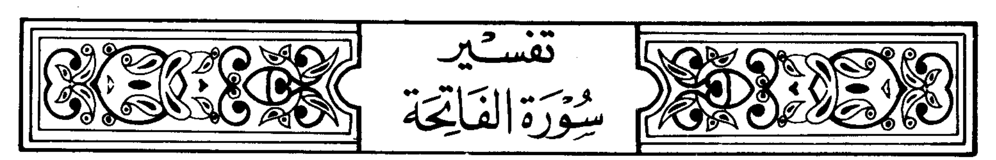
١/ ٦ / ١٩٨٣

محمد كريم بن سعيد راجح



أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

جمهور العلماء على أن الاستعاذة مستحبة ، ليست بمتحتمة يأثم تاركها . ومعناها الالتجاء إلى الله ، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

افتتح بها الصحابة كتاب الله ، واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النحل ، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة ، أو من أول كل سورة كتبت في أولها ، أو أنها بعض آية من كل سورة ، أو أنها كذلك في الفاتحة ، دون غيرها ، أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية ، على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً .

و « الله » علم على الرب تبارك وتعالى ، يقال : إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات . « الرحمن الرحيم » اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة ، و « رحمن » أشد مبالغة من رحيم .

(٢) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد .
« والرب » هو المالك المتصرف ، ولا يستعمل لغير الله ، بل بالإضافة ، تقول : رب الدار وأما « الرب » فلا يقال إلا لله عز وجل .

و« العالمين » جمع عالم ، وهو كل موجود سوى الله عز وجل ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، والعوالم أصناف المخلوقات في السمٰوات وفي البر والبحر .

(٣) ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

إنما وصف نفسه بـ « الرحمن الرحيم » بعد قوله : « رب العالمين » ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب ، فالرب فيه ترهيب ، والرحمٰن الرحيم ترغيب .

(٤) ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾

لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملكهم في الدنيا . ويوم الدين يوم الحساب للخلائق ، وهو يوم القيامة ، يدينهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر إلا من عفا عنه .

(٥) ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾

أي لا نعبد إلا إياك ، ولا نتوكل إلا عليك ، وهذا هو كمال الطاعة ، والدينُ كله يرجع إلى هذين المعنيين . والعبادة في اللغة من الذلة ، يقال : طريق معبد ، وبعير معبد أي مذلل ، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف .

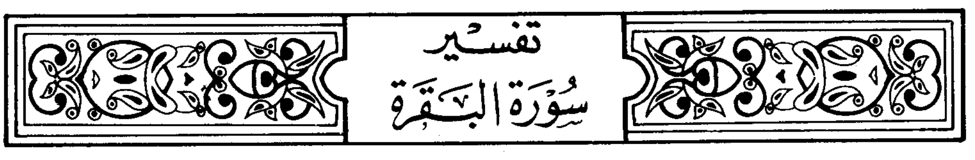
(٦) ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾

أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته ، وحاجة إخوانه المؤمنين ، لأنه أنجح للحاجة ، وأنجح للإجابة ، فهنا تقدم الثناء ، وأعقبه السؤال . والصراط المستقيم : كتاب الله ، أو الإسلام .

(٧) ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾

هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون ، وهو مفسر لـ « الصراط المستقيم » والمغضوب عليهم : هم اليهود ، والضالون : هم النصارى .

يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها : « آمين » ومعناه : اللهم استجب .



تفسير سُورَةُ البَقَرَة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

في مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان » .

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

هي ما استأثر الله بعلمه ، أو هي أسماء السور ، أو من أسماء الله تعالى ، أو ذكرت بياناً لاعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من هذه

الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها . ومن زعم أنها دالة على معرفة المُدَد ، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له . وطار في غير مطاره .

(٢) ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله ، نوراً للذين يتقون الشرك بالله ، ويعملون بطاعته . ومن قال : إن المراد بـ « ذلك الكتاب » الإشارة إلى التوراة والانجيل فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وتكلف ما لا علم له به . والريب : الشك ، وقد يستعمل في التهمة . ويطلق الهدى ويراد به ما يقر في القلب من الإيمان ، وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله تعالى ، ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه ، والإرشاد إليه .

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض ، وكذلك إذا استعمل مقروناً مع الأعمال ، فأما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً ، وأنه يزيد وينقص . وأما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة والنار وما ذكر في القرآن . وإقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها والمحافظة على مواقيتها ووضوئها . وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء . والمراد من النفقة هنا زكاة المال ، أو تشمل النفقة الواجبة على الأهل وغيرهم .

(٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

أي يصدقون بما جئت به من الله ، وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرقون بينهم ، ولا يجحدون ما جاؤ وا به من ربهم ، وبالآخرة هم يوقنون ، أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان . وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا .

(٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإنفاق من الذي رزقهم الله ، والإيمان بما أنزل إلى الرسول ، ومن قبله من الرسل ، والإيقان بالدار الآخرة هم على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى ، وهم المنجون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم

وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب ، والخلود في الجنات ، والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب .

(٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

إن الذين غطوا الحق وستروه ـ وقد كتب الله عليهم ذلك ـ سواء عليهم إنذارك وعدمه ، فإنهم لا يؤمنون بما جئتهم به . ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ . « لا يؤمنون » جملة مؤكدة ، ويحتمل أن تكون خبراً .

(٧) ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه ، فختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم . وعلى أبصارهم غشاوة ، فهم لا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ، ولا يفقهون ، ولا يعقلون. والوقف التام على قوله سبحانه : ﴿ وعلى سمعهم ﴾ وقوله : ﴿ وعلى أبصارهم غشاوة ﴾ جملة تامة ، فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوة ـ وهي الغطاء ـ يكون على البصر .

(٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾

(٩) ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

يعني المنافقين من الأوس والخزرج ، ومن كان على أمرهم ، يقولون ذلك قولاً ، ليس وراءه شيء آخر ، فهم بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين ، كما قال تعالى : ﴿ ويحسبون أنهم على شيء ﴾ . والنفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر . وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ، لأن مكة لم يكن فيها نفاق .

(١٠) ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾

في قلوبهم شك ونفاق ، فزادهم الله شكاً ونفاقاً . وأشهر المنافقين عبدالله بن أبي ابن سلول .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ (١١)

﴿ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (١٢)

وإذا قيل لهم : لا تعصوا في الأرض قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون ، وكان فسادهم معصية الله لأن من عصى الله في الأرض ، أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض ، لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة . ألا إن هذا الذي يعتمدونه ويزعمونه أنه إصلاح وهو عين الفساد ، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فساداً .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣)

وإذا قيل للمنافقين آمنوا كإيمان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة ، وعلى طريقة واحدة ، وهم سفهاء ، فأكد سبحانه وحصر السفاهة فيهم ، ولكن من تمام جهلهم أنهم لا يعلمونه بإيمانهم في الضلالة والجهل . وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى ، والبعد عن الهدى . والسفيه : هو الجاهل الضعيف الرأي ، القليل المعرفة بمواضيع المصالح والمضار .

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ (١٤)

﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١٥)

وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين أظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافاة غروراً منهم للمؤمنين ، ونفاقاً ومصانعة وتقية ، وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم ، وإذا خلصوا إلى رؤسائهم من أحبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين قالوا إنا على مثل ما أنتم عليه ، إنما نستهزىء بالقوم ونلعب بهم ، فالله مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فإن الله لا يكون منه المكر ولا الهزء ، والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم والعمه : الضلال ، فهم في كفرهم الذي غمرهم ذله ، وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالاً ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ (١٦)

أولئك الذين أخذوا الضلالة وتركوا الهدى ، فما ربحت صفقتهم في هذه البيعة ، وما

كانوا راشدين ، إذ خرجوا من الهدىٰ إلى الضلالة ، ومن الجماعة إلى الفرقة ، ومن الأمن إلى الخوف ، ومن السنة إلى البدعة .

﴿١٧﴾ ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿١٨﴾ ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

شبههم الله في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى بمن استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، وأبصر بها ما عن يمينه وشماله ، وتأنس بها إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، وهو مع هذا أصم لا يسمع ، أبكم لا ينطق أعمىٰ لو كان ضياءً لما أبصر ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدىٰ ، واستحبابهم الغي على الرشد . وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع . وقوله تعالىٰ : ﴿ ذهب الله بنورهم ﴾ أي ذهب عنهم بما ينفعهم ، وهو النور . وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحراق والدخان .

﴿١٩﴾ ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿٢٠﴾ ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا مثل آخر ضربه الله تعالىٰ لضرب آخر من المنافقين ، وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ، ويشكون تارة أخرىٰ ، فقلوبهم في حال ترددهم وكفرهم كمطر نزل من السماء في حال ظلمات ، وهي الشكوك والكفر والنفاق ، ورعد وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع، ﴿وبرق﴾، وهو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ، وهم يحذرون الموت من الصواعق ، ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً ، لأن الله محيط بقدرته ، وهم تحت مشيئته وإرادته ، والبرق يكاد يخطف أبصارهم لشدته وقوته في نفسه ، وضعف بصائرهم ، وعدم ثباتها للإيمان ، وهم يعرفون الحق ويتكلمون به ، فهم من قولهم على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر قاموا متحيرين ، والله على إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢١)

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢٢)

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود ، وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض مهداً كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسي الشامخات ، والسماء بناء محفوظاً كالسقف ، وأنزل لهم من السحاب ماء ، فأخرج لهم من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم ، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ، ولا يشرك به غيره .

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (٢٣)

﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٢٤)

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه ﴿ لا إله إلا الله ﴾ قائلاً : ﴿ وإن كنتم في ريب . . . ﴾ أي فإن زعمتم أن القرآن من عند غير الله فعارضوه بمثل ما جاء به ، واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله ، فإنكم لا تستطيعون ذلك ، وقد تحداهم في مكة والمدينة مرات عديدة ، مع شدة عداوتهم له ، وبغضهم لدينه ، ومع هذا عجزوا عن ذلك ، ولهذا قال : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار . . . ﴾ و﴿ لن ﴾ لنفي التأبيد في المستقبل ، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً ، وهذه معجزة أخرىٰ لأنه يبين أن القرآن لا يعارض أبد الآبدين ، ودهر الداهرين . و﴿ الوقود ﴾ ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب . و﴿ الحجارة ﴾ : هي هنا حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حراً إذا حميت . ﴿ أعدت ﴾ الحجارة ، أو النار .

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (٢٥)

لما ذكر الله تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال

عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدَّقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن بالمثاني على أصح أقوال العلماء ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبعه بذكر الكفر ، أو عكسه ، أو حال السعداء ، ثم الأشقياء ، أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابله ، وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه ، فلهذا قال تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا . . ﴾ فوصف الجنة بأنه تجري الأنهار من تحت أشجارها وغرفها ، وأن ثمارها تشبه ثمار الدنيا أو يشبه بعضها بعضاً في الشكل وتختلف في الطعم والمرأىٰ ، وأنهم لهم فيها أزواج مطهرة من القذر والأذىٰ ، ومن الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد ، ومن المأثم ، وأنهم مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع ، فهم في نعيم سرمدي أبدي على الدوام ، وهذا هو تمام السعادة ، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم ، إنه جواد كريم بر رحيم .

(٢٦) ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

(٢٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

قال المشركون : ما بال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله هذه الآية ، فالبعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل إذا امتلأوا من الدنيا أخذهم الله عند ذلك . فالله سبحانه لا يستنكف ، ولا يخشى أن يضرب مثلاً بأي شيء كان : صغيراً كان أو كبيراً . و﴿ ما ﴾ ههنا للتقليل . ﴿ فما فوقها ﴾ في الصغر والحقارة ، أو في الكبر . ﴿ يضل به كثيراً ﴾ من المنافقين . ﴿ ويهدي به كثيراً ﴾ من المؤمنين . ﴿ إلا الفاسقين ﴾ هم أهل النفاق والكفر . والفاسق هو الخارج عن الطاعة ، تقول العرب : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها ، والفاسق يشمل الكافر والعاصي ، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش .

والعهد : هو وصية الله إلى خلقه ، وأمره إياهم بما أمرهم من طاعته ، ونهيه عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به . وقوله تعالى : ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ قيل : المراد به صلة الأرحام والقرابات ،

وقيل : المراد أعم من ذلك ، فكل ما أمر الله بوصله وفعله ، فقطعوه وتركوه .
و ﴿ الخاسرون ﴾ هم الناقصون أنفسهم حظوظهم -بمعصيتهم الله- من رحمته كما يخسر الرجل في تجارته .

(٢٨) ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

كيف تجحدون وجود الله أو تعبدون غيره معه وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور ، ثم يبعثكم يوم القيامة ؟ .

(٢٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

الاستواء هنا مضمن معنى القصد والإقبال . ﴿ وهو بكل شيء عليم ﴾ أي علمه محيط بجميع ما خلق .

(٣٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا إخبار من الله بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم .
﴿ خليفة ﴾ قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل . ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ﴾ ليس هذا السؤال على وجه الاعتراض على الله ، ولا على وجه الحسد لبني آدم ، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك ، فهم يقولون : يا ربنا ، ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أي نصلي لك ، ولا يصدر منا شيء من الفساد في الأرض وسفك الدماء ، فأجابهم الله بقوله : ﴿ إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها ما لا تعلمون أنتم ، فإني سأجعل فيهم الأنبياء ، وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعبَّاد والزهاد ، والأولياء والأبرار ، والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله عليهم .

(٣١) ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

(٣٢) ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(٣٣) ﴿ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له . فعلمه اسم كل شيء ، وجعل يسمي كل شيء باسمه ، وعرضت عليه أمة أمة . . ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أني لم أخلق خلقاً إلا كنتم أعلم منه . كان الذي أبدوه هو قولهم : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » ، وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم : « لن يخلق ربنا خلقاً إلا كنا أعلم منه وأكرم » .

(٣٤) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم ، امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم . وهل إبليس من الملائكة أو من الجن ؟ رأيان ، لكل أدلته . وهل كان هذا السجود سجود تحية وسلام وإكرام لآدم ، أم كان السجود لله ، وآدم قبلة فيه ، رأيان ، والأول أولى .

(٣٥) ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(٣٦) ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

أباح الله الجنة لآدم يسكن منها حيث يشاء ، ويأكل منها ما شاء رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً . وقد اختلف في الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها ، هل هي الكرمة أو الحنطة ، أو النخلة ، أو التينة ، والصواب أنها شجرة بعينها ، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين ، إذ لا دليل من القرآن ولا من السنة على تعيينها . ﴿ مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أي قرار وأرزاق وآجال إلى وقت ومقدار معين ، ثم تقوم القيامة .

(٣٧) ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قيل : إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ وقيل : غير ذلك . ﴿ إنه هو التواب الرحيم ﴾ إنه يتوب على من تاب إليه وأناب .

(٣٨) ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

الهدى : الأنبياء والرسل ، والبينات والبيان ، أو هو محمد ﷺ ، أو القرآن ، وهذان القولان صحيحان ، والأول أعم . ﴿ فمن تبع هداي ﴾ فمن أقبل على ما أُنزلت به الكتب ، وأرسلت به الرسل ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا .

(٣٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

أي مخلدون فيها ، لا محيد لهم عنها ولا محيص . وفي الحديث : « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة »

(٤٠) ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾

يقول الله آمراً بني إسرائيل بالدخول في الإسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام . ومهيجاً لهم بذكر أبيهم اسرائيل ، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره يا بني العبد الصالح المطيع لله ، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق ، كما تقول : يا ابن الكريم افعل كذا ، يا ابن الشجاع بارز الأبطال ، يا ابن العالم اطلب العلم . واسرائيل : هو يعقوب . ونعمة الله التي أنعم بها عليهم أن فجر لهم الحجر ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، ونجاهم من عبودية آل فرعون ، وجعل منهم الأنبياء والرسل ، وأنزل عليهم الكتب . وعهدُ الله الذي يجب عليهم الوفاء به تصديق النبي محمد ﷺ واتباعه فيما جاء به ، والعهد الذي أخذ سبحانه على نفسه أن يفي به هو وضع ما كان عليهم من الآصار والأغلال التي كانت في أعناقهم بذنوبهم ، أو هو رضاه عنهم ، وإدخالهم الجنة . ﴿ فارهبون ﴾ فاخشون .

(٤١) ﴿ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾

يقول الله : يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم، لأنهم يجدون محمداً مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . ﴿ ولا تكونوا أول كافر به﴾ أول فريق كافر به ، وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم . ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ﴾ ولا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها ، فإنها قليلة فانية ، والدنيا بحذافيرها ثمن قليل .

(٤٢) ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

نهاهم سبحانه عن الشيئين معاً : تلبيس الحق بالباطل ، وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل ، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به ، قال قتادة : ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإسلام ، وأنتم تعلمون أن دين الله الإسلام ، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله .

(٤٣) ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾

أمر أهل الكتاب أن يصلوا ، وأن يؤتوا الزكاة إلى النبي ﷺ ، وأن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ، ويقول : كونوا معهم ومنهم . والزكاة فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة .

(٤٤) ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى : كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب ـ وأنتم تأمرون الناس بالبر ، وهو جماع الخير ـ أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ، ﴿ أفلا تعقلون ﴾ ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتتنبهوا من رقدتكم ، وتتبصروا من عمايتكم .

(٤٥) ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾

استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة ، والصبر صبران : صبر عند المصيبة حسن ، وأحسن منه الصبر عن محارم الله ، وقيل : الصبر الصوم ، وفي الحديث : « الصوم نصف الصبر » ، والصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر . وعن حذيفة « كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى » . ﴿ وإنها لكبيرة ﴾ وإن الصلاة لثقيلة ﴿ إلا على الخاشعين ﴾ الخائفين ، أو الخاضعين لطاعته ، الخائفين سطوته ، المصدقين بوعده ووعيده .

(٤٦) ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

هذا من تمام الكلام الذي قبله ، أي أن الصلاة لثقيلة إلا على الذين يعلمون أنهم محشورون إلى الله يوم القيامة ، معروضون عليه ، وأن أمورهم راجعة إلى مشيئته ، يحكم فيها ما يشاء بعدله .

(٤٧) ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يذكرهم الله تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم ، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم ، وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى : ﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ وتفضيلهم هو بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان ، فإن لكل زمان عالماً .

(٤٨) ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

لما ذكرهم الله تعالى بنعمه أولاً عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة ، فإنه لا يغني فيه أحد عن أحد كما قال سبحانه : ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرىٰ ﴾ ولا يقبل فيه شفاعة من الكافرين ، كما قال سبحانه ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ ولا يؤخذ من نفس فيه فداء ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ ولا أحد يغضب للكافرين فينصرهم ، وينقذهم من عذاب الله ، كما قال تعالى : ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ .

(٤٩) ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

﴿يسومونكم﴾ : يولونكم ، أو يديمون عذابكم . ﴿وفرعون﴾ علم على كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم ، والبلاء هنا النعمة ، قال ابن جرير : وفي الذي فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك .

(٥٠) ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

بعد أن خلصناكم من آل فرعون ، وخرجتم مع موسى خرج فرعون في طلبكم ، ففرقنا

بكم البحر وخلصناكم منهم ، وحجزنا بينكم وبينهم ، وأغرقناهم ، وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم ، وأبلغ في إهانة عدوكم .

(٥١) ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

(٥٢) ﴿ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(٥٣) ﴿ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفوي فيكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة ، وكانت أربعين يوماً ، ونعمتي عليكم إذ آتيت موسى التوراة ، والفرقان ، وهو ما يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلالة ، لعلكم تهتدون ، وكان ذلك بعد خروجهم من البحر .

(٥٤) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل . ﴿ إلى بارئكم ﴾ إلى خالقكم ، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره . وتوبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد وولد ، فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل ، فغفر الله للقاتل والمقتول .

(٥٥) ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(٥٦) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتي جهرة عياناً مما لا يستطاع لكم، ولأمثالكم. ﴿جهرة﴾: علانية. عن الربيع: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا. ، أو الصاعقة: ضجة من السماء ، أو نار . ﴿ وأنتم تنظرون ﴾ صُعِق بعضهم ، وبعض ينظرون ، ثم بعث هؤلاء ، وصُعق هؤلاء ، ثم بعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم بعد أن بكى موسى ، ودعا الله وقال: ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكتَ خيارهم؟ ﴿لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ وقيل : لما رجع موسى من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون

العجل : فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم ، فقال : إن هذه الألواح فيها كتاب الله ، فيه أمركم الذي أمركم به ، ونهيكم الذي نهاكم عنه ، فقالوا : ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة ، حتى يطلع الله علينا ، فيقول : هذا كتابي فخذوه ، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى ، قال : فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون ، قال : ثم أحياهم من بعد موتهم ، فقال لهم موسى : خذوا كتاب الله ، فقالوا : لا ، فقال : أي شيء أصابكم ؟ فقالوا : أصابنا أننا متنا ثم أحيينا ، قال : خذوا كتاب الله ، قالوا : لا ، فبعث الله ملائكة ، فنتقت الجبل فوقهم .

(٥٧) ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

لما ذكر الله ما دفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم بما أسبغ عليهم من النعم . ﴿ الغمام ﴾ جمع غمامة سمي بذلك لأنه يغم السماء ، أي يواريها ويسترها ، وهو السحاب الأبيض ، ظللوا به في التيه ليقيهم حر الشمس . والظاهر أن ﴿ المن ﴾ كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد . وقيل : كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ما شاؤوا . ﴿ والسلوى ﴾ طائر يشبه السماني . ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ أمر إباحة وإرشاد وامتنان . ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم ، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات .

(٥٨) ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(٥٩) ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

يقول تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام ، فأمروا بدخول الأرض المقدسة وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله في التيه عقوبة لهم .

وأصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس ، وقيل : هي أريحاء . ﴿ سجداً ﴾ أي ركعاً . ﴿ حطة ﴾ مغفرة ، استغفروا . فدخلوا يزحفون على أستاههم ، فبدلوا وقالوا : حبة في شعرة . ﴿ رجزاً ﴾ عن ابن عباس : كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب .

(٦٠) ﴿ * وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم ، وتيسيري لكم الماء ، وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم ، وتفجيري الماء لكم منه من ثنتي عشرة عيناً ، لكل سبط من أسباطكم عين ، قد عرفوها ، فكلوا من المن والسلوى ، واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد ، واعبدوا الذي سخر لكم ذلك ، ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها . ﴿ الحجر ﴾ هو حجر بعينه كان يحمله موسى ، فتكون اللام للعهد ، وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه ، قال : وهذا أظهر في المعجزة ، وأبين في القدرة ، فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ، ثم يضربه فييبس .

(٦١) ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في إنزالي عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً ، واذكروا ضجركم مما رزقناكم ، وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة من البقول ونحوها مما سألتم ، قال الحسن البصري : فبطروا ذلك ، فلم يصبروا عليه ، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه ، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقل وثوم . ﴿ على طعام واحد ﴾ إنما سمي واحداً وهم يأكلون المن والسلوى ، لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم ، فهو مأكل واحد . ﴿ وفومها ﴾ هوالثوم ، أو هو الحنطة . ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعاً وقدراً ، أي لا يزالون مستذلين ، من

وجدهم استذلهم ، وأهانهم ، وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون . ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ وجعلوا متصرفين متحملين غضب الله . والعصيان : فعل المناهي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه ، والمأمور به .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾

لما بين الله تعالى حال من خالف أوامره ، وارتكب زواجره ، وتعدى في فعل ما لا إذن فيه ، وانتهك المحارم ، وما أحل بهم من النكال نبه تعالى على من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فإن له جزاء الحسنى ، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة ، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه . واليهود من الهوادة وهي المودة ، أو التهود ، وهي التوبة ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي تبنا ، فكأنهم سموا بذلك لتوبتهم ومودتهم في بعضهم لبعض . ﴿ والنصارى ﴾ سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم ، وقد يقال لهم أنصاراً أيضاً كما قال عيسى عليه السلام : ﴿ من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله ﴾ والنصارى جمع نصران كنشاوى جمع نشوان ، وسكارى جمع سكران ، ويقال للمرأة : نصرانة. ﴿ والصابئين ﴾ هم قوم بين المجوس واليهود والنصارى ، ليس لهم دين ، أو هم فرقة من أهل الكتاب يقرؤون الزبور ، أو هم يعبدون الملائكة . ولما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين ورسولاً إلى بني آدم على الإطلاق وجب على الناس جميعاً تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر ، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ﴿٦٣﴾

يقول الله تعالى مذكرا بني إسرائيل ماأخذه عليهم من العهود والمواثيق بالإيمان به وحده لا شريك له واتباع رسله ، وأخبر أنه لما أخذ الميثاق رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ، ويأخذوه بقوة وجزم وامتثال . ﴿ الطور ﴾ هو الجبل ، كما فسره به في الأعراف : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ أي خذوا التوراة واعملوا بما فيها . وقوله تعالى ﴿ واذكروا ما فيه ﴾ أي اقرؤوا ما في التوراة واعملوا به .

﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ﴿٦٤﴾

ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه ﴿ فلولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ أي بتوبته عليكم ، وإرساله النبيين والمرسلين إليكم ﴿ لكنتم من الخاسرين ﴾ بنقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة .

(٦٥) ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ ولقد علمتم ﴾ يا معشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله ، وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت ، فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأناس في الشكل الظاهر ، وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء ، وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم .

(٦٦) ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى : فجعلنا العقوبة التي حلت بهذه القرية وأهلها عبرة لما حولها من القرى ليعتبر من في زمانهم ، ولتكون موعظة لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة . وفي الحديث : (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل) .

(٦٧) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

يقول الله تعالى : واذكروا با بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة ، وبيان القاتل من هو بسببها ؟ وإحياء المقتول ، ونصه على من قتله منهم .

(٦٨) ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾

أخبر تعالى عن تعنت بني إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ، ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ، ولو ذبحوا أي بقرة لوقعت الموقع عنهم ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم . ﴿ ما هي ﴾ أي ما هذه البقرة ، وما هي صفتها ؟ ﴿ لا فارض ولا بكر ﴾ أي لا كبيرة

هرمة ، ولا صغيرة لم يلحقها الفحل . ﴿ عوان بين ذلك ﴾ يقول : نصف بين الكبيرة والصغيرة ، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر ، وأحسن ما تكون .

(٦٩) ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾

﴿ فاقع لونها ﴾ قيل : تكاد تسوّد من صفرتها ، وقيل : صافية اللون ، وقيل : شديدة الصفرة ، تكاد من صفرتها تبيض . ﴿ تسر الناظرين ﴾ أي تعجب الناظرين .

(٧٠) ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴾

﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ أي تشابه البقر علينا لكثرته ، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا . وفي الحديث : (لولا أن بني إسرائيل قالوا ﴿ إن شاء الله لمهتدون ﴾ لما أعطوا ولكن استثنوا) .

(٧١) ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾

أي إنها ليست مذللة بالحراثة ، ولا معدة للسقي في الساقية ، بل هي مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها ﴿ لا شية فيها ﴾ أي ليس فيها لون غير لونها .

(٧٢) ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

﴿ فادارأتم فيها ﴾ قال بعضهم : أنتم قتلتموه ، وقال آخرون : بل أنتم قتلتموه . ﴿ ما كنتم تكتمون ﴾ ما كنتم تغيبون .

(٧٣) ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ببعضها ﴾ هذا البعض أي شيء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به ، وخرق العادة به كائن ، ولم يجىء من طريق صحيح عن معصوم بيان هذا العضو فنحن نبهمه كما أبهمه الله ، ولو كان في تعيينه لنا فائدة ، تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى ، ولكنه أبهمه .

(٧٤) ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ

مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعاً لهم على ما شاهدوه من آيات الله وإحيائه الموتى ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك ﴾ فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها ، أو أشد قسوة من الحجارة ، فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن لم يكن جارياً ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال سبحانه : ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

وخلاصة قصة القتيل والبقرة أنه كان رجل من بني إسرائيل عقيماً ، لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه فقتله ، ثم حمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض ، فقال ذوو الرأي منهم والنهي ؛ علام يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله نبيكم ، فأتوا موسى فذكروا له ذلك ، فأمروا أن يذبحوا بقرة ، ولو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها . فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهباً ، فأخذوها بملء جلدها ذهباً ، فذبحوها فضربوه ببعضها ، فقام فقالوا : من قتـلك ، فقال : هذا - لابن أخيه - ، ثم مال ميتاً فلم يعط من ماله شيئاً .

(٧٥) ﴿ * أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أفتطعمون ﴾ أيها المؤمنون أن ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ، وتأولوا كلام الله على تأويله من بعد ما فهموه على الجلية ، ومع ذلك يخالفونه على بصيرة ، وهم يعلمون أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله .

(٧٦) ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ﴾ أن صاحبكم رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا ﴾ : لا تحدثوا العرب بهذا ، فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم ، فكان منهم ، وأنتم تقرون بأنه نبي ، وقد علمتم أنه أخذله الميثاق عليكم باتباعه ، وأنه النبي الذي كنتم تنتظرون ، وتجدون في كتابكم .

(٧٧) ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

قال أبو العالية : يعني ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ ، وتكذيبهم به ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم .

(٧٨) ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

يقول تعالى : ومن أهل الكتاب من لا يحسنون الكتابة ، فلا يدرون من التوراة إلا ظنوناً ليست في كتاب الله ، أو إلا أماني يتمنونها ، فهم لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله على موسى شيئاً ، ولكنهم يتخرصون الكذب ، ويتخرصون الأباطيل كذباً وزوراً .

﴿ أميون ﴾ جمع أمي ، وهو من لا يحسن الكتابة .

(٧٩) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

هؤلاء صنف آخر من اليهود ، وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله ، وأكل أموال الناس بالباطل ، فقد حرفوا التوراة وزادوا فيها ما أحبوا ومحوا منها ما يكرهون ، ومحوا اسم محمد ﷺ من التوراة . والويل : جبل من النار .

(٨٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول الله تعالى إخبار عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ثم ينجون منها ، فرد الله عليهم ذلك بأنه إن وقع عهد فهو لا يخلف عهده ، ولكنه لم يكن عهد ، واليهود يتقولون على الله الكذب والافتراء . ﴿ إلا أياماً معدودة ﴾ إلا أربعين ليلة ، وهي مدة عبادتهم العجل .

﴿٨١﴾ ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾
﴿٨٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالىٰ : ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون ، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته، وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة ، بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار . والذين آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة . وفي الحديث : « إياكم ومحقرات الذنوب ، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » .

﴿٨٣﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يُذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك ، وأنهم تولوا عن ذلك كله ، وأعرضوا قصداً وعمداً ، وهم يعرفونه ويذكرونه ، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وبهذا أمر جميع خلقه ، ولذلك خلقهم ، وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالىٰ أن يعبد وحده لا شريك له ، ثم بعده حق المخلوقين، وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالىٰ : ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قلت : يا رسول الله ، أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي « قال بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال : يا رسول الله ، من أبر ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أباك » ثم أدناك ، ثم أدناك » ﴿ واليتامى ﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء ﴿ والمساكين ﴾ الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم . ﴿ وقولوا للناس حسناً ﴾ أي كلموهم طيباً ، ولينوا لهم جانباً ، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف ، ثم أكد الأمر بعبادته والاحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ ﴿٨٤﴾

يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة ، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج ، وهم الأنصار ، كانوا في الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير حلفاء الخزرج ، وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحروب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه ، فيقتل اليهودي أعداءه ، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم في دينهم ، ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة ، والميثاق الذي أخذ الله عليهم أن لا يقتل بعضهم بعضاً ، ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه ، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة ﴿ ثم أقررتم وأنتم تشهدون ﴾ أي ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به .

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٨٥﴾

كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون في حرب بينهم فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءهم . وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفائها ويغلبونهم فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم ، وحرم علينا قتالهم ، قالوا فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى . فقال تعالى :

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿٨٦﴾

أولئك الذين استحبوا الحياة الدنيا واختاروها على الآخرة ، فلا يُفتَّر عنهم العذاب ساعة واحدة وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ، ولا يجيرهم منه أحد .

(٨٧) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء ، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم ، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب ، وهو التوراة ، فحرفوها وبدلوها ، وخالفوا أوامرها وبدلوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته ، حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم ، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ، ولهذا أعطاه الله من البينات ـ وهي المعجزات ـ من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وإبراء الأسقام ، وإخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس ـ وهو جبريل عليه السلام ـ ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له ، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى ﴿ ولأُحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ، ففريقاً يكذبونه ، وفريقاً يقتلونه ، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم ، وآرائهم ، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم ، فكذبوهم ، وربما قتلوا بعضهم . وإنما قال سبحانه : ﴿ وفريقاً تقتلون ﴾ ولم يقل : وفريقاً قتلتم ، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً ، لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر ، وقد قال عليه السلام في مرض موته : « ما زالت أكلة خيبر تعاودني ، فهذا أوان انقطاع أبهري » .

(٨٨) ﴿ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قلوبنا غلف ﴾ أي في أكنة ، فلا تفقه ولا تعي ، أو قلوبنا أوعية لكل علم فلا تحتاج إلى علمك . ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ فقليل من يؤمن منهم ، أو فقليل إيمانهم . وقال بعضهم : إنما كانوا غير مؤمنين بشيء ، وإنما قال : ﴿ فقليلاً ما يؤمنون ﴾ وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب : قلما رأيت مثل هذا قط » وقال الكسائي : تقول العرب : « من زنى بأرض قلما تنبت » أي لا تنبت شيئاً .

(٨٩) ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى : ولما جاء اليهود كتاب من عند الله ـ وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ـ مصدق للتوراة التي معهم ، وكانوا قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم ، يقولون : إنه سيبعث نبي في آخر الزمان ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ من قريش كفروا به . فقال لهم معاذ بن جبل ، وبشر بن البراء بن مرور ، وداود بن مسلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ، ونحن أهل الشرك ، وتخبروننا بأنه مبعوث ، وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم . ﴿ على الكافرين ﴾ هم اليهود .

(٩٠) ﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

يقول : بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه ومؤازرته ونصرته . وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكراهية لـ ﴿ أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ﴾ ولا حسد أعظم من هذا ، فاستوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب . قال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ، ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن . ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ لما كان كفرهم سببه البغي والحسد . ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالاهانة والصغار في الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . وفي الحديث عن النبي ﷺ قال : « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ، يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجناً في جهنم ، يقال له : « بولس » تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » .

(٩١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب آمنوا بما أنزل الله على محمد ﷺ

وصدقوه واتبعوه ، قالوا : يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والانجيل ، ولا نقر إلا بذلك ، ويكفرون بما بعده وهو الحق مصدقاً لما معهم ، وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ هو الحق مصدقاً لما معهم من التوراة والانجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك ، فإن كنتم صادقين يا معشر يهود في دعواكم الإيمان بما أنزل إليكم ، فلم قتلتم الأنبياء الذين جاؤوكم بتصديق التوراة التي بأيديكم ، والحكم بها ، وعدم نسخها ، وأنتم تعلمون صدقهم ، قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله ، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهي .

(٩٢) ﴿ * وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

ولقد جاءكم موسى بالآيات الواضحات ، والدلائل القاطعات على أنه رسول الله ، وأنه لا إله إلا الله ، ثم اتخذتم العجل معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل ، كما قال تعالى ﴿ واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسدا له خوار ﴾ ولقد كنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل ، وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله . والآيات البينات : هي الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم ، والعصا ، واليد ، وفلق البحر ، وتظليلهم بالغمام ، والمن والسلوىٰ ، والحجر ، وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها . ﴿ من بعده ﴾ من بعد ما ذهب إلى الطور .

(٩٣) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق ، وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ، ثم خالفوه ، وأشربوا حب العجل حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وفي الحديث : « حبك الشيء يعمي ويصم» قل : بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء ، ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد ﷺ ، وهذا أكبر ذنوبكم ، وأشد الأمور عليكم ، إذ كفرتم بخاتم الرسل ، وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل من دون الله .

(٩٤) ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

أي أُدعوا بالموت على أي الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ .

(٩٥) ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

ولو تمنوه يوم قال لهم ما بقي على الأرض يهودي إلا مات ، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال : « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً » .

(٩٦) ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

ولتجدنهم أحرص الناس على طول العمر لمايعلمون من مآلهم السيء ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة ، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم ، وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة ، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم ، فلو استطاع أحدهم أن يعيش في الدنيا ألف عام لفعل حتى يبعد عنه عذاب الله ، ولكن عذاب الله واقع به ، ولن ينجيه من العذاب أن يعيش أمداً طويلاً . والمشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة ، واليهودي لو عرف ما له في الآخرة من الخزي ما ضيع ما عنده من العلم .

(٩٧) ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل ، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم ، وأن ميكائيل ولي لهم . وتفسير الآية أن من عادىٰ جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين ، الذي نزل بالذكر الحكيم ، على قلبك من الله بإذنه له في ذلك ، فهو رسول من رسل الله ملكي ، ومن عادى رسولاً فقد عادى جميع الرسل ، كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل ، وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل ، وفي الحديث « من عادى لي ولياً فقد بارزني بالحرب » ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه . وقوله تعالى ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب

المتقدمة ﴿ وهدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي هدى لقلوبهم ، وبشرى لهم بالجنة ، وليس ذلك إلا للمؤمنين .

(٩٨) ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَـٰفِرِينَ ﴾

يقول الله تعالى : من عاداني وملائكتي ورسلي وجبريل وميكائيل ﴿ فإن الله عدو للكافرين ﴾ وفي الحديث « من عادى ولياً لله فقد عادى الله ، ومن عادى الله فإن الله عدو له ، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة » . وفي الحديث الآخر « إني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث في الحرب » وفي الحديث الصحيح « من كنت خصمه خصمته » . ورسل الله تشمل رسله من الملائكة والبشر ﴿ الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس ﴾ .

(٩٩) ﴿ وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَـٰتِۭ بَيِّنَـٰتٍۖ وَمَا يَكۡفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلۡفَـٰسِقُونَ ﴾

أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك ، وتلك الآيات هي ما طواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود ، وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التي لم يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم ، وما حرفه أوائلهم وأواخرهم ، وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة ، وكان من فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصديق ما جاء به محمد ﷺ لأنه يخبرهم بما في أيديهم على وجهه وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ومع ذلك قالوا له حسداً وبغياً : ما جئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية مبينة فنتبعك ، وذلك ولا شك خروج عن دواعي الفطرة الصحيحة ﴿ وما يكفر بها إلا الفاسقون ﴾ .

(١٠٠) ﴿ أَوَكُلَّمَا عَـٰهَدُواْ عَهۡدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾

﴿ نبذه فريق منهم ﴾ أي نقضه . فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التي تقدم الله إليهم بالتمسك بها ، والقيام بحقها .

(١٠١) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٌ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ أي تركوها فإنهم لا يعلمون ما فيها ، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله وسحروه ، فأطلع الله نبيه على ذلك وشفاه منه .

﴿١٠٢﴾ ﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذي بأيديهم ، ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين في ملك سليمان من السحر ، وما كفر سليمان ، وما أنزل الله السحر على الملكين ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، لأن سحرة اليهود كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود ، فأكذبهم الله بذلك ، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر ، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين ، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان ، اسم أحدهما هاروت ، واسم الآخر ماروت ، فإذا أتاهما الآتي يريد السحر نهياه أشد النهي ، وقالا له : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر ما يتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع ما بينهما من الخلطة والائتلاف ، وهذا من صنيع الشياطين ، وما هم بضارين به من أحد إلا بقضاء الله ، فمن شاء الله سلطهم عليه ، ومن لم يشأ لم يسلطهم عليه ، ويتعلمون ما يضرهم في دينهم ، وليس له نفع يوازي ضرره ، ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول ﷺ لمن فعل فعلهم ذلك أنه ماله في الآخرة من نصيب ، ولبئس البديل ما استبدلوا من السحر عوضاً عن الإيمان ومتابعة الرسول ﷺ لو كان لهم علم بما وعظوا به .

﴿١٠٣﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

ولو أنهم آمنوا بالله ورسله ، واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ، ورضوا به ﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ .

تنبيه : تفصيل قصة هاروت وماروت راجع إلى أخبار بني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الاسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالىٰ ، والله أعلم بحقيقة الحال .

(١٠٤) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

نهى الله عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقيص ـ عليهم لعائن الله ـ فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا يقولوا : راعنا ، ويورون بالرعونة . والغرض أن الله تعالىٰ نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولاً وفعلاً .

(١٠٥) ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

يبين الله تعالىٰ شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله من مشابهتهم للمؤمنين ، ليقطع المودة بينهم وبينهم ، ونبه تعالىٰ على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيه محمد ﷺ حيث يقول : ﴿ والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

(١٠٦) ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ما ننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره ، وذلك أن نحول الحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، والمباح محظوراً ، والمحظور مباحاً ، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق ، والمنع والإباحة ، فأما الأخبار فلا يكون منها ناسخ ولا منسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب ، وهو نقله من نسخة أخرىٰ إلى غيرها ، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ، ونقل عبارة إلى غيرها ، وسواء نسخ حكمها أو خطها ، إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل ، وعكسه ، والنسخ لا إلى بدل .

(١٠٧) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، فله الخلق والأمر ، وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ، يسعد من يشاء ، ويشقي من يشاء ، ويصح من يشاء ، ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ، ويحرم ما يشاء ، ويبيح ما يشاء ، ويحظر ما يشاء ، وهو الذي يحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ ، فيأمر بالنسخ لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره ، واتباع رسله في تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ما عنه زجروا ، وفي هذا المقام رد عظيم ، وبيان بليغ لكفر اليهود ، وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً ، وإما نقلاً كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكاً .

(١٠٨) ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها ، والمراد أن الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعنت والاقتراح ، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً ، ومن يشتر الكفر بالإيمان فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال ، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنت والكفر . في الصحيحين « إن أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته » وفي صحيح مسلم « ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان من قبلكم بكثرة سؤالهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه» وفي الصحيحين « كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال » .

(١٠٩) ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلمهم بعداوتهم لهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم

وفضل نبيهم ، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو ، أو الاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح .

(١١٠) ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ويحثهم تعالىٰ علىٰ الاشتغال بما ينفعهم ، وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة حتى يمكن الله لهم النصر في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ فهم مهما فعلوا من خير أو شر سراً وعلانية فهو به بصير ، لا يخفى عليه منه شيء ، فيجزيهم بالإحسان خيراً ، وبالإساءة مثلها ، وهذا الكلام ، وإن كان قد خرج مخرج الخبر فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وزجراً ، وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدّوا في طاعته ، إذ كان ذلك مذخوراً لهم عنده حتى يثيبهم عليه ، وليحذروا معصيته .

(١١١) ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه ، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة أنهم قالوا ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ فأكذبهم الله تعالىٰ بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ، ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك ، وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة ، ثم ينتقلون إلى الجنة ، ويرد عليهم تعالى في ذلك ، وهكذا قال لهم في هذه الدعوى التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال ﴿ تلك أمانيهم ﴾ أي أمانيّ تمنوها على الله بغير حق ﴿ قل هاتوا ﴾ حجتكم على ذلك ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ فيما تدعونه .

(١١٢) ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أي من أخلص دينه لله ، واتبع فيه الرسول ﷺ فإن الله ضمن لهم على ذلك تحصيل الأجور ، وآمنهم مما يخافون من المحذور فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه ، ولا هم يحزنون على ما مضى مما يتركونه . وللعمل المتقبل شرطان : أحدهما أن يكون خالصاً

لله وحده ، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » فعمل الرهبان ومن شابههم ، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله ، فإنه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعاً للرسول عليه الصلاة والسلام ، المبعوث إليهم ، وإلى الناس كافة ، وفيهم وفي أمثالهم قال الله تعالى : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ وقال : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ﴾ وقال : ﴿ وجوه يومئذٍ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية ﴾ وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه تأولها في الرهبان ، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرة ، ولكن لم يخلص عامله القصد لله ، فهو أيضاً مردود على فاعله ، وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤ ون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ وكما قال في هذه الآية : ﴿ بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ﴾ .

(١١٣) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

بين الله تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاندهم وتعاديهم ، وأن كل طائفة تكفر الأخرىٰ وهم يعلمون أن كلاً من شريعة التوراة والانجيل كانت مشروعة في وقت ، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً ، ومقابلة الفاسد للفاسد ، والذين لا يعلمون من اليهود والنصارى قالوا مثل قولهم ، والذين لا يعلمون من العرب قالوا : ليس محمد على شيء ، فالله يجمع بينهم يوم المعاد ، ويفصل بينهم بقضائه العدل الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة .

(١١٤) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قيل : هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ، ويمنعون الناس أن يصلوا فيه ، وقيل : هم المشركون وهو الظاهر فقد حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذي طوى وهادنهم ﴿ وسعى في

خرابها﴾ إذ قطعوا من يعمرها بذكره، ويأتيها للحج والعمرة. أقول: ولا مانع من أن تبقى الآية على عمومها فتشمل من فعل ذلك إلى يومنا هذا، وإلى ما بعده. ﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين﴾ أي لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية. والجزاءُ من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صُدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها، ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنوه من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، وغير ذلك من أفاعيلهم التي يكرهها الله ورسوله، وكذلك الذين خربوا بيت المقدس فإنهم بعد الإسلام صاروا يدخلون بيت المقدس خائفين بأداء الجزية.

(١١٥) ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم، ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ يصلي بمكة إلى بيت المقدس والكعبةُ بين يديه، فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ثم صرفه الله إلى الكعبة، فارتاب من ذلك اليهود وقالوا: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ فأنزل الله ﴿قل لله المشرق والمغرب﴾ وقال: ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾. وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله إذناً من الله أن يصلي المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب في مسيره في سفره، وفي حال المسابقة، وشدة الخوف، عن ابن عمر أنه كان يصلي حيث توجهت به راحلته، ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ويتأول هذه الآية.

(١١٦) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

(١١٧) ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

اشتملت هذه الآية والتي تليها على الرد على النصارىٰ عليهم لعائن الله، وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب ممن جعل الملائكة بنات الله، فأكذب الله جميعهم في دعواهم، وفي قولهم: إن لله ولداً، فقال تعالىٰ: ﴿سبحانه﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بل له ما في السمٰوات والأرض﴾ أي ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السمٰوات والأرض ومن فيهن، وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم ورازقهم، ومقدرهم ومسخرهم، ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء، والجميع عبيد له وملك

له ، فكيف يكون له ولد منهم ، والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ كما قال تعالىٰ : ﴿ بديع السموٰات والأرض . . . ﴾ أي خالقهما على غير مثال سبق .
﴿ قانتون ﴾ مصلون ، ومطيعون .

(١١٨) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول ، فقل لله ، فيكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ يكلمنا الله ﴾ يخاطبنا بنبوتك . ﴿ قال الذين من قبلهم ﴾ هم اليهود والنصارى . والذين طلبوا من رسول الله ﷺ ذلك هم كفار العرب ، لقوله تعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ .

(١١٩) ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴾

﴿ بشيراً ﴾ بالجنة . ﴿ ونذيراً ﴾ من النار . ﴿ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ﴾ أي لا نسألك عن كفرمن كفر بك .

(١٢٠) ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

وليست اليهود يا محمد ولا النصارىٰ براضية عنك أبداً ، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم ، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما بعثك الله به من الحق ، وقل لهم : إن هدى الله الذي بعثني به هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل ، ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم . . . ﴾ فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعدما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك ، فإن الخطاب للرسول والأمر لأمته .

(١٢١) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

هم اليهود والنصارى ، أو هم أصحاب رسول الله ﷺ ، قال ابن مسعود : والذي نفسي بيده ، إن حق تلاوته أن يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويقرأه كما أنزله الله ، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ، ولا يتأول منه شيئاً غير تأويله . ﴿ ومن يكفر به . . ﴾ في الصحيح « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ! يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا من دخل النار » .

(١٢٢) ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(١٢٣) ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة «الآية ٤٧، ٤٨» وكررت ها هنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته ونعته واسمه وأمره وأمته ، فحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم ، وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ، ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولايحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته . صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

(١٢٤) ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها، وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي اختباره له بما كلفه من الأوامر والنواهي ﴿ فأتمهن ﴾ أي قام بهن كلهن ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ وقيل في تعيين « الكلمات » التي ابتلي بها إبراهيم إنها المناسك ، وقيل : إنها قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء ، وقيل : الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في « براءة » ﴿ التائبون العابدون . . ﴾ إلى آخر الآية ، وعشر آيات في أول سورة ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ و ﴿ سأل سائل بعذاب واقع ﴾ وعشر آيات في الأحزاب ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ إلى آخر الآية ، فأتمهن كلهن فكتبت له براءة . وابتلاه بذبح ولده وبالنار ، وبالكوكب والشمس والقمر فوجده صابراً . ﴿ قال ومن ذريتي . . ﴾ لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك ،

وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون ، وأنه لا ينالهم عهد الله ، ولا يكونون أئمة ، فلا يقتدى بهم .

(١٢٥) ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾

يذكر الله تعالى شرف البيت ، وما جعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه ﴿ مثابة للناس ﴾ أي جعله محلاً تشتاق إليه الأرواح ، وتحن إليه ، ولا تقضي فيه وطراً ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام في قوله : ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ إلى أن قال : ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ ويصفه تعالىٰ بأنه جعله أمناً ، من دخله أمن ، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً . ومقام إبراهيم هو الحرم كله ، أو هو الحج كله ، أو هو الحجر الذي كان يقوم عليه إبراهيم ، ويناوله إسماعيل الحجارة ، وفي الحديث « لما طاف النبي ﷺ قال له عمر : هذا مقام أبينا ؟ قال : نعم ، قال : أفلا نتخذه مصلى ؟ فأنزل الله ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ﴾ وقد أمر الله إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا البيت من الأذى والنجس ومن الأوثان والرفث وقول الزور والرجس ﴿ والعاكفين ﴾ المقيمين فيه .

(١٢٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

عن أبي هريرة قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال : « اللهم بارك لنا في ثمرنا ، وبارك لنا في مدينتنا ، وبارك لنا في صاعنا ، وبارك لنا في مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإني عبدك ونبيك ، وإنه دعاك لمكة ، وإني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ، ومثله معه » ثم يدعو أصغر وليد صح فيعطيه ذلك الثمر . ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلاً . . . ﴾ ومن كفر فأرزقه رزقاً قليلاً أيضاً ، ثم ألجئه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير ، فالله سبحانه ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(١٢٧) ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ القواعد ﴾ جمع قاعدة ، وهي السارية والأساس . يقول تعالىٰ : واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ، ورفعهما القواعد منه ، وهما يقولان : ﴿ ربنا تقبل منا . . ﴾ .

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٢٨﴾

فهما في عمل صالح ، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما ، إذ يشفقان أن لا يتقبل منهما ، كما حكى الله عن حال المؤمنين الخلص في قوله ﴿ والذين يؤتون ما آتوا ﴾ أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ أي خائفة أنْ لا يتقبل منهم . في الحديث « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ـ أو قال بكفر ـ لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ، ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحِجْر » ﴿ وأرنا مناسكنا ﴾ أخرجها لنا ، وعلمناها ، قال مجاهد : فأتاه جبريل ، فأتى به البيت ، فقال : ارفع القواعد فرفع القواعد ، وأتم البنيان ، ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا ، قال : هذا من شعائر الله ، ثم انطلق به إلى المروة فقال : وهذا من شعائر الله ، ثم انطلق به نحو منى » . فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال : كبر وارمه فكبر ورماه ، ثم انطلق إبليس فقام عند الحجرة الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له : كبر وارمه فكبر ورماه ، فذهب الخبيث إبليس ، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً فلم يستطع ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام ، فقال : هذا المشعر الحرام ، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات ، قال : قد عرفت ما أريتك ؟ قالها ثلاث مرات ، قال : نعم .

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ﴿١٢٩﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم ، أي من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعيين محمد ﷺ رسولاً في الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن . وفي الحديث « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجبل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى لي ، ورؤيا أمي التي رأت ، وكذلك أمهات النبيين يرين »

﴿ الكتاب ﴾ القرآن . ﴿ والحكمة ﴾ يعني السنة . ﴿ ويزكيهم ﴾ يعني طاعة الله والإخلاص . ﴿ العزيز ﴾ هو الذي لا يعجزه شيء ، وهو قادر على كل شيء . ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله ، فيضع الأشياء في محالها لعلمه وحكمته وعدله .

(١٣٠) ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم إمام الحنفاء ، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ، ولا أشرك به طرفة عين ، وتبرأ من كل معبود سواه ، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون ﴾ ﴿ سفه نفسه ﴾ ظلمها بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال ، حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلاً ، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء ، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغي فأي سفه أعظم من هذا ؟ .

(١٣١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

أي أمره الله بالإخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً .

(١٣٢) ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أي وصى بهذه الملة ، وهي الإسلام لله ، أوصى بهذه الكلمة ﴿ أسلمت لرب العالمين ﴾ لحرصهم عليها ومحبتهم لها ، فقد حافظوا عليها إلى حين الوفاة ، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ وقوله ﴿ يا بني إن الله اصطفى . . ﴾ أي أحسنوا في حال الحياة ، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه ، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه ويبعث على ما مات عليه .

(١٣٣) ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

يقول الله تعالى محتجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بني إسرائيل ـ وهو يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام ـ بأن يعقوب لما حضرته الوفاة

وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له . وإسماعيل لم يكن أباه ، بل كان عمه ، فهو من باب التغليب قال النحاس : والعرب تسمي العم أباً . ﴿ إلَهاً واحداً ﴾ أي نوحده بالألوهية ولا نشرك به شيئاً غيره . ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي مطيعون خاضعون . والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة ، وإن تنوعت شرائعهم ، واختلفت مناهجهم كما قال تعالىٰ : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلَه إلا أنا فاعبدون ﴾ وفي الحديث « نحن معاشر الانبياء أولاد علات ، ديننا واحد » .

﴿١٣٤﴾ ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قد خلت ﴾ قد مضت . ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي أن السالفين الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم ، فإن لهم أعمالهم ولكم أعمالكم . وفي الحديث : « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » .

﴿١٣٥﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قال عبدالله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصارىٰ مثل ذلك ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وقوله : ﴿ قل بل ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية ، بل نتبع ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي مستقيماً خالصاً .

﴿١٣٦﴾ ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم ، بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً . أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ ﴿ الأسباط ﴾ حفدة يعقوب : ذراري أبنائه الاثني عشر ، أو الأسباط قبائل بني إسرائيل . عن أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله » .

﴿١٣٧﴾ ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالىٰ : فإن آمنوا ، يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم ﴿ فقد اهتدوا ﴾ أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . ﴿ وإن تولوا ﴾ أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم ﴿ فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله ﴾ أي فسينصرك الله عليهم ويظفرك بهم ﴿ وهو السميع العليم ﴾ .

﴿١٣٨﴾ ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾

﴿ صبغة الله ﴾ فطرة الله ، أي الزموا ذلك ، وعليكموه ، وقد ورد في حديث عن ابن عباس أن نبي الله ﷺ قال : « إن بني إسرائيل قالوا : يا رسول الله ، هل يصبغ ربك ؟ فقال : اتقوا الله ، فناداه ربه ، يا موسى ، سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقل : نعم ، أنا أصبغ الألوان : الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغي » وأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ﴾ .

﴿١٣٩﴾ ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾

يقول الله تعالى مرشداً نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين ﴿ قل أتحاجوننا في الله ﴾ أي أتناظروننا في توحيد الله والاخلاص له والانقياد واتباع أوامره ، وترك زواجره ﴿ وهو ربنا وربكم ﴾ المتصرف فينا وفيكم ، المستحق لاخلاص الآلهية له وحده ، لا شريك له ﴿ ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن برآء منكم ، ومما تعبدون ، وأنتم برآء منا كما قال في الآية الأخرى ﴿ فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ونحن له مخلصون ﴾ أي في العبادة والتوجه إليه .

﴿١٤٠﴾ ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

ثم أنكر تعالىٰ عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على

ملتهم : إما اليهودية وإما النصرانية فقال : ﴿ قل أأنتم أعلم أم الله ﴾ يعني بل الله أعلم ، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارىٰ كما قال تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ وقوله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرؤ ون في كتاب الله الذي أتاهم : إن الدين الإسلام ، وإن محمداً رسول الله ، وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك وقوله تعالى ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ تهديد ووعيد شديد ، أي إن علمه محيط بعملكم وسيجزيكم عليه .

(١٤١) ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قد خلت ﴾ قد مضت ﴿ لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم . ﴿ ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ وليس يغني عنكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله ، واتباع رسله الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بخاتم الأنبياء وسيد المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن المكلفين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

(١٤٢) ﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ السفهاء ﴾ قيل : المراد بهم هنا مشركو العرب ، وقيل : أحبار يهود ، وقيل : المنافقون ، والآية عامة في هؤلاء كلهم ، والله أعلم . في الحديث : « صلى رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر ، وصلى معه قوم ، فخرج رجل ممن كان معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، فقال : أشهد بالله لقد صليت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كماهم قبل البيت ، وكان الذي قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالاً قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله : ﴿ وما كان الله ليضيع ايمانكم إن الله بالناس لرؤ وف رحيم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل لله المشرق والمغرب . . ﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾، أي الشأن كله في امتثال

أوامره فحيثما توجهنا فالطاعة في امتثال أوامره ، ولو وجهنا كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده .

(١٤٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

الوسط : العدل . ﴿ لتكونوا شهداء . . . ﴾ في الحديث « يجيء النبي يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك ، فيدعى قومه فيقال : هل بلغكم هذا؟ فيقولون : لا ، فيقال له : هل بلغت قومك ؟ فيقول : نعم ، فيقال : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته ، فيدعى محمد وأمته ، فيقال لهم : هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون: نعم ، فيقال : وما علمكم ؟ فيقولون : جاء نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا » .

وقوله تعالى : ﴿ وما جعلنا القبلة التي . . ﴾ يقول تعالى : إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس ، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ، ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ، ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه ، أي يرتد عن دينه ، ﴿ وإن كانت لكبيرة ﴾ ، أي هذه الفعلة ، وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول ، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه ، وأن الله يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فله أن يكلف عباده بما شاء ، وينسخ ما يشاء ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة في جميع ذلك ، بخلاف الذين في قلوبهم مرض ، فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شقًا .
وقوله تعالىٰ : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم ﴾ أي ثواب صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك .

(١٤٤) ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

عن ابن عباس ، كان أول ما نسخ من القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ـ وكان أكثر أهلها اليهود ـ فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود

فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله هذه الآية : ﴿شطر المسجد الحرام﴾ إلى الكعبة . وأحد قولي الشافعي أن الغرض إصابة عين الكعبة ، والقول الآخر وعليه الأكثرون أن المراد المواجهة ، وفي الحديث « ما بين المشرق والمغرب قبلة » ، وفي الحديث أيضاً « البيت قبلة لأهل المسجد ، والمسجد قبلة لأهل الحرم ، والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي». وقوله ﴿ وإن الذين أوتوا الكتاب . . . ﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة ، وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما في كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ، ولكن أهل الكتاب يتكاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ولهذا تهددهم الله تعالى بقوله : ﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ .

(١٤٥) ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبر الله تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى : ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وقوله ﴿ وما أنت بتابع قبلتهم ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به ، وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته ، واتباع مرضاته وأنه لا يتبع أهواءهم في جميع أحواله ، ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ، ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى ، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره ، ولهذا قال مخاطباً للرسول ، والمراد به الأمة ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم من بعد . . ﴾ .

(١٤٦) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى أن علماء اليهود من أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل بصحة الشيء بهذا ، ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والاتقان العلمي ﴿ ليكتمون الحق ﴾ أي ليكتمون الناس ما في كتبهم

من صفة النبي ﷺ ﴿ وهم يعلمون ﴾ .

(١٤٧) ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين ، وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ، ولا شك فقال : ﴿ الحق من ربك . . ﴾ .

(١٤٨) ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول : لكل قبيلة من أهل الأديان قبلة يرضونها ، ووجهة الله حيث توجه المؤمنون ، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالىٰ : ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ﴾ وقال ههنا : ﴿ أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم .

(١٤٩) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

(١٥٠) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

هذا أمر ثان وثالث من الله تعالىٰ باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض ، وقد اختلفوا في حكمة هذا التكرار ثلاث مرات ، فقيل : تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام ، وقيل : بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها ، والثالث لمن هو في بقية البلدان . وقيل إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق ، فأجابه أولاً إلى طلبته ، وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضاها ، وفي الأمر الثاني ذكر أنه الحق من الله ، وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ ، فبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه ، وذكر في الأمر

الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة ، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة ، وأعجبهم استقبال الرسول إليها . وقوله : ﴿ لئلا يكون للناس عليكم حجة ﴾ أي أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين ، ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس . ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ يعني مشركي قريش . ﴿ فلا تخشوهم واخشوني ﴾ أي لا تخشوا شبه الظلمة المتعنتين ، وأفردوا الخشية لي ، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه .﴿ولأتم نعمتي عليكم ﴾ فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها . ﴿ ولعلكم تهتدون ﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم حيث هديناكم إليه ، وخصصناكم به ، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

(١٥١) ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾

يذكر الله عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس ، وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب ، وهو القرآن ، والحكمة ، وهي السنة . ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمونه ، فانتقلوا ببركة رسالته ويمن سفارته إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء ، فصاروا أعمق الناس علماً ، وأبرهم قلوباً ، وأقلهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ، ومقابلتها بذكره وشكره كما جاء في الآية التالية .

(١٥٢) ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

يقول : كما فعلت فاذكروني ، وفي الحديث الصحيح « يقول الله تعالى : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » . ﴿ واشكروا لـي ولا تكفرون ﴾ أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير .

(١٥٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع في بيان الاستعانة بالصبر والصلاة ، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكر عليها ، أو في نقمة فيصبر عليها ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ « كان إذا حز به أمر صلى » والصبر صبران : فصبر على ترك المحارم ، والمآثم ، وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثاني أكثر ثواباً لأنه المقصود ، وأما الصبر الثالث ، وهو الصبر على المصائب والنوائب ، فذاك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب . قال علي بن الحسين زين العابدين : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال : فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون إلى أين يا بني آدم ؟ فيقولون : إلى الجنة ، فيقولون : قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ، قالوا : ومن أنتم ؟ قالوا : نحن الصابرون ، قالوا : وما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا على طاعة الله ، وصبرنا عن معصية الله ، حتى توفانا الله ، قالوا : أنتم كما قلتم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

﴿١٥٤﴾ ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء في صحيح مسلم « أن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فاطلع عليهم ربك اطلاعة ، فقال : ماذا تبغون ؟ فقالوا : يا ربنا ، وأي شيء نبغي وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا ، فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يُسألوا ، قالوا : نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا ، فنقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ـ لما يرون من ثواب الشهادة ـ فيقول الرب جل وعلا : إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

﴿١٥٥﴾ ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده ، أي يختبرهم ويمتحنهم ، فتارة بالسراء ، وتارة بالضراء من خوف وجوع ، كما قال تعالى : ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه . ﴿ ونقص من الأموال ﴾ أي ذهاب بعضها . ﴿ والأنفس ﴾ كموت الأصحاب والأقارب والأحباب . ﴿ والثمرات ﴾ أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها ، وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده ، فمن صبر أثابه ، ومن قنط أحل به عقابه ، . ولهذا قال تعالى : ﴿ وبشر الصابرين ﴾ . وقد حكى بعض المفسرين أن

المراد من الخوف ههنا خوف الله ، وبالجوع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة ، وبالأنفس الأمراض ، وبالثمرات الأولاد ، وفي هذا نظر ، والله أعلم .

(١٥٦) ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾

أي تسلوا يقول لهم هذا عما أصابهم ، وعلموا أنهم ملك لله ، يتصرف في عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة ، فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة .

(١٥٧) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾

﴿ عليهم صلوات من ربهم ورحمة ﴾ أي ثناء من الله عليهم . ﴿ وأولئك هم المهتدون ﴾ قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : « نعم العدلان ، ونعمت العلاوة » فالعدلان صلوات من ربهم ، ورحمة ، والعلاوة هدايتهم ، والعلاوة هي ما توضع بين العدلين ، وهي زيادة في الحمل ، فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم ، وزيدوا أيضاً .

(١٥٨) ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

عن عروة عن عائشة قال : قالت : أرأيت قول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة . . ﴾ قلت : فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما فقالت عائشة : بئسما قلت يا ابن أختي ، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فسألوا رسول الله عن ذلك ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية فأنزل الله هذه الآية .

(١٥٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدي النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله . ﴿ اللاعنون ﴾ الملائكة والمؤمنون .

(١٦٠) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أي رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم ، وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه ﴿ فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه . لا خلاف في جواز لعن الكفار ، فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنا لا ندري بم يختم الله له . وقالت طائفة أخرى : بل يجوز لعن الكافر المعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتج بحديث فيه ضعف .

(١٦١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

أخبر الله تعالىٰ عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأنه ﴿ عليه لعنة الله والملائكة . والناس أجمعين ﴾ .

(١٦٢) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ، ثم المصاحبة لهم في نار جهنم التي ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ﴾ فيها أي لا ينقص عما هم فيه ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يغيّر عنهم ساعة واحدة ، ولا يفتر ، بل هو متواصل دائم ، فنعوذ بالله من ذلك . قال أبو العالية وقتادة : إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ، ثم يلعنه الناس أجمعون .

(١٦٣) ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالىٰ عن تفرده بالالهية ، وأنه لا شريك له ، ولا عديل له ، بل هو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي لا إله إلا هو ، وأنه الرحمٰن الرحيم .

(١٦٤) ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ذكر سبحانه الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السمٰوات والأرض وما فيهما ، وما بين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال : ﴿ إن في خلق السمٰوات

والأرض ﴾ تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها ، وكواكبها السيارة ، والثوابت ، ودوران فلكها ، وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ ، هذا يجيء ثم يذهب ، ويخلفه الآخر ، ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة ، كما قال تعالىٰ : ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ ﴿ والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ﴾ أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء ، وما عند أولئك إلى هؤلاء ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون . . ﴾ . ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك كله ويرزق ، لا يخفى عليه شيء من ذلك . ﴿ وتصريف الرياح ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة ، وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الجنوب ، وهي الشامية أو تارة تأتي من ناحية اليمن ، وتارة صبا وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة ، وتارة دبوراً ، وهي غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة . ﴿ والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾ أي سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن كما يصرفه تعالى ﴿ لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى .

﴿١٦٥﴾ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾

يذكر الله حال المشركين به في الدنيا ، وما لهم في الدار الآخرة ، حيث جعلوا له أمثالاً ونظراء يعبدونهم معه ، ويحبونهم كحبه ، وهو الله لا إله إلا هو ، ولا ضد له ، ولا ند له ، ولا شريك معه . ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾ ولحبهم له وتمام معرفتهم به لا يشركون به شيئاً ، بل يعبدونه وحده ، ويتكلون عليه ، ويلجأوون في جميع أمورهم إليه . ﴿ ولو يرى الذين ظلموا . . ﴾ هذا توعد من الله للمشركين به الظالمين لأنفسهم .

﴿١٦٦﴾ ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾

تبرأت منهم الملائكة والجن الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم ، في دار الدنيا ، ﴿ ورأوا

العذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ أي عاينوا عذاب الله ، وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ومصرفاً ، أو ﴿ الأسباب ﴾ هي المودة .

(١٦٧) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

أي لو أن لنا عودة إلى دار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم ، فلا نلتفت إليهم ، بل نوحد الله وحده بالعبادة، وهم كاذبون في هذا، بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه،وإنهم لكاذبون . ﴿ حسرات عليهم ﴾ أي تذهب وتضمحل ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ولهذا قال تعالى : ﴿ وما هم بخارجين من النار ﴾ .

(١٦٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

لما بين تعالى أنه لا إلّه إلا هو ، وأنه المستقل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه ، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله ﴿ طيباً ﴾ أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ، ولا للعقول ، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينة لهم في جاهليتهم . وقوله تعالى ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ تنفير عنه ، وتحذير منه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ وكما قال تعالىٰ ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ . وكل معصية لله فهي من خطوات الشيطان .

(١٦٩) ﴿ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة ، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه ، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم ، فيدخل في هذا كل كافر ، وكل مبتدع أيضاً .

(١٧٠) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين : اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ،

واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا في جواب ذلك : ﴿ بل نتبع ما ألفينا ﴾ أي وجدنا ﴿ عليه آباءنا ﴾ أي من عبادة الأصنام والأنداد ، قال تعالىٰ منكراً عليهم : ﴿ أولو كان آباؤهم ﴾ الذين يقتدون بهم ، ويقتفون أثرهم ﴿ لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي ليس لهم فهم ولا هداية .

﴿١٧١﴾ ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ومثل الذين كفروا ﴾ أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدواب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها ، بل إذا نعق بها راعيها ، أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ، ولا تفهمه ، بل إنما تسمع صوته فقط وقوله تعالى : ﴿ صم بكم عمي ﴾ أي صم عن سماع الحق ، بكم لا يتفوهون به ، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه . ﴿ فهم لا يعقلون ﴾ أي لا يعقلون شيئاً ولا يفهمونه كما قال تعالىٰ : ﴿ والذين كفروا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ .

﴿١٧٢﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

يقول تعالى آمرا عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده. والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة، كما جاء في الحديث « أيها الناس، إن الله لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك.

﴿١٧٣﴾ ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ولما امتن تعالى عليهم برزقه، وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنفها من غير تزكية، وسواء كانت مختنقة أو

موؤ ودة أو مترديةأو نطيحة أو عدا عليها السبع ، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: ﴿ أحل لكم صيد البحر﴾ وقوله ﷺ في البحر: « هو الطهور ماؤه الحل ميتته» وقوله: « أحل لنا ميتتان ودمان: السمك والجراد، والكبد والطحال» وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكي أو مات حتف أنفه، ويدخل شحمه في حكم لحمه، وحرم عليهم ما أهل به لغير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له. ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج اليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ أي في غير بغي ولا عدوان، وهو مجاوزة الحد ﴿ فلا إثم عليه﴾ أي في أكل ذلك ﴿ إن الله غفور رحيم﴾ غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذا أحل له الحرام في الاضطرار. يقول عباد بن شرحبيل العنزي: أصابتنا عاما مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل: « ما أطعمته إذا كان جائعا، ولا ساعيا، ولا علمته إذا كان جاهلا» فأمره فرد إليه ثوبه، وأمر به بوسق من طعام، أو نصف وسق.

(١٧٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم، وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا لعنهم الله إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم، فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك، و هو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك، واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق النزر اليسير فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة. ﴿ أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق نارا تتأجج في بطونهم يوم القيامة (ولا يكلمهم الله . . . ﴾ أي لا يثني عليهم ولايحاجهم، بل يعذبهم عذابا اليما.

(١٧٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾

أي اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه،

والبشارة به من كتب الأنبياء، واتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به، وكتمان صفاته في كتبهم ﴿والعذاب بالمغفرة﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب . ﴿فما أصبرهم على النار﴾ أي فما أدومهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار .

(١٧٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾

أي انما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله أنزل على رسوله محمد وكل الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق، وابطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم يأمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه، وهذا الرسول خاتم النبيين .

(١٧٧) ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة، وقواعد عميقة، وعقيدة مستقيمة، فعن أبي ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الايمان ؟ فتلا عليه هذه الآية، قال: ثم سأله أيضا فتلاها عليه، ثم سأله فقال: « إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك» .

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فإن الله لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله بيان حكمته في ذلك، وهو أن المراد إنما هو طاعة الله، وامتثال أوامره، والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى، والايمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه .

﴿ولكن البر من آمن . . .﴾ فإن من اتصف بهذه الآية فقد دخل في عرى الاسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الايمان بالله وأن لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله. ﴿ والكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها، وهو القرآن. ﴿ وآتى المال على حبه﴾ أي

أخرجه وهو محب له راغب فيه، وفي الحديث «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخشى الفقر» ﴿ذوي القربى﴾ وهم قرابات الرجل، وهم أولى من أعطي من الصدقات كما ثبت في الحديث «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذوي الرحم ثنتان: صدقة وصلة، فهم أولى الناس بك وببرك وعطائك». ﴿واليتامى﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباؤهم وهم صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وفي الحديث: «لا يتم بعد حلم» ﴿والمساكين﴾ هم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، وفي الحديث «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، واللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه» ﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المحتاج الذي قد فرغت نفقته، فيعطى ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفرا في طاعة، فيعطى ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الضيف. ﴿والسائلين﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الامام أحمد، وفي الحديث «للسائل حق ولو جاء على فرس» ﴿وفي الرقاب﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابهم. ﴿وأقام الصلاة﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي. ﴿وآتى الزكاة﴾ يحتمل زكاة النفس وتخليصها من الاخلاق الدنيئة كقوله تعالى ﴿قد أفلح من زكاها﴾ ويحتمل زكاة المال. ﴿في البأساء﴾ في حال الفقر. ﴿والضراء﴾ في حال المرض والاسقام ﴿وحين البأس﴾ في حال القتال والتقاء الاعداء. ﴿صدقوا﴾ في ايمانهم، لأنهم حققوا الايمان القلبي بالأقوال والأفعال. ﴿هم المتقون﴾ لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

(١٧٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

يقول تعالى: ﴿كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون﴾: حرُّكم بحرِّكم، وعبدكم بعبدكم، وأنثاكم بأنثاكم، ولا تتجاوزوا أو تعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله. ﴿فمن عفي له من أخيه شيء﴾ فالعفو أن يقبل الدية في العمد. ﴿فاتباع

بالمعروف﴾ فعلى الطالب اتباع بالمعروف. ﴿ وأداء اليه بإحسان﴾ ويؤدي المطلوب بإحسان .

(١٧٩) ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل. وفي الكتب المتقدمة: « القتل أنقى للقتل » فجاءت هذه العبارة في القرآن أفصح وأبلغ وأوجز. ﴿ يا أولي الألباب لعلكم تعقلون﴾ يقول: يا أولي العقول والافهام والنهي لعلكم تنزجرون وتتركوا محارم الله ومآثمه. والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

(١٨٠) ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

اشتملت هذه الآية على الامر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبا على اصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضةمن الله، يأخذها أهلوها حتما من غير وصية، ولا تحمل منة الموصي، ولهذا جاء في الحديث « إن الله أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث». ﴿إن ترك خيرا﴾ أي مالا. ﴿ بالمعروف﴾ أي بالرفق والاحسان، والمراد أن يوصي لأقربيه وصية لا تجحف بورثته، من غير إسراف ولا تقتير، كما ثبت في الصحيحين أن سعدا قال: يا رسول الله، إن لي مالا، ولا يرثني إلا ابنة لي، فأوصي بثلثي مالي؟ قال: « لا » قال فالشطر ؟ قال: « لا » قال: فالثلث ؟ قال: « الثلث والثلث كثير، إنك إن تترك ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس» .

(١٨١) ﴿ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى: فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أو نقص، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى ﴿ فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾ وقد وقع أجر الميت على الله، وتعلق الاثم بالذين بدلوا. ﴿ إن الله سميع عليم﴾ أي قد اطلع على ما أوصى به الميت، وهو عليم بذلك، وبما بدله الموصى إليهم .

(١٨٢) ﴿ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ جنفاً ﴾ الجنف الخطأ، وقد يكون الخطأ من غير عمد، بل بقوة الشفقة من غير تبصر، وقد يكون عمدا ففيه الاثم، فللوصي والحالة هذه أن يصلح القضية، ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي، وفي الحديث «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة، فإذا أوصى جاف في وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ الآية.

(١٨٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

يقول الله تعالى مخاطبا للمؤمنين من هذه الأمة، وآمرا لهم بالصيام، وهو الامساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل، لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الاخلاط الرديئة والاخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض اكثر مما فعل أولئك.

(١٨٤) ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ثم بين سبحانه مقدار الصوم، و أنه ليس في كل يوم، لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات، قال الحسن البصري: والله لقد كتب الصيام عل كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهرا كاملا، وأياماً معدودات: عدداً معلوماً. المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر. وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصياح فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الاطعام إن شاء صام، وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الاطعام.

(١٨٥) ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ثم أنزل الله عز وجل: ﴿ شهر رمضان الذي . . ﴾ فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الاطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام .
يمدح الله شهر الصيام من بين سائر الشهور بأنه اختاره من بينهن لانزال القرآن العظيم، فقد نزل جملة واحدة الى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾ ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ثم نزل مفرقاًبحسبالوقائع على رسول الله ﷺ ﴿ هدى للناس. . ﴾ هذا مدح للقرآن الذي أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه. ﴿ وبينات﴾ أي ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها. ﴿ يريد الله بكم اليسر. . . ﴾ أي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتمه في حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم. ﴿ ولتكملوا العدة﴾ وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم. ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم. ﴿ ولعلكم تشكرون﴾ إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه، وترك محارمه، وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ ﴿١٨٦﴾

قال أعرابي: يا رسول الله ﷺ، أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية، أي إذا أمرتهم أن يدعوني فدعوني استجبت. عن أبي موسىالأشعري قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفاً، ولا نعلو شرفاً، ولا نهبط وادياًإلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا فقال: « يا أيها الناس، اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً إنما تدعون سميعاً بصيراً، إن الذي تدعون أقرب الى أحدكم من عنق راحلته، يا عبدالله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي الحديث: « ما على ظهر الأرض من رجل مسلم، يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» وفي الحديث « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي» .

﴿١٨٧﴾ ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى

ٱلَّيْلِ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

هذه رخصة من الله للمسلمين، ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الاسلام، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء، أو ينام قبل ذلك، فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة. والرفث هنا الجماع. ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن﴾ يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن. وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم في المجامعة في ليل رمضان، لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا. قال الشاعر:

إذا ما الضجيع ثنى جيدها ... تداعت فكانت عليه لباسا

﴿ تختانون أنفسكم﴾ يعني تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء. ﴿ باشروهن﴾ يعني جامعوهن. ﴿ وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ يعني الولد. ﴿ وكلوا واشربوا حتى..﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصبح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفع اللبس بقوله: ﴿ من الفجر﴾. وفي اباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور، لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب، وفي الحديث «تسحروا فإن في السحور بركة» ﴿ ولا تباشروهن وأنتم..﴾ أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجدولا في غيره. وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، فقد ثبت أنه ﷺ كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده ﴿ لعلهم يتقون﴾ أي يعرفون كيف يهتدون، وكيف يطيعون.

(١٨٨) ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

نزلت في الرجل يكون عليه مال، وليس عليه فيه بينة، فيجحد المال، ويخاصم الى الحكام، وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه آثم، آكل للحرام. وفي الحديث «إنما أنا بشر، وإنما يأتيني الخصم، فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له،

فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من نار، فليحملها أو ليذرها» فدلت هذه الآية، وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال، وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلا فللحاكم أجره، وعلى المحتال وزره. وقوله تعالى: ﴿ وأنتم تعلمون﴾ أي تعلمون بطلان ما تدعونه وترجونه في كلامكم.

(١٨٩) ﴿ * يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

سأل الناس رسول الله عن الأهلة فنزلت هذه الآية يعلمون بها حل دينهم، وعدة نسائهم ووقت حجهم، وجعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم، وفي الحديث « جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فأتموا ثلاثين يوما». وقوله تعالى: ﴿ وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها.. ﴾ كانوا في الجاهلية إذا أحرموا أتوا البيت من ظهره، وكانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه، وكانت قريش تدعى الحُمس، وكانوا يدخلون من الأبواب في الاحرام، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الاحرام، فبينا رسول الله ﷺ في بستان إذا خرج من بابه، وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا: يا رسول الله: إن قطبة بن عامر رجل تاجر، وإنه خرج معك من الباب، فقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت، فقال: إني أحمس، قال له: فإن ديني دينك. وكان أقوام في الجاهلية إذا أراد أحدهم سفرا، وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه، ولكن يتسوره من قبل ظهره، فنزلت ﴿ وليس البر بأن.. ﴾ وقوله تعالى: ﴿ واتقوا الله﴾ أي اتقوا الله وافعلوا ما أمركم به، واتركوا ما نهاكم عنه ﴿ لعلكم تفلحون﴾ غداً إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال.

(١٩٠) ﴿ وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

قال بعضهم: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله، ويكف عمن كف عنه حتى نزل ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾، فنسختها، وفي هذا نظر، لأن قوله ﴿ الذين يقاتلونكم ﴾ إنما هو تهيج

وإغراء بالاعداء الذين همتهم قتال الاسلام وأهله، أي كما يقاتلوكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾. وقوله تعالى ﴿ ولا تعتدوا . . ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل فيه ارتكاب المناهي من المثلة والفلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة. وفي الحديث « اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع .

(١٩١) ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

أي لتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً. . وقوله: ﴿ والفتنة أشد من القتل﴾ يقول: الشرك أشد من القتل . وقوله : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ﴾ أي إلا أن يبدؤوكم بالقتال فيه ، فلكم حينئذٍ قتالهم وقتلهم دفعاً للصائل .

(١٩٢) ﴿ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أي فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبة ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه إليه .

(١٩٣) ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

﴿ فتنة ﴾ أي شرك . وقوله : ﴿ ويكون الدين لله ﴾ أي يكون دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان . وقوله : ﴿ فإن انتهوا . . ﴾ فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم ، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين . عن نافع عن ابن عمر قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا ، وأنت ابن عمر ، وصاحب النبي ﷺ . فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال : يمنعني أن الله حرم دم أخي ، قالا : ألم يقل الله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ ؟ فقال : قاتلنا

حتى لم تكن فتنة ، وكان الدين لله ! وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ، وحتى يكون الدين لغير الله .

(١٩٤) ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

لما سار رسول الله ﷺ معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت ، وصدوه بمن معه من المسلمين ، وأقصه الله منهم فنزلت هذه الآية ، فلم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام إلا أن يغزى ، ولهذا لما بلغه وهو مخيم في الحديبية أن عثمان قتل ، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين بايع أصحابه ، وكانوا ألفاً وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين ، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك ، وجنح إلى المسالمة والمصالحة ، فكان ما كان . وقوله ﴿ واتقوا الله . . ﴾ أمر لهم بطاعة الله وتقواه ، وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة .

(١٩٥) ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

قال أبو عمران : حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ، ومعنا أبو أيوب الأنصاري ، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة ، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية ، إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ ، وشهدنا معه المشاهد ، ونصرناه ، فلما فشا الإسلام وكثر أهله ، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد ، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا ﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾ فكانت التهلكة في الاقامة في الأهل والمال وترك الجهاد . رواه أبو داود والترمذي والنسائي . ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ، ووجوه الطاعات ، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء ، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم والاخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف بالأمر بالاحسان ، وهو أعلى مقامات الطاعة فقال ﴿ وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾ .

(١٩٦) ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ

ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿

لما ذكر الله أحكام الصيام ، وعطف بذكر الجهاد شرع في بيان المناسك ، فأمر بإتمام الحج والعمرة ، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما ، ولهذا قال بعده : ﴿ فإن أحصرتم ﴾ أي صددتم عن الوصول إلى البيت ، ومنعتم من إتمامهما . ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم : سواء قيل : بوجوب العمرة أو باستحبابها ، كما هما قولان للعلماء ، وقيل : إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك ، وقيل : أن تفرد كل واحد منهما من الآخر ، وأن تعتمر في غير أشهر الحج . ﴿ فإن أحصرتم ﴾ فإن حيل بينكم وبين الوصول إلى البيت وهل يختص الإحصار بالعدو ، أو هو أعم من أن يكون بعدوٍّ أو مرض ، أو ضلال ، وهو التوهان عن الطريق ، أو نحو ذلك . قولان في ذلك . ﴿فما استيسر من الهدى ﴾ من الإبل والبقر والغنم . ﴿ حتى يبلغ الهدي محله ﴾ هذا في حال الأمن ، فإنه لا يحلق حتى يصل إلى الحرم ، أما في حال الإحصار فيحلق حيث أحصر ، لأن النبي وأصحابه لما أحصروا عام الحديبية حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم . ﴿فمن كان منكم مريضاً . . . . ﴾ يقول كعب بن عجرة : حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال : « ما كنت أرى الجهد يبلغ منك هذا ، أما تجد شاة » قلت : لا ، قال : « صم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك » فنزلت فيّ خاصة ، وهي لكم عامة . ﴿ فإذا أمنتم . . ﴾ أي فإذا تمكنتم فيه من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعاً بالعمرة إلى الحج ، وهو يشمل من أحرم بهما ، أو أحرم بالعمرة أولاً ، فلما فرغ منها أمر بالحج فليذبح ما قدر عليه من الهدي ، وأقله شاة ، وله أن يذبح البقر . ﴿ فمن لم يجد فصيام . . ﴾ أي في أيام المناسك ، والأفضل قبل يوم عرفة في العشرة ، وسبعة إذا رجع إلى رحله ، أو إلى وطنه . ﴿ تلك عشرة كاملة ﴾ قيل : تأكيد مثل ﴿ ولا طائر يطير بجناحيه ﴾ وقوله : ﴿ ذلك لمن لم يكن . . ﴾ هم أهل الحزم أو هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت ، أو

هم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة ، لأن من كان كذلك كان حاضراً لا مسافراً .

﴿ واتقوا الله ﴾ فيما أمركم ونهاكم ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ أي لمن خالف أمره ، وارتكب ما عنه زجر .

(١٩٧) ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾

القول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل ، وذهب الشافعي إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره ، فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به ، وهل يعقد عمرة ؟ فيه قولان عنه ، وفي الحديث « لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج » ، وهو حجة للشافعي رحمه الله . ﴿ أشهر معلومات ﴾ شوال ، وذو القعدة ، وعشر من ذي الحجة . ﴿ فمن فرض فيهن الحج ﴾ أي أوجب بإحرامه حجاً ، وفيه دلالة على لزوم الاحرام بالحج والمضي فيه . ﴿ فلا رفث ﴾ أي من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث ، وهو الجماع ، كما قال تعالى : ﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ﴾ ، وكذلك يحرم تعاطي دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك ، وكذلك التكلم به بحضرة النساء . ﴿ ولا فسوق ﴾ هو ما أصيب من معاصي الله صيداً أو غيره ، أو هو السباب ، وقد يتمسك لهذا بما ثبت في الصحيح : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ﴿ ولا جدال في الحج ﴾ ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه ، وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح ، أو أن المراد بالجدال المخاصمة ، وفي الحديث « من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه » . ﴿ وما تفعلوا من خير يعلمه الله ﴾ لما نهاهم عن إتيان القبيح قولاً وفعلاً حثهم على فعل الجميل ، وأخبرهم أنه عالم به ، وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة . ﴿ وتزودوا ﴾ كان ناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة ، يقولون : نحجّ ولا يطعمنا ؟ فقال الله : تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . ﴿ فإن خير الزاد التقوى ﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة ، وهو استصحاب التقوى إليها . ﴿ واتقون يا أولي الألباب ﴾ يقول : واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ، ولم يأتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام .

(١٩٨) ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ

ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت ، أي في موسم الحج . وعرفة موضع الوقوف في الحج ، وهي عمدة أفعال الحج، وفي الحديث: «الحج عرفات ـ ثلاثاً ـ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ، وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه » ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر . ﴿ فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴾ هي جمع الصلاتين جميعاً ، والمشعر الحرام : المزدلفة كلها ، وفي الحديث « كل عرفات موقف ، وارفعوا عن عرفات ، وكل مزدلفة موقف ، وارفعوا عن بطن محسر، وكل فجاج مكة منحر، وكل أيام التشريق ذبح» والوقوف بمزدلفة واجب، وهو أحد قولي الشافعي ، يجبر بدم ، أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر . ﴿ واذكروه كما هداكم ﴾ تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والارشاد إلى مشاعر الحج . ﴿ من قبله ﴾ من قبل هذا الهدى ، وقبل القرآن والرسول .

(١٩٩) ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

عن عائشة كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة ، وكانوا يسمون الحمس ، وسائر العرب يقفون بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ، ثم يقف بها ، ثم يفيض منها . ﴿ واستغفروا الله . . ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً .

(٢٠٠) ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها . ﴿ كذكركم آباءكم ﴾ اختلفوا في معناه فقيل: كما يلهج الصبي بذكر أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء المناسك، وقيل: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل فيهم: كان أبي يطعم ، ويحمل الحمالات ، ويحمل الديات ، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله هذه الآية ، والمقصود منه الحث على كثرة ذكر الله عز وجل . ﴿ من خلاق ﴾ أي من نصيب ولا حظ ، وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن كان كذلك ، فقد كان قوم من

الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون : اللهم اجعله عام غيث ، وعام خصب ، وعام ولاد حسن ، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً .

(٢٠١) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

جمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا ، وصرفت كل شر ، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ودار مرحبة ، وزوجة حسنة ورزق واسع ، وعلم نافع ، وعمل صالح ، ومركب هين ، وثناء جميل إلى غير ذلك ، وأما الحسنة في الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات ، وتيسير الحساب ، وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة ، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام .

(٢٠٢) ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني ، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم ، أفيجزي ذلك ؟ فقال : أنت من الذين قال الله ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا . . ﴾ .

(٢٠٣) ﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

الأيام المعدودات أيام التشريق ، أربعة أيام ، يوم النحر وثلاثة بعده ، والأيام المعلومات أيام العشر . والمراد التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات : الله أكبر الله أكبر ، وفي الحديث « يوم عرفة ، ويوم النحر ، وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام ، وهي أيام أكل وشرب » . ويتعلق بقوله ﴿ واذكروا الله في أيام معدودات ﴾ ذكر الله على الأضاحي . ومذهب الشافعي وهو الراجح أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق ، ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات ، والمطلق في سائر الأحوال .

(٢٠٤) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴾

نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي ، جاء إلى رسول الله ﷺ ، وأظهر الإسلام ، وفي باطنه خلاف ذلك ، وقيل : نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين

قتلوا بالرجيع ، وعابوهم فأنزل الله في ذم المنافقين ، ومدح خبيب وأصحابه ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾ ، وقيل : بل ذلك عام في المنافقين كلهم ، وفي المؤمنين كلهم . وفي بعض الكتب « أن عباداً ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجترؤون الدنيا بالدين ، قال تعالى : عليَّ تجترئون ، وبي تغترون؟ وعزتي لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران » .

﴿ ويشهد الله على ما في قلبه ﴾ ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ، ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالىٰ ﴿ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله ﴾ . الألد في اللغة الأعوج ﴿ وتنذر به قوماً لداً ﴾ أي عوجاً ، وهكذا المنافق في حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ، ولا يستقيم معه ، بل يفتري ويفجر ، كما في الصحيحين « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » . وفي الحديث أيضاً « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » .

(٢٠٥) ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾

أي هو أعوج المقال ، سيىء الفعال ، فذلك قوله ، وهذا فعله ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة ، والسعي هنا هو القصد كقوله تعالىٰ ﴿ فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة ، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ، وأتوها وعليكم السكينة والوقار » فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض ، وإهلاك الحرث ، وهو محل نماء الزروع والثمار ، والنسل ، وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما . ﴿ والله لا يحب الفساد ﴾ أي لا يحب من هذه صفته ، ولا من يصدر منه ذلك .

(٢٠٦) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله ، قيل له : اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق امتنع وأبىٰ وأخذته الحمية والغضب بالإثم أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام . ﴿ فحسبه جهنم . . ﴾ أي هي كافيته عقوبة في ذلك .

(٢٠٧) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة، نزلت في صهيب الرومي ، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله فتخلص منهم

وأعطاهم ماله ، فتلقاه: عمر بن الخطاب وجماعة إلى أطراف الحرة ، فقالوا : ربح البيع . فقال : وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم ، وما ذاك فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية . والأكثرون حملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله .

(٢٠٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾

يقول الله تعالى آمراً المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه ، والعمل بجميع أوامره ، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . ﴿ في السلم ﴾ يعني الإسلام ، أو الطاعة ، أو الموادعة ، أو بجميع الأعمال ووجوه البر ، والمعنى ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ، ولا تدعوا منها شيئاً ، أو ادخلوا في الإسلام كلكم . ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ اعملوا بالطاعات ، واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان ، فهو ﴿ إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ولهذا قال : ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ قال مطرف : « أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان » .

(٢٠٩) ﴿ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

أي فإن عدلتم عن الحق بعدما قامت عليكم الحجج فاعلموا أن الله عزيز في انتقامه ، لا يفوته هارب ، ولا يغلبه غالب ، حكيم في أحكامه ، ونقضه وإبرامه .

(٢١٠) ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴾

يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين ، فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ولهذا قال : ﴿ وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور ﴾ كما قال تعالى ﴿ كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً . وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ وفي الحديث : « يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء ، ينتظرون فصل القضاء ، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي » .

(٢١١) ﴿ سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل : كم شاهدوا مع موسى من آية بينة ، أي حجة قاطعة

بصدقه فيما جاءهم به ، كيده وعصاه وفلقه البحر وضربه الحجر ، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر ، ومن إنزال المن والسلوىٰ وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار ، وصدق من جرت هذه الخوارق علي يديه ، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها ، كما قال تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار . جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ .

(٢١٢) ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها مما يرضي الله عنهم ، وسخروا من الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجه الله ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد ، والحظ الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ومنشرهم ، ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ أي يرزق من يشاء من خلقه ، ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ وفي الحديث الصحيح « أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » .

(٢١٣) ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين . ﴿ من بعدما جاءتهم البينات ﴾ أي من بعد ما قامت الحجج عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي من بعضهم على بعض . ﴿فهدى الله الذين

آمنوا . . ﴾ في الحديث « نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه ـ الجمعة ـ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، فقداً لليهود ، وبعد غد للنصارىٰ » . ﴿بإذنه﴾ أي بعلمه بهم ، وبما هداهم له . وفي الحديث عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي ، يقول : « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السمٰوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم » وفي الدعاء المأثور « اللّهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل ، واجعلنا للمتقين إماماً » .

﴿٢١٤﴾ ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

يقول تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ﴾ قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا ، كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ، أصابتهم الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب ، ﴿ وزلزلوا ﴾ أي خوفوا من الأعداء زلزالاً شديداً ، وامتحنوا امتحاناً عظيماً ، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : قلنا : يا رسول الله ، ألا تستنصر لنا ، ألا تدعوا الله لنا ؟ فقال : « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه ، لا يصرفه ذلك عن دينه ، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه ، لا يصرفه ذلك عن دينه » ثم قال : « والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم قوم تستعجلون » .

وقال تعالى : ﴿ الٓمٓ . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ وقد حصل من هذا شيء عظيم للصحابة رضي الله عنهم في يوم الأحزاب ، كما قال تعالى : ﴿ إذ جاؤ وكم من فوقكم ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ﴾ . ﴿ مثل الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي سنتهم .

﴿٢١٥﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية في نفقة التطوع ، وقال السدي : نسختها الزكاة ، وفيه نظر . ومعنى الآية : يسألونك كيف ينفقون ؟ فبين الله لهم أن ينفقوا في هذه الوجوه ، كما جاء في الحديث « أمك وأباك ، وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك » . وتلا ميمون هذه الآية ، ثم قال : هذه مواضع النفقة ، ما ذكر طبلاً ولا مزماراً ، ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان ، ثم قال تعالىٰ : ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء ، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿٢١٦﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام ، وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد ، غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين ، وإذا استغيث أن يغيث ، وإذا استنفر أن ينفر ، وإن لم يحتج إليه قعد ، ولهذا ثبت في الصحيح « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية » . وقال عليه السلام يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » . ﴿ وهو كره لكم ﴾ أي شديد عليكم ، ومشقة ، وهو كذلك ، فإنه إما أن يقتل ، أو يجرح مع مشقة السفر ، ومجالدة الأعداء . ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً . . ﴾ أي لأن القتال يعقبه النصر ، والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم . ﴿ وعسى أن تحبوا شيئاً . . ﴾ وهذا عام في الأمور كلها ، قد يحب المرء شيئاً وليس فيه خيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم . ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم ، فاستجيبوا له ، وانقادوا لأمره ، لعلكم ترشدون .

﴿٢١٧﴾ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ

ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

بعث رسول الله ﷺ رهطاً عليهم عبدالله بن جحش ، وكتب له كتاباً ، وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال : « لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك » فلما قرأ الكتاب استرجع وقال : سمعاً وطاعة لله ولرسوله فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجلان ، وبقي بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب ، أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين : قتلتم في الشهر الحرام فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام . . . ﴾ أي إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام ، فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام ، وإخراجكم منه وأنتم أهله ﴿ أكبر عند الله ﴾ من قتل من قتلتم منهم . ﴿ والفتنة أكبر من القتل ﴾ أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل . ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم . . ﴾ أي ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين .

(٢١٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

كانوا رضي الله عنهم يطمعون أن تكون لهم غزوة يعطون فيها أجر المجاهدين فأنزل الله هذه الآية فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء .

(٢١٩) ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت هذه الآية التي في البقرة ، فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون . . ﴾ فكان منادي رسول الله إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران فدعي عمر فقرأت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً فنزلت

الآية التي في المائدة ، فدعي عمر فقرأت عليه ، فلما بلغ ﴿ فهل أنتم منتهون ﴾ قال عمر : انتهينا . قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « كل ما خامر العقل فهو خمر ﴿ قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ أما إثمهما فهو في الدين ، وأما المنافع فدنيوية من حيث أن فيها نفع البدن ، وتهضيم الطعام ، وإخراج الفضلات ، وتشحيذ بعض الأذهان ، ولذة الشدة المطربة التي فيها ، وكذا بيعها والانتفاع بثمنها ، وما كان يفحشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ، ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ ولهذا كانت الآية ممهدة لتحريم الخمر على الثبات ، ولم تكن مصرحة بل معرضة . ﴿ قل العفو ﴾ يعني الفضل ، أو ما ينضل عن أهلك . عن أبي هريرة قال : قال رجل: يا رسول الله، عندي دينار، قال: «أنفقه على نفسك» قال: عندي آخر، قال: « أنفقه على أهلك » ، قال : عندي آخر ، قال : « أنفقه على ولدك » قال : عندي آخر ، قال فأنت أبصر . وفي الحديث : « خير الصدقة ما كان على ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول » . ﴿ كذلك يبين الله . . ﴾ أي كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات في أحكامه ووعيده لعلكم تتفكرون .

﴿٢٢٠﴾ ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قرأ الحسن هذه الآية من البقرة ﴿ لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة ﴾ فقال : هي والله لمن تفكر فيها ، ليعلم أن الدنيا دار بلاء ، ثم دار فناء ، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ، ثم دار بقاء . ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل . . ﴾ لما نزلت ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ و ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن اليتامى . . ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم » قالت عائشة : إني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة حتى أخلط طعامي بطعامه ، وشرابه بشرابي » . فقوله : ﴿ قل إصلاح لهم خير ﴾ أي على حدة . ﴿ وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعامهم ،

وشرابكم بشرابهم فلابأس عليكم ، لأنهم إخوانكم في الدين ، ولهذا قال : ﴿ والله يعلم المفسد من المصلح ﴾ أي يعلم من قصده الإفساد ، أو الإصلاح . وقوله ﴿ ولو شاء الله لأعنتكم . . ﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم ، ولكنه وسع عليكم ، وخفف عنكم ، وأباح لكم مخالطتهم بالتي هي أحسن ، قال تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف ، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر ، أو مجاناً .

(٢٢١) ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ، ثم إن كان عمومها مراداً فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ﴾ وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية . ﴿ ولأمة مؤمنة خير . . ﴾ نزلت في عبدالله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء ، فغضب عليها فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله فأخبره خبرهما ، فقال لـه « ما هي ؟ » قال : تصوم وتصلي ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، فقال : « يا أبا عبدالله هذه مؤمنة » فقال : والذي بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين ، وقالوا : نكح أمته ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين ، ويُنكحوهم رغبة في أحسابهم . وفي الحديث « لا تنكحوا النساء لحسنهن ، فعسى حسنهن أن يرديهن ، ولا تنكحوهن على أموالهن ، فعسى أموالهن أن تطغيهن ، وانكحوهن على الدين ، فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل » . وفي الحديث : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » . ﴿ أولئك يدعون إلى النار ﴾ أي معاشرتهم ومخالطتهم ، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة ، وعاقبة ذلك وخيمة - ﴿ والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ﴾ أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه .

(٢٢٢) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾

عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ، ولم يجامعوها في البيوت ـ أي لم يجتمعوا بها في بيت واحد ـ فسأل أصحاب النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية ، ثم قال : « اصنعوا كل شيء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود ، فقالوا : ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ، فجاء أسيد بن حضير ، وعباد بن بشر ، فقالا يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله حتى ظننا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في آثارهما فسقاهما فعرفا أن لم يجد عليهما» . وللعلماء قولان فيما يحل للرجل من زوجته الحائض ، فقول له منها كل شيء إلا الوطء ، وقول له منها ما فوق الازار . ﴿ فإذا تطهرن فأتوهن ﴾ فيه ندب إلى غشيانهن بعد الاغتسال ﴿ من حيث أمركم الله ﴾ يعني في الفرج ، ولا تعدوه إلى غيره ، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى ، وفيه دلالة على تحريم الوطء في الدبر . ﴿ التوابين ﴾ من الذنب وإن تكرر غشيانه . ﴿ المتطهرين ﴾ أي المنزهين عن الأقذار والأذى ، وهو ما نهوا عنه من اتيان الحائض ، أو غير المأتي .

﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢٢٣)

قال ابن عباس : الحرث موضع الولد . ﴿ أنى شئتم ﴾ أي كيف شئتم مقبلة ومدبرة في في صمام واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث ، عن جابر قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت . وفي الحديث « حرثك ، ائت حرثك أنى شئت » وفي حديث آخر : « مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج » والأحاديث كثيرة في النهي عن تجاوز موضع الحرث منها « سبعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ويقول : ادخلوا النار مع الداخلين : الفاعل والمفعول به ، والناكح يده ، وناكح البهيمة ، وناكح المرأة في دبرها ، وجامع بين المرأة وابنتها ، والزاني بحليلة جاره ، ومؤذي جاره حتى يلعنه » ومنها « نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء في أدبارهن فإن الله لا يستحيي من الحق » ومنها « لا ينظر الله إلى رجل جامع امرأته في دبرها » ، ومنها « ملعون من أتى امرأته في دبرها » ومنها « استحيوا من الله حق الحياء ، لا تأتوا النساء في أدبارهن » ومنها « من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدبار فقد كفر » وسأل رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها ، فقال : سفلت سفل الله بك ، ألم تسمع قول الله عز وجل ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ . وقوله : ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ أي من فعل

الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ، ولهذا قال ﴿ واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي المطيعين لله فيما أمرهم ، التاركين ما عنه زجرهم . ﴿ وقدموا لأنفسكم ﴾ تقول باسم الله ، التسمية عند الجماع ، وفي الحديث « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً » .

(٢٢٤) ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى : لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها ، كقوله تعالى ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ﴾ فالاستمرار على اليمين إثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير ، وفي الحديث « ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها وليأت الذي هو خير ، فإن تركها كفارتها » .

(٢٢٥) ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ، وهي التي لا يقصدها الحالف ، بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد . وفي الحديث « اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته كلا والله ، وبلى والله » .

(٢٢٦) ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

الايلاء الحلف ، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر ، أو أكثر منها ، فإن كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر ، وليس لها مطالبته بالفيئة في هذه المدة ، فإن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر ، إما أن يفيء أي يجامع ، وإما أن يطلق ، فيجبره الحاكم على هذا لئلا يضر بها .

(٢٢٧) ﴿ وَإِنْ عَزَمُواْ ٱلطَّلَـٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد أربعة أشهر . وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة .

(٢٢٨) ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله سبحانه للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت. والمراد بالأقراء الأطهار، أو الحيض، فلا تنقضي المدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة. ﴿ ما خلق الله في أرحامهن ﴾ من حبل، أو حيض. في قوله ﴿ إن كن يؤمن .. ﴾ تهديد لهن على خلاف الحق، ودل هذا على أن المرجع في هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن، ويتعذر إقامة البينة غالباً على ذلك.
﴿ وبعولتهن أحق .. ﴾ أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ما دامت في عدتها إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما كان ذلك لما حصروا في الطلاق الثلاث، فأما حال نزول الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن.
وقوله: ﴿ولهن مثل الذي..﴾ أي ولهن ما على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف. ﴿ وللرجال عليهن درجة ﴾ أي في الفضيلة في الخَلْق والخُلُق والمنزلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة. ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز في انتقامه ممن عصاه، وخالف أمره، حكيم في أمره وشرعه وقدره.

(٢٢٩) ﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته، وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فإذا طلق الرجل زوجته واحدة أو اثنتين فهو مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين

أن يردها إليه ناوياً الاصلاح بها ، والاحسان إليها ، وبين أن يتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منه ، ويطلق سراحها محسناً إليها ، لا يظلمها من حقها شيئاً ، ولا يضاربها . وقوله : ﴿ ولا يحل لكم أن . . ﴾ أي لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ فأما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفس فقد قال فعالى ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴾ وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدي منه بما أعطاها ، ولا حرج عليها في بذلها له ، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها ، فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فإن رسول الله ﷺ قال : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وقالت طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذٍ قبول الفدية ، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرىٰ وهذا قول جميع أصحابه قاطبة . كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس ، وكان رجلاً دميماً ، فقالت يا رسول الله ، والله لولا مخافة الله إذا دخل عليّ بصقت في وجهه ، فقال رسول الله ﷺ : « أتردين عليه حديقته ؟ » قالت : نعم ، فردت عليه حديقته ، قال : ففرق بينهما رسول الله ﷺ . وقد اختلف العلماء في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها ، فذهب الجمهور إلى ذلك لعموم قوله تعالى ﴿ فلا جناح عليهما في ما افتدت به ﴾ وقوله ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها . . ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها ، وفي الحديث « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها ، وفرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم محارم فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » .

(٢٣٠) ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾

أي إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرتين فإنها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح ، فلو تزوجت ، ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول . عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظي وأنا وأبو بكر عند النبي ﷺ فقالت : إن رفاعة طلقني البتة ، وإن عبدالرحمن بن الزبير تزوجني ،

وإنما عنده مثل الهدية ، وأخذت هدية من جلبابها ، فما زاد رسول الله عن التبسم ، فقال رسول الله ﷺ « كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة ، لا حتى تذوقي عُسيلته ، ويذوق عُسيلتك » . والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزوج ، فقد قال رسول الله « ألا أخبركم بالتيس المستعار ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له »

(٢٣١) ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فأما أن يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف ، وهو أن يشهد على رجعتها وينوي عشرتها بالمعروف ، أو يسرحها أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله باللتي هي أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح . ﴿ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا﴾ كان الرجل يطلق امرأته فإذا قاربت انقضاء عدتها راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ، ثم يطلقها فتعتد ، فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال : ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ أي بمخالفته أمر الله تعالى . ﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل : زوجتك ابنتي ، ثم يقول : كنت لاعباً ، ويقول : قد أعتقت ، ويقول : كنت لاعباً ، فأنزل الله هذه الآية ، فقال رسول الله ﷺ : « ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب فهن جائزات عليه : الطلاق والعتاق والنكاح » . ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي في إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم . ﴿والحكمة﴾ أي السنة . ﴿يعظكم به﴾ أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم . ﴿واتقوا الله ﴾ أي فيما تأتون وتذرون . ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ أي فلا يخفي عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك .

(٢٣٢) ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم

بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضي عدتها ، ثم يبدو له أن يتزوجها ، وأن يراجعها ، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها ، عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ ، فكانت عنده ما كانت ، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لكع بن لكع، أكرمتك بها، وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليها أبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله هذه الآية. وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لا بد في النكاح من ولي ، وفي الحديث « لا تزوج المرأة المرأة ، ولا تزوج المرأة نفسها ، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها » وقوله ﴿ ذلك يوعظ به . . ﴾ أي هذا الذي نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به ويتعظ به ويفعل له ﴿ من كان منكم ﴾ أيها الناس ﴿ يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي يؤمن بشرع الله ، ويخاف وعيد الله وعذابه في الدار الآخرة ، وما فيها من الجزاء . ﴿ ذلكم أزكى لكم وأطهر ﴾ أي اتباعكم شرع الله في رد الموليات إلى أزواجهن وترك الحمية في ذلك أزكى وأطهر لقلوبكم . ﴿ والله يعلم ﴾ أي من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه . ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ أي الخيرة فيما تأتون ولا تذرون .

﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (٢٣٣)

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة ، وهي سنتان ، فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك . ولهذا قال : ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ وذهب أكثر الأئمة

إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون حولين ، فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرِّم ، وفي الحديث « لا يحرِّم من الرضاع إلا ما كان في الحولين » . وقوله ﴿ وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف ﴾ أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته في يساره وتوسطه وإقتاره . وقوله ﴿ لا تضار والدة بولدها ﴾ أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً ، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ، ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلا يحل لها ذلك ، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ، ولهذا قال ﴿ ولا مولود له بولده ﴾ وقوله ﴿ وعلى الوارث مثل ذلك ﴾ قيل في عدم الضرار لقريبه، وقيل : عليه مثل على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها ، وهو قول الجمهور . وقوله ﴿ فإن أراد ا فصالاً عن تراض . . ﴾ أي فإن اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا في ذلك مصلحة له وتشاورا في ذلك وأجمعا عليه فلا جناح عليهما في ذلك ، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما دون الآخر لا يكفي ، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر . وقوله ﴿ وإن أردتم أن تسترضعوا . . ﴾ أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد ، إما لعذر منها ، أو لعذر له فلا جناح عليهما في بذله ، ولا عليه في قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن ، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف . وقوله ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أحوالكم ﴿ واعلموا أن الله بما تعملون بصير ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ ﴿٢٣٤﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال ، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن ، وغير المدخول بهن بالاجماع ، ومستنده في غير المدخول بها عموم الآية الكريمة ، وهذا الحديث أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ، ولم يفرض لها فترددوا إليه مراراً في ذلك ، فقال : أقول فيها برأيي فإن يك صواباً فمن الله ، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملاً ، وفي لفظ لها صداق مثلها ، لا وكس ولا شطط ، وعليها العدة ، ولها الميراث ، فقام معقل بن يسار الأشجعي فقال : سمعت رسول الله ﷺ قضى

به في بروع بنت واشق ، ففرح عبدالله بذلك فرحاً شديداً ، ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهي حامل فإن عدتها بوضع الحمل ، ولو لم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ وقوله ﴿ فإذا بلغن أجلهن . . ﴾ يستفاد من هذا وجوب الاحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها ، وفي الحديث « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » والاحداد عبارة عن ترك الزينة من الطيب ، وليس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك ، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً ، ولا يجب في عدة الرجعية قولاً واحداً ، وهل يجب في عدة البائن ؟ فيه قولان . ﴿ فإذا بلغن أجلهن ﴾ أي انقضت عدتهن . ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أي على أوليائها . ﴿ فيما فعلن ﴾ يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن أن يتزين ويتصنعن ، ويتعرضن للتزويج ، فذلك المعروف ، أو هو النكاح الحلال الطيب .

(٢٣٥) ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولا جناح عليكم ﴾ أن تعرِّضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح كأن يقول : إني أريد التزوج وإن النساء لمن حاجتي ، ولوددت أن ييسر لي امرأة صالحة ، وهكذا حكم المطلقة المبتوتة ، يجوز التعريض لها . وقوله﴿ أو أكننتم في أنفسكم ﴾ أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن ، ولهذا قال ﴿ علم الله أنكم ستذكرونهن ﴾ أي في أنفسكم فرفع الحرج عنكم في ذلك ، ثم قال : ﴿ ولكن لا تواعدوهن سراً ﴾ أي لا تقل لها إني عاشق ، وعاهديني أن لا تتزوجي غيري ، أو هو أن يتزوجها في العدة سراً ، فإذا حلت أظهر ذلك . ﴿ إلا أن تقولوا قولاً معروفاً ﴾ كقوله لوليها : لا تسبقني بها ، أي لا تزوجها حتى تعلمني . ﴿ ولا تعزموا عقدة . . ﴾ يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة ، وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز العقد في مدة العدة ، فلو تزوجها في العدة ودخل بها ، فإنه يفرق بينهما . ﴿ واعلموا أن الله يعلم . . ﴾ توعدهم على ما يقع في ضمائرهم من أمور النساء ، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ، ثم لم يؤيسهم من رحمته ، ولم يقنطهم من عائدته فقال : ﴿ واعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ .

﴿٢٣٦﴾ ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها ، وقبل الدخول بها والفرض لها إن كانت مفوضة ، وإن كان في هذا انكسار لقلبها ، ولهذا أمر الله بامتاعها ، وهو تعويضهاعمافاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله على الموسع قدره ، وعلى المقتر قدره ، وعن ابن عباس : متعة الطلاق أعلاه الخادم ، ودون ذلك الورِق ، ودون ذلك الكسوة . وهل تجب المتعة لكل مطلقة لعموم ﴿ وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ أو أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس ، وإن كانت مفروضاً لها لقوله تعالى : ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ أو أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها ؟ على أقوال ـ ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول ، وهذا ليس بمنكور وعليه تحمل آية التخيير في الأحزاب ، ومن العلماء من يقول : إنها مستحبة مطلقاً .

﴿٢٣٧﴾ ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولىٰ ، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الرجل قبل الدخول ، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها ، لا سيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم . وتشطير المهر والحالة هذه مجمع عليه بين العلماء ، لا خلاف بينهم في ذلك ، فإنه متى كان قد سمى لها صداقاً ، ثم فارقها قبل دخوله بها فإنه يجب لها نصف ما سمى من الصداق ، إلا أنه عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج ، وإن لم يدخل بها ، وهو مذهب الشافعي في القديم ، وبه حكم الخلفاء الراشدون ، لكن روى الشافعي عن ابن عباس أنه قال في رجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ، ثم يطلقها ليس لها إلا نصف الصداق ، لهذه الآية ، قال الشافعي : بهذا أقول ، وهو ظاهر الكتاب . وقوله : ﴿ إلا أن يعفون ﴾ أي النساء عما وجب لها على زوجها ، فلا يجب لها

عليه شيء . وقوله : ﴿ أو يعفو الذي بيده . . ﴾ هو الزوج لما روي عن النبي ﷺ : « ولي عقدة النكاح الزوج » وهو الجديد من مذهب الشافعي ، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه ، وقيل : هو أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا بإذنه ، وهو مذهب مالك ، وقول الشافعي في القديم . وقوله ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ خوطب به الرجال والنساء ، فأقربهما للتقوى الذي يعفو ، فالفضل ها هنا أن تعفو المرأة عن شطرها ، أو إتمام الرجل الصداق لها ، ولهذا قال : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ أي الإحسان ، يعني لا تهملوه ، بل استعملوه بينكم ، وفي الحديث « ليأتين على الناس زمان عضوض ، يعض المؤمن على ما في يديه ، وينسى الفضل » ﴿ إن الله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم ، وسيجزي كل عامل بعمله .

(٢٣٨) ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها ، وفي الحديث عن ابن مسعود « سألت رسول الله ﷺ ، أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة في وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » . قال : حدثني بهن رسول الله ﷺ ، ولو استزدته لزادني . والصلاة الوسطى ، هي الفجر ، أو الظهر ، أو العصر ، أو المغرب ، أو العشاء ، أو الصلوات الخمس أقوال ، أقواها فيما يبدو العصر . ﴿ وقوموا لله قانتين ﴾ أي خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه ، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام بين يديه لمنافاته إياه « إن في الصلاة لشغلاً » .

(٢٣٩) ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾

لما أمر الله عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها ، وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذي يشتغل فيها عن أدائها على الوجه الأكمل ، وهي حال القتال ، والتحام الحرب ، فقال : ﴿ فإن خفتم . . ﴾ أي فصلوا على أي حال كان رجالاً أو ركباناً ، يعني مستقبلي القبلة ، وغير مستقبليها . ﴿ فإذا أمنتم . . ﴾ أي أقيموا الصلاة كما أمرتم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها . ﴿ كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم وهداكم للإيمان وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة ، فقابلوه بالشكر والذكر .

(٢٤٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ

﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

كان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها في الدار سنة فنسختها آية المواريث ، وكان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله فنسختها الآية الأخرى ﴿ يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ﴾ إلا أن تكون حاملاً فعدتها أن تضع ما في بطنها .

(٢٤١) ﴿ وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

وقد استدل بهذه الآية من ذهب إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضاً لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولاً بها .

(٢٤٢) ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي في إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه ، بينه ووضحه ، وفسره ولم يتركه مجملاً في وقت احتياجكم إليه . ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمون وتتدبرون .

(٢٤٣) ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون ، قالوا : نأتي أرضاً ليس بها موت ، حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا ، قال الله لهم : ﴿ موتوا ﴾ فماتوا ، فمر عليهم نبي من الأنبياء ، فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم، فذلك قوله عز وجل ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا. .﴾ وكان في إحيائهم دليل قاطع وعبرة على وقوع المعاد الجسماني يوم القيامة. ولهذا قال ﴿إن الله لذو فضل على الناس ﴾ أي فيما يريهم من الآيات الباهرة ، والحجج القاطعة ، والدلالات الدافعة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم . وفي هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغني حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء طلباً لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد . ومن هذا القبيل الحديث الصحيح « إذا كان ـ الوباء ـ بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » .

(٢٤٤) ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

كما أن الحذر لا يغني من القدر كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلاً ولا يبعده ، بل الأجل المحتوم ، والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ، ولا ينقص منه ، كما قال تعالى : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .

(٢٤٥) ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يحث تعالى عباده على الانفاق في سبيل الله ، وقد كرر الله هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع . ولما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : « نعم ، يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده ، قال : فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي ، قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه ، وعيالها ، فجاء أبوالدحداح فناداها ، يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضه ربي عز وجل . وقوله ﴿ فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ كما قال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء ﴾ ﴿ والله يقبض ويبسط ﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا ، فالله هو الرزاق ، يضيق على من يشاء من عباده في الرزق ، ويوسعه على آخرين ، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة .

(٢٤٦) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

هذا النبي هو شمويل فقد كان بنو إسرائيل من بعد موسى على طريق الاستقامة مدة من الزمن ، ثم أحدثوا الأحداث ، وعبد بعضهم الأصنام ، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا ، فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا خلقاً كثيراً ، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة ـ ولم يكن أحد يقابلهم إلا غلبوه ، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان ، وكان ذلك هو موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى

الكليم فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل ، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوى الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل فأخذوها فحبسوها في بيت ، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم فوهبها الله غلاماً فسمته شمويل ، أو شمعون فشب ذاك الغلام ونشأ في بني إسرائيل ، وأنبته الله نباتاً حسناً ، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه ، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده ، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم ، وكان الملك قد باد فيهم أيضاً ، فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه ﴿ قالوا وما لنا ألا نقاتل . . ﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد ، قال تعالى : ﴿ فلما كتب عليهم القتال . . ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا ، بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢٤٧)

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم فعين لهم طالوت ، وكان رجلاً من أجنادهم ، ولم يكن من بيت الملك فيهم ، لأن الملك كان في سبط يهوذا ، ولم يكن هذا من ذلك السبط ، فلهذا قالوا : ﴿ أنى يكون له الملك علينا ﴾ أي كيف يكون ملكاً علينا ﴿ ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ﴾ أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك ، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء ، وقيل : دباغاً ، وهذا اعتراض على نبيهم وتعنت ، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ، ثم قد أجابهم نبيهم قائلاً : ﴿ إن الله اصطفاه عليكم ﴾ أي اختاره من بينكم ، والله أعلم به منكم ، يقول : لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي ، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك . ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ أي وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها ،أي أتم علماً ، وقامة منكم ، ومن ها هنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن ، وقوة شديدة في بدنه ونفسه ، ثم قال : ﴿ والله يؤتي ملكه من يشاء ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ لعلمه وحكمته ورأفته

بخلقه ، ولهذا قال : ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي هو واسع الفضل ، يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢٤٨)

يقول لهم نبيهم : إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فيه سكينة من ربكم ﴾ فيه وقار ورحمة ، وما تعرفون من آيات الله فستكـون إليه . وقوله ﴿ وبقية مما ترك آل موسى وآل هرُون ﴾ يعني عصا موسى وهرون ، وثياب موسى وثياب هرْون ، ورضاض الألواح . وقوله ﴿ تحمله الملائكة ﴾ جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون ، فآمنوا بنبوة شمعون ، وأطاعوا طالوت . وقوله ﴿ إن في ذلك لآية لكم ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به من النبوة ، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بالله واليوم الآخر .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (٢٤٩)

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده ، ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل ، فقال : ﴿ إن الله مبتليكم بنهر ﴾ أي مختبركم بنهر ، وهو نهر بين الأردن وفلسطين ، يعني نهر الشريعة المشهور ﴿ فمن شرب منه فليس مني ﴾ أي فلا يصحبني اليوم في هذا الوجه ﴿ ومن لم يطعمه . . . ﴾ أي فلا بأس عليه ، قال تعالى : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾ قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روي ، ومن شرب منه لم يرو . قال السدي : كان الجيش ثمانين ألفاً ، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً ، وتبقى معه أربعة آلاف ، لكن روي عن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه

النهر ، وما جازه معه إلا مؤمن ، ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ فلما جاوزه هو . . ﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق ، فإن النصر من عند الله ،ليس عن كثرة عدد ، ولا عُدد ، ولهذا قالوا : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . . ﴾ .

(٢٥٠) ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

أي لما واجه حزب الايمان ـ وهم قليل من أصحاب طالوت ـ لعدوهم جالوت ـ وهم عدد كثير ـ ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك . ﴿ وثبت أقدامنا ﴾ أي في لقاء الأعداء ، وجنبنا الفرار والعجز ﴿ وانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

(٢٥١) ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

قال تعالى : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم . ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان في يده ، رماه فأصابه فقتله ، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ، ويشاطره نعمته ، ويشركه في أمره ، فوفى به ، ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ، ولهذا قال : ﴿ وآتاه الله الملك ﴾ الذي كان بيد طالوت . ﴿ والحكمة ﴾ أي النبوة بعد شمويل. ﴿وعلمه مما يشاء﴾ أي مما يشاء الله له من العلم الذي اختصه به. ثم قال تعالى : ﴿ ولولا دفع الله . . ﴾ أي لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بني إسرائيل بمقاتلة طالوت ، وشجاعة داود لهلكوا . وفي حديث إسناده ضعيف الإسناد عن ابن عمر « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر ﴿ ولولا دفع الله الناس . . ﴾ وفي حديث غريب ضعيف أيضاً عن جابر « إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده ، وأهل دويرته ، ودويرات حوله ، ولا يزالون في حفظ الله عز وجل ما دام فيهم » وقد ورد عن ثوبان رفع الحديث قال : « لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون ، وبهم تمطرون ، وبهم ترزقون حتى يأتي أمر الله » . وورد حديث آخر عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ :« الأبدال في أمتي ثلاثون ، بهم ترزقون،وبهم تمطرون ، وبهم تنصرون » قال قتادة : إنى لأرجو أن يكون الحسن منهم .

(٢٥٢) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق ، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماء بني إسرائيل . ﴿ وإنك ﴾ يا محمد ﴿ لمن المرسلين ﴾ وهذا توكيد وتوطئة للقسم .

(٢٥٣) ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

يخبر الله تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض ، كما قال سبحانه ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً ﴾ ﴿ منهم من كلم الله ﴾ يعني موسى ومحمداً ﷺ ، وكذلك آدم عليه السلام كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه . ﴿ ورفع بعضهم درجات ﴾ كما ثبت في حديث الاسراء حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل . فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال اليهودي في قسمه : لا والذي اصطفى موسى على العالمين ، فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودي ، فقال : أي خبيث ، وعلى محمد ﷺ ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ فاشتكى على المسلم فقال رسول الله ﷺ : « لا تفضلوني على الأنبياء ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش ، فلا أدري أفاق قبلي ، أو جوزي بصعقة الطور ؟ فلا تفضلوني على الأنبياء » وفي رواية « لا تفضلوا بين الأنبياء » فالجواب من وجوه : أحدها أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل ، وفي هذا نظر . الثاني أن هذا قاله من قبل الهضم والتواضع ، الثالث أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر ، الرابع لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية ، الخامس ليس مقام التفضيل إليكم ، وإنما هو إلى الله عز وجل ، وعليكم الانقياد والتسليم له والايمان به . ﴿ وآتينا عيسى ابن مريم البينات ﴾ أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد

الله ورسوله إليهم . وروح القدس جبريل عليه السلام ﴿ ولو شاء الله ما اقتتل . . ﴾ أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره .

(٢٥٤) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

يأمر الله تعالى عباده بالانفاق مما رزقهم في سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم ، ومليكهم ، وليبادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة ﴾ أي لا يباع أحد من نفسه ، ولا يفادى بمال لو بذله ، ولو جاء بملء الأرض ذهباً ، ولا تنفعه خلة أحد ، يعني صداقته ، بل ولا نسابته، كما قال: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾ ﴿ولا شفاعة﴾،أي ولا تنفعهم شفاعة الشافعين . وقوله : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ مبتدأ محصور في خبره ، أي ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذٍ كافراً . وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال : الحمد لله الذي قال : ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ولم يقل : والظالمون هم الكافرون .

(٢٥٥) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

هذه آية الكرسي ، ولها شأن عظيم ، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله ، عن أُبَيٍّ ، هو ابن كعب أن النبي ﷺ سأله « أي آية في كتاب الله أعظم ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، فرددها مراراً ، ثم قال : آية الكرسي قال : « ليهنك العلم أبا المنذر ، والذي نفسي بيده ، إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش » . وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ، فقوله : ﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق . ﴿ الحي القيوم ﴾ أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً ، القيم لغيره . ﴿ لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء، ولا يخفى عليه خافية، فلا تغلبهُ سنة، وهو الوش والنعاس ﴿ولا نوم﴾، وهو

أقوى من السنة . وفي الصحيح عن أبي موسى قال : « قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل ، وعمل الليل قبل عمل النهار ، حجابه النور ، أو النار ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » . ﴿ له ما في السمٰوات وما في الأرض ﴾ إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه وتحت قهره وسلطانه . ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه أن لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا بإذنه له في الشفاعة ، كما في حديث الشفاعة « آتي تحت العرش فأخر ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقال : ارفع رأسك ، وقل تسمع واشفع تشفع قال : فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة » . وقوله: ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها . ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ أي لا يطلع أحد من علم الله على شيء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه . ﴿ وسع كرسيه السمٰوات والأرض ﴾ عن ابن عباس قال : علمه . ﴿ ولا يؤوده حفظهما ﴾ أي لا يثقله ولا يكترثه حفظ السمٰوات والأرض ومن فيهما ، ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب على جميع الأشياء ، فلا يعزب عنه شيء ، والأشياء كلها حقيرة بين يديه ، متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة إليه ، محتاجة فقيرة ، وهو الغني الحميد ، الفعال لما يريد ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو القاهر لكل شيء ، الحسيب على كل شيء ، الرقيب العلي العظيم ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

(٢٥٦) ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام ، فإنه بين واضح جلي دلائله وبراهينه ، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه ، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ، ومن أعمى الله قلبه ، وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً . ﴿ فمن يكفر بالطاغوت . . ﴾ أي من خلع الأنداد والأوثان ، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي فقد ثبت في

أمره ، واستقام على الطريقة المثلىٰ والصراط المستقيم . وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم ، فهي في نفسها ، محكمة مبرمة قوية ، وربطها قوي شديد . والعروة الوثقى : الإيمان ، أو الإسلام .

﴿٢٥٧﴾ ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يخبر الله تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام ، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل النير ، وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان ، يزين لم ما هم فيه من الجهالات والضلالات ، ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك . ووحد تعالى لفظ النور ، وجمع الظلمات لأن الحق واحد ، والكفر أجناس كثيرة ، وكلها باطلة . ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .

﴿٢٥٨﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

هذا الذي حاج إبراهيم في ربه هو ملك بابل ، نمرود بن كنعان . قال مجاهد : وملك الدنيا : مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران نمرود وبختنصر . والله أعلم . ﴿ ألم تر ﴾ أي بقلبك يا محمد . ﴿ إلى الذي حاج إبراهيم في ربه ﴾ أي في وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، كما قال بعده فرعون لملئه ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ ، والمعاندة الشديدة إلا تجبره ، وطول مدته في الملك وذلك أنه يقال : إنه مكث أربعمائة سنة في ملكه ، ولهذا قال : ﴿ أن آتاه الله الملك ﴾ وكان طلب من إبراهيم دليلاً على وجود الرب الذي يدعو إليه فقال إبراهيم : ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أي إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، قال النمرود : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾ ادعى لنفسه هذه المقام عناداً ومكابرة ،

وأوهم أنه هو الذي يحيي ويميت إذ قال : إني أوتىٰ بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ، فرد إبراهيم هذه المكابرة بقوله : ﴿ فإن الله يأتي بالشمس . . ﴾ أي إذا كنت تدعي من أنك تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فإن كنت إلَهاً كما ادعيْت تحيي وتميت فأت بها من المغرب ؟ فلما عُلم عجزه وانقطاعه ، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي أخرس فلا يتكلم ، وقامت عليه الحجة ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً ، بل حجتهم داحضة عند ربهم ، وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

(٢٥٩) ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

اختلفوا في هذا المار من هو؟ فقيل : هو عزير ، وهذا القول هو المشهور ، وقيل : هو أرميا بن حلقيا ، وقيل : هو اسم الخضر عليه السلام ، وقيل : حزقيل . وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس ، مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها . ﴿ وهي خاوية ﴾ أي ليس فيها أحد ، من قولهم : خوت الدار تخوي خوياً . وقوله : ﴿ على عروشها ﴾ أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال ﴿ أنى يحيي هذه الله بعد موتها ؟ ﴾ وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها ، وبعدها عن العود لما كانت عليه . قال تعالى : ﴿ فأماته الله مائة عام ثم بعثه ﴾ وعمرت البلدة بعد سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها ، وتراجع بنو إسرائيل إليها ، فلما بعثه الله بعد موته كان أول شيء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه ، كيف يحيي بدنه ، فلما استقل سوياً ﴿ قال ﴾ الله له أي بواسطة الملك ﴿ كم لبثت ؟ قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ﴾ وذلك أنه مات أول النهار ، ثم بعثه في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ﴿ قال بل لبثت . . ﴾ وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير ، فوجده لم يتغير منه شيء ، لا العصير استمال ، ولا التين حمض ولا أنتن ، ولا العنب نقص ﴿ وانظر إلى حمارك ﴾ أي كيف يحييه الله عز

وجل وأنت تنظر ﴿ ولنجعلك آية للناس ﴾ أي دليلاً على المعاد ﴿ وانظر إلى العظام كيف ننشزها ﴾ أي نحييها ، ﴿ ثم نكسوها لحماً ، فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾ أي أنا عالم بهذا ، وقد رأيته عياناً ، فأنا أعلم أهل زماني بذلك .

(٢٦٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسباباً منها أنه لما قال لنمرود ﴿ ربي الذي يحيي ويميت ﴾ أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى . . ﴾ وقوله : ﴿ فصرهن إليك ﴾ أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً ، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ، ونتف ريشهن ، ومزقهن ، وخلط بعضهن ببعض ، ثم جزأهن أجزاء ، وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ رؤوسهن بيده ، ثم أمره الله أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ، ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ، ولهذا قال : ﴿ واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء ، ولا يمتنع منه شيء ، وما شاء كان بلا مانع ، لأنه القاهر لكل شيء ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . قال ابن عباس لابن عمرو بن العاص : أي آية في القرآن أرجى عندك ؟ فقال عبدالله بن عمرو : قول الله : ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . ﴾ فقال ابن عباس : لكن أنا أقول : قول الله عز وجل : ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف . . ﴾ فرضي من إبراهيم قوله : ﴿بلى﴾ قال : فهذا لما يعترض في النفوس ويوسوس به الشيطان . وفي الحديث : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال : ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ والمعنى إذا لم أشك أنا في قدرة الله على إحياء الموتى ، فإبراهيم أولى بأن لا يشك ، وقال ذلك : على سبيل التواضع ، والهضم من النفس .

(٢٦١) ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذا مثل ضربه الله لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله ، وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . عن ابن مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة » . ﴿ والله يضاعف لمن يشاء ﴾ أي بحسب إخلاصه في عمله . ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي فضله واسع كثير ، أكثر من خلقه ، عليم بمن يستحق ، ومن لا يستحق ، سبحانه وبحمده .

(٢٦٢) ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يمدح سبحانه وتعالى الذين ينفقون في سبيله ، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات مناً على من أعطوه ، فلا يمنون به على أحد ، ولا يمنون به لا بقول ولا فعل . وقوله ﴿ ولا أذى ﴾ أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحبطون به ما سلف من الإحسان . ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم على الله ، لا على أحد سواه . ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أحوال الإحسان . ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي ثوابهم على الله ، لا على أحد سواه . ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلونه من أهوال القيامة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي على ما خلفوه من الأولاد ، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لأنهم صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك .

(٢٦٣) ﴿ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴾

﴿ قول معروف ﴾ أي من كلمة طيبة ، ودعاء لمسلم . ﴿ ومغفرة ﴾ أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي . ﴿ خير من صدقة يتبعها أذى ﴾ عن عمرو بن دينار قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف ، ألم تسمع قول الله : ﴿ قول معروف ومغفرة . . ﴾ . ﴿ والله غني ﴾ عن خلقه . ﴿ حليم ﴾ أي يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم . وفي الحديث « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى ، والمسبل إزاره ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

﴿264﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

أخبر تعالى أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى ، فما بقي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ، والمعنى : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس ، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله ، وإنما قصده مدح الناس له ، أو شهرته بالصفات الجميلة ، ليشكر بين الناس ، أو يقال : إنه كريم ، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، وجزيل ثوابه ، ولهذا قال : ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ ثم ضرب الله تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه فقال : ﴿ فمثله كمثل صفوان ﴾ وهو جمع صفوانة ، فمنهم من يقول : الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً ، وهو الصفا ، وهو الصخر الأملس . ﴿ عليه تراب فأصابه وابل ﴾ وهو المطر الشديد . ﴿ فتركه صلداً ﴾ أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي أملس يابساً أي لا شيء عليه من ذلك التراب ، بل قد ذهب كله ، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله ، وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يقدرون على شيء . . ﴾ .

﴿265﴾ ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم في ذلك ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أي وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء . وقوله : ﴿ كمثل جنة بربوة ﴾ أي كمثل بستان بربوة ، وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض . وقوله : ﴿ أصابها وابل ﴾ وهو المطر الشديد . ﴿ أكلها ﴾ أي ثمرتها . ﴿ ضعفين ﴾ أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان . ﴿ فإن لم يصبها وابل فطلٌّ ﴾ هو الرذاذ ، وهو اللين من المطر ، أي هذه جنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً ، لأنها إن لم يصبها وابل فطل ، وأياً ما كان فهو كفايتها ، وكذلك عمل المؤمنين لا يبور أبداً ، بل يتقبله الله ،

ويكثره ، وينميه ، كل عامل بحسبه ، ولهذا قال : ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء .

(٢٦٦) ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ فأصابها إعصار ﴾ هو الريح الشديد . ﴿ فيه نار فاحترقت ﴾ أي أحرق ثمارها ، وأباد أشجارها ، فأي حال يكون حاله ؟. عن ابن عباس قال : ضرب الله مثلاً حسناً ، وكل أمثاله حسن قال : ﴿ أيود أحدكم . . . ﴾ يقول : ضيعة في شيبته ﴿ وأصابه الكبر ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره ، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه ، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ، ولم يكن عند نسله خير يعودون عليه ، وكذلك الكافر يوم القيامة إذا رد إلى الله عز وجل ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه كما لم يغن عن هذا ولده ، وحرم أجره عند أفقر ما كان إليه ، كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ما كان إليها عند كبر سنه وضعف ذريته . روى الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه : « اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني ، وانقضاء عمري » . ولهذا قال تعالىٰ : ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ أي تعتبرون له وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المراد منها ، كما قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

(٢٦٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

يأمر الله عباده بالصدقة من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها ، من الذهب والفضة ، والثمار والزروع ، قال ابن عباس : أمرهم بالإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه ، وهو خبيثه ، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً . ولهذا قال : ﴿ ولا تيمموا الخبيث ﴾ أي لا تقصدوا الخبيث . ﴿ منه تنفقون ولستم بآخذيه . . ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتقاضوا فيه ، فإن الله أغنى عنه منكم ، فلا تجعلوا لله ما تكرهون ، أو معناه لا تعدلوا عن المال الحلال ، وتقصدوا إلى

الحرام فتجعلوا نفقتكم منه . وفي الحديث « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه ، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ، قالوا : وما بوائقه يا رسول الله ؟ قال : « غشه وظلمه » ولا يكسب عبد مالاً من حرام ، فينفق منه فيبارك له فيه ، ولا يتصدق به فيقبل منه ، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لا يمحو السيء بالسيء ، ولكن يمحو السيء بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث » . والآية نزلت في الأنصار ، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها ـ بساتينها ـ البسر ، فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ ، فيأكل فقراء المهاجرين منه ، فيعمد الرجل منهم إلى الخشف فيدخله في أقفار البسر يظن أن ذلك جائز ، فأنزل الله فيمن فعل ذلك ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾ وقوله : ﴿ واعلموا أن الله غني حميد ﴾ أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غني عنها ، وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقير ، كقوله : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤ ها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ وهو غني عن جميع خلقه ، وجميع خلقه فقراء إليه ، وهو واسع الفضل ، لا ينفد ما لديه ، فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غني واسع العطاء ، كريم جواد ، وسيجزيه بها ، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة ، من يقرض غير عديم ولا ظلوم ؟ وهو الحميد ، أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(٢٦٨) ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

في الحديث « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ هذه الآية . وقوله : ﴿ يعدكم الفقر ﴾ أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله . ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الاملاق ، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق . ﴿ والله يعدكم مغفرة منه ﴾ أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء . ﴿ وفضلاً ﴾ أي في مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر .

﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ الحكمة ﴾ القرآن والسنة والتفسير والعلم والفقه وخشية الله ، فإن خشية الله رأس كل حكمة ورأس الحكمة مخافة الله . وفي الحديث « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكة في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس » .

(٢٧٠) ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

يخبر الله تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات ، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ، ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته ، بل خالف أمره ، وكذب خبره ، وعبد معه غيره . ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته .

(٢٧١) ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

أي إن أظهرتموها فنعم شيء هي . وقوله : ﴿ فهو خير لكم ﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية . وفي الحديث « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » . ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي لا يخفى عليه من ذلك شيء ، وسيجزيكم عليه .

(٢٧٢) ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية ، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ وقوله ﴿ وما تنفقوا من خير فلأنفسكم ﴾ كقوله : ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ ونظائرها في القرآن كثيرة . وقوله ﴿ وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ﴾ يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله ، أي إن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب ، البر ، أو فاجر ، أو مستحق ،

أو غيره ؟ وهو مثاب على قصده ، ومستند هذا تمام الآية ﴿ وما تنفقوا من خير يوفَّ إليكم . . ﴾ والحديث المخرج في الصحيحين عن أبي هريرة : « قال : قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يـد زانية ، فأصبح الناس يتحدثون : تصدق على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد غني ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني ، قال : اللهم لك الحمد على غني ، لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق ، فأتي فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن الزنا ، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته » .

(٢٧٣) ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله ، وسكنوا المدينة ، وليس لهم سبب يردون على أنفسهم ما يغنيهم . ﴿ ضرباً في الأرض ﴾ يعني سفراً للتسبب في طلب المعاش ، والضرب في الأرض هو السفر . وقوله ﴿ يحسبهم الجاهل . . ﴾ أي الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم في لباسهم وحالهم ومقالهم ، وفي الحديث : « ليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده التمرة والتمرتان ، واللقمة واللقمتان ، والأكلة والأكلتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » . وقوله ﴿ تعرفهم بسيماهم ﴾ أي بما ظهر لذوي الألباب من صفاتهم . ﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ أي لا يلحون في المسألة ، ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه ، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسألة فقد ألحف في المسألة . وقوله ﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه ، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه .

(٢٧٤) ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

هذا مدح منه تعالى للمنفقين في سبيله وابتغاء وجهه في جميع الأوقات من ليل أو نهار ، حتى إن النفقة على الأهل تدخل في ذلك وفي الحديث « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه

الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك » . وقوله ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة على ما فعلوا من الانفاق في الطاعات .

(٢٧٥) ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر الله الأبرار المؤدين النفقات المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقرابات في جميع الأحوال والأوقات شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات ، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال : ﴿ الذين يأكلون الربا . . . ﴾ أي لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه ، وتخبط الشيطان له ، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً . وقوله ﴿ ذلك بأنهم قالوا . . ﴾ أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعه . ﴿ فمن جاءه موعظة . . ﴾ أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه فله ما سلف من المعاملة . ﴿ ومن عاد ﴾ إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهيَ الله عنه فقد استوجب العقوبة ، وقامت عليه الحجة ، ولهذا قال : ﴿ فأولئك أصحاب النار . . ﴾ وفي الحديث « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه » .

(٢٧٦) ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا ، أي يذهبه ، إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه ، أو يحرمه بركة ماله ، فلا ينتفع به ، بل يعدمه في الدنيا ، ويعاقبه عليه يوم القيامة . وفي الحديث : « إن الربا وإن كثر ، فإن عاقبته تصير إلى قل » . وقوله : ﴿ ويربي الصدقات ﴾ أي ينميها ويكثرها ، وفي الحديث « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه ، حتى يكون مثل الجبل » وقوله ﴿ والله لا يحب كل كفار أثيم ﴾ أي لا يحب كفور القلب ، أثيم القول والفعل .

(٢٧٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يقول تعالى : مادحاً للمؤمنين بربهم ، والمطيعين أمره ، المؤدين شكره ، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة ، وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا . . . ﴾ .

(٢٧٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يأمر الله عباده المؤمنين بتقواه ، وينهاهم عما يقربهم إلى سخطه ، ويبعدهم عن رضاه ، فيقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون . ﴿ وذروا مابقي من الربا ﴾أي اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الانذار ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع ، وتحريم الربا وغير ذلك . كان بين بني عمرو بن عمير من ثقيف ، وبني المغيرة من بني مخزوم ربا في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم ، فتشاوروا ، وقالت بنو المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام بكسب الإسلام ، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية ، فكتب رسول الله ﷺ إليه ، بهذه الآية والتي بعدها : ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله . . ﴾ .

(٢٧٩) ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

فقالوا : نتوب إلى الله ونذر ما بقي من الربا ، فتركوه كلهم ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطي الربا بعد الانذار . عن ابن عباس قال : « يقال يوم القيامة لآكل الربا : خذ سلاحك للحرب ، ثم قرأ ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب . . ﴾ وقال علي بن طلحة عن ابن عباس : « فمن كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه ، فإن نزع ، وإلا ضرب عنقه » . وقوله ﴿ لا تظلمون ﴾ أي بأخذ الزيادة . ﴿ ولا تُظلمون ﴾ أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً ، بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ، لا نقص منه .

(٢٨٠) ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال : ﴿ وإن كان ذو عسرة . . ﴾ لا كما قال أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين، إما أن تقضي وإما أن

تربي . ثم يندب تعالى إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ، فقال : ﴿ وأن تصدقوا خير لكم . . ﴾ أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية ، وتضعوه عن المدين . وفي الحديث : « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فلييسر على معسر ، أو ليضع عنه » وعن حذيفة أن رجلاً أتى به الله عز وجل ، فقال : ماذا عملت في الدنيا ؟ فقال له الرجل : ما عملت مثقال ذرة من خير ، فقال ثلاثاً ، وقال في الثالثة : إني كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا ، فكنت أبايع الناس ، فكنت أيسر على الموسر ، وأنظر المعسر ، فقال تبارك وتعالى : « نحن أولى بذلك منك ، تجاوزوا عن عبدي ، فغفر له »

(٢٨١) ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته خلقه على ما عملوا ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون . . ﴾ وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن كله ، يقولون : إن النبي عاش بعدها تسع ليال ، وبدىء يوم السبت ، ومات يوم الاثنين ﷺ .

(٢٨٢) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذه الآية أطول آية في القرآن العظيم . وقد أرشد الله فيها عباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ، ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد

فيها . عن ابن عباس قال : « قدم النبي ﷺ المدينة ، وهم يسلفون في الثمار السنة والسنتين والثلاث ، فقال رسول الله ﷺ : « من أسلف فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » وقوله ﴿ فاكتبوه ﴾ أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ . قال ابن جريج : من أدان فليكتب ، ومن ابتاع فليشهد ، قال كعب ذات يوم لأصحابه : هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له ؟ قالوا : وكيف يكون ذلك ؟ قال : رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب ، فلما حل ماله جحده صاحبه ، فدعا ربه فلم يستجب له ، لأنه قد عصى ربه » وقيل : كانت كتابة الدين واجبة ثم نسخ ذلك بقوله ﴿ فإن أمن بعضكم . . ﴾ والدليل على ذلك أيضاً ما روى الإمام أحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتني بشهداء أشهدهم ، قال : كفى بالله شهيداً ، قال : ائتني بكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يقدم عليه للأجل الذي أجله ، فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها ، فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفة معها إلى صاحبها ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر ، ثم قال : اللهم إنك تعلم أني استلفت فلاناً ألف دينار ، فقلت : كفى بالله كفيلاً ، فرضي بذلك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً فرضي بذلك ،وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث بها إليه بالذي أعطاني فلم أجد مركباً ، وإني استودعتكها فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مركباً إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً ، فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار ، وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا الذي جئت به ؟ قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة ، فانصرف بألفك راشداً » وهذا إسناد صحيح ، وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم . ﴿ بالعدل ﴾ بالقسط والحق ، ولا يجر في كتابته على أحد ، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان . وقوله : ﴿ ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب ﴾ أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ، ولا ضرورة عليه في ذلك ، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة . وفي الحديث « إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع

لأخـرق » وفيه « من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وقوله : ﴿ وليملل الذي . . ﴾ أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين وليتق الله في ذلك . ﴿ ولا يبخس منه شيئاً ﴾ أي لا يكتم منه شيئاً . ﴿ فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً ﴾ محجوراً عليه بتبذير ونحوه . ﴿ أو ضعيفاً ﴾ أي صغيراً أو مجنوناً ﴿ أو لا يستطيع أن يمل هو ﴾إما لغي أو جهل بموضع صواب ذلك وخطأه ﴿ فليملل وليه بالعدل ﴾ .﴿واستشهدوا شهيدين . . ﴾ أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة . ﴿ فإن لم يكونا رجلين ﴾ وهذا إنما يكون في الأموال ، وما يقصد به المال . ﴿ ممن ترضون من الشهداء ﴾ فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود . ﴿ ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ﴾ معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة ، ومن هنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية ﴿ ولا يأب الشهداء إذا مادعوا﴾للأداء ﴿ ولا تسأموا أن . . ﴾ هذا من تمام الإرشاد ، وهو الأمر بكتابة الحق ، صغيراً كان أو كبيراً . ﴿ ذلكم أقسط . . ﴾ أي أعدل وأثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة ﴿ وأدنى أن لا ترتابوا ﴾ وأقرب إلى عدم الريبة ، بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه ، فيفصل بينكم بلا ريبة . وقوله ﴿ إلا أن تكون تجارة حاضرة . . ﴾ أي إذا كان البيع بالحاضر ، يداً بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور في تركها . ﴿ وأشهدوا إذا تبايعتم ﴾ أي أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل فأشهدوا على حقكم . ﴿ ولا يضار كاتب ولا شهيد ﴾ قيل : معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد ، فيكتب هذا خلاف ما يملي ، ويشهد هذا بخلاف ما سمع ، أو يكتمها بالكلية . وقيل : معناه لا يضر بهما ، فيأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة فيقولان : إنا على حاجة ، فيقول : إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارهما . ﴿ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ﴾ أي إن خالفتم ما أمرتم به ، ، و فعلتم ما نهيتم عنه فإنه فسق كائن بكم ، أي لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تنفكون عنه . ﴿ واتقوا الله ﴾ أي خافوه وراقبوه ، واتبعوا أمره واتركوا زجره . ﴿ ويعلمكم الله ﴾ هو كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً ﴾ ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها ، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء ، بل علمه محيط بجميع الكائنات .

﴿٢٨٣﴾ ﴿ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

﴿ على سفر ﴾ أي مسافرين ، وتداينتم إلى أجل مسمى . ﴿ ولم تجدوا كاتباً ﴾ يكتب لكم ، أو وجدوه ولم يجدوا قرطاساً أو دواة ، أو قلماً ﴿ فرهان مقبوضة ﴾ أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أي في يد صاحب الحق ، وقد استدل به الشافعي والجمهور على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض . واستدل به آخرون على أنه لا بد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن ، وهو رواية عن الإمام أحمد ، واستدل آخرون على أن الرهن لا يكون مشروعاً إلا في السفر . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسْقاً من شعير رهناً قوتاً لأهله . وقوله : ﴿ فإن أمن بعضكم . . ﴾ قال الشعبي : إذا ائتمن بعضكم بعضاً فلا بأس أن لا تكتبوا ، أو لا تشهدوا . وقوله ﴿ وليتق الله ربه ﴾ يعني المؤتمن . وفي الحديث « على اليد ما أخذت حتى تؤديه » وقوله ﴿ ولا تكتموا الشهادة ﴾ أي لا تخفوها وتغلوها ، عن ابن عباس : « شهادة الزور من أكبر الكبائر » وقوله : ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ هو كقوله ﴿ ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ .

﴿٢٨٤﴾ ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن ، وأنه المطلع على ما فيهن ، لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت ، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم ، كما قال تعالى : ﴿ قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ وقال : ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ والآيات في ذلك كثيرة جداً ، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة وخافوا منها ومن محاسبة الله على جليل الأعمال وحقيرها ، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم فأتوا رسول الله ﷺ ، ثم جثوا على الركب ، وقالوا : يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلاة والجهاد والصدقة ، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله ﷺ : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما أقر بها القوم ،وذلت بها ألسنتهم أنزل في أثرها : ﴿ آمن الرسول . . . ﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها . . ﴾ .

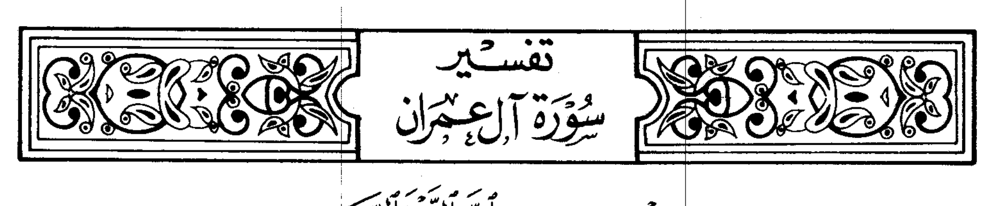
﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ (٢٨٥)

﴿ آمن الرسول . . ﴾ قال النبي ﷺ : « حق له أن يؤمن » والمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد فرد صمد ، لا إله غيره ولا رب سواه ، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء ، لا يفرقون بين أحد منهم ، فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله ، حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، المرسلين الذي تقوم الساعة على شريعته ، ولا تزال طائفة من أمته ظاهرين . ﴿ سمعنا وأطعنا ﴾ أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه ، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه . ﴿ غفرانك ربنا ﴾ سؤال للمغفرة والرحمة واللطف . قال جبريل : إن الله أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل .

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (٢٨٦)

﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ أي لا يكلف أحداً فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ، ورأفته بهم ، وإحسانه إليهم . وقوله ﴿ لها ما كسبت ﴾ أي من خير . ﴿ وعليها ما اكتسبت ﴾ أي من شر ، وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف . ﴿ ربنا لا تؤاخذنا . . ﴾ أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان ، أو فعلنا حراماً ، كذلك ، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي . ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً . . ﴾ أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة ، وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم ، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح ، وفي الحديث « بعثت بالحنيفية السمحة ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ﴾ أي من التكليف والمصائب والبلاء ، ولا تبتلنا بما لا قبل لنا به . ﴿ واعف عنا ﴾ أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا . ﴿ واغفر لنا ﴾ أي فيما بيننا وبين عبادك ، فلا تظهرهم على مساوينا ، وأعمالنا

القبيحة . ﴿ وارحمنا ﴾ أي فيما يستقبل ، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر ، ولهذا قالوا : إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء : أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه ، وأن يستره عن عباده ، فلا يفضحه به بينهم ، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره . ﴿ أنت مولانا ﴾ أي أنت ولينا وناصرنا ، وعليك توكلنا ، وأنت المستعان ، وعليك التكلان ، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك . ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أي الذين جحدوا دينك ، وأنكروا وحدانيتك ، ورسالة نبيك ، وعبدوا غيرك ، وأشركوا معك من عبادك ، فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة . وفي الحديث : « كان إذا ختم البقرة قال : آمين » .



تفسير سُورَةُ آلِ عِمْرَان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

قد تقدم الكلام عن ﴿ الٓمٓ ﴾ في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته .

(٢) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾

وتقدم الكلام على قوله ﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم ﴾ في تفسير آية الكرسي .

(٣) ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لا شك فيه ولا ريب، بل هو منزل من عند الله ، أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة قبله من السماء على عباد الله والأنبياء ، فهي تصدقه بما أخبرت به ، بشرت به في قديم الزمان ، وهو يصدق لأنه طابق ما أخبرت به ، وبشرت من الوعد من الله بإرسال محمد ﷺ وإنزال القرآن العظيم عليه . ﴿ وأنزل التوراة ﴾ أي على موسى بن عمران . ﴿ والإنجيل ﴾ أي على عيسى ابن مريم عليهما السلام .

(٤) ﴿ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

﴿ من قبل ﴾ أي من قبل هذا القرآن . ﴿ هدى للناس ﴾ أي في زمانها . ﴿ وأنزل الفرقان ﴾ وهو الفارق بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، والغي والرشاد بما يذكره الله تعالى من الحجج والبينات ، والدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات . ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ جحدوا بها وأنكروها ، وردوها بالباطل . ﴿ لهم عذاب شديد ﴾ أي يوم القيامة . ﴿ والله عزيز ﴾ أي منيع الجناب ، عظيم السلطان . ﴿ ذو انتقام ﴾ أي ممن كذب بآياته ، وخالف رسله الكرام ، وأنبياءه العظام .

(٥) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَاءِ ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم غيب السماء والأرض ، لا يخفى عليه شيء .

(٦) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ هوالذي يصوركم . . ﴾ أي يخلقكم في الأرحام كما يشاء من ذكر وأنثى ، وحسن وقبيح ، وشقي وسعيد . ﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾ أي هو الذي خلق ، وهو المستحق للإلهية ، وحده لاشريك له ، وله العزة التي لا ترام ، والحكمة والأحكام . وهذه الآية فيها تعريض ، بل تصريح بأن عيسى ابن مريم عبد مخلوق ، كما خلق الله سائر البشر ، لأن الله صوره في الرحم ، وخلقه كما يشاء ، فكيف يكون إلهاً كما زعمته النصارى ، عليهم لعائن الله ، وقد تقلب في الأحشاء ، وتنقل من حال إلى حال ، كما قال تعالى : ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ﴾ .

(٧) ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات ، هن أم الكتاب ، أي بينات واضحات الدلالات ، لا التباس فيها على أحد ، ومنه آيات أخر ، فيها اشتباه في الدلالات على كثير من الناس ، أو بعضهم ، فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه ، وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى ، ومن عكس انعكس ، ولهذا قال : ﴿ هن أم الكتاب ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه . ﴿ وأخر متشابهات ﴾ أي تحتمل دلالتها موافقة المحكم ، وقد تحتمل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب ، لا من حيث المراد .

﴿ زيغ ﴾ أي ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل . ﴿ فيتبعون ما تشابه منه ﴾ أي إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة ، وينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه ، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه ، لأنه دافع لهم ، وحجة عليهم . ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ابتغاء الفتنة ﴾ أي الاضلال لاتباعهم إيهاماً لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن ، وهو حجة عليهم لا لهم ، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وتركوا الاحتجاج بقوله : ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ وابتغاء تأويله ﴾ أي تحريفه على ما يريدون . ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ قيل : الوقف على الجلالة ، أي وما يعلم تأويله إلا الله ، ويقول الراسخون آمنا به . وقيل : الوقف على ﴿ الراسخون في العلم﴾ أي والراسخون في العلم يعلمون تأويله، ويقولون: آمنا به. ﴿ وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ أي إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة ، والفهوم المستقيمة . سئل رسول الله ﷺ عن الراسخين في العلم فقال : « من برت عيناه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين في العلم » .

(٨) ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

أي لا تمل قلوبنا عن الهدى بعد إذ أقمتها عليه ، ولا تجعلنا كالذين في قلوبهم زيغ الذين يتبعون ما تشابه من القرآن ، ولكن ثبتنا على صراطك المستقيم ، ودينك القويم . ﴿ وهب لنا من لدنك رحمة ﴾ تثبت بها قلوبنا ، وتجمع بها شملنا ، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً . ﴿ إنك أنت الوهاب ﴾ في الحديث كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » ثم قرأ ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا . . . ﴾ .

(٩) ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

أي يقولون في دعائهم : إنك يا ربنا ستجمع بين خلقك يوم معادهم ، وتفصل بينهم ، وتحكم فيهم فيما اختلفوا فيه ، وتجزي كلاً بعمله ، وما كان عليه من خير وشر .

(١٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار بأنهم وقود النار ، وليس ما أوتوه في الدنيا من الأموال والأولاد بنافع لهم عند الله ، ولا بمنجيهم من عذابه وأليم عقابه ، كما قال تعالى : ﴿ لا يغرنك تقلب

الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ ﴿ إن الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله ، وكذبوا رسله ، وخالفوا كتابه ، ولم ينتفعوا بوحيه إلى أنبيائه . ﴿ وقود النار ﴾ أي حطبها الذي تجربه ، وتوقد به ، كقوله : ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ عن أم الفضل أن رسول الله ﷺ قام ليلة بمكة فقال : « هل بلغت ؟ » يقولها ثلاثاً ، فقام عمر بن الخطاب ، وكان أواهاً فقال : اللهم ، نعم ، وحرصت وجهدت ونصحت فاصبر . فقال النبي ﷺ : « ليظهرن الإيمان حتى يرد الكفر إلى مواطنه ، وليخوضن رجال البحار بالإسلام ، وليأتين على الناس زمان يقرؤون القرآن ، فيقرؤونه ويعلمونه فيقولون : قد قرأنا وقد علمنا ، فمن هذا الذي هو خير منا ؟ فما في أولئك من خير » . قالوا : يا رسول الله ، فمن أولئك ؟ قال : « أولئك منكم ، أولئك هم وقود النار » .

(١١) ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

كصنيع آل فرعون . والدأب بالتسكين والتحريك أيضاً كنهْر ونهَر هو الصنيع والحال والشأن والأمر والعادة ، كما يقال : لا يزال هذا دأبي ودأبك . والمعنى أن الكافرين لا تغني عنهم الأموال ولا الأولاد . بل يهلكون ويعذبون كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه . ﴿ والله شديد العقاب ﴾ أي شديد الأخذ أليم العذاب ، لا يمتنع منه أحد ، ولا يفوته شيء ، بل هو الفعال لما يريد ، الذي قد غلب كل شيء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

(١٢) ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد للكافرين : ستغلبون أي في الدنيا ، وتحشرون أي يوم القيامة إلى جهنم وبئس المهاد . لما أصاب رسول الله ﷺ من أهل بدر ما أصاب ورجع إلى المدينة جمع اليهود في سوق قينقاع وقال : « يا معشر اليهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشاً » فقالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أن قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً ، لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا فأنزل الله في ذلك هذه الآية والتي بعدها .

(١٣) ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ

﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾

﴿ آية ﴾ أي دلالة على أن الله معز دينه وناصر رسوله ومظهر كلمته ، ومعل أمره . ﴿ في فئتين ﴾ أي طائفتين . ﴿ التقتا ﴾ للقتال . ﴿ وأخرى كافرة ﴾ وهم مشركو قريش يوم بدر . ﴿ يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ يرى المشركون يوم بدر المسلمين مثلهم في العدد رأي أعينهم ، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم . أو يري الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أي ضعفيهم في العدد ، ومع هذا نصرهم الله عليهم . ﴿ إن في ذلك . . ﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن له بصيرة وفهم ليهتدي به إلى حكم الله وأفعاله وقدره الجاري بنصر عباده والمؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد .

(١٤) ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾

يخبر تعالى عما زيِّن للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ ، من النساء والبنين ، فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، وفي الحديث «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » فأما إذاكان القصد بهن الاعفاف وكثرة الأولاد فهذا مطلوب مرغوب فيه ، مندوب إليه ، وفي الحديث : « الدنيامتاع وخير متاعها المرأة الصالحة ، إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله » وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة ، فهو داخل في هذا ، وتارة يكون لتكثير أمة ﷺ فهذا محسود ممدوح ، وفي الحديث « تزوجوا الودود الولود ، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة » وحب المال كذلك تارة يكون للفخر ، والخيلاء والتكبر على الضعفاء والجبر على الفقراء فهذا مذموم ، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات فهذا ممدوح محمود شرعاً . والقنطار هو المال الجزيل . وقد سئل النبي ﷺ عن قول الله تعالى ﴿ والقناطير المقنطرة ﴾ قال : « القنطار ألفا أوقية » . وحب الخيل على ثلاثة أقسام : فتارة من أجل الغزو عليها في سبيل الله ، فهؤلاء يثابون ، وتارة للفخر على أهل الإسلام ، فهذه على صاحبها وزر ، وتارة للتعفف والنسل ، دون نسيان حق الله في رقابها فهذه ولصاحبها ستر. و ﴿المسوَّمة﴾: الراعية والمطهمة الحسان. ﴿والأنعام﴾ يعني الإبل والبقر والغنم . ﴿ والحرث ﴾ يعني الأرض المتخذة للغراس والزراعة . ﴿ ذلك متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما هذا زهرة الحياة الدنيا ، وزينتها الفانية الزائلة . ﴿ حسن المآب ﴾ أي حسن المرجع والثواب .

(١٥) ﴿ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾

أي قل : يا محمد للناس أؤخبركم بخير مما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من زهرتها ونعيمها الذي هو زائل لا محالة؟ ثم أخبر عن ذلك فقال:﴿للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تنخرق بين جوانبها وأرجائها الأنهار من أنواع الأشربة من العسل واللبن والخمر والماء وغير ذلك مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبد الآباد لا يبغون عنها حولاً . ﴿ وأزواج مطهرة ﴾ أي من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس ، وغير ذلك مما يعتري النساء ﴿ ورضوان من الله ﴾ أي يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعده أبداً ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ ورضوانٌ من الله أكبر ﴾ أي أعظم مما أعطاهم من النعيم المقيم. ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي يعطي كلاً بحسب ما يستحقه من العطاء .

(١٦) ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

يصف تبارك وتعالى عباده المتقين الذين وعدهم الثواب الجزيل فقال : ﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمناً ﴾ أي بك وبكتابك وبرسولك . ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي بإيماننا بك ، وبما شرعته لنا ، فاغفر لنا ذنوبنا ، وتقصيرنا من أمرنا بفضلك ورحمتك .

(١٧) ﴿ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾

﴿ الصابرين ﴾ أي في قيامهم بالطاعات وتركهم المحرمات . ﴿ والصادقين ﴾ فيما أخبروا به من إيمانهم بما يلتزمونه من الأعمال الشاقة . ﴿ والقانتين ﴾ والقنوت الطاعة والخضوع ﴿ والمنفقين ﴾ أي من أموالهم في جميع ما أمروا به من الطاعات ، وصلة الأرحام والقربات ، وسد الخلافات ، ومواساة ذوي الحاجات .﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ وقد قيل : إن يعقوب عليه السلام لما قال لبنيه : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ إنه أخرهم إلى وقت السحر . وفي الحديث « ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ .

(١٨) ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾

شهد تعالى وكفى بالله شهيداً ، وهو أصدق الشاهدين وَأَعْـدَلَهُمْ وأصدق القائلين ﴿ أنه لا إله إلا هو . . ﴾ أي المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق ، وأن الجميع عبيده وخلقه ، وهو الغني عما سواه ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته ، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام. ﴿ قائماً بالقسط ﴾ منصوب على الحال ، وهو في جميع الأحوال كذلك . ﴿ العزيز الحكيم ﴾ العزيز الذي لا يرام جنابه عظمة وكبرياء ، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(١٩) ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

إخبار منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوىٰ الإسلام ، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى ختموا بمحمد ﷺ الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ ، فمن لقي الله بعد بعثه محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل ، كما قال : ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ ﴿ وما اختلف الذين أوتوا . . . ﴾ أي يعني بعضهم على بعض فاختلفوا في الحق . ﴿ ومن يكفر بآيات الله ﴾ أي من يجحد بما أنزل الله في كتابه ﴿ فإن الله سريع الحساب ﴾ أي فإن الله سيجازيه على ذلك ويحاسبه على تكذيبه ويعاقبه على مخالفته كتابه .

(٢٠) ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

﴿ فإن حاجوك ﴾ جادلوك في التوحيد . ﴿ فقل أسلمت . . ﴾ أي فقل : أخلصت عبادتي لله وحده ، لا شريك له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له . ﴿ ومن اتبعن ﴾ أي على ديني يقول كمقالتي كما قال تعالى : ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله محمد ﷺ أن يدعو إلى طريقته ودينه والدخول في شرعه وما بعثه الله من الكتابيين من المليين والأميين من المشركين فقال : ﴿ وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ ﴾ أي والله عليه حسابهم ، وإليه مرجعهم ومآبهم ، وهوالذي يهدي من يشاء ،

ويضل من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة . ﴿ والله بصير بالعباد ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلالة . وهذه الآية وأمثالها من أصرح الآيات على عموم بعثته صلوات الله عليه إلى جميع الخلق ، كما هو معلوم من دينه ضرورة ، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث . وفي الحديث « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة من يهودي ولا نصراني ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به.إلا كان من أهل النار » رواه مسلم . وفي الحديث أيضاً « بعثت إلى الأحمر والأسود » . وقال : « كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » وروى الإمام أحمد عن أنس أن غلاماً يهودياً كان يضع للنبي ﷺ وضوءه ويناوله نعليه فمرض فأتاه النبي ﷺ فدخل عليه وأبوه قاعد عند رأسه ، فقال له النبي ﷺ : « يا فلان قل : « لا إله إلا الله » فنظر إلى أبيه فسكت أبوه ، فأعاد عليه النبي ﷺ فنظر إلى أبيه فقال أبوه : أطع أبا القاسم ، فقال الغلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذي أخرجه لي من النار » رواه البخاري في الصحيح .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ﴿٢١﴾

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ ﴿٢٢﴾

هذا ذم من الله لأهل الكتاب بما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديماً وحديثاً التي بلغتهم إياها الرسل ، استكباراً عليهم وعناداً لهم ، وتعاظماً على الحق ، واستنكافاً عن اتباعه ، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ، وهذا هو غاية الكبر كما قال النبي ﷺ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » . عن عبيدة بن الجراح قال : قلت : يا رسول الله أي الناس أشد عذاباً يوم القيامة ؟ قال : « رجل قتل نبياً أو من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ثم قرأ رسول الله ﷺ (إن الذين يكفرون بآيات ويقتلون النبيين . . . ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبياً من أول النهار في ساعة واحدة ، فقام مائة وسبعون رجلاً من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوهم جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله عز وجل » . ﴿ بعذاب أليم ﴾ أي موجع مهين .

(٢٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على اليهود والنصارى المتمسكين فيما يزعمون بكتابيهم الذيْنِ بأيديهم ، وهما التوراة والإنجيل ، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من اتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما ، وهذا غاية ما يكون من ذلهم والتنويه بذكرهم بالمخالفة والعناد . ثم قال تعالى :

(٢٤) ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ ذلك بأنهم قالوا لن . . ﴾ أي إنما حملهم وجرأهم على مخالفة الحق افتراؤهم على الله فيما ادعوه لأنفسهم أنهم إنما يعذبون في النار سبعة أيام عن كل ألف سنة في الدنيا يوماً . ﴿ وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ثبتهم على دينهم الباطل ما خدعوا به أنفسهم من زعمهم أن النار لا تمسهم بذنوبهم إلا أياماً معدودات وهم الذين افتروا هذا من تلقاء أنفسهم ، واختلقوه ولم ينزل الله به سلطاناً . قال تعالى مهدداً لهم :

(٢٥) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه . . ﴾ أي لا شك في وقوعه وكونه .

(٢٦) ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد معظماً لربك وشاكراً له ومفوضاً إليه ومتوكلاً عليه ﴿ اللهم مالك الملك ﴾ أي لله الملك كله . ﴿ تؤتي الملك من . . ﴾ أي أنت المعطي ، وأنت المانع ، وأنت الذي ما شئت كان ، وما لم تشأ لم يكن . وفي هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله ﷺ وهذه الأمة ، لأن الله تعالى حوَّل النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي الأمي المكي خاتم الأنبياء على الإطلاق ، ورسول الله إلى جميع الثقلين : الإنس والجن ، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله ، وخصه بخصائص لم يعطها نبياً من الأنبياء ، ولا رسولاً من الرسل في

العلم بالله وشريعته ، وإطلاعه على الغيوب الماضية والآتية ، وكشف له عن حقائق الآخرة ، ونشر أمته في الآفاق في مشارق الأرض ومغاربها ، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع ، فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ما تعاقب الليل والنهار . ولهذا قال : ﴿ قل اللهم مالك الملك . . ﴾ أي أنت المتصرف في خلقك ، الفعال لما تريد ، وتعطي النبوة من تريد ، فلك الحكمة البالغة ، والحجة التامة في ذلك . .

﴿٢٧﴾ ﴿ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

أي تأخذ من طول هذا فتزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم تأخذ من هذا في هذا فيتفاوتان ، ثم يعتدلان ، وهكذا في فصول السنة ربيعاً وصيفاً ، وخريفاً وشتاء . وقوله : ﴿ وتخرج الحي . . ﴾ أي تخرج الزرع من الحب ، والحب من الزرع ، والنخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والدجاجة من البيضة ، والبيضة من الدجاجة ، وما جرى هذا المجرىٰ من جميع الأشياء . ﴿ وترزق من نشاء . . ﴾ أي تعطي من شئت من المال ما لا يعده ، ولا يقدر على إحصائه ، وتقتر على آخرين لما لك في ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة .

﴿٢٨﴾ ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين ، وأن يتخذوهم أولياء ، يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين ، ثم توعد على ذلك فقال : ﴿ ومن يفعل ذلك . . ﴾ أي ومن يرتكب نهي الله في هذا فقد برىء من الله ، كما قال تعالى : ﴿ لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً ﴾ وقال : ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ وقال : ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ وقوله : ﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ أي إلا من خاف في بعض البلدان والأوقات من شرهم فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته ، وفي الحديث « إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم » وقال تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ وقوله ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يحذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه وعادى أولياءه . ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي إليه المرجع والمنقلب ليجازي كل عامل بعمله

﴿٢٩﴾ ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر ، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية ، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والأزمان والأيام واللحظات وجميع الأوقات وجميع ما في الأرض والسماوات، لا يغيب عنه مثقال ذرة ، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض والجبال . ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي وقدرته نافذة في جميع ذلك . وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته لئلا يرتكبوا ما نهى عنه ، وما يبغضه منهم فإنه عالم بجميع أمورهم ، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة ، وإن أنظر من أنظر منهم فإنه يمهل ولا يهمل ، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال بعد هذا :

﴿٣٠﴾ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

﴿ يوم تجد كل نفس . . ﴾ يعني يوم القيامة يحصر للعبد جميع أعماله من خير وشر ، كما قال ﴿ ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغصه ، وود لو أنه تبرأ منه ، وأن يكون بينهما أمد بعيد ، كما يقول الشيطان الذي كان مقروناً به في الدنيا ، وهو الذي جرأه على فعل السوء ﴿ يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ أي يخوفكم عقابه ، ثم قال جل جلاله مرجياً لعباده لئلا ييئسوا من رحمته ، ويقنطوا من لطفه ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ قال الحسن البصري : من رأفته بهم حذرهم نفسه ، وقال غيره : أي رحيم بخلقه ، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ، ودينه القويم ، وأن يتبعوا رسوله الكريم .

﴿٣١﴾ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية ، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله ، كما ثبت في الصحيح « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » ولهذا قال : ﴿ إن كنتم تحبون الله . . ﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه ، وهو

محبته إياكم ، وهو أعظم من الأول ، كما قال بعض العلماء الحكماء : ليس الشأن أن تُحِبَّ ، إنما الشأن أن تُحَبَّ . وفي الحديث : « وهل الدين إلا الحب في الله والبغض في الله » . ﴿ ويغفر لكم ذنوبكم . . ﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة سفارته . ثم قال تعالى آمراً لكل أحد من خاص وعام :

(٣٢) ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا ﴾ أي تخالفوا عن أمره ﴿ فإن الله لا يحب الكافرين ﴾ فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، والله لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب لله ، ويتقرب إليه حتى يتابع النبي الأمي خاتم الرسل ، ورسول الله إلى جميع الثقلين : الجن والإنس ، الذي لو كان الأنبياء ، بل المرسلون ، بل أولوا العزم منهم في زمانه ما وسعهم إلا اتباعه والدخول في طاعته ، واتباع شريعته .

(٣٣) ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(٣٤) ﴿ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه اختار هذه البيوت على سائر أهل الأرض ، فاصطفى آدم عليه السلام : خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شيء ، وأسكنه الجنة ، ثم أهبطه منها لماله في ذلك من الحكمة . واصطفى نوحاً عليه السلام : وجعله أول رسول بعثه إلى أهل الأرض لما عبد الناس الأوثان ، وانتقم له لما دعا على قومه فأغرقهم الله عن آخرهم ، ولم ينج منهم إلا من اتبعه على دينه الذي بعثه الله به . واصطفى آل إبراهيم : ومنهم سيد البشر خاتم الأنبياء على الإطلاق محمد ﷺ . ﴿وآل عمران ﴾ والمراد بعمران هذا والد مريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام ، فعيسىٰ من ذرية إبراهيم عليهما السلام .

(٣٥) ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

امرأة عمران هذه هي أم مريم عليها السلام ، وهي حنة بنت فاقوذ ﴿ إنك أنت السميع العليم ﴾ أي السميع لدعائي ، العليم بنيتي ، ولم تكن تعلم ما في بطنها : أذكر أم أنثى ؟

(٣٦) ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

﴿ وليس الذكر كالأنثى ﴾ أي في القوة والجلد في العبادة وخدمة المسجد الأقصا ﴿ وإني سميتها مريم ﴾ فيه دليل على جواز التسمية يوم الولادة ، وفي الحديث : « ولد لي الليلة ولد ، سميته باسم أبي إبراهيم » وفي الحديث « ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً من مسه إياه إلا مريم وابنها » ثم يقول أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ وإني أعيذها بك وذريتها . . ﴾ .

(٣٧) ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾

يخبر ربنا أنه تقبلها من أمها نذيرة ، وأنه أنبتها نباتاً حسناً ، أي جعلها شكلاً مليحاً ، ومنظراً بهيجاً ، ويسر لها أسباب القبول ، وقرنها بالصالحين من عباده تتعلم منهم العلم والخير والدين ، فلهذا قال : ﴿ وكفلها زكريا ﴾ وما ذلك إلا لأنها كانت يتيمة . وإنما قدر الله كون زكريا كفلها لسعادتها لتقتبس منه علماً نافعاً وعملاً صالحاً ، ولأنه كان زوج خالتها ، وقيل : زوج أختها كما ورد في الصحيح « فإذا يحيى وعيسى وهما ابنا لخالة » . ﴿ كلما دخل عليها . . ﴾ وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء . وفاكهة الشتاء في الصيف ﴿ أنى لك هذا ﴾ أي من أين لك هذا ؟ .

(٣٨) ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

كما رأى زكريا عليه السلام أن الله يرزق مريم عليها السلام فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء طمع حينئذ في الولد ، وإن كان شيخاً كبيراً ، قد وهن منه العظم ، واشتعل رأسه شيباً ، وكانت امرأته مع ذلك كبيرة وعاقراً ، لكنه مع هذا كله سأل ربه وناداه نداء خفياً وقال : ﴿ رب هب لي من لدنك ﴾ أي من عندك . ﴿ ذرية طيبة ﴾ أي ولداً صالحاً .

(٣٩) ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا

وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

أي خاطبته الملائكة شفاها خطاباً أسمعته وهو قائم يصلي في محراب عبادته ، ومحل خلوته ، ومجلس مناجاته وصلاته ، ثم أخبر تعالى عما بشرته به الملائكة ﴿ أن الله يبشرك بيحيى ﴾ أي بولد يوجد لك من صلبك اسمه يحيى . ﴿ مصدقاً بكلمة من الله ﴾ أي بعيسى ابن مريم . ﴿ وسيداً ﴾ في العلم والعبادة ، أو السيد الحليم التقي ، أو السيد هو الفقيه العالم ، أو هو السيد في خلقه ودينه ، أو هو الذي لا يغلبه الغضب ، أو هو الشريف ، أو هو الكريم على الله عز وجل . ﴿ وحصوراً ﴾ هو الذي لا يأتي النساء ، أو هو الذي لا يولد له ، أو لا ماء له ، وفي حديث : « ما من عبد يلقى الله إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا فإن الله يقول : ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ قال : وإنما ذكره مثل هدبة الثوب ، وأشار بأنملته . وقد قال القاضي عياض في كتابه الشفاء : « اعلم أن ثناء الله تعالى على يحيى أنه كان﴿ حصوراً ﴾ ليس كما قال بعضهم : إنه كان هيوباً ، أو لا ذكر له ، بل قد أنكر هذا حذاق المفسرين ، ونقاد العلماء ، وقالوا : هذه نقيصة وعيب ، ولا يليق بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإنما معناه أنه معصوم من الذنوب ، أي لا يأتيها كأنه حصور عنها » وقيل : مانعاً نفسه من الشهوات ، وقيل : ليست له شهوة في النساء ، وقد بان لك من هذا أن عدم القدرة على النكاح نقص ، وإنماالفضل في كونها موجودة ، ثم يمنعها ، إما بمجاهدة كعيسى ، أو بكفاية من الله عز وجل كيحيى عليه السلام ، ثم هي في حق من قدر عليها وقام بالواجب فيها ولم تشغله عن ربه درجة عليا ، وهي درجة نبينا عليه الصلاة والسلام الذي لم يشغله كثرتهن عن عبادة ربه ، بل زاده ذلك عبادة بتحصينهن ، وقيامه عليهن ، وإكسابه لهن ، وهدايته إياهن ، بل قد صرح أنها ليست من حظوظ دنياه هو ، وإن كانت من حظوظ دنيا غيره فقال : « حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » ، والمقصود أنه مدح ليحيى بأنه حصور ، ليس لأنه لا يأتي النساء ، بل معناه كما قاله هو وغيره : أنه معصوم من الفواحش والقاذورات ، ولا يمنع ذلك من تزويجه بالنساء الحلال ، وغشيانهن وإيلادهن ، بل يفهم وجود النسل له من دعاء زكريا المتقدم حيث قال : ﴿ هب لي من لدنك ذرية طيبة ﴾ كأنه قال : ولداً له ذرية ونسل وعقب .

(٤٠) ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾

﴿ قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ أي قال الملك : هكذا أمر الله العظيم ، لا يعجزه شيء ، ولا يتعاظمه أمر .

﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ (٤١)

﴿ آية ﴾ أي علامة أستدل بها على وجود الولد مني . ﴿ إلا رمزاً ﴾ أي إشارة ، فلا تستطيع النطق مع أنه سوي صحيح ، كما في قوله : ﴿ ثلاث ليال سوياً ﴾ . ثم أمر بكثرة الذكر والتكبير والتسبيح في هذه الحال فقال تعالى : ﴿ واذكر ربك كثيراً . . . ﴾ .

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤٢)

هذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اختارها لكثرة عبادتها ، وزهادتها وشرفها وطهارتها من الأكدار والوساوس ، واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين . وفي الحديث « خير نساء ركبن الإبل نساء قريش ، أحناه على ولد في صغره ، وأرعاه على زوج في ذات يده ، ولم تركب مريم بنت عمران بعيراً قط » . وفي الحديث « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث : مريم بنت عمران ، وآسية امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .

﴿ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (٤٣)

القنوت : هو الطاعة في خشوع ، وفي الحديث « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » ﴿ واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ أي كوني منهم .

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٤٤)

﴿ نوحيه إليك ﴾ نقصه عليك . ﴿ وما كنت لديهم ﴾ أي ما كنت عندهم يا محمد فتخبرهم عن معاينة ما جرى ، بل أطلعك الله على ذلك كأنك حاضر وشاهد لما كان من أمرهم حين اقترعوا في شأن مريم : أيهم يكفلها ؟، وذلك لرغبتهم في الأجر .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ (٤٥)

هذه بشارة من الملائكة لمريم عليها السلام بأن سيوجد منها ولد عظيم ، له شأن كبير ، ﴿ بكلمة منه ﴾ أي بولد يكون وجوده بكلمة من الله ، أي يقول له : كن فيكون . ﴿ اسمه المسيح عيسى ابن مريم ﴾ أي يكون هذا مشهوراً في الدنيا ، يعرفه المؤمنون بذلك . وسمي المسيح : قال بعض السلف : لكثرة سياحته ، وقيل : لأنه كان مسيح القدمين ، لاأخمص لهما ، وقيل : لأنه كان إذا مسح أحداً من ذوي العاهات برىء بإذن الله تعالىٰ . ﴿ عيسى ابن مريم ﴾ نسبة إلى أمه ، حيث لا أب له . ﴿ وجيهاً في الدنيا . . . ﴾ أي له وجاهة ومكانة عند الله في الدنيا بما يوحيه الله إليه من الشريعة ، وينزله عليه من الكتاب ، وغير ذلك مما منحه الله به ، وفي الدار الآخرة يشفع عند الله فيمن يأذن له فيه ، فيقبل منه أسوة بإخوانه من أولي العزم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٤٦) ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ ويكلم الناس . . ﴾ أي يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له في حالة صغره ، معجزة وآية ، وفي حال كهولته حين يوحي الله إليه . ﴿ ومن الصالحين ﴾ أي في قوله وعمله . له علم صحيح وعمل صحيح . وفي الحديث : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاث : عيسى وصبي كان في زمن جريج ، وصبي آخر » .

(٤٧) ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

تقول : كيف يوجد هذا الولد مني ، وأنا لست بذات زوج ، ولا من عزمي أن أتزوج ، ولست بغياً حاشا لله ، فقال لها الملك عن الله عز وجل : ﴿ كذلك الله يخلق ما يشاء ، أي هكذا أمر الله عظيم ، لا يعجزه شيء . وقال هنا : ﴿ يخلق ﴾ وفي قصة زكريا ﴿ يفعل ﴾ لئلا يبقى لمبطل شبهة ، وأكد ذلك بقوله : ﴿ إذا قضى أمراً . . . ﴾ أي فلا يتأخر شيئاً ، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة ، كقوله ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي إنما نأمر مرة واحدة ، لا مثنوية فيها ، فيكون ذلك الشيء سريعاً كلمح البصر .

(٤٨) ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمام بشارة الملائكة لمريم بابنها عيسى عليه السّلام : إن الله يعلمه الكتاب والحكمة ، والظاهر أن المراد بالكتاب ههنا الكتابة . والتوراة هو الكتاب الذي أنزل على موسى بن عمران ، والإنجيل الذي أنزل على عيسى بن مريم عليهما السلام

وقد كان عيسى يحفظ هذا وهذا .

(٤٩) ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

كان يصور من الطين شكل طير ، ثم ينفخ فيه فيطير عياناً بإذن الله عز وجل الذي جعل هذا معجزة له تدل على أنه أرسله . ﴿ الأكمه ﴾ قيل : إنه الذي يبصر نهاراً ولا يبصر ليلاً ، وقيل : بالعكس ، وقيل : الأعشى ، وقيل : الأعمش ، وقيل : هو الذي يولد أعمى ، وهو أشبه لأنه أبلغ في المعجزة ، وأقوى في التحدي . ﴿ والأبرص ﴾ معروف . ﴿ وأحيي الموتى بإذن الله ﴾ قال كثير من العلماء : بعث الله كل نبي من الأنبياء بما يناسب أهل زمانه ، فكان الغالب على زمان موسى السحر وتعظيم السحرة ، فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار ، وحيرت كل سحار ، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار إنقادوا للإسلام .وصاروا من عباد الله الأبرار ، وأما عيسى عليه السلام فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه ، إلا أن يكون مؤيداً من الذي شرع الشريعة ، فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد ، أو على مداواة الأكمه والأبرص ، وبعث من هو رهين في قبره إلى يوم التناد ، وكذلك محمد ﷺ بعث في زمان الفصحاء والبلغاء ، وتجاريد الشعراء ، فأتاهم بكتاب من الله عز وجل ، فلو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سور مثله ، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبداً ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، وما ذاك إلا أن كلام الرب عز وجل لا يشبه كلام الخلق أبداً . ﴿ وأنبئكم بما تأكلون . . ﴾ أي أخبركم بماأكل أحدكم الآن ، وما هو مدخر له في بيته غداً . ﴿ إن في ذلك ﴾ أي في ذلك كله . ﴿ لآية لكم ﴾ أي على صدقي فيما جئتكم به .

(٥٠) ﴿ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

﴿ ومصدقاً لما بين من التوراة ﴾ أي مقرراً لها ومثبتاً . ﴿ ولأحل لكم . . ﴾ فيه دلالة على أن عيسى نسخ بعض شريعة التوراة ، وهو الصحيح من القولين ، ومن العلماء من قال : لم

ينسخ منها شيئاً ، وإنما أحل لهم بعض ما كانوا يتنازعون فيه خطأ ، فكشف لهم عن المغطى ، كما قال : ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ ﴿ وجئتكم بآية من ربكم ﴾ أي بحجة ودلالة على صدقي فيما أقوله .

﴿٥١﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

أي أنا وأنتم سواء في العبودية له والخضوع والاستكانة إليه .

﴿٥٢﴾ ﴿ * فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فلما استشعر عيسى منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال . ﴿من أنصاري إلى الله﴾ من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر : « من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي ، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي » حتى وجد الأنصار فآووه ، ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ، ومنعوه من الأسود والأحمر ، رضي الله عنهم وأرضاهم ، وهكذا عيسى ابن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به ووازروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ، ولهذا قال الله تعالى مخبراً عنهم ﴿ قال الحواريون نحن أنصار الله . . ﴾ الحواريون : قيل : كانوا قصارين ، وقيل : سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وقيل : صيادين ، والصحيح أن الحواريَّ الناصر كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ندب الناس يوم الأحزاب فانتدب الزبير ، ثم ندبهم فانتدب الزبير رضي الله عنه فقال النبي ﷺ : « لكل نبي حواري ، وحواري الزبير » .

﴿٥٣﴾ ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

﴿ مع الشاهدين ﴾ مع أمة محمد ﷺ .

﴿٥٤﴾ ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن ملأ بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام ، وإرادته بالسوء والصلب حين تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان ، وكان كافراً أن هنا رجلاً يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك ويفسد الرعايا ، ويفرق بين الأب وابنه

إلى غير ذلك مما تقلده في رقابهم ورموه به من الكذب ، وأنه ولد زانية ، حتى استثاروا غضب الملك ، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به ، فلما أحاطوا بمنزله ، وظنوا أنهم قد ظفروا به نجاه الله من بينهم ، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء ، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل ، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى فأخذوه وأهانوه وصلبوه ووضعوا على رأسه الشوك ، وكان هذا من مكر الله بهم ، فإنه نجى نبيه ، ورفعه من بين أظهرهم ، وتركهم في ضلالهم يعمهون ، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم ، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعناداً للحق ملازماً لهم ، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد ، ولهذا قال تعالى ﴿ ومكروا ومكر الله . . ﴾ .

﴿٥٥﴾ ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

أي إني رافعك ومتوفيك ، يعني بعد ذلك ، وقيل : توفاه ثلاث ساعات من أول النهار حين رفعه ، قال ابن جرير : توفيه هو رفعه ، أو المراد بالوفاة ههنا النوم كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ﴾ ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴾ . وكان رسول الله ﷺ يقول إذا قام من النوم : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا » قال الحسين : قال رسول الله ﷺ لليهود : « إن عيسى لم يمت ، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة » وقوله تعالى ﴿ ومطهرك من الذين كفروا ﴾ أي برفعي إياك إلى السماء. ﴿ وجاعل الذين اتبعوك . . ﴾ وهكذا وقع ، فقبل بعثة النبي ﷺ كان النصارى قاهرين لليهود ، لأنهم كانوا أقرب إلى الحق منهم ، إذ غيروا وبدلوا أيضاً ، فكانوا جميعاً كفاراً ، فلما بعث الله محمداً ﷺ ونسخ به الشرائع قبله ، وأقام به الحق جعل دينه ظاهراً على كل دين ، فلهذا فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها ، واجتازوا جميع الممالك ، ودانت لهم جميع الدول ، وكسروا كسرى ، وقصروا قيصر ، وسلبوهما كنوزهما ، وأنفقت في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ﴾ .

﴿٥٦﴾ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

وكذلك فعل بمن كفر بالمسيح من اليهود أو غلا فيه أو أطراه من النصارى عذبهم في الدنيا بالقتل والسبي وأخذ الأموال وإزالة الأيدي عن الممالك ، وفي الدار الآخرة عذابهم أشد وأشق .

(٥٧) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فيوفيهم أجورهم ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، في الدنيا بالنصر والظفر ، وفي الآخرة بالجنات العاليات .

(٥٨) ﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

أي هذا الذي قصصنا عليك يا محمد في أمر عيسى ومبدأ ميلاده ، وكيفية أمره هو مما قاله تعالى ، وأوحاه إليك ، ونزله عليك من اللوح المحفوظ ، فلا مرية فيه ولا شك ، كما قال تعالى ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ .

(٥٩) ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

يقول جل وعلا ﴿ إن مثل عيسى عند الله ﴾ في قدرة الله من حيث خلقه من غير أب ﴿ كمثل آدم ﴾ حيث خلقه من غير أب ولا أم ، بل ﴿ خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾ فالذي خلق آدم من غير أب قادر على أن يخلق عيسى بطريق الأولى والأحرى ، وإن جاز ادعاء النبوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بطريق الأولى ، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل فدعواه في عيسى أشد بطلاناً ، وأظهر فساداً ، ولكن الرب جل جلاله أراد أن يظهر قدرته لخلقه حين خلق آدم ، لا من ذكر ولا من أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، كما خلق بقية البرية من ذكر وأنثى ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ .

(٦٠) ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

أي هذا هو القول الحق في عيسى الذي لا يحيد عنه ، ولا صحيح سواه ، وماذا بعد الحق إلا الضلال .

(٦١) ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ

﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

أي نحضرهم في حال المباهلة ﴿ثم نبتهل﴾ أي نلتعن . ﴿فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾ أي منـاومنكم . قال البخاري : حدثنا عباس . . . عن حذيفة رضي الله عنه قال : جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ، قال : فقال أحدهما لصاحبه : لا تفعل ، فوالله لئن كان نبياً فلاعناه لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا ، قالا : إنا نعطيك ما سألتنا ، وابعث معنا رجلاً أميناً ، ولا تبعث معنا إلا أميناً فقال : « لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين » فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ . فقال : « قم أبا عبيدة بن الجراح » فلما قام قال رسول الله ﷺ : « هذا أمين هذه الأمة » رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه .

(٦٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

أي هذا الذي قصصناه عليك يا محمد في شأن عيسى هو الحق الذي لا معدل عنه ولا محيد .

(٦٣) ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾

أي من عدل عن الحق إلى الباطل فهو المفسد ، والله عليم به ، وسيجزيه على ذلك شر الجزاء ، وهو القادر الذي لا يفوته شيء ، سبحانه وبحمده ، ونعوذ به من حلول نقمته .

(٦٤) ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

هذا خطاب يعم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم . ﴿إلى كلمة﴾ والكلمة تطلق على الجملة المفيدة كما هنا . ﴿سواء بيننا وبينكم﴾ أي عدل ونصف ، نستوي نحن وأنتم فيها ، ثم فسرها بقوله : ﴿أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ لا وثناً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا ناراً ولا شيئاً ، بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذه دعوة جميع الرسل . ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلٰه إلا أنا فاعبدون﴾ وقوله ﴿ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ ولا يطيع بعضنا بعضاً في معصية الله . ﴿فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون﴾ أي فإن تولوا عن هذا النصف

وهذه الدعوة فاشهدوا أنتم على استمراركم على الإسلام الذي شرعه الله لكم . وهذه الآية الكريمة جاءت في كتاب رسول الله ﷺ إلى هرقل ونصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد ، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين و﴿ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة ﴾ وكتاب رسول الله إلى هرقل بعد صلح الحديبية وقبل الفتح ، وقد ذكر محمد بن إسحق وغير واحد من أن صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران بعد الفتح ، فما الجمع بين كتابة هذه الآية قبل الفتح إلى هرقل في جملة الكتاب ، وبين ما ذكره محمد بن إسحق والزهري ؟ والجواب أنه يحتمل أن هذه الآية نزلت مرتين .

(٦٥) ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

ينكر تبارك وتعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم في إبراهيم الخليل عليه السلام ، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم ، فقد اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون . . ﴾ أي كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً ، وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسىٰ ، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً ، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال : ﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ .

(٦٦) ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾

هذا إنكار على من يحاجُّ فيما لا علم له به ، فإن اليهود والنصارى تحاجُّوا في إبراهيم بلا علم فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجلياتها ، ولهذا قال : ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

(٦٧) ﴿ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

﴿ حنيفاً مسلماً ﴾ أي متحنفاً عن الشرك قاصداً إلى الإيمان .

﴿٦٨﴾ ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى : أحق الناس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعوه على دينه ، وهذا النبي ، يعني محمد ﷺ والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بعدهم . وفي الحديث : « إن لكل نبي ولاية من النبيين ، وإن وليي منهم أبي وخليل ربي عز وجل إبراهيم عليه السلام » ثم قرأ ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم .. ﴾ وقوله ﴿ والله ولي المؤمنين ﴾ أي وليّ جميع المؤمنين برسله .

﴿٦٩﴾ ﴿ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين ، وبغيهم إياهم الإضلال ، وأخبر أن وبال ذلك إنما يعود على أنفسهم ، وهم لا يشعرون أنهم ممكور بهم .

﴿٧٠﴾ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾

﴿ وأنتم تشهدون ﴾ أي تعلمون صدقها ، وتتحققون حقها .

﴿٧١﴾ ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ﴾ أي تكتمون ما في كتبكم من صفة محمد ﷺ ، وأنتم تعرفون ذلك وتتحققونه .

﴿٧٢﴾ ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

هذه مكيدة أرادوها ليلبسوا على الضعفاء من الناس أمر دينهم ، وهو أنهم اشتوروا بينهم أن يظهروا الإيمان أول النهار ، ويصلوا مع المسلمين صلاة الصبح ، فإذا جاء آخر النهار ارتدوا إلى دينهم ، ليقول الجهلة من الناس : إنما ردهم إلى دينهم اطلاعهم على نقيصة وعيب في دين المسلمين ، ولهذا قالوا : ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ .

﴿٧٣﴾ ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ

عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ﴾ أي لا تطمئنوا أو تظهروا سركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم ، ولا تظهروا ما بأيديكم إلى المسلمين فيؤمنوا به ، ويحتجوا به عليكم . قال تعالى : ﴿ قل إن الهدى هدى الله ﴾ أي هو الذي يهدي قلوب المؤمنين إلى أتم الإيمان بما ينزله على عبده ورسوله محمد ﷺ من الآيات البينات ، والدلائل القاطعات ، والحجج الواضحات ، وإن كتمتم أيها اليهود ما بأيديكم من صفة محمد النبي الأمي في كتبكم التي نقلتموها عن الأنبياء الأقدمين .

وقوله ﴿ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴾ يقولون : لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلموه منكم ويساوونكم فيه ، ويمتازون به عليكم لشدة الإيمان به . ﴿ أو يحاجوكم عند ربكم ﴾ أي يتخذوه حجة عليكم بما في أيديكم فتقوم به عليكم الدلالة ، وتركب الحجة في الدنيا والآخرة . ﴿ قل إن الفضل . . . ﴾ أي الأمور كلها تحت تصرف الله ، وهو المعطي المانع ، يمن على من يشاء بالإيمان والعلم ، والتصرف التام ، ويضل من يشاء فيعمي بصره وبصيرته ، ويختم على قلبه وسمعه ، ويجعل على بصره غشاوة ، وله الحجة التامة ، والحكمة البالغة .

(٧٤) ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

أي اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد ولا يوصف بما شرف به نبيكم محمداً ﷺ على سائر الأنبياء ، وهداكم به إلى أكمل الشرائع .

(٧٥) ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر الله تعالى عن اليهود بأن منهم الخونة ، ويحذر المؤمنين من الاغترار بهم ، فإن منهم ﴿ من إن تأمنه بقنطار ﴾ أي من المال ﴿ يؤده إليك ﴾ أي وما دونه بطريق الأولى أن يؤديه إليك ﴿ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً﴾ أي المطالبة والملازمة والإلحاح في استخلاص حقك ، وإذا كان هذا صنيعه في الدينار فما فوقه أولى

أن لا يؤديه إليك . قال مالك بن دينار : إنما سمي الدينار لأنه دَيْن ونار ، أي من أخذه بحقه فهو دينه ، ومن أخذه بغير حقه فله النار . عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال : ائتني بالشهداء أشهدهم فقال : كفى بالله شهيداً ، قال ائتني بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يركبها ليقدم عليه في الأجل الذي أجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها ثم أتى بها إلى البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أني استسلفت فلاناً ألف دينار فسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، وسألني كفيلاً فقلت : كفى بالله كفيلاً ، فرضي بك وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر وإني استودعتكها ، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده فخرج الرجل الذي كان أسلفه لينظر لعل مركباً يجيئه بماله فإذا بالخشبة التي فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال : والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه ، قال : هل كنت بعثت إليّ بشيء ؟ قال : ألم أخبرك أني لم أجد مركباً قبل هذا ؟ قال : فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة فانصرف بألف دينار راشداً . هكذا رواه البخاري في موضع معلقاً بصيغة الجزم، وأسنده في بعض المواضع من الصحيح، ورواه الإمام أحمد في مسنده . وقوله ﴿ذلك بأنهم . . ﴾ أي إنما حملهم على جحود الحق أنهم يقولون : ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين وهم العرب ، فإن الله قد أحلها لنا . قال تعالى : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ أي وقد اختلقوا هذه المقالة ، وائتفكوا بهذه الضلالة ، فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها ، وإنما هم قوم بهت . سأل رجل ابن عباس فقال : إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا بذلك بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ليس علينا في الأميين سبيل ، إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم . عن سعيد بن جبير قال : لما قال أهل الكتاب ﴿ ليس علينا في الأميين سبيل ﴾ قال نبي الله ﷺ : « كذب أعداء الله ، ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدمي هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » .

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٧٦)

أي لكن من أوفى بعهده واتقى منكم يا أهل الكتاب الذي عاهدكم الله عليه من الإيمان بمحمد ﷺ إذا بعث كما أخذ العهد والميثاق على الأنبياء وأممهم بذلك واتقى محارم الله ، واتبع طاعته وشريعته التي بعث بها خاتم رسله وسيدهم ﴿ فإن الله يحب المتقين ﴾ .

(٧٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى : إن الذين يعتاضون عما عاهدوا الله عليه من اتباع محمد ﷺ ، وذكر صفته للناس ، وبيان أمره ، وعن أيمانهم الكاذبة الفاجرة الآثمة بالأثمان القليلة الزهيدة ، وهي عروض هذه الحياة الدنيا الفانية الزائلة ﴿ أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ، ولا حظ لهم منها . ﴿ ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ﴾ أي برحمة منه لهم ، يعني لا يكلمهم الله كلام لطف بهم ولا ينظر إليهم بعين الرحمة . ﴿ ولا يزكيهم ﴾ أي من الذنوب والأدناس ، بل يأمر بهم إلى النار، وفي الحديث عن أبي ذر : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » قلت : يا رسول الله ، من هم ؟ خسروا وخابوا ، قال : وأعاده رسول الله ثلاث مرات ، قال : « المسبل ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب والمنان » .

(٧٨) ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله أن منهم فريقاً يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويبدلون كلام الله ، ويزيلونه عن المراد به ، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك ، وينسبونه إلى الله وهو كذب على الله ، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا ، وافتروا في ذلك كله ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ ﴿ يلوون ألسنتهم بالكتاب ﴾ يحرفونه .

(٧٩) ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾

ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكمة والنبوة أن يقول للناس : اعبدوني من دون الله ، أي مع الله ، فإذا كان هذا لا يصلح لنبي ولا لمرسل ، فلأن لا يصلح لأحد من الناس غيرهم بطريقة الأولى والأحرى ، وقد كان أهل الكتاب يعبدون أحبارهم ورهبانهم ، كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ وقد قال عدي بن حاتم : يا رسول الله ، ما عبدوهم ، قال : « بلىٰ ، إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا عليهم الحلال فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » فالجهلة من الأحبار والرهبان ومشايخ الضلال يدخلون في هذا الذم والتوبيخ بخلاف الرسل وأتباعهم من العلماء العاملين ، فإنهم إنما يأمرون بما يأمر الله به ، وبلغتهم إياه رسله الكرام ، وإنما ينهونهم عما نهاهم الله عنه ، وبلغتهم إياه رسله الكرام . وقوله ﴿ ولكن كونوا ربانيين . . ﴾ أي ولكن يقول الرسول للناس : « كونوا ربانيين » ، أي حكماء علماء حلماء ، فقهاء ، أهل عبادة وأهل تقوى . وحق على من تعلَّم القرآن أن يكون فقيهاً . ﴿ تعلمون ﴾ أي تعلمونه للناس . ﴿ تدرسون ﴾ أي تحفظون ألفاظه .

(٨٠) ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أي ولا يأمركم بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ، ولا ملك مقرب . ﴿ أيأمركم بالكفر . . ﴾ أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان ، وهو عبادة الله وحده ، لا شريك له .

(٨١) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي من لدن آدم عليه السلام إلى عيسى عليه السلام لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة وبلغ أي مبلغ ، ثم جاء رسول من بعده ليؤمنن به ولينصرنه ، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته . ﴿ إصري ﴾ أي ثقل ما حملتم من عهدي ، أي ميثاقي الشديد المؤكد .

(٨٢) ﴿ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾

﴿ فمن تولى بعد ذلك ﴾ أي عن هذا العهد والميثاق قال علي بن أبي طالب : ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنَن به ولينصرَنه ، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته ، لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنُن به ولينصرُنه . وفي الحديث : « لو أصبح فيكم موسى عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم ، وأنا حظكم من النبيين » .

(٨٣) ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على من أراد ديناً سوى دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي له أسلم من في السموات والأرض ، أي استسلم له من فيهما طوعاً وكرهاً ، فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله ، والكافر مستسلم لله كرهاً ، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذي لا يخالف ولا يمانع . ﴿ وإليه يرجعون ﴾ أي يوم المعاد فيجازي كلاً بعمله .

(٨٤) ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾

﴿ وما أنزل علينا ﴾ يعني القرآن . ﴿ وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴾ أي من الصحف والوحي . ﴿ والأسباط ﴾ وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل ـ وهو يعقوب ـ الاثني عشر . ﴿ وما أوتي موسى وعيسى ﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل . ﴿ والنبيون من ربهم ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة . ﴿ لا نفرق بين أحد منهم ﴾ يعني بل نؤمن بهم جميعهم ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ فالمؤمنون من هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل ، وبكل كتاب أنزل ، لا يكفرون بشيء من ذلك ، بل يصدقون بما أنزل من عند الله ، وبكل نبي بعثه الله .

(٨٥) ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

من سلك طريقاً سوى ما شرعه الله فلن يقبل منه . ﴿ وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

(٨٦) ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ

وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

عن ابن عباس قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك ، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن سلوا لي رسول الله هل من قربة ؟ فنزلت ﴿ كيف يهدي الله قوماً . . إلى قوله : فإن الله غفور رحيم ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم . ومعنى الآية أن هؤلاء قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ، ووضح لهم الأمر ، ثم ارتدوا إلى ظلمة الشرك ، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبسوا به من العماية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

﴿٨٧﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴾

أي يلعنهم الله ويلعنهم خلقه .

﴿٨٨﴾ ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي في اللعنة . ﴿ لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يفتر عنهم العذاب ، ولا يخفف عنهم ساعة واحدة .

﴿٨٩﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا من لطفه وبره ورأفته ورحمته وعائدته على خلقه أن من تاب إليه تاب عليه .

﴿٩٠﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾

يقول الله متوعداً ومهدداً لمن كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً، أي استمر عليه إلى الممات، ومخبراً بأنهم لن تقبل لهم توبة عند الممات ، كما قال تعالى : ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾ ولهذا قال هنا : ﴿ لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون ﴾ أي الخارجون عن المنهج الحق إلى طريق الغي . عن ابن عباس أن قوماً أسلموا ، ثم ارتدوا ، ثم أسلموا ، ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم فذكروا لهم ذلك لرسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية .

﴿٩١﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿ لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾

أي من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبداً ، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهباً فيما يراه قربة ، كما سئل النبي ﷺ عن عبدالله بن جدعان ، وكان يقري الضيف ، ويفك العاني ، ويطعم الطعام : هل ينفعه ذلك ؟ فقال : « لا ، إنه لم يقل يوماً من الدهر : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » وكذلك لو افتدى بملء الأرض ذهباً ما قبل منه . في الحديث : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شيء ، أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول الله : قد أردت منك أهون من ذلك ! قد أخذت عليك في ظهر أبيك آدم أن لا تشرك بي شيئاً ، فأبيت إلا أن تشرك » أخرجه البخاري ومسلم والإمام أحمد . ﴿ أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله ، ولا يجيرهم من أليم عقابه .

(٩٢) ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم ﴾

﴿ لن تنالوا البر ﴾ الجنة . كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً ، وكان أحب ماله إليه بيرحاء ، وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب ، قال أنس : فلما نزلت ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قال أبو طلحة : يا رسول الله ، إن الله يقول : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وإن أحبَّ أموالي إليّ بيرحاء ، وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله ، فقال النبي ﷺ : « بخ بخ ، ذاك مال رابح ، ذاك مال رابح ، وقد سمعت ، وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين » فقال أبو طلحة : أفعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه » .

(٩٣) ﴿ * كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾

قال ابن عباس : حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ فقالوا : حدثنا عن خلال نسألك عنهن ، لا يعلمهن إلا نبي قال : « سلوني عما شئتم ، ولكن اجعلوا لي ذمة الله ، وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعني على الإسلام » قالوا : فذلك لك ، قالوا : أخبرنا عن أربع خلال ، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه ؟ وكيف

ماء المرأة وماء الرجل ؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في النوم ، ومن وليه من الملائكة ؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنه ، فقال : أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لله ، لئن شفاه الله من سقمه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إليه ألبانها » فقالوا : اللهم نعم ، فقال : « اللهم اشهد عليهم» وقال : « أنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى ، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ ، وماء المرأة أصفر رقيق ، فأيهما علا كان الولد والشبه بإذن الله ، إن علا ماء الرجل ماء المرأة كان ذكراً بإذن الله ، وإن علا ماء المرأة ماء الرجل كان أنثى بإذن الله » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد عليهم» قال : « وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه ؟ » قالوا : نعم ، قال : « اللهم اشهد » قال : « وإن وليي جبريل ولم يبعث الله نبيّاً قط إلا وهو وليه » قالوا نعم : فعند ذلك نفارقك ، ولو كان وليك غيره لتابعناك ، فعند ذلك قال الله تعالى : ﴿ قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ﴾ فإنها ناطقة بما قلناه .

(٩٤) ﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

أي فمن كذب على الله وادعى أنه شرع لهم السبت ، والتمسك بالتوراة دائماً ، وأنه لم يبعث نبياً آخر يدعو إلى الله تعالى بالبراهين والحجج بعد هذا الذي بيناه ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ .

(٩٥) ﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

أي قل يا محمد : صدق الله فيما أخبر به ، وفيما شرعه في القرآن ، فاتبعوا ملة إبراهيم التي شرعها الله في القرآن على لسان محمد ﷺ ، فإنه الحق الذي لا شك فيه ولا مرية .

(٩٦) ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أن أول بيت وضع للناس أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم يطوفون به ويصلون إليه ويعتكفون عنده ﴿ للذي ببكة ﴾ يعني الكعبة . عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصا » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد » . وسميت بكة لأنها تبك أعناق الظلمة

والجبابرة . ﴿ فيه آيات بينات ﴾ أي دلالات ظاهرة أنه من بناء إبراهيم وأن الله عظمه وشرفه . ﴿ مقام إبراهيم ﴾ يعني الذي لما ارتفع البناء استعان به على رفع القواعد منه والجدران حيث كان يقف عليه ، ويناوله ولده إسماعيل . ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ . يعني حرم مكة ، إذا دخله الخائف يأمن من كل سوء ، وكذلك كان الأمر في الجاهلية . ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾ هذه آية وجوب الحج عند الجمهور ، والاستطاعة الزاد والراحلة ﴿ ومن كفر فإن الله غني . . ﴾ أي ومن جحد فريضة الحج فقد كفر ، والله غني عنه . عن عمر بن الخطاب يقول : « من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهودياً أو نصرانياً » .

(٩٧) ﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(٩٨) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ﴾

(٩٩) ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾

هذا تعنيف من الله تعالى للكفرة : أهل الكتاب على عنادهم للحق ، وكفرهم بآيات الله ، وصدهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيمان بجهدهم وطاقتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حق من الله ، وبما عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين والسادة المرسلين ، وما بشروا به ونوهوا به من ذكر النبي الأمي الهاشمي العربي المكي سيد ولد آدم وخاتم الأنبياء ورسول رب الأرض والسماء ، وقد توعدهم الله على ذلك ، وأخبر بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء ، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والجحود والعناد ، فأخبر تعالى أنه ليس بغافل عما يعملون ، أي وسيجزيهم على ذلك ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ .

(١٠٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴾

يحذر تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يطيعوا طائفة من أهل الكتاب الذين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله وما منحهم من إرسال رسوله كما قال تعالى : ﴿ ود

كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ .

(١٠١) ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يعني أن الكفر بعيد منكم ، وحاشاكم منه ، فإن آيات الله تنزل عليكم ليلاً ونهاراً ، وهو يتلوها عليكم ويبلغها إليكم ، وهذا كقوله تعالىٰ : ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ وكما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال لأصحابه يوماً : « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ » قالوا : الملائكة ، قال : « وكيف لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ؟ » قالوا : فنحن ، قال : « وكيف لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ » قالوا : فأي الناس أعجب إيماناً ؟ قال : « قوم يجيئون من بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها» . وقوله تعالى : ﴿ ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم ﴾ أي ومع هذا فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية ، والعدة في مباعدة الغواية ، والوسيلة إلى الرشاد ، وطريق السداد ، وحصول المراد .

(١٠٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

في الحديث ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ أن يطاع فلا يعصى ، ويشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى» وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وقيل: ليست منسوخة ، و﴿ حق تقاته ﴾ أي يجاهدوا في سبيله حق جهاده ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم . وروي عن أنس أنه قال : لا يتقي اللهَ العبدُ حق تقاته حتى يخزن لسانه . وقوله ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ أي حافظوا على الإسلام في حال صمتكم وسلامتكم لتموتوا عليه ، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه ، ومن مات على شيء بعث عليه ، فعياذاً بالله من خلاف ذلك . وفي الحديث « من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته ، وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويأتي إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » .

(١٠٣) ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ بحبل الله ﴾ بعهد الله ، أو بالقرآن ، وفي الحديث « إن هذا القرآن هو حبل الله المتين ، وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه ﴾ وقوله ﴿ ولا تفرقوا ﴾ أمرهم بالجماعة ، ونهاهم عن التفرقة ، وفي الحديث « إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويسخط لكم ثلاثاً : يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم ثلاثاً : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ . وقوله ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم . . ﴾ وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج ، فإنه قد كان بينهم حروب في الجاهلية ، وعداوة شديدة ، وإحن وذحول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم ، فلما جاء الإسلام ، فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخواناً متحابين بجلال الله ، متواصلين في ذات الله ، متعاونين على البر والتقوى ، وكما قال تعالى ﴿ لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » .

(١٠٤) ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى : ولتكن منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ، وفي الحديث « قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ﴾ قال : « الخير اتباع القرآن وسنتي » والمقصود من هذه الآية أن تكون فرقة من هذه الأمة متصدية لهذا الشأن ، وإن كان ذلك واجباً على كل فرد فرد من الأمة بحسبه ، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » وفي رواية « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » . وفي الحديث « والذي نفسي بيده ، لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم » .

(١٠٥) ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين في افتراقهم واختلافهم ، وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قيام الحجة عليهم . روى الإمام أحمد عن أبي عامر عبدالله بن يحيى قال : حججنا مع معاوية بن أبي سفيان ، فلما قدمنا مكة قام حين صلى صلاة الظهر فقال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة - وهي الجماعة - وإنه سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله » والله يا معشر العرب ، لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم ﷺ ، لَغيْركم من الناس أحرى أن لا يقوم به .

(١٠٦) ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

يعني يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة قاله ابن عباس . وقال الحسن البصري : هم المنافقون . ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ وهذا الوصف يعم كل كافر .

(١٠٧) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ يعني الجنة ماكثون فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً .

(١٠٨) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

أي هذه آيات الله وحججه وبيناته نتلوها عليك يا محمد ﴿ بالحق ﴾ أي نكشف ما الأمر عليه في الدنيا والآخرة ﴿ وما الله يريد ظلماً للعالمين ﴾ أي ليس بظالم لهم ، بل هو الحاكم العدل الذي لا يجور ، لأنه القادر على كل شيء ، العالم بكل شيء ، فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه . ولهذا قال :

(١٠٩) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

﴿ ولله ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملك له ، وعبيد له . ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي هو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة .

(١١٠) ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

والمعنى أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس . ولهذا قال : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ وفي الحديث قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال يا رسول الله ، أي الناس خير ؟ قال : « خير الناس أقراهم وأتقاهم لله ، وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم » . وقيل : هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، والصحيح أن هذه الآية عامة في جميع الأمة ، كل قرن بحسبه ، وخير قرونهم الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » . ولما مدح الله هذه الأمة على هذه الصفات شرع في ذم أهل الكتاب وتأنيبهم فقال : ﴿ ولو آمن أهل الكتاب ﴾ أي بما أنزل على محمد ﷺ ﴿ لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾ أي قليل منهم من يؤمن بالله ، وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، وأكثرهم على الضلالة والكفر والفسق والعصيان .

(١١١) ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

هكذا وقع ، فإنهم يوم خيبر أذلهم الله ، وكذلك من قبلهم من يهود بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة . كلهم أذلهم الله ، وكذلك النصارى في الشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم .

(١١٢) ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

أي ألزمهم الله الذلة والصغار أينما كانوا فلا يؤمنون . ﴿ إلا بحبل من الله ﴾ أي بذمة من الله ، وهو عقد الذمة لهم ، وضرب الجزية عليهم ، وإلزامهم أحكام الملة . ﴿ وحبل من الناس ﴾ أي أمان منهم لهم ، كما في المهادن والمعاهد والأسير إذا أمنه واحد من المسلمين ، ولو امرأة ، وكذا عَبْدٌ على أحد قولي العلماء . ﴿ وباؤوا بغضب من الله ﴾

أي أُلزموا ، فالتزموا بغضب من الله وهم يتسحقونه . ﴿ وضربت عليهم المسكنة ﴾ أي ألزموها قدراً وشرعاً . ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون . . ﴾ أي إنما حملهم على ذلك الكبر والبغي والحسد فأعقبهم ذلك الذلة والصغار والمسكنة أبداً متصلاً بذل الآخرة . ﴿ ذلك بما عصوا . . ﴾ أي إنما حملهم على الكفر بآيات الله وقتل رسل الله ـ وقيضوا لذلك . أنهم كانوا يكثرون العصيان لأوامر الله ، والغشيان لمعاصي الله ، والاعتداء في شرع الله ، فعياذاً بالله من ذلك ، والله عز وجل المستعان . عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كانت بنو إسرائيل تقتل في اليوم ثلاثمائة نبي ، ثم يقوم سوق بغلهم في آخر النهار .

(١١٣) ﴿ * لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾

أي لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ وفي الحديث عن ابن مسعود قال : أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ، ثم خرج إلى المسجد ، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال : « أما إنه ليس من أهل الكتاب أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم » قال فنزلت هذه الآيات ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب ﴾ إلى قوله ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ والمشهور أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبدالله بن سلام ، وأسد بن عبيد ، وثعلبة بن شعبة وغيرهم ، أي لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب وهؤلاء الذين أسلموا ، ولهذا قال ﴿ ليسوا سواء ﴾ أي ليسوا كلهم على حد سواء ، بل منهم المؤمن ، ومنهم المجرم . ولهذا قال : ﴿ من أهل الكتاب أمة قائمة ﴾ أي قائمة بأمر الله ، مطيعة لشرعه ، متبعة نبي الله ، فهي قائمة يعني مستقيمة . ﴿ يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ أي يقيمون الليل ، ويكثرون التهجد ، ويتلون القرآن في صلواتهم .

(١١٤) ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ج وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وهؤلاء هم المذكورون في آخر السورة ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا :

(١١٥) ﴿ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ قلى وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وما يفعلوا من خير فلن يكفروه ﴾ أي لا يضيع عند الله ما عملوا من خير ، بل يجزيهم

به أوفر الجزاء . ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل ، ولا يضيع لديه أجر من أحسن عملاً . ثم قال تعالى مخبراً عن الكفرة المشركين بأنه

(١١٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أي لا ترد عنهم بأس الله ، ولا عذابه إذا أراده بهم . ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(١١٧) ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ فيها صر ﴾ أي برد شديد ، أو برد وجليد ، أو نار ، وهو يرجع إلى الأول ، فإن البرد الشديد ، ولا سيما الجليد يحرق الزروع والثمار ، كما يحرق الشيء بالنار . ﴿ فأهلكته ﴾ أي فأحرقته ، يعني بذلك السعفة إذا نزلت على حرث قد آن جذاذه ، أو حصاده فدمرته وأعدمت ما فيه من ثمر أو زرع فذهبت به وأفسدته فعدمه صاحبه أحوج ما كان إليه ، فكذلك الكفار ، يمحق الله ثواب أعمالهم في هذه الدنيا وثمرها كما يذهب ثمرة هذا الحرث بذنوب صاحبه . وكذلك هؤلاء بنوها على غير أصل وعلى غير أساس ﴿ وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون ﴾ .

(١١٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى ناهياً عباده المؤمنين عن اتخاذ المنافقين بطانة ، أي يطلعونهم على أسرارهم ، وما يضمرونه لأعدائهم . والمنافقون بجهدهم وطاقتهم لا يألون المؤمنين خبالاً ، أي يسعون في مخالفتهم ، وما يضرهم بكل ممكن ، وبما يستطيعون من المكر والخديعة ، ويودون ما يعنت المؤمنين ويحرجهم ويشق عليهم . وقوله تعالى ﴿ لا تتخذوا بطانة من دونكم ﴾ أي من غيركم من أهل الأديان . وبطانة الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على خاصة أمره . وفي الحديث الذي رواه البخاري والنسائي وغيرهما « ما بعث

الله من نبي ، ولا استخلف من خليفة إلا كان له بطانة : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالسوء وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب ، فلو اتخذته كاتباً ، فقال : قد اتخذت إذاً بطانة من غير المؤمنين . ففي هذا الأثر مع الآية دليل على أن أهل الذمة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين ، واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب . ولهذا قال تعالى : ﴿ لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم ﴾ وقوله تعالى ﴿ قد بدت البغضاء من . . ﴾ أي قد لاح على صفحات وجوههم ، وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل . ولهذا قال تعالى ﴿ قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴾ .

(١١٩) ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

أي أنتم أيها المؤمنون تحبون المنافقين بما يظهرون من الايمان فتحبونهم على ذلك ، وهم لا يحبونكم لا باطناً ولا ظاهراً . ﴿ وتؤمنون بالكتاب كله ﴾ أي ليس عندكم في شيء منه شك ولا ريب ، وهم عندهم الشك والريب والحيرة ، أو تؤمنون بكتابكم وكتابهم ، وبما مضى من الكتب قبل ذلك وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم . والأنامل : أطراف الأصابع ، أو الأصابع . وهذا شأن المنافقين ، يظهرون للمؤمنين الإيمان والمودة ، وهم في الباطن بخلاف ذلك من كل وجه على أشد الغيظ والحنق . ﴿ قل موتوا بغيظكم ﴾ أي مهما كنتم تحسدون عليه المؤمنين ويغيظكم ذلك منهم ، فاعلموا أن الله متم نعمته على عباده المؤمنين ، ومكمل دينه ، ومعل كلمته ، ومظهر دينه ، فموتوا أنتم بغيظكم ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ أي هو عليم بما تنطوي عليه ضمائركم ، وتكنه سرائركم من البغضاء والحسد والغل للمؤمنين ، وهو مجازيكم عليه في الدنيا بأن يريكم خلاف ما تأملون ، وفي الآخرة بالعذاب الشديد في النار التي أنتم خالدون فيها ، لا محيد لكم عنها ، ولا خروج لكم منها .

(١٢٠) ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾

وهذه الحال دالة على شدة العداوة منهم للمؤمنين ، وهو أنه إذا أصاب المؤمنين خصب ونصر وتأييد وكثروا وعز أنصارهم ساء ذلك المنافقين ، وإن أصاب المسلمين سنة أي جدب ، أو أديل عليهم الأعداء لما لله في ذلك من الحكمة كما جرى يوم أحد فرح المنافقون بذلك ، قال الله تعالى مخاطباً للمؤمنين : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا . . ﴾ يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، باستعمال الصبر والتقوى ، والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم ، فلا حول ولا قوة إلا به ، وهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته ، ومن توكل عليه كفاه .

(١٢١) ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

ثم شرع تعالى في ذكر قصة أحد ، وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين ، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين ، وبيان الصابرين فقال تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك . . ﴾ المراد بهذه الواقعة يوم أحد عند الجمهور ، وعن الحسن البصري : المراد بذلك يوم الأحزاب ، وهو غريب لا يعول عليه ، وكانت وقعة أحد يوم السبت من شوال سنة ثلاث من الهجرة . ﴿ تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال ﴾ أي منزلهم منازلهم : وتجعلهم ميمنة وميسرة ، وحيث أمرتهم . ﴿ والله سمع عليم ﴾ أي سميع لما تقولون ، عليم بضمائركم .

(١٢٢) ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

قال عمر : سمعت جابر بن عبدالله يقول : فينا نزلت ﴿ إذ همت طائفتان . . ﴾ قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة ، وبنو سلمة ، وما يسرني أنها لم تنزل ، لقوله تعالى : ﴿ والله وليهما ﴾ .

(١٢٣) ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ ببدر ﴾ أي يوم بدر ، وكان يوم الجمعة ، وافق السابع عشر من شهر رمضان من سنة اثنتين من الهجرة ، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله ، ودفع فيه الشرك ، وخرب محله وحزبه ، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذٍ ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، فيهم فارسان ، وسبعون بعيراً ، والباقون مشاة ، ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه ، وكان العدو يومئذٍ بين التسعمائة إلى الألف في سوابغ الحديد والبيض ، والعدة الكاملة والخيول المسومة ، والحلي الزائد ، فأعز الله رسوله ، وأظهر وحيه

وتنزيله ، وبيض وجه النبي ﷺ وقبيلته ، وأخزى الشيطان وجيله . وبدر : محلة بين مكة والمدينة ، تعرف ببئرها ، منسوبة إلى رجل حفرها ، يقال له : بدر بن النارين . أو هي بئر لرجل يسمى بدراً . ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ أي تقومون بطاعته .

(١٢٤) ﴿ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾

اختلف المفسرون في هذا الوعد : هل كان يوم بدر ، أو يوم أحد على قولين . والظاهر أن ذلك كان يوم بدر ، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة إنما كان يوم بدر ، والله أعلم .

(١٢٥) ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

﴿ من فورهم هذا ﴾ أي من وجههم هذا ﴿ مسومين ﴾ أي معلمين بالسيما ، وكان سيما الملائكة يوم بدر الصدف الأبيض ، وسيماهم أيضاً في نواصي خيولهم ، أو مسومين بسيما القتال ، أو بالعمائم .

(١٢٦) ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾

أي وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالهم إلا بشارة لكم ، وتطييباً لقلوبكم وتطميناً ، وإلا فإنما النصر من عند الله ، الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ، ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم . ﴿ العزيز الحكيم ﴾ أي هو ذو العزة التي لا ترام ، والحكمة في قدره والاحكام .

(١٢٧) ﴿ لِيَقۡطَعَ طَرَفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡ يَكۡبِتَهُمۡ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴾

أي أمركم بالجهاد والجلاد لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير . ﴿ فينقلبوا ﴾ فيرجعوا . ﴿ خائبين ﴾ أي لم يحصلوا على ما أملوا .

(١٢٨) ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾

أي ليس لك من الحكم شيء في عبادي ، إلا ما أمرتك به فيهم ، والأمر كله إليّ .
﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ ﴿ أو يتوب عليهم ﴾ مما هم فيه من الكفر ، فيهديهم بعد الضلالة . ﴿ أو يعذبهم ﴾ أي في الدنيا والآخرة على كفرهم وذنوبهم .
﴿ فإنهم ظالمون ﴾ أي يستحقون ذلك . كان رسول الله ﷺ يدعو على رجال من المشركين ، يسميهم بأسمائهم حتى أنزل الله ﴿ ليس لك من الأمر شيء ﴾ .

(١٢٩) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أي الجميع ملك الله ، وأهلها عبيد بين يديه ﴿ يغفر لمن يشاء . . ﴾ أي هو المتصرف ، فلا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، والله غفور رحيم .

(١٣٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين عن تعاطي الربا ، وأكله أضعافاً مضاعفة ، كما كانوا في الجاهلية يقولون إذا حل أجل الدين : إما أن تقضي ، وإما أن تربي ، فإن قضاه وإلا زاده في المدة ، وزاده الآخر في القدر ، وهكذا كل عام ، فربما تضاعف القليل حتى يصير كثيراً مضاعفاً ، وأمر تعالى عباده بالتقوى لعلهم يفلحون في الأولى وفي الآخرة ، ثم توعدهم بالنار ، وحذرهم منها ، فقال سبحانه وتعالىٰ :

(١٣١) ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾

(١٣٢) ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(١٣٣) ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ثم ندبهم إلى المبادرة إلى فعل الخيرات ، والمسارعة إلى نيل القربات فقال تعالى :
﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم . . . ﴾ أي أعدت الجنة للمتقين كما أعدت النار للكافرين . وقد قيل : إن معنى قوله : ﴿ عرضها السموات والأرض ﴾ تنبيهاً على اتساع طولها ، كما قال في صفة فرش الجنة ﴿ بطائنها من استبرق ﴾ أي فما ظنك بالظهائر .
وقيل : بل عرضها كطولها . وفي الحديث : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وسقفها عرش الرحمٰن » وفي مسند الإمام أحمد أن هرقل كتب إلى النبي ﷺ : إنك دعوتني إلى جنة عرضها السموات

والأرض فأين النار؟ فقال النبي ﷺ : « سبحان الله ، فأين الليل إذا جاء النهار » ؟

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿١٣٤﴾

ثم ذكر تعالى صفة أهل الجنة فقال : ﴿ الذين ينفقون في السراء والضراء ﴾ أي في الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال ، كما قال ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ﴾ والمعنى أنهم لا يشغلهم أمر عن طاعة الله ، والإنفاق في مراضيه ، والإحسان إلى خلقه من قراباتهم وغيرهم بأنواع البر . ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ أي إذا قاربهم الغيظ كظموه بمعنى كتموه فلم يعملوه ، وعفوا مع ذلك عمن أساء إليهم . وفي الحديث « من كف غضبه كف الله عنه عذابه ، ومن خزن لسانه ستر الله عورته ، ومن اعتذر إلى الله قبل عذره » وهذا حديث غريب ، وفي إسناده نظر . وفي الحديث « ليس الشديد بالصُرَعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » وفي الحديث « ثلاث أقسم عليهن : ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه الله » .

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣٥﴾

أي إذا صدر منهم ذنب أتبعوه بالتوبة والاستغفار . عن أبي هريرة قلنا : يا رسول الله ، إذا رأيناك رقت قلوبنا وكنا من أهل الآخرة ، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا ، وشممنا النساء والأولاد ، فقال : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي كنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم ، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون كي يغفر لهم . . . » وفي الحديث « عليكم بلا إلّه إلا الله والاستغفار ، فكثروا منهما ، فإن إبليس قال : أهلكت الناس بالذنوب ، وأهلكوني بلا إلّه إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء ، فهم يحسبون أنهم مهتدون » . ﴿ ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾ أي لا يغفرها أحد إلا الله . وقد أتي النبي بأسير فقال : اللهم إني أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد فقال النبي ﷺ : « عرف الحق لأهله » . ﴿ ولم يصروا على ما فعلوا . . ﴾ أي تابوا من ذنوبهم ورجعوا إلى الله عن قريب ، ولم يستمروا على المعصية

ويصروا عليها غير مقلين عنها ، ولو تكرر منهم الذنب تابوا منه . وفي الحديث « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » .

(١٣٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾

أي جزاؤهم على هذه الصفات ﴿ مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي من أنواع المشروبات . ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها . ﴿ ونعم أجر العاملين ﴾ يمدح تعالى الجنة .

(١٣٧) ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عباده المؤمنين لما أصيبوا يوم أحد وقتل منهم سبعون ﴿ قد خلت من قبلكم سنن ﴾ أي قد جرى نحو هذا على الأمم الذين كانوا من قبلكم من أتباع الأنبياء ، ثم كانت العاقبة لهم ، والدائرة على الكافرين . ولهذا قال : ﴿ فسيروا في الأرض . . ﴾ .

(١٣٨) ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ هذا بيان للناس ﴾ يعني القرآن فيه بيان الأمور على جليتها ، وكيف كان الأمم الأقدمون مع أعدائهم ﴿ وهدى وموعظة ﴾ يعني القرآن فيه خبر ما قبلكم ، وهدى قلوبكم ، وموعظة أي زاجر عن المحارم والمآثم .

(١٣٩) ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين ﴿ ولا تهنوا ﴾ أي لا تضعفوا بسبب ما جرى . ﴿ ولا تحزنوا . . ﴾ أي العاقبة والنصرة لكم أيها المؤمنون .

(١٤٠) ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ إن يمسسكم قرح . . ﴾ أي إن كنتم قد أصابتكم جراح ، وقتل منكم طائفة فقد أصاب أعداءكم قريب من ذلك من قتل وجراح . ﴿ وتلك الأيام نداولها بين الناس ﴾ أي نديل عليكم الأعداء تارة ، وإن كانت لكم العاقبة ، لما لنا في ذلك من الحكمة . ولهذا قال تعالى : ﴿ وليعلم الله الذين آمنوا ﴾ قال ابن عباس في مثل هذا : لنرى من يصبر على مناجزة الأعداء . ﴿ ويتخذ منكم شهداء ﴾ يعني يقتلون في سبيله ، ويبذلون مهجهم في مرضاته .

(١٤١) ﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ﴾ أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كانت لهم ذنوب ، وإلا رفع لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به . ﴿ ويمحق الكافرين ﴾ أي فإنهم إذا ظفروا بغوا وبطروا ، فيكون ذلك سبب دمارهم وهلاكهم ومحقهم وفنائهم .

(١٤٢) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

أي أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تبتلوا بالقتال والشدائد ، كما قال تعالى : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا . . ﴾ وقال تعالى : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن الكاذبين ﴾ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تبتلوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله ، والصابرين على مقاومة الأعداء .

(١٤٣) ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

أي قد كنتم أيها المؤمنون قبل هذا اليوم تتمنون لقاء العدو وتحترقون عليه وتودون مناجزتهم ومصابرتهم ، فها قد حصل الذي تمنيتموه وطلبتموه فدونكم ، فقاتلوا وصابروا . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لا تتمنوا لقاء العدو ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ولهذا قال تعالى ﴿ فقد رأيتموه ﴾ يعني الموت ، شاهدتموه وقت حد الأسنة ، واشتباك الرماح ، وصفوف الرجال للقتال . والمتكلمون يعبرون عن هذا بالتخييل ، وهو مشاهدة ما ليس بمحسوس كالمحسوس ، كما تتخيل الشاة صداقة الكبش ، وعداوة الذئب .

(١٤٤) ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

لما انهزم ما انهزم من المسلمين يوم أحد ، وقتل من قتل منهم نادى الشيطان : ألا إن محمداً قد قتل ، ورجع ابن قمئة إلى المشركين فقال لهم : قتلت محمداً ، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجه في رأسه ، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس ، واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل ، وجوزوا عليه ذلك ، كما قد قص الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال ، ففي ذلك أنزل الله تعالى ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ أي له أسوة بهم في الرسالة ، وفي جواز القتل عليه . ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف ﴿ أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ أي رجعتم القهقرى . ﴿ وسيجزي الله الشاكرين ﴾ أي الذين قاموا بطاعته ، وقاتلوا عن دينه ، واتبعوا رسوله حياً وميتاً .

(١٤٥) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

أي لا يموت أحد إلا بقدر الله ، وحتى يستوفي المدة التي ضربها الله له . ولهذا قال : ﴿ كتاباً مؤجلاً ﴾ كقوله ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ وهذه الآية فيها تشجيع للجبناء ، وترغيب لهم في القتال ، فإن الإقدام والإحجام لا ينقص من العمر ولا يزيد فيه . ﴿ ومن يرد ثواب الدنيا . . ﴾ أي من كان عمله للدنيا فقط ناله منها ما قدره الله له ، ولم يكن له في الآخرة من نصيب ، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطاه الله منها ، وما قسم له في الدنيا . ﴿ وسنجزي الشاكرين ﴾ أي سنعطيهم من فضلنا ورحمتنا في الدنيا والآخرة بحسب شكرهم وعملهم .

(١٤٦) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً للمؤمنين عما كان وقع في نفوسهم يوم أحد : ﴿ وكأين من نبي قاتل

معه ربيون كثير ﴾ ربيون : جموع كثيرة أو علماء كثر ، أو علماء صبر ، أي أبرار أتقياء ، فما ارتدوا عن نصرتهم ، ولا عن دينهم أن قاتلوا على ما قاتل عليه نبي الله حتى لحقوا به .

(١٤٧) ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ وما كان قولهم إلا أن . . ﴾ أي لم يكن لهم هجير إلا ذلك ، أي لم يكن له دأب وعادة إلا ذلك .

(١٤٨) ﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ فآتاهم الله ثواب الدنيا ﴾ أي النصر والظفر والعاقبة ﴿ وحسن ثواب الآخرة ﴾ أي جمع لهم ذلك مع هذا .

(١٤٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

يحذر الله عباده المؤمنين عن طاعة الكافرين والمنافقين ، فإن طاعتهم تورث الردى في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال : ﴿ إن تطيعوا الذين كفروا . . . ﴾ .

(١٥٠) ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾

ثم أمرهم بطاعته وموالاته والاستعانة به والتوكل عليه فقال تعالى : ﴿ بل الله مولاكم . . ﴾ .

(١٥١) ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

ثم بشرهم بأنه سيلقي في قلوب أعدائهم الخوف منهم ، والذلة لهم بسبب كفرهم وشركهم مع ما ادخره لهم في الدار الآخرة من العذاب والنكال . فقال : ﴿ سنلقي في قلوب الذين . . ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت

لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » .

(١٥٢) ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ أي أول النهار . ﴿ إذ تحسونهم ﴾ أي تقتلونهم . ﴿ بإذنه ﴾ أي بتسليطه إياكم عليهم . ﴿ حتى إذا فشلتم ﴾ الفشل: الجبن . ﴿ وتنازعتم في الأمر وعصيتم ﴾ كما وقع للرماة . ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ وهو الظفر بهم . ﴿ منكم من يريد الدنيا ﴾ وهم الذين رغبوا في المغنم حين رأوا الهزيمة . ﴿ ومنكم يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ أي ثم أدالهم عليكم ليختبركم ويمتحنكم . ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ أي غفر لكم ذلك الصنيع ، وذلك والله أعلم لكثرة عدد العدو وعددهم ، وقلة عدد المسلمين وعددهم . أو ﴿ عفا عنكم ﴾ لم يستأصلكم .

(١٥٣) ﴿ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ﴾ أي صرفكم عنهم إذ تصعدون أي في الجبل هاربين من أعدائكم . ﴿ ولا تلوون على أحد ﴾ أي وأنتم لا تلوون على أحد من الدهش والخوف والرعب . ﴿ والرسول يدعوكم في أخراكم ﴾ أي وهو قد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرة . ﴿ فأثابكم غمّاً بغم ﴾ أي فجزاكم غماً على غم . الغم الأول بسبب الهزيمة ، والغم الثاني حين قيل : قتل محمد ﷺ ، كان ذلك عندهم أشد وأعظم من الهزيمة . ﴿ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ﴾ أي على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم . ﴿ ولا ما أصابكم ﴾ من الجراح والقتل .

(١٥٤) ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ

يُخفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده فيما أنزل عليهم من السكينة والأمنة ، وهو النعاس الذي غشيهم ، وهم مشتملون السلاح في حال همهم وغمهم . والنعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان ، كما قال سبحانه : ﴿ إذ يغشيكم النعاس أمنة منه ﴾ وعن ابن مسعود : النعاس في القتال من الله ، وفي الصلاة من الشيطان . وعن أبي طلحة قال : كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد ، حتى سقط سيفي من يدي مراراً ، يسقط وآخذه . ﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ يعني أهل الإيمان واليقين ، والثبات والتوكل الصادق ، وهم الجازمون بأن الله عز وجل سينصر رسوله ،وينجز له مأموله . ولهذا قال : ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف . ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ . فهؤلاء المشركون اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة أنها الفيصلة ، وأن الإسلام قد باد وأهله ، وهذا شأن أهل الريب والشك إذا حصل أمر من الأمور الفظيعة تحصل لهم هذه الظنون الشنيعة . ﴿ يقولون ﴾ في تلك الحال . ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾ قال تعالى ﴿ قل إن الأمر كله لله . . . ﴾ ثم فسر ما أخفوه في أنفسهم بقوله : ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ﴾ أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله ﷺ . ﴿ قل لو كنتم في . . ﴾ أي هذا قدر قدره الله عز وجل ، وحكم حتم لا محيد عنه ، ولا مناص منه . ﴿ وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم ﴾ أي يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس في الأقوال والأفعال . ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يختلج في الصدر من السرائر والضمائر .

(١٥٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

﴿ ببعض ما كسبوا ﴾ أي ببعض ذنوبهم السالفة ، كما قال بعض السلف : إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، وإن من جزاء السيئة السيئة بعدها . ﴿ ولقد عفا الله عنهم ﴾ أي

عما كان منهم من الفرار . ﴿ إن الله غفور حليم ﴾ أي يغفر الذنب ، ويحلم عن خلقه ، ويتجاوز عنهم .

(١٥٦) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ينهى تعالى عباده المؤمنين عن مشابهة الكفار في اعتقادهم الفاسد الدال عليه قولهم عن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار والحروب: لو كانوا ذلك لما أصابهم ما أصابهم فقال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم﴾ أي عن إخوانهم. ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي سافروا للتجارة ونحوها. ﴿أو كانوا غزى﴾ أي كانوا في الغزو ﴿ لو كانوا عندنا ﴾ أي في البلد . ﴿ ما ماتوا وما قتلوا ﴾ أي ما ماتوا في السفر ، وما قتلوا في الغزو . ﴿ ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم ﴾ أي خلق هذا الاعتقاد في نفوسهم ليزدادوا حسرة على موتاهم وقتلاهم . ﴿ والله يحيي ويميت ﴾ أي بيده الخلق ، وإليه يرجع الأمر ، ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بمشيئته وقدره ، ولا يزاد في عمر أحد ، ولا ينقص منه شيء إلا بقضائه وقدره . ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ أي علمه وبصره نافذ في جميع خلقه ، لا يخفى عليه من أمورهم شيء .

(١٥٧) ﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

تضمن هذا أن القتل في سبيل الله ، والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء في الدنيا ، وجمع حطامها الفاني .

(١٥٨) ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى بأن كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله عز وجل فيجزيه به بعمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر فقال : ﴿ ولئن متم أو قتلتم . . ﴾ .

(١٥٩) ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله ممتناً عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته المتبعين لأمره ، التاركين لزجره ، وأطاب لهم لفظه ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ أي بأي شيء جعلك الله لهم ليناً لولا رحمة الله بك وبهم ، أو فبرحمة من الله لنت لهم . و﴿ ما ﴾ صلة ، والعرب تصل بالمعرفة كقوله : ﴿ فبما نقضهم ميثاقهم ﴾ وبالنكرة كقوله ﴿ عما قليل﴾ وهكذا هنا قال ﴿ فبما رحمة . . ﴾ أي برحمة من الله . قال الحسن البصري : هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به . وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ ﴿ ولوكنت فظاً ﴾ الفظ الغليظ ، والمراد به هنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك ﴿ غليظ القلب ﴾ أي لو كنت سيء الكلام قاسي القلب لانفضوا عنك وتركوك ، ولكن الله جمعهم عليك ، ألان جانبك لهم تألفاً لقلوبهم . قال عبدالله بن عمرو إني أرى صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة أنه ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح . وفي الحديث « إن الله أمرني بمداراة الناس كما أمرني بإقامة الفرائض » حديث غريب. ولهذا قال تعالى :﴿فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ولذلك كان رسول الله يشاور أصحابه في الأمر إذا حدث تطييباً لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه ، كما شاورهم يوم بدر في الذهاب إلى العير ، وشاورهم أيضاً أين يكون المنزل حتى أشار المنذر بن عمرو بالتقدم أمام القوم ، وشاورهم في أحد في أن يعقد في المدينة ، أو يخرج إلى العدو ، وشاورهم يوم الخندق في مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذٍ فأبى ذلك عليه السعدان : سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة فترك ذلك ، وشاورهم يوم الحديبية في أن يميل على ذراري المشركين فقال له الصديق : إنا لم نجيء لقتال أحد ، وإنما جئنا معتمرين فأجابه إلى ما قال ، وقال في قصة الإفك : « أشيروا علي معشر المسلمين في قوم أنبوا أهلي ورموهم ، وأيم الله ما علمت على أهلي من سوء » وهل كانت الاستشارة واجبة عليه أم هي من باب الندب » تطييباً لقلوبهم ؟ قولان وقد قال النبي لأبي بكر وعمر : « لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما » وفي الحديث : « المستشار مؤتمن » ﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ أي إذا شاورتهم في الأمر وعزمت عليه فتوكل على الله .

(١٦٠) ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

هذه الآية كقوله تعالى : ﴿ وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

(١٦١) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وما كان لنبي أن يغل ﴾ ما ينبغي لنبي أن يخون ، نزلت في قطيفة حرا ، فقدت يوم بدر ، فقال بعض الناس : لعل رسول الله أخذها ، فأكثروا في ذلك فنزلت . وهذا تنزيه له ﷺ من جميع وجوه الخيانة في أداء الأمانة وقسم الغنيمة ، وغير ذلك . أو الغلول أن يقسم لبعض السرايا ويترك بعضاً ، أو بأن يترك بعض ما أنزل إليه فلا يبلغ أمته . ﴿ ثم توفى كل نفس . . ﴾ ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد . وقد استعمل ﷺ رجلاً من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدي لي ، فقام رسول الله ﷺ عل المنبر ، فقال : « وما بال العامل نبعثه على عمل فيقول : هذا لكم وهذا أهدى لي ، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى إليه أم لا ، والذي نفس محمد بيده ، لا يأتي أحدكم منها بشيء إلا جاء يوم القيامة على رقبته ، إن كان بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » ثم رفع يديه حتى رأينا عفرة إبطيه ثم قال : « اللهم هل بلغت » ثلاثاً .

(١٦٢) ﴿ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

أي لا يستوي من اتبع رضوان الله فيما شرعه فاستحق رضوان الله وجزيل ثوابه ، وأجير من وبيل عقابه ، ومن استحق غضب الله وألزم به ، فلا محيد له عنه ، ومأواه يوم القيامة جهنم وبئس المصير .

(١٦٣) ﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

يعني أهل الخير وأهل الشر درجات فهم متفاوتون في منازلهم ، درجاتهم في الجنة ، ودركاتهم في النار . كقوله تعالى : ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ ولهذا قال سبحانه ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي وسيوفيهم إياها ، ولا يظلمهم خيراً ، ولا يزيدهم شراً ، بل يجازي كل عامل بعمله .

(١٦٤) ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ من أنفسهم ﴾ أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به ، كما قال تعالى : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ﴾ أي من جنسكم . ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ يعني القرآن . ﴿ ويزكيهم ﴾ أي يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، لتزكوا نفوسهم ، وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم ، وجاهليتهم . ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ يعني القرآن والسنة . ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أي من قبل هذا الرسول . ﴿ لفي ضلال مبين ﴾ أي لفي جهل ظاهر جلي بيِّن لكل أحد .

(١٦٥) ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة ﴾ وهي ما أصيب منهم يوم أحد من قتلى السبعين منهم . ﴿ قد أصبتم مثليها ﴾ يعني يوم بدر، فإنهم قتلوا من المشركين سبعين قتيلاً ، وأسروا سبعين أسيراً . ﴿ قلتم أنى هذا ﴾ أي من أين جرى علينا هذا ؟ ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ أي بسبب عصيانكم لرسول الله ﷺ حين أمركم أن لا تبرحوا من مكانكم فعصيتم يعني بذلك الرماة . ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه .

(١٦٦) ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي فراركم بين يدي عدوكم ، وقتلهم لجماعة منكم ، وجراحتهم لآخرين كان بقضاء الله وقدره ، وله الحكمة في ذلك . ﴿ وليعلم المؤمنين ﴾ أي الذين صبروا وثبتوا ولم يتزلزلوا .

(١٦٧) ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾

يعني بذلك أصحاب عبدالله بن أبي ابن سلول الذين رجعوا معه في أثناء الطريق ،

فاتبعهم رجال من المؤمنين ، يحرضونهم على الاتيان والقتال والمساعدة ، ولهذا قال : ﴿ أو ادفعوا ﴾ يعني كثروا سواد المسلمين ، أو ادفعوا بالدعاء ، أو رابطوا . فتعللوا قائلين : ﴿ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ أي لو نعلم أنكم تلقون حرباً لجئناكم ، ولكن لا تلقون قتالاً . ﴿ هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان ﴾ استدلوا به على أن الشخص قد تتقلب به الأحوال ، فيكون في حال أقرب إلى الكفر ، وفي حال أقرب إلى الإيمان . ثم قال تعالى : ﴿ يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ﴾ يعني أنهم يقولون القول ، ولا يعتقدون صحته ، ومنه قولهم : ﴿ لو نعلم قتالاً لاتبعناكم ﴾ فإنهم يتحققون أن جنداً من المشركين قد جاؤ وامن بلادبعيدة يتحرقون على المسلمين بسبب ما أصيب من أشرافهم يوم بدر ، وهم أضعاف المسلمين أنه كائن بينهم قتال لا محالة . ولهذا قال تعالى : ﴿ والله أعلم بما يكتمون ﴾ .

﴿١٦٨﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

أي لو سمعوا من مشورتنا عليهم في القعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال تعالى : ﴿ قل فادرءوا عن أنفسكم . . ﴾ أي إن كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت ، فينبغي أنكم لا تموتون ، والموت لا بد آت إليكم ، ولو كنتم في بروج مشيدة ، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين . قال مجاهد : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه .

﴿١٦٩﴾ ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الشهداء بأنهم وإن قتلوا في هذه الدار ، فإن أرواحهم حية مرزوقة في دار القرار . روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ولما أصيب إخوانكم يوم أحد جعلَ الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ، وحسن مقيلهم قالوا : يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا ، لئلا يزهدوا في الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله . . ﴾ .

(١٧٠) ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أي وهم فرحون بما هم فيه من النعمة والغبطة ، ومستبشرون بإخوانهم الذين يقتلون بعدهم في سبيل الله أنهم يقدمون عليهم ، وأنهم لا يخافون مما أمامهم ، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم . نسأل الله الجنة .

(١٧١) ﴿ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي سُرُّوا لما عاينوا من وفاء الموعود ، وجزيل الثواب . قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : هذه الآية جمعت المؤمنين كلهم سواء الشهداء وغيرهم .

(١٧٢) ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

هذا كان يوم حمراء الأسد ، وذلك أن المشركين لما أصابوا ما أصابوا من المسلمين كروا راجعين إلى بلادهم ، فلما استمروا في سيرهم ندموا لم لا تمموا على أهل المدينة ، وجعلوها الفيصلة ، فلما بلغ رسول الله ﷺ ندب المسلمين إلى الذهاب وراءهم ليرعبهم ، ويريهم أن بهم قوة وجلداً ، ولم يأذن لأحد سوى من حضر الواقعة يوم أحد سوى جابر بن عبدالله رضي الله عنه فانتدب المسلمون على ما بهم من الجراح والأثخان طاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ . وقيل : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمداً قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئسما صنعتم ، ارجعوا فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغوا حمراء الأسد .

(١٧٣) ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

أي الذين توعدهم الناس بالجموع وخوفوهم بكثرة الأعداء فما اكترثوا بذلك ، بل توكلوا على الله واستعاذوا به . ﴿ وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ عن ابن عباس قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا

لكم فاخشوهم .. قضى النبي ﷺ بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر : حسبي الله ونعم الوكيل ، فقال النبي ﷺ : « ردوا علي الرجل » فقال : « ما قلت » ؟ قال : قلت : حسبي الله ونعم الوكيل » فقال النبي ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » .

(١٧٤) ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾

أي لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم ، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم فرجعوا إلى بلدهم ﴿ بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ﴾ مما أضر لهم عدوهم . ﴿ واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ﴾ النعمة : أنهم سلموا ، والفضل أن عيراً مرت في أيام الموسم فاشتراها رسول الله فربح فيها مالاً فقسمه بين أصحابه .

(١٧٥) ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

أي يخوفكم أولياءه ، ويوهمكم أنهم ذوو بأس وذوو شدة ﴿ فلا تخافوهم .. ﴾ إذا سول لكم وأوهمكم فتوكلوا علي والجأوا إلي ، فإني كافيكم وناصركم عليهم ، كما قال سبحانه : ﴿ أليس الله بكاف عبده ، ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ وكما قال ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴾ وقال ﴿ أولئك حزب الشيطان إلا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ .

(١٧٦) ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ ولا يحزنك الذين .. ﴾ وذلك من شدة حرصه على الناس كان يحزنه مبادرة الكفار إلى المخالفة والعناد والشقاق ، فقال تعالى : ولا يحزنك ذلك . ﴿ إنهم لن يضروا الله شيئاً ... ﴾ أي حكمته فيهم أنه يريد بمشيئته وقدرته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ .

(١٧٧) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن ذلك إخباراً مقرراً ﴿ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان ﴾ أي

استبدلوا هذا بهذا ﴿ لن يضروا الله شيئاً ﴾ أي ولكن يضرون أنفسهم . ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ .

(١٧٨) ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

هذه الآية كقوله ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وكقوله ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وكقوله ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ .

(١٧٩) ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

أي لا بد أن يعقد شيئاً من المحنة يظهر فيه وليه ، ويفضح به عدوه ، يعرف به المؤمن الصابر ، والمنافق الفاجر ، يعني بذلك يوم أحد الذي امتحن الله به المؤمنين ، فظهر به إيمانهم وصبرهم وجلدهم وثباتهم وطاعتهم لله ورسوله ﷺ وهتك به ستار المنافقين ، فظهر مخالفتهم ونكولهم عن الجهاد ، وخيانتهم لله ورسوله ﷺ . ﴿ حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ قال مجاهد : ميز بينهم يوم أحد . ، والمراد حتى يخرج المؤمن من الكافر . ﴿ وما كان الله ليطلعكم على الغيب ﴾ أي أنتم لا تعلمون غيب الله في خلقه حتى يميز لكم المؤمن من المنافق ، لولا ما يعقده من الأسباب الكاشفة عن ذلك . ﴿ ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ كقوله تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله ، واتبعوه فيما شرع لكم . ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ .

(١٨٠) ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

أي لا يحسبن البخيل أن جمعه المال ينفعه ، بل هو مضرة عليه في دينه ، وربما كان في

دنياه . ثم أخبر بمآل أمر ماله يوم القيامة فقال ﴿ سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾ . وفي البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ، يأخذ بلهزميتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية . وفي الحديث « ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله من فضل جعله الله عنده فيبخل به عليه إلا خرج له من جهنم شجاع يتلحظ حتى يطوقه » . وقوله تعالى : ﴿ولله ميراث السموات والأرض﴾ أي فأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فإن الأمور كلها مرجعها إلى الله عز وجل ، فقدموا من أموالكم ما ينفعكم يوم معادكم . ﴿ والله بما تعملون خبير﴾ أي بنياتكم وضمائركم .

(١٨١) ﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

عن ابن عباس لما نزل قوله تعالى : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ قالت اليهود : يا محمد ، أَفْتَقَرَ ربك ، فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله ﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾ وقوله : ﴿سنكتب ما قالوا ﴾ تهديد ووعيد ، ولهذا قرنه تعالى بقوله : ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ أي هذا قولهم في الله ، وهذه معاملتهم رسل الله ، وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ .

(١٨٢) ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

﴿ ذلك بما قدمت . . ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً .

(١٨٣) ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ الذين قالوا إن الله عهد إلينا . . . ﴾ يقول تعالى تكذيباً لهؤلاء الذين زعموا أن الله عهد إليهم في كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من أمته فتقبلت منه أن تنزل نار من السماء تأكلها : ﴿ قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿ وبالذي قلتم ﴾ أي وبنار تأكل القرابين المتقبلة . ﴿ فلم قتلتموهم ﴾ أي فلم قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم ؟ ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي

أنكم تتبعون الحق ، وتنقادون للرسل .

﴿١٨٤﴾ ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ : ﴿ فإن كذبوك فقد كذب رسل . . ﴾ أي لا يوهنك تكذيب هؤلاء لك ، فلك أسوة بمن قبلك من الرسل الذين كذبوا مع ما جاؤ وا به من البينات ، وهي الحجج والبراهين القاطعة . ﴿ والزبر ﴾ وهي الكتب المتلقاة من السماء ، كالصحف المنزلة على المرسلين . ﴿ والكتاب المنير ﴾ أي الواضح الجلي .

﴿١٨٥﴾ ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

يخبر تعالى إخباراً عاماً يعم جميع الخليقة بأن كل نفس ذائقة الموت ، كقوله تعالى : ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ فهو تعالى وحده الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون . وكذلك الملائكة ، وحملة العرش ، وينفرد الواحد الأحد القهار بالديمومة والبقاء ، فيكون آخراً كما كان أولاً . وهذه الآية فيها تعزية لجميع الناس ، فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت ، فإذا انقضت المدة ، وفرغت النطفة التي قدر الله وجودها ، من صلب آدم ، وانتهت البرية أقام الله القيامة ، وجازى الخلائق بأعمالها : جليلها وحقيرها ، كثيرها وقليلها ، كبيرها وصغيرها ، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : لما توفي النبي ﷺ وجاءت التعزية جاءهم آت يسمعون حسه ، ولا يرون شخصه فقال : السلام عليكم يا أهل البيت ورحمة الله وبركاته ﴿ كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة ﴾ إن في الله عزاء عن كل مصيبة ، وخلفاً من كل هالك ، ودركاً من كل فائت ، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حرم الثواب ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . قال جعفر بن محمد فأخبرني أبي أن علي بن أبي طالب قال : أتدرون من هذا ؟ هذا الخضر عليه السلام . وقوله: ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ أي من جنب النار ، ونجا منها ، وأدخل الجنة فقد فاز كل الفوز . وفي الحديث « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، اقرؤ وا إن شئتم ﴿ فمن زحزح عن النار . . ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ تصغير لشأن الدنيا ، وتحقير لأمرها ، وأنها دنيئة فانية ، قليلة زائلة ، كما قال

تعالى : ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى ﴾ وفي الحديث : « والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يغمس أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم ترجع إليه » . قال قتادة : هي متاع متروكة ، أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها ، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله إن استطعتم ، ولا قوة إلا بالله .

﴿١٨٦﴾ ﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

﴿ لتبلون في أموالكم وأنفسكم ﴾ كقوله تعالى : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . . . ﴾ أي لا بد أن يبتلى المؤمن في شيء من ماله أو نفسه أو ولده أو أهله ، ويبتلى المؤمن على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء ﴿ ولتسمعن من الذين . . ﴾ يقول تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلماً لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وآمراً لهم بالصفح والصبر والعفو يفرج الله . فقال تعالى : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا . . ﴾ كان النبي ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ، ويصبرون على الأذى ، وكان رسول الله ﷺ يتأول في العفو ما أمره الله به حتى يأذن الله فيهم .

﴿١٨٧﴾ ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾

هذا توبيخ من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على ألسنة الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ، وأن ينوهوا بذكره في الناس فيكونوا على أهبة من أمره ، فإذا أرسله الله تابعوه ، فكتموا ذلك ، وتعوضوا عما وعدوا عليه من الخير في الدنيا والآخرة بالدون الطفيف والحظ الدنيوي السخيف ، فبئست الصفقة صفقتهم ، وبئست البيعة بيعتهم ، وفي هذا تحذير للعلماء أن يسلكوا مسلكهم . فيصيبهم ما أصابهم ، ويسلك بهم مسلكهم ، فعلى العلماء أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافع ، الدال على العمل الصالح ، ولا يكتموا منه شيئاً .

﴿١٨٨﴾ ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يعني بذلك المرائين المتكبرين بما لم يعطوا ، وفي الحديث : « من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة » وفيه « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » .

(١٨٩) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أي هو مالك كل شيء ، والقادر على كل شيء ، فلا يعجزه شيء ، فهابوه ولا تخالفوه ، واحذروا غضبه ونقمته ، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه ، القدير الذي لا أقدر منه .

(١٩٠) ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ إن في خلق السموات والأرض ﴾ أي هذه في ارتفاعها واتساعها ، وهذه في انخفاضها وكثافتها واتضاعها ، وما فيهما من الآيات المشاهدة العظيمة من كواكب سيارات ، وثوابت وبحار ، وجبال وقفار ، وأشجار ونبات ، وزروع وثمار ، وحيوان ومعادن ، ومنافع مختلفة الألوان والطعوم ، والروائح والخواص. ﴿ واختلاف الليل والنهار ﴾ أي تعاقبهما وتعارضهما الطول والقصر ، فتارة يطول هذا ويقصر هذا ثم يعتدلان ، ثم يأخذ هذا من هذا فيطول الذي كان قصيراً ، ويقصر الذي كان طويلاً ، وكل ذلك تقدير العزيز العليم . ولهذا قال تعالى : ﴿ لآيات لأولي الألباب ﴾ أي العقول التامة الزكية التي تدرك الأشياء بحقيقتها على جلياتها ، وليسوا كالصم البكم الذين لا يعقلون ، الذين قال الله فيهم : ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ .

(١٩١) ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾

ثم وصف الله تعالى أولي الألباب فقال : ﴿ الذين يذكرون الله . . ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنبك » أي لا يقطعون ذكره في جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم . ﴿ ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ أي يفهمون ما فيهما من الحكم الدالة على عظمة الخالق وقدرته وعلمه وحكمته واختياره ورحمته . قال الشيخ أبو سليمان الداراني : إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيت الله فيه نعمة ، ولي فيه عبرة . وعن الحسن البصري : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . ﴿ ربنا ما خلقت هذا باطلاً ﴾ أي ما خلقت هذا الخلق عبثاً ، بل بالحق لتجزي الذين أساؤوا بما

عملوا وتجزي الذين أحسنوا بالحسنى . ثم نزهوه عن العبث وخلق الباطل فقالوا : ﴿ سبحانك ﴾ أي عن أن تخلق شيئاً باطلاً . ﴿ فقنا عذاب النار ﴾ أي يا من خلق الخلق بالحق والعدل ، يا من هو منزه عن النقائص والعيب والعبث ، قنا عذاب النار بحولك وقوتك ، وقيضنا لأعمال ترضى بها عنا ، ووفقنا لعمل صالح تهدينا به إلى جنات النعيم ، وتجيرنا به من عذابك الأليم .

(١٩٢) ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

﴿ فقد أخزيته ﴾ أي أهنته وأظهرت خزيه لأهل الجمع . ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي يوم القيامة لا مجير لهم منك ، ولا محيد لهم عما أردت بهم .

(١٩٣) ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾

﴿ منادياً ينادي للإيمان ﴾ أي داعياً يدعو إلى الإيمان ، وهو الرسول ﷺ ﴿ أن آمنوا بربكم فآمنا ﴾ أي يقول : آمنوا بربكم فآمنا أي فاستجبنا له واتبعناه أي بإيماننا واتباعنا نبيك ﴿ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ أي استرها ﴿ وكفر عنا سيئاتنا ﴾ فيما بيننا وبينك ﴿ وتوفنا مع الأبرار ﴾ أي ألحقنا بالصالحين .

(١٩٤) ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

﴿ على رسلك ﴾ قيل : معناه على الإيمان برسلك ، وقيل : على ألسنة رسلك ، وهذا أظهر . ﴿ ولا تخزنا يوم القيامة ﴾ أي على رؤوس الخلائق . ﴿ إنك لا تخلف الميعاد ﴾ أي لا بد من الميعاد الذي أخبرت عنه رسلك ، وهو القيام يوم القيامة بين يديك . وفي الحديث « العار والتخزية تبلغ بابن آدم في القيامة في المقام بين يدي الله عز وجل ما يتمنى العبد أن يؤمر به إلى النار » . حديث غريب . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه الآيات العشر من آخر آل عمران إذا قام من الليل في تهجده » .

(١٩٥) ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ

وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾

﴿ فاستجاب لهم ربهم ﴾ أي فأجابهم ربهم . قالت أم سلمة : يا رسول الله ، لا نسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء ، فأنزل الله ﴿ فاستجاب لهم ربهم . . . ﴾ ومعنى الآية أن المؤمنين من ذوي الألباب لما سألوا ما سألوا مما تقدم ذكره فاستجاب لهم ربهم عقب ذلك ﴿ إني لا أضيع . . . ﴾ بل يوفي كل عامل بقسط عمله من ذكر أو أنثى . ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أي جميعكم في ثوابي سواء . ﴿ فالذين هاجروا ﴾ أي تركوا دار الشرك ، وأتوا إلى دار الإيمان ، وفارقوا الأحباب والاخوان والخلان والجيران . ﴿ وأخرجوا من ديارهم ﴾ أي ضايقهم المشركون بالأذى حتى ألجأوهم إلى الخروج من بين أظهرهم ، ولهذا قال : ﴿ وأوذوا في سبيلي ﴾ أي إنما كان ذنبهم إلى الناس أنهم آمنوا بالله وحده كما قال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ ﴿ وقاتلوا وقُتلوا ﴾ وهذا أعلى المقامات أن يقاتل في سبيل الله فيعقر جواده ويعفر وجهه بدمه وترابه . ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تجري في خلالها الأنهار من أنواع المشارب من لبن وعسل وخمر وماء غير آسن وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ﴿ ثواباً من عند الله ﴾ أضافه إليه ونسبه إليه ليدل على أنه عظيم ، لأن العظيم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً . ﴿ والله عنده حسن الثواب ﴾ أي عنده حسن الجزاء لمن عمل صالحاً .

(١٩٦) ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴾

يقول تعالى : لا تنظر إلى ما هؤلاء الكفار مترفون فيه من النعمة والغبطة والسرور ، فعما قليل يزول هذا كله عنهم ، ويصيحون مرتهنين بأعمالهم السيئة ، فإنما نمد لهم فيما هم فيه استدراجاً ، وجميع ما هم فيه .

(١٩٧) ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

﴿ متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ . وهكذا لما ذكر حال الكفار في الدنيا ، وذكر أن مآلهم إلى النار قال بعده :

(١٩٨) ﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ

﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾

﴿ لكن الذين اتقوا ربهم . . ﴾ عن النبي ﷺ قال : « إنما سموا الأبرار لأنهم بروا الآباء والأبناء ، كما أن لوالديك عليك حقاً ، كذا لولدك عليك حق » رواه ابن مردويه عن عبدالله بن عمرو بن العاص مرفوعاً . عن أبي الدرداء أنه كان يقول : ما من مؤمن إلا والموت خير له ، وما من كافر إلا والموت خير له ، ومن لم يصدقني فإن الله يقول : ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ ويقول : ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ﴾ .

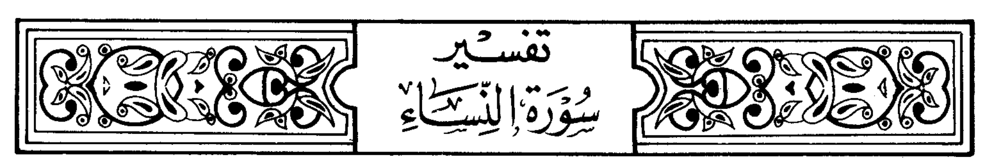
(١٩٩) ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان ، ويؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة ، وأنهم خاشعون لله ، أي مطيعون له ، خاضعون متذللون بين يديه ، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ، أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد ﷺ وذكر صفته ونعته ومبعثه وصفة أمته ، وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب ، وصفوتهم ، سواء كانوا هوداً أو نصارىٰ . وقد قال تعالى : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤ ون بالحسنة السيئة ﴾ وثبت في الصحيحين أن النجاشي لما مات نعاه النبي ﷺ إلى أصحابه وقال: « إن أخاً لكم بالحبشة قد مات فصلوا عليه » فخرج إلى الصحراء فصفهم وصلى عليه . وروى ابن أبي حاتم والحافظ أبو بكر بن مردويه عن أنس قال : لما توفي النجاشي قال رسول الله ﷺ : « استغفروا لأخيكم » فقال بعض الناس : يأمرنا أن نستغفر لعلج مات بأرض الحبشة فنزلت ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن . . ﴾ وقوله : ﴿ لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا يكتمون ما بأيديهم من العلم كما فعله الطائفة المرذولة منهم ، بل يبذلون ذلك مجاناً . ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ يعني سريع الاحصاء .

(٢٠٠) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

قال الحسن البصري : أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم ، وهو الإسلام ،

فلا يدعوه لسراء ولا لضراء ، ولا لشدة ولا لرخاء ، حتى يموتوا مسلمين ، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم . وأما المرابطة فهي المداومة في مكان العبادة والثبات . وفي الحديث : « ألا أخبركم بما يمحوا الله به الخطايا ،ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » . ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .



تفسير سُورَةُ النِّسَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه ، وهي عبادته وحده لا شريك له ، ومنبهاً لهم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة ، وهي آدم عليه السلام ﴿ وخلق منها زوجها ﴾ وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه وهو نائم ، فاستيقظ فرآها ، فأعجبته ، فأنس إليها ، وأنست إليه . وفي الحديث الصحيح « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج » وعن ابن عباس : خلقت المرأة من الرجل فجعلت نهمتها في الرجل ، وخلق الرجل من الأرض فجعلت نهمته في الأرض ، فاحبسوا نساءكم . وقوله : ﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾ أي وذرأ من آدم وحواء رجالاً كثيراً ونساء ، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم ، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر . ثم قال تعالى : ﴿ واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ﴾ أي واتقوا الله بطاعتكم إياه ﴿ الذي تساءلون به ﴾ أي كما يقال : أسألك بالله والرحم . وقال الضحاك : واتقوا الله الذي تعاقدون ، وتعاهدون به ، واتقوا الأرحام أن تقطعوها ، ولكن بروها وصلوها. ﴿إن الله كان على كل شيء رقيباً﴾ أي هو مراقب لجميع أحوالكم وأعمالكم. وفي الحديث الصحيح : « أعبدالله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهذا إرشاد وأمر بمراقبة الرقيب ، ولهذا ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف

بعضهم على بعض ، ويحثهم على ضعفائهم .

(٢) ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾

يأمر تعالى بدفع أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا الحلم كاملة موفرة ، وينهى عن أكلها وضمها إلى أموالهم ، ولهذا قال : ﴿ ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ﴾ لا تتبدلوا الحرام من أموال الناس بالحلال من أموالكم . وقوله : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ أي لا تخلطوها فتأكلوها جميعاً . ﴿ إنه كان حوباً كبيراً ﴾ أي إثماً كبيراً . أراد أبو طلحة أن يطلق أم سليم امرأته فقال النبي ﷺ : « إن طلاق أم سليم لحوب » فكف ، والمعنى : إن أكلكم أموالهم مع أموالكم إثم عظيم ، وخطأ كبير ، فاجتنبوه .

(٣) ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴾

أي إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة ، وخاف أن لا يعطيها مهر مثلها فليعدل إلى ما سواها من النساء ، فإنهن كثير ، ولم يضيق الله عليه . عن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى ﴾ قالت : يا ابن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها ، تشركه في ماله ، ويعجبه مالها وجمالها ، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها ، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن ، ويبلغوا بهن على سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن - ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي انكحوا ما شئتم سواهن ، إن شاء أحدكم ثنتين ، وإن شاء ثلاثاً ، وإن شاء أربعاً . قال الشافعي : وقد دلت سنة رسول الله ﷺ المبينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة ، وهذا الذي قاله الشافعي مجمع عليه بين العلماء ، إلا ما حكي عن طائفة من الشيعة أنه يجوز الجمع بين أكثر من أربع إلى تسع ، وقال بعضهم : بلا حصر . ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ﴾ أي إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن ، كما قال تعالى : ﴿ ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ﴾ فمن خاف من ذلك فليقتصر على واحدة ، أو على الجواري السراري فإنه لا يجب قسم بينهن، ولكن

يستحب . ﴿ ذلك أدنى ألا تعولوا﴾ قال بعضهم : ذلك أدنى أن لا تكثر عيالكم . ﴿ وإن خفتم عيلة ﴾ أي فقراً . والصحيح قول الجمهور : ﴿ أن لا تعدلوا ﴾ أن لا تجوروا ، يقال : عال في الحكم إذا قسط وظلم وجار .

﴿٤﴾ ﴿ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴾

﴿ نحلة ﴾ فريضة . والنحلة في كلام العرب الواجب ، يقول : لا تنكحها إلا بشيء واجب لها . وليس ينبغي لأحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة إلا بصداق واجب ، ولا ينبغي أن يكون تسمية الصداق كذباً بغير حق . ومضمون كلامهم أن الرجل يجب عليه دفع الصداق إلى المرأة حتماً ، وأن يكون طيب النفس بذلك ، كما يمنح المنيحة ، ويعطي النحلة طيباً ، كذلك يجب أن يعطي المرأة صداقها طيباً بذلك ، فإن طابت هي لديه بعد تسميته ، أو عن شيء منه فليأكله حلالاً طيباً ، ولهذا قال : ﴿ فإن طبن لكم عن شيء . . . ﴾ .

﴿٥﴾ ﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾

ينهى سبحانه وتعالى عن تمكين السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً ، أي تقوم بها معايشهم من التجارات وغيرها ، ومن ههنا يؤخذ الحجر على السفهاء ، وهم أقسام ، فتارة يكون الحجر للصغر، فإن الصغير مسلوب العبارة ، وتارة يكون الحجر للجنون ، وتارة لسوء التصرف لنقص العقل أو الدين ، وتارة للفلس ، وهو ما إذا أحاطت الديون برجل وضاق ماله عن وفائها ، فإذا سأل الغرماء الحاكم الحجر عليه حجر عليه . ﴿ وارزقوهم فيها واكسوهم ﴾ عن ابن عباس يقول : لا تعمد إلى مالك وما خولك الله وجعله لك معيشة فتعطيه امرأتك أو بنتك ، ثم تنظر إلى ما في أيديهم ، ولكن أمسك مالك وأصلحه ، وكن أنت الذي تنفق عليهم من كسوتهم ومؤونتهم ورزقهم . ﴿ وقولوا لهم قولاً معروفاً ﴾ يعني في البر والصلة . وهذه الآية الكريمة تضمنت الإحسان إلى العائلة ومن تحت الحجر بالفعل من الإنفاق في الكساوي والأرزاق بالكلام الطيب ، وتحسين الأخلاق .

﴿٦﴾ ﴿ وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا

تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

﴿ وابتلوا اليتامى ﴾ أي اختبروهم . ﴿ حتى إذا بلغوا النكاح ﴾ يعني الحلم . ﴿ فإن آنستم منهم رشداً . . ﴾ يعني صلاحاً في دينهم ، وحفظاً لأموالهم ، قال الفقهاء : إذا بلغ الغلام مصلحاً لدينه وماله انفك الحجر عنه ، فيسلم إليه ماله الذي تحت يد وليه . ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً . . ﴾ ينهى تعالى عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضرورية . ﴿ إسرافاً وبداراً ﴾ أي مبادرة قبل بلوغهم . ﴿ ومن كان غنياً فليستعفف . . ﴾ قال الفقهاء : له أن يأكل من أكل الآخرين أجره مثله ، أو قدر حاجته . ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالتي هي أحسن . ﴿ فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴾ يعني بعد بلوغهم الحلم ، وإيناسكم الرشد منهم ، فحينئذٍ سلموا إليهم أموالهم ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم ﴿ فأشهدوا عليهم ﴾ وهذا أمر من الله تعالى للأولياء أن يشهدوا على الأيتام إذا بلغوا الحلم ، وسلموا إليهم أموالهم لئلا يقع من بعضهم جحود وإنكار لما قبضه وتسلمه . ثم قال : ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي وكفى بالله محاسباً وشاهداً ورقيباً على الأولياء في حال نظرهم للأيتام ، وحال تسليمهم لأموالهم ، هل هي كاملة موفورة ، أو منقوصة منجوسة . وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمرن على اثنين ، ولا تلين مال يتيم » .

(٧) ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

كان المشركون يجعلون المال للرجال الكبار ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئاً ، فأنزل الله هذه الآية . أي الجميع فيه سواء في حكم الله تعالى يستوون في أصل الوراثة ، وإن تفاوتوا بحسب ما فرض الله لكل منهم .

(٨) ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

وإذا حضر قسمة الميراث ذوو القربى ممن ليس بوارث . ﴿ واليتامي والمساكين ﴾ فليرضخ لهم من التركة نصيب ، وإن ذلك كان واجباً في ابتداء الإسلام ، وقيل :

يستحب ، واختلفوا هل هو منسوخ أم لا على قولين .

(٩) ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

هذا في الرجل يحضره الموت فيسمعه رجل يوصي بوصية تضر بورثته ، فأمر الله تعالى الذي يسمعه أن يتقي الله ، ويرده للصواب فينظر لورثته كما كان يجب أن يصنع بورثته إذا خشي عليهم الضيقة . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما دخل على سعد بن أبي وقاص يعوده قال : يا رسول الله ؛ إني ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ قال : « لا » قال : فالشطر ؟ قال : « لا » قال : فالثلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير » ثم قال رسول الله ﷺ : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » . قال الفقهاء : إن كان ورثة الميت أغنياء استحب للميت أن يستوفي في وصيته الثلث ، وإن كانوا فقراء استحب أن ينقص عن الثلث . وقيل المراد في الآية : فليتقوا الله في مباشرة أموال اليتامى ﴿ ولا يأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ وهو قول حسن يتأيد بما بعده من التهديد في أكل أموال اليتامى ظلماً . أي كما تحب أن تعامل ذريتك من بعدك فعامل الناس في ذراريهم إذا وليتهم .

(١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

أي إذا أكلوا أموال اليتامى بلا سبب فإنما يأكلون ناراً تتأجج في بطونهم يوم القيامة . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر . وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » ولما نزلت ﴿ إن الذين يأكلون أموال . . ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم ﴾ .

(١١) ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ

﴿... بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

هذه الآية الكريمة ، والتي بعدها ، والآية التي هي خاتمة هذه السورة هن آيات علم الفرائض ، وهو مستنبط من هذه الآيات الثلاث ، ومن الأحاديث الواردة في ذلك مما هو كالتفسير لذلك . وفي الحديث « العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل : آية محكمة ، أو سنة قائمة ، أو فريضة عادلة » . وفي الحديث « تعلموا الفرائض وعلموه الناس فإنه نصف العلم ، وهو ينسى ، وهو أول شيء ينزع من أمتي » . وقد جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، هاتان ابنتا سعد بن الربيع ، قتل أبوهما معك في يوم أحد شهيداً ، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالاً ، ولا ينكحان إلا ولهما مال قال : فقال : يقضي الله في ذلك ، فنزلت آية المواريث ، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما فقال : « أعط ابنتي سعد الثلثين وأمهما الثمن ، وما بقي فهو لك » فقوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله . . ﴾ أي يأمركم بالعدل فيهم ، فإن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث ، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث ، وفاوت بين الصنفين ، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين ، وذلك لاحتياج الرجل إلى مؤونة النفقة والكلفة ومعاناة التجارة والتكسب وتحمل المشاق فناسب أن يعطى ضعف ما تأخذه الأنثى . وقوله : ﴿فإن كن نساء فوق اثنتين . . ﴾ فالثلاثة فما فوق لهن الثلثان ، والثنتان كذلك لهما الثلثان قياساً على الأختين ، والواحدة لها النصف . وقوله : ﴿ ولأبويه . . ﴾ فللأم الثلث إن لم يكن أولاد ولا عدد من الأخوة ، وإن كان للميت أولاد أو عدد من الأخوة فلها السدس ، وتأخذ ثلث الباقي مع زوج وأب ، أو زوجة وأب . وميراث الأب السدس . مع الابن ، والسدس فرضاً والباقي تعصيباً مع البنات أو بنات الابن ، والتعصيب فقط إن لم يكن أولاد للميت . والدين مقدم على الوصية بالإجماع ، وقدمت الوصية في الآية للاهتمام بها لأنها تبرع . وقوله : ﴿ آباؤكم وأبناؤكم . . ﴾ أي إن النفع متوقع ومرجو من هذا كما هو متوقع ومرجو من الآخر ، فلهذا فرضا لهذا وهذا ، وساوينا بين القسمين في أصل الميراث . ﴿ فريضة من الله ﴾ أي فرضه الله وقضاه والله عليم حكيم فيضع الأشياء في محالها وحسب الاستحقاق .

(١٢) ﴿ ۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ ...

وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى : ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم إذا متن من غير ولد ، فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد الوصية أو الدين . وحكم أولاد البنين وإن سفلوا حكم أولاد الصلب . ثم قال : ﴿ ولهن الربع . . ﴾ وسواء في الربع أو الثمن الزوجة والزوجتان والثلاث والأبع ، يشتركن فيه . وقوله : ﴿ وإن كان رجل يورث كلالة . . ﴾ الكلالة مشتقة من الاكليل ، وهو الذي يحيط بالرأس من جوانبه والمراد هنا من يرثه من حواشيه ، لا أصوله ولا فروعه . وقد روي عن الصديق أنه سئل عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيي ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان ، والله ورسوله بريئان منه ، الكلالة من لا ولد له ولا والد ، فلما ولي عمر قال : إني لأستحيي أن أخالف أبا بكر في رأي رآه . وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد . ولكن روي أن الكلالة من لا ولد له ، والصحيح الأول . ﴿ وله أخ أو أخت ﴾ أي من أم ، كما هو في قراءة بعض السلف ، منهم سعد بن أبي وقاص . وإخوة الأم يخالفون بقية الورثة من وجوه : أحدها أنهم يرثون مع من أولوا به ، وهي الأم . والثاني أن ذكورهم وإناثهم في الميراث سواء ، والثالث أنهم لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كلالة فلا يرثون مع أب ولا جد ولا ولد ولا ولد ابن ، والرابع أنهم لا يزادون على الثلث وإن كثر ذكورهم وإناثهم . ﴿ غير مضار ﴾ أي لتكن وصيته على العدل ، لا على الاضرار والجور والحيف ، بأن يحرم بعض الورثة ، أو ينقصه ، أو يزيده على ما فرض الله له من الفريضة ، فمن سعى في ذلك كان كمن ضاد الله في حكمه وشرعه . وفي الحديث « الاضرار في الوصية من الكبائر » . وقد اختلف العلماء في الإقرار للوارث على قولين ، أحدهما لا يصح لأنه مظنة التهمة ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث » وهذا مذهب مالك وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة والقول القديم للشافعي رحمهم الله ، وذهب في الجديد إلى أنه يصح الإقرار .

(١٣) ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

أي هذه الفرائض والمقادير التي جعلها الله للورثة بحسب قربهم من الميت واحتياجهم إليه وفقدهم له عند عدمه هي حدود الله فلا تعتدوها ، ولا تجاوزوها . ولهذا قال : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ أي فيها ، فلم يزد بعض الورثة ، ولم ينقص بعضها بحيلة ووسيلة ، بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ﴿ يدخله جنات . . . ﴾ .

(١٤) ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

﴿ ومن يعص الله ورسوله . . ﴾ أي لكونه غيَّر ما حكم الله به . وضاد الله في حكمه ، وهذا إنما يصدر عن عدم الرضا بما قسم الله وحكم به ، ولهذا يجازيه بالإهانة في العذاب الأليم المقيم . وفي الحديث : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف في وصيته ، فيختم له بشر عمله فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة ، فيعدل في وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ تلك حدود الله . . إلى قوله عذاب مهين ﴾ .

(١٥) ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴾

كان الحكم في ابتداء الاسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست في بيت فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت . ولهذا قال : ﴿ واللاتي يأتين الفاحشة ﴾ يعني الزنا . والسبيل الذي جعله الله هو الناسخ لذلك . فكان الحكم كذلك حتى أنزل الله سورة النور فنسخها بالجلد أو الرجم . وهو أمر متفق عليه . وفي الحديث : « خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ، الثيب بالثيب ، والبكر بالبكر ، الثيب جلد مائة ، ورجم بالحجارة ، والبكر جلد مائة ، ثم نفي سنة » . وقد ذهب الإمام أحمد إلى القول بمقتضى هذا الحديث ، وهو الجمع بين الجلد والرجم في حق الثيب الزاني ، وذهب الجمهور إلى أن الثيب الزاني إنما يرجم فقط من غير جلد ، قالوا : لأن النبي ﷺ رجم ماعزاً والغامدية واليهوديين ، ولم يجلدهم قبل ذلك ، فدل على أن الرجم ليس بحتم ، بل هو منسوخ على قولهم . والله أعلم .

(١٦) ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

أي واللذان يفعلان الفاحشة فآذوهما ، أي بالشتم والتعيير والضرب بالنعال ، وكان

الحكم كذلك ، حتى نسخه الله بالجلد أو الرجم . ﴿ فإن تابا وأصلحا) أي أقلعا ونزعا عما كانا عليه ، وصلحت أعمالهما وحسنت . ﴿ فأعرضوا عنهما ﴾ أي لا تعنفوهما بكلام قبيح بعد ذلك ، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له . ﴿ إن الله كان تواباً رحيماً ﴾ وقد ثبت في الصحيحين « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ، ولا يثرب عليها » أي لا يعيرها بما صنعت بعد الحد الذي هو كفارة لما صنعت .

(١٧) ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

يقول سبحانه وتعالى : إنما يقبل الله التوبة ممن عمل السوء بجهالة ، ثم يتوب ولو بعد معاينة الملك قبض روحه قبل الغرغرة . عن قتادة قال : اجتمع أصحاب رسول الله ﷺ فرأوا أن كل شيء عصى الله به فهو جهالة عمداً كان أو غيره . ﴿ ثم يتوبون من قريب ﴾ قال الضحاك : ما كان دون الموت فهو قريب ، وقال السدي : ما دام في صحته ، أو ما لم يغرغر وفي الحديث « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » وأما متى وقع الاياس من الحياة ، وعاين الملك ، وخرجت الروح في الحلق ، وضاق بها الصدر ، وبلغت الحلقوم ، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصيم فلا توبة مقبولة حينئذ ، ولات حين مناص ، ولهذا قال :

(١٨) ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ وليست التوبة للذين . . ﴾ وهذا كقول الله : ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ وقوله سبحانه ﴿ ولا الذين يموتون وهم كفار ﴾ يعني أن الكافر إذا مات على كفره وشركه لا ينفعه ندمه ولا توبته، ولا يقبل منه فدية، ولو بملء الأرض ذهباً. وعن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبل توبة عبده أو يغفر لعبده ما لم يقع الحجاب» قيل: وما وقوع الحجاب؟ قال: « تخرج النفس وهي مشركة » ولهذا قال تعالى : ﴿ أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً شديداً مقيماً .

(١٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ

﴿ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

نزلت في كبيشة بنت معن ، توفي عنها أبو قيس بن الأسلت فجنح عليها ابنه ، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، لا أنا ورثت زوجي ، ولا أنا تركت فأنكح ، فنزلت هذه الآية . ﴿ ولا تعضلوهن . . ﴾ أي لا تضاروهن في العشرة لتترك لك ما أصدقتها أو بعضه أو حقاً من حقوقها عليك ، أو شيئاً من ذلك على وجه القهر لها والاضرار . ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ يعني بذلك الزنا ، يعني إذا زنت فلك أن تسترجع منها الصداق الذي أعطيتها ، وتضاجرها حتى تتركه لك وتخالفها . وقيل : الفاحشة المبينة : النشوز والعصيان ، واختار ابن جرير أنه يعم ذلك كله : الزنا والعصيان والنشوز وبذاء اللسان وغير ذلك ، يعني أن هذا كله يبيح مضاجرتها حتى تبرئه من حقها أو بعضه ويفارقها ، وهذا جيد والله أعلم . ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم ، كما تحب ذلك منها ، فافعل أنت بها مثله ، كما قال تعالى ﴿ ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ﴾ وفي الحديث « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة ، دائم البشر ، يداعب أهله ، ويتلطف بهم ، ويوسعهم نفقته ، ويضاحك نساءه ، إنه كان يسابق عائشة أم المؤمنين يتودد إليها بذلك ، قالت : سابقني رسول الله فسبقته ، وذلك قبل أن أحمل اللحم ، ثم سابقته بعدما حملت اللحم فسبقني ، فقال : « هذه بتلك » ويجمع نساءه كل ليلة في بيت التي يبيت عندها رسول الله ﷺ فيأكل معهن العشاء في بعض الأحيان ، ثم تنصرف كل واحدة إلى منزلها ، وكان ينام مع المرأة في شعار واحد ، يضع على كتفيه الرداء وينام بالإزار ، وكان إذا صلى العشاء دخل منزله يسمر مع أهله قبل أن ينام ، يؤانسهم بذلك . ﷺ وقد قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ ﴿ فإن كرهتموهن . . ﴾ أي فعسى أن يكون صبركم في إمساكهن مع الكراهة فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة وفي الحديث « لا يغرنَّ مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقاً رضي منها آخر » .

(٢٠) ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

أي إذا أراد أحدكم أن يفارق امرأته ، ويستبدل مكانها غيرها فلا يأخذ مما كان أصدق

الأولى شيئاً ، ولو كان قنطاراً من المال . وفي هذه الآية دليل على جواز الاصداق بالمال الجزيل ، وقد كان عمر رضي الله عنه نهى عن كثرة الاصداق ثم رجع عن ذلك . قال عمر بن الخطاب : لا تزيدوا في مهور النساء ، وإن كانت بنت ذي القصة ـ يعني يزيد بن الحصين الحارثي ـ فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال، فقالت امرأة من صفة النساء طويلة ، في أنفها فطس : ما ذاك لك ، قال : ولم ؟ قالت : إن الله قال : ﴿ وآتيتم إحداهن قنطاراً ﴾ فقال عمر : امرأة أصابت ورجل أخطأ .

(٢١) ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

أي وكيف تأخذون الصداق من المرأة ، وقد أفضيت إليها ، وأفضت إليك . ﴿ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً ﴾ المراد بذلك العقد . ، وقيل : إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

(٢٢) ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

يحرم الله زوجات الآباء تكرمة لهم ، وإعظاماً واحتراماً أن توطأ من بعده ، حتى إنها لتحرم على الابن بمجرد العقد عليها ،وهذا أمر مجمع عليه . ﴿ إلا ما قد سلف ﴾ وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة تزوج بامرأة أبيه فأولدها ابنه النضر بن كنانة ، قال : وقد قال ﷺ « ولدت من نكاح ، لا من سفاح » قال : فدل على أنه كان سائغاً لهم ذلك ، أي كانوا يعدونه نكاحاً . وهو حرام في هذه الأمة ، مبشع غاية التبشع . ﴿ ومقتاً ﴾ أي بغضاً ، أي هو أمر كبير في نفسه ، ويؤدي إلى مقت الابن أباه بعد أن يتزوج بامرأته ، فإن الغالب أن من تزوج بامرأة يبغض من كان زوجها قبله ، ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً لمن سلكه من الناس ، فمن تعاطاه بعد هذا فقد ارتد عن دينه ، فيقتل ، ويصير ماله فيئاً لبيت مال المسلمين كما رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، « بعث رسول الله إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده أن يقتله ويأخذ ماله » .

(٢٣) ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

هذه الآية الكريمة هي آية تحريم المحارم من النسب وما يتبعه من الرضاع ، والمحارم بالمصاهرة . وقد استدل جمهور العلماء على تحريم المخلوقة من ماء الزاني عليه بعموم قوله تعالى : ﴿ وبناتكم ﴾ ، فإنها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد ، وقد حكي عن الشافعي شيء في إباحتها ، لأنها ليست بنتاً شرعية ، فكما لم تدخل في قوله تعالى : ﴿ يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ فإنها لا ترث بالإجماع ، فكذلك لا تدخل في هذه الآية . والله أعلم . وقوله : ﴿ وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ﴾ أي كما يحرم عليك أمك التي ولدتك ، كذلك يحرم عليك أمك التي أرضعتك . وفي الحديث « إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة » . وفي لفظ مسلم « يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب » واختلف الأئمة في عدد الرضعات المحرمة ، فذهب ذاهبون إلى أنه يحرم مجرد الرضاع لعموم هذه الآية ، وهذا قول مالك . وقال آخرون : لا يحرم أقل من ثلاث رضعات ، لحديث مسلم « لا تحرم المصة ولا المصتان » وممن ذهب إلى هذا القول الإمام أحمد . وقال آخرون : لا يحرم أقل من خمس رضعات لما ثبت في صحيح مسلم « كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن » ثم نسخن بخمس معلومات . ثم ليعلم أنه لا بد أن تكون الرضاعة في سن الصغر دون الحولين على قول الجمهور . ﴿ وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ﴾ أما أم المرأة فإنها تحرم بمجرد العقد على بنتها، سواء دخل بها أم لم يدخل بها ، وأما الربيبة ، وهي بنت المرأة فلا تحرم حتى يدخل بأمها ، فإن طلق الأم قبل الدخول بها جاز له أن يتزوج بنتها . والجمهور على أن الربيبة حرام سواء كانت في حجر الرجل أم لم تكن في حجره ، قالوا : وهذا الخطاب خرِّج مُخرج الغالب فلا مفهوم له ، كقوله تعالىٰ : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ﴾ أي وحرمت عليكم زوجات أبنائكم الذين ولدتموهم من أصلابكم . يحترز بذلك عن الأدعياء الذين كانوا يتبنونهم في الجاهلية . ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ﴾ يعني في النكاح .

﴿ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٢٤)

أي وحرم عليكم من الأجنبيات المحصنات ، وهن المتزوجات إلا ما ملكت أيمانكم ، يعني إلا ما ملكتموهن بالسبي ، فإنه يحل لكم وطؤهن إذا استبرأتموهن . ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ أي هذا التحريم كتاب كتبه الله عليكم ، فالزموا كتابه ، ولا تخرجوا عن حدوده ، والزموا شرعه وما فرضه . ﴿ وأحل لكم ما وراء ذلكم ﴾ أي ما عدا من ذكرن من المحارم هن لكم حلال . ﴿ أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ أي أن تحصلوا بأموالكم من الزوجات إلى أربع ، أو السراري ما شئتم بالطريق الشرعي . ﴿ فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ﴾ أي كما تستمتعون بهن فآتوهن مهورهن في مقابلة ذلك . وقد استدل بعموم هذه الآية على نكاح المتعة ، ولا شك أنه كان مشروعاً في ابتداء الاسلام ثم نسخ بعد ذلك . ﴿ ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة ﴾ أي إذا فرضت لها صداقاً فأبرأتك منه ، أو عن شيء منه فلا جناح عليك ، ولا عليها في ذلك .

(٢٥) ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ طولاً ﴾ سعة وقدرة . ﴿ المحصنات المؤمنات ﴾ أي الحرائر العفائف المؤمنات . ﴿فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات﴾ أي فتزوجوا من الإماء المؤمنات اللاتي يملكهن المؤمنون . ﴿ والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ﴾ أي هو العالم بحقائق الأمور وسرائرها . وإنما لكم أيها الناس الظاهر من الأمور . ﴿ فانكحوهن بإذن أهلهن ﴾ فدل على أن السيد ولي أمته ، لا تزوج إلا بإذنه ، وكذلك هو ولي عبده لا يتزوج إلا بإذنه . ﴿ وآتوهن أجورهن بالمعروف ﴾ أي وادفعوا مهورهن بالمعروف أي عن طيب نفس منكم ، ولا تبخسوا منه شيئاً استهانة بهن لكونهن إماء مملوكات . وقوله ﴿ محصنات ﴾ أي عفائف عن الزنا لا يتعاطينه . ﴿ غير مسافحات ﴾ هن الزواني المعلنات اللاتي لا يمنعن أحداً أرادهن بفاحشة ﴿ ولا متخذات أخدان﴾ ذات الخليل الواحد المقرة به . نهى الله عن ذلك ، يعني تزويجها ما دامت كذلك . وقوله تعالى : ﴿ فإذا أحصن فإن أتين

بفاحشة . . ﴾ والمراد بالاحصان هنا الاسلام ، أو زواجهن . ﴿ ذلك لمن خشي العنت منكم ﴾ أي إنما يباح الاماء لمن خاف على نفسه الوقوع في الزنا ، وشق عليه الصبر عن الجماع ، وعنت بسبب ذلك ، وكان زواجه من أمة مؤمنة أدى إليها مهرها .

(٢٦) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يخبر الله تعالى أنه يريد أن يبين لكم أيها المؤمنون ما أحل لكم وما حرم عليكم مما تقدم ذكره في هذه السورة وغيرها . ﴿ ويهديكم سنن الذين من قبلكم ﴾ يعني طرائقهم الحميدة ، واتباع شرائعه التي يحبها ويرضاها . ﴿ ويتوب عليكم ﴾ أي من الاثم والمحارم . ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي في شرعه وقدره وأقواله وأفعاله .

(٢٧) ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾

﴿ ويريد الذين يتبعون الشهوات . . ﴾ أي يريد أتباع الشيطان من اليهود والنصارى والزناة أن تميلوا عن الحق إلى الباطل ميلاً عظيما .

(٢٨) ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ أي في شرائعه وأوامره ونواهيه وما يقدره لكم ، ولهذا أباح الاماء بشروط . ﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه ، وضعف عزمه وهمته . وقيل : في أمر النساء ، فيذهب عقله عندهن .

(٢٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بالباطل ، أي بأنواع المكاسب التي هي غير مشروعة ، كأنواع الربا والقمار وما جرى مجرى ذلك من سائر صنوف الحيل ، وإن ظهرت في غالب الحكم الشرعي مما يعلم الله أن متعاطيها إنما يريد الحيلة على الربا . ﴿ إلا أن تكون تجارة عن تراضٍ منكم ﴾ أي لا تتعاطوا الأسباب المحرمة في اكتساب الأموال ، لكن المتاجر المشروعة التي تكون عن تراض من البائع والمشتري فافعلوها وتسببوا بها في تحصيل الأموال . ومن هذه الآية الكريمة احتج الشافعي على أنه لا يصح البيع إلا بالقبول ، لأنه يدل على التراضي نصاً ، بخلاف

المعاطاة، فإنها قد لا تدل على الرضا ولا بد منه، وخالف الجمهور في ذلك: مالك؛ وأبو حنيفة وأحمد ، فرأوا أن الأقوال كما تدل على التراضي فكذلك الأفعال تدل في بعض المحال قطعاً ، فصححوا بيع المعاطاة مطلقاً ، ومنهم من قال : يصح في المحقرات .

﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي بارتكاب محارم الله وتعاطي معاصيه ، وأكل أموالكم بينكم بالباطل . ﴿ إن الله كان بكم رحيماً ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه . وفي الحديث « كان رجل ممن كان قبلكم ، وكان به جرح فأخذ سكيناً نحر بها يده ، فما رقأ الدم حتى مات ، قال الله عز وجل : (عبدي بادرني بنفسه ، حرمت عليه الجنة) ولذلك قال تعالى :

(٣٠) ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً ﴾ أي ومن يتعاطى ما نهاه الله عنه متعدياً فيه ظالماً في تعاطيه ، أي عالماً بتحريمه ، متجاسراً على انتهاكه ﴿ فسوف نصليه ناراً ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، فليحذر منه كل عامل لبيب ممن ألقى السمع وهو شهيد .

(٣١) ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

أي إذا اجتنبتم كبائر الإثم التي نهيتم عنها كفرنا عنكم صغائر الذنوب ، وأدخلناكم الجنة . ولهذا قال : ﴿ وندخلكم مدخلاً كريماً ﴾ وفي الحديث : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : يا رسول الله وما هن ؟ قال : « الشرك بالله ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحر ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » . وقد روى ابن كثير أحاديث ذكرت كبائر غير هذه السبع ، فمنها الانقلاب إلى الأعراب بعد الهجرة ، وعقوق الوالدين ، واستحلال البيت الحرام ، وإلحاد في المسجد الحرام ، والذي يستسخر ، وبكاء الوالدين من العقوق ، وقول الزور ، وشهادة الزور ، وقتل ولدك خشية أن يطعم معك ، وأن تزاني حليلة جارك ، وسأله عن الخمر فقال : هي أكبر الكبائر ، وأم الفواحش ، من شرب الخمر ترك الصلاة ، ووقع على أمه وخالته وعمته ، واليمين الغموس ، ومن الكبائر أن يشتم الرجل والديه ، قالوا : وكيف يشتم الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه ، ومن أكبر الكبائر عرض الرجل المسلم ، والسبتان بالسبة ، ومن جمع بين صلاتين من غير عذر فقد أتى باباً من أبواب الكبائر ، فما ظنك بترك الصلاة بالكلية . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » ، ومن الكبائر اليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله والأمن من مكر الله ، وهذا أكبر

الكبائر ، وسوء الظن بالله ، والسرقة ، والاضرار في الوصية من الكبائر ، والغلول ، والذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً .

(٣٢) ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

قالت أم سلمة : يا رسول الله ، يغزو الرجل ، ولا نغزو ، ولنا نصف الميراث فأنزل الله هذه الآية . وقوله : ﴿ للرجال نصيب . . ﴾ أي كل له جزاء عمله بحسبه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾ أي ولكن سلوني من فضلي أعظكم ، فإني كريم وهاب . وفي الحديث : « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل ، وإن أفضل العبادة انتظار الفرج » . ﴿ إن الله كان بكل شيء عليماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الدنيا فيعطيه منها ، وبمن يستحق الفقر فيفقره ، وعليم بمن يستحق الآخرة فيقيضه لأعمالها ، وبمن يستحق الخذلان فيخذله عن تعاطي الخير وأسبابه .

(٣٣) ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

﴿ موالي ﴾ ورثة . ﴿ والذين عقدت . . ﴾ كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجري الأنصاري دون ذوي رحمه للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم . فلما نزلت ﴿ ولكل جعلنا موالي ﴾ نسخت ثم قال ﴿ والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم ﴾ من النصر والرفادة والنصيحة ، وقد ذهب الميراث ويوصى له . وكان الرجل قبل الإسلام يعاقد الرجل ويقول : ترثني وأرثك ، وكان الأحياء يتحالفون فقال رسول الله ﷺ : « كل حلف في الجاهلية أو عقد أدركه الإسلام فلا يزيده الإسلام إلا شدة . ولا عقد ولا حلف في الإسلام » فنسختها هذه الآية ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ .

(٣٤) ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

أي الرجل قيم على المرأة ، أي وهو رئيسها وكبيرها ، والحاكم عليها ، ومؤدبها إذا

اعوجت . وقوله : ﴿ بما فضل الله بعضهم على بعض ﴾ أي لأن الرجال أفضل من النساء ، ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال ، وكذلك الملك الأعظم لقوله عليه الصلاة والسلام : « لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » ﴿ وبما أنفقوا من أموالهم ﴾ أي من المهور والنفقات والعكف التي أوجبها الله عليهم لهن في كتابه وسنة نبيه ﷺ . ﴿ قانتات ﴾ مطيعات لأزواجهن . ﴿ حافظات للغيب ﴾ أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله وقوله ﴿ بما حفظ الله ﴾ أي المحفوظ من حفظ الله ، وفي الحديث « إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها قيل لها « ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت » . ﴿ واللاتي تخافون نشوزهن ﴾ أي والنساء اللاتي تخافون أن ينشزن على أزواجهن ، والنشوز هو الارتفاع، فالمرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها التاركة لأمره المعرضة عنه المبغضة له ، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه ، فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والافضال وقد قال رسول الله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » وفي الحديث الصحيح : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » وهجرها في المضاجع : هو أن لا يجامعها ويضاجعها على فراشها ، ويوليها ظهره ، ولا يكلمها مع ذلك ولا يحدثها ، وفي الحديث : قيل : يا رسول الله ، ما حق امرأة أحدنا علينا؟ قال : أن تطعمها إذا طعمت ، وتكسوها إذا اكتسيت ، ولا تضرب الوجه ، ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت » . ﴿ واضربوهن ﴾ أي إذا لم يرتدعن بالموعظة ولا بالهجران فلكم أن تضربوهن ضرباً غير مبرح . وفي الحديث : « واتقوا الله في النساء ، فإنهن عندكم عوان ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » . « ضرباً غير مبرح » هو أن لا يكسر فيها عضواً ، ولا يؤثر فيها شيناً . ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ أي إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل عليها بعد ذلك ، وليس له ضربها ولا هجرانها . ﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ تهديد للرجال إذا بغوا على النساء من غير سبب ، فإن الله العلي الكبير وليهن ، وهو منتقم ممن ظلمهن وبغى عليهن .

(٣٥) ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾

قال الفقهاء : إذا وقع الشقاق بين الزوجين أسكنهما الحاكم إلى جنب ثقة ينظر في أمرهما ، ويمنع الظالم منهما من الظلم ، فإن تفاقم أمرهما وطالت خصومتهما بعث الحاكم ثقة من أهل المرأة ، وثقة من قوم الرجل ليجتمعا فينظر في أمرهما ، ويفعلا ما فيه المصلحة مما يريانه من التفريق أو التوفيق ، وتشوف الشارع إلى التوفيق ولهذا قال : ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ ولم يذكر التفريق .

(٣٦) ﴿ * وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾

يأمر الله تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، فإنه هو الخالق الرزاق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات ، فهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته ، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : « أتدري ما حق الله على العباد ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً » ثم قال : أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » . ثم أوصى بالإحسان إلى الوالدين ، فإن الله جعلهما سبباً لخروجك من العدم إلى الوجود ، ثم عطف على الاحسان إليهما الاحسان إلى القربات من الرجال والنساء كما جاء في الحديث « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم صدقة وصلة » . ﴿ واليتامى ﴾ لأنهم فقدوا من يقوم بمصالحهم . ﴿ والمساكين ﴾ وهم المحاويج الذين لا يجدون من يقوم بكفايتهم . ﴿ والجار ذي القربى) الذي بينك وبينه قرابة . ﴿ والجار الجنب ﴾ الذي ليس بينك وبينه قرابة ، أو هو الرفيق في السفر . وفي الحديث « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ﴿ وابن السبيل ﴾ هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر . ﴿ وما ملكت أيمانكم ﴾ هذا وصية بالارقاء لأن الرقيق ضعيف الحيلة ، أسير في أيدي الناس . ﴿ مختالاً ﴾ أي مختالاً في نفسه معجباً متكبراً . ﴿ فخوراً ﴾ على الناس ، يرى أنه خير منهم فهو في نفسه كبير وعند الله حقير ، وعند الناس بغيض .

(٣٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

في الحديث : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، أمرهم بالقطيعة فقطعوا ،

وأمرهم بالفجور ففجروا » . ﴿ ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ فالبخيل جحود لنعم الله ، ولا تظهر عليه ، ولا تبين لا في مأكله ولا في ملبسه ولا في إعطائه وبذله . ﴿ وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ والكفر هو الستر والتغطية ، فالبخيل يستر نعمة الله عليه ويكتمها ويجحدها فهو كافر لنعمة الله ، وفي الحديث « إن الله إذا أنعم نعمة على عبد أحب أن يظهر أثرها عليه » .

(٣٨) ﴿ وَالَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾

﴿ رئاء الناس ﴾ أي يقصدون بإعطائهم السمعة وأن يمدحوا بالكرم ، ولا يريدون بذلك وجه الله .

(٣٩) ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴾

أي وأي شيء يضرهم لو آمنوا بالله وسلكوا الطريق الحميدة وعدلوا عن الرياء إلى الإخلاص؟ ﴿ وكان الله بهم عليماً ﴾ أي هو عالم بنياتهم الصالحة والفاسدة وعالم بمن يستحق التوفيق منهم فيوفقه ويلهمه وبمن يستحق الخذلان والطرد فيخذله ويطرده . أعاذنا الله من ذلك .

(٤٠) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه لا يظلم أحداً من خلقه يوم القيامة مثقال حبة خردل ، ولا مثقال ذرة ، بل يوفيها له ، ويضاعفها له ، إن كانت حسنة كما قال سبحانه : ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وكما قال : ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله ﴾ وفي الصحيحين في حديث الشفاعة الطويل ، وفيه : « فيقول الله عز وجل : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان ، فأخرجوه من النار ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقول أبو سعيد : اقرؤ وا إن شئتم : ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة . . ﴾ وقوله : ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ في الحديث : « إن الله يضاعف الحسنة ألفي ألفي حسنة ، فأما المشرك فيخفف عنه العذاب بالحسنة يوم القيامة ، ولا يخرج من النار أبداً ، وقد يستدل له بالحديث الصحيح أن العباس قال : يا

رسول الله إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعته بشيء ؟ قال : « نعم ، هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » وقد يكون هذا خاصاً بأبي طالب من دون الكفار بدليل الحديث : « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يثاب عليها الرزق في الدنيا ، ويجزى بها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بها في الدنيا ، فإذا كان يوم القيامة لم يكن له حسنة . ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة . نسأل الله رضاه والجنة .

(٤١) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هول يوم القيامة ، وشدة أمره وشأنه ، فكيف يكون الأمر والحال يوم القيامة حين يجيء من كل أمة بشهيد يعني الأنبياء عليهم السلام ، كما قال تعالى : ﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ وفي البخاري عن عبدالله بن مسعود قال : قال لي رسول الله ﷺ : « اقرأ عليّ » فقلت : يا رسول الله ، آقرأ عليك وعليك أنزل ؟ « قال : نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿ فكيف إذا جئنا . . ﴾ فقال : « حسبك الآن » فإذا عيناه تذرفان .

(٤٢) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾

أي لو انشقت وبلعتهم مما يرون من أهوال الموقف ، وما يحل بهم من الخزي والفضيحة والتوبيخ كقوله ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ وقوله : ﴿ ولا يكتمون الله حديثاً ﴾ إخبار عنهم بأنهم يعترفون بجميع ما فعلوه ، ولا يكتمون منه حديثاً .

(٤٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن فعل الصلاة في حال السكر الذي لا يدري معه المصلي ما يقول ، وعن قربان محالها التي هي المساجد للجنب ، إلا أن يكون مجتازاً

من باب إلى باب من غير مكث ، وقد كان هذا قبل تحريم الخمر . وقوله ﴿ حتى تعلموا ما تقولون ﴾ هذا أحسن ما يقال في حد السكران : أنه الذي لا يدري ما يقول ، فإن المخمور فيه تخليط في القراءة ، وعدم تدبره وخشوعه فيها . وقوله : ﴿ ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا ﴾ أي لا تدخلوا المسجد وأنتم جنب إلا عابري سبيل . أي تمر به مراً ولا تجلس . وقوله ﴿ حتى تغتسلوا ﴾ دليل لما ذهب إليه الأئمة الثلاثة : أبو حنيفة ومالك والشافعي أنه يحرم على الجنب المكث في المسجد حتى يغتسل أو يتيمم ، إن عدم الماء ، أو لم يقدر على استعماله ، وذهب الإمام أحمد إلى أنه متى توضأ الجنب جاز له المكث في المسجد ، لحديث عطاء بن يسار قال : رأيت رجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ يجلسون في المسجد وهم مجنبون إذا توضأوا وضوء الصلاة . وقوله : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً ﴾ أما المرض المبيح للتيمم فهو الذي يخاف معه من استعمال الماء فوات عضو أو شينه أو تطويل البرء . والسفر معروف ، ولا فرق فيه بين الطويل والقصير . والغائط هو المكان المطمئن من الأرض ، كني بذلك عن التغوط ، وهو الحدث الأصغر . وملامسة النساء كناية عن الجماع ، لقوله تعالى ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ﴾ وقال آخرون عنى الله تعالى بذلك كل من لمس بيد أو بغيرها من أعضاء الإنسان . والتيمم في اللغة هو القصد . والصعيد هو كل ما صعد على وجه الأرض فيدخل في التراب والرمل والشجر والحجر والنبات ، وهو قول مالك ، وقيل : ما كان من جنس التراب كالرمل والزرنيخ والنورة وهو مذهب أبي حنيفة ، وقيل : هو التراب فقط وهو قول الشافعي وأحمد بن حنبل . ﴿ فامسحوا بوجوهكم وأيديكم ﴾ فيه التيمم بدل عن الوضوء في التطهير به ، لا أنه بدل منه في جميع أعضائه بل يكفي مسح الوجه واليدين فقط بالإجماع . ﴿ إن الله كان عفواً غفوراً ﴾ أي ومن عفوه وغفرانه أن شرع لكم التيمم ، وأباح لكم فعل الصلاة به إذا فقدتم الماء توسعة ورخصة .

(٤٤) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة أنهم يشترون الضلالة بالهدى ويعرضون عما أنزل الله على رسوله ، ويتركون ما بأيديهم من العلم عن الأنبياء الأولين في صفة محمد ﷺ : ليشتروا به ثمناً قليلاً من حطام الدنيا . ﴿ ويريدون أن تضلوا السبيل ﴾ أي يودون لو تكفرون بما أنزل عليكم أيها المؤمنون ، وتتركون ما أنتم عليه من الهدى والعلم النافع .

﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ والله أعلم بأعدائكم ﴾ أي هو أعلم بهم ويحذركم منهم . ﴿ وكفى بالله . . ﴾ أي كفى به ولياً لمن لجأ إليه ، ونصيراً لمن استنصره .

﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿ من الذين هادوا ﴾ ﴿ من ﴾ في هذا لبيان الجنس ، كقوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان ﴾ وقوله ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ، ويفسرونه بغير مراد الله عز وجل قصداً منهم وافتراء . ﴿ ويقولون سمعنا وعصينا ﴾ أي سمعنا ما قلته يا محمد ، ولا نطيعك فيه ، وهذا أبلغ في كفرهم وعنادهم ، وأنهم يتولون عن كتاب الله بعدما عقلوه وهم يعلمون ما عليهم من ذلك من الإثم والعقوبة . ﴿ واسمع غير مسمع ﴾ أي اسمع ما تقول ، لا سمعت ، أو اسمع غير مقبول منك ، والأول أصح ، وهذا استهزاء منهم واستهتار ، عليهم لعنة الله . ﴿ وراعنا لياً بألسنتهم وطعناً في الدين ﴾ أي يوهمون أنهم يقولون : راعنا سمعك بقولهم : راعنا ، وإنما يريدون الرعونة بسبهم النبي ﷺ . ﴿ ولكن لعنهم الله بكفرهم . . ﴾ أي قلوبهم مطرودة عن الخير مبعدة منه ، فلا يدخلها من الإيمان شيء نافع لهم . ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ والمقصود أنهم لا يؤمنون إيماناً نافعاً .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى آمراً أهل الكتاب بالإيمان بما نزل على رسوله محمد ﷺ من الكتاب العظيم الذي فيه تصديق الأخبار التي بأيديهم من البشارات ، ومتهدداً لهم إن لم يفعلوا بقوله ﴿من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ﴾ وطمسها هو ردها إلى الأدبار وجعل أبصارهم من ورائهم ، أو لا نبقي لها سمعاً ولا بصراً ولا أفقاً ، ومع ذلك نردها إلى ناحية الأدبار ، أو نجعل وجوههم من قبل أقفيتهم فيمشون القهقرى ، ونجعل لأحدهم عينين من قفاه . وهذا مثل ضربه الله لهم في صرفهم عن الحق وردهم إلى الباطل ، ورجوعهم عن

المحجة البيضاء إلى سبيل الضلالة . يهرعون ويمشون القهقرى على أدبارهم . ﴿ أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت ﴾ يعني الذين اعتدوا في سبتهم بالحيلة على الاصطياد ، وقد مسخوا قردة وخنازير . ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي إذا أمر بأمر فإنه لا يخالف ، ولا يمانع .

(٤٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لا يغفر أن يشرك به ، ، ي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به ، ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء أي من عباده . وفي الحديث قال : « إن الله يقول : يا عبدي ما عبدتني ورجوتني فإني غافر ما كان منك ، يا عبدي ، إنك إن لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة » . وفي الحديث « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » ﴿ ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ كقوله : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ . وثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : قلت : يا رسول الله أي الذنب أعظم قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك . . » وفيه « ألأ أخبركم بأكبر الكبائر ؟ الاشراك بالله » .

(٤٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

نزلت في اليهود والنصارى حين قالوا : ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ وفي قولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ ﴿ بل الله يزكي من يشاء ﴾ أي المرجع في ذلك إلى الله عز وجل ، لأنه أعلم بحقائق الأمور وغوامضها . ﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ أي ولا يترك لأحد من الأجر ما يوازن مقدار الفتيل ، وهو ما يكون في شق النواة .

(٥٠) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴾

﴿ انظر كيف يفترون على الله الكذب ﴾ أي في تزكيتهم أنفسهم ، ودعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم ﴿ لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ﴾ وقولهم ﴿ لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات ﴾ واتكالهم على أعمال آبائهم الصالحة ، وقد حكم الله أن أعمال الآباء لا تجزي عن الأبناء شيئاً في قوله ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ . ﴿ وكفى به إثماً مبيناً ﴾ أي وكفى بصنيعهم هذا كذباً وافتراء ظاهراً .

(٥١) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾

الجبت : السحر ، والطاغوت الشيطان . أو الجبت الشيطان أو الشرك ، أو الأصنام ، أو حيي بن أخطب ، أو كعب بن الأشرف ، أو هي كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك ، والطاغوت : كل ما يعبد من دونه عز وجل . ﴿ ويقولون للذين كفروا . . . ﴾ أي يفضلون الكفار على المسلمين بجهلهم ، وقلة دينهم ، وكفرهم بكتاب الله الذي بأيديهم . وقد جاء حيي بن أخطب ، وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة ، فقالوا لهم : أنتم أهل الكتاب وأهل العلم ، فأخبرونا عنا وعن محمد ، فقالوا : ما أنتم وما محمد ؟ فقالوا : نحن نصل الأرحام ، وننحر الكدماء ، ونسقي الماء على اللبن ، ونفك العاني ، ونسقي الحجيج ، ومحمد صنبور ، قطع أرحامنا ، واتبعه سراق الحجيج من غفار ، فنحن خير أم هو؟ فقالوا : أنتم خير وأهدى سبيلاً ، فأنزل الله هذه الآية .

(٥٢) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴾

وهذا لعن لهم وإخبار بأنهم لا ناصر لهم في الدنيا ولا في الآخرة ، لأنهم إنما ذهبوا يستنصرون بالمشركين ، وإنما قالوا لهم ذلك ليستميلوهم إلى نصرتهم ، وقد أجابوهم ، وجاؤ وا معهم يوم الأحزاب حتى حفر النبي ﷺ وأصحابه حول المدينة الخندق فكفى الله شرهم ﴿ ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ .

(٥٣) ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴾

وهذا استفهام إنكاري ، أي ليس لهم نصيب من الملك ، ثم وصفهم بالبخل فقال : ﴿ فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ أي لأنهم لو كان لهم نصيب من الملك والتصرف لما أعطوا أحداً من الناس ، ولاسيما محمداً ﷺ شيئاً ، ولا ما يملأ النقير ، وهو النقطة التي في النواة . وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الانفاق ﴾ أي خوف أن يذهب ما بأيديكم مع أنه لا يتصور نفاده ، وإنما هو من بخلكم وشحكم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي بخيلاً .

(٥٤) ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

يعني بذلك حسدهم النبي ﷺ على ما رزقه الله من النبوة العظيمة ، وقد منعهم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب ، وليس من بني إسرائيل . وقوله : ﴿ فقد آتينا آل إبراهيم . . ﴾ أي فقد جعلنا في أسباط بني إسرائيل الذين هم من ذرية إبراهيم النبوة ، وأنزلنا عليهم الكتب ، وحكموا فيهم بالسنن وهي الحكمة ، وجعلنا منهم الملوك ، ومع هذا .

(٥٥) ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

﴿ فمنهم من آمن ﴾ أي بهذا الإيتاء ، وهذا الإنعام ﴿ ومنهم من صد عنه ﴾ أي كفر به وأعرض عنه ، وسعى في صد الناس عنه ، وهو منهم ومن جنسهم ، أي من بني إسرائيل ، فقد اختلفوا عليهم ، فكيف بك يا محمد ، ولست من بني إسرائيل ؟ ﴿ وكفى بجهنم سعيراً ﴾ أي وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله .

(٥٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

يخبر تعالى عما يعاقب به في نار جهنم من كفر بآياته وصد عن رسله فقال : ﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً ﴾ أي ندخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم . ﴿ كلما نضجت جلودهم . . ﴾ إذا احترقت جلودهم بدلوا جلوداً غيرها بيضاً أمثال القراطيس .

(٥٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾

هذا إخبار عن مآل السعداء في جنات عدن التي تجري فيها الأنهار في جميع فجاجها ومحالها وأرجائها حيث شاؤوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، ولا يبغون عنها حولاً . وقوله ﴿ لهم فيها أزواج مطهرة ﴾ أي من الحيض والنفاس والأذى والأخلاق الرذيلة والصفات الناقصة . ﴿ وندخلهم ظلاً ظليلاً ﴾ أي ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً ، في الحديث « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها

مائة عام لا يقطعها ـ شجرة الخلد » .

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ ﴿٥٨﴾

يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها ، وفي الحديث « أد الأمانة لمن ائتمنك ولا تخن من خانك » وهو يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده ، من الصلاة والزكاة والصيام والكفارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك ، فأمر الله بأدائها ، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة . وفي الحديث : « لتؤدن الحقوق إلى أهلها حتى يقتص للشاة الجماء من القرناء » . لما نزل رسول الله ﷺ بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء إلى البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن في يده ، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة ، وقد استكن له الناس في المسجد ، فقام ﷺ على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدميّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » إلى أن قال : ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد فقام إليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « أين عثمان بن طلحة » ؟ فدعي له ، فقال له : « هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم وفاء وبر » فهذه الآية نزلت في عثمان بن طلحة ، قبض منه رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة فدخل في البيت يوم الفتح فخرج وهو يتلو هذه الآية ﴿ إن الله يأمركم أن . . . ﴾ فدعا عثمان بن طلحة إليه فدفع المفتاح إليه .
وقوله : ﴿ وإذا حكمتم بين الناس . . ﴾ أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولهذا قيل : إنما نزلت في الأمراء ، يعني الحكام بين الناس . وفي الحديث « إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جار وكله إلى نفسه » . وفي الأثر : عدل يوم كعبادة أربعين سنة .
وقوله : ﴿ إن الله نعما يعظكم به ﴾ أي يأمركم به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة . وقوله تعالى : ﴿ إن الله كان سميعاً بصيراً ﴾ أي سميعاً لأقوالكم ، بصيراً بأفعالكم .

(٥٩) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾

بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم في شيء ، قال : فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى ، قال : فاجمعوا لي حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها فيه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها ، قال : فقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار ، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : « لو دخلتموها ما خرجتم ، منها أبداً ، إنما الطاعة في المعروف» أخرجاه في الصحيحين . ﴿ وأولي الأمر منكم ﴾ هم أهل الفقه والدين ، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء . ﴿ فإن تنازعتم في شيء ﴾ وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تتنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة . ﴿ وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ﴾ أي ردوا الخصومات والجهلات إلى كتاب الله وسنة رسوله فتحاكموا إليهما فيما شجر بينكم . ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ دل على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى كتاب الله والسنة فليس مؤمناً بالله واليوم الآخر . ﴿ ذلك خير ﴾ أي التحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والرجوع إليهما في فصل النزاع خير ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي وأحسن عاقبة ومآلاً . أو وأحسن جزاء .

(٦٠) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾

هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ، كما ذكر في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في رجل من الأنصار منافق ورجل من اليهود تخاصما ، فجعل اليهودي يقول : بيني وبينك محمد ، وذاك يقول : بيني وبينك كعب بن الأشرف ، وهو المراد بالطاغوت هنا .

(٦١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾

﴿ يصدون عنك صدوداً ﴾ أي يعرضون عنك إعراضاً كالمستكبرين عن ذلك كما قال

تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ وهؤلاء بخلاف المؤمنين الذين قال الله فيهم : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾ .

(٦٢) ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾

أي فكيف إذا ساقتهم المقادير إليك في مصائب تطرقهم بسبب ذنوبهم واحتاجوا إليك في ذلك ﴿ ثم جاؤوك يحلفون بالله . . ﴾ أي يعتذرون إليك ويحلفون ما أردنا بذهابنا إلى غيرك ، وتحاكمنا إلى أعدائك إلا الإحسان والتوفيق ، أي المداراة والمصانعة ، لا اعتقاداً منا صحة تلك الحكومة ، كما أخبرنا تعالى عنهم في قوله ﴿ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾ .

(٦٣) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾

هذا الضرب من الناس هم المنافقون ، والله يعلم ما في قلوبهم ، وسيجزيهم على ذلك ، فإنه لا تخفى عليه خافية ، فاكتف به يا محمد فيهم فإنه عالم بظواهرهم وبواطنهم ، ولهذا قال : ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي لا تعنفهم على ما في قلوبهم . ﴿وعظهم﴾ أي وانههم عما في قلوبهم من النفاق ، وسرائر الشر . ﴿ وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴾ أي وانصحهم فيما بينك وبينهم بكلام بليغ ادع لهم .

(٦٤) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع ﴾ أي فرضت طاعته على من أرسله إليهم . وقوله ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي لا يطيع أحد إلا بإذني ، يعني لا يطيعه إلا من وفقته لذلك . كقوله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ﴾ أي عن أمره وقدره ، ومشيئته وتسليطه إياكم عليهم . وقوله : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم . . ﴾ يرشد تعالى العصاة والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده ، ويسألوه أن يستغفر لهم فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم ، ولهذا

قال : ﴿ لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ وقد ذكر جماعة منهم الشيخ أبو منصور الصباغ في كتابه الشامل الحكاية المشهورة عن العتبي قال : كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ فجاء اعرابي فقال : السلام عليك يا رسول الله ، سمعت الله يقول : ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا . . . ﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه   فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه   فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال : « يا عتبي الحق الأعرابي فبشره أن الله قد غفر له » .

﴿٦٥﴾ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أن لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد إليه ظاهراً وباطناً . ولهذا قال : ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً . . . ﴾ أي إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم ، فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . وورد في الحديث « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

﴿٦٦﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾

يخبر تعالى عن أكثر الناس أنهم لو أمروا بما هم مرتكبونه من المناهي لما فعلوه ، لأن طباعهم مجبولة على مخالفة الأمر ، وهذا من علمه تبارك وتعالى بما لم يكن ، أو كان ، فكيف كان يكون ؟ وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآية قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي » . وفي الحديث : « لو نزلت لكان ابن أم عبد منهم » وفيه أيضاً أن رسول الله تلا هذه الآية وأشار بيده إلى عبدالله بن رواحة وقال : « لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل » يعني ابن رواحة . ولهذا قال تعالى ﴿ ولو أنهم فعلوا ما

يوعظون به ﴾ أي ولو أنهم فعلوا ما يؤمرون به وتركوا ما ينهون عنه ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ أي من مخالفة الأمر وارتكاب النهي . ﴿ وأشد تثبيتاً ﴾ أي وأشد تصديقاً .

(٦٧) ﴿ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ من لدنا ﴾ أي من عندنا . ﴿ أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة .

(٦٨) ﴿ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

﴿ ولهديناهم . . ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

(٦٩) ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾

أي من عمل بما أمره الله به ورسوله ، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله ، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته ، ويجعله مرافقاً للأنبياء ، ثم لمن بعدهم في الرتبة ، وهم الصديقون ، ثم الشهداء ، ثم عموم المؤمنين ، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم . ثم أثنى عليهم تعالى فقال : ﴿ وحسن أولئك رفيقاً ﴾ وفي البخاري عن عائشة قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من نبي يمرض إلا خير بين الدنيا والآخرة » وكان في شكواه التي قبض فيها أخذته بحة شديدة فسمعته يقول : « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » فعلمت أنه خُيِّر . وهذا معنى قوله في الحديث الآخر « اللهم الرفيق الأعلى » ثلاثاً ثم قضى ، عليه أفضل الصلاة والتسليم . وقد جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ وهو محزون فقال له النبي ﷺ : « يا فلان ما لي أراك محزوناً ؟ » فقال : يا نبي الله ، شيء فكرت فيه ، فقال : ما هو ؟ قال : نحن نغدو عليك ونروح ، ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مع النبيين ، فلا نصل إليك ، فلم يرد عليه النبي ﷺ شيئاً فأتاه جبريل بهذه الآية ﴿ ومن يطع الله والرسول . . . ﴾ فبعث النبي ﷺ فبشره . وفي صحيح مسلم عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال : كنت أبيت عند النبي ﷺ ، فأتيته بوضوئه وحاجته ، فقال لي : « سل » فقلت : يا رسول الله ، أسألك مرافقتك في الجنة ، فقال : « أو غير ذلك ؟ » قلت : هو ذاك ، قال: « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .

(٧٠) ﴿ ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾

﴿ ذلك الفضل من الله ﴾ أي من عند الله برحمته ، وهو الذي أهلهم لذلك ، لا بأعمالهم . ﴿ وكفى بالله عليماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الهداية والتوفيق .

(٧١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم ، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد ، وتكثير العدد بالنفير في سبيل الله . ﴿ ثبات ﴾ أي جماعة بعد جماعة ، وفرقة بعد فرقة ، وسرية بعد سرية ، والثبات جمع ثبة ، وقد تجمع الثبة على ثبين . ﴿ أو انفروا جميعاً ﴾ يعني كلكم .

(٧٢) ﴿ وَإِنَّ مِنكُمۡ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا ﴾

﴿ ليبطئن ﴾ أي ليتخلفن عن الجهاد ، ويحتمل أن يكون المراد أن يتباطأ هو في نفسه ، ويبطىء غيره عن الجهاد ، كما كان عبدالله بن أبي ابن سلول قبحه الله يفعل ، يتأخر عن الجهاد ، ويثبط الناس عن الخروج فيه . ﴿ فإن أصابتكم مصيبة ﴾ أي قتل وشهادة وغلب العدو لكم لما في ذلك من الحكمة ﴿ قال قد أنعم الله علي . . . ﴾ أي إذ لم أحضر معهم وقعة القتال ، يعد ذلك من نعم الله عليه ، ولم يدر ما فاته من الأجر في الصبر أو الشهادة إن قتل .

(٧٣) ﴿ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾

﴿ ولئن أصابكم فضل من الله ﴾ أي نصر وظفر وغنيمة ﴿ ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ﴾ أي كأنه ليس من أهل دينكم . ﴿ يا ليتني كنت معهم . . ﴾ أي بأن يضرب لي بسهم معهم فأحصل عليه ، وهو أكبر قصده وغاية مراده .

(٧٤) ﴿ * فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

﴿ فليقاتل ﴾ أي المؤمن النافر . ﴿ في سبيل الذين يشرون . . ﴾ أي يبيعون دينهم بعرض قليل من الدنيا ، وما ذلك إلا لكفرهم وعدم إيمانهم . ثم قال تعالى : ﴿ ومن يقاتل في سبيل الله . . ﴾ أي كل من قاتل في سبيل الله سواء قتل أو غلب فله عند الله

مثوبة عظيمة ، وأجر جزيل ، كما ثبت في الصحيحين « وتكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة » .

(٧٥) ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

يحرض تعالى عباده المؤمنين على الجهاد في سبيله ، وعلى السعي في استنقاذ المستضعفين بمكة من الرجال والنساء ، والصبيان المتبرمين من المقام بها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ﴾ يعني مكة ، كقوله تعالى : ﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ . ﴿ واجعل لنا من لدنك ولياً . . . ﴾ أي سخر لنا من عندك ولياً وناصراً . في البخاري عن ابن عباس قال : كنت أنا وأمي من المستضعفين .

(٧٦) ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾

أي المؤمنون يقاتلون في طاعة الله ورضوانه ، والكافرون يقاتلون في طاعة الشيطان ، ثم هيج تعالى المؤمنين على قتال أعدائه بقوله : ﴿ فقاتلوا أولياء الشيطان . . ﴾ .

(٧٧) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة ، وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء فيهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة ، منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم ، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام ، وأشرف بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء ، فلهذا لم يؤمر بالجهاد إلا بالمدينة لما صارت لهم دار منعة وأنصار ، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً ﴿ وقالوا ربنا لم

كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى ، فإنه فيه سفك الدماء ، ويتم الأولاد ، وتأييم النساء ، وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم ﴾ عن ابن عباس أن عبدالرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة ، فقالوا : يا نبي الله ، كنا في عزة ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، قال : « إني أمرت بالعفو ، فلا تقاتلوا القوم » فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم . . . ﴾ وقال أسباط عن السدي : لمن يكن عليهم إلا الصلاة والزكاة ، فسألوا الله أن يفرض عليهم القتال فلما فرض عليهم القتال ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . . ﴾ وقوله تعالى ﴿ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ﴾ هو الموت . ﴿ ولا تظلمون فتيلاً ﴾ أي من أعمالكم ، بل توفونها أتم الجزاء ، وهذا تسلية لهم عن الدنيا ، وترغيب لهم في الآخرة ، وتحريض لهم على الجهاد . قرأ الحسن ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾ فقال : رحم الله عبداً صحبها على حسب ذلك . وما الدنيا كلها أولها وآخرها إلا كرجل نام نومة فرأى في منامه بعض ما يحب ثم انتبه .

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (٧٨)

أي أنتم صائرون إلى الموت لا محالة ، ولا ينجو منه أحد منكم كما قال تعالى : ﴿ كل من عليها فان ﴾ وقال تعالى ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ وقال تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ﴾ والمقصود أن كل أحد صائر إلى الموت لا محالة ، ولا ينجيه من ذلك شيء ، سواء جاهد ، أو لم يجاهد ، فإن له أجلاً محتوماً ، ومقاماً مقسوماً ، كما قال خالد بن الوليد حين جاءه الموت على فراشه : لقد شهدت كذا وكذا موقفاً ، وما من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعنة أو رمية ، وها أنا أموت على فراشي ، فلا نامت أعين الجبناء . وقوله ﴿ ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ أي حصينة منيعة عالية رفيعة ، وقيل : هي بروج في السماء ، وهو ضعيف ، والصحيح أنها المنيعة أي لا يغني حذر ولا تحصن من الموت . وقوله ﴿ وإن تصبهم حسنة ﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزرع وأولاد ونحو ذلك ﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو

غير ذلك . ﴿ يقولوا هذه من عندك ﴾ أي من قبلك ، وبسبب اتباعنا لك ، واقتدائنا بدينك ، كما قال تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر ، ولهذا إذا أصابهم شر إنما يسندونه إلى اتباعهم للنبي ﷺ . فأنزل الله ﴿ قل كل من عند الله ﴾ أي الجميع بقضاء الله وقدره ، وهو نافذ في البر والفاجر ، والمؤمن والكافر . ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب ، وقلة فهم وعلم ، وكثر جهل وظلم ﴿ فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾ .

﴿٧٩﴾ ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ أي من فضل الله ومنه ولطفه ورحمته . ﴿ وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ أي فمن قبلك ، ومن عملك أنت ، كما قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وفي الحديث « لا يصيب الرجل خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يعفو الله أكثر » وهذا حديث أرسله قتادة ، وقد روي متصلاً في الصحيح « والذي نفسي بيده ، لا يصيب المؤمن هم ولا حزن ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه» ﴿وأرسلناك للناس رسولاً ﴾ أي تبلغهم شرائع الله ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكرهه ويأباه . ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي على أنه أرسلك ، وهو شهيد أيضاً بينك وبينهم ، وعالم بما تبلغهم إياه ، وبما يردون عليك من الحق كفراً وعناداً .

﴿٨٠﴾ ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد ﷺ بأن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى إن هو وحي يوحى، وفي الحديث «من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني ، ومن عصى الأمير فقد عصاني » وهذا الحديث ثابت في الصحيحين . ﴿ ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي ما عليك منه ؟ إن عليك إلا البلاغ ، فمن اتبعك سعد ونجا ، وكان لك من الأجر نظير ما حصل له ، ومن تولى عنك خاب وخسر ، وليس عليك من أمره

شيء . وفي الحديث « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصي الله ورسوله فإنه لا يضر إلا نفسه » .

(٨١) ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين بأنهم يظهرون الموافقة والطاعة ﴿ فإذا برزوا من عندك ﴾ أي خرجوا وتواروا عنك ﴿ بيت طائفة منهم غير الذي تقول ﴾ أي استسروا ليلاً فيما بينهم بغير ما أظهروه لك ، فقال تعالى ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ أي يعلمه ويكتبه عليهم بما يأمر به حفظته الكاتبين الذين هم موكلون بالعباد . والمعنى في هذا التهديد أنه تعالى يخبر بأنه عالم بما يضمرونه ويسرونه فيما بينهم وما يتفقون عليه ليلاً من مخالفة الرسول ﷺ وعصيانه ، وإن كانوا قد أظهروا له الطاعة والموافقة ، وسيجزيهم على ذلك . ﴿ فأعرض عنهم ﴾ أي إصفح عنهم ، واحلم عليهم ولا تؤاخذهم ، ولا تكشف أمورهم للناس ، ولا تخف منهم أيضاً . ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي كفى به ولياً وناصراً ومعيناً لمن توكل عليه وأناب إليه .

(٨٢) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

يقول تعالى آمراً لهم بتدبر القرآن ، وناهياً لهم عن الاعراض عنه ، وعن تفهم معانيه المحكمة ، وألفاظه البليغة ، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولا تعارض ، لأنه تنزيل من حكيم حميد ، فهو حق من حق . ﴿ ولو كان من عند غير الله ﴾ أي لو كان مفتعلاً مختلقاً كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم لوجدوا فيه اختلافاً أي اضطراباً وتضاداً كثيراً ، أي وهذا سالم من الاختلاف ، فهو من عند الله .

(٨٣) ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُولِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

هذا إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها ، وقد لا يكون لها صحة ، وفي الحديث « كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع » وفيه « نهى رسول الله ﷺ عن قيل وقال » أي الذي يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر ولا تبين ، وفيه أيضاً « بئس مطية الرجل زعموا » وفيه « من حدث بحديث وهو يرى أنه

كذب فهو أحد الكاذبين » . وقوله ﴿ يستنبطونه ﴾ يستخرجونه من معادنه ، يقال : استنبط الرجل العين إذ حفرها أو استخرجها من قعورها . وقوله ﴿ لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ عن ابن عباس يعني المؤمنين . وعن قتادة يعني كلكم .

(٨٤) ﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ﴾

يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ بأن يباشر القتال بنفسه ، ومن نكل عنه فلا عليه منه ، ولهذا قال ﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾ وقوله ﴿ وحرض المؤمنين ﴾ في الحديث قال لأصحابه : « قد أمرني ربي بالقتال فقاتلوا » حديث غريب أي حرضهم على القتال ، ورغبهم فيه ، وشجعهم عليه ، كما قال لهم ﷺ يوم بدر وهو يسوي الصفوف « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا سعيد ، من رضي بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولاً وجبت له الجنة » قال : فعجب لها أبو سعيد ، فقال : أعدها علي يا رسول الله ، ففعل ، ثم قال رسول الله ﷺ « وأخرى يرفع الله العبد بها مائة درجة في الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، قال وما هي يا رسول الله ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله »رواه مسلم . وقوله ﴿ عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ﴾ أي بتحريضك إياهم على القتال تنبعث هممهم على مناجزة الأعداء ، ومدافعتهم عن حوزة الإسلام وأهله ، ومقاومتهم ومصابرتهم . وقوله ﴿ والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً ﴾ أي هو قادر عليهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ .

(٨٥) ﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةٗ سَيِّئَةٗ يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٞ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقِيتٗا ﴾

أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك ، ومن يسعى في شر يكون عليه وزر من ذلك الأمر الذي ترتب على سعيه ونيته ، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء » ﴿ مقيتاً ﴾ أي حفيظاً ، أو شهيداً ، أو حسيباً ، أو المقيت المواظب ، أو الرزاق .

(٨٦) ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ﴾

أي إذا سلم عليكم المسلم فردوا عليه أفضل مما سلم ، أو ردوا عليه بمثل ما سلم ، فالزيادة مندوبة ، والمماثلة مفروضة ، وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليك يا رسول الله ، فقال : « وعليك السلام ورحمة الله » ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله ، فقال له رسول الله ﷺ : « وعليك السلام ورحمة الله وبركاته » ، ثم جاء آخر فقال : السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فقال له : « وعليك » فقال له الرجل : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، أتاك فلان وفلان فسلما عليك فرددت عليهما أكثر مما رددت عليّ ، فقال : « إنك لم تدع لنا شيئاً » قال الله تعالى : ﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾ رواه ابن جرير . وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا زيادة في السلام على هذه الصفة « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » إذ لو شرع أكثر من ذلك لزاده رسول الله ﷺ . وأهل الذمة لا يُبدءون بالسلام ، ولا يزادون ، بل يرد عليهم بما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سلم عليكم اليهود ، فإنما يقول أحدهم : السلام عليكم ، فقل : وعليك . وفي صحيح مسلم « لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه » وفي الحديث « والذي نفسي بيده ، لا تدخلوا الجنة حتى تمنوا ، ولا تؤمنوا ،حتى تحابوا ، أفلا أدلكم على أمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » .

﴿ ٨٧ ﴾ ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾

﴿ الله لا إله إلا هو ﴾ هذا إخبار بتوحيده ، وتفرده بالإلهية لجميع المخلوقات ، وقوله ﴿ ليجمعنكم إلى يوم . . ﴾ هذا قسم منه تعالى أنه سيجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيجازي كل عامل بعمله . ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ أي لا أحد أصدق منه في حديثه وخبره ووعده ووعيده ، فلا إله غيره ولا رب سواه .

﴿ ٨٨ ﴾ ﴿ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى منكراً على المؤمنين في اختلافهم في المنافقين على قولين فقد خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فرجع ناس خرجوا معه فكان أصحاب رسول الله ﷺ فرقتين : فرقة تقول : نقتلهم ، وفرقة تقول : لا ، هم المؤمنون ، فأنزل الله : ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين ﴾ ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنها طيبة ، وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خبث

الحديد » أخرجاه في الصحيحين . وقوله ﴿ والله أركسهم ﴾ أي ردهم وأوقعهم في الخطأ . ﴿ بما كسبوا ﴾ أي بسبب عصيانهم ومخالفتهم الرسول واتباعهم الباطل . ﴿ فلن تجد له سبيلاً ﴾ أي لا طريق إلى الهدى ، ولا مخلص له إليه .

﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (٨٩)

أي هم يودون لكم الضلالة لتستووا أنتم وإياهم فيها ، وما ذاك إلا لشدة عداوتهم ، وبغضهم لكم . ولهذا قال : ﴿ فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله فإن تولوا ﴾ أي تركوا الهجرة ، أو أظهروا كفرهم . ﴿ ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً ﴾ أي لا توالوهم ، ولا تستنصروا بهم على أعداء الله ما داموا كذلك .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُواْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾ (٩٠)

ثم استثنى الله من هؤلاء ، فقال : ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ أي إلا الذين لجأوا وتحيزوا إلى قوم بينكم وبينهم مهادنة ، أو عقد ذمة فاجعلوا حكمهم كحكمهم . وعن الحسن أن سراقة بن مالك المدلجي حدثهم قال : لما ظهر النبي ﷺ على أهل بدر وأحد أسلم من حولهم قال سراقة : بلغني أنه يريد أن يبعث خالد بن الوليد إلى قومي بني مدلج فأتيته فقلت : أنشدك النعمة ، فقالوا : صه ، فقال النبي ﷺ : « دعوه ، ما تريد ؟ » قال : بلغني أنك تريد أن تبعث إلى قومي وأنا أريد أن توادعهم ، فإن أسلم قومك أسلموا ودخلوا في الإسلام ، وإن لم يسلموا لم تخش قلوب قومك عليهم ، فأخذ رسول الله ﷺ بيد خالد بن الوليد فقال : « اذهب معه فافعل ما يريد » فصالحهم خالد على أن لا يعينوا على رسول الله ﷺ ، وإن أسلمت قريش أسلموا معهم فأنزل الله ﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . . ﴾ وأنزل الله ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ فكان من وصل إليهم كان معهم على عهدهم . وقوله ﴿ أو جاؤوكم حصرت صدورهم . . ﴾ هؤلاء قوم آخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يجيئون إلى المصاف ، وهم حصرة صدورهم ، أي ضيقة صدورهم مبغضين أن

يقاتلوكم ، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم ، بل هم ، لا لكم ، ولا عليكم . ﴿ ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ﴾ أي من لطفه بكم أن كفهم عنكم . ﴿ وألقوا إليكم السلم ﴾ أي المسالمة . ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ أي فليس لكم أن تقاتلوهم ما دامت حالهم كذلك ، وهؤلاء كالجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضروا القتال وهم كارهون كالعباس ونحوه ، ولهذا نهى النبي ﷺ يومئذٍ عن قتل العباس ، وأمر بأمره .

﴿٩١﴾ ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

هؤلاء في الصورة الظاهرة كمن تقدمهم ، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك ، فإن هؤلاء قوم منافقون ، يظهرون للنبي ﷺ ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ، ويصانعون الكفار في الباطن فيعبدون معهم ما يعبدون ليأمنوا بذلك عندهم وهم في الباطن مع أولئك . ﴿ أركسوا فيها ﴾ أي انهمكوا فيها ، والفتنة ههنا الشرك . وحكى ابن جرير عن مجاهد أنها نزلت في قوم من أهل مكة كانوا يأتون النبي ﷺ فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا فأمر بقتلهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ﴾ المهادنة والصلح ﴿ ويكفوا أيديهم ﴾ أي عن القتال ﴿ فخذوهم ﴾ أسراء ﴿ واقتلوهم حيث ثقفتموهم ﴾ أي أين لقيتموهم ﴿وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾ أي بيناً واضحاً .

﴿٩٢﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

يقول تعالى : ليس للمؤمن أن يقتل أخاه المؤمن بوجه من الوجوه كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « ولا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن

لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » . ثم إذا وقع شيء من هذه الثلاث فليس لأحد من آحاد الرعية أن يقتله ، وإنما ذلك إلى الإمام أو نائبه . ﴿ ومن قتل مؤمناً . . ﴾ هذان واجبان في قتل الخطأ ، أحدهما الكفارة لما ارتكبه من الذنب العظيم ، وإن كان خطأ ، ومن شرط الكفارة أن تكون عتق رقبة مؤمنة ، فلا تجزىء الكافرة . والثاني الدية فيما بين القاتل وأهل القتيل عوضاً لهم عما فاتهم من قتيلهم ، وعن ابن مسعود قال : قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ : عشرين بنت مخاض وعشرين بني مخاض ذكوراً ، وعشرين بنت لبون ، وعشرين جذعة ، وعشرين حقة » وفي صحيح البخاري عن عبدالله بن عمر قال : بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا فجعلوا يقولون صبأنا صبأنا ، فجعل خالد يقتلهم فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فرفع يديه وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » وبعث علياً فودى قتلاهم وما أتلف من أموالهم حتى مبلغة الكلب . وهذا الحديث يؤخذ فيه أن خطأ الإمام أو نائبه يكون في بيت المال . وقوله ﴿ إلا أن يصدقوا ﴾ أي فتجب فيه الدية مسلمة إلى أهله إلا أن يتصدقوا بها فلا تجب . وقوله ﴿ فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ أي إذا كان القتيل مؤمناً ، ولكن أولياؤه من الكفار أهل حرب فلا دية لهم ، وعلى القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير . وقوله ﴿ وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق . . ﴾ أي فإن كان القتيل أولياؤه أهل ذمة فلهم دية قتيلهم ، فإن كان مؤمناً فدية كاملة ، وكذا إن كان كافراً أيضاً عند طائفة من العلماء ، وقيل : يجب في الكافر نصف دية المسلم ، وقيل : ثلثها ، ويجب أيضاً على القاتل تحرير رقبة مؤمنة . ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ أي لا إفطار بينهما ، بل يسرد صومهما إلى آخرهما ، فإن أفطر من غير عذر من مرض أو حيض أو نفاس استأنف ، واختلفوا في السفر هل يقطع أم لا ؟ على قولين . وقوله ﴿ توبة من الله ﴾ أي هذه توبة القاتل خطأ ، أي إذا لم يجد العتق صام شهرين متتابعين ، واختلفوا في من لا يستطيع الصيام هل يجب عليه إطعام ستين مسكيناً كما في كفارة الظهار على قولين ، أحدهما نعم كما هو منصوص عليه في كفارة الظهار ، وإنما لم يذكر ههنا لأن هذا مقام تهديد وتخويف وتحذير فلا يناسب أن يذكر فيه الاطعام لما فيه من التسهيل والترخيص ، والقول الثاني لا يعدل إلى الطعام لأنه لو كان واجباً لما أخر بيانه عن وقت الحاجة .

﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ (٩٣)

عَذَابًا عَظِيمًا ﴾

وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله عز وجل حيث يقول (والذين لا يدعون مع الله إلّهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جداً ، فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الرياء » وفي الحديث أيضاً « لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم » ، وكان ابن عباس يرى أنه لا توبة لقاتل المؤمن عمداً لهذه الآية وقال : هي آخر ما نزل ، وما نسخها شيء ، ولكن الذي عليه الجمهور من سلف الأمة وخلفها أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله عز وجل ، فإن تاب وأناب ، وخشع وخضع ، وعمل عملاً صالحاً بدل الله سيئاته حسنات ، وعوض المقتول عن ظلامته ، قال تعالى : ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلّهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحمياً ﴾ وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الذنوب ما عدا الشرك . ثم لقاتل العمد أحكام في الدنيا وأحكام في الآخرة ، فأما في الدنيا فتسليط أولياء المقتول عليه قال تعالى ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴾ ثم هم مخيرون بين أن يقتلوا أو يعفوا ، أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثاً : ثلاثون حقة ، وثلاثون جذعة ، وأربعون خلفة . أقول : وأما في الآخرة فهو آثم ويعاقب على جريمته بقدرها ، ولا يخلدعلى الراجح ، ويمكن أن يتجاوز الله عنه بلا عقاب .

(٩٤) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴾

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ يرعى غنماً له فسلم عليهم ، فقالوا : لا يسلم علينا إلا ليتعوذ منا فعمدوا إليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه النبي ﷺ ، فنزلت هذه الآية . وقوله ﴿ تبتغون عرض الحياة الدنيا ﴾ قال ابن عباس : عرض الدنيا تلك الغنيمة . وقوله ﴿ فعند الله مغانم كثيرة ﴾ أي خير مما رغبتم

فيه من عرض الحياة الدنيا الذي حملكم على قتل مثل هذا الذي ألقى إليكم السلام ، وأظهر لكم الإيمان ، فتغافلتم عنه ، واتهمتموه بالمصانعة والتقية لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، فما عند الله من الرزق الحلال خير لكم من مال هذا . وقوله ﴿ كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم ﴾ أي قد كنتم من قبل هذه الحال كهذا الذي يسر إيمانه ويخفيه من قومه كما قال تعالى : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ أي كنتم من قبل تستخفون بإيمانكم كما استخفى هذا الراعي بإيمانه . وقوله ﴿ فتبينوا ﴾ تأكيد لما تقدم . وقوله ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ قال سعيد بن جبير : هذا تهديد ووعيد .

(٩٥) ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ أملى عليه ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله﴾ فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليّ، قال: يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله على رسوله ﷺ، وكان فخذه على فخذي فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي ثم سري عنه فأنزل الله ﴿غير أولي الضرر﴾ فصار ذلك مخرجاً لذوي الأعذار المبيحة لترك الجهاد من العمي والعرج والمرضى عن مساواتهم للمجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . وفي حديث البخاري عن أنس « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم من مسير ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه ، قالوا : وهم بالمدينة يا رسول الله ؟ قال : نعم ، حبسهم العذر » وقوله ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ أي الجنة والجزاء الجزيل ، وفيه دلالة على أن الجهاد ليس بفرض عين ، بل هو فرض على الكفاية .

(٩٦) ﴿ دَرَجَـٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ثم أخبر سبحانه بما فضلهم به من الدرجات في غرف الجنان العاليات ، ومغفرة الذنوب والزلات ، وأحوال الرحمة والبركات ، إحساناً منه وتكريماً ، ولهذا قال ﴿ درجات منه ومغفرة . . ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، ما بين كل درجتين كما بين

السماء والأرض » . وعن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « من رمى بسهم فله درجة » فقال رجل : يا رسول الله ؟ وما الدرجة ؟ فقال : « أما أنها ليست بعتبة أمك ، ما بين الدرجتين مائة عام » .

(٩٧) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

نزلت هذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهراني المشركين ، وهو قادر على الهجرة ، وليس متمكناً من إقامة الدين فهو ظالم لنفسه ، مرتكب حراماً بالإجماع ، وبنص هذه الآية ﴿ ظالمي أنفسهم ﴾ بترك الهجرة ﴿ قالوا فيم كنتم ﴾ أي لم مكثتم ها هنا وتركتم الهجرة ؟ ﴿ قالوا كنا مستضعفين في الأرض ﴾ أي لا نقدر على الخروج من البلد ، ولا الذهاب في الأرض ﴿ قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ في الحديث « من جامع المشرك وسكن معه فإنه مثله » وقال السدي : لما أسر العباس وعقيل ونوفل قال رسول الله ﷺ : « افد نفسك وابن أخيك » فقال : يا رسول الله ألم نصل إلى قبلتك ، ونشهد شهادتك ؟ قال : « يا عباس ، إنكم خاصمتم فخصمتم » ثم تلا هذه الآية ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ .

(٩٨) ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾

هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة ، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين ، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق ، ولهذا قال : ﴿ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ﴾ أي طريقاً .

(٩٩) ﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

﴿ أن يعفو عنهم ﴾ أي يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة ، وعسى من الله موجبة . ﴿ وكان الله عفواً غفوراً ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رفع يديه بعدما سلم وهو مستقبل القبلة فقال : « اللهم خلص الوليد بن الوليد ، وعياش بن أبي ربيعة ، وسلمة بن هشام ، وضعفة المسلمين الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً من أيدي الكفار » .

(١٠٠) ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى

﴿ ... ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

في هذه الآية تحريض على الهجرة وترغيب في مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة ، وملجأ يتحصن فيه . ﴿ مراغماً ﴾ مصدر ، وهو التحول من أرض إلى أرض ، والظاهر والله أعلم أنه المنع الذي يتخلص به ويراغم به الأعداء . ﴿ وسعة ﴾ يعني الرزق . قال قتادة : ﴿ يجد في الأرض مراغما كثيراً وسعة ﴾ أي من الضلالة إلى الهدى ، ومن القلة إلى الغنى . وقوله ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً . . . ﴾ أي ومن يخرج من منزله بنية الهجرة فمات في أثناء الطريق فقد حصل له عند الله ثواب من هاجر ، كما ثبت في الصحيحين « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه». وهذا عام في الهجرة، وفي جميع الأعمال . خرج ضمرة بن جندب إلى رسول الله ﷺ فمات في الطريق قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ فنزلت ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله . . ﴾ .

(١٠١) ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

﴿ ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم في البلاد ، كما قال تعالى ﴿ وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ﴾ وقوله ﴿ فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ﴾ أي تخففوا من كميتها بأن تجعل الرباعية ثنائية كما فهمه الجمهور من هذه الآية ، وهل يشترط أن يكون السفر سفر طاعة من جهاد ، أو حج ، أو عمرة ، أو طلب علم ، أو زيارة ، أو غير ذلك ، أم لا يشترط أن يكون سفر قربة ، بل لا بد أن يكون مباحاً بشرط أن لا يكون عاصياً بسفره ، وهذا قول الشافعي وأحمد وغيرهما من الأئمة . وقال بعضهم يكفي مطلق السفر سواء كان مباحاً أو محظوراً حتى لو خرج لقطع الطريق ، وإخافة السبيل ، وهذا قول أبي حنيفة . وأما قوله تعالى ﴿ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ فقد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول الآية ، فإن في مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة ، بل ما كانوا ينهضون إلا إلى غزو عام ، أو في سرية خاصة ، وسائر الأحيان حرب للإسلام وأهله ، والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب أو على حادثة فلا مفهوم له كقوله تعالى ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن ﴾ عن يعلى بن أمية قال :

سألت عمر بن الخطاب ، قلت له : قوله تعالى : ﴿ ليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ﴾ وقد أمن الناس ، فقال لي عمر رضي الله عنه : عجبت مما عجبت منه ، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال : « صدقة تصدق الله بها عليكم ، فاقبلوا صدقته » .

(١٠٢) ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

عن سالم عن أبيه قال ﷺ بإحدى الطائفتين ركعة ، والطائفة الأخرى مقبلة على العدو ، وأقبلت الطائفة الأخرى التي كانت مقبلة على العدو فصلى بهم رسول الله ﷺ ركعة أخرى ، ثم سلم بها ، ثم قامت طائفة منهم فصلت ركعة ركعة . وهذا الحديث رواه الجماعة في كتبهم ، ولهذا الحديث طرق كثيرة عن الجماعة من الصحابة . وأما الأمر بحمل السلاح في صلاة الخوف فمحمول عند طائفة من العلماء على الوجوب لظاهر الآية ، وهو أحد قولي الشافعي .

(١٠٣) ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾

يأمر تعالى بكثرة الذكر عقيب صلاة الخوف ، وإن كان مشروعاً مرغباً فيه أيضاً بعد غيرها ، ولكن ههنا آكد ، لما وقع فيها من التخفيف في أركانها ، ومن الرخصة في الذهاب فيها والإياب وغير ذلك مما ليس يوجد في غيرها ، كما قال تعالى في الأشهر الحرم : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ وإن كان هذا منهياً عنه في غيرها ، ولكن فيها آكد لشدة حرمتها وعظمها . وقوله تعالى : ﴿ فإذا اطمأننتم ﴾ أي فإذا أمنتم وذهب الخوف ، وحصلت الطمأنينة ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ أي فأتموها وأقيموها كما أمرتم بحدودها وخشوعها وسجودها وجميع شؤونها . ﴿ كتاباً موقوتاً ﴾ أي مفروضاً . قال ابن مسعود : إن للصلاة وقتاً كوقت الحج .

(١٠٤) ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أي لا تضعفوا في طلب عدوكم ، بل جدُّوا فيهم ، وقاتلوهم ، واقعدوا لهم كل مرصد . ﴿ إن تكونوا تألمون . . ﴾ أي كما يصيبكم الجراح والقتل كذلك يحصل لهم ، كما قال تعالى ﴿ إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ أي أنتم وإياهم سواء فيما يصيبكم وإياهم من الجراح والآلام ، ولكن أنتم ترجون من الله المثوبة والنصر والتأييد كما وعدكم إياه في كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ، وهو وعد حق ، وخبر صدق ، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك ، فأنتم أولى بالجهاد منهم ، وأشد رغبة فيه ، وفي إقامة كلمة الله وإعلائها ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي هو أعلم وأحكم فيما يقدره ويقضيه ، وينفذه ويمضيه من أحكامه الكونية والشرعية ، وهو المحمود على كل حال .

(١٠٥) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾

(١٠٦) ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

(١٠٧) ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي هو الحق من الله ، وهو يتضمن الحق في خبره وطلبه . وقوله ﴿ لتحكم بين الناس بما أراك الله ﴾ احتج من ذهب من علماء الأصول إلى أنه كان ﷺ له أن يحكم بالاجتهاد ، وبما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصم بباب حجرته فخرج إليهم فقال : « ألا إنما أنا بشر ، وإنما أقضي بنحو مما أسمع ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار ، فليحملها أو ليذرها » . وقد روى ابن مردويه عن ابن عباس أن نفراً من الأنصار غزوا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته فسرقت درع لأحدهم فأظن بها رجل من الأنصار ، فأتى صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال : إن طعمة بن أبيرق سرق درعي ، فلما رأى السارق ذلك عمد إليها فألقاها في بيت رجل بريء ، وقال لنفر من عشيرته : إني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان ، وستوجد عنده ، فانطلقوا إلى النبي ﷺ ليلاً ، فقالوا : يا نبي الله ، إن صاحبنا بريء ، وإن صاحب الدرع فلان وقد أحطنا بذلك علماً فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس وجادل عنه ، فإنه إن لم يعصمه الله بك

يهلك ، فقام رسول الله ﷺ فبرأه وعذره على رؤوس الناس فأنزل الله ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب . . . ﴾ .

(١٠٨) ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾

(١٠٩) ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

ثم قال تعالى للذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين بالكذب ﴿ يستخفون من الناس . . ﴾ يعني الذين أتوا رسول الله ﷺ مستخفين يجادلون عن الخائنين .

(١١٠) ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن كرمه وجوده أن كل من تاب إليه تاب عليه من أي ذنب كان ، وأخبر الله عباده بعفوه وحلمه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته ، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً ﴿ ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ ولو كانت ذنوبه أعظم من السموات والأرض والجبال ، قال عبدالله : كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب على بابه ، وإذا أصاب البول منه شيئاً قرضه بالمقراض ، فقال رجل : لقد آتى الله بني إسرائيل خيراً ، فقال عبدالله رضي الله عنه : ما آتاكم الله خير مما آتاهم ، جعل الماء لكم طهوراً . وقال علي بن أبي طالب : كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ شيئاً نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه ، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر ، قال : قال رسول الله ﷺ « ما من مسلم يذنب ذنباً ، ثم يتوضأ ، ثم يصلي ركعتين ، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلا غفر له » وقرأ هاتين الآيتين ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه . . . ﴾ ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾ .

(١١١) ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

وقوله تعالى ﴿ ومن يكسب إثماً . . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ يعني أنه لا يغني أحد عن أحد ، وإنما على كل نفس ما عملت ، لا يحمل عنها غيرها ، ولهذا

قال تعالى ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ أي من علمه وحكمته وعدله ورحمته كان ذلك .

(١١٢) ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

يعني اتهم بنو أبيرق بصنيعهم القبيح ذلك الرجل الصالح ، وهو لبيد بن سهل ، وقد كان بريئاً ، وهم الظلمة الخونة كما أطلع الله على ذلك رسوله ﷺ .

(١١٣) ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

﴿ لهمت طائفة منهم أن يضلوك ﴾ يعني أسيد بن عروة وأصحابه لما أثنوا على بني أبيرق ، ولاموا قتادة بن النعمان في كونه اتهمهم وهم صلحاء برآء ، ولم يكن الأمر كما أنهوه إلى رسول الله ﷺ ، ولهذا أنزل الله فصل القضية وجلاءها لرسول الله ﷺ . ثم امتن الله عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال ، وعصمته له ، وما أنزل عليه من الكتاب ، وهو القرآن ، والحكمة ، وهي السنة . ﴿ وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ أي قبل نزول ذلك عليك كقوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ﴾ ولهذا قال : ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

﴿ * لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَـٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

﴿ من نجواهم ﴾ يعني كلام الناس . ﴿ إلا من أمر . . ﴾ أي إلا نجوى من قال ذلك . دخل سعيد بن حسان على سفيان الثوري فحدثه أن رسول الله ﷺ قال : « كلام ابن آدم كله عليه ، لا له إلا ذكر الله عز وجل ، أو أمر بمعروف ، أو نهي عن منكر » فقال سفيان : أو ما سمعت الله في كتابه يقول : ﴿ لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف ، أو إصلاح بين الناس ﴾ فهو هذا بعينه ؟ أو ما سمعت الله يقول : ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ فهو هذا بعينه ، أو ما سمعت الله يقول في كتابه : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ فهو هذا بعينه . وعن أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيراً ، أو يقول خيراً » ، وقالت : لم أسمعه يرخص في شيء مما يقوله الناس إلا في ثلاث : في الحرب ، والاصلاح بين الناس ، وحديث الرجل امرأته ، وحديث المرأة زوجها ، وكانت أم كلثوم بنت عقبة من المهاجرات اللاتي بايعن رسول الله ﷺ . وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم أفضل من درجة الصائم ، والصلاة والصدقة ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال : « إصلاح ذات البين » قال : « وفساد ذات البين هي الحالقة » . وعن أنس أن النبي ﷺ قال لأبي أيوب : « ألا أدلك على تجارة ؟ » قال : بلى يا رسول الله ، قال : « وتسعى في إصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وتقارب بينهم إذا تباعدوا » ولهذا قال : ﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله ﴾ أي مخلصاً في ذلك محتسباً ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿ فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً واسعاً .

﴿١١٥﴾ ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾

أي ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول ﷺ فصار في شق والشرع في شق ، وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق ، وتبين له واتضح له . وقوله ﴿ ويتبع غير سبيل المؤمنين ﴾ هذا ملازم للصبغة الأولى ، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع ، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً ، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفاً لهم وتعظيماً لنبيهم ، والذي عول عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كونه الإجماع حجة تحرم مخالفته،هذه الآية الكريمة بعد التروي والفكر الطويل ، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها . ولهذا توعد الله على ذلك بقوله : ﴿ نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ أي إذا سلك هذه الطريق جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره ، ونزينها له استدراجاً له ، كما قال تعالى ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ وجعل النار مصيره في الآخرة لأن من خرج عن الهدى لم يكن له طريق إلا النار يوم القيامة .

﴿١١٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ

ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾

عن علي رضي الله عنه أنه قال : ما في القرآن آية أحب إليّ من هذه الآية ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به . . ﴾ وقوله ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد سلك غير الطريق الحق ، وضل عن الهدى ، وبعد عن الصواب ، وأهلك نفسه ، وخسرها في الدنيا والآخرة ، وفاتته سعادة الدنيا والآخرة .

(١١٧) ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾

﴿ إلا إناثاً ﴾ عن أبي بن كعب قال : مع كل صنم جنيّة وعن عائشة قالت : أوثاناً . وقال ابن جرير عن الضحاك في الآية : قال المشركون للملائكة : بنات الله ، وإنما نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، قال : فاتخذوهن أرباباً وصور وهن جواري فحكموا وقلدوا : وقالوا : هؤلاء يشبهن بنات الله الذي نعبده ، يعنون الملائكة . قال تعالى : ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ ، وقوله ﴿ وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ﴾ أي هو الذي أمرهم بذلك ، وحسنه وزينه لهم ، وهم إنما يعبدون إبليس في نفس الأمر ، كما قال تعالى ﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان ﴾ وقال تعالى : ﴿ بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

(١١٨) ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

﴿ لعنه الله ﴾ أي طرده وأبعده من رحمته ، وأخرجه من جواره . ﴿ وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ أي معيناً مقدراً معلوماً .

(١١٩) ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾

﴿ ولأضلنهم ﴾ أي عن الطريق . ﴿ ولأمنينهم ﴾ أي أزين لهم ترك التوبة ، وأعدهم الأماني ، وآمرهم بالتسويف والتأخير ، وأغرهم من أنفسهم . ﴿ ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ﴾ يعني تشقيقها وجعلها سمة وعلامة للبحيرة والسائبة والوصيلة . ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ قال ابن عباس : يعني بذلك خص الدواب . وقال الحسن البصري : يعني بذلك الوشم . وفي صحيح مسلم النهي عن الوشم في الوجه ، وفي لفظ « لعن الله من فعل ذلك » وفي الصحيح عن ابن مسعود أنه قال : « لعن الله الواشمات

والمستوشمات ، والنامصات والمتنمصات ، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله عز وجل ثم قال ابن مسعود : ألا ألعن من لعن رسول الله ﷺ ، وهو في كتاب الله عز وجل ؟ يعني قول الله ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال ابن عباس في رواية عنه في قوله ﴿ ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ﴾ يعني دين الله عز وجل ، وهذا كقوله ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ على قول من جعل ذلك أمراً ، أي لا تبدلوا فطرة الله ، ودعوا الناس على فطرتهم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تجدون بها من جدعاء ؟ » وفي صحيح مسلم ، قال رسول الله ﷺ : « قال الله عز وجل : « إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » ثم قال تعالى : ﴿ ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ﴾ أي فقد خسر الدنيا والآخرة ، وتلك خسارة لا جبر لها ، ولا استدراك لفائتها .

(١٢٠) ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

وهذا إخبار عن الواقع ، فإن الشيطان يعد أولياءه ويمنيهم بأنهم الفائزون في الدنيا والآخرة ، وقد كذب وافترى في ذلك ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كما قال تعالى ﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ .

(١٢١) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾

﴿ مأواهم جهنم ﴾ أي هي مصيرهم ومآلهم يوم القيامة ﴿ ولا يجدون عنها محيصاً ﴾ أي ليس لهم عنها مندوحة ولا مصرف ولا خلاص ولا مناص .

(١٢٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾

ثم ذكر تعالى حال السعداء والأتقياء وما لهم من الكرامة التامة فقال تعالى ﴿ والذين آمنوا

وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم وعملت جوارحهم بما أمروا به من الخيرات ، وتركوا ما نهوا عنه من المنكرات . ﴿ خالدين فيها أبداً ﴾ أي بلا زوال ولا انتقال . ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي هذا وعد من الله ، ووعد الله معلوم حقيقة أنه واقع لا محالة ، ولهذا أكده بالمصدر الدال على تحقيق الخبر ، وهو قوله ﴿ حقاً ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ أي لا أحد أصدق منه قولاً ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه . وكان رسول الله ﷺ يقول في خطبته : « إن أصدق الحديث كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » .

(١٢٣) ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

قال قتادة : ذكر لنا أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : نحن أولى بالله منكم ، ونبينا خاتم النبيين ، وكتابنا يقضي على الكتب التي كانت قبله فأنزل الله ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب . . ﴾ ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان . والمعنى في هذه الآية أن الدين ليس بالتحلي ولا بالتمني ، ولكن ما وقر في القلوب ، وصدقته الأعمال ، وليس كل من ادعى شيئاً حصل له دعواه ، ولا كل من قال : إنه هو على الحق سمع قوله بمجرد ذلك حتى يكون له من الله برهان ، أي ليس لكم ولا لأهل الكتاب النجاة بمجرد التمني ، بل العبرة بطاعة الله واتباع ما شرعه على ألسنة الرسل الكرام . قال أبو بكر : يا رسول الله ، ما أشد هذه الآية ﴿ من يعمل سوءاً يجزيه ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « المصائب والأمراض والأحزان في الدنيا جزاء » . ﴿ ولا يجد لهم من دون الله . . ﴾ أي إلا أن يتوب فيتوب الله عليه .

(١٢٤) ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

هذا بيان إحسانه سبحانه وكرمه ورحمته في قبول الأعمال الصالحة من عباده : ذكرانهم وإناثهم بشرط الإيمان ، وأنه سيدخلهم الجنة ، ولا يظلمهم من حسناتهم ولا مقدار النقير ، وهو النقرة التي في ظهر نواة التمرة ، والفتيل هو الخيط الذي في شق النواة ، والقطمير هو اللفافة التي على نواة التمرة .

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ ﴿١٢٥﴾

﴿أسلم وجهه لله﴾ أي أخلص العمل لربه عز وجل إيماناً واحتساباً . ﴿وهو محسن﴾ أي اتبع في عمله ما شرعه الله له ، وما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق . وهذان شرطان لا يصح عمل عامل بدونهما ، أي أن يكون خالصاً وصواباً ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون متابعاً للشريعة ، فيصبح ظاهره بالمتابعة ، وباطنه بالإخلاص ، فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد ، فمن فقد الاخلاص كان منافقاً وهم الذين يراءون الناس ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً ومتى جمعهما كان عمل المؤمنين الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ، ويتجاوزوا عن سيئاتهم . ﴿واتبع ملة إبراهيم حنيفاً﴾ وهم محمد وأتباعه يوم القيامة . والحنيف المائل عن الشرك قصداً أي تاركاً له عن بصيرة ، ومقبل على الحق بكلية ، لا يصده عنه صاد ، ولا يرده عنه راد . وقوله ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ وهذا من باب الترغيب في اتباعه ، لأنه إمام يقتدى به حيث وصل إلى غاية ما يتقرب العباد له ، فإنه انتهى إلى درجة الخلة التي هي أرفع مقامات المحبة ، وما ذاك إلا لكثرة طاعته لربه كما وصفه الله فقال : ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾ قال كثير من العلماء السلف : أي قام بجميع ما أمر به ، وفي كل مقام من مقامات العبادة ، فكان لا يشغله أمر جليل عن حقير ، ولا كبير عن صغير . وإنما سمي سيدنا إبراهيم خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل ، لما قام له به من الطاعة التي يحبها ويرضاها . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطبهم في آخر خطبة خطبها قال : « أما بعد أيها الناس ، فلو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلاً ، ولكن صاحبكم خليل الله » .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾ ﴿١٢٦﴾

أي الجميع ملكه وعبيده وخلقه ، وهو المتصرف في جميع ذلك ، لا راد لما قضى ، ولا معقب لما حكم ، ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقدرته وعدله وحكمته ولطفه ورحمته . وقوله ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي علمه نافذ في جميع ذلك ، لا تخفى عليه خافية من عباده ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، ولا تخفى عليه ذرة لما تراءى للناظرين وما توارى .

﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ (١٢٧)

والمقصود أن الرجل إذا كان في حجره يتيمة يحل له تزويجها فتارة يرغب في أن يتزوجها ، فأمره الله أن يمهرها أسوة أمثالها من النساء ، فإن لم يفعل فليعدل إلى غيرها من النساء ، فقد وسع الله عز وجل ، وتارة لا يكون له فيها رغبة لدمامتها عنده ، أو في نفس الأمر فنهاه الله عز وجل أن يعضلها عن الأزواج خشية أن يشركوه « في ماله الذي بينه وبينها » كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية تكون عنده اليتيمة فيلقي عليها ثوبه ، فإذا فعل ذلك لم يقدر أحد أن يتزوجها أبداً ، فإن كانت جميلة وهويها تزوجها وأكل مالها ، وإن كانت دميمة منعها الرجال أبداً حتى تموت ، فإذا ماتت ورثها فحرم الله ذلك ونهى عنه . وقال في قوله ﴿ والمستضعفين من الولدان ﴾ : كانوافي الجاهلية لا يورثون الصغار ولا البنات ، وذلك قوله ﴿ لا تؤتونهن ما كتب لهن ﴾ فنهى الله عن ذلك ، وبين لكل ذي سهم سهمه فقال : ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ صغيراً كان أو كبيراً . ﴿ وأن تقوموا لليتامى بالقسط ﴾ كما إذا كانت ذات جمال ومال نكحتها واستأثرت بها ، كذلك إذا لم تكن ذات مال ولا جمال فأنكحها واستأثر بها . ﴿ وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ﴾ تهييجاً على فعل الخيرات ، وامتثالاً للأوامر ، وأن الله عز وجل عالم بجميع ذلك ، وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه .

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (١٢٨)

يقول الله تعالى مخبراً ومشرعاً من حال الزوجين : تارة في حال نفور الرجل عن المرأة ، وتارة في حال اتفاق معها ، وتارة في حال فراقه لها ، فالحالة الأولى ما إذا خافت المرأة من زوجها أن ينفر عنها ، أو يعرض عنها فلها أن تسقط عنه حقها ، أو بعضه من نفقة أو كسوة أو مبيت أو غير ذلك من حقوقها عليه ، وله أن يقبل ذلك منها ، فلا حرج عليها في بذلها ذلك له ، ولا عليه في قبوله منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ ثم قال : ﴿ والصلح خير ﴾ أي من الفراق وهذه هي الحالة الثانية . وقوله ﴿ وأحضرت الأنفس الشح ﴾ أي الصلح عند المشاحة خير من الفراق ، عن ابن عباس

قال : خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، لا تطلقني واجعل يومي لعائشة ففعل ونزلت هذه الآية ﴿ وإن امرأة خافت . . . ﴾ عن عروة عن عائشة أنها قالت له : يا ابن أختي ، كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا ، وكان كل يوم إلا وهو يطوف علينا فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها فيبيت عندها . . . » ولما كان الوفاق أحب إلى الله من الفراق قال : ﴿ والصلح خير ﴾ بل الطلاق بغيض إليه سبحانه ، وفي الحديث « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » وقوله ﴿ وإن تحسنوا وتتقوا . . ﴾ أي وإن تتجشموا مشقة الصبر على ما تكرهون منهن ، وتقسموا لهن أسوة أمثالهن ، فإن الله عالم بذلك ، وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء .

(١٢٩) ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

أي لن تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه ، فإنه وإن وقع القسم الصوري ليلة وليلة فلا بد من التفاوت في المحبة والشهوة والجماع . وقد كان النبي ﷺ يحب عائشة أكثر من غيرها ، وكان يقسم بين نسائه ويعدل ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب . وقوله ﴿ فلا تميلوا كل الميل ﴾ أي فإذا ملتم إلى واحدة منهن فلا تبالغوا في الميل بالكلية ﴿ فتذروها كالمعلقة ﴾ أي فتبقى هذه الأخرى معلقة ، لا ذات زوج ولا مطلقة . وفي الحديث « من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهن جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط » . وقوله ﴿ وإن تصلحوا . . ﴾ أي وإن أصلحتم في أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله في جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان ميل إلى بعض النساء دون بعض .

(١٣٠) ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾

وهذه هي الحالة الثالثة ، وهي حالة الفراق ، وقد أخبر الله تعالى أنهما إذا تفرقا فإن الله يغنيه عنها ، ويغنيها عنه بأن يعوضه الله من هو خير له منها ، ويعوضها عنه من هو خير لها منه . ﴿ وكان الله واسعاً حكيماً ﴾ أي واسع الفضل ، عظيم المن ، حكيماً في جميع أفعاله وأقداره وشرعه .

(١٣١) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ

ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الحاكم فيهما ، ولهذا قال : ﴿ ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ﴾ أي وصيناكم بما وصيناهم به من تقوى الله عز وجل بعبادته وحده لا شريك له . ثم قال : ﴿ وإن تكفروا فإن لله ما في السموات وما في الأرض . . ﴾ كما قال تعالى إخباراً عن موسى أنه قال لقومه ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وقال ﴿ فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ﴾ أي غني عن عباده ، محمود في جميع ما يقدره ويشرعه .

(١٣٢) ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

أي هو قائم على كل نفس بما كسبت ، الرقيب الشهيد على كل شيء .

(١٣٣) ﴿ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴾

أي هو قادر على إذهابكم وتبديلكم بغيركم إذا عصيتموه كما قال ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ قال بعض السلف : ما أهون العباد على الله إذا أضاعوا أمره ، وقال تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي وما هو عليه بممتنع .

(١٣٤) ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾

أي يا من ليس له همة إلا الدنيا اعلم أن عند الله ثواب الدنيا ، وإذا سألته من هذه وهذه أعطاك وأغناك وأقناك ، كما قال تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق . ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب ﴾ , فقوله تعالى ﴿ فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ﴾ ظاهر في حصول الخير في الدنيا والآخرة أي بيده هذا وهذا ، فلا يقتصر قاصد الحق على السعي للدنيا فقط ، بل لتكن همته سامية إلى نيل المطالب العالية في الدنيا والآخرة ، فإن مرجع ذلك كله إلى الذي بيده الضر والنفع ، وهو الله الذي لا إله إلا هو الذي قد قسم السعادة والشقاوة بين الناس في الدنيا والآخرة ، وعدل بينهم فيما علمه ممن يستحق هذا ، وممن يستحق هذا ، ولهذا قال : ﴿ وكان الله سميعاً بصيراً ﴾ .

﴿١٣٥﴾ ﴿ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۚ وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل ، فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً ، ولا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا يصرفهم عنه صارف ، وأن يكونوا متعاونين متساعدين متعاضدين متناصرين فيه . وقوله ﴿ شهداء لله ﴾ كما قال ﴿ وأقيموا الشهادة لله ﴾ أي أدوها ابتغاء وجه الله فحينئذٍ تكون صحيحة عادلة حقاً ، خالية من التحريف والتبديل والكتمان ، ولهذا قال ﴿ ولو على أنفسكم ﴾ أي اشهد الحق ، ولو عاد ضررها عليك ، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه ولو عادت مضرته عليك ، فإن الله سيجعل لمن أطاعه فرجاً ومخرجاً من كل أمر يضيق عليه . وقوله ﴿ أو الوالدين والأقربين ﴾ أي وإن كانت الشهادة على والديك وقرابتك ، فلا تراعهم فيها ، بل اشهد بالحق ، وإن عاد ضررها عليهم ، فإن الحق حاكم على كل أحد . وقوله ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولىٰ بهما ﴾ أي لا ترعاه لغناه ، ولا تشفق عليه لفقره ، فالله يتولاهما بل هو أولى بهما منك ، وأعلم بما فيه صلاحهما . وقوله ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ أي فلا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم ، بل الزموا العدل على أي حال كان ، كما قال تعالى ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ ومن هذا قول عبدالله بن رواحة لما بعثه النبي ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزروعهم ، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال : والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ ، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه ، وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض . وقوله ﴿ وإن تلووا أو تعرضوا ﴾ أي تحرفوا الشهادة وتغيروها ، واللّيّ هو التحريف وتعمد الكذب . والاعراض هو كتمان الشهادة وتركها ، قال تعالى ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ وقال النبي ﷺ : « خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسئلها » ولهذا توعدهم الله بقوله ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي وسيجازيكم بذلك .

﴿١٣٦﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ

ضَلَٰلًا بَعِيدًا ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالدخول في جميع شرائع الإيمان وشعبه وأركانه ودعائمه ، وليس هذا من باب تحصيل الحاصل ، بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه ، كما يقول المؤمن في كل صلاة ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ أي بصرنا فيه ، وزدنا هدى وتثبيتاً عليه ، فأمرهم بالإيمان وبرسوله ، كما قال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ﴾ وقوله ﴿ والكتاب الذي نزل على رسوله ﴾ وهذا جنس يشمل جميع الكتب المتقدمة ، وقال في القرآن ﴿ نزَّل ﴾ لأنه نزل مفرقاً منجماً على الوقائع بحسب ما يحتاج إليه العباد في معاشهم ومعادهم ، وأما الكتب المتقدمة فكانت تنزل جملة واحدة ، ولهذا قال تعالى ﴿ والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴾ أي فقد خرج عن طريق الهدى ، وبعد عن القصد كل البعد .

﴿١٣٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عمن دخل في الإيمان ثم رجع عنه ثم عاد فيه ثم رجع واستمر على ضلاله ، وازداد حتى مات ، فإنه لا توبة بعد موته ، ولا يغفر الله له ، ولا يجعل له مما هو فيه فرجاً ولا مخرجاً ، ولا طريقاً إلى الهدى ، ولهذا قال : ﴿ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً ﴾ .

﴿١٣٨﴾ ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يعني أن المنافقين من هذه الصفة ، فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم .

﴿١٣٩﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

ثم وصف المنافقين بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، بمعنى أنهم معهم في الحقيقة ، يوالونهم ، ويسرون إليهم بالمودة ، ويقولون لهم إذا خلوا بهم إنما نحن معكم إنما نحن مستهزؤون أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة ، قال تعالى منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله ، والاقبال على عبوديته ،

والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال : « من انتسب إلى تسعة آباء كفار يريد بهم عزاً وفخراً فهو عاشرهم في النار » .

(١٤٠) ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

أي إنكم إذا ارتكبتم النهي بعد وصوله إليكم ورضيتم بالجلوس معهم في المكان الذي يكفر فيه بآيات الله ويستهزأ وينتقص بها وأقررتموهم على ذلك فقد شاركتموهم في الذي هم فيه ، فلهذا قال تعالى : ﴿ إنكم إذاً مثلهم ﴾ أي في المأثم ، كما جاء في الحديث « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يدار عليها الخمر » وقوله ﴿ إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً ﴾ أي كما أشركوهم في الكفر كذلك يشارك الله بينهم في الخلود في نار جهنم أبداً ، ويجمع بينهم في دار العقوبة والنكال والقيود والأغلال وشراب الحميم والغسلين ، لا الزلال .

(١٤١) ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين أنهم يتربصون بالمؤمنين دوائر السوء ، بمعنى ينتظرون زوال دولتهم ، وظهور الكفرة عليهم ، وذهاب ملتهم ﴿ فإن كان لكم فتح من الله ﴾ أي نصر وتأييد وظفر وغنيمة ﴿ قالوا ألم نكن معكم ﴾ أي يتوددون إلى المؤمنين بهذه المقالة ﴿ وإن كان للكافرين نصيب ﴾ أي إدالة على المؤمنين في بعض الأحيان ، كما وقع يوم أحد ، فإن الرسل تبتلى ثم يكون لها العاقبة ﴿ قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ أي ساعدناكم في الباطن ، وما ألوناهم خبالاً ولا تخذيلاً حتى انتصرتم عليهم ، قال السدي : ﴿ نستحوذ عليكم ﴾ نغلب عليكم ، كقوله ﴿ استحوذ عليهم الشيطان ﴾ وهذا أيضاً تودد منهم إليهم ، فإنهم كانوا يصانعون هؤلاء وهؤلاء ، ليحظوا عندهم ويأمنوا كيدهم ، وما ذاك إلا لضعف إيمانهم وقلة إيقانهم . قال تعالى ﴿ فالله

يحكم بينكم يوم القيامة ﴾ أي بعلمه منكم أيها المنافقون من البواطن الرديئة ، فلا تغتروا بجريان الأحكام الشرعية عليكم ظاهراً في الحياة الدنيا ، لما له في ذلك من الحكمة فيوم القيامة لا تنفعكم ظواهركم ، بل هو يوم تبتلى فيه السرائر ، ويحصل ما في الصدور . وقوله ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ جاء رجل إلى علي بن أبي طالب فقال : كيف هذه الآية ؟ ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ فقال علي رضي الله عنه : ادنه ادنه ، فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً . وقال السدي : ﴿ سبيلاً ﴾ أي حجة . ويحتمل أن يكون المعنى : ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً أي في الدنيا بأن يسلطوا عليهم استيلاء استئصال بالكلية ، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وعلى هذا يكون رداً على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين ، وفيما سلكوه من مصانعتهم الكافرين خوفاً على أنفسهم منهم إذا هم ظهروا على الإيمان فاستأصلوهم : وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية الكريمة على أصح قولي العلماء ، وهو المنع من بيع العبد المسلم للكافر ، لما في صحة ابتياعه من التسليط له عليه والاذلال ، ومن قال منهم بالصحة يأمره بإزالة ملكه عنه في المال .

(١٤٢) ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

لا شك أن الله لا يخادع فإنه العالم بالسرائر والضمائر ، ولكن المنافقين لجهلهم وقلة علمهم وعقلهم يعتقدون أن أمرهم كما راج عند الناس وجرت عليهم أحكام الشريعة ظاهراً ، فكذلك حكمهم عند الله يوم القيامة ، وأن أمرهم يروج عنده ، كما أخبر تعالى عنهم أنهم يوم القيامة يحلفون أنهم كانوا على الاستقامة والسداد ويعتقدون أن ذلك نافع لهم كما قال تعالى ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ﴾ وقوله ﴿ وهو خادعهم ﴾ أي هو الذي يستدرجهم في طغيانهم وضلالهم ويخذلهم عن الحق ، والوصول إليه في الدنيا وكذلك يوم القيامة . وقوله ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ﴾ هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها ، وهي الصلاة ، إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها ، لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية ولا يعقلون معناها . عن ابن عباس قال : يكره أن يقوم الرجل إلى الصلاة

وهو كسلان ، ولكن يقوم إليها طلق الوجه ، عظيم الرغبة ، شديد الفرح ، فإنه يناجي الله ، وإن الله تجاهه يغفر له ويجيبه إذا دعاه ، ثم يتلو هذه الآية ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة . . ﴾ وقوله ﴿ يراؤ ون الناس ﴾ أي لا إخلاص لهم ، ولا معاملة مع الله ، بل إنما يشهدون الناس تقية لهم ومصانعة ، ولهذا يتخلفون كثيراً عن الصلاة التي لا يُرون فيها غالباً كصلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً . وفي الحديث « من أحسن الصلاة حيث يراه الناس ، وأساءها حيث يخلو فتلك استهانة استهان بها ربه عز وجل » . وقوله ﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ أي في صلاتهم لا يخشعون، ولا يدرون ما يقولون ، بل هم في صلاتهم ساهون لاهون ، وعما يراد بهم من الخير معرضون .

(١٤٣) ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

يعني المنافقين محيرين بين الإيمان والكفر ، فلا هم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً ، ولا مع الكافرين ظاهراً وباطناً ، بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين ، ومنهم من يعتريه الشك فتارة يميل إلى هؤلاء ، وتارة يميل إلى أولئك . في الحديث « مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الغنمين ، إن أتت هؤلاء نطحتها ، وإن أتت هؤلاء نطحتها » .

(١٤٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

ينهى الله عباده المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، يعني مصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة إليهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم . ﴿ سلطاناً مبيناً ﴾ أي حجة عليكم في عقوبته إياكم .

(١٤٥) ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾

الدرك الأسفل : بيوت لها أبواب تطبق عليهم فتوقد من تحتهم ومن فوقهم . ﴿ ولن تجد لهم نصيراً ﴾ أي ينقذهم مما هم فيه ، ويخرجهم من أليم العذاب .

(١٤٦) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

ثم أخبر تعالى أن من تاب منهم في الدنيا تاب الله عليه ، وقبل ندمه إذا أخلص في

توبته ، وأصلح عمله ، واعتصم بربه في جميع أمره ، فقال تعالى : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا . . . ﴾ أي بدلوا الرياء بالإخلاص فينفعهم العمل الصالح وإن قل ، وفي الحديث « اخلص دينك يكفك القليل من العمل » . ﴿ فأولئك مع المؤمنين ﴾ أي في زمرتهم يوم القيامة . ﴿ وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً ﴾ .

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ ﴿١٤٧﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن غناه عما سواه ، وأنه إنما يعذب العباد بذنوبهم فقال : ﴿ ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ﴾ أي أصلحتم العمل وآمنتم بالله ورسوله . ﴿ وكان الله شاكراً عليماً ﴾ أي من شكر شكر له ، ومن آمن من قلبه به علمه وجازاه على ذلك أوفر الجزاء .

﴿ ۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ ﴿١٤٨﴾

عن ابن عباس في الآية يقول : لا يحب الله أن يدعو أحد على أحد إلا أن يكون مظلوماً ، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله: ﴿إلا من ظلم﴾ وإن صبر فهو خير له ، وقال الحسن البصري : لا يدع عليه ، وليقل اللهم أعني عليه ، واستخرج حقي منه ، قال مجاهد : هو الرجل ينزل بالرجل فلا يحسن ضيافته فيخرج فيقول : أساء ضيافتي ولم يحسن . وعن عقبة بن عامر قال : قلنا : يا رسول الله ، إنك تبعثنا فننزل بقوم فلا يقرونا فما ترى في ذلك ؟ فقال : « إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم بما يبتغى للضيف فاقبلوا منهم ، وإن لم تقبلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغي لهم » وفي الحديث « أيما مسلم ضاف قوماً فأصبح الضيف محروماً ، فإن حقاً على كل مسلم نصره حتى يأخذ بقرى ليلته من زرعه وماله » وعن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : « إن لي جاراً يؤذيني فقال له : « أخرج متاعك فضعه على الطريق » فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق ، فكل من مر به قال : مالك ؟ قال : جاري يؤذيني ، فيقول : اللهم اللعنة ، اللهم اخزه ، قال : فقال الرجل : ارجع إلى منزلك ، والله لا أوذيك أبداً .

﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ ﴿١٤٩﴾

أي إن تظهروا أيها الناس خيراً ، أو أخفيتموه ، أو عفوتم عمن أساء إليكم فإن ذلك مما يقربكم عند الله ، ويجزل ثوابكم لديه ، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته على عقابهم ، ولهذا قال : ﴿ فإن الله كان عفواً قديراً ﴾ ولهذا ورد في الأثر أن حملة

العرش يسبحون الله ، فيقول بعضهم : سبحانك على حلمك بعد علمك ، ويقول بعضهم : سبحانك على عفوك بعد قدرتك . وفي الحديث « ما نقص مال من صدقة ، ولا زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، ومن تواضع لله رفعه » .

﴿١٥٠﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

يتوعد تبارك وتعالى الكافرين به وبرسله من اليهود والنصارى حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض بمجرد التشهي والعادة ، وما ألفوا عليه آباءهم ، لا عن دليل قادهم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك ، بل بمجرد الهوى والعصبية ، فاليهود عليهم لعائن الله آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، والنصارى آمنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ ، والسامرة لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران ، والمجوس يقال : إنهم كانوا يؤمنون بنبي لهم يقال له : « زرادشت » ثم كفروا بشرعه فرفع من بين أظهرهم والله أعلم . والمقصود أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء ، فإن الإيمان واجب لكل نبي بعثه الله إلى أهل الأرض ، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي تبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً ، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ﴾ فوسمهم بأنهم كفار بالله ورسله ﴿ ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ﴾ أي في الإيمان ﴿ ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلكاً .

﴿١٥١﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

ثم أخبر تعالى عنهم فقال ﴿ أولئك هم الكافرون حقاً ﴾ أي كفرهم محقق لا محالة بمن ادعوا الإيمان به ، لأنه ليس شرعياً ، إذ لو كانوا مؤمنين به لكونه رسول الله لآمنوا بنظيره ، وبمن هو أوضح دليلاً ؛ وأقوى برهاناً منه ، أو نظروا حق النظر في نبوته . وقوله ﴿ وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ أي كما استهانوا بمن كفروا به ، إما لعدم نظرهم فيما جاءهم به من الله وإعراضهم عنه وإقبالهم على جمع حطام الدنيا مما لا ضرورة بهم إليه ، وإما بكفرهم به بعد نبوته كما كان يفعله كثير من أحبار اليهود في زمان الرسول ﷺ حيث حسدوه على ما آتاه الله من النبوة وخالفوه وكذبوه فسلط الله عليهم الذل الدنيوي الموصول بالذل الأخروي .

(١٥٢) ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يعني بذلك أمة محمد ﷺ ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله ، وبكل نبي بعثه الله ، ثم أخبر تعالى بأنه قد أعد لهم الجزاء الجزيل والثواب الجليل ، والعطاء الجميل ، فقال : ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ على ما آمنوا بالله ورسله . ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي لذنوبهم ، أي إن كان لبعضهم ذنوب .

(١٥٣) ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ السَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ الْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

سأل اليهود رسول الله ﷺ ، أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، وهذا إنما قالوه على سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد كما سأل كفار قريش قبلهم نظير ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك قالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ أي بطغيانهم وبغيهم وعتوهم وعنادهم . وقوله ﴿ ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات ﴾ أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة ، والأدلة القاهرة على يد موسى في بلاد مصر وما كان من إهلاك عدوهم فرعون ، وجميع جنوده في اليم ، فما جاوزوه إلا يسيراً حتى أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم فقالوا لموسى ﴿ اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة ﴾ واتخذوا العجل فجعل الله توبتهم أن يقتل من لم يعبد العجل منهم متعبده فجعل يقتل بعضهم بعضاً ، ثم أحياهم الله عز وجل ، وقال تعالى ﴿ فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ﴾ .

(١٥٤) ﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ وذلك حين امتنعوا من الالتزام بأحكام التوراة ، وظهر منهم إباء عما جاءهم به موسى عليه السلام فرفع الله على رؤوسهم جبلاً ، ثم الزموا فالتزموا وسجدوا ينظرون إلى فوق رؤوسهم خشية أن يسقط عليهم كما قال تعالى ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ ﴿وقلنا لهم ادخلوا

الباب سجداً ﴾ أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل فإنهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجداً ، وهم يقولون حطة ، أي اللهم حط عنا ذنوبنا في تركنا الجهاد ، ونكولنا عنه حتى تهنا في التيه أربعين سنة ، فدخلوا يزحفون على أستاهم ، وهم يقولون : حنطة في شعرة ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ﴾ أي وصيناهم بحفظ السبت ، والتزام ما حرم الله عليهم ما دام مشروعا لهم ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ أي شديداً فخالفوا وعصوا وتحيلوا على ارتكاب ما حرم الله عز وجل .

(١٥٥) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وهذا من الذنوب التي ارتكبوها مما أوجب لعنتهم وطردهم وإبعادهم عن الهدى ، وهو نقضهم المواثيق والعهود التي أخذت عليهم ، وكفرهم بآيات الله ، أي بحججه وبراهينه ، والمعجزات التي شاهدوها على يد الأنبياء عليهم السلام . وقوله ﴿ وقتلهم الأنبياء بغير حق ﴾ وذلك لكثرة إجرامهم ، واجترائهم على أنبياء الله ، فإنهم قتلوا جماً غفيراً من الأنبياء عليهم السلام . ﴿ وقولهم قلوبنا غلف ﴾ ، أي في غطاء ، وهذا كقول المشركين ﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ﴾ وقيل : معناه أنهم ادعوا أن قلوبهم غلف للعلم ، أي أوعيه للعلم قد حوته وحصلته ، قال تعالى ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم ﴾ فعلى القول الأول كانوا يعتذرون إليه بأن قلوبهم لا تعي لأنها في غلف وفي أكنة ، قال تعالى : بل هي مطبوع عليها بكفرهم ، وعلى القول الثاني عكس عليهم ما ادعوه من كل وجه ﴿ فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ أي تمرنت قلوبهم على الكفر والطغيان وقلة الإيمان .

(١٥٦) ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾

﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ فقد رموها وابنها بالعظائم فجعلوها زانية وقد حملت بولدها من ذلك ، زاد بعضهم وهي حائض ، فعليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾

﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ أي هذا الذي يدعي لنفسه هذا

المنصب قتلناه ، وهذا فهم من باب التهكم والاستهزاء كقول المشركين ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ وكان من خبر اليهود عليهم لعائن الله وسخطه وغضبه وعقابه أنه لما بعث الله عيسى ابن مريم بالبينات والهدى حسدوه على ما آتاه الله تعالى من النبوة والمعجزات الباهرات من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، ومع كل هذه المعجزات كذبوه وآذوه بكل ما أمكنهم ، حتى كان عيسى ابن مريم لا يساكنهم في بلدة ، بل يكثر السياحة هو وأمه ، ثم لم يقنعهم ذلك حتى سعوا إلى ملك دمشق في ذلك الزمن ، وكان رجلاً مشركاً من عبدة الكواكب بأن في بيت المقدس رجلاً يفتن الناس ويفسد على الملك رعاياه فغضب الملك من هذا وكتب إلى نائبه أن يقبض على هذا المذكور وأن يصلبه ويضع الشوك على رأسه ، وذهب نائب الملك بالمقدس هو وطائفة من اليهود إلى المنزل الذي فيه عيسى ابن مريم ، وهو في جماعة من أصحابه فحضروه هناك ، فلما أحس بهم ، وأنه لا محالة من دخولهم عليه ، أو خروجه إليهم قال لأصحابه : أيكم يلقى عليه شبهي وهو رفيقي في الجنة فانتدب لذلك شاب منهم ، فكأنه استصغره عن ذلك فأعادها ثانية وثالثة ، وكل ذلك لا ينتدب إلا ذلك الشاب ، فقال : أنت هو ، وألقى الله عليه شبه عيسى حتى كأنه هو ، وفتحت روزنة من سقف البيت وأخذت عيسى سنة من النوم فرفع إلى السماء وهو كذلك ، كما قال تعالى : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك . . . ﴾ فلما رفع خرج أولئك النفر ، فلما رأى أولئك ذلك الشاب ظنوا أنه عيسى فأخذوه في الليل وصلبوه ، ووضعوا الشوك على رأسه وأظهر اليهود أنهم سعوا في صلبه ، وتبجحوا في ذلك ، وسلم لهم طوائف من النصارى ذلك لجهلهم وقلة عقلهم ، ما عدا من كان في البيت مع المسيح فإنهم شاهدوا رفعه ، وأما الباقون فإنهم ظنوا كما ظن اليهود أن المصلوب هو عيسى ابن مريم حتى ذكروا أن مريم جلست تحت ذلك المصلوب وبكت ، وقال : إنه خاطبها . والله أعلم . وهذا كله من امتحان الله عباده لما له في ذلك من الحكمة البالغة . وقد أوضح الله الأمر وأظهره في القرآن العظيم فقال تعالى ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ﴾ أي رأوا شبهه فظنوه إياه ، فمن ادعى أنه قتله من اليهود ، ومن سلم هذه الدعوى من جهال النصارى كلهم في شك من ذلك وحيرة وضلال وسعر﴿ وما قتلوه يقيناً ﴾ أي وما قتلوه متيقنين أنه هو ، بل شاكين متوهمين .

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴾

﴿ وكان الله عزيزاً ﴾ أي منيع الجناب ، لا يرام جنابه ، ولا يضام من لاذ ببابه .

﴿ حكيماً ﴾ أي في جميع ما يقدره ويقضيه من الأمور التي يخلقها ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة والسلطان العظيم ، والأمر القديم .

(١٥٩) ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

قال بعضهم : معنى ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ يعني قبل موت عيسى ، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال فتصير الملل كلها واحدة ، وهي ملة الاسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . وقال آخرون : معنى ذلك ، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي ، والقول الأول أولى بالصحة لأنه المقصود من سياق الآي ، فعيسى باقٍ حي وسينزل قبل قوم القيامة ، وسيؤمن به أهل الكتاب قبل موته . وفي الحديث « يوشك أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً ، يقتل الدجال ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ويفيض المال ، وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين » ، قال أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿وإن من أهل الكتاب إلا . . ﴾ رواه مسلم . وروى البخاري قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت موسى وعيسى وإبراهيم ، فعيسى فأحمر جعد عريض الصدر ، وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط » .

(١٦٠) ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرم عليهم طيبات كان أحلها لهم . وجميع الأطعمة كانت حلالاً لهم من قبل أن تنزل التوراة ما عدا ما كان حرم إسرائيل على نفسه من لحوم الإبل وألبانها ، ثم إنه تعالى حرم أشياء كثيرة في التوراة ، كما قال تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون » وقوله : « وبصدهم عن سبيل الله . . ﴾ أي صدوا الناس وصدوا أنفسهم عن اتباع الحق ، وهذه سجية لهم متفقون بها من قديم الدهر وحديثه ، ولهذا كانوا أعداء الرسل ، وقتلوا خلقاً كثيراً من الأنبياء ، وكذبوا عيسى عليه الصلاة والسلام .

(١٦١) ﴿ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

أي الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه واحتالوا عليه بأنواع من الحيل ، وأكلوا أموال الناس بالباطل .

﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾ ﴿١٦٢﴾

أي الثابتون في الدين لهم قدم راسخة في العلم النافع . ﴿ والمؤمنون يؤمنون . . ﴾ أنزلت في عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعيد وأسد بن سعيد وأسد بن عبيد الذين دخلوا في الإسلام . ﴿ والمؤتون الزكاة ﴾ زكاة الأموال ، أو زكاة التقوى ، أو الأمرين معاً . ﴿ والمؤمنون بالله . . ﴾ أي يصدقون بأنه لا إله إلا الله ، ويؤمنون بالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها. ﴿ أجراً عظيماً ﴾ يعني الجنة .

﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾ ﴿١٦٣﴾

قال جماعة من اليهود : يا محمد ، ما نعلم أن الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله هذه الآية . والزبور اسم الكتاب الذي أوحاه الله إلى داود عليه السلام .

﴿ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ ﴿١٦٤﴾

وهذه تسمية الأنبياء الذين نص الله على أسمائهم في القرآن ، وهم آدم وإدريس ونوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، ولوط ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهرون ، ويونس ، وداود ، وسليمان ، وإلياس ، واليسع ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكذا ذا الكفل عند كثير من المفسرين ، وسيدهم محمد ﷺ ، وقوله ﴿ ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ أي خلقاً آخرين لم يذكروا في القرآن ، وقد اختلف في عدة الأنبياء والمرسلين ، والمشهور في ذلك حديث أبي ذر الطويل ، وذلك فيما رواه ابن مردويه رحمه الله في تفسيره عن أبي ذر قال : قلت : يا رسول الله كم الأنبياء ؟ قال : مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً » قلت : كم الرسل منهم ؟ قال : « ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير » قلت : يا رسول الله ، من كان أولهم ؟ قال : « آدم » قلت : يا رسول الله ، نبي مرسل ؟ قال : « نعم خلقه الله بيده ، ثم نفخ فيه من روحه ، ثم سواه قبلاً » . . . وقوله ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ وهذا تشريف لموسى عليه السلام بهذه الصفة ، ولهذا يقال له : الكليم . جاء رجل إلى أبي بكر بن عياش فقال : سمعت رجلاً

يقرأ ﴿ وكلم اللّهَ موسى تكليماً ﴾ ينصب لفظ الجلالة ، فقال أبو بكر : ما قرأ هذا إلا كافر ، وإنما اشتد غضب أبي بكر بن عياش رحمه الله على من قرأ كذلك لأنه حرَّف لفظ القرآن ومعناه ، وكان هذا من المعتزلة الذين ينكرون أن يكون الله كلم موسى عليه السلام ، أو يكلم أحداً من خلقه ، كما رويناه عن بعض المعتزلة أنه قرأ على بعض المشايخ ﴿ وكلم اللّهَ موسى تكليماً ﴾ فقال له : يا ابن اللخنا ، كيف تصنع بقوله تعالىٰ : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾ .

﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

أي يبشرون من أطاع الله ، واتبع رضوانه بالخيرات ، وينذرون من خالف أمره ، وكذب رسله بالعقاب والعذاب . وقوله ﴿ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . . ﴾ أي أنه تعالى أنزل كتبه ، وأرسل رسله بالبشارة والنذارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه ، لئلا يبقى للمعتذر عذر كما قال تعالى : ﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين » وفي لفظ آخر « من أجل ذلك أرسل رسله ، وأنزل كتبه » .

(١٦٦) ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

لما تضمن قوله تعالى ﴿ إنا أوحينا إليك . . ﴾ إثبات نبوته ﷺ ، والرد على من أنكر نبوته من المشركين وأهل الكتاب قال الله تعالى ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك ﴾ أي وإن كفر به من كفر به ممن كذبك وخالفك ، فالله يشهد لك بأنك رسوله الذي أنزل عليه الكتاب ، وهو القرآن العظيم الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ ولهذا قال : ﴿ أنزله بعلمه ﴾ أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان ، وما يحبه الله ويرضاه ، وما يكره ويأباه ، وما فيه من العلم بالغيوب من الماضي والمستقبل ، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدمة التي لا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب إلا أن يعلمه الله به كما قال تعالى ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ عن عطاء بن السائب قال : أقرأني أبو عبدالرحمن السلمي القرآن ، وكان إذا قرأ عليه أحدنا القرآن قال : أخذت علم الله ، فليس أحد اليوم أفضل منك إلا

بعمل ، ثم يقرأ قوله ﴿ أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً ﴾ دخل على رسول الله ﷺ جماعة من اليهود فقال لهم : « إني لأعلم ، والله إنكم لتعلمون أني رسول الله » فقالوا : ما نعلم ذلك ، فأنزل الله ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك . . . ﴾ .

(١٦٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾

أي كفروا في أنفسهم فلم يتبعوا الحق ، وسعوا في صد الناس عن اتباعه ، والاقتداء به فهؤلاء خرجوا عن الحق ، وضلوا عنه ، وبعدوا منه بعداً عظيماً شديداً .

(١٦٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾

ثم أخبر تعالى عن حكمه في الكافرين بآياته وكتابه ورسوله ، الظالمين لأنفسهم بذلك ، وبالصد عن سبيله ، وارتكاب مآثمه ، وانتهاك محارمه بأنه لا يغفر لهم ﴿ ولا يهديهم طريقاً ﴾ أي سبيلاً إلى الخير .

(١٦٩) ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ إلا طريق جهنم ﴾ وهذا استثناء منقطع .

(١٧٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

أي قد جاءكم محمد صلوات الله وسلامه عليه بالهدى ودين الحق ، والبيان الشافي من الله عز وجل ، فآمنوا بما جاءكم به ، واتبعوه يكن خيراً لكم ثم قال ﴿ وإن تكفروا فإن لله . . ﴾ أي فهو غني عنكم وعن إيمانكم ، ولا يتضرر بكفرانكم ، كما قال تعالى ﴿ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وقوله ﴿ وكان الله عليماً ﴾ أي بمن يستحق منكم الهداية فيهديه ، وبمن يستحق الغواية فيغويه ﴿ حكيماً ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(١٧١) ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

فِي ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والاطراء ، وهذا كثير في النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلٰهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدون الله ، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه من زعم أنه على دينه فادعوا فيهم العصمة ، واتبعوهم في كل ما قالوه سواء كان حقاً أو باطلاً ، أو ضلالاً أو رشاداً ، أو صحيحاً أو كذباً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ وفي الحديث « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله » وقوله ﴿ ولا تقولوا على الله إلا الحق ﴾ أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً ، تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً ، وتنزه وتقدس ، وتوحد في سؤدده وكبريائه وعظمته ، فلا إلٰه إلا هو ، ولا رب سواه ، ولهذا قال ﴿ إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ﴾ أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل ، فكان عيسى بإذنه عز وجل ، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب للأم ، والجميع مخلوق لله عز وجل ، ولهذا قيل لعيسى : إنه كلمة الله وروح منه ، لأنه لم يكن له أب تولَّد منه ، وإنما هو ناشىء عن الكلمة التي قال له بها : كن فكان . والروح التي أرسل بها جبريل ، فكان عيسى بالكلمة ، قال مجاهد : ﴿ وروح منه ﴾ أي ورسول منه ، وقال غيره : ومحبة منه ، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة ، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف ، كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله ﴿ هذه ناقة الله ﴾ وفي قوله ﴿ وطهر بيتي للطائفين ﴾ وكما روي في الحديث الصحيح « فأدخل على ربي في داره » أضافها إليه إضافة تشريف ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد . ﴿ فآمنوا بالله ورسله ﴾ أي فصدقوا بأن الله واحد أحد ، لا ولد له ، ولا صاحبة واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولا تقولوا ثلاثة ﴾ أي لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وقوله ﴿ انتهوا خيراً لكم ﴾ أي يكن خيراً لكم ﴿ له ما في السموات وما في الأرض . . ﴾ أي الجميع ملكه وخلقه وجميع ما فيهما عبيده ، وهم تحت تدبيره وتصريفه ، وهو وكيل على كل شيء ، فكيف يكون له منهم صاحبة ، وولد ؟ قال تعالى : ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ﴾ .

﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ

وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾

﴿ لن يستنكف ﴾ لن يستكبر ، ﴿ ومن يستنكف عن عبادته . . ﴾ أي فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكم العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف .

(١٧٣) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

أي فيعطيهم من الثواب على قدر أعمالهم الصالحة ، ويزيدهم على ذلك من فضله وإحسانه وسعة رحمته وامتنانه . وقوله ﴿ وأما الذين استنكفوا واستكبروا ﴾ أي امتنعوا من طاعة الله وعبادته واستكبروا عن ذلك ﴿ فيعذبهم عذاباً أليماً . . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين ذليلين ، كما كانوا ممتنعين مستكبرين .

(١٧٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾

يقول تعالى مخاطباً جميع الناس ومخبراً بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم ، وهو الدليل القاطع للعذر ، والحجة المزيلة للشبهة ، ولهذا قال : ﴿ وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ أي ضياء واضحاً على الحق ، وهو القرآن .

(١٧٥) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

أي جمعوا بين مقامي العبادة والتوكل على الله في جميع أمورهم ، أو اعتصموا بالقرآن . ﴿ فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ﴾ أي يرحمهم فيدخلهم الجنة ، ويزيدهم ثواباً ومضاعفة ورفعاً في درجاتهم من فضله عليهم وإحسانه إليهم . ﴿ ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً ﴾ أي طريقاً واضحاً ، قصداً قواماً ، لا اعوجاج فيه ، ولا انحراف ، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة ، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة ، وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات ، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات ، وفي الحديث « القرآن صراط الله المستقيم ، وحبل الله المتين » .

(١٧٦) ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا

تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

﴿ يستفتونك في الكلالة ﴾ أي عن الكلالة . والكلالة مأخوذة من الاكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، ولهذا فسرها أكثر العلماء بمن يموت وليس له ولد ولا والد ، ومن الناس من يقول : الكلالة : من لا ولد له كما دلت عليه هذه الآية ﴿ إن امرؤ هلك ليس له ولد ﴾ وقد أشكل حكم الكلالة على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت في الصحيحين أنه قال : ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ كان عهد إلينا فيهن عهداً ننتهي إليه : الجد ، والكلالة ، وباب من أبواب الربا . ﴿ إن امرؤ هلك ﴾ أي مات ، قال تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقوله ﴿ ليس له ولد ﴾ تمسك به من ذهب إلى أنه ليس من شرط الكلالة انتفاء الوالد ، بل يكفي في وجود الكلالة انتفاء الولد ، ولكنه الذي يرجع إليه هو قول الجمهور وقضاء الصديق أنه الذي لا ولد له ولا والد . ويدل على ذلك قوله ﴿ وله أخت فلها نصف ما ترك ﴾ ولو كان معها أب لم ترث شيئاً ، لأنه يحجبها بالإجماع فدل على أنه من لا ولد له بنص القرآن ، ولا والد له بالنص عند التأمل أيضاً ، لأن الأخت لا يفرض لها النصف مع الوالد ، بل ليس لها ميراث بالكلية . وقوله ﴿ وهو يرثها إن لم يكن لها ولد ﴾ أي والأخ يرث جميع مالها إذا ماتت كلالة ، وليس لها ولد أي ولا والد ، لأنه لو كان لها والد لم يرث الأخ شيئاً ، فإن فرض أن معه من له فرض صرف إليه فرضه ، كزوج ، أو أخ من أم وصرف الباقي إلى الأخ ، لما ثبت في الصحيحين « الحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فالأولى رجل ذكر » وقوله ﴿ فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك ﴾ أي فإن كان لمن يموت كلالة أختان فرض لهما الثلثان ، وكذا ما زاد على الأختين في حكمهما ، ومن هنا أخذ الجماعة حكم البنتين ، كما استفيد حكم الأخوات من البنات في قوله ﴿ فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ﴾ وقوله ﴿ وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء . . ﴾ هذا حكم الصبيان من البنين وبني البنين والأخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطي الذكر مثل حظ الأنثيين . وقوله ﴿ يبين الله لكم ﴾ أي يفرض لكم فرائضه ويحد لكم حدوده ويوضح لكم شرائعه . وقوله ﴿ أن تضلوا ﴾ أي لئلا تضلوا عن الحق بعد البيان ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ أي هو عالم بعواقب الأمور ومصالحها وما فيها من الخير لعباده وما يستحقه كل واحد من القرابات بحسب قربه من المتوفى .



تفسير سُورَةِ المَائِدَةِ



روى الامام احمد عن أسماء بنت يزيد قالت : إني لآخذة بزمام العضباء : ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها ، وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة . وعن جبير بن نغير قال : حججت فدخلت على عائشة ، فقالت لي : يا جبير ، تقرأ المائدة ؟ فقلت : نعم ، فقالت : أما إنها آخر سورة نزلت ، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه ، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه ، قال الحاكم : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

أتى رجل عبدالله بن مسعود فقال : اعهد اليّ ، فقال : إذا سمعت الله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرعها سمعك ، فإنه خير يأمر به ، أو شر ينهى عنه . وقوله ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ يعني العهود ، يعني ما أحل الله وما حرم ، وما فرض وما حد في القرآن كله ، ولا تقدروا ولا تنكثوا ، قال زيد بن أسلم : هي ستة ، عهد الله ، وعقد الحلف ، وعقد الشركة ، وعقد البيع ، وعقد النكاح ، وعقد اليمين . وقد استبدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآيـة ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ قال : فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته ، ويقتضي نفي خيار المجلس ، وهذا مذهب ابي حنيفة ومالك ، وخالفهما في ذلك الشافعي واحمد والجمهور ، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا » وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع ، وليس هذا منافياً للزوم العقد ، بل هو من مقتضياته شرعاً ، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود . وقوله تعالى ﴿ أحلت لكم بهيمة الأنعام ﴾ هي الابل والبقر والغنم ، وقد استدل بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتاً في بطن أمه إذا ذبحت ، وقد روى ابو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد قال : قلنا : يا رسول الله ، تنحر الناقة ، وتذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين ، أنلقيه أم نأكله ؟ فقال : « كلوه إن شئتم ، فإن ذكاته ذكاة أمه » . وقوله ﴿ إلا ما يتلى عليكم ﴾ يعني بذلك الميتة

والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به مما هو مذكور في قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم الميتة والدم . . . ﴾ وقوله ﴿ غير محلي الصيد وأنتم حرم ﴾ والمراد بالأنعام ما يعم الإنس من الابل والبقر والغنم وما يعم الوحش كالظباء والبقر والحمر ، فاستثنى من الانس ما تقدم ، واستثنى من الوحش الصيد في حال الاحرام .

(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

﴿ شعائر الله ﴾ محارمه التي حرمها ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ يعني بذلك تحريمه والاعتراف بتعظيمه ، وترك ما نهى الله عن تعاطيه فيه من الابتداء بالقتال ، وتأكيد اجتناب المحارم . وقوله تعالى ﴿ ولا الهدي ولا القلائد ﴾ يعني لا تتركوا الإهداء إلى البيت الحرام ، فإن فيه تعظيم شعائر الله ، ولا تتركوا تقليدها في أعناقها لتتميز به عما عداها من الأنعام، وليعلم أنها هدى الكعبة فليجتنبها من يريدها بسوء، وتبعث من يراها على الاتيان بمثلها ، فإن من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ولهذا لما حج رسول الله ﷺ بات بذي الحليفة وهو وادي العقيق فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً ، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين ، ثم أشعر هديه وقلده ، وأهل للحج والعمرة وكان هديه إبلاً كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان كما قال تعالى ﴿ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ قال مقاتل بن حيان ﴿ ولا القلائد ﴾ فلا تستحلوها ، وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر ، وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجرة فيأمنون . وقوله تعالى ﴿ ولا آمين البيت الحرام . . . ﴾ أي ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمناً ، وكذا من قصده طالباً فضل الله ، وراغباً في رضوانه ، فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه . ﴿ فضلاً من ربهم ﴾ يعني التجارة . وقوله ﴿ وإذا حللتم فاصطادوا ﴾ أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ماكا محرماً عليكم في حال الاحرام من الصيد . والصحيح أن الأمر بعد الحظر يعود في الحكم إلى ما كان عليه قبل النهي ، فإن كان واجباً رده واجباً ، وإن كان مستحباً

فمستحب ، أو مباحاً فمباح . وقوله تعالى ﴿ ولا يجرمنكم . . . ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل ، فإن العدل واجب على كل احد في كل احد في كل حال ، والعدل به قامت السموات والأرض . وقوله تعالى ﴿ وتعاونوا على البر . . ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر ، وترك المنكرات ، وهو التقوى ، ونهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم . وفي الحديث « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » قيل : يا رسول الله ، هذا نصرته مظلوماً ، فكيف أنصره إذا كان ظالماً ؟ قال : « تحجزه وتمنعه من الظلم ، فذاك نصره » .

(٣) ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهي عن تعاطي هذه المحرمات من الميتة ، وهي ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد ، وما ذاك الا لما فيها من المضرة ، لما فيها من الدم المحتقن ، فهي ضارة للدين وللبدن ، فلهذا حرمها الله عز وجل ، ويستثني من الميتة السمك ، فإنه حلال ، سواء مات بتذكية أو غيرها ، لما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر فقال : « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وهكذا الجراد . وقوله ﴿ والدم ﴾ يعني به المسفوح ، كقوله : ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ وفي الحديث « أحل لنا ميتتان ودمان ، فأما الميتتان فالسمك والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال » عن أبي أمامة : صدي بن عجلان قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى قومي أدعوهم إلى الله ورسوله ، وأعرض عليهم شرائع الاسلام ، فأتيتهم ، فبينما نحن كذلك إذ جاؤ وا بوصفة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها ، فقالوا : هلم يا صدي فكل ، قال : قلت : ويحكم ، إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم فأقبلوا عليه ، قالوا : وما ذاك ؟ فتلوت عليهم هذه الآية﴿ حرمت عليكم الميتة والدم . . ﴾ ، قال : فجعلت أدعوهم إلى الاسلام ويأبون علي ، فقلت : ويحكم ، اسقوني شربة من ماء ، فإني شديد العطش ، قال : وعليّ عباءتي ، فقالوا :

لا ، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً ، قال : فاغتممت ، وضربت برأسي في العباء ، ونمت على الرمضاء في حر شديد ، قال : فأتاني آت في منامي بقدح من زجاج لم ير الناس أحسن منه ، وفيه شراب لم ير الناس ألذ منه ، فأمكنني منه فشربته ، فلما فرغت من شرابي استيقظت ، فلا والله ما عطشت ولا عريت بعد تيك الشربة ، رواه ابن مردويه، ورواه الحاكم في مستدركه ، وفي رواية ، فسمعتهم يقولون : أتاكم رجل من سراة قومكم ، فلم تمجعوه بحذقة ، فأتوني بحذقة ، فقلت : لا حاجة لي فيها ، إن الله أطعمني وسقاني ، وأريتهم بطني فأسلموا عن آخرهم . قوله ﴿ ولحم الخنزير ﴾ يعني إنسيه ووحشيه ، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم ، وفي الحديث « من لعب بالزدشير فكأنما صبغ يده في لحم الخنزير ودمه » وقوله ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ أي ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام ، كقوله ﴿ والمنخنقة ﴾ وهي التي تموت بالخنق ، إما قصداً وإما اتفاقاً بأن تتخيل في وثاقتها فتموت به فهي حرام . ﴿ والموقوذة ﴾ وهي التي تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت ﴿ والمتردية ﴾وهي التي تقع من شاهق ، أو موضع عالٍ فتموت بذلك فلا تحل . وقوله تعالى ﴿ وما أكل السبع ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب فأكل بعضها فماتت بذلك فهي حرام ، وإن كان قد سال فيها الدم ، ولو من مذبحها فلا تحل بالاجماع . وقوله ﴿ الا ما ذكيتم ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة ، وذلك إنما يعود على قوله ﴿ والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع ﴾ ﴿ وما ذبح على النصب ﴾ كانت النصب حجارة حول الكعبة ، وكانت العرب في جاهليتها يذبحون عندها ، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب ، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع ، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح حتى ولو كان يذكر اسم الله في الذبح عليها . وقوله ﴿ وأن تستقسموا بالأزلام ﴾ والأزلام قداح كانوا يستقسمون بها في الأمور ، ﴿ ذلكم فسق ﴾ أي تعاطي ذلك فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك ، والأزلام واحدها زلم ، وهي عبارة عن قداح ثلاثة ، على أحدها مكتوب افعل ، وعلى الآخر لا تفعل ، والثالث غفل ليس عليه شيء ، ومن الناس من قال : مكتوب على الواحد : أمرني ربي ، وعلى الآخر : نهاني ربي ، والثالث غفل ليس عليه شيء ، فإذا أجالها فطلع سهم الأمر فعله ، أو النهي تركه ، وإن طلع الفارغ أعاد . وقوله ﴿ اليوم يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ يعني يئسوا أن يراجعوا دينهم ، وفي الحديث الصحيح « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ، ولكن بالتحريش بينهم » ﴿ فلا تخشوهم واخشون ﴾ أي لا تخافوهم في مخالفتكم اياهم ، واخشوني أنصركم عليهم ، وأبدهم ، وأظفركم بهم ، وأشف صدوركم

منهم ، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة . وقوله ﴿ اليوم أكملت لكم . . ﴾ هذه أكبر نعم الله على هذه الأمة حيث اكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم ، ولهذا جعله الله خاتم النبيين ، وبعثه إلى الإنس والجن ، فلا حلال الا ما أحله ، ولا حرام الا ما حرمه، ولا دين الا ما شرعه وكل شيء اخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلق . وقوله ﴿ فمن اضطر . . ﴾ أي فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التي ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك فله تناوله والله غفور رحيم ﴿ غير متجانف لاثم ﴾ أي متعاط لمعصية الله ، فإن الله قد أباح ذلك له . . وقد استدل بهذه الآية من يقول : بأن العاصي بسفره لا يترخص بشيء من رخص السفر ، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي . والله اعلم .

(٤) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

لما ذكر الله ما حرمه في الآية المتقدمة من الجنائب الضارة لمتناولها اما في بدنه أو في دينه فيهما واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة قال بعدها : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم . . ﴾ يعني الذبائح الحلال الطيبة لهم ، أو هي الحلال من الرزق . ﴿ وما علمتم من الجوارح مكلبين ﴾ أي وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح ، وهي الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهها . ﴿ تعلمونهن مما علمكم الله ﴾ وهو أنه اذا أرسل استرسل ، وإذا أشلا ، استشلى ، وإذا أخذ الصيد امسكه على صاحبه حتى يجيء اليه ولا يمسكه لنفسه ولهذا قال تعالى ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ فمتى كان الجارح معلماً ، وأمسك على صاحبه وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت ارساله حل الصيد وإن قتله بالاجماع . ثبت في الصحيحين عن عدي بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ، إني أرسل الكلاب المعلمة ، وأذكر اسم الله ، فقال : « اذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك » قلت : وإن قتلن ؟ قال : « وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها ، فإنك إنما سميت على كلبك ، ولم تسم على غيره » قلت له : فإني أرمي بالمعراض الصيد فأصيب ؟ فقال : « إذا رميت بالمعراض فخزق فكله ، وإن أصابه بعرض فإنه وقيذ فلا تأكله » وفي رواية لهما « فإن أكل فلا تأكل ، فإني أخاف أن يكون أمسك على نفسه » فهذا دليل الجمهور وهو الصحيح من مذهب الشافعي ، وهو إنه إذا

أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً . وقال بعض الناس المراد بهذه الآية ﴿ واذكروا اسم الله عليه ﴾ الأمر بالتسمية عند الأكل كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال : « سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » وفي صحيح البخاري عن عائشة أنهم قالوا : يا رسول الله ، إن قوماً يأتوننا حديث عهدهم بكفر بلحمان لا ندري أذكر اسم الله عليها أم لا ؟ فقال : « سموا أنتم وكلوا » وروى مسلم وأهل السنن الا الترمذي عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان : لا مبيت لكم ولا عشاء ، وإذا دخل ولم يذكر اسم الله عند دخوله قال الشيطان أدركتم المبيت ، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء ، لفظ أبي داود .

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ ﴿٥﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات قال بعده : ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين من اليهود والنصارى فقال : ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾ يعني ذبائحهم ، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء ان ذبائحهم حلال للمسلمين لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله ، ولا يذكرون على ذبائحهم الا اسم الله ، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه تعالى وتقدس ، ودلت الآية ﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب . . ﴾ بمفهوم المخالفة على أن طعام من عداهم من أهل الأديان لا يحل . وقوله ﴿ وطعامكم حل لهم ﴾ أي ويحل لكم أن تطعموهم من ذبائحكم كما أكلتم من ذبائحهم ، وهذا من باب المكافأة والمقابلة والمجازاة ، كما ألبس النبي ﷺ ثوبه لعبدالله بن أبي ابن سلول حين مات ودفنه فيه ، قالوا : لأنه كان قد كسا العباس حين قدم المدينة ثوبه ، فجازاه النبي ﷺ بذلك ، فأما الحديث الذي فيه « لا تصحب إلا مؤمناً ، ولا يأكل طعامك الا تقي » فمحمول على الندب والاستحباب . وقوله ﴿ والمحصنات من المؤمنات ﴾ أي وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات ، وذكر هذا توطئة لما بعده ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا

الكتاب من قبلكم ﴾ فقيل : أراد بالمحصنات الحرائر دون الاماء ، والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا . ﴿ إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ أي مهورهن ، أي كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس . ﴿ محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ فكما شرط الاحصان في النساء ، وهي العفة عن الزنا كذلك شرطها في الرجال ، وهو أن يكون الرجل أيضاً محصناً عفيفاً ، ولهذا قال ﴿ غير مسافحين ﴾ وهم الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ، ولا يردون أنفسهم عما جاءهم ، ﴿ ولا متخذي أخدان ﴾ أي ذوي العشيقات الذين لا يفعلون الا معهن .

﴿٦﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

﴿ إذا قمتم إلى الصلاة ﴾ أي وأنتم محدثون ، أو الآية آمرة بالوضوء عند القيام إلى الصلاة ، ولكن هو في حق المحدث واجب ، وفي حق المتطهر ندب . وقد استدل طائفة من العلماء بقوله ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ﴾ على وجوب النية في الوضوء لأن تقدير الكلام ، فاغسلوا وجوهكم كلها كما تقول العرب : إذا رأيت الأمير فقم ، أي له ، وقد ثبت في الصحيحين حديث « الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » ، وقوله ﴿ وأيديكم إلى المرافق ﴾ أي مع المرافق . وقوله ﴿ وامسحوا برؤ وسكم ﴾ الباء للالصاق وهو الأظهر ، أو للتبعيض وقوله ﴿ وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ وفي الحديث « أسبغوا الوضوء ، ويل للأعقاب من النار » وفي البخاري عن عائشة قالت : سقطت قلادة لي بالبيداء ونحن داخلون المدينة فأناخ رسول الله ونزل فثنى رأسه في حجري راقداً ، فأقبل أبو بكر ، فلكزني لكزة شديدة ، وقال : حبست الناس في قلادة فتمنيت الموت لمكان رسول الله ﷺ مني ، وقد اوجعني ، ثم إن النبي ﷺ استيقظ وحضرت الصبح فالتمس الماء فلم يوجد ، فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة . . . ﴾ وقوله ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ أي فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر ، بل أباح التيمم عند المرض ، وعند فقد الماء توسعة عليكم ورحمة بكم ، وفي صحيح مسلم

« الطهور شطر الاعان ، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والله اكبر تملأ ما بين السماء والأرض والصوم جنة والصبر جناء ، والصدقة برهان ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » وفي الحديث ايضاً « لا يقبل الله صدقة من غلول ، ولا صلاة بغير طهور » .

(٧) ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم ، وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم ، وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته ومناصرته ومؤازرته ، والقيام بدينه ، وإبلاغه عنه ، وقبوله منه فقال ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبايعون عليها رسول الله ﷺ عند إسلامهم ، كما قالوا : بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر اهله ، وقيل : هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ ، والانقياد لشرعه . ﴿ واتقوا الله ﴾ هذا تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال ، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يختلج في الضمائر من الأسرار والخواطر فقال : ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ .

(٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

أي كونوا قوامين بالحق لله عز وجل ، لا لأجل الناس والسمعة ، وكونوا ﴿ شهداء بالقسط ﴾ أي بالعدل ، لا بالجور ، وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير أنه قال : نحلني أبي نحلا ، فقالت أمي عمرة بنت رواحة : لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ ، فجاءه ليشهده على صدقتي ، فقال : « أكل ولدك نحلت مثله » ؟ قال : لا ، فقال : « اتقوا الله واعدلوا في أولادكم » وقال : « إني لا أشهد على جور » قال : فرجع أبي فرد تلك الصدقة . وقوله ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل احد صديقاً كان أو عدواً ، ولهذا قال : ﴿ اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه . ثم قال تعالى ﴿ واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي وسيجزيكم على ما علم

من أفعالكم التي عملتموها ، ان خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ولهذا قال بعده .

(٩) ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة﴾ أي لذنوبهم ﴿وأجر عظيم﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده لا ينالونها بأعمالهم ، بل برحمة منه وفضل ، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم ، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى مثيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه ، فالكل منه وله ، فله الحمد والمنة .

(١٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

﴿ والذين كفروا . . ﴾ وهذا من عدله تعالى وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه ، بل هو الحكم العدل ، الحكيم القدير .

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

عن جابر أن النبي ﷺ نزل منزلاً ، وتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها ، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة ، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ ، فأخذه فسله ، ثم أقبل على النبي ﷺ ، فقال : ما يمنعك مني ؟ قال : « الله عز وجل » قال الأعرابي مرتين أو ثلاثاً ! من يمنعك مني ؟ والنبي ﷺ يقول : « الله » قال : فشام الاعرابي السيف فدعا النبي ﷺ اصحابه فأخبرهم خبر الأعرابي ، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه . وقصة هذا الاعرابي ، وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح . وعن ابن عباس في هذه الآية أن قوماً من اليهود صنعوا لرسول ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوهم ، فأوحى الله اليه بشأنهم ، فلم يأت الطعام ، وأمر أصحابه فأتوه . وقال غير واحد : إنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين ، ووكلوا عمر بن حجاش بذلك ، وأمروه إن جلس رسول الله ﷺ تحت الجدار ، واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤا عليه ، فرجع النبي ﷺ إلى المدينة وتبعه أصحابه فأنزل الله هذه الآية . وقوله تعالى ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه وحفظه من شر الناس وعصمه ، ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدوا اليهم فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم .

(١٢) ﴿ * وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ ، وأمرهم بالقيام بالحق ، والشهادةبالعدل ، وذكره نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين : اليهود والنصارى ، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعناً منه عليهم ، وطرداً عن بابه وجنابه ، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق ، وهو العلم النافع ، والعمل الصالح ، فقال تعالى ﴿ ولقد أخذنا ميثاق بني اسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً ﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه ، وقد ذكر أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة فأمر أن يقيم نقباء من كل سبط نقيب . وقوله تعالى ﴿ وقال الله إني معكم ﴾ أي بحفظي وكلاءتي ونصري ﴿ لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي ﴾أي صدقتموهم فيما يجيئونكم به من الوحي ﴿ وعزرتموهم ﴾ أي نصرتموهم ووازرتموهم على الحق . ﴿ وأقرضتم الله قرضاً حسناً ﴾ وهو الانفاق في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿ لأكفرن عنكم سيئاتكم ﴾ أي ذنوبكم ، أمحوها وأسترها ، ولا أؤاخذكم بها . ﴿ ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي أدفع عنكم المحذور ، وأحصل لكم المقصود . وقوله ﴿ فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ أي فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده ، وجحده وعامله معاملة من لا يعرفه فقد أخطأ الطريق الواضح ، وعدل عن الهدى إلى الضلال .

(١٣) ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ، ونقضهم عهده فقال :

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم ﴾ أي فبسبب نقضهم الميثاق الذي أخذ عليهم لعناهم ، أي أبعدناهم عن الحق ، وطردناهم عن الهدى ﴿ وجعلنا قلوبهم قاسية ﴾ أي فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ أي فسدت فهومهم ، وساء تصرفهم في آيات الله ، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله ، وحملوه على غير مراده ، وقالوا عليه ما لم يقل ، عياذاً بالله من ذلك ﴿ ونسوا حظاً مما ذكروا به ﴾ أي وتركوا العمل به رغبة عنه ، فلا قلوب سليمة ، ولا فطر مستقيمة ، ولا أعمال قويمة ﴿ ولا تزال تطلع على خائنة منهم ﴾ يعني مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك ﴿ فاعف عنهم واصفح ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر ، كما قال بعض السلف : ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق ، ولعل الله أن يهديهم . ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله يحب المحسنين ﴾ يعني به الصفح عمن أساء إليك .

(١٤) ﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾

أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ، ومناصرته وموازرته ، واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ففعلوا كما فعل اليهود خالفوا المواثيق ، ونقضوا العهود ، ولهذا قال تعالى ﴿ فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضاً ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة ، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضاً ، ويلعن بعضهم بعضاً ، فكل فرقة تحرم الأخرى ، ولا تدعها تلج معبدها ، فالملكية تكفر اليعقوبية ، وكذلك الآخرون ، وكذلك النسطورية والآريوسية ، كل طائفة تكفر الأخرى في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم قال تعالى ﴿ وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله ، وما نسبوه إلى الرب عز وجل ، وتعالى وتقدس عن قولهم علواً كبيراً من جعلهم له صاحبة وولداً ، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

(١٥) ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن

كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض : عربهم وعجمهم أميهم وكتابيهم ، وأنه بعثه بالبينات ، والفرق بين الحق والباطل ، فقال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم . . . ﴾ أي يبين ما بدلوه وأولوه وافتروا على الله فيه ، ويسكت عن كثير مما غيروه ، ولا فائدة في بيانه . ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذي أنزله على نبيه الكريم ، فقال : ﴿ قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ .

(١٦) ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ أي طرق النجاة والسلامة ، ومناهج الاستقامة ﴿ ويخرجهم من الظلمات . . . ﴾ أي ينجيهم من المهالك ، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور ، ويحصل لهم أحب الأمور ، وينفي عنهم الضلالة ، ويرشدهم إلى أقوم حالة .

(١٧) ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً وحاكياً بكفر النصارى في ادعائهم في المسيح ابن مريم ، وهو عبد من عباد الله ، وخلق من خلقه أنه هو الله ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿ قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح . . ﴾ أي لو أراد ذلك فمن ذا الذي كان يمنعه منه ، أو من ذا الذي يقدر على صرفه عن ذلك ؟ ثم قال : ﴿ ولله ملك السموات والأرض . . ﴾ أي جميع الموجودات ملكه وخلقه ، وهو القادر على ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل بقدرته وسلطانه وعدله وعظمته ، وهذا رد على النصارى ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

(١٨) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ

مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

ثم قال تعالى رداً على اليهود والنصارى في كذبهم وافترائهم ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه ، وله بهم عناية ، وهو يحبنا ، قال تعالى رداً عليهم ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناءه وأحباءه فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافترائكم ؟ وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء : أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه ؟ فلم يرد عليه فتلا عليه الصوفي هذه الآية ﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾ وهذا الذي قاله حسن ، وله شاهد في المسند للإمام أحمد عن أنس قال : مر النبي ﷺ بنفر من أصحابه ، وصبي في الطريق ، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ . فأقبلت تسعى ، وتقول : ابني ابني ، وسعت فأخذته ، فقال القوم : يا رسول الله ، ما كانت هذه لتلقي ولدها في النار ، فقال النبي ﷺ : « لا والله ما يلقي حبيبه في النار » تفرد به أحمد . ﴿ بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بني آدم ، وهو سبحانه الحاكم في جميع عباده ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ أي هو فعال لما يريد ، لا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب ﴿ ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي الجميع ملكه ، وتحت قهره وسلطانه ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب إليه ، فيحكم في عباده بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يجور .

(١٩) ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخاطباً أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم محمداً ﷺ خاتم النبيين الذي لا نبي بعده ، ولا رسول ، بل هو المعقب لجميعهم ، ولهذا قال : ﴿ على فترة من الرسل ﴾ أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم . وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « أنا أولى الناس بابن مريم ، لأنه ليس بيني وبينه نبي » . والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل ، وطموس من السبل ، وتغير الأديان ، وكثرة عبادة الأوثان والنيران ، والصلبان فكانت النعمة به أتم النعم ، والحاجة إليه أمر عمم ، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد ، والطغيان والجهل

قد ظهر في سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين ، من بعض أحبار اليهود ، وعباد النصارى والصابئين ، وفي الحديث « وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل » ، وفي لفظ مسلم « من أهل الكتاب » . الحديث، وكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمداً ﷺ فهدى الخلائق ، وأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتركهم على المحجة البيضاء ، والشريعة الغراء . ولهذا قال : ﴿ أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ﴾ أي لئلا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا فيه وغيروه ما جاءنا من رسول يبشر بالخير ، وينذر بالشر ﴿ فقد جاءكم بشير ونذير ﴾ ، يعني محمداً ﷺ ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ معناه : إني قادر على عقاب من عصاني ، وثواب من أطاعني .

(٢٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم على خير الدنيا والآخرة لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة فقال تعالى : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء ﴾ أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم وإبراهيم إلى من بعده ، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء ، يدعون إلى الله ، ويحذرون نقمته حتى ختموا بعيسى ابن مريم عليه السلام ، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسل على الاطلاق محمد بن عبدالله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ . وقوله ﴿ وجعلكم ملوكاً ﴾ يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله ، وفي الحديث « كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة كتب ملكاً » سأل رجل عبدالله بن عمرو بن العاص : ألسنا من فقراء المهاجرين فقال عبدالله : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال : نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، فقال : إن لي خادماً ، قال : فأنت من الملوك . ﴿ وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ﴾ يعني عالمي زمانكم ، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم .

(٢١) ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ

فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾

﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل لمن آمن منكم ﴿ ولا ترتدوا على أدباركم ﴾ أي ولا تنفكوا عن الجهاد .
﴿ فتنقلبوا خاسرين ﴾ .

﴿٢٢﴾ ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّـارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾

﴿ قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين . . ﴾ أي اعتذروا بأن في هذه البلدة ـ أريحاء ـ التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قوماً جبارين ذوي قوة شديدة ، وأنا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم ، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها فإن يخرجوا منها دخلناها ، وإلا فلا طاقة لنا بهم .

﴿٢٣﴾ ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَـافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ قال رجلان من الذين يخافون ﴾ أي ممن لهم مهابة وموضع من الناس ، ويقال : إنهما يوشع بن نون ، وكالب بن يوفنا . ﴿ ادخلوا عليهم الباب . . ﴾ أي إن توكلتم على الله واتبعتم أمره ووافقتم رسوله نصركم الله على أعدائكم ، وأيدكم وظفر بهم . ودخلتم البلد التي كتبها الله لكم ، فلم ينفع ذاك فيهم شيئاً .

﴿٢٤﴾ ﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّادَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾

﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها . . . ﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد ، ومخالفة لرسولهم ، وتخلف عن مقاتلة الأعداء ، وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم في قتال النفير الذين جاؤوا لمنع العير الذي كان مع أبي سفيان ، فلما فات اقتناص العير ، واقترب منهم النفير ، وهم جمع ما بين التسعمائة إلى الألف في العدة والبيض واليلب فتكلم أبو بكر رضي الله عنه فأحسن ، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين ، ورسول الله ﷺ يقول : « أشيروا عليّ أيها المسلمون » وما

يقول ذلك إلا ليستعلم ما عند الأنصار ، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ ، فقال سعد بن معاذ : كأنك تعرض بنايا رسول الله ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا غداً ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل أن يريك مناما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله ، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ، ونشطه ذلك . قال عبدالله بن مسعود : لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به أتى رسول الله لا وهو يدعو على المشركين فقال : والله قال : يا رسول الله ، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ، ومن بين يديك ومن خلفك ، فرأيت وجه رسول الله أشرق لذلك وسره ذلك .

(٢٥) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام ، وقال داعياً عليهم ﴿ رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي ﴾ أي ليس أحد يطيعني منهم فيمتثل أمر الله ، ويجيب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخي هارون ﴿ فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ﴾ يعني اقض بيني وبينهم ، أو افصل بيننا وبينهم .

(٢٦) ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

لما دعا عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله بتحريم دخولها عليهم مدة أربعين سنة فوقعوا في التيه يسيرون دائماً ، لا يهتدون للخروج منه ، وفيه كانت أمور عجيبة ، وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام ، وإنزال المن والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجاري من صخرة صماء تحمل معهم على دابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنا عشر عيناً تجري لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التي أيد الله بها موسى بن عمران ، وهناك نزلت التوراة ، وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ، وهناك تاهوا أربعين سنة كما قال تعالى ﴿ فإنها محرمة عليهم أربعين سنة ﴾ يصبحون كل يوم يسيرون ، ليس لهم قرار ، ثم كانت وفاة هرون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام نبياً خليفة عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بني إسرائيل هناك في تلك المدة ، ويقال : إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب ، ومن ههنا قال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿ فإنها محرمة عليهم ﴾ : هذا وقف تام . وقوله ﴿ أربعين سنة ﴾ منصوب بقوله

﴿ يتيهون في الأرض ﴾ فلما انقضت المدة خرج بهم يوشع بن نون ، أو بمن بقي منهم وبسائر بني إسرائيل من الجبل الثاني فقصد بهم بيت المقدس فحاصرها فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشي دخول السبت عليهم قال : إنك مأمورة وأنا مأمور ، اللهم احبسها عليّ فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، وأمر الله يوشع بن نون أن يأمر بني إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس أن يدخلوا بابها سجداً ، وهم يقولون : « حطة » أي حط عنا ذنوبنا ، فبدلوا ما أمروا به ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة في شعرة . ﴿ فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ هذا تسلية لموسى عنهم أي لا تأسف ولا تحزن عليهم فيما حكمت عليهم به فإنهم مستحقون لذلك .

(٢٧) ﴿ * وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى مبيناً وخيم عاقبة البغي والحسد والظلم في خبر ابن آدم لصلبه في قول الجمهور ، وهما قابيل وهابيل ، كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله بغياً وحسداً فيما وهبه الله من النعمة ، وتقبل القربان الذي أخلص فيه لله عز وجل ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ، ورجع بالصفقة الخاسرة في الدارين فقال تعالى : ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ أي اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم . وقوله ﴿ بالحق ﴾ أي على الجلية والأمر الذي لا لبس فيه ولا كذب ، ولا زيادة ولا نقصان . وقرب الشاة هابيل ، والطعام قابيل فجاءت نار فأكلت الشاة وتركت الزرع ، ومعنى قوله ﴿ يتقبل الله من المتقين ﴾ ، أي ممن اتقى الله في فعله ذلك .

(٢٨) ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول له أخو الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه حين توعده أخوه بالقتل عن غير ما ذنب منه إليه ﴿ لئن بسطت إليّ يدك . . ﴾ أي لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون وأنت سواء في الخطيئة ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ أي من أن أصنع كما تريد أن تصنع ، بل اصبر واحتسب . قال عبدالله بن عمرو : وايم الله إن كان لأشد الرجلين ، ولكن منعه التحرج ، يعني الورع . عن بشر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة

عثمان : أشهد أن رسول الله ﷺ قال : « ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي » قال : أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني فقال : « كن كابن آدم » رواه الإمام أحمد والترمذي وفي رواية وتلا ﴿ لئن بسطت إليّ يدك . . . ﴾ .

(٢٩) ﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أي إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي ، وذلك هو معنى قوله ﴿ إني أريد أن تبوء بإثمي ﴾ وأما معنى ﴿وإثمك ﴾ فهو إثمه يعني قتله ، وذلك كمعصية الله عز وجل في أعمال سواه . أي تتحمل إثمي وإثمك ﴿ فتكون من أصحاب النار . . ﴾ قال ابن عباس : خوفه بالنار فلم ينته ولم ينزجر .

(٣٠) ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعته على قتل أخيه فقتله أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر . وقوله ﴿ فأصبح من الخاسرين ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وأي خسارة أعظم من هذه ؟ روى الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل » وقد أخرجه الجماعة سوى أبي داود .

(٣١) ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾

بعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ، ثم حثى عليه ، فلما رآه قال : ﴿ يا ويلتى أعجزت أن أكون . . ﴾ في الحديث « إن ابن آدم عليه السلام ضرب لهذه الأمة مثلاً فخذوا بالخير منها » .

(٣٢) ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

يقول تعالى من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿ كتبنا على بني إسرائيل ﴾ أي شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد . . ﴾ أي من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد في الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ، ولا جناية ، فكأنما قتل الناس جميعاً ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها أي حرم قتلها واعتقد ذلك فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار ، ولهذا قال : ﴿ فكأنما أحيا الناس جميعاً ﴾ قال سعيد بن جبير : من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً ، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً . وقوله تعالى ﴿ ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ﴾ أي بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة ﴿ ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون ﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها .

(٣٣) ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله . . ﴾ المحاربة هي المضادة والمخالفة ، وهي صادقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل ، وكذا الافساد في الأرض يطلق على أنواع من الشر . والآية عامة في المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات . روى البخاري ومسلم من حديث أبي قلابة عن أنس أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوضحوا المدينة ، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال : « ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبوا من أبوالها وألبانها » ؟ فقالوا : بلى ، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا ، فقتلوا الراعي ، وطردوا الإبل ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فبعث في آثارهم فأدركوا فجيء بهم ، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسمرت أعينهم ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا » هذا لفظ مسلم . وقوله تعالى ﴿ أن يقتلوا أو يصلبوا . . ﴾ عن ابن عباس فإمام المسلمين بالخيار إن شاء قتل ، وإن شاء صلب ، وإن شاء قطع يده ورجله ، ومسند هذا أنه ظاهر ﴿ أو ﴾ للتخيير . ﴿ أو ينفوا من الأرض ﴾ أن ينفى من بلده إلى بلد آخر . ﴿ ذلك لهم خزي في الدنيا . . ﴾ أي هذا الذي ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم خزي لهم بين الناس في هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة . وقال الجمهور : هذه الآية منزلة على أحوال كما قال أبو عبدالله الشافعي ،

إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا ، وإذا فعلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا ، وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض .

(٣٤) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انحتام القتل والصلب وقطع الرجل ، وهل يسقط قطع اليد أم لا ؟ فيه قولان للعلماء وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع ، وعليه عمل الصحابة .

(٣٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها : ﴿ وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ أي تقربوا إليه بطاعته ، والعمل بما يرضيه ، والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود ، والوسيلة أيضاً علم على أعلى منزلة في الجنة ، وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة ، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش وقد ثبت في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة » . وقوله ﴿ وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ﴾ لما أمرهم بترك المحارم ، وفعل الطاعات أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم ، والتاركين للدين القويم ، ورغبهم في ذلك بالذي أعده للمجاهدين في سبيله يوم القيامة من الفلاح والسعادة العظيمة الخالدة المستمرة التي لا تبيد ، ولا تحول ، ولا تزول في الغرف العالية الرفيعة ، الآمنة الحسنة مناظرها ، الطيبة مساكنها التي من سكنها ينعم ، لا ييأس ، ويحيى لا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه .

(٣٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

ثم أخبر تعالى بما أعد لأعدائه الكافرين من العذاب والنكال يوم القيامة فقال : ﴿ إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً . . . ﴾ أي لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهباً ، وبمثله ليفتدي بذلك من عذاب الله الذي قد أحاط به ، وتيقن وصوله

إليه ما تقبل ذلك منه ، بل لا مندوحة عنه ، ولا محيص له ، ولا مناص . ولهذا قال : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي موجع .

(٣٧) ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

أي فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ، ولا سبيل لهم إلى ذلك ، كلما رفعهم اللهب فصاروا في أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بمقامع من حديد فيردوهم إلى أسفلها كما قال تعالى ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر ، لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها .

(٣٨) ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى حاكماً وآمراً بقطع يد السارق والسارقة ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به سواء كان قليلاً أو كثيراً لعموم هذه الآية ، فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً ، بل أخذوا بمجرد السرقة ، وتمسكوا بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لعن الله السارق ، يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » وأما الجمهور فاعتبروا النصاب في السرقة ، وإن كان قد وقع بينهم الخلاف في قدره . وقد أجاب الجمهور عن الحديث : « يسرق البيضة فتقطع يده . . . » بأنه منسوخ ، أو أنه مؤول ببيضة الحديد ، وحبل السفن ، أو أن هذه وسيلة إلى التدرج في السرقة من القليل إلى الكثير الذي تقطع فيه يده ، ويحتمل أنه خرج مخرج الأخبار عما كان عليه الأمر في الجاهلية حيث كانوا يقطعون في القليل والكثير . ﴿ جزاء بما كسبا . . . ﴾ أي مجازاة على صنيعهما السيء في أخذهما أموال الناس بأيديهم فناسب أن يقطع ما استعانا به في ذلك تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك ﴿ والله عزيز ﴾ في انتقامه . ﴿ حكيم ﴾ في أمره ونهيه وشرعه وقدره .

(٣٩) ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

أي من تاب بعد سرقته وأناب إلى الله يتوب عليه فيما بينه وبينه ، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم ، أو بدلها عند الجمهور وقال أبو حنيفة : متى قطع وقد تلفت يده فإنه لا يرد بدلها .

روى ابن جرير أن امرأة سرقت حلياً فجاء الذين سرقتهم فقالوا : يا رسول الله ، سرقتنا

هذه المرأة ، فقال رسول الله ﷺ : « اقطعوا يدها اليمنى » فقالت المرأة : هل من توبة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أنت اليوم من خطيئتك كيوم ولدتك أمك » فأنزل الله عز وجل ﴿ فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه . . ﴾ .

(٤٠) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أي هو المالك لجميع ذلك ، الحاكم فيه ، الذي لا معقب لحكمه ، وهو الفعال لما يريد .

(٤١) ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات إلى رقم (٤٤) في المسارعين في الكفر ، الخارجين عن طاعة الله ورسوله ، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿ من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ﴾ أي أظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية منه ، وهؤلاء هم المنافقون ﴿ ومن الذين هادوا ﴾ أعداء الاسلام وأهله ، وهؤلاء كلهم ﴿ سماعون للكذب ﴾ أي مستجيبون له ، منفعلون عنه ﴿ سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ﴾ أي يستجيبون لأقوام آخرين ، لا يأتون مجلسك يا محمد ﴿ يحرفون الكلم من بعد مواضعه ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ويبدلونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ قيل : نزلت في قوم من اليهود قتلوا قتيلاً وقالوا : تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد ، فإن حكم بالدية فاقبلوه ، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه ، والصحيح أنها نزلت في اليهوديين الذين زنيا ، وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم من الأمر برجم من أحصن فحرفوه ، واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة ، والتحميم والاركاب على حمارين مقلوبين ، فلما وقعت تلك الكائنة بعد الهجرة قالوا: فيما بينهم : تعالوا حتى نتحاكم إليه ، فإن حكم بالجلد والتحميم

فخذوا عنه ، واجعلوه حجة بينكم وبين الله ، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم بذلك ، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك . ولهذا قالوا ﴿ إن أوتيتم هذا ﴾ أي الجلد والتحميم ﴿ فخذوه ﴾ أي اقبلوه ﴿ وإن لم تؤتوه فاحذروا ﴾ أي من قبوله واتباعه . قال تعالى : ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً . . ﴾ .

(٤٢) ﴿ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

﴿ سماعون للكذب ﴾ أي للباطل . ﴿ أكالون للسحت ﴾ أي الحرام ، وهو الرشوة ، ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه ، وأنى يستجيب له ؟ ﴿ فإن جاؤوك ﴾ أي يتحاكمون إليك ﴿ فاحكم بينهم أو اعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً ﴾ أي فلا عليك أن لا تحكم بينهم ، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق ، بل ما يوافق أهواءهم . ﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق والعدل ، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل .

(٤٣) ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ثم قال تعالى منكراً عليهم في آرائهم الفاسدة ، ومقاصدهم الزائفة في تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذي بأيديهم الذي يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبداً ، ثم خرجوا عن حكمه ، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون في نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم فقال : ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة . . . ﴾ .

(٤٤) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

ثم مدح التوراة التي أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران فقال : ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ﴾ أي لا يخرجون عن حكمها ، ولا يبدلونها ولا يحرفونها . ﴿ والربانيون والأحبار ﴾ أي وكذلك الربانيون

منهم ، وهم العلماء العباد ، والأحبار وهم العلماء ﴿ بما استحفظوا من كتاب الله ﴾ أي بما استودعوا من كتاب الله الذي أمروا أن يظهروه ويعملوا به ﴿ وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ﴾ أي لا تخافوا منهم ، وخافوا مني ﴿ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً . . . ﴾ عن ابن عباس : من جحد ما أنزل الله فقد كفر ، ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق . رواه ابن جرير . ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب ، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب ﴿ فأولئك هم الكافرون ﴾ عن ابن عباس قال : ليس بالكفر الذي تذهبون إليه ، وعن طاوس قال : ليس بكفر ينقل عن الله .

(٤٥) ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

وهذا أيضاً مما وبخت به اليهود ، وقرعوا عليه . فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس ، وهم يخالفون حكم ذلك عمداً وعناداً ، ويقيدون النضري من القرظي ، ولا يقيدون القرظي من النضري ، بل يعدلون إلى الدية ، كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن ، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والاشهار ، ولهذا قال هناك : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ لأنهم جحدوا حكم الله قصداً منهم وعناداً وعمداً . وقال هنا : ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه فخالفوا وظلموا وتعدوا على بعضهم . وقد استدل بقوله تعالى ﴿ وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس . . . ﴾ كثير من الأصوليين والفقهاء على أن شرع من قبلنا شرع لنا . وقوله تعالى ﴿ والجروح قصاص ﴾ عن ابن عباس قال : تقتل النفس بالنفس ، وتفقأ العين بالعين ، ويقطع الأنف بالأنف ، وتنزع السن بالسن ، وتقتص الجراح بالجراح . ﴿ فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ يقول : فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب ، وأجر للطالب ، ويهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به . وفي الحديث « من تصدق بدم فما دونه فهو كفارة له من يوم ولد إلى أن يموت » .

(٤٦) ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وقفينا ﴾ أي وأتبعنا ﴿ على آثارهم ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ أي مؤمناً بها ، حاكماً بما فيها ﴿ وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ﴾ أي هدى إلى الحق ، ونور يستضاء به في إزالة الشبهات ، وحل المشكلات ﴿ ومصدقاً لما بين يديه من التوراة ﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه كما قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿ ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم ﴾ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الانجيل نسخ بعض أحكام التوراة . وقوله تعالى ﴿ وهدى وموعظة للمتقين ﴾ أي وجعلنا الانجيل هدى يهتدى به ، وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم ، والمآثم . ﴿ للمتقين ﴾ أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (٤٧)

أي ليؤمنوا بجميع ما فيه ، وليقيموا ما أمروا به فيه ، ومما فيه البشارة ببعثة محمد ، والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد ، كما قال تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم ﴾ ولذلك قال ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم ، المائلون إلى الباطل ، التاركون للحق . وهذه الآية نازلة في النصارى وهو ظاهر من السياق .

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (٤٨)

لما ذكر التوراة التي أنزلها على موسى كليمه ومدحها ، وأثنى عليها ، وأمر باتباعها حيث كانت سائغة الاتباع ، وذكر الانجيل ومدحه ، وأمر أهله بإقامته ، واتباع ما فيه كما تقدم بيانه شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم فقال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿ مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه ، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ ، فكان نزوله كما أخبرت به مما زادها صدقاً

عند حامليها من ذوي البصائر الذين انقادوا لأمر الله واتبعوا شرائع الله ، وصدقوا رسل الله ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة رسله المتقدمة من مجيء محمد ﷺ لمفعولاً أي لكائناً لا محالة ولا بد . وقوله تعالى ﴿ ومهيمناً عليه ﴾ المهيمن : الأمين ، والقرآن أمين على كل كتاب قبله ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل . أو مهيمناً : شهيداً ، أو حاكماً على ما قبله من الكتب ، وهذه الأقوال متقاربة ، فقد جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها ، أشملها وأعظمها وأكملها ، حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره ، فلهذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها ، وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ﴾ أي فاحكم يا محمد بين الناس عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم بما أنزل الله إليك في هذا الكتاب العظيم . وقوله : ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ أي آراءهم التي اصطلحوا عليها وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله . ﴿ عما جاءك من الحق ﴾ أي لا تنصرف عن الحق الذي أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء . وقوله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ أي سبيلاً وسنة ، ففي التوراة شريعة ، وفي الانجيل شريعة ، وفي الفرقان شريعة ، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، والدين الذي لا يقبل الله غيره التوحيد والاخلاص لله . ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ أي لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد وشريعة واحدة ، لا ينسخ شيء منها ، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شريعة على حدة ، ثم نسخها ، أو بعضها برسالة الآخر الذي بعده ، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ الذي ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة ، وجعله خاتم الأنبياء كلهم . وقوله ﴿ ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي أنه تعالى شرع الشرائع مختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ، ويثيبهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله . ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ وهي طاعة الله ، واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله ، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله . ﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿ فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق ، فيجزي الصادقين بصدقهم ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان ، بل هم معاندون للبراهين القاطعة ، والحجج البالغة والأدلة الدامغة .

(٤٩) ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴾

﴿ وأن احكم بينهم . . . ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك ، والنهي عن خلافه . ﴿ واحذرهم أن . . . ﴾ أي واحذر أعداءك اليهود أن يدلسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور فلا تغتر بهم ، فإنهم كذبة كفرة ، خونة ﴿ فإن تولوا ﴾ أي عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله ﴿ فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ أي فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم ، أن يصرفهم عن الهدى لما لهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم ﴿ وإن كثيراً من الناس لفاسقون ﴾ أي أن أكثر الناس لخارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ، ناكبون عنه كما قال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٥٠) ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله الحكم المشتمل على كل خير ، الناهي عن كل شر ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله ، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم قال تعالى ﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ﴾ أي يبتغون ويريدون ، وعن حكم الله يعدلون ؟ ﴿ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ أي ومن أعدل من الله في حكمه لمن عقل عن الله شرعه ، وآمن به ، وأيقن ، وعلم أن الله أحكم الحاكمين ، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها ، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء ، القادر على كل شيء ، العادل في كل شيء . روىٰ الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أبغض الناس إلى الله عز وجل من يبتغي في الاسلام سنة الجاهلية ، وطالب دم امرىء بغير حق ليريق دمه » وروى البخاري عن أبي اليمان باسناده نحوه بزيادة .

(٥١) ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده والمؤمنين عن موالاة اليهود والنصارى الذين هم أعداء الاسلام

وأهله قاتلهم الله ، ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض ، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك فقال ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ عن عياض أن عمر أمر أبا موسى الأشعري أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى في أديم واحد ، وكان له كاتب نصراني فرفع إليه ذلك ، فعجب عمر ، وقال : إن هذا لحفيظ ، هل أنت قارىء لنا كتاباً في المسجد جاء من الشام ؟ فقال : إنه لا يستطيع ، فقال عمر : أجنب هو؟ قال : لا ، بل نصراني ، قال : فانتهرني وضرب فخذي ثم قال : أخرجوه ، ثم قرأ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . . ﴾ قال عكرمة : نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة فسألوه ماذا هو صانع بنا ؟ فأشار بيده إلى حلقه ، أي إنه الذبح ، وقيل : نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول فقد جاء عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إن لي موالي من يهود كثير عددهم ، وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبدالله بن أبي ابن سلول : إني رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالي ، فقال رسول الله ﷺ لعبدالله بن أبي : يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت فهو لك دونه » قال : قد قبلت ، فأنزل الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . . . ﴾ الآيتين .

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (٥٢)

﴿مرض﴾ أي شك وريب ونفاق ﴿ يسارعون فيهم ﴾ أي يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم في الباطن والظاهر ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ أي يتأولون في مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى فينفعهم ذلك عند ذلك . قال تعالى : ﴿ فعسى الله أن يأتي بالفتح ﴾ يعني فتح مكة ، أو القضاء والفصل . ﴿ أو أمر من عنده ﴾ يعني ضرب الجزية على اليهود ﴿ فيصبحوا ﴾ يعني الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين . ﴿ على ما أسروا في أنفسهم ﴾ من الموالاة نادمين ، أي على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً ، ولا دفع عنهم محذوراً ، بل كان عين المفسدة ، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين لا يدري كيف حالهم ، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ويحلفون على ذلك ، ولذلك قال :

﴿٥٣﴾ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾

﴿٥٤﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة إنه من تولى عن نصرة دينه ، وإقامة شريعته ، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه ، وأشد منعة ، وأقوم سبيلاً ، كما قال : ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقال ﴿ إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين ﴾ وقال ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي بممتنع ولا صعب . وقوله تعالى ﴿ من يرتد منكم عن دينه ﴾ أي يرجع عن الحق إلى الباطل . ﴿ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾ عن أبي موسى الأشعري قال : لما نزلت ﴿ فسوف يأتي الله . . . ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هم قوم هذا » رواه ابن أبي حاتم ، ورواه ابن جرير بنحوه . وقوله تعالى ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه ، متعززاً على خصمه وعدوه كما قال تعالى ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وقوله عز وجل ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾ أي لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله ، وإقامة الحدود ، وقتال أعدائه ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، لا يردهم عن ذلك راد ، ولا يصدهم عنه صاد ، ولا يحيك فيهم لوم لائم ، ولا عذل عاذل . عن أبي ذر قال : أمرني خليلي ﷺ بسبع : أمرني بحب المساكين ، والدنو منهم ، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ، ولا أنظر إلى من هو فوقي ، وأمرني أن أصل الرحم ، وإن أدبرت ، وأمرني أن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مراً ، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم ، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن من كنز تحت العرش . رواه الامام أحمد . وعن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه ، أو شهده ، فإنه لا يقرب من أجل ، ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم » . تفرد به الامام أحمد . وثبت في الصحيح « ما ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » قالوا : وكيف يذل

نفسه يا رسول الله ؟ قال : « يتحمل من البلاء ما لا يطيق » ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ أي من اتصف بهذه الصفات فإنما هو من فضل الله عليه وتوفيقه له ﴿ والله واسع عليم ﴾ أي واسع الفضل عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه .

(٥٥) ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾

أي ليس اليهود بأوليائكم ، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين ﴿ الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ أي المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التي هي أكبر أركان الاسلام ، وهي له وحده لا شريك له . وإيتاء الزكاة التي هي حق المخلوقين ، ومساعدة المحتاجين من الضعفاء والمساكين .

(٥٦) ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

﴿ فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ هو كقوله تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين فهو مفلح في الدنيا والآخرة ومنصور في الدنيا والآخرة ، وهذه الآيات نزلت في عبادة بن الصامت حين تبرأ من حلف اليهود ، ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين .

(٥٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

هذا تنفير من موالاة أعداء الاسلام وأهله من الكتابيين والمشركين الذين يتخذون أفضل ما يعمله العاملون ، وهي شرائع الاسلام المطهرة المحكمة المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي يتخذونها ﴿ هزواً ﴾ يستهزئون بها ﴿ ولعباً ﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد ، وفكرهم البارد ، والمراد بالكفار هنا المشركون . وقوله ﴿ واتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم مؤمنين بشرع الله الذي اتخذه هؤلاء هزواً ولعباً .

(٥٨) ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

أي وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوي

الألباب . ﴿ اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ معاني عبادة الله وشرائعه ، وهذه صفات اتباع الشيطان الذي إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص ـ أي خراط ـ حتى لا يسمع التأذين ، فإذا قضى التأذين أقبل ، فإذا ثوب للصلاة أدبر ، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل لا يدري كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام . متفق عليه .

﴿٥٩﴾ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من أهل الكتاب : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن . . . ﴾ أي هل لكم علينا من مطعن أو عيب إلا هذا ؟ وهذا ليس بعيب ولا مذمة . وهو كقوله تعالى ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾وكقوله ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ وفي الحديث المتفق عليه : « ما ينقم ابن جميل إلا أن كان فقيراً فأغناه الله » ﴿ وأن أكثركم فاسقون ﴾ أي وآمنا بأن أكثركم فاسقون أي خارجون عن الطريق المستقيم .

﴿٦٠﴾ ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

أي هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا ؟ وهم أنتم الذين هم متصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله : ﴿ من لعنه الله ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿ وغضب عليه ﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿ وجعل منهم القردة والخنازير ﴾ عن ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير ، أهي مما مسخ الله ؟ فقال : « إن الله لم يهلك قوماً ، أو قال : لم يمسخ قوماً ، فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً ، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك » رواه مسلم من حديث سفيان الثوري ﴿ وعبد الطاغوت ﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت ، والمعنى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين في ديننا الذي هو توحيد الله ، وإفراده بالعبادات دون ما سواه ، كيف يصدر منكم هذا ؟ وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر . ولهذا قال ﴿ أولئك شر مكاناً ﴾ أي مما تظنون بنا . ﴿ وأضل عن سواء السبيل ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشاركة كقوله تعالى

﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً ﴾ .

﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴾

﴿ وإذا جاؤ وكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر . . ﴾ وهذه صفة المنافقين فيهم ، يصانعون المؤمنين في الظاهر ، قُلوبهم منطوية على الكفر ، ولهذا قال : ﴿ وقد دخلوا ﴾ أي عندك يا محمد ﴿ بالكفر ﴾ أي مستصحبين الكفر في قلوبهم ، ثم خرجوا ، وهو كامن فيها ، ولم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم ، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ، ولهذا قال ﴿وهم قد خرجوا به﴾ فخصهم به دون غيرهم. ﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ أي عالم بسرائرهم ، وما تنطوي عليه ضمائرهم ، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك وتزينوا بما ليس فيهم ، فإن الله عالم الغيب والشهادة ، أعلم بهم منهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء .

﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٦٢﴾

أي يبادرون إلى ذلك من تعاطي الاثم والمحارم ، والاعتداء على الناس ، وأكلهم أموالهم بالباطل ﴿ لبئس ما كانوا يعملون ﴾ أي لبئس العمل كان عملهم ، وبئس الاعتداء اعتداؤ هم .

﴿ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ ﴿٦٣﴾
يعني هلّا كان ينهاهم الربانيون والأحبار منهم عن تعاطي ذلك ، والربانيون هم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم ، والأحبار هم العلماء فقط . ﴿ لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ يعني من تركهم ذلك . عن ابن عباس قال : ما في القرآن آية أشد توبيخاً من هذه الآية ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار . . . ﴾ وكذا قال الضحاك : ما في القرآن آية أخوف عندي منها ، إنا لا ننهى . خطب علي بن أبي طالب فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصي ، ولم ينههم الربانيون والأحبار ، فلما تمادوا في المعاصي أخذتهم العقوبات ، فمروا بالمعروف ، وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذي نزل بهم ، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقطع

رزقاً ، ولا يقرب أجلاً . وفي الحديث « ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصي ، هم أعز منه وأمنع ، ولم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب » . رواه الامام أحمد .

(٦٤) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

يخبر تعالى عن اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة بأنهم وصفوه ـ تعالى الله علواً كبيراً ـ بأنه بخيل ، كما وصفوه بأنه فقير ، وهم أغنياء ، وعبروا عن البخل بأن قالوا ﴿ يد الله مغلولة ﴾ أي بخيلة ، والذي قال هذا : شاس بن قيس من اليهود . وقد رد الله عليهم ما قالوه ، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه فقال ﴿ غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ﴾ وهكذا وقع لهم ، فإن ما عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم كما قال تعالى ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ﴾ ﴿ بل يداه مبسوطتان . . . ﴾ أي بل هو الواسع الفضل ، الجزيل العطاء ، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه ، وهو الذي ما يخلقه من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، الذي خلق لنا كل شيء مما نحتاج إليه ، في ليلنا ونهارنا ، وحضرنا وسفرنا ، وفي جميع أحوالنا كما قال ﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾ وفي الحديث « إن عين الله ملأى ، لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في عينيه ـ قال ـ وعرشه على الماء ، وفي يده الأخرى الغيض ـ أو القبض ـ يرفع ويخفض » وقوله ﴿ وليزيدن كثيراً . . . ﴾ أي يكون ما آتاك الله يا محمد من النعمة نقمة في حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً ، وعلماً نافعاً ، يزداد به الحاسدون لك ، ولأمتك ﴿ طغياناً ﴾ وهو المبالغة والمجاوزة للحد في الأشياء ﴿ وكفراً ﴾ أي تكذيباً كما قال تعالى ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وقال تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وألقينا

بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ﴾ يعني أنه لا تجتمع قلوبهم ، بل العداوة واقعة بين فرقهم : بعضهم في بعض دائماً ، لأنهم لا يجتمعون على حق وقد خالفوك وكذبوك . ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب . . . ﴾ أي كلما عقدوا أسباباً يكيدونك بها ، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها أبطلها الله ، ورد كيدهم عليهم ، وحاق مكرهم السيء بهم ﴿ ويسعون في الأرض فساداً . . . ﴾ أي من سجيتهم أنهم دائماً يسعون في الافساد في الأرض والله لا يحب من هذه صفته .

(٦٥) ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿ لكفرنا عنهم . . . ﴾ أي لأزلنا عنهم المحذور ، وأنلناهم المقصود .

(٦٦) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل إليهم من ربهم ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو القرآن . ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه ، والأمر باتباعه حتماً لا محالة . وقوله ﴿ لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء ، والنابت لهم من الأرض ، قال تعالى : ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ وقوله تعالى ﴿ منهم أمة مقتصدة . . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

(٦٧) ﴿ * يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة ، وآمراً له بإبلاغ جميع ما أرسله الله به ، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك ، وقام به أتم القيام ، عن عائشة قالت : من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ وفي الصحيحين عنها أيضاً أنها قالت :

« لو كان محمد كاتماً شيئاً من القرآن لكتم هذه الآية ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ وقوله ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته . وقوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ أي بلغ أنت رسالتي وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم ، فلا تخف ولا تحزن ، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك . قالت عائشة : كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ قالت : فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال : « يا أيها الناس انصرفوا ، فقد عصمنا الله عز وجل » . وقوله ﴿ إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي بلغ أنت ، والله الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء .

(٦٨) ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد ﴿ يا أهل الكتاب لستم على شيء ﴾ أي من الدين ﴿ حتى تقيموا التوراة والانجيل ﴾ أي حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء ، وتعملوا بما فيها ، ومما فيها الإيمان بمحمد ﷺ ، والأمر باتباعه ﷺ ، والإيمان بمبعثه ، والاقتداء بشريعته . ﴿ فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ أي فلا تحزن عليهم ، ولا يهيبنك ذلك منهم .

(٦٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ إن الذين آمنوا ﴾ وهم المسلمون . ﴿ والذين هادوا ﴾ وهم حملة التوراة . ﴿ والصابئون ﴾ طائفة من النصارى والمجوس ليس لهم دين . والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله وباليوم الآخر ، وهو الميعاد والجزاء يوم الدين ، وعملت صالحاً ، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقلين ، فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلون ، ولا على ما تركوه وراء ظهورهم ، ولا هم يحزنون .

(٧٠) ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ

فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾

يذكر الله تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بني إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله فنقضوا تلك العهود والمواثيق ، واتبعوا آراءهم وأهواءهم ، وقدموها على الشرائع ، فما وافقهم منها قبلوه ، وما خالفهم ردوه ، ولهذا قال : ﴿ كلما جاءهم رسول بما لا تهوى . . . ﴾ .

(٧١) ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وحسبوا أن لا تكون فتنة ﴾ أي وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا فترتب ، وهو أنهم عموا عن الحق ، وصموا ، فلا يسمعون حقاً ، ولا يهتدون إليه ، ثم تاب الله عليهم ، أي مما كانوا فيه ﴿ ثم عموا وصموا كثير منهم ﴾ أي بعد ذلك ﴿ والله بصير بما يعملون ﴾ أي مطلع عليهم وعليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية منهم .

(٧٢) ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ممن قال منهم بأن المسيح هو الله ـ تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً ـ وأول كلمة نطق بها المسيح وهو صغير : ﴿ إني عبد الله ﴾ ولم يقل : إني أنا الله ، ولا ابن الله . وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ، ولهذا قال تعالى ﴿ وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله ﴾ أي فيعبد معه غيره ﴿ فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ أي فقد أوجب له النار ، وحرم عليه الجنة كما قال تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ أي ما للظالمين عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هم فيه . في الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً في الناس ، إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة ، وفي لفظ مؤمنة .

(٧٣) ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ

لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وذلك قول النصارى بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب ، وأقنوم الابن ، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ قال ابن جرير وغيره : والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم ، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً . وقوله تعالى ﴿ وما من إله إلا إله واحد ﴾ أي ليس متعدداً ، بل هو وحده لا شريك له ، إله جميع الكائنات ، وسائر الموجودات . ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿ وإن لم ينتهوا عما يقولون ﴾ أي من هذا الافتراء والكذب ﴿ ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ أي في الآخرة من الأغلال والنكال .

(٧٤) ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ أفلا يتوبون إلى الله . . . ﴾ هـذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم ، وهذا الافتراء والكذب والافك ، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة ، فكل من تاب إليه تاب عليه .

(٧٥) ﴿ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾

أي المسيح أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه ، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام كما قال تعالى ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ وقوله ﴿ وأمه صديقة ﴾ أي مؤمنة به مصدقة له ، وهذا أعلى مقاماتها ، فدل على أنها ليست نبية . وقوله ﴿ كانا يأكلان الطعام ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما ، فهما عبدان كسائر الناس ، وليسا بآلهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة . وقوله ﴿ أنظر كيف نبين لهم الآيات ﴾ أي نوضحها ونظهرها . ﴿ ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلاء أين يذهبون ، وبأي قول يتمسكون ، وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون .

(٧٦) ﴿ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ومبيناً له أنها لا

تستحق شيئاً من الإلّهية فقد قال تعالى ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ، ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿ أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا يقدر على دفع ضر عنكم ، ولا إيصال نفع إليكم . ﴿ والله هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بكل شيء ، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ، ولا يعلم شيئاً ، ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه .

(٧٧) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

﴿ لا تغلوا في دينكم ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلّهية كما صنعتم في المسيح ، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلّهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً . ﴿ وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال .

(٧٨) ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام ، وعلى لسان عيسى ابن مريم بسبب عصيانهم لله ، واعتدائهم على خلقه ، عن ابن عباس : لعنوا في التوراة والانجيل وفي الزبور وفي الفرقان .

(٧٩) ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم فقال : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه . . . ﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المآثم والمحارم ، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبوه ، فقال : ﴿ لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ روى الامام أحمد عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم في مجالسهم ، وواكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم ﴿ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ » وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فقال : « لا ، والذي نفسي بيده

حتى تأطروهم على الحق أطراً » وروى أبو داود عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أن الرجل كان يلقى الرجل ، فيقول : يا هذا اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ثم قال : ﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل . . . ﴾ إلى قوله ﴿ فاسقون ﴾ ثم قال : كلا والله ، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، أو تقصرنه على الحق قصراً » وكذا رواه الترمذي وابن ماجه .

﴿٨٠﴾ ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ﴾ يعني بذلك المنافقين . وقوله ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم ﴾ يعني بذلك موالاتهم للكافرين ، وتركهم موالاة المؤمنين التي أعقبتهم نفاقاً في قلوبهم ، وأسخطت الله عليهم سخطاً مستمراً إلى يوم ميعادهم ، ولهذا قال ﴿ أن سخط الله عليهم ﴾ ثم أخبر عنهم فقال : ﴿ وفي العذاب هم خالدون ﴾ يعني يوم القيامة . روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ قال : « يا معشر المسلمين ، إياكم والزنا ، فإن فيه ست خصال : ثلاثاً في الدنيا ، وثلاثاً في الآخرة ، فأما التي في الدنيا ، فإنه يذهب البهاء ، ويورث الفقر ، وينقص العمر ، وأما التي في الآخرة ، فإنه يوجب سخط الرب ، وسوء الحساب ، والخلود في النار » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم . . . ﴾ ورواه ابن مردويه .

﴿٨١﴾ ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبوه من موالاة الكافرين في الباطن ، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزله إليه ﴿ ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله ، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله .

﴿٨٢﴾ ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

قال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما : نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ

ليسمعوا كلامه ، ويروا صفاته ، فلما رأوه ، وقرأ عليهم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا ، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه . قوله تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس . . . ﴾ وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر وعناد وجحود ومباهتة للحق ، وغمط للناس ، وتنقص بحملة العلم ، ولهذا قتلوا كثيراً من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة ، وسموه وسحروه ، وألبوا عليه أشباههم من المشركين . وفي الحديث : « ما خلا يهودي بمسلم إلا هم بقتله » قوله تعالى ﴿ ولتجدن أقربهم مودة . . . ﴾ أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح ، وعلى منهاج انجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة كما قال تعالى ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ وفي كتابهم : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ، وليس القتال مشروعاً في ملتهم ، ولهذا قال ﴿ ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً . . . ﴾ أي يوجد فيهم القسيسون ، وهم خطباؤهم وعلماؤهم ، والرهبان جمع راهب وهو العابد مشتق من الرهبة ، وهي الخوف .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ (٨٣)

﴿ مما عرفوا من الحق ﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿ فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به . أو مع محمد ﷺ وأمته ، لأنهم هم الشاهدون له يشهدون لنبيهم أنه بلغ ، وللرسل أنهم بلغوا .

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ ۙ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٨٤)

هؤلاء كانوا كرابين أي فلاحين ، قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة ، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن آمنوا ، وفاضت أعينهم ، فقال رسول الله ﷺ : « لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم » ؟ فقالوا : لن ننتقل عن ديننا ، فأنزل الله ذلك من قولهم ﴿ وما لنا لا نؤمن بالله . . . ﴾ .

﴿ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٨٥)

أي فجازاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿ وذلك جزاء المحسنين ﴾ أي

في اتباعهم الحق ، وانقيادهم له حيث كان ، وأين كان ، ومع من كان .

(٨٦) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي جحدوا بها وخالفوها ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ أي هم أهلها ، والداخلون بها .

(٨٧) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر ، فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوج النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا ، لكني أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » وعن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني إذا أكلت من هذا اللحم انتشرت للنساء ، وإني حرمت عليّ اللحم فنزلت ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم . . . ﴾ . وقد ذهب جماعة من العلماء منهم الامام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً ، أو شيئاً من الأشياء ، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين ، كما إذا التزم تركه باليمين ، فكذلك يؤاخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه ، وذهب كثير من العلماء منهم الشافعي إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه ، ولا كفارة عليه أيضاً . وقوله ﴿ ولا تعتدوا ﴾ أي لا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، أو لا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تجاوزوا الحد فيه ، كما قال تعالى ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾ .

(٨٨) ﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ حلالاً طيباً ﴾ أي في حال كونه حلالاً طيباً ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانه .

(٨٩) ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ

﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

لغو اليمين قول الرجل في الكلام من غير قصد : لا والله ، وبلى والله ، وهذا مذهب الشافعي ، وقيل : على غلبة الظن وهو قول أبي حنيفة وأحمد ، والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله ﴿ ولكن يؤاخذكم بماعقدتم الأيمان ﴾ أي بما صممتم عليه منها وقصدتموها ﴿ فكفارته إطعام عشرة مساكين ﴾ يعني مما يجد من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه ﴿ من أوسط ما تطعمون أهليكم ﴾ قال الشافعي : الواجب في كفارة اليمين مد بمد النبي ﷺ لكل مسكين . ﴿ أو كسوتهم ﴾ قال الشافعي : لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة أجزأه ذلك ، واختلف أصحابه في القلنسوة هل تجزىء أم لا ؟ على وجهين ﴿ أو تحرير رقبة ﴾ أخذ أبو حنيفة باطلاقها ، فقال : تجزىء الكافرة كما تجزىء المؤمنة ، وقال الشافعي وآخرون : لا بد أن تكون مؤمنة ، وأخذ تقييدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب ، وإن اختلف السبب . فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفَّر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى ﴿ فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ ولا يجب تتابعها عند الامام الشافعي ، ويجب التتابع عند أبي حنيفة والحنابلة . ﴿ ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾ معناه : لا تتركوها بغير تكفير . ﴿ كذلك يبين الله لكم آياته ﴾ أي يوضحها ويفسرها .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٩٠)

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر ، وهو القمار ، وعن علي رضي الله عنه أن الشطرنج من الميسر ، وقيل : كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان ، وعن سعيد بن المسيب كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين ، وعن الأعرج قال : الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار ، وفي صحيح مسلم : « من لعب بالنردشير فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه » وفي موطأ مالك ومسند أحمد « من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله » . وأما الشطرنج فقد قال عبدالله بن عمر : إنه شر من النرد، وعن علي هو من الميسر ، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد ، وكرهه الشافعي رحمهم الله . وأما الأنصاب فهي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها ، وأما الأزلام فقالوا أيضاً : هي القداح ، كانوا

يستقسمون بها . وقوله تعالى ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ أي سخط من عمل الشيطان ، أو شر من عمل الشيطان ﴿ فاجتنبوه ﴾ أي اتركوا الرجس ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ وهذا ترغيب .

(٩١) ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾

﴿ إنما يريد الشيطان أن يوقع . . . ﴾ وهذا تهديد وترهيب .

روى الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : حرمت الخمر ثلاث مرات : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وهم يشربون الخمر ، ويأكلون الميسر ، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما فأنزل الله ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ فقال الناس : ما حرما علينا ، إنما قال ﴿ فيهما إثم كبير ومنافع للناس ﴾ وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوماً من الأيام ، صلى رجل من المهاجرين ، أمَّ أصحابه في المغرب فخلط في قراءته فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة ، وهو مغبن ، ثم أنزلت آية أغلظ منها ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس . . . ﴾ قالوا انتهينا ربنا .

(٩٢) ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

(٩٣) ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

لما نزل تحريم الخمر قالوا : كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح . . . ﴾ عن عثمان بن عفان يقول : اجتنبوا الخمر ، فإنها الخبائث ، إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس فعلقته امرأة غوية ، فأرسلت إليه جارتها أن تدعوه لشهادة فدخل معها ، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة ، عندها غلام وباطية خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك لشهادة ، ولكن دعوتك لتقع عليّ ، أو تقتل هذا الغلام ، أو تشرب هذا الخمر ، فسقته كأساً ، فقال : زيدوني ، فلم يرم حتى وقع عليها ، وقتل النفس ، فاجتنبوا الخمر ، فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبداً إلا أوشك أحدهما أن يخرج صاحبه . رواه

البيهقي ، وإسناده صحيح ، وله شاهد في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق سرقة حين يسرقها وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿٩٤﴾

﴿ ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ﴾ عن ابن عباس هو الضعيف من الصيد ، وصغيره يبتلي الله به عباده في إحرامهم ، حتى لو شاءوا لتناولوه بأيديهم فنهاهم الله أن يقربوه . وقال مجاهد ﴿ تناله أيديكم ﴾ يعني صغار الصيد وفراخه ﴿ ورماحكم ﴾ يعني كباره ، وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم ، لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن فعله ، وهم محرمون ﴿ ليعلم الله من يخافه بالغيب ﴾ يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره ﴿ فمن اعتدى بعد ذلك ﴾ أي بعد هذا الاعلام والانذار والتخويف ﴿ فله عذاب أليم ﴾ أي لمخالفته أمر الله وشرعه .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ ﴿٩٥﴾

وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد في حال الاحرام ، ونهي عن تعاطيه فيه ، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول ، ولو ما تولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر فعند الشافعي يجوز للمحرم قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال : « خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم : الغراب ، والحدأة ، والعقرب ، والفأرة ، والكلب العقور » قال أيوب : فقلت لنافع : فالحية ؟ قال : الحية لا شك فيها ، ولا يختلف في قتلها ، ومن العلماء من ألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر

والفهد ، لأنها أشد ضرراً منه والله أعلم . وقوله ﴿ ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ . الذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه ، وقال الزهري : دل الكتاب على العامد ، وجرت السنة على الناسي . ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله ﴿ ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ ، كما دل الكتاب عليه في العمد ، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف ، والاتلاف مضمون في العمد وفي النسيان ، لكن المتعمد مأثوم والمخطىء غير ملوم . وقوله ﴿ فجزاء مثل ما قتل من النعم ﴾ في الآية دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم إذا كان له مثل من الحيوان الانسي خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً ، أو غير مثلي ، قال: وهو مخير إن شاء تصدق بثمنه ، وإن شاء اشترى به هدياً ، والذي حكم به الصحابة في المثل أولى بالاتباع ، فإنهم حكموا في النعامة ببدنة ، وفي بقرة الوحش ببقرة ، وفي الغزال بعنز . وقوله ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثل ، أو بالقيمة في غير المثل عدلان من المسلمين . وقوله ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ أي واصلاً إلى الكعبة ، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ، ويفرق لحمه على مساكين الحرم ، وهذا أمر متفق عليه في هذه الصورة . ﴿ أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياماً ﴾ أي إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم ، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال ، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام بين الجزاء والاطعام والصيام ، كما هو قول مالك وأبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وأحد قولي الشافعي ، والمشهور عن أحمد رحمهم الله لظاهر (أو) بأنها للتخيير ، والقول الآخر أنها على الترتيب ، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة ، فيقوَّم الصيد المقتول عند مالك وأبي حنيفة وأصحابه ، وقال الشافعي : يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً ثم يشترى به طعام فيتصدق به فيصرف لكل مسكين مد منه عند الشافعي ومالك وفقهاء الحجاز . وقال أبو حنيفة وأصحابه يطعم كل مسكين مُدَّين . واختلفوا في مكان هذا الاطعام ، فقال الشافعي : مكانه الحرم ، وقال مالك : يطعم في المكان الذي أصاب فيه الصيد ، أو أقرب الأماكن إليه ، وقال أبو حنيفة : إن شاء أطعم في الحرم ، وإن شاء أطعم في غيره . ﴿ عفا الله عما سلف ﴾ أي في زمان الجاهلية لمن أحسن في الاسلام ، واتبع شرع الله ، ولم يرتكب المعصية . ﴿ ومن عاد فينتقم الله منه ﴾ أي ومن فعل ذلك بعد تحريمه في الاسلام وبلوغ الحكم الشرعي إليه ﴿ فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام ﴾

والله منيع في سلطانه لا يقهره قاهر ، ولا يمنعه من الانتقام ممن انتقم منه ، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع ، لأن الخلق خلقه والأمر أمره ، له العزة والمنعة . وقوله ﴿ ذو انتقام ﴾ يعني أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه .

(٩٦) ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿ أحل لكم صيد البحر ﴾ أي ما يصطاد منه طرياً . ﴿ وطعامه ﴾ ما لفظه ميتاً ، أو كل ما فيه ﴿ وللسيارة ﴾ وهم جمع سيار ، لمن كان بحضرة البحر والسفر وقد استدل الجمهور على حل ميتته بهذه الآية الكريمة ﴿ وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً ﴾ أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصطياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك .

(٩٧) ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(٩٨) ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(٩٩) ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

لم يتعرض ابن كثير لتفسير هذه الآيات الثلاث .

(١٠٠) ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك ﴾ أي يا أيها الانسان ﴿ كثرة الخبيث ﴾ يعني أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار كما جاء في الحديث « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » وعن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال النبي ﷺ : « قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه » ، ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي يا ذوي العقول الصحيحة المستقيمة ، وتجنبوا الحرام ، ودعوه ، واقنعوا بالحلال واكتفوا به ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي في الدنيا والاخرة .

(١٠١) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين ، ونهي لهم عن أن يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها ، لأنها إن ظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم ، وشق عليهم سماعها ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « لا يبلغني أحد عن أحد شيئاً ، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة ، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر ، فقال : « لا تسألوني اليوم عن شيء ! إلابينته لكم » فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر ، فجعلت لا ألتفت يميناً ولا شمالاً إلا وجدت كلًّا لافاً رأسه في ثوبه يبكي فأنشأ رجل كان يلاحي ، فيدعى إلى غير أبيه ، فقال : يا نبي الله ، من أبي ؟ قال : « أبوك حذافة » قال : ثم قام عمر ، أو قال : فأنشأ عمر ، فقال : رضينا بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد رسولاً ، عائذاً بالله ، أو قال : أعوذ بالله من شر الفتن ، قال : وقال رسول الله ﷺ : « لم أر في الخير والشر كاليوم قط ، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط » أخرجاه من طريق سعيد ، قال الزهري : فقالت أم عبدالله بن حذافة : ما رأيت ولداً أعق منك قط ، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية ، فتفضحها على رؤوس الناس ، فقال : والله لو ألحقني بعبد أسود للحقته . ﴿ وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ﴾ أي وإن تسألوا عن هذه الأشياء التي نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم ﴿ عفا الله عنها ﴾ أي عما كان منكم قبل ذلك . وفي الحديث الصحيح « ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم ، واختلافهم على انبيائهم » وفي الحديث الصحيح أيضاً « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » .

(١٠٢) ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾

أي قد سأل هذه المسائل المنهي عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها ، ثم لم يؤمنوا بها فأصبحوا بها كافرين ، أي بسببها ، أي بينت لهم فلم ينتفعوا بها ، لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد ، بل على وجه الاستهزاء والعناد . عن ابن عباس في الآية أن رسول الله ﷺ أذن في الناس فقال : « يا قوم كتب عليكم الحج » فقام رجل من بني أسد فقال يا

رسول الله : أفي كل عام ؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً فقال : « والذي نفسي بيده ، لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت ما استطعتم ، وإذاً لكفرتم ، فاتركوني ما تركتكم ، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه » فأنزل الله هذه الآية ، نهاهم أن يسألوا عن مثل الذي سألت عنه النصارى من المائدة فأصبحوا بها كافرين ، فنهى الله عن ذلك ، وقال : لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك ، ولكن انتظروا ، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم بيانه . رواه ابن جرير .

(١٠٣) ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾

في البخاري عن سعيد بن المسيب قال : البحيرة : التي يمنع درها للطواغيت ، فلا يحلبها أحد من الناس . والسائبة : كانوا يسيبونها لآلهتهم ، لا يحمل عليها شيء ، قال : وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب » والوصيلة : الناقة البكر ، تبكر في أول نتاج الإبل ، ثم تثني بعد بأنثى ، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأخرى ليس بينهما ذكر ، والحام : فحل الإبل يضرب الضراب المعدود ، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت ، وأعفوه عن الحمل ، فلم يحمل عليه شيء ، وسموه الحامي » وكذا رواه مسلم والنسائي . ﴿ ولكن الذين كفروا . . . ﴾ أي ما شرع الله هذه الأشياء ولا هي عنده قربة ، ولكن المشركين افتروا ذلك ، وجعلوه شرعاً لهم ، وقربة يتقربون بها إليه ، وليس ذلك بحاصل لهم ، بل هو وبال عليهم .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾

أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه ، وما أوجبه ، وترك ما حرمه ، قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك ، قال تعالى : ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ﴾ أي لا يفهمون حقاً ، ولا يعرفونه ، ولا يهتدون إليه ، فكيف يتبعونهم والحالة هذه ؟ لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم ، وأضل سبيلاً .

(١٠٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم ، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم ، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً . ﴿ عليكم أنفسكم ﴾ نصب على الاغراء ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم . . . ﴾ أي فيجازي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وليس فيه دليل على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كان فعل ذلك ممكناً ، روى الإمام أحمد أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ، إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . . ﴾ وإنكم تضعونها في غير موضعها ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر ، ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه» . وروى الترمذي أن أبا أمية الشعباني قال : أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم . . . ﴾ قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سُئل عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام ، فإن من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم » قال عبدالله بن المبارك وزاد غير عتبة بن أبي حكيم ، قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال : « بل أجر خمسين منكم » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب صحيح . وعن ابن مسعود رضي الله عنه ، سأله رجل عن قول الله ﴿ عليكم أنفسكم . . . ﴾ فقال : إن هذا ليس بزمانها ، إنها اليوم مقبولة ، ولكنه قد يوشك أن يأتي زمانها ، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا ، أو قال : فلا يقبل منكم فحينئذٍ ﴿ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ .

﴿١٠٦﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز ، قيل : إنه منسوخ ، وقال آخرون ، وهم الأكثرون فيما قاله ابن جرير : بل هو محكم ، ومن ادعى نسخه فعليه البيان . ﴿ ذوا عدل ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين . ﴿ منكم ﴾ من المسلمين ، وقيل : من أهل الموصي . ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ من غير المسلمين ، يعني أهل الكتاب ، أو من غير قبيلة الموصي ﴿ إن أنتم ضربتم في الأرض ﴾ أي سافرتم ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين ؛ أن يكون ذلك في سفر ، وأن يكون في وصية ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة ﴾ يعني صلاة العصر ، أو صلاة المسلمين ، أو صلاة أهل دينهما ، والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿ فيقسمان بالله ﴾ أي فيحلفان بالله ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما خانا ، أو غلا فيحلفان حينئذٍ بالله ﴿ لا نشتري به ﴾ أي بأيماننا ﴿ ثمناً ﴾ أي لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ أي ولو كان المشهود عليه قريباً لنا نحابيه ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها ، وتعظيماً لأمرها ﴿ إنا إذاً لمن الآثمين ﴾ أي إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية .

(١٠٧) ﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خانا ، أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما ، وظهر عليهما بذلك ﴿ فآخران يقومان مقامهما . . . ﴾ أي متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتهما فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة ، وليكونا من أولي من يرث ذلك المال ﴿ فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما ﴾ أي لقولنا : إنهما خانا أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿ وما اعتدينا ﴾ أي فيما قلنا فيهما من الخيانة ﴿ إنا إذاً لمن الظالمين ﴾ أي إن كنا قد كذبنا عليهما ، وهذا التحليف للورثة ، والرجوع إلى قولهما والحالة هذه .

(١٠٨) ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

﴿ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ أي شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضي من تحليف الشاهدين الذميين أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضي ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي يكون الحاصل لهم على الاتيان بها على وجهها هو تعظيم الحلف بالله، ومراعاة جانبه، وإجلاله والخوف من الفضيحة بين الناس إن ردت اليمين على الورثة فيحلفون ويستحقون ما يدعون ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ واسمعوا ﴾ أي وأطيعوا ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

(١٠٩) ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجيبوا به من أممهم الذين أرسلهم إليهم كما قال تعالى ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين ﴾ وقول الرسل ﴿ لا علم لنا ﴾ إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم أو قالوا ذلك لأنهم نزلوا منزلا ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا ﴿ لا علم لنا ﴾ ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم . وعن ابن عباس : يقولون للرب عز وجل : لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا ، ولا شك أن هذا قول حسن ، وهو من باب التأدب مع الرب جل جلاله أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء ، فنحن وإن كنا أجبنا وعرفنا من أجابنا ، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه ، وأنت العليم بكل شيء ، المطلع على كل شيء ، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم فإنك ﴿ أنت علام الغيوب ﴾ .

(١١٠) ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يذكر الله ما منَّ به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من المعجزات الباهرات، وخوارق العادات فقال: ﴿ اذكر نعمتي عليك ﴾ أي في خلقي إياك من الأم بلا ذكر، وجعلي إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتي على الأشياء ﴿ وعلى والدتك ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون والجاهلون

إليها من الفاحشة ﴿ إذ أيدتك بروح القدس ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله في صغرك وكبرك، فأنطقتك في المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لي بالعبودية، وأخبرت عن رسالتي إياك، ودعوت إلى عبادتي، ولهذا قال ﴿ تكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ أي تدعو إلى الله في صغرك وكبرك، وضمَّن ﴿ تكلم ﴾ تـدعـو لأن كلامه الناس في كهولته ليس بأمر عجيب ﴿ وإذ علمتك الكتاب والحكمة ﴾ أي الخط والفهم ﴿ والتوراة ﴾ وهي المنزلة على موسى بن عمران الكليم ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني ﴾ أي تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذني لك في ذلك ﴿ فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني ﴾ أي فتنفخ في تلك الصورة التي شكلتها بإذني لك في ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير بإذن الله وخلقه . ﴿ وتبرىء الأكمه والأبرص بإذني ﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته ﴿ وإذ تخرج الموتى بإذني ﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيئته ﴿ وإذ كففت بني إسرائيل عنك . . . ﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ، ورفعتك إليّ ، وطهرتك من دنسهم ، وكفيتك شرهم . وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء ، أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة ، وعبر بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ .

(١١١) ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً، ثم قيل: إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ وهو وحي إلهام بلا خلاف ، وكما قال تعالى ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ وهكذا قال بعض السلف في هذه الآية ، ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين . . . ﴾ أي ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا ، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إليهم بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله ورسوله ، واستجابوا لك ، وانقادوا ، وتابعوك فقالوا : ﴿ آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون ﴾ .

(١١٢) ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

هذه قصة المائدة ، وإليها تنسب السورة ، فيقال : سورة المائدة ، وهي مما امتن الله به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم لما أجاب دعاءه بنزولها ، فأنزل الله آية باهرة ، وحجة قاطعة ، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصتها ليست مذكورة في الانجيل ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين فالله أعلم . ﴿ إذ قال الحواريون ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ﴾ والمائدة هي الخوان عليه طعام ، وذكر بعضهم أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقرهم فسألوه أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ، ويتقوون بها على العبادة ﴿ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين ﴾ أي فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم اتقوا الله ، ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم ، وتوكلوا على الله في طلب الرزق إن كنتم مؤمنين .

(١١٣) ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾

﴿ قالوا نريد أن نأكل منها ﴾ أي نحن محتاجون إلى الأكل منها ﴿ وتطمئن قلوبنا ﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء ﴿ ونعلم أن قد صدقتنا ﴾ أي ونزداد إيماناً بك ، وعلماً برسالتك ﴿ وتكون عليها من الشاهدين ﴾ أي ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به .

(١١٤) ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

﴿ تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ﴾ ، قال السدي : أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا ، وقال سفيان الثوري : يوماً نصلي فيه ، وعن سلمان الفارسي : عظة لنا ولمن بعدنا ﴿ وآية منك ﴾ أي دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء ، وعلى إجابتك لدعوتي ، فيصدقيني فيما أبلغه عنك ﴿ وارزقنا ﴾ أي من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب .

(١١٥) ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

﴿ فمن يكفر بعد منكم ﴾ أي فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها ﴿ فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ﴾ أي من عالمي زمانكم .

(١١٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

هذا أيضاً مما يخاطب الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿ يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد ، ﴿سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ هذا توفيق للأدب في الجواب الكامل ﴿ إن كنت قلته فقد علمته ﴾ أي إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب ، فإنه لا يخفى عليك شيء ، فما قلته ، ولا أردته لنفسي ، ولا أضمرته ، ولهذا قال ﴿ تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك . . . ﴾ .

(١١٧) ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

﴿ ما أمرتني به ﴾ أي بإبلاغه ﴿ أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ أي ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به ، وأمرتني بإبلاغه ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ﴾ أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿ فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم . . ﴾ عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « أيها الناس ، إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده ﴾ وإن أول الخلائق يكن يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال ، فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿ وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾. فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » رواه أبو داود الطيالسي ، ورواه البخاري عند هذه الآية .

(١١٨) ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله ، وجعلوا له أنداداً وصاحبة وولداً ، تعالى الله عما

يقولون علواً كبيراً . وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها . روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : صلى النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ، ويسجد بها ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . ﴾ فلما أصبح قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : « إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها ، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً » .

(١١٩) ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل ، فعند ذلك يقول ﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ أي يوم ينفع الموحدين توحيدهم ﴿ لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أي ماكثين فيها ، لا يحولون ولا يزولون ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، كما قال تعالى ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أنس مرفوعاً قال : قال رسول الله ﷺ : « ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله فيقول : سلوني سلوني أعطكم قال : فيسألونه الرضا ، فيقول : رضاي ، أحلكم داري ، وأنيلكم كرامتي ، فسلوني أعطكم ، فيسألونه الرضا ، قال : فيشهدهم أنه قد رضي عنهم سبحانه وتعالى ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه كما قال تعالى ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ وكما قال ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ .

(١٢٠) ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴾

﴿ لله ملك السموات . . . ﴾ أي هو الخالق للأشياء المالك لها ، المتصرف فيها ، القادر عليها ، فالجميع ملكه ، وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته ، فلا نظير له ، ولا وزير ولا عديل ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ، ولا إلَه غيره ولا رب سواه . عن عبدالله بن عمر قال : آخر سورة نزلت سورة المائدة .



تفسير سُورَةُ الأنعَامِ



عن جابر قال : لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله ﷺ ، ثم قال : « لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق » قال الحاكم في مستدركه : صحيح على شرط مسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مادحاً نفسه الكريمة ، وحامداً لها على خلقه السماوات والأرض قراراً لعباده ، وجعل الظلمات والنور منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم ، فجمع لفظ الظلمات ، ووحَّد لفظ النور لكونه أشرف ، كقوله ﴿ عن اليمين وعن الشمائل ﴾ وقوله ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق عن سبيله ﴾ ثم قال ﴿ والذين كفروا بربهم يعدلون ﴾ أي ومع هذا كله كفر بعض عباده ، وجعلوا له شريكاً وعدلاً ، واتخذوا له صاحبة وولداً . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(٢) ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ يعني أباهم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا فانتشروا في المشارق والمغارب ﴿ ثم قضى أجلاً ﴾ يعني الموت ﴿ وأجل مسمى عنده ﴾ يعني الآخرة ﴿ ثم أنتم تمترون ﴾ تشكون في أمر الساعة .

(٣) ﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض ﴾ اختلف مفسروا هذه الآية على أقوال بعد اتفاقهم على إنكار قول الجهمية الأول القائلين : ـ تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ـ : بأنه في كل مكان حيث حملوا الآية على ذلك ، فالأصح من الأقوال أنه المدعو الله في السماوات وفي الأرض ، أي يعبده ويوحده ويقر له بالإلَهية من في السماوات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رغباً ورهباً إلا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقولِه سبحانه ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ﴾ أي هذا إلهُ من في الأرض

وإلهُ من في السماء فيكون قوله ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ خبراً ، أو حالاً . أو المراد أنه الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض من سر وجهر فيكون قوله ﴿ يعلم ﴾ متعلقاً بقوله ﴿ في السماوات وفي الأرض ﴾ تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السماوات وفي الأرض ويعلم ما تكسبون ، أو أن قوله ﴿ وهو الله في السماوات وفي الأرض ﴾ وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : ﴿ يعلم سركم وجهركم ﴾ وقوله ﴿ ويعلم ما تكسبون ﴾ أي جميع أعمالكم خيرها وشرها .

﴿٤﴾ ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين المعاندين أنهم كلما أتتهم من آية ، أي دلالة ومعجزة وحجة من الدلالات على وحدانية الله وصدق رسله الكرام فإنهم يعرضون عنها فلا ينظرون إليها ولا يبالون بها .

﴿٥﴾ ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب وليجدن وليذوقن وباله .

﴿٦﴾ ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَـٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾

ثم قال واعظاً لهم ومحذراً لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعاً ، وأكثر أموالاً وأولاداً واستعلاءً في الأرض وعمارة لها فقال ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ﴾ أي من الأموال والأولاد والإعمار والجاه العريض والسعة والجنود ﴿ وأرسلنا السماء عليهم مدراراً ﴾ أي شيئاً بعد شيءٍ ﴿ وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم ﴾ أي أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض ، أي استدراجاً وإملاءً لهم ﴿ فأهلكناهم بذنوبهم ﴾ أي بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترحوها ﴿ وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ أي فذهب الأولون كأمس الذاهب ، وجعلناهم أحاديث ، فما أنتم بأعز على الله منهم ، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم لولا لطفه وإحسانه .

(٧) ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين وعنادهم ومكابرتهم للحق ومباهتتهم ومنازعتهم فيه ﴿ ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم ﴾ أي عاينوه ورأوا نزوله وباشروا ذلك ﴿ لقال الذين كفروا ﴾ وهذا كما قال الله مخبراً عن مكابرتهم للمحسوسات ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ وكقوله ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ .

(٨) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾

﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ﴾ ليكون معه نذيراً ﴿ ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون ﴾ أي لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم العذاب من السماء .

(٩) ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾

ولو أنزلنا مع الرسول البشري ملكاً ، أي لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة الرجل ليمكنهم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه ، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر ، كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري كقوله ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ فمن رحمته تعالى بخلقه أن يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسلاً منهم ليدعوا بعضهم بعضاً ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ﴿ وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ أي ولخلطنا عليهم ما يخلطون .

(١٠) ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

هذه تسلية للنبي ﷺ في تكذيب من كذب من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة .

(١١) ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

﴿ قل سيروا . . . ﴾ أي فكروا في أنفسكم وانظروا ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم من العذاب والنكال والعقوبة في الدنيا مع ما ادخر لهم من العذاب الأليم في الآخرة ، وكيف نجى رسله وعباده المؤمنين .

(١٢) ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السماوات والأرض ومن فيهما ، وأنه قد كتب على نفسه المقدسة الرحمة كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً عنده فوق العرش ، إن رحمتي تغلب غضبي » . ﴿ ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ هذه اللام هي الموطئة للقسم فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده ﴿ إلى ميقات يوم معلوم ﴾ وهو يوم القيامة الذي لا ريب فيه أي لا شك عند عباده المؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون شر ذلك اليوم .

(١٣) ﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

أي كل دابة في السموات والأرض ، الجميع عباده ، وخلقه ، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره ، لا إله إلا هو ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم .

(١٤) ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

ثم قال تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ الذي بعثه بالتوحيد العظيم ، وبالشرع القويم ، وأمره أن يدعو الناس إلى صراط مستقيم ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض ﴾ كقوله ﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ﴾ والمعنى لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له ، فإنه فاطر السموات والأرض ، أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق ﴿ وهو يطعم ولا يطعم ﴾ أي وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم كما قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ وعن أبي هريرة قال : دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي ﷺ على طعام فانطلقنا معه ، فلما طعم النبي ﷺ وغسل يديه قال : « الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم ، ومن علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا من الشراب ،

وكسانا من العري ، وكل بلاء حسن أبلانا ، الحمد لله غير مودع ربي ، ولا مكفيّ ، ولا كفور ، ولا مستغنى عنه ، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانا من العري ، وهدانا من الضلال ، وبصرنا من العمى ، وفضلنا على كثير ممن خلق تفضيلاً ، الحمد لله رب العالمين » ﴿ قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ﴾ أي من هذه الأمة .

(١٥) ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ يعني يوم القيامة .

(١٦) ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ عنه ﴾ عن العذاب ﴿ يومئذٍ فقد رحمه ﴾ يعني فقد رحمه الله ﴿ وذلك هو الفوز المبين ﴾ كقوله ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ والفوز حصول الربح ، ونفي الخسارة .

(١٧) ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه مالك الضر والنفع ، وأنه المتصرف في خلقه بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه ﴿ وإن يمسسك الله بضر . . . ﴾ كقوله ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » .

(١٨) ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

ولهذا قال ﴿ وهو القاهر فوق عباده ﴾ أي وهو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته على الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه ، وتحت قهره وحكمه ﴿ وهو الحكيم ﴾ أي في جميع أفعاله ﴿ الخبير ﴾ بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي إلا من يستحق ، ولا يمنع إلا من يستحق .

(١٩) ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

أي من أعظمُ الأشياء شهادة ؟ ﴿ قل الله شهيد بيني وبينكم ﴾ أي هو العالم بما جئتكم به ، وما أنتم قائلون لي ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي هو نذير لكل من بلغه كقوله ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ عن محمد بن كعب في قوله ﴿ ومن بلغ ﴾ من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي ﷺ ، زاد أبو خالد : وكلمه . وفي الحديث « بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بلغه أمر الله » . ﴿ أئنكم لتشهدون ﴾ أيها المشركون ﴿ أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد ﴾ كقوله ﴿ فإن شهدوا فلا تشهد معهم ﴾ ﴿ قل إنما هو إلَه واحد وإنني بريء مما تشركون ﴾ .

(٢٠) ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن أهل الكتاب أنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم بما عندهم من الأخبار ، والأنباء عن المرسلين المتقدمين ، والأنبياء ، فإن الرسل كلهم بشروا بوجود محمد ﷺ ونعته ، وصفته ، وبلده ، ومهاجره وصفة أمته ، ولهذا قال بعده ﴿ الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خسروا كل الخسارة ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه .

(٢١) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

أي لا أظلم ممن تقوَّل على الله ، فادعى أن الله أرسله ، ولم يكن أرسله ، ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي لا يفلح هذا ، ولا هذا المفتري ولا المكذب .

(٢٢) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ﴾ يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه قائلاً لهم ﴿ أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ﴾ كقوله في سورة القصص ﴿ ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ .

(٢٣) ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

﴿ ثم لم تكن فتنتهم ﴾ أي حجتهم ، أو بليتهم حين ابتلوا ، وقال ابن جرير : والصواب ثم لم يكن قبلهم عند فتنتنا إياهم اعتذاراً عما سلف منهم من الشرك بالله ﴿ إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ .

(٢٤) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ أنظر كيف كذبوا . . . ﴾ كقوله ﴿ ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ، بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

أي يجيئون ليستمعوا قراءتك ولا تجزي عنهم شيئاً لأن الله جعل على قلوبهم أكنة ، أي أغطية ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمماً عن السماع النافع لهم ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ أي مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات والبراهين لا يؤمنوا بها فلا فهم عندهم ولا إنصاف ، كقوله تعالى ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ ﴿ حتى إذا جاءوك يجادلونك ﴾ أي يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل ﴿ يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم .

(٢٦) ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾ في معنى ﴿ينهون عنه﴾ قولان، أحدهما أن المراد أنهم ينهون الناس عن اتباع الحق ، وتصديق الرسول ﷺ والانقياد للقرآن ﴿ وينأون عنه ﴾ أي ويبعدون هم عنه ، فيجمعون بين الفعلين القبيحين ، لا ينتفعون ، ولا يدعون أحداً ينتفع . والقول الثاني عن ابن عباس ﴿ وهم ينهون عنه ﴾ قال : نزلت في أبي طالب ، كان ينهى الناس عن النبي ﷺ أن يؤذى . وقوله ﴿ وينأون عنه ﴾ أي يتباعدون منه ﴿ وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يهلكون بهذا الصنيع ، ولا يعود وباله إلا عليهم ، وهم لا يشعرون .

(٢٧) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال فعند ذلك قالوا ﴿ يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا . . . ﴾ يتمنون أن يردوا إلى دار الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً ، ولا يكذبوا بآيات ربهم ، ويكونوا من المؤمنين .

(٢٨) ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

أي بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة ، وإن أنكروها في الدنيا ، أو في الآخرة كما قال قبله بيسير ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين انظر كيف كذبوا على أنفسهم ﴾ ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءتهم به الرسل في الدنيا ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه كقوله مخبراً عن موسى أنه قال لفرعون ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ وقوله تعالى مخبراً عن فرعون وقومه ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون الإيمان للناس ، ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخباراً عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ، ومن حولها من الأعراب ، فقد ذكر الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت فقال ﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ وعلى هذا فيكون إخباراً عن قول المنافقين في الدار الآخرة حين يعاينون العذاب فظهر لهم حينئذ غير ما كانوا يبطنون من الكفر والنفاق ، والشقاق . والله أعلم . وأما معنى الإضراب في قوله : ﴿ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ﴾ فإنهم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان ، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه جزاء على ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار ، ولهذا قال ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان .

(٢٩) ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

أي ولو ردوا لعادوا لمانهوا عنه ، ﴿ وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن مبعوثين ﴾ ثم

لا معاد بعدها ، ولهذا قالوا ﴿ وما نحن بمبعوثين ﴾ .

(٣٠) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

أي أوقفوا بين يديه ﴿ قال أليس هذا بالحق ﴾ أي أليس هذا الميعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون ؟ ﴿ قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ أي بما كنتم تكذبون به فذوقوا اليوم مسه ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ﴾ .

(٣١) ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

يقول الله مخبراً عن خسارة من كذب بلقائه وعن خيبته إذا جاءته الساعة بغتة ، وعن ندامته على ما فرط من العمل وما أسلف من قبيح الفعل ، ولهذا قال ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴾ وهذا الضمير يحتمل عوده على الحياة وعلى الأعمال وعلى الدار الآخرة ، أي في أمرها ﴿ ألا ساء ما يزرون ﴾ أي ما يحملون أو يعملون .

(٣٢) ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

أي إنما غالبها لعب ولهو .

(٣٣) ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه ﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون ﴾ أي قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك وحزنك وتأسفك عليهم كقوله ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وكقوله ﴿ لعلك باخع نفسك ألَّا يكونوا مؤمنين ﴾ وقوله ﴿ فإنهم لا يكذبونك ﴾ أي لا يتهمونك بالكذب في نفس الأمر ﴿ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾ أي ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم . عن علي قال : قال أبو جهل للنبي ﷺ إنا لا نكذبك ولكن نكذب الذي جئت به فأنزل الله ﴿ فإنهم لا يكذبونك . . . ﴾ رواه الحاكم ثم قال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، وعن أبي يزيد المدني أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه ، فقال له رجل ألا أراك تصافح هذا

الصابىء؟ فقال : والله إني لأعلم أنه لنبي ، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً وتلا أبو زيد ﴿ فإنهم لا يكذبونك ﴾ وذكر محمد بن إسحاق عن الزهري في قصة أبي جهل حين جاء يستمع قراءة النبي ﷺ من الليل هو وأبو سفيان صخر بن حرب ، والأخنس بن شريق ، ولا يشعر أحد منهم بالآخر ،فاستمعوها إلى الصباح ، فلما هجم الصبح تفرقوا ، فجمعتهم الطريق ، فقال كل منهم للآخر : ما جاء بك ؟ فذكر ما جاء به ثم تعاهدوا ألا يعودوا لما يخافون من علم شباب قريش بهم لئلا يفتنوا بمجيئهم ، فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ظناً أن صاحبيه لا يجيئان لما سبق من العهود فلما أصبحوا جمعتهم الطريق فتلاوموا ثم تعاهدوا ألا يعودوا ، فلما كانت الليلة الثالثة جاءوا أيضاً فلما أصبحوا تعاهدوا ألا يعودوا لمثلها ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ،ثم خرج حتى أتى أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ، قال يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما أعرف معناها وما يراد بها ، قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به ، ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته فقال : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ قال : ماذا سمعت ؟ قال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا فرس رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأخنس وتركه .

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴾

هذه تسلية للنبي ﷺ ، وتعزية له فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولوا العزم من الرسُل ووعد له بالنصر كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة بعدما نالهم من التكذيب من قومهم ، والأذى البليغ ثم جاءهم النصر في الدنيا كما لهم النصر في الآخرة ولهذا قال ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وقوله ﴿ ولقد جاءك من نبإ المرسلين ﴾ أي من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة ، وبهم قدوة .

(٣٥) ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ

فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾

أي إن شق عليك إعراضهم عنك ﴿ فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض ﴾ النفق : السرب ، فتذهب فيه فتأتيهم بآية ، أو تجعل لك سلماً في السماء فتصعد فيه فتأتيهم بآية أفضل مما أتيتهم به فافعل وقوله ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ كقوله ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

(٣٦) ﴿ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾

أي إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه كقوله ﴿ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴾ وقوله ﴿ والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ يعني بذلك الكفار ، لأنهم موتى القلوب ، فشبههم بأموات الأجساد وهذا من باب التهكم بهم والإزراء عليهم .

(٣٧) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم كانوا يقولون ﴿ لولا نزِّل عليه آية من ربه ﴾ أي خارق على مقتضى ما كانوا يريدون وما يتعنتون كقولهم ﴿ لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ ﴿ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ ﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ أي هو تعالى قادر على ذلك ، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا لعاجلهم بالعقوبة كما فعل بالأمم السالفة .

(٣٨) ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾

﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ أصناف مصنفة تعرف بأسمائها . قال قتادة الطير أمة ، والأنس أمة ، والجن أمة ، والمراد أنهم خلق أمثالكم . ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ أي الجميع علمهم عند الله ، ولا ينسى واحداً من جميعها من رزقه وتدبيره ، سواء كان برياً أو

بحرياً ، كقوله ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ أي مفصح بأسمائها وأعدادها ومظانها ، وحاصر لحركاتها وسكناتها ، قال تعالى ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ وقوله ﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾ عن ابن عباس : حشرها الموت ، أو حشرها هو بعثها يوم القيامة ، لقوله ﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ وروى الإمام أحمد عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان ، فقال : « يا أبا ذر ، هل تدري فيم تنتطحان ؟ قال : لا ، قال : « لكن الله يدري ، وسيقضي بينهما » وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الجماء لتقتص من القرناء يوم القيامة » .

(٣٩) ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

أي مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم ، وهو الذي لا يسمع ، وأبكم ، وهو الذي لا يتكلم ، وهو مع هذا في ظلمات لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يخرج مما هو فيه ؟ ولهذا قال : ﴿ من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ﴾ أي هو المتصرف في خلقه بما يشاء .

(٤٠) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، والمتصرف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا معقب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لا شريك له الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء ، ولهذا قال ﴿ قل أرأيتكم إن أتاكم عذابه . . . ﴾ أي أتاكم هذا أو هذا ﴿ أغير الله تدعون ﴾ أي لا تدعون غيره ، لعلمكم أنه لا يقدر أحد على رفع ذلك سواه ، ولهذا قال ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي في اتخاذكم آلهة معه .

(٤١) ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وتنسون ما تشركون ﴾ أي في وقت الضرورة لا تدعون أحداً سواه ، وتذهب عنكم أصنامكم ، وأندادكم ، كقوله ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾

﴿ بالبأساء ﴾ أي يدعون الله ويتضرعون إليه ، ويخشعون .

(٤٣) ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾
أي فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا ، وتمسكنوا لدينا ، ﴿ ولكن قست قلوبهم ﴾ أي ما رقت ولا خشعت ﴿ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ أي من الشرك والمعاندة والمعاصي .

(٤٤) ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾
﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي أعرضوا عنه ، وتناسوه ، وجعلوه وراء ظهورهم ﴿ فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ أي فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى ، وإملاء لهم ، عياذاً بالله من مكره ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ أي من الأموال والأولاد والأرزاق ﴿ أخذناهم بغتة ﴾ أي على غفلة ﴿ فإذا هم مبلسون ﴾ أي آيسون من كل خير . قال الحسن البصري : من وسع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له ، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له ، ثم قرأ ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم . . . ﴾ قال : مكر بالقوم ورب الكعبة ، أعطوا حاجتهم ، ثم أخذوا ، وقال قتادة : بغت القوم أمر الله ، وما أخذ الله قوماً إلا عند سكرتهم ، وغرتهم ، ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، فإنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . وروى ابن أبي حاتم عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ كان يقول : « إذا أراد الله بقوم بقاء أو نماء رزقهم القصد والعفاف ، وإذا أراد الله بقوم اقتطاعاً فتح لهم ـ أو فتح عليهم ـ باب الخيانة حتى إذا فرحوا بما أوتوا . . . » .

(٤٥) ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾
(٤٦) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾
يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل ﴾ لهؤلاء المكذبين المعاندين ﴿ أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ﴾ أي سلبكم إياها كما أعطاكموها ، كما قال تعالى ﴿ هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار . . . ﴾ ويحتمل أن يكون هذا عبارة عن منع الانتفاع بهما الانتفاع

الشرعي ولهذا قال ﴿ وختم على قلوبكم ﴾ ﴿ من إله غير الله يأتيكم به ﴾ أي هل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه الله منكم لا يقدر على ذلك أحد سواه ، ولهذا قال ﴿ أنظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي نبينها ونوضحها ونفسرها دالة على أنه لا إله إلا الله ، وأن ما يعبدون من دونه باطل وضلال ﴿ ثم هم يصدفون ﴾ أي ثم هم مع هذا البيان يصدفون ، أي يعرضون عن الحق ، ويصدون الناس عن اتباعه ، وعن ابن عباس : يصدفون : يعدلون .

(٤٧) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

﴿ بغتة ﴾ أي وأنتم لا تشعرون حتى بغتكم وفجأكم ﴿ أو جهرة ﴾ أي ظاهراً عياناً ﴿ هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴾ أي إنما كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله ، وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(٤٨) ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

أي مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ، ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات ، ولهذا قال ﴿ فمن آمن وأصلح ﴾ أي فمن آمن قلبه بما جاءوا به ، وأصلح عمله باتباعه إياهم ﴿ فلا خوف عليهم ﴾ أي بالنسبة لما يستقبلونه . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي بالنسبة لما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها فالله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه .

(٤٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾

أي ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته ، وارتكبوا من مناهيه ومحارمه وانتهاك حرماته .

(٥٠) ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ﴾ أي لست أملكها ولا أتصرف بها ﴿ ولا أعلم الغيب ﴾ أي ولا أقول لكم إني أعلم الغيب ، أي ذاك من علم

الله عز وجل ولا أطلع منه إلا على ما أطلعني الله عليه ﴿ ولا أقول لكم إني ملك ﴾ أي ولا أدعي أني ملك ، إنما أنا بشر من البشر يوحَى إليّ من الله عز وجل شرفني بذلك ، وأنعم عليّ به ﴿ إن أتبع إلا ما يوحَى إليَّ ﴾ أي لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير ﴾ أي هل يستوي من اتبع الحق وهدي إليه ، ومن ضل عنه فلم ينقد له ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ وهذه كقوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ .

(٥١) ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

أي وأنذر بهذا القرآن يا محمد ﴿ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ليس لهم ﴾ أي يومئذ ﴿ من دونه ولي ولا شفيع ﴾ أي لا قريب لهم ، ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله عز وجل ﴿ لعلهم يتقون ﴾ فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه .

(٥٢) ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أي لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك كقوله ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ وقوله ﴿ يدعون ربهم ﴾ أي يعبدونه ويسألونه ﴿ بالغداة والعشي ﴾ المراد به الصلاة المكتوبة ، وهذا كقوله ﴿ وقال ربكم ادعوني استجب لكم ﴾ أي أتقبل منكم وقوله ﴿ يريدون وجهه ﴾ أي يريدون بذلك العمل وجه الله الكريم ، وهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات . وقوله ﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ كقول نوح عليه السلام في جواب الذين ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون . إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون ﴾ أي إنما حسابهم على الله عز وجل ، وليس عليّ من حسابهم من شيء ، كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء . وقوله ﴿ فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ أي إن فعلت هذا ، والحالة هذه . وعن

ابن أبي حاتم عن خباب في قوله عز وجل ﴿ ولا تطرد الذين يدعون . . ﴾ قال : جاء الأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن فوجدوا رسول الله ﷺ مع صهيب وبلال وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين ، فلما رأوهم حول النبي ﷺ حقروهم في نفر من أصحابه ، فأتوه فخلوا به ، وقالوا : إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً ، تعرف به لنا العرب فضلنا ، فإن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد فإذا نحن جئناك فأقمتهم عنا ، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت قال : « نعم » قالوا : فاكتب لنا عليك كتاباً قال : فدعا بصحيفة ، ودعا علياً ليكتب ، ونحن قعود في ناحية فنزل جبريل فقال ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم . . ﴾ فرمى رسول الله ﷺ بالصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه .

(٥٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

أي ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض ﴿ ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ كان غالب من اتبعه في أول بعثه ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والاماء ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قوم نوح لنوح ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىء الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾ ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أي أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . وفي الحديث « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

(٥٤) ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ فقل سلام عليكم ﴾ أي فأكرمهم برد السلام عليهم وبشرهم برحمة الله الواسعة الشاملة لهم ، ولهذا قال ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ أي أوجبها على نفسه الكريمة تفضلاً منه وإحساناً وامتناناً ﴿ أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ﴾ أي كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثم تاب من بعده وأصلح ﴾ أي رجع عما كان عليه من المعاصي وأقلع وعزم على أن لا يعود وأصلح العمل في المستقبل ﴿ فأنه غفور رحيم ﴾ روى الإمام أحمد في مسنده عن

أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لما قضى الله على الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش ﴿ إن رحمتي غلبت غضبي ﴾ أخرجاه في الصحيحين .

(٥٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى وكما بينا ما تقدم بيانه من الحجج والدلائل على طريق الهداية والرشاد وذم المجادلة والعناد ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي التي يحتاج المخاطبون إلى بيانها ﴿ ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ أي ولتظهر طريق المجرمين المخالفين للرسل .

(٥٦) ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

[لم يشرح ابن كثير هذه الآية ، ولم يتعرض لها مطلقاً في النسخة التي اختصرنا منها] .

(٥٧) ﴿ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَـٰصِلِينَ ﴾

أي على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها الله إليَّ ﴿ وكذبتم به ﴾ أي بالحق الذي جاءني من الله ﴿ ما عندي ما تستعجلون به ﴾ أي من العذاب ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ أي إنما يرجع أمر ذلك إلى الله ، إن شاء عجل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأحلكم لما له في ذلك من الحكمة العظيمة ولهذا قال ﴿ يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ أي وهو خير من فصل القضايا وخير الفاتحين في الحكم بين عباده .

(٥٨) ﴿ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

أي لو كان مرجع ذلك إليَّ لأوقعت لكم ما تستحقونه من ذلك ﴿ والله أعلم بالظالمين ﴾ .

(٥٩) ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « مفاتح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله » ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ وينزل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير ﴾ قوله ﴿ ويعلم ما في البر

والبحر ﴾ أي محيط علمه الكريم بجميع الموجودات بريها وبحريها لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ أي ويعلم الحركات حتى من الجمادات فما ظنك بالحيوانات ولاسيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم كما قال تعالى ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ ﴿ ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ عن عبدالله بن الحارث قال : ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا وعليها ملك موكل يأتي الله بعلمها رطوبتها إذا رطبت ويبوستها إذا يبست .

(٦٠) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى أنه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا التوفي الأصغر فقال ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أي ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار ﴿ ثم يبعثكم فيه ﴾ أي في النهار ﴿ ليقضى أجل مسمى ﴾ يعني به أجل كل أحد من الناس ﴿ ثم إليه مرجعكم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم ينبئكم ﴾ أي فيخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي يجزيكم على ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(٦١) ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

وهو الذي قهر كل شيء ، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء ﴿ ويرسل عليكم حفظة ﴾ أي من الملائكة يحفظون بدن الإنسان كقوله ﴿ وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون ﴾ وكقوله ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ وقوله ﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت ﴾ أي احتضر وجاء أجله ﴿ توفته رسلنا ﴾ أي ملائكة موكلون بذلك ، قال ابن عباس وغير واحد : لملك الموت أعوان من الملائكة يخرجون الروح من الجسد فيقبضها ملك الموت إذا وصلت إلى الحلقوم ، وقوله ﴿ وهم لا يفرطون ﴾ أي في حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله عز وجل ، إن كان من الأبرار ففي عليين ، وإن كان من الفجار ففي سجين . عياذاً بالله من ذلك .

(٦٢) ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾

﴿ ثم ردوا ﴾ يعني الملائكة ، أو الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة فيحكم فيهم بعدله ، كما قال : ﴿ قل إن الأولين والآخرين . لمجموعون إلى ميقات معلوم ﴾ . وقال ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً . وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ .

(٦٣) ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده في إنجائه المضطرين منهم من ظلمات البر والبحر ، أي الحائرين الواقفين في المهامه البرية ، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الرياح العاصفة فحينئذٍ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له ، كقوله ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ وقوله ﴿ تدعونه تضرعاً وخفية ﴾ أي جهراً وسراً ﴿ لئن أنجانا من هذه ﴾ الضائقة ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي بعدها .

(٦٤) ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ ثم أنتم ﴾ أي بعد ذلك ﴿ تشركون ﴾ أي تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى .

(٦٥) ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً ﴾ أي بعد إنجائه إياكم كما في سورة سبحان ﴿ ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيماً . وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً . أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً . أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيغرقكم بما كفرتم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ . وقوله ﴿ يلبسكم ﴾ يخلطكم من الالتباس ﴿ شيعاً ﴾ فرقاً . في البخاري عن جابر بن عبدالله قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ قال : « أعوذ بوجهك » ﴿ أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعضٍ ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هذا

أهون و أيسر » وروى الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص قال : سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ قل هو القادر . . . ﴾ فقال : « أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعدُ » وأخرجه الترمذي . وعن سعد بن أبي وقاص قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى مررنا على مسجد بني معاوية ، فدخل فصلى ركعتين ، فصلينا معه ، فناجى ربه عز وجل طويلاً ثم قال : « سألت ربي ثلاثاً أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها » انفرد بإخراجه مسلم . وروى الإمام أحمد عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها ، وإني أعطيت الكنزين ، الأبيض والأحمر ، وإني سألت ربي عز وجل أن لا يهلك أمتي بسنة عامة وأن لا يسلط عليهم عدواً فيهلكهم بعامة ، وأن لا يلبسهم شيعاً ، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعضاً ، فقال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد ، وإني قد أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، وأن لا أسلط عليهم ممن سواهم فيهلكهم بعامة حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ، وبعضهم يقتل بعضاً ، وبعضهم يسبي بعضاً » قال : وقال النبي ﷺ : « إني لا أخاف على أمتي إلا الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنهم إلى يوم القيامة » ليس في شيء من الكتب الستة وإسناده جيد . وقوله ﴿ عذاباً من فوقكم ﴾ فسره غير واحد بالرجم . وقيل : عذاب من السماء لا يبقي أحداً ، وعن ابن عباس : يعني أمراءكم . ﴿ أو من تحت أرجلكم ﴾ يعني الخسف الذي لا يبقي أحداً ، وفسر بخدم السوء ، وعن ابن عباس : يعني عبيدكم وسفلتكم ويشهد للأول ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ وفي الحديث « ليكونن في هذه الأمة قذف وخسف ومسخ » وفيه « وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة ﴿ انظر كيف نصرف الآيات ﴾ أي نبينها ونوضحها ونفسرها ﴿ لعلهم يفقهون ﴾ أي يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه وفي الحديث « لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيف » قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ؟ قال : « نعم » فقال بعضهم : لا يكون هذا أبداً أن يقتل بعضنا بعضاً ونحن مسلمون فنزلت ﴿ انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون ﴾ .

(٦٦) ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

﴿ وكذب به ﴾ أي بالقرآن الذي جئتهم به والهدى والبيان ﴿ قومك ﴾ يعني قريشاً ﴿ وهو

الحق ﴾ الذي ليس وراءه حق ﴿ قل لست عليكم بوكيل ﴾ أي لست عليكم بحفيظ .

﴿٦٧﴾ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

لكل نبأ حقيقةٌ ، أي لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال ﴿ ولتعلمن نبأه بعد حين ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد ولهذا قال ﴿ وسوف تعلمون ﴾ .

﴿٦٨﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ يخوضون في آياتنا ﴾ أي بالتكذيب والاستهزاء ﴿ حتى يخوضوا في حديث غيره ﴾ أي حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب ﴿ وإما ينسينك الشيطان ﴾ والمراد بذلك كل فرد من آحاد الأمة أن لا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها في غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسياً ﴿ لا تقعد بعد الذكرى ﴾ بعد التذكر ﴿ مع القوم الظالمين ﴾ ولهذا ورد في الحديث « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

﴿٦٩﴾ ﴿ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ أي إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك فقد برئوا من عهدتهم ، وتخلصوا من إثمهم ﴿ ولكن ذكرى لعلهم يتقون ﴾ أي ولكن أمرناكم بالاعراض عنهم حينئذٍ تذكيراً لهم عما هم فيه لعلهم يتقون ذلك ، ولا يعودون إليه .

﴿٧٠﴾ ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

أي دعهم وأعرض عنهم ، وأمهلهم قليلاً ، فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ، ولهذا قال ﴿ وذكر به ﴾ أي ذكر الناس بهذا القرآن وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة ﴿ أن تبسل نفس بما كسبت ﴾ أي لئلا تبسل ، أي تسلَّم ، أو تفتضح ، أو تؤاخذ ، وحاصل معنى ﴿ تبسل ﴾ الإسلام للهلكة ، والحبس عن الخير ، والارتهان عن درك المطلوب

كقوله ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة إلا أصحاب اليمين ﴾ وقوله ﴿ ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع ﴾ أي لا قريب ولا أحد يشفع فيها كقوله ﴿ من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴾ وقوله ﴿ وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ أي ولو بذلت كل مبذول ما قبل منها كقوله ﴿إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به ﴾ وقال ههنا ﴿ أولئك الذين أبسلوا . . . ﴾ .

(٧١) ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

قال السدي : قال المشركون للمسلمين : اتبعوا سبيلنا واتركوا دين محمد ﷺ فأنزل الله عز وجل ﴿ قل أندعوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا ﴾ أي في الكفر ﴿ بعد إذ هدانا الله ﴾ فيكون مثلنا مثل ﴿ الذي استهوته الشياطين في الأرض ﴾ يقول : مثلكم إن كفرتم بعد إيمانكم كمثل رجل خرج مع قوم على الطريق فضل الطريق فحيرته الشياطين واستهوته في الأرض ، وأصحابه على الطريق ، فجعلوا يدعونه إليهم ، يقولون ائتنا فإنا على الطريق ، فأبى أن يأتيهم ، فذلك مثل من يتبعهم بعد المعرفة بمحمد ﷺ ، ومحمد ﷺ هو الذي يدعو على الطريق ، والطريق هو الإسلام . ﴿قل إن هدى الله هو الهدى ﴾ كقوله تعالى ﴿ ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ وقوله ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين ﴾ وقوله ﴿ وأمرنا لنسلم لرب العالمين ﴾ أي نخلص له العبادة وحده لا شريك له .

(٧٢) ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

أي وأمرنا بإقامة الصلاة، وبتقواه في جميع الأحوال ﴿ وهو الذي إليه تحشرون﴾ أي يوم القيامة .

(٧٣) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

﴿ بالحق﴾ أي بالعدل، فهو خالق السموات والأرض، ومالكهما والمدبر لهما ولمن فيهما ﴿ ويوم يقول كن فيكون﴾ يعني يوم القيامة الذي يقول الله كن فيكون عن أمر كلمح

البصر، أو هو أقرب. وقوله ﴿ وله الملك يوم ينفخ في الصور ﴾ كقوله ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ وكقوله ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيراً ﴾ والمراد بالصور هنا جمع صورة، أي ينفخ فيها فتحيا، والصحيح أن المراد بالصور القرين الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، وفي الحديث « إن اسرافيل قد التقم الصور، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ » رواه مسلم في صحيحه.

(٧٤) ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ أتتخذ أصناماً آلهة ﴾ أي أتتأله لصنم تعبده من دون الله ؟ ﴿ إني أراك وقومك ﴾ السالكين مسلكك ﴿ في ضلال مبين ﴾ أي تائهين، لا يهتدون أين يسلكون، بل في حيرة وجهل. وأمركم في الجهل والضلال بين واضح لكل ذي عقل سليم. وصوَّب ابن جرير أن اسم أبيه آزر، وقيل اسمه تارخ، وآزر اسم صنم، وغلب على أبي آزر لخدمته ذلك الصنم.

(٧٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾

﴿ وكذلك نري إبراهيم... ﴾ يحتمل أن يكون كشف له عن بصره وحتى رأى ذلك عيانا، ويحتمل أن تكون عن بصيرته حتى شاهده بفؤاده وتحققه وعرفه وعلم ما في ذلك من الحكم الباهرة، والدلالات القاطعة. وفي الحديث الذي رواه الامام أحمد والترمذي وصححه عن معاذ بن جبل في حديث المنام « أتاني ربي في أحسن صورة فقال: يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى؟ فقلت: لا أدري، فوضع يده بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي فتجلى لي كل شيء وعرفت ذلك.. » وقوله ﴿ وليكون من الموقنين ﴾ قيل: الواو زائدة، تقديره وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض ليكون من الموقنين كقوله ﴿ وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين ﴾ أي لتستبين سبيل المجرمين، وقيل: بل هي على بابها، أي نريد ذلك ليكون عالما وموقناً.

(٧٦) ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾

﴿ فلما جن عليه الليل ﴾ أي تغشاه وستره ﴿ رأى كوكباً ﴾ أي نجماً ﴿ قال هذا ربي فلما أفل ﴾ أي غاب، يقال: أين أفلت عنا ؟ بمعنى أين غبت عنا؟ ﴿ قال لا أحب الآفلين ﴾ قال قتادة : علم أن ربه دائم لا يزول.

(٧٧) ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

﴿ بازغاً ﴾ أي طالعاً.

(٧٨) ﴿ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي ﴾ أي هذا المنير الطالع ربي ﴿ هذا أكبر ﴾ أي جرماً، من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة ﴿ فلما أفلت ﴾ أي غابت.

(٧٩) ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

أي أخلصت ديني وأفردت عبادتي ﴿ للذي فطر السموات والأرض ﴾ أي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق ﴿ حنيفاً ﴾ أي في حال كوني حنيفاً أي مائلا عن الشرك إلى التوحيد، أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء، ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه.

(٨٠) ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن خليله ابراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد، وناظروه بشبه من القول أنه قال ﴿ أتحاجوني في الله وقد هدان ﴾ أي أتجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة؟وقوله ﴿ ولا أخاف ماتشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئاً، وأنا لا أخافها، ولا أباليها، فإن كان لها كيد فكيدوني بها، ولا تنظرون، بل عاجلوني بذلك.
وقوله تعالى ﴿ إلا أن يشاء ربي شيئاً ﴾ استثناء متقطع، أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل ﴿ وسع ربي كل شيء علماً ﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء فلاتخفى عليه خافية ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ أي فيما بينته لكم، أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها.

﴿٨١﴾ ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ؟ ﴿ ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ أي حجة. وقوله ﴿ فأي الفريقين أحق بالأمن! إن كنتم تعلمون ﴾ أي فأي طائفتين أصوب؟ الذي عبد من بيده الضر والنفع، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لا شريك له.

﴿٨٢﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

أي هؤلاء الذين أخلصوا لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. روى البخاري عن عبدالله قال: لما نزلت ﴿ ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ قال أصحابه: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزل ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ وفي مسند الامام أحمد عن عبدالله قال: لمانزلت هذه الآية ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله، أينا لم يظلم نفسه؟ قال: « إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح ﴿ يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ إنما هو الشرك. روى الإمام أحمد عن جرير بن عبدالله قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ، فلما برزنامن المدينة إذا راكب يوضع نحونا، فقال رسول الله ﷺ « كأن هذا الراكب إياكم يريد، فانتهى الينا الرجل فسلم فرددنا عليه، فقال له النبي ﷺ: « من أين أقبلت ؟» قال: من أهلي وولدي وعشيرتي، قال: « فأين تريد»؟ قال: أريد رسول الله ﷺ، قال: « فقد أصبته » قال: يا رسول الله، علمني ما الايمان،؟ قال: « تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت» قال: قد أقررت ، قال نعم ، ثم أن بعيره دخلت في حجر جرذان فهوى بعيره، وهوى الرجج فوقع على هامته فمات، فقال رسول الله ﷺ: « علي بالرجل » فوثب عمار بن ياسر، وحذيفة بن اليمان فأقعداه، فقالا: يا رسول الله، قيض الرجل، قال: فأعرض عنهما رسول الله ﷺ، ثم قال لهما رسول الله ﷺ: « أما رأيتما إعراضي عن الرجل، فإني رأيت ملكين يدسان في فيه من ثمار الجنة، فعلمت أنه مات جائعاً » ثم قال رسول الله ﷺ « هذا من الذين قال الله عز وجل فيهم ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾» ثم قال: « دونكم أخاكم » فاحتملناه إلى الماء فغسلناه وخيطناه وكفناه وحملناه إلى القبر، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس على شفير القبر فقال: « الحدوا ولا تشقوا،

فإن اللحد لنا، والشق لغيرنا». وفي الحديث «من أعطي فشكر، ومنع فصبر، وظلم فغفر» وسكت فقالوا يا رسول الله: ماله؟ قال: ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾.

(٨٣) ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه﴾ أي وجهنا حجته عليهم ﴿حكيم﴾ في أقواله وأفعاله ﴿عليم﴾ أي بمن يهديه ومن يضله وإن قامت عليه الحجج والبراهين.

(٨٤) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه وهب لابراهيم اسحق بعد أن طعن في السن وأيس هو وامرأته سارة من الولد فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط فبشروهما بإسحق، فتعجبت المرأة من ذلك وقالت ﴿يا ويلتىٰ أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً! إن هذا لشيء عجيب. قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ فبشروهما مع وجوده بنبوته، وبأنه له نسلا وعقبا ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب﴾ أي ويولد هذا المولود في حياتكما فتقر أعينكما به كما قرت بوالده، فإن الفرح بولد الولد شديد ولبقاء النسل والعقب، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يعقب لضعفه وقعت البشارة به وبولده باسم يعقوب الذي فيه اشتقاق العقب والذرية، وكان هذا مجازاة لابراهيم عليه السلام حين اعتزل قومه وتركهم ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا الى عبادة الله في الأرض فعوضه الله عز وجل عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه لتقر بهم عينه كما قال تعالى ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبناله اسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً﴾ وقال ههنا: ﴿ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاً هدينا﴾ وقوله ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ أي من قبله هديناه كما هديناه، ووهبنا له ذريةصالحة، وكل منهما له خصوصية عظيمة، اما نوح عليه السلام فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به وهم الذين صحبوه في السفينة جعل الله ذريته هم الباقين، فالناس كلهم من ذريته، وأما الخليل ابراهيم عليه السلام فلم يبعث الله عز وجل بعده نبياً إلا من ذريته، كما قال تعالى ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ وقال تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ وقوله تعالى ﴿ومن ذريته﴾ أي وهدينا من ذريته.

(٨٥) ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾

(٨٦) ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾

وفي ذكر عيسى عليه السلام في ذرية إبراهيم أو نوح دلالة على دخول البنات في ذرية الرجل ، لأن عيسى عليه السلام إنما ينسب إلى إبراهيم عليه السلام بأمه مريم عليها السلام ، فإنه لا أب له . روى ابن أبي حاتم قال : أرسل الحجاج إلى يحيى بن يعمر ، فقال : بلغني أنك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبي ﷺ ، تجده في كتاب الله ؟ وقد قرأته من أوله إلى آخره فلم أجده ، قال : أليس تقرأ سورة الأنعام ﴿ ومن ذريته داود وسليمان . . . ﴾ حتى بلغ ﴿ ويحيى وعيسى ﴾ قال : بلى ، قال : أليس عيسى من ذرية إبراهيم ، وليس له أب ؟ قال : صدقت ، فلهذا إذا أوصى الرجل لذريته ، أو وقف على ذريته ، أو وهبهم دخل أولاد البنات فيهم . وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال للحسن : « إن ابني هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فسماه ابناً فدل على دخوله في الأبناء ، وقال آخرون : هذا تجوُّز .

(٨٧) ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

ذكر أصولهم وفروعهم ، وذوي طبقتهم وأن الهداية والاجتباء شملهم كلهم .

(٨٨) ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

أي إنما حصل لهم ذلك بتوفيق الله وهدايته إياهم ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ تشديد لأمر الشرك ، وتغليظ لشأنه ، وتعظيم لملابسته كقوله تعالى ﴿ ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ وهذا شرط والشرط لا يقتضي جواز الوقوع ، كقوله ﴿ قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين ﴾ وكقوله ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ .

(٨٩) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾

أي أنعمنا عليهم بذلك رحمة للعباد بهم ، ولطفاً منا بالخليقة ﴿ فإن يكفر بها ﴾ أي بالنبوة ﴿ هؤلاء ﴾ يعني أهل مكة ﴿ فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ أي إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومكيين

وكتابيين فقد وكلنا بها قوماً آخرين ، أي المهاجرين والأنصار وأتباعهم إلى يوم القيامة ﴿ ليسوا بها بكافرين ﴾ أي لا يجحدون منها شيئاً ، ولا يردون منها حرفاً واحداً ، بل يؤمنوا بجميعها محكمها ومتشابهها . جعلنا الله منهم بمنه وكرمه وإحسانه .

(٩٠) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ أولئك ﴾ يعني الأنبياء المذكورين مع من أضيف إليهم من الآباء ، والذرية والاخوان ، وهم الأشباه ﴿ الذين هدى الله ﴾ أي هم أهل الهدى لا غيرهم ﴿ فبهداهم اقتده ﴾ أي اقتد واتبع ، وإذا كان هذا أمراً لرسول الله ﷺ فأمته تبع له فيما يشرعه ويأمرهم به ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ أي لا أطلب منكم على إبلاغي إياكم هذا القرآن أجراً ، أي أجرة ، ولا أريد منكم شيئاً ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ أي يتذكرون به ، فيرشدون من العمى إلى الهدى ، ومن الغي إلى الرشاد ، ومن الكفر إلى الإيمان .

(٩١) ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾

يقول الله تعالى : وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم ، نزلت في قريش ، وقيل : في طائفة من اليهود وقيل : في فنحاص رجل منهم ، وقيل : في مالك بن الصيف ، والأول أصح لأن الآية مكية ، واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء ، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال محمد ﷺ لأنه من البشر كما قال ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ وقوله ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المنكرين لإنزال شيء من الكتب من عند الله في جواب سلبهم العام بإثبات قضية جزئية موجبة ﴿ من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ وهو التوراة التي قد علمتم ، وكل أحد أن الله قد أنزلها على موسى بن عمران نوراً وهدىً للناس أي ليستضاء بها في كشف المشكلات ، ويهتدى بها من ظلم الشبهات . وقوله ﴿ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ﴾ أي تجعلون جملتها قراطيس ، أي قطعاً تكتبونها من الكتاب الأصلي الذي بأيديكم ، وتحرفون منها ما

تحرفون ، وتبدلون وتتأولون وتقولون : هذا من عند الله أي في كتابه المنزل ، وما هو عند الله ﴿ وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ﴾ أي ومن أنزل القرآن الذي علمكم الله فيه خبر ما سبق ونبأ ما يأتي ما لم تكونوا تعلمون ذلك ، لا أنتم ولا آباؤكم ، قال قتادة : هؤلاء مشركو العرب ، وقال مجاهد : هذه للمسلمين . ﴿ قل الله ﴾ عن ابن عباس أي قل الله أنزله : وهذا الذي قال ابن عباس هو المتعين في تفسير هذه الكلمة لا ما قاله بعض المتأخرين من أن معنى ﴿ قل الله ﴾ أي لا يكون خطابك لهم إلا هذه الكلمة كلمة « الله » وهذا الذي قاله هذا القائل يكون أمراً بكلمة مفردة من غير تركيب ، والاتيان بكلمة مفردة لا يفيد في لغة العرب فائدة يحسن السكوت عليها ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ أي ثم دعهم في جهلهم وضلالهم يلعبون حتى يأتيهم من الله اليقين ، فسوف يعلمون ، ألهم العاقبة ، أم لعباد الله المتقين .

(٩٢) ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

﴿ وهذا كتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ أم القرى ﴾ يعني مكة ﴿ ومن حولها ﴾ من أحياء العرب ومن سائر طوائف بني آدم من عرب وعجم كما قال في الآية الأخرى ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقال ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي » وذكر منهن « وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » . ولهذا قال : ﴿ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك الذي أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن ﴿ وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ أي يقومون بما فرض عليهم من أداء الصلوات في أوقاتها .

(٩٣) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله فجعل له شركاء ، أو ولداً ، أو ادعى أن الله أرسله

إلى الناس ولم يرسله ولهذا قال تعالى ﴿ أو قال أوحي إليَّ ولم يوح إليه شيء ﴾ قال عكرمة : نزلت في مسيلمة الكذاب ﴿ ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ﴾ أي ومن ادعى أنه يعارض ما جاء من عند الله من الوحي مما يفتريه من القول ، كقوله تعالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت ﴾ أي في سكراته وغمراته وكرباته ، وقوله ﴿ والملائكة باسطوا أيديهم ﴾ كقوله ﴿ لئن بسطت إليَّ يدك لتقتلني ﴾ وقوله ﴿ يبسطون إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ أي بالضرب لهم حتى تخرج أنفسهم من أجسادهم ، ولهذا يقولون لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم ﴾ وذلك أن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم وغضب الرحمٰن الرحيم فتتفرق روحه في جسده ، وتعصي وتأبى الخروج ، فتضربهم الملائكة حتى تخرج أرواحهم من أجسادهم قائلين لهم ﴿ أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق ﴾ أي اليوم تهانون غاية الإهانة كما كنتم تكذبون على الله وتستكبرون عن اتباع آياته ، والانقياد لرسله .

﴿٩٤﴾ ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

أي يقال لهم يوم معادهم ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾ كما قال تعالى ﴿ وعرضوا على ربك صفاً لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ أي كما بدأناكم أعدناكم ، وقد كنتم تنكرون ذلك وتستبعدونه فهذا هو يوم البعث ﴿ وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ﴾ أي من النعم والأموال التي اقتنيتموها في الدار الدنيا وراء ظهوركم ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » وقال الحسن البصري : يؤتى بابن آدم يوم القيامة كأنه بذج فيقول الله عز وجل : أين ما جمعت ؟ فيقول : يا رب جمعته وتركته أوفر ما كان ، فيقول له : يا ابن آدم أين ما قدمت لنفسك ؟ فلا يراه قدم شيئاً ، وتلا هذه الآية ﴿ ولقد جئتمونا فرادى ﴾ وقوله ﴿ وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء ﴾ تقريع وتوبيخ على ما كانوا اتخذوا في الدنيا من الأنداد والأصنام والأوثان ظانين أنها تنفع في معاشهم

ومعادهم إن كان ثم معاد ، فإذا كان يوم القيامة تقطعت بهم الأسباب وانزاح الضلال وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ويناديهم الرب جل جلاله على رؤوس الخلائق ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ ويقال لهم ﴿ أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ لقد تقطع بينكم ﴾ أي لقد تقطع ما بينكم من الأسباب والوصلات والوسائل . ﴿ وضل عنكم ﴾ أي ذهب عنكم ﴿ ما كنتم تزعمون ﴾ من رجاء الأصنام والأنداد .

(٩٥) ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه ﴿ فالق الحب والنوى ﴾ أي يشقه في الثرى فتنبت منه الزرع على اختلاف أصنافها من الحبوب والثمار على اختلاف ألوانها وأشكالها وطعومها من النوى . ﴿ يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ﴾ أي يخرج النبات الحي من الحب والنوى الذي هو كالجماد الميت وقد عبروا عن هذا وذاك بعبارات متقاربة مؤدية للمعنى ، فمن قائل : يخرج الدجاجة من البيضة وعكسه ، ومنها يخرج الولد الصالح من الفاجر وعكسه ، وغير ذلك من العبارات التي تنتظمها الآية وتشملها . ﴿ ذلكم الله ﴾ أي فاعل هذا هو الله وحده لا شريك له ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي كيف تصرفون عن الحق ، وتعدلون عنه إلى الباطل فتعبدون معه غيره .

(٩٦) ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

﴿ فالق الإصباح وجعل الليل سكناً ﴾ أي خالق الضياء والظلام ، كما قال في أول السورة ﴿ وجعل الظلمات والنور ﴾ أي فهو سبحانه يفلق ظلام الليل عن غرة الصباح ، فيضيء الوجود ويستنير الأفق ، ويضمحل الظلام ، ويذهب الليل بسواده وظلام رواقه ، ويجيء النهار بضيائه وإشراقه كقوله ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ فبين تعالى قدرته على خلق الأشياء المتضادة المختلفة الدالة على كمال عظمته ، وعظيم سلطانه ، فذكر أنه فالق الإصباح وقابل ذلك بقوله ﴿ وجعل الليل سكناً ﴾ أي ساجياً مظلماً لتسكن فيه الأشياء كما قال ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ وقال ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ﴾ وقال ﴿ والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها ﴾ وقال صهيب الرومي رضي الله عنه لامرأته وقد عاتبته في كثرة السهر : إن الله جعل الليل سكناً إلا لصهيب ، إن صهيباً إذا ذكر الجنة

طال شوقه وإذا ذكر النار طار نومه ، رواه ابن أبي حاتم . ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ أي يجريان بحساب مقنن مقدر لا يتغير ولا يضطرب ، بل لكل منهما منازل ، يسلكها في الصيف والشتاء ، فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولاً وقصراً ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي الجميع جار بتقدير العزيز الذي لا يمانع ولا يخالف العليم بكل شيء فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

(٩٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

قال بعض السلف : من اعتقد في هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على الله سبحانه : أن الله جعلها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ويهتدي بها في ظلمات البر والبحر . وقوله ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أي بيناها ووضحناها ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي يعقلون ويعرفون الحق ويتجنبون الباطل .

(٩٨) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ من نفس واحدة ﴾ يعني آدم عليه السلام ﴿ فمستقر ومستودع ﴾ فمستقر في الأرحام ومستودع في الأصلاب أو فمستقر في الدنيا ومستودع حيث يموت ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ﴾ أن يفهمون ويعون كلام الله ومعناه .

(٩٩) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وهو الذي أنزل من السماء ماء ﴾ أي بقدر مباركاً ، ورزقاً للعباد ، وإحياء وغياثاً للخلائق رحمة من الله بخلقه ﴿ فأخرجنا به نبات كل شيء ﴾ كقوله ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ ﴿ فأخرجنا منه خضراً ﴾ أي زرعاً وشجراً ، ثم بعد ذلك نخلق فيه الحب والثمر ، ولهذا قال ﴿ نخرج منه حباً متراكباً ﴾ أي يركب بعضه بعضاً كالسنابل ونحوها ﴿ ومن النخل من طلعها قنوان ﴾ أي جمع قنو ، وهي عذق الرطب ﴿ دانية ﴾ أي قريبة من المتناول ﴿ وجنات من أعناب ﴾ أي ونخرج به جنات من أعناب ، وهذان النوعان هما

أشرف الثمار عند أهل الحجاز ، وربما كانا خيار الثمار في الدنيا ، كما امتن الله بهما على عباده في قوله ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ﴾ . وكان ذلك قبل تحريم الخمر ، وقال : ﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ﴾ وقوله تعالى ﴿ والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه ﴾ متشابه في الورق والشكل ، قريب بعضه من بعض ، ومتخالف في الثمار شكلاً وطعماً وطبعاً . وقوله تعالى ﴿ انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ﴾ أي نضجه ، أي فكروا في قدرة خالقه من العدم إلى الوجود بعد أن كان حطباً صار عنباً ورطباً وغير ذلك مما خلق سبحانه وتعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿ إن في ذلكم ﴾ أيها الناس ﴿ لآيات ﴾ أي دلالات على كمال قدرة خالق هذه الأشياء ، وحكمته ورحمته ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ أي يصدقون به ، ويتبعون رسله :

(١٠٠) ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

هذا رد على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ، وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن فجعلوهم شركاء له في العبادة ، تعالى الله عن شركهم وكفرهم . فإن قيل : فكيف عبدت الجن مع أنهم إنما كانوا يعبدون الأصنام ؟ فالجواب أنهم ما عبدوها إلا عن طاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك كقوله ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً * لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ قوله ﴿وخلقهم﴾ أي وقد خلقهم ، فهو الخالق وحده لا شريك له ، فكيف يعبد معه غيره ؟ كقول إبراهيم عليه السلام ﴿ أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون ﴾ ومعنى الآية أنه سبحانه وتعالى هو المستقل بالخلق وحده ، فلهذا يجب أن يفرد بالعبادة وحده لا شريك له . ﴿ وخرقوا له بنين وبنات بغير علم ﴾ ينبه به تعالى على ضلال من ضل في وصفه تعالى بأن له ولداً كما يزعم من قال له من اليهود في عزير ، ومن قال من النصارى في عيسى ، ومن قال من مشركي العرب في الملائكة أنها بنات الله ﴿ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴾ ومعنى ﴿ خرقوا ﴾ أي اختلقوا وائتفكوا وتخرصوا وكذبوا ﴿ سبحانه وتعالى عما يصفون ﴾ أي تقدس وتنزه وتعاظم عما يصفه هؤلاء الجهلة الضالون من الأولاد والأنداد والنظراء والشركاء .

(١٠١) ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ بديع السموات والأرض ﴾ أي مبدعهما وخالقهما ومنشئهما ومحدثهما على غير مثال سبق ، ومنه سميت البدعة بدعة ، لأنه لا نظير لها فيما سلف ﴿ أنى يكون له ولد ﴾ أي كيف يكون له ولد ﴿ ولم تكن له صاحبة ﴾ أي والولد إنما يكون متولداً بين شيئين متناسبين ، والله تعالى لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه ، لأنه خالق كل شيء ، فلا صاحبة له . ﴿ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم ﴾ فبين تعالى أنه الذي خلق كل شيء ، وأنه بكل شيء عليم فكيف يكون له صاحبة من خلقه تناسبه ، وهو الذي لا نظير له ، فأنى يكون له ولد ؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي الذي خلق كل شيء ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ﴿ لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه ﴾ أي فاعبدوه وحده لا شريك له ،وأقروا له بالوحدانية ، وأنه لا إله إلا هو ، وأنه لا ولد له ولا والد ، ولا صاحبة له ولا نظير ولا عديل ﴿ وهو على كل شيء وكيل ﴾ أي حفيظ ورقيب ، يدير كل ما سواه ويرزقهم ، ويكلؤهم بالليل والنهار .

(١٠٣) ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

لا تدركه الأبصار في الدنيا ، وإن كانت تراه في الآخرة كما تواترت به الأخبار عن رسول الله ﷺ من غير ما طريق ثابت في الصحاح والمسانيد والسنن . وقال المعتزلة : لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة فخالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك مع ما ارتكبوه من الجهل بما دل عليه الكتاب وسنة رسول الله ﷺ ، أما الكتاب فقوله ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وأما السنة فقد تواترت الأخبار عن أبي سعيد وأبي هريرة وأنس وجريج وصهيب وبلال وغير واحد من الصحابة عن النبي ﷺ أن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة في العرصات وفي روضات الجنات . جعلنا الله منهم بمنه وكرمه آمين . أو ﴿ لا تدركه الأبصار ﴾ أي العقول . وقوله ﴿ وهو يدرك الأبصار ﴾ أي يحيط بها ويعلمها على ما هي عليه لأنه خلقها كما قال تعالى ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ .

(١٠٤) ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

البصائر هي البينات والحجج التي اشتمل عليها القرآن ، وما جاء به الرسول ﷺ ﴿ فمن أبصر فلنفسه ﴾ كقوله ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ ولهذا قال ﴿ ومن عمي فعليها ﴾ أي إنما يعود وباله عليه ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي بحافظ ولا رقيب بل إنما أنا مبلغ ، والله يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

(١٠٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

أي وكما فصلنا الآيات في هذه السورة من بيان التوحيد ، وأنه لا إله إلا الله هكذا نوضح الآيات نفسرها ونبينها في كل موطن لجهالة المشركين ، وليقول المشركون والكافرون المكذبون درست يا محمد وقرأت وتعلمت من أهل الكتاب ﴿ ولنبينه لقوم يعلمون ﴾ أي لنوضحه لقوم يعلمون الحق فيتبعونه ، والباطل فيجتنبونه ، فلله تعالى الحكمة البالغة في إضلال أولئك وبيان الحق لهؤلاء كقوله تعالى ﴿ يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً ﴾ .

(١٠٦) ﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ ولمن اتبع طريقته ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك ﴾ أي اقتد به واقتف أثره واعمل به ، فإن ما أوحي إليك من ربك هو الحق الذي لا مرية فيه ، لأنه لا إله إلا هو ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ أي اعف عنهم واصفح واحتمل أذاهم حتى يفتح الله لك وينصرك ويظفرك عليهم ، واعلم أن لله حكمة في إضلالهم ، فإنه لو شاء لهدى الناس جميعاً ولو شاء لجمعهم على الهدى .

(١٠٧) ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

﴿ ولو شاء الله ما أشركوا ﴾ أي بل له المشيئة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ وقوله ﴿ وما جعلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي حافظاً تحفظ أقوالهم وأفعالهم ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي موكل على أرزاقهم وأمورهم .

(١٠٨) ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ناهياً لرسوله وللمؤمنين عن سب آلهة المشركين ، وإن كان فيه مصلحة إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها ، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين ، وهو الله لا إله

إلا هو ، عن ابن عباس في هذه الآية قالوا : يا محمد لتنتهين عن سبك آلهتنا ، أو لنهجون ربك ، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم ﴿ فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله عدواً بغير علم . ومن هذا القبيل وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال « ملعون من سب والديه » قالوا يا رسول الله وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ أي وكما زينا لهؤلاء القوم حب أصنامهم والمحاماة لها والانتصار كذلك زينا لكل أمة من الأمم الخالية على الضلال عملهم الذي كانوا فيه ، ولله الحجة البالغة والحكمة فيما يشاؤه ويختاره ﴿ ثم إلى ربهم مرجعهم ﴾ أي معادهم ومصيرهم ﴿ فينبئهم بما كانوا يعملون ﴾ أي يجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(١٠٩) ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم أي حلفوا أيماناً مؤكدة ﴿ لئن جاءتهم آية ﴾ معجزة وخارق ﴿ ليؤمنن بها ﴾ أي ليصدقنها ﴿ قل إنما الآيات عند الله ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الذين يسألونك الآيات تعنتاً وكفراً وعناداً لا على سبيل الهدى والاسترشاد : إنما مرجع هذه الآيات إلى الله ، إن شاء جاءكم بها وإن شاء ترككم ﴿ وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ﴾ أي وما يدريكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون .

(١١٠) ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

أي ونحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون ، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة ﴿ ونذرهم ﴾ أي ونتركهم ﴿ في طغيانهم ﴾ في كفرهم ﴿ يعمهون ﴾ يلعبون أو يترددون في كفرهم .

(١١١) ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾

يقول تعالى : ولو أننا أجبنا سؤال هؤلاء الذين ﴿ أقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم

آية ليؤمنن بها ﴾ فنزلنا عليهم الملائكة تخبرهم بالرسالة من الله بتصديق الرسل كما سألوا ﴿ وكلمهم الموتى ﴾ أي فأخبروهم بصدق ما جاءتهم به الرسل ﴿ وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ﴾ من المقابلة والمعاينة ، أو أفواجاً : قبيلاً قبيلاً ، أي تعرض عليهم كل أمة بعد أمة فيخبروهم بصدق الرسل فيما جاؤوا به ﴿ ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ﴾ أي إن الهداية إليه ، لا إليهم ، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الفعال لما يريد لعلمه وحكمته وسلطانه وقهره وغلبته .

(١١٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى وكما جعلنا لك يا محمد أعداء يخالفونك ، ويعاندونك جعلنا لكل نبي من قبلك أيضاً أعداء ، فلا يحزنك ذلك ، قال تعالى ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ وقال ورقة بن نوفل للنبي ﷺ : إنه لم يأت أحد بمثل ما جئت به إلا عودي . ﴿ شياطين الإنس والجن ﴾ بدل من ﴿ عدواً ﴾ أي لهم أعداء من شياطين الإنس والجن ، والشيطان كل من خرج عن نظيره بالشر ، ولا يعادي الرسل إلا الشياطين من هؤلاء وهؤلاء ، قبحهم الله ، ولعنهم . عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال : « يا أبا ذر ، هل تعوذت من شر شياطين الإنس والجن ؟ » قال : قلت : يا رسول الله ، هل للإنس شياطين ؟ قال : « نعم » - ﴿ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ أي يلقي بعضهم إلى بعض القول المزين المزخرف ، وهو المزوق الذي يغتر سامعه من الجهلة بأمره . ﴿ ولو شاء ربك ما فعلوه ﴾ وذلك كله بقدر الله وقضائه ، وإرادته ومشيئته أن يكون لكل نبي عدو من هؤلاء ﴿ فذرهم ﴾ أي فدعهم ﴿ وما يفترون ﴾ أي يكذبون ، أي دع أذاهم وتوكل على الله في عداوتهم ، فإن الله كافيك وناصرك عليهم .

(١١٣) ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾

﴿ ولتصغى إليه ﴾ أي ولتميل إليه . ﴿ أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي قلوبهم وعقولهم وأسماعهم . وقال السدي : قلوب الكافرين ﴿ وليرضوه ﴾ أي يحبوه ويريدوه ، وإنما يستجيب لذلك من لا يؤمن بالآخرة ﴿ وليقترفوا ما هم مقترفون ﴾ أي وليكتسبوا ما هم مكتسبون ، وليعملوا ما هم عاملون .

(١١٤) ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ : قل لهؤلاء المشركين بالله الذين يعبدون غيره ﴿ أفغير الله أبتغي حكماً ﴾ أي بيني وبينكم ﴿ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ﴾ أي مبيناً ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ أي من اليهود والنصارى يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، أي بما عندهم من البشارات بك من الأنبياء المتقدمين ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ كقوله ﴿ فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ﴾ وهذا شرط ، والشرط لا يقتضي وقوعه ، ولهذا جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا أشك ولا أسأل » .

(١١٥) ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ صدقاً فيما قال ، وعدلاً فيما حكم ، أي صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الطلب ، فكل ما أخبر به فحق ، لا مرية فيه ولا شك ، وكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه ، وكل ما نهى عنه فباطل ، فإنه لا ينهى إلا عن مفسدة ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي ليس أحد يعقب حكمه تعالى ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . ﴿ وهو السميع ﴾ لأقوال عباده ﴿ العليم ﴾ بحركاتهم وسكناتهم الذي يجازي كل عامل بعمله .

(١١٦) ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال أكثر أهل الأرض من بني آدم أنه الضلال كما قال تعالى ﴿ ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم في ظنون كاذبة ، وحسبان باطل ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ فإن الخرص هو الحزر ، ومنه خرص النخل ، وهو حزر ما عليها من التمر .

(١١٧) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

﴿ هو أعلم من يضل عن سبيله ﴾ فييسره لذلك ﴿ وهو أعلم بالمهتدين ﴾ فييسرهم لذلك ، وكل ميسر لما خلق له .

(١١٨) ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾

هذا إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكر عليه اسمه ، ومفهومه أنه لا يباح ما لم يذكر اسم الله عليه كما كان يستبيحه كفار قريش من أكل الميتات ، وأكل ما ذبح على النصب وغيرها .

(١١٩) ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

ثم ندب إلى الأكل مما ذكر اسم الله عليه فقال ﴿ وما لكم أن لا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم ﴾ أي قد بين لكم ما حرم عليكم ووضحه ﴿ إلا ما اضطررتم إليه ﴾ أي إلا في حال الاضطرار ، فإنه يباح لكم ما وجدتم ، ثم بين تعالى جهالة المشركين في آرائهم الفاسدة من استحلالهم الميتات ، وما ذكر عليه غير اسم الله تعالى فقال ﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين ﴾ أي هو أعلم باعتدائهم وكذبهم وافترائهم .

(١٢٠) ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴾

قال مجاهد ﴿ وذروا ظاهر الاثم وباطنه ﴾ : المعصية في السر والعلانية ، وقال قتادة : أي سره وعلانيته ، قليله وكثيره ، وقال السدي : ظاهره الزنا مع البقايا ذوات الرايات ، وباطنه الزنا مع الخليلة والصدائق والاخوان ، وقال عكرمة : ظاهره نكاح ذوات المحارم ، والصحيح أن الآية عامة في ذلك كله ، وهي كقوله تعالى ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ إن الذين يكسبون الاثم سيجزون بما كانوا يقترفون ﴾ أي سواءكان ظاهراً أو خفياً ، فإن الله سيجزيهم عليه . روى ابن أبي حاتم عن النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن الاثم فقال : « الاثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

(١٢١) ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن الذبيحة لا تحل إذا لم يذكر اسم الله عليها ، وإن كان

الذابح مسلماً ، والأئمة في هذه المسألة على ثلاثة أقوال ، فمنهم من قال : لا تحل هذه الذبيحة بهذه الصفة ، وسواء متروك التسمية عمداً أو سهواً ، وهو رواية عن الإمام مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل ، وهو اختيار داود الظاهري ، واحتجوا بهذه الآية ، وبقوله في آية الصيد ﴿ فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ﴾ ثم قد أكد في هذه الآية بقوله ﴿ وإنه لفسق ﴾ وبمثل حديث : « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكر اسم الله عليه فكل ما أمسك عليك » وهو في الصحيح ، ومن الأئمة من قال : لا يشترط التسمية ، بل هي مستحبة ، فإن تركت عمداً أو نسياناً لا يضر ، وهذا مذهب الإمام الشافعي رحمه الله ، وجميع أصحابه ، ورواية عن الإمام أحمد ، ورواية عن الإمام مالك ، وحمل الشافعي الآية الكريمة ﴿ ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق ﴾ على ما ذبح لغير الله ، كقوله تعالى ﴿ أو فسقاً أهل لغير الله به ﴾ وهذا المسلك الذي طرق الإمام الشافعي قوي ، ومن الأئمة من ذهب إلى أن ترك البسملة على الذبيحة نسياناً لم يضر ، وإن تركها عمداً لم تحل ، هذا هو المشهور من مذهب الإمام مالك ، وأحمد بن حنبل ، وبه يقول أبو حنيفة وأصحابه . ﴿ وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ يوحي الشياطين إلى أوليائهم : تأكلون مما قتلتم ، ولا تأكلون مما قتل الله ؟ ﴿ وإن أطعتموهم ﴾ في أكل الميتة ﴿ إنكم لمشركون ﴾ حيث عدلتم عن أمر الله لكم وشرعه إلى قول غيره ، فقدمتم عليه غيره ، فهذا هو الشرك ، كقوله تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ﴾ .

(١٢٢) ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً ، أي في الضلالة هالكاً ، فأحياه الله ، أي أحيا قلبه بالإيمان ، وهداه له ووفقه لاتباع رسله ﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ أي يهتدي كيف يسلك ، وكيف يتصرف به ، والنور هو القرآن أو الإسلام ﴿ كمن مثله في الظلمات ﴾ أي الجهالات والأهواء والضلالات المتفرقة ﴿ ليس بخارج منها ﴾ أي لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه ، وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فمن أصابه ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل » كما قال تعالى : ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك

أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ وقوله تعالى ﴿ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون ﴾ أي حسنا لهم ما كانوا فيه من الجهالة والضلالة قدراً من الله وحكمة بالغة ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له .

(١٢٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى : وكما جعلنا في قريتك يا محمد أكابر من المجرمين ورؤساء ودعاة إلى الكفر والصد عن سبيل الله وإلى مخالفتك وعداوتك ، كذلك كانت الرسل من قبلك يبتلون بذلك ، ثم تكون لهم العاقبة ، كما قال تعالى ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ وقوله ﴿ ليمكروا فيها ﴾ أي سلطنا شرارهم فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكناهم بالعذاب ، والمراد بالأكابر عظماؤها ، وبالمكر دعاؤهم إلى الضلالة بزخرف من المقال والفعال ، كقوله تعالى ﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ وقوله ﴿ وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ أي وما يعود وبال مكرهم ذلك وإضلالهم من أضلوه إلا على أنفسهم كما قال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ .

(١٢٤) ﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾

أي إذا جاءتهم آية وبرهان وحجة قاطعة ﴿ قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ﴾ أي حتى تأتينا الملائكة بالرسالة ، كما تأتي إلى الرسل ، كقوله تعالى ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ وقوله ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ أي هو أعلم حيث يضع رسالته ، ومن يصلح لها من خلقه ، كقوله تعالى ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بني إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » وفي البخاري « بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى بعثت من القرن الذي كنت فيه » وفي مسند الإمام أحمد عن سلمان قال لي رسول الله ﷺ : « يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك » قلت : يا رسول الله ، كيف أبغضك وبك هدانا الله ؟ قال : « تبغض العرب فتبغضني » وقوله ﴿ سيصيب

الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد . . ﴾ هذا وعيد شديد من الله وتهديد أكيد لمن تكبر عن اتباع رسله ، والانقياد لهم فيما جاؤوا به ، فإنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله صغار ، وهو الذلة الدائمة كما أنهم استكبروا فأعقبهم ذلك ذلاً يوم القيامة لما استكبروا في الدنيا ﴿ وعذاب شديد بما كانوا يمكرون ﴾ لما كان المكر غالباً إنما يكون خفياً ، وهو التلطف في التحيل والخديعة قوبلوا بالعذاب الشديد من الله يوم القيامة جزاء وفاقاً ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ .

(١٢٥) ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ يشرح صدره للإسلام ﴾ أي ييسره له وينشطه ويسهله لذلك ، ويوسع قلبه للتوحيد والإيمان به ، وسئل النبي ﷺ عن هذه الآية ، قالوا : كيف يشرح صدره يا رسول الله ؟ قال : « نور يقذف فيه فينشرح له وينفسح» ﴿ حرجاً ﴾ أي لا يتسع لشيء من الهدى ، ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه ﴿ كأنما يصعد في السماء ﴾ يقول : مثله كمثل الذي لا يستطيع أن يصعد إلى السماء ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ يقول : كما يجعل الله صدر من أراد اضلاله ضيقاً حرجاً كذلك يسلط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصده عن سبيل الله . والرجس كل ما لا خير فيه ، أو هو العذاب .

(١٢٦) ﴿ وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

لما ذكر الله تعالى طريق الضالين عن سبيله الصادين عنها نبه على شرف ما أرسل به رسوله من الهدى ودين الحق فقال تعالى : ﴿ وهذا صراط ربك مستقيماً ﴾ أي هذا الدين الذي شرعناه لك يا محمد بما أوحينا إليك هذا القرآن هو الصراط المستقيم ﴿ قد فصلنا الآيات ﴾ أي وضحناها وبيناها وفسرناها ﴿ لقوم يذكرون ﴾ أي لمن له فهم ووعي يعقل عن الله ورسوله .

(١٢٧) ﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ لهم دار السلام ﴾ وهي الجنة ﴿ عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة ، وإنما وصف الله الجنة هٰهنا بدار السلام ، لسلامتهم فيما سلكوه من الصراط المستقيم ، المقتفي أثر الأنبياء وطرائقهم ، فكما سلموا من آفات الاعوجاج أفضوا إلى دار السلام ﴿ وهو وليهم ﴾ أي

حافظهم وناصرهم ومؤيدهم ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ أي جزاءً على أعمالهم الصالحة تولاهم وأثابهم الجنة بمنه وكرمه .

(١٢٨) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ و ﴾ اذكر يا محمد فيما تقصه عليهم وتنذرهم به ﴿ يوم يحشرهم جميعاً ﴾ يعني الجن وأولياءهم من الإنس الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ، ويعوذون بهم ويطيعونهم ، ويوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴿ يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس ﴾ أي من إغوائهم وإضلالهم ، يعني أضللتم منهم كثيراً ﴿ وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض ﴾ يعني أن أولياء الجن من الإنس قالوا مجيبين لله تعالى عن ذلك بهذا ﴿ وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا ﴾ يعني الموت ﴿ قال النار مثواكم ﴾ أي مأواكم ومنزلكم أنتم وإياهم وأولياؤكم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها مكثاً مخلداً إلا ما شاء الله ، عن ابن عباس قال : ﴿ النار مثواكم خالدين فيها . . . ﴾ قال : إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه ، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً .

(١٢٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

قال سعيد عن قتادة في تفسير هذه الآية : إنما يولي الله الناس بأعمالهم ، فالمؤمن ولي المؤمن أين كان ، وحيث كان ، والكافر ولي الكافر أينما كان ، وحيثما كان ، ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ، وقيل : ﴿ بعض الظالمين بعضاً ﴾ ظالمي الجن ، وظالمي الإنس ، ومعنى الآية الكريمة : كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس بتلك الطائفة التي أغوتهم من الجن كذلك نفعل بالظالمين ، نسلط بعضهم على بعض ، ونهلك بعضهم ببعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاء على ظلمهم وبغيهم .

(١٣٠) ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾

وهذا أيضاً مما يقرع الله به كافري الجن والإنس يوم القيامة حيث يسألهم ، وهو أعلم ،

هل بلغتهم الرسل رسالاته ، وهذا استفهام تقريري ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ أي من جملتكم ، والرسل من الإنس فقط ، وليس من الجن رسل ، كما قد نص على ذلك مجاهد وابن جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ أي أقررنا أن الرسل قد بلغونا رسالاتك ، وأنذرونا لقاءك ، وأن هذا اليوم كائن لا محالة ﴿ وغرتهم الحياة الدنيا ﴾ أي وقد فرطوا في حياتهم الدنيا ، وهلكوا بتكذيبهم الرسل ومخالفتهم للمعجزات لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ أي في حال الدنيا بما جاءتهم به الرسل صلوات الله عليهم .

(١٣١) ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ذلك أن لم يكن ربك..﴾ أي إنما أعذرنا إلى الثقلين بإرسال الرسل وإنزال الكتب لئلا يؤاخذ أحد بظلمه ، وهو لم تبلغه الدعوة ، ولكن أعذرنا إلى الأمم ، وما عذبنا أحداً إلا بعد إرسال الرسل إليهم كما قال تعالى ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ ويحتمل قوله تعالى ﴿ بظلم ﴾ وجهين ، أحدهما ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم أهلها بالشرك ونحوه وهم غافلون ، يقول : لم يكن يعاجلهم بالعقوبة حتى يبعث إليهم رسولاً ينبههم على حجج الله عليهم وينذرهم عذاب الله يوم معادهم ، ولم يكن بالذي يأخذهم غفلة فيقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير . والوجه الثاني ﴿ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم ﴾ يقول : لم يكن ربك ليهلكهم دون التنبيه والتذكير بالرسل والآيات والعبر فيظلمهم بذلك ، والله غير ظلام لعبيده .

(١٣٢) ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي ولكل عامل من طاعة الله أو معصيته مراتب ومنازل من عمله يبلغه الله إياها ، ويثيبه بها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، ويحتمل أن يعود قوله ﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي من كافري الجن والإنس ، أي ولكل درجة في النار بحسبه ﴿ وما ربك بغافل عما يعملون ﴾ قال ابن جرير : أي وكل ذلك من عملهم يا محمد بعلم من ربك يحصيها ويثبتها لهم عنده ليجازيهم عليها عند لقائهم إياه ومعادهم إليه .

(١٣٣) ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ

قَـوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وربك ﴾ يا محمد ﴿ الغني ﴾ أي عن جميع خلقه من جميع الوجوه ، وهم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ﴿ ذو الرحمة ﴾ أي وهو مع ذلك رحيم بهم ﴿ إن يشأ يذهبكم ﴾ أي إذا خالفتم أمره ﴿ ويستخلف من بعدكم ما يشاء ﴾ أي قوماً آخرين يعملون بطاعته ﴿ كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ أي هو قادر على ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، كما أذهب القرون الأولى ، وأتى بالذي بعدها ، كذلك هو قادر على إذهاب هؤلاء والاتيان بآخرين ، قال تعالى : ﴿ والله الغني وأنتم الفقراء وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ والذرية الأصل ، والذرية النسل .

﴿١٣٤﴾ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾

أي أخبرهم يا محمد أن الذي يوعدون به من أمر المعاد كائن لا محالة ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ أي ولا يعجزون الله ، بل هو قادر على إعادتكم ، وإن صرتم تراباً رفاتاً وعظاماً ، هو قادر لا يعجزه شيء . روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال : « يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسي بيده إنما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين » .

﴿١٣٥﴾ ﴿ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

هذا تهديد ، ووعيد أكيد ، أي استمروا على طريقتكم وناحيتكم إن كنتم تظنون أنكم على هدى ، فأنا مستمر على طريقتي ومنهجي ، كقوله ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون ﴾ ﴿ على مكانتكم ﴾ على ناحيتكم ﴿ فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار . . . ﴾ أي أتكون لي أو لكم ؟ وقد أنجز الله موعده لرسوله صلوات الله عليه ، أي فإنه تعالى مكنه في البلاد ، وحكمه في نواصي مخالفيه من العباد ، وفتح مكة ، وأظهره على من كذبه وناوأه ، واستقر أمره على سائر جزيرة العرب ، وكذلك اليمن والبحرين ، وكل ذلك في حياته ، ثم فتحت الأمصار والأقاليم والرساتيق بعد وفاته في أيام خلفائه رضي الله عنهم أجمعين ، كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ وكما قال : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وقد فعل ذلك بهذه الأمة المحمدية ، وله الحمد والمنة أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

(١٣٦) ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

هذا ذم وتوبيخ من الله للمشركين الذين ابتدعوا بدعاً ، وكفراً ، وشركاً ، وجعلوا لله شركاً وجزءاً من خلقه ، وهو خالق كل شيء ، سبحانه وتعالى ، ولهذا قال ﴿ وجعلوا لله من ذرأ ﴾ أي مما خلق وبرأ ﴿ من الحرث ﴾ أي من الزرع والثمار ﴿ والأنعام نصيباً ﴾ أي جزءاً وقسماً ﴿ فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ﴾ وقوله ﴿ فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ﴾ عن ابن عباس أنه قال في تفسير هذه الآية : إن أعداء الله كانوا إذا حرثوا حرثاً أو كانت لهم ثمرة جعلوا لله منه جزءاً، وللوثن جزءاً ، فما كان من حرث أو ثمرة أو شيء من نصيب الأوثان حفظوه وأحصوه ، وإن سقط منه شيء فيما سمي للصمد ردوه إلى ما جعلوه للوثن ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه للوثن فسقى شيئاً جعلوه لله ، جعلوا ذلك للوثن ، وإن سقط شيء من الحرث والثمرة الذي جعلوه لله فاختلط بالذي جعلوه للوثن قالوا : هذا فقير ، ولم يردوه إلى ما جعلوه لله ، وإن سبقهم الماء الذي جعلوه لله فسقى ما سمي للوثن تركوه للوثن وكانوا يحرمون من أموالهم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام فيجعلونه للأوثان ، ويزعمون أنهم يحرمونه قربة لله ، فقال تعالى ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ. . ﴾ قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في الآية : كل شيء يجعلونه لله من ذبح يذبحونه لا يأكلونه أبداً حتى يذكروا معه أسماء الآلهة ، وما كان للآلهة لم يذكروا اسم الله معه وقرأ الآية حتى بلغ ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ساء ما يقسمونه ، فإنهم أخطأوا أولاً في القسم ، لأن الله هو رب كل شيء ومليكه وخالقه ، ثم لما قسموا فيما زعموا القسمة الفاسدة لم يحفظوها ، بل حاروا فيها ، كقوله ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ﴾ .

(١٣٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى : وكما زينت الشياطين لهؤلاء ، أن يجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ، كذلك زينوا لهم قتل أولادهم خشية الاملاق ، ووأد البنات خشية العار ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ وقال ﴿ وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ﴾ ﴿ ولو شاء الله ما فعلوه ﴾ أي كل هذا واقع بمشيئة الله وإرادته واختياره ، وله

الحكمة في ذلك ﴿ فذرهم وما يفترون ﴾ أي فدعهم واجتنبهم وما هم فيه فسيحكم الله بينك وبينهم .

﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

الحجر : الحرام مما حرموا من الوصيلة وتحريم ما حرموا ، وهو تحريم كان عليهم من الشياطين في أموالهم ، وتغليظ وتشديد ، ولم يكن من الله تعالى ، وقد احتجروها لآلهتهم . ﴿ لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ﴾ يقولون : حرام أن يطعم إلا من شئنا ، وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى ﴿ قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل آللّه أذن لكم أم على الله تفترون ﴾ وقوله ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ الأنعامُ التي حرمت ظهورها هي البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ، والأنعام التي لا يذكرون اسم الله عليها ، هي طائفة من إبلهم لا يذكرون اسم الله عليها ، ولا في شيء من شأنها ، لا إن ركبوها ، ولا إن صلبوها ، ولا إن حملوا عليها ، ولا إن عملت شيئاً ، ولا إذا ولدوها ، ولا إذا نحروها . ﴿ افتراء عليه ﴾ أي على الله وكذباً منهم في إسنادهم ذلك إلى دين الله وشرعه ، فإنه لم يأذن لهم في ذلك ، ولا رضيه منهم ﴿ سيجزيهم بما كانوا يفترون ﴾ أي عليه ويسندون إليه .

(١٣٩) ﴿ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ﴾ هو اللبن ، كانوا يحرمونه على إناثهم ، ويشربه ذكرانهم ، وكانت الشاة إذا ولدت ذكراً ذبحوه ، وكان للرجال دون النساء ، وإن كانت أنثى تركت فلم تذبح ، وإن كانت ميتة فهم فيه شركاء ، فنهى الله عن ذلك . وقال الشعبي : البحيرة لا يأكل من لبنها إلا الرجال ، وإن مات منها شيء أكله الرجال والنساء ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أي قولهم الكذب في ذلك كقوله تعالى ﴿ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ ﴿ حكيم ﴾ أي في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ﴿ عليم ﴾ بأعمال عباده من خير وشر ، وسيجزيهم عليها أتم الجزاء .

(١٤٠) ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى : قد خسر الذين فعلوا هذه الأفاعيل في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم ، وضيقوا عليهم في أموالهم ، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم ، وأما في الآخرة فيصيرون إلى أسوأ المنازل بكذبهم على الله ، وافترائهم . عن ابن عباس قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام ﴿ قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم . . ﴾ رواه البخاري في كتاب مناقب قريش .

(١٤١) ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

يقول تعالى مبيناً أنه الخالق لكل شيء من الزروع والثمار والأنعام التي تصرف فيها المشركون بآرائهم الفاسدة ، وقسموها وجزؤ وها ، فجعلوا منها حراماً وحلالاً فقال ﴿ وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ﴾ معروشات : ممسوكات ، أو ما عرش من الكرم ، وغير معروشات ما لم يعرش من الكرم ، أو ما عرش الناس ، وغير معروشات ما خرج في البر والجبال من الثمرات ﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر ﴾ من رطبه وعنبه . ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ قال بعضهم : هي الزكاة المفروضة يوم يكال ، ويعلم كيله ، من كل عشرة واحد ، وقال آخرون : هو حق آخر سوى الزكاة ، فقد كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة ، وقد ذم الله سبحانه الذين يصرمون ولا يتصدقون ، كما ذكر عن أصحاب الجنة في سورة ﴿ ن ﴾ ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم ﴾ أي كالليل المدلهم سوداء محترقة ﴿ ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾ قيل : معناه لا تسرفوا في الاعطاء فتعطوا فوق المعروف ، وفي صحيح البخاري تعليقاً « كلوا واشربوا واكسبوا من غير إسراف ولا مخيلة » .

(١٤٢) ﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

أي وأنشأ لكم من الأنعام ما هو حمولة ، وما هو فرش ، قيل : المراد بالحمولة ما يحمل

عليه من الابل ، والفرش الصغار منها . أو الحمولة هي الابل والخيل والبغال والحمير وكل شيء يحمل عليه ، وأما الفرش فالغنم ﴿ كلوا مما رزقكم الله ﴾ أي من الثمار والزروع والانعام ، فكلها خلقها الله وجعلها رزقاً لكم ﴿ ولا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ أي طريقه وأوامره كما اتبعها المشركون الذين حرموا ما رزقهم الله من الثمار والزروع افتراء على الله ﴿ إنه لكم ﴾ أي إن الشيطان أيها الناس لكم ﴿ عدو مبين ﴾ أي بين ظاهر العداوة .

(١٤٣) ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

هذا بيان لجهل العرب قبل الاسلام فيما كانوا حرموا من الأنعام وجعلوها أجزاء وأنواعاً : بحيرة وسائبة ووصيلة وحاماً وغير ذلك من الأنعام التي ابتدعوها في الأنعام والزروع والثمار ، فبين تعالى أنه أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، وأنه أنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً . ثم بين أصناف الأنعام إلى غنم ، وهو بياض ، وهو الضأن ، وسواد وهو المعز : ذكره وأنثاه ، وإلى إبل ذكورها وإناثها ، وبقر كذلك ، وأنه تعالى لم يحرم شيئاً من ذلك ، ولا شيئاً من أولادها ، بل كلها مخلوقة لبني آدم : أكلاً وركوباً وحمولةً وحلباً ، وغير ذلك من وجوه المنافع كما قال ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ وقوله تعالى ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الانثيين ﴾ رد عليهم في قولهم ﴿ ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ﴾ وقوله ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ أي أخبروني عن يقين كيف حرم الله عليكم ما زعمتم تحريمه من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام ونحو ذلك . وقال العوفي عن ابن عباس : قوله ﴿ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين ﴾ فهذه أربعة أزواج ﴿ قل آلذكرين حرم أم الأنثيين ﴾ يقول : لم أحرم شيئاً من ذلك ﴿ أما اشتملت عليه أرحام الاثنيين ﴾ يعني هل يشتمل الرحم إلاَّ على ذكر وأنثى ؟ فلم تحرمون بعضاً ، وتحلون بعضاً ؟ ﴿ نبئوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ يقول تعالى : كله حلال .

(١٤٤) ﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وقوله تعالى ﴿ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ﴾ تهكم بهم فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه من ذلك ﴿ فمن أظلم ممن . . ﴾ أي لا أحد أظلم منه ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وأول من دخل في هذه الآية عمرو بن لحي بن قمعة ، لأنه أول من غير دين الأنبياء ، وأول من سيب السوائب ووصل الوصيلة وحمى الحامي ، كما ثبت ذلك في الصحيح .

(١٤٥) ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عبده ورسوله محمداً ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين حرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ﴿ لا أجد فيما أوحى إليّ محرماً على طاعم يطعمه ﴾ أي آكل يأكله ، قيل : معناه لا أجد شيئاً مما حرمتم حراماً سوى هذه ، ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ يعني المهراق ، قال عكرمة في قوله ﴿ أو دماً مسفوحاً ﴾ لولا هذه الآية لتتبع الناس ما في العروق كما تتبعه اليهود ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ أي فمن اضطر إلى أكل شيء مما حرم الله في هذه الآية الكريمة وهو غير متلبس ببغي ولا عدوان ﴿ فإن ربك غفور رحيم ﴾ أي غفور له ، رحيم به .

(١٤٦) ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

قال ابن جرير يقول تعالى : وحرمنا على اليهود كل ذي ظفر وهو البهائم والطير ما لم يكن مشقوق الأصابع كالابل والنعام والأوز والبط ، وعن ابن عباس : هو البعير والنعامة ، وقال سعيد بن جبير : هو الذي ليس منفرج الأصابع ، وفي رواية عنه كل متفرق الأصابع ، ومنه الديك ﴿ حرمنا عليهم شحومهما ﴾ قال السدي : يعني الثرب ، وشحم الكليتين ، وكانت اليهود تقول : إن حرمه اسرائيل على نفسه فنحن نحرمه . ﴿ إلا ما حملت ظهورهما ﴾ يعني ما علق بالظهر من الشحوم ﴿ أو الحوايا ﴾ جمع واحدها حاوياء وحاوية وحويَّة ، وهو ما تحوَّى من البطن ، فاجتمع واستدار ، وهي بنات اللبن ، وهي المباعر ، وتسمى المرابض ، وفيها الأمعاء ﴿ أو ما اختلط بعظم ﴾ يعني إلا ما اختلط من الشحوم بعظم فقد أحللناه لهم ، وقال ابن جريج : شحم الالية ما اختلط بالعصعص فهو حلال ، وكل شيء في القوائم والجنب والرأس والعين وما اختلط بعظم فهو حلال ونحوه . ﴿ ذلك جزيناهم

ببغيهم ﴾ أي هذا التضييق إنما فعلناه بهم وألزمناهم به مجازاة على بغيهم ومخالفتهم أوامرنا . وفي الحديث « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا أثمانها ، وإن الله إذا حرم على قوم أكل شيء حرم عليهم ثمنه » .

(١٤٧) ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى فإن كذبك يا محمد مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم فقل ﴿ ربكم ذو رحمة واسعة ﴾ وهذا ترغيب لهم في ابتغاء رحمة الله الواسعة واتباع رسوله ﴿ ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ﴾ ترهيب لهم من مخالفتهم الرسول خاتم النبيين ، وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الترغيب والترهيب في القرآن كما قال تعالى ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ .

(١٤٨) ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

هذه مناظرة ذكرها الله تعالى ، وشبهة تشبث بها المشركون في شركهم ، وتحريم ما حرموا فإن الله مطلع على ما هم فيه من الشرك والتحريم لما حرموه ، وهو قادر على تغييره بأن يلهمنا الايمان ، ويحول بيننا وبين الكفر فلم يغيره فدل على أنه بمشيئته وإرادته ، ورضاه منا بذلك ، ولهذا قالوا ﴿ لو شاء الله ما أشركنا . . . ﴾ كما في قوله تعالى ﴿ وقالوا لو شاء الله ما عبدناهم ﴾ أي بهذه الشبهة ضل من ضل قبل هؤلاء ، وهي حجة داحضة باطلة ، لأنها لو كانت صحيحة لما أذاقهم الله بأسه ، ودمر عليهم ، وأدال عليهم رسله الكرام ، وأذاق المشركين من أليم الانتقام ﴿ قل هل عندكم من علم ﴾ أي بأن الله راض عنكم فيما أنتم فيه ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ أي فتظهروه لنا وتبينوه وتبرزوه ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ أي الوهم والخيال ، والمراد بالظن ههنا الاعتقاد الفاسد ﴿ وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ تكذبون على الله فيما ادعيتموه .

(١٤٩) ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ فلله الحجة البالغة ﴾ أي له الحكمة التامة والحجة البالغة في هداية من هدى ، وإضلال من ضل ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ فكل ذلك بقدرته ،

ومشيئته واختياره ، وهو مع ذلك يرضى عن المؤمنين ، ويبغض الكافرين كما قال تعالى ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ .

(١٥٠) ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ قل هلم شهداءكم ﴾ أي أحضروا شهداءكم ﴿ الذين يشهدون أن الله حرم هذا ﴾ أي هذا الذي حرمتموه وكذبتم وافتريتم على الله فيه ﴿ فلا تشهد معهم ﴾ أي لأنهم إنما يشهدون والحالة هذه كذباً وزوراً ﴿ والذين هم بربهم يعدلون ﴾ أي يشركون به ويجعلون له عديلاً .

(١٥١) ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم تتقون ﴾ وعن ابن عباس يقول : في الأنعام آيات محكمات هن أم الكتاب ، ثم قرأ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ الآيات . وعن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ : « أيكم يبايعني على ثلاث ؟ ؟ » ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ حتى فرغ من الآيات « فمن وفى فأجره على الله ، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته ، ومن أخر إلى الآخرة فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه . وأما تفسيرها فيقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله ، وحرموا ما رزقهم الله ، وقتلوا أولادهم ، وكل ذلك فعلوه بآرائهم وتسويل الشياطين لهم ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ تعالوا ﴾ أي هلموا وأقبلوا ﴿ أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ أقص عليكم وأخبركم بما حرم ربكم عليكم حقاً ، لا تخرصاً ولا ظناً ، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ أي وأوصاكم ﴿ ألا تشركوا به شيئاً ﴾ ولهذا قال في آخر الآية ﴿ ذلكم وصاكم به . . ﴾ وفي الصحيحين : « أتاني جبريل فبشرني أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً من أمتك دخل الجنة ، قلت : وإن زنى وإن

سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، قلت : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : وإن زنى وإن سرق ، وإن شرب الخمر » وفي بعض الروايات أن قائل ذلك إنما هو أبو ذر لرسول الله ﷺ ، وأنه عليه الصلاة والسلام قال في الثالثة : « وإن رغم أنف أبي ذر » فكان أبو ذر يقول بعد تمام الحديث : « وإن رغم أنف أبي ذر » وفي الحديث القدسي (يا ابن آدم ، إنك ما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك على ما كان منك ولا أبالي ، ولو أتيتني بقراب الأرض خطيئة أتيتك بقرابها مغفرة ما لم تشرك بي شيئاً ، وإن أخطأت حتى بلغت خطاياك عنان السماء ، ثم استغفرتني غفرت لك) ولهذا شاهد في القرآن ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وقوله تعالى ﴿ وبالوالدين احساناً ﴾ أي وأوصاكم وأمركم بالوالدين إحساناً أي أن تحسنوا إليهم ، ﴿ أن اشكر لي ولوالديك ﴾ وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال : سألت رسول الله ﷺ : أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قال ابن مسعود : حدثني بهن رسول الله ، ولو استزدته لزادني . وفي الحديث : « أطع والديك ، وإن أمراك أن تخرج لهما من الدنيا فافعل » ﴿ ولا تقتلوا أولادكم من املاق ﴾ لما أوصى تعالى بالوالدين والأجداد عطف على ذلك الاحسان إلى الأبناء والأحفاد ، وذلك أنهم كانوا يقتلون أولادهم كما سولت لهم الشياطين ، فكانوا يئدون البنات خشية العار ، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار ، وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود أنه سأل رسول الله ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قلت : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » ثم تلا ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ ﴿ من إملاق ﴾ هو القتر وقوله ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » وفي الحديث : « أتعجبون من غيرة سعد ؟ فوالله لأنا أغير من سعد ، والله أغير مني ، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن » أخرجاه ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ وهذا مما نص الله على النهي عنه تأكيداً وإلا فهو داخل في النهي عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » وقد قال عثمان بن عفان وهو محصور بعد أن روى نحو هذا

الحديث ، فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام ، ولا تمنيت أن لي بديني بدلاً منه بعد إذ هداني الله إليه ، ولا قتلت نفساً ، فيم تقتلونني ؟ وفي الحديث « من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً » .

﴿١٥٢﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

لما أنزل الله ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ و﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً ﴾ انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل الشيء فيحبس له حتى يأكله ويفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله فأنزل ﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ قال فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم ﴿ حتى يبلغ أشده ﴾ حتى يحتلم ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والاعطاء كما توعد على تركه ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ﴾ ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه ، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه قبل .

﴿١٥٣﴾ ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

أمر الله المؤمنين بالجماعة ، ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ، ونحو هذا قوله تعالى ﴿أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ وفي مسند الامام أحمد بن حنبل « خط رسول الله خطاً بيده ، ثم قال : « هذا سبيل الله مستقيماً » وخط خطاً عن يمينه وشماله ثم قال : « هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه » ووحد سبيله لأن الحق واحد ، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها .

(١٥٤) ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

لما أخبر سبحانه عن القرآن بقوله ﴿ وأن هذاصراطي مستقيماً فاتبعوه ﴾ عطف بمدح التوراة ورسولها فقال : ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ وكثيراً ما يقرن سبحانه بين ذكر القرآن والتوراة كقوله تعالى ﴿ ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ، وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً ﴾ ﴿ تماماً ﴾ كاملاً جامعاً لما يحتاج إليه في شريعته وقوله ﴿ على الذي أحسن ﴾ أي جزاء على إحسانه في العمل ، وقيامه بأوامرنا وطاعتنا كقوله ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾ وقوله ﴿ وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة ﴾ فيه مدح لكتابه الذي أنزله الله عليه .

(١٥٥) ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

فيه الدعوة إلى اتباع القرآن ، يرغب سبحانه عباده في كتابه ، ويأمرهم بتدبره ، والعمل به والدعوة إليه ، ووصفه بالبركة لمن اتبعه ، وعمل به في الدنيا والآخرة ، لأنه حبل الله المتين .

(١٥٦) ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾

قال ابن جرير : معناه وهذا كتاب أنزلناه لئلا تقولوا ﴿ إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا ﴾ يعني لينقطع عذركم . ﴿ على طائفتين من قبلنا ﴾ هم اليهود والنصارى ﴿ وإن كنا عن دراستهم لغافلين ﴾ أي وما كنا نفهم ما يقولون ، لأنهم ليسوا بلساننا ، ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه .

(١٥٧) ﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾

أي وقطعنا تعللكم أن تقولوا : لو أنا أنزل علينا ما أنزل عليهم لكنا أهدى منهم فيما أوتوه ، كقوله ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً ﴾ ﴿ فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة ﴾ يقول : فقد جاءكم من الله على لسان محمد ﷺ النبي العربي قرآن عظيم ، فيه بيان

للحلال والحرام ، وهدى لما في قلوبكم ، ورحمة من الله لعباده الذين يتبعونه ، ويقتفون ما فيه . ﴿ فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها ﴾ أي لم ينتفع بما جاء به الرسول ، ولا اتبع ما أرسل به ، ولا ترك غيره ، بل صدف عن اتباع آيات الله ، أي صرف الناس وصدهم عن ذلك ﴿ سنجزي الذين يصدفون عن . . . ﴾ أي لا آمن بها ولا عمل بها كقوله ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴾ .

(١٥٨) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

يقول تعالى متوعداً الكافرين به والمخالفين لرسله ، والمكذبين بآياته ، والصادين عن سبيله ﴿ هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك ﴾ وذلك كائن يوم القيامة ﴿ أو يأتي بعض آيات ربك . . . ﴾ وذلك قبل يوم القيامة كائن من إمارات الساعة وأشراطها حين يرون شيئاً من أشراط الساعة ، وفي البخاري عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس آمن من عليها فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل » وفي الحديث « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها ، والدجال ، ودابة الأرض » رواه ابن جرير والامام أحمد . في الصحيحين وغيرهما عن أبي ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أتدري أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ » قلت : لا أدري ، قال : « إنها تنتهي دون العرش فتخر ساجدة ، ثم تقوم حتى يقال لها : ارجعي ، فيوشك يا أبا ذر أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت ، وذلك حين ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ » وقوله ﴿ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ﴾ أي إذا أنشأ الكافر إيماناً يومئذٍ لا يقبل منه ، فأما من كان مؤمناً قبل ذلك ، فإن كان مصلحاً في عمله فهو بخير عظيم ، وإن لم يكن مصلحاً فأحدث توبة لم تقبل منه توبته ﴿ قل انتظروا إنا منتظرون ﴾ تهديد شديد للكافرين ، ووعيد أكيد لمن سوّف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك . ﴿ فهل ينظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ .

(١٥٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا

كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى ، وذلك أن اليهود والنصارى اختلفوا قبل مبعث محمد ﷺ فتفرقوا ، فلما بعث محمد ﷺ أنزل الله عليه ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء . . ﴾ ، والظاهر أن الآية عامة في كل من فارق دين الله ، وكان مخالفاً له ، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وشرعه واحد ، لا اختلاف فيه ، ولا افتراق ، فمن اختلف فيه ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ أي فرقاً كأهل الملل والنحل ، والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد برأ رسول الله ﷺ مما هم فيه ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ وفي الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » فهذا هو الصراط المستقيم ، وهو ما جاءت به الرسل من عبادة الله وحده ، لا شريك له ، والتمسك بشريعة الرسول المتأخر ، وما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء ، والرسل برآء منها ، كما قال تعالى ﴿ لست منهم في شيء ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنما أمرهم إلى الله . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ .

﴿١٦٠﴾ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ثم بين لطفه سبحانه في حكمه وعدله يوم القيامة فقال تعالى ﴿ من جاء بالحسنة . . ﴾ وهذه الآية الكريمة مفصلة لما أجمل في الآية الأخرى ، وهي قوله ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى : « إن ربكم عز وجل رحيم ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة ، أو يمحوها الله عز وجل ، ولا يهلك على الله إلا هالك » ورواه البخاري ومسلم والنسائي . واعلم أن تارك السيئة الذي لا يعملها على ثلاثة أقسام : تارة يتركها لله فهذا تكتب له حسنة على كفه عنها لله تعالى ، وهذا عمل ونية ، وفي بعض ألفاظ الحديث الصحيح « فإنما تركها من جرائي » أي من أجلي ، وتارة يتركها نسياناً وذهولاً عنها ، فهذا لاله ولا عليه لأنه لم ينو خيراً ، ولا فعل شراً ، وتارة يتركها عجزاً وكسلاً عنها بعد السعي في أسبابها والتلبس بما يقرب منها فهذا بمنزلة فاعلها ، كما جاء في الحديث الصحيح : « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل

والمقتول في النار » قالوا : يا رسول الله ، هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال : « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

(١٦١) ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً نبيه ﷺ سيد المرسلين أن يخبر بما أنعم به عليه من الهداية إلى صراطه المستقيم الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف ﴿ ديناً قيماً ﴾ أي قائماً ثابتاً ﴿ ملة إبراهيم حنيفاً . . ﴾ كقوله ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ وليس يلزم من كونه ﷺ أمر باتباع ملة إبراهيم الحنيفية أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها ، لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً وأكملت له إكمالاً تاماً ، لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال ، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الاطلاق ، وصاحب المقام المحمود الذي يرغب إليه الخلق حتى الخليل عليه السلام .

(١٦٢) ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

(١٦٣) ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنه مخالف لهم في ذلك ، فإن صلاته ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، والنسك: الذبح في الحج والعمرة . وروى ابن أبي حاتم قال : ضحى رسول الله ﷺ في يوم عيد النحر بكبشين وقال حين ذبحهما : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين .

(١٦٤) ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

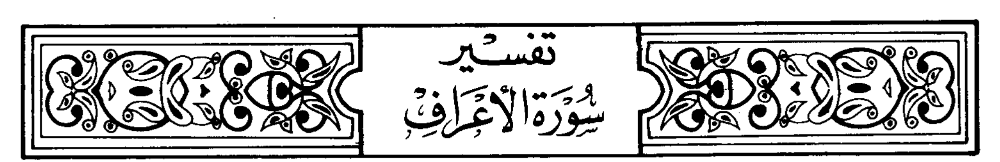
يقول الله تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله في إخلاص العبادة له والتوكل عليه ﴿ أغير الله أبغي رباً ﴾ أي أطلب رباً سواه ﴿ وهو رب كل شيء ﴾ يربيني ويحفظني ويكلؤني ويدبر أمري ، أي لا أتوكل إلا عليه ، ولا أنيب إلا إليه ، لأنه رب كل شيء ومليكه ، وله الخلق والأمر ، ففي هذه الآية الأمر بإخلاص التوكل ، كما تضمنت التي قبلها إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له ، وهذا المعنى يقرب بالآخر كثيراً في القرآن

كقوله تعالى ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ وقوله ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ وقوله ﴿ قل هو الرحمٰن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ وقوله ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا . . ﴾ إخبار عن الواقع يوم القيامة في جزاء الله وحكمه وعدله أن النفوس إنما تجازى بأعمالها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وأنه لا يحمل من خطيئته أحد على أحد ، وهذا من عدله تعالى كما قال ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ وقوله ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم . . . ﴾ أي اعملوا على مكانتكم إنا عاملون على ما نحن عليه ، فستعرضون ونعرض عليه ، وينبئنا وإياكم بأعمالنا وأعمالكم وما كنا نختلف فيه في الدار الدنيا .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ ﴿١٦٥﴾

يقول تعالى ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ﴾ أي جعلكم تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ، وخلفاً بعد سلف ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوي والمناظر والاشكال والألوان ، وله الحكمة في ذلك ، كقوله تعالى ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليبلوكم فيما آتاكم ﴾ أي ليختبركم في الذي أنعم به عليكم ، وامتحنكم به ، ليختبر الغني في غناه ، ويسأله عن شكره ، والفقير في فقره ويسأله عن صبره ، وفي صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » وقوله تعالى ﴿ إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾ ترغيب وترهيب أن حسابه وعقابه سريع فيمن عصاه وخالف رسله ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن والاه واتبع رسله فيما جاؤوا به من خير وطلب . وكثيراً ما يقرن الله في القرآن بين هاتين الصفتين كقوله ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب ﴾ وقوله ﴿ نبىء عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ﴾ فتارة يدعو عباده إليه بالرغبة وصفة الجنة والترغيب فيما لديه ، وتارة يدعوهم إليه بالرهبة وذكر النار وأنكالها وعذابها والقيامة وأهوالها ، وتارة بهما لينجع في كل بحسبه ، جعلنا الله ممن أطاعه فيما أمر ، وترك ما نهى عنه وزجر ، وصدقه فيما أخبر ، إنه قريب مجيب ، سميع الدعاء ، جواد كريم وهاب . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال : « لو يعلم

المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد ، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط أحد من الجنة ، خلق الله مائة رحمة فوضع واحدة بين خلقه يتراحمون بها ، وعند الله تسعة وتسعون » ورواه الترمذي .



تفسير سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ المص ﴾

قد تقدم الكلام في أول سورة البقرة على ما يتعلق بالحروف .

(٢) ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ كتاب أنزل إليك ﴾ أي هذا كتاب أنزل إليك ، أي من ربك ﴿ فلا يكن في صدرك حرج منه ﴾ شك منه ، أو لا تتحرج به في إبلاغه والانذار به ﴿ لتنذر به ﴾ أي أنزلناه إليك لتنذر به الكافرين ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ .

(٣) ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ أي اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه ﴿ ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾ أي لا تخرجوا عما جاءكم به الرسول إلى غيره فتكونوا قد عدلتم عن حكم الله إلى حكم غيره ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٤) ﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾

﴿ وكم من قرية أهلكناها ﴾ أي بمخالفة رسلنا وتكذيبهم فأعقبهم ذلك خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة . ﴿ فجاءها بأسنا بياناً أو هم قائلون ﴾ أي فكان منهم من جاءه أمر الله وبأسه ونقمته بياتاً ، أي ليلاً ، أو هم قائلون من القيلولة ، وهي الاستراحة وسط النهار ، وكلا الوقتين وقت غفلة ولهو .

(٥) ﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

أي فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم ، وأنهم حقيقون بهذا ، وفي الحديث عن عبدالملك بن ميسرة الزراد قال : قال عبدالله بن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « ما هلك قوم حتى يعذروا من أنفسهم » قال : قلت لعبدالملك : كيف يكون ذاك قال : فقرأ هذه الآية ﴿ فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين ﴾ .

(٦) ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ فلنسألن الذين . . ﴾ كقوله ﴿ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ﴾ فيسأل الله الأمم يوم القيامة عما أجابوا رسله فيما أرسلهم به ، ويسأل الرسل أيضاً عن إبلاغ رسالته ، وفي الحديث « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام يسأل عن رعيته ، والرجل يسأل عن أهله ، والمرأة تسأل عن بيت زوجها ، والعبد يسأل عن مال سيده » .

(٧) ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴾

﴿ فلنقصن عليهم . . ﴾ يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون ﴿ وما كنا غائبين ﴾ يعني أنه تعالى يخبر عباده يوم القيامة بما قالوا وبما عملوا من قليل وكثير وجليل وحقير ، لأنه تعالى الشهيد على كل شيء ، لا يغيب عنه شيء ، ولا يغفل عن شيء ، بل هو العالم بخائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

(٨) ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

(٩) ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ والوزن ﴾ أي للأعمال يوم القيامة ﴿ الحق ﴾ أي لا يظلم تعالى أحداً ، كقوله ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ والذي يوضع في الميزان يوم القيامة ، قيل : الأعمال ، وإن كانت أعراضاً إلا أن الله يقلبها يوم القيامة أجساداً ، كما جاء في الصحيح من أن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف » ومن ذلك في الصحيح قصة القرآن ، وأنه يأتي صاحبه في صورة شاب شاحب اللون ، فيقول : من

أنت ؟ فيقول : أنا القرآن الذي أسهرت ليلك ، وأظمأت نهارك . وقيل : يوزن كتاب الأعمال كما جاء في حديث البطاقة في الرجل الذي يؤتى به ويوضع في كفه تسعة وتسعون سجلاً ، كل سجل مد البصر ، ثم يؤتى بتلك البطاقة ، فيها « لا إلَه إلا الله » فيقول : يا رب وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقول الله تعالى : إنك لا تظلم فتوضع تلك البطاقة في كفة الميزان ، قال رسول الله ﷺ : «فطاشت السجلات وثقلت البطاقة » رواه الترمذي ، وقيل : يوزن صاحب العمل كما في الحديث « يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ، فلا يزن عند الله جناح بعوضة » ثم قرأ ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ وفي مناقب عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال : « أتعجبون من دقة ساقيه ؟ والذي نفسي بيده لهما في الميزان أثقل من أحد » وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحاً ، فتارة توزن الأعمال ، وتارة توزن محالها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم .

(١٠) ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما مكن لهم من أنه جعل الأرض قراراً ، وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، وجعل لهم فيها منازل وبيوتاً ، وأباح لهم منافعها ، وسخر لهم السحاب لإخراج أرزاقهم منها ، وجعل لهم فيها معايش ، أي مكاسب وأسباباً يكسبون بها ، ويتجرون فيها ، ويتسببون أنواع الأسباب . وأكثرهم مع هذا قليل الشكر على ذلك كقوله ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار ﴾ .

(١١) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾

ينبه تعالى بني آدم في هذا المقام على شرف أبيهم ، ويبين لهم عداوة عدوهم إبليس وما هو منوط عليه من الحسد لهم ولأبيهم آدم ليحذروه ، ولا يتبعوا طرائقه فقال تعالى ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ﴾ وذلك أنه تعالى لما خلق آدم عليه السلام بيده من طين لازب ، وصوره بشراً سوياً ، ونفخ فيه من روحه أمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لشأن الله تعالى وجلاله فسمعوا كلهم ، وأطاعوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . وعن ابن عباس أنهم خلقوا في أصلاب الرجال ، وصوروا في أرحام النساء .

(١٢) ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾

قال بعض النحاة : ﴿ لا ﴾ هنا في ﴿ ألا تسجد ﴾ زائدة وقال بعضهم زيدت لتأكيد الجحد . وقول إبليس لعنه الله ﴿ أنا خير منه ﴾ من العذر الذي هو أكبر من الذنب ، كأنه امتنع من الطاعة ، لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول ، يعني لعنه الله : وأنا خير منه ، فكيف تأمرني بالسجود له ؟ ثم بين أنه خير منه بأنه خلق من نار ، والنار أشرف مما خلقته منه وهو الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ، ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً في مقابلة نص ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ فشذ من بين الملائكة لترك السجود .

(١٣) ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لابليس بأمر قدري كونيّ ﴿ فاهبط منها ﴾ أي بسبب عصيانك لأمري ، وخروجك عن طاعتي ، فما يكون لك أن تتكبر فيها ، أي في الجنة ، أو في المنزلة التي هو فيها من الملكوت الأعلى ﴿ فاخرج إنك من الصاغرين ﴾ أي الذليلين الحقيرين ، معاملة له بنقيض قصده ، ومكافأة لمراده بضده .

(١٤) ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

فعند ذلك استدرك اللعين وسأل النظرة إلى يوم الدين ﴿ قال أنظرني إلى يوم يبعثون ﴾ .

(١٥) ﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾

أجابه تعالى إلى ما سأله ، لما له في ذلك من الحكمة والارادة والمشيئة التي لا تخالف ، ولا تمانع ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب .

(١٦) ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أنظر إبليس ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ واستوثق بذلك أخذ في المعاندة والتمرد فقال : ﴿ فبما أغويتني . . . ﴾ أي كما أغويتني ، أي كما أضللتني ، أو أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿ صراطك المستقيم ﴾ أي طريق الحق ، وسبيل النجاة ، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ، ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي ، وقال بعض النحاة : الباء هنا قسمية ، كأنه يقول : فباغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم . وقال محمد بن عون بن عبدالله : يعني طريق مكة ،

والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك لما روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ يقول : « إن الشيطان قعد لابن آدم بطرقه ، قعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ قال : فعصاه وأسلم » قال : « وقعد له بطريق الهجرة ، فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك ؟ وإنما مثل المهاجر كالفرس في الطول فعصاه وهاجر ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، وهو جهاد النفس والمال ، فقال : تقاتل فتقتل ، فتنكح المرأة ، ويقسم المال ؟ قال : فعصاه وجاهد » قال رسول الله ﷺ : « فمن فعل ذلك منهم فمات كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن قتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقاً على الله أن يدخله الجنة » .

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴾ (١٧)

﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ﴾ أي أشككهم في آخرتهم ﴿ ومن خلفهم ﴾ أرغبهم في دنياهم ﴿ وعن أيمانهم ﴾ أشبه عليهم أمر دينهم ﴿ وعن شمائلهم ﴾ أشهي لهم المعاصي . قال ابن عباس : لم يقل : من فوقهم ، لأن الرحمة تنزل من فوقهم ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ موحدين ، وقول إبليس هذا إنما هو ظن منه وتوهم ، وقد وافق في هذا الواقع كما قال تعالى ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين . وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ ولهذا ورد في الحديث الاستعاذة من تسلط الشيطان على الانسان من جهاته كلها فقد روى البزار عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ يدعو : « اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي ، اللهم استر عوراتي ، وآمن روعاتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي ، وعن يميني وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بك اللهم أن أغتال من تحتي » .

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١٨)

أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرد والابعاد والنفي عن محل الملأ الأعلى بقوله ﴿ أخرج منها مذءوماً مدحوراً ﴾ المذءوم : المعيب والذأم العيب . والمدحور : المقصي ، وهو المبعد المطرود . وقوله ﴿ لمن اتبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴾ كقوله : ﴿ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً ﴾ .

(١٩) ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(٢٠) ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه أباح لآدم عليه السلام ولزوجته حواء الجنة أن يأكلا منها من جميع ثمارها إلا شجرة واحدة فعند ذلك حسدهما الشيطان وسعى في المكر والوسوسة والخديعة ليسلبهما ما هما فيه من النعمة واللباس الحسن ﴿ وقال ﴾ كذباً وافتراء ﴿ ما نهاكما ربكما . . . ﴾ أي لئلا تكونوا ملكين أو خالدين ها هنا ، ولو أنكما أكلتما منها لحصل لكما ذلكما كقوله ﴿ قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ﴾ .

(٢١) ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴾

﴿ وقاسمهما ﴾ أي حلف لهما بالله ﴿ إني لكما لمن الناصحين ﴾ فإني من قبلكما ها هنا ، وأعلم بهذا المكان ، وهذا من باب المفاعلة والمراد أحد الطرفين ، أي حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما ، وقد يخدع المؤمن بالله .

(٢٢) ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

كانت الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته السنبلة ، فلما أكلا منها بدت لهما سوآتهما ، وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة وورق التين ، يلزقان بعضه إلى بعض ، فناداه الله أما كان لك فيما منحتك من الجنة ، وأبحتك منها مندوحة عما حرمت عليك ؟ قال : بلى يا رب ، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحدا يحلف بك كاذبا ، قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كداً .

(٢٣) ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾

قال الضحاك بن مزاحم في قوله ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا . . . ﴾ هي الكلمات التي تلقاها آدم من ربه .

(٢٤) ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

قيل : المراد بالخطاب في ﴿ اهبطوا ﴾ آدم وحواء وإبليس والحية ، ومنهم من لم يذكر الحية ، والله أعلم ، والعمدة في العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال تعالى في سورة طه قال ﴿ اهبطا منها جميعاً ﴾ وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهي تبع لإبليس ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ أي قرار وأعمار مضروبة إلى آجال معلومة ، قد جرى بها القلم ، وأحصاها القدر ، وسطرت في الكتاب الأول .

(٢٥) ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴾

﴿ قال فيها تحيون . . ﴾ كقوله ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ يخبر تعالى أنه جعل الأرض داراً لبني آدم مدة الحياة الدنيا ، فيها محياهم ، وفيها مماتهم وقبورهم ، ومنها نشورهم ليوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين ويجازي كلاً بعمله .

(٢٦) ﴿ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يمتن الله تعالى على عباده بما جعل لهم من اللباس والريش ، فاللباس ستر العورات ، وهي السوآت ، والرياش ، والريش ما يتجمل به ظاهراً ، فالأول من الضروريات ، والريش من التكملات والزيادات . قال ابن جرير : الرياش في كلام العرب : الأثاث ، وما ظهر من الثياب ، وعن ابن عباس الرياش : المال . وفي مسند الإمام أحمد : لبس أبو أمامة ثوباً جديداً فلما بلغ ترقوته قال : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : قال رسول الله ﷺ : « من استجد ثوباً فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي ، وأتجمل به في حياتي ، ثم عمد إلى الثوب الخلق فتصدق به كان في ذمة الله وفي جوار الله ، وفي كنف الله حياً وميتاً » ﴿ ولباس التقوى ذلك خير ﴾ قيل : هو ما يلبسه المتقون يوم القيامة ، وقيل : لباس التقوى والإيمان ، أو السمت الحسن في الوجه ، أو هو خشية الله .

(٢٧) ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا

سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يحذر تعالى بني آدم من إبليس وقبيله مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام في سعيه في إخراجه من الجنة التي هي دار النعيم إلى دار التعب والعناء والتسبب في هتك عورته بعدما كانت مستورة عنه ، وما هذا إلا عن عداوة أكيدة ، وهذا كقوله تعالى ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً ﴾ .

(٢٨) ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

كان العرب ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها ، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش وهم الحمس يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره أحمسي ثوباً طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه ، فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسي ثوباً طاف عرياناً، وربما كنت امرأة تطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر فتقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله   وما بدا منه فلا أحله

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع فأنكر الله عليهم ذلك فقال ﴿ وإذا فعلوا فاحشة . . . ﴾ فقال تعالى رداً عليهم ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لمن ادعى ذلك ﴿ إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ أي هذا الذي تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ أي أتسندون إلى الله من الأقوال ما لا تعلمون صحته ؟

(٢٩) ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

﴿ بالقسط ﴾ أي بالعدل والاستقامة ﴿ وأقيموا وجوهكم . . . ﴾ أي أمركم بالاستقامة في عبادته ، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صواباً موافقاً للشريعة ، وأن يكون خالصاً من الشرك ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ يحييكم بعد موتكم ،

فكما بدأكم في الدنيا كذلك تعودون يوم القيامة أحياء . وعن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال : « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلاً ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ » أخرجاه في الصحيحين . وعن مجاهد ﴿ كما بدأكم تعودون ﴾ قال : يبعث المسلم مسلماً والكافر كافراً .

(٣٠) ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ عن ابن عباس : إن الله تعالى بدأ خلق ابن آدم مؤمناً وكافراً كما قال ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً ، ويتأيد هذابحديث البخاري « فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » والمراد من هذا القول أن الله خلقهم ليكون منهم مؤمن وكافر في ثاني الحال لأنه قد فطر الخلق كلهم على معرفته وتوحيده والعلم بأن لا إله غيره ، كما أخذ عليهم الميثاق بذلك في غرائزهم وفطرهم قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ وفي الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » وفي الحديث يقول الله تعالى : « إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم » .

(٣١) ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

هذه الآية رد على المشركين فيما كانوا يعتمدونه من الطواف بالبيت عراة كما رواه مسلم والنسائي ، فأمرهم الله بالزينة، والزينة اللباس ، وهو ما يواري السوأة ، وما سوى ذلك من جيد البز والمتاع فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد ، ولهذه الآية وما ورد في معناها من السنة يستحب التجمل عند الصلاة ، ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد، والطيب لأنه من الزينة والسواك لأنه من تمام ذلك ، ومن أفضل اللباس البياض ﴿ وكلوا واشربوا ولا

تسرفوا ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » ورواه النسائي وابن ماجة . وفي الحديث : « إن من السرف أن تأكل كل ما اشتهيت » رواه الدارقطني .

﴿٣٢﴾ ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى رداً على من حرم شيئاً من المآكل أو المشارب أو الملابس من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم ﴿ من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴾ أي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا ، وإن شركهم فيها الكفار حساً في الدنيا فهي لهم خاصة يوم القيامة لا يشركهم فيها أحد من الكفار ، فإن الجنة محرمة على الكافرين .

﴿٣٣﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا أحد أغير من الله ، فلذلك حرم الفواحش ما ظهر منها ، وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله » وقوله ﴿ والإثم والبغي بغير الحق ﴾ حاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغي هو التعدي إلى الناس فحرم الله هذا وهذا . ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾ أي تجعلوا له شركاء في عبادته ﴿ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولداً ، ونحو ذلك مما لا علم لكم به .

﴿٣٤﴾ ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾

﴿ ولكل أمة ﴾ أي قرن وجيل ﴿ أجل ﴾ أي ميقاتهم المقدر لهم .

﴿٣٥﴾ ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ثم أنذر تعالى بني آدم أنه سيبعث إليهم رسلاً يقصون عليهم آياته ، وبشَّر وحذَّر فقال :

﴿ فمن اتقى وأصلح ﴾ أي ترك المحرمات وفعل الطاعات ﴿ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

(٣٦) ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي كذبت بها قلوبهم واستكبروا عن العمل بها ﴿ أولئك أصحاب . . ﴾ أي ماكثون فيها مكثاً مخلداً .

(٣٧) ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾

أي لا أحد أظلم ممن افترى على الله ، أو كذب بآياته المنزلة ﴿ أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب ﴾ نصيبهم من الأعمال ، من عمل خيراً جزي به ، ومن عمل شراً جزي به ﴿ حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ﴾ يخبر تعالى أن الملائكة إذا توفت المشركين تفزعهم عند الموت وتقبض أرواحهم إلى النار ، يقولون لهم : أين الذين كنتم تشركون بهم في الحياة الدنيا ، وتعبدونهم من دون الله ؟ ادعوهم يخلصوكم مما أنتم فيه ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي ذهبوا عنا ، فلا نرجوا نفعهم ولا خيرهم ﴿ وشهدوا على أنفسهم ﴾ أي أقروا واعترفوا على أنفسهم ﴿ أنهم كانوا كافرين ﴾ .

(٣٨) ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقوله لهؤلاء المشركين به المفترين عليه المكذبين بآياته ﴿ ادخلوا في أمم ﴾ أي أمثالكم ، وعلى صفاتكم ﴿ قد خلت من قبلكم ﴾ أي من الأمم السالفة الكافرة ﴿ من الجن والإنس ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من قوله ﴿ في أمم ﴾ ويحتمل أن يكون ﴿ في أمم ﴾ أي مع أمم . وقوله ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ كما قال الخليل عليه السلام ﴿ ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ وقوله ﴿ حتى إذا اداركوا فيها جميعاً ﴾ أي اجتمعوا فيها كلهم ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ﴾ أي أخراهم

دخولاً ، وهم الأتباع لأولاهم ، وهم المتبوعون ، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم فدخلوا قبلهم فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة ، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل ، فيقولون ﴿ ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ﴾ أي أضعف عليهم العقوبة كما قال تعالى ﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ وقوله ﴿ لكل ضعف ﴾ أي قد فعلنا ذلك ، وجازينا كلا بحسبه .

(٣٩) ﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وقالت أولاهم لأخراهم ﴾ أي قال المتبوعون للأتباع ﴿ فما كان لكم علينا من فضل ﴾ أي فقد ضللتم كما ضللنا ﴿ فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ﴾ .

(٤٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء ﴾ قيل : المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ، أو لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ، روى ابن جرير عن البراء أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا تمر على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : فلان بأقبح أسمائه التي كان يدعى بها في الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون بابها له ، فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ لا تفتح لهم أبواب السماء .. ﴾ قال ابن جريج : لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم ، وهذا فيه جمع بين القولين . وقوله تعالى ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ﴾ حتى يدخل البعير في خرق الابرة ، وعن ابن عباس أنه كان يقرؤ ها ﴿ يلج الجُمّل ﴾ بضم الجيم وتشديد الميم يعني الحبل الغليظ في خرق الابرة .

(٤١) ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

﴿ لهم من جهنم مهاد ﴾ فرش ﴿ ومن فوقهم غواش ﴾ لحف .

(٤٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر حال السعداء فقال : ﴿ والذين آمنوا وعملوا

الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم وعملوا الصالحات بجوارحهم ، هؤلاء ضد ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ نبه تعالى على أن الإيمان والعمل به سهل ، لأنه تعالى قال ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ .

(٤٣) ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ أي من حسد وبغض ، روى النسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أهل الجنة يرى مقعده من الجنة ، فيقول : لولا أن الله هداني ، فيكون له شكراً ، وكل أهل النار يرى مقعده من الجنة فيقول : لو أن الله هداني فيكون له حسرة ،ولهذا لما أورثوا مقاعد أهل النار من الجنة ﴿ نودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أي بسبب أعمالكم نالتكم الرحمة فدخلتم الجنة ، وتبوأتم منازلكم بحسب أعمالكم ، وإنما وجب الحمل على هذا لما ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال : « واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » قال قتادة : قال علي رضي الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل . . . ﴾ رواه ابن جرير .

(٤٤) ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

يخبر تعالى بما يخاطب به أهل النار على التقريع والتوبيخ إذا استقروا في منازلهم ﴿ أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ﴾ أي قالوا لهم : ﴿ قد وجدنا ما وعدنا . . . ﴾ كما أخبر تعالى في سورة الصافات عن الذي كان له قرين من الكفار ﴿ فاطلع فرآه في سواء الجحيم . قال تا الله إن كدت لتردين . ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين . أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ أي ينكر عليه هذه المقالة التي يقولها في الدنيا ، ويقرعه بما صار إليه من العذاب ، والنكال ، وكذلك تقرعهم الملائكة ، يقولون لهم : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ . وكذلك قرَّع رسول الله

قتلى القليب يوم بدر فنادى « يا أبا جهل بن هشام ، ويا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبة بن ربيعة - وسمى رؤوسهم - هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » وقال عمر : يا رسول الله ، تخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يستطيعون أن يجيبوا » . ﴿ فأذن مؤذن بينهم ﴾ أي أعلم معلم ، ونادى مناد ﴿ أن لعنة الله على الظالمين ﴾ أي مستقرة عليهم .

(٤٥) ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴾

ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً ﴾ أي يصدون الناس عن اتباع سبيل الله وشرعه ، وما جاءت به الأنبياء ، ويبغون أن تكون السبيل معوجة غير مستقيمة حتى لا يتبعها أحد ﴿وهم بالآخرة كافرون ﴾ أي وهم بلقاء الله في الدار الآخرة كافرون ، أي جاحدون مكذبون بذلك ، لا يصدقونه ولا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون بما يأتون من منكر من القول والعمل ، لأنهم لا يخافون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس أقوالاً وأعمالاً .

(٤٦) ﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾

لما ذكر الله تعالى مخاطبة أهل الجنة مع أهل النار نبه أن بين الجنة والنار حجاباً ، وهو الحاجز المانع من وصول أهل النار إلى الجنة ، قال ابن جرير : وهو السور الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ وهو الأعراف الذي قال الله فيه : ﴿ وعلى الأعراف رجال ﴾ واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ﴿ يعرفون كلاً بسيماهم ﴾ يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه ، ﴿ ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ﴾ وهم في ذلك يحييون أهل الجنة بالسلام ﴿ لم يدخلوها وهم يطمعون ﴾ أن يدخلوها ، وهم داخلوها إن شاء الله .

(٤٧) ﴿ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

عن ابن عباس أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أهل النار وعرفوهم قالوا ﴿ ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ .

﴿٤٨﴾ ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال من صناديد قريش وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ﴿ ما أغنى عنكم جمعكم ﴾ أي كثرتكم ﴿ وما كنتم تستكبرون ﴾ أي لا ينفعكم كثرتكم ، ولا جموعكم من عذاب الله ، بل صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب والنكال .

﴿٤٩﴾ ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

﴿ أهؤلاء الذين أقسمتم . . ﴾ يعني أصحاب الأعراف ﴿ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ﴾ قال حذيفة : إن أصحاب الأعراف قوم تكاثفت أعمالهم فقصرت بهم حسناتهم عن الجنة ، وقصرت بهم سيئاتهم عن النار ، فجعلوا على الأعراف ، يعرفون الناس بسيماهم ، فلما قضى الله بين العباد أذن لهم في طلب الشفاعة فأتوا آدم . فقالوا : يا آدم أنت أبونا ، فاشفع لنا عند ربك ، فقال : هل تعلمون أن أحداً خلقه الله بيده ،ونفخ فيه من روحه ، وسبقت رحمته إليه غضبه ، وسجدت له الملائكة غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا إبراهيم فيأتون إبراهيم صلى الله عليه وسلم فيسألونه أن يشفع لهم عند ربهم ، فيقول : تعلمون من أحد اتخذه الله خليلاً ؟ هل تعلمون أحداً أحرقه قومه بالنار في الله غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا ابني موسى فيأتون موسى عليه السلام ، فيقول : هل تعلمون من أحد كلمه الله تكليماً ، وقربه نجياً غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا عيسى فيأتونه عليه السلام فيقولون له : اشفع لنا عند ربك ، فيقول : هل تعلمون أحداً خلقه الله من غير أب غيري ؟ فيقولون : لا ، فيقول : هل تعلمون من أحد كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله غيري ؟ قال : فيقولون : لا ، فيقول : أنا حجيج نفسي ، ما علمت كنهه ، ما أستطيع أن أشفع لكم ، ولكن ائتوا محمداً ﷺ فيأتوني فأضرب بيدي على صدري ، ثم أقول : أنا لها ، ثم أمشي حتى أقف بين يدي العرش فآتي ربي عز وجل ، فيفتح لي بالثناء ما لم يسمع السامعون بمثله قط ، ثم أسجد فيقال لي : يا محمد ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع فأرفع رأسي ثم أثني على ربي عز وجل ، ثم أخر ساجداً ، فيقال لي : ارفع رأسك وسل تعطه واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول : ربي

أمتي ، فيقول هم لك ، فلا يبقى نبي مرسل ، ولا ملك مقرب إلا غبطني بذلك المقام المحمود ، وهو المقام المحمود ، فآتي بهم الجنة فأستفتح فيفتح لي ولهم ، فيذهب بهم إلى نهر يقال له : نهر الحيوان ، حافتاه قصب مكلل باللؤلؤ ، ترابه المسك ، وحصباؤه الياقوت ، فيغتسلون فيه ، فتعود إليهم ألوان أهل الجنة وريح أهل الجنة ، فيصيرون كأنهم الكواكب الدرية ، ويبقى في صدورهم شامات بيض يعرفون بها ، يقال : مساكين أهل الجنة » .

(٥٠) ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّـارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّـا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(٥١) ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُـمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَـوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَـآءَ يَوْمِهِمْ هَـٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ذلة أهل النار ، وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك ﴿ أو مما رزقكم الله ﴾ يعني الطعام ، ينادي الرجل أباه أو أخاه ، فيقول له : قد احترقت ، فأفض عليّ من الماء ، فيقال لهم : أجيبوهم فيقولون : ﴿ إن الله حرمهما على الكافرين ﴾ يعني طعام الجنة وشرابها . روى ابن أبي حاتم قال : سئل ابن عباس أي الصدقة أفضل ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل الصدقة الماء ، ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة ، قالوا : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » ، وقوله ﴿ فاليوم ننساهم . . ﴾ أي يعاملهم معاملة من نسيهم لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه كما قال تعالى ﴿ في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ ﴿ كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ﴾ وعن ابن عباس : نسيهم الله من الخير ولم ينسهم من الشر . وفي الصحيح أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى ، فيقول : أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني .

(٥٢) ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن اعذاره إلى المشركين بارسال الرسل إليهم بالكتاب الذي جاء به الرسول ، وأنه كتاب مفصل مبين ﴿ فصلناه على علم ﴾ للعالمين أي على علم منا بما

فصلناه به كقوله ﴿ أنزله بعلمه ﴾ .

﴿٥٣﴾ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ أي ما وعدوا به من العذاب والنكال والجنة والنار ، وقال الربيع : لا يزال يأتي من تأويله أمر حتى يتم يوم الحساب حتى يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فيتم تأويله يومئذٍ ﴿ يوم يأتي تأويله ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يقول الذين نسوه من قبل ﴾ أي تركوا العمل به ، وتناسوه في الدار الدنيا ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ﴾ أي في خلاصنا مما صرنا إليه مما نحن فيه ﴿ أو نرد ﴾ إلى الدار الدنيا ﴿ فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ كقوله ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل . ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ كما قال ههنا ﴿ قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي خسروا أنفسهم بدخولهم النار وخلودهم فيها ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب عنهم ما كانوا يعبدونهم من دون الله فلا يشفعون فيهم ولا ينصرونهم ولا ينقذونهم مما هم فيه .

﴿٥٤﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه ، وما بين ذلك في ستة أيام كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام ، فأما السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه السبت ، وهو القطع ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ، وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح ، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله ، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه ﴿ليس كمثله شيء وهو

السميع البصير ﴾ ومن شبه الله بخلقه كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر ، وليس فيما وصف الله به نفسه تشبيه فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله ، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى . وقوله ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ أي يذهب ظلام هذا بضياء هذا ، وضياء هذا بظلام هذا ، وكل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، أي سريعاً ، لا يتأخر عنه ، بل إذا ذهب هذا جاء هذا وعكسه ، كقوله ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ فقوله ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أي لا يفوته بوقت يتأخر عنه ، بل هو في أثره بلا واسطة بينهما ، ولهذا قال : ﴿ يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ أي الجميع تحت قهره وتسخيره ، ولهذا قال : ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ أي له الملك والتصرف ﴿ تبارك الله رب العالمين ﴾ وفي الدعاء المأثور عن أبي الدرداء وروي مرفوعاً « اللهم لك الملك كله ، ولك الحمد كله ، وإليك يرجع الأمر كله ، أسألك من الخير كله ، وأعوذ بك من الشر كله » .

(٥٥) ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

أرشد تبارك وتعالى عباده إلى دعائه الذي هو صلاحهم في دنياهم وأخراهم فقال ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ تذللاً واستكانة ، وخيفة كقوله ﴿ واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فقال رسول الله ﷺ : « أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعون سميع قريب » قال ابن جرير : في قوله ﴿تضرعاً وخفية﴾ تضرعاً: تذللاً، واستكانة لطاعته وخفية: يقول بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته فيما بينكم وبينه، لا جهاراً مراءة. عن الحسن قال: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس ، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته ، وعنده الزوار وما يشعرون به ، ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً ، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تعالى يقول ﴿ادعوا ربكم تضرعاً وخفية﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ وقال ابن جريج : يكره رفع

الصوت والنداء والصياح في الدعاء ويؤمر بالتضرع والاستكانة ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾ في الدعاء ولا في غيره كأن يسأل منازل الأنبياء . سمع عبدالله بن مغفل ابنه يقول : اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال : يا بني ، سل الله الجنة وَعُذْبه من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور » .

(٥٦) ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

ينهى تعالى عن الافساد في الأرض ، وما أضره بعد الاصلاح ، فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد ، ثم وقع الافساد بعد ذلك كان أضر ما يكون على العباد ﴿ وادعوه خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً مما عنده من وبيل العقاب ، وطمعاً فيما عنده من جزيل الثواب ﴿إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ أي إن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره .

(٥٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدير المسخر ، وأرشد إلى دعائه ، لأنه على ما يشاء قادر نبه تعالى على أنه الرازق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة فقال ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً ﴾ كقوله ﴿ ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾ وقوله ﴿ بين يدي رحمته ﴾ أي بين يدي المطر ﴿ حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً ﴾ أي حملت الرياح سحاباً ثقالاً أي من كثرة ما فيها من الماء تكون ثقيلة قريبة من الأرض مدلهمة ﴿ سقناه لبلد ميت ﴾ أي إلى أرض ميتة مجدبة لا نبات فيها ﴿ فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى ﴾ أي كما أحيينا هذه الأرض بعد موتها كذلك نحيي الأجساد بعد صيرورتها رميماً يوم القيامة .

(٥٨) ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

أي والأرض الطيبة يخرج نباتها سريعاً حسناً ، كقوله ﴿ وأنبتها نباتاً حسناً ﴾ و ﴿ والذي

خبث لا يخرج إلا نكداً ﴾ كالسباخ ونحوها ، عن ابن عباس : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، وفي الحديث « مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكانت منها نقية قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس فشربوا ، وسقوا ، وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٥٩) ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

لما ذكر تعالى قصة آدم في أول السورة وما يتعلق بذلك ، وما يتصل به وفرغ منه شرع تعالى في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام الأول فالأول ، فابتدأ بذكر نوح عليه السلام ، فإنه أول رسول بعثه الله إلى الأرض بعد آدم عليه السلام ، وهو نوح بن لامك ، وإنما سمي نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه . وقد كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . وكان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا فبنى قومهم عليهم مساجد وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم ، وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام ، وسموها بأسماء أولئك الصالحين : وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً ، فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه وتعالى وله الحمد والمنة رسوله نوحاً ، فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له فقال ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي من عذاب يوم القيامة إذا لقيتم الله ، وأنتم مشركون به .

(٦٠) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿قال الملأ من قومه ﴾ أي الجمهور والسادة والقادة والكبراء منهم ﴿ إنا لنراك في ضلال مبين ﴾ أي في دعوتك إيانا إلى ترك عبادة هذه الأصنام التي وجدنا عليها آباءنا ، وهكذا حال الفجار إنما يرون الأبرار في ضلالة .

(٦١) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

أي ما أنا بضال ، ولكن أنا رسول من رب كل شيء ومليكه .

(٦٢) ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

وهذا شأن الرسول ، أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله في هذه الصفات كما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة أوفر ما كانوا ، وأكثر جمعاً « أيها الناس ، إنكم مسؤولون عني ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فجعل يرفع إصبعه إلى السماء ، وينكسها عليهم ويقول : « اللهم اشهد » .

(٦٣) ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح أنه قال لقومه ﴿ أوعجبتم . . . ﴾ أي لا تعجبوا من هذا ، فإن هذا ليس بعجيب أن يوحي الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً إليكم لينذركم ، ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ .

(٦٤) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾

﴿ فكذبوه ﴾ أي تمادوا على تكذيبه ومخالفته ، وما آمن معه منهم إلا قليل ﴿فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ أي السفينة كما قال ﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ ﴿وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ اي عن الحق ، لا يبصرونه ، ولا يهتدون له ، فبين تعالى في هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم من الكافرين ، كقوله ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وهذه سنة الله في عباده في الدنيا والآخرة أن العاقبة فيها للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أغرق قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين .

(٦٥) ﴿ * وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلنا إلى قوم نوح نوحاً كذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، وهو ابن ارم ، وهم عاد الأولى الذين ذكرهم الله ، وقد كانت مساكنهم باليمين بالأحقاف ، وهي جبال الرمل ، وقد دفن هود باليمن ، وقد كان من أشرف قومه نسباً لأن الرسل إنما يبعثهم الله من أفضل القبائل وأشرفهم ، ولكن كان قومه كما شدد خلقهم شدد على قلوبهم ، وكانوا من أشد الأمم تكذيباً للحق ، ولهذا دعاهم هود عليه السلام إلى عبادة الله

وحده لا شريك له ، وإلى طاعته وتقواه .

(٦٦) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ والملأ هم الجمهور والسادة والقادة منهم ﴿ إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ أي في ضلالة حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام ، والإقبال على عبادة الله وحده ، كما تعجب الملأ من قريش من الدعوة إلى إلّه واحد ، فقالوا ﴿ أجعل الآلهة إلّهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ .

(٦٧) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

أي لست كما تزعمون ، بل جئتكم بالحق من الله الذي خلق كل شيء ، فهو رب كل شيء ومليكه .

(٦٨) ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾

﴿ أبلغكم رسالات ربي .. ﴾ وهذه الصفات التي يتصف بها الرسل : البلاغ والنصح والأمانة .

(٦٩) ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أي لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولاً من أنفسكم لينذركم أيام الله ولقاءه ، بل احمدوا الله على ذلك ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ أي واذكروا نعمة الله عليكم في جعلكم من ذرية نوح الذي أهلك الله أهل الأرض بدعوته لما خالفوه وكذبوه ﴿ وزادكم في الخلق بسطة ﴾ أي زاد طولكم على الناس بسطة ، أي جعلكم أطول من أبناء جنسكم كقوله في قصة طالوت ﴿ وزاده بسطة في العلم والجسم ﴾ ﴿ فاذكروا آلاء الله ﴾ أي نعمه ومنته عليكم ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ والآلاء جمع إلى ، وقيل : ألى .

(٧٠) ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن تمردهم وطغيانهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ﴿ قالوا أجئتنا

لنعبد الله وحده ﴾ كقول الكفار من قريش ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ .

(٧١) ﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

أي قد وجب عليكم بمقالتكم هذه من ربكم رجس أي سخط وغضب ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ أي أتحاجوني في هذه الأصنام التي سميتموها أنتم وآباؤكم آلهة ، وهي لا تضر ولا تنفع ، ولا جعل الله لكم على عبادتها حجة ولا دليلاً ، ولهذا قال : ﴿ ما نزل الله بها من سلطان . . . ﴾ وهذا تهديد ووعيد من الرسول لقومه ، ولهذا عقبه بقوله :

(٧٢) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ فأنجيناه والذين معه . . ﴾ وقد ذكر سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخرى من القرآن بأنه أرسل عليهم الريح العقيم . ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ﴾ .

(٧٣) ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(٧٤) ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(٧٥) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾

(٧٦) ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

(٧٧) ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(٧٨) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

كانت ثمود بعد عاد ، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله ، وقد مر رسول الله ﷺ على ديارهم ومساكنهم وهو ذاهب إلى تبوك في سنة تسع ، وفي مسند الإمام أحمد ابن عمر قال لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بهم الحِجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ، ونصبوا لها القدور ، فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الإبل ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا ، وقال : « إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم » قوله تعالى ﴿ وإلى ثمود ﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم صالحاً ﴿ قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ﴾ فجميع الرسل يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقوله ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية ﴾ أي قد جاءتكم حجة من الله على صدق ما جئتكم به ، وكانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية ، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم ، وهي صخرة منفردة في ناحية الحِجر ، يقال لها : الكاتبة فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْراء يتحرك جنينها بين جنبيها كما سألوا ، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ، ومن كان معه على أمره ، وامتنع عن الإيمان من امتنع ، وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة تشرب من بئرها يوماً وتدعه يوماً لهم ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها يحتلبونها فيملأون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم كما قال في الآية الأخرى ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شربٍ محتضر ﴾ وقال تعالى ﴿ هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ وكانت تسرح في بعض تلك الأودية ، ترد من فج ، وتصدر من غيره ، لأنها كانت تتضلع من الماء ، فلما اشتد تكذيبهم لصالح النبي عليه السلام عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء وقد كمن لها قُدار بن سالف في أصل صخرة على طريقها ، وكمن لها مصدع في أصل أخرى فمرت على مصدع فرماها بسهم ، وشد عليها قدار بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة إلى الأرض ، فلما فعلوا ذلك وفرغوا من عقر الناقة ، وبلغ الخبر صالحاً عليه السلام فجاءهم وهم مجتمعون ، فلما رأى الناقة بكى

وقال : ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ﴾ ثم عزموا على قتل صالح وجاؤوا من الليل ليفتكوا بنبي الله فأرسل الله حجارة فرضختهم سلفاً وتعجيلاً قبل قومهم ، وبعد ثلاثة أيام جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ففاضت الأرواح وزهقت النفوس في ساعة واحدة ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي صرعى لا أرواح فيهم .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ ﴿٧٩﴾

هذا تقريع من صالح عليه السلام لقومه لما أهلكهم الله بمخالفتهم إياه وتمردهم على الله ، وإبائهم عن قبول الحق ، وإعراضهم عن الهدى إلى العمى . قال لهم صالح ذلك بعد هلاكهم تقريعاً وتوبيخاً ، وهم يسمعون ذلك كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما ظهر على أهل بدر أقام هناك ثلاثاً ، ثم أمر براحلته فشدت بعد ثلاث من آخر الليل فركبها ثم سار حتى وقف على القليب قليب بدر فجعل يقول : « يا أبا جهل ، يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، ويا فلان بن فلان : هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً » فقال له عمر: يا رسول الله ، ما تكلم من أقوام قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » وفي السيرة أنه عليه السلام قال لهم : « بئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس ، فبئس عشيرة النبي كنتم لنبيكم » . وهكذا صالح عليه السلام قال لقومه : ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ﴾ أي فلم تنتفعوا بذلك ، لأنكم لا تحبون الحق ، ولا تتبعون ناصحاً ، ولهذا قال : ﴿ ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ لوطاً ﴾ ، أو تقديره ﴿ و ﴾ اذكر ﴿ لوطاً إذ قال لقومه ﴾ ولوط هو ابن هاران بن آزر ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وكان قد آمن مع إبراهيم عليه السلام ، وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم ، وما حولها من القرى ، يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها ، لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ، ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الإناث وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم عليهم لعائن الله ، قال عمرو بن

دينار : ما نزل ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط ، وقال الوليد بن عبدالملك الخليفة الأموي باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً ، ولهذا قال لهم لوط ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

(٨١) ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

﴿ إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ﴾ أي عدلتم عن النساء ، وما خلق لكم ربكم منهن إلى الرجال ، وهذا إسراف منكم وجهل ، لأنه وضع الشيء في غير محله ، ولهذا قال لهم في الآية الأخرى ﴿ هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين ﴾ فأرشدهم إلى نسائهم فاعتذروا إليه بأنهم لا يشتهونهن ﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي لقد علمت أنه لا أرب لنا في النساء ، ولا إرادة ، وإنك لتعلم مرادنا من أضيافك ، وذكر المفسرون أن الرجال كانوا قد استغنى بعضهم ببعض ، وكذلك نساؤهم قد استغنين بعضهن ببعض ,

(٨٢) ﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

أي ما أجابوا لوطاً إلا أن هموا بإخراجه ونفيه من بين أظهرهم ، فأخرجه الله تعالى سالماً ، وأهلكهم في أرضهم صاغرين مهانين . وقوله تعالى ﴿ إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال قتادة : عابوهم بغير عيب .

(٨٣) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

يقول تعالى : فأنجينا لوطاً وأهله ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط كما قال تعالى ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ إلا امرأته فإنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها تمالئهم عليه ، وتعلمهم بما يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم ، ولهذا قال ﴿ إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي الباقين وقيل : الهالكين .

(٨٤) ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ مفسر بقوله تعالى ﴿ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ ولهذا قال ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي انظر يا محمد كيف كان عاقبة من يجترىء على معاصي الله عز وجل ،

ويكذب رسله . وقد ذهب الإمام أبو حنيفة رحمه الله إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط ، وذهب آخرون من العلماء إلى أنه يرجم سواء كان محصناً أو غير محصن ، وهو أحد قولي الشافعي رحمه الله ، والحجة ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن رسول الله ﷺ « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول » وقال آخرون : هو كالزاني فإن كان محصناً رجم ، وإن لم يكن محصناً جلد مائة جلدة ، وهو القول الآخر للشافعي ، وأما إتيان النساء في أدبارهن فهو اللوطية الصغرى ، وهو حرام العلماء ، وقد ورد في النهي عنه أحاديث كثيرة .

(٨٥) ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

قال محمد بن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم ، وشعيب هو ابن ميكيل. ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة ، وهي التي بقرب « معان » من طريق الحجاز ، قال تعالى ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ وهم أصحاب الأيكة ﴿ قال يا قوم اعبدو الله ما لكم من إلّه غيره ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ﴿ قد جاءتكم بينة من ربكم ﴾ أي قد أقام الله الحجج والبينات على صدق ما جئتكم به، ثم وعظهم في معاملتهم الناس بأن يوفوا المكيال والميزان ، ولا يبخسوا الناس أشياءهم ، أي لا يخونوا الناس في أموالهم ، ويأخذوها على وجه النخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليساً كما قال تعالى ﴿ ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم﴾ وهذا التهديد شديد ، ووعيد أكيد . نسأل الله العافية منه .

(٨٦) ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ثم قال تعالى إخبارا عن شعيب الذي يقال له : خطيب الأنبياء لفصاحة عبادته ، وجزالة موعظته ناهياً إياهم عن قطع الطريق الحسي والمعنوي بقوله ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون ﴾ أي تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم فقد كانوا عشارين ، وكانوا يتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه ، والأول أظهر ﴿ وتصدون عن سبيل

الله . . ﴾ أي وتودون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة . ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركـم ﴾ أي كنتم مستضعفين لقلتكم فصرتم اعزة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم في ذلك ﴿ وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصي الله وتكذيب رسله .

(٨٧) ﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

﴿ فاصبروا ﴾ أي انتظروا ﴿ حتى يحكم الله بيننا ﴾ وبينكم أي يفصل ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

(٨٨) ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيه شعيباً ومن معه من المؤمنين في توعدهم إياه ومن معه من المؤمنين بالنفي عن القرية ، أو الإكراه على الرجوع في ملتهم والدخول معهم فيما هم فيه . وهذا خطاب مع الرسول ، والمراد اتباعه الذين كانوا معه على ملته . وقوله ﴿ أولو كنا كارهين ﴾ يقول : أو أنتم فاعلون ذلك ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه ؟ .

(٨٩) ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾

إنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه فقد أعظمنا الفرية على الله في جعل الشركاء معه أنداداً ، وهذا تنفير منه عن اتباعهم ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ﴾ وهذا رد مستقيم ، فإنه يعلم كل شيء ، وقد أحاط بكل شيء علماً ﴿ على الله توكلنا ﴾ أي في أمورنا : ما نأتي بها وما نذر ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ﴾ أي احكم بيننا وبين قومنا ، وانصرنا عليهم ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ أي خير الحاكمين ، فإنك العادل الذي لا يجور أبداً .

(٩٠) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن شدة كفرهم ، وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا وقالوا ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فلهذا عقبه بقوله :

(٩١) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

﴿ فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة ، وذلك كما أرجفوا شعيباً ، وأصحابه ، وتوعدوهم بالجلاء . وقد أصابهم عذاب يوم الظلة ، وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ، ووهج عظيم ، قال تعالى ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ ثم جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس، وخمدت الأجسام ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ أي بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

(٩٢) ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

ثم قال تعالى مقابلاً لقيلهم ﴿ الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التي أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

(٩٣) ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

أي فتولى عنهم شعيب عليه السلام بعدما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ، وقال مقرعاً لهم ومونجاً ﴿ يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ﴾ أي قد أديت إليكم ما أرسلت به فلا آسف عليكم ، وقد كفرتم بما جئتكم به ، فلهذا قال ﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ .

(٩٤) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما اختبر به الأمم الماضية ـ الذين أرسل إليهم الأنبياء ـ بالبأساء والضراء ، يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ ، أي يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله

تعالى في كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئاً من الذي أراد منهم ، فقلب عليهم الحال ليختبرهم فيه ، ولهذا قال :

(٩٥) ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ أي حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك فما فعلوا . وقوله ﴿ حتى عفوا ﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم ، يقال : عفا الشيء إذا كثر . ﴿ وقالوا قد مس آباءنا . . . ﴾ يقول تعالى : ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجع فيهم لا هذا ، ولا هذا ، ولا انتبهوا لا بهذا ، ولا بهذا ، وقالوا : قد مسنا من البأساء والضراء ، ثم بعده من الرخاء ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر ، وإنما الدهر تارات ، وتارات ، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء ، كما ثبت في الصحيحين « عجباً للمؤمن ، لا يقضي الله له قضاء الا كان خيراً له إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له » فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، ولهذا جاء في الحديث « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقياً من ذنوبه ، والمنافق مثله كمثل الحمار ، لا يدري فيم ربطه أهله ، ولا فيم أرسلوه » أو كما قال . ولهذا عقب هذه الصفة بقوله ﴿ فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي أخذناهم بالعقوبة بغتة ، على بغتة ، وعدم شعور منهم ، أي أخذناهم فجأة كما في الحديث « موت الفجاءة رحمة للمؤمن، وأخذة أسف للكافر » .

(٩٦) ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل فقال ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا ﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاءت به الرسل ، وصدقت به ، واتبعوه واتقوا بفعل الطاعات، وترك المحرمات ﴿لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم .

(٩٧) ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾

ثم قال مخوفاً ومحذراً من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره ﴿ أفأمن أهل القرى ﴾ أي الكافرة ﴿ أن يأتيهم بأسنا ﴾ أي عذابنا ونكالنا ﴿ بياتاً ﴾ أي ليلاً ﴿ وهم نائمون ﴾

(٩٨) ﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

﴿ وهم يلعبون ﴾ أي في حال شغلهم وغفلتهم .

(٩٩) ﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾

﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ أي بأسه ونقمته وقدرته عليهم ، وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿ فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ﴾ ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله : المؤمن يعمل الطاعات ، وهو مشفق وجل خائف ، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن .

(١٠٠) ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ قال ابن عباس . أولم يتبين لهم ﴿ أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم ﴾ ونختم على قلوبهم ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ موعظة ولا تذكيراً .

(١٠١) ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

لما قص تعالى على نبيه ﷺ خبر قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ، وما كان من اهلاكه الكافرين وانجائه المؤمنين ، وأنه تعالى أعذر اليهم بأن بين لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل صلوات الله عليهم أجمعين قال تعالى ﴿ تلك القرى نقص عليك ﴾ يا محمد ﴿ من أنبائها ﴾ أي من أخبارها ﴿ ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج على صدقهم فيما أخبروهم به كما قال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ﴾ الباء سببية أي فما كانوا ليؤمنوا بما جاءتهم به الرسل بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم ، حكاه ابن عطية رحمه الله ، وهو متجه حسن .

ولهذا قال ﴿ كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين ﴾ .

(١٠٢) ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴾

﴿ وما وجدنا لأكثرهم ﴾ أي لأكثر الأمم الماضية ﴿ من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ أي ولقد وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن الطاعة والامتثال، والعهد الذي أخذه هو ما جبلهم عليه وفطرهم عليه ، وأخذ عليهم في الأصلاب أنه ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك ، وشهدوا على أنفسهم به ، فخالفوه وتركوه وراء ظهورهم ، وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة ، لا من عقل ولا من شرع ، وفي الفطرة السليمة خلاف ذلك، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهي عن ذلك كما جاء في صحيح مسلم، يقول الله تعالى : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وفي الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » .

(١٠٣) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ثم بعثنا من بعدهم ﴾ أي الرسل المتقدم ذكرهم ، كنوح وهود وصالح وشعيب صلوات الله وسلامه عليهم ، وعلى سائر أنبياء الله أجمعين ﴿ موسى بآياتنا ﴾ أي بحججنا ودلائلنا البينة ﴿ إلى فرعون ﴾ وهو ملك مصر في زمن موسى ﴿ وملئه ﴾ أي قومه ﴿ فظلموا بها ﴾ أي جحدوا وكفروا بها ظلماً منهم وعناداً .

(١٠٤) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن مناظرة موسى لفرعون ، وإلجامه اياه بالحجة ، وإظهاره الآيات البينات بحضرة فرعون وقومه من قبط مصر ، فقال تعالى ﴿ وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين ﴾ أي أرسلني الذي هو خالق كل شيء ، وربه ومليكه .

(١٠٥) ﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

قال بعضهم : معناه : حقيق بأن لا أقول على الله إلا الحق ، أي جدير بذلك وحريٌّ به ،

قالوا: والباء وعلى يتعاقبان، يقال: رميت بالقوس، وعلى القوس، وجاء على حال حسنة ، وبحال حسنة . وقال بعض المفسرين : معناه حريص على أن لا أقول على الله إلا الحق . ﴿ قد جئتكم ببينة من ربكم ﴾ أي بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقي فيما جئتكم به ﴿ فأرسل معي بني إسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسرك وقهرك ، ودعهم وعبادة ربك وربهم ، فإنهم من سلالة نبي كريم ، وهو يعقوب بن اسحق بن إبراهيم خليل الرحمن .

(١٠٦) ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

أي قال فرعون : لست بمصدقك فيما قلت ، ولا بمطيعك فيما طلبت ، فإن كانت معك حجة فأظهرها لنراها إن كنت صادقاً فيما ادَّعيت .

(١٠٧) ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ فإذا هي ثعبان مبين ﴾ الحية الذكر ، أي تحولت عصاه إلى حية عظيمة فاغرة فاها مسرعة إلى فرعون . فلما رآها فرعون أنها قاصدة إليه اقتحم عن سريره واستغاث بموسى أن يكفه عنه ففعل .

(١٠٨) ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾

أي أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه ، فإذا هي بيضاء تتلألأ من غير برص ولا مرض ، كما قال تعالى ﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ .

(١٠٩) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾

(١١٠) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

أي قال الملأ ، وهم الجمهور والسادة من قوم فرعون موافقين لقول فرعون فيه بعدما رجع إليه روعه ، واستقر على سرير مملكته بعد ذلك ، قال للملأ حوله ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ فوافقوه ، وقالوا كمقالته ، وتشاوروا في أمره كيف يصنعون ، وكيف تكون حيلتهم في اطفاء نوره وإخماد كلمته ، وظهور كذبه وافترائه ، وتخوفوا أن يستميل الناس بسحره ، فيكون ذلك سبباً لظهوره عليهم ، وإخراجه إياهم من أرضهم والذي خافوا منه وقعوا فيه ﴿ ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ فلما تشاوروا في شأنه ، وائتمروا بما فيه اتفق رأيهم على ما حكاه الله تعالى عنهم في قوله :

(١١١) ﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴾

(١١٢) ﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

﴿ قالوا أرجه وأخاه .. ﴾ قال ابن عباس ﴿ أرجه ﴾ أخره ، وقال قتادة : احبسه . ﴿ وأرسل ﴾ أي ابعث ﴿ في المدائن ﴾ أي في الأقاليم ومدائن ملكك ﴿ حاشرين ﴾ أي من يحشر لك السحرة من سائر البلاد ، ويجمعهم ، وقد كان السحر في زمانهم غالباً كثيراً ظاهراً ،واعتقد من اعتقد منهم ،وأوهم من أوهم منهم أن ما جاء به موسى عليه السلام من قبيل ما تشعبذه سحرتهم ، فلهذا جمعوا له السحرة ليعارضوه بنظير ما أراهم من البينات .

(١١٣) ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴾

(١١٤) ﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾

يخبر تعالى عما تشارط عليه فرعون والسحرة الذين استدعاهم لمعارضة موسى عليه السلام إن غلبوا موسى ليثيبنَّهم، وليعطينَّهم عطاء جزيلاً ، فوعدهم ومناهم أن يعطيهم ما أرادوا ويجعلهم من جلسائه والمقربين عنده ، فلما توثقوا من فرعون لعنه الله :

(١١٥) ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾

(١١٦) ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي .. ﴾ هذه مبارزة من السحرة لموسى عليه السلام في قولهم ﴿ إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ أي قبلك فقال لهم موسى ﴿ ألقوا ﴾ أي أنتم أولاً ، قيل : الحكمة في هذا والله أعلم ليرى الناس صنيعهم ويتأملوه ، فإذا فرغوا من يهرجهم ومحالهم جاءهم الحق الواضح الجلي بعد التطلب له والانتظار منهم لمجيئه ، فيكون أوقع في النفوس ، وكذا كان ، ولهذا قال ﴿ فلما ألقوا سحروا أعين الناس .. ﴾ أي خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه حقيقة في الخارج ، ولم يكن إلا مجرد صنعة وخيال .

(١١٧) ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

(١١٨) ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(١١٩) ﴿ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴾

(١٢٠) ﴿ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴾

(١٢١) ﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(١٢٢) ﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده موسى عليه السلام في ذلك الموقف العظيم الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل ، يأمره بأن يلقي ما في يمينه ، وهي عصاه ﴿ فإذا هي تلقف ﴾ أي تأكل ﴿ ما يأفكون ﴾ أي ما يلقونه ، ويوهمون أنه حق ، وهو باطل فجعلت لا تمر بشيء من حبالهم ، ولا من خشبهم الا التقمته فعرفت السحرة أن هذا شيء من السماء ، ليس هذا بسحر فخروا سجداً ﴿ قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ﴾ قال ابن اسحق : جعلت عصا موسى تتبع تلك الحبال والعصي واحدة واحدة حتى ما يرى بالوادي قليل أو كثير مما ألقوا، ثم أخذها موسى فإذا هي عصا في يده كما كانت، ووقع السحرة سجداً قالوا : لو كان هذا ساحراً ما غلبنا . وقال القاسم بن أبي برة : أوحى الله اليه أن ألق عصاك فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين فاغرفاه ، يبتلع حبالهم وعصيهم ، فألقي السحرة عند ذلك سجداً ، فما رفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ، وثواب أهلهما .

(١٢٣) ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عما توعد به فرعون ـ لعنه الله ـ السحرة لما آمنوا بموسى عليه السلام ، وما أظهره للناس من كيده ومكره في قوله ﴿ إن هذا لمكر مكرتموه . . ﴾ أي إن غلبته لكم في يومكم هذا إنما كان عن تشاور منكم ، ورضا منكم لذلك ، كقوله ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهو يعلم ، وكل من له لب أن هذا الذي قاله من أبطل الباطل ، فإن موسى بمجرد ما جاء من مدين دعا فرعون إلى الله ، وأظهر المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة على صدق ما جاء به ، فعند ذلك أرسل فرعون في مدائن ملكه ، ومعاملة سلطنته فجمع سحرة متفرقين من سائر الأقاليم ببلاد مصر ممن اختار هو والملأ من قومه ، وأحضروهم عنده ، ووعدهم بالعطاء الجزيل ، ولهذا قد كانوا من أحرص الناس على ذلك ، وعلى الظهور في مقامهم ذلك ، والتقدم عند فرعون ، وموسى عليه السلام لا

يعرف أحداً منهم ، ولا رآه ، ولا اجتمع به ، وفرعون يعلم ذلك ، وإنما قال هذا تستراً وتدليساً على رعاع دولته وجهلتهم كما قال تعالى ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ فإن قوماً صدقوه في قوله ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ من أجهل خلق الله وأضلهم . وقوله ﴿ لتخرجوا منها أهلها ﴾ أي تجتمعوا أنتم وهو ، وتكون لكم دولة وصولة ، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء ، وتكون الدولة والتصرف لكم ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي ما أصنع بكم ، ثم فسر هذا الوعيد بقوله :

(١٢٤) ﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ﴾ يعني قطع يد الرجل اليمنى ، ورجله اليسرى أو بالعكس ﴿ ولأصلبكم أجمعين ﴾ وكان أول من صلب ، وأول من قطع الأيدي والأرجل من خلاف .

(١٢٥) ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾

﴿ قالوا إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي قد تحققنا أنا إليه راجعون ، وعذابه أشد من عذابك ، ونكاله على ما تدعونا إليه اليوم ، وما أكرهتنا عليه من السحر أعظم من نكالك ، فلنصبرن على عذابك لنخلص من عذاب الله ، ولهذا قالوا :

(١٢٦) ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾

﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً ﴾ أي عمنا بالصبر على دينك والثبات عليه . ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ أي متابعين لنبيك موسى عليه السلام وقالوا لفرعون ﴿ إقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى ﴾ . فكانوا في أول النهار سحرة ، فصاروا في آخره شهداء بررة .

(١٢٧) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عما تمالأ عليه فرعون وملؤه ، وما أضمروه لموسى عليه السلام وقومه من الأذى والبغضة ﴿ قال الملأ من قوم فرعون ﴾ أي لفرعون ﴿ أتذر موسى وقومه ﴾ أي أتدعهم ليفسدوا في الأرض ، أي يفسدوا أهل رعيتك ، ويدعوهم إلى عبادة ربهم دونك ، يالله العجب !! صار هؤلاء يشفقون من إفساد موسى وقومه ، ألا إن فرعون وقومه

هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون ، ولهذا قال ﴿ ويذرك وآلهتك ﴾ قال الحسن البصري : كان لفرعون إله يعبده في السر ﴿ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾ وهذا أمر ثان بهذا الصنيع ، وقد كان نكل بهم قبل ولادة موسى عليه السلام حذراً من وجوده ، فكان خلاف ما رام وضد ما قصده فرعون ، وهكذا عومل صنيعه أيضاً لما أراد إذلال بني إسرائيل وقهرهم فجاء الأمر على خلاف ما أراد ، أعزهم الله وأذله ، وأرغم أنفه وأغرقه وجنوده .

(١٢٨) ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

ولما صمم فرعون على ما ذكره من المساءة لبني إسرائيل ﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ﴾ ووعدهم بالعاقبة ، وأن الدار ستصير لهم في قوله ﴿ إن الأرض لله يورثها . . . ﴾ .

(١٢٩) ﴿ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

أي قد فعلوا بنا مثل ما رأيت من الهوان والاذلال من قبل ما جئت يا موسى ومن بعد ذلك ، فقال منبهاً لهم على حالهم الحاضر ، وما يصيرون إليه في ثاني الحال ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم . . . ﴾ وهذا تحضيض لهم على العزم على الشكر عند حلول النعم ، وزوال النقم .

(١٣٠) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون ﴾ أي اختبرناهم وامتحناهم وابتليناهم ﴿ بالسنين ﴾ وهي سنو الجوع بسبب قلة الزروع ﴿ ونقص من الثمرات ﴾ وهو دون ذلك ، فقد كانت النخلة لا تحمل إلا ثمرة واحدة ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ .

(١٣١) ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَـٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فإذا جاءتهم حسنة ﴾ من الخصب والرزق ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي هذا لنا بما نستحقه

﴿ وإن تصبهم سيئة ﴾ أي جدب وقحط ﴿ يطيروا بموسى ومن معه ﴾ أي هذا بسببهم وما جاؤوا به ﴿ ألا إنما طائرهم عند الله ﴾ مصائبهم عند الله ، أو من قبل الله .

(١٣٢) ﴿ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن تمرد قوم فرعون وعتوهم وعنادهم للحق ، وإصرارهم على الباطل في قولهم ﴿ مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها . . ﴾ يقولون : أيُّ آية جئتنا بها ودلالة وحجة أقمتها رددناها ، فلا نقبلها منك ، ولا نؤمن بك ، ولا بما جئت به .

(١٣٣) ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

﴿ الطوفان ﴾ كثرة الأمطار المتلفة للزروع والثمار ، أو هو كثرة الموت أو هو الماء والطاعون على كل حال ، وروى ابن جرير عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الطوفان الموت » وقال ابن عباس في رواية : هو أمر من الله طاف بهم ، ثم قرأ ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ ﴿ والجراد ﴾ معروف مشهور ، وهو مأكول لما ثبت في الصحيحين عن أبي يعفور قال : سألت عبدالله بن أبي أوفى عن الجراد ، فقال : غزونا مع رسول الله ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد » وروى الشافعي وأحمد بن حنبل وابن ماجه والبغوي عن النبي ﷺ « أحلت لنا ميتتان ودمان : الحوت والجراد ، والكبد والطحال » وروى أبو داود أن رسول الله ﷺ سئل عن الجراد فقال : « أكثر جنود الله ، لا آكله ولا أحرمه » وإنما تركه عليه الصلاة والسلام لأنه كان يعافه كما عافت نفسه الشريفة أكل العنب وأذن فيه » ﴿ والقمل ﴾ فعن ابن عباس هو السوس الذي يخرج من الحنطة ، وعنه أنه الدبا ، وهو الجراد الصغار الذي لا أجنحة له ، وقيل : هو البراغيث . ﴿ والضفادع ﴾ كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع ، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع في فيه ﴿ والدم ﴾ فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار وما كان في أوعيتهم وجدوه دماً عبيطاً .

(١٣٤) ﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

﴿ ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك . . . ﴾ فدعا موسى ربه فكشف

عنهم ، فلم يفوا له بشيء مما قالوا .

(١٣٥) ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾

(١٣٦) ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

يخبر تعالى أنهم لما عتوا وتمردوا مع ابتلائه إياهم بالآيات المتواترة واحدة بعد واحدة انتقم منهم بإغراقه إياهم في اليم وهو البحر الذي فرقه لموسى فجاوزه وبنو إسرائيل معه ، ثم ورده فرعون وجنوده على أثرهم ، فلما استكملوا فيه ارتطم عليهم فغرقوا عن آخرهم ، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وتغافلهم عنها .

(١٣٧) ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

وأخبر تعالى أنه أورث القوم الذين ﴿ كانوا يستضعفون ﴾ وهم بنو إسرائيل ﴿ مشارق الأرض ومغاربها ﴾ كما قال تعالى ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴾ وقال تعالى ﴿ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين ﴾ وعن الحسن البصري وقتادة في قوله ﴿ مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ يعني الشام وقوله ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ قال مجاهد وابن جريج : وهي قوله تعالى ﴿ ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ﴾ وقوله ﴿ ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ﴾ أي وضربنا ما كان فرعون وقومه يصنعونه من العمارات والمزارع ﴿ وما كانوا يعرشون ﴾ يبنون .

(١٣٨) ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عما قاله جهلة بني اسرائيل لموسى عليه السلام حين جاوزوا البحر ، وقد رأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا ﴿ فأتوا ﴾ أي فمروا ﴿ على قوم يعكفون على أصنام

لهم ﴾ كانوا يعبدون أصناماً على صور البقر ، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم العجل بعد ذلك ﴿ قالوا يا موسى اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون ﴾ أي تجهلون عظمة الله وجلاله ، وما يجب أن يتنزه عنه من الشريك والمثيل .

(١٣٩) ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه ﴾ أي هالك ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي واقد الليثي قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ، فمررنا بسدرة ، فقلت : يا نبي الله : اجعل لنا هذه ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط ـ وكان الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة ويعكفون حولها ـ فقال النبي ﷺ : « الله أكبر ، هذا ما قالته بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجعل لنا إلَهاً كما لهم آلهة ﴾ إنكم تركبون سنن من قبلكم » .

(١٤٠) ﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(١٤١) ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

يذكرهم موسى عليه السلام نعم الله عليهم من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلة ، وما صاروا إليه من العزة والاشتفاء من عدوهم والنظر إليه في حال هوانه وهلاكه وغرقه ودماره .

(١٤٢) ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على بني اسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عليه السلام ، وإعطائه التوراة ، وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم ، فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة ، قال المفسرون : فصامها موسى عليه السلام ، وطواها ، فلما تم الميقات استاك بلحاء شجر ، فأمره الله تعالى أن يكمل بعشرٍ أربعين ، وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي ؟ فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة ، فعلى هذا يكون قد كمل الميقات يوم النحر ، وحصل فيه التكليم لموسى عليه السلام ،

وفيه أكمل الله الدين لمحمد ﷺ ، كما قال تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ فلما تم الميقات ، وعزم موسى على الذهاب إلى الطور استخلف موسى على بني اسرائيل أخاه هارون ووصاه بالاصلاح وعدم الافساد ، وهذا تنبيه وتذكير ، وإلا فهارون عليه السلام نبي شريف كريم على الله ، له وجاهة وجلالة ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء .

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٤٣)

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء لميقات الله وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه ﴿ قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ﴾ وقد أشكل حرف ﴿ لن ﴾ ههنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد فاستدل به المعتزلة على نفي الرؤ ية في الدنيا والآخرة ، وهذا أضعف الأقوال لأنه قد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بأن المؤمنين يرون الله في الدار الآخرة ، والله يقول : ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وقيل : إنها ﴿ لن ﴾ لنفي التأبيد في الدنيا جمعاً بين هذه الآية ﴿ لن تراني . . . ﴾ وبين الدليل القاطع على صحة الرؤ ية في الدار الآخرة ، وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام « يا موسى إنه لا يراني حي إلا مات ، ولا يابس إلا تدهده » ولهذا قال ﴿ فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً ﴾ تراباً ﴿ وخر موسى صعقاً ﴾ مغشياً عليه ! ﴿ فلما أفاق ﴾ والافاقة لا تكون إلا عن غشي ﴿ قال سبحانك ﴾ تنزيهاً وتعظيماً وإجلالاً أن يراه أحد في الدنيا إلا مات . وقوله ﴿ تبت إليك ﴾ قال مجاهد : أن أسألك الرؤ ية ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ من بني اسرائيل ، أو أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قال : استب رجلان : رجل من المسلمين ، ورجل من اليهود ، فقال المسلم : والذي اصطفى محمداً على العالمين ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين ، فغضب المسلم على اليهودي فلطمه ، فأتى اليهودي رسول الله ﷺ فسأله فأخبره فدعاه رسول الله ﷺ فاعترف بذلك ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تخيروني على موسى فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فإذا موسى ممسك بجانب العرش ، فلا أدري أكان ممن صعق فأفاق قبلي ، أم كان ممن استثنى الله عز وجل ؟ » أخرجاه في الصحيحين من

حديث الزهري . والكلام في قوله عليه السلام « لا تخيروني على موسى » كالكلام على قوله « لا تفضلوني على الأنبياء ، ولا على يونس بن متى » قيل : من باب التواضع ، وقيل : قبل أن يعلم بذلك ، وقيل : نهى أن يفضل بينهم على وجه الغضب والتعصب .

(١٤٤) ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه خاطب موسى بأن اصطفاه على أهل زمانه برسالاته تعالى وبكلامه ، ولا شك أن محمداً ﷺ سيد ولد آدم من الأولين والآخرين ، ولهذا اختصه تعالى بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين الذي تستمر شريعته إلى قيام الساعة ، وأتباعه أكثر من أتباع سائر الأنبياء والمرسلين كلهم ، وبعده في الشرف والفضل إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثم موسى بن عمران كليم الرحمن عليه السلام ، ولهذا قال ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ أي من الكلام والمناجاة ﴿ وكن من الشاكرين ﴾ أي على ذلك ولا تطلب ما لا طاقة لك به .

(١٤٥) ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

ثم أخبرنا تعالى أنه كتب له ﴿ في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء ﴾ وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة ، وقيل : الألواح أعطيها موسى قبل التوراة ، وعلى كل حال فكانت كالتعويض له عما سأل من الرؤية ومنع منها ﴿ فخذها بقوة ﴾ أي بعزم على الطاعة ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ عن ابن عباس قال : أمر موسى أن يأخذ بأشد ما أمر به قومه ﴿ سأوريكم دار الفاسقين ﴾ أي سترون عاقبة من خالف أمري ، وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب ، وهذا على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره .

(١٤٦) ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾

أي سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوب المتكبرين عن طاعتي ، ويتكبرون على الناس بغير حق أي كما استكبروا بغير حق أذلهم الله بالجهل

كما قال تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ . وقال بعض السلف : لا ينال العلم حي ولا مستكبر ، وقال آخر : من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً ، عن سفيان بن عيينة في قوله ﴿ سأصرف عن آياتي . . . ﴾ قال : أنزع عنهم فهم القرآن وأصرفهم عن آياتي وقوله ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وقوله ﴿ وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً . . . ﴾ أي وإن ظهر لهم سبيل الرشد ، أي طريق النجاة لا يسلكوه ، وإن ظهر لهم طريق الهلاك والضلال يتخذوه سبيلاً ، ثم علل مصيرهم إلى هذه الحال بقوله ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أي كذبت بها قلوبهم ﴿ وكانوا عنها غافلين ﴾ أي لا يعملون بما فيها .

(١٤٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

﴿ والذين كذبوا بآياتنا . . . ﴾ أي من فعل منهم ذلك واستمر عليه إلى الممات حبط عمله ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي إنما نجازيهم بحسب أعمالهم التي أسلفوها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وكما تدين تدان .

(١٤٨) ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل الذي اتخذه لهم السامري من حليّ القبط الذي كانوا استعاروه منهم فشكل لهم منه عجلاً ، ثم ألقى فيه القبضة من التراب التي أخذها من أثر فرس جبريل عليه السلام ، فصار عجلاً جسداً له خوار ، والخوار صوت البقر ، وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى ، فأعلمه الله تعالى بذلك ، وهو على الطور حيث قال تعالى إخباراً عن نفسه الكريمة ﴿ فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري ﴾ ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً ﴾ ينكر تعالى عليهم في ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السموات والأرض ، ورب كل شيء ومليكه أن عبدوا معه عجلاً جسداً له خوار ، لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير ، ولكن غطى على عين بصائرهم عمى الجهل والضلال ، وقد روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « حبك الشيء يعمي ويصم » .

(١٤٩) ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ أي ندموا على ما فعلوا ، ﴿ قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين ﴾أي من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل .

(١٥٠) ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أن موسى عليه السلام لما رجع إلى قومه من مناجاة ربه تعالى ، وهو غضبان أسف ـ والأسف أشد الغضب ـ ﴿ قال بئسما خلفتموني من بعدي ﴾ يقول : بئسما صنعتم في عبادتكم العجل بعد أن ذهبت وتركتكم . وقوله ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ يقول : استعجلتم مجيئي إليكم ، وهو مقدر من الله تعالى وقوله ﴿ وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ في هذا دلالة على ما جاء في الحديث « ليس الخبر كالمعاينة » ثم ظاهر السياق أنه إنما ألقى الألواح غضباً على قومه . وقوله ﴿ وأخذ برأس أخيه يجره إليه ﴾ خوفاً أن يكون قد قصر في نهيهم ﴿ قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني من القوم الظالمين ﴾ أي لا تسقني مساقهم ، ولا تخلطني معهم ، وإنما قال : ﴿ ابن أم ﴾ ليكون أرق وأنجع عنده ، وإلا فهو شقيقه لأبيه وأمه ، فلما تحقق موسى عليه السلام براءة ساحة هارون عليه السلام كما قال تعالى ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ فعند ذلك ،

(١٥١) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

﴿ قال ﴾ موسى ﴿ رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يرحم الله موسى ليس المعاين كالمخبر ، أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح ، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح » .

(١٥٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾

أما الغضب الذي نال بني اسرائيل في عبادة العجل ، فهو أن الله تعالى لم يقبل لهم توبة حتى قتل بعضهم بعضاً ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ وأما الذلة فأعقبهم ذلك ذلاً وصغاراً في الحياة الدنيا . وقوله ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾ نائلة لكل من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرشاد متصلة من قلبه على كتفيه ، كما قال الحسن البصري : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغلات ، وطقطقت بهم البراذين . وقال أبو قلابة الجرمي في هذه الآية : هي والله لكل مفتر إلى يوم القيامة ، وقال سفيان بن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل .

(١٥٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم نبه عباده تعالى وأرشدهم إلى أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، حتى ولو كان من كفر أو شرك أو نفاق أو شقاق فقال ﴿والذين عملوا السيئات ثم تابوا﴾ أي يا محمد، يا رسول التوبة ونبي الرحمة ﴿ من بعدها ﴾ أي من بعد تلك الفعلة ﴿ إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ وقد سئل ابن مسعود عن الرجل يزني بالمرأة ثم يتزوجها ، فتلا هذه الآية ﴿ والذين عملوا السيئات . . . ﴾ فتلاها عبدالله بن مسعود عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

(١٥٤) ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

﴿ ولما سكت ﴾ أي سكن ﴿ عن موسى الغضب ﴾ أي غضبه على قومه ﴿ أخذ الألواح ﴾ أي التي كان ألقاها من شدة الغضب على عبادتهم العجل غيرة لله وغضباً له ﴿ وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾ قال قتادة : قال موسى : رب إني أجد في الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال رب إني أجد في الألواح أمة هم الآخرون السابقون ، أي آخرون في الخلق ، سابقون في دخول الجنة ، رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة

أحمد ، قال : رب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في صدورهم يقرؤونها . . . قال رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال : رب إني أجد في الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة ثم لم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشر امثالها إلى سبعمائة رب اجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد ، قال رب ، إني أجد في الألواح أمة هم المشفعون والمشفوع لهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة أحمد . قال قتادة : فذكر لنا أن نبي الله موسى عليه السلام نبذ الألواح ، وقال : اللهم اجعلني من أمة أحمد .

(١٥٥) ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾

كان الله أمره أن يختار من قومه سبعين رجلًا فاختار سبعين رجلًا ، فبرزهم ليدعوا ربهم ، وكان فيما دعوا الله أن قالوا : أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ، ولا تعطه أحداً بعدنا ، فكره ذلك من دعائهم فأخذتهم الرجفة ، وعن السدي قالوا : ﴿ لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ﴾ فأخذتهم الصاعقة فماتوا ، فقام موسى يبكي ويدعو الله ، ويقول : رب ماذا أقول لبني اسرائيل إذا أتيتهم ، وقد أهلكت خيارهم ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك ﴾ أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك ، يقول : إن الأمر إلا أمرك ، وإن الحكم إلا لك ، فما شئت كان ، ﴿ تضل من تشاء وتهدي من تشاء ﴾ ولا هادي لمن أضللت ، ولا مضل لمن هديت ، ولا معطي لمن منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، فالملك كله لك ، والحكم كله لك ، لك الخلق والأمر ﴿ أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا ﴾ الغفر هوالستر وترك المواخذة بالذنب ، والرحمة إذا قرنت مع الغفر يراد بها أن لا يوقعه في مثله في المستقبل ﴿ وأنت خير الغافرين ﴾ أي لا يغفر الذنب إلا أنت .

(١٥٦) ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ أي أوجب لنا ، وأثبت لنا فيهما حسنة ﴿ إنا هدنا إليك ﴾ أي تبنا ورجعنا ، وأنبنا إليك .

﴿ قال عذابي أصيب به من أشاء . . ﴾ أي أفعل ما أشاء ، وأحكم ما أريد ، ولي الحكمة والعدل في كل ذلك ، سبحانه لا إله إلا هو . وقوله ﴿ ورحمتي وسعت كل شيء ﴾ آية عظيمة الشمول والعموم ، كقوله تعالى إخباراً عن حملة العرش ومن حولهم إنهم يقولون ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً ﴾ روى الإمام أحمد عن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال : جاء أعرابي فأناخ راحلته ثم علفها ، ثم صلى خلف رسول الله ﷺ ، فلما صلى رسول الله ﷺ أتى راحلته فأطلق عقالها ، ثم ركبها ، ثم نادى اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا تشرك في رحمتنا أحداً ، فقال رسول الله ﷺ : « أتقولون هذا أضل أم بعيره ، ألم تسمعوا ما قال ؟ » قالوا : بلى ، قال : « لقد حظرت رحمة واسعة ، إن الله خلق مائة رحمة ، فأنزل رحمة يتعاطف بها الخلق : جنها وإنسها وبهائمها ، وأخر عنده تسعاً وتسعين رحمة ، أتقولون هو أضل أم بعيره ؟ » . وقوله ﴿ فسأكتبها ﴾ يعني فسأوجب حصول رحمتي منة مني وإحساناً إليهم ، ﴿ للذين يتقون ﴾ أي للمتصفين بهذه الصفات وهم أمة محمد ﷺ ﴿ للذين يتقون ﴾ أي الشرك وعظائم الذنوب ، قال تعالى ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وقوله ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ قيل : زكاة النفوس ، وقيل : الأموال ، ويحتمل أن تكون عامة لهما فإن الآية مكية ﴿ والذين هم بآياتنا يؤمنون ﴾ أي يصدقون .

(١٥٧) ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي . . . ﴾ وهذه صفة محمد ﷺ في كتب الأنبياء ، بشروا أممهم ببعثه ، وأمروهم بمتابعته ، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم ، يعرفها علماؤهم وأحبارهم . روى الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي ، قال : حدثني رجل من الأعراب ، قال : جلبت حلوبة إلى المدينة في حياة رسول الله ﷺ ، فلما فرغت من بيعي ، قلت : لألقين هذا الرجل ، فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشون ، فتبعتهم حتى أتوا على رجل من اليهود ناشر التوراة يقرؤها ، يعزي بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال رسول الله ﷺ : « أنشدك بالذي أنزل

التوراة هل تجد في كتابك هذا صفتي ومخرجي ؟ » فقال برأسه : هكذا ، أي لا ، فقال ابنه : إي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنك رسول الله فقال : « أقيموا اليهودي عن أخيكم » ثم تولى كفنه والصلاة عليه . هذا حديث قوي له شاهد في الصحيح عن أنس . وقوله تعالى ﴿ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ هذه صفة رسول الله ﷺ في الكتب المتقدمة ، وهكذا كانت حاله عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بخير ، ولا ينهى إلا عن شر كما قال عبدالله بن مسعود : إذا سمعت الله يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأرعها سمعك ، فإنه خير تؤمر به ، أو شر تنهى عنه ، ومن أهم ذلك وأعظم ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له والنهي عن عبادة من سواه ، كما أرسل به جميع الرسل ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقوله ﴿ ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ﴾ أي يحل لهم ما كانوا حرموه على أنفسهم من البحائر والسوائب والوصائل والحام ، ونحو ذلك مما كانوا ضيقوا به على أنفسهم ، ويحرم عليهم الخبائث كلحم الخنزير والربا ، وما كانوا يستحلونه من المحرمات من المآكل التي حرمها الله تعالى ، فكل ما أحل الله من المآكل فهو طيب نافع في البدن والدين ، وكل ما حرمه الله فهو خبيث ضار في البدن والدين ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾ أي أنه جاء بالتيسير والسماحة ، وفي الحديث « بعثت بالحنيفية السمحة » وقال ﷺ لأميريه : معاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن « بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا » وفي الحديث : « إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » وقال : « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال تعالى ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا اصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ وقوله ﴿ فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ﴾ أي عظموه ووقروه ﴿ واتبعوا النور الذي أنزل معه ﴾ أي القرآن والوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس ﴿ أولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ ﴿١٥٨﴾

﴿ قل يا أيها الناس ﴾ وهو خطاب للأحمر والأسود ، والعجمي والعربي ﴿ إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته ﷺ أنه خاتم النبيين ، وأنه مبعوث إلى الناس كافة ، كما قال تعالى ﴿ وأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ في البخاري عن أبي الدرداء يقول : كانت بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما محاورة ، فأغضب أبو بكر عمر ، فانصرف عنه عمر مغضباً ، فاتبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له ، فلم يفعل حتى أغلق بابه في وجهه ، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ، فقال أبو الدرداء : ونحن عنده ، فقال رسول الله ﷺ : « أما صاحبكم هذا فقد غامر » أي غاضب وحاقد ، قال : وندم عمر على ما كان منه ، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي ﷺ ، وقص على رسول الله ﷺ الخبر ، قال أبو الدرداء : فغضب رسول الله ﷺ ! وجعل أبو بكر يقول : والله يا رسول الله ، لأنا كنت أظلم ، فقال رسول الله ﷺ : « هل أنتم تاركوا لي صاحبي ؟ » إني قلت : ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ فقلتم كذبت ، وقال أبو بكر : صدقت » انفرد به البخاري . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس مرفوعاً أن رسول الله ﷺ قال : « أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي ، ولا أقوله فخراً : بعثت إلى الناس كافة الأحمر والأسود ، ونصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة فأخرتها لأمتي يوم القيامة ، فهي لمن لا يشرك بالله شيئاً » إسناده جيد ولم يخرجوه . وفي صحيح مسلم : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي رجل من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » وقوله ﴿ الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ صفة الله تعالى في قول رسول الله ﷺ أي الذي أرسلني هو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي بيده الملك والإحياء والإماتة وله الحكم » ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ أخبرهم أنه رسول الله إليهم ، ثم أمرهم باتباعه والإيمان به ﴿ النبي الأمي ﴾ أي الذي وعدتم به ، وبشرتم به في الكتب المتقدمة فإنه منعوت بذلك في كتبهم ، ولهذا قال ﴿ النبي الأمي ﴾ وقوله ﴿ الذي يؤمن بالله وكلماته ﴾ أي يصدق قوله عمله ، وهو يؤمن بما أنزل إليه من ربه ﴿ واتبعوه ﴾ أي اسلكوا طريقه واقتفوا أثره ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي إلى الصراط المستقيم .

(١٥٩) ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن بني اسرائيل أن منهم طائفة يتبعون الحق ويعدلون به ، كما قال تعالى ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴾ .

﴿١٦٠﴾ ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿١٦١﴾ ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿١٦٢﴾ ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

تقدم تفسيره في سورة البقرة رقم ٥٩ إلى رقم ٦١ .

﴿١٦٣﴾ ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ واسألهم ﴾ أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففاجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل باخوانهم وسلفهم . وهذه القرية هي أيلة ، وهي على شاطىء بحر القلزم ﴿ إذ يعدون في السبت ﴾ أي يعتدون فيه ، ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة به إذ ذاك ﴿ إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً ﴾ أي ظاهرة على الماء ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم ﴾ أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ يقول : بفسقهم عن طاعة الله ، وخروجهم عنها . وهؤلاء قوم احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام . وفي الحديث « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » إسناده جيد .

﴿١٦٤﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ

رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على اصطياد السمك يوم السبت ، وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم ، وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ﴾ أي لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ، فلا فائدة في نهيكم إياهم . قالت لهم المنكرة ﴿ معذرة إلى ربكم ﴾ أي نفعل ذلك معذرة إلى ربكم ، أي فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿ ولعلهم يتقون ﴾ يقولون : ولعل لهذا الانكار يتقون ما هم فيه ، ويتركونه ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم .

(١٦٥) ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ أي فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ﴿ أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا ﴾ أي ارتكبوا المعصية ﴿ بعذاب بئيس ﴾ فنص على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين ، وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ، ولا ارتكبوا عظيماً فيذموا ، ومع هذا فقد اختلفت الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من الناجين ؟ على قولين .

(١٦٦) ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾

﴿ خاسئين ﴾ أي ذليلين حقيرين مهانين .

(١٦٧) ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ تأذن ﴾ تَفَعَّل من الأذان ، أي أعلم ، أو أمر ، وفي قوة الكلام ما يفيد معنى القسم من هذه اللفظة ، ولهذا أتبعت باللام في قوله ﴿ ليبعثن عليهم ﴾ أي على اليهود ﴿ إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ﴾ أي بسبب عصيانهم ، ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم ، ويقال : إن موسى عليه السلام ضرب عليهم الخراج سبع سنين ، وقيل : ثلاث عشرة سنة ثم كانوا في قهر الملوك من اليونانيين والكشدانيين

والكلدانيين، ثم صاروا إلى قهر النصارى وإذلالهم وأخذهم منهم الجزية والخراج، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية ، ثم آخر أمرهم أنهم يخرجون أنصاراً للرجال فيقتلهم المسلمون مع عيسى بن مريم عليه السلام ، وذلك آخر الزمان ﴿ إن ربك لسريع العقاب ﴾ أي لمن عصاه وخالف شرعه ، وإنه لغفور رحيم ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب . وهذا من باب قرن الرحمة مع العقوبة لئلا يحصل اليأس ، فيقرن تعالى بين الترغيب والترهيب كثيراً ، لتبقى النفوس بين الرجاء والخوف .

(١٦٨) ﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يذكر تعالى أنه فرقهم في الأرض أمماً ، أي طوائف وفرقاً ﴿ منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ أي فيهم الصالح وغير ذلك ، كقول الجن ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً﴾ ﴿ وبلوناهم ﴾ أي اختبرناهم ﴿ بالحسنات والسيئات ﴾ أي بالرضا والشدة ، والرغبة والرهبة ، والعافية والبلاء ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ .

(١٦٩) ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ فخلف من بعدهم خلف . . . ﴾ أي فخلف من بعد ذلك الجيل الذين فيهم الصالح والطالح خلف آخر ، لا خير فيهم ، وقد ورثوا دراسة الكتاب ، وهو التوراة ﴿ يأخذون عرض هذا الأدنى ﴾ أي يعتاضون عن بذل الحق ونشره بعرض الحياة الدنيا ، ويسوفون أنفسهم ، ويعدونها بالتوبة ، وكلما لاح لهم مثل الأول وقعوا فيه ، ولهذا قال ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾ وكما قال سعيد بن جبير: يعملون الذنب ثم يستغفرون الله منه ، ويعترفون لله ، فإن عرض ذلك الذنب أخذوه ﴿ ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب . . . ﴾ يقول تعالى منكراً عليهم في صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم من الميثاق ليبيننَّ الحق للناس ولا يكتمونه وقوله تعالى ﴿ والدار الآخرة خير للذين يتقون ﴾ يرغبهم في جزيل ثوابه ، ويحذرهم من وبيل عقابه ، أي وثوابي وما عندي خير لمن اتقى المحارم ، وترك هوى نفسه ، وأقبل على طاعة ربه ﴿ أفلا تعقلون ﴾ يقول : أفليس لهؤلاء الذين اعتاضوا

بعرض الدنيا عما عندي عقل يردهم عما هم فيه من السفه والتبذير .

(١٧٠) ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذي يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ كما هو مكتوب فيه فقال ﴿ والذين يمسكون بالكتاب ﴾ أي اعتصموا به ، واقتدوا بأوامره ، وتركوا زواجره ﴿ وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾ .

(١٧١) ﴿ * وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم ﴾ رفعناه ﴿ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ﴾ عن ابن عباس قال : ثم سار بهم موسى عليه السلام إلى الأرض المقدسة ، وأخذ الألواح بعدما سكت عنه الغضب ، وأمرهم بالذي أمر الله أن يبلغهم من الوظائف ، فثقلت عليهم ، وأبوا أن يقروا بها حتى نتق الله الجبل فوقهم ﴿ كأنه ظلة ﴾ رفعته الملائكة فوق رؤوسهم ، فلما نظروا إلى الجبل خر كل رجل ساجداً على حاجبه ، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقاً من أن يسقط عليه .

(١٧٢) ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾

(١٧٣) ﴿ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾

(١٧٤) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه استخرج ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه فطرهم على ذلك ، وجبلهم عليه ، قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة » وفي رواية « على هذه الملة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تولد بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » ؟ وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال :

قال رسول الله ﷺ : « يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما في الأرض من شيء أكنت مفتدياً به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئاً فأبيت إلا أن تشرك بي » أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة . فالله سبحانه استخرج من ذرية آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم ، ولذلك قال ﴿ من ذرية آدم ﴾ ولم يقل من آدم ، وقال ﴿ من ظهورهم ﴾ ولم يقل من ظهره ﴿ ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ أي أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالاً ، والشهادة تارة تكون بالقول كقوله ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ وتارة تكون حالاً كقوله ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي حالهم شاهد عليهم بذلك ، لأ أنهم قائلون ذلك . فالمراد بهذا الاشهاد أنه إنما فطرهم على التوحيد ، ومما يدل على ذلك أن الله جعل هذا الاشهاد حجة عليهم في الاشراك ، فلو كان قد وقع هذا الاشهاد بالفعل لكان كل أحد يذكره ، ليكون حجة عليه ، فإن قيل : إخبار الرسول به كان في وجوده فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره ، وهذا جعل حجة مستقلة عليهم فدل على أنه الفطرة التي فطروا عليها من الاقرار بالتوحيد ، ولهذا قال : ﴿ أن تقولوا ﴾ أي لئلا تقولوا يوم القيامة ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ أي التوحيد .

(١٧٥) ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

عن عبدالله بن مسعود : هو رجل من بني إسرائيل ، يقال له : بلعم بن باعوراء ، وعن عبدالله بن عمرو : هو أمية بن أبي الصلت ، وعن ابن عباس : هو رجل أعطي ثلاث دعوات يستجاب له فيهن ﴿ فانسلخ منها فأتبعه الشيطان ﴾ أي استحوذ عليه وعلى أمره ، فمهما أمره امتثل وأطاعه ، ولهذا قال : (فكان من الغاوين ﴾ أي من الهالكين الحائرين البائرين .

(١٧٦) ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ من التدنس عن قاذورات الدنيا بالآيات التي آتيناه إياها ﴿ ولكنه

أخلد إلى الأرض ﴾ أي مال إلى زينة الحياة الدنيا وزهرتها ، وأقبل على لذاتها ونعيمها ، وغرته كما غرت غيره من غير أولي البصائر والنهى ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ أي لعل بني إسرائيل العالمين بحال بلعم ، وما جرى له في إضلال الله إياه ، وإبعاده من رحمته ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ أي فيحذروا أن يكونوا مثله ، فإن الله قد أعطاهم علماً وميزهم على من عداهم من الأعراب ، وجعل بأيديهم صفة محمد ﷺ ، يعرفونها كما يعرفون أبناءهم ، فهم أحق الناس وأولاهم باتباعه ومناصرته وموازرته ، كما أخبرتهم أنبياؤهم بذلك وأمرتهم به ، ولهذا من خالف منهم ما في كتابه وكتمه فلم يعلم به العباد أحل الله به ذلاً في الدنيا موصولاً بذل الآخرة .

(١٧٧) ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾ أي ساء مثلهم أن شُبهوا بالكلاب التي لا همة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز العلم والهدى ، وأقبل على شهوة نفسه ، واتبع هواه صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله ، ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يعود في قيئه » وقوله ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ أي ما ظلمهم الله ، ولكن هم ظلموا أنفسهم بإعراضهم عن اتباع الهدى ، وطاعة المولى ، إلى الركون إلى دار البلى ، والاقبال على تحصيل اللذات ، وموافقة الهوى .

(١٧٨) ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾

يقول تعالى : من هداه الله ، فإنه لا مضل له ، ومن أضله فقد خاب وخسر ، وضل لا محالة ، فإنه تعالى ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا جاء في حديث ابن مسعود « إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستهديه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله » .

(١٧٩) ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾

﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ﴾ أي خلقنا وجعلنا لجهنم . ﴿ كثيراً من الجن والإنس ﴾ أي هيأناهم لها ، وبعمل أهلها يعملون ، فإنه تعالى لما أراد أن يخلق الخلق علم ما هم عاملون قبل

كونهم ، فكتب ذلك عنده في كتاب قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة كما ورد في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : دعي النبي ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله ، طوبى له عصفور من عصافير الجنة ، لم يعمل السوء ولم يدركه . فقال رسول الله ﷺ : « أوغير ذلك يا عائشة ، إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلاً ، وهم في أصلاب آبائهم ، وخلق النار ، وخلق لها أهلاً ، وهم في أصلاب آبائهم » وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود : « ثم يبعث الله إليه الملك ، فيؤمر بأربع كلمات ، فيكتب رزقه وأجله وعمله ، وشقي أم سعيد » ولما استخرج ذرية آدم من صلبه ، وجعلهم فريقين : أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال قال : « هؤلاء للجنة ولا أبالي ، وهؤلاء للنار ولا أبالي » وقوله تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها . . . ﴾ يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية . وقوله ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ أي هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ، ولا يبصرون الهدى كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا ﴿ بل هم أضل ﴾ أي من الدواب ، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أيس بها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، ولأنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها ، وإما بتسخيرها ، بخلاف الكافر ، فإنه إنما خلق ليعبد الله ، ويوحده ، فكفر بالله وأشرك به ، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده ، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ .

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (١٨٠)

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله تسعاً وتسعين اسماً : مائة إلا واحداً ، من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » أخرجاه في الصحيحين . « هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب الواسع

الحكم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدىء المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوالي المتعالي البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور » رواه الترمذي وقوله ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ إلحاد الملحدين أن دعوا اللات في أسماء الله ، اشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، قال قتادة يلحدون : يشركون في أسمائه ، وأصل الإلحاد في كلام العرب العدول عن القصد ، والميل والجور والانحراف ، ومنه اللحد في القبر لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر .

(١٨١) ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

﴿ وممن خلقنا ﴾ أي بعض الأمم ﴿ أمة ﴾ قائمة بالحق قولاً وعملاً ﴿ يهدون بالحق ﴾ يقولونه ويدعون إليه ﴿ وبه يعدلون ﴾ يعملون ويقضّون ، والأمة هنا هي الأمة المحمدية . وفي الحديث « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة » وفي رواية حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

(١٨٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ومعناه أنه يفتح أبواب الرزق ، ووجوه المعاش في الدنيا حتى يغتروا بما هم فيه ، ويعتقدوا أنهم على شيء .

(١٨٣) ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾

ولهذا قال : ﴿ وأملي لهم ﴾ أي وسأملي لهم أي أطول لهم ما هم فيه ﴿ إن كيدي متين ﴾ أي قوي شديد .

(١٨٤) ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ أو لم يتفكروا ﴾ هؤلاء المكذبون بآياتنا ﴿ ما بصاحبهم ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ من جنة ﴾ أي ليس به جنون بل هو رسول الله حقاً ، دعا إلى حق ﴿ إن هو إلا نذير مبين ﴾ أي ظاهر لمن كان له لب ، وقلب يعقل به ، ويعي به كما قال تعالى : ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ قال قتادة بن دعامة : ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان على الصفا فدعا قريشاً فجعل

يفخذهم فخذاً فخذاً يا بني فلان ، يا بني فلان ، فحذرهم بأس الله ، ووقائع الله ، فقال قائلهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يصوت إلى الصباح ، أو حتى الصباح فأنزل الله ﴿ أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ... ﴾ .

(١٨٥) ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾

أولم ينظر هؤلاء المكذبون بآياتنا في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض ، وفيما خلق من شيء فيهما فيتدبروا ذلك ، ويعتبروا به ، ويعلموا أن ذلك لمن لا نظير له ، ولا شبيه ، ومن فعل من لا يبتغي أن تكون العبادة والدين الخالص إلا له ، فيؤمنوا به ، ويصدقوا رسوله ، وينيبوا إلى طاعته ، ويخلعوا الأنداد والأوثان ، ويحذروا أن تكون آجالهم قد اقتربت فيهلكوا على كفرهم ، ويصيروا إلى عذاب الله وأليم عقابه . وقوله ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ؟ ﴾ يقول : فبأي تخويف وتحذير وترهيب بعد تحذير محمد ﷺ وترهيبه الذي أتاهم به من عند الله في آي كتابه يصدقون إن لم يصدقوا بهذا الحديث الذي جاءهم به محمد من عند الله عز وجل ؟

(١٨٦) ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى : من كتب عليه الضلالة فإنه لا يهديه أحد ، ولو نظر لنفسه فيما نظر فإنه لا يجزي عنه شيئاً ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ وكما قال تعالى ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾

(١٨٧) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قيل : نزلت في قريش ، وقيل : في نفر من اليهود ، والأول أشبه ، لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها ، وتكذيباً بوجودها وقوله ﴿ أيان مرساها ﴾ أي متى محطها ومنتهاها ، وآخر مدة الدنيا الذي هو أول وقت الساعة ﴿ قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ أمر تعالى رسوله ﷺ إذا سئل عن وقت الساعة أن يرد

علمها إلى الله تعالى ، فإنه هو الذي يجليها لوقتها ، أي يعلم جلية أمرها ، ومتى يكون على التحديد ، أو إذا جاءت ثقلت على أهل السموات والأرض ، يقول : كبرت عليهم ، أوليس شيء من الخلق إلا يصيبه من ضرر يوم القيامة، أو إذا جاءت انشقت السماء ، وانتثرت النجوم ، وكورت الشمس ، وسيرت الجبال ، وكان ما قال الله عز وجل ، فذلك ثقلها ﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ يبغتهم قيامها ، تأتيهم على غفلة ، وفي الحديث « إن الساعة تهيج بالناس ، والرجل يصلح حوضه ، والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يقيم سلعته في السوق ، ويخفض ميزانه ويرفعه » . وقوله ﴿ يسألونك كأنك حفي عنها ﴾ يقول : كأن بينك وبينهم مودة ، كأنك صديق لهم ، قال ابن عباس لما سأل الناس النبي ﷺ سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم فأوحى الله إليه إنما علمها عنده ، استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولاً ، أو كأنك عالم بها ، لست تعلمها ، إنما علمها عند الله .

﴿١٨٨﴾ ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

أمره تعالى أن يفوض الأمور إليه ، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل ، ولا اطلاع له على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه كما قال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ وقوله ﴿ ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ﴾ أي لو كنت أعلم متى أموت لعملت عملاً صالحاً ، وفي هذا الكلام نظر ، لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة ، وفي رواية كان إذا عمل عملاً أثبته ، فجميع عمله كان على منوال واحد ، كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله ، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك ، والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس . أي لاستكثرت من المال ، وفي رواية لعلمت إذا اشتريت شيئاً ماذا أربح فيه ، فلا أبيع شيئاً إلا ربحت فيه ، ولا يصيبني الفقر ﴿ وما مسني السوء ﴾ قال : لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته ، ثم أخبر أنه نذير من العذاب ، وبشير للمؤمنين بالجنات كما قال تعالى ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ .

﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

ينبه تعالى على أنه خلق الناس من آدم عليه السلام ، وأنه خلق منه زوجته حواء ، ثم انتشر الناس منهما كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ﴿ وجعل منها زوجها ليسكن إليها ﴾ أي ليألفها ويسكن بها كقوله تعالى ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة ﴾ فلا ألفة بين روحين أعظم مما بين الزوجين ، ولهذا ذكر تعالى أن الساحر ربما توصل بكيده إلى التفرقة بين المرء وزوجه ﴿ فلما تغشاها ﴾ أي وطئها ﴿ حملت حملاً خفيفاً ﴾ وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هي النطفة ثم العلقة ثم المضغة وقوله ﴿ فمرت به ﴾ استمرت بحمله ، أو استخفته، أو استبان حملها ﴿ فلما أثقلت ﴾ أي صارت ذات ثقل بحملها ، أو كبر الولد في بطنها ﴿ دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً ﴾ أي بشراً سوياً ، أو أشفقا أن يكون بهيمة ، أو أشفقا أن لا يكون إنساناً ، أو لئن آتيتنا غلاماً ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ .

(١٩٠) ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ فلما آتاهما صالحاً جعلا . . . ﴾ وقد جاء عن كثير من التابعين آثار مفادها أن حواء لما حملت أتاهما الشيطان فقال : إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني ، أو لأجعلن له قرني إيل فيخرج من بطنك فيشقه ، ولأفعلن ولأفعلن يخوفهما ، فسمياه عبدالحارث فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت الثانية فأتاهما أيضاً فقال : صاحبكما الذي فعلت ما فعلت ، لتفعلن أو لأفعلن يخوفهما فأبيا أن يطيعاه فخرج ميتاً ، ثم حملت الثالثة فأتاهما أيضاً فذكر لهما فأدركهما حب الولد فسمياه عبدالحارث فذلك قوله تعالى ﴿ جعلا له شركاء فيما آتاهما ﴾ ولكن هذه الآثار يظهر عليها والله أعلم أنها من آثار أهل الكتاب ، وأخبارهم على ثلاثة أقسام ، فمنها ما علمنا صحته بما دل عليه الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله ، ومنها ما علمنا كذبه بما دل على خلافه من الكتاب والسنة أيضاً ، ومنها ما هو مسكوت عنه المأذون في روايته بقوله عليه السلام « حدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » وهو الذي لا يصدق ولا يكذب لقوله : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » وهذا الأثر هو من القسم الثاني ، فأما من حدث به من صحابي أو تابعي فإنه يراه من القسم الثالث ، وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله أن المراد به ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، وليس المراد آدم وحواء ، ولهذا قال : قال الله ﴿ فتعالى الله عما يشركون ﴾ فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين ، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى ذكر الجنس .

(١٩١) ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

هذا إنكار من الله على المشركين الذي عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام والأوثان ، وهي مخلوقة لله مربوبة مصنوعة ، لا تملك شيئاً من الأمر ولا تضر ، ولا تنفع ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها ، بل هي جماد لا تتحرك ، ولا تسمع ولا تبصر ، وعابدوها أكمل فيها بسمعهم وبصرهم وبطشهم ، ولهذا قال ﴿ أيشركون ما لا يخلق . . ﴾ أي أيشركون به من المعبودات ما لا يخلق شيئاً ، ولا يستطيع ذلك ، بل هم مخلوقون مصنوعون .

(١٩٢) ﴿ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

﴿ ولا يستطيعون لهم نصراً ﴾ أي لعابديهم ﴿ ولا أنفسهم ينصرون ﴾ يعني ولا لأنفسهم ينصرون ممن أرادهم بسوء .

(١٩٣) ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾

(١٩٤) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يعني أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، وسواء لديها من دعاها ومن دحاها .

(١٩٥) ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا ۖ أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾

ثم ذكر تعالى أنها عبيد مثل عابديها ، أي مخلوقات مثلهم ، بل الأناس أكمل منها ، لأنها تسمع وتبصر وتبطش ، وتلك لا تفعل شيئاً من ذلك . وقوله ﴿ قل ادعوا شركاءكم . . ﴾ أي استنصروا بها علي ، فلا تؤخروني طرفة عين ، واجهدوا جهدكم .

(١٩٦) ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ إن وليي الله الذي نزل الكتاب . . . ﴾ أي الله حسبي وكافيني ، وهو نصيري ، وعليه متكلي ، وإليه ألجأ ، وهو وليي في الدنيا والآخرة ، وهو ولي كل صالح بعدي .

(١٩٧) ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾

﴿ والذين تدعون من دونه . . . ﴾ هذا مؤكد لما تقدم إلا أنه بصيغة الخطاب ، وذاك بصيغة الغيبة ، ولهذا قال: ﴿ لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون ﴾ .

(١٩٨) ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ وقوله ﴿ وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴾ إنما قال : ﴿ ينظرون إليك ﴾ أي يقابلونك بعيون مصورة ، كأنها ناظرة ، وهي جماد ، ولهذا عاملهم معاملة من يعقل لأنها على صور مصورة كالإنسان .

(١٩٩) ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾

﴿ خذ العفو ﴾ يعني خذ ما عفا لك من أموالهم ، وما أتوك به من شيء فخذه ، وكان هذا قبل أن تنزل « براءة » بفرائض الصدقات وتفصيلها ، وما انتهت إليه الصدقات ، وقيل : أنفق الفضل ، وقيل : أمره الله بالعفو والصفح عن المشركين عشر سنين ، ثم أمره بالغلظة عليهم . روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي قال : لما أنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ ﴿ خذ العفو . . . ﴾ قال رسول الله ﷺ : « ما هذا يا جبريل ؟ » قال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » قال البخاري : العرف : المعروف ، وروي عن ابن عباس قال : قدم عيينة بن حصن فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر كهولاً أو شباناً، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال : سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هي يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ، فغضب عمر حتى هم أن يوقع به ، فقال الحر : يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف . . . ﴾ وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتابه عز وجل ، انفرد باخراجه البخاري . قال ابن جرير وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يأمر عباده بالمعروف ، ويدخل في ذلك جميع الطاعات ، وبالاعراض عن الجاهلين ، وذلك وإن كان أمراً لنبيه ﷺ فإنه تأديب لخلقه باحتمال من ظلمهم واعتدى عليهم ، لا بالاعراض عن جهل الحق الواجب من حق الله ولا بالصفح عمن كفر بالله ، وجهل وحدانيته ، وهو للمسلمين حرب .

(٢٠٠) ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : لما نزلت ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف . . . ﴾ قال : يا رب كيف بالغضب ؟ فأنزل الله ﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ . . . ﴾ وقد تساب رجلان بحضرة النبي ﷺ فغضب أحدهما حتى جعل أنفه يتمزع غضباً ، فقال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فقيل له ، فقال : مالي من جنون . وأصل النزغ الفساد ، إما بالغضب أو غيره . والعياذ : الالتجاء والاستنجاد والاستجارة من الشر ، وأما الملاذ ففي طلب الخير .

(٢٠١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر ، وتركوا ما عنه زجر ﴿ إذا مسهم ﴾ أي أصابهم ﴿ طائف ﴾ غضب ، أو مس من الشيطان بالصرع ونحوه ، أو إذا أصابوا ذنباً ﴿ فإذا هم مبصرون ﴾ أي قد استقاموا وصحوا مما كانوا فيه .

(٢٠٢) ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

يعني أن الشياطين يمدون أولياءهم من الانس ، ولا تسأم من امدادهم في الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية . ﴿ لا يقصرون ﴾ لا تفتر ولا تبطل عنه .

(٢٠٣) ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قالوا لولا اجتبيتها ﴾ لولا أخذتها أنت فجئت بها من السماء ، والآية المعجزة والخارق كقوله ﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية . . . ﴾ ﴿ قل إنما أتبع ما يوحى إليَّ من ربي ﴾ أي أنا لا أتقدم إليه تعالى في شيء ، وإنما أتبع ما أمرني به فأمتثل ما يوحيه إليّ ، فإن بعث آية قبلتها ، وإن منعها لم أسأله ابتداء إياها إلا أن يأذن لي في ذلك فإنه حكيم عليم ، ثم أرشدهم إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال ﴿ هذا بصائر من . . . ﴾ .

(٢٠٤) ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ وإذا قرىء القرآن . . . ﴾ لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة أمر تعالى بالانصات عند تلاوته إعظاماً له واحتراماً ، لا كما كان يتعمده كفار قريش المشركون في قولهم ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ ، ولكن يتأكد ذلك في

الصلاة المكتوبة إذا جهر الإمام بالقراءة كما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبروا ، وإذا قرأ فأنصتوا » وروى ابن جرير قال : صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرؤ ون مع الإمام ، فلما انصرف قال : أما آن لكم أن تفهموا ، أما آن لكم أن تعقلوا ؟ ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾ كما أمركم الله . وهذا مذهب طائفة من العلماء أن المأموم لا يجب عليه في الصلاة الجهرية قراءة فيما جهر فيه الإمام ، لا الفاتحة ولا غيرها ، وهو أحد قولي الشافعية ، وهو القديم كمذهب مالك ، ورواية عن أحمد بن حنبل لما ذكرناه من الأدلة، وقال في الجديد: يقرأ الفاتحة فقط في سكتات الإمام، وهو قول طائفة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، وقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل: لا يجب على المأموم قراءة أصلاً في السرية ولا الجهرية بما ورد من حديث « من كان له إمام فقراءته قراءة له » وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن جابر مرفوعاً ، وهو في موطأ مالك ، واختار البخاري وجوب القراءة خلف الإمام في السرية ، والجهرية أيضاً . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « من استمع إلى آية من كتاب الله كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة .

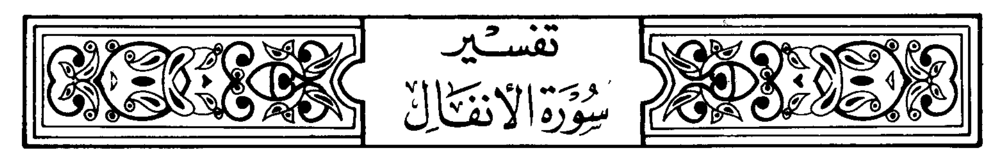
(٢٠٥) ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾

يأمر تعالى بذكره أول النهار ، وآخره كثيراً كما أمر بعبادته في هذين الوقتين في قوله ﴿ فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ﴾ وقد كان هذا قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، وهذه الآية مكية ، وقال هنا : ﴿ بالغدو ﴾ وهو أول النهار ﴿ والآصال ﴾ جمع أصيل ، كما أن الأيمان جمع يمين . وأما قوله ﴿ تضرعاً وخيفة ﴾ أي اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة ، وبالقول ، لا جهراً ، ولهذا قال ﴿ ودون الجهر من القول ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر ، لا يكون نداء وجهراً بليغاً ، ولهذا لما سألوا رسول الله ﷺ فقالوا : أقريب ربنا فنناجيه ، أم بعيد فنناديه ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء في بعض الأسفار فقال لهم النبي ﷺ : « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إن الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » وقد يكون المراد من هذه

الآية أن المشركين إذا سمعوا القرآن سبوه وسبوا من أنزله وسبوا من جاء به فأمره الله تعالى أن لا يجهر به لئلا ينال منه المشركون ، ولا يخافت به عن أصحابه فلا يسمعهم ، وليتخذ سبيلاً بين الجهر والاسرار . والمراد من الآية الحض على كثرة الذكر من العباد بالغدو والآصال ، لئلا يكونوا من الغافلين . وليس المراد كما زعم ابن جرير ، وقبله عبدالرحمن بن زيد بن أسلم أن المراد بها أمر السامع للقرآن في حال استماعه بالذكر على هذه الصفة ، وهذا بعيد مناف للانصات المأمور به . ولذلك مدح الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال :

(٢٠٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾

﴿ إن الذين عند ربك ﴾ إنما ذكرهم بهذا ليقتدى بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم ، ولهذا شرع لنا السجود ههنا ، لما ذكر سجودهم لله عز وجل كما جاء في الحديث « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها ، يتمون الصفوف الأول فالأول ، ويتراصون في الصف » . وهذه أول سجدة في القرآن يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالاجماع .



تفسير سُورَةِ الأنفَالِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

الأنفال المغانم . نزلت في بدر ، وعن ابن عباس قال : الأنفال الغنائم كانت لرسول الله ﷺ خالصة ، ليس لأحد منها شيء ، فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين ﴿ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ﴾ أي اتقوا الله في أموركم ، وأصلحوا فيما بينكم ، ولا تظالموا ولا تخاصموا ، ولا تشاجروا، فما آتاكم الله من الهدى والعلم خير مما تختصمون بسببه ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ﴾ أي في قسمة نبيكم على ما أراده الله ، فإنما يقسمه كما أمره الله من العدل والانصاف .

(٢) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا

وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ إنما المؤمنون الذين . . . ﴾ عن ابن عباس قال : المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه ، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ، ولا يتوكلون ، ولا يصلون إذا غابوا ، ولا يؤدون زكاة أموالهم ، فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين ، ثم وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ فأدوا فرائضه ﴿ وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ يقول : زادتهم تصديقاً. وقال مجاهد ﴿ وجلت قلوبهم ﴾ فرقت ، أي فزعت وخافت . وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له ، ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

﴿ الذين يقيمون الصلاة ﴾ ينبه تعالى بذلك على أعمالهم بعدما ذكر اعتقادهم ، وهذه الأعمال تشمل أعمال الخير كلها وهو إقامة الصلاة ، وهو حق الله تعالى وقال قتادة : إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال قتادة في قوله ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فأنفقوا مما رزقكم الله ، فإنما هذه الأموال عواري وودائع عندك يا ابن آدم ، أوشكت أن تفارقها .

(٤) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان . روى الطبراني عن الحارث بن مالك الأنصاري أنه مر برسول الله ﷺ فقال له : « كيف أصبحت يا حارث ؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « انظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها ، فقال : « يا حارث ، عرفت فالزم » ثلاثاً . وقوله ﴿ لهم درجات عند ربهم ﴾ أي منازل ومقامات ودرجات في الجنات ﴿ ومغفرة ﴾ أي يغفر لهم السيئات ، ويشكر لهم الحسنات . قال الضحاك : أهل الجنة بعضهم فوق بعض فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه ، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل

عليه أحد ، ولهذا جاء في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء » .

(٥) ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾

كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها فانتزعها الله منكم ، وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله ، فقسمها على العدل والتسوية فكان هذا هو المصلحة التامة ، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة ، وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم ، وإحراز عيرهم فكان عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم ، وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد ورشداً ، وهدى ، ونصراً وفتحاً ﴿ لكارهون ﴾ لطلب المشركين .

(٦) ﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

﴿ يجادلونك في الحق ﴾ أي كراهية للقاء المشركين ، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم ﴿ بعدما تبين ﴾ لهم أنك لا تعقل إلا ما أمرك الله به .

(٧) ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(٨) ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

﴿ وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ أي يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال تكون لهم ، وهي العير ﴿ ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ﴾ أي يريد هو أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفر بهم ، وينصركم عليهم ، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالباً على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره ، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم .

(٩) ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾

روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لما كان يوم بدر نظر النبي ﷺ إلى أصحابه ، وهم ثلاثمائة ونيف ونظر إلى المشركين ، فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبي ﷺ القبلة ، وعليه ازاره ورداؤه ، ثم قال : « اللهم انجز لي ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبداً » قال : فما زال

يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه فرداه ثم التزمه من ورائه ، ثم قال : يا نبي الله ، كفاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله ﴿ إذ تستغيثون ربكم . . ﴾ فلما كان يومئذٍ التقوا فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلاً ، وأسر سبعون رجلاً ﴿ مردفين ﴾ أي يردف بعضهم بعضاً متتابعين .

(١٠) ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وما جعله الله إلا بشرى ﴾ أي وما جعل الله بعث الملائكة وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى ﴿ ولتطمئن به قلوبكم ﴾ ، وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم. ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾ أي بدون ذلك ، قال تعالى ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ ولهذا قال ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي له العزة ولرسوله وللمؤمنين بالله ورسوله في الدنيا والآخرة ﴿ حكيم ﴾ فيما شرعه من قتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى .

(١١) ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾

يذكرهم الله تعالى بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم أماناً أمنهم به من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً ﴾ وذلك لتكون قلوبهم مطمئنة بنصر الله ، وهذا من فضل الله ورحمته بهم ، ونعمته عليهم ، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه ، وهما يدعوان أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ متبسماً ، فقال : « أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع » ثم خرج من باب العريش ، وهو يتلو ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ وقوله ﴿ وينزل عليكم من السماء ماء ﴾ أمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون ، وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرحل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم وقوله ﴿ ليطهركم به ﴾ أي من حدث أصغر أو أكبر ، وهو تطهير الظاهر ﴿ ويذهب عنكم رجز الشيطان ﴾ أي من وسوسته ، أو خاطر سيىء وهو تطهير الباطن ﴿ وليربط على قلوبكم ﴾ أي بالصبر والاقدام على مجالدة

الأعداء ، وهو شجاعة الباطن ﴿ ويثبت به الأقدام ﴾ وهو شجاعة الظاهر .

﴿١٢﴾ ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾

﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة . . . ﴾ وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها ، وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين أن يثبتوا المؤمنين ، أي قاتلوا معهم ، أو كثروا سوادهم ﴿ سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ أي ثبتوا أنتم المؤمنين ، وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك ، سألقي الرعب والذلة والصغار على من خالف أمري وكذب رسولي ﴿ فاضربوا فوق الأعناق . . . ﴾ أي اضربوا الهام ففلقوها ، واحتزوا الرقاب فقطعوها ، وقطعوا الأطراف منهم ، وهي أيديهم وأرجلهم . وقوله ﴿ فوق الأعناق ﴾ أي اضربوا الرؤوس ، أو على الأعناق ، وهي الرقاب .

﴿١٣﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

أي خالفوهما فساروا في شق ، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه في شق ﴿ ومن يشاقق الله ورسوله . . . ﴾ أي وهو الطالب الغالب لمن خالفه وناوأه ، لا يفوته شيء ، ولا يقوم لغضبه شيء ، تبارك وتعالى ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

﴿١٤﴾ ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾

هذا خطاب للكفار ، أي ذوقوا هذا العذاب ، والنكال في الدنيا ، واعلموا أيضاً أن للكافرين عذاب النار في الآخرة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾

يقول تعالى متوعداً على الفرار من الزحف بالنار لمن فعل ذلك ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ﴾ أي تقاربتم منهم ودنوتم إليهم ﴿ فلا تولوهم الأدبار ﴾ أي تفروا وتتركوا أصحابكم .

﴿١٦﴾ ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ ومن يولهم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتال ﴾ أي يفر بين يدي قرنه مكيدة ليريه أنه قد خاف منه ، فيتبعه ، ثم يكر عليه فلا بأس عليه في ذلك . ﴿ أو متحيزاً إلى فئة ﴾ أي فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين يعاونهم ، ويعاونونه ، فيجوز له ، حتى لو كان في سريته ففر إلى أميره ، أو إلى الإمام الأعظم دخل في هذه الرخصة روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت في سرية من سرايا رسول الله ﷺ فحاص الناس حيصة فكنت فيمن حاص ، فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف ، وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا المدينة ، ثم تبنا ، ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ ، فإن كانت لنا قوية ، وإلا ذهبنا ، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال : « من القوم » ؟ فقلنا : نحن الفرارون ، فقال : « بل أنتم العكارون ، أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين » قال : فأتيناه حتى قبلنا يده . وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه . ﴿ فقد باء ﴾ أي رجع ﴿ بغضب من الله ومأواه ﴾ أي مصيره ومنقلبه يوم ميعاده ﴿ جهنم وبئس المصير ﴾ .

(١٧) ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يبين تعالى أنه خالق أفعال العباد ، وأنه المحمود على جميع ما صدر منهم من خير ، لأنه هو الذي وفقهم لذلك ، وأعانهم عليه ولهذا قال ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم . . ﴾ أي ليس بحولكم وقوتكم قتلتم أعداءكم مع كثرة عددهم ، وقلة عددكم أي بل هو أظفركم عليهم ، كما قال ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾ والله سبحانه يعلم أن النصر ليس على كثرة العدد ، ولا بلبس اللأمة والعدد ، وإنما النصر من عند الله ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ ولهذا قال ﴿ وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى ﴾ أي هو الذي بلغ ذلك اليهم ، وكبتهم بها ، لا أنت . لما دنا القوم القوم بعضهم من بعض أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب ، فرمى بها في وجوه القوم ، وقال : « شاهت الوجوه » فدخلت في أعينهم كلهم ، وأقبل أصحاب رسول الله ﷺ يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله ﴿ وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً ﴾ أي ليعرف المؤمنين نعمته عليهم من اظهارهم على عدوهم مع كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، ليعرفوا بذلك حقه ، ويشكروا بذلك نعمته . ﴿ إن الله سميع عليم ﴾ أي سميع الدعاء ، عليم بمن يستحق النصر والغلب .

(١٨) ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

هذه بشارة أخرى مع ما حصل من النصر أنه أعلمهم تعالى بأنه مضعف كيد الكافرين فيما يستقبل ، مصغر أمرهم ، وأنهم كل ما لهم في تبار ودمار ، ولله الحمد والجنة .

(١٩) ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى للكفار ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ أي إن تستنصروا وتستقضوا الله ، وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم ، فإن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينا كان أقطع للرحم ، وأتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة ، وكان ذلك استفتاحاً منه ﴿ وإن تنتهوا ﴾ أي عما أنتم فيه من الكفر بالله والتكذيب لرسوله ﴿ فهو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة وقوله ﴿ وإن تعودوا نعد ﴾ كقوله ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ معناه وإن عدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلالة نعد لكم بمثل هذه الواقعة ، أو وإن تعودوا إلى الاستفتاح نعد إلى الفتح لمحمد ﷺ والنصر له وتظفيره على أعدائه ، والأول أقوى ﴿ ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت ﴾ أي ولو جمعتم من الجموع ما عسى أن تجمعوا ، فإن من كان الله معه فلا غالب له ﴿ وأن الله مع المؤمنين ﴾ وهم الحزب النبوي ، والجناب المصطفوي .

(٢٠) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ، ويزجرهم عن مخالفته والتشبه بالكافرين به المعاندين له ، ولهذا قال ﴿ ولا تولوا عنه ﴾ أي تتركوا طاعته وامتثال أوامره ، وترك زواجره ﴿ وأنتم تسمعون ﴾ أي بعدما علمتم ما دعاكم إليه .

(٢١) ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ قيل : المراد المشركون ، وقيل : هم المنافقون ، فإنهم يظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا وليسوا كذلك .

(٢٢) ﴿ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن هذا الضرب من بني آدم شر الخلق والخليقة فقال ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم ﴾ أي عن سماع الحق ﴿ البكم ﴾ عن فهمه، ولهذا قال ﴿ الذين لا يعقلون ﴾ فهؤلاء شر البرية ، لأن كل دابة مما سواهم مطيعة لله فيما خلقها له ، وهؤلاء خلقوا

للعبادة فكفروا . ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا ، لأن كلاً منهم مسلوب الفهم الصحيح ، والقصد إلى العمل الصالح .

(٢٣) ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

﴿ لأسمعهم ﴾ لأفهمهم ﴿ و ﴾ لكن لا خير فيهم ، فلم يفهمهم ، لأنه يعلم أنه ﴿ لو أسمعهم ﴾ أي أفهمهم ﴿ لتولوا ﴾ عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم ذلك ﴿ وهم معرضون ﴾ عنه .

(٢٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قال البخاري ﴿ استجيبوا ﴾ أجيبوا ﴿ لما يحييكم ﴾ لما يصلحكم وروى البخاري عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فمر بي النبي ﷺ فدعاني فلم آته حتى صليت، ثم أتيته، فقال: «ما منعك أن تأتيني؟ ألم يقل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ ثم قال: «لأعلمنك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج » فذهب رسول الله ﷺ ليخرج فذكرت له . قال ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني . أو ﴿ لما يحييكم ﴾ للحرب التي أعزكم الله بها بعد الذل ، وقواكم بها بعد الضعف ، ومنعكم من عدوكم بعد القهر منهم لكم ﴿ واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه ﴾ بين المؤمن وبين الكفر ، وبين الكافر وبين الإيمان ، أو يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل ، أو يحول بين الانسان وقلبه فلا يستطيع أن يؤمن ولا أن يكفر إلا بإذنه . روى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال : كان النبي ﷺ يكثر أن يقول « يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك » قال : فقلنا : يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به ، فهل تخاف علينا ؟ قال : « نعم » إن القلوب بين اصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها » .

(٢٥) ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين فتنة ، أي اختباراً ومحنة يعم بها المسيء وغيره ، لا يخص بها أهل المعاصي ، ولا من باشر الذنب بل يعمهما حيث لم تدفع وترفع . روى الامام أحمد عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم

لتدعنه فلا يستجيب لكم » . وروى الامام أحمد عن عائشة تبلغ به النبي ﷺ « إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأهل الأرض بأسه » فقلت : وفيهم أهل طاعة الله قال : « نعم ثم يصيرون إلى رحمة الله » .

(٢٦) ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده المؤمنين على نعمه عليهم، وإحسانه إليهم، حيث كانوا قليلين فكثرهم، ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات ، واستشكرهم فأطاعوه ، وامتثلوا أمره ، قال قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله في قوله ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل . . ﴾ قال : كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلاً ، وأشقاه عيشاً ،وأجوعه بطوناً وأعراه جلوداً ، وأبينه ضلالاً ، من عاش منهم عاش شقياً ، ومن مات منهم روي في النار ، يؤكلون ولا يأكلون ، والله ما نعلم قبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشر منزلاً منهم حتى جاء الله بالاسلام ، فمكن به في البلاد ، ووسع به في الرزق وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس ، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم فاشكروا الله على نعمه ، فإن ربكم منعم يحب الشكر ، وأهل الشكر في مزيد من الله .

(٢٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

أنزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بني قريظة لينزلوا على حكم رسول الله ﷺ فاستشاروه في ذلك ، فأشار عليهم بذلك ، وأشار بيده إلى حلقه ، أي أنه الذبح ، ثم فطن أبو لبابة ، ورأى أنه قد خان الله ورسوله فحلف لا يذوق ذواقاً حتى يموت ، أو يتوب الله عليه ، وانطلق إلى مسجد المدينة ، فربط نفسه في سارية منه فمكث كذلك تسعة أيام حتى كان يخر مغشياً عليه من الجهد ، حتى أنزل الله توبته على رسوله ، فجاء الناس يبشرونه بتوبة الله عليه ، وأرادوا أن يحلوه من السارية فحلف لا يحله منها إلا رسول الله ﷺ فحله ، فقال : يا رسول الله ، إني كنت نذرت أن أنخلع من مالي صدقة فقال : « يجزيك الثلث أن تصدق به » ﴿ أماناتكم ﴾ الأعمال التي ائتمن الله العباد عليها ، يعني الفريضة ، أو ﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ بترك سنة ، وارتكاب معصية ، أو لا تظهروا له من الحق ما يرضى به منكم ، ثم تخالفوه في السر إلى غيره ، فإن ذلك هلاك لأماناتكم ، وخيانة لأنفسكم .

(٢٨) ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾

﴿ فتنة ﴾ أي اختبار وامتحان منه لكم إذ أعطاكموها ليعلم أتشكرونه عليها وتطيعونه فيها ، أو تشتغلون بها عنه ، وتعتاضون بها منه .

(٢٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾

﴿ فرقاناً ﴾ مخرجاً في الدنيا والآخرة ، أو نجاة ، أو نصراً ، أو فصلاً بين الحق والباطل ، ومن اتقى الله بفعل أوامره ، وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة ، وتكفير ذنوبه وهو محوها ، وغفرها وسترها عن الناس ، وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل .

(٣٠) ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾

﴿ ليثبتوك ﴾ ليقيدوك ، أو ليحبسوك ، والاثبات هو الحبس والوثاق . اجتمع نفر من قريش من أشراف كل قبيلة ومعهم ابليس على هيئة رجل نجدي لينظروا في شأن رسول الله ﷺ ، فقال قائل : احبسوه في وثاق ، ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما كان قبله من الشعراء ، فقال النجدي ـ إبليس ـ ما هذا لكم برأي ، قال قائل منهم : أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه ، فقال النجدي ـ إبليس ـ والله ما هذا لكم برأي ، فقال أبو جهل لعنه الله ، والله لأشيرن عليكم برأي ، قالوا : وما هو؟ قال : تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً ، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه ضربة رجل واحد ، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها ، فما أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها ، فإنهم اذا رأوا ذلك قبلوا العقل واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه ، فقال النجدي ـ إبليس ـ هذا هو الرأي ، القول ما قال الفتى ، لا رأي غيره ، فتفرقوا على ذلك وهم مجموعون له ، فأتى جبريل النبي ﷺ فأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه ، وأخبره بمكر القوم ، فلم يبت رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة ، وأذن الله له عند ذلك بالخروج ، ودعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل ، ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم ، وهم على بابه ،

وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذرها على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه محمد ﷺ ، وهو يقرأ ﴿ يس والقرآن الحكيم ـ إلى قوله ـ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾ وأنزل الله في إرادتهم اخراجه قوله ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ . ﴿ والله خير الماكرين ﴾ أي فمكرت بهم بكيدي المتين حتى خلصتك منهم .

(٣١) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر قريش وعتوهم وتمردهم وعنادهم ودعواهم الباطل عند سماع آياته إذا تتلى عليهم يقولون ﴿ قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ﴾ وهذا منهم قول بلا فعل ، وإلا فقد تحدوا غير مرة أن يأتوا بسورة من مثله فلا يجدون إلى ذلك سبيلاً ، وقد قيل : إن القائل لذلك هو النضر بن الحارث لعنه الله فقد كان ذهب إلى بلاد فارس ، وتعلم من اخبار ملوكهم رستم واسفنديار ﴿ أساطير الأولين ﴾ وهو جمع أسطورة ، أي كتبهم اقتبسها فهو يتعلم منها ويتلوها على الناس ، وهذا هو الكذب البحت .

(٣٢) ﴿ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

هذا من كثرة جهلهم ، وشدة تكذيبهم ، وعنادهم وعتوهم ، وهذا مما عيبوا به ، وكان الأولى لهم أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، ووفقنا لاتباعه ، ولكن استفتحوا على أنفسهم ، واستعجلوا العذاب .

(٣٣) ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

قال ابن عباس : كان فيهم أمانان : النبي ﷺ والاستغفار ، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار . روى الامام أحمد في مسنده ، والحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لا ازال أغفر لهم ما استغفروني ، ثم قال الحاكم : صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه . .

(٣٤) ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ

إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى أنهم أهل لأن يعذبهم ، ولكن لم يوقع ذلك بهم لبركة مقام رسول الله ﷺ بين أظهرهم ، ولهذا لما خرج من بين أظهرهم أوقع الله بهم بأسه يوم بدر ، وأذن الله في فتح مكة ، وكيف لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام ، أي الذين بمكة يصدون المؤمنين الذين هم اهله عن الصلاة فيه ، والطواف به ، ولهذا قال : ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ أي هم ليسوا أهل المسجد الحرام ، وإنما أهله النبي ﷺ واصحابه .

(٣٥) ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

المكاء الصفير ، والتصدية التصفيق ، وكانت قريش تطوف بالبيت عراة تصفر وتصفق .

(٣٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾

لما أصيبت قريش ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيره مشى عبدالله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أبي أمية ورجال من قريش أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا يا معشر قريش ، إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه ، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا ، ففعلوا ، قال ففيهم أنزل الله عز وجل ﴿ إن الذين كفروا ينفقون أموالهم . . . . ﴾ إلى قوله ﴿ هم الخاسرون ﴾ وعلى كل تقدير فهي عامة ، وإن كان سبب نزولها خاصاً ، فقد أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع طريق الحق فسيفعلون ذلك ، ثم تذهب أموالهم ، ثم تكون عليهم حسرة أي ندامة حيث لم تجد شيئاً لأنهم أرادوا إطفاء نور الله ، وظهور كلمتهم على كلمة الحق ، والله متم نوره ولو كره الكافرون ، وناصر دينه ومعلن كلمته ، ومظهر دينه على كل دين ، فهذا الخزي لهم في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب النار ، فمن عاش منهم رأي بعينه وسمع بأذنه ما يسوءه ، ومن قتل منهم أو مات فإلى الخزي الأبدي والعذاب السرمدي .

(٣٧) لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ

﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ليميز أهل السعادة من أهل الشقاء ، أو يميز المؤمن من الكافر ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الآخرة كقوله ﴿ ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم ﴾ وقوله ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ وقوله ﴿ يومئذ يصَّدَّعون ﴾ وقوله ﴿ وامتازوا اليوم ـ أيها المجرمون ﴾ ويحتمل أن يكون هذا التمييز في الدنيا بما يظهر من أعمالهم للمؤمنين ﴿ ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ﴾ أي يجمعه كله ، وهو جمع الشيء بعضه إلى بعض كما قال تعالى في السحاب ﴿ ثم يجعله ركاماً ﴾ أي متراكباً متراكماً ﴿ فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ أي هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة .

(٣٨) ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل للذين كفروا إن ينتهوا ﴾ أي عماهم فيه من الكفر والعناد والمشاقة ، ويدخلوا في الإسلام والطاعة والإنابة ﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ أي من كفرهم وذنوبهم وخطاياهم ، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » وقوله ﴿ وإن يعودوا ﴾ أي يستمروا على ما هم فيه ﴿ فقد مضت سنة الأولين ﴾ قال مجاهد أي في قريش يوم بدر ، وغيرها من الأمم .

(٣٩) ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ روى البخاري عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . . . . . ﴾ فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله في كتابه ؟ فقال يا ابن أخي ، أعير بهذه الآية ، ولا أقاتل أحبُّ إليَّ من أن أعير بالآية التي يقول الله عز وجل ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً ﴾ قال : فإن الله يقول ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ قال ابن عمر : قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً ، وكان الرجل يفتن في دينه ، إما أن يقتلوه وإما أن يوثقوه ، حتى كثر الإسلام ، فلم تكن فتنة ، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال : فما قولكم في عثمان ؟ قال ابن عمر : أما قولي في عثمان وعلي ؟ أما عثمان فكان الله قد عفا عنه وكرهتم أن يعفو الله عنه ، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنته وأشار بيده ، وهذه ابنته حيث ترون ، وفي رواية أن ابن عمر قال : قد قاتلنا حتى لم تكن

فتنة وكان الدين كله لله ، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله ﴿ حتى لا تكون فتنة ﴾ حتى لا يكون شرك ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ أن يقال : لا إله إلا الله فلا يكون مع دينكم كفر . وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » قوله ﴿ فإن انتهوا ﴾ بقتالكم عما هم فيه من الكفر ، فكفوا عنه ، وإن لم تعلموا بواطنهم كقوله تعالى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لأسامة لما علا ذلك الرجل بالسيف فقال : لا إله إلا الله فضربه فقتله ، فذكر ذلك لرسول الله فقال لأسامة : « أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ وكيف تصنع بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ فقال : يا رسول الله إنما قالها تعوذاً قال : هلا شققت عن قلبه ؟ » وجعل يقول ويكرر عليه « من لك بلا إله إلا الله يوم القيامة ؟ » حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ .

(٤٠) ﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

أي وإن استمروا على خلافكم ومحاربتكم ﴿فاعلموا أن الله مولاكم﴾ سيدكم وناصركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ .

(٤١) ﴿ * وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يبين تعالى تفصيل ما شرعه مخصصاً لهذه الأمة الشريفة من بين سائر الأمم المتقدمة باحلال الغنائم . والغنيمة هي المال المأخوذ من الكفار بإيجاف الخيل والركاب ، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك كالأموال التي يصالحون عليها ، أو يتوفون عنها ، ولا إرث لهم ، والجزية والخراج ونحو ذلك . هذا مذهب الامام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف . ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ﴾ توكيد لتخميس كل قليل وكثير حتى الخيط والمخيط قال تعالى ﴿ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة﴾ وقوله ﴿فأن لله خمسه ﴾ قال بعضهم : لله نصيب يجعل في الكعبة وقال آخرون : ذكر الله هنا استفتاح كلام للتبرك ، فسهم الله وسهم رسوله واحد ، ففي الحديث « لله خمسها ، وأربعة أخماسها للجيش » وعن أبي بريدة قال : الذي لله فلنبيه ، والذي للرسول ﷺ لأزواجه

﴿ ولذي القربى ﴾ هم بنو هاشم وبنو المطلب ، وهذا قول جمهور العلماء ، وفي الحديث « إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد » رواه مسلم وفي بعض روايات هذا الحديث « إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا اسلام » ﴿ واليتامى ﴾ أي أيتام المسلمين واختلف العلماء : هل يختص بالأيتام الفقراء ، أو يعم الأغنياء والفقراء ؟ على قولين ﴿ والمساكين ﴾ هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر ، أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة ، وليس له ما ينفقه في سفره ذلك .

﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ﴾ أي امتثلوا ما شرعنا لكم من الخمس في الغنائم إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وما أنزل الله على رسوله ﴿ وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ﴾ أي في القسمة ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ ينبه تعالى على نعمته وإحسانه إلى خلقه بما فرق به بين الحق والباطل ببدر ، ويسمى الفرقان ، لأن الله أعلى فيه كلمة الإيمان على كلمة الباطل ، وأظهر دينه ، ونصر نبيه وحزبه ﴿ يوم الفرقان ﴾ يوم فرق الله بين الحق والباطل ، وهو يوم بدر ، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ وكان رأس المشركين عتبة بن ربيعة فالتقوا يوم الجمعة لتسع عشرة أو سبع عشرة مضت من رمضان ، وأصحاب رسول الله ﷺ يومئذٍ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً ، والمشركون ما بين الألف والتسعمائة ، فهزم الله المشركين ، وقتل منهم زيادة على السبعين ، وأسر منهم مثل ذلك .

(٤٢) ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفرقان ﴿ إذ أنتم بالعدوة الدنيا ﴾ أي إذ أنتم نزول بعدوة الوادي الدنيا القريبة إلى المدينة ﴿ وهم ﴾ أي المشركون نزول ﴿ بالعدوة القصوى ﴾ أي البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة ﴿ والركب ﴾ أي العير الذي فيه أبو سفيان بما معه من التجارة ﴿ أسفل منكم ﴾ أي مما يلي سيف البحر ﴿ ولو تواعدتم ﴾ أي أنتم والمشركون إلى مكان ﴿ لاختلفتم في الميعاد ﴾ وعن الزبير في هذه الآية قال : لو كان ذلك عن ميعاد منكم ومنهم ، ثم بلغكم كثرة عددهم وقلة عددكم مالقيتموهم ﴿ ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليقضي الله ما أراد بقدرته من إعزاز الاسلام وأهله ، وإذلال الشرك

وأهله من غير ملأ منكم ففعل ما أراد من ذلك بلطفه ، ﴿ ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ﴾ قال محمد ابن اسحق : أي ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ، ويؤمن من آمن على مثل ذلك ﴿ وإن الله لسميع ﴾ لدعائكم وتضرعكم واستغاثتكم به ﴿ عليم ﴾ أي بكم ، وأنكم تستحقون النصر على أعدائكم الكفرة المعاندين .

(٤٣) ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

قال مجاهد : أراهم الله إياه في منامه قليلاً ، وأخبر النبي ﷺ أصحابه بذلك فكان تثبيتاً لهم ، وعن بعضهم رآهم بعينه التي ينام بها ، وهذا القول غريب ، وقد صرح بالمنام ههنا فلا حاجة إلى التأويل الذي لا دليل عليه . وقوله ﴿ ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ﴾ أي لجبنتم عنهم واختلفتم فيما بينكم ﴿ ولكن الله سلم ﴾ أي من ذلك بأن أراكهم قليلاً ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تجنه الضمائر أو تنطوي عليه الأحشاء ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ .

(٤٤) ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ﴾ وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم ، إذ أراهم إياهم قليلاً في رأي العين فيجرؤهم عليهم ، ويطمعهم فيهم ، فعن عبدالله بن مسعود قال : لقد قللوا في أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لا ، بل مائة ، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه ، فقال : كنا ألفاً رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ﴿ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴾ أي ليلقي بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والإنعام على من أراد اتمام النعمة عليه من أهل ولايته ، ومعنى أنه أغرى كلاً من الفريقين بالآخر ، وقلله في عينه ليطمع فيه ، وذلك عند المواجهة ، فلما التحم القتال وأيد الله المؤمنين بألف من الملائكة مردفين بقي حزب الكفار يرى حزب الإيمان ضعفين كما قال تعالى ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين ﴾ وهذا هو الجمع بين هاتين الآيتين ، فإن كلاً منها حق وصدق ، ولله الحمد والمنة .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾

هذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين آداب اللقاء وطريق الشجاعة عند مواجهة الأعداء فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ﴾ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ انتظر في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ، حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال : « يا أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » ثم قام النبي ﷺ وقال : « اللهم منزل الكتاب ، ومجري السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » وروى الطبراني مرفوعاً « إن الله يحب الصمت عند ثلاث : عند تلاوة القرآن ، وعند الزحف وعند الجنازة » أمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء ، والصبر على مبارزتهم ، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا ، وأن يذكروا الله في تلك الحال ، ولا ينسوه بل يستعينوا به ، ويتكلوا عليه ، ويسألوه النصر على أعدائهم ، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك ، فما أمرهم به الله تعالى ائتمروا ، وما نهاهم عنه انزجروا ، ولا يتنازعوا فيما بينهم ، أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لتخاذلهم وفشلهم ﴿ وتذهب ريحكم ﴾ أي قوتكم وحدتكم وما كنتم فيه من الاقبال ﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والإئتمار بما أمرهم الله ورسوله به ، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول ﷺ ، وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب ، والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالية والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم ، قهروا الجميع حتى علت كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين سنة ، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، وحشرنا في زمرتهم ، إنه كريم وهاب .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى بعد أمره للمؤمنين بالاخلاص في القتال في سبيله وكثرة ذكره ، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين في خروجهم من ديارهم بطراً ، أي دفعاً للحق ﴿ ولا تكونوا كالذين

خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ﴾ وهو المفاخرة والتكبر عليهم ، كما قال أبو جهل لما قيل له : إن العير قد نجا فارجعوا ، فقال : لا والله لا نرجع حتى نرد ماء بدر ، وننحر الجزر ، ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً ، فانعكس ذلك عليه أجمع ، لأنهم لما وردوا ماء بدر وردوا به الحمام ، وركموا في أطواء بدر مهانين أذلاء ، صعرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي ، ولهذا قال ﴿ والله بما يعملون محيط ﴾ أي عالم بما جاؤوا به ، ولهذا جزاهم عليه شر الجزاء .

(٤٨) ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

﴿ زين لهم الشيطان أعمالهم . . . ﴾ حسن لهم لعنه الله ما جاؤوا له ، وما وهموا به ، وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس ونفى عنهم الخشية من أن يؤتوا في ديارهم من عدوهم بني بكر ، فقال : إني جار لكم ، وذلك أنه تبدى لهم على صورة سراقة بن مالك سيد بني مدلج ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ فلما التقوا ﴿ نكص على عقبيه ﴾ رجع مدبراً ، وقال ﴿ إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب ﴾ .

(٤٩) ﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض . . . ﴾ لما دنا القوم بعضهم من بعض قلل الله المسلمين في أعين المشركين ، وقلل المشركين في أعين المسلمين ، فقال المشركون : غر هؤلاء دينهم ، وإنما قالوا ذلك من قلتهم في أعينهم فظنوا أنهم سيهزمونهم ، لا يشكون في ذلك ، فقال الله ﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ .

(٥٠) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

يقول تعالى : ولو عاينت يا محمد حال توفي الملائكة أرواح الكفار لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً إذ يضربون وجوههم وأدبارهم ﴿ و ﴾ يقولون لهم ﴿ ذوقوا عذاب الحريق ﴾ عن مجاهد ﴿ أدبارهم ﴾ أستاههم . قال ابن عباس : إذا أقبل المشركون بوجوههم إلى المسلمين ضربوا وجوههم بالسيوف ، وإذا ولوا أدركتهم الملائكة يضربون أدبارهم . قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون ﴾ .

(٥١) ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

أي هذا الجزاء بسبب ما عملتم من الأعمال السيئة في حياتكم الدنيا : جازاكم الله بها هذا الجزاء ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ أي لا يظلم أحداً من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذي لا يجور ، تبارك وتعالى ، وتقدس وتنزه الغني الحميد ، وفي الحديث الصحيح عن مسلم رحمه الله عن رسول الله ﷺ : إن الله تعالى يقول : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً ، فلا تظالموا ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(٥٢) ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

يقول تعالى : فعل هؤلاء من المشركين المكذبين بما أرسلت به يا محمد ، كما فعل الأمم المكذبة قبلهم ففعلنا بهم ما هو دأبنا ، أي عادتنا وسنتنا في أمثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الأمم المكذبة بالرسل ، الكافرين بآيات الله ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾ أي بسبب ذنوبهم أهلكهم الله ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ أي لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب .

(٥٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن تمام عدله وقسطه في حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه كقوله تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

(٥٤) ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ

وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴾

وقوله ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ أي كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآيات الله أهلكهم بسبب ذنوبهم ، وسلبهم تلك النعم التي أسداها إليهم من جنات وعيون ، وكنوز ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين وما ظلمهم الله بل كانوا هم الظالمين .

﴿٥٥﴾ ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أخبر تعالى أن شر ما دب على وجه الأرض هم الذين كفروا ، فهم لا يؤمنون .

﴿٥٦﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ الذين عاهدت منهم .. ﴾ فكلما عاهدوا عهداً نقضوه وكلما أكدوه بالأيمان نكثوه ﴿ وهم لا يتقون ﴾ أي لا يخافون من الله في شيء ارتكبوه من الآثام .

﴿٥٧﴾ ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

﴿ فإما تثقفنهم في الحرب ﴾ أي تغلبهم وتظفر بهم في حرب ﴿ فشرد بهم من خلفهم ﴾ أي نكل بهم ، ومعناه غلظ عقوبتهم وأثخنهم قتلاً ، ليخاف من سواهم من الأعداء من العرب وغيرهم ، ويصيروا لهم عبرة . ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ لعلهم يحذرون ، فيصنع بهم مثل ذلك .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ وإما تخافن من قوم ﴾ قد عاهدتهم ﴿ خيانة ﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿ فانبذ اليهم ﴾ أي عهدهم ﴿ على سواء ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم ، حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم ، وهم حرب لك ، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء ، أي تستوي أنت وهم في ذلك . أو ﴿ على سواء ﴾ على مهل ﴿ إن الله لا يحب الخائنين ﴾ أي ولو حتى في حق الكفار ، لا يحبها . روى الإمام أحمد عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنه انتهى إلى حصن أو مدينة ، فقال لأصحابه : دعوني أدعوهم كما رأيت رسول الله ﷺ يدعوهم ، فقال : إنما كنت رجلاً منكم فهداني الله عز وجل للاسلام ، فإن أسلمتم فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا ، وإن أبيتم فأدوا الجزية وأنتم صاغرون ، وإن أبيتم نابذناكم على سواء ﴿ إن الله لا يحب

الخائنين ﴾ يفعل بهم ذلك ثلاثة أيام ، فلما كان اليوم الرابع غدا الناس إليها ففتحوها بعون الله .

﴿٥٩﴾ ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﴿ ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ﴾ أي فاتونا ، فلا تقدر عليهم ، بل هم تحت قهر قدرتنا ، وفي قبضة مشيئتنا ، فلا يعجزونا ، كقوله تعالى ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ .

﴿٦٠﴾ ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

ثم أمر تعالى باعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والامكان والاستطاعة ، فقال ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم ﴾ أي مهما أمكنكم ﴿ من قوة ومن رباط الخيل ﴾ روى الامام أحمد ومسلم رحمهما الله أن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول ، وهو على المنبر ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » .

وروى الإمام أحمد وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال : « ارموا ، واركبوا ، وأن ترموا خير من أن تركبوا » وروى الإمام مالك أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة ، لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في حرج أو روضة فما أصابت في طيلها ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ، ولم يرد أن يسقي به كان ذلك حسنات له ، فهي لذلك الرجل أجر ، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر ، ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء وعلى ذلك وزر» وسئل رسول الله ﷺ عن الحمر الأهلية فقال: «ما أنزل عليَّ فهي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة ، الأجر والمغنم » وقوله ﴿ ترهبون به ﴾ أي تخوفون ﴿ به عدو الله وعدوكم ﴾ أي من الكفار ﴿ وآخرين من دونهم ﴾ هم المنافقون ﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ﴾ أي مهما أنفقتم في الجهاد فإنه يوفى إليكم على تمام الكمال .

(٦١) ﴿ * وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ وإن جنحوا ﴾ أي مالوا ﴿ للسلم ﴾ أي المسالمة والمصالحة والمهادنة ﴿ فاجنح لها ﴾ أي فمل إليها واقبل منهم ذلك ، ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ تسع سنين أجابهم إلى ذلك مع ما اشترطوا من الشروط الأخر . ﴿ وتوكل على الله ﴾ أي صالحهم وتوكل على الله ، فإن الله كافيك ، وناصرك .

(٦٢) ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

ولو كانوا يريدون بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ﴿ فإن حسبك الله ﴾ أي كافيك وحده ثم ذكر نعمته عليه بما أيده به من المؤمنين المهاجرين والأنصار فقال ﴿ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين ﴾ .

(٦٣) ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وألف بين قلوبهم ﴾ أي لما كان بينهم من العداوة والبغضاء ، فإن الأنصار كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية بين الأوس والخزرج وأمور يلزم منها التسلسل في الشر حتى قطع الله ذلك بنور الايمان . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار في شأن غنائم حنين قال لهم « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي ، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي » كلما قال شيئاً ، قالوا الله ورسوله أحق . ولهذا قال ﴿ ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ أي عزيز الجناب ، فلا يخيب رجاء من توكل عليه ، حكيم في أفعاله وأحكامه .

(٦٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يحرض الله نبيه محمداً ﷺ والمؤمنين على القتال ومناجزة الأعداء ومبارزة الأقران - ويخبرهم أنه حسبهم ، أي كافيهم وناصرهم ومؤيدهم على عدوهم ، وإن كثرت أعدادهم ، وترادفت أمدادهم ، ولو قل عدد المؤمنين ﴿ يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين ﴾ أي حسبك الله ، وحسب من شهد معك .

(٦٥) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ وَإِن

يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال﴾ أي حثهم أو مرهم عليه، ولهذا كان النبي ﷺ يحرض على القتال عند صفهم ومواجهة العدو كما قال لأصحابه يوم بدر حين أقبل المشركون في عددهم وعددهم . « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » فقال عمير بن الحمام : عرضها السموات والأرض ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم » فقال : بخ بخ ، فقال : « ما يحملك على قولك : بخ بخ » قال : رجاء أن أكون من أهلها قال : « فإنك من أهلها » فتقدم الرجل فكسر جفن سيفه ، وأخرج تمرات فجعل يأكل منهن ، ثم ألقى بقيتهن من يده، وقال لئن أنا حييت حتى آكلهن إنها لحياة طويلة ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه . ثم قال تعالى مبشراً المؤمنين ، وآمراً ﴿ إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين .... ﴾ كل واحد بعشرة ، ثم نسخ هذا الأمر وبقيت البشارة ، وجاء التخفيف .

(٦٦) ﴿ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾

﴿ الآن خفف الله عنكم ... ﴾ فلا ينبغي لمائة أن يفروا من مائتين .

(٦٧) ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر ، فقال : « إن الله قد أمكنكم منهم » فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله ، اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس : إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنما هم إخوانكم بالأمس » فقام عمر فقال : يا رسول الله اضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد النبي ﷺ ، فقال للناس مثل ذلك ، فقام أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال : يا رسول الله ، نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل منهم الفداء ، قال : فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم فعفا عنهم ، وقبل منهم الفداء .

(٦٨) ﴿ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ أي لهم بالمغفرة في أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم ﴿ لمسكم فيما أخذتم ﴾ من الأسارى ﴿ عذاب عظيم ﴾ .

(٦٩) ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ أي فعند ذلك أخذوا من الأسارى الفداء . في الصحيحين عن جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة » . عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جعل فداء أهل الجاهلية يوم بدر أربعمائة . وقد استمر الحكم في الأسرى عند جمهور العلماء أن الإمام مخير فيهم إن شاء قتل كما فعل ببني قريظة ، وإن شاء فادى بمال كما فعل بأسرى بدر ، أو بمن أسر من المسلمين ، كما فعل رسول الله ﷺ في تلك الجارية وابنتها اللتين كانتا في سبي مسلمة بن الأكوع حيث ردهما ، وأخذ في مقابلتهما من المسلمين الذين كانوا عند المشركين ، وإن شاء استرق من أسر . هذا مذهب الإمام الشافعي وطائفة من العلماء .

(٧٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم . . . ﴾ بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس : يا رسول الله ، قد كنت مسلماً ، فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم باسلامك ، فإن يكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابني أخيك : نوفل وعقيل وحليفك عتبة بن عمر ، قال : ما ذاك عندي يا رسول الله ، قال : « فأين المال الذي دفنته أنت وأم الفضل ؟ فقلت لها : إن أصبت في سفري هذا ، فهذا المال الذي دفنته لبَنيَّ : الفضل وعبدالله وقثم » قال : والله يا رسول الله ، إني لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا لشيء ما علمه أحد غيري ، وغير أم الفضل ، فأحسب لي يا رسول الله ما أصبتم مني عشرين أوقية من مال كان معي ، فقال رسول الله ﷺ : « ذاك شيء أعطانا الله تعالى منك » ففدى نفسه وابني أخويه وحليفه قال

العباس : فأعطاني الله مكان العشرين الأوقية في الاسلام عشرين عبداً ، كلهم في يده مال ، يضرب به مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

(٧١) ﴿ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وإن يريدوا خيانتك ﴾ فيما أظهروا لك من الأقوال ﴿ فقد خانوا الله من قبل ﴾ أي من قبل بدر بالكفر به ﴿ فأمكن منهم ﴾ أي بالأسارى يوم بدر ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بفعله ، حكيم فيه .

(٧٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ذكر الله تعالى أصناف المؤمنين ، وقسمهم إلى مهاجرين خرجوا من ديارهم وأموالهم ، وجاؤوا لنصر الله ورسوله ، وإقامة دينه ، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في ذلك ، وإلى أنصار ، وهم المسلمون من أهل المدينة إذ ذاك ، آووا إخوانهم المهاجرين في منازلهم ، وواسوهم في أموالهم ، ونصروا الله ورسوله بالقتال معهم ، فهؤلاء ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ أي كل منهم أحق بالآخر من كل أحد ، ولهذا آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار ، كل اثنين أخوان ، فكانوا يتوارثون بذلك إرثاً مقدماً على القرابة ، حتى نسخ الله تعالى ذلك بالمواريث ، ثبت ذلك في صحيح البخاري وقوله ﴿ والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ﴾ هذا هو الصنف الثالث من المؤمنين ، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا ، بل أقاموا في بواديهم ، فهؤلاء ليس لهم في المغانم نصيب ، ولا في خمسها إلا ما حضروا فيه القتال . وقوله ﴿ وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر . . . ﴾ وإن استنصركم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال ديني على عدو لهم فانصروهم ، فإنه واجب عليكم نصرهم ، لأنهم إخوانكم في الدين ، إلا أن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق ، أي مهادنة إلى مدة فلا تخفروا ذمتكم ولا تنقضوا أيمانكم مع الذين عاهدتم .

(٧٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

لما ذكر تعالى أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض قطع الموالاة بينهم وبين الكفار ، فقد روى الحاكم في مستدركه عن النبي ﷺ قال : « ولا يتوارث أهل ملتين ، ولا يرث مسلم كافراً ، ولا كافر مسلماً » ثم قرأ ﴿ والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه . . . ﴾ وفي الصحيحين « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » وفي المسند والسنن عن رسول الله ﷺ : « لا يتوارث أهل ملتين شتى » وقوله ﴿ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير ﴾ . أي إن لم تجانبوا المشركين ، وتوالوا المؤمنين ، وإلا وقعت فتنة في الناس ، وهو التباس الأمر ، واختلاط المؤمنين بالكافرين ، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل .

(٧٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

لما ذكر تعالى حكم المؤمنين في الدنيا عطف بذكر ما لهم في الآخرة ، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان وأنه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب إن كانت ، وبالرزق الكريم ، وهو الحسن الكثير الطيب الشريف ، دائم مستمر . أبداً لا ينقطع ، ولا ينقضي ولا يسأم ، ولا يمل لحسنه وتنوعه .

(٧٥) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

ذكر في هذه الآية أن الأتباع لهم في الدنيا على ما كانوا عليه من الإيمان والعمل الصالح فهم معهم في الآخرة ، وفي الحديث المتفق عليه بل المتواتر من طرق صحيحة « المرء مع من أحب » وفي الحديث الآخر « من أحب قوماً فهو منهم » وفي رواية « حشر معهم » ﴿ وأولوا الأرحام ﴾ يشمل جميع القرابات ، لا ما يطلقه علماء الفرائض على القرابات من غير ذوي الفروض والعصبات كما قد يزعمه بعضهم ، ويحتج بهذه الآية .





تفسير سُورَةُ التَّوبَةِ



(١) ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ ، وإنما لم يبسمل في أولها لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الامام ، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه . وأول هذه السورة نزل على رسول الله ﷺ لما رجع من غزوة تبوك ، وهم بالحج ، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك ، وأنهم يطوفون بالبيت عراة ، فكره مخالطتهم وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج تلك السنة ليقيم للناس مناسكهم ويعلم المشركين أن لا يحجوا بعد عامهم هذا ، وأن ينادي في الناس ﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغاً عن رسول الله ﷺ لكونه عصبة له فقوله تعالى ﴿ براءة من الله ورسوله ﴾ أي هذه براءة ، أي تبرؤ من الله ورسوله ﴿ إلى الذين عاهدتم من المشركين ﴾ .

(٢) ﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ هذه الآية لذوي العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو من له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كان ، لقوله تعالى ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ﴾ وللحديث « ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فعهده إلى مدته » .

(٣) ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿وأذان من الله ورسوله﴾ وإعلام من الله ورسوله ﴿يوم الحج الأكبر﴾ وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك، وأظهرها وأكبرها جميعاً ﴿أن الله بريء من المشركين ورسولُه﴾ أي بريء منهم أيضاً، ثم دعاهم إلى التوبة فقال ﴿فإن تبتم﴾ أي مما أنتم فيه من الشرك والضلال

﴿ فهو خير لكم وإن توليتم ﴾ أي استمررتم على ما أنتم عليه ﴿ فاعلموا أنكم غير معجزي الله ﴾ بل هو قادر عليكم ، وأنتم في قبضته ، وتحت قهره ومشيئته ﴿ وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ﴾ أي في الدنيا بالخزي والنكال وفي الآخرة بالمقامع والأغلال . روى البخاري أن أبا هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين الذين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

(٤) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

هذا استثناء من ضرب مدة التأجيل بأربعة أشهر لمن له عهد مطلق ليس بمؤقت فأجله أربعة أشهر يسيح في الأرض يذهب فيها لينجو بنفسه حيث شاء ، إلا من له عهد مؤقت فأجله إلى مدته المضروبة التي عوهد عليها . ﴿ إن الله يحب المتقين ﴾ أي الموفين بعهدهم .

(٥) ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ فإذا انسلخ الأشهر الحرم ﴾ المراد بالأشهر الحرم أشهر التسيير الأربعة المنصوص عليها بقوله ﴿ فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ﴾ أي إذا انقضت الأشهر الأربعة التي حرمنا عليكم فيها قتالهم ، وأجلناهم فيها فحيثما وجدتموهم فاقتلوهم ، وهذا عام والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم . ﴿ وخذوهم ﴾ أي وأسروهم إن شئتم قتلاً ، وإن شئتم أسراً. وقوله ﴿واحصروهم واقعدوالهم كل مرصد﴾ أي لا تكتفوا بمجرد وجدانكم لهم، بل اقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، والرصد في طرقهم ومسالكهم حتى تضيقوا عليهم الواسع ، وتضطروهم إلى القتل أو الإسلام ، ولهذا قال ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة . . ﴾ ولهذا اعتمد الصديق رضي الله عنه في قتال ما نعي الزكاة على هذه الآية الكريمة وأمثالها حيث حرمت قتالهم بشرط هذه الأفعال ، وهي الدخول في الإسلام ، والقيام بأداء واجباته . ونبه بأعلاها على أدناها ، فإن أشرف أركان الإسلام بعد الشهادتين

الصلاةُ التي هي حق الله عز وجل ، وبعدها أداء الزكاة التي هي نفع متعد إلى الفقراء والمحاويج ، وهي أشرف الأفعال المتعلقة بالمخلوقين ، ولهذا كثيراً ما يقرن الله بين الصلاة والزكاة ، وفي الصحيحين « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » الحديث .

(٦) ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وإن أحد من المشركين ﴾ الذين أمرتك بقتالهم ، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم ﴿ استجارك ﴾ أي استأمنك فأجبه إلى طلبته حتى يسمع كلام الله ، أي القرآن تقرؤه عليه ، وتذكر له شيئاً من أمر الدين تقيم به عليه حجة الله ﴿ ثم أبلغه مأمنه ﴾ أي وهو آمن مستمر الأمانة حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ أي إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله ، وتنتشر دعوة الله في عباده . ومن هذا كان رسول الله ﷺ يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً ، أو في رسالة .

(٧) ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

يبين تعالى حكمته في البراءة من المشركين ونظرته إياهم أربعة أشهر ، ثم بعد ذلك السيف المرهفُ أين ما ثقفوا فقال ﴿كيف يكون للمشركين عهد﴾ أي أمان، ويتركون فيما هم فيه ، وهم مشركون بالله كافرون به وبرسوله ﴿ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ﴾ يعني يوم الحديبية ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ﴾ مهما تمسكوا بما عاقدتموهم عليه ، وعاهدتموهم من ترك الحرب بينكم وبينهم عشر سنين ﴿ فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ﴾ وقد فعل رسول الله ﷺ ذلك والمسلمون . استمر العقد والهدنة مع أهل مكة من ذي العقدة في سنة ست إلى أن نقضت قريش العهد ، ومالؤوا حلفاءهم ، وهم بنو بكر على خزاعة أحلاف رسول الله ﷺ ، فعند ذلك غزاهم رسول الله ﷺ في رمضان سنة ثمان ، ففتح عليه البلد الحرام ، ومكنه من نواصيهم ، ولله الحمد والمنة ، فأطلق من أسلم منهم بعد القهر والغلبة عليهم فسموا الطلقاء ، وكانوا قريباً من ألفين، ومن استمر على كفره، وفر من رسول الله ﷺ بعث إليه بالأمان والتسيير في الأرض أربعة أشهر يذهب حيث شاء ، ومنهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وغيرهما ، ثم

هداهم الله بعد ذلك إلى الاسلام التام ، والله المحمود على جميع ما يقدره ويفعله .

(٨) ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

يقول تعالى محرضاً للمؤمنين على معاداتهم والتبري منهم ، ومبيناً أنهم لا يستحقون أن يكون لهم عهد لشركهم بالله تعالى وكفرهم برسول الله ﷺ ، ولأنهم لو ظهروا على المسلمين وأديلوا عليهم لم يبقوا ولم يذروا ، ولا راقبوا فيهم إلًّا ولا ذمة (الإلّ) القرابة والذمة والعهد .

(٩) ﴿ اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ذماً للمشركين ، وحثاً للمؤمنين على قتالهم ﴿ اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً ﴾ يعني أنهم اعتاضوا عن اتباع آيات الله بما التهوا به من أمور الدنيا الخسيسة ﴿ فصدوا عن سبيله ﴾ أي منعوا المؤمنين من اتباع الحق ﴿ إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ .

(١٠) ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴾

(١١) ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة . . ﴾ روى البزار عن أنس بن مالك يقول : قال رسول الله ﷺ « من فارق الدنيا على الاخلاص لله وعبادته ، لا يشرك به ، وأقام الصلاة ، وأتى الزكاة فارقها والله عنه راض » وهو دين الله الذي جاءت به الرسل ، وبلغوه عن ربهم ، قبل هرج الأحاديث واختلاف الأهواء ، وتصديق ذلك في كتاب الله . ﴿ فإن تابوا ﴾ فإن خلعوا الأوثان وعبادتها ﴿ وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ﴾ وقال في آية أخرى ﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ .

(١٢) ﴿ وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾

يقول تعالى : وإن نكث هؤلاء المشركون الذين عاهدتموهم على مدة معينة أيمانهم ، أي

عهودهم ومواثيقهم ﴿ وطعنوا في دينكم ﴾ أي عابوه وانتقصوه ، ومن ههنا أخذ قتل من سب الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، أو من طعن في دين الاسلام ، أو ذكره بنقص ، ولهذا قال ﴿ فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ أي يرجعون عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال . قال قتادة وغيره : ﴿ أئمة الكفر ﴾ كأبي جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف وعدَّد رجالاً .

(١٣) ﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

وهذا أيضاً تهييج وتحضيض وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين هموا بإخراج الرسول من مكة كما قال تعالى ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ وقال تعالى ﴿ يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ وقال ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ وقوله ﴿ وهم بدؤ وكم أول مرة ﴾ قيل : المراد بذلك يوم بدر حين خرجوا لنصر عيرهم ، فلما نجت وعلموا بذلك استمروا على وجوههم طلباً للقتال بغياً وتكبراً ، وقيل : المراد نقضهم العهد وقتا لهم مع حلفائهم بني بكر لخزاعة أحلاف رسول الله ﷺ حتى سار إليهم رسول الله ﷺ عام الفتح ، فكان ما كان ، ولله الحمد ، وقوله ﴿ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ﴾ يقول تعالى : لا تخشوهم واخشون ، فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتي وعقوبتي ، فبيدي الأمر ، وما شئت كان ، وما لم يشأ لم يكن .

(١٤) ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾

ثم قال تعالى عزيمة على المؤمنين ، وبياناً لحكمته فيما شرع لهم من الجهاد مع قدرته على إهلاك الأعداء بأمر من عنده ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ وهذا عام في المؤمنين كلهم ، وقال مجاهد ، وعكرمة ، والسدي في هذه الآية ﴿ ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ يعني خزاعة .

(١٥) ﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ ويذهب غيظ قلوبهم ﴾ ذكر ابن عساكر عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا غضبت أخذ بأنفها وقال : « يا عويش ، قولي : اللهم رب النبي محمد ، اغفر ذنبي ،

وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من مضلات الفتن » . ﴿ ويتوب الله على من يشاء ﴾ أي من عباده ﴿ والله عليم ﴾ أي بما يصلح عباده ﴿ حكيم ﴾ في أفعاله وأقواله الكونية ، والشرعية ، فيفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وهو العادل الحاكم الذي لا يجور أبداً ، ولا يضيع مثقال ذرة من خير وشر ، بل يجازي عليه في الدنيا والآخرة .

(١٦) ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ أم حسبتم ﴾ أيها المؤمنون أن نترككم مهملين لا نختبركم بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ، ولهذا قال ﴿ ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ﴾ أي بطانة ودخيلة ، وقد قال تعالى في آية أخرى ﴿ الٓمٓ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ . وقال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ والحاصل أنه تعالى لما شرع لعباده الجهاد بين أن له فيه حكمة ، وهو اختبار عباده من يطيعه ممن يعصيه ، وهو تعالى العالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فيعلم الشيء قبل كونه ، ومع كونه على ما هو عليه ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، ولا راد لما قدره وقضاه .

(١٧) ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالى : ما ينبغي للمشركين بالله أن يعمروا مساجد الله التي بنيت على اسمه وحده لا شريك له ﴿ شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ أي وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر ، أي بحالهم ومالهم كما قال السدي : لو سألت النصراني : ما دينك ؟ لقال : نصراني ، ولو سألت اليهودي : ما دينك ؟ لقال : يهودي ، والصابىء ، لقال : صابىء ، والمشرك لقال : مشرك . ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي بشركهم ﴿ وفي النار هم خالدون ﴾ .

(١٨) ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

فشهد تعالى بالايمان لعمار المساجد ، روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » قال الله تعالى ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ ورواه الترمذي وابن مردويه والحاكم في مستدركه . وروى عبد بن حميد في مسنده عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما عمار المساجد هم أهل الله » وقد روى الدارقطني عن أنس « إذا أراد الله بقوم عاهة نظر إلى أهل المساجد فصرف عنهم » وروى الحافظ البهائي في المستقصي عن أنس يقول الله : وعزتي وجلالي إني لأهم بأهل الأرض عذاباً فإذا نظرت إلى عمار بيوتي ، وإلى المتحابين فيّ ، وإلى المستغفرين بالأسحار صرفت ذلك عنهم . وقال عبد الرزاق عن عمرو بن ميمون الأودي قال : أدركت أصحاب محمد ﷺ وهم يقولون : إن المساجد بيوت الله في الأرض ، وإنه حق على الله أن يكرم من زاره » ﴿ وأقام الصلاة ﴾ أي التي هي أكبر عبادات البدن ﴿ وآتى الزكاة ﴾ أي التي هي أفضل الأعمال المتعدية إلى بر الخلائق ﴿ ولم يخش إلا الله ﴾ أي ولم يخف إلا من الله ، ولم يخش سواه .

(١٩) ﴿ * أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

عن ابن عباس قال : إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره فذكر الله استكبارهم وإعراضهم ، فقال ﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ وقوله ﴿ أجعلتم سقاية الحاج . . . ﴾ يعني أن ذلك كله كان في الشرك ، ولا أقبل ما كان في الشرك . قال الضحاك : أقبل المسلمون على العباس وأصحابه الذين أسروا يوم بدر يعيرونهم بالشرك فقال العباس : أما والله لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونفك العاني ونحجب البيت ونسقي الحاج فأنزل الله ﴿ أجعلتم سقاية الحاج . . . ﴾ .

(٢٠) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

(٢١) ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾

(٢٢) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٢٣) ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٢٤)

أمر تعالى بمباينة الكفار ، وإن كانوا آباء أو أبناء ، ونهى عن موالاتهم ، ﴿ إن استحبوا ﴾ أي اختاروا الكفر على الايمان وتوعد على ذلك، كقوله تعالى ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ روى الحافظ البيهقي قال : جعل أبو أبي عبيدة بن الجراح ينعت له الآلهة يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر الجراح قصده ابنه أبو عبيدة فقتله ، فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله . . . ﴾ ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم . . وأموال اقترفتموها ﴾ أي اكتسبتموها وحصلتموها ﴿ وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها ﴾ أي تحبونها لطيبها وحسنها ، أي إن كانت هذه الأشياء ﴿ أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم ، ولهذا قال ﴿ حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

روى الامام أحمد عن زهرة بن معبد عن جده قال : كنا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي فقال رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ « الآن يا عمر » انفرد باخراجه البخاري . وروى الامام أحمد وأبو داوود واللفظ له عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط عليكم ذلاً ، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم » .

(٢٥) ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

يذكر تعالى للمؤمنين فضله عليهم ، وإحسانه لديهم في نصره إياهم في مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسوله وأن ذلك من عنده تعالى ، وبتأييده وتقديره ، لا بعَددهم ولا بعُددهم ، ونبههم على أن النصر من عنده سواء قل الجمع ، أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئاً فولوا مدبرين إلا القليل منهم مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ، ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ، وبإمداده ، وإن قل الجمع ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . وقد كانت وقعة حنين بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة .

(٢٦) ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ سكينته ﴾ أي وثباته على رسوله . ﴿ وعلى المؤمنين ﴾ أي الذين معه ﴿ وأنزل جنوداً لم تروها ﴾ وهم الملائكة .

(٢٧) ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك . . ﴾ قد تاب الله على بقية هوازن ، فأسلموا ، وقدموا عليه ﷺ مسلمين ولحقوه ، وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الوقعة بقريب من عشرين يوماً .

(٢٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

أمر الله تعالى عباده المؤمنين الطاهرين ديناً وذاتاً بنفي المشركين الذين هم نجس ديناً عن المسجد الحرام ، وأن لا يقربوه بعد نزول هذه الآية ، وكان نزولها في سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله ﷺ علياً صحبة أبي بكر رضي الله عنهما عامئذٍ ، وأمره أن ينادي في المشركين أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأتم الله ذلك

وحكم به شرعاً وقدراً . وقوله ﴿ إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ﴾ إلا أن يكون عبداً أو أحداً من أهل الذمة ، وقد روى الامام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل مسجدنا بعد عامنا هذا مشرك إلا أهل العهد وخدمهم » قال عطاء : الحرم كله مسجد . ودلت هذه الآية الكريمة على نجاسة المشرك كما ورد في الصحيح « المؤمن لا ينجس » وأما نجاسة بدنه فالجمهور على أنه ليس بنجس البدن والذات لأن الله أحل طعام أهل الكتاب ، وذهب بعض الظاهرية إلى نجاسة أبدانهم ، وقال أشعث عن الحسن : من صافحهم فليتوضأ . وقوله ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ﴾ وذلك أن الناس قالوا : لتقطعن عنا الأسواق ، ولتهلكن التجارة وليذهبن عنا ما كنا نصيب فيها من المرافق فأنزل الله ﴿ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم . . . ﴾ من وجه غير ذلك ﴿ إن شاء ﴾ إلى قوله ﴿ هم صاغرون ﴾ أي فسوف يغنيكم الله من فضله من وجه آخر غير ذلك وقد عوضهم الله بما أعطاهم من أعناق أهل الكتاب من الجزية . ﴿ إن الله عليم ﴾ أي بما يصلحكم ﴿ حكيم ﴾ أي فيما يأمر به ، وينهى عنه ، لأنه الكامل في أفعاله وأقواله العادل في خلقه وأمره تبارك وتعالى ولهذا عوضهم عن تلك المكاسب بأموال الجزية التي يأخذونها من أهل الذمة .

(٢٩) ﴿ قَاتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . . . ﴾ فأهل الكتاب في نفس الأمر لما كفروا بمحمد ﷺ لم يبق لهم إيمان صحيح بأحد من الرسل ، ولا بما جاؤوا به ، وإنما يتبعون آراءهم وأهواءهم ، وآباءهم فيما هم فيه ، لا لأنه شرع الله ودينه لأنهم لو كانوا مؤمنين بما بأيديهم إيماناً صحيحاً لقادهم ذلك إلى الإيمان بمحمد ﷺ ، لأن جميع الأنبياء بشروا به وأمروا باتباعه ! فلما بعث وكفروا به ، وهو أشرف الرسل علم أنهم ليسوا متمسكين بشرع الأنبياء الأقدمين ، لأنه من عند الله بل لحظوظهم وأهوائهم ، فلهذا لا ينفعهم إيمانهم ببقية الأنبياء ، وقد كفروا بسيدهم وأفضلهم وخاتمهم وأكملهم . وقد أمر الله بقتال أهل الكتاب بعدما تمهدت أمور المشركين ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، واستقامت جزيرة العرب ، وكان ذلك سنة تسع ، ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وكانت غزوة تبوك . ﴿ حتى يعطوا الجزية ﴾ أي إن لم يسلموا ﴿ عن يد ﴾ أي قهر لهم وغلبة ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي ذليلون حقيرون

مهانون ، فلهذا لا يجوز إعزاز أهل الذمة ، ولا رفعهم على المسلمين ، بل هم أذلاء صغرة أشقياء كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تبدؤ وا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه .

(٣٠) ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقالتهم الشنيعة ، والفرية على الله تعالى ، فقد قال اليهود في العزير : إنه ابن الله ، وقال النصارى في المسيح : إنه ابن الله ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ وقد أكذب الله الطائفتين فقال ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افترائهم واختلافهم ﴿ يضاهئون ﴾ أي يشابهون ﴿ قول الذين كفروا من قبل ﴾ أي من قبلهم من الأمم ، ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿ قاتلهم الله ﴾ لعنهم الله ﴿ أنى يؤفكون ﴾ أي كيف يضلون عن الحق ، وهو ظاهر ، ويعدلون إلى الباطل ؟ .

(٣١) ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

روى الامام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منَّ رسول الله ﷺ على أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة ، وكان رئيساً في قومه طيء ، وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة ورسول الله يقرأ هذه الآية ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : « بلى إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم » وقال رسول الله ﷺ « يا عدي ما تقول ؟ أيضرك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ، ما يضرك ؟ أيضرك أن يقال : لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلهاً غير الله ؟ » ثم دعاه إلى الاسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال : فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال : « إن اليهود مغضوب

عليهم ، والنصارى ضالون » ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتُّبع ، وما حكم به نفد ﴿ لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(٣٢) ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿ أن يطفئوا نور الله ﴾ أي ما بعث به رسول الله ﷺ من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافترائهم ، فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس ، أو نور القمر بنفخة ، وهذا لا سبيل إليه ، فكذلك ما أرسل به رسول الله ﷺ لا بد أن يتم ويظهر ، ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه ، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء والزَّرَّاع كافراً لأنه يغطي الحب في الأرض كما قال تعالى ﴿ يعجب الكفار نباته ﴾ .

(٣٣) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى . . . ﴾ فالهدى هو ما جاء به من الاخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع ودين الحق هو الأعمال الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي على سائر الأديان كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زوى لي الأرض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها » .

(٣٤) ﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

الأحبار من اليهود ، والرهبان من النصارى . ومقصود الآية التحذير من علماء السوء ، وعباد الضلال . وفي الحديث الصحيح « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة » قالوا اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن » ؟ وفي رواية فارس والروم قال فمن الناس إلا هؤلاء والحاصل التحذير من التشبه بهم في أقوالهم وأحوالهم .

ولهذا قال تعالى ﴿ ليأكلون أموال الناس بالباطل ﴾ وذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين وقوله تعالى ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ أي وهم مع أكلهم الحرام يصدون الناس عن اتباع الحق ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويظهرون لمن اتبعهم من الجهلة أنهم يدعون إلى الخير ، وليسوا كما يزعمون ، بل هم دعاة إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون .
﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة . . . ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث من رؤوس الناس ، فإن الناس عالة على العلماء ، وعلى العبّاد ، وعلى أرباب الأموال ، فإذا فسدت أحوال هؤلاء فسدت أحوال الناس كما قال ابن المبارك وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها .

والكنز : هو المال الذي لا تؤدى زكاته ، وما أدي زكاته فليس بكنز . روى الإمام أحمد أن شداد بن أوس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا كنز الناس الذهب والفضة فاكنزوا هؤلاء الكلمات « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وأسألك حسن عبادتك ، وأسألك قلباً سليماً ، وأسألك لساناً صادقاً ، وأسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » .

(٣٥) ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

﴿ هذا ما كنزتم لأنفسكم . . ﴾ أي يقال لهم : هذا الكلام تبكيتاً وتقريعاً وتهكماً ، كما في قوله ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ ، وقد قيل : من أحب شيئاً وقدمه على طاعة الله عذبه به ، وهؤلاء لما كان جمع هذه الأموال آثر عندهم من رضا الله عنهم عذبوا بها ، فلما كانت هذه الأموال أعز الأشياء على أربابها كانت أضر الأشياء عليهم في الآخرة . وروى الحافظ أبو يعلى أن رسول الله ﷺ قال : « لا يوضع الدينار على الدينار ، ولا الدرهم على الدرهم ، ولكن يوسع جلده ، فيكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ .

(٣٦) ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ

كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ خطب في حجته فقال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » . ثم قال : « أي يوم هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس يوم النحر » ؟ قلنا : بلى ، ثم قال : « أي شهر هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليس ذا الحجة » ؟ قلنا : بلى ، ثم قال : « أي بلد هذا » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : « أليست البلدة » ؟ قلنا : بلى ، قال : « فإن دماؤكم وأموالكم ـ وأحسبه ـ قال : وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا لا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا هل بلغت » ؟ ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى من بعض من سمعه » ورواه البخاري في التفسير ومسلم ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا هو الشرع المستقيم من امتثال أمر الله فيما جعل من الأشهر الحرم ، والحذو بها على ما سبق في كتاب الله : قال تعالى : ﴿ فلا تظلموا فيهن أنفسكم ﴾ أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها ، كما أن المعاصي في البلد الحرام تضاعف لقوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ ولهذا تغلظ الدية في الشهر الحرام في مذهب الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وكذا في حق من قتل في الحرم أو قتل ذا محرم ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ أي جميعاً ﴿ كما يقاتلونكم كافة ﴾ أي جميعهم ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ والأشهَرُ أن تحريم ابتداء القتال في الشهر الحرام منسوخ .

(٣٧) ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

هذا مما ذم الله به المشركين من تصرفهم في شرع الله بآرائهم الفاسدة ، وتغييرهم أحكام الله بأهوائهم الباردة وتحليلهم ما حرم الله وتحريمهم ما أحل الله . وكان رجل من بني كنانة يأتي كل عام إلى الموسم على حمار له فيقول : أيها الناس ، إني لا أعاب ولا أجاب ولا مرد لما أقول ، إنا قد حرمنا المحرم ، وأخرنا صفر ، ثم يجيء العام المقبل

بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله ﴿ ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ﴾ .

(٣٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

هذا شروع في عتاب من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر ، وحمارة القيظ فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله ﴾ أي إذا دعيتم إلى الجهاد في سبيل الله ﴿ اثاقلتم إلى الأرض ﴾ أي تكاسلتم وملتم إلى المقام في الدعة والخفض وطيب الثمار . ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ ؟ أي ما لكم فعلتم هكذا رضاً منكم بالدنيا بدلاً من الآخرة ، ثم زهد تبارك وتعالى في الدنيا ، ورغب في الآخرة فقال ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بما ترجع » وأشار بالسبابة، انفرد باخراجه مسلم . وروى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يجزي بالحسنة ألف حسنة » ثم تلا هذه الآية ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ فالدنيا ما مضى منها وما بقي عند الله قليل . لما حضرت عبد العزيز بن مروان الوفاة قال : ائتوني بكفني الذي أكفن فيه أنظر إليه ، فلما وضع بين يديه نظر إليه ، فقال : أمالي من كبير ، ما أخلف من الدنيا إلا هذا ؟ ثم ولى ظهره فبكى ، وهو يقول : أف لك من دار ، إن كان كثيرك لقليل ، وإن كان قليلك لقصير ، وإن كنا منك لفي غرور .

(٣٩) ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

ثم توعد تعالى من ترك الجهاد فقال : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ قال ابن عباس : استنفر رسول الله ﷺ حياً من العرب فتثاقلوا عنه ، فأمسك الله عنهم القطر ، فكان عذابهم ﴿ ويستبدل قوماً غيركم ﴾ أي لنصرة نبيه ، وإقامة دينه ، كما قال تعالى ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ وقوله ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ أي ولا تضروا الله شيئاً بتوليكم عن الجهاد ، ونكولكم وتثاقلكم عنه ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ أي قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم .

(٤٠) ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ إلا تنصروه ﴾ أي إلا تنصروا رسوله ، فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه ، كما تولى نصره ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين ﴾ أي عام الهجرة لما هم المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارباً صحبة صدِّيقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة ، فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ، ثم يسيروا نحو المدينة ، فجعل أبو بكر يجزع أن يطلع عليهم أحد ، فيخلص إلى رسول الله ﷺ منهم أذى ، فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثنيه، ويقول: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما» ﴿فأنزل الله سكينته عليه ﴾ أي تأييده ونصره عليه ، أي على الرسول في أشهر القولين ، وقيل : على أبي بكر ﴿ وأيده بجنود لم تروها ﴾ أي الملائكة ﴿ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ﴾ كلمة الذين كفروا هي الشرك ، وكلمة الله هي لا إله إلا الله . وفي الصحيحين ، سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » وقوله ﴿ والله عزيز ﴾ أي في انتقامه وانتصاره ، منيع الجناب ، لا يضام من لاذ ببابه ، واحتمى بالتمسك بخطابه ﴿ حكيم ﴾ في أقواله وأفعاله .

(٤١) ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أمر الله تعالى بالنفير التام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وحتم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال في المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، وقيل : كهولاً وشباناً ، ما سمع الله عذر أحد ، قرأ أبو طلحة سورة براءة فأتى على هذه الآية ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً . . ﴾ فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً جهزوني يا بني فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك ، فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد تسعة أيام فلم يتغير فدفنوه . ﴿ خفافاً وثقالاً ﴾ غنياً وفقيراً وقوياً وضعيفاً ﴿ وجاهدوا في سبيل الله . . . ﴾

أي هذا خير لكم في الدنيا والآخرة ، لأنكم تفرحون في النفقة قليلاً فيغنمكم الله أموال عدوكم في الدنيا مع ما يدخره لكم من الكرامة في الآخرة كما قال النبي ﷺ « تكفل الله للمجاهد في سبيله إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرده إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة .

(٤٢) ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى موبخاً للذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك ، وقعدوا بعدما استأذنوه في ذلك مظهرين أنهم ذوو أعذار ، ولم يكونوا كذلك ، فقال : ﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾ غنيمة قريبة ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ أي قريباً أيضاً ﴿ لاتبعوك ﴾ أي لكانوا جاؤ وا معك لذلك ﴿ ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ أي المسافة إلى الشام ﴿ وسيحلفون بالله ﴾ أي لكم إذا رجعتم إليهم ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أي لو لم يكن لدينا أعذار لخرجنا معكم ، قال الله تعالى ﴿ يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ .

(٤٣) ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾

قال عون : هل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ نداء بالعفو قبل المعاتبة ، فقال : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ قال قتادة : عاتبه كما تسمعون ، ثم أنزل التي في سورة النور ، فرخص له في أن يأذن لهم إن شاء ، فقال : ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ﴾ وقوله ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا ﴾ أي في إبداء الأعذار ﴿ وتعلم الكاذبين ﴾ يقول تعالى : هلا تركتهم لما استأذنوك فلم تأذن لأحد منهم في القعود ، لتعلم الصادق منهم في إظهار طاعتك من الكاذب ، فإنهم قد كانوا مصرين على القعود عن الغزو ، وإن لم تأذن لهم ، ولهذا أخبر تعالى أنه لا يستأذن في القعود عن الغزو أحد يؤمن بالله ورسوله ، فقال :

(٤٤) ﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ لا يستأذنك ﴾ أي في القعود عن الغزو ﴿ الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ لأنهم يرون الجهاد قربة ، ولما ندبهم إليه بادروا وامتثلوا ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ .

﴿٤٥﴾ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾

﴿ إنما يستأذنك ﴾ أي في القعود ممن لا عذر له ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي لا يرجون ثواب الله في الدار الآخرة على أعمالهم ﴿ وارتابت قلوبهم ﴾ أي شكت في صحة ما جئتهم به ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ أي يتحيرون يقدمون رجلاً ، ويؤخرون أخرى ، وليست لهم قدم ثابتة في شيء ، فهم قوم حيارى هلكى ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، ﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلاً ﴾ .

﴿٤٦﴾ ﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾

﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ أي معك إلى الغزو ﴿ لأعدوا له عدة ﴾ أي لكانوا تأهبوا له ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ أي أبغض أن يخرجوا معك قدراً ، ﴿ فثبطهم ﴾ أي أخرهم ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ أي قدراً ، ثم بين وجه كراهيته لخروجهم مع المؤمنين فقال :

﴿٤٧﴾ ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ أي لأنهم جبناء مخذولون ﴿ ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ أي ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالنميمة والبغضاء والفتنة ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ أي مطيعون لهم ، ومستحسنون لحديثهم وكلامهم يستنصحونهم ، وإن كانوا لا يعلمون حالهم فيؤدي إلى وقوع شر بين المؤمنين ، وفساد كبير ، أو عيون يسمعون لهم الأخبار ، وينقلونها إليهم ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ فأخبر بأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

﴿٤٨﴾ ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾

يقول تعالى محرضاً لنبيه عليه السلام على المنافقين ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ﴾ أي لقد أعملوا فكرهم ، وأجالوا آراءهم في كيدك وكيد أصحابك وخذلان دينك

وإخماده مدة طويلة ، وذلك أول مقدم النبي ﷺ المدينة رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها ، فلما نصره الله يوم بدر ، وأعلى كلمته قال عبدالله بن أبي وأصحابه : هذا أمر قد توجه فدخلوا في الإسلام ظاهراً ، ثم كلما أعز الله الإسلام ، وأهله غاظهم ذلك ، وساءهم ، ولهذا قال تعالى ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين من يقول لك يا محمد ﴿ ائذن لي ﴾ في القعود ﴿ ولا تفتني ﴾ بالخروج معك بسبب الجواري من نساء الروم . قال الله تعالى ﴿ ألا في الفتنة سقطوا﴾ أي قد سقطوا في الفتنة بقولهم هذا. قال رسول الله ﷺ: وهو في ذات يوم جهازه للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال : « قد أذنت لك » ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية ، أي إن كان إنما يخشى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به فما سقط فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه أعظم . وقد كان الجد بن قيس هذا من أشراف بني سلمة ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لهم : « من سيدكم يا بني سلمة ؟ » قالوا : الجد بن قيس ، على أنا نبخله ، فقال رسول الله ﷺ : « وأي داء أدوأ من البخل ؟ » ولكن سيدكم الفتى الجعد الأبيض بشر بن البراء بن معرور . وقوله تعالى ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي لا محيد لهم عنها ، ولا محيص ولا مهرب .

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾

يعلم تبارك وتعالى نبيه ﷺ بعداوة هؤلاء له ، لأنه مهما أصابه من حسنة ، أي فتح ونصر وظفر على الأعداء مما يسره ، ويسر أصحابه ساءهم ذلك ﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ أي قد احترزنا من متابعته من قبل هذا ﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ فأرشد الله تعالى رسول الله ﷺ إلى جوابهم في عداوتهم هذه التامة فقال :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٥١﴾

﴿ قل ﴾ أي لهم ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ أي نحن تحت مشيئته وقدره ﴿ هو مولانا ﴾ أي سيدنا وملجؤنا ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي ونحن متوكلون عليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(٥٢) ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ هل تربصون بنا ﴾ أي تنتظرون بنا ﴿ إلا إحدى الحسنيين ﴾ شهادة أو ظفر بكم . ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ أي ننتظر بكم ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ أي ننتظر بكم هذا ، أو هذا ، بسببي أو بقتل ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ .

(٥٣) ﴿ قُلْ أَنفِقُوا۟ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾ أي مهما أنفقتم من نفقة طائعين أو مكرهين ﴿ لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ .

(٥٤) ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن سبب ذلك، وهو أنهم لا يتقبل منهم ﴿إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ أي والأعمال إنما تصح بالإيمان ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ أي ليس لهم قدم صحيح ولا همة في العمل ﴿ ولا ينفقون ﴾ نفقة ﴿ إلا وهم كارهون ﴾ وقد أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن الله لا يمل حتى تملوا ، وأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، فلهذا لا يقبل الله من هؤلاء نفقة ولا عملاً لأنه إنما يتقبل من المتقين .

(٥٥) ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ وقوله ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ هذا من المقدم والمؤخر تقديره :

فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة . ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ أي ويريدون أن يميتهم حين يميتهم على الكفر ، ليكون ذلك أنكى لهم وأشد لعذابهم . عياذاً بالله من ذلك ، وهذا يكون من باب الاستدراج لهم فيما هم فيه .

﴿٥٦﴾ ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾

يخبر الله تعالى نبيه ﷺ عن جزعهم وفزعهم وفرقهم وهلعهم أنهم ﴿ يحلفون بالله إنهم لمنكم ﴾ يميناً مؤكدة ﴿ وما هم منكم ﴾ أي في نفس الأمر ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ أي فهو الذي حملهم على الحلف .

﴿٥٧﴾ ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ أي حصناً يتحصنون به ، وحرزاً يتحرزون به ﴿ أو مغارات ﴾ وهي التي في الجبال ﴿ أو مدخلاً ﴾ وهو السرب في الأرض والنفق ﴿ لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ أي يسرعون في ذهابهم عنكم ، لأنهم إنما يخالطونكم كرهاً ، لا محبة ، وودوا أنهم لا يخالطونكم ، ولكن للضرورة أحكام ، ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغم ، لأن الاسلام وأهله لا يزال في عز ونصر ورفعة ، فلهذا كلما سر المسلمون ساءهم ذلك ، فهم يودون أن يخالطوا المؤمنين .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ومنهم ﴾ أي ومن المنافقين ﴿ من يلمزك ﴾ أي يعيب عليك ﴿ في ﴾ قسم ﴿ الصدقات ﴾ إذا فرقتها ، ويتهمك في ذلك ، وهم المتهمون المأبونون ، وهم مع هذا لا ينكرون للدين ، وإنما ينكرون لحظ أنفسهم . أتي النبي ﷺ بصدقة فقسمها ها هنا وههنا حتى ذهبت ، قال : ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بعدل ، فنزلت هذه الآية .

﴿٥٩﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾

ثم قال تعالى منبهاً لهم على ما هو خير لهم من ذلك ، فقال : ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم

الله ورسوله . . ﴾ فتضمنت هذه الآية الكريمة أدباً عظيماً وسراً شريفاً ، حيث جعل الرضا بما آتاه الله ورسوله والتوكل على الله وحده ، وهو قوله ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ وكذلك الرغبة إلى الله وحده في التوفيق لطاعة الرسول ﷺ ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره ، وتصديق أخباره ، والاقتفاء بآثاره .

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٠)

لما ذكر تعالى اعتراض المنافقين الجهلة على النبي ﷺ ولمزهم إياه في قسم الصدقات بين تعالى أنه هو الذي قسمها وبين حكمها ، وتولى أمرها بنفسه ، ولم يكل قسمها إلى أحد غيره فجزأها لهؤلاء المذكورين . . ﴿للفقراء﴾ الفقير أسوأ حالاً من المسكين، وقدم الفقراء في الآية لأنهم أحوج من غيرهم على المشهور، ولشدة فاقتهم وحاجتهم، وعند أبي حنيفة أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير . وفي الحديث : « ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان ، والثمرة والثمرتان » قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : « الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً » رواه الشيخان . والعاملون عليها هم الجباة والسعاة يستحقون منها قسطاً على ذلك . والمؤلفة قلوبهم أقسام ، فمنهم من يعطي ليسلم ، كما أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين ، وقد كان شهدها مشركاً ، قال : فلم يزل يعطيني حتى صار أحب الناس إليّ بعد أن كان أبغض الناس إليّ . وقال النبي ﷺ : « إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله على وجهه في نار جهنم » ومنهم من يعطي لما يرجى من إسلام نظرائه ، ومنهم من يعطى ليجبي الصدقات ممن يليه ، أو ليدفع عن حوزة المسلمين الضرر من أطراف البلاد . والرقاب هم المكاتبون . والغارمون : هم من تحمل حمالة ، أو ضمن ديناً فلزمه فأجحف بما له ، أو غرم في أداء دينه ، أو في معصيته ثم تاب فهؤلاء يدفع لهم . وفي سبيل الله ، منهم الغزاة الذين لا حق لهم في الديوان ، وعند الإمام أحمد والحسن وإسحق والحج من سبيل الله . وابن السبيل هو المسافر المجتاز في بلد ليس معه شيء يستعين به على سفره ، فيعطى من الصدقات ما يكفيه إلى بلده ، وإن كان له مال ، وهكذا الحكم فيمن أراد إنشاء سفر من بلده وليس معه شيء فيعطى من مال الزكاة كفايته في ذهابه وإيابه . ﴿ فريضة من الله ﴾ أي حكماً مقدراً بتقدير الله وفرضه وقسمه ﴿ والله عليم ﴾ أي عليم بظواهر الأمور وبواطنها وبمصالح عباده

﴿ حكيم ﴾ فيما يقوله ويفعله ويشرعه ويحكم به ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

(٦١) ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويقولون ﴿ هو أذن ﴾ أي من قال له شيئاً صدقه فينا ، ومن حدثه صدقه ، فإذا جئناه وحلفنا له صدقنا ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ أي هو أذن خير يعرف الصادق من الكاذب ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ أي ويصدق المؤمنين ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ أي هو حجة على الكافرين ، ولهذا قال ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ .

(٦٢) ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ ذكر أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقاً ، لهم شر من الحمير ، قال : فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ، ولأنت أشر من الحمار ، قال : فسعى بها الرجل إلى النبي ﷺ ، فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : « ما حملك على الذي قلت ، فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق ، وكذب الكاذب ، فأنزل الله هذه الآية .

(٦٣) ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله . . ﴾ أي ألم يتحققوا ويعلموا أنه من حاد الله عز وجل ، أي شاقه وحاربه وخالفه ، وكان في حد والله ورسوله في حد ﴿ فأن له نار جهنم خالداً فيها ﴾ أي مهاناً معذباً ﴿ ذلك الخزي العظيم ﴾ أي هذا هو الذل العظيم والشقاء الكبير .

(٦٤) ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾

قال مجاهد : يقولون القول بينهم ، ثم يقولون : عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا هذا ﴿ قل استهزؤوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ أي أن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به

ويبين له أمركم ، ولهذا قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة السورة الفاضحة ، فاضحة المنافقين .

(٦٥) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾

قال رجل من المنافقين : ما أرى قرآن هؤلاء إلا أرغبنا بطوناً ، وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله ﷺ فجاء إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ فقال ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤ ون ﴾ إلى قوله ﴿ كانوا مجرمين ﴾ وإن رجليه لتسبقان الحجارة ، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ ، وهو متعلق بسيف رسول الله ﷺ .

(٦٦) ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

وقوله ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ أي بهذا المقال الذي استهزأتم به ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ أي لا يعفى عن جميعكم ، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿ بأنهم كانوا مجرمين ﴾ أي مجرمين بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة .

(٦٧) ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين الذين هم على خلاف صفات المؤمنين ، ولما كان المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر كان هؤلاء ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ﴾ أي عن الانفاق في سبيل الله ﴿ نسوا الله ﴾ أي نسوا ذكر الله ﴿ فنسيهم ﴾ أي عاملهم معاملة من نسيهم كقوله ﴿ فاليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طريق الحق ، الداخلون في طريق الضلالة .

(٦٨) ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾ أي على هذا الصنيع الذي ذكر عنهم ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها ، مخلدين هم والكفار ﴿ هي حسبهم ﴾ أي كفايتهم في

العذاب ﴿ ولعنهم الله ﴾ أي طردهم وأبعدهم ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ .

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (٦٩)

يقول تعالى : أصاب هؤلاء من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة كما أصاب من قبلهم . وقوله ﴿ بخلاقهم ﴾ قال الحسن : بدينهم . وقوله ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ أي في الكذب والباطل ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ أي بطلت مساعيهم ، فلا ثواب لهم عليها لأنها فاسدة ﴿ في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ لأنهم لم يحصل لهم عليها ثواب . وفي الحديث « والذي نفسي بيده لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، وباعاً بباع ، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه » قالوا : ومن هم يا رسول الله ؟ أهل الكتاب ؟ قال : « فمن » وهذا الحديث له شاهد في الصحيح .

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (٧٠)

يقول تعالى واعظاً لهؤلاء المنافقين المكذبين للرسل ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾ أي ألم تخبروا خبر من كان قبلكم من الأمم المكذبة للرسل ﴿ قوم نوح ﴾ وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض ، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح عليه السلام ﴿ وعاد ﴾ كيف أهلكوا بالريح العقيم لما كذبوا هوداً عليه السلام ﴿ وثمود ﴾ كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحاً عليه السلام وعقروا الناقة ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ كيف نصره الله عليهم وأيده بالمعجزات الظاهرة عليهم ، وأهلك ملكهم نمرود بن كنعان لعنه الله ﴿ وأصحاب مدين ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام ، وكيف أصابتهم الرجفة وعذاب يوم الظلة ﴿ والمؤتفكات ﴾ قوم لوط ، وقد كانوا يسكنون في مدائن ، وقال في آية أخرى ﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ أي الأمة المؤتفكة ، والغرض أن الله تعالى أهلكهم عن آخرهم بتكذيبهم نبي الله لوطاً عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل القاطعات ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ أي بإهلاكه إياهم ، لأنه أقام عليهم الحجة بإرسال الرسل ، وإزاحة العلل ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

أي بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم الحق ، فصاروا إلى ما صار إليه من العذاب والدمار .

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٧١)

لما ذكر تعالى صفات المنافقين الذميمة عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة فقال ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ أي يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء في الصحيح « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وشبك بين أصابعه ، وفي الصحيح أيضاً « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقوله ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وقوله ﴿ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ أي يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ أي فيما أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ أي سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ﴿ إن الله عزيز ﴾ أي يعز من أطاعه ، فإن العزة لله ورسوله وللمؤمنين ﴿ حكيم ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء ، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فإنه له الحكمة في جميع ما يفعله تبارك وتعالى .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧٢)

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ومساكن طيبة ﴾ أي حسنة طيبة القرار ، كما جاء في الصحيحين : عن رسول الله ﷺ « جنتان من ذهب » آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة : آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم ، وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في عدن » وفي الصحيحين قال رسول الله ﷺ « من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة ، وصام رمضان ، فإن حقاً على الله أن يدخله الجنة هاجر في سبيل الله أو حبس في أرضه التي ولد فيها » قالوا : يا رسول الله أفلا نخبر الناس ؟ قال : « إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن » ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكان ، يقال له :

الوسيلة ، لقربه من العرش ، وهو مسكن رسول الله ﷺ من الجنة . وفي صحيح مسلم « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا علي ، فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً ، ثم سلوا لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة ، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون هو ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة » ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ أي رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما روى مالك أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير في يديك فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل مس ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً » . أخرجاه من حديث مالك .

(٧٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، كما أمره بأن يخفض جناحه لمن اتبعه من المؤمنين ، وأخبره بأن مصير الكفار والمنافقين إلى النار في الدار الآخرة .

(٧٤) ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قال قتادة : نزلت في عبدالله بن أبي ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وأنصاري فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبدالله للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ﷺ فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ قيل : نزلت في الحلاس بن سويد ، وذلك أنه هم بقتل ابن امرأته ، وقيل : في عبدالله بن أبي ، هم بقتل رسول الله ﷺ ، أو في نفر من المنافقين هموا بالفتك بالنبي ﷺ ، وهو في غزوة تبوك في بعض تلك الليالي في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ أي وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ، ويمن سعادته ، ولو تمت عليهم السعادة لهداهم الله لما جاء به كما قال للأنصار : « ألم أجدكم

ضلالاً فهداكم الله بي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وعالة فأغناكم الله بي » ثم دعاهم الله إلى التوبة فقال : ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴾ أي وإن استمروا على طريقهم ﴿ يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا ﴾ أي بالقتل والهم والغم ، ﴿ والآخرة ﴾ أي بالعذاب والنكال والهوان والصغار ﴿ وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لهم أحد يسعدهم ولا ينجدهم ، ولا يحصل لهم خيراً ، ولا يدفع عنهم شراً .

﴿٧٥﴾ ﴿ * وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

يقول تعالى : ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله ليصدقن من ماله وليكونن من الصالحين ، فما وفى بما قال ، ولا صدق فيما ادعى .

﴿٧٦﴾ ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

﴿٧٧﴾ ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾

فأعقبهم هذا الصنيع نفاقاً سكن في قلوبهم إلى يوم يلقون الله عز وجل يوم القيامة عياذاً بالله من ذلك .

قوله ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه ﴾ أي أعقبهم النفاق في قلوبهم بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم ، كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

﴿٧٨﴾ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ يخبر تعالى أنه يعلم السر وأخفى ، وأنه أعلم بضمائرهم ، وإن أظهروا أنه إن حصل لهم أموال تصدقوا منها ، وشكروا عليها ، فإن الله أعلم بهم من أنفسهم وأنه تعالى علام الغيوب ، أي يعلم كل غيب وشهادة ، وكل سر ونجوى ، ويعلم ما ظهر وما بطن .

﴿٧٩﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

وهذا أيضاً من صفات المنافقين ، لا يسلم أحد من عيبهم ولمزهم في جميع الأحوال ،

حتى ولا المتصدقون يسلمون منهم . إن جاء أحد منهم بمال جزيل قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بيسير قالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا . وفي البخاري عن أبي مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحامل - نؤاجر أنفسنا في الحمل - على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مراءٍ ، وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغني عن صدقة هذا رواه مسلم . روى الإمام أحمد عن أبي السليل قال : وقف علينا رجل في مجلسنا بالبقيع فقال : حدثني أبي أو عمي أنه رأى رسول الله ﷺ بالبقيع ، وهو يقول : « من يتصدق بصدقة أشهد له بها يوم القيامة » قال : فمللت من عمامتي لوثاً أو لوثين ، وأنا أريد أن أتصدق بهما فأدركني ما يدرك ابن آدم فعقدت على عمامتي ، فجاء رجل لم أر بالبقيع رجلاً أشد منه سداداً ، ولا أصغر منه ولا أذم ببعير ساقه لم أر بالبقيع ناقة أحسن منها ، فقال : يا رسول الله أصدقة ؟ قال : « نعم » قال : دونك هذه الناقة ، قال : فلمزه رجل ، فقال : هذا يتصدق بهذه ؟ فوالله لهي خير منه ، قال : فسمعها رسول الله ﷺ فقال : كذبت ، بل هو خير منك ومنها » ثلاث مرات ، ثم قال : « ويل لأصحاب المئين من الإبل » ثلاثاً ، قالوا : إلا من يا رسول الله ؟ قال : « إلا من قال بالمال هكذا وهكذا » وجمع بين كفيه عن يمينه وشماله ، ثم قال : « قد أفلح المزهد المجهد » ثلاثاً . المزهد في العيش ، والمجهد في العبادة . وقوله ﴿ سخر الله منهم ﴾ هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم ، واستهزائهم بالمؤمنين ، ولأن الجزاء من جنس العمل ، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا ، وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً ، لأن الجزاء من جنس العمل .

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (٨٠)

يخبر تعالى نبيه ﷺ بأن هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار ، وأنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم وقد قيل : إن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم ، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ، ولا تريد التحديد بها ، ولا أن يكون ما زاد عليها بخلافها ، وقيل : بل لها مفهوم ، كما روي عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « لما نزلت هذه الآية ، أسمع ربي قد رخص لي فيهم ، فوالله لأستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة ، لعل الله أن يغفر لهم » فقال الله من شدة غضبه عليهم ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ .

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ﴾ (٨١)

يقول تعالى ذاماً للمنافقين المتخلفين عن صحابة رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، وفرحوا بقعودهم بعد خروجه ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا ﴾ معه ﴿ بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر عند طيب الظلال والثمار ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ نار جهنم ﴾ التي تصيرون إليها بمخالفتكم ﴿ أشد حراً ﴾ فما فررتم منه من الحر ، بل أشد حراً من النار ، روى الإمام مالك أن رسول الله ﷺ قال :« نار بني آدم التي توقدونها جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » فقالوا يا رسول الله ، إن كانت لكافية ، فقال : « فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » أخرجاه في الصحيحين من حديث مالك به ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾ أي لو أنهم يفقهون ويفهمون لنفروا مع رسول الله ﷺ ليتقوا به من حر جهنم الذي هو أضعاف أضعاف هذا .

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (٨٢)

ثم قال متوعداً هؤلاء المنافقين على صنيعهم هذا ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ أي فليضحكوا فيها ما شاءوا فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله عز وجل استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً . روى الحافظ أبو يعلى الموصلي عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يا أيها الناس ابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول ، حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء ، فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أزجيت فيها لجرت » ورواه ابن ماجه . وروى ابن أبي الدنيا عن زيد بن رفيع رفعه ، قال : « إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ، ثم بكوا القيح زماناً ، قال : فتقول لهم الخزنة : يا معشر الأشقياء ، تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا ، هل تجدون اليوم من تستغيثون به ؟ قال : فيرفعون أصواتهم ، يا أهل الجنة ، يا معشر الآباء والأمهات والأولاد ، خرجنا من القبور عطاشاً ، وكنا طول الموقف عطاشاً ، ونحن اليوم عطاشى ؛ فأفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، فيدعون أربعين سنة ، لا يجيبهم ، ثم يجيبهم ﴿ إنكم ماكثون ﴾ فييأسون من كل خير » .

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُواْ (٨٣)

مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ فإن رجعك الله ﴾ أي ردك الله من غزوتك هذه ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ قال قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ أي معك إلى غزوة أخرى ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ أي تعزيراً لهم ، وعقوبة . ثم علل ذلك بقوله ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ وهذا كقوله ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ فإن جزاء السيئة السيئة بعدها ، كما أن ثواب الحسنة الحسنة بعدها . ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ أي مع الرجال الذين تخلفوا عن الغزاة .

(٨٤) ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ، ليستغفر له ، أو يدعو لهم ، لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه، وإن كان سبب نزول الآية في عبدالله بن أبي ابن سلول ، رأس المنافقين ، كما روى البخاري أنه جاء عبدالله بن عبدالله بن أبي إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، تصلي عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنما خيرني الله فقال : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ وسأزيده على السبعين » قال : إنه منافق ، قال : فصل عليه رسول الله ﷺ ، فأنزل الله ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ .

(٨٥) ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم . . . ﴾ تقدم تفسير نظير هذه الآية الكريمة عند تفسير الآية رقم (٥٥) من هذه السورة .

(٨٦) ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا

نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾

يقول تعالى منكراً وذاماً للمتخلفين عن الجهاد ، الناكلين عنه مع القدرة عليه ، ووجود السعة والطول ، واستأذنوا الرسول في القعود ، وقالوا ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ .

(٨٧) ﴿ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

ورضوا لأنفسهم بالعار والقعود في البلد مع النساء ، وهن الخوالف بعد خروج الجيش ، فإذا وقع الحرب كانوا أجبن الناس ، وإذا كان أمن كانوا أكثر الناس كلاماً ، كما قال تعالى عنهم في الآية الأخرى ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ أي علت ألسنتهم بالكلام الحاد القوي في الأمن ، وفي الحرب أجبن شيء . وقوله ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ أي بسبب نكولهم عن الجهاد والخروج مع الرسول في سبيل الله ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ أي لا يفهمون ما فيه صلاح لهم فيفعلوه ، ولا ما فيه مضرة لهم فيجتنبوه .

(٨٨) ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

(٨٩) ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

ذكر تعالى ذنب المنافقين وبين ثناءه على المؤمنين وما لهم في آخرتهم فقال ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا ﴾ من بيان حالهم ومآلهم . وقوله ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ أي في الدار الآخرة في جنات الفردوس والدرجات العلىٰ .

(٩٠) ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ثم بين تعالى حال ذوي الأعذار في ترك الجهاد الذين جاؤوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، ويبينون له ما هم فيه من الضعف وعدم القدرة على الخروج ، وهم من أحياء العرب من حول المدينة ، وهم نفر من بني غفار ، جاؤوا فاعتذروا فلم يعذرهم الله ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ أي وقعد آخرون من الأعراب عن المجيء للاعتذار ، ثم أوعدهم بالعذاب الأليم فقال ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ .

﴿٩١﴾ ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم بين تعالى الأعذار التي لا حرج على من قعد معها عن القتال ، فذكر منها ما هو لازم للشخص لا ينفك عنه ، وهو الضعف في التركيب الذي لا يستطيع معه الجلاد في الجهاد ، ومنه العمى والعرج ونحوهما ، ولهذا بدأ به ، ومنها ما هو عارض بسبب مرض عنّ له في بدنه شغله عن الخروج في سبيل الله ، أو بسبب فقره ، لا يقدر على التجهيز للحرب ، فليس على هؤلاء حرج إذا قعدوا ونصحوا في حال قعودهم ، ولم يرجفوا بالناس ، ولم يثبطوهم ، وهم محسنون في حالهم هذا ، ولهذا قال : ﴿ ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾ عن أبي تمامة قال : قال الحواريون : يا روح الله ، أخبرنا عن الناصح لله ، قال : الذي يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران ، أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة بدأ بالذي للآخرة ، ثم تفرغ للذي للدنيا . وقال الأوزاعي : خرج الناس إلى الاستسقاء فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : يا معشر من حضر ، ألستم مقرين بالاساءة ؟ قالوا اللهم نعم ، فقال : اللهم إنا نسمعك تقول ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ اللهم وقد أقررنا بالإساءة ، فاغفر لنا ، وارحمنا واسقنا ، ورفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا .

﴿٩٢﴾ ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق في سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكاؤ ون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم فاستحملوا رسول الله ﷺ ، وكانوا أهل حاجة فقال ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ وفي الصحيحين من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إن بالمدينة أقواماً ما قطعتم وادياً ، ولا سرتم سيراً إلا وهم معكم » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : « نعم ، حبسهم العذر » .

﴿٩٣﴾ ﴿ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم رد تعالى الملامة على الذين يستأذنون في القعود وهم أغنياء وأنبهم في رضاهم بأن يكونوا مع النساء الخوالف في الرحال ﴿ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴾ .

(٩٤) ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عن المنافقين بأنهم إذا رجعوا إلى المدينة أنهم يعتذرون إليهم ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ أي لن نصدقكم ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ أي قد أعلمنا الله أحوالكم ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ أي سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي فيخبركم بأعمالكم خيرها وشرها ، يجزيكم عليها .

(٩٥) ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

ثم أخبر عنهم أنهم سيحلفون لكم معتذرين لتعرضوا عنهم ، فلا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم احتقاراً لهم ، ﴿ إنهم رجس ﴾ ، أي خبث نجس بواطنهم واعتقادهم ، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاءً بما كانوا يكسبون ، أي من الآثام والخطايا .

(٩٦) ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾

وأخبر أنهم إن رضوا عنهم بحلفهم لهم ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ أي الخارجين عن طاعة الله ، وطاعة رسوله ، فإن الفسق هو الخروج ، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من حجرها للافساد ، ويقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها .

(٩٧) ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

أخبر تعالى أن في الأعراب كفاراً ومنافقين ومؤمنين ، وأن كفرهم ونفاقهم أعظم من غيرهم وأشد وأجدر ، أي أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، وفي الحديث « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » ، رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي ، ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم

رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ روى مسلم عن عائشة قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ، قالوا : لكنا والله ما نقبل ، فقال رسول الله ﷺ : « وأملك إن كان الله نزع منكم الرحمة » وقوله ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يستحق أن يعلمه الإيمان والحكمة والعلم ، حكيم فيما قسم بين عباده من العلم والجهل والإيمان والكفر والنفاق ، لا يسأل عما يفعل لعلمه وحكمته .

(٩٨) ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وأخبر تعالى أن منهم ﴿ من يتخذ ما ينفق ﴾ أي في سبيل الله ﴿ مغرماً ﴾ أي غرامة وخسارة ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ أي ينتظر بكم الحوادث والآفات ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي هي منعكسة عليهم ، والسوء دائر عليهم ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لدعاء عباده ، عليم بمن يستحق النصر ممن يستحق الخذلان .

(٩٩) ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

هذا هو القسم الممدوح من الأعراب ، وهم الذين يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ أي ألا إن ذلك حاصل لهم ﴿ سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ﴾ .

(١٠٠) ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم المقيم . قال الشعبي : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار : من أدرك بيعة الرضوان عام الحديبية ، وقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله ﷺ . فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين

والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم ، أو أبغض أو سب بعضهم ، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول ﷺ وخيرهم وأفضلهم ، أعني الصديق الأكبر ، والخليفة الأعظم : أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ، ويبغضونهم ويسبونهم . عياذاً بالله من ذلك . وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رضي الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متبعون ، لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدون ، وهؤلاء هم حزب الله المفلحون ، وعباده المؤمنون .

(١٠١) ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى رسوله صلوات الله عليه أن في أحياء العرب ممن حول المدينة منافقون ، وفي أهل المدينة منافقون ﴿ مردوا على النفاق ﴾ أي مرنوا واستمروا ، ومنه يقال : شيطان مريد ، ومارد ، ويقال : تمرد فلان على الله ، أي عتا وتجبر . وقوله ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ لا ينافي قوله تعالى ﴿ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحاً ومساء ، وقد أعلم ﷺ حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقاً ، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم . والله أعلم . وروى الحافظ ابن عساكر أن رجلاً يقال له حرملة : أتى النبي ﷺ فقال : الإيمان ههنا وأشار بيده إلى لسانه والنفاق ههنا وأشار بيده إلى قلبه ولم يذكر الله إلا قليلاً فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعل له لساناً ذاكراً ، وقلباً شاكراً وارزقه حبي وحب من يحبني وصير أمره إلى خير » فقال : يا رسول الله ، إنه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : « من أتانا استغفرنا له ، ومن أصر فالله أولى به ، ولا تخرقن على أحد ستراً » . ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ يعني القتل والسبي ، أو بالجوع وعذاب القبر ، ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسر إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من

المنافقين . وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يرى أنه منهم نظر إلى حذيفة ، فإن صلى عليه ، وإلا تركه ، وذكر لنا أن عمر قال لحذيفة : أنشدك الله أمنهم أنا؟ قال : لا ، ولا أؤمن منها أحداً بعدك .

(١٠٢) ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

لما بين تعالى حال المنافقين المتخلفين عن الغزاة رغبة عنها وتكذيباً وشكاً شرع في بيان حال المذنبين الذين تأخروا عن الجهاد كسلاً وميلاً إلى الراحة مع إيمانهم وتصديقهم بالحق فقال ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي أقروا بها ، واعترفوا فيما بينهم وبين ربهم ، ولهم أعمال أخر صالحة خلطوا هذه بتلك ، فهؤلاء تحت عفو الله وغفرانه . وهذه الآية ، وإن كانت نزلت في أناس معينين إلا أنها عامة في كل المذنبين الخطائين المخلطين المتلوثين . قال ابن عباس : نزلت في أبي لبابة ، وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ، ربطوا أنفسهم بسواري المسجد ، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ ، فلما أنزل الله هذه الآية ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أطلقهم رسول الله ﷺ ، وعفا عنهم .

(١٠٣) ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٞ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

أمر تعالى رسوله ﷺ بأن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم ويزكيهم بها ، ﴿ وصل عليهم ﴾ أي ادع لهم واستغفر لهم . روى مسلم عن عبدالله بن أبي أوفى قال : كان النبي ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلى عليهم ، فأتاه أبي بصدقته فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت : يا رسول الله ، صل عليّ وعلى زوجي ، فقال : « صلى الله عليك وعلى زوجك » وقوله ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ رحمة لهم . وقوله ﴿ والله سميع ﴾ أي لدعائك ﴿ عليم ﴾ أي بمن يستحق ذلك منك . ومن هو أهل له . وكان النبي ﷺ إذا دعا لرجل أصابته ، وأصابت ولده ، وولد ولده . رواه الإمام أحمد .

(١٠٤) ﴿ أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منها يحط الذنوب ، ويمحصها ويمحقها ، وأخبر تعالى أن كل من تاب تاب الله عليه ، ومن تصدق بصدقة من كسب حلال فإن الله يتقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها حتى تصير الثمرة مثل أُحد .

(١٠٥) ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

هذا وعيد من الله للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين ، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة كما قال ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ روىٰ الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان » .

(١٠٦) ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وآخرون مرجون لأمر الله . . . ﴾ هم الثلاثة الذين خلفوا عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، وقعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلاً ، وميلاً إلى الدعة ، والحفظ ، وطيب الثمار والظلال ، لا شكاً ونفاقاً فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري كما فعل أبو لبابة وأصحابه وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجىء هؤلاء عن التوبة ، حتى نزلت الآية الآتية ، وهي قوله ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار . . ﴾ وقوله ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي هم تحت عفو الله إن شاء فعل بهم هذا ، وإن شاء فعل بهم ذاك ، ولكن رحمته تغلب غضبه ﴿ والله عليم ﴾ أي بمن بستحق العقوبة ممن يستحق العفو ، حكيم في أفعاله وأقواله ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

(١٠٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(١٠٨) ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾

(١٠٩) ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ

هَارٍ فَانْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١١٠)

سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ رجل من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى مكة من مشركي قريش ، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أحد ، فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين ، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ ، وأصيب ذلك اليوم فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وشج رأسه صلوات الله وسلامه عليه ، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم ، واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه ، قالوا : لا أنعم الله بك علينا ، يا فاسق يا عدو الله ، ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً فنالته دعوة رسول الله ﷺ ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أمر أحد ، ورأى أمر رسول الله ﷺ في ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومناه ، فأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم أن يتخدوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء فبنوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله إلى تبوك ، وجاؤوا فسألوا رسول الله أن يصلي فيه ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : « أنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء الذي أسس من أول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه

المدينة . ﴿ إن أردنا إلا الحسنى ﴾ أي ما أردنا ببنائه إلا خيراً ، ورفقاً بالناس وهم كذبة . ﴿ يحبون أن يتطهروا ﴾ كانوا يستنجون بالماء بعد الحجارة . والمسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء أو مسجد النبي ﷺ في المدينة ، قولان ولا منافاة لأنه إذا كان مسجد قباء أسس على التقوى من أول يوم فمسجد النبي ﷺ أولى ، وفي الحديث « صلاة في مسجد قباء كعمرة » وفيه كان يزور مسجد قباء راكباً وماشياً ﴿ ريبة في قلوبهم ﴾ شقاءً ونفاقاً ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ أي بموتهم .

(١١١) ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض من عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه ، وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عبيده المطيعين له ، ولهذا قال الحسن : بايعهم والله وأغلى ثمنهم . وقال شمر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله عز وجل في عنقه بيعة ، وفى بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية . قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يعني ليلة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت فقال : « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . . ﴾ وقوله ﴿ يقاتلون في سبيل الله . . . ﴾ أي سواء قتلوا أو قتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا فقد وجبت لهم الجنة ، ولهذا جاء في الصحيحين « وتكفل الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وتصديق برسلي بأن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى منزله الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة » وقوله ﴿ وعداً عليه . . . ﴾ تأكيد لهذا الوعد ، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة ، وأنزله على رسله في كتبه الكبار ، وهي التوراة المنزلة على موسى ، والانجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ فإنه لا يخلف الميعاد وهذا كقوله ﴿ ومن أصدق من الله حديثاً ﴾ ﴿ ومن أصدق من الله قيلاً ﴾ ولهذا قال ﴿ فاستبشروا . . . ﴾ أي فالمستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ، ووفى بهذا العهد بالفوز العظيم ، والنعيم المقيم .

﴿١١٢﴾ ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا نعت للمؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بهذه الصفات الجميلة ، والخلال الجليلة ﴿ التائبون ﴾ من الذنوب كلها ، التاركون للفواحش ﴿ العابدون ﴾ أي القائمون بعبادة ربهم محافظين عليها ، وهي الأقوال والأفعال . فمن أخص الأقوال الحمد ، فلهذا قال : ﴿ الحامدون ﴾ ومن أفضل الأعمال الصيام وهو ترك الملاذ من الطعام والشراب والجماع ، وهو المراد بالسياحة ههنا ، ولهذا قال : ﴿ السائحون ﴾ كما وصف أزواج النبي ﷺ بذلك في قوله ﴿ سائحات ﴾ أي صائمات . وكذا الركوع والسجود ، وهي عبارة عن الصلاة ، ولهذا قال : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ . وهم مع ذلك ينفعون خلق الله ، ويرشدونهم إلى طاعة الله بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر مع العلم بما يبتغي فعله ، ويجب تركه ، وهو حفظ حدود الله ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ وذلك في تحليل ما أحل ، وتحريم ما حرم . ﴿وبشر المؤمنين﴾ لأن الإيمان يشمل هذا كله ، والسعادة كل السعادة لمن اتصف به .

﴿١١٣﴾ ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

﴿١١٤﴾ ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾

روى الإمام أحمد أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي ﷺ ، وعنده أبو جهل ، وعبدالله بن أبي أمية فقال : « أي عم ، قل : « لا إله إلا الله » كلمة أحاج لك بها عند الله عز وجل » فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟ فقال : أنا على ملة عبدالمطلب ، فقال النبي ﷺ : « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فنزلت ﴿ ما كان للنبي . . . ﴾ ونزل ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أخرجاه . وروى الإمام أحمد عن أبي بردة قال : كنا مع النبي ﷺ ونحن في سفر ، فنزل بنا ، ونحن قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ، ثم أقبل علينا بوجهه ، وعيناه تذرفان ، فقام عمر إليه ، وفداه بالأب والأم وقال : يا رسول الله ، مالك ؟ قال : « سألت ربي عز وجل في الاستغفار لأمي فلم يأذن لي فدمعت عيناي رحمة لها من

النار » . قال قتادة : ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ قالوا : يا نبي الله ، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الأرحام ، ويفك العاني ، ويوفي بالذمم ، أفلا يستغفر لهم ؟ فقال النبي ﷺ : « بلى ، والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه » فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا . . . ﴾ وروى أبو داود وغيره عن علي رضي الله عنه لما مات أبو طالب قلت : يا رسول الله ، إن عمك الشيخ الضال قد مات ، قال : « اذهب فواره ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني وذكر الحديث » وقوله تعالى ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ أي لما مات تبين له أنه عدو لله . ﴿ إن إبراهيم لأواه ﴾ أي لمتضرع ﴿ حليم ﴾ .

(١١٥) ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة ، وحكمه العادل : إنه لا يضل قوماً إلا بعد إبلاغ الرسالة إليهم حتى يكونوا قد قامت عليهم الحجة ، كما قال تعالى ﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ قال ابن جرير : يقول الله تعالى : وما كان الله ليقضي عليكم في استغفاركم لموتاكم المشركين بالضلال بعد إذ رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله حتى يتقدم إليكم بالنهي عنه ، فتتركوا . فأما قبل أن يبين لكم كراهة ذلك بالنهي عنه ثم تتعدوا نهيه إلى ما نهاكم عنه فإنه لا يحكم عليكم بالضلال فإن الطاعة والمعصية إنما يكونان من المأمور والمنهي ، وأما من لم يؤمن ولم ينه فغير كائن مطيعاً أو عاصياً فيما لم يؤمر به ، ولم ينه عنه .

(١١٦) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قال ابن جرير : هذا تحريض من الله تعالى لعباده المؤمنين في قتال المشركين ، وملوك الكفر ، وأن يثقوا بنصر الله مالك السموات والأرض ، ولا يرهبوا من أعدائه ، فإنه لأولى لهم من دون الله ، ولا نصير لهم سواه .

(١١٧) ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك ، وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء . ﴿ في ساعة العسرة ﴾ أي من النفقة

والظهر والزاد والماء ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول ﷺ ، ويرتاب للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ ثم رزقهم الانابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إنه بهم رؤ وف رحيم ﴾ .

(١١٨) ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا . . . ﴾ هم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار . ولما ذكر تعالى ما فرج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب من هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، أي مع سعتها ، فسدت عليهم المسالك والمذاهب ، فلا يهتدون إلى ما يصنعون فصبروا لأمر الله ، واستكانوا لأمر الله ، وثبتوا حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم رسول الله ﷺ في تخلفهم ، وأنه كان عن غير عذر ، فعوقبوا على ذلك هذه المدة ، ثم تاب الله عليهم ، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم ، وتوبة عليهم . ولهذا قال :

(١١٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ أي اصدقوا والزموا الصدق تكونوا من أهله ، وتنجوا من المهالك ، ويجعل لكم فرجاً من أموركم ومخرجاً . روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » أخرجاه في الصحيحين .

(١٢٠) ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ

أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يعاتب تبارك وتعالى المتخلفين عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك من أهل المدينة ومن حولها من أحياء العرب في رغبتهم بأنفسهم عن مواساته فيما حصل له من المشقة ، فإنهم نقصوا أنفسهم من الأجر لأنهم ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ عطش ﴿ ولا نصب ﴾ تعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ مجاعة ﴿ ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ أي ينزلون منزلاً يرهب عدوهم ﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ ولا ينالون منه ظفراً وغلبة ﴿ إلا كتب لهم ﴾ بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم ، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ كقوله ﴿ إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾ .

(١٢١) ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

ولا ينفق هؤلاء الغزاة في سبيل الله ﴿ نفقة صغيرة ولا كبيرة ﴾ أي قليلاً ولا كثيراً ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ أي في السير إلى الأعداء ﴿ إلا كتب لهم ﴾ ولم يقل ههنا ﴿ به ﴾ كما قال هناك ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ لأن هذه الأفعال صادرة عنهم ، ولهذا قال : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ وقد حصل لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من هذه الآية الكريمة حظ وافر ونصيب عظيم ، وذلك أنه أنفق في هذه الغزوة النفقات الجليلة ، والأموال الجزيلة . روى الإمام أحمد عن عبدالرحمٰن بن حباب السلمي قال : خطب رسول الله ﷺ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم حث ، فقال عثمان : عليّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها ، قال : ثم نزل مرقاه من المنبر ثم حث فقال عثمان : عليّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها ، قال : فرأيت رسول الله ﷺ قال بيده : هكذا يحركها . وعن عبدالرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حتى جهز النبي ﷺ جيش العسرة ، قال : فصبها في حجر النبي ﷺ فرأيت النبي ﷺ يقلبها بيده ، ويقول : (ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم) يرددها مراراً . وقوله تعالى ﴿ ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ قال قتادة : ما ازداد قوم في سبيل الله بعداً من أهليهم إلا ازدادوا قرباً من الله .

(١٢٢) ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ

وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

هذا بيان من الله تعالى لما أراد من نفير الأحياء مع الرسول ﷺ في غزوة تبوك ، فإنه قد ذهبت طائفة من السلف إلى أنه كان يجب النفير على كل مسلم إذا خرج رسول الله ﷺ ، ولهذا قال تعالى ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ وقال ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب . . . ﴾ قال فنسخ ذلك بهذه الآية . ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ يقول : ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ، ويتركوا النبي ﷺ وحده ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ يعني عصبة ، يعني السرايا ، ولا يسيروا إلا بإذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد أنزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ ، وقالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم قرآناً وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم ، ويبعث سرايا أخرى ، فذلك قوله ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ يقول : ليعلموا ما أنزل الله على نبيهم ، وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ نزلت هذه الآية في أناس من الصحابة خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً ، ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى ، فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً ، وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي ﷺ، فقال الله عز وجل ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة﴾ يبغون الخير ﴿ليتفقهوا في الدين ﴾ وليستمعوا ما في الناس ، وما أنزل الله ، فعذرهم ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ الناس كلهم إذا رجعوا إليهم .

(١٢٣) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

أمر الله تعالى المؤمنين أن يقاتلوا الكفار أولاً فأولاً ، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام . وقوله ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجد الكفار منكم غلظة عليهم في قتالكم لهم ، فإن المؤمن الكامل هو الذي يكون رفيقاً لأخيه المؤمن ، غليظاً على عدوه الكافر . ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ أي قاتلوا الكفار وتوكلوا على الله ، واعلموا أن الله معكم إذا اتقيتموه وأطعتموه .

(١٢٤) ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ فمن المنافقين ﴿ من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ أي يقول بعضهم لبعض ذلك فقال تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾ وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص ، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء ، بل حكى غير واحد الإجماع على ذلك .

(١٢٥) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض . . . ﴾ أي زادتهم شكاً إلى شكهم ، وريباً إلى ريبهم . قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ وقال ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وهذا من جملة شقائهم ، أن ما يهدي القلوب يكون سبباً لضلالهم ودمارهم ، كما أن سيء المزاج لو غذي بما غذي به لا يزيده إلا خبالاً ونقصاً .

(١٢٦) ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

أولا يرى هؤلاء المنافقون ﴿ أنهم يفتنون ﴾ أي يختبرون ﴿ في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ أي لا يتوبون من ذنوبهم السالفة ، ولا هم يذكرون فيما يستقبل من أحوالهم ، قال مجاهد : يختبرون بالسنة والجوع وقال قتادة : بالغزو في السنة مرة أو مرتين . وفي الحديث عن أنس : « لا يزداد الأمر إلا شدة ، ولا يزداد الناس إلا شحّاً ، وما من عام إلا والذي بعده شر منه » سمعته من نبيكم ﷺ .

(١٢٧) ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

هذا أيضاً إخبار عن المنافقين أنهم إذا أنزلت سورة على رسول الله ﷺ ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ أي تلفتوا ﴿ هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ﴾ أي تولوا عن الحق ، وانصرفوا عنه ، وهذا حالهم في الدنيا ، لا يثبتون عند الحق ، ولا يقبلونه ولا يفهمونه ، كقوله تعالى ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة ﴾ .

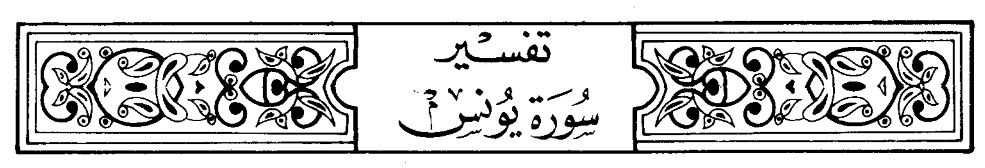
(١٢٨) ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم ، أي من جنسهم ،

وعلى لغتهم ، كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم ﴾ وقال ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً منهم ﴾ وقوله ﴿ من أنفسكم ﴾ أي منكم وبلغتكم ، كما قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى : إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته ومدخله ومخرجه وصدقه وأمانته . أو ﴿ من أنفسكم ﴾ لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، قال ﷺ « خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولد في أبي وأمي ، ولم يمسني من سفاح الجاهلية شيء » وقوله ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أي يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ، ويشق عليها ، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق أنه قال : « بعثت بالحنيفية السمحة » وفي الصحيح « إن هذا الدين يسر ، وشريعته سهلة سمحة كاملة يسيرة على من يسرها الله تعالى عليه » ﴿ حريص عليكم ﴾ أي على هدايتكم ، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم . وقوله بالمؤمنين ﴿ رؤوف رحيم ﴾ كقوله ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ .

(١٢٩) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ فإن تولوا ﴾ أي تولوا عما جئتهم به من الشريعة العظيمة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿ فقل حسبي الله لا إله إلا هو ﴾ أي الله كافي . ﴿ لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ كما قال تعالى ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو ﴾ ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ أي هو مالك كل شيء وخالقه ، لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش ، مقهورون بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل .



تفسير سورة يونس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

أما الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم الكلام عليها في أوائل سورة البقرة ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ أي هذه آيات القرآن المحكم المبين .

(٢) ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ أكان للناس عجباً . . . ﴾ يقول تعالى منكراً على من تعجب من الكفار ، ومن إرسال المرسلين من البشر كما أخبر تعالى عن القرون الماضية في قولهم ﴿ أبشر يهدوننا ﴾ ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴾ قال الضحاك عن ابن عباس : لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً . . . ﴾ وقوله ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ سبقت لهم السعادة في الذكر الأول ، أو أجراً حسناً بما قدموا ، أو الأعمال الصالحة : صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم ، ومحمد ﷺ يشفع لهم . وقوله ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ أي مع أنا بعثنا إليهم رسولاً منهم ، رجلاً من جنسهم بشيراً ونذيراً ، ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ أي ظاهر ، وهم الكاذبون في ذلك .

(٣) ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه رب العالم جميعه ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، قيل : هذه الأيام ، وقيل : كل يوم كألف سنة مما تعدون ، والعرش أعظم مخلوقاته وسقفها . وقوله ﴿ يدبر الأمر ﴾ أي يدبر الخلائق ﴿ لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ﴾ ولا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ، ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير في الجبال والبحار والعمران والقفار ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقوله ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ كقوله تعالى ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقوله ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ أي أفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أيها المشركون في أمركم ، تعبدون مع الله إلّهاً غيره ، وأنتم تعلمون أنه المتفرد بالخلق ، كقوله تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ .

(٤) ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ

ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أن إليه مرجع الخلائق يوم القيامة ، لا يترك منهم أحداً حتى يعيده كما بدأه ، ثم ذكر تعالى أنه كما بدأ الخلق كذلك يعيده ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ﴾ أي بالعدل والجزاء الأوفى ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم يعذبون يوم القيامة بأنواع العذاب من سموم وحميم ، وظل من يحموم ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج ﴾ ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ .

(٥) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ، وأنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء ، وجعل شعاع القمر نوراً ، هذا فن ، وهذا فن آخر ، ففاوت بينهما لئلا يشتبها ، وجعل سلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل ، وقدر القمر منازل ، فأول ما يبدو صغيراً ، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوثق ، ويكمل إبداره ، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر ، كقوله تعالى ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ وقوله تعالى ﴿ والشمس والقمر حسباناً ﴾ وقوله في هذه الآية الكريمة ﴿ وقدره ﴾ أي القمر ﴿ منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فبالشمس تعرف الأيام ، وبسير القمر تعرف الشهور والأعوام ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي لم يخلقه عبثاً ، بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة كقوله تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ وقوله ﴿ نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يعلمون ﴾

(٦) ﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ أي في تعاقبهما ، إذا جاء هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب هذا جاء هذا ، لا يتأخر عنه شيئاً ، كقوله تعالى ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ وقوله ﴿ وما خلق الله في السموات والأرض ﴾ أي من الآيات الدالة على عظمته تعالى ، كقوله ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ وقال ههنا

﴿ لآيات لقوم يتقون ﴾ أي عقاب الله وسخطه وعذابه .

(٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾

(٨) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ، ولا يرجون في لقائه شيئاً ، ورضوا بهذه الحياة الدنيا واطمأنت إليها نفوسهم . قال الحسن : والله ما زينوها ولا رفعوها حتى رضوا بها وهم غافلون عن آيات الله الكونية فلا يتفكرون فيها ، والشرعية فلا يأتمرون بها ، بأن مأواهم يوم معادهم النار جزاء على ما كانوا يكسبون في دنياهم من الآثام والخطايا والأجرام مع ما هم فيه من الكفر بالله ورسوله واليوم الآخر .

(٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

هذا إخبار عن حال السعداء الذين آمنوا بالله ، وصدقوا المرسلين ، وامتثلوا ما أمروا به ، فعملوا الصالحات بأنه سيهديهم بإيمانهم . قال ابن جريج : يمثل له عمله في صورة حسنة طيبة ، إذا قام من قبره يعارض صاحبه ، ويبشره بكل خير ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك ، فيجعل له من بين يديه حتى يدخله الجنة ، فذلك قوله تعالى ﴿ يهديهم ربهم بإيمانهم . . . ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة فيلزم صاحبه ، ويلاذه حتى يقذفه في النار .

(١٠) ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ دعواهم فيها سبحانك . . . ﴾ أي هذا حال أهل الجنة ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ وقوله ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قليلاً سلاماً سلاماً ﴾ وقوله ﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ وقوله ﴿ أن الحمد لله رب العالمين ﴾ هذا فيه دلالة على أنه تعالى هو المحمود أبداً ، المعبود على طول المدى ، ولهذا حمد نفسه عند ابتداء خلقه واستمراره ، وفي ابتداء كتابه ، وعند ابتداء نزوله حيث قال ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ﴾ وقال ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ ولهذا جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس » . وإنما يكون

ذلك كذلك لما يرون من تزايد نعم الله عليهم فتكرر وتعاد وتزداد ، فليس لها انقضاء ولا أمد ، فلا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١١) ﴿ * وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم أو أموالهم أو أولادهم بالشر في حال ضجرهم وغضبهم ، وأنه يعلم منهم عدم القصد إلى إرادة ذلك ، فلهذا لا يستجيب لهم ، والحالة هذه لطفاً ورحمة كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم ، أو لأموالهم ، أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء ، ولهذا قال ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم . . . ﴾ أي لو استجاب لهم كلما دعوه به في ذلك لأهلكهم ، ولكن لا ينبغي الاكثار من ذلك ، فقد روى البزار عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم ، لا تدعوا على أولادكم ، لا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم » ورواه أبو داود . وهذا كقوله تعالى ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولاً ﴾ وذلك كقول الإنسان لولده أو ماله إذا غضب عليه : اللهم لا تبارك فيه والعنه ، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب لهم في الخير لأهلكهم .

(١٢) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وضجره وقلقه إذا مسه الضر كقوله ﴿ وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ﴾ أي كثير ، وهما في معنى واحد ، وذلك أنه إذا أصابته شدة قلق لها وجزع منها ، وأكثر الدعاء عند ذلك ، فدعا الله في كشفها ، ورفعها عنه في حال اضطجاعه ، وقعوده وقيامه ، وفي جميع أحواله ، فإذا فرج شدته ، وكشف كربته أعرض ونأى بجانبه ، وذهب كأنه ما كان به من ذلك شيء ﴿ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ ثم ذم تعالى من هذه صفته وطريقته فقال ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ فأما من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد فإنه مستثنى من ذلك كقوله تعالى ﴿ إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ﴾ وكقول الرسول ﷺ : « عجباً للمؤمن لا يقضي الله قضاء إلا كان خيراً له : إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له ، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً له ،

وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » .

(١٣) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾

(١٤) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عما أحل بالقرون الماضية في تكذيبهم الرسل فيما جاؤوهم من البينات والحجج الواضحات ، ثم استخلف الله هؤلاء القوم من بعدهم ، وأرسل إليهم رسولاً ، لينظر طاعتهم له ، واتباعهم رسوله . وفي صحيح مسلم « إن الدنيا حلو خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ؟ فاتقوا الدنيا واتقوا النساء ، فإن فتنة بني إسرائيل كانت من النساء » .

(١٥) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار من مشركي قريش الجاحدين المعرضين عنه أنهم إذا قرأ عليهم الرسول ﷺ كتاب الله ، وحججه الواضحة قالوا له : ﴿ ائت بقران غير هذا ﴾ أي رد هذا وجئنا بغيره من نمط آخر ، أو بدله إلى وضع آخر ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ أي ليس هذا إليّ ، إنما أنا عبد مأمور ، ورسول مبلغ عن الله ﴿ إن اتبع إلا ما يوحى إليّ . . . ﴾ .

(١٦) ﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

ثم قال تعالى محتجاً عليهم في صحة ما جاءهم به ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ﴾ أي هذا إنما جئتكم به عن إذن الله لي في ذلك وإرادته ومشيئته ، والدليل على أني لست أتقوله من عندي ، ولا افتريته أنكم عاجزون عن معارضته ، وأنكم تعلمون صدقي ، وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل ، لا تنتقدون علي شيئاً تغمصونني به ، ولهذا قال ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم

عقول تعرفون بها الحق من الباطل ، ولهذا سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان ومن معه فيما سأله من صفة النبي ﷺ : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال أبو سفيان : فقلت : لا . وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفرة ، وزعيم المشركين ، ومع هذا اعترف بالحق . والفضل ما شهدت به الأعداء . فقال له هرقل : فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ، ثم يذهب فيكذب على الله .

(١٧) ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى : لا أحد أظلم ولا أعتى ، ولا أشد إجراماً ﴿ ممن افترى على الله كذباً ﴾ وتقول على الله ، وزعم أن الله أرسله ولم يكن كذلك ، فليس أحداً أكبر جرماً ، ولا أعظم ظلماً من هذا ، ومثل هذا لا يخفى أمره على الأنبياء فكيف يشتبه حال هذا بالأنبياء ؟ فإن من قال هذه المقالة صادقاً أو كاذباً فلا بد أن الله ينصب عليه من الأدلة على بره أو فجوره ما هو أظهر من الشمس ، فإن الفرق بين محمد ﷺ وبين مسيلمة الكذاب لمن شاهدهما أظهر من الفرق بين وقت الضحى وبين نصف الليل في حندس الظلماء ، فمن شيم كل منهما وأفعاله وكلامه يستدل من له بصيرة على صدق محمد ﷺ وكذب مسيلمة الكذاب ، وسجاح ، والأسود العنسي . قال عبدالله بن سلام : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل الناس فكنت فيمن انجفل ، فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب ، قال : فكان أول ما سمعته يقول : « يا أيها الناس ، أفشوا السلام . وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

(١٨) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ، ولا يكون هذا أبداً ، ولهذا قال تعالى ﴿ قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ﴾ ثم نزه نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم فقال ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

(١٩) ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ

فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن هذا الشرك حادث في الناس كائن بعد أن لم يكن ، وأن الناس كلهم كانوا على دين واحد ، وهو الإسلام . وقوله ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك . . ﴾ أي لولا ما تقدم من الله تعالى أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وأنه قد أجل الخلق إلى أجل معدود لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه ، فأسعد المؤمنين ، وأعنت الكافرين .

(٢٠) ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

أي ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون : لولا أنزل على محمد آية من ربه ، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة أو أن يحول لهم الصفا ذهباً ، أو يزيح عنهم جبال مكة ، ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً ، أو نحو ذلك مما الله عليه قادر ، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله . ﴿ فقل إنما الغيب لله ﴾ أي الأمر كله لله ، وهو يعلم العواقب في الأمور . ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ أي إن كنتم لا تؤمنون حتى تشاهدوا ما سألتم فانتظروا حكم الله فيّ وفيكم . هذا مع أنهم قد شاهدوا من آياته ﷺ أعظم مما سألوا حين أشار بحضرتهم إلى القمر ليلة إبداره فانشق اثنين : فرقة من وراء الجبل ، وفرقة من دونه . وهذا أعظم من سائر الآيات الأرضية مما سألوا وما لم يسألوا ، ولو علم الله منهم أنهم سألوا ذلك استرشاداً أو تثبتاً لأجابهم .

(٢١) ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة ، والخصب بعد الجدب ، والمطر بعد القحط ، ونحو ذلك ﴿ إذا لهم مكر في آياتنا ﴾ قال مجاهد : استهزاء وتكذيب . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح على أثر سحاء كانت من الليل ، أي مطر ، ثم قال : « هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي ، مؤمن بالكواكب » وقوله ﴿ قل الله أسرع مكراً ﴾ أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الظان من المجرمين أنه ليس بمعذب ، وإنما هو في مهلة ، ثم يؤخذ على غرة منه ، والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع أفعاله ، ويحصونها عليه ، ثم

يعرضونها على عالم الغيب والشهادة: فيجازيه على الجليل والحقير والنقير والقطمير .

(٢٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ أي يحفظكم ، ويكلؤكم بحراسته ﴿ حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ﴾ فبينما هم كذلك ﴿ جاءتها ﴾ أي تلك السفن ﴿ ريح عاصف ﴾ أي شديدة ﴿ وجاءهم الموج من كل مكان ﴾ أي اغتلم البحر عليهم ﴿ وظنوا أنهم أحيط بهم ﴾ أي هلكوا ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ أي لا يدعون معه صنماً ولا وثناً ، بل يفردونه بالدعاء والابتهال ﴿ لئن أنجيتنا من هذه ﴾ أي هذه الحال ﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾ أي لا نشرك بك أحداً ، ولنفردنك بالعبادة هناك ، كما أفردناك بالدعاء هنا .

(٢٣) ﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فلما أنجاهم ﴾ أي من تلك الورطة ﴿ إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي كأن لم يكن من ذلك شيء ﴿ كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ قال تعالى ﴿ يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ، ولا تضرون به أحداً غيركم كما جاء في الحديث «ما من ذنب أجدر من أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخره الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » وقوله ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة ﴿ ثم إلينا مرجعكم ﴾ أي مصيركم ومآلكم ﴿ فننبئكم ﴾ أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(٢٤) ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وسرعة انقضائها وزوالها بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أبٍّ وقضب وغير ذلك ﴿ حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ﴾ أي زينتها الفانية ﴿ وازينت ﴾ أي حسنت بما خرج في رباها من زهور نضرة مختلفة الأشكال والألوان ﴿ وظن أهلها ﴾ الذين زرعوها وغرسوها ﴿ أنهم قادرون عليها ﴾ أي على جذاذها وحصادها . فبينما هم كذلك إذ جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها ، وأتلفت ثمارها ، ولهذا قال ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ﴾ أي يابسة بعد الخضرة والنضارة ﴿ كأن لم تغن بالأمس ﴾ أي كأنها ما كانت حيناً قبل ذلك . قال تعالى ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ﴾ ثم قال تعالى ﴿ كذلك نفصل الآيات ﴾ أي نبين الحجج والأدلة ﴿ لقوم يتفكرون ﴾ فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا عن أهلها سريعاً مع اغترارهم بها ، وتمكنهم وثقتهم بمواعيدها ونقلتها عنهم ، فإن من طبعها الهرب ممن طلبها ، والطلب لمن هرب منها .

(٢٥) ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

لما ذكر تعالى الدنيا وسرعة زوالها رغب في الجنة ودعا إليها ، وسماها دار السلام ، أي من الآفات والنقائص ، والنكبات ، فقال ﴿ والله يدعو إلى دار السلام . . . ﴾ روىٰ ابن جرير عن جابر بن عبدالله قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً فقال : « إني رأيت في المنام كأن جبريل عند رأسي ، وميكائيل عند رجليّ ، يقول أحدهما لصاحبه : اضرب له مثلاً فقال : اسمع ، سمعت أذناك ، واعقل ، عقل قلبك ، إنما مثلك ومثل أمتك كمثل ملك اتخذ داراً ، ثم بنى فيها بيتاً ، ثم جعل فيها مأدبة ، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامه ، فمنهم من أجاب الرسول ، ومنهم من تركه ، فالله الملك ، والدار الإسلام ، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد الرسول ، فمن أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة ، ومن دخل الجنة أكل منها » .

(٢٦) ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح الحسنى في الدار

الآخرة ، كقوله ﴿ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ﴾ وقوله ﴿ وزيادة ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وزيادة على ذلك أيضاً ، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم . وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم ، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه ، لا يستحقونها بعملهم ، بل بفضله وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو؟ ألم يثقل موازيننا ؟ ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويحرسنا من النار ؟ ـ قال ـ فيكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، ولا أقر لأعينهم ، وهكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة . . وعن النبي ﷺ في قوله ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ قال : « النظر إلى وجه الرحمٰن » رواه ابن جرير . وقوله ﴿ ولا ذلة ﴾ أي هوان وصغار ، أي لا يحصل لهم إهانة في الباطن ، ولا في الظاهر ، بل هم كما قال تعالى في حقهم ﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ﴾ أي نضرة في وجوههم ، وسروراً في قلوبهم ، جعلنا الله منهم بفضله ورحمته آمين .

(٢٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ، ويزدادون على ذلك ، عطف بذكر حال الأشقياء فذكر تعالى عدله فيهم ، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها ، لا يزيدهم على ذلك ﴿ وترهقهم ﴾ أي تعتريهم وتعلوهم ذلة من معاصيهم وخوفهم منها كما قال تعالى ﴿ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ﴾ وقال تعالى ﴿ ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ وقوله ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ أي مانع ، ولا واق يقيهم العذاب كقوله تعالى ﴿ يقول الإنسان يومئذٍ أين المفر . كلا لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾ وقوله ﴿ كأنما أغشيت وجوههم . . . ﴾ إخبار عن سواد وجوههم في الدار الآخرة كقوله تعالى ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون ﴾ .

(٢٨) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ

شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴾

﴿ ويوم نحشرهم ﴾ أي أهل الأرض كلهم من جن وإنس ، وبر وفاجر كقوله ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ ﴿ ثم نقول للذين أشركوا . . . ﴾ أي الزموا أنتم وهم مكاناً معيناً ، امتازوا فيه عن مقام المؤمنين ، كقوله تعالى ﴿ وامتازوا اليوم أيها المجرمون ﴾ وقوله ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ يومئذ يصدعون ﴾ وقال تعالى في هذه الآية إخباراً عما يأمر به المشركين وأوثانهم يوم القيامة ﴿ مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم . . . ﴾ أنهم أنكروا عبادتهم وتبرؤوا منهم كقوله ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ قال تعالى ﴿ إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتبعوا ﴾ .

(٢٩) ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ ﴾

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ أي ما كنا نشعر بها ، ولا نعلم بها ، وإنما كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري بكم ، والله شهيد بيننا وبينكم أنا ما دعوناكم إلى عبادتنا ، ولا أمرناكم بها ، ولا رضينا منكم بذلك ، وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره ممن لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنهم شيئاً ، ولم يأمرهم بذلك ، ولا رضي به ، ولا أراده ، بل تبرأ منهم وقت أحرج ما يكونون إليه ، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير القادر على كل شيء العليم بكل شيء ، وقد أرسل رسله ، وأنزل كتبه ، آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، ناهياً عن عبادة ما سواه كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ﴾ والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه ، وبين أحوالهم ، وأقوالهم ، ورد عليهم فيما هم فيه أتم ردٍّ .

(٣٠) ﴿ هُنَالِكَ تَبۡلُواْ كُلُّ نَفۡسٖ مَّآ أَسۡلَفَتۡۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾

﴿ هنا لك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ أي في موقف الحساب يوم القيامة تختبر كل نفس ، وتعلم ما سلف من عملها من خير وشر كقوله تعالى ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ وقوله ﴿ ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ وقوله ﴿ وردوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ أي ورجعت الأمور كلها إلى الله الحكم العدل ففصلها ، وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب عن المشركين ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ أي ما كانوا يعبدون من دون الله افتراء عليه .

(٣١) ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإلهية فقال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر فيشق الأرض شقاً بقدرته ومشيئته ، فيخرج منها حباً وعنباً وقضباً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً وفاكهة وأباً أأله مع الله ؟ فسيقولون الله ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ وقوله ﴿ أمن يملك السمع والأبصار ﴾ أي الذي وهبكم هذه القوة السامعة والقوة الباصرة ، ولو شاء لذهب بها ، ولسلبكم إياها . وقوله ﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾أي بقدرته العظيمة ومنته العميمة . وقوله ﴿ ومن يدبر الأمر ﴾ أي من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فالملك كله : العلوي والسفلي ، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان فقيرون إليه ، عبيد له ، خاضعون لديه ﴿ فسيقولون الله ﴾ أي وهم يعلمون ذلك ويعترفون به ﴿ فقل أفلا تتقون ﴾ أي أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم .

(٣٢) ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

﴿ فذلكم الله ربكم الحق . . . ﴾ أي فهذا الذي اعترفتم به بأنه فاعل ذلك كله هو ربكم ، وإلهكم الحق الذي يستحق أن يفرد بالعبادة ﴿ فماذا بعد الحق إلا الضلال ﴾ أي فكل معبود سواه باطل ، لا إله إلا هو ، واحد لا شريك له ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة ما سواه ، وأنتم تعلمون أنه الرب الذي خلق كل شيء ، والمتصرف في كل شيء .

(٣٣) ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ كذلك حقت كلمة ربك . . . ﴾ أي كما كفر هؤلاء المشركون ، واستمروا على شركهم وعبادتهم مع الله غيره ، مع أنهم يعترفون بأنه الخالق الرزاق المتصرف في الملك وحده ، الذي بعث رسله بتوحيده ، فلهذا حقت عليهم كلمة الله أنهم أشقياء من ساكني النار ، كقوله ﴿ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ .

(٣٤) ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

وهذا إبطال لدعواهم فيما أشركوا بالله غيره ، وعبدوا من الأصنام والأنداد ﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ﴾ ؟ أي من بدأ خلق هذه السموات والأرض ، ثم ينشىء ما فيهما من الخلائق ، ويفرق أجرام السموات والأرض ، ويبدلهما بفناء ما فيهما ، ثم يعيد الخلق خلقاً جديداً ﴿ قل الله ﴾ هو الذي يفعل هذا ، ويستقل به وحده لا شريك له ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تصرفون عن طريق الله الرشد إلى الباطل .

(٣٥) ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

﴿ قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق . . . ﴾ أي أنتم تعلمون أن شركاءكم لا تقدر على هداية ضال ، وإنما يهدي الحيارى والضلال ، ويقلب القلوب من الغي إلى الرشد الله الذي لا إله إلا هو ﴿ أفمن يهدي إلى الحق . . ﴾ أي أفيتبع العبد الذي يهدي إلى الحق ويبصر بعد العمى ، أم الذي لا يهدي إلى شيء إلا أن يهدى لعماه وبكمه ؟ كما قال تعالى إخباراً عن إبراهيم أنه قال ﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً ﴾ وقوله ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ أي فما بالكم أن يذهب بعقولكم ، كيف سويتم بين الله ، وبين خلقه ، وعدلتم بهذا وعبدتم هذا وهذا ؟ وهلا أفردتم الرب جل جلاله المالك الحاكم الهادي من الضلالة بالعبادة وحده . وأخلصتم إليه الدعوة والإنابة .

(٣٦) ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

ثم بين تعالى أنهم لا يتبعون في دينهم هذا دليلاً ولا برهاناً ، وإنما هو ظن منهم ، أي توهم وتخيل ، وذلك لا يغني عنهم شيئاً ﴿ إن الله عليم بما يفعلون ﴾ تهديد لهم ، ووعيد شديد ، لأنه تعالى أخبر أنه سيجازيهم على ذلك أتم الجزاء .

(٣٧) ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

هذا بيان لاعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثله ، ولا بعشر سور ، ولا

بسورة من مثله ، لأنه بفصاحته وبلاغته ، ووجازته وحلاوته ، واشتماله على المعاني العزيزة الغزيرة النافعة في الدنيا والآخرة لا يكون إلا من عند الله الذي لا يشبهه شيء في ذاته ، ولا في صفاته ولا في أفعاله وأقواله ، فكلامه لا يشبه كلام المخلوقين ، ولهذا قال ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﴾ أي مثل هذا القرآن لا يكون إلا من عند الله ، ولا يشبه هذا كلام البشر ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة ، ومهيمناً عليها ، ومبيناً لما وقع فيها من التحريف والتأويل والتبديل . وقوله ﴿ وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ أي وبينا الأحكام والحلال والحرام بياناً شافياً كافياً حقاً لا مرية فيه من الله رب العالمين . فعن علي بن أبي طالب « فيه خبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم » أي خبّر عما سلف ، وعما سيأتي ، وحكم فيما بين الناس بالشرع الذي يحبه الله ويرضاه .

﴿٣٨﴾ ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ أم يقولون افتراه . . . ﴾ أي أن ادعيتم وافتريتم وشككتم في أن هذا من عند الله ، وقلتم كذباً وميناً : إن هذا من عند محمد بشر مثلكم وقد جاء فيما زعمتم بهذا القرآن ، فأتوا أنتم بسورة مثله ، أي من جنس هذا القرآن ، واستعينوا على ذلك بكل من قدرتم عليه من إنس وجان ، وهذا هو المقام الثالث في التحدي ، فإنه تعالى تحداهم إن كانوا صادقين في دعواهم أنه من عند محمد فليأتوا بمثله ، وليستعينوا بمن شاؤ وا فقال تعالى ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ ثم تقاصر معهم إلى عشر سور منه فقال ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ ثم تنازل إلى سورة فقال في هذه السورة ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ هذا وقد كانت الفصاحة من سجاياهم ، وأشعارهم ومعلقاتهم إليها المنتهى في هذا الباب ، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به ، ولهذا آمن من آمن منهم بما عرف من بلاغة هذا الكلام ، وحلاوته وجزالته ، وطلاوته وإفادته وبراعته ، فكانوا أعلم الناس به ، وأفهمهم له ، وأتبعهم له ، وأشدهم له انقياداً ، كما عرف السحرة بعلمهم بفنون السحر أن هذا الذي فعله موسى عليه السلام لا يصدر إلا عن مؤيد مسدد مرسل من عند الله ، وأن هذا لا يستطاع لبشر إلا بإذن الله ، وكذلك

عيسى عليه السلام بعث في زمان علماء الطب ، ومعالجة المرض فكان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله ، ومثل هذا لا مدخل للعلاج والدواء فيه ، فعرف من عرف منهم أنه عبد الله ورسوله . ولهذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ : « ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً » .

(٣٩) ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ يقول : بل كذب هؤلاء بالقرآن ولم يفهموه ولا عرفوه ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ أي ولم يحصلوا ما فيه من الهدى ودين الحق إلى حين تكذيبهم به جهلاً وسفهاً ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم السالفة ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي فانظر كيف أهلكناهم بتكذيبهم رسلنا ظلماً وعلواً وكفراً وعناداً وجهلاً ، فاحذروا أيها المكذبون أن يصيبكم ما أصابهم .

(٤٠) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ أي من هؤلاء الذين بعثت إليهم يا محمد من يؤمن بهذا القرآن ، ويتبعك وينتفع بما أرسلت به ﴿ ومنهم من لا يؤمن به ﴾ بل يموت على ذلك ويبعث عليه ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ أي وهو أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ومن يستحق الضلالة فيضله ، وهو العادل الذي لا يجور ، بل يعطي كلاً ما يستحقه . تبارك وتعالى ، وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو .

(٤١) ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : وإن كذبك هؤلاء المشركون فتبرأ منهم ومن عملهم ﴿ فقل لي عملي ولكم عملكم ﴾ كقوله تعالى ﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . . . ﴾ وقال إبراهيم الخليل عليه السلام وأتباعه لقومهم المشركين ﴿ إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، وفي هذا كفاية عظيمة ، ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم ، وهو الأطرش فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء إلا أن يشاء الله .

(٤٣) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي ينظرون إليك ، وإلى ما أعطاك الله من التؤدة والسمت الحسن ، والخلق العظيم ، والدلالة الظاهرة على نبوتك لأولي البصائر والنهى ، وهؤلاء ينظرون كما ينظر غيرهم ، ولا يحصل لهم من الهداية شيء كما يحصل لغيرهم ، بل المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار ، وهؤلاء الكفار ينظرون إليك بعين الاحتقار ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ .

(٤٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لا يظلم أحداً شيئاً ، وإن كان قد هدى به من هدى ، وبصر به من العمي ، وفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وأضل به عن الإيمان آخرين ، فهو الحاكم المتصرف في ملكه بما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون لعلمه وحكمته وعدله ، ولهذا قال ﴿ إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴾ وفي الحديث عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » .

(٤٥) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى مذكراً للناس قيام الساعة ، وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة ﴿ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار . . . ﴾ كقوله ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ وكقوله ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذٍ زرقاً . يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً . نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ﴾ وقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ﴾ وهذا كله دليل على استقصار

الحياة الدنيا في الآخرة كقوله ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ وقوله ﴿ يتعارفون بينهم ﴾ أي يعرف الأبناء والآباء ، والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ، ولكن كل مشغول بنفسه ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ ﴿ ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم ﴾ وقوله ﴿ قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله . . . ﴾ كقوله ﴿ ويل للمكذبين ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين ، ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة .

(٤٦) ﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لرسوله ﷺ ﴿ وإما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ أي ننتقم منهم في حياتك لتقر عينك منهم ﴿ أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم ، والله شهيد على أفعالهم بعدك . وقد روى الطبراني عن النبي ﷺ قال : « عرضت على أمتي البارحة لدى هذه الحجرة : أولها وآخرها » فقال رجل : يا رسول الله ، عرض عليك من خلق ، فكيف من لم يخلق ؟ فقال : « صوروا لي في الطين حتى إني لأعرف بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه » .

(٤٧) ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ قضي بينهم بالقسط ﴾ فكل أمة تعرض على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير وشر ، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً : أمة بعد أمة ، وهذه الأمة ، وإن كانت آخر الأمم في الخلق إلا أنها أول من يفصل بينهم ويقضى لهم ، وفي الصحيحين « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، المقضي لهم قبل الخلائق » فأمته ﷺ إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

(٤٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر هؤلاء المشركين في استعجالهم العذاب ، وسؤالهم عن وقته مما لا فائدة لهم فيه كقوله ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها

ويعلمون أنها الحق ﴾ أي كائنة لا محالة ، وواقعة ، وإن لم يعلموا وقتها عيناً .

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ (٤٩)

ولهذا أرشد تعالى رسوله ﷺ إلى جوابهم فقال ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ أي لا أقول إلا ما علمني ، ولا أقدر على شيء مما استأثر به إلا أن يطلعني الله عليه ، فأنا عبده ورسوله إليكم ، وقد أخبرتكم بمجيء الساعة ، وأنها كائنة ، ولم يطلعني على وقتها ، ولكن ﴿ لكل أمة أجل ﴾ أي لكل قرن مدة من العمر مقدرة ، فإذا انقضى أجلهم ﴿ فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ .

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (٥٠)

ثم أخبر أن عذاب الله سيأتيهم بغتة فقال ﴿ قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ؟ أي ليلاً أو نهاراً ﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ .

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ (٥١)

﴿ أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون ﴾ يعني أنهم إذا جاءهم العذاب قالوا ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴾ (٥٢)

﴿ ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد ﴾ أي يوم القيامة ، يقال لهم هذا تبكيتاً وتقريعاً ، كقوله ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

﴿ * وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴾ (٥٣)

يقول تعالى : ﴿ويستنبئونك﴾ أي ويستخبرونك ﴿ أحق هو ﴾ أي المعاد والقيامة من

الأجداث بعد صيرورة الأجسام تراباً ؟ ﴿ قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ أي ليس صيرورتكم تراباً بمعجز الله عن إعادتكم كما بدأكم من العدم ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان ، يأمر الله تعالى رسوله أن يقسم به على من أنكر المعاد في سورة سبأ ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ وفي التغابن ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

(٥٤) ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ثم أخبرنا تعالى أنه إذا قامت القيامة يود الكافر لو افتدى من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط ﴾ أي بالحق ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ .

(٥٥) ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(٥٦) ﴿ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأن وعده حق كائن لا محالة ، وأنه يحيي ويميت وإليه مرجعهم ، وأنه القادر على ذلك العليم بما تفرق من الأجسام ، وتمزق في سائر أقطار الأرض والبحار والقفار .

(٥٧) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما أنزله من القرآن العظيم على رسوله الكريم ﴿ يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ﴾ أي زاجر عن الفواحش ﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾ أي من الشبه والشكوك ، وهو إزالة ما فيها من رجس ودنس ﴿ وهدى ورحمة ﴾ للمؤمنين أي يحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى ، وإنما ذلك للمؤمنين به ، والمصدقين الموقنين بما فيه كقوله تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ وقوله ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في

آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ .

(٥٨) ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ أي بهذا الذي جاءهم من الله من الهدى ودين الحق فليفرحوا ، فإنه أولى ما يفرحون به ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ أي من حطام الدنيا وما فيها من الزهرة الفانية الذاهبة لا محالة .

(٥٩) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايل ، كقوله تعالى ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ﴾ .

(٦٠) ﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ﴾ أي ما ظنهم أن نصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة ؟ وقوله ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ في تركه معاجلتهم بالعقوبة في الدنيا ، ويحتمل أن يكون المراد لذو فضل على الناس فيما أباح لهم مما خلقه من المنافع في الدنيا ، ولم يحرم عليهم إلا ما هو ضار لهم في دنياهم أو دينهم ﴿ ولكن أكثرهم لا يشكرون ﴾ بل يحرمون ما أنعم الله به عليهم ويضيقون على أنفسهم ، فيجعلون بعضاً حلالاً وبعضاً حراماً ، وهذا قد وقع فيه المشركون فيما شرعوه لأنفسهم ، وأهل الكتاب فيما ابتدعوه في دينهم . روى ابن أبي حاتم في تفسير هذه الآية قال : « إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله عز وجل فيقومون بين يدي الله عز وجل ثلاثة أصناف ، فيؤتى برجل من الصنف الأول ، فيقول : عبدي لماذا عملت ؟ فيقول : يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها ، وما أعددت لأهل طاعتك فيها ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري ، شوقاً إليها ، قال : فيقول الله تعالى : عبدي إنما عملت للجنة ، هذه الجنة فادخلها ، ومن فضلي عليك قد أعتقتك من النار ، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي ، فيدخل هو ومن معه الجنة ، قال : ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني ، فيقول : عبدي لماذا عملت ؟ فيقول : يا رب ، قد خلقت ناراً ، وخلقت

أغلالها وسعيرها ، وسمومها ويحمومها ، وما أعددت لأعدائك ، وأهل معصيتك فيها ، فأسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري خوفاً منها ، فيقول : عبدي ، إنما عملت ذلك خوفاً من ثأري ، فإني قد أعتقتك من النار ، ومن فضلي عليك أن أدخلك جنتي ، فيدخل هو ومن معه الجنة ، ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث ، فيقول : عبدي ، لماذا عملت ؟ فيقول : رب حباً لك ، وشوقاً إليك ، وعزتك لقد أسهرت ليلي ، وأظمأت نهاري شوقاً إليك ، وحباً لك ، فيقول تبارك وتعالى : عبدي إنما عملت حباً لي ، وشوقاً إليّ ، فيتجلى له الرب جل جلاله ، ويقول : ها أنا ذا ، فانظر إليّ ، ثم يقول : من فضلي عليك أن أعتقك من النار ، وأبيحك جنتي ، وأزيرك ملائكتي ، وأسلم عليك بنفسي ، فيدخل هو ومن معه الجنة .

(٦١) ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

يخبر تعالى نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله ، وأحوال أمته ، وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة ، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض ، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ أي إذ تأخذون في ذلك الشيء ، نحن مشاهدون لكم وراءون سامعون ، ولهذا قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٦٢) ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(٦٣) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا ، وكانوا يتقون ، كما فسرهم به ، فكل من كان تقياً كان لله ولياً ، وأولياء الله ﴿ لا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلون من أهوال الآخرة ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما ورائهم في الدنيا . قال عبدالله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السلف : أولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله ، وقد ورد هذا في حديث مرفوع رواه البزار قال : قال رجل : يا رسول الله ، من أولياء الله ؟ قال : « الذين إذا رؤوا ذكر الله » وروى ابن جرير عن أبي هرية رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن من عباد الله

عباداً يغبطهم الأنبياء والشهداء » قيل : من هم يا رسول الله ، لعلنا نحبهم ؟ قال : « هم قوم تحابوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » ثم قرأ ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

﴿٦٤﴾ ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ : في هذه الآية : « الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له » . وفي حديث آخر رواه ابن جرير زيادة « وهي في الآخرة الجنة » ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أي هذا الوعد لا يبدل ولا يخلف ولا يغير بل هو مقرر مثبت كائن لا محالة ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

﴿٦٥﴾ ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ ولا يحزنك ﴾ يا محمد قول هؤلاء المشركين ، واستعن بالله عليهم ، وتوكل عليه ، فإن العزة لله جميعاً ، أي جميعها له ولرسوله وللمؤمنين ﴿ هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بأحوالهم .

﴿٦٦﴾ ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، وأن المشركين يعبدون الأصنام ، وهي لا تملك شيئاً ، ولا ضراً ولا نفعاً ، ولا دليل لهم على عبادتها ، بل إنما يتبعون في ذلك ظنونهم وتخرصهم ، وكذبهم وإفكهم .

﴿٦٧﴾ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

ثم أخبر أنه الذي جعل لعباده الليل والنهار ليسكنوا فيه ، أي يستريحون فيه من نصبهم وكلامهم وحركاتهم ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي مضيئاً لمعاشهم وسعيهم وأسفارهم ومصالحهم ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أي يسمعون هذه الحجج والأدلة فيعتبرون بها ، ويستدلون على عظمة خالقها ، ومقدرها ومسيرها .

(٦٨) ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على من ادعى أن له ﴿ ولداً سبحانه هو الغني ﴾ أي تقدس عن ذلك ، هو الغني عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير إليه ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ إنكار ووعيد أكيد ، وتهديد شديد كقوله سبحانه ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً . أن دعوا للرحمن ولداً . وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ .

(٦٩) ﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

ثم توعد تعالى الكاذبين عليه ، المفترين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة ، فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ثم يضطرهم إلى عذاب غليظ .

(٧٠) ﴿ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾

كما قال هنا ﴿ متاع قليل ﴾ أي مدة قريبة ﴿ ثم إلينا مرجعهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد ﴾ أي الموجع المؤلم ﴿ بما كانوا يكفرون ﴾ أي بسبب كفرهم وافترائهم وكذبهم على الله فيما ادعوه من الكذب والزور .

(٧١) ﴿ * وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلواته وسلامه عليه ﴿ واتل عليهم ﴾ أي أخبرهم ، واقصص عليهم ، أي على كفار مكة الذين يكذبونك ، ويخالفونك ﴿ نبأ نوح ﴾ أي خبره مع قومه الذين كذبوه ، كيف أهلكهم الله ، ودمرهم بالغرق أجمعين عن آخرهم ليحذر هؤلاء أن يصيبهم

من الهلاك والدمار ما أصاب أولئك ﴿ إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم ﴾ أي عظم عليكم ﴿ مقامي ﴾ أي فيكم بين أظهركم ﴿ وتذكيري ﴾ إياكم ﴿ بآيات الله ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿ فعلى الله توكلت ﴾ أي فإني لا أبالي ، ولا أكف عنكم سواء عظم عليكم أو لا ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ أي فاجتمعوا أنتم وشركاؤكم الذين تدعون من دون الله من صنم ووثن ﴿ ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ﴾ أي ولا تجعلوا أمركم عليكم ملتبساً ، بل افصلوا حالكم معي ، فإن كنتم تزعمون أنكم محقون فاقضوا إليّ ولا تنظرون ، أي ولا تؤخروني ساعة واحدة ، أي مهما قدرتم فافعلوا ، فإني لا أباليكم ، ولا أخاف منكم لأنكم لستم على شيء ، كما قال هود لقومه ﴿ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون إني توكلت على الله ربي وربكم ﴾ .

(٧٢) ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ فإن توليتم ﴾ أي كذبتم وأدبرتم عن الطاعة ﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي لم أطلب منكم على نصحي إياكم شيئاً ﴿ إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي وأنا ممتثل ما أمرت به من الإسلام لله عز وجل ، والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإن تعددت شرائعهم وتنوعت مناهلهم ، كما قال تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ولهذا جاء في الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات » - وهم الأخوة من أمهات شتى ، والأب واحد .

(٧٣) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه ﴾ أي على دينه ﴿ في الفلك ﴾ وهي السفينة ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ أي في الأرض ﴿ وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين ﴾ أي يا محمد ، كيف أنجينا المؤمنين ، وأهلكنا المكذبين .

(٧٤) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى ثم بعثنا من بعد نوح رسلاً إلى قومهم ﴿فجاءوهم بالبينات﴾، أي بالحجج

والأدلة والبراهين على صدق ما جاءهم به ﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أرسلوا إليهم ، كقوله تعالى ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ﴾ وقوله ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾ أي كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم هكذا يطبع الله على قلوبهم من أشبههم ممن بعدهم ، ويختم على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . والمراد أن الله تعالى أهلك الأمم المكذبة للرسل ، وأنجى من آمن بهم ، وذلك من بعد نوح عليه السلام ، فإن الناس كانوا من قبله من زمان آدم عليه السلام على الإسلام إلى أن أحدث الناس عبادة الأصنام ، فبعث الله إليهم نوحاً عليه السلام ، ولهذا يقول المؤمنون يوم القيامة : أنت أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . قال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ وفي هذا إنذار عظيم لمشركي العرب الذين كذبوا سيد الرسل ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، فإنه إذا كان قد أصاب من كذب بتلك الرسل ما ذكره الله تعالى من العذاب والنكال ، فماذا ظن هؤلاء ، وقد ارتكبوا أكبر من أولئك ؟ .

(٧٥) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ثم بعثنا ﴾ من بعد تلك الرسل ﴿ موسى وهارون إلى فرعون وملئه ﴾ أي قومه ﴿ بآياتنا ﴾ أي حججنا وبراهيننا ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي استكبروا عن اتباع الحق ، والانقياد له ، وكانوا قوماً مجرمين .

(٧٦) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ كأنهم قبحهم الله أقسموا على ذلك ، وهم يعلمون أن ما قالوه كذب وبهتان ، كما قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ .

(٧٧) ﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾

﴿ قال ﴾ لهم ﴿ موسى ﴾ منكراً عليهم ﴿ أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون ﴾ .

(٧٨) ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ قالوا أجئتنا لتلفتنا ﴾ أي تثنينا ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي الذين كانوا عليه ﴿ وتكون لكما ﴾أي لك ولهارون ﴿ الكبرياء ﴾ أي العظمة والرياسة ﴿ في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ . وصمم فرعون وملؤه قبحهم الله على التكذيب بما جاء به موسى وهارون ، والجحد والعناد والمكابرة حتى أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد ، وأغرقهم في صيحة واحدة أجمعين ﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ .

(٧٩) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾

أراد فرعون لعنه الله أن يبهرج على الناس ، ويعارض ما جاء به موسى عليه السلام من الحق المبين بزخارف السحرة والمشعبذين ، فانعكس عليه النظام ، ولم يحصل له ذلك المرام ، وظهرت البراهين الإلٓهية في ذلك المحفل العام ﴿ وألقي السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون ﴾ فظن فرعون أن يستنصر بالسحار على رسول عالم الأسرار ، فخاب وخسر الجنة واستوجب النار ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ .

(٨٠) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴾

﴿ فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون ﴾ وإنما قال لهم ذلك لأنهم لما اصطفوا ، وقد وعدوا من فرعون بالتقريب والعطاء الجزيل ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى ﴾ .

(٨١) ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

قال موسى لما ألقوا ﴿ ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين ﴾ .

(٨٢) ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

﴿ ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون ﴾ والآية الأخرى ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾ .

(٨٣) ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يؤمن بموسى عليه السلام مع ما جاء به من الآيات البينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الساطعات إلا قليل من قوم فرعون من الذرية ، وهم الشباب على وجل وخوف منه ، ومن ملئه أن يردوهم إلى ما كانوا عليه من الكفر ، لأن فرعون لعنه الله كان جباراً عنيداً مسرفاً في التمرد والعتو ، وكانت له سطوة ومهابة ، يخاف رعيته منه خوفاً شديداً . ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف . . . ﴾ .

(٨٤) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى أنه قال لبني إسرائيل ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ أي فإن الله كاف من توكل عليه ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين العبادة والتوكل ، كقوله تعالى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ﴿ قل هو الرحمٰن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ .

(٨٥) ﴿ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ أي لا تظفرهم بنا ، وتسلطهم علينا ، فيظنوا أنهم إنما سلطوا لأنهم على الحق ، ونحن على الباطل فيفتنوا بذلك .

(٨٦) ﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ ونجنا برحمتك ﴾ أي خلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ من القوم الكافرين ﴾ أي الذين كفروا الحق وستروه ، ونحن قد آمنا بك ، وتوكلنا عليك .

(٨٧) ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يذكر تعالى سبب إنجائه بني إسرائيل من فرعون وقومه ، وكيفية خلاصهم منهم ، وذلك أن الله تعالى أمر موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يتبوآ، أي أن يتخذا لقومهما بمصر بيوتاً . ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أمروا أن يتخذوها مساجد ، أو كانوا خائفين فأمروا أن يصلوا في بيوتهم ، وكأن هذا ـ والله أعلم ـ لما اشتد بهم البلاء من قبل فرعون وقومه ، وضيقوا عليهم أمروا بكثرة الصلاة ، كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ وفي الحديث « كان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر صلى » ولهذا قال ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين ﴾ أي بالثواب والنصر القريب . عن ابن عباس قال : قالت بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن الله لهم أن يصلوا في بيوتهم ، وأمروا أن يجعلوا بيوتهم قِبَلَ القبلة ، أو ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾ أي يقابل بعضها بعضاً .

(٨٨) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عما دعا به موسى عليه السلام على فرعون وملئه لما أبوا قبول الحق ، واستمروا على ضلالهم وكفرهم معاندين جاحدين ظلماً وعلواً وتكبراً وعتواً ، قال موسى ﴿ ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة ﴾ أي من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿ وأموالاً ﴾ أي جزيلة كثيرة ﴿ في ﴾ هذه ﴿ الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ أي ليفتتن بما أعطيتهم من شئت من خلقك ليظن من أغويته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم ، واعتنائك بهم ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ أي أهلكها . ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أي اطبع عليها ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ، ولا يجيء منهم شيء ، كما دعا نوح عليه السلام فقال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ .

(٨٩) ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

وقد استجاب الله تعالى لموسى عليه السلام فيهم هذه الدعوة التي أمن عليها أخوه هارون فقال تعالى ﴿ قد أجيبت دعوتكما ﴾ .

(٩٠) ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ

﴿ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

يذكر تعالى كيفية إغراقه فرعون وجنوده ، فإن بني إسرائيل لما خرجوا من مصر صحبة موسى عليه السلام ، وقد كانوا استعاروا من القبط حلياً كثيراً ، فخرجوا به معهم فاشتد حنق فرعون عليهم ﴿ فأرسل في المدائن حاشرين ﴾ يجمعون له جنوده من أقاليمه فركب وراءهم في أبهة عظيمة ، وجيوش هائلة ، لما يريده الله تعالى بهم ، ولم يتخلف عنه أحد ممن له دولة وسلطان في سائر مملكته ، فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وذلك أنهم لما انتهوا إلى ساحل البحر ، وفرعون وراءهم ، ولم يبق إلا أن يتقاتل الجمعان ، وألح أصحاب موسى عليه السلام عليه في السؤال كيف المخلص مما نحن فيه ؟ فيقول : إني أمرت أن أسلك ههنا ﴿ كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ فعندما ضاق الأمر اتسع ، فأمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه فضربه فانفلق البحر فكان كل فرق كالطود العظيم ، أي كالجبل العظيم ، وصار اثني عشر طريقاً ، لكل سبط واحد ، وأمر الله الريح فنشفت أرضه ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ وتخرّق الماء بين الطرق كهيئة الشبابيك ليرى كل قوم الآخرين لئلا يظنوا أنهم هلكوا ، وجاوزت بنو إسرائيل البحر فلما خرج آخرهم منه انتهى فرعون وجنوده إلى حافته من الناحية الأخرى ، فلما رأى ذلك هاله وأحجم وهاب ، وهم بالرجوع ، وهيهات ولات حين مناص ، نفذ القدر ، واستجيبت الدعوة ، وجاء جبريل عليه السلام على فرس فمر إلى جانب حصان فرعون فحمحم عليها ، واقتحم جبريل البحر فاقتحم الحصان وراءه ، ولم يبق فرعون يملك من أمره شيئاً ، فتجلد لأمرائه ، وقال لهم : ليس بنو إسرائيل بأحق بالبحر منا ، فاقتحموا كلهم عن آخرهم ، وميكائيل في ساقتهم ، لا يترك منهم أحداً إلا ألحقه بهم ، فلما استوثقوا فيه ، وتكاملوا ، وهم أولهم بالخروج منه أمر الله القدير البحر أن يرتطم عليهم ، فارتطم عليهم ، فلم ينج منهم أحد ، وجعلت الأمواج ترفعهم وتخفضهم ، وتراكمت الأمواج فوق فرعون وغشيته سكرات الموت فقال : ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ فآمن حيث لا ينفعه الإيمان ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده ، وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ .

(٩١) ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

ولهذا قال الله في جواب فرعون حين قال ما قال ﴿ آلآن وقد عصيت قبل ﴾ أي أهذا

الوقت تقول آمنت ، وقد عصيت الله قبل هذا فيما بينك وبينه ﴿ وكنت من المفسدين ﴾ أي في الأرض .

(٩٢) ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾

﴿ فاليوم ننجيك ﴾ أي نرفعك على نشز من الأرض ﴿ ببدنك ﴾ أي بجسدك ، أي بجسم لا روح فيه ، لم يتمزق ليتحققوه ويعرفوه ﴿ لتكون لمن خلفك آية ﴾ أي لتكون لبني إسرائيل دليلاً على موتك وهلاكك ، وأن الله القادر الذي ناصية كل دابة بيده ، وأنه لا يقوم لغضبه شيء ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ أي لا يتعظون بها ، ولا يعتبرون بها . وقد كان إهلاكهم يوم عاشوراء ، روى البخاري قال : قدم النبي ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء ، فقال : « ما هذا اليوم الذي تصومونه ؟ » فقالوا : هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون ، فقال النبي ﷺ لأصحابه : « أنتم أحق بموسى منهم فصوموه » .

(٩٣) ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ الطَّيِّبَٰتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَآءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على بني إسرائيل من النعم الدنيوية . وقوله ﴿ مبوأ صدق ﴾ قيل : هو بلاد مصر والشام مما يلي بيت المقدس ونواحيه فإن الله لما أهلك فرعون وجنوده استقرت الدولة الموسوية على بلاد مصر بكمالها ، كما قال ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ وقوله ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي الحلال من الرزق الطيب النافع المستطاب طبعاً وشرعاً . وقوله ﴿ فما اختلفوا حتى جاءهم العلم ﴾ أي ما اختلفوا في شيء من المسائل إلا من بعد ما جاءهم العلم ، أي ولم يكن لهم أن يختلفوا ، وقد بين الله لهم ، وأزال عنهم اللبس ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يفصل بينهم ﴿ يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

(٩٤) ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٩٥)

قال قتادة بن دعامة : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لا أشك ولا أسأل » وهذا فيه تثبيت للأمة ، وإعلام لهم أن صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب كما قال تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ﴾ ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٩٦)

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ (٩٧)

﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . . . . ﴾ أي لا يؤمنون إيماناً ينفعهم ، بل حين لا ينفع نفساً إيمانها، ولهذا لما دعا موسى عليه السلام على فرعون وملئه قال ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون ﴾ .

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (٩٨)

يقول تعالى فهلا كانت قرية آمنت بكمالها من الأمم السالفة الذين بعثنا إليهم الرسل ، بل ، ما أرسلنا من قبلك يا محمد من رسول إلا كذبه قومه ، أو أكثرهم ، كقوله تعالى ﴿ يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤ ون ﴾ ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ والغرض أنه لم توجد قرية آمنت بكمالها بنبيهم ممن سلف من القرى إلا قوم يونس ، وهم أهل « نينوى » وما كان إيمانهم إلا تخوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه ، وخرج رسولهم من بين أظهرهم فعندما جأروا إلى الله واستعانوا به وتضرعوا واستكانوا ، وأحضروا

أطفالهم ، ودوابهم ومواشيهم ، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم ، فعندما رحمهم الله وكشف عنهم العذاب ، وأخروا ، كما قال تعالى ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ واختلف المفسرون : هل كشف عنهم العذاب الأخروي مع الدنيوي ، أو إنما كشف عنهم في الدنيا فقط ؟ على قولين ، أرجحهما الأول .

(٩٩) ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولو شاء ربك ﴾ يا محمد لأذن لأهل الأرض كلهم في الإيمان بما جئتهم به فآمنوا كلهم ، ولكن له حكمة فيما يفعله تعالى كقوله تعالى ﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ وقال تعالى ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ أفأنت تكره الناس ﴾ أي تلزمهم وتلجئهم ﴿ حتى يكونوا مؤمنين ﴾ أي ليس ذلك عليك ، ولا إليك ، بل الله ﴿ يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ فالله هو الفعال لما يريد ، الهادي لمن يشاء ، والمضل لمن يشاء لعلمه وحكمته وعدله .

(١٠٠) ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس ﴾ وهو الخبال والضلال ﴿ على الذين لا يعقلون ﴾ أي حجج الله وأدلته ، وهو العادل في كل ذلك في هداية من هدى وإضلال من ضل .

(١٠١) ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

يرشد تعالى عباده إلى التفكر في آلائه ، وما خلق الله في السموات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الألباب ، مما في السموات من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار واختلافهما ، وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا، ثم يقصر هذا ويطول هذا، وارتفاع السماء واتساعها، وحسنها وزينتها، وما أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من أفانين الثمار والزروع والأزاهير وصنوف النبات ، وما ذرأ فيها من دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع وما فيها من جبال وسهول وقفار وعمران وخراب ، وما في البحر من العجائب والأمواج ، وهو مع هذا

مسخر مذلل للسالكين يحمل سفنهم ، ويجري بها برفق بتسخير القدير ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه . وقوله ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ أي ، وأي شيء تغني الآيات السماوية والأرضية ، والرسل بآياتها وحججها وبراهينها الدالة على صدقها عن قوم لا يؤمنون ، كقوله ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

(١٠٢) ﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

﴿ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المكذبون لك يا محمد من النقمة والعذاب إلا مثل أيام الله في الذين خلوا من قبلهم من الأمم الماضية المكذبة لرسلهم ﴿ قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ .

(١٠٣) ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا ﴾ أي ونهلك المكذبين بالرسل ﴿ كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴾ حقاً أوجبه الله على نفسه الكريمة ، كقوله ﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ وكما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله كتب كتاباً ، فهو عنده فوق العرش ، « إن رحمتي سبقت غضبي » .

(١٠٤) ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليّ فأنا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له ، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ، ثم إليه مرجعكم ، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقاً ، فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني ، فإنها لا تضر ولا تنفع ، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده ، لا شريك له ، وأمرت أن أكون من المؤمنين .

(١٠٥) ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(١٠٦) ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ وأن أقم وجهك للدين ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده ﴿ حنيفاً ﴾ أي منحرفاً عن الشرك ، ولهذا قال ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٠٧)

﴿ وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو . . . ﴾ فيه بيان أن الخير والشر ، والنفع والضر إنما هو راجع إلى الله تعالى وحده لا يشاركه في ذلك أحد ، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له . روى الحافظ ابن عساكر أن رسول الله ﷺ قال : « اطلبوا الخير دهركم كله ، وتعرضوا لنفحات ربكم ، فإن لله نفحات من رحمته ، يصيب بها من يشاء من عباده ، واسألوه أن يستر عوراتكم ، ويؤمن روعاتكم » ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ أي لمن تاب إليه ، ولو من أي ذنب كان حتى من الشرك ، فإنه يتوب عليه .

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

يقول تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن يخبر الناس أن الذي جاءهم به من عند الله هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ، فمن اهتدى به واتبعه ، فإنما يعود نفع ذلك الاتباع على نفسه ، ومن ضل عنه فإنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾ أي وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين ، وإنما أنا نذير لكم ، والهداية على الله تعالى .

﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

﴿ واتبع ما يوحى إليك واصبر ﴾ أي تمسك بما أنزل الله عليك ، وأوحاه إليك ، واصبر على مخالفة من خالفك من الناس ﴿ حتى يحكم الله ﴾ أي يفتح بينك وبينهم ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي خير الفاتحين بعدله وحكمته .



تفسير سورة هود



روى الحافظ أبو يعلى عن عكرمة قال: قال أبو بكر : سألت رسول الله ﷺ : ما شيبك ؟ قال : « شيبتني هود ، والواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة وأما قوله ﴿ أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ أي هي محكمة في لفظها ، مفصلة في معناها ، فهو كامل صورة ومعنى . وقوله ﴿ من لدن حكيم خبير ﴾ أي من عند الله الحكيم في أقواله ، وأحكامه ، خبير بعواقب الأمور .

(٢) ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾

﴿ ألا تعبدوا إلا الله ﴾ أي نزل هذا القرآن المحكم المفصل لعبادة الله وحده لا شريك له ، كقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقوله ﴿ إنني لكم منه نذير وبشير ﴾ أي إني لكم نذير من العذاب إن خالفتموه ، وبشير بالثواب إن أطعتموه ، كما جاء في الحديث الصحيح « يا معشر قريش » أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تصحبكم ، ألستم مصدقيّ ؟ » فقالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

(٣) ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾

﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه . . . ﴾ أي وآمركم بالاستغفار من الذنوب السالفة والتوبة منها إلى الله عز وجل فيما تستقبلونه ، وأن تستمروا على ذلك ﴿ يمتعكم متاعاً حسناً ﴾ أي في الدنيا ﴿ إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ أي في الدار

الآخرة ، كقوله ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ وفي الصحيح أن رسول الله قال لسعد : « وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في فيِّ امرأتك » عن ابن مسعود . في قوله ﴿ ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ قال : من عمل سيئة كتبت عليه سيئة ، ومن عمل حسنة كتبت له عشر حسنات ، فإن عوقب بالسيئة التي كان عملها في الدنيا بقيت له عشر حسنات ، وإن لم يعاقب بها في الدنيا أخذ من الحسنات العشر واحدة ، وبقيت له تسع حسنات ، ثم يقول : هلك من غلب آحاده على أعشاره وقوله ﴿ وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير ﴾ هذا تهديد شديد لمن تولى عن أوامر الله تعالى ، وكذب رسله ، فإن العذاب يناله يوم القيامة لا محالة .

(٤) ﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ إلى الله مرجعكم ﴾ أي معادكم يوم القيامة ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي ، وهو القادر على ما يشاء من إحسانه إلى أوليائه وانتقامه من أعدائه ، وإعادة الخلائق يوم القيامة ، وهذا مقام الترهيب ، كما أن الأول مقام الترغيب .

(٥) ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

قال ابن عباس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم . ﴿ يستغشون ﴾ يغطون رؤوسهم . وللآية تفسير آخر ، وهو أنهم كانوا يثنون صدورهم إذا قالوا : شيئاً ، أو عملوا شيئاً ، فيظنون أنهم يستخفون من الله بذلك ، فأخبرهم الله تعالى أنهم حين يستغشون ثيابهم عند منامهم في ظلمة الليل ﴿ يعلم ما يسرون ﴾ من القول ﴿ وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي يعلم ما تكن صدورهم من النيات والضمائر والسرائر .

(٦) ﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

أخبر تعالى أنه تكفل بأرزاق المخلوقات من سائر دواب الأرض : صغيرها وكبيرها ، بحريها وبريها ، وأنه يعلم مستقرها ومستودعها ، أي يعلم أين منتهى سيرها في الأرض ،

وأين تأوي إليه من وكرها ، وهو مستودعها ، أو مستقرها : حيث تأوي ، ومستودعها : حيث تموت ، أو مستقرها في الرحم ، ومستودعها في الصلب ، وأن جميع ذلك مكتوب في كتاب عند الله مبين عن جميع ذلك . قال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

(٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء ، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك ، وفي صحيح مسلم : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » وفي البخاري في تفسير هذه الآية أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أَنفق أُنفق عليك » وقال : « يد الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار » وقال : أفرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يغض ما في يمينه وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع » . ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي خلق السموات والأرض لنفع عباده الذين خلقهم ليعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، ولم يخلق ذلك عبثاً كقوله ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ﴾ وقال سبحانه ﴿ أيكم أحسن عملاً ﴾ ولم يقل أكثر عملاً ، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل ، وعلى شريعة رسول الله ﷺ ، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين حبط وبطل . ﴿ ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت . . . ﴾ أي ولئن أخبرت يا محمد هؤلاء المشركين أن الله سيبعثهم بعد مماتهم كما بدأهم مع أنهم يعلمون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ وهم مع هذا منكرون البعث والمعاد يوم القيامة الذي هو بالنسبة إلى القدرة أهون من البداءة . وقولهم ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي يقولون كفراً وعناداً ما نصدقك على وقوع البعث ، وما يذكر ذلك إلا من سحرته فهو يتبعك على ما تقول .

(٨) ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة . . . ﴾ أي ولئن أخرنا العذاب والمؤاخذة عن هؤلاء المشركين إلى أجل معدود ، وأمد محصور وأوعدناهم إلى مدة مضروبة ليقولُن تكذيباً واستعجالاً : ﴿ ما يحبسه ﴾ أي ما يؤخر هذا العذاب عنا ؟ فإن سجاياهم قد ألفت التكذيب والشك ، فلم يبق لهم محيص عنه ولا محيد . (والأمة) تستعمل في القرآن والسنة في معان متعددة ، فيراد بها الأمد كقوله في هذه الآية ﴿ إلى أمة معدودة ﴾ وقوله ﴿ وادَّكر بعد أمة ﴾ وتستعمل في الإمام المقتدى به كقوله ﴿ إن إبراهيم كان أمة ﴾ وتستعمل في الملة والدين ، كقوله ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة ﴾ وتستعمل في الجماعة كقوله ﴿ ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ وقوله ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ﴾ ﴿ ولكل أمة رسول ﴾ والمراد من الأمة ههنا الذين يبعث فيها الرسول مؤمنهم وكافرهم كما في صحيح مسلم « والذي نفسي بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني لا يؤمن بي إلا دخل النار » وأما أمة الاتباع فهم المصدقون للرسل كما قال تعالى ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ وفي الصحيح، فأقول : « أمتي أمتي » وتستعمل الأمة في الفرقة والطائفة كقوله تعالى ﴿ ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾ .

(٩) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾

(١٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾

(١١) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له يأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضي الحال ، كأنه لم ير خيراً ، ولم يرج بعد ذلك فرجاً . وهكذا إن أصابته نعمة بعد نقمة ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي يقول : ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ أي فرح بما في يده ، فخور على غيره . قال تعالى ﴿ إلا الذين صبروا ﴾ أي على الشدائد والمكاره ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي في الرخاء والعافية ﴿ أولئك لهم مغفرة ﴾ أي بما يصيبهم من الضراء ﴿ وأجر كبير ﴾ بما أسلفوه في زمن الرخاء ، كما جاء في الحديث « والذي نفسي بيده لا يصيب المؤمن هم ولا غم ولا نصب ولا وصب ولا حزن حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه » ولهذا قال

تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ .

(١٢) ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ وَكِيلٌ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما كان يتعنت به المشركون فيما كانوا يقولونه عن الرسول كما أخبرنا تعالى عنهم ﴿ وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ فأمر الله رسوله وأرشده إلى أن لا يضيق بذلك منهم صدره ، ولا يصدنه ذلك ولا يثنيه عن دعائهم إلى الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، كما قال تعالى ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ وقال ههنا ﴿ فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا ﴾ أي لقولهم ذلك ، فإنما أنت نذير ، ولك أسوة بإخوانك من الرسل قبلك ، فإنهم كذبوا وأوذوا فصبروا حتى أتاهم نصر الله عز وجل .

(١٣) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٖ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٖ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

ثم بين تعالى إعجاز القرآن ، وأنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله ، ولا بعشر سور مثله ، ولا بسورة من مثله ، لأن كلام الرب تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ، كما أن صفاته لا تشبه صفات المحدثات ، وذاته لا يشبهها شيء . تعالى وتقدس وتنزه ، لا إله إلا هو ولا رب سواه .

(١٤) ﴿ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ أي فإن لم يأتوا بمعارضة ما دعوتهم إليه فاعلموا أنهم عاجزون عن ذلك ، وأن هذا الكلام منزل من عند الله ، متضمن علمه وأمره ونهيه ﴿ وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ .

(١٥) ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾

(١٦) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها . . . ﴾ : إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا ، وذلك أنهم لا يظلمون نقيراً ، يقول : من عمل صالحاً التماس الدنيا : صوماً أو صلاة ، أو تهجداً بالليل ، لا يعمله إلا التماس الدنيا ، أُوَفِّيه الذي التمس في الدنيا من المثابة ، وحبط عمله الذي كان يعمله لالتماس الدنيا ، وهو في الآخرة من الخاسرين . وقيل : نزلت في اليهود والنصارى ، وقيل : نزلت في أهل الرياء. قال تعالى: ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ وقال ﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾ .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٧)

يخبر تعالى عن حال المؤمنين الذين هم على فطرة الله تعالى التي فطر عليها عباده من الاعتراف له بأنه لا إله إلا هو كما قال تعالى ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ وفي الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه أو يمجسانه كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » وفي صحيح مسلم يقول الله تعالى : « إن خلقت عبادي حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا ما لم أنزل به سلطاناً » . ﴿ شاهد منه ﴾ أي وجاءه شاهد من الله ، وهو ما أوحاه إلى الأنبياء من الشرائع المطهرة المكملة المعظمة المختتمة بشريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ﴿ومن قبله كتاب موسى﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب موسى وهو التوراة ﴿إماماً ورحمةً﴾ أي أنزله الله تعالى إلى تلك الأمة إماماً لهم، وقدوة يقتدون بها ورحمة من الله بهم، فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن. ولهذا قال ﴿أولئك يؤمنون به﴾ ثم قال تعالى متوعداً لمن كذب بالقرآن، أو بشيء منه ﴿ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ أي ومن كفر بالقرآن من سائر أهل الأرض : مشركهم وكافرهم ، وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بني آدم على اختلاف ألوانهم وأشكالهم وأجناسهم ممن بلغه القرآن ، كما قال ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ وفي صحيح مسلم « والذي نفسي بيده لا

يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي أو نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » ﴿ فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك . . . ﴾ أي القرآن حق من الله لا مرية ولا شك فيه كما قال تعالى ﴿ ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ وقوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين ﴾ .

(١٨) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

يبين تعالى حال المفترين ، وفضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس الخلائق من الملائكة والرسل والأنبياء ، وسائر البشر والجان . وفي الصحيحين : « إن الله عز وجل يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس ويقرره بذنوبه ، ويقول : أتعرف ذنب كذا ؟ ، أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرّره بذنوبه ، ورأى في نفسه أنه قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم . ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول ﴿ الأشهاد وهؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ .

(١٩) ﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾

﴿ الذين يصدون عن سبيل الله ﴾ أي يردون الناس عن اتباع الحق ، وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله عز وجل ، ويجنبونهم الجنة ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويريدون أن يكون طريقهم عوجاً غير معتدلة ﴿ وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ أي جاحدون بها مكذبون بوقوعها وكونها .

(٢٠) ﴿ أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ۘ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء ﴾ أي بل كانوا تحت قهره وغلبته وفي قبضته وسلطانه ، وهو قادر على الانتقام منهم في الدار الدنيا قبل الآخرة ﴿ ولكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ وفي الصحيحين « إن الله ليملي

للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ولهذا قال ﴿ يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ أي يضاعف عليهم العذاب ، وذلك أن الله تعالى جعل لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء ، بل كانوا صماً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه ، كما أخبر تعالى عنهم حين دخولهم النار ، كقوله ﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ .

(٢١) ﴿ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم . . . ﴾ أي خسروا أنفسهم ، لأنهم أدخلوا ناراً حامية ، فهم معذبون فيها ، لا يفتر عنهم من عذابها طرفة عين ، كما قال تعالى ﴿ كلما خبت زدناهم سعيراً ﴾ ﴿ وضل عنهم ﴾ أي ذهب عنهم ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من دون الله من الأنداد والأصنام ، فلم تجد عنهم شيئاً ، بل ضرتهم كل الضرر .

(٢٢) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾

﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ يخبر تعالى عن مآلهم أنهم أخسر الناس صفقة في الدار الآخرة ، لأنهم استبدلوا الدركات عن الدرجات ، واعتاضوا عن نعيم الجنان بحميم آن ، وعن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم وظل من يحموم ، وعن الحور العين بطعام من غسلين ، وعن القصور العالية بالهاوية ، وعن قرب الرحمٰن ، ورؤيته بغضب الديان وعقوبته ، فلا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

(٢٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات فآمنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة قولاً وفعلاً من الاتيان بالطاعات ، وترك المنكرات ، وبهذا ورثوا الجنات المشتملة على الغرف العاليات ، والسرر المصفوفات ، والقطوف الدانيات ، والفرش المرتفعات ، والحسان والخيرات ، والفواكه المتنوعات ، والمآكل المشتهيات ، والمشارب المستلذات ، والنظر إلى خالق الأرض والسموات ، وهم في ذلك خالدون لا يموتون ولا يهرمون ولا يمرضون ، وينامون ولا يتغطون ولا يبصقون ولا يتمخضون ، إن هو إلا رشح مسك يعرقون .

(٢٤) ﴿ * مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ مثل الفريقين ﴾ الذين وصفهم أولاً بالشقاء ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع ، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة ، لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن سماع الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ وأما المؤمن ففطن ذكي ، لبيب بصير بالحق ، يميز بينه وبين الباطل ، فيتبع الخير ، ويترك الشر ، سميع للحجّة ، يفرق بينها وبين الشبه ، فلا يروح عليه باطل ، فهل يستوي هذا وهذا ؟! ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أفلا تعتبرون فتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء ، كما قال تعالى ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

(٢٦) ﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض من المشركين عبدة الأصنام أنه قال لقومه ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ أي ظاهر النذارة لكم من عذاب الله ، إن أنتم عبدتم غير الله ، ولهذا قال ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ وقوله ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم ﴾ أي إن استمررتم على ما أنتم عليه عذبكم الله عذاباً أليماً موجعاً شاقاً في الدار الآخرة .

(٢٧) ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾

﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ والملأ هم السادة والكبراء من الكافرين منهم ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلنا ﴾ أي لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا ، ثم ما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا كالباعة والحاكة وأشباههم ، ولم يتبعك الأشراف ، ولا الرؤساء منا ، ثم هؤلاء الذين اتبعوك لم يكن عن تروٍّ منهم ولا فكر ، ولا نظر ، بل بمجرد ما دعوتهم أجابوك فاتبعوك ، ولهذا قالوا ﴿ بادىء الرأي ﴾ أي في أول بادىء ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ يقولون : ما رأينا لكم علينا فضيلة في خلق ولا خلق ، ولا رزق ولا حال ، لما دخلتم في دينكم هذا ﴿ بل نظنكم كاذبين ﴾ أي فيما تدعونه لكم من البر والصلاح ، والعبادة والسعادة في الدار الآخرة : إذ صرتم إليها . هذا اعتراض

الكافرين على نوح عليه السلام وأتباعه ، وهو دليل على جهلهم وقلة علمهم وعقلهم ، فإنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، فإن الحق في نفسه صحيح ، سواء اتبعه الأشراف ، أو الأراذل ، بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأراذل ، ولو كانوا أغنياء ، ثم الواقع غالباً أن ما يتبع الحق ضعفاء الناس ، والغالب على الأشراف والكبراء مخالفته ، كما قال ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان صخر بن حرب عن صفات النبي ﷺ قال له : أشراف الناس اتبعوه أو ضعفاؤهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم . فقال هرقل : هم أتباع الرسل . وقوله ﴿ بادىء الرأي ﴾ ليس بمذمة ولا عيب ، لأن الحق إذا وضح لا يبقى للرأي ولا للفكر مجال ، بل لا بد من اتباع الحق ، والحالة هذه لكل ذي زكاء وذكاء ، بل لا يفكر ههنا إلا غبي أو عيي . والرسل صلوات الله عليهم أجمعين . إنما جاؤوا بأمر جلي واضح . وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة غير أبي بكر فإنه لم يتلعثم » أي ما تردد ولا تروَّى ، لأنه رأى أمراً جلياً عظيماً واضحاً ، فبادر إليه وسارع . وقوله ﴿ وما نرى لكم علينا من فضل ﴾ هم لا يرون ذلك لأنهم عمي عن الحق ، لا يسمعون ولا يبصرون ، بل هم في ريبهم يترددون في ظلمات الجهل يعمهون ، وهم الأفاكون الكذابون الأقلون الأرذلون ، وفي الآخرة هم الأخسرون .

(٢٨) ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما رد به نوح على قومه في ذلك ﴿ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ أي على يقين وأمر جلي ونبوة صادقة ، وهي الرحمة العظيمة من الله به وبهم ﴿ فعميت عليكم ﴾ أي خفيت عليكم فلم تهتدوا إليها ، ولا عرفتم قدرها ، بل بادرتم إلى تكذيبها وردها ﴿ أنلزمكموها ﴾ أي نغصبكم بقبولها ، وأنتم لها كارهون .

(٢٩) ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴾

(٣٠) ﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

يقول لقومه: لا أسألكم على نصحي لكم مالاً: أي أجرة آخذها منكم، إنما أبتغي الأجر من الله عز وجل ﴿ وما أنا بطارد الذين آمنوا ﴾ كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم كما سأل أمثالهم خاتم النبيين ﷺ أن يطرد عنهم جماعة من الضعفاء ويجلس معهم مجلساً خاصاً فأنزل الله ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ .

(٣١) ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبرهم أن رسول الله يدعو إلى عبادة الله وحده، لا شريك له، بإذن الله له في ذلك، ولا يسألهم على ذلك أجراً، بل يدعو من لقيه من شريف ووضيع، فمن استجاب له فقد نجا، ويخبرهم أنه لا قدرة له على التصرف في خزائن الله ولا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه، وليس هو بملك من الملائكة، بل هو بشر مرسل، مؤيد بالمعجزات، ولا أقول عن هؤلاء الذين تحتقرونهم وتزدرونهم أنهم ليس لهم عند الله ثواب على أعمالهم ﴿ الله أعلم بما في أنفسهم ﴾ فإن كانوا مؤمنين باطناً كما هو الظاهر من حالهم فلهم جزاء الحسنى، ولو قطع لهم أحد بشر بعدما آمنوا لكان ظالماً قائلاً ما لا علم له به .

(٣٢) ﴿ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال قوم نوح نقمة الله وعذابه وسخطه، والبلاء موكل بالمنطق ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴾ أي حاججتنا فأكثرت من ذلك، ونحن لا نتبعك ﴿ فأتنا بما تعدنا ﴾ أي من النقمة والعذاب، وادع علينا بما شئت فليأتنا ما تدعو به ﴿ إن كنت من الصادقين ﴾ .

(٣٣) ﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

﴿ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين ﴾ أي إنما الذي يعاقبكم ويعجلها لكم الله الذي لا يعجزه شيء .

(٣٤) ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم . . . ﴾ أي أي شيء يجدي عليكم إبلاغي لكم ، وإنذاري إياكم ونصحي ﴿ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ أي إغواءكم ودماركم ﴿ هو ربكم وإليه ترجعون ﴾ أي هو مالك أزمة الأمور ، المتصرف الحاكم العادل الذي لا يجور ، له الخلق ، وله الأمر ، وهو المبدىء المعيد مالك الدنيا والآخرة .

(٣٥) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴾

هذا كلام معترض في وسط هذه القصة ، مؤكد لها ، مقرر لها ، يقول تعالى لمحمد ﷺ : أم يقول هؤلاء الكافرون الجاحدون ، افترى هذا وافتعله من عنده ﴿ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴾ أي فإثم ذلك عليّ ﴿ وأنا بريء مما تجرمون ﴾ أي ليس ذلك مفتعلاً ولا مفترى ، لأني أعلم ما عند الله من العقوبة لمن كذب عليه .

(٣٦) ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم وعذابه لهم فدعا عليهم نوح دعوته التي قال الله تعالى مخبراً عنه أنه قال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ فعند ذلك أوحى الله إليه ﴿ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴾ فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنك أمرهم .

(٣٧) ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

﴿ واصنع الفلك ﴾ يعني السفينة ﴿ بأعيننا ﴾ أي بمرأى منا ﴿ ووحينا ﴾ أي تعليمنا لك ما تصنعه ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ .

(٣٨) ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾

﴿ ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ﴾ أي يهزؤ ون به ، ويكذبون بما يتوعدهم به من الغرق ﴿ قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم . . . ﴾ وهذا وعيد شديد ، وتهديد أكيد .

(٣٩) ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي يهينه في الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر أبداً .

(٤٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾

هذه موعدة من الله تعالى لنوح عليه السلام ، إذا جاء أمر الله من الأمطار المتتابعة والهتان الذي لا يقلع ولا يفتر ، بل هو كما قال تعالى ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر ﴾ وأما قوله ﴿ وفار التنور ﴾ التنور وجه الأرض ، أي صارت الأرض عيوناً تفور حتى فار الماء من التنانير التي هي مكان النار صارت تفور ماء . وهذا قول جمهور السلف ، وعلماء الخلف . وقيل : التنور : فلق الصبح وتنوير الفجر ، وهو ضياؤه وإشراقه ، والأول أظهر . وحين فار التنور أمر الله نوحاً أن يحمل معه في السفينة ﴿ من كل زوجين اثنين ﴾ من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح ، قيل : وغيرها من النباتات ذكراً وأنثى . وقوله ﴿ وأهلك ﴾ أي واحمل فيها أهلك ، وهم أهل بيته وقرابته ﴿ إلا من سبق عليه القول ﴾ ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه « يام » الذي انعزل وحده وامرأة نوح وكانت كافرة بالله ورسوله . وقوله ﴿ ومن آمن ﴾ أي من قومك ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾ أي نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(٤١) ﴿ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن نوح عليه السلام أنه قال للذين أمر بحملهم معه في السفينة ﴿ اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ﴾ أي باسم الله يكون جريها على وجه الماء ، وباسم الله يكون منتهى سيرها ، وهو رسوُّها ، ولهذا تستحب التسمية في ابتداء الأمور عند الركوب على السفينة ، وعلى الدابة ، كما قال تعالى ﴿ والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ وفي الحديث « أمان أمتي من الغرق إذا ركبوا في السفن أن يقولوا : باسم الله الملك » وقوله ﴿ إن ربي لغفور رحيم ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ، فذكر أنه غفور رحيم .

(٤٢) ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ وهي تجري بهم في موج كالجبال ﴾ أي السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذي قد طبق جميع الأرض حتى طفت على رؤوس الجبال ، وهذه السفينة جارية على وجه الماء ، سائرة بإذن الله ، وتحت كنفه وعنايته وحراسته وامتنانه . وقوله ﴿ ونادى نوح ابنه وكان في معزل .. ﴾ هذا هو الابن الرابع واسمه « يام » وكان كافراً ، دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ، ويركب معهم ، ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون .

(٤٣) ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾

﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ اعتقد بجهله أن الطوفان لا يبلغ إلى رؤوس الجبال ، وأنه لو تعلق في رأس جبل لنجاه ذلك من الغرق ، فقال له أبوه نوح عليه السلام : ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ أي ليس شيء يعصم اليوم من أمر الله . ﴿ وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

(٤٤) ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة أمر الأرض أن تبلع ماءها الذي نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر ﴿ وغيض الماء ﴾ أي شرع في النقص ﴿ وقضي الأمر ﴾ أي فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله ، لم يبق منهم ديار ﴿ واستوت ﴾ السفينة بمن فيها ﴿ على الجودي ﴾ جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذٍ من الغرق ، وتطاولت ، وتواضع هو لله عز وجل فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام . قال قتادة : قد أبقى الله سفينة نوح عليه السلام على الجودي من أرض الجزيرة عبرة وآية حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً . وقوله ﴿ وقيل بعداً للقوم الظالمين ﴾ أي هلاكاً وخساراً لهم . وبعداً من رحمة الله ، فإنهم قد هلكوا عن آخرهم ، فل يبق لهم بقية .

﴿٤٥﴾ ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾

﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي ﴾ أي قد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف ، فكيف غرق ابني ؟ وأنت أحكم الحاكمين .

﴿٤٦﴾ ﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

﴿٤٧﴾ ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك ﴾ أي الذين وعدت بإنجائهم ، لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك ، ولهذا قال : ﴿ وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ﴾ فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوحاً عليه السلام . ﴿ إنه ليس من أهلك ﴾ أي الذين وعدتك نجاتهم .

﴿٤٨﴾ ﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عما قيل لنوح عليه السلام حين أرست السفينة على الجودي من السلام عليه ، وعلى من معه من المؤمنين ، وعلى كل مؤمن من ذريته إلى يوم القيامة ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك . . . ﴾ .

﴿٤٩﴾ ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : هذه القصة وأشباهها ﴿ من أنباء الغيب ﴾ يعني من أخبار الغيوب السالفة نوحيها إليك على وجهها ، كأنك شاهدها . ﴿ نوحيها إليك ﴾ أي وحياً منا إليك ﴿ ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحد من قومك علم بها ، حتى يقول من يكذبك : إنك تعلمتها منه ، بل أخبرك الله بها مطابقة لما كان عليه الأمر الصحيح ، كما تشهد به كتب الأنبياء قبلك ، فاصبر على

تكذيب من كذبك من قومك وأذاهم لك ، فإنا سننصرك ونحوطك بعنايتنا ، ونجعل العاقبة لك . ولأتباعك في الدنيا والآخرة كما فعلنا بالمرسلين حيث نصرناهم على أعدائهم ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ وقال ﴿ فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ .

(٥٠) ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ إلى عاد أخاهم هوداً ﴾ آمراً لهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، ناهياً لهم عن الأوثان التي افتروها ، واختلقوا لها أسماء الآلهة .

(٥١) ﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وأخبر هود قومه أنه لا يريد منهم أجرة على هذا النصح والبلاغ من الله ، إنما يبغي ثوابه من الله الذي فطره ﴿ أفلا تعقلون ﴾ من يدعوكم إلى ما يصلحكم في الدنيا والآخرة من غير أجرة .

(٥٢) ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

ثم أمرهم بالاستغفار الذي فيه تكفير الذنوب السالفة ، وبالتوبة عما يستقبلونه . ومن اتصف بهذه الصفة يسر الله عليه رزقه ، وسهل عليه أمره ، وحفظ عليه شأنه ، ولهذا قال ﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ وفي الحديث « من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

(٥٣) ﴿ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى أنهم قالوا لنبيهم ﴿ ما جئتنا ببينة ﴾ أي بحجة وبرهان على ما تدعيه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ﴾ أي بمجرد قولك : اتركوهم نتركهم ﴿ وما نحن لك بمؤمنين ﴾ بمصدقين .

(٥٤) ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

﴿ إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء ﴾ يقولون : ما نظن إلا أن بعض الآلهة أصابك

بجنون وخبل في عقلك بسبب نهيك عن عبادتها وعيبك لها ﴿ قال إني أشهد الله واشهدوا أني . . . ﴾ يقول : إني بريء من جميع الأنداد والأصنام .

﴿ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾

﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ أي أنتم وآلهتكم إن كانت حقاً ﴿ ثم لا تنظرون ﴾ أي طرفة عين .

(٥٦) ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ إني توكلت على الله ربي وربكم . . . ﴾ أي تحت قهره وسلطانه ، وهو الحاكم العادل الذي لا يجور في حكمه ، فإنه على صراط مستقيم . وقد تضمن هذا المقام حجة بالغة ، ودلالة قاطعة على صدق ما جاءهم به ، وبطلان ما هم عليه من عبادة الأوثان التي لا تنفع ولا تضر ، بل هي جماد لا تسمع ولا تبصر ، ولا توالي ولا تعادي ، وإنما يستحق إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له الذي بيده الملك ، وله التصرف ، وما من شيء إلا تحت ملكه وقهره وسلطانه ، فلا إلّه إلا هو ولا رب سواه .

(٥٧) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾

يقول لهم هود عليه السلام : ﴿ فإن تولوا ﴾ عما جئتكم به من عبادة الله ربكم وحده لا شريك له فقد قامت عليكم الحجة بإبلاغي إياكم رسالة الله التي بعثني بها ﴿ ويستخلف ربي قوماً غيركم ﴾ يعبدونه وحده ، ولا يشركون به شيئاً ، ولا يبالي بكم ، فإنكم لا تضرونه بكفركم ، بل يعود وبال ذلك عليكم ﴿ إن ربي على كل شيء حفيظ ﴾ أي شاهد وحافظ لأقوال عباده وأفعالهم ، ويجزيهم عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٥٨) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

﴿ ولما جاء أمرنا ﴾ وهو الريح العقيم ، فأهلكهم الله عن آخرهم ، ونجى هوداً وأتباعه من عذاب غليظ برحمته تعالى ولطفه .

(٥٩) ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

﴿ وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ﴾ كفروا بها ، وعصوا رسل الله ، وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء ، لأنه لا فرق بين أحد منهم وأحد في وجوب الإيمان ، فعاد كفروا بهود فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ﴿ وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد ﴾ تركوا اتباع رسولهم الرشيد ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد .

(٦٠) ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾

﴿ وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ﴾ من الله ومن عباده المؤمنين كلما ذكروا ، وينادى عليهم يوم القيامة على رؤوس الأشهاد ﴿ ألا إن عاداً كفروا ربهم ﴾ قال السدي : ما بعث نبي بعد عاد إلا لعنوا على لسانه .

(٦١) ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ و ﴾ لقد أرسلنا ﴿ إلى ثمود ﴾ وهم الذين كانوا يسكنون مدائن الحجر بين تبوك والمدينة ، وكانوا بعد عاد ، فبعث الله منهم ﴿ أخاهم صالحاً ﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده ، ولهذا قال ﴿ هو أنشأكم من الأرض ﴾ أي ابتدأ خلقكم منها : خلق منها أباكم آدم ﴿ واستعمركم فيها ﴾ أي جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها ﴿ فاستغفروه ﴾ لسالف ذنوبكم ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه ﴿ إن ربي قريب مجيب ﴾ كما قال تعالى ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون ﴾ .

(٦٢) ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا ۖ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

يذكر تعالى ما كان من الكلام بين صالح عليه السلام وبين قومه ، وما كان عليه قومه من الجهل والعناد في قولهم ﴿ قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾ أي كنا نرجوك في عقلك قبل أن تقول ما قلت ﴿ أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤ نا ﴾ وما كان عليه أسلافنا ﴿ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب ﴾ أي شك كبير .

(٦٣) ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ۖ

فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾

﴿ قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ﴾ فيما أرسلني به إليكم ، أي على يقين وبرهان ﴿ وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴾ وتركت دعوتكم إلى الحق ، وعبادة الله وحده ، فلو تركته لما نفعتموني ، ولما زدتموني ﴿ غير تخسير ﴾ أي خسارة .

(٦٤) ﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

(٦٥) ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾

(٦٦) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾

(٦٧) ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾

(٦٨) ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾

«قال ابن كثير في هذه الآيات التي تشملها هذه الأرقام»: تقدم الكلام على هذه القصة مستوفى في سورة الأعراف بما أغنى عن إعادته ها هنا ، وبالله التوفيق .

(٦٩) ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد جاءت رسلنا ﴾ وهم الملائكة إبراهيم بالبشرى ، قيل : تبشره بإسحق ، وقيل : بهلاك قوم لوط ، ويشهد للأول قوله تعالى ﴿ولما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط ﴾ ﴿ قالوا سلاماً قال سلام ﴾ أي عليكم . قال علماء البيان : هذا أحسن مما حيوه به ، لأن الرفع يدل على الثبوت والدوام ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أي ذهب سريعاً فأتاهم بالضيافة ، وهو عجل : فتى البقرة ، حنيذ : مشوي على الرضف ، وهي الحجارة المحماة . ﴿ فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم قال ألا تأكلون ﴾ وقد تضمنت هذه الآية آداب الضيافة من وجوه كثيرة .

(٧٠) ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾

﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم ﴾ أي أنكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة ﴾ وذلك أن الملائكة لا همة لهم إلى الطعام ولا يشتهونه ولا يأكلونه ، فلهذا رأى حالهم معرضين عما جاءهم به فارغين عنه بالكلية فعند ذلك نكرهم ﴿ وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف ﴾ أي قالوا : لا تخف منا ، إنا ملائكة أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم .

(٧١) ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾

﴿ فضحكت ﴾ أي ضحكت سارة استبشاراً بهلاكهم لكثرة فسادهم . وغلظ كفرهم وعنادهم ، فلهذا جوزيت بالبشارة بالولد بعد الاياس . وقوله ﴿ ومن وراء إسحق يعقوب ﴾ وقيل : ضحكت وعجبت أن قوماً يأتيهم العذاب وهم في غفلة ، وقيل : ضحكت : حاضت ، أي بشرت بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل ، فإن يعقوب ولد إسحق .

(٧٢) ﴿ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾

﴿ قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً ﴾ حكى في هذه الآية قولها ، كما حكى في آية الذاريات فعلها ﴿ فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم ﴾ كما جرت به عادة النساء في أقوالهن وأفعالهن عند التعجب .

(٧٣) ﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾

﴿ قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ أي قالت لها الملائكة : لا تعجبي من أمر الله ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فلا تعجبي من هذا ، وإن كنت عجوزاً عقيماً ، وبعلك شيخاً كبيراً ، فإن الله على ما يشاء قدير ﴿ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ﴾ أي هو الحميد في جميع أفعاله وأقواله ، محمود ممجد في صفاته وذاته ، ولهذا ثبت في الصحيحين أنهم قالوا : قد علمنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك يا رسول الله ؟ قال : « قولوا : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » .

(٧٤) ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾

يخبر تعالى عن إبراهيم عليه السلام أنه لما ذهب عنه الروع ، وهو ما أوجس من الملائكة خيفة حين لم يأكلوا وبشروه بعد ذلك بالولد ، وأخبروه بهلاك قوم لوط أخذ يقول كما قال سعيد بن جبير في الآية ، قال : لما جاءه جبريل ومن معه قالوا له ﴿ إنا مهلكوا أهل هذه القرية ﴾ قال لهم : أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا : لا . قال : أفتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن ؟ قالوا : لا ، قال : أفتهلكون قرية فيها أربعون مؤمناً ؟ قالوا : لا ، قال : ثلاثون ؟ قالوا : لا ، حتى بلغ خمسة ، قالوا : لا ، قال : أرأيتكم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونها ؟ قالوا : لا ، فقال إبراهيم عليه السلام عند ذلك : ﴿ إن فيها لوطاً ﴾ قالوا : ﴿ نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته ﴾ فسكت عنهم واطمأنت نفسه .

(٧٥) ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾

﴿ إن إبراهيم لحليم أوَّاه منيب ﴾ هذا مدح لإبراهيم بهذه الصفات الجميلة . وقد تقدم تفسيرها .

(٧٦) ﴿ يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾

﴿ يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك . . . ﴾ أي إنه قد نفذ فيهم القضاء ، وحقت عليهم الكلمة بالهلاك ، وحلول البأس الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

(٧٧) ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾

يخبر تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم بهلاكهم ، وفارقوه ، وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة ، فانطلقوا من عنده فأتوا لوطاً عليه السلام وهم في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة فساءه شأنهم ، وضاقت نفسه بسببهم ، وخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم أحد من قومه فينالهم بسوء ﴿ وقال هذا يوم عصيب ﴾ شديد بلاؤه ، وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم ويشق عليه ذلك .

(٧٨) ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ

أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾

﴿ يهرعون إليه ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك . وقوله ﴿ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوهم على ذلك الحال ﴿ قال هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾ يرشدهم إلى نسائهم ، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة ، فلم يكن من بناته ، ولكن كن من أمته ﴿ فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي ﴾ أي اقبلوا ما آمركم به من الاقتصار على نسائكم . ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ أي فيه خيِّر يقبل ما آمره به ، ويترك ما أنهاه عنه .

(٧٩) ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾

﴿ قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ أي إنك لتعلم أن نساءنا لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ أي ليس لنا غرض إلا في الذكور ، وأنت تعلم ذلك ، فأي حاجة في تكرار القول علينا ؟ ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ إنما نريد الرجال .

(٨٠) ﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام إن لوطاً توعدهم بقوله ﴿ لو أن لي بكم قوة . . . ﴾ أي لكنت نكلت بكم ، وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي ، ولهذا ورد في الحديث « رحمة الله على لوط ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ـ يعني الله عز وجل ـ فما بعث الله بعده نبياً إلا في ثروة من قومه » فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه ، وأنهم لا وصول لهم إليه :

(٨١) ﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾

﴿ قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل ، وأن يتبع أدبارهم ، أي يكون ساقة لأهله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم . ولا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ، ولكن استمروا ذاهبين . ﴿ إلا امرأتك ﴾ ذكروا أنها خرجت معهم ، وأنها لما سمعت الوجبة التفتت وقالت : واقوماه فجاءها حجر من السماء فقتلتها ، ثم قربوا له هلاك قومه تبشيراً له ، لأنه قال لهم : أهلكوهم الساعة فقالوا ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ هذا وقوم لوط وقوف على الباب ،

وعكوف قد جاؤوا يهرعون إليه من كل جانب ، ولوط واقف على الباب يدافعهم ويردعهم وينهاهم عما هم فيه ، وهم لا يقبلون منه ، بل يتوعدونه ويتهددونه ، فعند ذلك خرج جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه فطمس أعينهم فرجعوا ، وهم لا يهتدون الطريق ، كما قال تعالى ﴿ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ .

(٨٢) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴾

﴿ فلما جاء أمرنا ﴾ وكان ذلك عند طلوع الشمس ﴿ جعلنا عاليها ﴾ وهي سدوم ﴿ سافلها ﴾ كقوله ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ أي أمطرنا عليها حجارة من سجيل ، وهي حجارة من طين مستحجرة قوية شديدة ، وقيل : مشوية ﴿ منضود ﴾ قال بعضهم : منضودة في السماء ، أي معدة ، لذلك ، أو يتبع بعضها بعضاً في نزولها عليهم .

(٨٣) ﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾

﴿ مسومة ﴾ أي معلمة مختومة عليها أسماء أصحابها كل حجر مكتوب عليه اسم الذي ينزل عليه وقيل مسومة : مطوقة ، بها نضج من حمرة ﴿ وما هي من الظالمين ببعيد ﴾ أي وما هذه النقمة ممن تشبه بهم في ظلمهم ببعيد عنه . وفي الحديث « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » وذهب الإمام الشافعي في قول عنه ، وجماعة من العلماء إلى أن اللائط يقتل سواء كان محصناً أو غير محصن عملاً بهذا الحديث . وذهب الإمام أبو حنيفة أنه يلقى من شاهق ، ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط . والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

(٨٤) ﴿ * وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾

يقول تعالى : ولقد أرسلنا إلى مدين ، وهم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان ، بلاداً تعرف بهم ، يقال لها مدين ، فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ، ولهذا قال ﴿ أخاهم شعيباً ﴾ يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له ، وينهاهم عن التطفيف في المكيال والميزان ﴿ إني أراكم بخير ﴾ أي في معيشتكم ورزقكم وإني أخاف أن تسلبوا ما أنتم فيه بانتهاككم محارم الله ﴿ وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴾ أي في الدار الآخرة .

(٨٥) ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(٨٦) ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾

ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس ، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين ونهاهم عن العثو في الأرض بالفساد ، وقد كانوا يقطعون الطريق . وقوله ﴿ بقيت الله خير لكم ﴾ رزق الله خير لكم من بخسكم الناس ، وقيل : وصية الله خير لكم ، أو طاعة الله خير لكم ، أو حظكم من الله خير لكم ، أو ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان خير لكم من أخذ أموال الناس ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ وقوله ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ أي برقيب ولا حفيظ ، أي افعلوا ذلك لله عز وجل ، لا تفعلوه ليراكم الناس ، بل الله عز وجل .

(٨٧) ﴿ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾

يقولون على سبيل التهكم قبحهم الله ﴿ أصلاتك ﴾ أي قراءتك ﴿ تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ﴾ أي الأوثان والأصنام ﴿ أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء ﴾ يعنون الزكاة ﴿ إنك لأنت الحليم الرشيد ﴾ يقول ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء ، قبحهم الله ، ولعنهم عن رحمته ، وقد فعل .

(٨٨) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

يقول لهم أرأيتم يا قوم إن كنت ﴿ على بينة من ربي ﴾ أي على بصيرة فيما أدعو إليه ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ قيل : أراد النبوة ، وقيل : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ أي لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا في السر فأفعله خفية عنكم ، أي لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿ إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت ﴾ أي فيما آمركم وأنهاكم ، إنما أريد إصلاحكم جهدي وطاقتي ﴿ وما توفيقي ﴾ أي في إصابة الحق فيما أريده ﴿ إلا بالله عليه توكلت ﴾ في جميع أموري

﴿ وإليه أنيب ﴾ أي أرجع .

(٨٩) ﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾

يقول لهم ﴿ ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي ﴾ أي لا تحملنكم عداوتي وبغضي على الاصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط من النقمة والعذاب ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ قيل : المراد في الزمان . قال قتادة : إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل : في المكان ، ويحتمل الأمران .

(٩٠) ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾

﴿ واستغفروا ربكم ﴾ من سالف الذنوب ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة . وقوله ﴿ إن ربي رحيم ودود ﴾ لمن تاب .

(٩١) ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾

يقولون ﴿ يا شعيب ما نفقه ﴾ ما نفهم ﴿ كثيراً ﴾ من قولك ﴿ وإنا لنراك فينا ضعيفاً ﴾ يعنون ذليلاً ، لأن عشيرتك ليسوا على دينك ﴿ ولولا رهطك لرجمناك ﴾ أي لولا معزتهم علينا لرجمناك ، قيل : بالحجارة ، وقيل : لسببناك ﴿ وما أنت علينا بعزيز ﴾ أي ليس عندنا لك معزة .

(٩٢) ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

﴿ قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله ﴾ أتتركونني لأجل قومي ، ولا تتركونني إعظاماً لجلالة الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيه بمساءة ، وقد اتخذتم كتاب الله ﴿ وراءكم ظهرياً ﴾ أي نبذتموه خلفكم ، لا تطيعونه ولا تعظمونه ﴿ إن ربي بما تعملون محيط ﴾ أي هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم .

(٩٣) ﴿ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴾

لما يئس نبي الله شعيب من استجابتهم له قال لهم : يا قوم ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أي طريقتكم ، وهذا تهديد شديد ﴿ إني عامل ﴾ على طريقتي ﴿ سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ﴾ أي مني ومنكم ﴿ وارتقبوا ﴾ أي انتظروا ﴿ إني معكم رقيب ﴾ .

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾

قوله ﴿ جاثمين ﴾ أي هامدين ، لا حراك بهم . وذكر ههنا أنهم أتتهم الصيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ، ففي الأعراف لما قالوا ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ ناسب أن يذكر هناك الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها ، وأرادوا إخراج نبيهم منها ، وههنا لما أساؤوا الأدب في مقالتهم على نبيهم ذكر الصيحة التي استلبثتهم وأخمدتهم ، وفي الشعراء لما قالوا ﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ قال ﴿ فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وهذا من الأسرار الدقيقة ، ولله الحمد والمنة كثيراً دائماً .

(٩٥) ﴿ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴾

﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ أي يعيشوا في دارهم قبل ذلك ﴿ ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ﴾ وكانوا جيرانهم قريباً منهم في الدار وشبيهاً بهم في الكفر وقطع الطريق ، وكانوا عرباً مثلهم .

(٩٦) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إرسال موسى بآياته ودلالاته الباهرة إلى فرعون ملك القبط وملئه .

(٩٧) ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾

﴿ فاتبعوا أمر فرعون ﴾ أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغي ﴿ وما أمر فرعون برشيد ﴾ أي ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال وكفر وعناد .

(٩٨) ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾

وكما أنهم اتبعوه في الدنيا وكان مقدمهم ورئيسهم كذلك هو يقدمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها وشربوا من حياض رداها ، وله في ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر ، كما قال تعالى ﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ وقال تعالى ﴿ فكذب وعصى . ثم أدبر يسعى . فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى . إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ وقال تعالى ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ وكذلك شأن المتبوعين يكونون موفرين في العذاب يوم القيامة ، كما قال تعالى ﴿ لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « امرؤ القيس حامل لواء شعراء الجاهلية إلى النار » .

(٩٩) ﴿ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾

﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ﴾ أي أتبعناهم زيادة على عذاب النار لعنة الدنيا ﴿ ويوم القيامة ﴾ قال مجاهد : زيدوا لعنة يوم القيامة ، فتلك لعنتان ﴿ بئس الرفد المرفود ﴾ لعنة الدنيا والآخرة ، وهو كقوله ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ وقال تعالى ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

(١٠٠) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾

لما ذكر تعالى خبر الأنبياء وما جرى لهم مع أممهم ، وكيف أهلك الكافرين ونجى المؤمنين قال ﴿ ذلك من أنباء القرى ﴾ أي أخبارهم ﴿ نقصه عليك منها قائم ﴾ أي عامر ﴿ وحصيد ﴾ أي هالك .

(١٠١) ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾

﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي إذ أهلكناهم ﴿ ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ بتكذيبهم رسلنا وكفرهم بهم ﴿ فما أغنت عنهم آلهتهم ﴾ أوثانهم التي يعبدونها ويدعونها ﴿ من دون الله من شيء ﴾ ما نفعوهم ولا أنقذوهم بإهلاكهم ﴿ وما زادوهم غير تتبيب ﴾ غير تخسير ، وذلك أن سبب هلاكهم ودمارهم إنما كان باتباعهم تلك الآلهة ، فلهذا خسروا في الدنيا والآخرة .

(١٠٢) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم ﴿ إن أخذه أليم شديد ﴾ وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ... ﴾ .

(١٠٣) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

يقول تعالى : إن في إهلاكنا الكافرين وإنجائنا المؤمنين ﴿ لآية ﴾ أي عظة واعتباراً على صدق موعودنا في الآخرة ﴿ ذلك يوم مجموع له الناس ﴾ أي أولهم وآخرهم كقوله ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ ﴿ وذلك يوم مشهود ﴾ أي عظيم تحضره الملائكة ويجتمع فيه الرسل ، وتحشر الخلائق بأسرهم من الإنس والجن والطير والوحوش والدواب ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها .

(١٠٤) ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾

﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ أي لمدة مؤقتة ، لا يزاد عليها ولا ينتقص منها .

(١٠٥) ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾

﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ أي يوم يأتي يوم القيامة لا يتكلم أحد إلا بإذن الله كقوله ﴿ لا يتكلمون إلا من إذن له الرحمٰن وقال صواباً ﴾ وفي الصحيحين في حديث الشفاعة (ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذٍ مسلم مسلم) وقوله ﴿ فمنهم شقي وسعيد ﴾ أي فمن أهل الجمع شقي ، ومنهم سعيد كما قال ﴿ فريق في الجنة

وفريق في السعير ﴾ روى الحافظ أبو يعلى أن عمر قال سألت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، علام نعمل ؟ على شيء قد فرغ منه أم على شيء لم يفرغ منه ، فقال : « على شيء قد فرغ منه يا عمر ، وجرت الأقلام ولكن كل ميسر لما خلق له » .

(١٠٦) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾

﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ الزفير في الحلق ، والشهيق في الصدر ، أي تنفسهم زفير ، وأخذهم النفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك .

(١٠٧) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾

﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ من عادة العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض ، وكذلك يقولون : هو باق ما اختلف الليل والنهار ، يعنون بذلك كله : أبداً فخاطبهم جل ثناؤه بما يتعارفونه بينهم فقال ﴿ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض ﴾ ويحتمل أن المراد بما دامت السموات والأرش الجنس لأنه لا بد في عالم الآخرة من سموات وأرض كما قال تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وقوله ﴿ إلا ما شاء ربك . إن ربك فعال لما يريد ﴾ كقوله ﴿ النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم ﴾ والاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حتى يشفعوا في أصحاب الكبائر ، ثم تأتي رحمة أرحم الراحمين فتخرج من لم يعمل خيراً قط ، وقال يوماً من الدهر : « لا إله إلا الله » كما وردت الأخبار المستفيضة عن رسول الله ﷺ بمضمون ذلك ، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها .

(١٠٨) ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾

﴿ وأما الذين سعدوا ﴾ وهم أتباع الرسل ﴿ ففي الجنة ﴾ أي فمأواهم الجنة ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك ﴾ معنى الاستثناء ههنا أن دوامهم فيما هم فيه من النعيم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئة الله تعالى ، فله المنة عليهم دائماً ، ولهذا يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون

النفس . ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ غير مقطوع . وقد جاء في الصحيحين « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح ، فيذبح بين الجنة والنار ، ثم يقال : « يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » وفي الصحيح أيضاً : « فيقال : يا أهل الجنة ، إن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً » .

(١٠٩) ﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾

﴿ فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء ﴾ المشركون ، إنه باطل وجهل وضلال ، فإنهم إنما يعبدون ما يعبد آباؤهم من قبل، أي ليس لهم مستند فيما هم فيه إلا اتباع الآباء في الجهالات ، وسيجزيهم الله على ذلك أتم الجزاء ، فيعذبهم عذاباً لا يعذبه أحداً وإن كان لهم حسنات فقد وفاهم الله إياها في الدنيا قبل الآخرة .

(١١٠) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

ثم ذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب فاختلف الناس فيه فمن مؤمن به ، ومن كافر به . فلك بمن سلف من الأنبياء قبلك يا محمد أسوة ، فلا يغيظنك تكذيبهم لك ، ولا يهمنك ذلك ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ﴾ لولا ما تقدم من تأجيله العذاب إلى أجل معلوم لقضى الله بينهم ، ويحتمل أن يكون المراد بالكلمة أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه كما قال ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ .

(١١١) ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ إنه بما يعملون خبير ﴾ أي عليم بأعمالهم جميعاً جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها .

(١١٢) ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يأمر تعالى رسوله وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء ، ومخالفة الأضداد ، ونهى عن الطغيان ، وهو البغي ، فإنه مصرعة ، حتى ولو كان على مشرك ، وأعلم تعالى أنه بصير بأعمال العباد ، لا يغفل عن

شيء ، ولا يخفى عليه شيء .

(١١٣) ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا ﴾ عن ابن عباس : لا تداهنوا ، وقال العوفي وعن ابن عباس : هو الركون إلى الشرك ، وقال أبو العالية : لا ترضوا بأعمالهم ، وقال ابن جرير عن ابن عباس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا ، وهذا القول حسن ، أي لا تستعينوا بالظلمة فتكونوا كأنكم قد رضيتم بأعمالهم ﴿ فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ينقذكم ، ولا ناصر يخلصكم من عذابه .

(١١٤) ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾

(١١٥) ﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار ﴾ عن ابن عباس أي الصبح والمغرب ﴿ وزلفاً من الليل ﴾ عن الحسن أي المغرب والعشاء . وهذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الاسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها ، وفي أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ في حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه ، ثم نسخ عنه في قوله . والله أعلم ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ يقول : إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة ، وفي الحديث « ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له » وفي الصحيحين عن عثمان بن عفان أنه توضأ لهم كوضوء رسول الله ﷺ ، ثم قال : هكذا رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ وقال : « من توضأ وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه » وفي البخاري عن ابن مسعود أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار . . . ﴾ فقال الرجل : يا رسول الله ، ألي هذا ؟ قال : « لجميع أمتي كلهم » روىٰ الإمام أحمد « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

(١١٦) ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى : فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم

من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض . وقوله ﴿ إلا قليلاً ﴾ أي قد وجد منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيراً ، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه ، وفجأة نقمته ، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكركما قال تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ وفي الحديث « أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب » وقوله ﴿ واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ﴾ أي استمروا على ما هم عليه من المعاصي والمنكرات ، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك حتى فجأهم العذاب ﴿ وكانوا مجرمين ﴾ .

(١١٧) ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية إلا وهي ظالمة لنفسها ، ولم يأت قريةً مصلحةً بأسه وعذابه قط حتى يكونوا هم الظالمين ، كما قال تعالى ﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ وقال ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

(١١٨) ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة من إيمان أو كفر كما قال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ ﴿ ولا يزالون مختلفين ﴾ أي ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم واعتقادات مللهم وغلهم ومذاهبهم وآرائهم .

(١١٩) ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ إلا من رحم ربك ﴾ أي إلا المرحومين من أتباع الرسل الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى كان النبي وخاتم الرسل والأنبياء فاتبعوه وصدقوه ووازروه ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة ﴿ ولذلك خلقهم ﴾ أي وللاختلاف خلقهم ، أو خلقهم ليكونوا فريقاً في الجنة وفريقاً في السعير ﴿ وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴾ يخبر تعالى أنه قد سبق في قضائه وقدره لعلمه التام ، وحكمته النافذة أن ممن خلقه من يستحق الجنة ، ومنهم من يستحق النار ، وأنه لا بد أن يملأ جهنم من هذين الثقلين الجن والإنس ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة .

(١٢٠) ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

كل ما نقصه عليك من أنباء الرسل المتقدمين مع أممهم ، وكيف جرى لهم من المحاجات والخصومات ، وما احتمله الأنبياء من التكذيب والأذى وكيف نصر الله حزبه المؤمنين ، وخذل أعداءه الكافرين ، كل هذا مما نثبت به فؤادك ، أي قلبك يا محمد ليكون لك بمن مضى من إخوانك من المرسلين أسوة. ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أي في هذه السورة ، أو في هذه الدنيا ، والصحيح الأول لأن هذه السورة مشتملة على قصص الأنبياء ، وكيف أنجاهم الله والمؤمنين وأهلك الكافرين .

(١٢١) ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للذين لا يؤمنون بما جاء به من ربه على وجه التهديد ﴿ اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على طريقتكم ونهجكم ﴿ إنا عاملون ﴾ أي على طريقتنا ومنهجنا .

(١٢٢) ﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾

﴿ وانتظروا إنا منتظرون ﴾ أي فستعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون ، وقد أنجز الله لرسوله وعده ونصره وأيده ، وجعل كلمته هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم .

(١٢٣) ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه إليه المرجع والمآب ، وسيؤتي كل عامل عمله يوم الحساب ، فله الخلق والأمر ، فأمر تعالى بعبادته والتوكل عليه ، فإنه كاف من توكل عليه ، وأناب إليه . وقوله ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي ليس يخفى عليه ما عليه مكذبوك يا محمد ، بل هو عليم بأحوالهم وأقوالهم ، وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء في الدنيا والآخرة ، وسينصرك وحزبك عليهم في الدارين .

* * *


تفسير سُورَةِ يُوسُفَ


روى البيهقي في الدلائل أن طائفة من اليهود حين سمعوا رسول الله ﷺ يتلو هذه السورة أسلموا ، لموافقتها ما عندهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ (١)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات الكتاب ، وهو القرآن المبين أي الواضح الجلي الذي يفصح عن الأشياء المبهمة ، ويفسرها ويبينها .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢)

﴿ إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾ وذلك لأن لغة العرب أفصح اللغات ، وأبينها وأوسعها ، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس ، فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات على أشرف الرسل بسفارة أشرف الملائكة ، وكان ذلك في أشرف بقاع الأرض ، وابتدىء إنزاله في أشرف شهور السنة ، وهو رمضان ، فكمل من كل الوجوه ، ولهذا قال :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ (٣)

قال تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ بسبب إيحائنا إليك هذا القرآن . روى الإمام أحمد أن عمر بن الخطاب أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي ﷺ قال : فغضب وقال : « أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب ؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني » وفي رواية قال لي رسول الله : « ما هذا في يدك يا عمر ؟ » قلت : كتاب نسخته لنزداد به علماً إلى علمنا ، فغضب رسول الله ﷺ حتى احمرت وجنتاه ، ثم نودي بالصلاة

جامعة ، فقالت الأنصار : أغضب نبيكم ﷺ ؟ السلاح السلاح ، فجاؤوا حتى أحدقوا بمنبر رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس ، إني قد أوتيت جوامع الكلم وخواتيمه ، واختصر لي اختصاراً ، ولقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون » قال عمر فقمت فقلت : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبك رسولاً . ثم نزل رسول الله ﷺ .

(٤) ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾

يقول تعالى : اذكر لقومك يا محمد في قصصك عليهم من قصة يوسف إذ قال لأبيه ، وأبوه يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم » انفرد بإخراجه البخاري . وفي البخاري عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال : « أكرمهم عند الله أتقاهم » ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، بن نبي الله بن نبي الله ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فعن معادن العرب تسألوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » وقد تكلم المفسرون عن تعبير هذا المنام أن الأحد عشر كوكباً عبارة عن إخوته ، وكانوا أحد عشر رجلاً سواه ، والشمس والقمر عبارة عن أمه وأبيه ، وقد وقع تفسيرها بعد أربعين سنة ، وذلك حين رفع أبويه على العرش ، وهو سريره ، وإخوته بين يديه ﴿ وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ .

(٥) ﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لابنه يوسف حين قص عليه ما رأى من هذه الرؤيا تعبيرها خضوع إخوته له ، وتعظيمهم إياه تعظيماً زائداً بحيث يخرون له سجداً إجلالاً واحتراماً وإكراماً ، فخشي يعقوب عليه السلام أن يحدث بهذا المنام أحداً من إخوته فيحسدونه على ذلك ، فيبغون له الغوائل حسداً منهم له ، ولهذا قال ﴿ لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً ﴾ أي يحتالوا لك حيلة يردونك فيها . ولهذا ثبتت السنة

عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأى أحدكم ما يحب فليحدث به » وإذا رأى ما يكره فليتحول إلى جنبه الآخر ، وليتفل عن يساره ثلاثاً ، وليستعذ بالله من شرها ، ولا يحدث بها أحداً ، فإنها لا تضره » وفي الحديث الآخر الذي رواه الإمام أحمد وبعض أهل السنة « الرؤ يا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت » ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النعمة حتى توجد وتظهر ، كما ورد في حديث « استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

(٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قول يعقوب لولده يوسف : إنه كما اختارك وأراك هذه الكواكب مع الشمس والقمر ساجدة لك ﴿ كذلك يجتبيك ربك ﴾ أي يختارك ويصطفيك لنبوته ﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ يعني تعبير الرؤ يا ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي بإرسالك والإيحاء إليك ، ولهذا قال ﴿ كما أتمها على أبويك من قبلُ إبراهيم ﴾ وهو الخليل ﴿ وإسحق ﴾ ولده ، وهو الذبيح في قول وليس بالرجيح ﴿ إن ربك عليم حكيم ﴾ أي هو أعلم حيث يجعل رسالته كما قال في الآية الأخرى .

(٧) ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾

يقول تعالى : لقد كان في قصة يوسف وخبره مع اخوته آيات ، أي عبر ومواعظ للسائلين عن ذلك المستخبرين عنه فإنه خبر عجيب يستحق أن يخبر عنه .

(٨) ﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ﴾ أي جماعة فكيف أحب ذينك الاثنين أكثر من الجماعة ؟ ﴿ إن أبانا لفي ضلال مبين ﴾ يعنون في تقديمهما علينا ، ومحبته إياهما أكثر منا . واعلم أنه لم يقم دليل على نبوة إخوة يوسف . وظاهر السياق يدل على خلاف ذلك ، ومن الناس من يزعم أنه أوحي إليهم بعدُ ، وفي هذا نظر ، ويحتاج مدعي ذلك إلى دليل .

(٩) ﴿ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴾

﴿ اقتلوا يوسف أو اطرحوه . . . ﴾ يقولون : هذا الذي يزاحمكم في محبة أبيكم لكم ، أعدموه من وجه أبيكم ، ليخلو لكم وحدكم ، إما بأن تقتلوه أو تلقوه في أرض من الأراضي تستريحوا منه ، وتخلوا أنتم بأبيكم ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ فأضمروا التوبة قبل الذنب .

(١٠) ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

﴿ قال قائل منهم ﴾ هو أكبرهم : « روبيل » أو يهوذا ، أو شمعون الصفا ﴿ لا تقتلوا يوسف ﴾ أي لا تصلوا في عداوته وبغضه إلى قتله ، ولم يكن لهم سبيل إلى قتله ، لأن الله تعالى كان يريد منه أمراً لا بد من إمضائه وإتمامه من الإيحاء إليه بالنبوة ، ومن التمكين له ببلاد مصر ، والحكم بها ، فصرفهم الله عنه بمقالة « روبيل » فيه ، وإشارته عليهم بأن يلقوه في غيابة الجب ، وهو أسفله . قال قتادة : هي بئر في بيت المقدس ﴿ يلتقطه بعض السيارة ﴾ أي المارة من المسافرين فتستريحوا منه بهذا ، ولا حاجة إلى قتله ﴿ إن كنتم فاعلين ﴾ أي إن كنتم عازمين على ما تقولون . قال محمد بن إسحق بن يسار : لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم ، وعقوق الوالدين ، وقلة الرأفة بالصغير الضرع الذي لا ذنب له ، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفضل وخطره عند الله ، مع حق الوالد على ولده ، ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ، ورقة عظمه ، مع مكانه من الله أحبه طفلاً صغيراً ، وبين ابنه على ضعف قوته ، وصغر سنه ، وحاجته إلى لطف والده ، وسكونه إليه ، يغفر الله لهم ، وهو أرحم الراحمين ، فقد احتملوا أمراً عظيماً . رواه ابن أبي حاتم .

(١١) ﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴾

لما تواطأوا على أخذه وطرحه في البئر كما أشار به عليهم أخوهم الكبير « روبيل » جاؤ وا أباهم يعقوب عليه السلام فقالوا ما بالك ﴿ لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون ﴾ وهذه توطئة ودعوى وهم يريدون خلاف ذلك ، لما له في قلوبهم من الحسد لحب أبيه له .

(١٢) ﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

﴿ أرسله معنا ﴾ أي ابعثه معنا ﴿ غداً يرتع ويلعب ﴾ يسعى وينشط ﴿ وإنا له لحافظون ﴾

يقولون : ونحن نحفظه ونحوطه من أجلك .

(١٣) ﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه يعقوب أنه قال لبنيه جواب ما سألوا من إرسال يوسف معهم إلى الرعي في الصحراء ﴿ إني ليحزنني أن تذهبوا به ﴾ أي يشق عليّ مفارقته مدة ذهابكم به إلى أن يرجع ، وذلك لفرط محبته له ، لما يتوسم فيه من الخير العظيم ، وشمائل النبوة والكمال في الخُلُق والخَلْق . صلوات الله وسلامه عليه . وقوله ﴿ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون ﴾ يقولون : وأخشى أن تشغلوا برميكم ورعيكم فيأتيه ذئب فيأكله ، وأنتم لا تشعرون ، فأخذوا من فمه هذه الكلمة ، وجعلوها عذرهم فيما فعلوه ، وقالوا مجيبين له عنها في الساعة الراهنة :

(١٤) ﴿ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾

﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون ﴾ يقولون : لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا ، ونحن جماعة : إنا إذاً لهالكون عاجزون .

(١٥) ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى : فلما ذهب به إخوته من عند أبيهم بعد مراجعتهم له في ذلك ﴿ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ﴾ هذا فيه تعظيم لما فعلوه أنهم اتفقوا كلهم على إلقائه في أسفل ذلك الجب ، وقد أخذوه من عند أبيه فيما يظهرونه إكراماً له وبسطاً ، وشرحاً لصدره وإدخالاً للسرور عليه ، فيقال : إن يعقوب عليه السلام لما بعثه معهم ضمه إليه وقبله ودعا له ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ يقول تعالى ذاكراً لطفه ورحمته وعائدته وإنزاله اليسر في حال العسر : إنه أوحى إلى يوسف في ذلك الحال الضيق تطييباً لقلبه ، وتثبيتاً له إنك لا تحزن مما أنت فيه ، فإن لك من ذلك فرجاً ومخرجاً حسناً ، وسينصرك الله عليهم ، ويعليك ، ويرفع درجتك ، وستخبرهم بما فعلوا معك من هذا الصنيع . وقوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي بإيحاء الله إليه .

(١٦) ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ ﴾ (١٧)

يقول تعالى مخبراً عن الذي اعتمده إخوة يوسف بعدما ألقوه في غيابة الجب أنهم رجعوا إلى أبيهم في ظلمة الليل يبكون ويظهرون الأسف والجزع على يوسف . وقالوا معتذرين عما وقع فيما زعموا ﴿ إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي نترامى ﴿ وتركنا يوسف عند متاعنا ﴾ أي ثيابنا وأمتعتنا ﴿ فأكله الذئب ﴾ وهو الذي قد كان جزع منه ، وحذر عليه . وقوله ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ تلطف عظيم في تقرير ما يحاولونه ، يقولون : ونحن نعلم أنك لا تصدقنا ، والحالة هذه لو كنا صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا في ذلك ، لأنك خشيت أن يأكله الذئب . فأكله الذئب ، فأنت معذور في تكذيبك لنا لغرابة ما وقع ، وعجيب ما اتفق لنا في أمرنا هذا .

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨)

﴿ وجاؤ وا على قميصه بدم كذب ﴾ أي مكذوب مفترى ، وهذا من الأفعال التي يؤكدون بها ما تمالئوا عليه من المكيدة ، وهو أنهم عمدوا إلى سخلة فيما ذكره مجاهدو السدي وغير واحد ، فذبحوها ولطخوا ثوب يوسف بدمها موهمين أن هذا قميصه الذي أكله فيه الذئب ، وقد أصابه من دمه ، ولكنهم نسوا أن يخرقوه ، فلهذا لم يرج هذا الصنيع على نبي الله يعقوب ، بل قال لهم معرضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ أي فسأصبر صبراً جميلاً على هذا الأمر الذي اتفقتم عليه حتى يفرجه الله بعونه ولطفه ﴿ والله المستعان على ما تصفون ﴾ أي على ما تذكرون من الكذب والمحال . وعن ابن عباس : لو أكله السبع لخرق القميص . والصبر الجميل : الذي لا جزع فيه، وفي الحديث « هو صبر لا شكوى فيه » قال الثوري عن بعض أصحابه أنه قال : ثلاث من الصبر : أن لا تحدث بوجعك ، ولا بمصيبتك ، ولا تزكي نفسك .

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَـٰبُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلَـٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَـٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٩)

يقول تعالى مخبراً عما جرى ليوسف عليه السلام في الجب حين ألقاه إخوته في ذلك الجب وحيداً فريداً ، فمكث عليه السلام في البئر ثلاثة أيام فيما قاله أبو بكر بن عياش . قال محمد بن إسحق : لما ألقاه إخوته في البئر جلسوا حول البئر يومهم ذلك ينظرون : ماذا يصنع ، وما يصنع به ؟ فساق الله له سيارة فنزلوا قريباً من تلك البئر ، وأرسلوا واردهم ، وهو الذي يتطلب لهم الماء ، فلما جاء ذلك البئرَ وأدلى دلوه فيها تشبث يوسف عليه السلام فيها فأخرجه واستبشر به وقال ﴿ يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة ﴾ أي وأسره الواردون من بقية السيارة ، وقالوا : اشتريناه وتبضعناه من أصحاب الماء مخافة أن يشاركوهم فيه إذا علموا خبره ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ أي عليم بما يفعله إخوة يوسف ومشتروه ، وهو قادر على تغيير ذلك ودفعه ، ولكن له حكمة وقدر سابق فترك ما قدره وقضاه ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ وفي هذا تعريض لرسوله محمد ﷺ ، وإعلام له بأني عالم بأذى قومك لك ، وأنا قادر على الإنكار عليهم ، ولكني سأملي لهم ، ثم أجعل لك العاقبة ، والحكم عليهم ، كما جعلت ليوسف الحكم على إخوته .

(٢٠) ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾

﴿ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ﴾ يقول تعالى : وباعه إخوته بثمن قليل . والبخس هو النقص ، كما قال تعالى ﴿ فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ أي اعتاض عنه إخوته بثمن دونٍ قليل ، ومع ذلك كانوا فيه من الزاهدين ، أي ليس لهم رغبة فيه ، بل ، لو سألوه بلا شيء لأجابوا .

(٢١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى بألطافه بيوسف عليه السلام أنه قيض له الذي اشتراه من مصر حتى اعتنى به وأكرمه وأوصى أهله به وتوسم فيه الخير والصلاح ، فقال لامرأته ﴿ أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً ﴾ وكان الذي اشتراه من مصر عزيزها ، وهو الوزير بها ، واسمه اطفير بن روحيب ، وكان على خزائن مصر ، وكان الملك يومئذٍ الريان بن الوليد ، اسم امرأته راعيل ، أو زليخا . عن ابن مسعود أنه قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر حين قال لامرأته ﴿ أكرمي مثواه ﴾ والمرأة التي قالت لأبيها ﴿ يا أبت استأجره ﴾ وأبو بكر

الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ﴿ في الأرض ﴾ يعني بلاد مصر ﴿ من تأويل الأحاديث ﴾ هو تعبير الرؤيا ﴿ والله غالب على أمره ﴾ أي فعال لما يشاء ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ لا يدرون حكمته في خلقه وتلطفه وفعله لما يريد .

(٢٢) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ ولما بلغ ﴾ أي يوسف عليه السلام ﴿ أشده ﴾ أي استكمل عقله ، وتم خلقه ﴿ آتيناه حكماً وعلماً ﴾ يعني النبوة أنه حباه بها بين أولئك الأقوام ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ أي إنه كان محسناً في عمله ، عاملاً بطاعة الله تعالى . وقد اختلف في مقدار المدة التي بلغ فيها أشده ، فقيل : ثلاث وثلاثون سنة ، أو بضع وثلاثون سنة ، أو عشرون سنة ، أو أربعون سنة ، أو خمس وعشرون سنة ، أو ثلاثون سنة ، أو ثمان عشرة سنة ، أو هو بلوغ الحلم .

(٢٣) ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها بمصر ، وقد أوصاها زوجها به وبإكرامه ، فراودته عن نفسه ، أي حاولته عن نفسه ودعته إليها ، وذلك أنها أحبته حباً شديداً لجماله وحسنه وبهائه فحملها ذلك على أن تجملت له وغلقت عليه الأبواب ودعته إلى نفسها ﴿ وقالت هيت لك ﴾ فامتنع من ذلك أشد الامتناع ﴿ قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي ﴾ وكانوا يطلقون الرب على السيد والكبير ، أي إن بعلك ربي أحسن مثواي ، أي منزلي ، وأحسن إليّ ، فلا أقابله بالفاحشة في أهله ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ و ﴿ هيت لك ﴾ معناه أنها تدعوه إلى نفسها ، أي هلم لك .

(٢٤) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

قيل : المراد بهمه خطرات حديث النفس ، وفي الحديث « إذا هم عبدي بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها ، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإنما تركها من جرائي ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها » . وقيل : هم بضربها ، وقيل : تمناها زوجة . وأما البرهان فقيل : رأى صورة أبيه يعقوب عاضاً على أصبعه

بفمه : وقيل : فضرب في صدر يوسف . قال ابن جرير : والصواب أنه رأى آية من آيات الله تزجره عما كان هم به . ولا حجة قاطعة على تعيين شيء . ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ أي كما أريناه برهاناً صرفه ما كان فيه كذلك نقيه السوء والفحشاء في جميع أموره ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ أي من المجتهدين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار ، صلوات وسلامه عليه .

(٢٥) ﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عن حالهما حين خرجا يستبقان إلى الباب ، يوسف هارب ، والمرأة تطلبه ليرجع إلى البيت ، فلحقته في أثناء ذلك ، فأمسكت بقميصه من ورائه فقدته قداً فظيعاً ، يقال إنه سقط عنه واستمر يوسف هارباً ذاهباً ، وهي في إثره فألفيا سيدها وهو زوجها عند الباب ، فعند ذلك خرجت مما هي فيه بمكرها وكيدها ، وقالت لزوجها متنصلة وقاذفة يوسف بدائها ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ أي فاحشة ﴿ إلا أن يسجن ﴾ أن يحبس ﴿ أو عذاب أليم ﴾ أي يضرب ضرباً شديداً موجعاً ، .

(٢٦) ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

فعند ذلك انتصر يوسف عليه السلام بالحق ، وتبرأ مما رمته به من الخيانة ، ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ وذكر أنها اتبعته تجذبه إليها حتى قدت قميصه ﴿ وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل ﴾ أي من قدامه ﴿ فصدقت ﴾ أي في قولها إنه راودها على نفسها ، لأنه يكون لما دعاها وأبت عليه دفعته في صدره فقدت قميصه فيصح ما قالت .

(٢٧) ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ﴾ وذلك يكون كما وقع لما هرب منها وتطلبته أمسكت بقميصه من ورائه لترده إليها فقدت قميصه من ورائه ، ﴿ وشهد شاهد من أهلها ﴾ كان صبياً في المهد وفي الحديث « تكلم أربعة وهم صغار » فذكر فيهم شاهد يوسف ، عن ابن عباس أنه قال : « تكلم أربعة وهم صغار : ابن ماشطة بنت

فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم » .

(٢٨) ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾

﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر ﴾ أي لما تحقق زوجها صدق يوسف وكذبها فيما قذفته ورمته به ﴿ قال إنه من كيدكن ﴾ أي إن هذا البهت واللطخ الذي لطخت عرض هذا الشاب من جملة كيدكن ﴿ إن كيدكن عظيم ﴾ .

(٢٩) ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾

﴿ يوسف أعرض عن هذا ﴾ أي أضرب عن هذا صفحاً ، أي فلا تذكره لأحد ﴿ واستغفري لذنبك ﴾ يقول لامرأته وقد كان لين العريكة سهلاً ، أو أنه عذرها ، لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ، فقال لها : استغفري لذنبك ، أي الذي وقع منك من إرادة السوء بهذا الشاب ، ثم قذفه بما هو بريء منه ﴿ إنك كنت من الخاطئين ﴾ .

(٣٠) ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة ، وهي مصر حتى تحدث به الناس ﴿ وقال نسوة في المدينة ﴾ مثل نساء الكبراء والأمراء ينكرون على امرأة العزيز ، وهو الوزير ، ويعبن ذلك عليها ﴿ امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه ﴾ أي تحاول غلامها عن نفسه ، وتدعوه إلى نفسها ﴿ قد شغفها حباً ﴾ أي قد وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو غلافه . ﴿ إنا لنراها في ضلال مبين ﴾ أي في صنيعها هذا من حبها فتاها ، ومراودتها إياه عن نفسه .

(٣١) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ فلما سمعت بمكرهن ﴾ قال بعضهم : بقولهن : ذهب الحب بها ، وقيل : بلغهن حسن يوسف فأحببن أن يرينه فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته فعند ذلك ﴿ أرسلت إليهن ﴾ أي دعتهن إلى منزلها لتضيفهن ﴿ وأعتدت لهن متكأ ﴾ هو المجلس

المعد فيه مفارش ، ومخاد ، وطعام فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وآتت كل واحدة منهن سكيناً ﴾ وكان هذا مكيدة منها ، ومقابلة لهن في احتيالهن على رؤيته ﴿ وقالت اخرج عليهن ﴾ وذلك أنها كانت قد خبأته في مكان آخر ﴿ فلما خرج و﴿ رأينه أكبرنه ﴾ أي أعظمنه أي أعظمن شأنه ، وأجللن قدره ، وجعلن يقطعن أيديهن دهشاً برؤيته ، وهن يظنن أنهن يقطعن الأترج بالسكاكين ، والمراد أنهن حززن أيديهن بها ﴿ وقلن حاش لله ما هذا بشراً . . . ﴾ ثم قلن لها : وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا ، لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ، ولا قريباً منه ، فإنه عليه السلام كان قد أعطي شطر الحسن كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح « مر ﷺ بيوسف في السماء الثالثة فقال : « فإذا هو قد أعطي شطر الحسن » ﴿ حاش لله ﴾ معاذ الله .

(٣٢) ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾

﴿ قالت فذلكن الذي لمتنني فيه ﴾ تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق أن يحب لجماله وكماله ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي فامتنع ، ثم قالت تتوعده ﴿ ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين ﴾ فعند ذلك استعاذ يوسف عليه السلام من شرهن وكيدهن .

(٣٣) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

﴿ قال رب السجن أحب إليّ مما يدعونني إليه ﴾ أي من الفاحشة ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن ﴾ أي وإن وكلتني إلى نفسي فليس لي منها قدرة ، ولا أملك لها ضراً ولا نفعاً إلا بحولك وقوتك ، أنت المستعان ، وعليك التكلان ، فلا تكلني إلى نفسي ﴿ أصب إليهن وأكن من الجاهلين ﴾ .

(٣٤) ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ فاستجاب له ربه ﴾ وذلك أن يوسف عصمه الله عصمة عظيمة ، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع ، واختار السجن على ذلك ، وهذا في غاية مقامات الكمال ، أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيدته ، وهي امرأة عزيز مصر ، وهي مع هذا في غاية الجمال

والمال والرياسة ، ويمتنع من ذلك ، ويختار السجن على ذلك خوفاً من الله ، ورجاء ثوابه . ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

(٣٥) ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

يقول تعالى : ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين ، أي إلى مدة ، وذلك بعدما عرفوا براءته ، وظهرت الآيات ، وهي الأدلة على صدقه وعفته ونزاهته ، وكأنهم ـ والله أعلم ـ إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاماً أنه راودها عن نفسها وأنهم سجنوه على ذلك . ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة . فلما تقرر ذلك خرج ، وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه . وذكر السدي أنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقه ، ويبرأ عرضه فيفضحها .

(٣٦) ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ ودخل معه السجن فتيان . . . ﴾ قال قتادة : كان أحدهما ساقي الملك ، والآخر خبازه . ثم إنهما رأيا مناماً ، فرأى الساقي أنه يعصر خمراً يعني عنباً ، ورأى الخباز أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه ﴿ نبئنا بتأويله . . . ﴾ .

(٣٧) ﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

يخبرهما يوسف عليه السلام أنهما مهما رأيا في منامهما من حلم ، فإنه عارف بتفسيره ، ويخبرهما بتأويله قبل وقوعه ، ولهذا قال ﴿ لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ﴾ ثم قال : وهذا إنما هو تعليم الله إياي ، لأني اجتنبت ملة الكافرين بالله واليوم الآخر ، فلا يرجون ثواباً ، ولا عقاباً في المعاد .

(٣٨) ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب . . . ﴾ يقول : هجرت طريق الشرك والكفر ، وسلكت طريق هؤلاء المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وهكذا يكون حال من سلك طريق الهدى ، واتبع طريق المرسلين ، وأعرض عن طريق الضالين ، فإن الله يهدي قلبه ، ويعلمه ما لم يكن يعلم ، ويجعله إماماً يقتدى به في الخير ، وداعياً إلى سبيل الرشاد . ﴿ ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ هذا التوحيد ، وهو الاقرار بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿ من فضل الله علينا ﴾ أي أوحاه إلينا وأمرنا به ﴿ وعلى الناس ﴾ إذ جعلنا دعاة إلى ذلك ﴿ ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ أي لا يعرفون نعمة الله عليهم بإرسال الرسل إليهم بل ﴿ بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار ﴾ .

(٣٩) ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ السِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَٰحِدُ الْقَهَّارُ ﴾

ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيين بالمخاطبة والدعاء لهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال ﴿ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه .

(٤٠) ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

ثم بين لهما أن التي يعبدونها ويسمونها آلهة إنما هو جعل منهم ، وتسمية من تلقاء أنفسهم ، تلقاها خلفهم عن سلفهم ، وليس لذلك مستند من عند الله ، ولهذا قال ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي حجة ولا برهان ، ثم أخبرهم أن الحكم والتصرف والمشيئة والملك كله لله ، وقد أمر عباده قاطبة أن لا يعبدوا إلا إياه . ثم قال تعالى ﴿ ذلك الدين القيم ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له هو الدين المستقيم الذي أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلهذا كان أكثرهم مشركين ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٤١) ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ السِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ

قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾

يقول لهما : ﴿ يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً ﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمراً ، ولكنه لم يعنيه لئلا يحزنه ذاك ولهذا أبهم في قوله ﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ﴾ وهو في نفس الأمر الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً . ثم أعلمهما أن هذا فرغ منه ، وهو واقع لا محالة ، لأن الرؤ يا على رجل طائر ما لم تعبر ، فإذا عبرت وقعت ﴿ قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ .

﴿٤٢﴾ ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾

ولما ظن يوسف عليه السلام أن الساقي ناج قال له يوسف خفية عن الآخر لئلا يشعره أنه مصلوب ، قال له : ﴿ اذكرني عند ربك ﴾ يقول : اذكر قصتي عند ربك ، وهو الملك فنسي ذلك الموصى أن يذكر مولاه الملك بذلك ، وكان ذلك من جملة مكايد الشيطان لئلا يطلع نبي الله من السجن ﴿ فأنساه الشيطان ذكر ربه ﴾ والبضع هو ما بين الثلاث إلى التسع .

﴿٤٣﴾ ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾

هذه الرؤ يا من ملك مصر مما قدر الله تعالى أنها كانت سبباً لخروج يوسف عليه السلام من السجن معززاً مكرماً ، وذلك أن الملك رأى هذه الرؤ يا فهالته ، وتعجب من أمرها ، وما يكون تفسيرها ، فجمع الكهنة والحادة وكبار دولته وأمراءه فقص عليهم ما رأى وسألهم عن تأويلها فلم يعرفوا ذلك ، واعتذروا إليه بأنها

﴿٤٤﴾ ﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴾

﴿ أضغاث أحلام ﴾ أي أخلاط أحلام اقتضته رؤ ياك هذه ﴿ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴾ أي لو كانت رؤ يا صحيحة من أخلاط لما كان لنا معرفة بتأويلها ، وهو تعبيرها ، فعند ذلك تذكر الذي نجا من ذينك الفتيين اللذين كانا في السجن مع يوسف ، وكان الشيطان قد أنساه ما أوصاه به يوسف من ذكر أمره للملك فعند ذلك

(٤٥) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾

تذكر بعد أمة أي بعد مدة ، فقال لهم أي للملك والذين جمعهم لذلك ﴿ أنا أنبئكم بتأويله ﴾ أي بتأويل هذا المنام ﴿ فأرسلون ﴾ أي فابعثوني إلى يوسف الصديق إلى السجن ، ومعنى الكلام فبعثوه فجاء فقال :

(٤٦) ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ يوسف أيها الصديق أفتنا ﴾ وذكر المنام الذي رآه الملك ، فعند ذلك ذكر له يوسف عليه السلام تعبيرها من غير تعنيف للفتى في نسيانه ما وصاه به ، ومن غير اشتراط للخروج قبل ذلك ، بل قال :

(٤٧) ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴾

﴿ تزرعون سبع سنين دأباً ﴾ أي يأتيكم الخصب والمطر سبع سنين متواليات ، ففسر البقر بالسنين ، لأنها تثير الأرض التي تستغل منها الثمرات والزروع ، وهن السنبلات الخضر ، ثم أرشدهم إلى ما يعتدونه في تلك السنين فقال ﴿ فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ﴾ أي مهما استغللتم في هذه السبع السنين الخصب فادخروه في سنبله ، ليكون أبقى له ، وأبعد عن إسراع الفساد إليه ، إلا المقدار الذي تأكلونه ، وليكن قليلاً قليلاً ، لا تسرفوا فيه ، لتنفقوا في السبع الشداد ، وهن السبع السنين المحل التي تعقب هذه السبع المتواليات . وهن البقرات العجاف اللاتي تأكل السمان ، لأن سني الجدب يؤكل فيها ما جمعوه من سني الخصب ، وهن السنبلات اليابسات وأخبرهم أنهن لا ينبتن شيئاً ، وما بذروه فلا يرجعون منه إلى شيء ، ولهذا قال :

(٤٨) ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾

(٤٩) ﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾

ثم بشرهم بعد الجدب العام المتوالي بأنه يعقبهم بعد ذلك عام فيه يغاث الناس ، أي يأتيهم الغيث ، وهو المطر ، وتغل البلاد ، ويعصر الناس ما كانوا يعصرون على عادتهم من زيت ونحوه ، وسكر ونحوه ، حتى قال بعضهم : يدخل فيه حلب اللبن أيضاً . وعن ابن عباس : ﴿ وفيه يعصرون ﴾ يحلبون .

(٥٠) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك لما رجعوا إليه بتعبير رؤ ياه التي كان رآها بما أعجبه وأيقنه فعرف فضل يوسف عليه السلام وعلمه وحسن اطلاعه على رؤ ياه ، وحسن أخلاقه على من ببلده من رعاياه فقال ﴿ ائتوني به ﴾ أي أخرجوه من السجن وأحضروه ، فلما جاءه الرسول بذلك امتنع من الخروج حتى يتحقق الملك ورعيته براءة ساحته ، ونزاهة عرضه مما نسب إليه من جهة امرأة العزيز ، وأن هذا السجن لم يكن على أمر يقتضيه ، بل كان ظلماً وعدواناً فقال ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة . . . ﴾ وقد وردت السنة بمدحه على ذلك ، والتنبيه على فضله وشرفه ، وعلو قدره وصبره صلوات الله وسلامه عليه ، ففي المسند والصحيحين قال رسول الله ﷺ : « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ﴿ رب أرني كيف تحيي الموتى ﴾ ويرحم الله لوطاً ، لقد كان يأوي إلى ركن شديد ، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي » .

(٥١) ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ هذا إخبار عن الملك حين جمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند امرأة العزيز ، فقال مخاطباً لهن كلهن ، وهو يريد امرأة وزيره ، وهو العزيز، قال الملك للنسوة اللاتي قطعن أيديهن ﴿ما خطبكن﴾ أي ما شأنكن وخبركن ﴿ إذ راودتن يوسف عن نفسه ﴾ يعني يوم الضيافة ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ﴾ أي قالت النسوة جواباً للملك : حاشا لله أن يكون يوسف متهماً ، والله ما علمنا عليه من سوء ، فعند ذلك ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴾ أي تبين الحق وظهر وبرز ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ أي في قوله ﴿ هي راودتني عن نفسي ﴾ .

(٥٢) ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾

﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ﴾ تقول : إنما اعترفت بهذا على نفسي ، ليعلم زوجي أني لم أخنه بالغيب في نفس الأمر ، ولا وقع المحذور ، وإنما راودت هذا الشاب مراودة

فامتنع فلهذا اعترفت ليعلم أني بريئة ﴿ وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ .

(٥٣) ﴿ * وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

﴿ وما أبرىء نفسي ﴾ تقول المرأة : ولست أبرىء نفسي ، فإن النفس تتحدث وتتمنى ، ولهذا راودته ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي ﴾ إلا من عصمه الله تعالى ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ وهذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعاني الكلام ، وقد حكاه الماوردي في تفسيره ، وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله ، فأفرده في تصنيف على حدة . وقد قيل : إن ذلك من كلام يوسف . يقول ﴿ ذلك ليعلم أني لم أخنه ﴾ في زوجته ﴿ بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين وما أبرىء نفسي ﴾ أي إنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتي ، وليعلم العزيز ﴿ أني لم أخنه ﴾ في زوجته ﴿ بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ﴾ وهذا القول الذي لم يحك ابن جرير ولا ابن حاتم سواه ، والقول الأول أظهر وأقوى ، لأن سياق الكلام كله من كلام امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك .

(٥٤) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن الملك حين تحقق براءة يوسف ونزاهة عرضه مما نسب إليه قال ﴿ ائتوني به أستخلصه لنفسي ﴾ أي أجعله من خاصتي وأهل مشورتي ﴿ فلما كلمه ﴾ أي خاطبه الملك وعرفه ، ورأى فضله وبراعته ، وعلم ما هو عليه من خَلْق وخُلُق وكما قال له الملك ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ أي إنك عندنا بقيت ذا مكانة وأمانة .

(٥٥) ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾

فقال يوسف عليه السلام ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ مدح نفسه ، ويجوز للرجل ذلك إذا جُهل أمره للحاجة وذكر أنه ﴿ حفيظ ﴾ أي خازن أمين ﴿ عليم ﴾ ذو علم وبصيرة بما يتولاه . وسأل العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما فيه مصالح الناس .

(٥٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ أي أرض مصر ﴿ يتبوأ منها حيث يشاء ﴾ أي يتصرف فيها كيف يشاء ﴿ نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ﴾ أي وما أضعنا صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز فلهذا أعقبه الله عز وجل السلام والنصر والتأييد .

﴿٥٧﴾ ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ يخبر تعالى أن ما ادخره الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام في الدار الآخرة أعظم وأكثر وأجل مما خوله من التصرف والنفوذ في الدنيا كقوله تعالى في حق سليمان ﴿ هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب . وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ والغرض أن يوسف عليه السلام ولاه ملك مصر الريان بن الوليد الوزارة في بلاد مصر فكان الذي اشتراه من مصر زوج التي راودته ، وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام . قاله مجاهد .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

لما باشر يوسف الوزارة بمصر ومضت السبع سنين المخصبة ، ثم تلتها السبع سنين المجدبة وعم القحط بلاد مصر بكمالها ، ووصل إلى بلاد كنعان وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وحينئذٍ احتاط يوسف للناس في غلاتهم ، وجمعها أحسن جمع ، فحصل من ذلك مبلغ عظيم وهدايا متعددة هائلة ، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات يمتارون لأنفسهم وعيالهم ، فكان لا يعطي الرجل أكثر من حمل بعير في السنة ، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه ، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النهار ، وكان رحمة من الله على أهل مصر . والغرض أنه كان في جملة من ورد للميرة إخوة يوسف عن أمر أبيهم لهم في ذلك فإنه بلغهم أن عزيز مصر يعطي الطعام للناس بثمنه ، فأخذوا معهم بضاعة يعتاضون بها طعاماً وركبوا عشرة . واحتبس يعقوب عنده ابنه بنيامين شقيق يوسف ، وكان أحبَّ ولده إليه بعد يوسف فلما دخلوا عليه وهو جالس في أبهته ورياسته وسيادته عرفهم حين نظر إليهم ﴿ وهم له منكرون ﴾ أي لا يعرفونه لأنهم فارقوه وهو صغير حدث ، وباعوه للسيارة ولم يدروا أين يذهبون به ولا كانوا يستشعرون في أنفسهم أن يصير إلى ما صار إليه فلهذا لم يعرفوه ، وأما هو فعرفهم ، وقد شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ فقالوا : يا أيها العزيز إنا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله . قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من

بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا نعم : كنا اثني عشر فذهب أصغرنا هلك في البرية ، وكان أحبنا إلى أبيه وبقي شقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلى به ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم .

﴿٥٩﴾ ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾

﴿ ولما جهزهم بجهازهم ﴾ أي أوفى لهم كيلهم ، وحمل لهم أحمالهم قال ائتوني بأخيكم هذا الذي ذكرتم لأعلم صدقكم فيما ذكرتم ﴿ ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين ﴾ يرغبهم في الرجوع إليه ، ثم رهَّبهم فقال :

﴿٦٠﴾ ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾

أي إن لم تقدموا به معكم في المرة الثانية فليس لكم عندي ميرة ﴿ ولا تقربونِ ﴾ .

﴿٦١﴾ ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴾

أي سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ، ولا نبقي مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلناه .

﴿٦٢﴾ ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ وقال لفتيانه ﴾ أي غلمانه ﴿ اجعلوا بضاعتهم ﴾ أي التي قدموا بها ليمتاروا عوضاً عنها ﴿ في رحالهم ﴾ أي في أمتعتهم من حيث لا يشعرون ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ بها .

﴿٦٣﴾ ﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

يقول تعالى عنهم : إنهم رجعوا إلى أبيهم ﴿ قالوا يا أبانا منع منا الكيل ﴾ يعنون بعد هذه المرة إن لم ترسل معنا أخانا « بنيامين » لا نكتل ، فأرسله معنا نكتل ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي لا تخف عليه ، فإنه سيرجع إليك ، وهذا كما قالوا له في يوسف ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾ ولهذا قال لهم :

﴿٦٤﴾ ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

﴿ هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ أي هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيبونه عني ، وتحولون بيني وبينه ؟ ﴿ فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين ﴾ أي هو أرحم الراحمين بي ، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي وأرجو من الله أن يرده عليّ ، ويجمع شملي به ، إنه أرحم الراحمين .

(٦٥) ﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِي هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾

يقول تعالى : ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، وهي التي كان أمر يوسف فتيانه بوضعها في رحالهم فلما وجدوها في متاعهم ﴿قالوا يا أبانا ما نبغي﴾ أي ماذا نريد ؟ ﴿ هذه بضاعتنا ردت إلينا ﴾ ما نبغي وراء هذا ؟ إن بضاعتنا ردت إلينا ، وقد أوفى لنا الكيل ﴿ ونمير أهلنا ﴾ أي إذا أرسلت أخانا معنا نأتي بالميرة إلى أهلنا ﴿ ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ﴾ وذلك أن يوسف عليه السلام كان يعطي كل رجل حمل بعير ﴿ ذلك كيل يسير ﴾ هذا من تمام الكلام وتحسينه ، أي إن هذا يسير في مقابلة أخذ أخيهم ما يعدل هذا .

(٦٦) ﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

﴿ قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله ﴾ أي تحلفون بالعهود والمواثيق ﴿ لتأتنني به إلا أن يحاط بكم ﴾ إلا أن تغلبوا كلكم ، ولا تقدرون على تخليصه ﴿ فلما آتوه موثقهم ﴾ أكده عليهم فقال ﴿ قال الله على ما نقول وكيل ﴾ وإنما نفعل ذلك لأنه لم يجد بداً من بعثهم لأجل الميرة التي لا غنى لهم عنها فبعثه معهم .

(٦٧) ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن يعقوب عليه السلام : إنه أمر بنيه لما جهزهم مع أخيهم « بنيامين » إلى مصر أن لا يدخلوا من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، فإنه خشي عليهم العين ، وذلك أنهم كانوا ذوي جمال وهيئة حسنة ومنظر وبهاء فخشي عليهم أن يصيبهم

الناس بعيونهم ، فإن العين حق تستنزل الفارس عن فرسه ﴿ وما أغني عنكم من الله من شيء ﴾ أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئاً لا يخالف ولا يمانع ﴿ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون ﴾ .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦٨)

قالوا : هي دفع إصابة العين لهم ﴿ وإنه لذو علم لما علمناه ﴾ أي لذو عمل بعلمه ، أو لذو علم لتعليمنا إياه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٦٩)

يخبر تعالى عن إخوة يوسف لما قدموا على يوسف ، ومعهم أخوه شقيقه « بنيامين » ، وأدخلهم دار كرامته ، ومنزل ضيافته ، وأفاض عليهم الصلة والألطاف والاحسان ، واختلى بأخيه فأطلعه على شأنه ، وما جرى له ، وعرفه أنه أخوه : وقال له : لا تبتئس ، أي لا تأسف على ما صنعوا بي ، وأمره بكتمان ذلك عنهم ، وأن لا يطلعهم على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقيه عنده معززاً مكرماً معظماً .

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ (٧٠)

لما جهزهم وحمل أبعرتهم طعاماً أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية ، وهي إناء من فضة ، وقيل : من ذهب كان يشرب فيه ، ويكيل للناس فيه من عزة الطعام . عن ابن عباس : كان من فضة يشربون فيه ، وكان مثل المكوك ، وكان للعباس مثله في الجاهلية ، فوضعها في متاع « بنيامين » من حيث لا يشعر أحد ، ثم نادى مناد بينهم : ﴿ أيتها العير إنكم لسارقون ﴾ .

﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ (٧١)

فالتفتوا إلى المنادي وقالوا ﴿ ماذا تفقدون ﴾ .

﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴾ (٧٢)

﴿ قالوا نفقد صواع الملك ﴾ أي صاعه الذي يكيل فيه ﴿ ولمن جاء به حمل بعير ﴾ وهذا من باب الجعالة ﴿ وأنابه زعيم ﴾ وهذا من باب الضمان والكفالة .

(٧٣) ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴾

لما اتهمهم أولئك الفتيان بالسرقة قال لهم إخوة يوسف ﴿ تالله لقد علمتم ﴾ أي لقد تحققتم وعلمتم منذ عرفتمونا ، لأنهم شاهدوا منهم سيرة حسنة ، أنَّا ﴿ ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين ﴾ أي ليست سجايانا تقتضي هذه الصفة .

(٧٤) ﴿ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴾

فقال لهم الفتيان ﴿ فما جزاؤه ﴾ أي السارق إن كان فيكم ﴿ إن كنتم كاذبين ﴾ أي أيُّ شيء يكون عقوبته إن وجدنا فيكم من أخذه ؟

(٧٥) ﴿ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه . . . ﴾ وهكذا كانت شريعة إبراهيم عليه السلام أن السارق يدفع إلى المسروق منه وهذا هو الذي أراد يوسف عليه السلام .

(٧٦) ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾

ولهذا بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، أي فتشها قبله تورية ﴿ ثم استخرجها من وعاء أخيه ﴾ فأخذه منهم بحكم اعترافهم ، والتزامهم ، وإلزاماً لهم بما يعتقدونه ، ولهذا قال ﴿ كذلك كدنا ليوسف ﴾ وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة . وقوله ﴿ ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ﴾ أي لم يكن له أخذه في حكم ملك مصر . وإنما قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه الله تعالى فقال ﴿ نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ أي ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عز وجل .

(٧٧) ﴿ * قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾

وقال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من متاع « بنيامين » ﴿ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ﴾ يتنصلون إلى العزيز من التشبه به ، ويذكرون أن هذا فعل كما فعل أخ له من قبل ، يعنون يوسف عليه السلام ، وقد كان يوسف سرق صنماً لجده أبي أمه فكسره ﴿ فأسرها يوسف في نفسه ﴾ يعني الكلمة التي بعدها ، وهي قوله ﴿ أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴾ أي تذكرون ، قال هذا في نفسه ، ولم يبده لهم ، وهذا من باب الإضمار قبل الذكر ، وله شواهد في القرآن والحديث واللغة في منثورها وأخبارها وأشعارها ، ومنه :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزي سنمار

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (٧٨)

لما تعين أخذ « بنيامين » وتقرر تركه عند يوسف بمقتضى اعترافهم شرعوا يترققون له ويعطفونه عليهم ﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً ﴾ يعنون : وهو يحبه حباً شديداً ، ويتسلى به عن ولده الذي فقده ﴿ فخذ أحدنا مكانه ﴾ أي بدله ، يكون عوضاً عنه ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ أي العادلين المنصفين القابلين للخير .

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴾ (٧٩)

﴿ قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ﴾ أي كما قلتم واعترفتم ﴿ إنا إذاً لظالمون ﴾ أي إن أخذنا بريئاً بسقيم ، أي بمذنب وجانٍ .

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ (٨٠)

يخبر تعالى عن إخوة يوسف أنهم لما يئسوا من تخليص أخيهم « بنيامين » الذي قد التزموا لأبيهم برده إليه ، وعاهدوه على ذلك ، فامتنع عليهم ذلك ﴿ خلصوا ﴾ أي انفردوا عن الناس ﴿ نجياً ﴾ أي يتناجون فيما بينهم ﴿ قال كبيرهم ﴾ وهو « روبيل » وقيل : « يهوذا » وهو الذي أشار عليهم بإلقائه في البئر عندما هموا بقتله قال لهم : ﴿ ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ﴾ لتردنه إليه ، فقد رأيتم كيف تعذر عليكم ذلك ، مع ما

تقدم لكم من إضاعة يوسف عنه ﴿ فلن أبرح الأرض ﴾ أي لن أفارق هذه البلدة ﴿ حتى يأذن لي أبي ﴾ في الرجوع إليه راضياً عني ﴿ أو يحكم الله لي ﴾ قيل : بالسيف ، وقيل : بأن يمكنني من أخذ أخي ﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ .

(٨١) ﴿ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴾

ثم أمرهم أن يخبروا أباهم بصورة ما وقع حتى يكون عذراً لهم عنده ، ويتنصلوا إليه ، ويبرؤ وا مما وقع بقولهم . ﴿ يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ . وقوله ﴿ وما كنا للغيب حافظين ﴾ أي ما علمنا أن ابنك سرق ، إنما سألناه ما جزاء السارق ؟

(٨٢) ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾

﴿ واسأل القرية التي كنا فيها ﴾ قيل : المراد مصر ، وقيل : غيرها ﴿ والعير التي أقبلنا فيها ﴾ أي التي رافقناها عن صدقنا وأمانتنا وحفظنا وحراستنا ﴿ وإنا لصادقون ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق وأخذوه بسرقته .

(٨٣) ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

قال لهم كما قال لهم حين جاؤ وا على قميص يوسف بدم كذب ﴿ بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ﴾ لما جاؤ وا يعقوب وأخبروه بما جرى اتهمهم فظن أنها كفعلتهم بيوسف ، وقال بعض الناس : لما كان صنيعهم هذا مرتباً على فعلهم الأول سحب حكم الأول عليه . ثم ترجى من الله أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف ، وأخاه بنيامين وروبيل الذي أقام بديار مصر ينتظر أمر الله فيه ، إما أن يرضى عنه أبوه فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، ولهذا قال ﴿ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم ﴾ أي العليم بحالي ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله ، وقضائه وقدره .

(٨٤) ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف ﴾ أي أعرض عن بنيه ، وقال متذكراً حزن يوسف القديم الأول فقد جدد له حزن الابنين الحزن الدفين على يوسف . عن سعيد بن جبير أنه

قال : لم يعط أحد غير هذه الأمة الاسترجاع ؛ ألا تسمعون إلى قول يعقوب عليه السلام ﴿ يا أسفا على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم ﴾ أي ساكت لا يشكو أمره إلى مخلوق ، وقال الضحاك ﴿ فهو كظيم ﴾ أي كئيب حزين .

(٨٥) ﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَٰلِكِينَ ﴾

﴿ تالله تفتأ تذكر يوسف ﴾ أي لا تفارق تذكر يوسف ﴿ حتى تكون حرضاً ﴾ أي ضعيف القوة ﴿ أو تكون من الهالكين ﴾ يقولون : إن استمر بك هذا الحال خشينا عليك الهلاك والتلف .

(٨٦) ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ﴾ أي أجابهم عما قالوا بهذا أي همي وما أنا فيه ﴿ إلى الله ﴾ وحده ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أرجو منه كل خير ، أو أن رؤيا يوسف صدق ، وأن الله لا بد أن يظهرها .

(٨٧) ﴿ يَٰبَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يعقوب عليه السلام: إنه ندب بنيه على الذهاب في الأرض يستعلمون أخبار يوسف وأخيه « بنيامين » والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، ونهّضهم وبشرهم ، وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله ، أي لا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يرومونه ويقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

(٨٨) ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾

﴿ فلما دخلوا عليه ﴾ تقدير الكلام : فذهبوا فدخلوا مصر ودخلوا على يوسف ﴿ قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ﴾ يعنون من الجدب والقحط وقلة الطعام ﴿ وجئنا ببضاعة مزجاة ﴾ أي ومعنا ثمن الطعام الذي نختاره ، وهو ثمن قليل . قال الضحاك : مزجاة : كاسدة لا تنفق . وأصل الازجاء الدفع لضعف الشيء . ﴿ فأوف لنا الكيل ﴾ أي أعطنا

بهذا الثمن القليل ما كنت تعطينا قبل ذلك . قال ابن جريج : وتصدق علينا برد أخينا إلينا . سئل مجاهد هل يكره أن يقول الرجل في دعائه : اللهم تصدق عليّ ؟ قال : نعم ، إنما الصدقة لمن يبتغي الثواب .

(٨٩) ﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام أنه لما ذكر له إخوته ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام وعموم الجدب ، وتذكر أباه ، وما هو فيه من الحزن لفقد ولديه ، مع ما هو فيه من الملك والتصرف والسعة ، فعند ذلك أخذته رقة ورأفة ورحمة وشفقة على أبيه وإخوته ، وبدره البكاء فتعرف إليهم ، فيقال : إنه رفع التاج عن جبهته ، وكان فيها شامة ، وقال : ﴿ هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ﴾ يعني كيف فرقوا بينه وبين أخيه ﴿ إذ أنتم جاهلون ﴾ أي إنما حملكم على هذا الجهل بمقدار هذا الذي ارتكبتموه ، كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، ثم قرأ ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ والظاهر ـ والله أعلم ـ أن يوسف عليه السلام إنما تعرف إليهم بنفسه بإذن الله تعالى له في ذلك ، كما أنه إنما أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بأمر الله تعالى له في ذلك والله أعلم ، ولكن لما ضاق الحال ، واشتد الأمر فرج الله تعالى من ذلك الضيق . فعند ذلك قالوا :

(٩٠) ﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ أئنك لأنت يوسف ؟ ﴾ والاستفهام يدل على الاستعظام . أي أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر ، وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه . فلهذا قالوا على سبيل التعجب ﴿ أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي ﴾ وقوله ﴿ قد من الله علينا ﴾ أي بجمعه بيننا بعد التفرقة وبعد المدة ﴿ إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ .

(٩١) ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾

﴿ قالوا تالله لقد آثرك الله علينا . . ﴾ يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخلق والخلق ، والسعة والملك ، والتصرف والنبوة أيضاً على قول من يجعلهم من الأنبياء ، وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه ، وأخطأوا في حقه .

(٩٢) ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

﴿ قال لا تثريب عليكم ﴾ يقول : أي لا تأنيب عليكم ، ولا عتب عليكم اليوم ، ولا أعيد عليكم ذنبكم في حقي بعد اليوم ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة فقال ﴿ يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ﴾ اعتذروا إلى يوسف فقال ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ يقول : لا أذكر لكم ذنبكم ، ولا تأنيب عليكم عندي فيما صنعتم ﴿ يغفر الله لكم ﴾ أي يستر الله عليكم فيما فعلتم ﴿ وهو أرحم الراحمين ﴾ .

(٩٣) ﴿ ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

يقول : اذهبوا بهذا القميص ﴿ فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً ﴾ وكان قد عمي من كثرة البكاء ﴿ وأتوني بأهلكم أجمعين ﴾ أي بجميع بني يعقوب .

(٩٤) ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾

﴿ ولما فصلت العير ﴾ أي خرجت من مصر ﴿ قال أبوهم ﴾ يعني يعقوب عليه السلام لمن بقي عنده من بنيه ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ أي تنسبوني إلى الفند والكبر . عن ابن عباس يقول : ﴿ ولما فصلت العير ﴾ لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف فقال ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ قال : فوجد ريحه عن مسيرة ثمانية أيام . وقيل : ﴿ تفندون ﴾ تسفهون ، وقيل : تهرمون .

(٩٥) ﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾

وقولهم ﴿ إنك لفي ضلالك القديم ﴾ لفي خطئك القديم أي من حب يوسف ، لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ، ولا لنبي الله ﷺ .

(٩٦) ﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ البشير ﴾ البريد . قال مجاهد والسدي : كان يهوذا ابن يعقوب . قال السدي : إنما جاء لأنه هو الذي جاء بالقميص وهو ملطخ بدم كذب ، فأحب أن يغسل ذلك بهذا فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً وقال لبنيه عند ذلك ﴿ ألم أقل لكم إني أعلم

من الله ما لا تعلمون ﴾ أي أعلم أن الله سيرده إلي وقلت لكم ﴿ إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ﴾ فعند ذلك قالوا لأبيهم مترفقين له :

﴿ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴾ (٩٧)

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٩٨)

﴿ يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم ﴾ أي من تاب تاب عليه . قال ابن مسعود : أرجأهم إلى وقت السحر . روى ابن جرير عن محارب بن دثار قال : كان عمر رضي الله عنه يأتي المسجد فيسمع إنساناً يقول : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا السحر فاغفر لي ، قال : فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبدالله بن مسعود ، فسأل عبدالله عن ذلك فقال : إن يعقوب أخر بنيه إلى السحر بقوله ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ (٩٩)

يخبر تعالى عن ورود يعقوب عليه السلام على يوسف عليه السلام ، وقدومه بلاد مصر لما كان يوسف قد تقدم لاخوته أن يأتوه بأهلهم أجمعين ، فتحملوا عن آخرهم ، وترحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف عليه السلام باقترابهم خرج لتلقيهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف لتلقي نبي الله يعقوب عليه السلام ، ويقال : إن الملك خرج أيضاً لتلقيه ، وهو الأشبه . وقد أشكل قوله ﴿ آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر ﴾ على كثير من المفسرين ، فقال بعضهم : هذا من المقدم والمؤخر ، ومعنى الكلام ﴿ وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش ، ورد ابن جرير هذا وأجاد في ذلك ، ثم اختار ما حكاه السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهم ، ثم لما وصلوا باب البلد قال ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ وفي هذا نظر أيضاً لأن الإيواء إنما يكون في المنزل كقوله ﴿ آوى إليه أخاه ﴾ وما المانع أن يكون قال لهم بعدما دخلوا عليه وآواهم إليه ادخلوا مصر ، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط . ويقال ـ والله أعلم ـ إن الله تعالى رفع عن أهل مصر بقية السنين المجدبة ببركة قدوم يعقوب عليهم كما رفع بقية السنين التي دعا بها رسول الله ﷺ على أهل مكة حين قال : « اللهم أعني عليهم بسبع سنين كسبع يوسف » ثم لما تضرعوا إليه واستشفعوا لديه دعا لهم فرفع عنهم بقية ذلك ببركة دعائه ﷺ .

﴿١٠٠﴾ ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ ورفع أبويه على العرش ﴾ يعني السرير أي أجلسهما معه على سريره ﴿ وخروا له سجداً ﴾ أي سجد له أبواه وإخوته الباقون ، وكانوا أحد عشر رجلاً ﴿ وقال يا أبت هذا تأويل رؤ ياي من قبل ﴾ أي التي قصها على أبيه من قبل ﴿ إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ وقد كان هذا سائغاً في شرائعهم ، إذا سلموا على الكبير يسجدون له ، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام . فحرم هذا في هذه الملة ، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى . وفي الحديث أن معاذاً قدم الشام فوجدهم يسجدون لأساقفتهم ، فلما رجع سجد لرسول الله ﷺ فقال : « ما هذا يا معاذ ؟ » فقال : إني رأيتهم يسجدون لأساقفتهم ، وأنت أحق أن يسجد لك يا رسول الله ، فقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها » وفي حديث آخر أن سلمان لقي النبي ﷺ في بعض طرق المدينة ، وكان سلمان حديث عهد بالإسلام فسجد للنبي ﷺ فقال : « لا تسجد لي يا سلمان ، واسجد للحي الذي لا يموت » . والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم ، ولهذا خروا له سجداً فعندها قال : ﴿ يا أبت هذا تأويل رؤ ياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي هذا ما آل إليه الأمر ، فإن التأويل يطلق على ما يصير إليه الأمر ﴿ قد جعلها ربي حقاً ﴾ أي صحيحة صدقاً ، يذكر نعم الله عليه ﴿ وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ﴾ أي البادية ، فقد كانوا أهل بادية وماشية ﴿ من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء ﴾ أي إذا أراد أمراً قيض له أسباباً وقدره ويسره ﴿ إنه هو العليم ﴾ بمصالح عباده ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله وقضائه وقدره وما يختاره وما يريده . قال أبو عثمان النهدي عن سليمان : كان بين رؤ يا يوسف وتأويلها أربعون سنة .

﴿١٠١﴾ ﴿ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

هذا دعاء من يوسف الصديق ، دعا به عز وجل لما وتمت نعمة الله عليه باجتماعه

بأبويه ، وإخوته ، وما منّ الله به عليه من النبوة والملك ، سأل ربه عز وجل كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها في الآخرة ، وأن يتوفاه مسلماً حين يتوفاه ، وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين . وهذا دعاء يحتمل أن يكون قاله عند احتضاره كما في الصحيحين « اللهم الرفيق الأعلى » ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام ، واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله وانقضى عمره ، لا أنه سأل ذلك منجزاً ، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزاً وكان سائغاً في ملتهم ، ولكن هذا لا يجوز في شريعتنا ففي الصحيحين « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان ولا بد متمنياً الموت فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي » وأما إذا كانت فتنة الدين فيجوز سؤال الموت كما قال تعالى إخباراً عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم ، وتهددهم بالقتل ﴿ قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ وقالت مريم ﴿ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ وفي الحديث المرفوع « اثنتان يكرههما ابن آدم : يكره الموت والموت خير للمؤمنين من الفتن ، ويكره قلة المال ، وقلة المال أقل للحساب » ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في آخر خلافته لما رأى أن الأمور لا تجتمع له ، ولا يزداد الأمر إلا شدة «اللهم خذني إليك»، فقد سئمتهم وسئموني . وقال البخاري رحمه الله لما وقعت له تلك الفتنة ، وجرى له مع أمير خراسان ما جرى : اللهم توفني إليك . وفي الحديث : « إن الرجل ليمر بالقبر - أي في زمان الدجال - فيقول : يا ليتني مكانك » .

(١٠٢) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾

﴿ نوحيه إليك ﴾ نعلمك به لما فيه من العبرة لك ، والاتعاظ لمن خالفك ﴿ وما كنت لديهم ﴾ حاضراً عندهم ولا مشاهداً لهم ﴿ إذ أجمعوا أمرهم ﴾ أي على إلقائه في الجب ﴿ وهم يمكرون ﴾ به ، ولكنا أعلمناك به وحياً إليك وإنزالاً عليك .

(١٠٣) ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

ومع أن الله قد أطلعه على أنباء مما قد سبق فيه عبرة للناس ، ونجاة لهم في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، ولهذا قال ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(١٠٤) ﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ وما تسألهم عليه من أجر ﴾ أي ما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر ، أي من جعالة ، ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحاً للخلق ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ يتذكرون ويهتدون وينجون به في الدنيا والآخرة .

(١٠٥) ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت وسيارات وأفلاك دائرات ، والجميع مسخرات ، وكم في الأرض من قطع متجاورات ، وحدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وأمواج متلاطمات ، وقفار شاسعات ، وكم من أحياء وأموات ، وحيوان ونبات ، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات ، فسبحان الواحد الأحد ، خالق أنواع المخلوقات ، المتفرد بالبقاء والدوام والصمدية للأسماء والصفات ، وغير ذلك .

(١٠٦) ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾

قال ابن عباس : من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم : من خلق السموات والأرض ، ومن خلق الجبال ؟ قالوا : الله ، وهم مشركون به . وفي الصحيحين أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك . وقال الحسن البصري : ذلك المنافق ، يعمل إذا عمل رياء الناس ، وهو مشرك بعمله ذلك . وثم شرك آخر خفي لا يشعر به غالباً فاعله ، عن عروة قال : دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيراً فقطعه ، أو انتزعه ، ثم قال ﴿ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴾ وفي الحديث : « من حلف بغير الله فقد أشرك » رواه الترمذي وحسنه . وفي الحديث : « الشرك أخفى في أمتي من دبيب النمل على الصفا » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، فكيف النجاة والمخرج من ذلك ؟ فقال : « ألا أخبرك بشيء إذا قلته برئت من قليله وكثيره ، وصغيره وكبيره ؟ » قال : بلى ، يا رسول الله ، قال : « قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفر لما لا أعلم » .

(١٠٧) ﴿ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله . . ﴾ أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون كقوله تعالى ﴿ أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف

الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ .

(١٠٨) ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين : الإنس والجن آمراً له أن يخبر الناس أن هذه سبيله ، أي طريقته ومسلكه وسنته ، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يدعو إلى الله بها على بصيرة من ذلك ، ويقين وبرهان ، وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي . وقوله ﴿ وسبحان الله ﴾ أي وأنزه الله وأجله وأعظمه وأقدسه عن أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد ، أو ولد أو والد أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتقدس وتنزه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ .

(١٠٩) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول جمهور العلماء أنه ليس في النساء نبية ، وإنما فيهن صديقات ﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿ فينظروا كيف كان .. ﴾ فإذا استمعوا خبر ذلك رأوا أن الله قد أهلك الكافرين ، ونجى المؤمنين ﴿ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ﴾ أي وكما نجينا المؤمنين في الدنيا كذلك كتبنا لهم النجاة في الدار الآخرة ، وهي خير لهم من الدنيا بكثير .

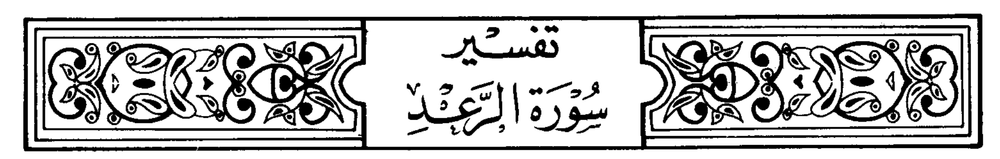
(١١٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يذكر تعالى أن نصره ينزل على رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين عند ضيق الحال ، وانتظار الفرج من الله في أحوج الأوقات إليه ، ﴿ حتى إذا استيأس الرسل ﴾ أي

من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ﴿ وظنوا أنهم قد كذبوا ﴾ أي وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا .

(١١١) ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى : لقد كان في خبر المرسلين مع قومهم ، وكيف نجينا المؤمنين وأهلكنا الكافرين ﴿ عبرة لأولي الألباب ﴾ وهي العقول ﴿ ما كان حديثاً يفترى ﴾ أي وما كان لهذا القرآن أن يفترى من دون الله ، أي يكذب ويختلق ﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة من السماء ، وهو يصدق ما فيها من الصحيح ، وينفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير . ﴿ وتفصيل كل شيء ﴾ من تحليل وتحريم ، ومحبوب ومكروه ، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمنجيات والنهي عن الحرمات وما شاكلها من المكروهات ، والاخبار عن الأمور الجليلة ، وعن الغيوب المستقبلة ، والاخبار عن الرب بالأسماء والصفات ، وتنزهه عن مماثلة المخلوقات ، فلهذا كان ﴿ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد ، ومن الضلال إلى السداد .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة ، وكل سورة ابتدأت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن ، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب . ولهذا قال ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ أي هذه آيات القرآن ﴿ والذي أنزل إليك ﴾ يا محمد ﴿ من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن من أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته ، وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد ، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لا تنال ، ولا يدرك مداها ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ وقوله ﴿ترونها﴾ أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها ﴿ثم استوى على العرش﴾ من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل. تعالى الله علواً كبيراً ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ قيل : المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة ، كقوله تعالى ﴿ والشمس تجري لمستقر لها ﴾ وقوله ﴿ يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

(٣) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي شرع في ذكر قدرته وحكمته وأحكامه للعالم السفلي فقال ﴿ وهو الذي مد الأرض ﴾ أي جعلها متسعة وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح ﴿ جعل فيها زوجين اثنين ﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿ يغشي الليل النهار ﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر ، فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله .

(٤) ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وفي الأرض قطع متجاورات ﴾ أي أرض يجاور بعضها بعضاً ، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس ، وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً . ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض ، فهذه تربة حمراء ، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه سهلة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكل متجاورات ،

فهذه بصفتها وهذه بصفتها الأخرى . فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار . لا إله إلا هو ولا رب سواه . ﴿ صنوان وغير صنوان ﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل وغير ذلك ، وغير صنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار ومنه سمي عم الرجل صنو أبيه كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر : « أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » ﴿ يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ﴾ هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها ، فهذا في غاية الحلاوة ، وهذا في غاية الحموضة ، وذا في غاية المرارة ، وذا عفص ، وهذا عذب ، وهذا جمع هذا وهذا ، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى . وهذا أصفر وهذا أحمر وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق ، وكذلك الزهورات ، مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة ، وهو الماء مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط . ففي ذلك آيات لمن كان واعياً ، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

(٥) ﴿ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿ وإن تعجب ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ، ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء فكونها بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً ثم هم بعد هذا يكذبون خبره في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً ، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به ، فالعجب من قولهم ﴿ أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس . وأن من بدأ الخلق فالاعادة عليه أسهل . ثم نعت المكذبين بهذا فقال ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم ﴾ أي يسحبون بها في النار ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي ماكثون فيها أبداً ، لا يحولون عنها ولا يزولون .

(٦) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

﴿ ويستعجلونك ﴾ أي هؤلاء المكذبون ﴿ بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي بالعقوبة ﴿ وقد خلت من قبلهم المثلات ﴾ أي قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار . ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف ﴿ وإن ربك لشديد العقاب ﴾ روى ابن عساكر عن أبي حسان الرماوي أنه رأى رب العزة في النوم ورسول الله واقف بين يديه يشفع في رجل من أمته ، فقال له : ألم يكفك أني أنزلت عليك في سورة الرعد ﴿ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم ﴾ قال : ثم انتبهت .

(٧) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفراً وعناداً : لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح عنهم الجبال ، ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ قال تعالى ﴿ إنما أنت منذر ﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها ، ﴿ وليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ وقوله ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ أي ولكل قوم داع ونبي .

(٨) ﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات كما قال تعالى ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ أي ما حملت من ذكر وأنثى ، أو حسن أو قبيح ، أو شقي أو سعيد ، أو طويل العمر أو قصيره كقوله تعالى ﴿ هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم ﴾ وفي الصحيحين « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه ملكاً ، فيؤمر بأربع كلمات ، يكتب رزقه وعمره وعمله ، وشقي أو سعيد » وفي الحديث الآخر « فيقول الملك : أي رب ، أذكر أم أنثى ؟ أي رب ، أشقي أم سعيد ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ فيقول الله ، ويكتب الملك » . ﴿ وما تغيض الأرحام ﴾ يعني السقط ﴿ وما تزداد ﴾ يقول : ما زادت الرحم في الحمل ، ومنهن من تنقص فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى ، وكل ذلك بعلمه تعالى ﴿ وكل شيء

عنده بمقدار ﴾ أي بأجل ، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم ، وجعل لذلك أجلاً معلوماً . وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت وأنها تحب أن يحضره فبعث إليها يقول : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمروها فلتصبر ولتحتسب » .

(٩) ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴾

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ، ومما يغيب عنهم ، ولا يخفى عليه منه شيء ﴿ الكبير ﴾ الذي هو أكبر من كل شيء ﴿ المتعال ﴾ أي على كل شيء ﴿ قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ، ودان له العباد طوعاً وكرهاً .

(١٠) ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه ، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله ﴿ وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ﴾ وقالت عائشة : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وأنا في جنب البيت ، وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها فأنزل الله ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ وقوله ﴿ ومن هو مستخف بالليل ﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل ﴿ وسارب بالنهار ﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه ، فإن كليهما في علم الله على السواء كقوله ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .

(١١) ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴾

﴿ له معقبات من بين يديه . . ﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه : حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار » ﴿ يحفظونه من أمر الله ﴾ بأمر الله . ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ روى ابن أبي حاتم قال : أوحى الله إلى نبي من الأنبياء من بني إسرائيل أن قل لقومك : إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على

طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوَّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون ، وتصديق ذلك هذه الآية .

(١٢) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق ، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب ﴿ خوفاً وطمعاً ﴾ خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته ، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله ﴿ وينشيء السحاب الثقال ﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة ، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض .

(١٣) ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴾

﴿ ويسبح الرعد بحمده ﴾ كقوله ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان . ﴿ وهم يجادلون في الله ﴾ أي يشكون في عظمته ، وأنه لا إله إلا هو ﴿ وهو شديد المحال ﴾ شديدة مماحلته في عقوبته من طغى عليه وعتا ، وتمادى في كفره .

(١٤) ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾

﴿ له دعوة الحق ﴾ التوحيد ، أو لا إله إلا الله ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿ كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ﴾ كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده ، وهو لا يناله أبداً بيده ، فكيف يبلغ فاه ؟ قال مجاهد : ﴿ كباسط كفيه ﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً ﴿ وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ .

(١٥) ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ۩ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين ، وكرهاً من الكافرين ﴿ وظلالهم بالغدو ﴾ أي البكر ﴿ والآصال ﴾ وهو جمع أصيل ، وهو آخر النهار .

(١٦) ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾

يقرر تعالى أنه لا إلّه إلا هو ، لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السموات والأرض ، وهو ربهما ومدبرهما، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لا لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة ، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه ؟ ﴿ قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره أي ليس الأمر كذلك ، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله ، ولا ند ولا عدل له ، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة ﴿ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴾ وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة معترفون أنها مخلوقة له عبيد له كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك » وكما أخبر الله عنهم في قوله ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ فأنكر الله عليهم ذلك حيث اعتقدوا ذلك ، وهو تعالى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

(١٧) ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أي مطراً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أي أخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء ، وهذا صغير وسع بقدره ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها ، فمنها ما يسع علماً كثيراً ، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم ، بل يضيق عنها ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه ، هذا مثل . وقوله ﴿ ومما يوقدون عليه في النار

ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ﴾ هذا هو المثل الثاني ، وهو ما يسبك في النار من ذهب وفضة ابتغاء حلية ، أي ليجعل حلية ، أو نحاساً ، أو حديداً ، فيجعل متاعاً ، فإنه يعلوه زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾ أي إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ، ولا دوام له ، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء ، ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك في النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أي لا ينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ، ويذهب في جانبي الوادي ، ويعلق بالشجر ، وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ، ولا يبقى إلا الماء ، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به ، ولهذا قال ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾ كقوله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ قال بعض السلف : كنت إذا قرأت مثلاً في القرآن فلم أفهم بكيت على نفسي ، لأن الله قال ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وفي الصحيحين « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » فهذا مثل مائي . وفي الصحيحين « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلكم مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني فتقتحمون فيها » فهذا مثل ناري .

(١٨) ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية فلهم ﴿ الحسنى ﴾ وهو الجزاء الحسن ، كقوله تعالى ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ وقوله ﴿ والذين لم يستجيبوا له ﴾ أي لم يطيعوا الله ﴿ لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ﴾ أي في الدار الآخرة لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل

منهم ، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ﴾ أي في الدار الآخرة ، أي يناقشون على النقير والقطمير ، والجليل والحقير « ومن نوقش الحساب عذب » ولهذا قال ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

(١٩) ﴿ * أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يقول تعالى لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿ أنزل إليك ﴾ يا محمد ﴿ من ربك ﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، ولا لبس ولا اختلاف فيه ، بل هو كله حق ويصدق بعضه بعضاً ، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ أي صدقاً في الاخبار ، وعدلاً في الطلب ، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد ، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ، ولا يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه ، كقوله ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي أفهذا كهذا ؟ لا استواء . وقوله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولوا العقول السليمة الصحيحة . جعلنا الله منهم .

(٢٠) ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿ الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان .

(٢١) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾

﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ﴾ من صلة الأرحام ، والاحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف ﴿ ويخشون ربهم ﴾ أي فيما يأتون ، وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله في ذلك ، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة ، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية .

(٢٢) ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ

بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

﴿ والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ﴾ أي عن المحارم والمآثم . ففطموا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته . وجزيل ثوابه ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ بحدودها ومواقيتها ، وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم ﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات ، وأجانب من فقراء ومحاويج ومساكين ﴿ سراً وعلانية ﴾ أي في السر والجهر ، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار ﴿ ويدرؤ ون بالحسنة السيئة ﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوا بالجميل صبراً ، واحتمالاً وصفحاً وعفواً كقوله تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسنُ السيئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ .

(٢٣) ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾

(٢٤) ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله ﴿ جنات عدن ﴾ والعدن الإقامة أي جنات إقامة يخلدون فيها ﴿ ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، لتقر أعينهم بهم ، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ . وقوله ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام والاقامة في دار السلام في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجتُه في صدره ، لا يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من

ملائكته : ائتوهم فحيوهم فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول : إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم ، وحاجته في صدره ، لا يستطيع لها قضاء ـ قال ـ فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر ما لهم في الآخرة ، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون ، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا ، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ، ويصلون ما أمر الله به أن يوصل ، وهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ﴾ كما ثبت في الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » وفي رواية « وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » ولهذا قال : ﴿ أولئك لهم اللعنة ﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ وهي سوء العاقبة والمآل ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾ .

(٢٦) ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتر على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، وفرحُ هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً كما قال ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع ﴾ كما قال ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ وفي الحديث الذي يرويه الإمام أحمد ومسلم في صحيحه « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع » وأشار بالسبابة .

(٢٧) ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي

إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾

﴿ لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ كقوله ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ ﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴾ أي هو المضل والهادي سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا أو لم يجبهم إلى سؤالهم ، فإن الهداية والاضلال ليس منوطاً بذلك ولا عدمه كما قال ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .

(٢٨) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله ، وتسكن عند ذكره ، وترضى به مولى ونصيراً ، ولهذا قال ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ أي هو حقيق بذلك .

(٢٩) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾

﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾ أي فرح وقرة عين ، وغبطة لهم ، وخير لهم أو « طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها » كما جاء في الحديث . وروى البخاري ومسلم « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها » .

(٣٠) ﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَـٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿ لتتلوَ عليهم الذي أوحينا إليك ﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله ، وقد كذب الرسل من قبلك ، فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم . فإن تكذيبهم لك أشد من تكذيب غيرك من المرسلين ﴿ وهم يكفرون بالرحمٰن ﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن ، لا يقرون به ، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمٰن الرحيم ، ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » وقالوا : ما ندري ما الرحمٰن الرحيم . قاله قتادة ، والحديث في صحيح البخاري ﴿ عليه توكلت ﴾ أي في جميع أموري ﴿ وإليه متاب ﴾ أي إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه .

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ (٣١)

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ، ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله ﴿ ولو أن قرآناً سيرت به الجبال ﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتنشق ، أو تكلم به الموتى في قبورها لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له ﴿ بل لله الأمر جميعاً ﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهد الله فما له من مضل . وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع . وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد « خفف على داود القرآن فكان يأمر بدابته أن تسرج فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته ، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه ، انفرد به البخاري . والمراد بالقرآن هو الزبور . ﴿ أفلم ييأس الذين آمنوا ﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا ، أو يتبينوا ﴿ أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن الذي لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « ما من نبي إلا أوتي ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » ، معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ، ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله . ﴿ ولاَ يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم ﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا ، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويّعتبروا ﴿ حتى يأتي وعد الله ﴾ يعني فتح مكة ، أو يوم القيامة . ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ أي لا ينقصه وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة .

(٣٢) ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك ﴾ أي فلك فيهم أسوة ﴿ فأمليت للذين كفروا ﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم ﴿ ثم أخذتهم ﴾ أخذه رابية ، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم وأمليت لهم ؟ وفي الصحيحين « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٣٣) ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة ، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ، ولا يخفى عليه خافية ﴿ وجعلوا لله شركاء ﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان ﴿ قل سموهم ﴾ أي أعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم ، ولهذا قال ﴿ أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض ﴾ أي لا وجود لها ، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿ أم بظاهر من القول ﴾ بظن من القول ، أو بباطل من القول ، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتموها آلهة ﴿ بل زين للذين كفروا مكرهم ﴾ أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ﴿ وصدوا عن السبيل ﴾ بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله ولهذا قال: ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

(٣٤) ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار ، وثواب الأبرار ، فقال بعد إخباره عن حال المشركين ، وما هم عليه من الكفر والشرك ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً ﴿ ولعذاب الآخرة ﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿ أشق ﴾ أي من هذا بكثير ، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » .

(٣٥) ﴿ * مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي صفتها ونعتها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً ، أي يصرفونها كيف شاؤوا ، وأين شاؤوا ﴿ أكلها دائم وظلها ﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب ، لا انقطاع ولا فناء . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف ، وفيه قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت ، فقال : « إني رأيت الجنة ـ أو أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقوداً ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا » وروى مسلم عن رسول الله ﷺ : « يأكل أهل الجنة ويشربون ، ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ، طعامهم حبشاء كريح المسك ، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس » .

(٣٦) ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴾

﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أي من القرآن ، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب ببعض ما أنزل إليك . قال مجاهد ﴿ ومن الأحزاب ﴾ أي اليهود والنصارى وقوله ﴿ إليه ادعو ﴾ أي إلى سبيله أدعو الناس ﴿ وإليه مآب ﴾ أي مرجعي ومصيري .

(٣٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾

﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً ، شرفناك به ، وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ وقوله ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أي آراءهم ﴿ بعدما جاءك من العلم ﴾ أي من الله سبحانه ﴿ ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾ وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة

بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام .

(٣٨) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾

يقول تعالى : وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، ويأتون الزوجات ، ويولد لهم ، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية ، وقد قال الله لأشرف الرسل وخاتمهم ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾ وفي الصحيحين « أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . وقوله ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه ، ليس ذلك إليه ، بل إلى الله عز وجل ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها ، وكل شيء عنده بمقدار ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

(٣٩) ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

﴿ يمحو الله ما يشاء ﴾ منها ﴿ ويثبت ﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه . واختلف في معنى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ يدبر أمر السنة فيمحو الله ما يشاء إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت ، وروي عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال ، وهو يطوف بالبيت ويبكي : اللهم إن كنت كتبت عليّ شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة . وروي أن كعباً قال لعمر : لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة ، قال : وما هي ؟ قال : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ، ويثبت منها ما يشاء ، وقد يستأنس لهذا بما رواه الإمام أحمد عن النبي ﷺ : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ، ولا يرد القدر إلا الدعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البر » ورواه النسائي وابن ماجه . وثبت في الصحيح « أن صلة الرحم تزيد في العمر » وفي حديث آخر « إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض » وروي عن سعيد بن جبير أنها ـ يمحو الله ما يشاء

ويثبت ـ بمعنى ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ وقوله ﴿ وعنده أم الكتاب ﴾ الحلال والحرام ، أو جملة الكتاب وأصله ، أو كتاب عند رب العالمين ، أو علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ، أو الذكر ، أقوال .

(٤٠) ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾

﴿ وإما نرينك ﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا ﴿ أو نتوفينك ﴾ أي قبل ذلك ﴿ فإنما عليك البلاغ ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله ، وقد فعلت بما أمرت به ﴿ وعلينا الحساب ﴾ أي حسابهم وجزاؤهم .

(٤١) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

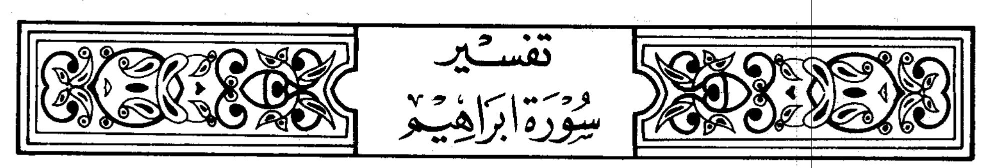
﴿ أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها ﴾ أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض ، أو ننقصها من أطرافها يعني خرابها ، أو هو ظهور المسلمين على المشركين ، أو نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض ، أو خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها ، والقول الأول أولى ، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية .

(٤٢) ﴿ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾

﴿ وقد مكر الذين من قبلهم ﴾ برسلهم ، وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ وقوله ﴿ يعلم ما تكسب كل نفس ﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر ، وسيجزي كل عامل بعمله ﴿ وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار ﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل ، كلا ، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة . ولله الحمد والمنة .

(٤٣) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾

﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ﴾ أي ما أرسلك الله ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليَّ وعليكم ، شاهد فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترون من البهتان . وقوله ﴿ ومن عنده علم الكتاب ﴾ هم من اليهود والنصارى الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به عليهم الصلاة والسلام .



تفسير سُورَةُ ابراهيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور ﴿ كتاب أنزلناه إليك ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء على أشرف رسول بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم ﴿ لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ﴾ أي إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب ، لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد ، كما قال تعالى ﴿ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات ﴾ وقوله ﴿ بإذن ربهم ﴾ أي هو الهادي لمن قدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره يهديهم ﴿ إلى صراط العزيز ﴾ أي العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ﴿ الحميد ﴾ أي المحمود في جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وأمره ونهيه الصادق في خبره .

(٢) ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾

﴿ وويل للكافرين من عذاب شديد ﴾ أي ويل لهم يوم القيامة ، إذ خالفوك يا محمد وكذبوك .

(٣) ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ

﴿ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴾

ثم وصفهم بأنهم ﴿ يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ﴾ أي يقدمونها ويؤثرونها عليها ، ويعملون للدنيا ، ونسوا الآخرة وتركوها وراء ظهورهم ﴿ ويصدون عن سبيل الله ﴾ وهي اتباع الرسل ﴿ ويبغونها عوجاً ﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجاً مائلة عائلة ، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها ، ولا من خذلها ، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق ، لا يُرجى لهم والحالةُ هذه صلاح .

(٤) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

هذا من لطفه تعالى بخلقه أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم . روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يبعث الله عز وجل نبياً إلا بلغة قومه » . وقوله ﴿ فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل الله من يشاء عن وجه الهدى ، ويهدي من يشاء إلى الحق . ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، وقد كانت هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبياً في أمة إلا أن يكون بلغتهم فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم ، واختص محمد بن عبدالله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة » وقال تعالى ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ .

(٥) ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴾

وكما أرسلناك يا محمد ، وأنزلنا عليك الكتاب ، لتخرج الناس كلهم أي تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا ، وهي التسع الآيات ﴿ أن أخرج قومك ﴾ أي أمرناه قائلين له ﴿ أخرج قومك من الظلمات إلى

النور ﴾ أي ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾ أي بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره ، وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لَعبرة ﴿ لكل صبار ﴾ أي في الضراء ﴿ شكور ﴾ أي في السراء . قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلى صبر ، وإذا أعطي شكر . وفي الصحيح « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له » .

(٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى حين ذكر قومه بأيام الله عندهم ، ونعمه عليهم إذ أنجاهم من آل فرعون ، وما كانوا يسومونهم به من العذاب والإذلال ، حيث كانوا يذبحون من وجد من أبنائهم ، ويتركون إناثهم ، فأنقذهم الله من ذلك ، وهذه نعمة عظيمة ، ولهذا قال ﴿ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾ أي نعمة منه عليكم في ذلك وأنتم عاجزون عن القيام بشكرها ، وقيل : وفيما كان يصنعه بكم قوم فرعون من تلك الأفاعيل ﴿ بلاء ﴾ أي اختبار عظيم ، ويحتمل أن يكون هذا وهذا ، والله أعلم ، كقوله تعالى ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ .

(٧) ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾

﴿ وإذ تأذن ربكم ﴾ أي آذنكم وأعلمكم بوعده لكم ، ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم ، وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها ﴿ ولئن كفرتم ﴾ أي كفرتم النعم ، وسترتموها وجحدتموها ﴿ إن عذابي لشديد ﴾ وذلك بسلبها عنهم ، وعقابه إياهم على كفرها . وقد جاء في الحديث « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

(٨) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

﴿ فإن الله لغني حميد ﴾ أي هو غني عن شكر عباده ، وهو الحميد المحمود ، وإن كفره من كفره ، كقوله ﴿ إن تكفروا فإن الله غني عنكم ﴾ وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئاً إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر » فسبحانه وتعالى الغني الحميد .

(٩) ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾

﴿ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات ﴿ لا يعلمهم إلا الله ﴾ عن عبدالله أنه قال فيها : كذب النسابون . وقال عروة : ما وجدنا أحداً يعرف ما بعد معد بن عدنان . ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ قيل : أشاروا إلى أفواه الرسل ، يأمرونهم بالسكوت عنهم لما دعوهم إلى الله عز وجل ، وقيل : بل وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم ، وقيل : بل هو عبارة عن سكوتهم عن جواب الرسل ، وقيل : معناه أنهم كذبوهم وردوا عليهم قولهم بأفواههم ﴿ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به . . . ﴾ فكأن هذا ـ والله أعلم ـ تفسير لمعنى ﴿ فردوا أيديهم في أفواههم ﴾ وقيل : معناه عضوا عليها غيظاً ، كقوله ﴿ وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ﴾ .

(١٠) ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

يخبر تعالى عما دار بين الكفار وبين رسلهم ، وذلك أن أممهم لما واجهوهم بالشك فيما جاؤوهم به من عبادة الله وحده لا شريك له ، قالت الرسل ﴿ أفي الله شك ﴾ وهذا يحتمل شيئين ، أحدهما أفي وجوده شك ؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ، ومجبولة على

الاقرار به ، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطرار فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده ، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إلّه إلا هو خالق كل شيء ، ومليكه ، والمعنى الثاني في قولهم ﴿ أفي الله شك ﴾ أي في إلّهيته ، وتفرده بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى . ﴿ يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ ويؤخركم إلى أجلّ مسمى ﴾ أي في الدنيا ، كما قال تعالى ﴿ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله ﴾ فقالت لهم الأمم محاجين في مقام الرسالة ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي فكيف نتبعكم بمجرد قولكم ، ولما نر منكم معجزة ﴿ فأتونا بسلطان مبين ﴾ أي خارق نقترحه عليكم .

(١١) ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ﴾ أي صحيح أنا بشر مثلكم في البشرية ﴿ ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ أي بالرسالة والنبوة ﴿ وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان ﴾ على وفق ما سألتم ﴿ إلا بإذن الله ﴾ أي بعد سؤالنا إياه وإذنه لنا في ذلك ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ أي في جميع أمورهم .

(١٢) ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

ثم قالت الرسل ﴿ وما لنا أن لا نتوكل على الله ﴾ أي وما يمنعنا من التوكل عليه ، وقد هدانا لأقوم الطرق ، وأوضحها وأبينها ﴿ ولنصبرن على ما آذيتمونا ﴾ أي من الكلام السيىء والأفعال السخيفة ﴿ وعلى الله فليتوكل المتوكلون ﴾ .

(١٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ

رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلَهم من الاخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به ﴿ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ﴾ وكما قال قوم لوط ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم ﴾ وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريش ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلاً ﴾ ﴿ فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين ﴾ .

﴿١٤﴾ ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾

﴿ ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ أي وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة ، وخشي من وعيدي ، وهو تخويفي وعذابي .

﴿١٥﴾ ﴿ وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾

﴿ واستفتحوا ﴾ أي استنصرت الرسل ربها على قومها ، أو استفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ويحتمل أن يكون هذا مراءاً أو هذا مراداً ، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر ، واستفتح رسول الله واستنصر ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم ﴾ ﴿ وخاب كل جبار ﴾ أي تجبر على نفسه ﴿ عنيد ﴾ معاند للحق . وفي الحديث « إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة فتنادي الخلائق فتقول : إني وُكلت بكل جبار عنيد » .

﴿١٦﴾ ﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴾

﴿من ورائهم جهنم﴾ «وراء» هنا بمعنى أمام كقوله تعالى ﴿وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ ﴿ ويسقى من ماء صديد ﴾ أي في النار ، ليس له شراب إلا من حميم وغساق ، فهذا حار في غاية الحرارة ، وهذا بارد في غاية البرد ، والنتن ، كما قال ﴿ هذا فليذوقوه حميم وغساق . وآخر من شكله أزواج ﴾ .

﴿١٧﴾ ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴾

﴿ يتجرعه ﴾ أي يتغصصه ويتكرهه ، أي يشربه قهراً وقسراً ، لا يضعه في فمه حتى

يضربه الملك بمطراق من حديد كما قال تعالى ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ أي يزدرده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ أي يألم جميع بدنه وجوارحه وأعضائه ، قال ابن جرير ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ أي من أمامه وخلفه ، وفي رواية وعن يمينه وشماله ، ومن فوقه ومن تحت أرجله ، ومن سائر أعضاء جسده . وعن ابن عباس قال : أنواع العذاب التي يعذبه الله بها يوم القيامة في نار جهنم ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ، ولكن لا يموت ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ وقوله ﴿ ومن ورائه عذاب غليظ ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أي مؤلم صعب شديد أغلظ من الذي قبله ، وأدهى وأمر .

(١٨) ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره ، وكذبوا رسله ، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها ، فقال تعالى ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم ﴾ أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء ، فلم يجدوا شيئاً ، ولا ألفوا حاصلاً إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة ﴿ في يوم عاصف ﴾ أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم كما قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم أحوج ما كانوا إليه .

(١٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وعظمتها، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ﴿بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى ﴾ ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ أي بعظيم ولا ممتنع ، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره .

(٢١) ﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ ﴾

﴿ وبرزوا لله جميعاً ﴾ أي برزت الخلائق كلها : برها وفاجرها لله الواحد القهار ، أي اجتمعوا له في براز من الأرض ، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحداً ﴿ فقال الضعفاء ﴾ وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم ﴿ للذين استكبروا ﴾ عن عبادة الله وحده لا شريك له ، وعن موافقة الرسل ﴿ إنّا كنا لكم تبعاً ﴾ أي مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا ﴿ فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ﴾ أي فهل تدفعون عنا شيئاً من عذاب الله كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فقالت القادة لهم ﴿ لو هدانا الله لهديناكم ﴾ ولكن حق علينا قول ربنا وسبق فينا وفيكم قدر الله ﴿ سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ﴾ أي ليس لنا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه .

(٢٢) ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عما خاطب به إبليس أتباعه بعدما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات ، فقام فيهم إبليس لعنه الله يومئذٍ خطيباً ليزيدهم حزناً إلى حزنهم ، وغبناً إلى غبنهم ، وحسرة إلى حسرتهم فقال ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ﴾ أي على ألسنة رسله ، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة ، وكان وعداً حقاً ، وخبراً صدقاً ، وأما أنا فوعدتكم فأخلفتكم ، كما قال تعالى ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ ثم قال ﴿ وما كان لي عليكم من سلطان ﴾ أي ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة فيما وعدتكم به ﴿ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴾ بمجرد ذلك ، وهذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج ، والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤ وكم به فخالفتموهم به فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿ فلا تلوموني ﴾ اليوم ﴿ ولوموا أنفسكم ﴾ فإن الذنب لكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿ ما أنا

بمصرخكم ﴾ أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿ وما أنتم بمصرخيَّ ﴾ أي بنافعيَّ بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿ إني كفرت بما أشركتمون من قبل ﴾ بسبب ما أشركتمون من قبل ، أو إني جحدت أن أكون شريكاً لله عز وجل ، وهذا هو الراجح ، قال تعالى ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقوله ﴿ إن الظالمين ﴾ أي في إعراضهم عن الحق ، واتباعهم الباطل ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ .

﴿ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ (٢٣)

﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا ﴿ خالدين فيها ﴾ ماكثين أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ﴿ بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام ﴾ كما قال تعالى ﴿ حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم ﴾ وقال تعالى ﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ (٢٤)

﴿ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٥)

﴿ مثلاً كلمة طيبة ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ﴿ كشجرة طيبة ﴾ وهو المؤمن ﴿ أصلها ثابت ﴾ يقول : لا إله إلا الله في قلب المؤمن ﴿ وفرعها في السماء ﴾ يقول : يرفع بها عمل المؤمن إلى السماء ، فذلك عبارة عن عمل المؤمن ، وقوله الطيب ، وعمله الصالح ، وإن المؤمن كشجرة من النخل لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت وصباح ومساء . وفي البخاري عن ابن عمر قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : « أخبروني عن شجرة تشبه ـ أو ـ كالرجل المسلم ، لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاء ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها » . قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ : « هي النخلة » فلما قمنا قلت لعمر : يا أبتاه ، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة ، قال فما منعك أن تتكلم ؟ قلت : لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم ، أو أقول شيئاً ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إليّ من كذا وكذا .

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ (٢٦)

﴿ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴾ هذا مثل كفر الكافر ، لا أصل له ولا ثبات ، مشبه بشجرة الحنظل ، ويقال لها : الشريان . ﴿ اجتثت ﴾ أي استؤصلت ﴿ من فوق الأرض ما لها من قرار ﴾ أي لا أصل لها ولا ثبات ، كذلك الكفر ، لا أصل له ، ولا فرع ، ولا يصعد للكافر عمل ، ولا يتقبل منه شيء .

(٢٧) ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾

في البخاري ومسلم وبقية الجماعة أن رسول الله ﷺ قال : « المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فذلك قوله ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ وأما الكافر فإذا أدخل قبره أقعد ، فقيل له من ربك ؟ فلم يرجع إليهم شيئاً ، وأنساه الله ذكر ذلك ، وإذا قيل : من الرسول الذي بعث إليك ؟ لم يهتد له ، ولم يرجع إليهم شيئاً فهذا معنى ﴿ ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ .

(٢٨) ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾

(٢٩) ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾

﴿ ألم تر ﴾ ألم تعلم ، كقوله ﴿ ألم تر كيف ﴾ ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا ﴾ ﴿ دار البوار ﴾ الهلاك ، بار يبور بوراً . وقوماً بوراً : هالكين وهم كفار مكة، والمعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة ، ومن ردها دخل النار .

(٣٠) ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

﴿ وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ﴾ أي جعلوا له شركاء عبدوهم معه ، ودعوا الناس إلى ذلك . ثم قال مهدداً لهم ، ومتوعداً لهم على لسان نبيه ﷺ ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ أي مهما قدرتم عليه في الدنيا فافعلوا فمهما يكن من شيء ﴿ فإن مصيركم إلى النار ﴾ أي مرجعكم ومآلكم إليها كما قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

(٣١) ﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بطاعته والقيام بحقه ، والإحسان إلى خلقه بأن يقيموا الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات ، والنفقة على القرابات ، والإحسان إلى الأجانب . والمراد بإقامتها هو المحافظة على وقتها وحدودها وركوعها وخشوعها وسجودها، وأمر تعال بالإنفـاق مما رزق في السر أي في الخفية، والعلانية ، وهي الجهر ، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ﴿ من قبل أن يأتي يوم ﴾ وهو يوم القيامة ﴿ لا بيع فيه ولا خلال ﴾ أي ولا يقبل الله من أحد فدية ، بأن تباع نفسه ، كما قال ﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ وقوله ﴿ ولا خلال ﴾ يقول : ليس هناك مخالة خليل فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالفته ، بل هناك العدل والقسط . والخلال مصدر من قول القائل : خاللت فلاناً ، فأنا أخاله مخالّة وخلالاً .

(٣٢) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ﴾

يعدد تعالى نعمه على خلقه بأن خلق لهم السماوات سقفاً محفوظاً والأرض فراشاً ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به أزواجاً من نبات شتى ﴾ ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على تيار ماء البحر تجري عليه بأمر الله تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون بها من إقليم إلى إقليم آخر ما هناك إلى هنا ، وما هنا إلى هناك ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقاً للعباد من شرب وسقي وغير ذلك من أنواع المنافع .

(٣٣) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ أي يسيران لا يفتران ليلاً ولا نهاراً ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ فالشمس والقمر يتعاقبان ، والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من هذا فيطول ، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر ﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل

يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار﴾ .

(٣٤) ﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾

﴿ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴾ يقول هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه بمالكم وقالكم ﴿ وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها ﴾ يخبر تعالى عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلاً عن القيام بشكرها كما قال طلق بن حبيب رحمه الله : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اللهم لك الحمد غير مكفي ولا مودع ولا مستغنىً عنه ربنا » .

(٣٥) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾

يذكر تعالى في هذا المقام محتجاً على مشركي العرب بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه آهلة يبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ وقد استجاب الله له فقال تعالى ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ﴾ ﴿ ومن دخله كان آمناً ﴾ وقال في هذه القصة ﴿ رب اجعل هذا البلد آمناً ﴾ وقوله ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام ﴾ ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ، ولوالديه وذريته .

(٣٦) ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ذكر أنه افتتن بالأصنام خلائق من الناس ، وأنه تبرأ ممن عبدها ، ورد أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم كقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ وليس فيه أكثر من الرد إلى مشيئة الله لا تجويز وقوع ذلك ، وعن عبدالله بن عمرو أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني . . ﴾ وقول عيسى عليه السلام ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك . . . ﴾ ثم رفع يديه ثم قال : « اللهم أمتي اللهم أمتي » وبكى ، فقال الله : اذهب يا جبريل إلى محمد ، وربك أعلم ، وسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ ما قال ، فقال الله : اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤوك .

(٣٧) ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾

وهذا يدل على أن هذا الدعاء ثان بعد الدعاء الأول الذي دعا به عندما ولى عن هاجر وولدها ، وذلك قبل بناء البيت ، وهذا كان بعد بنائه تأكيداً ورغبة إلى الله عز وجل ، ولهذا قال ﴿ عند بيتك المحرم ﴾ وقوله ﴿ ربنا ليقيموا الصلاة ﴾ أي إنما جعلته محرماً ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ قال ابن عباس : لو قال : أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكن قال ﴿ من الناس ﴾ فاختص به المسلمون . وقوله ﴿ وارزقهم من الثمرات ﴾ أي ليكون ذلك عوناً لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع فاجعل لهم ثماراً يأكلونها ، وقد استجاب الله ذلك كما قال ﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴾ وهذا من لطفه تعالى وكرمه ورحمته وبركته أنه ليس في البلد الحرام كله شجرة مثمرة ، وهي تجبى إليها ثمرات ما حولها استجابة لدعاء الخليل عليه السلام .

(٣٨) ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾

﴿ ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن ﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي ، وما أردت بدعائي لأهل هذا البلد ، وإنما هو القصد إلى رضاك والإخلاص لك ، فإنك تعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها . لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء .

(٣٩) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾

ثم حمد إبراهيم ربه عز وجل ما رزقه من الولد بعد الكبر فقال ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ﴾ أي إنه يستجيب لمن دعاه ، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد .

(٤٠) ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾

﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ﴾ أي محافظاً عليها مقيماً لحدودها ﴿ ومن ذريتي ﴾ أي واجعلهم كذلك مقيمين لها ﴿ ربنا وتقبل دعاء ﴾ أي فيما سألتك فيه كله .

(٤١) ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾

﴿ ربنا اغفر لي ولوالدي ﴾ وكان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله عز وجل ﴿ وللمؤمنين ﴾ أي كلهم ﴿ يوم يقوم الحساب ﴾ أي يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٤٢) ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾

يقول تعالى : ولا تحسبن الله يا محمد غافلاً عما يعمل الظالمون ، أي لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ويعده عليهم عداً . ﴿ إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار ﴾ أي من شدة الأهوال يوم القيامة .

(٤٣) ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾

﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين ، كما قال تعالى ﴿ مهطعين إلى الداع ﴾ وقال تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً ﴾ وقوله ﴿ مقنعي رؤوسهم ﴾ رافعي رؤوسهم ﴿ لا يرتد إليهم طرفهم ﴾ أي أبصارهم ظاهرة شاخصة مديمون النظر ، لا يطرفون لحظة ، لكثرة ما هم فيه من الهول والفكرة المخافة لما يحل بهم . عياذاً بالله العظيم من ذلك . ﴿ وأفئدتهم هواء ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية ليس فيها شيء لكثرة الوجل والخوف ، أو هي خراب لا تعي شيئاً .

(٤٤) ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حال الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب ﴿ ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل ﴾ كقوله ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ﴾ قال تعالى رداً عليهم ﴿ أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ أي أولم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، فذوقوا هذا بذلك . قال مجاهد وغيره ﴿ ما لكم من زوال ﴾ أي ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة .

(٤٥) ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾

أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ، ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ، ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر . ﴿ حكمة بالغة فما تغن النذر ﴾ .

(٤٦) ﴿ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾

﴿ وإن كان مكرهم ﴾ أي شركهم ، كقوله ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ﴾ .

(٤٧) ﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

يقول تعالى مقرراً لوعده ومؤكداً ﴿ فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ﴾ أي من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، ثم أخبر تعالى أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده ، ولا يغالب ، وذو انتقام ممن كفر به وجحد ﴿ فويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ .

(٤٨) ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

ولهذا قال ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض ﴾ أي وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة . في الصحيحين عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ، ليس فيها معلم لأحد » . وروى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت : أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ قالت : أين الناس يومئذٍ يا رسول الله ؟ قال : « على الصراط » . رواه مسلم منفرداً به دون البخاري والترمذي وابن ماجه ﴿ وبرزوا لله ﴾ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله ﴿ الواحد القهار ﴾ أي الذي قهر كل شيء وغلبه ، ودانت له الرقاب ، وخضعت له الألباب .

(٤٩) ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾

يقول تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وتبرز الخلائق لديَّانها ترى يا محمد يومئذٍ المجرمين ، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم ﴿ مقرنين ﴾ أي بعضهم

إلى بعض ، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم ، كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ وقال ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ وقال ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ وقال ﴿ والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ والأصفاد هي القيود .

(٥٠) ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾

﴿ سرابيلهم من قطران ﴾ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران ، وهو الذي تهنأ به الإبل ، أي تطلى ، قال قتادة : وهو ألصق شيء بالنار . قال ابن عباس : القطران : هو النحاس المذاب ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ كقوله ﴿ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن : الفخر بالأحساب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة على الميت ، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة ، وعليها سربال من قطران ، ودرع من جرب » انفرد بإخراجه مسلم .

(٥١) ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

﴿ ليجزي الله كل نفس ما كسبت ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ﴿ إن الله سريع الحساب ﴾ يحتمل أن يكون كقوله تعالى ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النجاز ، لأنه يعلم كل شيء ، ولا يخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم ، كقوله تعالى ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين . والله أعلم .

(٥٢) ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

يقول تعالى ﴿ هذا بلاغ للناس ﴾ كقوله ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن كما قال في أول السورة ﴿ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ﴾ ﴿ ولينذروا به ﴾ أي ليتعظوا به ﴿ وليعلموا أنما هو إله واحد ﴾ أي يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو ﴿ وليذكر أولوا الألباب ﴾ أي ذوو العقول . والحمد لله رب العالمين .



تفسير سُورَةُ الحِجْرِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴾

(٢) ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر ، ويتمنون لو كانوا في الدنيا مسلمين . وقيل : المراد أن كل كافر يود عند احتضاره أن لو كان مؤمناً . وقيل : هذا إخبار عن يوم القيامة كقوله تعالى ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ﴾ .

(٣) ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾ تهديد لهم ، ووعيد أكيد ، كقوله ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ وقوله ﴿ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون ﴾ ولهذا قال ﴿ ويلههم الأمل ﴾ أي عن التوبة والإنابة ﴿ فسوف يعلمون ﴾ أي عاقبة أمرهم .

(٤) ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾

(٥) ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها ، وانتهاء أجلها ، وأنه لا يؤخر أمة حان هلاكهم عن ميقاتهم ولا يتقدمون عن مدتهم . وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الاقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك .

(٦) ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾

يخبر تعالى عن كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿ يا أيها الذي نزل عليه الذكر ﴾ أي الذي تدعي ذلك ﴿ إنك لمجنون ﴾ أي في دعائك إيانا إلى اتباعك ، وترك ما وجدنا عليه آباءنا .

(٧) ﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ لو ما ﴾ أي هلا ﴿ تأتينا بالملائكة ﴾ أي يشهدون لك بصحة ما جئت به ، كما قال فرعون ﴿ فلولا ألقي عليهم أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ .

(٨) ﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾

وقال في هذه الآية ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ﴾ وقوله ﴿ بالحق ﴾ بالرسالة والعذاب .

(٩) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾

ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل عليه الذكر ، وهو القرآن ، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل . ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ على النبي ﷺ ، كقوله ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ والمعنى الأول أولى وهو ظاهر السياق .

(١٠) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

(١١) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من كفار قريش : إنه أرسل من قبله من الأمم الماضية ، وإنه ما أتى أمة من رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به .

(١٢) ﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(١٣) ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

ثم أخبر أنه سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى . وقوله ﴿ وقد خلت سنة الأولين ﴾ أي قد علم ما فعل تعالى بمن كذب رسله من الهلاك والدمار ، وكيف أنجى الأنبياء وأتباعهم في الدنيا والآخرة .

(١٤) ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم باباً من السماء فجعلوا يصعدون فيه ،

(١٥) ﴿ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴾

لما صدقوا بذلك ، بل ﴿ لقالوا إنما سكرت أبصارنا ﴾ سدت أبصارنا ، أو أخذت ، قال ابن عباس : شبه علينا ، وإنما سحرنا .

(١٦) ﴿ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴾

يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها ، وما زينها به من الكواكب الثوابت والسيارات ، لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من العجائب ، والآيات الباهرات ما يحار نظره فيه . قال مجاهد وقتادة : البروج ههنا هي الكواكب ، وهذا كقوله تعالى ﴿ تبارك الذي جعل في السماء بروجاً ﴾ ومنهم من قال : البروج هي منازل الشمس والقمر .

(١٧) ﴿ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴾

(١٨) ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴾

﴿ وحفظناها من كل شيطان رجيم ﴾ جعل الشهب حرساً لها من مردة الشياطين لئلا يسَّمعوا إلى الملأ الأعلى ، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه ، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذه الآخر ويأتي به إلى وليه كما جاء مصرحاً في الصحيح .

(١٩) ﴿ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴾

ثم ذكر تعالى خلقه الأرض ، ومده إياها ، وتوسيعها وبسطها ، وما جعل فيها من الجبال الرواسي ، والأودية والأراضي والرمال ، وما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة ﴿ من كل شيء موزون ﴾ أي معلوم ، أو مقدر بقدر .

(٢٠) ﴿ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴾

﴿ وجعلنا لكم فيها معايش ﴾ يذكر تعالى أنه صرفهم في الأرض في صنوف الأسباب والمعايش ، وهي جمع معيشة . وقوله ﴿ ومن لستم له برازقين ﴾ قال مجاهد : هي

الدواب والأنعام ، والقصد أنه تعالى يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ، ووجوه الأسباب ، وصنوف المعايش ، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها ، والأنعام التي يأكلونها ، والعبيد والإماء التي يستخدمونها ، ورزقهم على خالقهم لا عليهم ، فلهم المنفعة ، والرزق على الله .

(٢١) ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك كل شيء ، وأن كل شيء سهل عليه ، يسير لديه ، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف ﴿ وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ كما يشاء ، وكما يريد ، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة ، والرحمة بعباده ، لا على جهة الوجوب ، بل هو كتب على نفسه الرحمة .

(٢٢) ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾

﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ أي تلقح السحاب فتدر ماء ، وتلقح الشجر فتفتح عن أوراقها وأكمامها ، ﴿ فأسقيناكموه ﴾ أي أنزلناه لكم عذباً ، يمكنكم أن تشربوا منه ، ﴿ ولو نشاء لجعلناه أجاجاً ﴾ وقوله ﴿ وما أنتم له بخازنين ﴾ بمانعين ، أو وما أنتم له بحافظين ، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم ، ونجعله معيناً وينابيع في الأرض ، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به ، ولكن من رحمته أنزله ، وجعله عذباً ، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك ، ليبقى لهم طول السنة يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم .

(٢٣) ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴾

﴿ وإنا لنحن نحيي ونميت ﴾ إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق ، وإعادته ، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم ، ثم يميتهم ، ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع ، وأخبر أنه تعالى يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون .

(٢٤) ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾

(٢٥) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

ثم أخبر تعالى عن تمام علمه بهم أولهم وآخرهم فقال ﴿ ولقد علمنا المستقدمين منكم ﴾ ولقد علمنا المستأخرين والمستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون

هو من حيي ومن سيأتي إلى يوم القيامة . روى ابن جرير أنه قد كان أناس يستأخرون في الصفوف من أجل النساء فأنزل ﴿ ولقد علمنا المستقدمين . . . ﴾ أو هو في الصفوف في الصلاة .

(٢٦) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

المراد بالصلصال ههنا التراب اليابس ، أو المنتن ﴿ من حمأ مسنون ﴾ أي الصلصال من حمأ وهو الطين ، والمسنون الأملس ، أو المسنون المصبوب .

(٢٧) ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾

﴿ والجان خلقناه من قبل ﴾ أي من قبل الإنسان ﴿ من نار السموم ﴾ قال ابن عباس : هي السموم التي تقتل ، وقال بعضهم : السموم بالليل والنهار ، ومنهم من قال : السموم بالليل ، والحرور بالنهار . وقدورد في الصحيح « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » . والمقصود من الآية التنبيه على شرف آدم عليه السلام ، وطيب عنصره ، وطهارة محتده .

(٢٨) ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

(٢٩) ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾

(٣٠) ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾

(٣١) ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾

(٣٢) ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾

(٣٣) ﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾

يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له ، وتشريفه إياه بأمر الملائكة بالسجود له ، ويذكر تخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وكفراً وعناداً واستكباراً وافتخاراً بالباطل ، ولهذا قال ﴿ لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ﴾ كقوله ﴿ أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ .

(٣٤) ﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾

(٣٥) ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾

(٣٦) ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

(٣٧) ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾

(٣٨) ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾

يذكر تعالى أنه أمر إبليس أمراً كونياً لا يخالف ، ولا يمانع بالخروج من المنزلة التي كان فيها الملأ الأعلى ، وأنه رجيم أي مرجوم وأنه قد أتبعه لعنة لا تزال متصلة به ، لاحقة له ، متواترة عليه إلى يوم القيامة ، ولما تحقق الغضب الذي لا مرد له سأل من تمام حسده لآدم وذريته النظرة إلى يوم القيامة ، وهو يوم البعث ، وأنه أجيب إلى ذلك استدراجاً له ، وإمهالاً .

(٣٩) ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبليس وتمرده وعتوه أنه قال للرب ﴿ بما أغويتني ﴾ قال بعضهم : أقسم بإغواء الله له ، ويحتمل أنه بسبب ما أغويتني وأضللتني ﴿ لأزينن لهم ﴾ أي لذرية آدم عليه السلام ﴿ في الأرض ﴾ أي أحبب إليهم المعاصي وأرغبهم فيها ، وأأزهم إليها ، وأزعجهم إليها إزعاجاً ﴿ ولأغوينهم أجمعين ﴾ أي كما أغويتني وقدرت عليّ بذلك .

(٤٠) ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾

﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ كقوله ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ .

(٤١) ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ قال ﴾ الله تعالى متهدداً ومتوعداً ﴿ هذا صراط عليَّ مستقيم ﴾ أي مرجعكم كلكم إليّ فأجازيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله تعالى ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ وقيل : طريق الحق مرجعها إلى الله ، وإليه تنتهي كقوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ .

(٤٢) ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ أي الذين قدرت لهم الهداية ، فلا سبيل لك عليهم ، ولا وصول لك إليهم ﴿ إلا من اتبعك من الغاوين ﴾ استثناء منقطع .

(٤٣) ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ وإن جهنم لموعدهم أجمعين ﴾ أي جهنم موعد جميع من اتبع إبليس ، كما قال عن القرآن ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ .

(٤٤) ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾

ثم أخبر أن لجهنم سبعة أبواب ﴿ لكل باب منهم جزء مقسوم ﴾ أي قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه لا محيد لهم عنه . أجارنا الله منها ، وكل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في درك بحسب عمله .

(٤٥) ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل النار عطف على ذكر أهل الجنة ، وأنهم في جنات وعيون .

(٤٦) ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾

﴿ ادخلوها بسلام ﴾ أي سالمين من الآفات ، مسلم عليكم ﴿ آمنين ﴾ أي من كل خوف وفزع ، لا تخشون من إخراج ولا انقطاع ولا فناء .

(٤٧) ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾

﴿ ونزعنا ما في صدورهم .. ﴾ عن أبي أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافقوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غل ، ثم قرأ ﴿ ونزعنا ما في صدورهم من غل ﴾ ﴿ متقابلين ﴾ لا ينظر بعضهم في قفا بعض قاله مجاهد ، وفيه حديث مرفوع .

(٤٨) ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾

﴿ لا يمسهم فيها نصب ﴾ يعني المشقة والأذى كما جاء في الصحيحين « إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب » وقوله ﴿ وما هم منها

بمخرجين﴾ كما جاء في الحديث «يقال: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تمرضوا أبداً ، وإن لكم أن تعيشوا فلا تخوفوا أبداً ، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تقيموا فلا تظعنوا أبداً » وقال تعالى ﴿ خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴾ .

(٤٩) ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(٥٠) ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾

﴿ أنا الغفور الرحيم . . . ﴾ أني ذو الرحمة ، وذو العذاب الأليم . عن قتادة قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورع من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لنجع نفسه » .

(٥١) ﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

(٥٢) ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴾

(٥٣) ﴿ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾

يقول تعالى : وخبِّرهم يا محمد عن قصة ﴿ ضيف إبراهيم ﴾ والضيف يطلق على الواحد والجمع ، كالزور والسفر ، وكيف ﴿ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال إنا منكم وجلون ﴾ أي خائفون . وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه إليهم من الضيافة وهو العجل السمين الحنيذ ﴿ قالوا لا توجل ﴾ أي لا تخف ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ أي إسحق عليه السلام .

(٥٤) ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾

ثم قال متعجباً من كبره وكبر زوجته ومتحققاً للوعد ﴿ أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون ﴾ .

(٥٥) ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴾

فأجابوه مؤكدين لما بشروه به تحقيقاً وبشارة بعد بشارة ﴿ قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين ﴾ .

(٥٦) ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾

فأجابهم بأنه ليس يقنط ، ولكن يرجو من الله الولد ، وإن كان قد كبر ، وأسنت امرأته ، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك .

(٥٧) ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

(٥٨) ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾

(٥٩) ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(٦٠) ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن إبراهيم عليه السلام لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى إنه شرع يسألهم عما جاؤ وا له فقالوا ﴿ إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ، وأخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم إلا امرأته فإنها من الهالكين ، ولهذا قالوا ﴿ إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين ﴾ أي الباقين المهلكين .

(٦١) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

(٦٢) ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾

(٦٣) ﴿ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

(٦٤) ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن لوط لما جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه فدخلوا عليه داره قال ﴿ إنكم قوم منكرون قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ﴾ يعنون بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم ، وحلوله بساحتهم ﴿وأتيناك بالحق ﴾ كقوله تعالى ﴿ ما ننزل الملائكة إلا بالحق ﴾ وقوله ﴿ وإنا لصادقون ﴾ تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به من نجاته وإهلاك قومه .

(٦٥) ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾

يذكر تعالى عن الملائكة أنهم أمروه أن يسري بأهله بعد مضي جانب من الليل ، وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو ، إنما يكون ساقة ، يزجي الضعيف ، ويحمل المنقطع . وقوله ﴿ ولا يلتفت منكم أحد ﴾ أي إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم ، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال ﴿ وامضوا حيث تؤمرون ﴾ كأنه كان معهم من يهديهم السبيل .

(٦٦) ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴾

﴿ وقضينا إليه ذلك الأمر ﴾ أي تقدمنا إليه في هذا ﴿ أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ أي وقت الصباح كقوله في الآية الأخرى ﴿ إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب ﴾ .

(٦٧) ﴿ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

(٦٨) ﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾

يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم ، وأنهم جاؤوا مستبشرين بهم فرحين ﴿ قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون ﴾ وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم أنهم رسل الله .

(٦٩) ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾

(٧٠) ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(٧١) ﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾

قالوا مجيبين له ﴿ أولم ننهك عن العالمين ﴾ أي أو ما نهيناك أن تضيف أحداً ؟ فأرشدهم إلى نسائهم ، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة . هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم ، وما قد أحاط بهم من البلاء ، وماذا يصبحهم من العذاب المستقر ، ولهذا قال الله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴾ أقسم تعالى بحياة نبيه صلوات الله وسلامه عليه ، وفي هذا تشريف عظيم ، ومقام رفيع ، وجاه عريض . عن ابن عباس قال : ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم عليه من محمد ﷺ ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره . يقول الله ، وحياتك وعمرك وبقائك في الدنيا إنهم لفي ضلالهم يعمهون أي يلعبون ، أو يترددون .

(٧٢) ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

(٧٣) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾

(٧٤) ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴾

(٧٥) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾

(٧٦) ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾

(٧٧) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ فأخذتهم الصيحة ﴾ وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس ، وهو طلوعها ، وذلك مع رفع بلادهم إلى عنان السماء ، ثم قلبها ، وجعل عاليها سافلها ، وإرسال حجارة السجيل عليهم . وقوله ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ أي إن آثار هذه النقم لظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته ﴿ للمتوسمين ﴾ المتفرسين، أو للناظرين ، أو للمعتبرين ، أو للمتأملين . روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ إن في ذلك لآيات للمتوسمين ﴾ ورواه الترمذي وابن جرير . وقوله ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ أي وإن قرية « سدوم » التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مهيع ، مسالكه مستمرة إلى اليوم ، كقوله ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾ . وقوله ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أي إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار ، وإنجائنا لوطاً وأهله لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله .

(٧٨) ﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴾

(٧٩) ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

أصحاب الأيكة هم قوم شعيب . والأيكة الشجر الملتف ، وكان ظلمهم بشركهم بالله ، وقطعهم الطريق، ونقصهم المكيال والميزان فانتقم الله منهم بالصيحة والرجفة وعذاب يوم الظلة ، وقد كانوا قريبا من قوم لوط بعدهم ، في الزمان ، ومسامتين لهم في المكان ، ولهذا قال تعالى ﴿ وإنهما لبإمام مبين ﴾ أي طريق مبين أي ظاهر ، ولهذا لما أنذر شعيب قومه قال في نذراته إياهم ﴿ وما قوم لوط منكم ببعيد ﴾ .

(٨٠) ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(٨١) ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

(٨٢) ﴿ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴾

(٨٣) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴾

(٨٤) ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

أصحاب الحجر ثمود الذين كذبوا صالحاً نبيهم عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع المرسلين ، ولهذا أطلق عليهم تكذيب المرسلين ، وذكر تعالى أنه آتاهم من الآيات ما يدلهم على صدق ما جاءهم به صالح كالناقة التي أخرجها الله لهم بدعاء صالح من صخرة صماء ، وكانت تسرح في بلادهم ، لها شرب ولهم شرب يوم معلوم ، فلما عتوا وعقروها قال لهم ﴿ تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب ﴾ وذكر تعالى أنهم ﴿ كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين ﴾ أي من غير خوف ولا احتياج إليها ، بل أشراً وبطراً وعبثاً ، كما هو المشاهد من صنيعهم في بيوتهم بوادي الحجر الذي مر به رسول الله ﷺ وهو ذاهب إلى تبوك ، فقنع رأسه ، وأسرع دابته وقال لأصحابه : « لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » وقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة مصبحين ﴾ أي وقت الصباح من اليوم الرابع ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ما كانوا يستغلونه من زروعهم وثمارهم التي ضنوا بمائها عن الناقة حتى عقروها لئلا تضيق عليهم في المياه فما دفعت عنهم تلك الأموال ، ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك .

(٨٥) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾

﴿ وإن الساعة لآتية ﴾ أي بالعدل ﴿ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ثم أخبر الله نبيه بقيام الساعة وأنها كائنة لا محالة ، ثم أمره بالصفح الجميل عن المشركين في أذاهم له ، وتكذيبهم ما جاء به ، كقوله ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام ﴾ .

(٨٦) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ إن ربك هو الخلاق العليم ﴾ هذا تقرير للمعاد ، وأنه تعالى قادر على إقامة الساعة ، فإنه الخلاق الذي لا يعجزه شيء العليم بما تمزق من الأجساد ، وتفرق في سائر أقطار الأرض ، كقوله ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ .

(٨٧) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ كما آتيناك القرآن العظيم ، فلا تنظرن إلى الدنيا وزينتها ، وما متعنا به أهلها من الزهرة الفانية لنفتنهم فيه ، فلا تغبطهم بما هم فيه ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حزناً عليهم في تكذيبهم لك ، ومخالفتهم دينك ﴿ واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ أي ألن لهم جانبك . قال جماعة : السبع المثاني هي السبع الطول ، يعنون البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس . بين فيهن الفرائض والحدود والقصص والأحكام والأمثال والخبر والعبر . وقال جماعة : هي الفاتحة ، هي سبع آيات ، والبسملة هي الآية السابعة . وفي البخاري عن أبي سعيد بن المعلى قال : مر بي النبي ﷺ ، وأنا أصلي فدعاني ، فلم آته حتى صليت فأتيته ، فقال : « ما منعك أن تأتيني ؟ » فقلت : كنت أصلي ، فقال : « ألم يقل الله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم ﴾ ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد ؟ » فذهب النبي ﷺ ليخرج فذكرت فقال : « ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته » وفي البخاري قال رسول الله ﷺ : « أم القرآن هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم » .

(٨٨) ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

أي استغن بما آتاك الله من القرآن العظيم عما هم فيه من المتاع والزهرة الفانية ، ومن ههنا ذهب ابن عيينة إلى تفسير الحديث الصحيح (ليس منا من لم يتغن بالقرآن) إلى أنه يستغني به عما عداه ، وهو تفسير صحيح ، ولكن ليس هو المقصود من الحديث . روى ابن أبي حاتم عن أبي رافع صاحب النبي ﷺ قال : ضاف النبي ﷺ ضيف ، ولم يكن

عند النبي ﷺ شيء يصلحه ، فأرسل إلى رجل من اليهود « يقول لك محمد رسول الله : أسلفني دقيقاً إلى هلال رجب » قال : لا ، الا برهن ، فأتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال : « أما والله إني لأمين من في السماء ، وأمين من في الأرض ، ولئن أسلفني أو باعني لأؤدين إليه » فلما خرجت من عنده نزلت هذه الآية ﴿لا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ كأنه يعزيه عن الدنيا . عن ابن عباس ﴿ لا تمدن عينيك﴾ قال : نهى الرجل أن يتمنى ما لصاحبه ، وقال مجاهد : ﴿ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ هم الأغنياء .

(٨٩) ﴿ وَقُلْ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴾

يأمر تعالى نبيه أن يقول للناس ﴿ إني أنا النذير المبين ﴾ البين النذارة ، نذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تكذيبه كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها ، وما أنزل الله عليهم من العذاب والانتقام .

(٩٠) ﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴾

﴿ المقتسمين ﴾ أي المتحالفين ، على مخالفة الأنبياء وتكذيبهم وأذاهم .

(٩١) ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾

﴿ الذين جعلوا القرآن عضين ﴾ هم أهل الكتاب جزّؤوا كتبهم المنزلة عليهم ، فآمنوا ببعض ، وكفروا ببعض . أو جعلوا القرآن أصنافاً .

(٩٢) ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(٩٣) ﴿ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فوربك لنسألنهم . . . ﴾ يُسأل العباد كلهم عن خلتين يوم القيامة : عما كانوا يعبدون ، وعما إذا أجابوا المرسلين .

(٩٤) ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بإبلاغ ما بعثه به ، وبإنفاذه ، والصدع به ، وهو مواجهة المشركين به . قال مجاهد هو الجهر بالقرآن في الصلاة . عن عبدالله بن مسعود : ما زال

النبي ﷺ مستخفياً حتى نزلت ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ فخرج هو وأصحابه . ﴿ وأعرض عن المشركين ﴾ .

(٩٥) ﴿ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾

أي بلغ ما أنزل إليك من ربك ، ولا تلتفت إلى المشركين الذين يريدون أن يصدوك عن آيات الله ، ولا تخفهم ، فإن الله كافيك إياهم ، وحافظك منهم ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ .

(٩٦) ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فسوف يعلمون ﴾ تهديد شديد ، ووعيد أكيد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

(٩٧) ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾

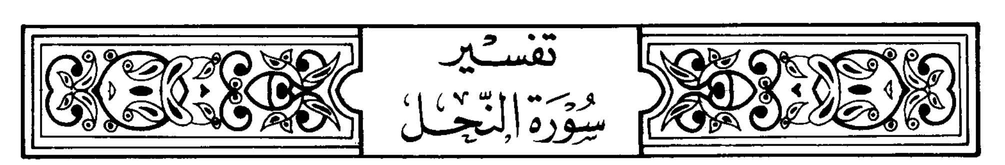
(٩٨) ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾

أي وإنا لنعلم يا محمد أنك يحصل لك من أذاهم ضيق صدر وانقباض ، فلا يثنينك ذلك عن إبلاغ رسالة الله ، وتوكل عليه فإنه كافيك وناصرك عليهم ، فاشتغل بذكر الله وتحميده وتسبيحه وعبادته التي هي الصلاة ، ولهذا قال ﴿ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴾ ولهذا كان رسول الله ﷺ إذا حزَّ به أمر صلى .

(٩٩) ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾

﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ الموت ، وفي الصحيح عن أم العلاء امرأة من الأنصار أن رسول الله ﷺ لما دخل على عثمان بن مظعون ، وقد مات ، قالت أم العلاء : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله ، فقال رسول الله ﷺ : « وما يدريك أن الله أكرمه ؟ » فقالت : بأبي وأمي يا رسول الله فمن ؟ فقال : « أما هو فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير » . ويستدل بهذه الآية الكريمة ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتاً ، فيصلي بحسب حاله ، كما ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « صل قائماً ، فإن لم تستطع فقاعداً ، فإن لم تستطع فعلى جنب » ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة ، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه

التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله ، وأعرفهم بحقوقه ، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ، ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة ، وإنما المراد باليقين هنا الموت .



تفسير سُورَةُ النَّحْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبراً بصيغة الماضي الدال على التحقق والوقوع لا محالة ، كقوله ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ وقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ وقوله ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ أي قرب ما تباعد ، فلا تستعجلوه ، ويحتمل أن يعود الضمير على الله ، ويحتمل أن يعود على العذاب ، وكلاهما متلازم . ثم إنه تعالى نزه نفسه عن شركهم به غيره ، وعبادتهم معه ما سواه من الأوثان والأنداد ، تعالى وتقدس علواً كبيراً ، وهؤلاء هم المكذبون بالساعة فقال ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ .

(٢) ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى ﴿ ينزل الملائكة بالروح ﴾ أي الوحي . وقوله ﴿ على من يشاء من عباده ﴾ هم الأنبياء . وقوله ﴿ أن أنذروا ﴾ أي لينذروا ﴿ أنه لا إله إلا أنا فاتقون ﴾ أي فاتقوا عقوبتي لمن خالف أمري وعبد غيري .

(٣) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه العالم العلوي ، وهو السموات ، والعالم السفلي وهو الأرض بما حوت ، وأن ذلك مخلوق بالحق ، لا للعبث . ثم نزه نفسه عن شرك من عبد معه غيره ، وهو المستقل بالخلق وحده لا شريك له ، فلهذا يستحق أن يعبد وحده لا شريك له .

(٤) ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

ثم نبه على خلق جنس الإنسان من نطفة ، أي مهينة ضعيفة ، فلما استقل ودرج إذا هو يخاصم ربه تعالى ويكذبه ، ويحارب رسله ، وهو إنما خلق ليكون عبداً ، لا ضداً ، قال تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ .

(٥) ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، كما فصلها في سورة الأنعام إلى ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع ، من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون ، ومن ألبانها يشربون ، ويأكلون من أولادها .

(٦) ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾

ويمتن عليهم بما لهم فيها من الجمال وهو الزينة . ولهذا قال ﴿ ولكم فيها جمال حين تريحون﴾ وهو وقت رجوعها عشياً من المرعى ، فإنها تكون أمده خواصر ، وأعظمه ضروعاً ، وأعلاه أسمنة ﴿ وحين تسرحون ﴾ أي غدوة حين تبعثونها إلى المرعى .

(٧) ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ وهي الأحمال الثقيلة التي تعجزون عن نقلها وحملها ﴿ إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾ وذلك في الحج، والعمرة، والغزو، والتجارة، وما جرى مجرى ذلك ، تستعملونها في أنواع الاستعمال من ركوب وتحميل . ﴿ إن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي ربكم الذي قيض لكم هذه الأنعام ، وسخرها لكم .

(٨) ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده ويمتن به عليهم ، وهو الخيل والبغال والحمير التي جعلها للركوب والزينة بها ، وذلك أكبر المقاصد منها . ولما فصلها من الأنعام ، وأفردها بالذكر استدل من العلماء ممن ذهب إلى تحريم لحوم الخيل بذلك على ما ذهب إليه فيها ، كالإمام أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه من الفقهاء بأنه تعالى قرنها بالبغال والحمير ، وهي حرام ، كما ثبتت به السنة النبوية ، وذهب إليه أكثر العلماء . عن ابن عباس أنه كان يكره لحوم الخيل والبغال والحمير ، وكان يقول : قال الله تعالى ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ﴾ فهذه للأكل ﴿ والخيل

والبغال والحمير لتركبوها ﴾ فهذه للركوب .

(٩) ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

لما ذكر تعالى من الحيوانات ما يسار عليه في السبل الحسية نبه على الطرق المعنوية الدينية ، وكثيراً ما يقع في القرآن العبور من الأمور الحسية إلى الأمور المعنوية النافعة الدينية كقوله تعالى ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ ولما ذكر تعالى في هذه السورة الحيوانات من الأنعام وغيرها التي يركبونها ويبلغون عليها حاجة في صدورهم ، وتحمل أثقالهم إلى البلاد والأماكن البعيدة ، والأسفار الشاقة شرع في ذكر الطرق التي يسلكها الناس إليه فبين أن الحق منها ما هي موصلة إليه فقال ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ كقوله ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ قال مجاهد في قوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ قال : طريق الحق إلى الله ، وقيل : الإسلام . ﴿ ومنها جائر ﴾ أي حائد مائل زائغ عن الحق . قال ابن عباس وغيره : هي الطرق المختلفة والآراء والأهواء المتفرقة كاليهودية والنصرانية والمجوسية . ثم أخبر تعالى أن ذلك كله كائن عن قدرته ومشيئته فقال : ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ .

(١٠) ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام والدواب شرع في ذكر نعمته عليهم في إنزاله المطر من السماء ، وهو العلو مما لهم فيه بلغته ومتاع لهم ولأنعامهم فقال ﴿ لكم منه شراب ﴾ أي جعله عذباً زلالاً يسوغ لكم شرابه ، ولم يجعله ملحاً أجاجاً ﴿ ومنه شجر فيه تسيمون ﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ، ومنه الإبل السائحة ، والسوم الرعي .

(١١) ﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها وروائحها وأشكالها ، ولهذا قال : ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي دلالة وحجة على أنه لا إله إلا الله .

(١٢) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده على آياته العظام ، ومننه الجسام في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان ، والشمس والقمر يدوران ، والنجوم الثوابت والسيارات في أرجاء السموات نوراً وضياء ليهتدى بها في الظلمات ، وكل منها يسير في فلكه الذي جعله الله فيه ، يسير بحركة مقدرة ، لا يزيد عليها ولا ينقص منها ، والجميع تحت قهره وسلطانه ، وتسخيره وتقديره وتسهيله ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ أي لدلالات على قدرته تعالى الباهرة ، وسلطانه العظيم لقوم يعقلون عن الله ، ويفهمون حججه .

(١٣) ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

﴿ وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه ﴾ لما نبه تعالى على معالم السماء نبه على ما خلق في الأرض من الأمور العجيبة ، والأشياء المختلفة من الحيوانات والمعادن والنباتات والجمادات على اختلاف ألوانها وأشكالها وما فيها من المنافع والخواص ﴿ إن في ذلك لآيةً لقوم يذكرون ﴾ أي آلاء الله ونعمه فيشكرونها .

(١٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن تسخيره البحر المتلاطم الأمواج ، ويمتن على عباده بتذليله لهم ، وتيسيرهم للركوب فيه ، وجعله السمك والحيتان فيه ، واحلاله لعباده لحمها حيها وميتها في الحل والاحرام ، وما يخلقه فيه من اللآلىء والجواهر النفيسة ، وتسهيله للعباد استخراجهم من قراره حلية يلبسونها ، وتسخيره البحر لحمل السفن التي تمخره أي تشقه ، وقيل : تمخر الرياح ، وكلاهما صحيح وقيل : تمخره بجؤجئها ، وهو صدرها المسنم الذي أرشد العباد إلى صنعتها ، وهداهم إلى ذلك إرثاً عن أبيهم نوح عليه السلام ، فإنه أول من ركب السفن ، وله كان تعليم صنعتها ، ثم أخذها عنه الناس قرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، يسيرون من قطر إلى قطر ، ومن بلد إلى بلد ، ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هناك إلى ما هنا ، وما هنا إلى ما هناك . ولهذا قال تعالى ﴿ ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ أي نعمه وإحسانه .

(١٥) ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى الأرض وما ألقى فيها من الرواسي الشامخات والجبال الراسيات ، لتقر الأرض ولا تميد ، أي لا تضطرب بما عليها من الحيوانات ، فلا يهنأ عيش بسبب ذلك ، ولهذا قال ﴿ والجبال أرساها ﴾ وقوله ﴿ وأنهاراً وسبلاً ﴾ أي جعل فيها أنهاراً تجري من مكان إلى مكان آخر ، رزقاً للعباد ينبع في موضع ، وهو رزق لأهل موضع آخر ، فيقطع البقاع والبراري والقفار ، ويخترق الجبال والآكام ، فيصل إلى البلد الذي سخر لأهله ، وهي سائرة في الأرض يمنة ويسرة ، وجنوباً وشمالاً ، وشرقاً وغرباً ، ما بين صغار وكبار ، وأودية تجري حيناً وتنقطع في وقت وما بين نبع وجمع ، وقوي السير وبطيئه بحسب ما أراد وقدر ، وسخر ويسر ، فلا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، وكذلك جعل فيها سبلاً أي طرقاً يسلك فيها من بلاد إلى بلاد حتى إنه تعالى ليقطع الجبل حتى يكون ما بينهما ممراً ومسلكاً كما قال : ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ .

(١٦) ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وعلامات ﴾ أي دلائل من جبال كبار ، وآكام صغار ، ونحو ذلك يستدل بها المسافرون براً وبحراً إذا ضلوا الطريق . وقوله ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ أي في ظلام الليل .

(١٧) ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

ثم نبه تعالى على عظمته وأنه لا تنبغي العبادة إلا له ، دون ما سواه من الأوثان التي لا تخلق شيئاً ، بل هم يخلقون ، ولهذا قال ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ .

(١٨) ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم نبههم على كثرة نعمه عليهم ، وإحسانه إليهم فقال ﴿ وإن تعدو نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم ﴾ أي يتجاوز عنكم ، ولو طالبكم بشكر جميع نعمه لعجزتم عن القيام بذلك ، ولو أمركم به لضعفتم وتركتم ، ولو عذبكم لعذبكم وهو غير ظالم لكم ، ولكنه غفور رحيم ، يغفر الكثير ، ويجازي على اليسير .

(١٩) ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يعلم الضمائر والسرائر ، كما يعلم الظواهر ، وسيجزي كل عامل بعمله يوم القيامة ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٢٠) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾

ثم أخبر أن الأصنام التي يدعونها من دون الله ، لا يَخلقون شيئاً وهم يُخلقون ، كما قال الخليل ﴿ أتعبدون ما تنحتون ؟ والله خلقكم وما تعملون ﴾ .

(٢١) ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

﴿ أموات غير أحياء ﴾ أي هي جمادات لا أرواح فيها ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أي لا يدرون متى تكون الساعة فكيف يرتجى عند هذه نفع أو ثواب أو جزاء ؟ إنما يرجى ذلك من الذي يعلم كل شيء ، وهو خالق كل شيء .

(٢٢) ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه لا إله إلا هو الواحد الأحد الفرد الصمد ، وأخبر أن الكافرين تنكر قلوبهم ذلك ، كما أخبر عنهم متعجبين من ذلك ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب ﴾ وقوله ﴿ وهم مستكبرون ﴾ أي عن عبادة الله مع إنكار قلوبهم لتوحيده .

(٢٣) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾

﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً ﴿ أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أتم الجزاء ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ .

(٢٤) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى : وإذا قيل لهؤلاء المكذبين ﴿ ماذا أنزل ربكم قالوا ﴾ معرضين عن الجواب ﴿ أساطير الأولين ﴾ أي لم ينزل شيئاً ، إنما هذا الذي يتلى علينا أساطير الأولين ، أي مأخوذ من كتب المتقدمين ، كما قال تعالى ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملىٰ عليه بكرة وأصيلاً ﴾ أي يفترون على الرسول ، ويقولون أقوالاً متضادة مختلفة ، كلها باطلة .

(٢٥) ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾

﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة . . ﴾ أي إنما قدّرنا عليهم أن يقولوا ذلك ، ليتحملوا أوزارهم ، ومن أوزار الذين يتبعونهم ، ويوافقونهم ، أي يصير عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم لغيرهم ، واقتداء أولئك بهم ، كما جاء في الحديث « من دعا

إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » وقال تعالى ﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ .

(٢٦) ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ قد مكر الذين من قبلهم ﴾ قيل : هو « النمروذ » كان أول جبار في الأرض ، وهو الذي بنى الصرح إلى السماء ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ ، وقيل : بل هو « بختنصر » وقال آخرون : هذا من المثل لابطال ما صنعه هؤلاء الذين كفروا بالله . وأشركوا في عبادته غيره ، كما قال نوح عليه السلام ﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ أي احتالوا في إضلال الناس بكل حيلة ، وأمالوهم إلى الشرك بكل وسيلة . وقوله ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد ﴾ أي اجتثه من أصله وأبطل عملهم ، كقوله تعالى ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ وقوله ﴿ فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ وقال الله ههنا ﴿ فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ .

(٢٧) ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

﴿ ثم يوم القيامة يخزيهم ﴾ أي يظهر فضائحهم ، وما كانت تجنه ضمائرهم فيجعله علانية ، كقوله ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أي تظهر وتشتهر ، كما في الصحيحين عن رسول الله ﷺ : « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة عند استه بقدر غدرته ، فيقال : هذه غدرة فلان بن فلان » وهكذا يظهر للناس ما كان هؤلاء يسرون من المكر ، ويخزيهم الله على رؤوس الخلائق ، ويقول لهم الرب مقرعاً لهم وموبخاً ﴿ أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم ، أين هم عن نصركم وخلاصكم ههنا ؟ ﴿ هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ ﴿ فما له من قوة ولا ناصر ﴾ فإذا توجهت عليهم الحجة ، وقامت عليهم الدلالة ، وحقت عليهم الكلمة ، وسكتوا عن الاعتذار حين لا فرار ، ﴿ قال الذين أوتوا العلم ﴾ وهم السادة في الدنيا والآخرة ، والمخبرون عن الحق في الدنيا والآخرة ﴿ إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ أي الفضيحة والعذاب محيط اليوم

بمن كفر بالله ، وأشرك به ما لا يضره وما لا ينفعه .

(٢٨) ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين الظالمي أنفسهم عند احتضارهم ومجيء الملائكة لقبض أرواحهم الخبيثة ﴿ فألقوا السلم ﴾ أي أظهروا السمع والطاعة والانقياد قائلين ﴿ ما كنا نعمل من سوء ﴾ كما يقولون يوم المعاد ﴿ والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ ﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ﴾ قال الله مكذباً لهم في قيلهم ذلك ﴿ بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون ﴾ .

(٢٩) ﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

أي بئس المقيل والمقام والمكان من دار هوان لمن كان متكبراً عن آيات الله ، واتباع رسله ، وهم يدخلون جهنم من يوم مماتهم بأرواحهم وينال أجسادهم في قبورها من حرها ، وسمومها ، فإذا كان يوم القيامة سلكت أرواحهم في أجسادهم وخلدت في نار جهنم ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ وكما قال تعالى ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ .

(٣٠) ﴿ * وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾

هذا خبر عن السعداء بخلاف ما أخبر به عن الأشقياء ، فإن أولئك قيل لهم : ﴿ ماذا أنزل ربكم ﴾ قالوا معرضين عن الجواب : لم ينزل شيئاً ، إنما هذا أساطير الأولين ، وهؤلاء قالوا : خيراً ، أي أنزل خيراً ، أي رحمة وبركة لمن اتبعه ، وآمن به . ثم أخبر عما وعد الله عباده فيما أنزله على رسله فقال ﴿ للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة . . ﴾ كقوله تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي من أحسن عمله في الدنيا أحسن الله إليه في الدنيا والآخرة . ثم أخبر بأن دار الآخرة خير ، أي من الحياة الدنيا والجزاء فيها أتم من الجزاء في الدنيا ، كقوله ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل

صالحاً ﴾ وقال تعالى ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ ثم وصف الدار الآخرة فقال ﴿ ولنعم دار المتقين ﴾ .

(٣١) ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ جنات عدن ﴾ بدل من دار المتقين ، أي لهم في الآخرة جنات عدن أي مقام يدخلونها ﴿ تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي بين أشجارها وقصورها ﴿ لهم فيها ما يشاؤ ون ﴾ كقوله تعالى ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ﴾ ﴿ كذلك يجزي الله المتقين ﴾ أي كذلك يجزي الله كل من آمن به ، واتقاه ، وأحسن عمله .

(٣٢) ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ۙ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون ، أي مخلصون من الشرك والدنس ، وكل سوء ، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة التي كانوا يوعدون ﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلاً من غفور رحيم ﴾ .

(٣٣) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مهدداً للمشركين عن تماديهم في الباطل ، واغترارهم بالدنيا : هل ينتظر هؤلاء إلا الملائكة أن تأتيهم لقبض أرواحهم ﴿ أو يأتي أمر ربك ﴾ أي يوم القيامة ، وما يعانونه من الأهوال . وقوله ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي هكذا تمادى في شركهم أسلافهم ونظراؤهم ، وأشباههم من المشركين حتى ذاقوا بأس الله ، وحلوا فيما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ وما ظلمهم الله ﴾ لأنه تعالى أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم بإرسال رسله ، وإنزال كتبه ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي بمخالفة الرسل ، والتكذيب بما جاؤوا به ، فلهذا أصابتهم عقوبة الله على ذلك .

(٣٤) ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم من العذاب الأليم ﴿ ما كانوا به يستهزؤ ون ﴾ أي يسخرون

من الرسل إذا توعدوهم بعقاب الله يقال لهم يوم القيامة : ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ .

(٣٥) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الاشراك واعتذارهم محتجين بالقدر بقولهم ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤ نا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ أي من البحائر والسوائب والوصائل وغير ذلك مما كانوا ابتدعوه واخترعوه من تلقاء أنفسهم ما لم ينزل به سلطاناً ، ومضمون كلامهم أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلنا لأنكره علينا بالعقوبة ، ولما مكننا منه . قال تعالى راداً عليهم شبهتهم ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أي ليس الأمر كما تزعمون أنه لم ينكره عليكم ، بل قد أنكره عليكم أشد الانكار ، ونهاكم عنه آكد النهي .

(٣٦) ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

في كل أمة أي في كل قرية وطائفة من الناس رسولاً ، وكلهم يدعون إلى عبادة الله ، وينهون عن عبادة ما سواه ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فلم يزل تعالى يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوح ، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب ، وكلهم كما قال الله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾ فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء . . ﴾ فمشيئته تعالى الشرعية عنهم منتفية ، لأنه نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، وأما مشيئته الكونية ، وهي تمكينهم من ذلك قدراً فلا حجة لهم فيها لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة ، وهو لا يرضى لعباده الكفر ، وله في ذلك حجة بالغة ، وحكمة قاطعة . ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل فلهذا قال ﴿ فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة . . . ﴾ أي اسألوا عما كان من أمر من خالف الرسل وكذب الحق كيف ﴿ دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ .

(٣٧) ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾

ثم أخبر تعالى رسوله ﷺ أن حرصه على هدايتهم لا ينفعهم إذا كان الله قد أراد إضلالهم كقوله تعالى ﴿ ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ﴾ وقال نوح لقومه ﴿ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم ﴾ وقال في هذه الآية ﴿ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴾ أي شأنه وأمره أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلهذا قال ﴿ لا يهدي من يضل ﴾ أي من أضله فمن ذا الذي يهديه من بعد الله ؟ أي لا أحد ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي ينقذونهم من عذابه ووثاقه ﴿ ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين ﴾ .

(٣٨) ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين أنهم حلفوا فأقسموا بالله جهد أيمانهم ، أي اجتهدوا في الحلف ، وغلظوا الأيمان على أنه لا يبعث الله من يموت ، أي استبعدوا ذلك ، وكذبوا الرسل في إخبارهم لهم بذلك ، وحلفوا على نقيضه ، فقال تعالى مكذباً لهم ، وراداً عليهم ﴿ بلى ﴾ أي بلى سيكون ذلك ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ أي لا بد منه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلجهلهم يخالفون الرسل ، ويقعون في الكفر .

(٣٩) ﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴾

ثم ذكر تعالى حكمته في المعاد ، وقيام الأجساد يوم التناد فقال ﴿ ليبين لهم ﴾ أي للناس ﴿ الذي يختلفون فيه ﴾ أي من كل شيء ﴿ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴾ أي في أيمانهم وأقسامهم لا يبعث الله من يموت ، ولهذا يدعون يوم القيامة إلى نار جهنم دعاً ، وتقول لهم الزبانية ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ .

(٤٠) ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

ثم أخبر تعالى عن قدرته على ما يشاء ، وأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له ﴿ كن فيكون ﴾ والمعاد من ذلك إذا أراد كونه ، فإنما يأمر به مرة واحدة ، فيكون كما يشاء ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح البصر ﴾ وقال ﴿ ما

خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يقول : قال الله تعالى : شتمني ابن آدم ، ولم يكن ينبغي له ذلك ، وكذبني ابن آدم ولم يكن ينبغي له ذلك ، فأما تكذيبه إياي فقال ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴾ قال : وقلت : ﴿ بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وأما شتمه إياي فقال ﴿ إن الله ثالث ثلاثة ﴾ وقلت ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ . هكذا ذكره موقوفاً ، وهو في الصحيح مرفوعاً بلفظ آخر .

(٤١) ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جزائه للمهاجرين في سبيله ابتغاء مرضاته الذين فارقوا الدار والاخوان والخلان رجاء ثواب الله وجزائه ﴿ لنبوئنهم في الدنيا حسنة ﴾ هي المدينة ، أو الرزق الطيب ، ولا منافاة فقد مكن الله لهم ، وعوضهم ، وجعلهم أمراء حكاماً ﴿ ولأجر الآخرة أكبر ﴾ أي مما أعطاهم في الدنيا ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لو كان المتخلفون عن الهجرة يعلمون ما ادخر الله لمن هاجر في سبيل الله .

(٤٢) ﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ الذين صبروا . . ﴾ أي صبروا على الأذى من قومهم ، متوكلين على الله الذي أحسن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة .

(٤٣) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

عن ابن عباس لما بعث الله محمداً ﷺ رسولاً أنكرت العرب ذلك ، أو من أنكر منهم ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ وقال ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ يعني أهل الكتب الماضية ، أبشراً كانت الرسل إليهم ، أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم ، وإن كانوا بشراً فلا تنكروا أن يكون محمد ﷺ رسولاً . والغرض أن هذه الآية الكريمة أخبرت بأن الرسل الماضين قبل محمد ﷺ كانوا بشراً كما هو بشر ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ .

(٤٤) ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى أنه أرسلهم ﴿ بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل ﴿ والزبر ﴾ وهي الكتب . والزبر جمع زبور ، تقول العرب : زبرت الكتاب إذا كتبته . ثم قال تعالى ﴿ وأنزلنا إليك الذكر ﴾ أي القرآن ﴿ لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ أي من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله عليك ، وحرصك عليه ، واتباعك له ، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق ، وسيد ولد آدم ، فتفصل لهم ما أجمل ، وتبين لهم ما أشكل ﴿ ولعلهم يتفكرون ﴾ أي ينظرون لأنفسهم فيهتدون ، فيفوزون بالنجاة في الدارين .

(٤٥) ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه ، وإنظاره العصاة الذين يعملون السيئات ، ويدعون إليها ، ويمكرون بالناس في دعائهم إياهم ، وحملهم عليها مع قدرته على أن يخسف بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، أي من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم كقوله تعالى ﴿ أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور . أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴾ .

(٤٦) ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

﴿ أو يأخذهم في تقلبهم ﴾ أي في تقلبهم في المعايش ، واشتغالهم بها في الأسفار ونحوها من الأشغال الملهية ، قال قتادة ﴿ في تقلبهم ﴾ في الليل والنهار كقوله تعالى ﴿ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ﴾ وقوله ﴿ فما هم بمعجزين ﴾ أي لا يعجزون الله على أي حال كانوا عليه .

(٤٧) ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ أو يأخذهم على تخوف ﴾ أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم ، فإنه يكون أبلغ وأشد ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ﴿ فإن ربكم لرؤوف رحيم ﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ، كما ثبت في الصحيحين « لا أحد أصبر على أذىً سمعه من الله ، إنهم يجعلون له ولداً ، وهو يرزقهم ويعافيهم » وفيهما « إن الله ليملي للظالم حتى

إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٤٨) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وكبريائه الذي خضع له كل شيء ، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها : جماداتها وحيواناتها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة ، فأخبر تعالى أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال ، أي بكرة وعشياً فإنه ساجد بظله لله تعالى . ﴿ وهم داخرون ﴾ أي صاغرون .

(٤٩) ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

﴿ وهم لا يستكبرون ﴾ أي تسجد لله ، أي غير مستكبرين عن عبادته .

(٥٠) ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴾

﴿ يخافون ربهم من فوقهم ﴾ أي يسجدون خائفين وجلين من الرب جل جلاله ﴿ ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي مثابرين على طاعته تعالى ، وامتثال أوامره ، وترك زواجره .

(٥١) ﴿ ۞ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَارْهَبُونِ ﴾

يخبر تعالى أنه لا إلّه إلا هو ، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه .

(٥٢) ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾

﴿ وله الدين واصباً ﴾ دائماً ، أو واجباً ، أي خالصاً ، أي له العبادة وحده ممن في السموات والأرض . ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون ﴾ .

(٥٣) ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر ، وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله

عليهم ، وإحسانه إليهم ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ أي لعلمكم أنه لا يقدر على إزالته إلا هو ، فإنكم عند الضرورات تلجأون إليه ، وتسألونه ، وتلمون في الرغبة إليه مستغيثين به كقوله تعالى ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً ﴾ .

﴿٥٤﴾ ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

وقال هنا ﴿ ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون ﴾ .

﴿٥٥﴾ ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ قيل : اللام ههنا لام العاقبة ، وقيل : لام التعليل ، بمعنى قيضنا لهم ذلك ليكفروا ، أي يستروا ويجحدوا نعم الله عليهم ، وأنه المسدي إليهم النعم ، الكاشف عنهم النقم . ثم توعدهم قائلاً ﴿ فتمتعوا ﴾ أي اعملوا ما شئتم وتمتعوا بما أنتم فيه قليلاً ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي عاقبة ذلك .

﴿٥٦﴾ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن قبائح المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأصنام والأوثان والأنداد بغير علم ، وجعلوا للأوثان نصيباً مما رزقهم الله فقالوا ﴿ هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون ﴾ أي جعلوا لآلهتهم نصيباً مع الله ، وفضلوها على جانبه فأقسم الله تعالى بنفسه الكريمة ليسألنهم عن ذلك الذي افتروه وائتفكوه ، وليقابلنهم عليه ، وليجازينهم أوفر الجزاء في نار جهنم فقال ﴿ تالله لتسئلن عما كنتم تفترون ﴾ .

﴿٥٧﴾ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله فعبدوها معه فأخطأوا خطأً كبيراً في كل مقام من هذه المقامات الثلاث فنسبوا إليه تعالى أن له ولداً ، ولا ولد له ، ثم أعطوه أخس القسمين من الأولاد وهو البنات ، وهم لا يرضونها لأنفسهم كما قال تعالى ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ وقوله ههنا ﴿ ويجعلون لله البنات سبحانه ﴾ أي عن قولهم وإفكهم . وقوله ﴿ ولهم ما يشتهون ﴾ أي يختارون لأنفسهم الذكور ، ويأنفون لأنفسهم من البنات التي نسبوها إلى

الله . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً . فإنهم كما قال الله عنهم :

(٥٨) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ﴾

﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً ﴾ أي كئيباً من الهم ﴿ وهو كظيم ﴾ ساكت من شدة ما هو فيه من الحزن .

(٥٩) ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾

﴿ يتوارى من القوم ﴾ أي يكره أن يراه الناس ﴿ من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ﴾ أي إن أبقاها أبقاها مهانة ، لا يورثها ، ولا يعتني بها ويفضل أولاده الذكور عليها ﴿ أم يدسه في التراب ﴾ أي يئدها ، وهو أن يدفنها فيه حية ، كما كانوا يصنعون في الجاهلية ، أفمن يكرهونه هذه الكراهة ، ويأنفون لأنفسهم عنه يجعلونه لله ؟ ﴿ ألا ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس ما قالوا ، وبئس ما قسموا ، وبئس ما نسبوه إليه .

(٦٠) ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوۡءِۖ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

﴿ للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ﴾ أي النقص إنما ينسب إليهم ﴿ ولله المثل الأعلى ﴾ أي الكمال المطلق من كل وجه وهو منسوب إليه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ .

(٦١) ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حلمه بخلقه مع ظلمهم ، وأنه لو لا يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة ، أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لاهلاك بني آدم ، ولكن الرب جل جلاله يحلم ويستر ، وينظر إلى أجل مسمى ، أي لا يعاجلهم بالعقوبة ، إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً . عن أبي الأحوص أنه قال : كاد الجُعَل أن يعذب بذنب بني آدم . وقرأ الآية ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ﴾ سمع أبو هريرة رجلاً وهو يقول : إن الظالم لا يضر إلا نفسه ، فالتفت إليه أبو هريرة فقال : بلى والله حتى إن الحبارى لتموت في وكرها بظلم الظالم .

(٦٢) ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴾

﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي من البنات ، ومن الشركاء الذين هم عبيده ، وهم يأنفون أن يكون عند أحدهم شريك له في ماله . وقوله ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ إنكار عليهم في دعواهم مع ذلك أن لهم الحسنى في الدنيا وإن كان ثم معاد ففيه أيضاً لهم الحسنى ، وإخبار عن قيل من قال منهم كقوله ﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ فجمع هؤلاء بين عمل السوء وتمني الباطل بأن يجازوا على ذلك حسناً ، وهذا مستحيل . قال مجاهد وقتادة : ﴿ وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى ﴾ الغلمان . ﴿ لا جرم ﴾ أي حقاً لا بد منه ﴿ أن لهم النار ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وأنهم مفرطون ﴾ منسيون فيها مضيعون . وهذا كقوله ﴿ فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ أو ﴿ مفرطون ﴾ معجلون إلى النار ، من الفرط وهو السابق إلى الورد ، ولا منافاة لأنهم يعجل بهم يوم القيامة إلى النار ، وينسون فيها ، أي يخلدون .

(٦٣) ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يذكر تعالى أنه أرسل إلى الأمم الخالية رسلاً فكذبت الرسل ، فلك يا محمد في إخوانك من المرسلين أسوة ، فلا يهيدنك تكذيب قومك لك . وأما المشركون الذين كذبوا الرسل فإنما حملهم على ذلك تزيين الشيطان لهم ما فعلوه ﴿ فهو وليهم اليوم ﴾ أي هم تحت العقوبة والنكال ، والشيطان وليهم ، ولا يملك لهم خلاصاً ، ولا صريخ لهم ، ولهم عذاب أليم .

(٦٤) ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم قال الله تعالى لرسوله ﷺ : إنه إنما أنزل عليه الكتاب ليبين للناس الذي يختلفون فيه ، فالقرآن فاصل بين الناس في كل ما يتنازعون فيه ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة ﴾ أي لمن تمسك به ﴿ لقوم يؤمنون ﴾ .

(٦٥) ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

وكما جعل سبحانه القرآن حياة للقلوب الميتة بكفرها كذلك يحيي الأرض بعد موتها بما أنزله عليها من السماء من ماء ﴿ إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾ أي يفهمون الكلام ومعناه .

(٦٦) ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾

﴿ وإن لكم ﴾ أيها الناس ﴿ في الأنعام ﴾ وهي الإبل والبقر والغنم ﴿ لعبرة ﴾ أي لآية ودلالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه ﴿ نسقيكم مما في بطونه ﴾ أفرد الضمير هنا عوداً على معنى النعم ، أو الضمير عائد على الحيوان ، فإن الأنعام حيوانات ، أي نسقيكم مما في بطون هذا الحيوان . وفي الآية الأخرى ﴿ مما في بطونها ﴾ ويجوز هذا وهذا ، كما في قوله تعالى ﴿ كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره ﴾ وفي قوله ﴿ وإني مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان ﴾ أي المال . وقوله ﴿ من بين فرث ودم لبناً خالصاً ﴾ أي يتخلص الدم بياضه وطعمه وحلاوته من بين فرث ودم في باطن الحيوان فيسري كل إلى موطنه إذا نضج الغذاء في معدته ، فيصرف منه دم إلى العروق ، ولبن إلى الضرع ، وبول إلى المثانة ، وروث إلى المخرج ، وكل منها لا يشوب الآخر ، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ، ولا يتغير به . وقوله ﴿ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾ أي لا يغص به أحد .

(٦٧) ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

ولما ذكر اللبن وأنه تعالى جعله شراباً للناس سائغاً ، ثنى بذكر ما يتخذه الناس من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب ، وما كانوا يصنعون من النبيذ المسكر قبل تحريمه ، ولهذا امتن به عليهم فقال ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ﴾ دل على إباحته شرعاً قبل تحريمه ، ودل على التسوية بين المسكر المتخذ من النخل ، والمتخذ من العنب ، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء ، وكذا حكم سائر الأشربة المتخذة من الحنطة والشعير والذرة والعسل ، كما جاءت السنة بتفصيل ذلك .

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ ناسب ذكر العقل ههنا، فإنه أشرف ما في الإنسان، ولهذا حرم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانة لعقولها .

(٦٨) ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾

المراد بالوحي هنا الإلهام والهداية والارشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً تأوي إليها ، ومن الشجر ، ومما يعرشون .

(٦٩) ﴿ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ثم هي محكمة في غاية الاتقان في تسديدها ورصها بحيث لا يكون في بيتها خلل ، ثم أذن لها إذناً قدرياً تسخيرياً أن تأكل من كل الثمرات ، وأن تسلك الطرق التي جعلها الله تعالى مذللة لها ، مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبراري الشاسعة ، والأودية والجبال الشاهقة ، ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها ، لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، بل إلى بيتها وما لها فيه من فراخ وعسل فتبني الشمع من أجنحتها ، وتقيء العسل من فيها ، وتبيض الفراخ من دبرها ، ثم تصبح إلى مراعيها . روى ابن أبي يعلى عن رسول الله ﷺ : « عمر الذباب أربعون يوماً ، والذباب كله في النار إلا النحل » . وقوله ﴿ يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾ ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها . وقوله ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ أي في العسل شفاء للناس أي من أدواء تعرض لهم . قال بعض من تكلم على الطب النبوي : لو قال : فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء ، ولكن قال : فيه شفاء للناس ، أي يصلح لكل أحد من أدواء باردة ، فإنه حار والشيء يداوى بضده . وفي صحيح البخاري « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ، وأنهي أمتي عن الكي » .

(٧٠) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن تصرفه في عباده ، وأنه هو الذي أنشأهم من العدم ، ثم بعد ذلك يتوفاهم ، ومنهم من يتركه حتى يدركه الهرم ، وهو الضعف في الخلقة كما قال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة ﴾ وعن علي : أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وفي هذه السن يحصل له ضعف القوى والخرف وسوء الحفظ وقلة العلم ، ولهذا قال ﴿ لكيلا يعلم بعد علمه شيئاً ﴾ .

(٧١) ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

بين تعالى للمشركين جهلهم وكفرهم فيما زعموه لله من الشركاء ، وهم يعترفون أنها عبيد له ، فقال تعالى منكراً عليهم : أنتم لا ترضون أن تساووا عبدكم فيما رزقناكم . فكيف يرضى هو تعالى بمساواة عبيد له في الإلٰهية والتعظيم ﴿ أفبنعمة الله يجحدون ﴾ كتب عمر إلى أبي موسى : واقنع برزقك من الدنيا ، فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض في الرزق بلاء يبتلي به كلًا ، فَيبتلي من بسط له كيف شكره لله ، وأداؤه الحق الذي افترض عليه فيما رزقه .

(٧٢) ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجاً من جنسهم وشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة ، ولكن من رحمته خلق بني آدم ذكوراً وإناثاً ، وجعل الإناث أزواجاً للذكور ، ثم ذكر أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة ، وهم أولاد البنين ، أو هم الولد وولد الولد ، أو الحفدة الأنصار والأعوان والخدام ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي من المطاعم والمشارب . ثم قال تعالى منكراً على من أشرك في عبادة المنعم غيره ﴿ أفبالباطل يؤمنون ﴾ وهم الأنداد والأصنام ﴿ وبنعمة الله هم يكفرون ﴾ أي يسترون نعم الله عليهم ، ويضيفونها إلى غيره . وفي الحديث الصحيح « إن الله يقول للعبد يوم القيامة ممتناً عليه : ألم أزوجك ؟ ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس ذرية ؟ » .

(٧٣) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين الذين عبدوا معه غيره مع أنه هو المنعم المتفضل الرازق وحده ، لا شريك له ، ومع هذا يعبدون من دون الأصنام والأنداد والأوثان ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً ، أي لا يقدر على إنزال مطر ، ولا إثبات زرع ولا شجر ، ولا يملكون ذلك لأنفسهم ، أي ليس لهم ذلك ، ولا يقدرون عليه لو أرادوه ، ولهذا قال :

(٧٤) ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ أي لا تجعلوا له أنداداً وأشباهاً وأمثالاً ﴿ إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي إنه يعلم ويشهد أن لا إله إلا هو ، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره .

(٧٥) ﴿ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَـٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن ، فالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء مثل الكافر . والمرزوق الرزق الحسن فهو ينفق منه سراً وجهراً هو المؤمن . عن مجاهد : هو مثل مضروب للوثن وللحق تعالى فهل يستوي هذا وهذا ؟ ولما كان الفرق بينهما ظاهراً واضحاً بيناً لا يجهله إلا كل غبي قال الله تعالى ﴿ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

(٧٦) ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

قال مجاهد : وهذا أيضاً المراد به الوثن ، والحق تعالى ، يعني أن الوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ولا بشيء ولا يقدر على شيء بالكلية ، فلا مقال ولا فعال ، وهو مع هذا كلٌّ أي عيال وكلفة على مولاه ﴿ أينما يوجهه ﴾ أي يبعثه ﴿ لا يأت بخير ﴾ ولا ينجح مسعاه ﴿ هل يستوي ﴾ من هذه صفاته ﴿ ومن يأمر بالعدل ﴾ أي بالقسط ، فمقاله حق ، وفعاله مستقيمة ﴿ وهو على صراط مستقيم ﴾ .

(٧٧) ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه ، وقدرته على الأشياء في علمه غيب السموات والأرض ، واختصاصه بعلم الغيب ، فلا اطلاع لأحد على ذلك ، إلا أن يطلعه تعالى على ما يشاء ، وفي قدرته التامة التي لا تخالف ولا تمانع ، وأنه إذا أراد شيئاً فإنما يقول له : كن فيكون ، كما قال ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ أي فيكون ما يريد كطرف العين . وهكذا قال ههنا : ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير ﴾ كما قال ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

(٧٨) ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً ، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي به يدركون الأصوات ، والأبصار التي بها يحسون المرئيات ، والأفئدة التي مركزها القلب على الصحيح ، وقيل : الدماغ ، والعقل الذي به يميز بين الأشياء : ضارها ونافعها . وهذه الحواس تحصل للإنسان على التدريج قليلاً قليلاً ، كلما كبر زيد في سمعه وبصره وعقله حتى يبلغ أشده ، وإنما جعل تعالى هذه في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه ، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول الله تعالى : « من عادى لي ولياً فقد بارزته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني لأجيبنه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه » فمعنى الحديث أن العبد إذا أخلص الطاعات صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أي ما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشي إلا في طاعة الله عز وجل مستعيناً بالله في ذلك كله ، ولهذا جاء في بعض رواية الحديث في غير الصحيح بعد قوله « ورجله التي يمشي بها » « فبي يسمع ، وبي يبصر ، وبي يبطش ، وبي يمشي » . ولهذا قال تعالى ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ .

(٧٩) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم نبه تعالى عباده إلى النظر إلى الطير المسخر بين السماء والأرض كيف جعله يطير بجناحيه بين السماء والأرض في جو السماء ما يمسكه هناك إلا الله بقدرته التي جعل فيها قوى تفعل ذلك ، وسخر الهواء يحملها ، كما قال تعالى ﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمٰن إنه بكل شيء بصير ﴾ وقال ههنا ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿٨٠﴾ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

يذكر تعالى تمام نعمه على عبيده بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم يأوون إليها ويستترون بها وينتفعون بها بسائر وجوه الانتفاع ، وجعل لهم أيضاً من جلود الأنعام بيوتاً ، أي من الأدم يستخفون حملها في أسفارهم ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر . ولهذا قال ﴿ تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها ﴾ أي الغنم ﴿ وأوبارها ﴾ أي الإبل ﴿ وأشعارها ﴾ أي المعز . والضمير عائد على الأنعام ﴿ أثاثاً ﴾ أي تتخذون منه أثاثاً ، وهو المال ، وقيل : المتاع ، وقيل : الثياب ، والصحيح أعم من هذا كله ﴿ إلى حين ﴾ أي إلى أجل مسمى ووقت معلوم .

﴿٨١﴾ ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾

﴿ ظلالاً ﴾ يعني الشجر ﴿ أكناناً ﴾ أي حصوناً ومعاقل ﴿ وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف ﴿ وسرابيل تقيكم بأسكم ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك ﴿ كذلك يتم نعمته عليكم ﴾ أي هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم ، وما تحتاجون إليه ليكون عوناً لكم على طاعته وعبادته ﴿ لعلكم تسلمون ﴾ .

﴿٨٢﴾ ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ فإن تولوا ﴾ أي بعد هذا البيان ، وهذا الامتنان فلا عليك منهم ﴿ فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ وقد أديته إليهم .

﴿٨٣﴾ ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

﴿ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ﴾ أي يعرفون أن الله تعالى هو المسدي إليهم ذلك ، وهو المتفضل به عليهم ، ومع هذا ينكرون ذلك ، ويعبدون معه غيره ، ويسندون النصر والرزق إلى غيره ﴿ وأكثرهم الكافرون ﴾ .

﴿٨٤﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن شأن المشركين يوم معادهم في الدار الآخرة ، وأنه يبعث من كل أمة شهيداً ، وهو نبيها يشهد عليها بما أجابته فيما بلغها عن الله تعالى ﴿ ثم لا يؤذن للذين كفروا ﴾ أي في الاعتذار ، لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه كقوله ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فلهذا قال ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ .

(٨٥) ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

﴿ وإذا رأى الذين ظلموا ﴾ أي الذين أشركوا ﴿ العذاب فلا يخفف عنهم ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ ولا هم ينظرون ﴾ أي لا يؤخر عنهم ، بل يأخذهم سريعاً من الموقف بلا حساب .

(٨٦) ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن تبري آلهتهم منهم أحوج ما يكونون إليها فقال ﴿ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم ﴾ أي الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ﴿ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون ﴾ أي قالت لهم الآلهة : كذبتم ، ما نحن أمرناكم بعبادتنا كما قال تعالى ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ .

(٨٧) ﴿ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وألقوا إلى الله يومئذٍ السلم ﴾ ذلوا واستسلموا يومئذٍ ، أي استسلموا لله جميعهم ، فلا أحد إلا سامع مطيع . ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهب واضمحل ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصر لهم ، ولا معين ولا مجير .

(٨٨) ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾

﴿ زدناهم عذابا فوق العذاب ﴾ أي عذابا على كفرهم ، وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق ، كقوله تعالى ﴿ وهم ينهون عنه وينأون عنه ﴾ .

(٨٩) ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ

ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ﴾ يعني أمتك ، أي اذكر ذلك اليوم وهوله ، وما منحك الله فيه من الشرف العظيم ، والمقام الرفيع ، وهذه الآية شبيهة بالآية التي انتهى إليها عبدالله بن مسعود حين قرأ على رسول الله ﷺ صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً ﴾ فقال له رسول الله ﷺ : « حسبك » فقال ابن مسعود رضي الله عنه : « فالتفت فإذا عيناه تذرفان » وقوله ﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ﴾ قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء ، أو كل حلال وحرام ، أو هو أعم وأشمل ، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق ، وعلم ما سيأتي ، وكل حلال وحرام ، وما الناس إليه محتاجون في أمر دينهم ودنياهم ، ومعاشهم ومعادهم ﴿ وهدى ﴾ أي للقلوب ﴿ ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ .

(٩٠) ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يأمر عباده بالعدل وهو القسط والموازنة ، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ ﴿ إن الله يأمر بالعدل ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ، أو هو في هذا الموضع : استواء السريرة والعلانية ، من كل عامل لله عملاً ﴿ والإحسان ﴾ أن تكون سريرته أحسن من علانيته ، والفحشاء والمنكر أن تكون علانيته أحسن من سريرته . ﴿ وإيتاء ذي القربى ﴾ أي يأمر بصلة الأرحام ﴿ وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ فالفواحش والمحرَّمات، والمنكرات ما ظهر منها من فاعلها . وأما البغي فهو العدوان على الناس ، وفي الحديث : « ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخره لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » ﴿ يعظكم ﴾ أي يأمركم بما يأمركم به من الخير ، وينهاكم عما ينهاكم عنه من الشر ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ عن ابن مسعود يقول : إن أجمع آية في القرآن في سورة النحل ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . ﴾ وفي الحديث : « إن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفاسفها » .

(٩١) ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

هذا مما يأمر الله تعالى به ، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة، ولهذا قال ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ أي لا يحملنكم قلة أتباع محمد وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التي بايعتم على الإسلام ﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها. ولا تعارض بين ﴿ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها﴾ وبين قوله ﴿ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم﴾ وقوله ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم ﴾ وقوله عليه الصلاة والسلام « إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير ، وتحللتها ، وفي رواية وكفرت عن يميني » لأن هذه الأيمان في الآية ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ هي الداخلة في العهود والمواثيق ، لا الأيمان التي هي واردة على حث أو منع .

(٩٢) ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت . . . ﴾ هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه . وقال مجاهد وقتادة وابن زيد : هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده ، وهذا القول أرجح وأظهر سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا . ﴿ أنكاثاً ﴾ أي أنقاضاً ، أو لا تكونوا أنكاثاً جمع نِكث من ناكث ، ولهذا قال ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ أي خديعة ومكراً ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي تحلفون للناس إذا كانوا أكثر منكم ليطمئنوا إليكم ، فإذا أمكنكم الغدر بهم غدرتم ، فنهى الله عن ذلك ، لِينبه بالأدنى على الأعلى ، إذا كان قد نهى عن الغدر والحالة هذه فلأنه ينهى عنه مع التمكن والقدرة بطريق الأولى . وفي الحديث « من كان بينه وبين قوم أجل فلا يحلن عقدة حتى ينقضي أمدها » ﴿ أن تكون أمة هي أربى من أمة ﴾ أي أكثر . قال مجاهد كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز فينقضون حلف هؤلاء ، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز فنهوا عن ذلك . ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ يعني بالكثرة ، أو بأمره إياكم بالوفاء بالعهد . ﴿ وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ فيجازي كل عامل بعمله من خير وشر .

﴿٩٣﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ لجعلكم ﴾ أيها الناس ﴿ أمة واحدة ﴾ أي لوفق بينكم ، ولما جعل اختلافاً ولا تباغض ولا شحناء ﴿ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم عليها على الفتيل والنقير والقطمير .

﴿٩٤﴾ ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

حذر تعالى عباده عن اتخاذ الأيمان ﴿ دخلاً ﴾ أي خديعة ومكراً ، لئلا تزل قدم بعد ثبوتها . هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها وزل عن طريق الهدى بسبب الأيمان الحانثة المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن فدعاه ، ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين فانصد بسببه عن الدخول في الإسلام ، ولهذا قال ﴿ وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم ﴾ .

﴿٩٥﴾ ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً ﴾ أي لا تعتاضوا عن الأيمان بالله عرض الحياة الدنيا وزينتها ، فإنها قليلة ، ولو حيزت لابن آدم الدنيا بحذافيرها لكان ما عند الله هو خيراً له ، أي جزاء الله وثوابه خير لمن رجاه وآمن به وطلبه ، وحفظ عهده رجاء موعوده ، ولهذا قال ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ .

﴿٩٦﴾ ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ما عندكم ينفد ﴾ أي يفرغ فإنه إلى أجل معدود محصور مقدر متناه ﴿ وما عند الله باق ﴾ أي وثوابه لكم في الجنة باق ، لا انقطاع ولا نفاد له ، فإنه دائم لا يحول ولا يزول ﴿ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ قسم من الرب تعالى مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم . أي ويتجاوز عن سيئها .

﴿٩٧﴾ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ

مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحاً ، وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ﷺ ﴿ من ذكر أو أنثى ﴾ من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وإن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه حياة طيبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة . والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت . وعن ابن عباس أنهم فسروها بالرزق الحلال الطيب ، وعن علي رضي الله عنه أنه فسرها بالقناعة ، وعن ابن عباس أنها هي السعادة ، وعن قتادة : لا يطيب لأحد حياة إلا في الجنة . وعن الضحاك : هي العمل بالطاعة والانشراح بها . والصحيح أن الحياة الطيبة تشمل هذا كله . وفي الحديث : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم وعنه « قد أفلح من هدي للإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح وروى مسلم « إن الله لا يظلم المؤمن حسنة يعطى بها في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة ، وأما الكافر فيطعم بحسناته في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يعطى بها خيراً » .

(٩٨) ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم قبل القراءة ، وهذا أمر ندب ليس بواجب .

(٩٩) ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي ليس له عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب ، لا يتوبون منه . وقيل: لا حجة له عليهم وقيل : كقوله ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ .

(١٠٠) ﴿ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾

﴿ إنما سلطانه على الذين يتولونه ﴾ يطيعونه ، أو اتخذوه ولياً من دون الله ﴿ وهم مشركون ﴾ أي أشركوه في عبادة الله ، ويحتمل أن تكون الباء سببية ، أي صاروا بسبب طاعتهم للشيطان مشركين بالله تعالى ، وقال آخرون : معناه أنهم أشركوهم في الأموال والأولاد .

(١٠١) ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ضعف عقول المشركين ، وقلة ثباتهم وإيقانهم ، وأنه لا يتصور منهم الإيمان ، وقد كتب عليهم الشقاوة ، وذلك أنهم إذا رأوا تغيير الأحكام ناسخها بمنسوخها قالوا لرسول الله ﷺ ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ أي كذاب ، وإنما هو الرب تعالى يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد . قال مجاهد : ﴿ بدلنا آية مكان آية ﴾ رفعناها وأثبتنا غيرها . وقال قتادة : هو كقوله تعالى ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ .

(١٠٢) ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ قل نزله روح القدس ﴾ أي جبريل ﴿ من ربك بالحق ﴾ أي بالصدق والعدل ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ فيصدقوا بما أنزل أولاً وثانياً ، وتخبت له قلوبهم ﴿ وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ أي وجعله هادياً وبشارة للمسلمين الذين آمنوا بالله ورسله .

(١٠٣) ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين ما كانوا يقولونه من الكذب ، والافتراء والبهت أن محمداً إنما يعلمه هذا الذي يتلوه علينا من القرآن بشر ، ويشيرون إلى رجل أعجمي . كان بين أظهرهم غلام لبعض بطون قريش ، وكان بياعاً يبيع عند الصفا ، وربما كان رسول الله ﷺ يجلس إليه ويكلمه بعض الشيء ، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف العربية ، أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه ، فلهذا قال الله تعالى راداً عليهم في افترائهم ذلك ﴿ لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ﴾ أي القرآن ، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني إسرائيل ، كيف يتعلم من رجل أعجمي ؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل . والذي يشيرون إليه هو غلام أعجمي يقال له : جبر عبد لبعض بني الحضرمي ، أو كان قيناً بمكة اسمه بلعام ، أو هو سلمان الفارسي . وهذا القول ضعيف لأن هذه الآية مكية ، وسلمان إنما أسلم بالمدينة .

(١٠٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

يخبر تعالى أنه لا يهدي من أعرض عن ذكره ، وتغافل عما أنزله على رسوله ﷺ ، ولم يكن له قصد إلى الإيمان بما جاء من عند الله فهذا الجنس من الناس لا يهديهم الله إلى الإيمان بآياته ، وما أرسل به رسله في الدنيا ، ولهم عذاب أليم موجع في الآخرة .

(١٠٥) ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن رسوله ﷺ ليس بمفتر ولا كذاب ، لأنه إنما يفتري الكذب على الله ورسوله ﷺ شرار الخلق ﴿ الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ من الكفرة والملحدين المعروفين بالكذب عند الناس ، والرسول محمد ﷺ أصدق الناس وأبرهم ، وأكملهم علماً وإيماناً وإيقاناً ، معروفاً بالصدق في قومه لا يشك في ذلك أحد بحيث لا يدعى بينهم إلا بالأمين محمد . ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال هرقل : فما كان ليدع الكذب على الناس ، ويذهب فيكذب على الله عز وجل .

(١٠٦) ﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

أخبر تعالى عمن كفر بعد الإيمان والتبصر وشرح صدره بالكفر ، واطمأن به أنه قد غضب عليه لعلمهم بالإيمان ، ثم عدولهم عنه ، وأن لهم عذاباً عظيماً في الدار الآخرة .
وأما قوله ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ﴾ فهو استثناء ممن كفر بلسانه ، ووافق المشركين بلفظه مكرهاً ، لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول ، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله . وقد روى العوفي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم على ذلك مكرهاً ، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ فأنزل الله هذه الآية . وقد اتفق العلماء على أن المكره على الكفر يجوز له أن يوالي إبقاء لمهجته ، ويجوز له أن يأبى كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك ، وهم يفعلون به الأفاعيل ، حتى إنهم ليضعون الصخرة العظيمة على صدره في شدة الحر ، ويأمرونه بالشرك بالله فيأبى عليهم ، وهو يقول : أحد ، أحد ، ويقول : والله لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها . رضي الله عنه وأرضاه . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري لما قال له مسيلمة الكذاب : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول : نعم ، فيقول : أتشهد أني رسول الله ؟ فيقول : لا أسمع ، فلم يزل يقطعه إرباً إرباً ، وهو ثابت على ذلك .

(١٠٧) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

ذلك لأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة فأقدموا على ما أقدموا عليه من الردة لأجل الدنيا ، ولم يهد الله قلوبهم ويثبتهم على الدين .

(١٠٨) ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾

فطبع على قلوبهم فهم لا يعقلون بها شيئاً ينفعهم ، وختم على سمعهم وأبصارهم فلا ينتفعون بها ، ولا أغنت عنهم شيئاً فهم غافلون عما يراد بهم .

(١٠٩) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾

﴿ لا جرم ﴾ أي لا بد ولا عجب أن من هذه صفته ﴿ أنهم في الآخرة هم الخاسرون ﴾ أي الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

(١١٠) ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَـٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

هؤلاء صنف آخر كانوا مستضعفين بمكة مهانين في قومهم فوافقوهم على الفتنة ، ثم إنهم أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا في سلك المؤمنين ، وجاهدوا معهم الكافرين ، وصبروا فأخبر تعالى أنه من بعدها أي تلك الفعلة ، وهي الإجابة إلى الفتنة لغفور رحيم بهم يوم معادهم .

(١١١) ﴿ ۞ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ يوم تأتي كل نفس تجادل ﴾ أي تحاج ﴿ عن نفسها ﴾ ليس أحد يحاج عنها ، لا أب ولا ابن ولا أخ ولا زوجة ﴿ وتوفى كل نفس ما عملت ﴾ أي من خير وشر ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا ينقص من ثواب الخير ، ولا يزاد على ثواب الشر ، ولا يظلمون نقيراً .

(١١٢) ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾

(١١٣) ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

هذا مثل أريد به أهل مكة ، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، ومن دخلها كان آمناً لا يخاف ، كما قال تعالى ﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ يأتيها رزقها رغداً ﴾ أي هنيئاً سهلاً ﴿ من كل مكان فكفرت بأنعم الله ﴾ أي جحدت آلاء الله ، وأعظمها بعثة محمد ﷺ إليهم ، كما قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ وقوله ﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ﴾ أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ، ويأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ ، وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز ، وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه . وقوله ﴿ والخوف ﴾ وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفاً من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسراياه وجيوشه ، وجعل كل ما لهم في دمار وسفال حتى فتحها الله على رسوله ﷺ ، وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذي بعثه الله فيهم وامتن به عليهم .

(١١٤) ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بأكل رزقه الحلال الطيب وبشكره على ذلك ، فإنه المنعم المتفضل به ابتداء ، الذي يستحق العبادة وحده لا شريك له .

(١١٥) ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم في دينهم ودنياهم من الميتة والدم ولحم الخنزير ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾ أي ذبح على غير اسم الله. ومع هذا ﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد ﴾ أي احتاج إليه من غير بغي ولا عدوان ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ .

(١١٦) ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

﴿ ولا تقولوا لما تصف . . ﴾ ويدخل في هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي ، أو حلل شيئاً مما حرم الله ، أو حرم شيئاً مما أباح الله بمجرد رأيه وتشهيه . ثم توعد على ذلك فقال : ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ﴾ أي في الدنيا ولا في الآخرة .

(١١٧) ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

أما في الدنيا فمتاع قليل ، وأما في الآخرة فلهم عذاب أليم ، كما قال ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

(١١٨) ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

لما ذكر الله تعالى أنه حرم علينا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به ، وإنما أرخص فيه عند الضرورة ، وفي ذلك توسعة لهذه الأمة التي يريد الله بها اليسرى ولا يريد بها العسرى ذكر سبحانه ما كان حرمه على اليهود في شريعتهم قبل أن ينسخها ، وما كانوا فيه من الآصار والتضييق والأغلال والحرج فقال ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل ﴾ أي في سورة الأنعام في قوله ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر . . . ﴾ ولهذا قال ﴿ وما ظلمناهم ﴾ أي فيما ضيقنا عليهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي فاستحقوا ذلك كقوله ﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴾ .

(١١٩) ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم أخبر تعالى تكرماً وامتناناً في حق العصاة المؤمنين أن من تاب منهم تاب الله عليه فقال ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ﴾ قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ أي أقلعوا عما كانوا فيه من المعاصي وأقبلوا على فعل الطاعات ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ أي تلك الفعلة والزلة ﴿ لغفور رحيم ﴾ .

(١٢٠) ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

يمدح تعالى عبده وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء ، ويبرئه من المشركين ، ومن اليهودية ، والنصرانية فقال ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ﴾ فأما الأمة فهو الإمام الذي يقتدى به . والقانت : هو الخاشع المطيع . والحنيف : المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد ، ولهذا قال : ﴿ ولم يك من المشركين ﴾ .

(١٢١) ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ شاكراً لأنعمه ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله عليه ، كقوله تعالى ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ أي قام بجميع ما أمره الله به ﴿ اجتباه ﴾ أي اختاره واصطفاه .

(١٢٢) ﴿ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ أي جمعنا له خير الدنيا من جميع ما يحتاج المؤمن إليه في إكمال حياته الطيبة ﴿ وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ .

(١٢٣) ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ أي ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرسل ، وسيد الأنبياء ﴿ أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ كقوله في سورة الأنعام ﴿ قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

(١٢٤) ﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

ثم قال تعالى منكراً على اليهود ﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه . . ﴾ لا شك أن الله تعالى شرع في كل ملة يوماً من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة ، لأنه اليوم السادس الذي أكمل الله فيه الخليقة ، واجتمعت فيه ، وتمت النعمة على عباده . ويقال : إن الله شرع ذلك لبني إسرائيل على لسان موسى فعدلوا عنه ، واختاروا السبت ، لأنه اليوم الذي لم يخلق فيه الرب شيئاً من المخلوقات فألزمهم تعالى به في شريعة التوراة ، ووصاهم أن يتمسكوا به ، وأن يحافظوا عليه مع أمره إياهم بمتابعة محمد ﷺ إذا بعثه ، وأخذ مواثيقهم وعهودهم على ذلك ، ولهذا قال تعالى

﴿ إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ﴾ قال مجاهد : اتبعوه وتركوا الجمعة . وقد ثبت في الصحيحين « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذي فرض الله عليهم فاختلفوا فيه ، فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع ، اليهود غداً ، والنصارى بعد غد » لفظ البخاري .

(١٢٥) ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله محمداً ﷺ أن يدعو الخلق إلى الله بالحكمة ، وهو ما أنزله الله عليه من الكتاب والسنة والموعظة الحسنة ، أي بما فيه من الزواجر والوقائع بالناس ، ذكرهم بها ليحذروا بأس الله تعالى . وقوله ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ أي من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال فليكن بالوجه الحسن ، برفق ولين وحسن خطاب ، كقوله تعالى ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ﴾ فأمره تعالى بلين الجانب كما أمر موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ وقوله ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله . . ﴾ أي قد علم الشقي منهم والسعيد ، وكتب ذلك عنده وفرغ منه ، فادعهم إلى الله ولا تذهب نفسك على من ضل منهم حسرات ، فإنه ليس عليك هداهم ، إنما أنت نذير ، عليك البلاغ ، وعلينا الحساب .

(١٢٦) ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾

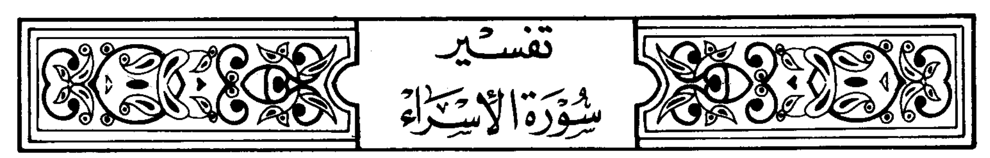
يأمر تعالى بالعدل في القصاص ، والمماثلة في استيفاء الحق ، أي إن أخذ منكم رجل شيئاً فخذوا مثله . نزلت السورة كلها بمكة إلا ثلاث آيات من آخرها نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة رضي الله عنه ، فقال رسول الله ﷺ : « لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم » فلما سمع المسلمون ذلك قالوا : والله لئن ظهرنا عليهم لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب بأحد قط فأنزل الله ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ فقال رسول الله : « نصبر ولا نعاقب » وفي القرآن ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ وقال ﴿ والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ﴾ وقال هنا ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ ثم قال ﴿ ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ .

(١٢٧) ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

وقوله ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ تأكيد للأمر بالصبر ، وإخبار بأن ذلك لا ينال إلا بمشيئة الله وإعانته وحوله وقوته ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي على من خالفك منهم ، فإن الله قدر ذلك ﴿ ولا تك في ضيق ﴾ أي غم ﴿ مما يمكرون ﴾ مما يجهدون أنفسهم في عداوتك ، وإيصال الشر إليك .

(١٢٨) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾

﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ أي معهم بتأييده ونصره ومعونته وهديه وسعيه . وهذه معينة خاصة كقوله ﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم ﴾ وقوله لموسى وهارون ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ وقول النبي للصديق « لا تحزن إن الله معنا » ، وأما المعينة العامة فبالسمع والبصر والعلم كقوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ . ومعنى ﴿ الذين اتقوا ﴾ أي تركوا المحرمات ﴿ والذين هم محسنون ﴾ أي فعلوا الطاعات ، فهؤلاء يحفظهم الله ويكلؤهم وينصرهم ويؤيدهم على أعدائهم ومخالفيهم .



في البخاري عن عبدالرحمن بن يزيد قال : سمعت ابن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم : إنهن من العتاق الأول ، وهن تلادي . وروى الإمام أحمد عن عائشة تقول : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان يقرأ كل ليلة بني إسرائيل والزمر .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

يمجد تعالى نفسه ، ويعظم شأنه ، لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه . ﴿ الذي أسرى بعبده ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ ليلاً ﴾ أي في جنح الليل ﴿ من المسجد الحرام ﴾ وهو مسجد مكة ﴿ إلى المسجد الأقصا ﴾ وهو بيت المقدس

الذي « بإيلياء » معدن الأنبياء من لدن إبراهيم عليه السلام . ولهذا جمعوا له هناك كلهم ، فأَمَّهم في محلتهم ودارهم ، فدل على أنه هو الإمام الأعظم ، والرئيس المقدم . صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وقوله تعالى ﴿ الذي باركنا حوله ﴾ أي في الزروع والثمار ﴿ لنريه ﴾ أي محمداً ﷺ ﴿ من آياتنا ﴾ أي العظام كما قال تعالى ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ﴿ إنه هو السميع البصير ﴾ أي السميع لأقوال عباده مؤمنهم وكافرهم ، مصدقهم ومكذبهم ، البصير بهم فيعطي كلاً منهم ما يستحقه في الدنيا والآخرة . هذا وحديث الاسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة والملحدون .

(٢) ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾

لما ذكر تعالى أنه أسرى بعبده محمد ﷺ عطف بذكر موسى عبده ورسوله وكليمه أيضاً ، فإنه تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد عليهما السلام، وبين ذكر التوراة والقرآن، ولهذا قال بعد ذكر الاسراء ﴿ وآتينا موسى الكتاب ﴾ يعني التوراة ﴿ وجعلناه ﴾ أي الكتاب ﴿ هدى ﴾ أي هادياً ﴿ لبني إسرائيل أن لا تتخذوا ﴾ أي لئلا تتخذوا ﴿ من دوني وكيلاً ﴾ أي ولياً ولا نصيراً ، ولا معبوداً دوني ، لأن الله تعالى أنزل على كل نبي أرسله أن يعبده وحده لا شريك له .

(٣) ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾

ثم قال : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح ﴾ تقديره : يا ذرية من حملنا مع نوح ، وفيه تهييج وتنبيه على المنة ، أي يا سلالة من نجينا فحملنا في السفينة ، تشبهوا بأبيكم ﴿ إنه كان عبداً شكوراً ﴾ فاذكروا أنتم نعمتي عليكم بإرسالي إليكم محمداً ﷺ . روى مسلم « إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها » .

(٤) ﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

يخبر تعالى أنه قضى إلى بني إسرائيل في الكتاب ، أي تقدم إليهم وأخبرهم في الكتاب الذي أنزله عليهم أنهم سيفسدون في الأرض مرتين ، ويعلون علواً كبيراً ، أي يتجبرون ويطغون ويفجرون على الناس .

(٥) ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ

وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴾

﴿ فإذا جاء وعد أولاهما ﴾ أي أولي الافسادتين ﴿ بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد ﴾ أي سلطنا عليكم جنداً من خلقنا أولي بأس شديد ، أي قوة وعدة وسلطنة شديدة فجاسوا خلال الديار ، أي تملكوا بلادكم ، وسلكوا خلال بيوتكم ، أي بينها ووسطها ، وانصرفوا ذاهبين وجائين ، لا يخافون أحداً ، ﴿ وكان وعداً مفعولاً ﴾ .

(٦) ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾

وقد قيل : إن المسلط عليهم هو جالوت الجزري وجنوده سلط عليهم أولاً ، ثم أديلوا عليه بعد ذلك ﴿ وقتل داود جالوت ﴾ وقيل : إنه ملك الموصل « سنحاريب » وجنوده ، وقيل : هو « بختنصر » ملك بابل . وقد وردت هنا آثار إسرائيلية كثيرة منها ما هو موضوع من بعض زنادقتهم ، ومنها ما يحتمل أن يكون صحيحاً ، وفيما قص الله علينا في كتابه غنية عما سواه من بقية الكتب قبله ، ولم يحوجنا الله ولا رسوله إليهم . وقد أخبر الله عنهم أنهم لما طغوا وبغوا سلط الله عليهم عدوهم فاستباح بيضتهم ، وسلك خلال بيوتهم ، وأذلهم وقهرهم جزاء وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ فإنهم كانوا قد تمردوا وقتلوا خلقاً من الأنبياء والعلماء .

(٧) ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْآخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾

﴿ وإن أسأتم فلها ﴾ أي فعليها كما قال تعالى ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ وقوله ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة ﴾ أي الكرة الآخرة أي إذا أفسدتم الكرة الثانية وجاء أعداؤكم ﴿ ليسوءوا وجوهكم ﴾ أي يهينوكم ويقهروكم ﴿ وليدخلوا المسجد ﴾ أي بيت المقدس ﴿ كما دخلوه أول مرة ﴾ أي في التي جاسوا فيها خلال الديار ﴿ وليتبروا ﴾ أي يدمروا ويخربوا ﴿ ما علوا ﴾ أي ما ظهروا عليه ﴿ تتبيراً ﴾ .

(٨) ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴾

﴿ عسى ربكم أن يرحمكم ﴾ أي فيصرفهم عنكم ﴿ وإن عدتم عدنا ﴾ أي متى عدتم إلى الإفساد ﴿ عدنا ﴾ إلى الادالة عليكم في الدنيا مع ما ندخره لكم في الآخرة من العذاب والنكال . ولهذا قال ﴿ وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً ﴾ أي مستقراً ومحصراً وسجناً لا

محيد لهم عنه . قال قتادة : قد عاد بنو إسرائيل فسلط الله عليهم هذا الحي «محمداً ﷺ وأصحابه» ، يأخذون منهم الجزية عن يدوهم صاغرون .

(٩) ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾

يمدح الله تعالى كتابه العزيز الذي أنزله على رسوله محمد ﷺ وهو القرآن الكريم بأنه يهدي لأقوم الطرق ، وأوضح السبل ، ويبشر المؤمنين به الذين يعملون الصالحات على مقتضاه أن لهم أجراً كبيراً أي يوم القيامة .

(١٠) ﴿ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي ويبشر الذين لا يؤمنون بالآخرة أن لهم عذاباً أليماً ، أي يوم القيامة ، كما قال تعالى ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ .

(١١) ﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴾

يخبر تعالى عن عجلة الإنسان ودعائه في بعض الأحيان على نفسه وولده ، أو ماله بالشر ، أي بالموت ، أو الهلاك والدمار واللعنة ونحو ذلك ، فلو استجاب له ربه لهلك بدعائه ، وفي الحديث « لا تدعوا على أنفسكم ، ولا على أموالكم أن توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » وإنما يحمل ابن آدم على ذلك قلقه وعجلته ، ولهذا قال : ﴿ وكان الإنسان عجولاً ﴾ .

(١٢) ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴾

يمتن الله على خلقه بآياته العظام ، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، وينتشروا في النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار ، وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون والعبادات ، والمعاملات والاجارات وغير ذلك . ولهذا قال ﴿ لتبتغوا فضلاً من ربكم ﴾ أي في معايشكم وأسفاركم ونحو ذلك . ﴿ ولتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ فإنه لو كان الزمان كله نسقاً واحداً ،

وأسلوباً متساوياً لما عرف شيء من ذلك .

(١٣) ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾

يقول تعالى بعد ذكر الزمان ، وذكر ما يقع فيه من أعمال بني آدم ﴿ وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ﴾ وطائره هو ما طار عنه من عمله من خير وشر ، ويلزم به ويجازى عليه . وقوله ﴿ ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ﴾ أي نجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة ، إما بيمينه إن كان سعيداً ، أو بشماله إن كان شقياً ﴿ منشوراً ﴾ أي مفتوحاً ، يقرؤه هو وغيره ، فيه جميع عمله من أول عمره إلى آخره ﴿ ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ ولهذا قال :

(١٤) ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾

﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ أي إنك تعلم أنك لم تظلم ولم يكتب عليك إلا ما عملت ، لأنك ذكرت جميع ما كان منك ، ولا ينسى أحد شيئاً مما كان منه ، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأمي .

(١٥) ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

يخبر تعالى أن من اهتدى واتبع الحق ، واقتفى أثر النبوة ، فإنما يحصل على عاقبة ذلك الحميدة لنفسه ﴿ ومن ضل ﴾ أي عن الحق ، وزاغ عن سبيل الرشاد ، فإنما يجني على نفسه ، وإنما يعود وبال ذلك عليه . ثم قال ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جان إلا على نفسه ، وهذا من عدل الله ورحمته بعباده . وكذا قوله تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ إخبار عن عدله تعالى ، وأنه لا يعذب أحد إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه ، كقوله تعالى ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير . قالوا بلى قد جاءنا نذير . فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ﴾ .

(١٦) ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾

﴿ أمرنا مترفيها ﴾ أمراً قدرياً ففسقوا فيها ، كقوله تعالى ﴿ أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً ﴾ ﴿ إن

الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ قالوا : معناه أنه سخرهم إلى فعل الفواحش فاستحقوا العذاب ، وقيل : معناه أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة ، أو سلطنا أشرارهم فعصوا فيها ، فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب ، وهو قوله ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ (١٧)

يقول تعالى منذراً كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمداً ﷺ بأنه قد أهلك أمماً من المكذبين للرسل من بعد نوح . ودل هذا على أن القرون التي كانت بين آدم ونوح على الإسلام كما قاله ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الإسلام . ومعناه أنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم ، وقد كذبتم أشرف الرسل ، وأكرم الخلائق ، فعقوبتكم أولى وأحرى . وقوله ﴿ وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً ﴾ أي هو عالم بجميع أعمالهم خيرها وشرها ، لا يخفى عليه منها خافية . سبحانه وتعالى .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ (١٨)

يخبر تعالى أنه ما كل من طلب الدنيا وما فيها من النعيم يحصل له ، بل إنما يحصل لمن أراد الله . و﴿ ما نشاء ﴾ هذه مقيدة لاطلاق ما سواها من الآيات ، فإنه قال ﴿ عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ يصلاها ﴾ أي يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه ﴿ مذموماً ﴾ أي في حال كونه مذموماً على سوء تصرفه وصنيعه إذ اختار الفاني على الباقي ﴿ مدحوراً ﴾ مبعداً مقصياً ، حقيراً ذليلاً مهاناً . روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » .

﴿ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴾ (١٩)

﴿ ومن أراد الآخرة ﴾ أي أراد الدار الآخرة ، وما فيها من النعيم والسرور ﴿ وسعى لها سعيها ﴾ أي طلب ذلك من طريقه ، وهو متابعة الرسول ﷺ ﴿ وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مؤمن ، أي مصدق بالثواب والجزاء ﴿ فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾ .

﴿ كُلًّا نُمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (٢٠)

يقول تعالى ﴿ كلاً ﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نمدهم فيما فيه ﴿ من عطاء ربك ﴾ أي هو المتصرف الحاكم الذي لا يجور فيعطي كلاً ما يستحقه من السعادة والشقاوة ، فلا راد لحكمه ، ولا مانع لما أعطى ، ولا مغير لما أراد ، ولهذا قال : ﴿ وما كان عطاء ربك محظوراً ﴾ أي لا يمنعه أحد ، ولا يرده راد ، أو ﴿ محظوراً ﴾ منقوصاً ، أو ممنوعاً .

(٢١) ﴿ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾

﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ﴾ أي في الدنيا ، فمنهم الغني والفقير وبين ذلك ، والحسن والقبيح وبين ذلك ، ومن يموت صغيراً ، ومن يعمر حتى يبقى شيخاً كبيراً وبين ذلك ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا ، فإن منهم من يكون في الدركات في جهنم وسلاسلها وأغلالها ، ومنهم من يكون في الدرجات العلى ونعيمها وسرورها ، ثم أهل الدركات يتفاوتون فيما هم فيه ، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون ، فإن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . وفي الصحيحين « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر في أفق السماء » وفي الطبراني مرفوعاً « ما من عبد يريد أن يرتفع في الدنيا درجة فارتفع إلا وضعه الله في الآخرة أكبر منها » ثم قرأ ﴿ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ .

(٢٢) ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾

يقول تعالى ، والمراد المكلفون من الأمة : لا تجعل أيها المكلف في عبادتك ربك له شريكاً ﴿ فتقعد مذموماً ﴾ أي على إشراكك به ﴿ مخذولاً ﴾ لأن الرب لا ينصرك ، بل يكلك إلى الذي عبدت معه ، وهو لا يملك لك ضراً ولا نفعاً ، لأن مالك الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له . روى الإمام أحمد قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته ، ومن أنزلها بالله أرسل الله له بالغنى إما آجلاً ، وإما عاجلاً » . ورواه أبو داود والترمذي . قال الترمذي : حسن صحيح غريب .

(٢٣) ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾

يقول تعالى آمراً بعبادته وحده لا شريك له ، فإن القضاء ههنا بمعنى الأمر ، ﴿ وبالوالدين إحساناً ﴾ أي وأمر بالوالدين إحساناً كقوله ﴿ إن اشكر لي ولوالديك ﴾ ﴿ إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ﴾ أي لا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولا التأفف الذي هو أدنى مراتب القول السيِّىء ﴿ ولا تنهرهما ﴾ أي ولا يصدر منك إليهما فعل قبيح . ولما نهاه عن القول القبيح ، والفعل القبيح أمر بالقول الحسن والفعل الحسن فقال ﴿ وقل لهما قولاً كريماً ﴾ أي ليناً طيباً حسناً بتأدب وتوقير وتعظيم .

(٢٤) ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾

﴿ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ﴾ أي تواضع لهما بفعلك ﴿ وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ﴾ أي في كبرهما وعند وفاتهما . روى الإمام أحمد، قال رسول الله ﷺ : « رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ ، ورغم أنف رجل دخل عليه شهر رمضان فانسلخ فلم يغفر له ، ورغم أنف رجل أدرك أبواه عنده الكبر فلم يدخلاه الجنة » .

(٢٥) ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾

قال سعيد بن جبير : هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه ، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به ﴿ فإنه كان للأوابين غفوراً ﴾ للمطيعين أهل الصلاة ، أو للذين يصلون الضحىٰ ، أو للذين يصيبون الذنب ، ثم يتوبون ، ويصيبون الذنب ثم يتوبون . عن عبيد بن عمير : كنا نعد الأواب الحفيظ أن يقول : اللهم اغفر لي ما أصبت في مجلسي هذا . قال ابن جرير : والأولى في ذلك قول من قال : هو التائب من الذنب ، الرجاع من المعصية إلى الطاعة مما يكره الله إلى ما يحبه ويرضاه . وهذا هو الصواب لأن الأواب مشتق من الأوب ، وهو الرجوع . وفي الحديث الصحيح أن رسول الله كان إذا رجع من سفره قال : « آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون » ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ .

(٢٦) ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾

لما ذكر تعالى بر الوالدين عطف بذكر الإحسان إلى القرابة وصلة الأرحام ، وفي الحديث « أمك وأباك ، ثم أدناك أدناك » وفي رواية « ثم الأقرب فالأقرب » . وفي الحديث « من أحب أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أجله فليصل رحمه » ﴿ ولا تبذر تبذيراً ﴾ لما أمر بالإنفاق نهى عن الإسراف فيه ، بل يكون وسطاً ، كما قال ﴿ والذين إذا أنفقوا لم

يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ ﴿٢٧﴾

ثم قال منفراً عن التبذير والسرف ﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ﴾ أي أشباههم في ذلك . قال ابن مسعود : التبذير الإنفاق في غير حق . وقال مجاهد: لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مداً في غير حق كان مبذراً . وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله تعالى ، وفي غير الحق والفساد . ﴿ وكان الشيطان لربه كفوراً ﴾ أي جحوداً ، لأنه أنكر نعمة الله عليه ، ولم يعمل بطاعته ، بل أقبل على معصيته ومخالفته .

﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك . . ﴾ أي إذا سألك أقاربك ، ومن أمرناك بإعطائهم ، وليس عندك شيء وأعرضت عنهم لفقد النفقة ﴿ فقل لهم قولاً ميسوراً ﴾ أي عدهم وعداً بسهولة ولين ، إذا جاء رزق الله فسنصلكم إن شاء الله .

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى آمراً بالاقتصاد في العيش ذاماً للبخل ، ناهياً عن السرف ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ﴾ أي لا تكن بخيلاً منوعاً ، لا تعطي أحداً شيئاً ﴿ ولا تبسطها كل البسط ﴾ أي ولا تسرف في الإنفاق فتعطي فوق طاقتك ، وتخرج أكثر من دخلك ﴿ فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ وهذا من باب اللف والنشر ، أي فتقعد إن بخلت ملوماً يلومك الناس ، ويذمونك ويستغنون عنك ، ومتى بسطت يدك فوق طاقتك قعدت بلا شيء تنفقه فتكون كالحسير ، وهو الدابة التي قد عجزت عن السير فوقفت ضعفاً وعجزاً ، فإنها تسمى الحسير، وهو مأخوذ من الكلال كما قال تعالى ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ وفي الحديث « إن الله قال لي : أنفق أنفق عليك » وفي الحديث « ما عال من اقتصد » .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ إخبار أنه تعالى هو الرازق القابض الباسط المتصرف في خلقه بما يشاء فيغني من يشاء ، ويفقر من يشاء ، لما له في ذلك

من الحكمة ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي خبيراً بصيراً بمن يستحق الغنى ، ويستحق الفقر كما جاء في الحديث « إن من عبادي لَمن لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي لَمن لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه » وقد يكون الغنى في حق بعض الناس استدراجاً ، والفقر عقوبة . عياذاً بالله من هذا وهذا .

(٣١) ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾

هذه الآية الكريمة دالة على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده ، لأنه نهى عن قتل الأولاد ، كما أوصى الآباء بالأولاد في الميراث ، وكان أهل الجاهلية لا يورثون البنات ، بل كان أحدهم ربما قتل ابنته لئلا تكثر عليه عيلته فنهى الله تعالى عن ذلك وقال ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ أي خوف أن تفتقروا في ثاني الحال ، ولهذا قدم الاهتمام برزقهم فقال ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ ﴿ إن قتلهم كان خطأ كبيراً ﴾ أي ذنباً عظيماً . وفي الصحيحين عن عبدالله بن مسعود قلت : يا رسول الله ، أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله نداً وهو خلقك » قلت : ثم أي ؟ « قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » ، قلت : ثم أي ؟ « قال : أن تزاني بحليلة جارك » .

(٣٢) ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه ﴿ ولا تقربوا الزنىٰ إنه كان فاحشة ﴾ أي ذنباً عظيماً ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أي وبئس طريقاً ومسلكاً .

(٣٣) ﴿ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾

في الصحيحين أن رسول الله قال : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والزاني المحصن والتارك لدينه المفارق للجماعة » وفي السنن « لزوال الدنيا عند الله أهون من قتل مسلم » ﴿ ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً ﴾ أي سلطة على القاتل ، فإنه بالخيار فيه إن شاء قتله فوراً ، وإن شاء عفا عنه على الدية ، وإن شاء عفا عنه مجاناً ﴿ فلا يسرف في القتل ﴾ فلا يسرف الولي في قتل القاتل بأن يمثل به أو يقتص من غير القاتل . وقوله ﴿ إنه كان

منصوراً ﴾ أي إن الولي منصور على القاتل شرعاً وقدراً .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ (٣٤)

يقول تعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالغبطة ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ﴾ وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر : « يا أبا ذر ، إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، لا تأمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تَوَلَّيَنَّ مال يتيم » وقوله ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ أي الذي تعاهدون عليه الناس ، والعقود التي تعاملونهم بها ، فإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه ﴿ إن العهد كان مسؤولاً ﴾ .

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (٣٥)

﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴾ أي من غير تطفيف ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ وهو الميزان ﴿ المستقيم ﴾ أي الذي لا اعوجاج فيه ولا اضطراب ﴿ ذلك خير ﴾ أي لكم في معاشكم ومعادكم . ولهذا قال ﴿ وأحسن تأويلاً ﴾ أي مآلاً ومنقلباً في آخرتكم . عن ابن عباس : يا معشر الموالي ، إنكم وليتم أمرين بهما هلك الناس قبلكم ، هذا المكيال ، وهذا الميزان ، وفي الحديث : « لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا أبدله الله به في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك » .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (٣٦)

﴿ ولا تقف ﴾ لا تقل ، أو لا تَرْمِ أحداً بما ليس لك به علم ، أو هو شهادة الزور ، أو لا تقل : رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فإن الله سائلك عن ذلك كله . ومضمون ما ذكروه أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم﴾ وفي الحديث «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث » وفي سنن أبي داود « بئس مطية الرجل زعموا » وفي الحديث الآخر « إن أفرى الفرى أن يري الرجل عينيه ما لم تريا » ﴿ كل أولئك كان عنه مسؤولا ﴾

أي هذه الصفات من السمع والبصر والفؤاد سيسأل العبد عنها يوم القيامة ، وتسأل عنه ، وعما عمل فيها .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ ﴿٣٨﴾

يقول تعالى ناهياً عباده عن التجبر والتبختر في المشية ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي متبختراً متمايلاً مشي الجبارين ﴿ إنك لن تخرق الأرض ﴾ أي لن تقطع الأرض بمشيك . ﴿ ولن تبلغ الجبال طولاً ﴾ أي بتمايلك وفخرك ، وإعجابك بنفسك ، بل قد يجازى فاعل ذلك بنقيض قصده ، كما ثبت في الصحيح « بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم ، وعليه بردان يتبختر فيهما إذ خسف به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » وكذلك أخبر الله تعالى عن قارون أنه خرج على قومه في زينته ، وأن الله خسف به وبداره الأرض . وفي الحديث « من تواضع لله رفعه ، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير ، ومن استكبر وضعه الله ، فهو في نفسه كبير وعند الناس حقير ، حتى لهو أبغض إليهم من الكلب والخنزير » ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴾ ﴿٣٩﴾

يقول تعالى : هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس ﴿ ولا تجعل مع الله إلٰهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً ﴾ أي تلومك نفسك ، ويلومك الله والخلق ﴿ مدحوراً ﴾ أي مبعداً من كل خير . والمراد من هذا الخطاب الأمة بواسطة الرسول ﷺ ، فإنه صلوات الله وسلامه عليه معصوم .

﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى راداً على المشركين الكاذبين الزاعمين ، عليهم لعائن الله أن الملائكة بنات الله فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً ثم ادعوا أنهم بنات الله ، ثم عبدوهم فأخطأوا في كل المقامات الثلاث خطأ عظيماً فقال تعالى منكراً عليهم ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين ﴾ أي خصصكم بالذكور ﴿ واتخذ من الملائكة إناثاً ﴾ أي واختار لنفسه على

زعمكم البنات ، ثم شدد الإنكار عليهم فقال ﴿ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴾ أي في زعمكم أن لله ولداً ، ثم جعلكم ولده الاناث التي تأنفون أن يكنَّ لكم ، وربما قتلتموهن بالوأد ، فتلك إذاً قسمة ضيزى .

(٤١) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي صرفنا فيه من الوعيد لعلهم يذكرون ما فيه من الحجج والبينات والمواعظ فينزجروا عما هم فيه من الشرك والظلم والإفك ﴿ وما يزيدهم ﴾ أي الظالمين منهم ﴿ إلا نفوراً ﴾ أي عن الحق ، وبعداً منه .

(٤٢) ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين الزاعمين أن لله شريكاً من خلقه العابدين معه غيره ليقربهم إليه زلفى : لو كان الأمر كما تقولون ، وأن معه آلهة تعبد لتقرب إليه وتشفع لديه لكان أولئك المعبودون يعبدونه ويتقربون إليه ، ويبتغون إليه الوسيلة والقربة ، فاعبدوه أنتم وحده كما يعبده من تدعونه من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة جميع رسله ، وأنبيائه .

(٤٣) ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾

ثم نزه نفسه الكريمة وقدسها فقال ﴿ سبحانه وتعالى عما يقولون ﴾ أي هؤلاء المشركون المتعدون الظالمون في زعمهم أن معه آلهة أخرى ﴿ علواً كبيراً ﴾ أي تعالياً كبيراً ، بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

(٤٤) ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

يقول تعالى : تقدسه السموات السبع والأرض ومن فيهن ، أي من المخلوقات وتنزهه وتعظمه وتبجله وتكبره عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية في ربوبيته وإلهيته ، كما قال تعالى ﴿ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً . أن دعوا للرحمٰن ولداً ﴾ وقوله ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ أي وما من شيء من

المخلوقات إلا يسبح بحمد الله ﴿ ولكن لا تفقهون تسبيحهم ﴾ أي لا تفقهون تسبيحهم أيها الناس ، لأنها بخلاف لغاتكم ، وهذا عام في الحيوانات والجمادات والنباتات . وهذا أشهر القولين كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن مسعود أنه قال : كنا نسمع تسبيح الطعام ، وهو يؤكل . وفي حديث أبي ذر أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات فسمع لهن تسبيح كحنين النحل . ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ أي إنه لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، بل يؤجله وينظره ، فإن استمر على كفره وعناده أخذه أخذ عزيز مقتدر ، كما جاء في الصحيحين « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

﴿٤٥﴾ ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : وإذا قرأت يا محمد على هؤلاء المشركين القرآن جعلنا بينك وبينهم حجاباً مستوراً ، هو الأكنة على قلوبهم ﴿ حجاباً مستوراً ﴾ بمعنى ساتر ، كميمون ومشؤوم بمعنى يامن وشائم ، وقيل : مستوراً عن الأبصار ، فلا تراه ، وهو مع ذلك حجاب بينهم وبين الهدى .

﴿٤٦﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾

﴿ وجعلنا على قلوبهم أكنة ﴾ وهي جمع كنان الذي يغشى القلب ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا القرآن ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ وهو الثقل الذي يمنعهم من سماع القرآن سماعاً ينفعهم ويهتدون به ﴿ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ﴾ أي وحدت الله في تلاوتك وقلت : لا إله إلا الله ﴿ ولَّوا ﴾ أي أدبروا راجعين ﴿ على أدبارهم نفوراً ﴾ ونفور جمع نافر ، كقعود جمع قاعد ، ويجوز أن يكون مصدراً من غير الفعل . والله أعلم .

﴿٤٧﴾ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

يخبر تعالى نبيه محمداً ﷺ بما يتناجى به رؤساء كفار قريش حين جاؤوا يستمعون قراءته ﷺ سراً من قومهم بما قالوا من أنه رجل مسحور من السِّحْر على المشهور ، أو من

السِّحَر ، وهو الرئة ، إن تتبعون إن اتبعتم محمداً إلا بشراً يغذَّى وفيه نظر ، لأنهم أرادوا ههنا أنه مسحور، له رِئِيٌّ يأتيه بما استمعوه من الكلام الذي يتلوه ومنهم من قال : شاعر ، ومنهم من قال : كاهن ومنهم من قال : مجنون ، ومنهم من قال : ساحر .

(٤٨) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

ولهذا قال : ﴿ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ أي فلا يهتدون إلى الحق ، ولا يجدون إليه مخلصاً .

(٤٩) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المستبعدين وقوع المعاد القائلين استفهام إنكار منهم لذلك ﴿ أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ أي تراباً ، أو غباراً ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ أي يوم القيامة بعدما بلينا وصرنا عدماً كما أخبر عنهم في الموضع الآخر . ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة . أئذا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ .

(٥٠) ﴿ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾

إذ هما أشد امتناعاً من العظام والرفات .

(٥١) ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴾

﴿ أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ هو الموت ، أي لو كنتم موتى لأحييتكم . ومعنى ذلك أنكم لو فرضتم أنكم لو صرتم إلى الموت الذي هو ضد الحياة لأحياكم الله إذا شاء ، فإنه لا يمتنع عليه شيء إذا أراده . أو ﴿ خلقاً مما يكبر في صدوركم ﴾ يعني السماء والأرض والجبال ، أو ما شئتم فكونوا فسيعيدكم الله بعد موتكم ﴿ فسيقولون من يعيدنا ﴾ أي من يعيدنا إذا كنا حجارة أو حديداً أو خلقاً آخر شديداً ﴿ قل الذي فطركم أول مرة ﴾ أي الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم صرتم بشراً تنتشرون ، فإنه قادر على إعادتكم ، ولو صرتم إلى أي حال ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ فسينغضون إليك رؤوسهم ﴾ يحركونها استهزاء، والانغضاض هو التحرك من أسفل إلى أعلى ، أو من أعلى إلى أسفل ، ومنه قيل للظليم وهو ولد النعامة نغض ، لأنه

إذا مشى عجل بمشيته ، وحرك رأسه ﴿ ويقولون متى هو ﴾ إخبار عنهم بالاستبعاد منهم لوقوع ذلك ﴿ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ أي احذروا ذلك ، فإنه قريب إليكم ، سيأتيكم لا محالة ، فكل ما هو آت آت .

﴿٥٢﴾ ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾ أي تقولون كلكم : إجابة لأمره وطاعة لارادته ، أو ﴿ فتستجيبون بحمده ﴾ أي بأمره أو وله الحمد في كل حال . وفي الحديث « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ، كأني بأهل لا إله إلا الله يقومون من قبورهم ينفضون التراب عن رؤوسهم يقولون : « لا إله إلا الله » وفي رواية يقولون ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ ﴿ وتظنون ﴾ أي يوم تقومون من قبوركم ﴿ إن لبثتم ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إلا قليلاً ﴾ وكقوله ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ .

﴿٥٣﴾ ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾

يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله ﷺ أن يأمر عباده المؤمنين أن يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن ، والكلمة الطيبة ، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم ، وأخرج الكلام إلى الفعال ، ووقع الشر ، والمخاصمة والمقاتلة ، فإنه عدو لآدم وذريته من حين امتنع من السجود لآدم ، وعداوته ظاهرة بينة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان أن ينزغ في يده فيقع في حفرة من النار » أخرجاه من حديث عبدالرزاق . وعند الإمام أحمد « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، التقوى ههنا » قال حماد : وأشار بيده إلى صدره . وما تواد رجلان في الله ففرق بينهما إلا حدث يحدثه أحدهما ، والمحدِث شر ، والمحدَث شر ، والمحدث شر » .

﴿٥٤﴾ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾

﴿ ربكم أعلم بكم ﴾ أيها الناس بمن يستحق منكم الهداية ومن لا يستحق ﴿ إن يشأ يرحمكم ﴾ بأن يوفقكم لطاعته والإنابة إليه ﴿ أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك ﴾ يا محمد ﴿ عليهم وكيلاً ﴾ أي إنما أرسلناك نذيراً ، فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار .

(٥٥) ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾

﴿ وربك أعلم بمن في السموات والأرض ﴾ أي بمراتبهم في الطاعة والمعصية ، ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ وهذا لا ينافي ما ثبت في الصحيحين « ولا تفضلوا بين الأنبياء » فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية ، لا بمقتضى الدليل ، فإذا دل دليل على شيء وجب اتباعه ، ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء ، وأن أولي العزم منهم أفضلهم ، وهم الخمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسيدنا محمد ﷺ ، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ، ثم بعده إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم نوح على المشهور ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ تنبيه على فضله وشرفه . في البخاري عن النبي ﷺ : « خفف على داود القرآن ، فكان يأمر بدوابه فتسرج فكان يقرؤه قبل أن يفرغ » يعني القرآن .

(٥٦) ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾

﴿ ادعوا الذين زعمتم من دونه ﴾ من الأصنام والأنداد ، فارغبوا إليهم ﴿ فلا يملكون كشف الضر عنكم ﴾ أي بالكلية ﴿ ولا تحويلاً ﴾ بأن يحولوه إلى غيركم ، والمعنى أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له الذي له الخلق والأمر .

(٥٧) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾

﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ﴾ نزلت في نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم الجنيون ، والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون بإسلامهم ، فنزلت هذه الآية . والوسيلة هي القربة ، ولهذا قال : ﴿ أيهم أقرب ﴾ وقوله تعالى ﴿ ويرجون رحمته ويخافون عذابه ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء ، فبالخوف ينكف عن المناهي ، وبالرجاء يكثر من الطاعات . وقوله ﴿ إن عذاب ربك كان محذوراً ﴾ أي ينبغي أن يحذر منه ، ويخاف من وقوعه ، وحصوله . عياذاً بالله منه .

(٥٨) ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى

ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل بأنه قد حتم وقضى بما قد كتب عنده في اللوح المحفوظ ، أنه ما من قرية إلا سيهلكها بأن يبيد أهلها جميعهم أو يعذبهم ﴿ عذاباً شديداً ﴾ إما بقتل أو ابتلاء بما يشاء ، وإنما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الأمم الماضية ﴿ وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ﴾ .

﴿٥٩﴾ ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾

قال المشركون يا محمد ، إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء ، فمنهم من سخرت له الريح ، ومنهم من كان يحيي الموتى ، فإن سرك أن نؤمن بك ، ونصدقك ، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهباً ، فأوحى الله إليه : إني قد سمعت الذي قالوا ، فإن شئت أن تفعل الذي قالوا ، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب ، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة ، وإن شئت أن نستأني بقومك استأنيت بهم ، قال : « يا رب استأن بهم » ﴿ وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ أي دالة على وحدانية من خلقها ، وصدق رسوله الذي أجيب دعاؤه فيها ﴿ فظلموا بها ﴾ أي كفروا بها ، ومنعوا شربها ، وقتلوها فأبادهم الله عن آخرهم ، وانتقم منهم وأخذهم أخذ عزيز مقتدر . وقوله تعالى ﴿ وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ﴾ قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلهم يعتبرون ويذكرون ويرجعون . ذكر أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود رضي الله عنه فقال : يا أيها الناس ، إن ربكم يستعتبكم فأعتبوه . وروي أن المدينة زلزلت على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله ، لئن عادت لأفعلن ولأفعلن . وفي الحديث المتفق عليه « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله عز وجل يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره ، ثم قال : يا أمة محمد ، والله ما أحد أغير من الله ، أن يزني عبده ، أو تزني أمته ، يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً » .

﴿٦٠﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ محرضاً له على إبلاغ رسالته ، ومخبراً له بأنه قد عصمه من الناس ، فإنه القادر عليهم ، وهم في قبضته وتحت قهره وغلبته ﴿ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴾ أي عصمك منهم ﴿ وما جعلنا الرؤ يا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴾ قال : هي رؤ يا عين ، أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به ﴿ والشجرة الملعونة في القرآن ﴾ شجرة الزقوم ﴿ إلا فتنة للناس ﴾ أي اختباراً وامتحاناً فرجع ناس عن دينهم بعدما كانوا على الحق ، لأنه لم تحمل قلوبهم وعقولهم ذلك فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وجعل الله ذلك ثباتاً ويقيناً لآخرين. وأما الشجرة الملعونة فهي شجرة الزقوم، لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل عليه لعائن الله : هاتوا لنا تمراً وزبداً ، وجعل يأكل من هذا بهذا ، ويقول : تزقموا ، فلا نعلم الزقوم غير هذا ﴿ ونخوفهم ﴾ أي الكفار بالوعيد والعذاب والنكال ﴿ فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ أي تمادياً فيما هم فيه من الكفر والضلال ، وذلك من خذلان الله لهم .

﴿٦١﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

يذكرَ تبارك وتعالى عداوة إبليس لعنه الله لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خلق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له ، افتخاراً عليه واحتقاراً له ﴿ قال أأسجد لمن خلقت طيناً ﴾ .

﴿٦٢﴾ ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

﴿ قال : أرأيتك ﴾ يقول هذا للرب جراءة وكفراً ، والرب يحلم ويُنظر ﴿ هذا الذي كرمت عليّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته. . ﴾ يقول : لأستولين على ذريته ﴿ إلا قليلاً ﴾ . وقال مجاهد : لأحتوين ، وقال ابن زيد : لأضلنهم ، وكلها متقاربة . والمعنى أرأيتك هذا الذي شرفتَه وعظمتَه عليّ لئن أنظرتني لأضلن ذريته إلا قليلاً منهم .

﴿٦٣﴾ ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾

لما سأل إبليس النظرة قال الله له ﴿ إذهب ﴾ فقد أنظرتك ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ ثم أوعده ومن اتبعه من ذرية آدم جهنم ﴿ فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم ﴾ أي على أعمالكم ﴿ جزاء موفوراً ﴾ وافراً ، لا ينقص لكم منه شيء .

(٦٤) ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

﴿ واستفزز من استطعت منهم بصوتك ﴾ قيل : هو الغناء ، أي استخفهم باللهو والغناء ، أو هو كل داع دعا إلى معصية الله عز وجل ﴿ وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ﴾ يقول : واحمل عليهم بجنودك خيالتهم ورجلتهم ، فإن الرجل جمع راجل ، كما أن الركب جمع راكب ، والصحب جمع صاحب ، ومعناه تسلط عليهم بكل ما تقدر عليه ، وهذا أمر قدري كقوله تعالى ﴿ ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً ﴾ أي تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً ، وتسوقهم إليها سوقاً ﴿ وشاركهم في الأموال والأولاد ﴾ هو ما أمرهم به من إنفاق الأموال في معاصي الله تعالى ، أو هو الربا ، أو هو جمعها من خبيث ، وإنفاقها في حرام ، أما مشاركته إياهم في أموالهم فهو ما حرموه من أنعامهم ، يعني من البحائر والسوائب ونحوها ، والآية أعم ﴿ والأولاد ﴾ هو ما كانوا قتلوه من أولادهم سفهاً بغير علم ، أو معنى المشاركة أن كل ما عصى الله فيه أو به ، أو أطيع الشيطان فيه ، أو به فهو مشاركة ، فقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدهم إذا أراد أن يأتي أهله قال : باسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان أبداً » ﴿ وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ كقوله ﴿ إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ .

(٦٥) ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾

﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ إخبار بتأييده تعالى عباده المؤمنين ، وحفظه إياهم ، وحراسته لهم من الشيطان الرجيم ، ولهذا قال ﴿ وكفى بربك وكيلاً ﴾ أي حافظاً ومؤيداً ونصيراً . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن المؤمن لينضي شيطانه كما ينضي أحدكم بعيره في السفر » - ينضي أي يأخذ بناصيته ويقهره - .

(٦٦) ﴿ رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

يخبر تعالى عن لطفه بخلقه في تسخيره لعباده الفلك في البحر وتسهيله لمصالح عباده لابتغائهم من فضله في التجارة من إقليم إلى إقليم ولهذا قال ﴿ إنه كان بكم رحيماً ﴾ أي

إنما فعل هذا بكم من فضله عليكم ورحمته بكم .

(٦٧) ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾

يخبر تعالى أن الناس إذا مسهم ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ، ولهذا قال ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فاراً من رسول الله ﷺ حين فتح مكة فذهب هارباً فركب البحر ليدخل الحبشة فجاءتهم ريح عاصف ، فقال القوم بعضهم لبعض : إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعوا الله وحده ، فقال عكرمة في نفسه ، والله إن كان لا ينفع في البحر غيره ، فإنه لا ينفع في البر غيره ، اللهم لك عليَّ عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن فلأضعن يدي في يد محمد فلأجدنه رؤوفاً رحيماً ، فخرجوا من البحر ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه وأرضاه ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ أي نسيتم ما عرفتم من توحيده في البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

(٦٨) ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴾

يقول تعالى : أفحسبتم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقامه وعذابه أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصباً ، وهو المطر الذي فيه حجارة ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي ناصراً يرد ذلك عنكم ، وينقذكم منه .

(٦٩) ﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴾

يقول تبارك وتعالى : أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعدما اعترفوا بتوحيدنا في البحر ، وخرجوا إلى البر أن يعيدكم في البحر مرة ثانية ، فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ، أي يقصف الصواري ، ويغرق المراكب ، قال ابن عباس وغيره : القاصف : ريح البحار التي تكسر المراكب وتغرقها . وقوله ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي بسبب كفركم وإعراضكم عن الله تعالى وقوله ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ نصيراً ، أو نصيراً ثائراً ، أي يأخذ

بثأركم بعدكم . قال قتادة : ولا نخاف أحداً يتبعنا بشيء من ذلك .

﴿٧٠﴾ ﴿ * وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن تشريفه لبني آدم ، وتكريمه إياهم في خلقه لهم على أحسن الهيئات وأكملها ، كقوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ أن يمشي منتصباً على رجليه ، ويأكل بيديه ، وغيره من الحيوانات بمشي على أربع ، ويأكل بفمه ، وجعل له سمعاً وبصراً وفؤاداً يفقه بذلك كله ، وينتفع به ، ويفرق بين الأشياء ، ويعرف منافعها وخواصها ، ومضارها في الأمور الدينية والدنيوية ، ﴿ وحملناهم في البر ﴾ أي على الدواب من الأنعام والخيل والبغال ، وفي البحر أيضاً على السفن الكبار والصغار ﴿ ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة ، والمناظر الحسنة ، والملابس الرفيعة من سائر الأنواع على اختلاف أصنافها وألوانها وأشكالها مما يصنعونه لأنفسهم ، ويجلبه إليهم غيرهم من أقطار الأقاليم والنواحي ﴿ وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ أي من سائر الحيوانات ، وأصناف المخلوقات . وقد استدل بهذه الآية الكريمة على أفضلية جنس البشر على جنس الملائكة . روى الطبراني ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم » قيل : يا رسول الله ، ولا الملائكة ؟ قال : « ولا الملائكة ، الملائكة مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » وهذا حديث غريب جداً .

﴿٧١﴾ ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

يخبر تبارك وتعالى عن يوم القيامة أنه يحاسب كل أمة بإمامهم ، أي نبيهم . وقال بعض السلف : هذا أكبر شرف لأصحاب الحديث لأن إمامهم النبي ﷺ ، وقيل : بكتابهم الذي أنزل على نبيهم من التشريع ، أو بكتاب أعمالهم ، وهذا القول هو الأرجح لقوله تعالى ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ ويحتمل أن يكون المراد ﴿ بإمامهم ﴾ أي كل قوم بمن يأتمون به ، فأهل الإيمان ائتموا بالأنبياء عليهم السلام ، وأهل الكفر ائتموا بأئمتهم كما قال تعالى ﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرؤ ون كتابهم ﴾ أي من فرحته وسروره بما فيه من العمل الصالح ، يقرؤه ويحب قراءته

﴿ ولا يظلمون فتيلاً ﴾ والفتيل هو الخيط المستطيل في شق النواة .

(٧٢) ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

﴿ في هذه ﴾ أي في الحياة الدنيا ﴿ أعمى ﴾ أي عن حجة الله وآياته وبيناته ﴿ فهو في الآخرة أعمى ﴾ أي كذلك يكون ﴿ وأضل سبيلاً ﴾ أي وأضل منه ، كما كان في الدنيا . عياذاً بالله من ذلك .

(٧٣) ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾

(٧٤) ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾

(٧٥) ﴿ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن تأييده رسوله ﷺ ، وتثبيته وعصمته وسلامته من شر الأشرار ، وكيد الفجار ، وأنه تعالى هو المتولي أمره ونصره ، وأنه لا يكله إلى أحد من خلقه ، بل هو وليه وحافظه ، وناصره ومؤيده ، ومظفره ومظهر دينه على من عاداه وخالفه وناوأه في مشارق الأرض ومغاربها . صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

(٧٦) ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

نزلت في كفار قريش ، هموا بإخراج رسول الله ﷺ من بين أظهرهم فتوعدهم الله بهذه الآية ، وأنهم لو أخرجوه لما لبثوا بعده بمكة إلا يسيراً ، وكذلك وقع ، فإنه لم يكن بعد هجرته من بين أظهرهم بعدما اشتد أذاهم له إلا سنة ونصف حتى جمعهم الله وإياه ببدر على غير ميعاد ، فأمكنه منهم وسلطه عليهم ، وأظفره بهم ، فقتل أشرافهم ، وسبى ذراريهم ، ولهذا قال :

(٧٧) ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾

﴿سنة من قد أرسلنا﴾ أي هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم يأتيهم العذاب ، ولولا أنه ﷺ رسول الرحمة لجاءهم من النقم في الدنيا ما لا قبل لأحد به ، ولهذا قال تعالى ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ﴾ .

(٧٨) ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾

يقول تبارك وتعالى لرسوله ﷺ آمراً له بإقامة الصلوات المكتوبات في أوقاتها ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس ﴾ قيل : لغروبها ، وقيل : دلوكها زوالها ، ويشهد لهذا ما ورد عن جابر قال : دعوت رسول الله ﷺ ، ومن شاء من أصحابه ، فطعموا عندي ، ثم خرجوا حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ فقال : « اخرج يا أبا بكر ، فهذا حين دلكت الشمس » ﴿ وقرآن الفجر ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ تشهده ملائكة الليل ، وملائكة النهار . في البخاري أن النبي ﷺ قال : « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، وتجتمع ملائكة الليل ، وملائكة النهار في صلاة الفجر » يقول أبو هريرة : اقرؤ وا إن شئتم ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾ .

(٧٩) ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾

﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك ﴾ أمر له بقيام الليل بعد المكتوبة ، كما ورد في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه سئل أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال : « صلاة الليل » ولهذا أمر الله رسوله بعد المكتوبات بقيام الليل ، فإن التهجد ما كان بعد نوم ﴿ نافلة لك ﴾ قيل : معناه أنك مخصوص بوجوب ذلك وحدك ، فقيام الليل واجب في حقه دون الأمة ، وهو أحد قولي العلماء ، وأحد قولي الشافعي رحمه الله ﴿ عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ أي افعل هذا الذي أمرتك به لنقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الخلائق كلهم وخالقهم تبارك وتعالى . قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

(٨٠) ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴾

روى الإمام أحمد قال : كان النبي ﷺ بمكة ، ثم أمر بالهجرة فأنزل الله ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق . . . ﴾ وقال الترمذي : حسن صحيح . وقال الحسن البصري في تفسير هذه الآية : إن كفار أهل مكة لما ائتمروا برسول الله ﷺ ليقتلوه ، أو يطردوه ، أو يوثقوه ، فأراد الله قتال أهل مكة أمره أن يخرج إلى المدينة فهو الذي قال الله عز وجل ﴿ وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق ﴾ يعني مكة ، ﴿ سلطاناً نصيراً ﴾ حجة بينة ، ولا بد معها من قهر لمن عاداه وناوأه ، ولهذا قال ﴿ لقد أرسلنا رسلنا

بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ وفي الحديث : « إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » أي ليمتنع بالسلطان عن ارتكاب الفواحش والآثام ما لا يمتنع كثير من الناس بالقرآن وما فيه من الوعيد الأكيد ، والتهديد الشديد . وهذا هو الواقع .

(٨١) ﴿ وَقُلْ جَاءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾

﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل . . ﴾ تهديد ووعيد لكفار قريش ، فإنه قد جاءهم من الله الحق الذي لا مرية فيه ، ولا قبل لهم به ، وهو ما بعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ، وزهق باطلهم ، أي اضمحل وهلك ، فإن الباطل لا ثبات له مع الحق ولا بقاء .

(٨٢) ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

﴿ شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ أي يذهب ما في القلوب من أمراض من شك ونفاق وشرك وزيغ وميل ، فالقرآن يشفي من ذلك كله . وهو أيضاً رحمة يحصل فيها الإيمان والحكمة وطلب الخير والرغبة فيه ، وليس هذا إلا لمن آمن به وصدقه واتبعه فإنه يكون شفاء في حقه ورحمته ، وأما الكافر الظالم نفسه بذلك فلا يزيد سماعه القرآن إلا بعداً وكفراً ، والآفة من الكافر لا من القرآن ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ أي لا ينتفع به ولا يحفظه ولا يعيه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين .

(٨٣) ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾

يخبر تعالى عن نقص الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله تعالى في حالتي السراء والضراء ، فإنه إذا أنعم الله عليه بمال وعافية وفتح ورزق ونصر ، ونال ما يريد أعرض عن طاعة الله وعبادته ونآى بجانبه . قال مجاهد : بعد عنا ، وهذا كقوله تعالى ﴿ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ﴾ وقوله ﴿ كان يـؤُساً ﴾ أي قنط أن يعود يحصل له بعد ذلك خير .

(٨٤) ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾

﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ على ناحيته ، أو على حدته وطبيعته ، أو على نيته . وهذه الآية والله أعلم تهديد للمشركين ووعيد لهم ، كقوله تعالى ﴿ وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون ﴾ ﴿ فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ﴾

أي منا ومنكم ، وسيجزي كل عامل بعمله ، فإنه لا تخفى عليه خافية .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ ﴿٨٥﴾

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ في حرث المدينة، وهو متوكىء على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، قال : فسألوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه فقال ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ قال : فقال بعضهم لبعض قد قلنا لكم : لا تسألوه ، وهكذا رواه البخاري ومسلم . عن عطاء بن يسار قال : نزلت بمكة ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه أحبار يهود ، وقالوا : يا محمد ، ألم يبلغنا عنك أنك تقول : ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾ أفعنيتنا أم عنيت قومك ؟ فقال : « كلاً قد عنيت » فقالوا : إنك تتلوا أنا أوتينا التوراة ، وفيها تبيان كل شيء ، فقال رسول الله ﷺ : « هي في علم الله قليل ، وقد آتاكم الله ما إن عملتم به انتفعتم » وأنزل الله ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ والمراد بالروح أرواح بني آدم .

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ ﴿٨٦﴾

﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ﴿٨٨﴾

يذكر تعالى نعمته وفضله العظيم على عبده ورسوله الكريم ﷺ فيما أوحاه إليه من القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . قال ابن مسعود يطرق الناس ريح حمراء ، يعني في آخر الزمان من قبل الشام ، فلا يبقى في مصحف رجل ولا في قلبه آية ثم قرأ ابن مسعود ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك . . . ﴾ . ثم نبه تعالى على شرف هذا القرآن العظيم فأخبر أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم ، واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله لما أطاقوا ذلك ، ولما استطاعوه ، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا ، فإن هذا أمر لا يستطاع ، وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذي لا

نظير له ، ولا مثال له ، ولا عديل له .

(٨٩) ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

﴿ ولقد صرفنا للناس . . ﴾ أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق ، وشرحناه وبسطناه ، ومع هذا ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ أي جحوداً للحق ، ورداً للصواب .

(٩٠) ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴾

(٩١) ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾

﴿ حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ﴾ الينبوع : العين الجارية ، سألوه أن يجري لهم عيناً معيناً في أرض الحجاز ههنا وههنا ، وذلك سهل على الله يسير ، لو شاء فعله ، ولأجابهم إلى جميع ما سألوا وطلبوا ، ولكن علم أنهم لا يهتدون ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

(٩٢) ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾

﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ أي أنك وعدتنا أن يوم القيامة تنشق فيه السماء ، وتدلّى أطرافها فعجل ذلك في الدنيا ، وأسقطها كسفاً أي قطعاً ، وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا ﴿ أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ﴾ فعاقبهم الله بعذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ، وأما نبي الرحمة ، ونبي التوبة المبعوث رحمة للعالمين فسأل إنظارهم وتأجيلهم ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده لا يشرك به شيئاً ، وكذلك وقع فإن منهم من أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه حتى عبدالله بن أبي أمية الذي قال للنبي ﷺ ، فوالله لا أؤمن بك حتى تتخذ إلى السماء سلماً ، ثم ترقى فيه ، وأنا أنظر حتى تأتيها ، وتأتي معك بصحيفة منشورة ، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وايم الله لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك ، حتى هذا أسلم إسلاماً تاماً ، وأناب إلى الله عز وجل .

(٩٣) ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

﴿ أو يكون لك بيت من زخرف ﴾ هو الذهب ﴿ أو ترقى في السماء ﴾ أي تصعد في سلم ونحن ننظر إليك ﴿ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ﴾ قال مجاهد : أي مكتوب فيه إلى كل واحد واحد صحيفة : هذا كتاب من الله لفلان ابن فلان تصبح موضوعة عند رأسه . ﴿ قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ أي سبحانه وتعالى وتقدس أن يتقدم أحد بين يديه في أمر من أمور سلطانه وملكوته ، بل هو الفعال لما يشاء إن شاء أجابكم إلى ما سألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل . في مسند الإمام أحمد « عرض عليَّ ربي عز وجل ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، فقلت : لا يا رب ، ولكن أشبع يوماً ، وأجوع يوماً ـ أو نحو ذلك ـ فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك » ورواه الترمذي في الزهد ، وقال : هذا حديث حسن .

(٩٤) ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾

﴿ وما منع الناس ﴾ أي أكثرهم ﴿ أن يؤمنوا ﴾ ويتابعوا الرسل الا استعجابهم من بعثة البشر رسلاً إلا أن قالوا ﴿ أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ كما قال تعالى ﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ .

(٩٥) ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾

ثم قال تعالى منبهاً على لطفه ورحمته بعباده أنه يبعث اليهم الرسول من جنسهم ليفقهوا عنه ، ويفهموا منه ، ليمكنهم من مخاطبته ومكالمته ، ولو بعث الى البشر رسولاً من الملائكة لما استطاعوا مواجهته ولا الأخذ عنه كما قال تعالى ﴿ لقدمن الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ﴾ ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ ولهذا قال ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين ﴾ أي كما أنتم فيها ﴿ لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ أي من جنسهم ، ولما كنتم أنتم بشراً بعثنا فيكم رسلنا منكم لطفاً ورحمة .

(٩٦) ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مرشداً نبيه ﷺ إلى الحجة على قومه في صدق ما جاءهم به : إنه شاهد عليَّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني أشد الانتقام كما قال تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ وقوله ﴿ إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ أي عليماً بهم ،

بمن يستحق الانعام والاحسان والهداية ممن يستحق الشقاء والاضلال والازاغة .

(٩٧) ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تصرفه في خلقه ونفوذ حكمه ، وانه لا معقب له بأنه من يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ، أي يهدونهم ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم﴾ روى الامام احمد قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » وأخرجاه في الصحيح . ﴿ عمياً ﴾ أي لا يبصرون ﴿ وبكماً ﴾ يعني لا ينطقون ﴿ وصماً ﴾ لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصماً عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك أحرج ما يحتاجون اليه . ﴿ مأواه جهنم ﴾ أي منقلبهم ومصيرهم جهنم ﴿ كلما خبت ﴾ سكنت ، أو طفئت ﴿ زدناهم سعيراً ﴾ أي لهباً ووهجاً وحجراً كما قال ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم الا عذاباً ﴾ .

(٩٨) ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾

يقول تعالى : هذا الذي جازيناهم به من البعث على العمى والبكم والصمم جزاؤهم الذي يستحقونه ، لأنهم كذبوا ﴿ بآياتنا ﴾ أي بأولتنا وصحبتنا ، واستبعدوا وقوع البعث ﴿ وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً ﴾ أي بالية نخرة ﴿ أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ﴾ أي بعد ما صرنا إلى ما صرنا إليه من البلى والهلاك والتفرق والذهاب في الأرض نعاد مرة ثانية ؟ .

(٩٩) ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾

فاحتج تعالى عليهم ونبههم على قدرته على ذلك بأنه خلق السموات والأرض ، فقدرته على اعادتهم أسهل من ذلك ، كما قال ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ وقال ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ﴾ وقوله قادر ﴿ على أن يخلق مثلهم ﴾ أي يوم القيامة يعيد أبدانهم وينشئهم نشأة أخرى كما بدأهم ﴿ وجعل لهم أجلاً

لا ريب فيه ﴾ أي جعل لاعادتهم واقامتهم من قبورهم أجلاً مضروباً ، ومدة مقدرة لا بد من انقضائها ، كما قال تعالى ﴿ وما نؤخره الا لأجل معدود ﴾ وقوله ﴿ فأبى الظالمون ﴾ أي بعد قيام الحجة عليهم ﴿ إلا كفوراً ﴾ إلا تمادياً في باطلهم وضلالهم .

(١٠٠) ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه : قل لهم يا محمد ، لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله ﴿ لأمسكتم خشية الانفاق ﴾ أي الفقر ، أي خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ، ولا تنفد أبداً ، لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ، ولهذا قال ﴿ وكان الإنسان قتوراً ﴾ أي بخيلاً منوعاً . وقال تعالى : ﴿ أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ﴾ ويدل هذا على كرمه وجوده واحسانه سبحانه وتعالى ، وقد جاء في الصحيحين « يد الله ملأى ، لا يفيضها نفقة ، سماء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ، فإنه لم يفض ما في يمينه » .

(١٠١) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴾

يخبر تعالى أنه بعث موسى بتسع آيات بينات ، وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون ، وهي العصا واليد ، والسنين والبحر ، والطوفان والجراد ، والقمل والضفادع والدم ، آيات مفصلات . ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ أي ومع هذه الآيات ومشاهدتهم لها كفروا بها ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً ﴾ وما نجعت فيهم ، فكذالك لو أجبنا هؤلاء الذين سألوا منك ما سألوا ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . . ﴾ لما استجابوا ولا آمنو إلا أن يشاء الله كما قال فرعون لموسى ، وقد شاهد منه ما شاهد من هذه الآيات ﴿ إني لأظنك يا موسى مسحوراً ﴾ قيل : بمعنى ساحر ، والله أعلم .

(١٠٢) ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾

﴿ بصائر ﴾ أي حججاً وأدلة على صدق ما جئتك به ﴿ وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً ﴾ أي هالكاً ، أو ملعوناً ، أو مغلوباً .

(١٠٣) ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾

﴿ فأراد أن يستفزهم من الأرض ﴾ أي يخليهم منها ويزيلهم عنها ﴿ فأغرقناه ومن معه جميعاً ﴾ .

(١٠٤) ﴿ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾

﴿ وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴾ وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة مع أن السورة مكية نزلت قبل الهجرة ، وكذلك وقع ، فإن أهل مكة همُّوا باخراج الرسول منها ، كما قال تعالى ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها ﴾ ولهذا أورث الله رسوله مكة ، فدخلها عنوة على أشهر القولين ، وقهر أهلها ، ثم أطلقهم حلماً وكرماً ، كما أورث الله القوم الذين كانوا يستضعفون من بني إسرائيل مشارق الأرض ومغاربها وأورثهم بلاد فرعون وأموالهم وزروعهم وثمارهم وكنوزهم ، كما قال ﴿ كذلك وأورثناها بني اسرائيل ﴾ .

(١٠٥) ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وهو القرآن المجيد : إنه بالحق نزل ، أي متضمناً للحق كما قال تعالى ﴿ لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ﴾ أي متضمناً علم الله الذي أراد أن يطلعكم عليه من أحكامه وأمره ونهيه . وقوله ﴿ وبالحق نزل ﴾ أي ونزل اليك يا محمد محفوظاً محروساً لم يشب بغير ، ولا زيد فيه ، ولا نقص منه ، بل وصل اليك بالحق ، فإنه نزل به شديد القوى الأمين المكين المطاع في الملأ الأعلى ﴿ وما أرسلناك ﴾ أي يا محمد ﴿ إلا مبشراً ونذيراً ﴾ مبشراً لمن أطاعك من المؤمنين ، ونذيراً لمن عصاك من الكافرين .

(١٠٦) ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴾

﴿ وقرآنا فرقناه ﴾ فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ﴿ لتقرأه على الناس ﴾ أي لتبلغه الناس ، وتتلوه عليهم أي ﴿ على مكث ﴾ أي مهل . ﴿ ونزلناه تنزيلاً ﴾ أي شيئاً بعد شيء .

(١٠٧) ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين بما جئتهم به من هذا القرآن العظيم ﴿ آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾ أي سواء آمنتم به أم لا ، فهو حق في نفسه ، أنزله الله ، ونوه بذكره في سالف الأزمان في كتبه المنزلة على رسله ، ولهذا قال ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله ﴾ أي من صالحي أهل الكتاب الذين تمسكوا بكتابهم ، وأقاموه ولم يبدلوه ولا حرفوه ﴿ إذا يتلى عليهم ﴾ هذا القرآن ﴿ يخرُّون للأذقان ﴾ جمع ذقن ، وهو أسفل الوجه ﴿ سجداً ﴾ أي لله عز وجل شكراً على ما أنعم به عليهم من جعله إياهم أهلاً إن أدركوا هذا الرسول الذي أنزل عليه هذا الكتاب ، ولهذا يقولون :

(١٠٨) ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾

﴿ سبحان ربنا ﴾ أي تعظيماً وتوقيراً على قدرته التامة ، وأنه لا يخلف الميعاد الذي وعدهم على السنة الأنبياء المتقدمين عن بعثته محمد ﷺ ، ولهذا قالوا ﴿ سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ .

(١٠٩) ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴾

﴿ ويخرون للأذقان يبكون ﴾ أي خضوعاً لله عز وجل ، وإيماناً وتصديقاً بكتابه ورسوله ﴿ ويزيدهم خشوعاً ﴾ أي إيماناً وتسليماً ، كما قال ﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم ﴾ .

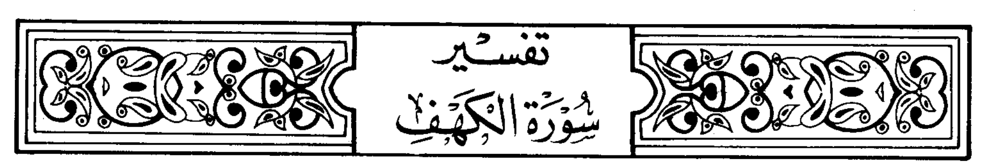
(١١٠) ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين من تسميته بالرحمن ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّاما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن ، فإنه ذو الأسماء الحسنىٰ . روى مكحول أن رجلاً من المشركين سمع النبي ﷺ ، وهو يقول في سجوده « يا رحمٰن يا رحيم » فقال : إنه يزعم أنه يدعو واحداً ، وهو يدعو اثنين فأنزل الله هذه الآية . وقوله ﴿ ولا تجهر بصلاتك . . . ﴾ روى الامام أحمد قال : نزلت هذه الآية ، ورسول الله ﷺ متوار بمكة ، قال : كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، وسبوا من أنزله ، ومن جاء به ، قال : فقال الله لنبيه ﷺ ﴿ ولا تجهر

بصلاتك ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبون القرآن ﴿ ولا تخافت بها ﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿ وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴾ أخرجاه في الصحيحين .

(١١١) ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾

﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً . . . ﴾ بل هو الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴿ ولم يكن له ولي من الذل ﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى أن يكون له ولي ، أو وزير ، أو مشير ، بل هو تعالى خالق الأشياء وحده لا شريك له ، ومدبرها ، ومقدرها بمشيئته وحده لا شريك له ﴿ وكبره تكبيراً ﴾ أي عظمه وأجله عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً . وقد جاء في حديث أن رسول الله ﷺ سمي هذه الآية آية العز .



تفسير سُورَةُ الكَهْف

روى الامام أحمد : قرأ رجل الكهف ، وفي الدار دابة ، فجعلت تنفر ، فنظر ، فإذا ضبابة أو سحابة قد غشيته ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « اقرأ فلان ، فإنها السكينة تنزل عند القرآن ، أو تنزلت للقرآن » أخرجاه في الصحيحين . وهذا الرجل الذي كان يتلوها هو أسيد بن الحضير رضي الله عنه . وفي الحديث « من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال » رواه مسلم . وفيه « من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال » رواه مسلم . وفي الحديث « من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين » أخرجه الحاكم وقال : حديث صحيح الاسناد .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾

﴿ ولم يجعل له عوجاً ﴾ أي لم يجعل فيه اعوجاجاً ولا زيغاً ولا ميلاً ، بل جعله معتدلاً مستقيماً يهدي إلى صراط مستقيم .

(٢) ﴿ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾

﴿ قيماً ﴾ أي مستقيماً ﴿ لينذر بأساً شديداً ﴾ أي لمن خالفه وكذبه ولم يؤمن به ينذره بأساً شديداً عقوبة عاجلة في الدنيا وآجلة في الأخرى ﴿ من لدنه ﴾ أي من عند الله الذي لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد ﴿ ويبشر المؤمنين ﴾ أي بهذا القرآن الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ أي مثوبة عند الله جميلة .

(٣) ﴿ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴾

﴿ ماكثين فيه ﴾ أي في ثوابهم عند الله ، وهو الجنة خالدين فيها ﴿ أبداً ﴾ دائماً لا زوال له ولا انقضاء .

(٤) ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾

﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ وهم مشركو العرب في قولهم : نحن نعبد الملائكة ، وهم بنات الله .

(٥) ﴿ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾

﴿ ما لهم به من علم ﴾ أي بهذا القول الذي افتروه وائتفكوه ﴿ ولا لآبائهم ﴾ أي لأسلافهم ﴿ كبرت كلمة ﴾ نصب على التمييز ، تقديره : كبرت كلمتهم هذه ، وقيل : على التعجب ، تقديره : أعظم بكلمتهم كلمة ، كما تقول : أكرم بزيد رجلاً ﴿ تخرج من أفواههم ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ، ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم . ولهذا قال ﴿ إن يقولون إلا كذباً ﴾ .

(٦) ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه في حزنه على المشركين لتركهم الايمان وبعدهم عنه كما قال تعالى ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ وقال ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ وقال ﴿ لعلك باخع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ باخع نفسك أي مهلك نفسك بحزنك عليهم ولهذا قال ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ﴿ أسفاً ﴾ يقول : لا تهلك نفسك اسفاً ، والمعنى لا تأسف لا

تأسف عليهم ، بل أبلغهم رسالة الله ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها .

(٧) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

ثم أخبر تعالى أنه جعل الدنيا داراً فانية ، مزينة بزينة زائلة ، وإنما جعلها دار اختبار ، لا دار قرار فقال ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً ﴾ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ماذا تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » .

(٨) ﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾

ثم أخبر تعالى بزوالها وفنائها وفراغها وانقضائها وذهابها وخرابها فقال تعالى ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ أي وإنا لمصيروها بعد الزينة إلى الخراب والدمار فنجعل كل شيء عليها هالكاً صعيداً جرزاً ، لا ينبت ولا ينتفع به . قال مجاهد : صعيداً جرزاً : بلقعاً . وقال قتادة : الصعيد الأرض التي ليس فيها شجر ولا نبات .

(٩) ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الاجمال والاختصار ، ثم بسطها بعد ذلك فقال ﴿ أم حسبت ﴾ يعني يا محمد ﴿ أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً ﴾ أي ليس أمرهم عجيباً في قدرتنا وسلطاننا فإن خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى ، وأنه على ما يشاء قادر ، ولا يعجزه شيء أعجب من أخبار أصحاب الكهف ، إذ أن من آياتنا ما هو أعجب من ذلك . والكهف : الغار في الجبل ، وهو الذي لجأ إليه هؤلاء الفتية ، والرقيم هو واد قريب من أيلة ، أو هو اسم الوادي ، أو كتاب بنيانهم ، أو هو الوادي الذي فيه كهفهم ، أو القربة ، أو الكتاب ، أو هو لوح من حجارة كتبوا فيه قصص أصحاب الكهف ، ثم وضعوه على باب الكهف . قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : الرقيم : الكتاب ، ثم قرأ ﴿ كتاب مرقوم ﴾ . وهذا هو الظاهر من الآية ، وهو اختيار ابن جرير .

(١٠) ﴿ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

يخبر تعالى عن أولئك الفتية الذين فروا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه فهربوا منه

فلجأوا إلى غار في جبل ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين رحمة الله ولطفه بهم ﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة ﴾ أي هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها ، وتسترنا عن قومنا ﴿ وهيء لنا من أمرنا رشداً ﴾ أي وقدر لنا من أمرنا هذا رشداً ، أي اجعل عاقبتنا رشداً وفي الحديث « اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة » .

(١١) ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾

أي ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة .

(١٢) ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾

﴿ ثم بعثناهم ﴾ أي من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشتري لهم بها طعاماً يأكلونه . ﴿ أي الحزبين ﴾ أي المختلفين فيهم ﴿ أحصى لما لبثوا أمداً ﴾ قيل : عدداً ، وقيل : غاية ، فإن الأمد الغاية .

(١٣) ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾

من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها فذكر تعالى أنهم فتية ، وهم الشباب ، وهم أقبل للحق ، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وانغمسوا في دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل وقوله ﴿ وزدناهم هدى ﴾ استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الايمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص .

(١٤) ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾

﴿ لن ندعو من دونه إلٰهاً ﴾ « لن » لنفي التأبيد ، أي لا يقع هذا منا أبداً ، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلاً ، ولهذا قال عنهم : ﴿ لقد قلنا إذاً شططاً ﴾ أي باطلاً وكذباً وبهتاناً .

(١٥) ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾

﴿ لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴾ أي هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلاً واضحاً صحيحاً ﴿ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴾ يقولون ، بل هم ظالمون كاذبون في قولهم ذلك . فيقال : إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أبى عليهم وتهددهم وتوعدهم ، وأجلهم لينظروا في أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذي كانوا عليه ، وكان هذا من لطف الله بهم ، فإنهم في تلك النظرة توصلوا إلى الهرب منه والفرار بدينهم من الفتنة ، وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن في الناس أن يفر العبد خوفاً على دينه ، كما جاء في الحديث « يوشك أن يكون خير مال أحدكم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن » ففي هذه الحال تشرع العزلة عن الناس ، ولا تشرع فيما عداها ، لما يفوت بها من ترك الجماعات والجمع .

(١٦) ﴿ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾

﴿ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴾ أي وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانكم في عبادتكم غير الله ففارقوهم أيضاً بأبدانكم ﴿ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ أي يبسط لكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿ ويهيء لكم من أمركم ﴾ الذي أنتم فيه ﴿ مرفقاً ﴾ أي أمراً ترتفقون به ، فعند ذلك خرجوا هراباً إلى الكهف ، فأووا إليه ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلبهم الملك ، فيقال إنه لم يظفر بهم ، وعمى الله عليه خبرهم ، كما فعل بنبيه محمد ﷺ وصاحبه الصديق حين لجآ إلى غارثور ، وجاء المشركون من قريش في الطلب ، فلم يهتدوا إليه مع أنهم يمرون عليه ، وعندها قال النبي ﷺ حين رأى جذع الصديق في قوله : يا رسول الله ، لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا فقال : « يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ . وقد قال الله ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ فقصة هذا الغار أشرف وأجل وأعظم من قصة أصحاب الكهف .

(١٧) ﴿ * وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ

لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾

فهذا فيه دليل على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال ، لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ﴿ ذات اليمين ﴾ أي يتقلص الفيء يمنة . ﴿ تزاور ﴾ أي تميل ، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان ، ولهذا قال ﴿ وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴾ أي تدخل إلى غارهم من شمال بأبه، وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه ، وهذا بين عن تأمله . ﴿ وهم في فجوة منه ﴾ أي في متسع منه داخلاً بحيث لا تصيبهم ، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم . ﴿ذلك من آيات الله ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار الذي جعلهم فيه أحياء ، والشمس والريح تدخل عليهم فيه لتبقي أبدانهم . ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ ثم قال : ﴿ من يهد الله فهو المهتد . . . ﴾ أي هو الذي أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ، فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادي له .

﴿١٨﴾ ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾

ذكر بعض أهل العلم أنهم لما ضرب الله على آذانهم بالنوم لم تنطبق أعينهم ، لئلا يسرع إليها البلى ، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ، ولهذا قال تعالى ﴿ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴾ وقوله تعالى ﴿ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴾ قال ابن عباس لو لم يقلبوا لأكلتهم الأرض . وقوله ﴿ وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد ﴾ بالوصيد : بالفناء ، أو بالباب ، أو بالصعيد وهو التراب ، والصحيح أنه بالفناء ، وهو الباب ، ومنه قوله تعالى ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة مغلقة . قال ابن جرير : يحرس عليهم الباب ، وهذا من سجيته وطبيعته حيث يربص ببابهم كأنه يحرسهم ، وكان جلوسه خارج الباب لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ، كما ورد في الصحيح ولا صورة ولا جنب ولا كافر ، كما ورد به الحديث الحسن . وشملت كلبهم بركتُهم فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذكر وخبر وشأن . ﴿ لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً ﴾ أي أنه تعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع بصر أحد عليهم إلا هابهم ، لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لامس حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتنقض رقدتهم التي شاء تبارك

وتعالى فيهم ، لما له في ذلك من الحكمة والحجة البالغة ، والرحمة الواسعة .

(١٩) ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾

يقول تعالى : كما أرقدناهم بعثناهم صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبشارهم لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئاً ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿ كم لبثتم ﴾ ؟ أي كم رقدتم ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف في أول نهار واستيقاظهم كان في آخر نهار ، ولهذا استدركوا فقالوا ﴿ أو بعض يوم ﴾ ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ أي الله أعلم بأمركم ﴿ فابعثوا أحدكم بورقكم ﴾ أي فضتكم هذه ﴿ إلى المدينة ﴾ أي مدينتكم التي خرجتم منها ﴿ فلينظرا أيُّها ازكى طعاماً ﴾ أي أطيب طعاماً ، أو أكثر طعاماً . ﴿ وليتلطف ﴾ أي في خروجه وذهابه وشرائه ، وإيابه ، يقولون : وليختف كل ما يقدر عليه . ﴿ ولا يشعرنَّ ﴾ أي ولا يعلمن ﴿ بكم أحداً ﴾ .

(٢٠) ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

﴿ إنهم إن يظهروا عليكم ﴾ أي إن علموا بمكانكم ﴿ يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ﴾ يعنون أصحاب دقيانوس يخافون منهم أن يطلعوا على مكانكم فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم في ملتهم التي هم عليها ، أو يموتوا ، وإن وافقتموهم على العود في الدين ، فلا فلاح لكم في الدنيا ولا في الآخرة ، ولهذا قال ﴿ ولن تفلحوا إذاً أبداً ﴾ .

(٢١) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾

ذكر غير واحد من السلف أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك في البعث ، وفي أمر القيامة . قال عكرمة : كان منهم طائفة قد قالوا : تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد فبعث الله أهل الكهف حجة ودلالة وآية على ذلك . وقوله ﴿ وكذلك أعثرنا عليهم ﴾ أي كما

أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم ﴾ أي في أمر القيامة ، فمن مثبت لها ، ومن منكر ، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم عليهم ﴿ فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم ﴾ أي سدوا عليهم باب الكهف ، وذروهم على حالهم ﴿ قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً ﴾ أي قال ذلك : المسلمون منهم ، أو أهل الشرك منهم والظاهران الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ ، ولكن هل هم محمودون أم لا ؟ فيه نظر ، لأن النبي ﷺ قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

(٢٢) ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف فحكي ثلاثة أقوال ، فدل على أنه لا قائل برابع ، ولما ضعف القولين الأولين بقوله ﴿ رجماً بالغيب ﴾ أي قولاً بلا علم ، كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد ، ثم حكى الثالث وسكت عليه ، أو قرره بقوله ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ فدل على صحته ، وأنه هو الواقع في نفس الأمر . وقوله ﴿ قل ربي أعلم بعدتهم ﴾ إرشاد إلى أن الأحسن في مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض في مثل ذلك بلا علم ، لكن إذ أطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا وقفنا . وقوله ﴿ ما يعلمهم إلا قليل ﴾ أي من الناس . عن ابن عباس : أنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة . وقيل : إنهم ثمانية وهم ملسلمينا وكان أكبرهم ، ويمليخا ومرطونس ، وكسطونس ، وبيرونس ، ودينموس ، ويطبونس ، وقالوش . وكلبهم اسمه قطمير أو حمران . والصحيح عن ابن عباس أنهم كانوا سبعة ، وهو ظاهر الآية . وفي تسميتهم بهذه الأسماء ، واسم كلبهم نظر في صحته . والله أعلم ، فإن غالب ذلك متلقى من أهل الكتاب ، وقد قال تعالى ﴿ فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً ﴾ أي سهلاً ليناً ، فإن الأمر في معرفة ذلك لا يترتب عليه كبير فائدة ﴿ ولا تستفت فيهم منهم أحداً ﴾ أي فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجماً بالغيب ، أي من غير استناد إلى كلام معصوم ، وقد جاءك الله يا محمد

بالحق الذي لا شك فيه ، ولا مرية فيه ، فهو المقدم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال .

(٢٣) ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾

هذا ارشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ إنه قال « قال سليمان بن داود : « لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ، وفي رواية تسعين امرأة ، وفي رواية مائة امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً ، يقاتل في سبيل الله ، فقيل له ، وفي رواية قال له الملك : قل إن شاء الله فلم يقل ، فطاف بهن فلم يلد منهن إلا امرأة واحدة نصف انسان » . فقال رسول الله ﷺ : والذي نفسي بيده ، لو قال : إن شاء الله لم يحنث ، وكان دراكاً لحاجته ، وفي رواية « ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » .

(٢٤) ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾

﴿ واذكر ربك اذا نسيت ﴾ إذا نسيت الاستثناء فاستثن عند ذكرك له ، أو أن تقول : إن شاء الله ﴿ وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ أي إذا سئلت عن شيء لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه في أن يوفقك للصواب والرشد في ذلك .

(٢٥) ﴿ وَلَبِثُواْ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴾

هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار ما لبث أصحاب الكهف في كهفهم منذ أرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان ، وأنه كان مقداره ثلثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية ، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنين ، فلهذا قال بعد الثلثمائة : وازدادوا تسعاً .

(٢٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

﴿ قل الله أعلم بما لبثوا ﴾ أي إذا سئلت عن لبثهم ، وليس عندك علم في ذلك ، وتوقيف من الله تعالى فلا تتقدم فيه بشيء ، بل قل في مثل هذا ﴿ الله أعلم بما لبثوا له غيب

السموات والأرض ﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو ، ومن أطلعه عليه من خلقه ، وهذا الذي قلناه عليه غير واحد من علماء التفسير ، والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله لا حكاية عنهم . ﴿ أبصر به وأسمع ﴾ أي إنه لبصير بهم ، سميع لهم ، وذلك في معنى المبالغة في المدح كأنه قيل : ما أبصره وأسمعه ، وتأويل الكلام : ما أبصر الله لكل موجود ، وأسمعه لكل مسموع ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، فلا أحد أبصر من الله ، ولا أسمع منه ﴿ ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحداً ﴾ أي إنه تعالى هو الذي له الخلق والأمر الذي لا معقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ، ولا شريك ولا مشير . تعالى وتقدس .

(٢٧) ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بتلاوة كتابه العزيز ، وإبلاغه إلى الناس ﴿ لا مبدل لكلماته ﴾ أي لا مغير لها ، ولا محرف ولا مزيل ، وقوله ﴿ ولن تجد من دونه ملتحداً ﴾ ملجأً ، أو ولياً ، ولا مولىً قال ابن جرير : يقول : إن أنت يا محمد لم تتل ما أوحى اليك من كتاب ربك ، فإنه لا ملجأ لك من الله ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ .

(٢٨) ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾

﴿ واصبر نفسكِ مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴾ أي اجلس مع الذين يذكرون الله ، ويهللونه ويحمدونه ، ويسبحونه ويكبرونه ، ويسألونه بكرة وعشياً من عباد الله ، سواء كانوا فقراء أم أغنياء ، أو أقوياء أو ضعفاء ، يقال : إنها نزلت في أشراف قريش حين طلبوا من النبي ﷺ أن يجلس معهم وحده ، ولا يجالسهم بضعفاء أصحابه ، كبلال وعمار وصهيب وخباب وابن مسعود ، وليفرد أولئك بمجلس على حدة فنهاه الله عن ذلك فقال ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ وأمره أن يصبر نفسه في الجلوس مع هؤلاء فقال : ﴿ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . . . ﴾ روى الامام أحمد عن أبي أمامة قال : خرج رسول الله ﷺ على قاص يقص فأمسك ، فقال رسول الله ﷺ : « قص فلأن أقعد غدوة إلى أن تشرق الشمس أحب إلي من أن أعتق أربع رقاب » وروى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « ما من قوم

اجتمعوا يذكرون الله ، لا يريدون بذلك الا وجهه إلا ناداهم مناد من السماء أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات » . وقوله ﴿ ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ ولا تجاوزهم إلى غيرهم ، يعني تطلب بدلهم أصحاب الشرف والثروة ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ﴾ أي شغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا ﴿ وكان أمره فرطاً ﴾ أي أعماله وأفعاله سفه وتفريط وضياع ، ولا تكن مطيعاً له ولا محباً لطريقته ، ولا تغبطه بما هو فيه ، كما قال ﴿ ولا تمدنَّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

(٢٩) ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : وقل يا محمد للناس : هذا الذي جئتكم به من ربكم هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ هذا من باب التهديد والوعيد الشديد ، ولهذا قال ﴿ إنا أعتدنا ﴾ أي أرصدنا ﴿ للظالمين ﴾ وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿ ناراً أحاط بهم سرادقها ﴾ أي سورها . روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لسرادق النار اربعة جدر ، كثافة كل جدار مسافة أربعين سنة » وأخرجه الترمذي في صفة النار . وقوله ﴿ وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه ﴾ المهل : الماء الغليظ مثل وردي الزيت ، أو هو كالدم والقيح . ﴿ يشوي الوجوه ﴾ أي من حره إذا أراد الكافر أن يشربه وقربه من وجهه شواه حتى تسقط جلدة وجهه فيه ﴿ بئس الشراب ﴾ أي بئس هذا الشراب ، كما قال ﴿ وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم ﴾ ﴿ وساءت مرتفقاً ﴾ أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعاً وموضعاً للارتفاق ، كما قال ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

(٣٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾

لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بذكر السعداء الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به ، وعملوا بما أمروهم به من الأعمال الصالحة .

(٣١) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا

خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

فلهم جنات عدن ، والعدن الاقامة ﴿ تجري من تحتهم الأنهار ﴾ أي من تحت غرفهم ومنازلهم . قال فرعون : ﴿ وهذه الأنهار تجري من تحتي ﴾ ﴿ يحلون ﴾ أي من الحلية ﴿ فيها من أساور من ذهب ﴾ وقال في المكان الآخر ﴿ ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ وفصله ههنا فقال ﴿ ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ﴾ فالسندس لباس رفاع رقاق كالقمصان وما جرى مجراها ، وأما الاستبرق فغليظ الديباج ، وفيه بريق . وقوله ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ الاتكاء قيل : الاضطجاع ، وقيل : التربع في الجلوس ، وهو أشبه بالمراد ههنا ، ومنه الحديث الصحيح « أما أنا فلا آكل متكئاً » فيه القولان . والأرائك جمع أريكة ، وهي السرير تحت الحجلة ، وقوله ﴿ نعم الثواب وحسنت مرتفقاً ﴾ أي نعمت الجنة ثواباً على أعمالهم ، وحسنت مرتفقاً أي حسنت منزلاً ومقيلاً ومقاماً .

﴿٣٢﴾ ﴿ * وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾

يقول تعالى بعد ذكره المشركين المستكبرين عن مجالسة الضعفاء والمساكين من المسلمين وافتخروا عليهم بأموالهم وأحسابهم فضرب لهم ولهم مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين أي بستانين من أعناب محفوفتين بالنخيل المحدقة في جنباتهما ، وفي خلالهما الزروع ، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة .

﴿٣٣﴾ ﴿ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴾

ولهذا قال : ﴿ كلتا الجنتين آتت أكلها ﴾ أي أخرجت ثمرها ﴿ ولم تظلم منه شيئاً ﴾ أي ولم تنقص منه شيئاً ﴿ وفجرنا خلالهما نهراً ﴾ أي والأنهار متفرقة فيما ههنا وههنا .

﴿٣٤﴾ ﴿ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾

﴿ وكان له ثمر ﴾ قيل : المراد به المال ، وقيل : الثمار ، وهو أظهر ههنا ﴿ فقال ﴾ أي صاحب هاتين الجنتين ﴿ لصاحبه وهو يحاوره ﴾ أي يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويترأس ﴿ أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ﴾ أي أكثر خدماً وحشماً وولداً . قال قتادة : تلك والله أمنية الفاجر : كثرة المال ، وعزة النفر .

(٣٥) ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾

﴿ ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ﴾ أي بكفره وتمرده وتكبره وتجبره وإنكاره المعاد ﴿ قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ وذلك اعتزاز منه ، لما رأى فيها من الزروع والثمار ، والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها ظن أنها لا تفرغ ولا تفنى ولا تهلك ولا تتلف، وذلك لقلة عقله ، وضعف يقينه بالله ، وإعجابه بالحياة الدنيا ، وزينتها ، وكفره بالآخرة .

(٣٦) ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾

ولهذا قال ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي كائنة ﴿ ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ﴾ أي ولئن كان معاد ورجعة ومرد إلى الله ليكونن لي هناك أحسن من هذا الحظ عند ربي ، ولولا كرامتي عليه ما أعطاني هذا ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ .

(٣٧) ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما أجابه به صاحبه المؤمن واعظاً له وزاجراً عما هو فيه من الكفر بالله والاغترار ﴿ أكفرت بالذي خلقك من تراب . . . ﴾ وهذا إنكار وتعظيم لما وقع فيه من جحود ربه الذي خلقه ، وابتدأ خلق الانسان من طين ، وهو آدم ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

(٣٨) ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾

﴿ لكنا هو الله ربي ﴾ أي لكن أنا لا أقول بمقالتك ، بل أعترف لله بالوحدانية والربوبية ﴿ ولا أشرك بربي أحداً ﴾ أي بل هو المعبود وحده لا شريك له .

(٣٩) ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

ثم قال ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت . . . ﴾ هذا تحضيض وحث على ذلك ، أي هلا إذ أعجبتك حين دخلتها ونظرت إليها حمدت الله على ما أنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد ما لم يعطه غيرك وقلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ولهذا قال بعض السلف . من أعجبه شيء من حاله أو ماله فليقل : ما شاء الله لا قوة إلا بالله . أخرج الحافظ أبو ليلى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ . « ما أنعم الله على عبد نعمة من أهل

أو مال أو ولد فيقول : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله فيرى فيه آفة دون الموت » وقد ثبت في الصحيحين عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال له : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » .

(٤٠) ﴿ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴾

﴿ فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ ويرسل عليها ﴾ أي على جنتك في الدنيا التي ظننت أنها تبيد ولا تفنى ﴿ حسباناً من السماء ﴾ أي عذاباً من السماء والظاهر أنه مطر عظيم مزعج يقلع زرعها وأشجارها ، ولهذا قال ﴿ فتصبح صعيداً زلقاً ﴾ أي بلقعاً تراباً أملس لا يثبت فيه قدم ، قال ابن عباس : كالجرز الذي لا ينبت شيئاً .

(٤١) ﴿ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴾

﴿ أو يصبح ماؤها غوراً ﴾ أي غائراً في الأرض ، وهو ضد النابع الذي يطلب وجه الأرض ، فالغائر يطلب أسفلها كما قال تعالى ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي جار وسائح .

(٤٢) ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴾

يقول ﴿ وأحيط بثمره ﴾ بأمواله ، أو بثماره على القول الآخر ، والمقصود أنه وقع بهذا الكافر ما كان يحذر مما خوفه به المؤمن من إرسال الحسبان على جنته التي اغتر بها وألهته عن الله عز وجل ﴿ فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها ﴾ قال قتادة : يصفق كفيه متأسفاً متلهفاً على الأموال التي أذهبها عليها ﴿ ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً ﴾ .

(٤٣) ﴿ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٞ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾

﴿ ولم تكن له فئة ﴾ أي عشيرة أو ولد كما افتخر بهم واستعز ﴿ ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً ﴾ .

(٤٤) ﴿ هُنَالِكَ ٱلۡوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلۡحَقِّۚ هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا ﴾

﴿ هنالك الولاية لله الحق ﴾ أي هنالك الموالاة لله ، أي هنالك كل أحد مؤمن أو كافر

يرجع إلى الله ، وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب ، كقوله ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ ﴿ هو خير ثواباً ﴾ أي جزاء ﴿ وخير عقباً ﴾ أي الأعمال التي تكون لله عز وجل ثوابها وعاقبتها حميدة رشيدة كلها خير .

(٤٥) ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾

يقول تعالى ﴿ واضرب لهم ﴾ يا محمد للناس ﴿ مثل الحياة الدنيا ﴾ في زوالها وانقضائها ﴿ كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ أي ما فيها فشب وحسن وعلاه الزهر والنور والنضرة ، ثم بعد هذا كله ﴿ أصبح هشيماً ﴾ يابساً ﴿ تذروه الرياح ﴾ أي تفرقه وتطرحه ذات اليمين وذات الشمال ﴿ وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ أي هو قادر على هذه الحال ، وهذه الحال ، وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كقوله ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام ﴾ .

(٤٦) ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾

﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا ﴾ كقوله ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ ولهذا قال ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ الباقيات الصالحات : الصلوات الخمس ، أو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، أو هي الأعمال الصالحة أو هي الكلام الطيب .

(٤٧) ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

يخبر تعالى عن أهوال يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظام كما قال تعالى ﴿ يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيراً ﴾ أي تذهب من أماكنها وتزول كما قال تعالى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ ﴿ وترى الأرض بارزة ﴾ أي بادية ظاهرة ليس فيها معلم لأحد ، ولا مكان يواري أحداً ، بل الخلق كلهم ضاحون لربهم ، لا تخفى عليه منهم خافية . ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ أي وجمعناهم : الأولين منهم والآخرين ، فلم نترك منهم أحداً صغيراً ولا كبيراً ، كما قال ﴿ قل إن الأولين

والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ .

﴿٤٨﴾ ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾

﴿ وعرضوا على ربك صفاً ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن جميع الخلائق يقومون بين يدي الله صفاً واحداً كما قال تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً ﴾ ويحتمل أنهم يقومون صفوفاً صفوفاً كما قال ﴿ وجاء ربك والملك صفاً صفاً . وقوله ﴿ لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ هذا تقريع للمنكرين للمعاد ، وتوبيخ لهم على رؤوس الأشهاد ، ولهذا قال تعالى مخاطباً لهم ﴿ بل زعمتم أن لن نجعل لكم موعداً ﴾ أي ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ، ولا أن هذا كائن .

﴿٤٩﴾ ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾

﴿ ووضع الكتاب ﴾ أي كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير ، والفتيل والقطمير ، والصغير والكبير ﴿ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ﴾ أي من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا وويلنا على ما فرطنا في أعمارنا ﴿ مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ﴾ أي لا يترك ذنباً صغيراً ، ولا كبيراً ، ولا عملاً ، وإن صغر ﴿ إلا أحصاها ﴾ أي ضبطها وحفظها . روى الطبراني عن سعد بن جنادة قال : « لما فرغ رسول الله ﷺ من غزوة حنين نزلنا قفراً من الأرض ليس فيه شيء ، فقال النبي ﷺ : « اجمعوا ، من وجد عوداً فليأت به ، ومن وجد حطباً فليأت به ، أو شيئاً فليأت به » قال : فما كان إلا ساعة حتى جعلناه ركاماً ، فقال النبي ﷺ : « أترون هذا ؟ فكذلك تجمع الذنوب على الرجل منكم كما جمعتم هذا ، فليتق الله رجل ، ولا يذنب صغيرة ولا كبيرة ، فإنها محصاة عليه » وقوله ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ أي من خير وشر، كقوله ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه ﴾ وقوله ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ أي فيحكم بين عباده في أعمالهم جميعاً ، ولا يظلم أحداً من خلقه ، بل يغفر ويصلح ويغفر ويرحم ويعذب من يشاء بقدرته وحكمته وعدله .

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠)

يقول تعالى منبهاً بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ، ومقرعاً لمن اتبعه منهم ، وخالف خالقه ومولاه ، وهو الذي أنشأه وابتدأه ، وبألطافه رزقه وغذاه ، ثم بعد هذا كله والى إبليس ، وعادى الله فقال تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة﴾ أي لجميع الملائكة ﴿اسجدوا لآدم﴾ أي سجود تشريف وتكريم وتعظيم . وقوله ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن﴾ أي خانه أصله ، فإنه خلق من مارج من نار ، وأصل خلق الملائكة من نور كما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » فعند الحاجة نصح كل وعاء بما فيه ، وخانه الطبع عند الحاجة ، وذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة وتشبه بهم ، وتعبد وتنسك ، فلهذا دخل في خطابهم وعصى بالمخالفة . ونبه تعالى ههنا على أنه من الجن ، أي على أنه خلق من نار ﴿ففسق عن أمر ربه﴾ أي فخرج عن طاعة الله ، فإن الفسق هو الخروج ، يقال : فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها ، وفسقت الفارة من حجرها إذا خرجت منه للعبث والفساد . ثم قال تعالى مقرعاً وموبخاً لمن اتبعه وأطاعه ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني . . .﴾ أي بدلاً عني ، ولهذا قال : ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ .

﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (٥١)

يقول تعالى : هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ، ولا أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا كانوا إذ ذاك موجودين ، يقول تعالى : أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحدي ، ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير كما قال ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾ ولهذا قال ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أعواناً .

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ (٥٢)

يقول تعالى مخبراً عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رؤوس الأشهاد تقريعاً لهم وتوبيخاً ﴿ نادوا شركائي الذين زعمتم ﴾ أي في دار الدنيا ، ادعوهم اليوم ينقذونكم مما أنتم فيه ، كما قال تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ وقوله ﴿ فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ﴾ كما قال ﴿ واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ وقوله ﴿ وجعلنا بينهم موبقاً ﴾ مهلكاً ، أو هو واد عميق فرق به يوم القيامة بين أهل الهدى وأهل الضلالة . والمعنى أن الله تعالى بين أنه لا سبيل لهؤلاء المشركين ولا وصول لهم إلى آلهتهم التي كانوا يزعمون في الدنيا، وأنه يفرق بينهم وبينها في الآخرة ، فلا خلاص لأحد من الفريقين إلى الآخر ، بل بينهما مهلك وهول عظيم وأمر كبير .

﴿٥٣﴾ ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾

﴿ ورأى المجرمون النار . . ﴾ أي أنهم لما عاينوا جهنم حين جيء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ، فإذا رآها المجرمون تحققوا لا محالة أنهم مواقعوها ، ليكون ذلك من باب تعجيل الهم والحزن لهم ، فإن توقع العذاب والخوف منه قبل وقوعه عذاب ناجز . وقوله ﴿ ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ أي ليس لهم طريق يعدل بهم عنها ، ولا بد لهم منها . روى ابن جرير عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الكافر ليرى جهنم فيظن أنها مواقعته من مسيرة أربعمائة سنة » .

﴿٥٤﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾

يقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها كيلا يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان فالانسان كثير المجادلة والمخاصمة والمعارضة للحق بالباطل الا من هداه الله وبصره لطريق النجاة . عن علي بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ فقال : « ألا تصليان » ؟ فقلت : يا رسول الله ، إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إلي شيئاً ثم سمعته ، وهو مولٍّ يضرب فخذه ويقول ﴿ وكان الانسان أكثر شيء جدلاً ﴾ . أخرجاه في الصحيحين .

﴿٥٥﴾ ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ

يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴾

يخبر تعالى عن تمرد الكفرة في قديم الزمان وحديثه ، وتكذيبهم بالحق البين الظاهر مع ما يشاهدون من الآيات والدلالات الواضحات ، وأنه ما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ من غشيانهم بالعذاب واخذهم عن آخرهم ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي يرونه عياناً مواجهة ومقابلة .

(٥٦) ﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾

﴿ وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ﴾ أي قبل العذاب مبشرين من صدقهم ، وآمن بهم ، ومنذرين لمن كذبهم ، وخالفهم . ثم أخبر عن الكفار فقال ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به ﴾ أي ليضعفوا به الحق الذي جاءتهم به الرسل ، وليس ذلك بحاصل لهم ﴿ واتخذوا آياتي وما أنذروا هزواً ﴾ أي اتخذوا الحجج والبراهين وخوارق العادات التي بعث بها الرسل ، وما أنذروهم وخوفوهم به من العذاب ﴿ هزواً ﴾ أي سخروا منهم في ذلك ، وهو أشد التكذيب .

(٥٧) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾

يقول تعالى : وأي عباد الله اظلم ممن ذكر بآيات الله ﴿ فأعرض عنها ﴾ أي تناساها ، وأعرض عنها ، ولم يصغ لها ، ولا ألقى اليها بالاً ﴿ ونسي ما قدمت يداه ﴾ أي من الأعمال السيئة والأفعال القبيحة ﴿ إنا جعلنا على قلوبهم ﴾ أي قلوب هؤلاء ﴿ أكنة ﴾ أي أغطية وغشاوة ﴿ أن يفقهوه ﴾ أي لئلا يفهموا هذا القرآن والبيان ﴿ وفي آذانهم وقراً ﴾ أي صمماً معنوياً عن الرشاد ﴿ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً ﴾ .

(٥٨) ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾

﴿ وربك الغفور ذو الرحمة ﴾ أي ربك يا محمد غفور ذو رحمة واسعة ﴿ لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب ﴾ كما قال ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على

ظهرها من دابة ﴾ ثم أخبر تعالى أنه عليم ويستر ويغفر ، وربما هدى بعضهم من الغي إلى الرشاد ومن استمر منهم فله يوم يشيب فيه الوليد ، وتضع كل ذات حمل حملها ، ولهذا قال ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ أي ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل .

(٥٩) ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾

﴿ وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ﴾ أي الأمم السالفة والقرون الخالية أهلكناهم بسبب كفرهم وعنادهم ﴿ وجعلنا لمهلكهم موعداً ﴾ أي جعلناه إلى مدة معلومة ، ووقت معين لا يزيد ولا ينقص ، أي وكذلك أنتم أيها المشركون ، احذروا أن يصيبكم ما أصابهم ، فقد كذبتم أشرف رسول ، وأعظم نبيٍّ ، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذر .

(٦٠) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾

سبب قول موسى لفتاه ، وهو يوشع بن نون هذا الكلام أنه ذكر له أن عبداً من عباد الله بمجمع البحرين عنده من العلم ما لم يحط به موسى فأحب الرحيل إليه ، وقال لفتاه ﴿ لا أبرح ﴾ أي لا أزال سائراً ﴿ حتى أبلغ مجمع البحرين ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين . قال قتادة وغيره : هما بحر فارس مما يلي المشرق ، وبحر الروم مما يلي المغرب . وقال محمد بن كعب القرظي : مجمع البحرين عند طنجة في أقصى بلاد المغرب ، فالله أعلم . وقوله ﴿ و أمضي حقباً ﴾ أي ولو أني أسير حقباً من الزمان ، أي دهراً .

(٦١) ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

﴿ فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ﴾ وذلك أنه كان قد أمر بحمل حوت مملوح معه ، وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة فسارا حتى بلغا مجمع البحرين ، وهناك عين يقال لها : عين الحياة ، فناما هنالك وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب ، وكان في المكتل مع يوشع عليه السلام ، وطفر من المكتل إلى البحر فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فظل يسير في الماء ، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده ، ولهذا قال ﴿ فاتخذ سبيله في البحر سرباً ﴾ أي مثل السرب في الأرض ، قال ابن عباس : جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة .

(٦٢) ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾

﴿ فلما جاوزا ﴾ أي المكان الذي نسيا الحوت فيه ، ونسب النسيان اليهما ، وإن كان يوشع هو الذي نسيه كقوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وإنما يخرج من المالح . فلما ذهبا عن المكان الذي نسياه فيه بمرحلة ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا ﴾ أي الذي جاوزا فيه المكان ﴿ نصباً ﴾ يعني تعباً .

(٦٣) ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴾

﴿ فاتخذ سبيله ﴾ أي طريقه ﴿ في البحر عجباً ﴾ .

(٦٤) ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾

﴿ قال ذلك ما كنا نبغ ﴾ أي هذا هو الذي نطلب ﴿ فارتدا ﴾ أي رجعا ﴿ على آثارهما ﴾ أي طريقهما ﴿ قصصاً ﴾ أي يقصان آثار مشيهما ، ويغفوان أثرهما .

(٦٥) ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾

﴿ فوجدا عبداً من عبادنا . . . ﴾ وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن نوفاً البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر عليه السلام ليس هو موسى صاحب بني اسرائيل قال ابن عباس : كذب عدو الله ، حدثنا أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن موسى قام خطيباً في بني اسرائيل فسئل : أي الناس أعلم ؟ قال : أنا فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه ، إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى : يا رب ، وكيف لي به ؟ قال : تأخذ معك حوتاً فتجعله بمكتل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فأخذ حوتاً فجعله بمكتل ، ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون عليه السلام حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت في المكتل ، فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه ﴿ آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي

أمره الله به ، قال له فتاه ﴿ أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت . . . ﴾ قال فكان للحوت سرباً ، ولموسى وفتاه عجباً فقال ﴿ ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴾ قال فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ فقال : أنا موسى فقال موسى بني اسرائيل ؟ قال : نعم الخ ما جاء في حديث البخاري .

﴿٦٦﴾ ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾

يخبر تعالى عن قيل موسى عليه السلام لذلك الرجل العالم وهو الخضر الذي خصه الله بعلم لم يطلع عليه موسى عليه السلام كما أنه أعطى موسى من العلم ما لم يعطه الخضر ﴿ قال له موسى هل أتبعك ﴾ سؤال تلطف ، لا على وجه الالزام والاجبار ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤال المتعلم من العالم . وقوله ﴿ أتبعك ﴾ أي أصحبك وأرافقك ﴿ على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ أي مما علمك الله شيئاً أسترشد به في أمري من علم نافع وعمل صالح .

﴿٦٧﴾ ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴾

﴿ قال ﴾ الخضر لموسى ﴿ إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ أي إنك لا تقدر على مصاحبتي لما ترى مني من الأفعال التي تخالف شريعتك لأني على علم من علم الله ما علمكه الله ، وأنت على علم من علم الله ما علمنيه الله .

﴿٦٨﴾ ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾

﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ فأنا أعرف أنك ستنكر على ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعت على حكمته ومصلحته الباطنة التي اطلعت أنا عليها دونك .

﴿٦٩﴾ ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴾

﴿ قال ﴾ أي موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ أي على ما أرى من أمورك ﴿ ولا أعصي لك أمراً ﴾ أي ولا أخالفك في شيء ، فعند ذلك شارطه الخضر عليه السلام .

﴿٧٠﴾ ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾

﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء ﴾ أي ابتداء ﴿ حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ أي حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألني .

(٧١) ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن موسى وصاحبه ، وهو الخضر : إنهما انطلقا لما توافقوا واصطحبا ، واشترط عليه أن لا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذي يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه فركبا في السفينة ، وقد جاء في حديث البخاري كيف ركبا في السفينة ، وأنهم عرفوا الخضر فحملوهما بغير نول ، يعني بغير أجرة تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة في البحر ، ولجت أي دخلت اللجة قام الخضر فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ، ثم رقعها ، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه : ﴿ أخرقتها لتغرق أهلها ﴾ وهذه لام العاقبة ، لا لام التعليل ﴿ لقد جئت شيئاً امراً ﴾ منكراً ، أو عجباً .

(٧٢) ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾

فعندها قال له الخضر مذكراً بما تقدم من الشرط ﴿ ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ يعني ، وهذا الصنيع فعلته قصداً وهو من الأمور التي اشترطت معك أن لا تنكر على فيها لأنك لم تحط بها خبراً ، ولها مصلحة لم تعلمها أنت .

(٧٣) ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾

﴿ قال ﴾ أي موسى ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ﴾ أي لا تضيق علي ولا تشدد علي ، ولهذا تقدم في حديث البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كانت الأولى من موسى نسياناً » .

(٧٤) ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴾

يقول تعالى ﴿ فانطلقا ﴾ أي بعد ذلك ﴿ حتى إذا لقيا غلاماً فقتله ﴾ وقد كان يلعب مع الغلمان في قرية من القرى اسمه حيثور ، وأنه عمد إليه من بينهم ، وكان أحسنهم وأجملهم وأضوأهم فقتله ، وروي أنه احتز رأسه ، وقيل : رضخه بحجر ، وفي رواية اقتلعه بيده . والله أعلم فلما شاهد موسى عليه السلام هذا أنكره أشد من الأول ، وبادر فقال : ﴿ أقتلت نفساً زكية ﴾ أي صغيرة لم تعمل الحنث ، ولا عملت إثماً بعد فقتلته

﴿ بغير نفس ﴾ أي بغير مستند لقتله ﴿ لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ أي ظاهر النكارة .

﴿ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ﴾ فأكد أيضاً التذكار بالشرط الأول، فلهذا

﴿ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴾ ﴿٧٦﴾

قال له موسى ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها ﴾ أي إن اعترضت عليك بشيء بعد هذه المرة ﴿ فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ أي قد أعذرت إلي مرة بعد مرة . روى ابن جرير قال كان النبي ﷺ إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه فقال ذات يوم « رحمة الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ، ولكنه قال : ﴿ إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ .

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ ﴿٧٧﴾

يقول تعالى مخبراً عنهما إنهما ﴿ انطلقا ﴾ بعد المرتين الأوليين ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ هي الأيلة ، وفي الحديث « حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً » أي بخلاء ﴿ فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ إسناد الارادة إلى الجدار على سبيل الاستعارة ، فإن الارادة في المحدثات بمعنى الميل . والانقضاض هو السقوط . وقوله ﴿ فأقامه ﴾ أي فرده إلى حالة الاستقامة . وفي حديث البخاري أنه رده بيديه ، ودعمه حتى رد ميله وهذا خارق ، قال له موسى ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ أي لأجل أنهم لم يضيفونا ، كان ينبغي أن لا تعمل لهم مجاناً .

﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿ قال هذا فراق بيني وبينك ﴾ أي لأنك شرطت عند قتل الغلام أنك إن سألتني عن شيء بعدها فلا تصاحبني فهو فراق بيني وبينك ﴿ سأنبئك بتأويل ﴾ أي بتفسير ﴿ ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ ﴿٧٩﴾

سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾

هذا تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر عليه السلام على حكمة باطنة ، فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ﴿ يأخذ كل سفينة ﴾ صالحة ، أي جيدة ﴿ غصباً ﴾ فأردت أن أعيبها فأرده عنها لعيبها فينتفع بها أصحابها المساكين الذين لم يكن لهم شيء ينتفعون به غيرها ، وقد قيل : إنهم أيتام .

(٨٠) ﴿ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾

في الحديث عن النبي ﷺ قال : « الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافراً » رواه ابن جرير . ولهذا قال ﴿ فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ﴾ أي يحملهما حبه على متابعته على الكفر . قال قتادة : قد فرح به ابواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل ، ولو بقي لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب . وصح في الحديث « لا يقضي الله لمؤمن قضاء إلا كان خيراً له » وقال تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ .

(٨١) ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾

أي ولداً أزكى من هذا ، وهما أرحم به منه .

(٨٢) ﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾

في هذه الآية دليل على اطلاق القرية على المدينة ، لأنه قال أولاً ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية ﴾ وقال ههنا ﴿ فكان لغلامين يتيمين في المدينة ﴾ ومعنى الآية أن هذا الجدار إنما أصلحته لأنه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما ، أي كان تحته مال مدفون لهما . وقوله ﴿ وكان أبوهما صالحاً ﴾ فيه دليل على أن الرجل الصالح يحفظ في ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم في الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة في الجنة لتقر عينه بهم . وكان الأب السابع . وقوله ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما

ويستخرجا كنزهما ﴾ ههنا أسند الارادة إلى الله تعالى لأن بلوغهما الحلم لا يقدر عليه الا الله وقال في الغلام ﴿ فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة ﴾ وقال في السفينة ﴿ فأردت أن أعيبها ﴾ فالله اعلم . وقوله تعالى ﴿ رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ﴾ أي هذا الذي فعلته في هذه الأحوال الثلاثة إنما هو من رحمة الله بمن ذكرنا من أصحاب السفينة ، ووالدي الغلام ، وولدي الرجل الصالح ، وما فعلته عن أمري لكني أمرت به ووقفت عليه . وقد ذهب كثيرون إلى أن الخضر كان ولياً ولم يكن نبياً . وقوله ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾ أي هذا تفسير ما ضقت به ذرعاً ، ولم تصبر حتى اخبرك به ابتداء ، ولما أن فسره له وبينه ووضحه وأزال المشكل قال ﴿ تسطع ﴾ وقبل ذلك كان الاشكال قوياً ثقيلاً فقال ﴿ تستطع ﴾ فقابل الأثقل بالأثقل ، والأخف بالأخف كما قال ﴿ فما اسطاعوا أن يظهروه ﴾ وهو الصعود إلى أعلاه ﴿ وما استطاعوا له نقباً ﴾ وهو أشق من ذلك فقابل كلا بما يناسبه لفظاً ومعنى .

﴿٨٣﴾ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ ﴿ ويسألونك ﴾ يا محمد ﴿ عن ذي القرنين ﴾ أي عن خبره . وقد بعث كفار مكة إلى أهل الكتاب يسألون منهم ما يمتحنون به النبي ﷺ فقالوا : سلوه عن رجل طواف في الأرض ، وعن فتية ما يدري ما صنعوا ، وعن الروح فنزلت سورة الكهف .

﴿٨٤﴾ ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴾

﴿ إنا مكنا له في الأرض ﴾ أي أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتي الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك البلاد ، وخدمته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس : مشرقها ومغربها . ﴿ وآتيناه من كل شيء سبباً ﴾ يعني علماً ، أو منازل الأرض وأعلامها .

﴿٨٥﴾ ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

﴿ فأتبع سبباً ﴾ يعني بالسبب المنزل ، أو منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب ، أو طرفي الأرض .

(٨٦) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾

﴿ حتى إذا بلغ مغرب الشمس ﴾ أي فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض ﴿ وجدها تغرب في عين حمئة ﴾ أي رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه . والحمأة الطين الأسود . ﴿ ووجد عندها قوماً ﴾ أي أمة من الأمم . ﴿ قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب . . ﴾ معنى هذا أن الله مكنه منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم وخيَّره إن شاء قتل وسبى ، وإن شاء منَّ أوفدى فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه .

(٨٧) ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

﴿ قال أما من ظلم ﴾ أي استمر على كفره وشركه بربه ﴿ فسوف نعذبه ﴾ بالقتل ﴿ ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ﴾ أي شديداً بليغاً وجيعاً أليماً ، وفي هذا اثبات المعاد والجزاء .

(٨٨) ﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾

﴿ وأما من آمن ﴾ أي تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فله جزاء الحسنى ﴾ أي في الدار الآخرة عند الله عز وجل ﴿ وسنقول له من أمرنا يسراً ﴾ معروفاً .

(٨٩) ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

(٩٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴾

يقول تعالى : ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ، وكان كلما مر بأمة غلبهم وقهرهم ، ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم ، وأرغم آنافهم ، واستباح أموالهم ، وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الاقليم المتاخم لهم . ولما انتهى إلى مطلع الشمس من الأرض ﴿ وجدها تطلع على قوم ﴾ أي أمة ﴿ لم نجعل لهم من دونها ستراً ﴾ أي ليس لهم بناء يكنهم ، ولا أشجار تظلهم ، وتسترهم من حر الشمس ، وقيل : هم الزنج .

(٩١) ﴿ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴾

﴿ كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً ﴾ أي علماً ، أي نحن مطلعون على جميع أحواله ، وأحوال جيشه ، لا يخفى علينا منها شيء ، وإن تفرقت أممهم ، وتقطعت بهم الأرض ، فإنه تعالى ﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾ .

(٩٢) ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴾

﴿ ثم أتبع سبباً ﴾ أي سلك طريقاً من مشارق الأرض .

(٩٣) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾

حتى بلغ بين السدين ، وهما جبلان متناوحان ، بينهما ثغرة ، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيثون فيها فساداً ، ويهلكون الحرث والنسل ، ويأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام كما ثبت في الصحيحين « إن الله تعالى يقول : يا آدم فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : إن فيكم أمتين ، ما كانتا في شيء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج وقوله ﴿ وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ﴾ أي لاستعجام كلامهم ، وبعدهم عن الناس .

(٩٤) ﴿ قَالُواْ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾

﴿ فهل نجعل لك خرجاً ﴾ أجراً عظيماً ، يعني أنهم أرادوا أن يجمعوا له من بينهم مالاً يعطونه إياه حتى يجعل بينه وبينهم سداً .

(٩٥) ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

﴿ قال ﴾ ذو القرنين بعفة وديانة وصلاح وقصد للخير ﴿ ما مكني فيه ربي خير ﴾ أي أن الذي أعطاني الله من الملك والتمكين خير لي من الذي تجمعونه ، كما قال سليمان بن داود ﴿ أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ وهكذا قال ذو القرنين : الذي أنا فيه

خير من الذي تبذلونه ، ولكن ساعدوني بقوة أي بعملكم وآلات البناء ﴿ أجعل بينكم وبينهم ردماً ﴾ .

(٩٦) ﴿ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾

﴿ آتوني زبر الحديد ﴾ والزبر جمع زبرة ، وهي القطعة منه ، وهي كاللبنة . ﴿ حتى إذا ساوى بين الصدفين ﴾ أي وضع بعضه على بعض من الأساس حتى إذا حاذى به رؤوس الجبلين طولاً وعرضاً ﴿ قال انفخوا ﴾ أي أجج عليه النار ، حتى صار كله ناراً ﴿ قال آتوني أفرغ عليه قطراً ﴾ هو النحاس ، زاد بعضهم المذاب ، ويستشهد بقوله تعالى ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ .

(٩٧) ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يأجوج ومأجوج أنهم ما قدروا على أن يصعدوا من فوق هذا السد ، ولا قدروا على نقبه من أسفله ، ولما كان الظهور عليه أسهل من نقبه قابل كلاً بما يناسبه فقال ﴿ فما اسطـاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً ﴾ وفي الحديث « فتح اليوم من روم يأجوج ومأجوج مثل هذا » وعقد التسعين . أخرجه البخاري ومسلم .

(٩٨) ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾

﴿ قال هذا رحمة من ربي ﴾ أي لما بناه ذو القرنين قال هذا رحمة بالناس حيث جعل بينهم وبين يأجوج ومأجوج حائلاً يمنعهم من العبث في الأرض والفساد ﴿ فإذا جاء وعد ربي ﴾ أي اقترب الوعد الحق ﴿ جعله دكاء ﴾ أي مساوياً للأرض . ﴿ وكان وعد ربي حقاً ﴾ أي كائناً لا محالة .

(٩٩) ﴿ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴾

﴿ وتركنا بعضهم ﴾ أي الناس يومئذٍ ، أي يوم يدك هذا السد ، ويخرج هؤلاء فيموجون في الناس ، ويفسدون على الناس أموالهم ، ويتلفون أشياءهم ، وذلك كله قبل يوم القيامة ، وبعد الدجال . ﴿ ونفخ في الصور ﴾ على أثر ذلك . والصور كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام . وفي الحديث « كيف أنعم وصاحب القرن

قد التقم القرن وحنى جبهته ، واستمع متى يؤمر ؟ » قالوا : كيف نقول ؟ قال : « قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » . قوله ﴿ فجمعناهم جمعاً ﴾ أي أحضرنا الجميع للحساب ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ . ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ .

(١٠٠) ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَـٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يفعله بالكفار يوم القيامة إنه يعرض عليهم جهنم أي يبرزها لهم ، ويظهرها ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها ليكون ذلك أبلغ في تعجيل الهم والحزن لهم . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بجهنم تقاد يوم القيامة بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » .

(١٠١) ﴿ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾

ثم قال مخبراً عنهم ﴿ الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري ﴾ أي تغافلوا وتعاموا وتصامموا عن قبول الهدى واتباع الحق كما قال ﴿ ومن يغشى عن ذكر الرحمٰن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ وقال ههنا ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعاً ﴾ أي لا يعقلون عن الله أمره ونهيه .

(١٠٢) ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ نُزُلًا ﴾

﴿ أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء ﴾ أي اعتقدوا أنهم يصح لهم ذلك ، وينتفعون به ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً ﴾ .

(١٠٣) ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴾

في البخاري عن مصعب قال : سألت أبي يعني سعد بن أبي وقاص عن قول الله ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أهم الحروبة ؟ قال : هم اليهود والنصارى ، أما اليهود فكذبوا محمداً ﷺ ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، وقالوا : لا طعام ولا شراب ، والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، فكان سعد يسميهم الفاسقين . ﴿ ننبئكم ﴾ أي نخبركم ﴿ بالأخسرين أعمالاً ﴾ ؟

(١٠٤) ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾

ثم فسرهم فقال ﴿ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴾ أي عملوا أعمالاً باطلة على غير شريعة مشروعة مرضية مقبولة . ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾ أي يعتقدون أنهم على شيء ، وأنهم مقبولون محبوبون .

(١٠٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾

﴿ أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه ﴾ أي جحدوا آيات الله في الدنيا وبراهينه التي أقامها على وحدانيته وصدق رسله وكذبوا بالدار الآخرة﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ أي لا تثقل موازينهم لأنها خالية من كل خير . في البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال « ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » .

(١٠٦) ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾

﴿ ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ﴾ أي إنما جازيناهم بهذا الجزاء بسبب كفرهم ، واتخاذهم آيات الله ورسله هزواً ، استهزؤوا بهم وكذبوهم أشد التكذيب .

(١٠٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾

يخبر تعالى عن عباده السعداء ، وهم الذين آمنوا بالله ورسوله ، وصدقوا المرسلين فيما جاؤوا به أن لهم جنات الفردوس والفردوس هو البستان الذي فيه شجر الأعناب . قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة ، وأوسطها ، وأفضلها . وقد روي هذا مرفوعاً عن النبي ﷺ « الفردوس ربوة الجنة ، أوسطها وأحسنها » . وفي الصحيحين « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة » ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة ، فإن النزل الضيافة .

(١٠٨) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين فيها ساكنين فيها لا يظعنون عنها أبدا ﴿ لا يبغون عنها حولاً ﴾ أي لا يختارون عنها غيرها ، ولا يحبون سواها .

(١٠٩) ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا

بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾

يقول تعالى : قل : يا محمد ، لو كان البحر مداداً للقلم الذي يكتب كلمات الله وحكمه وآياته الدالة عليه لنفد البحر قبل أن يفرغ من كتابة ذلك ﴿ ولو جئنا بمثله مدداً ﴾ أي بمثل البحر آخر ثم آخر وهلم جراً بحور تمده ويكتب بها لما نفدت كلمات الله كما قال تعالى ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ يقول : لو كانت تلك البحور مداداً لكلمات الله ، والشجر كله أقلام لانكسرت الأقلام وفني ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنيها شيء ، لأن أحداً لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي حتى يكون هو الذي يثني على نفسه .

(١١٠) ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾

﴿ قل ﴾ لهؤلاء المشركين المكذبين برسالتك إليهم ﴿ إنما أنا بشر مثلكم ﴾ فمن زعم أني كاذب فليأت بمثل ما جئت به ، فإني لا أعلم الغيب فيما أخبرتكم به من الماضي بما سألتم من قصة أصحاب الكهف ، وخبر ذي القرنين مما هو مطابق في نفس الأمر ، لولا ما أطلعني الله عليه ، وإنما أخبركم ﴿ أنما إلهكم ﴾ الذي أدعوكم إلى عبادته ﴿ إله واحد ﴾ لا شريك له ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ أي ثوابه وجزاءه الصالح ﴿ فليعمل عملاً صالحاً ﴾ هو ما كان موافقاً لشرع الله ﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له ، وهذان ركنا العمل المتقبل ، لا بد أن يكون خالصاً لله ، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ .

* * *

فهرس الجزء الأول
من مختصر تفسير ابن كثير

التنفيذ الطباعي: دار القماطي للطباعة
٨٣٥٥٤٨/٨٢٠٥٢٩ ـ بيروت، لبنان



(تفسير القرآن العظيم)

للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير

اختصار

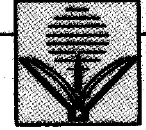
الشيخ محمد كريم راجح

المجلد الثاني

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الطبعة السابعة 1420 هـ 1999 م

DAR EL-MAREFAH
Publishing & Distributing



دار المعرفة
للطباعة والنشر والتوزيع

مستديرة المطار، شارع البرجاوي، ص.ب: ٧٨٧٦، هاتف: ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢، فاكس: ٦٠٣٣٨٤، برقياً: معرفكار بيروت - لبنان
Airport Square, P.O.Box: 7876, Tel: 834332, 834301, Fax: 603384, Beirut - Lebanon

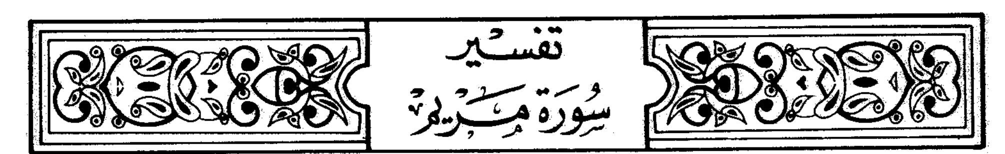
مختصر

تفسير ابن كثير

٢



بسم الله الرحمن الرحيم



تفسير سورة مريم

روى الإمام أحمد عن ابن مسعود في قصته عن الهجرة إلى أرض الحبشة من مكة أن جعفر بن أبي طالب قرأ صدر هذه السورة على النجاشي وأصحابه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ (١)

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴾ (٢)

﴿ ذكر رحمت ربك ﴾ أي هذا ذكر رحمة الله عبده زكريا ، وكان نبياً عظيماً من أنبياء بني إسرائيل ، وفي صحيح البخاري أنه كان نجاراً ، يأكل من عمل يده في النجارة .

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ (٣)

﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾ قيل : إنما أخفى دعاءه لئلا ينسب في طلب الولد إلى الرعونة لكبره ، وقيل : إنما أخفاه لأنه أحب إلى الله ، فإن الله يعلم القلب التقي ، ويسمع الصوت الخفي . قال بعض السلف : قام عليه السلام من الليل ، وقد نام أصحابه فجعل يهتف بربه يقول خفية : يا رب ، يا رب ، فقال الله له : لبيك لبيك لبيك .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ (٤)

﴿ قال رب إني وهن العظم مني ﴾ أي ضعفت وخارت القوى ﴿ واشتعل الرأس شيباً ﴾ أي اضطرم المشيب في السواد . والمراد من هذه الإخبار عن الضعف والكبر ، ودلائله الظاهرة والباطنة . ﴿ ولم أكن بدعائك رب شقياً ﴾ أي ولم أعهد منك إلاّ الإجابة في الدعاء ولم تردني قط فيما سألتك .

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ (٥)

﴿ وإني خفت الموالي من ورائي ﴾ أراد بالموالي العصبة ، وقيل : الكلالة ، وخوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفاً سيئاً فسأل الله ولدا يكون نبياً من بعده ليسوسهم بنبوته ما يوحى إليه ، فأجيب في ذلك ، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله ، فإن

النبي أعظم منزلة ، وأجل قدراً من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده ، وأن يأنف من وراثة عصباته له ، ويسأل أن يكون له ولد ليحوز ميراثه دونهم ، هذا وجه ، والوجه الثاني أنه لم يذكر أنه كان ذا مال ، بل كان نجاراً ، يأكل من كسب يديه ، ومثل هذا لا يجمع مالاً ، ولاسيما الأنبياء ، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا والوجه الثالث أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « لا نورث ، ما تركنا صدقة » . وفي رواية عن الترمذي في الصحيحين « نحن معشر الأنبياء لا نورث » وعلى هذا فتعين حمل قوله ﴿ فهب لي من لدنك ولياً ﴾ .

(٦) ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾

﴿ يرثني ﴾ على ميراث النبوة . ولهذا قال ﴿ ويرث من آل يعقوب ﴾ أي نبوتهم كقوله ﴿ وورث سليمان داوود ﴾ أي في النبوة ﴿ واجعله رب رضياً ﴾ أي مرضياً عندك وعند خلقك تحبه وتحببه إلى خلقك في دينه وخلقه .

(٧) ﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾

هذا الكلام يتضمن محذوفاً وهو أنه أجيب إلى ما سأل في دعائه فقيل له ﴿ يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً ﴾ أي لم يسم أحد قبله بهذا الاسم ، أو شبيهاً كقوله ﴿ هل تعلم له سمياً ﴾ أي شبيهاً . عن ابن عباس : لم تلد العواقر قبله مثله ، وهذا دليل على أن زكريا عليه السلام كان لا يولد له ، وكذلك امرأته كانت عاقراً من أول عمرها ، بخلاف إبراهيم وسارا ، فإنهما إنما تعجبا من البشارة بإسحاق لكبرهما لا لعقرهما .

(٨) ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾

هذا تعجب من زكريا عليه السلام حين أجيب إلى ما سأل وبشر بالولد ، ففرح فرحاً شديداً ، وسأل عن كيفية ما يولد له ، والوجه الذي يأتي منه الولد مع أن امرأته كانت عاقراً لم تلد من أول عمرها مع كبرها ، ومع أنه قد كبر وعتا أي عسى عظمه ونحل ، ولم يبق فيه لقاح وجماع ، والعرب تقول للعود إذا يبس « عتا ، وعسى يعني نحول العظم » .

(٩) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾

(قال) أي الملك مجيباً زكريا عما استعجب منه ﴿ كذلك قال ربك هو علي هين ﴾ أي ايجاد الولد منك ومن زوجتك هذه ، لا من غيرها ﴿ هين ﴾ أي يسير سهل على الله .

ثم ذكر له ما هو اعجب مما سأل عنه فقال ﴿ وقد خلقتك من قبل ولم تـك شيئاً ﴾ كما قال تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

(١٠) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن زكريا عليه السلام انه ﴿ قال رب اجعل لي آية ﴾ اي علامة ودليلاً على وجود ما وعدتني لتستقر نفسي ، ويطمئن قلبي بما وعدتني كما قال ابراهيم عليه السلام ﴿ رب أرني كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ﴾ ﴿ قال آيتك ﴾ أي علامتك ﴿ أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سوياً ﴾ اي ان تحبس لسانك عن الكلام ثلاث ليال وانت صحيح سوي من غير مرض ولا علة . قال زيد بن اسلم : كان يقرأ ويسبح ولا يستطيع أن يكلم قومه الا إشارة .

(١١) ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

﴿ فخرج على قومه من المحراب ﴾ أي الذي بشر فيه بالولد ﴿ فأوحى إليهم ﴾ أي إشارة خفية سريعة ﴿ ان سبحوا بكرة وعشياً ﴾ زيادة على اعماله شكراً لله على ما أولاه .

(١٢) ﴿ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾

وهذا أيضاً تضمن محذوفاً ، تقديره أنه وجد هذا الغلام المبشر به ، وهو يحيى عليه السلام ، وان الله علمه الكتاب ، وهو التوراة التي كانوا يتدارسونها بينهم ، ويحكم بها النبيون الذين اسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار ، وقد كان سنه إذ ذاك صغيراً ، فلهذا نوه بذكره ، وبما انعم به عليه وعلى والديه فقال ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ أي تعلم الكتاب بقوة أي بجد وحرص واجتهاد ﴿ وآتيناه الحكم صبياً ﴾ أي الفهم والعلم والجد والحزم والاقبال على الخير والإكباب عليه ، والاجتهاد فيه ، وهو صغير حدث . قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، فقال ما للعب خلقنا .

(١٣) ﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾

﴿ وحناناً من لدنا ﴾ يقول : ورحمة من عندنا ، وتعطفاً من ربه عليه ، أي وجعلناه ذا حنان وزكاة ، فالحنان في شفقة وميل ، والزكاة والطهارة من الدنس والآثام والذنوب ﴿ وكان تقياً ﴾ طهر فلم يعمل بذنب .

(١٤) ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴾

﴿ وبرا بوالديه ولم يكن جباراً عصيا ﴾ لما ذكر تعالى طاعته لربه ، وانه خلقه ذا رحمة وزكاة وتقىً عطف بذكر طاعته لوالديه وبره بهما ، ومجانبته عقوقهما قولاً وفعلاً امراً ونهياً ، ولهذا قال ﴿ ولم يكن جباراً عصياً ﴾ .

(١٥) ﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴾

﴿ وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا ﴾ أي له الأمان في هذه الثلاثة الاحوال . في الحديث « ما أحد يلقى الله يوم القيامة إلا ذا ذنب إلا يحيى بن زكريا » عن الحسن قال : إن يحيى وعيسى عليهما السلام التقيا ، فقال له عيسى ، استغفر لي أنت خير مني ، فقال له الآخر : أنت خير مني ، فقال له عيسى : أنت خير مني ، سلمت على نفسي ، وسلم الله عليك فعرف والله فضلهما .

(١٦) ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴾

لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام ، وانه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته ولداً زكياً طاهراً مباركاً عطف عليه بذكر قصة مريم في إيجاده عيسى عليه السلام منها من غير أب ، فان بين القصتين مشابهة ومناسبة ، ولهذا ذكرهما في آل عمران وههنا وفي سورة الانبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى ، ليدل عباده على قدرته ، وعظمة سلطانه ، وانه على ما يشاء قادر ، فقال : ﴿ واذكر في الكتاب مريم ﴾ وهي مريم بنت عمران من سلالة داود عليه السلام ﴿ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً ﴾ اي اعتزلتهم وتنحت عنهم ، وذهبت إلى شرقي المسجد المقدس .

(١٧) ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴾

﴿ فاتخذت من دونهم حجاباً ﴾ اي استترت منهم وتوارت فأرسل الله تعالى اليها جبريل عليه السلام ﴿ فتمثل لها بشراً سوياً ﴾ اي على صورة انسان تام كامل .

(١٨) ﴿ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴾

لما تبدى لها الملك في صورة بشر ، وهي في مكان منفرد ، وبينها وبين قومها حجاب خافته ، وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت : (إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا) اي ان كنت تخاف الله تذكيرا له بالله .

(١٩) ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾

فقال لها الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها : لست مما تظنين ، ولكن رسول ربك ، اي بعثني الله اليك ، وقال ﴿ إنما انا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ﴾

(٢٠) ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾

(قالت أنى يكون لي غلام) اي فتعجبت مريم من هذا ، وقالت : كيف يكون لي غلام ؟ اي على اي صفة يوجد هذا الغلام مني ، ولست بذات زوج ، ولا يتصور مني الفجور ، ولهذا قالت (ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً) والبغي هي الزانية ، ولهذا جاء في الحديث النهي عن مهر البغي .

(٢١) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾

أي فقال لها الملك مجيباً لها عما سألت : ان الله قد قال : إنه سيوجد منك غلاماً وان لم يكن لك بعل ، ولا يوجد منك فاحشة ، فانه على ما يشاء قادر ، ولهذا قال : ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ أي دلالة وعلامة للناس على قدرة بارئهم ، وخالقهم الذي نوع في خلقهم ، فخلق أباهم آدم من غير ذكر وانثى ، وخلق حواء من ذكر بلا انثى ، وخلق بقية الذرية من ذكر وانثى الا عيسى ، فانه اوجده من انثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه ، فلا اله غيره ولا رب سواه وقوله ﴿ ورحمة منا ﴾ أي ونجعل هذا الغلام رحمة من الله نبياً من الأنبياء يدعو الى عبادة الله تعالى وتوحيده وقوله ﴿ وكان امراً مقضياً ﴾ يحتمل ان هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها ان هذا امر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته ، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد ﷺ ، وأنه كنى بهذا عن النفخ في فرجها . والمراد أن الله عزم على هذا فليس منه بد .

(٢٢) ﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مريم انها لما قال لها جبريل عن الله تعالى ما قال انها استسلمت لقضاء الله تعالى والظاهر انها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن تسعة أشهر ، وقيل : لم يكن الا ان حملت فوضعت .

(٢٣) ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾

﴿ فأجاءها المخاض الى جذع النخلة ﴾ أي فاضطرها والجأها الطلق الى جذع النخلة في

المكان الذي تنحت اليه ﴿ قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ﴾ فيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتنة ، فانها عرفت انها ستبتلى ، وتمتحن بهذا المولود الذي لا يحمل الناس فيه امرها على السداد ، ولا يصدقونها في خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة تصبح عندهم فيما يظنون عاهرة زانية . ﴿ وكنت نسياً منسياً ﴾ أي لم اخلق ولم أك شيئاً .

(٢٤) ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾

﴿ فناداها من تحتها ﴾ جبريل ، أو عيسى بن مريم ﴿أن لا تحزني ﴾ اي ناداها قائلاً : لا تحزني ﴿ قد جعل ربك تحتك سرياً ﴾ هو الجدول ـ النهر الصغير .

(٢٥) ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾

﴿ وهزي اليك بجذع النخلة ﴾ اي وخذي اليك بجذع النخلة ، والظاهر انها لم تكن في ابان ثمرها ، ولهذا امتن عليها بذلك بأن جعل عندها طعاماً وشراباً فقال ﴿ تساقط عليك رطباً جنياً ﴾ .

(٢٦) ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾

﴿ فكلي واشربي وقري عينا ﴾ اي طيبي نفساً . قال عمرو بن ميمون : ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب ، ثم تلا هذه الآية الكريمة ﴿ فإما ترين من البشر أحداً ﴾ اي مهما رأيت من أحد ﴿ صوماً ﴾ صمتاً .

(٢٧) ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن مريم حين أمرت ان تصوم يومها ذلك وان لا تكلم احدا من البشر ، فإنها ستكفى امرها ، ويقام بحجتها ، فسلمت لأمر الله عز وجل ، واستسلمت لقضائه ، فأخذت ولدها ، فأتت به قومها تحمله ، فلما رأوها كذلك اعظموا امرها واستنكروه جداً ، وقالوا (يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً) أي امراً عظيماً .

(٢٨) ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾

﴿ يا أخت هارون ﴾ أي يا شبيهة هارون في العبادة ﴿ ما كان ابوك امرأ سوء . . . ﴾ اي

انت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة ، فكيف صدر هذا منك ، وقيل : نسبت الى رجل صالح كان فيهم اسمه هارون ، فكانت تتأسى به في الزهادة والعبادة .

(٢٩) ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

﴿ فأشارت اليه . . . ﴾ اي لما استرابوا في امرها ، واستنكروا قضيتها ، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية ، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامتة ، فأحالت الكلام عليه ، واشارت لهم الى خطابه وكلامه ، فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدري بهم ، وتلعب بهم ﴿ كيف نكلم من كان في المهد صبياً ﴾ .

(٣٠) ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾

﴿ قال إني عبد الله ﴾ أول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى ، برأه عن الولد ، واثبت لنفسه العبودية لربه . ﴿ آتاني الكتاب وجعلني نبياً ﴾ تبرئة لأمه مما نسبت اليه من الفاحشة ، والمراد انه قضى ان يؤتيني الكتاب في ما قضى ، ﴿ وجعلني نبياً ﴾ .

(٣١) ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

﴿ وجعلني مباركاً اينما كنت ﴾ أي وجعلني معلما للخير نفاعاً آمراً بالمعروف ، وناهياً عن المنكر اينما كنت ﴿ واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ كقوله تعالى لمحمد ﷺ ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ .

(٣٢) ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾

﴿ وبراً بوالدتي ﴾ اي وامرني ببر والدتي ، ذكره بعد طاعة ربه لأن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين الامر بعبادته ، وطاعة الوالدين كما قال ﴿ وقضى ربك الا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ﴾ ﴿ ولم يجعلني جباراً شقياً ﴾ اي ولم يجعلني جباراً مستكبراً عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك . قال بعض السلف : لا تجد احداً عاقاً لوالديه الا وجدته جباراً شقياً .

(٣٣) ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾

﴿ والسلام علي يوم ولدت . . . ﴾ هذا اثبات لعبوديته لله عز وجل ، وانه مخلوق من خلق الله الذي يحيي ويميت ، ويبعث كسائر الخلائق ، ولكن له السلامة في هذه الاحوال

الثلاثة التي هي اشق ما يكون على العباد ، صلوات الله وسلامه عليه .

(٣٤) ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ : ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام ﴿ قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ اي يختلف المبطلون والمحقون ممن آمن به وكفر به .

(٣٥) ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

ولما ذكر تعالى انه خلقه عبداً نبياً نزه نفسه المقدسة فقال ﴿ ما كان لله ان يتخذ من ولد سبحانه ﴾ عما يقول الجاهلون الظالمون المعتدون علواً كبيراً ﴿ اذا قضى امراً . . . ﴾ اي اذا اراد شيئاً فانما يأمر به فيصير كما يشاء .

(٣٦) ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ وان الله ربي وربكم فاعبدوه . . . ﴾ اي ومما أمر به عيسى قومه ، وهو في مهده أن اخبرهم اذ ذاك ان الله ربه وربهم وامرهم بعبادته فقال ﴿ فاعبدوه هذا صراط مستقيم ﴾ اي هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم اي قويم ، من اتبعه رشد وهدي ، ومن خالفه ضل وغوى .

(٣٧) ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

﴿ فاختلف الاحزاب من بينهم ﴾ اي اختلف قول اهل الكتاب في عيسى بعد بيان امره ووضوح حاله ، وانه عبده ورسوله ، وكلمته القاها الى مريم وروح منه فصممت طائفة منهم ، وهم جمهور اليهود عليهم لعائن الله أنه ولد زنية ، وقال آخرون : هو ابن الله ، وقال آخرون ثالث ثلاثة ، وقال آخرون : هو عبد الله ورسوله ، وهذا هو قول الحق الذي ارشد الله اليه المؤمنين . ﴿ فويل للذين كفروا . . . ﴾ تهديد ووعيد شديد لمن يكذب على الله ، وافترى ، وزعم ان له ولداً ، ولكن أنظرهم تعالى الى يوم القيامة واجلهم حلماً وثقة بقدرته عليهم ، فإنه الذي لا يعجل على من عصاه . وفي الصحيحين ﴿ إن الله ليملي للظالم حتى اذا اخذه لم يفلته ثم قرأ رسول الله : ﴿ وكذلك أخذ ربك اذا اخذ القرى وهي ظالمة إن اخذه اليم شديد ﴾ وقوله ﴿ من مشهد يوم عظيم ﴾ اي يوم القيامة .

(٣٨) ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ اسمع بهم وابصر ﴾ اي ما اسمعهم وابصرهم ﴿ يوم يأتوننا ﴾ اي يوم القيامة ﴿ لكن الظالمون اليوم ﴾ اي في الدنيا ﴿ في ضلال مبين ﴾ اي لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون ، فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون ، ويكونون مطيعين حيث لا ينفعهم ذلك .

(٣٩) ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وانذرهم يوم الحسرة ﴾ من اسماء يوم القيامة ، عظمه الله ، وحذره عباده .

(٤٠) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

﴿ انا نحن نرث الارض . . ﴾ يخبر تعالى انه الخالق المالك المتصرف ، وان الخلق كلهم يهلكون ، ويبقى هو تعالى وتقدس ، ولا احد يدعي ملكاً ، ولا تصرفاً ، بل هو الوارث لجميع خلقه ، الباقي بعدهم ، الحاكم فيهم ، فلا تظلم نفس شيئاً ، ولا جناح بعوضة ، ولا مثقال ذرة .

(٤١) ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ ﴿ واذكر في الكتاب ابراهيم ﴾ واتل على قومك هؤلاء ، الذين يعبدون الاصنام ، واذكر لهم ما كان من خبر ابراهيم خليل الرحمن الذين هم من ذريته ، ويدعون أنهم على ملته ، وقد كان صديقاً نبياً مع أبيه كيف نهاه عن عبادة الاصنام فقال :

(٤٢) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾

﴿ يا أبت لم تعبد ما لا يسمع . . . ﴾ أي لا ينفعك ولا يدفع عنك ضررا .

(٤٣) ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ .

﴿ يا أبت اني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ﴾ يقول : وان كنت من صلبك وتراني اصغر منك لأني ولدك فاعلم اني قد اطلعت من العلم من الله على ما لم تعلمه انت ، ولا اطلعتَ عليه ، ولا جاءك ﴿ فاتبعني أهدك صراط سوياً ﴾ اي طريقاً مستقيماً موصلاً الى نيل المطلوب ، والنجاة من المهروب .

(٤٤) ﴿ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾

﴿ يا ابت لا تعبد الشيطان ﴾ اي لا تطعه في عبادتك هذه الاصنام ، فإنه هو الداعي الى ذلك والراضي به ﴿ ان الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ اي مخالفاً مستكبراً عن طاعة ربه ، فاطرده، وأبعده ، فلا تتبعه تصر مثله .

﴿٤٥﴾ ﴿ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴾

﴿ يا ابت إني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن ﴾ اي على شركك وعصيانك لما آمرك به ﴿ فتكون للشيطان ولياً ﴾ يعني فلا يكون لك ولياً ولا ناصراً ، ولا مغيثاً الا ابليس . وليس اليه ولا الى غيره من الأمر شيء ، بل اتباعك له موجب لاحاطة العذاب بك .

﴿٤٦﴾ ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب ابراهيم لولده فيما دعاه اليه ﴿ أراغب انت عن آلهتي يا ابراهيم ﴾؟ يعني ان كنت لا تريد عبادتها ولا ترضاها فانته عن سبها وشتمها وعيبها ، فإنك ان لم تنته عن ذلك اقتصصت منك وشتمتك وسببتك ، وهو قوله ﴿ لأرجمنك ﴾ وقوله ﴿ واهجرني ملياً ﴾ ابداً ، او سوياً سالماً قبل ان تصيبك مني عقوبة .

﴿٤٧﴾ ﴿ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾

قال ابراهيم لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ كما قال تعالى في صفة المؤمنين ﴿ واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ ومعنى قول ابراهيم لأبيه ﴿ سلام عليك ﴾ يعني اما انا فلا ينالك مني مكروه، ولا أذى لحرمة الابوة ﴿سأستغفر لك ربي﴾ ولكن سأسأل الله فيك أن يهديك ويغفر ذنبك ﴿ إنه كان بي حفياً ﴾ لطيفاً اي في ان هداني لعبادته والاخلاص له ، او ﴿ حفياً ﴾ عودة الاجابة ، او الحفي الذي يهتم بأمره ، وقد استغفر ابراهيم لأبيه مدة طويلة ، وبعد ان هاجر الى الشام وبنى المسجد الحرام وبعد ان ولد له اسماعيل واسحاق عليه السلام ، وقد استغفر المسلمون لقراباتهم واهليهم من المشركين في ابتداء الاسلام ، وذلك اقتداء بإبراهيم الخليل في ذلك . ثم بين تعالى ان ابراهيم اقلع عن ذلك ورجع عنه فقال ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعدما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم . وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن ابراهيم لأواه حليم ﴾ .

﴿٤٨﴾ ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾

﴿ واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي ﴾ اي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله ﴿ وادعو ربي ﴾ اي واعبد ربي وحده لا شريك له ﴿ عسى ان لا اكون بدعاء ربي شقياً ﴾ وعسى هذه موجبة لا محالة ، فإنه عليه السلام سيد الأنبياء بعد محمد ﷺ .

(٤٩) ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾

يقول تعالى : فلما اعتزل الخليل أباه وقومه في الله ابدله الله من هو خير منهم ، ووهب له اسحاق ويعقوب ﴿ وكلا جعلنا نبياً ﴾ .

(٥٠) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾

﴿ ووهبنا لهم من رحمتنا . . . ﴾ يعني الثناء الحسن، وإنما قال ﴿ عليا ﴾ لأن جميع الملل والاديان يثنون عليهم ويمدحونهم .

(٥١) ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾

لما ذكر تعالى ابراهيم الخليل واثنى عليه ، عطف بذكر الكليم فقال ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً ﴾ مصطفى ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ جمع الله له بين الوصفين ، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة ، وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٥٢) ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴾

﴿ وناديناه من جانب الطور ﴾ أي الجانب ﴿ الأيمن ﴾ من موسى حين ذهب يبتغي من تلك النار ، جذوة فرآها تلوح فقصدها فوجدها في جانب الطور الأيمن منه ، غريبة عند شاطىء الوادي فكلمه وناداه وقربه فناجاه ﴿ وقربناه نجياً ﴾ .

(٥٣) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾

﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ أي وأجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه فجعلناه نبياً ، وكان هارون أكبر من موسى .

(٥٤) ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾

هذا ثناء من الله تعالى على اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام ، وهو والد عرب الحجاز كلهم بأنه صادق الوعد . روى ابن جرير ان اسماعيل النبي عليه السلام وعد رجلاً مكاناً يأتيه فيه ، فجاء ونسي الرجل ، فظل به اسماعيل وبات حتى جاء الرجل من الغد فقال : ما برحت من ههنا ؟ قال : اني نسيت ، قال : لم اكن لأبرح حتى تأتيني ، فلذلك ﴿ كان صادق الوعد ﴾ او ﴿ كان صادق الوعد ﴾ لأنه قال لأبيه ﴿ ستجدني ان شاء الله من الصابرين ﴾ فصدق في ذلك ، فصدق الوعد من الصفات الحميدة . كما ان خلفه من الصفات الذميمة وقوله ﴿ وكان رسولاً نبياً ﴾ في هذا دلالة على شرف اسماعيل على اخيه اسحاق ، لأنه انما وصف بالنبوة فقط ، واسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ، وقد ثبت في صحيح مسلم ان رسول الله ﷺ قال « ان الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل » .

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾ (٥٥)

﴿ وكان يأمر اهله بالصلاة . . . ﴾ هذا ايضا من الثناء الجميل ، والصفة الحميدة ، والخلة السديدة ، حيث كان صابراً على طاعة ربه عز وجل ، آمراً بها لأهله .

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (٥٦) وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (٥٧)

ذكر ادريس بالثناء عليه بأنه كان صديقاً نبياً ، وان الله رفعه مكاناً علياً ، وقد مر به رسول الله ﷺ في ليلة الاسراء ، وهو في السماء الرابعة ، أو ﴿ مكاناً علياً ﴾ في الجنة .

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴾ (٥٨)

يقول تعالى : هؤلاء النبيون ﴿ الذين انعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ﴾ فالذي عنى من ذرية آدم ادريس ، والذي عنى به من ذرية من حملنا مع نوح ابراهيم ، والذي عنى به من ذرية ابراهيم اسحاق ويعقوب واسماعيل ، والذي عنى به من ذرية اسرائيل موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى بن مريم ﴿ اذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً ﴾ اي اذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعاً واستكانة حمداً وشكراً على ما هم فيه من النعم العظيمة ، والبكي : جمع باك ، فلهذا اجمع العلماء على شريعة السجود ههنا اقتداء بهم ، واتباعاً لمنوالهم .

﴿٥٩﴾ ﴿ * فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾

لما ذكر تعالى حزب السعداء وهم الأنبياء عليهم السلام ، ومن اتبعهم من القائمين بحدود الله واوامره المؤدين فرائض الله التاركين لزواجره ، ذكر انه خلف من بعد ﴿ خلف ﴾ اي قرون أخر ﴿ اضاعوا الصلاة ﴾ واذا اضاعوها فهم لما سواها من الواجبات اضيع ، لأنها عماد الدين ، وقوامه ، وخير اعمال العباد ، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملاذها ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها فهؤلاء سيلقون غيا اي خسارا يوم القيامة . وقد اختلفوا في المراد باضاعة الصلاة ههنا ، فقال قائلون : المراد باضاعتها تركها بالكلية ، ولهذا ذهب من ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو مشار عن الامام احمد ، وقول عن الشافعي الى تكفير تارك الصلاة ، للحديث « بين العبد وبين الشرك ترك الصلاة » والحديث الآخر « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » وقيل : اضاعوا المواقيت ، ولو كان تركا كان كفراً ﴿ واتبعوا الشهوات ﴾ روى ابن ابي حاتم عن ابي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكون خلف بعد ستين سنة اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً ، ثم يكون خلف يقرءون القرآن لا يعدو تراقيهم ، ويقرأ القرآن ثلاثة : مؤمن ومنافق وفاجر » وقال الحسن البصري : عطلوا المساجد ولزموا الضيعات ﴿ فسوف يلقون غيا ﴾ اي خسراناً .

﴿٦٠﴾ ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾

﴿ الامن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ اي الا من رجع عن ترك الصلوات ، واتباع الشهوات فإن الله يقبل توبته ، ويحسن عاقبته ، ويجعله من ورثة جنة النعيم ، ولهذا قال ﴿ فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ﴾ وذلك لأن التوبة تجب ما قبلها . وفي الحديث الآخر « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

﴿٦١﴾ ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَأۡتِيّٗا ﴾

يقول تعالى : الجنات التي يدخلها التائبون من ذنوبهم هي ﴿ جنات عدن ﴾ اي إقامة ﴿ التي وعد الرحمن عباده ﴾ بظهر الغيب ، اي هي من الغيب الذي يؤمنون به ، وما رأوه ، وذلك لشدة ايقانهم ، وقوة ايمانهم . وقوله ﴿ انه كان وعده مأتياً ﴾ تأكيد لحصول ذلك وثبوته واستقراره ، فإن الله لا يخلف الميعاد ولا يبدله ﴿ مأتياً ﴾ اي العباد صائرون اليه وسيأتونه ، ومنهم من قال ﴿ مأتياً ﴾ بمعنى آتياً ، لأن كل ما أتاك فقد اتيته .

(٦٢) ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾

﴿ لا يسمعون فيها لغوا ﴾ اي هذه الجنات ليس فيها كلام ساقط تافه لا معنى له ، كما قد يوجد في الدنيا . وقوله ﴿إلا سلاما﴾ استثناء منقطع . وقوله ﴿ ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ﴾ اي في مثل وقت البكرات ، ووقت العشيات ، لا أن هناك ليلاً ونهاراً ، ولكنهم في اوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار . روى الامام احمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اول زمرة تلج الجنة ، صورهم على صورة القمر ليلة البدر ، لا يبصقون فيها ، ولا يتمخطون فيها ، ولا يتغوطون ، آنيتهم وامشاطهم الذهب والفضة ، ومجامرهم الألوة ، ورشحهم المسك ، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب رجل واحد ، يسبحون الله بكرة وعشيا » أخرجاه في الصحيحين .

(٦٣) ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾

﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ اي هذه الجنة التي وصفناها بهذه الصفات العظيمة هي التي نورثها عبادنا المتقين وهم المطيعون لله عز وجل في السراء والضراء ، والكاظمون الغيظ والعافون عن الناس .

(٦٤) ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾

روى الامام احمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ لجبريل : « ما يمنعك ان تزورنا اكثر مما تزورنا ؟ قال فنزلت ﴿ وما نتنزل الا بأمر ربك ﴾ وقوله ﴿ له ما بين أيدينا . . ﴾ ما بين أيدينا من أمر الدنيا، ﴿وما خلفنا﴾ من أمر الآخرة» ﴿وما بين ذلك﴾. ما بين النفختين ﴿ وما كان ربك نسياً ﴾ معناه ما نسيك ربك . روى ابن ابي حاتم عن أبي الدرداء يرفعه « ما احل الله في كتابه فهو حلال ، وما حرمه فهو حرام ، وما سكت عنه فهو عافية ، فاقبلوا من الله عافيته ، فان الله لم يكن لينسى شيئاً » ثم تلا هذه الآية .

(٦٥) ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾

﴿ رب السموات والارض وما بينهما ﴾ اي خالق كل شيء ومدبره والحاكم فيه والمتصرف الذي لا معقب لحكمه ﴿ فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سمياً ﴾ اي هل تعلم للرب مثلاً وشبيهاً ، أوْ ليس احد يسمى الرحمن غيره ، تبارك وتعالى وتقدس اسمه .

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۝٦٦ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾ ۝٦٧

يخبر تعالى عن الانسان انه يتعجب ويستبعد اعادته بعد موته كما قال تعالى ﴿ وان تعجب فعجب قولهم إئذا كنا تراباً ائنا لفي خلق جديد ﴾ وفي الصحيح « يقول تعالى : كذبني ابن آدم ، ولم يكن له ان يكذبني ، وآذاني ابن آدم ولم يكن له ان يؤذيني ، اما تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني ، وليس اول الخلق بأهون علي من آخره ، واما أذاه اياي فقوله : ان لي ولداً ، وانا الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد » .

۝٦٨ ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

﴿ فوربك لنحشرنهم والشياطين ﴾ اقسم الرب تبارك وتعالى بنفسه الكريمة انه لا بد ان يحشرهم جميعاً ، وشياطينهم الذين كانوا يعبدون من دون الله ﴿ ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا ﴾ يعني قعوداً ﴿ وترى كل أمة جاثية ﴾ او قياما .

۝٦٩ ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴾

﴿ ثم لننزعن من كل شيعة ﴾ يعني من كل امة ﴿ ايهم اشد على الرحمن عتيا ﴾ اي لننزعن من اهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر .

۝٧٠ ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴾

﴿ ثم لنحن اعلم بالذين هم اولى بها صليا ﴾ والمراد انه تعالى اعلم بمن يستحق من العباد ان يصلى بنار جهنم ، ويخلد فيها ، وبمن يستحق تضعيف العذاب .

۝٧١ ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾

عن الحسن البصري قال : قال رجل لأخيه : هل أتاك انك وارد النار؟ قال : نعم ، قال : فهل اتاك انك صادر عنها؟ قال : لا ، قال : ففيم الضحك؟ قال : فما رئي ضاحكاً حتى لحق الله . قال رسول الله ﷺ : « يرد الناس كلهم ، ثم يصدرون عنها بأعمالهم » رواه الامام احمد والترمذي . وروى ابن جرير عن عبد الله قال : الصراط على جهنم مثل حد السيف فتمر الطبقة الاولى كالبرق ، والثانية كالريح ، والثالثة كأجود الخيل ، والرابعة كأجود البهائم ، ثم يمرون والملائكة يقولون : اللهم سلم سلم . روى الامام احمد « لا يدخل النار احد شهد بدراً والحديبية » قالت حفصة : اليس الله يقول

﴿ وإن منكم الا واردها ﴾ ؟ فقرأ رسول الله ﷺ ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا . . . ﴾ وفي الصحيحين « ولا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد تمسه النار إلا تحلة القسم » .

(٧٢) ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾

﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ﴾ اي اذا مر الخلائق كلهم على النار وسقط من الكفار والعصاة نجى الله المتقين منها بحسب اعمالهم فجوازهم على الصراط وسرعتهم بقدر اعمالهم التي كانت في الدنيا ، ثم يشفعون في اصحاب الكبائر من المؤمنين ، فيشفع الملائكة والنبيون والمؤمنون فيخرجون خلقاً كثيراً ، وقد اكلتهم النار الإدارات وجوههم ، وهي مواضع السجود ، واخراجهم إياهم من النار بحسب ما في قلوبهم من الايمان ، فيخرجون اولا من كان في قلبه مثقال دينار من ايمان وثم الذي يليه ، ثم الذي يليه حتى يخرجوا من كان في قلبه ادنى ادنى ادنى مثقال ذرة من ايمان ، ثم يخرج الله من النار من قال يوماً من الدهر « لا اله الا الله » ولم يعمل خيراً قط ولا يبقى في النار الا من وجب عليه الخلود كما وردت بذلك الاحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ .

(٧٣) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾

يخبر تعالى عن الكفار حين تتلى عليهم آيات الله ظاهرة الدلالة ، بينة الحجة ، واضحة البرهان انهم يصدون ويعرضون عن ذلك ، ويقولون عن الذين آمنوا مفتخرين عليهم ، ومحتجين على صحة ما هم عليه من الدين الباطل بأنهم ﴿ خير مقاماً وأحسن ندياً ﴾ اي احسن منازل ، وارفع دوراً ، واحسن ندياً ، وهو مجتمع الرجال .

(٧٤) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴾

﴿ وكم اهلكنا قبلهم من قرن ﴾ اي وكم من أمة وقرن من المكذبين قد اهلكناهم بكفرهم ﴿ هم احسن اثاثاً ورئياً ﴾ اي كانوا احسن من هؤلاء اموالاً وامتعة ومناظر وأشكالاً .

(٧٥) ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴾

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بربهم المدعين انهم على الحق ، وانكم على الباطل ﴿ من كان في الضلالة ﴾ اي منا ومنكم ﴿ فليمدد له الرحمن مداً ﴾ اي

فأمهله الرحمن فيما هو فيه حتى يلقى ربه ، وينقضي اجله ﴿ اما العذاب ﴾ يصيبه ﴿ وإما الساعة ﴾ بغتة تأتيه ﴿ فسيعلمون ﴾ حينئذ ﴿ من هو شر مكاناً واضعف جنداً ﴾ في مقابلة ما احتجوا به من خير المقام ، وحسن الندي .

(٧٦) ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾

لما ذكر تعالى امداد من هو في الضلالة فيما هو فيه ، وزيادته على ما هو عليه اخبر بزيادة المهتدين هدى كما قال تعالى ﴿ واذا ما انزلت سورة فمنهم من يقول ايكم زادته هذه ايماناً **فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . واما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى** رجسهم ﴾ وقوله ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً ﴾ اي جزاء ﴿ وخير مردّاً ﴾ اي عاقبة ومردا على صاحبها . روى عبد الرزاق قال : جلس رسول الله ﷺ ذات يوم فأخذ عوداً يابساً فحط ورقه ، ثم قال : « إن قول لا إله إلا الله ، والله أكبر ، وسبحان الله ، والحمد لله تحط الخطايا كما تحط ورق هذه الشجرة الريح ، خذهن يا أبا الدرداء قبل أن يحال بينك وبينهن ، هن الباقيات الصالحات ، وهن من كنوز الجنة » .

(٧٧) ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾

روى الإمام أحمد عن خباب بن الأرت قال: كنت رجلاً قيناً، وكان لي على العاصي بن وائل دين ، فأتيته اتقاضاه منه فقال : لا والله لا اقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا اكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث ، قال : فاني اذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك ، فأنزل الله ﴿ افرأيت الذي كفر . . . ﴾ الى قوله ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ اخرجه صاحبا الصحيحين وغيرهما .

(٧٨) ﴿ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾

﴿ ام اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ موثقاً .

(٧٩) ﴿ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴾

﴿ كلا ﴾ هي حرف ردع لما قبلها ، وتأكيد لما بعدها ﴿ سنكتب ما يقول ﴾ اي من طلبه ذلك ، وحكمه لنفسه بما يتمناه ، وكفره بالله العظيم . ﴿ ونمد له من العذاب مداً ﴾ اي في الدار الآخرة على قوله ذلك ، وكفره بالله في الدنيا .

(٨٠) ﴿ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾

﴿ ونرثه ما يقول ﴾ اي من مال وولد ، نسلبه منه ، عكس ما قال : إنه يؤتى في الدار

الآخرة مالاً وولداً زيادة على الذي له في الدنيا ، بل في الآخرة يسلب من الذي له في الدنيا ، ولهذا قال : ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ اي من المال والولد .

(٨١) ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴾

يخبر تعالى عن الكفار المشركين بربهم انهم اتخذوا من دونه آلهة ، لتكون تلك الآلهة ﴿عزاً﴾ يعتزون بها ويستنصرونها .

(٨٢) ﴿ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾

ثم اخبر انه ليس الامر كما زعموا ، ولا يكون ما طمعوا فقال ﴿ كلا سيكفرون بعبادتهم ﴾ اي يوم القيامة ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ اي بخلاف ما ظنوا فيهم كما قال تعالى ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ وقوله ﴿ ويكونون عليهم ضداً ﴾ أي بخلاف مارجوا منهم .

(٨٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾

﴿ تؤزهم أزاً﴾ تغريهم اغراء ، او تحرضهم على محمد واصحابه ، او تزعجهم ازعاجا الى معاصي الله .

(٨٤) ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾

﴿ فلا تعجل عليهم انما نعد لهم عداً ﴾ لا تعجل يا محمد على هؤلاء في وقوع العذاب بهم ﴿ انما نعدّ لهم عداً ﴾ اي انما نؤخرهم لأجل معدود مضبوط ، وهم صائرون لا محالة الى عذاب الله ونكاله . ﴿ انما نعد لهم عداً ﴾ نعد انفاسهم في الدنيا .

(٨٥) ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾

يخبر تعالى عن اوليائه المتقين الذين خافوه في الدار الدنيا ، واتبعوا رسله ، وصدقوهم فيما اخبروهم واطاعوهم فيما امروهم به ، وانتهوا عما زجروهم انه يحشرهم يوم القيامة ، وفدا اليه . والوفد هم القادمون ركباناً ، ومنه الوفود ، وركوبهم على نجائب من نور من مراكب الدار الآخرة ، وهم قادمون على خير موفود اليه إلى دار كرامته ورضوانه .

(٨٦) ﴿ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴾

واما المجرمون المكذبون للرسل ، المخالفون لهم ، فإنهم يساقون عنفاً الى النار ﴿ وردا ﴾ عطاشاً .

(٨٧) ﴿ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾

﴿ لا يملكون الشفاعة ﴾ اي ليس لهم من يشفع لهم كما يشفع المؤمنون بعضهم لبعض كما قال تعالى مخبراً عنهم ﴿ فمالنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ وقوله ﴿ الا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴾ هذا استثناء منقطع ، بمعنى لكن من اتخذ عند الرحمن عهداً ، وهو شهادة ان لا اله الا الله ، والقيام بحقوقها .

(٨٨) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴾ (٨٩)

لما قرر هذا تعالى في هذه السورة الشريفة عبودية عيسى عليه السلام ، وذكر خلقه من مريم بلا أب شرع في مقام الانكار على من زعم ان له ولداً ، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علوا كبيراً ، فقال ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، لقد جئتم ﴾ اي في قولكم هذا ﴿ شيئاً إدّاً ﴾ عظيماً .

(٩٠) ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ (٩١)

﴿ تكاد السموات يتفطرن منه . . . ﴾ اي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم اعظاماً للرب واجلالاً ، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده ، وانه لا اله الا هو ، وانه لا شريك له ، ولا نظير له ، ولا ولد له ، ولا صاحبة له ، ولا كفء له ، بل هوالاحد الصمد . وفي الحديث « لقنوا موتاكم شهادة ان لا إله الا الله ، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة » فقالوا : يا رسول الله ، فمن قالها في صحته ؟ قال : « تلك اوجب واوجب » ثم قال : « والذي نفسي بيده ، لو جيء بالسموات والارضين ، وما فيهن ، وما بينهن ، وما تحتهن ، فوضعن في كفة الميزان ، ووضعت شهادة ان لا اله الا الله في الكفة الاخرى لرجحت بهن » هكذا رواه ابن جرير .

(٩٢) ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾

﴿ وما ينبغي للرحمن ان يتخذ ولداً ﴾ اي لا يصلح له ، ولا يليق به لجلاله وعظمته ، لأنه لا كفء له من خلقه ، لأن جميع الخلائق عبيد له .

(٩٣) ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ (٩٤)

﴿ إن كل من في السموات والارض . . . ﴾ اي قد علم عددهم منذ خلقهم الى يوم القيامة ، ذكرهم وأنثاهم وصغيرهم وكبيرهم .

(٩٥) ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾

﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ اي لا ناصر له ، ولا مجير الا الله وحده لا شريك له ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة ، ولا يظلم احداً .

(٩٦) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾

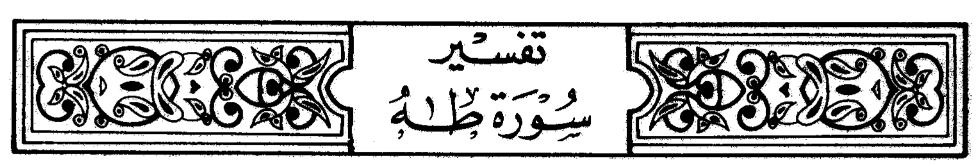
يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية ، يخبر أنه يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة ، وهذا أمر لا بد منه ، ولا محيد عنه ، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ من غير وجه ، روى مسلم والبخاري والامام أحمد عن النبي ﷺ قال : « ان الله اذا أحب عبداً دعا جبريل ، فقال : يا جبريل اني أحب فلاناً فأحبه ، قال : فيحبه جبريل ، قال : ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يحب فلاناً فأحبوه ، قال : فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وان الله اذا أبغض عبداً دعا جبريل فقال : يا جبريل إني أبغض فلاناً فأبغضه ، قال : فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : ان الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، قال : فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض » .

(٩٧) ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾

﴿ فإنما يسرناه ﴾ يعني القرآن ﴿ بلسانك ﴾ أي يا محمد ، وهو اللسان العربي المبين الفصيح الكامل ﴿ لتبشر به المتقين ﴾ أي المستجيبين لله المصدقين لرسوله ﴿ وتنذر به قوماً لدا ﴾ أي عوجا عن الحق ، مائلين الى الباطل . والألد : الخصم ، أو الكذاب .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ (٩٨)

﴿ من قرن ﴾ أي من أمة كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ أي هل ترى منهم أحداً ، أو تسمع لهم صوتاً ؟ والركز في أصل اللغة هو الصوت الخفي .



تفسير سورة طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ طه ﴾

﴿ طه ﴾ قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ (٢) إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ (٣)

روى القاضي عياض في كتابه الشفاء عن الربيع بن انس قال : كان النبي ﷺ إذا صلى قام على رجل ورفع الاخرى ، فأنزل الله ﴿ طه ﴾ يعني طأ الارض يا محمد ﴿ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾ ثم قال : ولا يخفى ما في هذا من الاكرام وحسن المعاملة . عن الضحاك لما أنزل الله القرآن على رسوله ﷺ قام به هو وأصحابه فقال المشركون من قريش : ما أنزل هذا القرآن على محمد إلا ليشقى . ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكره لمن يخشى ﴾ فليس الأمر كما زعم المبطلون ، بل من أتاه الله العلم وقد أراد به خيراً كثيراً كما ثبت في الصحيحين عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وما أحسن الحديث الذي رواه الطبراني عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى للعلماء يوم القيامة إذا قعد على كرسيه لقضاء عباده : إني لم أجعل علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي » إسناده جيد . قال قتادة : لا والله ، ما جعله شقاء ، ولكن جعله رحمة ونوراً ودليلاً إلى الجنة . ﴿ إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ أي أن الله أنزل كتابه ، وبعث رسوله رحمة رحم بها عباده ليتذكر ذاكر ، وينتفع رجل بما سمع من كتاب الله ، وهو ذكر أنزل الله فيه حلاله وحرامه .

(٤) ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴾

﴿ تنزيلاً ممن خلق الارض والسموات العلى ﴾ اي هذا القرآن الذي جاءك يا محمد هو تنزيل من ربك رب كل شيء ومليكه القادر على ما يشاء ، الذي خلق الارض بانخفاضها ، وكثافتها ، وخلق السموات العلى في ارتفاعها ولطافتها .

(٥) ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾

﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ من غير تكييف ولا تحريف ، ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل .

(٦) ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾

﴿ له ما في السموات وما في الأرض . . . ﴾ اي الجميع ملكه وفي قبضته وتحت تصرفه ، ومشيئته وارادته وحكمه ، وهو خالق ذلك ومالكه وآلهه ، لا إله سواه، ولا رب غيره وقوله ﴿ ما تحت الثرى ﴾ اي ما تحت الارض السابقة .

(٧) ﴿ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴾

﴿ وان تجهر بالقول فانه يعلم السر واخفى ﴾ اي انزل هذا القرآن الذي خلق الارض والسموات العلى الذي يعلم السر واخفى والسر ما اسره ابن آدم في نفسه ، واخفى ما اخفى على ابن آدم مما هو فاعله قبل ان يعلمه ، فالله يعلم ذلك كله ، فعلمه فيما مضى من ذلك وما بقي علم واحد ، وجميع الخلائق عنده كنفس واحدة ، وهو قوله ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة ﴾ او السر هو ما تحدث به نفسك ، وأخفى هو ما لم تحدث به نفسك بعد .

(٨) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾

﴿ الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى ﴾ اي الذي انزل عليك القرآن هو الله الذي لا اله الا هو ذو الاسماء الحسنى والصفات العلى .

(٩) ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (٩) إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾ (١٠)

من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى ، كيف كان ابتداء الوحي اليه ، وتكليمه

اياه ، وذلك بعد ما قضى موسى الاجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله ، قيل : قاصداً بلاد مصر بعدما طالت الغيبة عنها اكثر من عشر سنين ، ومعه زوجته ، فأضل الطريق ، وكانت ليلة شاتية ، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال في برد وشتاء ، وسحاب ظلام وضباب وجعل يقدح بزند معه ليوري ناراً كما جرت له العادة به ، فجعل لا يقدح شيئاً ، ولا يخرج منه شرر ولا شيء ، فبينما هو كذلك اذ آنس من جانب الطور ناراً ، اي ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه فقال لأهله يبشرهم ﴿ إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس ﴾ اي شهاب من نار ، وقوله ﴿ بقبس ﴾ دل على وجود الظلام . وقوله ﴿ او اجد على النار هدى ﴾ اي من يهديني الطريق ، دل على انه قد تاه عن الطريق ، فان لم اجد احدا يهديني الى الطريق أتيتكم بنار توقدون بها .

(١١) ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ (١١) إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴾ (١٢)

يقول تعالى ﴿ فلما أتاها ﴾ اي النار واقترب منها ﴿ نودي يا موسى ﴾ وفي الآية الاخرى ﴿ نودي من شاطىء الوادي الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني انا الله ﴾ وقال ههنا ﴿ اني أنا ربك ﴾ أي الذي يكلمك ويخاطبك ﴿ فاخلع نعليك ﴾ قيل : انما امره بخلع نعليه تعظيماً للبقعة . ﴿ طوى ﴾ هو اسم وادي .

(١٣) ﴿ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴾

﴿ وأنا اخترتك ﴾ كقوله ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ اي على جميع الناس من الموجودين في زمانه ﴿ فاستمع لما يوحى ﴾ اي استمع الآن ما اقول لك ، وأوحيه اليك .

(١٤) ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾

﴿ انني انا الله لا اله الا أنا ﴾ هذا اول واجب على المكلفين ان يعلموا انه لا اله الا الله وحده لا شريك له ﴿ فاعبدني ﴾ اي وحدني وقم بعبادتي من غير شريك ﴿ واقم الصلاة لذكري ﴾ قيل : معناه ، صل لتذكرني ، وقيل : معناه وأقم الصلاة عند ذكرك لي ، ويشهد لهذا ما رواه الامام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : اذا رقد أحدكم عن الصلاة ، أو غفل عنها فليصلها اذا ذكرها فان الله تعالى قال ﴿ وأقم الصلاة لذكري ﴾ وفي الصحيحين

عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « من نام عن صلاة أو نسيها فكفارته أن يصليها اذا ذكرها ، لا كفارة لها الا ذلك » .

(١٥) ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾

﴿ ان الساعة آتية ﴾ أي قائمة لا محالة، وكائنة لا بد منها . وقوله ﴿ أكاد أخفيها ﴾ يقول : لا أطلع عليها أحداً غيري ، قال السدي يقول : كتمتها عن الخلائق حتى لو استطعت أن أكتمها من نفسي لفعلت ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ أي أقيمها لا محالة لأجزي كل عامل بعمله .

(١٦) ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾

﴿ فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها ﴾ المراد بهذا الخطاب آحاد المكلفين أي لا تتبعوا سبيل من كذب بالساعة ، وأقبل على ملاذه في دنياه ، وعصى مولاه ، واتبع هواه ، فمن وافقهم على ذلك فقد خاب وخسر ﴿ فتردى ﴾ أي تهلك وتعطب .

(١٧) ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾

هذا برهان من الله تعالى لموسى عليه السلام ، ومعجزة عظيمة ، وخرق للعادة باهر دل على انه لا يقدر على مثل هذا الا الله عز وجل ، وانه لا يأتي به الا نبي مرسل . وقوله ﴿ وما تلك بيمينك يا موسى ﴾ قال بعض المفسرين : انما قال ذلك على سبيل الايناس له ، وقيل : انما ذلك على وجه التقرير ، اي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها فسترى ما نصنع بها الآن .

(١٨) ﴿ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴾

﴿ قال هي عصاى أتوكأ عليها ﴾ اي اعتمد عليها في حال المشي ﴿ وأهش بها على غنمي ﴾ اي اهز بها الشجرة ليتساقط ورقها لترعاه غنمي ﴿ ولي فيها مآرب اخرى ﴾ اي مصالح ومنافع وحاجات اخرى غير ذلك .

(١٩) ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴾

﴿ قال ألقها يا موسى ﴾ اي هذه العصا التي في يدك ألقها .

(٢٠) ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾

﴿فألقاها فاذا هي حية تسعى﴾ اي صارت في الحال حية عظيمة ثعباناً طويلاً يتحرك حركة سريعة ، فاذا هي تهتز كأنها جان ، وهو اسرع الحيات حركة ، ولكنه صغير ، فهذه في غاية الكبر ، وفي غاية سرعة الحركة . ﴿تسعى﴾ اي تمشي وتضطرب .

(٢١) ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾

﴿قال خذها﴾ بيمينك ﴿ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى﴾ اي الى حالها التي تعرف قبل ذلك .

(٢٢) ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ (٢٢) لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَـٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴾ (٢٣)

وهذا برهان ثان لموسى عليه السلام ، وهو ان الله امره ان يدخل يده في جيبه ﴿واضمم يدك الى جناحك﴾ ضع كفك تحت عضدك ، وذلك ان موسى كان اذا ادخل يده في جيبه ثم اخرجها تخرج تتلألأ كأنها فلقة قمر . وقوله ﴿تخرج بيضاء من غير سوء﴾ اي من غير برص ولا أذى ومن غير شين ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ .

(٢٤) ﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (٢٤) قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى (٢٥) وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴾ (٢٦)

﴿قال رب اشرح لي صدري﴾ هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل ان يشرح له صدره فيما بعثه به ، فانه قد امره بأمر عظيم ، وخطب جسيم ، بعثه الى اعظم ملك على وجه الارض اذ ذاك ، وأجبرهم وأشدهم كفراً ، واكثرهم جنوداً ، واعمرهم ملكاً ، واطغاهم وابلغهم تمرداً ، بلغ من امره ان ادعى انه لا يعرف الله ، ولا يعلم لرعاياه الها غيره ، هذا وقد مكث موسى في داره مدة وليداً عندهم في حجر فرعون على فراشه ، ثم قتل منهم نفساً فخافهم ان يقتلوه ، فهرب منهم هذه المدة بكاملها ، ثم بعد هذا بعثه ربه عز وجل اليهم نذيراً يدعوهم الى الله عز وجل ان يعبدوه وحده لا شريك له ، ولهذا قال ﴿رب اشرح لي صدري ويسر لي امري﴾ اي ان لم تكن انت عوني ونصيري ، وعضدي وظهيري ، والا فلا طاقة لي بذلك .

(٢٧) ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى (٢٧) يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ (٢٨)

﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي ﴾ وذلك لما كان اصابه من اللثغ حين عرض عليه التمرة والجمرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه وما سأل أن يزول ذلك بالكلية بل بحيث يزول الغي ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة ولو سأل الجميع لزال ، ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بحسب الحاجة ، ولهذا بقيت بقية ، قال تعالى إخباراً عن فرعون أنه قال ﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ﴾ أي يفصح بالكلام . قال الحسن البصري : ﴿ واحلل عقدة من لساني ﴾ حل عقدة واحدة ، ولو سأل أكثر من ذلك أعطى .

(٢٩) ﴿ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَـٰرُونَ أَخِي ﴾ (٣٠)

﴿ واجعل لي وزيراً من اهلي هارون اخي ﴾ وهذا ايضاً سؤال من موسى عليه السلام في امر خارجي عنه ، وهو مساعدة اخيه هارون له . عن عائشة انها خرجت فيما كانت تعتمر فنزلت ببعض الاعراب فسمعت رجلاً يقول : أي رجل كان في الدنيا انفع لأخيه . قالوا : لا ندري ، قال : أنا والله ادري ، قالت : فقلت في نفسي : لا يستثني في حلفه ، إنه ليعلم أيّ أخ كان في الدنيا انفع لأخيه ، قال : موسى حين سأل لأخيه النبوة ، فقلت : صدق والله .

(٣١) ﴿ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴾ (٣٥)

﴿ اشدد به أزري ﴾ ظهري ﴿ وأشركه في امري ﴾ في مشاورتي ﴿ كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً ﴾ قال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين الله كثيراً حتى يذكر الله قائماً وقاعداً ومضطجعاً . ﴿ انك كنت بنا بصيراً ﴾ اي في اصطفائك لنا وإعطائك إيانا النبوة ، وبعثتك لنا الى عدوك فرعون ، فلك الحمد على ذلك .

(٣٦) ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ (٣٩) إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَـٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَـٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ

وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾

هذه اجابة من الله لرسوله موسى عليه السلام من ربه عز وجل ، وتذكير له بنعمه السالفة عليه فيما كان من أمر أمه حين كانت ترضعه وتحذر عليه من فرعون وملئه أن يقتلوه ، لأنه قد ولد في السنة التي كانوا يقتلون بها الغلمان ، فاتخذت له تابوتاً فكانت ترضعه ، ثم تضعه فيه ، وترسله في البحر ، وهو النيل ، وتمسكه الى منزلها بحبل ، فذهبت مرة لتربط الحبل ، فانفلت منها وذهب به البحر فحصل لها من الغم والهم ما ذكره الله عنها في قوله ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾ فذهب به البحر الى دار فرعون ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ فحكم الله ، وله السلطان العظيم ، والقدرة التامة أن لا يربى الا على فراش فرعون ، ويغذى بطعامه وشرابه مع محبته وزوجته له ، ولهذا قال تعالى ﴿ يأخذه عدو لي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ﴾ أي عند عدوك جعلته يحبك ، وحببتك الى عبادي ﴿ ولتصنع على عيني ﴾ تربى بعين الله . وقوله ﴿ اذ تمشي اختك فتقول هل أدلكم . . . ﴾ وذلك أنه لما استقر عند فرعون عرضوا عليه المراضع فأباها ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ فجاءت أخته وقالت ﴿ هل ادلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ تعني هل أدلكم على من يرضعه لكم بالاجرة فذهبت به وهم معها الى أمه فعرضت عليه ثديها فقبله ففرحوا بذلك فرحاً شديداً واستأجروها على ارضاعه فنالها بسببه سعادة وفرحة وراحة في الدنيا ، وفي الآخرة أعظم وأجزل ، ولهذا جاء في الحديث « مثل الصانع الذي يحتسب في صنعته الخير كمثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجرها » ولهذا قال تعالى ﴿ فرجعناك الى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴾ أي عليك ﴿ وقتلت نفساً ﴾ يعني القبطي ﴿ فنجيناك من الغم ﴾ وهو ما حصل بسبب عزم فرعون على قتله ففر منه هارباً حتى ورد ماء مدين ، وقال له ذلك الرجل الصالح ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ ﴿ فلبثت سنين في اهل مدين . . . ﴾ يقول تعالى مخاطباً لموسى انه لبث مقيماً في اهل مدين فاراً من فرعون وملئه يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الاجل ، ثم جاء موافقاً لقدرة الله وإرادته من غير معاد ، والأمر كله لله تبارك وتعالى وهو المسيِّر عباده وخلقه فيما يشاء ﴿ ثم جئت على قدر يا موسى ﴾ على قدر الرسالة والنبوة .

﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾ اي اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي ، اي كما اريد واشاء . وفي البخاري عن رسول الله ﷺ قال : « التقى آدم وموسى ، فقال موسى : انت الذي اشقيت الناس واخرجتهم من الجنة ، فقال آدم : وانت الذي اصطفاك الله برسالته ، واصطفاك لنفسه ، وانزل عليك التوراة ؟ قال : نعم ، قال : فوجدته مكتوباً علي قبل ان يخلقني ؟ قال : نعم ، فحج آدم موسى » ﴿ اذهب انت واخوك بآياتي ﴾ أي بحججي وبراهيني ومعجزاتي ﴿ ولا تنيا في ذكرى ﴾ لا تبطئا ، او لا تضعفا ، والمراد انهما لا يفتران في ذكر الله ، بل يذكران الله في مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه ، وقوة لهما ، وسلطاناً كاسراً له ، كما جاء في الحديث « ان عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مناجز قرنه » وقوله ﴿ اذهبا الى فرعون انه طغى ﴾ اي تمرد وعتا ، وتجبر على الله وعصاه ﴿ فقولا له قولاً ليناً ﴾ هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو ان فرعون في غاية العتو والاستكبار ، وموسى صفوة الله من خلقه اذ ذاك ، ومع هذا أُمر ان لا يخاطب فرعون الا بالملاطفة واللين ، فإن ذلك اوقع وأبلغ وانجع ، كما قال تعالى ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن ﴾ وقوله ﴿ لعله يتذكر او يخشى ﴾ فالتذكر الرجوع عن المحذور ، والخشية تحصيل الطاعة .

﴿ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾

يقول تعالى اخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام انهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيين له ﴿ اننا نخاف ان يفرط علينا او ان يطغى ﴾ يعنيان ان يبادر اليهما بعقوبته ، او يعتدي عليهما فيعاقبهما ، وهما لا يستحقان منه ذلك ﴿ قال لا تخافا انني معكما اسمع وأرى ﴾ اي لا تخافا منه ، فإنني معكما اسمع كلامكما وكلامه ، وارى مكانكما ومكانه ، لا يخفى علي من امركم شيء ، واعلما ان ناصيته بيدي ، فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش الا باذني ، وبعد أمري ، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي ﴿ قد جئناك بآية من ربك ﴾ أي بدلالة ومعجزة من ربك ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ أي والسلام عليك ان اتبعت الهدى ﴿ إنا قد أوحي الينا أن العذاب على من كذب وتولى ﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه الينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذب بآيات الله ، وتولى

عن طاعته ، كما قال تعالى ﴿ فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ﴾ .

(٤٩) ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون انه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق إله كل شيء وربه ومليكه قال ﴿ فمن ربكما يا موسى ﴾ أي الذي بعثك وأرسلك من هو ، فإني لا أعرفه ، وما علمت لكم من اله غيْري ﴿ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ﴾ أعطى كل شيء صورته ، أو أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه ، ولم يجعل للانسان من خلق الدابة ، ولا للدابة من خلق الكلب ، ولا للكلب من خلق الشاة ، وأعطى كل شيء ما ينبغي له من النكاح، وهيأ كل شيء على ذلك، ليس شيء منها يشبه شيئاً من أفعاله في الخلق والرزق والنكاح ﴿ثم هدى﴾ كقوله ﴿الذي قدر فهدى﴾ أي قدر وهدى الخلائق اليه ، أي كتب الأعمال والآجال والأرزاق ، ثم الخلائق ماشون على ذلك لا يحيدون عنه ، ولا يقدر أحد على الخروج منه ، يقول : ربنا الذي خلق الخلق ، وقدر القدر ، وجبر الخليقة على ما أراد .

(٥١) ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿ قال فما بال القرون الاولى ﴾ اصح الاقوال في معنى ذلك ان فرعون لما اخبره موسى بأن ربه الذي ارسله هو الذي خلق ورزق وقدر فهدى شرع يحتج بالقرون الاولى ، اي الذين لم يعبدوا الله ، أي فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك ، بل عبدوا غيره ؟ فقال له موسى في جواب ذلك : هم ، وان لم يعبدوه فان عملهم عند الله مضبوط عليهم ، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله ، وهو اللوح المحفوظ ، وكتاب الاعمال ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ أي لا يشذ عنه شيء ، ولا يفوته صغير ولا كبير ، ولا ينسى شيئاً . يصف علمه بأنه بكل شيء محيط وأنه لا ينسى شيئاً تبارك وتعالى وتقدس وتنزه ، فإن علم المخلوقين يعتريه نقصاً بين أحدهما عدم الاحاطة بالشيء والآخر نسيانه بعد علمه ، فنزه نفسه عن ذلك .

(٥٣) ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

* مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴾ ﴿٥٦﴾

هذا من تمام كلام موسى فيما وصف به ربه عز وجل حين سأله فرعون عنه قال ﴿ الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ ثم اعترض الكلام بين ذلك ، ثم قال ﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ اي قرار تستقرون عليها ، وتقومون وتنامون عليها ، وتسافرون على ظهرها ﴿ وسلك لكم فيها سبلاً ﴾ أي جعل لكم طرقاً تمشون في مناكبها كما قال تعالى ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً لعلهم يهتدون ﴾ ﴿ وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى ﴾ أي من انواع النباتات من زروع وثمار ، ومن حامض وحلو ومر وسائر الأنواع . ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم ﴾ أي شيء لطعامكم وفاكهتكم ، ولأنعامكم لأقواتها خضراً ويبساً ﴿ ان في ذلك الآيات ﴾ أي لدلالات وحججاً وبراهين ﴿ لأولي النهى ﴾ أي لذوي العقول السليمة المستقيمة على انه لا اله الا الله ولا رب سواه ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ﴾ أي من الأرض مبدؤكم ، فإن أباكم آدم مخلوق من تراب من اديم الأرض ، وفيها نعيدكم أي واليها تصيرون اذا متم وبليتم ، ومنها نخرجكم تارة اخرى ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون ان لبثتم الا قليلا ﴾ وهذه الآية كقوله ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾ وقوله ﴿ ولقد اريناه آياتنا كلها فكذب وابى ﴾ يعني فرعون انه قامت عليه الحجج والآيات والدلالات ، وعاين ذلك وابصره فكذب بها واباها كفراً ، وعناداً وبغياً ، كما قال تعالى ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً ﴾ .

﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ ﴿٥٩﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون انه قال لموسى حين أراه الآية الكبرى ، وهي إلقاء عصاه ، فصارت ثعباناً عظيماً ، ونزع يده من تحت جناحه فخرجت بيضاء من غير سوء ، فقال : هذا سحر جئت به لتسحرنا وتستولي به على الناس فيتبعونك وتكاثرنا بهم ، ولا يتم هذا معك ، فان عندنا سحراً مثل سحرك ، فلا يغرنك ما انت فيه ﴿ فاجعل بيننا وبينك

موعداً ﴾ اي يوماً نجتمع نحن وانت فيه ، فنعارض ما جئت به بما عندنا من السحر في مكان معين ووقت معين ، فعند ذلك ﴿ قال ﴾ لهم موسى ﴿ موعدكم يوم الزينة ﴾ وهو يوم عيدهم ونيروزهم وتفرغهم من اعمالهم ، واجتماع جميعهم ليشاهد الناس قدرة الله على ما يشاء ومعجزات الانبياء وبطلان معارضة السحر لخوارق العادات النبوية ، ولهذا قال : ﴿ وان يحشر الناس ﴾ أي جميعهم ﴿ ضحى ﴾ أي ضحوة من النهار ، ليكون أظهر واجلى وابين واوضح . وهكذا شأن الانبياء كل امرهم بين واضح ليس فيه خفاء ولا ترويج ، وكان يوم الزينة يوم عاشوراء

(٦٠) ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون انه لما تواعد هو وموسى عليه السلام الى وقت ومكان معلومين ﴿ تولى ﴾ اي شرع في جمع السحرة من مدائن مملكته كل من ينسب الى السحر في ذلك الزمان ، وقد كان السحر فيهم كثيراً نافقاً جداً ، كما قال تعالى ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ ﴿ ثم اتى ﴾ أي اجتمع الناس لميقات يوم معلوم ، وهو يوم الزينة ، ووقفت السحرة بين يدي فرعون ، صفوفاً ، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في اجادة عملهم في ذلك اليوم ، ويتمنون عليه وهو يعدهم ويمنيهم ويقولون ﴿ أئن لنا لأجراً ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين ﴾ .

(٦١) ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾

﴿ قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً ﴾ أي لا تخيلوا للناس بأعمالكم إيجاد أشياء لا حقائق لها وأنها مخلوقة فتكونون قد كذبتم على الله ﴿فيسحتكم بعذاب ﴾ أي يهلككم بعقوبة هلاكاً لا بقية له ﴿ وقد خاب من افترى ﴾ .

(٦٢) ﴿ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴾

قيل : معناه انهم تشاجروا فيما بينهم ، فقائل يقول : ليس هذا بكلام ساحر ، انما هذا كلام نبي ، وقائل يقول : بل هو ساحر وقيل غير ذلك والله اعلم . ﴿ واسروا النجوى ﴾ أي تناجوا فيما بينهم .

(٦٣) ﴿ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴾

﴿ قالوا إن هذان لساحران ﴾ والغرض ان السحرة قالوا فيما بينهم : تعلمون ان هذا الرجل واخاه ـ يعنون موسى وهارون ساحران عالمان خبيران بصناعة السحر ، يريدان في هذا اليوم ان يغلباكم وقومكم ، ويستوليا على الناس ، وتتبعهما العامة ، ويقاتلا فرعون وجنوده ، فينصرا عليه ويخرجاكم من ارضكم . وقوله ﴿ ويذهبا بطريقتكم المثلى ﴾ أي ويستبدا بهذه الطريقة ، وهي السحر ، فإنهم كانوا معظمين بسببها ، لهم اموال وارزاق عليها .

(٦٤) ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾

﴿ فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا ﴾ أي اجتمعوا كلكم صفا واحداً ، والقوا ما في ايديكم مرة واحدة ، لتبهروا الابصار ، وتغلبوا هذا وأخاه .

(٦٥) ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾

﴿ وقد افلح اليوم من استعلى ﴾ أي منا ومنكم ، اما نحن فقد وعدنا هذا الملك العطاء الجزيل ، واما هو فينال الرياسة العظيمة .

(٦٦) ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (٧٠)

يقول تعالى مخبراً عن السحرة حين توافقواهم وموسى عليه السلام انهم قالوا لموسى ﴿ اما ان تلقي ﴾ أي انت اولاً ﴿ واما ان نكون اول من القى . قال بل القوا ﴾ اي انتم اولاً لنرى ماذا تصنعون من السحر ، وليظهر للناس جلية امرهم ﴿ فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ﴾ وفي الآية الأخرى أنهم لما ألقوا ﴿ قالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ﴾ وقال ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم ﴾ وذلك انهم أودعوها من الزئبق ما كانت تتحرك بسببه وتضطرب ، وتميد بحيث يخيل للناظر انها تسعى باختيارها وانما كانت حيلة ، وكانوا جماً غفيراً ، وجمعاً كثيراً ، فألقى كل منهم عصاً وحبلاً حتى صار الوادي ملآن حيات يركب بعضها بعضاً . وقوله ﴿ فأوجس في نفسه خيفة موسى ﴾ أي خاف على الناس ان يفتنوا بسحرهم

ويغتروا بهم قبل ان يلقي ما في يمينه ، فأوحى الله تعالى اليه في الساعة الراهنة ان الق ما في يمينك ، يعني عصاك ، فإذا هي تلقف ما صنعوا ، وذلك انها صارت تنيناً عظيماً هائلاً ذا قوائم وعنق ورأس واضراس فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق منها شيئاً الا تلقفته وابتلعته ، والسحرة والناس ينظرون الى ذلك عياناً ، جهرة نهاراً ضحوة ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل السحر ، ولهذا قال ﴿ إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث اتى ﴾ فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه ، وإنهم خبرة بفنون السحر وطرقه ووجوهه علموا علم اليقين ان هذا الذي فعله موسى ليس من قبيل السحر والحيل ، وانه حق لا مرية فيه ، ولا يقدر على هذا إلا الذي يقول للشيء كن فيكون ، فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ، فكانوا اول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة .

(٧١) ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وعناده وبغيه ومكابرته بالباطل حين رأى ما رأى من المعجزة الباهرة والآية العظيمة ، ورأى الذين قد استنصر بهم قد آمنوا بحضرة الناس كلهم ، وغلب كل الغلب شرع في المكابرة والبهت ، وعدل الى استعمال جاهه وسلطانه في السحرة فتهددهم وتوعدهم وقال ﴿ آمنتم له ﴾ أي صدقتموه ﴿ قبل ان آذن لكم ﴾ أي وما أمرتكم بذلك ، وافتتنتم علي في ذلك ، وقال قولاً يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنه بهت وكذب ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ أي أنتم انما اخذتم السحر عن موسى ، واتفقتم انتم واياه علي وعلى رعيتي لتظهروه كما قال تعالى في الآية الاخرى ﴿ ان هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون ﴾ ثم أخذ يتهددهم فقال ﴿ لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ﴾ أي لأجعلنكم مثلة ، ولأقتلنكم ولأشهرنكم ، قال ابن عباس فكان أول من فعل ذلك .
﴿ ولتعلمن أينا أشد عذاباً وأبقى ﴾ أي أنتم تقولون : إني وقومي على ضلالة ، وأنتم مع موسى وقومه على الهدى فسوف تعلمون من يكون له العذاب ويبقى فيه ؟ فلما صال عليهم بذلك ، وتوعدهم هانت عليهم أنفسهم في الله عز وجل .

(٧٢) ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾

﴿ قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ﴾ أي لن نختارك على ما حصل لنا من الهدى واليقين ﴿ والذي فطرنا ﴾ يحتمل أن يكون قسماً ، ويحتمل أن يكون معطوفاً على البينات ، يعنون لا نختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم ، والمبتدي خلقنا من الطين ، فهو المستحق للعبادة والخضوع ، لا أنت ﴿ فاقض ما أنت قاض ﴾ أي فافعل ما شئت وما وصلت اليه يدك ﴿ إنما تقضي هذه الحياة الدنيا ﴾ أي انما لك تسلط في هذه الدار ، وهي دار الزوال ، ونحن قد رغبنا في دار القرار .

(٧٣) ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

﴿ إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ﴾ أي ما كان منا من الآثام ، خصوصاً ما أكرهتنا عليه من السحر لتعارض به آية الله ، ومعجزة نبيه ﴿ والله خير وأبقى ﴾ أي خير لنا منك ﴿ وأبقى ﴾ أي أدوم ثواباً مما كنت وعدتنا ومنيتنا .

(٧٤) ﴿ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾

الظاهر من السياق أن هذا من تمام ما وعظ به السحرة لفرعون ، يحذرونه من نقمة الله وعذابه الدائم السرمدي ، ويرغبونه في ثوابه الأبدي المخلد فقالوا ﴿ إنه من يأت ربه مجرماً ﴾ أي يلقى الله يوم القيامة وهو مجرم ﴿ فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ كقوله ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ﴾ وقال ﴿ ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وقال ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون ﴾ روى الامام احمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « اما اهل النار الذين هم اهلها ، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن اناس تصيبهم النار بذنوبهم فتميتهم إماته حتى اذا صاروا فحماً اذن في الشفاعة جيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة ، فيقال : يا اهل الجنة ، افيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة تكون في حميل السيل » فقال رجل من القوم : كأن رسول الله ﷺ كان بالبادية . وهكذا أخرجه مسلم في كتابه الصحيح .

(٧٥) ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾

﴿ ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ﴾ أي من لقي ربه يوم المعاد مؤمن القلب ، قد صدق ضميره بقوله وعمله ﴿ فأولئك لهم الدرجات العلى ﴾ أي الجنة ذات الدرجات

العاليات ، والغرف الآمنات ، والمساكن الطيبات ، روى الامام احمد عن النبي ﷺ « الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض . والفردوس اعلاها درجة ، ومنها تخرج الانهار الأربعة ، والعرش فوقها ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس » رواه الترمذي .

(٧٦) ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾

﴿ جنات عدن ﴾ أي إقامة ، وهي بدل من الدرجات العلى ﴿ تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين ابداً ﴿ وذلك جزاء من تزكى ﴾ أي طهر نفسه من الدنس والخبث والشرك ، وعبد الله وحده لا شريك له ، واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خير وطلب .

(٧٧) ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبراً انه أمر موسى عليه السلام حين أبى فرعون ان يرسل معه بني اسرائيل أن يسري بهم في الليل ، ويذهب بهم من قبضة فرعون ، وقد بسط الله هذا المقام في غير هذه السورة الكريمة ، وذلك ان موسى لما خرج ببني اسرائيل اصبحوا وليس منهم بمصر لا داع ولا مجيب ، فغضب فرعون غضباً شديداً ، وارسل في المدائن حاشرين ، أي من يجمعون له الجند من بلدانه ورساتيقه ، يقول ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، ثم لماجمع جنده واستوثق له جيشه ساق في طلبهم ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي عند طلوع الشمس ﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي نظر كل من الفريقين الى الآخر ﴿ قال اصحاب موسى إنا لمدركون . قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ ووقف موسى ببني اسرائيل ، البحر امامهم ، وفرعون وراءهم فعند ذلك اوحى الله اليه ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ فضرب البحر بعصاه ، وقال انفلق علي بإذن الله فانفلق ﴿ فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أي الجبل العظيم ، فأرسل الله الريح على أرض البحر فلفحته حتى صار يابساً كوجه الأرض ، فلهذا قال ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركا ﴾ أي من فرعون ﴿ ولا تخشى ﴾ يعني من البحر ان يغرق قومك .

(٧٨) ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴾ (٧٩)

﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ﴾ أي البحر ﴿ ما غشيهم ﴾ اي الذي هو معروف ومشهور ، كما قال تعالى ﴿ والمؤتفكة اهوى فغشاها ما غشى ﴾ وكما تقدمهم فرعون فسلك بهم في اليم فأضلهم وما هداهم الى سبيل الرشاد ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ﴾ .

(٨٠) ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ (٨٠) كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ (٨١)

يذكر تعالى نعمه على بني اسرائيل العظام ، ومننه الجسام ، حيث أنجاهم من عدوهم فرعون ، وأقر أعينهم منه ، وهم ينظرون اليه والى جنده قد غرقوا في صبيحة واحدة لم ينج منهم احد كما قال ﴿ واغرقنا آل فرعون وانتم تنظرون ﴾ وفي البخاري عن ابن عباس قال لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد اليهود تصوم عاشوراء فسألهم فقالوا : هذا اليوم الذي اظفر الله فيه موسى على فرعون فقال « نحن اولى بموسى فصوموه » رواه مسلم ايضاً في صحيحه . ثم انه تعالى واعد موسى وبني اسرائيل بعد هلاك فرعون الى جانب الطور الأيمن ، وهو الذي كلمه الله تعالى عليه ، وسأل فيه الرؤية ، واعطاه التوراة هنالك ، وفي غضون ذلك عبد بنو اسرائيل العجل، والمن حلوى كانت تنزل عليهم من السماء ، والسلوى طائر يسقط عليهم فيأخذون من كل قدر الحاجة الى الغد لطفاً من الله ورحمة بهم واحسانا اليهم . ولهذا قال ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه ﴾ أي كلوا من هذا الرزق الذي رزقتكم ولا تطغوا في رزقي فتأخذوه من غير حاجة ، وتخالفوا ما امرتكم به ﴿ فيحل عليكم غضبي ﴾ أي أغضب عليكم ﴿ ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى ﴾ أي فقد شقي .

(٨٢) ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾

﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي كل من تاب إليّ تبت عليه من أي ذنب كان حتى انه تاب على من عبد العجل من بني اسرائيل ﴿ تاب ﴾ أي رجع عما كان فيه من كفر او شرك او معصية او نفاق ﴿ وآمن ﴾ أي بقلبه ﴿ وعمل صالحاً ﴾ أي بجوارحه ﴿ ثم اهتدى ﴾ لم يشكك ، واستقام على السنة والجماعة ، ولزم الاسلام حتى يموت .

﴿ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي ﴾ (٨٦)

لما سار موسى عليه السلام ببني اسرائيل بعد هلاك فرعون ﴿ فأتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة قال : انكم قوم تجهلون ان هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ وواعده ربه ثلاثين ليلة ، ثم اتبعها عشراً فتمت اربعين ليلة أي يصومها ليلاً ونهاراً فسارع موسى عليه السلام مبادراً الى الطور واستخلف على بني اسرائيل اخاه هارون ولهذا قال تعالى ﴿ وما اعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري ﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور ﴿ وعجلت اليك رب لترضى ﴾ أي لتزداد عني رضا ﴿ قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك واضلهم السامري ﴾ أخبر تعالى نبيه موسى بما كان بعده من الحدث في بني اسرائيل وعبادتهم العجل الذي عمله لهم ذلك السامري . أي بعدما اخبره تعالى بذلك في غاية الغضب والحنق عليهم ، وهو فيما هو فيه من الاعتناء بأمرهم ، وتسلم التوراة التي فيها شريعتهم ، وهم قوم قد عبدوا غير الله ما يعلم كل عاقل له لب وحزم بطلان ما هم فيه ، وسخافة عقولهم واذهانهم . والاسف شدة الغضب ، او هو الجذع على ما صنع قومه من بعده ﴿ قال يا قوم الم يعدكم ربكم وعداً حسناً ﴾ أي أما وعدكم على لساني كل خير في الدنيا والآخرة وحسن العاقبة كما شاهدتم من نصرته اياكم علي عدوكم ، واظهاركم عليه وغير ذلك من أيادي الله ﴿ أفطال عليكم العهد ﴾ أي في انتظار ما وعدكم الله ، ونسيان ما سلف من نعمة ، وما بالعهد من قدم ﴿ ام اردتم ان يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي ﴾ بل أردتم بصنيعكم هذا ان يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي .

(٨٧) ﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴾

﴿ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ﴾ أي عن قدرتنا واختيارنا ، ثم شرعوا يعتذرون بالعذر البارد يخبرونه عن تورعهم عما كان بأيديهم من حلي القبط الذي كانوا قد استعاروه منهم

حين خرجوا من مصر ﴿ فقذفناها ﴾ أي القيناها عنا ، وكان هارون هو الذي امرهم بالقاء الحلي في حفرة فيها نار ، وانما اراد هارون ان يجتمع الحلي كله في تلك الحفرة ويجعل حجراً واحداً ، حتى اذا رجع موسى رأى فيه ما يشاء ، ثم جاء ذلك السامري فألقى عليها تلك القبضة التي اخذها من اثر الرسول ، وسأل من هارون ان يدعوا الله ان يستجيب له في دعوة فدعا له هارون ، وهو لا يعلم ما يريد فأجيب له ، فقال السامري عند ذلك : اسأل الله ان يكون عجلاً فكان له خوار ، اي صوت استدراجاً وإمهالاً ومحنة ، ولهذا قال ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ .

(٨٨) ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴾

﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى ﴾ فعكفوا عليه وأحبوه حباً لم يحبوا شيئاً قط مثله ﴿ فنسي ﴾ أي نسيه موسى وذهب يتطلبه، أو نسي أن يذكركم ان هذا آلهكم .

(٨٩) ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾

﴿ افلا يرون ألاّ يرجع اليهم قولاً ﴾ أي العجل ، افلا يرون لا يجيبهم اذا سألوه ، ولا اذا خاطبوه . ﴿ ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ﴾ أي في دنياهم ولا أخراهم . قال ابن عباس : لا والله ، ما كان خواره الا ان يدخل الريح في دبره فيخرج من فمه فيسمع له صوت . وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة لموسى عليه السلام انهم تورعوا عن زينة القبط فألقوها عنهم وعبدوا العجل ، فتورعوا عن الحقير وفعلوا الأمر الكبير ، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمر انه سأل رجل من أهل العراق عن دم البعوض اذا اصاب الثوب ، يعني هل يصلي فيه ام لا ؟ فقال ابن عمر انظروا الى اهل العراق قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ ، يعني الحسين ، وهم يسألون عن دم البعوضة .

(٩٠) ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾

يخبر تعالى عما كان من نهي هارون عليه السلام لهم عن عبادتهم العجل ، واخباره اياهم انما هذا فتنة لكم ، وان ربكم الرحمن الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً ، ذو العرش المجيد الفعال لما يريد ﴿ فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ أي فيما آمركم به ، واتركوا ما انهاكم عنه .

(٩١) ﴿ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾

﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى ﴾ أي لا نترك عبادته حتى نسمع كلام موسى فيه : وخالفوا هارون في ذلك وحاربوه وكادوا ان يقتلوه .

(٩٢) ﴿ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ (٩٣)

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام حين رجع الى قومه فرأى ما قد حدث فيهم من الأمر العظيم فامتلأ عند ذلك غضباً ، وألقى ما كان في يده من الالواح الالهية ، واخذ برأس اخيه يجرّه اليه ، وشرع يلوم اخاه هارون فقال ﴿ ما منعك اذ رأيتهم ضلوا الا تتبعن ﴾ اي فتخبرني بهذا الأمر اول ما وقع ﴿ أفعصيت أمري ﴾ أي فيما كنت قدمت اليك ، وهو قوله ﴿ اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

(٩٤) ﴿ قَالَ يَا ابْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

﴿ قال يا بن أم ﴾ ترقق له بذكر الأم ، ومع انه شقيقه لأبويه ، لأن ذكر الأم ههنا ارق وابلغ في الحنو والعطف ، ولهذا قال ﴿ يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ هذا اعتذار من هارون عند موسى في سبب تأخره عنه حيث لم يلحقه فيخبره بما كان من هذا الخطب الجسيم قال ﴿ إني خشيت ﴾ ان اتبعك فأخبرك بهذا فتقول لي : لم تركتهم وحدهم وفرقت بينهم ؟ ﴿ ولم ترقب قولي ﴾ أي وما راعيت ما امرتك به حيث استخلفتك فيهم ، قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له .

(٩٥) ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾

يقول موسى عليه السلام للسامري ما حملك على ما صنعت ، وما الذي عرض لك حتى فعلت ما فعلت ؟

(٩٦) ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾

﴿ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴾ أي رأيت جبريل حين جاء لهلاك فرعون ﴿ فقبضت قبضة من اثر الرسول ﴾ أي من اثر فرسه ، أي من تحت حافر فرس جبريل ، والقبضة ملء الكف ، والقبضة بأطراف الاصابع : ﴿ فنبذتها ﴾ أي القى ما كان في يده على حلية

بني اسرائيل فانسبك عجلاً جسداً له خوار ﴿ وكذلك سولت لي نفسي ﴾ أي حسنته وأعجبها إذ ذاك .

(٩٧) ﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾

﴿ قال فاذهب فإن لك في الحياة ان تقول لا مساس ﴾ أي كما اخذت ومسست ما لم يكن لك اخذه ومسه من اثر الرسول فعقوبتك في الدنيا ان تقول لا مساس ، اي لا تماس الناس ولا يمسونك ﴿ وان لك موعداً ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لن تخلفه ﴾ أي لا محيد لك عنه ﴿ وانظر الى الهك ﴾ أي معبودي ﴿ الذي ظلت عليه عاكفاً ﴾ أي اقمت على عبادته ، يعني العجل ﴿ لنحرقنه ﴾استحله بالمبارد والقاه على النار ﴿ ثم لننسفنه في اليم نسفاً ﴾ .

(٩٨) ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾

﴿ انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علماً ﴾ يقول لهم موسى عليه السلام : ليس هذا الهكم ، انما الهكم الله الذي لا اله الا هو ، اي لا يستحق ذلك على العباد الا هو ، ولا تنبغي العبادة الا له ، فإن كل شيء فقير اليه ، عبد له . وقوله ﴿ وسع كل شيء علما ﴾ أي هو عالم بكل شيء ، احاط بكل شيء علماً ، واحصى كل شيء عدداً ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، ﴿ وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ورطب ولا يابس الا في كتاب مبين ﴾ .

(٩٩) ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : كما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون وجنوده على الجلية والأمر الواقع ، كذلك نقص عليك الاخبار الماضية كما وقعت من غير زيادة ولا نقص ، هذا ﴿ وقد آتيناك من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ ذكراً ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ الذي لم يعط نبي من الانبياء منذ بعثوا الى ان ختموا بمحمد ﷺ كتاباً مثله ، ولا اكمل منه ، ولا اجمع لخبر ما سبق ، وخبر ما هو كائن ، وحكم الفصل بين الناس منه .

(١٠٠) ﴿ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴾

﴿ من اعرض عنه ﴾ أي كذب به ، وأعرض عن اتباعه امراً وطلباً ، وابتغى الهدى من غيره فإن الله يضله ويهديه الى سواء الجحيم ، ولهذا قال ﴿ فإنه يحمل يوم القيامة وزراً ﴾ أي اثما كما قال ﴿ ومن يكفر به من الاحزاب فالنار موعده ﴾ وهذا عام في كل من بلغه القرآن من العرب والعجم اهل الكتاب وغيرهم ، كما قال ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ فكل من بلغه القرآن فهو نذير له وداع ، فمن اتبعه هدي ، ومن خالفه واعرض عنه ضل ، وشقي في الدنيا والأخرة ، والنار موعده يوم القيامة .

(١٠١) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴾

﴿ خالدين فيه ﴾ أي لا محيد لهم عنه ولا انفكاك ﴿ وساء لهم يوم القيامة حملاً ﴾ أي بئس الحمل حملهم .

(١٠٢) ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾

ثبت في الحديث ان رسول الله ﷺ سئل عن الصور فقال : « قرن ينفخ فيه » وفي الحديث « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ، وانتظر ان يؤذن له » فقالوا يا رسول الله ، كيف نقول ؟ قال : قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » وقوله ﴿ ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ﴾ قيل : معناه زرق العيون من شدة ما هم فيه من الأهوال .

(١٠٣) ﴿ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴾

﴿ يتخافتون بينهم ﴾ يتساورون بينهم، أي يقول بعضهم لبعض : إن لبثتم إلا عشراً، أي في الدار الدنيا لقد كان لبثكم فيها قليلاً عشرة ايام او نحوها .

(١٠٤) ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾

﴿ نحن اعلم بما يقولون ﴾ أي في حال تناجيهم بينهم ﴿ اذ يقول امثلهم طريقة ﴾ اي العاقل الكامل فيهم ﴿ ان لبثتم الا يوماً ﴾ أي لقصر مدة الدنيا في انفسهم يوم المعاد ، لأن الدنيا كلها ، وان تكررت اوقاتها ، وتعاقبت لياليها وايامها وساعاتها كأنها يوم واحد ، ولهذا يستقصر الكافرون مدة الحياة الدنيا يوم القيامة ، وكان غرضهم في ذلك درء قيام الحجة عليهم لقصر المدة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا

غير ساعة ﴾ ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين . قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين . قال إن لبثتم الا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون ﴾

(١٠٥) ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾

يقول تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة ، او تزول ؟ ﴿ فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ اي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييراً .

(١٠٦) ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾

﴿ فيذرها ﴾ أي على الأرض ﴿ قاعاً صفصفاً ﴾ أي بساطاً واحداً ، والقاع هو المستوى من الارض ، والصفصف تأكيد لمعنى ذلك ، وقيل : الذي لا نبات فيه ، والاول اولى ، وان كان الآخر مراداً ايضاً باللازم ، ولهذا قال :

(١٠٧) ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾

﴿ لا ترى فيها عوجاً ولا امتاً ﴾ لا ترى في الأرض يومئذ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً .

(١٠٨) ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾

﴿ يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له ﴾ أي يوم يرون هذه الأحوال والأهوال يستجيبون مسارعين إلى الداعي ، حيثما امروا بادروا إليه ، ولو كان هذا في الدنيا لكان انفع لهم ، ولكن حيث لا ينفعهم . ﴿ لا عوج له ﴾ لا يميلون ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن ﴾ سكنت ﴿ فلا تسمع إلا همساً ﴾ وطء الاقدام ، أو الصوت الخفي ، أما وطء الاقدام فالمراد سعي الناس إلى المحشر ، وهو مشيهم في سكون وخضوع ، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال ، فقد قال تعالى ﴿ يوم لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾ .

(١٠٩) ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾

يقول تعالى ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لا تنفع الشفاعة ﴾ أي عنده ﴿ إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴾ كقوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وفي الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ وهو سيد آدم ، واكرم الخلائق على الله عز وجل أنه قال :

« آتي تحت العرش ، وأخر لله ساجداً ، ويفتح عليّ بمحامد لا احصيها الآن ، فيدعني ما شاء الله أن يدعني ، ثم يقول : يا محمد ارفع رأسك وقل تسمع ، واشفع تشفع ، قال : فيحد لي حدا فأدخلهم جنة ثم اعود » فذكر اربع مرات صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء . وفي الحديث ايضاً يقول تعالى ﴿ أخرجوا من النار من قال في قلبه مثقال حبة من ايمان ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقول أخرجوامن النار من كان في قلبه نصف مثقال من ايمان ، اخرجوا من النار من كان في قلبه ما يزن ذرّة ، من كان في قلبه ادنى مثقال ذرة من ايمان ﴾ الحديث .

(١١٠) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾

﴿ يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ﴾ أي يحيط علماً بالخلائق كلهم ﴿ ولا يحيطون به علماً ﴾ كقوله ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ .

(١١١) ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾

﴿ وعنت الوجوه للحي القيوم ﴾ خضعت وذلت ، واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لا يموت ، القيوم الذي لا ينام ، وهو قيم على كل شيء ، يدبره ويحفظه ، فهو الكامل في نفسه الذي كل شيء فقير إليه ، لا قوام له إلا به ، ﴿ وقد خاب من حمل ظلماً ﴾ أي يوم القيامة ، فإن الله سيؤدي كل حق إلى صاحبه حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء ، وفي الحديث يقول الله عز وجل : ﴿ وعزتي وجلالي لا يجاوزني اليوم ظلم ظالم ﴾ وفي الصحيح اياكم والظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، والخيبة كل الخيبة من لقي الله وهو به مشرك ، فإن الله تعالى يقول ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

(١١٢) ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾

﴿ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ لما ذكر الظالمين ووعيدهم ثنى بالمتقين وحكمهم ، وهو إنهم لا يظلمون ولا يهضمون أي لا يزاد في سيئآتهم ، ولا ينقص من حسناتهم ، فالظلم الزيادة بأن يحمل عليه ذنب غيره والهضم النقص .

(١١٣) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾

يقول تعالى : ولما كان يوم المعاد والجزاء بالخير والشر واقعا لا محالة أنزلنا القرآن بشيراً ونذيراً بلسان عربي مبين فصيح ، لا لبس فيه ولا عيّ ﴿ وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون ﴾ أي يتركون المآثم والمحارم والفواحش ﴿ أو يحدث لهم ذكراً ﴾ وهو ايجاد الطاعة وفعل القربات .

﴿١١٤﴾ ﴿ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾

﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تنزه وتقدس الملك الحق الذي هو حق ووعده حق ، ووعيده حق ، ورسله حق ، والجنة حق ، والنار حق ، وعدله حق ، أن لا يعذب أحداً قبل الانذار ، وبعثه الرسل والاعذار إلى خلقه لئلا يبقى لأحد حجة ولا شبهة ، وقوله ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ﴾ كقوله تعالى في سورة لا أقسم بيوم القيامة ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه ﴾ وثبت في الصحيح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يعالج من الوحي شدة ، فكان مما يحرك به لسانه ، فأنزل الله هذه الآية ﴿ وقل رب زدني علماً ﴾ أي زدني منك علماً . قال ابن عيينة رحمه الله : ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عز وجل ، ولهذا جاء في الحديث « إن الله تابع الوحي على رسوله حتى كان الوحي اكثر ما كان يوم توفي رسول الله ﷺ » يقول : « اللهم انفعني بما علمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وزدني علماً ، والحمد لله على كل حال ، واعوذ بالله من حال أهل النار » .

﴿١١٥﴾ ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ ﴿١١٦﴾

إنما سمي الانسان لأنه عهد إليه فنسي ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير ممن خلق تفضيلاً ، وقد أمر الله تعالى ابليس بالسجود لآدم تشريفاً له وتكريماً ﴿ فسجدوا الا ابليس أبى ﴾ أي امتنع واستكبر .

﴿١١٧﴾ ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴾

﴿ فقلنا يا آدم إن هذا عدوّ لك ولزوجك ﴾ يعني حواء عليهما السلام ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ أي إياك أن تسعى في اخراجك منها فتتعب وتعنى وتشقى في طلب

رزقك ، فإنك ههنا في عيش رغيد هنيء بلا كلفة ولا مشقة .

(١١٨) ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴾

﴿ إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى ﴾ إنما قرن بين الجوع والعري ، لأن الجوع ذل الباطن ، والعري ذل الظاهر .

(١١٩) ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾

﴿ وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ وهذان أيضاً متقابلان ، فالظمأ حر البطن ، وهو العطش ، والضحى حر الظاهر .

(١٢٠) ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾

قد تقدم أنه دلاهما بغرور ، ﴿ وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ﴾ .

(١٢١) ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

﴿ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴾ يرقعان كهيئة الثوب ، عن ابن عباس . ينزعان ورق التين فيجعلانه على سوآتهما . ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾ .

(١٢٢) ﴿ ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾

﴿ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴾ في البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « حاج موسى آدم ، فقال له : أنت الذي اخرجت الناس من الجنة بذنبك واشقيتهم ؟ قال آدم : يا موسى ، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه ، اتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل أن يخلقني ، أو قدره الله عليّ قبل أن يخلقني ؟ قال رسول الله ﷺ : « فحج آدم موسى » وهذا الحديث له طرق في الصحيحين .

(١٢٣) ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾

يقول تعالى لآدم وحواء وابليس : اهبطوا منها جميعاً أي من الجنة كلكم ، ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ آدم وذريته ، وابليس وذريته ﴿ فإما يأتينكم مني هدى ﴾ الأنبياء والرسل

والبيان ﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ﴾ أي لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة .

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴾ (١٢٥)

﴿ ومن أعرض عن ذكري ﴾ أي خالف امري ، وما انزلته على رسولي أي اعرض عنه وتناساه ، واخذ من غيره هداه .

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ (١٢٦)

﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾ أي في الدنيا ، فلا طمأنينة له ، ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيق حرج لضلاله ، وإن تنعم ظاهره ، ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى فهو في قلق وحيرة وشك ، فلا يزال في ريبة يتردد ، فهذا من ضنك العيشة ، أو الضنك الشقاء ، أو هو عذاب القبر ﴿ ونحشره يوم القيامة اعمى ﴾ لا حجة له ، عمى عليه كل شيء إلا جهنم ، ويحتمل أن يكون المراد أنه يبعث أو يحشر إلى النار أعمى البصر والبصيرة أيضاً ﴿ ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم ﴾ ﴿ وقد كنت بصيراً ﴾ أي في الدنيا .
﴿ قال كذلك اتتك آياتنا . . . ﴾ أي لما اعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها بعد بلاغها اليك تناسيتها ، واعرضت عنها واغفلتها ، كذلك اليوم نعاملك معاملة من ينساك. ﴿فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل. فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص ، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى ، فإنه قد وردت السنة بالنهي الأكيد والوعيد الشديد روى الإمام أحمد قال : « ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم يلقاه وهو أجذم » .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ۚ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ ﴾ (١٢٧)

يقول تعالى : وهكذا نجازي المسرفين المكذبين بآيات الله في الدنيا والآخرة ﴿ لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق وما لهم من الله من واق ﴾ ولهذا قال ﴿ ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴾ أي أشد ألماً من عذاب الدنيا، وأدوم عليهم، فهم

مخلدون فيه ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين « إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة » .

﴿١٢٨﴾ ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴾

يقول تعالى ﴿ افلم يهد لهم ﴾ أي لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد ، كم أهلكنا من الأمم المكذبين بالرسل قبلهم فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها ﴿ إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ أي العقول الصحيحة ، والألباب المستقيمة .

﴿١٢٩﴾ ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك . . . ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله ، وهو أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين إلى مدة معينة لجاءهم العذاب بغتة .

﴿١٣٠﴾ ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ أي من تكذيبهم لك ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس ﴾ يعني صلاة الفجر ﴿ وقبل غروبها ﴾ يعني صلاة العصر ، كما جاء في الصحيحين عن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ هذه الآية وفي الحديث « لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » رواه مسلم ﴿ ومن آناء الليل فسبح ﴾ أي من ساعاته فتهجد به ، وحمله بعضهم على المغرب والعشاء ﴿وأطراف النهار﴾ في مقابلة آناء الليل ﴿ لعلك ترضى ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ وفي الصحيح « يقول الله تعالى : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ، وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم تعط احداً من خلقك ، فيقول : إني أعطيكم أفضل من ذلك ،

فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا اسخط عليكم بعده ابداً » وفي الحديث الآخر « يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو؟ الم يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويزحزحنا عن النار ، ويدخلنا الجنة ؟ فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم خيراً من النظر إليه ، وهي الزيادة » .

(١٣١) ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ : لا تنظر إلى ما هؤلاء المترفون وأشباههم ونظراؤهم فيه من النعيم فإنما هو زهرة زائلة ، ونعمة حائلة ، لنختبرهم بذلك ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ قال تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به ازواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين ﴾ ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ لنبتليهم فيه ﴿ ورزق ربك خير وأبقى ﴾ .

(١٣٢) ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾

﴿ وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴾ أي استنقذهم من عذاب الله باقام الصلاة ، واصبر انت على فعلها كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا انفسكم واهليكم نارا ﴾ ﴿ لا نسألك رزقا نحن نرزقك ﴾ يعني إذا اقمت الصلاة اتاك الرزق من حيث لا تحتسب كما قال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ﴿ والعاقبة للتقوى ﴾ أي وحسن العاقبة في الدنيا والآخرة ، وهي الجنة لمن اتقى الله . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت الليلة كأنا في دار عقبة بن نافع ، وأنا أتينا برطب من رطب ابن طاب ، فأولت ذلك أن العاقبة لنا في الدنيا والرفعة ، وأن ديننا قد طاب » .

(١٣٣) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار في قولهم ﴿ لولا ﴾ أي هلا يأتينا محمد بآية من ربه ، أي بعلامة دالة على صدقه في أنه رسول الله ﴿أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ يعني القرآن الذي انزله عليه الله ، وهو أمي لا يحسن الكتابة ، ولم يدارس أهل الكتاب ، وقد جاء فيه اخبار الأولين بما كان منهم في سالف الدهور بما يوافقه عليه الكتب المتقدمة الصحيحة منها ، فإن القرآن مهيمن عليها ، يصدق الصحيح ، ويبين خطأ المكذوب فيها

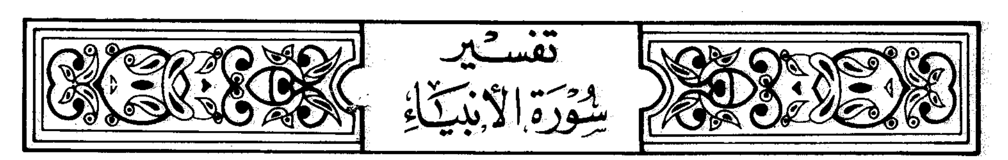
وعليها . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما من نبي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن اكون اكثرهم تابعا يوم القيامة » .

(١٣٤) ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾

﴿ ولو أنا أهلكناهم بعذاب . . . ﴾ أي لو أنا اهلكنا هؤلاء المكذبين قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم ، وننزل عليهم هذا الكتاب العظيم لكانوا قالوا : ﴿ ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ﴾ قبل أن تهلكنا حتى نؤمن به ونتبعه ، كما قال ﴿ فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ يبين تعالى أن هؤلاء المكذبين متعنتون معاندون لا يؤمنون ﴿ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

(١٣٥) ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾

﴿ قل ﴾ يا محمد لمن كذبك وخالفك واستمر على كفره وعناده ﴿ كل متربص ﴾ أي منا ومنكم ﴿ فتربصوا ﴾ أي فانتظروا ﴿ فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ﴾ أي الطريق المستقيم ﴿ ومن اهتدى ﴾ إلى الحق ، وسبيل الرشاد ، وهذا كقوله ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴾ .



تفسير سورة الأنبياء

في البخاري عن عبدالله قال : بنو اسرائيل ، والكهف ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ، هن من العتاق وهن من تلادي .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾

هذا تنبيه من الله عز وجل على اقتراب الساعة ودنوها، وإن الناس في غفلة عنها، أي لا يعلمون لها ولا يستعدون من أجلها. نزل ضيف بعامر بن ربيعة فأكرم عامر مثواه، وكلم

فيه رسول الله ﷺ ، فجاءه الرجل فقال : إني استقطعت من رسول الله ﷺ واديا في العرب ، وقد اردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك فقال عامر : لا حاجة لي في قطيعتك ، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ .

(٢) ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾

ثم اخبر تعالى أنهم لا يصغون إلى الوحي الذي أنزل الله على رسوله ، والخطاب مع قريش ومن شابههم من الكفار فقال ﴿ ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ﴾ أي جديد إنزاله ﴿ الا استمعوه وهم يلعبون ﴾ .

(٣) ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

﴿ وأسروا النجوى الذين ظلموا ﴾ أي قائلين فيما بينهم خفية ﴿ هل هذا إلا بشر مثلكم ﴾ يعنون رسول الله ﷺ ، يستبعدون كونه نبياً ، لأنه بشر مثلهم ، فكيف اختص بالوحي دونهم ، ولهذا قال ﴿ أفتأتون السحر وأنتم تبصرون ﴾ أي أفتتبعونه فتكونون كمن يأتي السحر ، وهو يعلم أنه سحر .

(٤) ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قال تعالى مجيباً لهم عما افتروه واختلقوه من الكذب ﴿ قال ربي يعلم القول في السماء والأرض) أي الذي يعلم ذلك لا يخفى عليه خافية ، وهو الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على خبر الأولين والآخرين الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله إلا الذي يعلم البىر في السموات والأرض . وقوله ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوالكم العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعيد .

(٥) ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾

﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ﴾ هذا إخبار عن تعنت الكفار وإلحادهم ، واختلافهم فيما يصفون به القرآن ، وحيرتهم فيه ، وضلالهم عنه ، فتارة يجعلونه سحرا ، وتارة يجعلونه شعرا ، وتارة يجعلونه اضغاث احلام ، وتارة يجعلونه مفترى ﴿ انظر كيف ضربوا

لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وقوله ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴾ يعنون كناقة صالح ، وآيات موسى وعيسى ، وقد قال الله ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ﴾ .

(٦) ﴿ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

ولهذا قال تعالى : ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ هذا كله وقد شاهدوا من الآيات الباهرات والحجج القاطعات ، والدلائل البينات على يدي رسول الله ﷺ ما هو أظهر وأجلى وأبهر وأقطع وأقهر مما شوهد مع غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٧) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى رداً على من أنكر بعثة الرسل من البشر ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي اليهم ﴾ أي جميع الرسل الذين تقدموا كانوا رجالاً من البشر ، لم يكن فيهم أحد من الملائكة ﴿ فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ أي اسئلوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى ، وسائر الطوائف ، هل كان الرسل الذين أتوهم بشرا أو ملائكة ، وإنما كانوا بشرا ، وذلك من تمام نعمة الله على خلقه ، إذ بعث فيهم رسلاً منهم يتمكنون من تناول البلاغ منهم ، والأخذ عنهم .

(٨) ﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴾

﴿ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴾ أي بل قد كانوا أجساداً يأكلون الطعام ، كما قال تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ﴾ أي قد كانوا بشرا من البشر ، يأكلون ويشربون مثل الناس ويدخلون الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بضار لهم ، ولا ناقص منهم شيئاً . ﴿ وما كانوا خالدين ﴾ أي في الدنيا ، بل كانوا يعيشون ويموتون .

(٩) ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

﴿ ثم صدقناهم الوعد ﴾ أي الذي وعدهم ربهم ليهلكن الظالمين ﴿ فأنجيناهم ومن نشاء ﴾ أي اتباعهم من المؤمنين ﴿ وأهلكنا المسرفين ﴾ أي المكذبين بما جاءت به الرسل .

(١٠) ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على شرف القرآن ، ومحرضا لهم على معرفة قدره ﴿ لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم ﴾ فيه شرفكم ، أو حديثكم ، أو دينكم ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي هذه النعمة وتتلقونها بالقبول .

(١١) ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾

﴿ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴾ هذه صيغة تكثير كما قال تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ ﴿ وانشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ أي أمة أخرى بعدهم .

(١٢) ﴿ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾

﴿ فلما أحسوا بأسنا ﴾ أي تيقنوا أن العذاب واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم ﴿ إذا هم منها يركضون ﴾ أي يفرون هاربين .

(١٣) ﴿ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾

﴿ لا تركضوا وارجعوا إلى ما أُترفتم فيه ومساكنكم ﴾ هذا تهكم بهم ، أي لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة ﴿ لعلكم تسئلون ﴾ أي عما كنتم فيه من أداء شكر النعم .

(١٤) ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴾ اعترفوا بذنوبهم حين لا ينفعهم ذلك .

(١٥) ﴿ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾

﴿ فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين ﴾ أي ما زالت تلك المقالة ، وهي الاعتراف بالظلم هجيراهم حتى حصدناهم حصداً ، وخمدت حركاتهم ، وأصواتهم خمودا .

(١٦) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض بالحق ، أي بالعدل والقسط ، ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، وإنه لم يخلق ذلك عبثا ولا لعبا ﴿ وما

خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾

(١٧) ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

﴿ لـو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ﴾ يعني من عندنا ، اللهو هنا المرأة ، أو الولد ﴿ إن كنا فاعلين ﴾ أي ما كنا فاعلين . قال مجاهد : كل شيء في القرآن ﴿ إن ﴾ فهو انكار .

(١٨) ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾

﴿ بل نقذف بالحق على الباطل ﴾ أي نبين الحق فيدحض الباطل ، ولهذا قال ﴿ فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ أي ذاهب مضمحل ﴿ ولكم الويل ﴾ أيـها القائلـون لله ولد ﴿ مما تصفون ﴾ أي تقولون وتفترون .

(١٩) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن عبودية الملائكة له ، ودأبهم في طاعته ليلاً ونهاراً فقال ﴿ وله من في السموات والأرض ومن عنده ﴾ يعني الملائكة ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ﴾ أي لا يستنكفون عنها ، كما قال ﴿ لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا ﴾ وقوله ﴿ ولا يستحسرون ﴾ أي لا يتعبون ولا يملون .

(٢٠) ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾

﴿ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴾ فهم دائبون في العمل ليلاً ونهاراً ، مطيعون قصداً وعملاً ، قادرون عليه كما قال تعالى ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ روى ابن أبي حاتم عن حكيم بن حزام قال : بينا رسول الله ﷺ بين أصحابه إذ قال لهم « هل تسمعون ما أسمع » ؟ قالوا : ما نسمع من شيء ، فقال رسول الله ﷺ « إني لأسمع اطيط السماء ، وما تلام أن تئط ، وما فيها موضع شبر إلا وعليه ملك ساجد أو قائم » غريب ولم يخرجوه .

(٢١) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾

ينكر تعالى على من اتخذ من دونه آلهة فقال ﴿ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون ﴾

أي أهم يحيون الموتى ، وينشرونهم من الأرض ؟ أي لا يقدرون على شيء من ذلك ، فكيف جعلوها لله ندا ، وعبدوها معه ؟

(٢٢) ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لو كان في الوجود آلهة غيره لفسدت السموات والأرض فقال ﴿ لو كان فيهما آلهة ﴾ أي في السموات والأرض ﴿ لفسدتا ﴾ كقوله تعالى ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إلّه إذا لذهب كل إلّه بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ وقال ههنا ﴿ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ أي عما يقولون إن له ولداً ، أو شريكاً ، سبحانه وتعالى وتقدس وتنزه عن الذي يفترون ويأفكون ، علواً كبيراً .

(٢٣) ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾

﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ أي هو الحاكم الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعترض عليه أحد لعظمته وجلاله ، وكبريائه وعلمه ، وعدله ولطفه ﴿ وهم يسئلون ﴾ أي وهو سائل خلقه عما يعملون ، كقوله ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ .

(٢٤) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ام اتخذوا من دونه آلهة قل ﴾ يا محمد ﴿ هاتوا برهانكم ﴾ أي دليلكم على ما تقولون ﴿ هذا ذكر من معي ﴾ يعني القرآن ﴿ وذكر من قبلي ﴾ يعني الكتب المتقدمة على خلاف ما تقولونه وتزعمون ، فكل كتاب انزل على كل نبي أرسل ناطق بأنه لا إله إلا الله ولكن انتم أيها المشركون لا تعلمون الحق ، فأنتم معرضون عنه .

(٢٥) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾

ولهذا قال ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والفطرة شاهدة بذلك أيضاً ، والمشركون لا برهان لهم ، وحجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد .

(٢٦) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾

يقول تعالى ردا على من زعم أن له ـ تعالى وتقدس ـ ولد من الملائكة كمن قال ذلك من العرب : إن الملائكة بنات الله فقال ﴿ سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ أي الملائكة عباد الله ، مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية ، وهم له في غاية الطاعة قولاً وفعلاً .

(٢٧) ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ أي لا يتقدمون بين يديه بأمر ، ولا يخالفونه فيما أمرهم به ، بل يبادرون إلى فعله ، وهو تعالى علمه محيط بهم فلا يخفى عليهم منه خافية .

(٢٨) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾

﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ ، وقوله ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ كقوله ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقوله ﴿ وهم من خشيته ﴾ أي من خوفه ورهبته ﴿ مشفقون ﴾ .

(٢٩) ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ أي من ادعى منهم أنه إله من دون الله ، أي مع الله ﴿ فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي كل من قال ذلك .

(٣٠) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى منبها على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء ، وقهره لجميع المخلوقات فقال ﴿ أولم يـر الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لالهيته ، العابدون معه غيره ، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق ، المستبد بالتدبير ، فكيف يليق أن يعبد غيره ، أو يشرك به ما سواه ؟ ألم يروا ﴿ أن السموات والأرض كانتا رتقا ﴾ أي كان الجميع متصلا بعضه ببعض ، متلاصقا متراكما بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر ففتق هذه فجعل السموات سبعا ، والأرض سبعا ، وفصل بين السماء والدنيا والأرض بالهواء ، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض ، ولهذا قال ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ أي وهم يشاهدون المخلوقات تحدث شيئاً فشيئاً عياناً ، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء . ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾ أي أصل كل الأحياء .

(٣١) ﴿ وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وجعلنا في الأرض رواسي ﴾ أي جبالاً أرسى الأرض بها وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس ، أي تضطرب وتتحرك ، فلا يحصل لهم قرار عليها ، ولهذا قال ﴿ أن تميد بهم ﴾ أي لئلا تميد بهم ﴿ وجعلنا فيها فجاجاً سبلاً ﴾ أي ثغراً في الجبال يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض ، يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه البلاد ، فيجعل الله فيه فجوة ـ ثغرة ـ ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا ، ولهذا قال ﴿ لعلهم يهتدون ﴾ .

(٣٢) ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾

﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً ﴾ أي على الأرض ، وهي كالقبة عليها ، كما قال ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ وقال ﴿ والسماء وما بناها ﴾ والبناء هو نصب القبة ، كما قال رسول الله ﷺ : « بني الإسلام على خمس » ﴿ محفوظاً ﴾ أي عالياً محروساً أن ينال ، أو مرفوعاً . ﴿ وهم عن آياتها معرضون ﴾ كقوله ﴿ وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾ أي لا يتفكرون فيما خلق الله فيها من الاتساع العظيم ، والارتفاع الباهر ، وما زينت به من الكواكب الثوابت والسيارات في ليلها ونهارها من هذه الشمس التي تقطع الفلك بكماله في يوم وليلة فتسير غاية لا يعلم قدرها إلا الله الذي قدرها وسخرها وسيرها .

(٣٣) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

﴿ وهو الذي خلق الليل والنهار ﴾ أي هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضيائه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى ، وعكسه الآخر ﴿ والشمس والقمر ﴾ هذه لها نور يخصها ، وفلك بذاته ، وزمان على حدة ، وحركة وسير خاص ، وهذا بنور آخر ، وفلك آخر ، وسير آخر ، وتقدير آخر . ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ عن ابن عباس أي يدورون كما يدور المغزل في الفلكة ، قال مجاهد : فلا يدور المغزل إلا بالفلكة ، ولا الفلكة إلا بالمغزل ، كذلك النجوم والشمس والقمر لا يدورون إلا به ، ولا يدور إلا بهن .

(٣٤) ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وما جعلنا لبشر من قبلك ﴾ يا محمد ﴿ الخلد ﴾ أي في الدنيا ، بل ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام ﴾ وقد استدل بهذه الآية الكريمة من

ذهب من العلماء إلى أن الخضر عليه السلام مات ، وليس بحي إلى الآن ، لأنه بشر ، سواء كان ولياً أو نبياً أو رسولاً ، وقوله ﴿ افائن مت ﴾ أي يا محمد ﴿ فهم الخالدون ﴾ أي يؤملون أن يعيشوا بعدك ؟ لا يكون هذا ، بل كل إلى الفناء .

(٣٥) ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

ولهذا قال ﴿ كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة ﴾ أي نختبركم بالمصائب تارة ، وبالنعم أخرى فننظر من يشكر ومن يكفر ، ومن يصبر ومن يقنط ﴿ وإلينا ترجعون ﴾ أي فنجازيكم بأعمالكم .

(٣٦) ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وإذا رآك الذين كفروا ﴾ يعني كفار قريش كأبي جهل واشباهه ﴿ إن يتخذونك إلا هزواً ﴾ أي يستهزئون بك ، وينتقصونك ، يقولون ﴿ أهذا الذي يذكر آلهتكم ﴾ يعنون : أهذا الذي يسب آلهتكم ، ويسفه أحلامكم ؟ قال تعالى ﴿ وهم بذكر الرحمن هم كافرون ﴾ أي وهم كافرون بالله ، ومع هذا يستهزئون برسول الله .

(٣٧) ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾

﴿ خلق الانسان من عجل ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾ أي في الأمور . والحكمة في ذكر عجلة الانسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول صلوات الله وسلامه عليه وقع في النفوس سرعة الانتقام منه ، لأنه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، يؤجل ثم يعجل ، وينظر ثم لا يؤخر ، ولهذا قال ﴿ سأريكم آياتي ﴾ أي نقمي وحكمي واقتداري على من عصاني ﴿ فلا تستعجلون ﴾ .

(٣٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون أيضاً بوقوع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً ، وكفراً وعناداً ، واستبعاداً ، فقال ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

(٣٩) ﴿ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

﴿ لـو يعلم الذين كفروا حين . . . ﴾ أي لو تيقنوا أنها واقعة بهم ، لا محالة لما استعجلوا ولو يعلمون حين يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، فالعذاب محيط بهم من جميع جهاتهم ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ناصر لهم .

(٤٠) ﴿ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

﴿ بل تأتيهم بغتة ﴾ أي تأتيهم النار فجأة ﴿ فتبهتهم ﴾ أي تذعرهم فيستسلمون لها حائرين ، لا يدرون ما يصنعون ﴿ فلا يستطيعون ردها ﴾ أي ليس لهم حيلة في ذلك ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي ولا يؤخر عنهم ذلك ساعة واحدة .

(٤١) ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ عما آذاه به المشركون من الاستهزاء والتكذيب ﴿ ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ يعني من العذاب الذي كانوا يستبعدون وقوعه ، كما قال تعالى ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ .

(٤٢) ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى نعمته على عبيده في حفظه لهم بالليل والنهار ، وكلاءته وحراسته لهم بعينه التي لا تنام فقال ﴿ قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ﴾ أي بدل الرحمن ، يعني غيره ﴿ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴾ أي لا يعترفون بنعمة الله عليهم ، وإحسانه إليهم ، بل يعرضون عن آياته وآلائه .

(٤٣) ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾

﴿ أم آلهة تمنعهم من دوننا ﴾ استفهام انكار وتوبيخ ، أي ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ؟ أي الأمر كما توهموا ، لا ، ولا كما زعموا ، ولهذا قال ﴿ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴾ أي هذه الآلهة التي استندوا إليها غير الله لا يستطيعون نصر أنفسهم . وقوله ﴿ ولا هم منا يصحبون ﴾ أي يجارون ، أو لا يصحبون من الله بخير ، أو﴿ولا هم منا يصحبون ﴾ أي يمنعون .

(٤٤) ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين : إنما غرهم وحملهم على ما هم فيه من الضلال أنهم متعوا في الحياة الدنيا ، ونعموا وطال عليهم العمر فيما هم فيه ، فاعتقدوا أنهم على شيء . وقوله ﴿ أفلا يرون أن نأتي الأرض ننقصها من اطرافها ﴾ أحسن ما فسر بقوله تعالى ﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ قال الحسن البصري : يعني بذلك ظهور الاسلام على الكفر ، والمعنى أفلا يعتبرون بنصر الله لأوليائه على أعدائه واهلاكهم الأمم المكذبة ، والقرى الظالمة وانجائه لعباده المؤمنين ، ولهذا قال ﴿ أفهم الغالبون ﴾ يعني بل هم المغلوبون الأسفلون الأخسرون الأخذلون .

(٤٥) ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾

﴿ قل إنما أنذركم بالوحي ﴾ أي إنما أنا مبلغ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ، ليس ذلك إلا عما أوحاه الله إليّ ، ولكن لا يجدي هذا عمن أعمى الله بصيرته وختم على سمعه وقلبه ، ولهذا قال ﴿ ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون ﴾ .

(٤٦) ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

﴿ ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك . . . ﴾ أي ولئن مس هؤلاء المكذبين أدنى شيء من عذاب الله ليعترفون بذنوبهم وإنهم كانوا ظالمين أنفسهم في الدنيا .

(٤٧) ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ﴾ أي ونضع الموازين العدل ليوم القيامة . الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد ، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه . وقوله ﴿ فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا يظلم ربك أحداً ﴾ وقال تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ وقال لقمان لابنه ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت

بها الله إن الله لطيف خبير ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله ، وبحمده سبحان الله العظيم .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (٤٨)

قد تقدم التنبيه على أن الله تعالى كثيراً ما يقرن بين ذكر موسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، وبين كتابيهما ، ولهذا قال ﴿ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ﴾ يعني الكتاب، أي التوراة : حلالها وحرامها ، وما فرق الله بين الحق والباطل ، ولهذا قال ﴿ الفرقان وضياء وذكراً للمتقين ﴾ أي تذكير لهم وعظة .

﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ (٤٩)

ثم وصفهم فقال : ﴿ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴾ كقوله ﴿ من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ﴾ ﴿ وهم من الساعة مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون .

﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ (٥٠)

ثم قال تعالى ﴿ وهذا ذكر مبارك أنزلناه ﴾ يعني القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴿ أفأنتم له منكرون ﴾ أي أفتنكرونه ، وهو في غاية الجلاء والظهور .

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَـٰلِمِينَ ﴾ (٥١)

يخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه آتاه رشده من قبل ، أي من صغره ألهمه الحق والحجة على قومه ، كما قال تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ ﴿ وكنا به عالمين ﴾ أي وكان أهلاً لذلك .

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ ﴾ (٥٢)

﴿ إذ قال لأبيه وقومه ﴾ هذا هو الرشد الذي أوتيه من صغره الانكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله عز وجل فقال ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ أي معتكفون على عبادتها . روى ابن أبي حاتم أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مر على قوم يلعبون بالشطرنج فقال : ﴿ ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ﴾ ؟ لأن يمس

أحدكم جمراً حتى يطفأ خير له من أن يمسها .

(٥٣) ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾

أي لم يكن لهم حجة إلا صنيع آبائهم الضلال .

(٥٤) ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

ولهذا ﴿ قال ﴾ لهم ﴿ لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين ﴾ أي الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بهم كالكلام معكم ، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم .

(٥٥) ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾

فلما سفه أحلامهم ، واحتقر آلهتهم ﴿ قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ﴾ يقولون : هذا الكلام الصادر عنك تقوله لاعبا أو محقا فيه ؟ فإنا لم نسمع به قبلك .

(٥٦) ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴾

﴿ قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن ﴾ أي ربكم الذي لا إله غيره ، وهو الذي خلق السموات والأرض وما حوت من المخلوقات الذي ابتدأ خلقهن ، وهو الخالق لجميع الأشياء ﴿ وانا على ذلكم من الشاهدين ﴾ أي وأنا أشهد أنه لا إله غيره ، ولا رب سواه .

(٥٧) ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾

ثم أقسم الخليل قسماً أسمعه بعض قومه ليكيدن أصنامهم ، أي ليحرضن على أذاهم وتكسيرهم بعد أن يولوا مدبرين أي إلى عيدهم ، وكان لهم عيد يخرجون إليه . قال السدي : لما اقترب وقت ذلك العيد قال أبوه : يا بني لو خرجت معنا إلى عيدنا لأعجبك ديننا ، فخرج معهم ، فلما كان ببعض الطريق القى نفسه إلى الأرض وقال : إني سقيم فجعلوا يمرون عليه ، وهو صريع ، فيقولون : مه ، فيقول : إني سقيم ، فلما جاوز عامتهم ، وبقي ضعفاؤهم قال ﴿ تالله لأكيدن أصنامكم ﴾ فسمعه أولئك .

(٥٨) ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ أي حطاماً ، كسرها كلها إلا كبيراً لهم ، يعني إلا الصنم الكبير

عندهم ، كما قال ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ وقوله ﴿ لعلهم إليه يرجعون ﴾ ذكروا أنه وضع القدوم في يد كبيرهم لعلهم يعتقدون أنه هو الذي غار لنفسه ، وأنف أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها .

﴿ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (٥٩)

﴿ قالوا من فعل هذا بآلهتنا ﴾ أي حين رجعوا وشاهدوا ما فعله الخليل بأصنامهم من الاهانة والازلال الدال على عدم الهيتها ، وعلى سخافة عقول عابديها ﴿ إنه لمن الظالمين ﴾ أي في صنيعه هذا .

﴿ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ (٦٠)

أي قال من سمعه يحلف ليكيدنهم ﴿ سمعنا فتى ﴾ أي شاباً ﴿ يذكرهم ﴾ ﴿ يقال له إبراهيم ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبياً إلا شاباً ، ولا أوتي العلم عالم إلا هو شاب ، وتلا هذه الآية .

﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ (٦١)

﴿ قالوا فأتوا به على أعين الناس ﴾ أي على رؤوس الاشهاد في الملأ الأكبر بحضرة الناس كلهم ، وكان هذا هو المقصود الأكبر لإبراهيم عليه السلام ، أن يبين في هذا المحفل العظيم كثرة جهلهم ، وقلة عقلهم في عبادة هذه الأصنام التي لا تدفع عن نفسها ضرا ، ولا تملك لها نصرا فكيف يطلب منها شيء من ذلك ؟

﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ (٦٣)

﴿ قال بل فعله كبيرهم هذا ﴾ يعني الذي تركه لم يكسره ﴿ فاسألوهم إن كانوا ينطقون ﴾ وإنما أراد من هذا أن يبادروا من تلقاء أنفسهم فيعترفوا أنهم لا ينطقون ، وأن هذا لا يصدر عن هذا الصنم لأنه جماد . وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « إن إبراهيم عليه السلام لم يكذب غير ثلاث : ثنتين في ذات الله : قوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا : وقوله ﴿ إني سقيم ﴾ ، قال : وبينا هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ، ومعه سارة إذ نزل منزلاً ، فأتى الجبار رجل فقال : إنه قد نزل ههنا رجل بأرضك ، معه امرأة أحسن الناس ، فأرسل إليه فجاء ، فقال : ما هذه المرأة منك ؟ قال : اختي ، قال :

فاذهب ، فأرسل بها إلي ، فانطلق إلى سارة ، فقال إن هذا الجبار قد سألني عنك ، فأخبرته أنك اختي فلا تكذبيني عنده ، فإنك أختي في كتاب الله ، وإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك ، فانطلق بها إبراهيم ثم قام يصلي ، فلما أن دخلت عليه فرآها أهوى إليها فتناولها ،فأخذها أخذاً شديداً ، فقال: ادعي الله ولي ولا أضرك ، فدعت له فأرسل ، فأهوى إليها ، فتناولها فأخذ بمثلها ، أو أشد ، ففعل ذلك الثالثة ، فأخذ فذكر مثل المرتين الأولتين ، فقال : ادعي الله فلا أضرك فدعت له فأرسل ثم دعا أدنى حجابه فقال : إنك لم تأت بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان ، أخرجها واعطها هاجر ، فأخرجت ، وأعطيت هاجر فأقبلت ، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته وقال : مهيم ؟ قالت : كفى الله كيد الكافر الفاجر ، وأخذ مني هاجر .

(٦٤) ﴿ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم ابراهيم حين قال لهم ما قال ﴿ فرجعوا إلى أنفسهم ﴾ أي بالملامة في عدم احترازهم وحراستهم لآلهتهم ، فقالوا ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ أي في تركك لها مهملة لا حافظ عندها .

(٦٥) ﴿ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴾

﴿ ثم نكسوا على رؤ وسهم ﴾ أي ثم أطرقوا في الأرض فقالوا ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ فكيف تقول لنا : سلوهم إن كانوا ينطقون ، وأنت تعلم أنها لا تنطق .

(٦٦) ﴿ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴾

فعندها قال لهم إبراهيم لما اعترفوا بذلك ﴿ أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ﴾ أي إذا كانت لا تنطق ، وهي لا تنفع ولا تضر ، فلم تعبدونها من دون الله ؟ .

(٦٧) ﴿ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾

أي أفلا تتدبرون ما أنتم فيه الضلال والكفر الغليظ الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر، فأقام عليهم الحجة والزمهم بها، ولهذا قال تعالى ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ .

(٦٨) ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾

لما دحضت حجتهم ، وبان عجزهم ، وظهر الحق ، واندفع الباطل عدلوا إلى استعمال جاه ملكهم ، فقالوا ﴿ حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾ فجمعوا حطباً كثيراً جداً ، ثم جعلوه في حومة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها شرر عظيم ، ولهب مرتفع ، لم توقد نار قط مثلها، وجعلوا إبراهيم عليه السلام في كفة المنجنيق فلما ألقوه قال حسبي الله ونعم الوكيل ، كما رواه البخاري ، عن ابن عباس أنه قال : حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ حين قالوا ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ .

(٦٩) ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾

﴿ قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم ﴾ يقول : لا تضريه .

(٧٠) ﴿ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾

أي المغلوبين الأسفلين لأنهم أرادوا بنبي الله كيداً فكادهم الله ونجاه من النار فغلبوا هنالك .

(٧١) ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم أنه سلمه الله من نار قومه واخرجه من بين اظهرهم مهاجراً إلى بلاد الشام إلى الأرض المقدسة منها ﴿ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين ﴾ .

(٧٢) ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾

﴿ نافلة ﴾ عطية ، ﴿ وكلا جعلنا صالحين ﴾ أي الجميع أهل خير وصلاح .

(٧٣) ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾

﴿ أئمة ﴾ أي يقتدى بهم ﴿ يهدون بأمرنا ﴾ أي يدعون إلى الله باذنه ﴿ وكانوا لنا عابدين ﴾ أي فاعلين لما يأمرون الناس به .

(٧٤) ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (٧٥)

ثم عطف بذكر لوط عليه السلام ، كان قد آمن بابراهيم عليه السلام ، واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿ فآمن له لوط وقال إني مهاجر إلى ربي ﴾ فآتاه الله حكماً وعلماً ، وأوحى إليه وجعله نبياً ، وبعثه إلى سدوم واعمالها فخالفوه وكذبوه فأهلكهم الله ودمر عليهم ، كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ، ولهذا قال ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين ﴾ .

(٧٦) ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾

يخبر تعالى عن استجابته لعبده ورسوله نوح عليه السلام حين دعا على قومه لما كذبوه ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ ولهذا قال هنا ﴿ إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله ﴾ أي الذين آمنوا به ﴿ من الكرب العظيم ﴾ أي من الشدة والتكذيب والأذى ، فإنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل فلم يؤمن به منهم إلا القليل ، وكانوا يتصدون لأذاه ، ويتواصون قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل على خلافه .

(٧٧) ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ ونصرناه من القوم ﴾ أي ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم ﴿ الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم اجمعين ﴾ أي أهلكهم الله بعامة ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحد كما دعا عليهم نبيهم .

(٧٨) ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (٧٩)

﴿ إذ نفشت فيه غنم القوم ﴾ النفش لا يكون إلا بالليل ، والهمل بالنهار ﴿ ففهمناها سليمان ﴾ عن ابن عباس : قال : قضى داوود بالغنم لأصحاب الحرث فخرج الرعاء معهم الكلاب ، فقال لهم سليمان : كيف قضى بينكم ؟ فأخبروه ، فقال : لو وليت أمركم لقضيت بغير هذا ، فأخبر بذلك داوود فدعاه فقال : كيف تقضي بينهم ؟ قال : أدفع الغنم لصاحب الحرث ، فيكون له اولادها والبانها وسلاؤها ومنافعها ، ويبذر اصحاب الغنم لأهل الحرث مثل حرثهم ، فإذا بلغ الحرث الذي كان عليه اخذه اصحاب الحرث ، وردوا الغنم إلى اصحابها . ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن والطير وكنا

فاعلين﴾ وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه ، وترد عليه الجبال تأويباً ، ولهذا لما مر النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل ، وكان له صوت طيب جداً فوقف واستمع لقراءته وقال : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داوود » قال يا رسول الله ، لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيراً .

﴿٨٠﴾ ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾

﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴾ يعني صنعة الدروع . قال قتادة : إنما كانت الدروع قبله صفائح ، وهو أول من سردها حلقاً كما قال تعالى ﴿ وألنا له الحديد أن أعمل سابغات وقدر في السرد ﴾ أي لا توسع الحلقة فتقلق المسمار ، ولا تغلظ المسمار فتقد الحلقة، ولهذا قال ﴿لتحصنكم من بأسكم﴾ يعني في القتال ﴿فهل أنتم شاكرون ﴾ أي نعم الله عليكم لما الهم به عبده داوود فعلمه ذلك من أجلكم .

﴿٨١﴾ ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾

﴿ ولسليمان الريح عاصفة ﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح العاصفة ﴿ تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها ﴾ يعني أرض الشام ﴿ وكنا بكل شيء عالمين ﴾ وذلك أنه كان له بساط من خشب ، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند ، ثم يأمر الريح أن تحمله فتدخل تحته ، ثم تحمله فترفعه ، وتسير به وتظله الطير تقيه الحر إلى حيث يشاء من الأرض فينزل ، وتوضع آلاته وحشمه ، قال الله تعالى ﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ وقال تعالى ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ .

﴿٨٢﴾ ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾

﴿ ومن الشياطين من يغوصون له ﴾ أي في الماء يستخرجون اللآليء والجواهر وغير ذلك ﴿ ويعملون عملاً دون ذلك ﴾ أي غير ذلك كما قال تعالى ﴿ والشياطين كل بناء وغواص . وآخرين مقرنين في الاصفاد ﴾ وقوله ﴿ وكنا لهم حافظين ﴾ أي يحرسه الله أن يناله أحد من الشياطين بسوء ، بل كل في قبضته ، وتحت قهره ، لا يتجاسر أحد منهم

على الدنو إليه ، والقرب منه ، بل هو يحكم فيهم ، إن شاء أطلق ، وإن شاء حبس منهم من يشاء ، ولهذا قال ﴿ وآخرين مقرنين في الاصفاد ﴾ .

﴿ * وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ﴿٨٣﴾

يذكر تعالى عن أيوب عليه السلام ما كان أصابه من البلاء في ماله وولده وجسده ، وذلك أنه كان له من الدواب والانعام والحرث شيء كثير ، وأولاد كثيرة ، ومنازل مرضية ، فابتلي في ذلك كله ، وذهب عن آخره ، ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه سوى زوجته كانت تقوم بأمره ، ويقال : إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من اجله ، وقد قال النبي ﷺ « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل » وفي الحديث الآخر « يبتلى الرجل على قدر دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه » وقد كان نبي الله أيوب عليه السلام غاية في الصبر ، وبه يضرب المثل في ذلك . ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين ﴾ وقوله ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم ﴾ أوتي أجرهم في الآخرة ، وأعطي مثلهم في الدنيا ، وقوله ﴿ رحمة من عندنا ﴾ أي فعلناه به ذلك رحمة من الله به ﴿ وذكرى للعابدين ﴾ أي وجعلناه في ذلك قدوة لئلا يظن أهل البلاء إنما فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا ، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء ، وله الحكمة البالغة في ذلك .

﴿ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ ﴿٨٥﴾

واما اسماعيل فالمراد به ابن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، وقد تقدم ذكره في سورة مريم ، وكذا ادريس عليه السلام ، واما ذو الكفل فالظاهر أنه ما قرن مع الأنبياء إلا وهو نبي ، وقال آخرون : إنما كان رجلا صالحاً ، وكان ملكاً عادلاً ، وحكماً مقسطاً .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾

هذه القصة مذكورة ههنا وفي سورة الصافات وفي سورة نٓ ، وذلك أن يونس بن متى عليه السلام بعثه الله إلى أهل قرية « نينوى » وهي قرية من أرض الموصل ، فدعاهم إلى الله

تعالى فأبوا عليه ، وتمادوا على كفرهم ، فخرج من بين أظهرهم مغاضباً لهم ، ووعدهم بالعذاب بعد ثلاث ، فلما تحققوا منه ذلك ، وعلموا أن النبي لا يكذب خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم ، وانعامهم ومواشيهم ، وفرقوا بين الأمهات وأولادها ، ثم تضرعوا إلى الله عز وجل ، وجأروا إليه ، ورغت الابل وفصلانها ، وخارت البقر وأولادها ، وثغت الغنم وسخالها ، فرفع الله عنهم العذاب ، قال الله تعالى ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ واما يونس عليه السلام فإنه ذهب فركب مع قوم في سفينة فلججت بهم ، وخافوا أن يغرقوا ، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه فوقعت القرعة على يونس ، فأبوا أن يلقوه ، ثم اعادوها فوقعت عليه أيضاً فأبوا ، ثم اعادوها فوقعت عليه أيضاً ، قال الله تعالى ﴿ فساهم فكان من المدحضين ﴾ أي وقعت عليه القرعة ، فقام يونس عليه السلام وتجرد من ثيابه ثم القى نفسه في البحر ، وقد ارسل الله سبحانه من البحر حوتا يشق البحار حتى جاء فالتقم يونس حين القى نفسه من السفينة فأوحى الله إلى ذلك الحوت أن لا تأكل له لحماً ، ولا تهشم له عظماً فإن يونس ليس لك رزقا ، وإنما بطنك تكون له سجناً ، وقوله ﴿ وذا النون ﴾ يعني الحوت ﴿ إذ ذهب مغاضباً ﴾ أي لقومه ﴿ فظن أن لن نقدر عليه ﴾ أي نضيق عليه في بطن الحوت ، أو نقضي عليه ، كأنه جعل ذلك بمعنى التقدير ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ ظلمة بطن الحوت ، وظلمة البحر وظلمة الليل .

(٨٨) ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم ﴾ أي أخرجناه من بطن الحوت ، وتلك الظلمات ﴿ وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ أي إذا كانوا في الشدائد ، ودعونا منيبين إلينا ، ولا سيما إذا دعوا بهذا الدعاء في حال البلاء ، فقد جاء الترغيب في الدعاء به عن سيد الأنبياء ، « دعوة » ذي النون إذ هو في بطن الحوت ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له » رواه الترمذي والنسائي والامام أحمد .

(٨٩) ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده زكريا حين طلب أن يهبه الله ولداً يكون من بعده نبياً ، وقد ذكرت قصته في أول سورة مريم ، وفي سورة آل عمران . ﴿ إذ نادى ربه ﴾ أي خفية عن قومه

﴿ رب لا تذرني فردا ﴾ أي لا ولد لي ، ولا وارث يقوم بعدي في الناس ﴿ وأنت خير الوارثين ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة .

(٩٠) ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾

﴿ فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه ﴾ أي امرأته ، كانت عاقرا لا تلد فولدت وقيل : كان في لسانها طول ، فأصلحها الله ، وقيل : كان في خلقها شيء فأصلحها الله والأظهر من السياق الأول . ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ﴾ أي في عمل القربات وفعل الطاعات ﴿ ويدعوننا رغباً ورهباً ﴾ رغباً فيما عندنا ، ورهباً مما عندنا ﴿ وكانوا لنا خاشعين﴾ أي مصدقين بما أنزل الله، أو مؤمنين حقاً، أو خائفين، أو الخشوع هو الخوف اللازم للقلب لا يفارقه أبداً ، أو ﴿ خاشعين ﴾ أي متواضعين ، أو متذللين لله عز وجل ، وكل هذه الأقوال متقاربة .

(٩١) ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

هكذا يذكر الله تعالى قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام ، فيذكر اولا قصة زكريا ، ثم يتبعها بقصة مريم ، لأن تلك مربوطة بهذه ، فإنها ايجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن ، ومن امرأة عجوز عاقر لم تكن تلد في حال شبابها ، ثم يذكر قصة مريم ، وهي اعجب ، فإنها ايجاد ولد من أنثى بلا ذكر . ﴿ والتي احصنت فرجها ﴾ يعني مريم عليها السلام كما قال في سورة التحريم ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا ﴾ وقوله ﴿ وجعلناها وابنها آية للعالمين ﴾ أي دلالة على أن الله على كل شيء قدير ، وأنه يخلق ما يشاء ، وإنما امره اذا اراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، وهذا كقوله ﴿ ولنجعله آية للناس ﴾ ﴿ للعالمين ﴾ الجن والانس ، أي أن هذه شريعتكم التي بينت لكم ، ووضحت لكم .

(٩٢) ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾

﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ يقول : دينكم دين واحد ، وسنتكم سنة واحدة ، ﴿ وأنا ربكم فاعبدون ﴾ وفي الحديث « نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » يعني أن المقصود هو عبادة الله وحده لا شريك له بشرائع متنوعة لرسله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾ .

(٩٣) ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾

﴿ وتقطعوا أمرهم بينهم ﴾ أي اختلفت الأمم على رسلها ، فمن بين مصدق لهم ، ومكذب . ولهذا قال ﴿ كل الينا راجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازى كل بحسب عمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٩٤) ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴾

﴿ فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴾ أي قلبه مصدق ، وعمل عملاً صالحاً ﴿ فلا كفران لسعيه ﴾ كقوله ﴿ انا لا نضيع أجر من أحسن عملا ﴾ أي لا يكفر عمله ، بل يشكر ، فلا يظلم مثقال ذرة ، ولهذا قال ﴿ وإنا له كاتبون ﴾ أي يكتب جميع عمله فلا يضيع عليه شيء منه .

(٩٥) ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ وحرام على قرية ﴾ قال ابن عباس يعني قد قدر أن أهل كل قرية أهلكوا أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة ، وقيل ﴿ لا يرجعون ﴾ لا يتوبون ، والقول الأول أظهر .

(٩٦) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾

﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾ هم من سلالة آدم ، بل هم من نسل نوح أيضاً ، تركوا من وراء السد الذي بناه ذو القرنين ﴿ وهم من كل حدب ينسلون ﴾ أي يسرعون في المشي إلى الفساد ، والحدب هو المرتفع من الأرض ، وهذه صفتهم في حال خروجهم كأن السامع مشاهد لذلك ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ هذا إخبار عالم ما كان ، وما يكون ، الذي يعلم غيب السموات والأرض ، لا إله إلا هو .

(٩٧) ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾

﴿ واقترب الوعد الحق ﴾ يعني يوم القيامة إذا حصلت هذه الأهوال والزلازل والبلابل ، ازفت الساعة ، واقتربت ، فإذا كانت ووقعت قال الكافرون : هذا يوم عسر ، ولهذا قال ﴿ فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ﴾ أي من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام ﴿ يا ويلنا ﴾ أي يقولون يا ويلنا ﴿ قد كنا في غفلة من هذا ﴾ أي في الدنيا ﴿ بل كنا ظالمين ﴾

يعترفون بظلمهم لأنفسهم حيث لا ينفعهم ذلك .

(٩٨) ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطباً لأهل مكة من مشركي قريش ومن دان بدينهم من عبدة الأصنام والأوثان ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ أي وقودها ، يعني كقوله ﴿ وقودها الناس والحجارة ﴾ ، أو حصب جهنم ، شجر جهنم ، ﴿ أنتم لها واردون ﴾ أي داخلون .

(٩٩) ﴿ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ لـو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ﴾ يعني لو كانت هذه الأصنام والأنداد التي اتخذتموها من دون الله آلهة صحيحة لما وردوا النار وما دخلوها ﴿ وكل فيها خالدون ﴾ أي العابدون ومعبوداتهم كلهم فيها خالدون .

(١٠٠) ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ لهم فيها زفير ﴾ كما قال تعالى ﴿ لهم فيها زفير وشهيق ﴾ والزفير خروج أنفاسهم ، والشهيق ولوج أنفاسهم ﴿ وهم فيها لا يسمعون ﴾ .

(١٠١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾

﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى ﴾ السعادة ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ لما ذكر تعالى أهل النار وعذابهم بسبب شركهم بالله عطف بذكر السعداء من المؤمنين بالله ورسوله ، وهم الذين سبقت لهم من الله السعادة ، وأسلفوا الأعمال الصالحة في الدنيا ﴿ أولئك عنها مبعدون ﴾ .

(١٠٢) ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ لا يسمعون حسيسها ﴾ أي حريقها في الأجساد ﴿ وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ فسلمهم من المحذور والمرهوب ، وحصل لهم المطلوب والمحبوب .

(١٠٣) ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ قيل : المراد بذلك الموت ، أو هو النفخة في الصور

﴿ وتتلقاهم الملائكة ﴾ يعني تقول لهم الملائكة تبشرهم يوم معادهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿ هذا يومكم الذي كنتم توعدون ﴾ أي فأملوا ما يسركم .

(١٠٤) ﴿ يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾

يقول تعالى : هذا كائن يوم القيامة ﴿ يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب ﴾ روى البخاري عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ قال « إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين ، وتكون السموات بيمينه » والمراد بالسجل الكتاب ، ﴿ كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ﴾ يعني هذا كائن لا محالة يوم يعيد الله الخلائق خلقا جديدا كما بدأهم ، وهو القادر على اعادتهم ، وذلك واجب الوقوع ، لأنه من جملة وعد الله الذي لا يخلف ولا يبدل ، وهو القادر على ذلك .

(١٠٥) ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ، ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى ﴿ إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ وقال تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ﴾ الزبور : التوراة والانجيل والقرآن ، وقال مجاهد : الزبور الكتاب ، وقال آخرون : الزبور الذي أنزل على داود، أو الذكر : التوراة ، وعن ابن عباس : الذكر القرآن . ﴿ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ عن ابن عباس قال : أرض الجنة .

(١٠٦) ﴿ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴾

﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين ﴾ أي إن في هذا القرآن الذي أنزلناه على عبدنا محمد ﷺ لبلاغاً وكفاية لقوم عابدين ، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه وآثروا طاعة الله على طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم .

(١٠٧) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ يخبر تعالى أن الله جعل محمداً ﷺ رحمة للعالمين ، أي أرسله رحمة لهم كلهم ، فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة ، ومن ردها وجحدها خسر الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين

بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ .

(١٠٨) ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه أن يقول للمشركين ﴿ إنما يوحى إلي أنما الهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ أي متبعون على ذلك ، مستسلمون له ، منقادون له .

(١٠٩) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾

﴿ فإن تولوا ﴾ أي تركوا ما دعوتهم إليه ﴿ فقل آذنتكم على سواء ﴾ أي أعلمتكم أني حرب لكم كما أنكم حرب لي ، بريء منكم كما أنتم برآء مني كقوله ﴿ فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ . ﴿ وإن أدري أقريب أم بعيد ما توعدون ﴾ أي هو واقع لا محالة ، ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده .

(١١٠) ﴿ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾

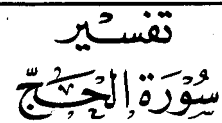
﴿ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون ﴾ أي أن الله يعلم الغيب جميعه ، ويعلم ما يظهره العباد، وما يسرون ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما العباد عاملون في اجهارهم واسرارهم ، وسيجزيهم على ذلك القليل والجليل .

(١١١) ﴿ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ وإن ادري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴾ أي وما أدري لعل هذا فتنة لكم ومتاع إلى حين ، قال ابن جرير : لعل تأخير ذلك عنكم فتنة لكم ومتاع إلى اجل مسمى .

(١١٢) ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾

﴿ قال رب احكم بالحق ﴾ أي إفصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق . قال قتادة : كانت الأنبياء عليهم السلام يقولون ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ﴾ ؛ وأمر رسول الله ﷺ أن يقول ذلك ﴿ وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون ﴾ أي على ما يقولون ويفترون من الكذب ويتنوعون في مقامات التكذيب والافك ، والله المستعان عليكم في ذلك .


تفسير سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة ، وزلازلها، وأحوالها ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ قيل إن زلزلة الساعة قبل قيام الناس من أجداثهم كما قال تعالى ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض اثقالها ﴾ وقال تعالى ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ وقال تعالى ﴿ إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا ﴾ وقيل : هذه الزلزلة بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة . ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم ﴾ أي أمر عظيم ، وخطب جليل ، وطارق مفظع ، وحادث هائل ، وكائن عجيب .

(٢) ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

﴿ يوم ترونها ﴾ هذا من باب ضمير الشأن ، ولهذا قال مفسرا له ﴿ تذهل كل مرضعة عما ارضعت ﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها ، والتي هي أشفق الناس عليه ، تدهش عنه في حال ارضاعها له ﴿ وتضع كل ذات حمل حملها ﴾ أي قبل تمامه لشدة الهول ﴿ وترى الناس سكارى ﴾ أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه ، فدهشت عقولهم ، وغابت اذهانهم ، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿ وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ﴾ .

(٣) ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴾

يقول تعالى ذاما لمن كذب بالبعث ، وانكر قدرة الله على احياء الموتى معرضا عما انزل الله على انبيائه متبعا في قوله وانكاره وكفره كل شيطان مريد من الإنس والجن ، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل ويتركون ما انزل الله على رسوله من الحق المبين ، ويتبعون اقوال رؤوس الضلالة ، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء

ولهذا قال في شأنهم وأشباههم ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ أي علم صحيح ﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾ .

﴿٤﴾ ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

﴿كتب عليه﴾ قال مجاهد : يعني الشيطان ، يعني كتب عليه كتابة قدرية ﴿أنه من تولاه﴾ أي اتبعه وقلده ﴿فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ أي يضله في الدنيا ، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير ، وهو الحار المؤلم المقلق ، المزعج .

﴿٥﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب﴾ أي شك ﴿من البعث﴾ وهو المعاد ، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿فإنا خلقناكم من تراب ، أي أصل برئه لكم من تراب ، وهو الذي خلق منه آدم عليه السلام ﴿ثم من نطفة﴾أي﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾ ﴿ثم من علقة ثم من مضغة﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك ، يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء باذن الله فتمكث كذلك اربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع في التشكيل ، والتخطيط ، فيصور منها رأس ويدان ، وصدر وبطن ، وفخذان ورجلان ، وسائر الأعضاء ، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل ، والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى ﴿ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ أي كما تشاهدونها ﴿لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي تارة تستقر في الرحم ، لا تلقيها المرأة ولا تسقطها . وفي الصحيحين « إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع

كلمات ، فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح » ﴿ ثم نخرجكم طفلاً ﴾ أي ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله ، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً ، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار ، ولهذا قال ﴿ ثم لتبلغوا أشدّكم ﴾ أي يتكامل القوي ويتزايد ، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ﴿ ومنكم من يتوفى ﴾ أي في حال شبابه وقواه ﴿ ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر ﴾ وهو الشيخوخة والهرم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقض الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال ﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ وقوله ﴿وترى الأرض هامدة﴾ هذا دليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى كما يحي الأرض الميتة الهامدة ، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات ، وحييت بعد موتها وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ثم انبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع واشتات النباتات في اختلاف الوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها ، ولهذا قال تعالى ﴿ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ أي حسن المنظر طيب الريح .

(٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿ وأنه يحي الموتى ﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة ، وأنبت منها هذه الأنواع ﴿ إن الذي أحياها لمحي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

(٧) ﴿ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾

﴿ وإن الساعة آتية لا ريب فيها ﴾ أي كائنة لا شك فيها ولا مرية ﴿ وأن الله يبعث من في القبور ﴾ أي يعيدهم بعد ما صاروا في قبورهم رمما ، ويوجدهم بعد العدم ، كما قال تعالى ﴿ وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ .

(٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد ﴾ ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر

والبدع فقال ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي بلا عقل صحيح ، ولا نقل صريح ، بل بمجرد الرأي والهوى .

(٩) ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

﴿ ثاني عطفه ﴾ مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه ، أي لاوي عطفه ، وهي رقبته يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق ويثني رقبته استكباراً كقوله تعالى ﴿ وفي موسى إذ ارسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ، فتولى بركنه ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤ وسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ وقال لقمان لابنه ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ وقوله ﴿ ليضل عن سبيله ﴾ هي لام العاقبة ، أو لام التعليل ، ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين ، أو أن يكون المراد بها أن هذا الفاعل ، لهذا إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله ﴿ له في الدنيا خزى ﴾ وهو الاهانة والذل ، كما أنه لما استكبر عن آيات الله لقّاه الله المذلة في الدنيا ، عاقبة فيها قبل الآخرة ، لأنها أكبر همه ، ومبلغ علمه ، ﴿ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ .

(١٠) ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ أي يقال له هذا تقريعا وتوبيخا ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ كقوله تعالى ﴿ خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم . ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم . ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ .

(١١) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ على حرف ﴾ على شك ، أو على طرف ، ومنه حرف الجبل أي طرفه ، أي دخل في الدين على طرف ، فإن وجد ما يحبه استقر ، وإلا انشمر . روى البخاري عن ابن عباس ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴾ قال : كان الرجل يقدم المدينة ، فإن ولدت

امرأته غلاماً ، ونتجت خيله قال : هذا دين صالح ، وإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء ﴿ انقلب على وجهه ﴾ أي ارتد كافراً ، وقوله ﴿ خسر الدنيا والآخرة ﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء ، واما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو في غاية الشقاء والاهانة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة ، والصفقة الخاسرة .

(١٢) ﴿ يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾

﴿ يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ﴾ أي من الأصنام والانداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها ، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ .

(١٣) ﴿ يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴾

﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها ، واما في الآخرة فضره محقق متيقن وقوله ﴿ لبئس المولى ﴾ يعني الوثن ، يعني بئس هذا الذي دعاه من دون الله مولى ، يعني ولياً وناصراً ﴿ وبئس العشير ﴾ وهو المخالط والمعاشر ، واختار ابن جرير أن المراد لبئس ابن العم والصاحب .

(١٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأفعالهم ، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات ، وتركوا المنكرات ، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات . ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ﴿ إن الله يفعل ما يريد ﴾ .

(١٥) ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾

قال ابن عباس : من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿ فليمدد بسبب ﴾ أي بحبل ﴿ إلى السماء ﴾ أي سماء بيته ﴿ ثم ليقطع ﴾ يقول : ثم ليختنق به .
وقيل : ﴿ فليمدد بسبب إلى السماء ﴾ أي ليتوصل إلى بلوغ السماء فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء ﴿ ثم ليقطع ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك . وقول ابن عباس أولى

وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم ، فإن المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه ، فإن الله ناصره لا محالة ، قال الله تعالى ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ﴾ ولهذا قال ﴿ فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ .

(١٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾

﴿ وكذلك أنزلناه ﴾ أي القرآن ﴿ آيات بينات ﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس ﴿ وأن الله يهدي من يريد ﴾ أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، وله الحكمة التامة ، والحجة القاطعة في ذلك ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ أما هو فلحكمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته ولا معقب لحكمه ، وهو سريع الحساب .

(١٧) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره فإنه تعالى ﴿ يفصل بينهم يوم القيامة ﴾ ويحكم بينهم بالعدل فيدخل من آمن به الجنة ، ومن كفر به النار ، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم ، حفيظ لأقوالهم ، عليم بسرائرهم ، وما تكن ضمائرهم .

(١٨) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له ، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً ، وسجود كل شيء مما يختص به كما قال تعالى ﴿ أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داخرون ﴾ وقال ههنا ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ﴾ أي من الملائكة في أقطار السموات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطير ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ وقوله ﴿ والشمس والقمر والنجوم ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله ، فبين أنها تسجد لخالقها ، وأنها مربوبة مسخرة ﴿ لا تسجدوا للشمس

ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن ﴾ وفي الصحيحين عن أبي ذر قال : قال لي رسول الله ﷺ « أتدري أين تذهب هذه الشمس ؟ » قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنها تذهب فتسجد تحت العرش ، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها : ارجعي من حيث جئت » وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل ﴿ والدواب ﴾ أي الحيوانات كلها ، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر ، فرب مركوبة خيراً وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها ، وقوله ﴿ وكثير من الناس ﴾ أي يسجد لله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿ وكثير حق عليه العذاب ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء ﴾ روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي رضي الله عنه أن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة ، فقال له : يا عبد الله ، خلقك الله كما يشاء أو كما شاء ؟ قال : بل كما شاء ، قال فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال : ولو قلت : غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك . وفي الحديث « إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي ، يقول : يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار » رواه مسلم .

(١٩) ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿ هذان خصمان اختصموا في ربهم ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه ، وعتبة وصاحبيه يوم برزوا في بدر ـ وصاحبا علي هما حمزة وعبيدة ، وصاحبا عتبة هما شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ـ أو اختصم المسلمون وأهل الكتاب ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم ، فنحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كتابنا يقضي على الكتب كلها ، ونبينا خاتم الأنبياء ، فنحن أولى بالله منكم ، فأفلج الله الإسلام على من ناوأه ، وأنزل الله ﴿ هذان خصمان . . . ﴾ أو مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث ، أو هم المؤمنون والكافرون ، وهذا القول يشمل الأقوال كلها ﴿ فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار ، ﴿ يصب من فوق رؤوسهم الحميم ﴾ .

(٢٠) ﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾

أي إذا صب على رؤوسهم الحميم ، وهو الماء الحار في غاية الحرارة تذوب جلودهم .

(٢١) ﴿ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾

﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال « لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض » وقال ابن عباس في قوله ﴿ ولهم مقامع من حديد ﴾ قال : يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور .

(٢٢) ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ﴾ عن سلمان قال : النار سوداء مظلمة ، لا يضيء لهبها ، ولا جمرها ، ثم قرأ ﴿ كلما أرادوا أن . . . ﴾ وقال الفضيل بن عياض : والله ما طمعوا في الخروج ، إن الأرجل لمقيدة ، وإن الأيدي لموثقة ، ولكن يرفعهم لهبها ، وتردهم مقامعها . ﴿ وذوقوا عذاب الحريق ﴾ كقوله ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولاً وفعلاً .

(٢٣) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار ـ عياذاً بالله من حالهم ـ وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والاغلال ، وما أعد لهم من الثياب من النار ذكر حال أهل الجنة ، نسأل الله من فضله وكرمه فقال: ﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي تتحرق في أكنافها وأرجائها وجوانبها ، وتحت أشجارها ، وقصورها ، يصرفونها حيث شاءوا أو أين أرادوا ﴿ يحلون فيها ﴾ من الحلية ﴿ من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ أي في أيديهم كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم ، لباس هؤلاء من الحرير : استبرقه وسندسه ، كما قال تعالى ﴿ عاليهم سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهورا ﴾ وفي الصحيح « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » .

(٢٤) ﴿ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

﴿ وهدوا إلى الطيب من القول ﴾ كقوله تعالى ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ وقوله ﴿ والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ ﴿ وهدوا إلى صراط الحميد ﴾ أي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم ، وأنعم به وأسداه إليهم ، أو هدوا إلى الطريق المستقيم في الدنيا .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَـٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢٥)

يقول تعالى منكراً على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام ، وقضاء مناسكهم فيه ، ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ﴾ ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ أي ومن صفاتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر . ﴿ الذي جعلناه للناس سواء العاكفُ فيه والباد ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام ، وقد جعله الله شرعاً سواء ، لا فرق فيه بين المقيم فيه والنائي عنه البعيد الدار منه ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد ﴾ تقديره الحاداً ، فالباء زائدة ، أو ضمن الفعل معنى بهم ولهذا عداه بالباء فقال ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد ﴾ أي يهم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار ﴿ بظلم ﴾ أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمتأول .

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ (٢٦)

هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت ، أي أرشده إليه ، وسلمه له ، وأذن له في بنائه ، واستدل به كثير ممن قال : إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق ، وإنه لم يبن قبله كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت : ثم أي ؟ قال : « بيت المقدس » قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » وقد قال الله تعالى : ﴿ إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ﴾ وقوله ﴿ أن لا تشرك بي شيئاً ﴾ أي إبنه على اسمي وحدي ﴿ وطهر بيتي ﴾ من الشرك ﴿ للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك

له ، فالطائف به معروف ، وهو أخص العبادات عند البيت ، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿ والقائمين ﴾ أي في الصلاة ، ولهذا قال ﴿ والركع السجود ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مختصين بالبيت ، فالطواف عنده ، والصلاة إليه في غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة ، وفي الحرب ، وفي نافلة السفر ، والله أعلم .

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (٢٧)

﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه ،وقوله ﴿ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر ﴾ استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً ، لأنه قدمهم في الذكر ، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام . وقوله ﴿ يأتين من كل فج ﴾ طريق . وقوله ﴿ عميق ﴾ أي بعيد ، وهذه كقوله تعالى ﴿ فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم ﴾ فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف ، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار .

﴿ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾ (٢٨)

قال ابن عباس ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ قال منافع الدنيا والآخرة ، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى ، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبائح والتجارات . ﴿ ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ الأيام المعلومات أيام العشر . وفي حديث البخاري عن النبي ﷺ « ما العمل في أيام أفضل منها في هذه » قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء » وهذا هو العشر الذي أقسم الله به ﴿ والفجر وليال عشر ﴾ وقال بعض السلف : انه المراد بقوله : ﴿ وأتممناها بعشر ﴾ وفي سنن أبي داوود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر ، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة ، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عرفة فقال : « أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية ،

والآتية » ويشتمل هذا العشر على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر ، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله ، وفضل هذا العشر كثير على عشر رمضان الأخير لأنه يمتاز باختصاصه بأداء فرض الحج فيه ، وقيل : ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر ، وتوسط آخرون ، فقالوا : أيام هذا أفضل ، وليالي ذاك أفضل ، وبهذا يجتمع شمل الأدلة . والله أعلم ﴿ فكلوا منها ﴾ والأكثرون على أن الأكل من لحوم الأضاحي مستحب ، وقيل : بوجوبه ، وهو غريب ﴿ وأطعموا البائس الفقير ﴾ هو المضطر الذي عليه البؤس ، وهو الفقير المتعفف .

(٢٩) ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾

﴿ ثم ليقضوا تفثهم ﴾ هو وضع الاحرام عن حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك ﴿ وليوفوا نذورهم ﴾ يعني نحر ما نذر من أمر البدن . ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ يعني الطواف الواجب يوم النحر .

(٣٠) ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

﴿ ومن يعظم حرمات الله ﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه ، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿ فهو خير له عند ربه ﴾ أي فله على ذلك خير كثير ، وثواب جزيل ﴿ وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام ، وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به .
﴿ فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ .

(٣١) ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾

﴿ حنفاء لله ﴾ مخلصين له الدين ﴿ فتخطفه الطير ﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء ﴿ سحيق ﴾ بعيد مهلك لمن هوى فيه .

(٣٢) ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

﴿ ومن يعظم شعائر الله ﴾ أي أوامره ﴿ فإنها من تقوى القلوب ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا

والبدن ، وعن ابن عباس : تعظيمها استسمانها واستحسانها . وصحيح البخاري « ضحى بكبشين أملحين أقرنين » .

(٣٣) ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾

﴿ لكم فيها منافع ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى ﴿ ثم محلها إلى البيت العتيق ﴾ أي محل الهدي وانتهاؤه إلى البيت العتيق ، وهو الكعبة كما قال تعالى ﴿ هدياً بالغ الكعبة ﴾ .

(٣٤) ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك ، وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل . وقوله ﴿ ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما . ﴿ فإلهكم إله واحد فله أسلموا ﴾ أي معبودكم واحد ، وإن تنوعت شرائع الأنبياء ، ونسخ بعضها بعضاً ، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له . ﴿ وبشر المخبتين ﴾ المطمئنين ، أو المتواضعين ، أو المختبين الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا .

(٣٥) ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿ والصابرين على ما أصابهم ﴾ أي من المصائب ﴿ والمقيمي الصلاة ﴾ أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهليهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاويجهم ، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله ، وهذه بخلاف صفات المنافقين ، فإنهم بالعكس من هذا كله .

(٣٦) ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا

وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عبيده فيما خلق لهم من البدن ، وجعلها من شعائره ، وهو أنه جعلها تهدى إلى بيته الحرام ، بل هي أفضل ما يهدى إليه كما قال تعالى ﴿ لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام ﴾ والبدن البقرة والبعير ﴿ لكم فيها خير ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة،عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها ، وأن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض ، فطيبوا بها نفساً » رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه . ﴿ فاذكروا اسم الله عليها صواف ﴾ عن جابر بن عبدالله قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى ، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال : « باسم الله والله أكبر ، هذا عني ، وعمن لم يضح من أمتي » رواه أحمد وأبو داوود والترمذي ﴿ صواف ﴾ قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله اللهم منك ولك . ﴿ فإذا وجبت جنوبها ﴾ سقطت إلى الأرض . ﴿ فكلوا منها ﴾ أمر إباحة ، وقال مالك : يستحب ذلك ، وقال غيره : يجب . والقانع : المستغني بما أعطيته وهو في بيته ، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم ، ولا يسأل . ﴿ سخرناها لكم ﴾ أي ذللناها لكم ، وجعلناها منقادة لكم خاضعة ، إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم حلبتم ، وإن شئتم ذبحتم .

(٣٧) ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴾

يقول تعالى إنما شرع لكم هذه الهدايا الضحايا لتذكروه عند ذبحها ، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دمائها ، فإنه تعالى هو الغني عما سواه ، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قرابينهم ، ونضحوا عليها من دمائها ﴿ ولكن يناله التقوى منكم ﴾ أي يتقبل ذلك ويجزي عليه ، كما جاء في الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ﴿ كذلك سخرها لكم ﴾ أي من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿ لتكبروا الله على ما هداكم ﴾ أي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه ، وما يحبه ويرضاه ، ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه ﴿ وبشر المحسنين ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين ، أي في عملهم القائمين بحدود

الله ، المتبعين ما شرع لهم المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل .

(٣٨) ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه ، وأنابوا إليه شر الاشرار ، وكيد الفجار ، ويحفظهم ويكلؤهم وينصرهم ، كما قال تعالى ﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ وقال ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقوله ﴿ إن الله لا يحب كل خوان كفور ﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا ، وهو الخيانة في العهود والمواثيق أي لا يفي بما قال ، والكفر: الجحد للنعم فلا يعترف بها .

(٣٩) ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾

نزلت في محمد ﷺ وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، فقال أبو بكر عند نزولها : فعرفت أنه سيكون قتال . ﴿ وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال ، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته .

(٤٠) ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

﴿ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ﴾ أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمداً ﷺ ﴿ إلا أن يقولوا ربنا الله ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة ، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض ، ولأهلك القوي الضعيف ﴿ لهدمت صوامع ﴾ وهي المعابد الصغار للرهبان ﴿ وبيع ﴾ وهي أوسع منها ، وأكثر عابدين فيها ، وهي للنصارى أيضاً ، وقيل إنها كنائس اليهود ، ﴿ وصلوات ﴾ الكنائس ، أو الكنائس اليهود ، وهم يسمونها صلوات أو مساجد لأهل الكتاب ، ولأهل الإسلام بالطرق ، وأما المساجد فهي للمسلمين ﴿ يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾ الضمير عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات ، وقيل الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ كقوله ﴿ إن تنصروا الله ينصركم

ويثبت أقدامكم ﴾ وقوله ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وبعزته لا يقهره قاهر ، ولا يغلبه غالب ، بل كل شيء ذليل لديه ، فقير إليه ، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور ، وعدوه المقهور .

(٤١) ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

عن عثمان بن عفان قال : فينا نزلت ﴿ الذين إن مكناهم في الأرض . . . ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا : ربنا الله ثم مكنا في الأرض فأقمنا الصلاة ، وآتينا الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ، ونهينا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ، فهي لي ولأصحابي .

(٤٢) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه ﴿ وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح . . . ﴾ إلى أن قال ﴿ وكذب موسى ﴾ أي مع ما جاء به من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ﴿ فأمليت للكافرين ﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم ﴿ ثم أخذتهم فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ، ومعاقبتي لهم ؟ وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ وبين إهلاك الله له أربعين سنة . وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ ﴿ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد ﴾ .

(٤٥) ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾

﴿ فكأين من قرية أهلكناها ﴾ أي كم من قرية أهلكناها ﴿ وهي ظالمة ﴾ أي مكذبة لرسلها ﴿ فهي خاوية على عروشها ﴾ سقوفها أي قد خربت منازلها ، وتعطلت حواضرها ﴿ وبئر معطلة ﴾ أي لا يستقي منها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها ، والازدحام عليها . ﴿ وقصر مشيد ﴾ يعني المبيَّض بالجص ، أو المشيد : المنيع الحصين .

(٤٦) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً ، وذلك كاف ﴿ فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ﴾ أي فيعتبرون بها ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ أي ليس العمى عمى البصر ، وإنما عمى البصيرة ، إن كانت القوة الباصرة سليمة ، فإنها لا تنفذ إلى العبر ، ولا تدري ما الخبر .

(٤٧) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله ، وكتابه ورسوله واليوم الآخر . كما قال تعالى ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ ﴿ ولن يخلف الله وعده ﴾ أي الذي وعد من إقامة الساعة ، والانتقام من أعدائه ، والاكرام لأوليائه ﴿ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ أي هو تعالى لا يعجل ، فإن مقدار ألف سنة من خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه ، لعلمه بأنه على الانتقام قادر ، وأنه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأملى ، ولهذا قال بعد هذا .

(٤٨) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير ﴾ وفي الحديث « يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم ، خمسمائة سنة » رواه الترمذي والنسائي .

(٤٩) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب ، واستعجلوه به ﴿ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴾ أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً بين يدي عذاب شديد ، وليس إلي من حسابكم من شيء ، أمركم إلى الله ، إن شاء عجل لكم العذاب ، وإن شاء أخره عنكم ، وإن شاء تاب على من يتوب إليه ، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة ، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿ لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب ﴾ .

(٥٠) ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿ لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم ، ومجازاة حسنة على القليل من

حسناتهم . أو ﴿ ورزق كريم ﴾ الجنة .

(٥١) ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾

﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ يثبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ ﴿ معاجزين ﴾ مراغمين ﴿ أولئك أصحاب الجحيم ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها . أجارنا الله منها . قال تعالى ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون ﴾ .

(٥٢) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ، ولكنها من طريق مرسلة ، ولم أرها مسندة من وجه صحيح . والله أعلم . عن سعيد بن جبير قال : قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم ، فلما بلغ هذا الموضع ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴾ قال : فألقى الشيطان على لسانه : تلك الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى ، قالوا : ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا ، فأنزل الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته . . . ﴾ هذا فيه تسلية من الله لرسوله ﷺ أي لا يهيدنك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ﴿ في أمنيته ﴾ أي إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه ، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ﴿ ثم يحكم الله آياته ﴾ ﴿ والله عليم ﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية ، ﴿ حكيم ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره ، له الحكمة التامة ، والحجة البالغة .

(٥٣) ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

﴿ ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك ، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله ، وإنما كان من الشيطان ﴿ والقاسية قلوبهم ﴾ هم المشركون ، أو هم اليهود ﴿ وإن الظالمين لفي شقاق بعيد ﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي من الحق والصواب .

(٥٤) ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به ﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل ، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره ، بل هو كتاب عزيز ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقوله ﴿ فيؤمنوا به ﴾ أي يصدقوه وينقادوا ﴿ فتخبت له قلوبهم ﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم ﴿ وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه ، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه ، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات ، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات . وقد أجيب عن قصة الغرانيق بأجوبة من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك ـ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى ـ فتوهموا أنه صدر عن رسول الله ﷺ ، وليس كذلك في نفس الأمر ، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ . والله أعلم .

(٥٥) ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية ، أي في شك من هذا القرآن ﴿ حتى تأتيهم الساعة بغتة ﴾ فجأة ، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم ، فلا تغتروا بالله ، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون . ﴿ أو يأتيهم عذاب يوم عقيم ﴾ هو يوم بدر ، أو هو يوم القيامة ، لا ليل له ، وهذا هو القول الصحيح ، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به .

(٥٦) ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

﴿ الملك يومئذ لله يحكم بينهم ﴾ كقوله ﴿ مالك يوم الدين ﴾ وقوله ﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ ﴿ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله ، وعملوا بمقتضى ما علموا ، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم . ﴿ في جنات النعيم ﴾ أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد .

(٥٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا ﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدته وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿ فأولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي مقابلة استكبارهم وإبائهم عن الحق . ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين .

(٥٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عمن خرج مهاجراً في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وطلباً لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلان ، وفارق بلاده في الله ورسوله ، ونصره لدين الله ، ثم قتلوا ، أي في الجهاد ، أو ماتوا أي حتف أنفهم من غير قتال على فرشهم فقد حصلوا على الأجر الجزيل ، والثناء الجميل ، كما قال تعالى ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ وقوله ﴿ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴾ أي ليجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿ وإن الله لهو خير الرازقين ﴾ .

(٥٩) ﴿ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴾

﴿ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم ﴾ أي بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿ حليم ﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب ، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه ، وتوكلهم عليه . فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فإنه حي عند ربه يرزق كما قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ .

(٦٠) ﴿ ۞ ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴾

﴿ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به . . . ﴾ نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم فناشدهم المسلمون لئلا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ﴿ إن الله لعفو غفور ﴾ .

(٦١) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء ، كما قال ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء

بيدك الخير إنك على كل شيء قدير . تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ ومعنى إيلاجه الليل في النهار ، والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا ، ومن هذا في هذا ، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء ، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف . وقوله ﴿ وأن الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، لا تخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم .

(٦٢) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَـٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ﴾ أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل شيء فقير إليه ، ذليل لديه ﴿ وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ﴾ أي من الأصنام والأنداد والأوثان ، وكل ما عبد من دون الله فهو باطل لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً . وقوله ﴿ وأن الله هو العلي الكبير ﴾ كما قال ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ وقال ﴿ وهو الكبير المتعال ﴾ فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه ، العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي لا أكبر منه ، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً .

(٦٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته ، وعظيم سلطانه ، وأنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فتمطر على الأرض الجرز التي لا نبات فيها ، هامدة يابسة سوداء ممحلة ﴿ فتصبح الأرض مخضرة ﴾ أي خضراء بعد يباسها ومحولها . ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب ، وإن صغر ، لا يخفى عليه خافية ، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به .

(٦٤) ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ملكه جميع الأشياء ، وهو غني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه عبد لديه .

(٦٥) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ أي من حيوان وجماد وزروع وثمار ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ أي بتسخيره وتسييره أي في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجائر وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء كما ذهبوا مما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي مع ظلمهم.

(٦٦) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴾

﴿وهو الذي أحياكم﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر فأوجدكم ﴿ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ أي يوم القيامة ﴿إن الانسان لكفور﴾ أي جحود.

(٦٧) ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الانسان ويتردد إليه، إما لخير أو شر، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لترداد الناس إليها، وعكوفهم عليها، ﴿هم ناسكوه﴾ أي فاعلوه، أي هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق إنما يفعلون هذا عن قدر الله وإرادته فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال ﴿وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ أي طريق واضح مستقيم، موصل إلى المقصود.

(٦٨) ﴿ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾ كقوله ﴿وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ وقوله ﴿الله أعلم بما تعملون﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد.

(٦٩) ﴿ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

وهذه الآية كقوله ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾.

(٧٠) ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه ، وأنه محيط بما في السموات وما في الأرض ، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها ، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

(٧١) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً ، يعني حجة وبرهاناً ، ﴿ وما ليس لهم به علم ﴾ أي ولا علم لهم فيما اختلقوه وائتفكوه ، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ، ولا حجة ، واصلة مما سول لهم الشيطان وزينه لهم ، ولهذا توعدهم تعالى بقوله ﴿ وما للظالمين من نصير ﴾ أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال .

(٧٢) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج الواضحات على توحيد الله ، وأنه لا إله إلا هو ، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿ يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا ﴾ أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن ، ويبسطون إليهم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿ أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير ﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا ، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتم بزعمكم وإرادتكم . وقوله

﴿ وبئس المصير ﴾ أي وبئس النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً وموئلاً ومقاماً ﴿ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴾ .

(٧٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل ﴾ أي لما يعبده الجاهلون ، المشركون به ﴿ فاستمعوا له ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿ إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك . وقد روى الإمام أحمد مرفوعا « ومَن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو حبة » وأخرجه صاحبا الصحيح ﴿ وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد ، بل أبلغ من ذلك ، عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب ، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت عليه ، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها ، ولهذا قال ﴿ ضعف الطالب والمطلوب ﴾ الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب ، وقيل : الطالب العابد والمطلوب الصنم .

(٧٤) ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

﴿ ما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿ إن الله لقوي عزيز ﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ إن بطش ربك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ وقوله ﴿ عزيز ﴾ أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه ، وهو الواحد القهار .

(٧٥) ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ أي سميع لأقوال عباده ، بصير بهم ، عليم بمن يستحق ذلك منهم ، كما قال ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ .

(٧٦) ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما قال ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول﴾ فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم ، حافظ لهم ، ناصر لجنابهم .

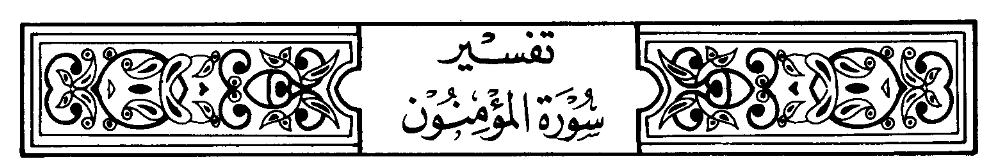
(٧٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج ، هل هو مشروع السجود فيها أم لا ؟ على قولين ، وفي الحديث عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ « فضلت سورة الحج بسجدتين ، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما » .

(٧٨) ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ أي بأموالكم وألسنتكم وأنفسكم ، كما قال ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ وقوله ﴿ هو اجتباكم ﴾ أي يا هذه الأمة ، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم ، وفضلكم وشرفكم ، وخصكم بأكرم رسول ، وأكمل شرع ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ أي ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً . ﴿ ملة أبيكم إبراهيم ﴾ أي ، بل وسع الدين عليكم ، كلمة أبيكم إبراهيم ، أو الزموا ملة أبيكم إبراهيم ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل ﴾ يعني إبراهيم ، وذلك قوله ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك ﴾ قال ابن جرير : وهذا لا وجه له لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في القرآن مسلمين ، وقد قال تعالى ﴿ هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ﴾ قال مجاهد : الله سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة ، وفي الذكر ﴿ وفي هذا ﴾ يعني القرآن ، وهذا هو الصواب ، لأنه تعالى قال ﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ وقوله ﴿ ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع الأمم لتكونوا يوم القيامة ﴿ شهداء على الناس ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها ، فلهذا تقبل

شهادتهم عليهم يوم القيامة من أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها . ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها ، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض ، وطاعة ما أوجب وترك ما حرم ، ومن أهم ذلك إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وهو الاحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج ﴿ واعتصموا بالله ﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به ، وتوكلوا عليه وتأيدوا به ﴿ هو مولاكم ﴾ أي حافظكم وناصركم ، ومظفركم على أعدائكم ﴿ فنعم المولى ونعم النصير ﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء .



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

في مسند الامام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول : كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة ، ورفع يديه وقال « اللهم زدنا ولا تنقصنا واكرمنا ولا تهنا ، واعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وارض عنا وارضنا ، ثم قال : « لقد انزل علي عشر آيات ، من اقامهن دخل الجنة » ثم قرأ ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ حتى ختم العشر . و ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ قد فازوا أو سعدوا ، وحصلوا على الفلاح ، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف .

(٢) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾

﴿ الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ خائفون ساكنون ، والخشوع خشوع القلب .

(٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾

﴿ والذين هم عن اللغو معرضون ﴾ أي عن الباطل ، وهو يشتمل الشرك ، والمعاصي ، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال ، كما قال تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراما ﴾ .

(٤) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾

﴿ والذين هم للزكاة فاعلون ﴾ المراد ههنا زكاة الأموال ، ويحتمل أن يكون المراد زكاة النفس من الشرك والدنس .

(٥) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾

﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ أي والذين قد حفظوا فروجهم من الحرام ، فلا يقعون فيما نهاهم من زنا ولواط .

(٦) ﴿ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾

﴿ الا على ازواجهم أو ما ملكت إيمانهم﴾ أي لا يقربون سوى ازواجهم التي احلها الله لهم ، أو ما ملكت أيمانهم من السراري ومن تعاطى ما احله الله له فلا لوم عليه ولا حرج ولهذا قال ﴿ فإنهم غير ملومين ﴾ .

(٧) ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾

﴿ فمن ابتغى وراء ذلك ﴾ اي غير الأزواج والاماء ﴿ فأولئك هم العادون ﴾ أي المعتدون . وقد استدل الامام الشافعي رحمه الله ومن وافقه على تحريم الاستمناء باليد بهذه الآية الكريمة .

(٨) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾

﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي إذا أؤتمنوا لم يخونوا ، بل يؤدونها إلى اهلها وإذا عاهدوا أو عاقدوا أوفوا بذلك ، لا كصفات المنافقين الذين قال فيهم رسول الله ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

(٩) ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ أي يواظبون عليها في مواقيتها كما قال ابن مسعود : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، أي العمل احب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » اخرجاه في الصحيحين . وقال قتادة : على مواقيتها وركوعها وسجودها . وقد افتتح الله ذكر هذه الصفات الحميدة بالصلاة ، واختتمها بالصلاة فدل على أفضليتها

كما قال رسول الله ﷺ : « استقيموا ، ولن تحصوا ، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة ، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن » .

(١٠) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ (١٠) ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (١١)

وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة ، وفوقه العرش »، وثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ « يجيء ناس يوم القيامة من المسلمين بذنوب أمثال الجبال فيغفرها الله لهم ، ويضعها على اليهود والنصارى » وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا ﴾ وكقوله ﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ .

(١٢) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن مبدأ خلق الانسان من سلالة من طين ، وهو آدم عليه السلام خلقه الله من صلصال من حمأ مسنون (من سلالة من طين) قال قتادة : استل آدم من الطين ، فإن آدم خلق من طين لازب ، وهو الصلصال من الحمأ المسنون ، وذلك مخلوق من التراب .

(١٣) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

﴿ ثم جعلناه نطفة ﴾ هذا الضمير عائد على جنس الانسان ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ وبدأ خلق الانسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ أي ضعيف ، كما قال ﴿ الم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعني : الرحم معد لذلك .

(١٤) ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

﴿ ثم خلقنا النطفة علقة ﴾ أي ثم صيرنا النطفة ، وهي الماء الدافق الذي يخرج من صلب الرجل ، وهو ظهره وترائب المرأة ، وهي عظام صدرها ما بين الترقوة إلى السرة فصارت علقة حمراء على شكل العلقة مستطيلة ، وهي دم ﴿ فخلقنا العلقة مضغة ﴾ وهي

قطعة كالبضعة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿ فخلقنا المضغة عظاماً ﴾ يعني شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها ، ﴿ فكسونا العظام لحماً ﴾ أي جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقويه ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ أي ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر ، وادراك وحركة واضطراب ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ عن علي بن أبي طالب قال : إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله اليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث ، فذلك قوله ﴿ ثم أنشأناه خلقاً آخر ﴾ يعني نفخنا فيه الروح .

(١٥) ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴾

يعني بعد هذه النشأة الأولى من العدم تصيرون إلى الموت .

(١٦) ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾

يعني النشأة الآخرة ﴿ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾ يعني المعاد وقيام الأرواح إلى الأجساد ، فيحاسب الخلائق .

(١٧) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾

﴿ سبع طرائق ﴾ يعني السموات السبع ﴿ وما كنا عن الخلق غافلين ﴾ فيعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو سبحانه لا يحجب عنه سماء سماء ، ولا أرض أرضاً ، ولا جبل إلا يعلم ما في وعره ، ولا بحر إلا يعلم ما في قعره ، يعلم عدد ما في الجبال والتلال والرمال والبحار والقفار والأشجار ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ .

(١٨) ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عباده التي لا تعد ولا تحصى في انزاله القطر من السماء بقدر ، أي بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به ، حتى أن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ، ولا تحتمل دمنتها انزال المطر يسوق اليها الماء من بلاد أخرى ، كما في أرض مصر ، ويقال لها : الأرض الجرز ، يسوق الله اليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان امطارها فيأتي الماء معه طين أحمر فيسقي أرض مصر ، ويقر

الطين على أرضهم ليزرعوا فيه ، لأن أرضهم سباخ ، يغلب عليها الرمال ، فسبحان اللطيف الخبير الرحيم الغفور . ﴿ فأسكناه في الأرض ﴾ أي جعلنا الماء إذا نزل من السحاب يخلد في الأرض ، وجعلنا في الأرض قابلية له ، وتشربه وتتغذى به ما فيها من الحب والنوى ﴿ وانا على ذهاب به لقادرون ﴾ أي لو شئنا أن لا تمطر لفعلنا ، ولو شئنا اذى لصرفناه عنكم إلى السباخ والبراري والقفار ، ولو شئنا لجعلناه اجاجا ، لا ينتفع به لشرب ، ولا لسقي لفعلنا ، ولو شئنا لجعلناه لا ينزل في الأرض ، بل ينجر على وجهها ، ولو شئنا لجعلناه إذا نزل فيها يغور إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه ورحمته ينزل عليكم الماء من السحاب عذباً فراتاً زلالا فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع في الأرض ، فيفتح العيون والأنهار ، ويسقي به الزروع والثمار تشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم وتغتسلون منه ، وتتطهرون منه ، وتتنظفون ، فله الحمد والمنة .

(١٩) ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾

﴿ فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب ﴾ يعني فأخرجنا لكم بما أنزلنا من السماء جنات أي بساتين وحدائق ، فيها نخيل واعناب ﴿ لكم فيها فواكه كثيرة ﴾ أي من جميع الثمار ﴿ ومنها تأكلون ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴾

﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء ﴾ يعني الزيتونة ، والطور هو الجبل ، وطور سيناء هو طور سينين ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام ، وما حوله من الجبال التي فيها شجر الزيتون . ﴿ تنبت بالدهن ﴾ قال بعضهم الباء زائدة أي تنبت الدهن ، أو على التضحية ، أي تأتي بالدهن ﴿ وصبغ ﴾ أي أدم ﴿ للآكلين ﴾ أي فيها ما ينتفع به من الدهن والاصباغ . روى الامام احمد عن رسول الله ﷺ « كلوا الزيت وادهنوا به ، فإنه من شجرة مباركة » .

(٢١) ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (٢٢)

﴿ وإن لكم في الأنعام لعبرة . . . ﴾ يذكر تعالى ما جعل لخلقه من الأنعام من المنافع ، وذلك أنهم يشربون من البانها الخارجة من بين فرث ودم ويأكلون من حملانها ، ويلبسون

من أصوافها وأوبارها وأشعارها ، ويركبون ظهورها ، ويحملونها الأحمال الثقال إلى البلاد النائية عنهم .

(٢٣) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام حين بعثه إلى قومه لينذرهم عذاب الله وبأسه الشديد ، وانتقامه ممن أشرك به ، وخالف أمره ، وكذب رسله ﴿ أفلا تتقون ﴾ أي ألا تخافون من الله في إشراككم به ؟ .

(٢٤) ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

فقال الملأ وهم السادة والأكابر منهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ﴾ يعنون يترفع عليكم ويتعاظم بدعوىٰ النبوة ، وهو بشر مثلكم ، فكيف أوحى إليه دونكم ﴿ ولو شاء الله لأنزل ملائكة ﴾ أي لو أراد أن يبعث نبيه لبعث ملكاً من عنده ، ولم يكن بشرا ، ﴿ ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ أي ببعثة البشر في آبائنا الأولين ، يعنون بهذا أسلافهم وأجدادهم في الدهور الماضية .

(٢٥) ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾

﴿ إن هو إلا رجل به جنة ﴾ أي مجنون فيما يزعمه من أن الله أرسله اليكم ، واختصه من بينكم بالوحي ﴿ فتربصوا به حتى حين ﴾ أي انتظروا به ريب المنون ، واصبروا عليه مدة حتى تستريحوا منه .

(٢٦) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾

يخبر تعالى عن نوح عليه السلام أنه دعا ربه ليستنصره على قومه كما قال تعالى مخبراً عنه في الآية الأخرى ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ وقال ههنا ﴿ رب انصرني بما كذبون ﴾ .

(٢٧) ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾

فعند ذلك أمره الله بصنعه السفينة وإحكامها واتقانها ، وأن يحمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي ذكراً وأنثى ، من كل صنف من الحيوانات والنباتات والثمار ، وغير ذلك ، وأن يحمل فيها أهله ﴿ الا من سبق عليه القول منهم ﴾ أي من سبق عليه القول من الله بالهلاك ، وهم الذين لم يؤمنوا به من أهله كابنه وزوجته ، ﴿ ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون ﴾ أي عند معاينة انزال المطر العظيم ، لا تأخذنك رأفة بقومك ، وشفقة عليهم ، وطمع في تأخيرهم ، لعلهم يؤمنون ، فإني قد قضيت أنهم مغرقون على ما هم عليه من الكفر والطغيان .

(٢٨) ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ فإذا استويت أنت ومن معك﴾ كما قال ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ، ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم علَيه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وانا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في هذا الصنيع ، وهو انجاء المؤمنين واهلاك الكافرين لآيات ، أي لحججاً ودلالات واضحات على صدق الأنبياء فيما جاؤ وا به عن الله تعالى ، وإنه تعالى فاعل لما يشاء قادر على كل شيء عليم بكل شيء ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ أي لمختبرين للعباد بارسال المرسلين .

(٣١) ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه انشأ بعد قوم نوح قرناً آخرين قيل : المراد بهم عاد ، فإنهم كانوا مستخلفين بعدهم ، وقيل : المراد بهؤلاء ثمود لقوله ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ .

(٣٢) ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَـٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَـٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

فأرسل الله فيهم رسولا منهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فكذبوه وخالفوه ،

وأبوا عن اتباعه لكونه بشرا مثلهم .

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾ (٣٤)

فاستنكفوا عن اتباع رسول بشري ، وكذبوا بلقاء الله في القيامة ، وأنكروا المعاد الجثماني .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ (٣٥) ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤١)

وقالوا ﴿ أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون ﴾ أي بعد ذلك ﴿ إن هو الا رجل افترى على الله كذبا ﴾ أي فيما جاءكم به من الرسالة والنذارة والإخبار بالمعاد ﴿ وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرني بما كذبون ﴾ أي استفتح عليهم الرسول ، واستنصر ربه عليهم فأجاب دعاءه ﴿ قال عما قليل ليصبحن نادمين ﴾ أي بمخالفتك وعنادك فيما جئتهم به ﴿ فأخذتهم الصيحة بالحق ﴾ أي وكانوا يستحقون ذلك من الله بكفرهم وطغيانهم . والظاهر أنه اجتمع عليهم صيحة مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد . وقوله ﴿ فجعلناهم غثاء ﴾ أي صرعى هلكى كغثاء السيل ، وهو الشيء الحقير التافه الهالك الذي لا ينتفع بشيء منه ﴿ فبعدا للقوم الظالمين ﴾ أي بكفرهم وعنادهم ومخالفة رسول الله ، فليحذر السامعون أن يكذبوا رسولهم .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٤٤)

يقول تعالى ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ أي أمماً وخلائق ﴿ ما تسبق من امة اجلها وما يستأخرون ﴾ يعني بل يؤخذون على ما قدر لهم تعالى في كتابه المحفوظ ، وعلمه قبل كونهم أمة بعد أمة ، وقرناً بعد قرن ، وجيلاً بعد جيل ، وخلفاً بعد سلف .

﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى ﴾ يتبع بعضهم بعضاً . وقوله ﴿ كلما جاء امة رسولها كذبوه ﴾ يعني جمهورهم وأكثرهم ﴿ فأتبعنا بعضهم بعضاً ﴾ أي أهلكناهم . ﴿ وجعلناهم أحاديث ﴾ أي اخباراً واحاديث للناس كقوله ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ .

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ﴿٤٩﴾

يخبر تعالى أنه بعث رسوله موسى عليه السلام واخاه هارون إلى فرعون وملئه بالآيات والحجج الدامغات ، والبراهين القاطعات ، وإن فرعون وقومه استكبروا عن اتباعهما والانقياد لأمرهما ، لكونهما بشرين كما انكرت الأمم الماضية بعثة الرسل من البشر ، تشابهت قلوبهم ، فأهلك الله فرعون وملأه، واغرقهم في يوم واحد اجمعين ، وأنزل على موسى الكتاب ، وهو التوراة فيها أحكامه وأوامره ونواهيه ، وذلك بعد أن قصم الله فرعون والقبط ، وأخذ أخذ عزيز مقتدر ، وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين ، كما قال ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون ﴾ .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ ﴿٥٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليهما السلام أنه جعلهما آية للناس ، أي حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . ﴿ وآويناهما إلى ربوة ﴾ الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ ذات قرار ﴾ يقول : ذات خصب ﴿ ومعين ﴾ الماء الجاري . هل هذه الربوة بمصر ، أو دمشق ، أو هي الرملة من فلسطين ؟ أقوال للعلماء .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي

ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٥٦﴾

يأمر تعالى عباده المرسلين عليهم الصلاة والسلام أجمعين بالأكل من الحلال ، والقيام بالصالح من الأعمال ، فدل هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح ، فقام الأنبياء عليهم السلام بهذا أتم القيام ، وجمعوا بين كل خير قولاً وعملاً ودلالة ونصحا . فجزاهم الله عن العباد خيراً ﴿ من الطيبات ﴾ يعني الحلال . . وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة : قال : قال رسول الله ﷺ « يا أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » فقال ﴿ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم ﴾ وقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم ﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذي بالحرام ، يمد يديه إلى السماء ، يا رب يا رب ، فأنى يستجاب لذلك ؟ وقوله ﴿ وإن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملة واحدة . وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ولهذا قال ﴿ وأنا ربكم فاتقون ﴾ . ﴿ فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا ﴾ أي الأمم الذين بعثت إليهم الأنبياء ﴿ كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي يفرحون بما هم فيه من الضلال ، لأنهم يحسبون أنهم مهتدون ، ولهذا قال مهدداً لهم ومتوعداً ﴿ فذرهم في غمرتهم ﴾ أي في غيهم وضلالهم ﴿ حتى حين ﴾ أي إلى حين حينهم وهلاكهم . وقوله ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ يعني أيظن هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ، ومعزتهم عندنا ؟ كلا ، ليس الأمر كما يزعمون في قولهم ﴿ نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ لقد أخطأوا في ذلك ، وخاب رجاؤهم ، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاء ، ولهذا قال ﴿ بل لا يشعرون ﴾ .

﴿٥٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾

أي هم مع إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون منه ، وجلون من مكره بهم .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾

أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية .

﴿٥٩﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾

أي لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ، ويعلمون أنه لا إله إلا الله ، أحد صمد ، لم يتخذ ولداً ، وأنه لا نظير له ، ولا كفء له .

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ (٦١)

﴿ والذين يؤتون ما آتوا . . . ﴾ أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا بشروط الاعطاء ، وهذا من باب الاشفاق والاحتياط . روى الإمام أحمد عن عائشة أنها قالت : يا رسول الله ، الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة : هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ قال : لا ، يا بنت الصديق ، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق ، وهو يخاف الله عز وجل » رواه الترمذي .

﴿ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٦٢)

يقول تعالى مخبراً عن عدله في شرعه على عباده في الدنيا أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، أي إلا ما تطيق حمله ، والقيام به وأنه يوم القيامة يحاسبهم بأعمالهم التي كتبها عليهم في كتاب مسطور ، لا يضيع منه شيء ، ولهذا قال ﴿ ولدينا كتاب ينطق بالحق ﴾ يعني كتاب الاعمال ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يبخسون من الخير شيئاً ، وأما السيئات فيعفو ويصفح عن كثير منها لعباده المؤمنين .

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ (٦٣)

ثم قال منكراً على الكفار والمشركين من قريش ﴿ بل قلوبهم في غمرة ﴾ أي في غفلة وضلالة ﴿ من هذا ﴾ أي القرآن الذي أنزل على رسوله ﷺ . وقوله ﴿ ولهم أعمال ﴾ أي سيئة ﴿ من دون ذلك ﴾ يعني الشرك ﴿ هم لها عاملون ﴾ لا بد أن يعملوها . وقال آخرون ﴿ لهم أعمال من دون ذلك . . . ﴾ أي قد كتبت عليهم أعمال سيئة لا بد أن يعملوها قبل موتهم لا محالة لتحق عليهم كلمة العذاب . وفي الحديث « فوالذي لا إله غيره إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » .

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ (٦٤)

﴿ حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب ﴾ يعني حتى إذا جاء مترفيهم ، « وهم المنعمون في الدنيا » عذابُ الله وبأسه ونقمته بهم ﴿ إذا هم يجأرون ﴾ أي يصرخون ويستغيثون .

(٦٥) ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾

﴿ لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون ﴾ أي لا يجيركم أحد مما حل بكم ، سواء جأرتم ، أو سكتم ، لا محيد ولا مناص ولا وزر ، لزم الأمر ووجب العذاب .

(٦٦) ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾

ثم ذكر أكبر ذنوبهم فقال ﴿ قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون ﴾ أي إذا دعيتم أبيتم ، وإن طلبتم امتنعتم .

(٦٧) ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾

﴿ مستكبرين به سامراً تهجرون ﴾ مستكبرين بالبيت ، يقولون : نحن أهله ﴿ سامرا ﴾ يتكبرون ويسمرون فيه ، ولا يعمرونه ويهجرونه .

(٦٨) ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في عدم تفهمهم للقرآن العظيم ، وتدبرهم له ، وإعراضهم عنه ، مع أنهم قد خصوا بهذا الكتاب الذي لم ينزل على رسول أكمل منه ، ولا أشرف ، لاسيما آباؤهم الذين ماتوا في الجاهلية حيث لم يبلغهم كتاب ولا أتاهم نذير ، فكان اللائق بهؤلاء أن يقابلوا النعمة التي أسداها الله عليهم بقبولها ، والقيام بشكرها وتفهمها ، والعمل بمقتضاها آناء الليل وأطراف النهار ، كما فعله النجباء منهم ممن أسلم واتبع الرسول ﷺ ورضي عنهم . ﴿ أفلم يدبروا القول ﴾ إذاً والله يجدون في القرآن زاجراً عن معصية الله ، لو تدبره القوم وعقلوه ، ولكنهم أخذوا بما تشابه فهلكوا عند ذلك .

(٦٩) ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾

ثم قال منكراً على الكافرين من قريش ﴿ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ﴾ أي أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانته التي نشأ بها فيهم ؟ أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه ؟ .

(٧٠) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾

﴿ أم يقولون به جنة ﴾ يحكي قول قريش عن النبي ﷺ . أنه تقوّل القرآن ، أي افتراه من عنده ، أو أن به جنوناً ، ولا يدري ما يقول ، وأخبر عنهم أن قلوبهم لا تؤمن به ، وهم يعلمون بطلان ما يقولونه في القرآن ، فإنه قد أتاهم من كلام الله ما لا يطاق ولا يدافع ، وقد تحداهم وجميع أهل الأرض أن يأتوا بمثله إن استطاعوا ، ولا يستطيعون أبد الآبدين ، ولهذا قال : ﴿ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ﴾ جملة مستأنفة أو حالية .

(٧١) ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾

﴿ ولو اتبع الحق أهواءهم . . . ﴾ والمراد لو أجابهم الله إلى ما في أنفسهم من الهوى وشرَّع الأمور على وفق ذلك ﴿ لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ أي لفساد أهوائهم ، واختلافها ﴿ بذكرهم ﴾ أي القرآن ﴿ فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ .

(٧٢) ﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

﴿ خرجا ﴾ أجرا ، أو جعلا ﴿ فخراج ربك خير ﴾ أي أنت لا تسألهم أجرة ولا جعلا ولا شيئا على دعوتك إياهم إلى الهدى ، بل أنت في ذلك تحتسب عند الله جزيل ثوابه .

(٧٣) ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ (٧٤)

﴿لناكبون﴾ أي لعادلون حاشرون منحرفون ، تقول العرب : نكب فلان عن الطريق إذا زاغ عنها .

(٧٥) ﴿ * وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ ولو رحمناهم . . . ﴾ يخبر تعالى عن غلظهم في كفرهم بأنه لو أزاح عنهم الضر وأفهمهم القرآن لما انقادوا له ، ولاستمروا على كفرهم وعنادهم وطغيانهم .

(٧٦) ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾

﴿ ولقد أخذناهم بالعذاب ﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ﴿ فما استكانوا لربهم ﴾ أي فما ردهم ذلك عما كانوا فيه من الكفر والمخالفة ، بل استمروا على غيهم وضلالهم .

فما استكانوا : أي ما خشعوا ﴿ وما يتضرعون ﴾ أي ما دعوا ، كما قال تعالى ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴾ .

(٧٧) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾

﴿ حتى إذا فتحنا عليهم باباً . . . ﴾ أي حتى إذا جاءهم أمر الله ، وجاءتهم الساعة بغتة ، فأخذهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ، فعند ذلك أبلسوا من كل خير ، وأيسوا من كل راحة ، وانقطعت آمالهم ورجاؤهم .

(٧٨) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

ثم ذكر تعالى نعمه على عباده بأن جعل لهم السمع والابصار والأفئدة ، وهي العقول والفهوم التي يذكرون بها الأشياء ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله ، وأنه الفاعل المختار لما يشاء . وقوله ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي ما أقل شكركم لله على ما أنعم به عليكم . كقوله ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٧٩) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة وسلطانه القاهر في برئه الخليقة ، وذرئه لهم في سائر أقطار الأرض على اختلاف أجناسهم وصفاتهم ، ثم يوم القيامة يجمع الأولين منهم والآخرين لميقات يوم معلوم ، فلا يترك منهم صغيراً ولا كبيراً ولا ذكراً ولا أنثى ولا جليلاً ولا حقيراً إلا أعاده كما بدأه ، ولهذا قال :

(٨٠) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ وهو الذي يحيي ويميت ﴾ أي يحيي الرمم ، ويميت الأمم ﴿ وله اختلاف الليل والنهار ﴾ أي وعن أمره تسخير الليل والنهار ، كل منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، يتعاقبان لا يفتران ، ولا يفترقان بزمان غيرهما ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفليس لكم عقول تدلكم على العزيز العليم الذي قد قهر كل شيء ، وعز كل شيء ، وخضع له كل شيء .

(٨١) ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ (٨٢)

ثم قال مخبراً عن منكري البعث الذين أشبهوا من قبلهم من المكذبين ﴿ بل قالوا مثل ما

قال الأولون . قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ﴾ يعني يستبعدون وقوع ذلك بعد صيرورتهم إلى البلى .

(٨٣) ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ لقد وعدنا نحن وآباؤ نا هذا . . . ﴾ يعنون : الاعادة محال ، إنما يخبر بها من تلقاها عن كتب الأولين واختلافهم .

(٨٤) ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يقرر تعالى وحدانيته واستقلاله بالخلق والتصرف والملك ليرشد إلى أنه الله الذي لا إله إلا هو ، ولا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ، ولهذا قال لرسوله محمد ﷺ أن يقول للمشركين العابدين معه غيره المعترفين له بالربوبية وأنه لا شريك له فيها ، ومع هذا فقد أشركوا معه في الإلهية فعبدوا غيره معه مع اعترافهم أن الذين عبدوهم لا يخلقون شيئاً ولا يملكون شيئاً ، ولا يستبدون بشيء ، بل اعتقدوا أنهم يقربونهم إليه زلفى ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها ؟ ﴾ أي من مالكها الذي خلقها ومن فيها من الحيوانات والنباتات والثمرات وسائر صنوف المخلوقات ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ .

(٨٥) ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ سيقولون لله ﴾ أي فيعترفون لك بأن ذلك لله وحده لا شريك له ، فإذا كان ذلك ﴿ قل أفلا تذكرون ﴾ أنه لا تنبغي العبادة إلا للخالق الرازق لا لغيره .

(٨٦) ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

أي من هو خالق العالم العلوي بما فيه من الكواكب النيرات ، والملائكة الخاضعين له في سائر الأقطار منها والجهات ﴿ورب العرش العظيم﴾ أي الكبير .

(٨٧) ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾

﴿ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ أي إذا كنتم تعترفون بأنه رب السموات ورب العرش العظيم أفلا تخافون عقابه ، وتحذرون عذابه في عبادتكم معه غيره وإشراككم به .

(٨٨) ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قل من بيده ملكوت كل شيء ﴾ أي بيده الملك ﴿ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ﴾ أي متصرف فيها ﴿ وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ﴾ كانت العرب إذا كان السيد فيهم فأجار أحداً لا يخفر في جواره . وليس لمن دونه أن يجير عليه ، لئلا يفتات عليه ولهذا قال تعالى وهو يجير ولا يجار عليه أي وهو السيد العظيم الذي لا أعظم منه الذي له الخلق والأمر . ولا معقب لحكمه الذي لا يمانع ولا يخالف ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

(٨٩) ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ (٩٠)

﴿ سيقولون لله ﴾ أي سيعترفون أن السيد العظيم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله تعالى وحده لا شريك له ﴿ قل فأنى تسحرون ﴾ أي فكيف تذهب عقولكم في عبادتكم معه غيره مع اعترافكم بذلك ﴿ بل أتيناهم بالحق ﴾ وهو الاعلام بأنه لا إله إلا الله ، وأقمنا الأدلة الصحيحة الواضحة القاطعة على ذلك ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ أي في عبادتهم مع الله غيره ، ولا دليل لهم على ذلك ، فالمشركون لا يفعلون ذلك عن دليل قادهم إلى ما هم فيه من الإفك والضلال ، وإنما يفعلون ذلك اتباعاً لآبائهم ، وأسلافهم الحيارى الجهال كما قال الله عنهم ﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

(٩١) ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

ينزه تعالى نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك والتصرف والعبادة فقال ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله . . . ﴾ أي لو قدر الآلهة لانفرد منهم بما خلق ، فما كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق ، كل من العالم العلوي والسفلي مرتبط بعضه ببعض في غاية الكمال ﴿ ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ﴾ ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعلو بعضهم على بعض ﴿ ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ أي عما يقول الظالمون المعتدون في دعواهم الولد أو الشريك علواً كبيراً .

(٩٢) ﴿ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي يعلم ما يغيب عن المخلوقات وما يشاهدونه ﴿ فتعالى عما

يشركون ﴾ أي تقدس وتنزه وتعالى عز وجل عما يقول الظالمون والجاحدون .

(٩٣) ﴿ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (٩٤)

يقول تعالى آمراً نبيه محمداً ﷺ أن يدعو بهذا الدعاء عند حلول النقم ﴿ رب إما تريني ما يوعدون ﴾ أي إن عاقبتهم وأنا أشاهد ذلك فلا تجعلني فيهم كما جاء في الحديث « وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون » .

(٩٥) ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴾

أي لو شئنا لأريناك ما نحل بهم من النقم والبلاء والمحن .

(٩٦) ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾

ثم قال تعالى مرشداً له إلى الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهو الاحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة فقال تعالى ﴿ ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ وهذا كما قال في الآية الأخرى ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ .

(٩٧) ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ (٩٨)

﴿ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أمره الله أن يستعيذ من الشياطين لأنهم لا تنفع معهم الحيل ، ولا ينقادون بالمعروف ، وقد كان النبي يقول « أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزة ونفخة ونفثة » وقوله تعالى ﴿ وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ أي في شيء من أمري ، ولهذا أمر بذكر الله في ابتداء الأمور ، وذلك لطرد الشيطان عند الأكل والجماع والذبح وغير ذلك من الأمور .

(٩٩) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (١٠٠)

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى ،

وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته ، ولهذا قال ﴿ رب ارجعون لعلي اعمل صالحا فيما تركت ﴾ وقوله ﴿ كلا إنها كلمة ﴾ كلا حرف ردع وزجر ، أي لا نجيبه إلى ما طلب ولا نقبل منه . وقوله تعالى ﴿ هو قائلها ﴾ أي لا بد أن يقولها لا محالة كل محتضر ظالم ، أو إذا قال الكافر ﴿رب ارجعون لعلي أعمل صالحا ﴾ يقول الله تعالى : كلا كذبت ، وقوله ﴿ ومن ورائهم ﴾ يعني أمامهم . ﴿ برزخ ﴾ البرزخ الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿ إلى يوم يبعثون ﴾ أي يستمر به العذاب إلى يوم البعث ، كما جاء في الحديث ﴿ فلا يزال معذباً فيها ﴾ وفي هذا تهديد لهؤلاء المحتضرين .

(١٠١) ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه إذا نفخ في الصور نفخة النشور ، وقام الناس من القبور ﴿ فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴾ أي لا تنفع الأنساب يومئذ ، ولا يرثي والد لولده ، ولا يلوي عليه .

(١٠٢) ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ فمن ثقلت موازينه ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿ فأولئك هم المفلحون ﴾ الذين فازوا فنجوا من النار ، وادخلوا الجنة .

(١٠٣) ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ ومن خفت موازينه ﴾ أي ثقلت سيئاته على حسناته ﴿ فأولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خابوا وهلكوا ، وباؤ وا بالصفقة الخاسرة ﴿ في جهنم خالدون ﴾ أي ماكثون فيها ، دائمون مقيمون ، فلا يظعنون .

(١٠٤) ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾

﴿ تلفح وجوههم النار ﴾ كما قال تعالى ﴿ وتغشى وجوههم النار ﴾ تلفحهم لفحة تسيل لحومهم على أعقابهم ﴿ وهم فيها كالحون ﴾ في الحديث « تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته » رواه الترمذي والامام أحمد .

(١٠٥) ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

هذا تقريع من الله وتوبيخ لأهل النار على ما ارتكبوه من الكفر والمآثم والمحارم والعظائم التي أوبقتهم في ذلك فقال تعالى ﴿ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴾ أي قد أرسلت اليكم الرسل ، وأنزلت اليكم الكتب وأزلت شبهكم ، ولم يبق لكم حجة .

(١٠٦) ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴾

أي قد قامت علينا الحجة ، ولكن كنا اشقى من أن ننقاد لها ونتبعها فضللنا عنها ولم نرزقها .

(١٠٧) ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾

أي رُدَّنا إلى الدنيا ، فإن عدنا إلى ما سلف منا فنحن ظالمون مستحقون للعقوبة ، كما قال تعالى ﴿فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل﴾ .

(١٠٨) ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾

هذا جواب من الله للكفار إذا سألوا الخروج من النار ، والرجعة إلى هذه الدار يقول ﴿ اخسئوا فيها ﴾ أي امكثوا فيها صاغرين مهانين اذلاء ﴿ ولا تكلمون ﴾ أي لا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فإنه لا جواب لكم عندي .

(١٠٩) ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

ثم قال تعالى مذكراً لهم بذنوبهم في الدنيا ، وما كانوا يستهزئون بعباده المؤمنين وأوليائه فقال ﴿ إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ﴾ .

(١١٠) ﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾

﴿ فاتخذتموهم سخريا ﴾ أي فسخرتم منهم في دعائهم اياي وعبادتهم ﴿ حتى أنسوكم ذكري ﴾ أي حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي ﴿ وكنتم منهم تضحكون ﴾ أي من صنيعهم وعبادتهم .

(١١١) ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا ﴾ أي على اذاكم لهم واستهزائكم ﴿ أنهم هم الفائزون ﴾ أي جعلتهم الفائزين بالسعادة والسلامة والجنة والنجاة من النار .

(١١٢) ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴾

يقول تعالى منبها لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده ، لو صبروا في مدة الدنيا لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿ قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين ﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا ؟ .

(١١٣) ﴿ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴾

﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين ﴾ أي الحاسبين .

(١١٤) ﴿ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قال إن لبثتم الا قليلاً ﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير ﴿ لو أنكم كنتم تعلمون ﴾ أي لما آثرتم الفاني على الباقي ، ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء ، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة ، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا .

(١١٥) ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ افحسبتم أنما خلقناكم عبثا ﴾ أي أفظننتم أنكم مخلوقون عبثا بلا قصد ولا ارادة منكم ولا حكمة لنا ، وقيل : للعبث أي لتلعبوا وتعبثوا ، كما خلقت البهائم ، لا ثواب لها ولا عقاب ، وإنما خلقناكم للعبادة ، وإقامة أوامر الله تعالى ﴿ وأنكم الينا ترجعون ﴾ أي لا تعودون في الدار الآخرة .

(١١٦) ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾

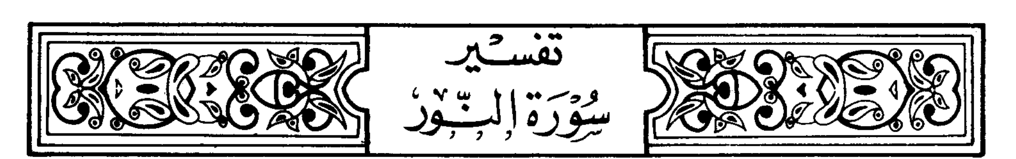
﴿ فتعالى الله الملك الحق ﴾ أي تقدس أن يخلق شيئاً عبثاً ، فإنه الملك الحق المنزه عن ذلك ﴿ لا إله إلا هو رب العرش الكريم ﴾ فذكر العرش لأنه سقف جميع المخلوقات ، ووصفه بأنه كريم ، أي حسن المنظر ، بهي الشكل .

(١١٧) ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى متوعداً من أشرك به غيره ، وعبد معه سواه ، ومخبراً أن من أشرك بالله لا برهان له ، أي لا دليل له على قوله فقال تعالى ﴿ ومن يدع مع الله لها آخر لا برهان له به ﴾ وهذه جملة معترضة ، وجواب الشرط في قوله ﴿ فإنما حسابه عند ربه ﴾ أي الله يحاسبه على ذلك . ثم أخبر ﴿ إنه لا يفلح الكافرون ﴾ أي لديه يوم القيامة ، لا فلاح لهم ، ولا نجاة .

(١١٨) ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

هذا ارشاد من الله تعالى إلى هذا الدعاء ، فالغفر إذا اطلق معناه غفر الذنب ، وستره عن الناس . والرحمة معناها أن يسدده ، ويوفقه في الأقوال والأفعال .



تفسير سُورَة النُّور

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى : هذه السورة ﴿ أنزلناها ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفي ما عداها ﴿ وفرضناها ﴾ أي بينا الحلال والحرام والأمر والنهي والحدود . ﴿ وأنزلنا فيها آيات بينات ﴾ أي مفسرات واضحات ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

(٢) ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾ يعني هذه الآية الكريمة فيها حكم الزاني في الحد ، الزاني إذا كان لم يتزوج فإن حده مائة جلدة ، وإذا كان محصنا ، وهو الذي قد وطىء في نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل ، فإنه يرجم ﴿ ولا تأخذكم بهما

رأفة في دين الله ﴾ أي في حكم الله ، أي لا ترأفوا بالزاني والزانية في شرع الله ، وليس المنهي عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد وإنما هي الرأفة التي تحمل الحاكم على ترك الحد ، فلا يجوز ذلك . ﴿ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ أي فافعلوا ذلك وأقيموا الحدود على من زنى . وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرحاً ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جلدا بحضرة الناس ، فإن ذلك يكون ابلغ في زجرهما وانجع في ردعهما ، فإن في ذلك تقريعاً وتوبيخاً وفضيحة إذا كان الناس حضوراً .

(٣) ﴿ ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزاني لا يطأ إلا زانية أو مشركة ، أي لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة لا ترى حرمة ذلك . وكذلك ﴿ الزانية لا ينكحها إلا زان ﴾ أي عاص بزناه ﴿ أو مشرك ﴾ لا يعتقد تحريمه ﴿ وحرم ذلك على المؤمنين ﴾ أي تعاطيه والتزويج بالبغايا أو تزويج العفائف بالرجال الفجار .

(٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهي الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلاً فكذلك يجلد قاذفه أيضاً ، وليس فيه نزاع بين العلماء ، فإن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله درأ عنه الحد ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء . . . ﴾ فأوجب على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام أن يجلد ثمانين جلدة ، وأنه ترد شهادته أبدا ، وأن يكون فاسقا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس . وأولئك هم الفاسقون .

(٥) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ وهل يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما ، وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين فلا تقبلوا لهم الشهادة ابدا وأولئك هم الفاسقون ـ . واما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء

تاب أو أصر ، وإلا حكم له بعد ذلك بلا خلاف . فذهب الامام مالك واحمد والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق . وقال أبو حنيفة . إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً .

(٦) ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها فرج للأزواج ، وزيادة مخرج إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة أن يلاعنها كما أمر الله عز وجل ، وهو أن يحضرها إلى الامام فيدعي عليها بما رماها به فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله في مقابلة أربعة شهداء إنه لمن الصادقين ، أي فيما رماها به من الزنا .

(٧) ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

فإذا قال ذلك بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء ، وحرمت عليه ابدا ، ويعطيها مهرها ،ويتوجب عليها حد الزنا .

(٨) ﴿ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن فتشهد اربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، أي فيما رماها به .

(٩) ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

ولهذا قال ﴿ويدرأ عنها العذاب﴾ يعني الحد وخصها بالغضب مع أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، لهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها ، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يحيد عنه .

(١٠) ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

ثم ذكر تعالى رأفته بخلقه ولطفه بهم فيما شرع لهم من الفرج والمخرج من شدة ما يكون بهم من الضيق فقال ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴾ أي لحرجتم ولشق عليكم كثير

من اموركم ﴿ وأن الله تواب ﴾ على عباده وإن كان ذلك بعد الحلف والايمان المغلظة .
﴿ حكيم ﴾ فيما يشرعه ويأمر به ، وفيما ينهى عنه .

(١١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن عائشة رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب والبهت ، والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسول الله ﷺ فقال تعالى ﴿ إن الذين جاؤ وا بالإفك عصبة منكم ﴾ أي جماعة منكم ، يعني ما هو واحد ولا اثنان ، بل جماعة فكان المقدم في هذه اللعنة عبدالله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في اذهان بعض المسلمين فتكلموا به وجوزه آخرون منهم . وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن ، وقال رسول الله ﷺ « أبشري يا عائشة ، اما الله عز وجل فقد برأك » فقوله تعالى ﴿ إن الذين جاؤ وا بالإفك ﴾ أي بالكذب والبهت والافتراء ﴿ عصبة منكم ﴾ أي جماعة منكم ﴿ لا تحسبوه شراً لكم ﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿ بل هو خير لكم ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، لسان صدق في الدنيا ، ورفعة منازل في الآخرة . واظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقوله ﴿ لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ﴾ أي لكل من تكلم في هذه القضية ، ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب ﴿ والذي تولى كبره منهم ﴾ قيل : ابتدأ به ، وقيل : الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿ له عذاب عظيم ﴾ أي على ذلك . ثم إن الأكثرين على أن المراد بذلك إنما هو عبدالله بن أبي ابن سلول قبحه الله ولعنه .

(١٢) ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين افاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، وما ذكر من شأن الافك فقال تعالى ﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ إذ سمعتموه ﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم . فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين

رضي الله عنها أولى بالبراءة منهم بطريق الأولى والأحرى وقوله ﴿ وقالوا ﴾ أي بألسنتهم ﴿ هذا إفك مبين ﴾ أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها ، فإن الذي وقع لم يكن ريبة ، وذلك إن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة والجيش بكامله يشاهدون ذلك ، ولو كان الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا

(١٣) ﴿ لَوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰٓئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَٰذِبُونَ ﴾

﴿ لولا ﴾ هلا ﴿ جاؤ وا عليه ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بأربعة شهداء ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤ وا به ﴿ فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴾ أي في حكم الله ، كاذبون فاجرون .

(١٤) ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم ، وإنابتكم إليه في الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿ لمسكم فيما أفضتم فيه ﴾ من قضية الافك ﴿ عذاب عظيم ﴾ وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبدالله بن أبي ابن سلول وأضرابه فليس أولئك مرادين في هذه الآية لأنهم ليسوا مؤمنين .

(١٥) ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

﴿ إذ تلقونه بألسنتكم ﴾ أي يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا : سمعته من فلان ، وقال فلان : كذا . وذكر بعضهم كذا ﴿ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون ﴿ وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ﴾ أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيرا سهلا ، ولو لم تكن زوجة رسول الله ﷺ لما كان هينا ، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل ، فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا ، وهو سبحانه وتعالى لا يقدّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك ، حاشا وكلا ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا في

سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة . وفي الصحيحين الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض » وفي رواية « لا يلقي لها بالا » .

(١٦) ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ أي ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام . ولا نذكره لأحد ﴿ سبحانك هذا بهتان عظيم ﴾ أي سبحان الله أن يقال : هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

(١٧) ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ﴾ أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً ﴿ إن كنتم مؤمنين ﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسول الله ﷺ . فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر .

(١٨) ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ ويبين الله لكم الآيات ﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بما يصلح عباده ، حكيم في شرعه وقدره .

(١٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيء فقام بذهنه شيء منه وتكلم به ، فلا يكثر منه ، ولا يشيعه ، ويذيعه ، فقد قال تعالى ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم ﴾ بالحد ، وفي الآخرة بالعذاب ﴿ والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ أي فردوا الأمور إليه ترشدوا . روى الامام أحمد عن النبي ﷺ قال :«لا تؤذوا عباد الله ، ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فإنه من طلب عورة اخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته».

(٢٠) ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ﴾ أي لولا هذا

لكان أمر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهر منهم بالحد الذي اقيم عليهم .

(٢١) ﴿ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ﴾ يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفشحاء والمنكر ﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها ، ﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد ابدا ﴾ أي لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودنسها وما فيها من أخلاق رديئة ، كل بحسبه لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ﴿ ولكن الله يزكي من يشاء ﴾ أي من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي ، وقوله ﴿ والله سميع ﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿ عليم ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال

(٢٢) ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولا يأتل ﴾ من الألية ، وهي الحلف ، أي لا يحلف ﴿أولوا الفضل منكم ﴾ أي الطول والصدقة والاحسان ﴿ والسعة ﴾ أي الجدة ﴿ أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله ﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين ،وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ولهذا قال ﴿ وليعفوا وليصفحوا ﴾ أي عما تقدم منهم من الاساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم ، وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن اثاثه بنافعة أبداً بعد ما قال في عائشة ما قال ، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله ﴿ ألا تحبون أن يغفر الله لكم ﴾ قال الصديق : بلى والله وإنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا ، ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه ابدا .

(٢٣) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ، ولا سيما التي كانت سبب النزول ، وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما . وقد اجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان : اصحهما أنهن كهي . والله اعلم . وقوله تعالى ﴿ لعنوا في الدنيا والآخرة ﴾ كقوله ﴿ إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة ﴾.

(٢٤) ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم ...﴾ عن ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على افواههم ، وتشهد ايديهم وأرجلهم ، ولا يكتمون الله حديثا .

(٢٥) ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ﴾ أي حسابهم ، وكل ما في القرآن دينهم أي حسابهم ﴿ ويعلمون أن الله هو الحق المبين ﴾ أي وعده ووعيده وحسابه ، هو العدل الذي لا جور فيه .

(٢٦) ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قال ابن عباس : الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال ، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول ، والطيبات من القول للطيبين من الرجال ، والطيبون من الرجال للطيبات من القول ، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة من كلامهم أولى به ، وهي أولى بالبراءة والنزاهة منهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون ﴾ أي هم بعداء عما يقوله أهل الافك والعدوان ﴿ لهم مغفرة ﴾ أي بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿ ورزق كريم ﴾ اي عند الله في جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة .

(٢٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ

خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

هذه آداب شرعية ، أدب الله بها عباده المؤمنين ، فقد أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده ، وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات ، فإن أذن له وإلا انصرف كما ثبت في الصحيح أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم اسمع صوت عبدالله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما ارجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وإني سمعت النبي ﷺ يقول : إن استأذن احدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فلينصرف ، فقال عمر : لتأتيني على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضرباً ، فذهب إلى ملأ من الأنصار فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا . لا يشهد لك إلا أصغرنا ، فقام معه أبو سعيد الخدري فأخبر عمر بذلك ، فقال : الهاني عنه الصفق بالأبواق . ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ يعني الاستئذان خير لكم بمعنى هو خير من الطرفين : للمستأذن ، ولأهل البيت ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ .

(٢٨) ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

﴿ فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ﴾ وذلك لما فيه من التصرف في ملك الغير بغير اذنه ، فإن شاء أذن ، وإن لم يشأ لم يأذن ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي إذا ردوكم من الباب قبل الاذن أو بعده ﴿ فارجعوا هو أزكى لكم ﴾ أي رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾. قال بعض المهاجرين : لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها ان استأذن على بعض اخواني فيقول لي ارجع فارجع وأنا مغتبط .

(٢٩) ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة أخص من التي قبلها ، وذلك أنها تقتضي جواز الدخول إلى البيوت التي ليس فيها أحد إذا كان له متاع فيها بغير اذن كالبيت المعد للضيف إذا أذن له فيه أول مرة كفى . وقال آخرون : هي بيوت التجار كالخانات ، ومنازل الأسفار وبيوت مكة وغير ذلك .

(٣٠) ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغمضوا ابصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعا ، كما رواه مسلم عن عبدالله البجلي قال : سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فأمرني أن اصرف بصري . وفي الصحيح « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا يا رسول الله ، لا بد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن ابيتم فاعطوا الطريق حقه » قالوا وما حق الطريق يا رسول الله ؟» قال : « غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » ﴿ ويحفظوا فروجهم ﴾ وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنا ، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه ، كما جاء في مسند الامام أحمد « احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك » ﴿ ذلك أزكى لهم ﴾ أي أطهر لقلوبهم ، واتقى لدينهم ، كما قيل : من حفظ بصره أورثه الله نورا في بصيرته .

(٣١) ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

هذا امر من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغيرة منه لأزواجهن عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات . وسبب نزول هذه الآية أن أسماء بنت مرثد كانت في محلها في بني حارثة فجعل النساء يدخلن عليها غير متزرات فيبدو ما في ارجلهن من الخلاخل وتبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء ما أقبح هذا فأنزل الله ﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ﴾ أي عما حرم الله عليهن من النظر إلى غير ازواجهن ، ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب

بشهوة ولا بغير شهوة اصلا . ﴿ ويحفظن فروجهن ﴾ عن الفواحش ، او أن لا يراها أحد ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ﴾ أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن اخفاؤه كالرداء والثياب ، او هو وجهها وكفاها والخاتم . ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ والخمر جمع خمار ، وهو ما يخمر به ، اي يغطى به الرأس والنحر والصدر فلا يرى منه شيء . ﴿ إلا لبعولتهن ﴾ أي أزواجهن ﴿ أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو ابنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني اخواتهن ﴾ كل هؤلاء محارم للمرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير تبرج ولم يذكر العم ولا الخال لأنهما ينعتان لأبنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال ، فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله فتتصنع له بما لا يكون بحضرة غيره . ﴿ أو نسائهن ﴾ يعني تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات ، دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهن لرجالهن ، والمرأة المسلمة تعلم أن وصف المرأة الأجنبية للرجل الأجنبي حرام فتنزجر عنه ، ﴿ او ما ملكت أيمانهن ﴾ من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر زينتها لها ، وإن كانت مشركة ، لأنها أمتها . وقال الأكثرون : بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء . ﴿ او التابعين غير أولي الاربة من الرجال ﴾ يعني كالأجراء والاتباع الذين ليسوا بأكفاء ، وهم مع ذلك في عقولهم وله وحوب ، ولا همة لهم إلى النساء ، ولا يشتهونهن ، ﴿ أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ﴾ يعني لصغرهم لا يفهمون احوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرحيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن وسكناتهن ، فإذا كان الطفل صغيرا لا يفهم ذلك فلا بأس بدخوله على النساء ، وفي الحديث « إياكم والدخول على النساء » قيل يا رسول الله ، أفرأيت الحمو؟ قال : « الحمو الموت » ﴿ ولا يضربن بأرجلهنّ ﴾ كانت المرأة في الجاهلية اذا كانت تمشي في الطريق ، وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوته ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، ومن ذلك أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها ، وفي الحديث : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعني زانية ﴿ وتوبوا إلى الله جميعا . . . ﴾ أي افعلوا ما آمركم به من هذه الصفات الجميلة ، والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه اهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فإن الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا عنه .

(٣٢) ﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن

فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبنية على جمل من الأحكام المحكمة والأوامر المبرمة . فقوله تعالى ﴿ وأنكحوا الأيامى منكم . . . ﴾ هذا امر بالتزويج . وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ وعن ابن مسعود : « التمسوا الغنى في النكاح » وفي الحديث « ثلاثة حق على الله عونهم الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء والغازي في سبيل الله » .

(٣٣) ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله ﴾ هذا امر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجا بالتعفف عن الحرام . كما قال ﷺ « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء » ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيرا ﴾ هذا امر من الله تعالى للسادة اذا طلب عبيدهم منهم الكتابة ، أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدي إلى سيده المال الذي شارطه على أدائه ﴿ وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ﴾ فقال بعضهم اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ﴾ كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم امة ارسلها تزني ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت ، فلما جاء الاسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك ﴿ إن أردن تحصنا ﴾ هذا خرج مخرج الغالب فلا مفهوم له ﴿ لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ﴾ أي من خراجهن ومهورهن واولادهن ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجام ومهر البغي وحلوان الكاهن ، ﴿ ومن يكرههن فإن الله من بعد اكراههن غفور رحيم ﴾ غفور لهن ما أكرهن عليه ، وإثمهن على من أكرههن .

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

ولما فصل تبارك وتعالى هذه الأحكام وبينها قال تعالى ﴿ ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ﴾ يعني القرآن ، فيه آيات واضحات مفسرات ﴿ ومثلا من الذين خلوا من قبلكم ﴾ أي خبرا

عن الأمم الماضية ، وما حل بهم في مخالفتهم أوامر الله تعالى . كما قال تعالى ﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ أي زاجرا عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ وموعظة للمتقين ﴾أي لمن اتقى الله وخافه . قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صفة القرآن : فيه حكم ما بينكم وخبر ما قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وهو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله .

﴿ * ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ (٣٥)

عن ابن عباس ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ يقول هادي اهل السموات والأرض ، وعن ابن عباس أيضاً يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما . فبدأ بنور نفسه ، ثم ذكر نور المؤمن ، ﴿ مثل نوره ﴾ في هذا الضمير قولان احدهما أنه عائد إلى الله عز وجل ، والثاني أنه عائد الى المؤمن ، تقديره : مثل نور المؤمن الذي في قلبه كمشكاة ، فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه . ﴿ كمشكاة ﴾ هو موضع الفتيلة من القنديل ﴿ فيها مصباح ﴾ وهو الزبالة التي تضيء ، أو المشكاة كوة في البيت ، والمصباح هو النور الذي في الزبالة ﴿ المصباح في زجاجة ﴾ أي هذا الضوء مشرق في زجاجة صافية ﴿ الزجاجة كأنها كوكب دري ﴾ أي كأنها كوكب من درّ . ﴿ يوقد من شجرة مباركة ﴾ أي يستمد من زيت شجرة مباركة ﴿ زيتونة ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ لا شرقية ولا غربية ﴾ أي ليست في شرق بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار ، ولا في غربها فيقلص عنها الفيء قبل الغروب بل هي في مكان وسط ، تعصرها الشمس من اول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها صافياً معتدلاً مشرقاً ، ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ﴾ يعني كضوء إشراق الزيت ﴿ نور على نور ﴾ يعني نور النار ونور الزيت أو هو ايمان العبد وعمله ، وقال ابي بن كعب : ﴿ نور على نور ﴾ فهو يتقلب في خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة إلى الجنة . ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ اي يرشد الله إلى هدايته من يختاره ﴿ ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ أي

هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال .

(٣٦) ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقدة من زيت طيب ، وذلك كالقنديل مثلاً ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ويوحد . فقال ﴿ في بيوت أذن الله أن ترفع ﴾ أي أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها وأمر الله ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها ﴿ ويذكر فيها اسمه ﴾ أي اسم الله أو يتلى فيها كتابه ﴿ يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ أي في البكرات والعشيات . والآصال جمع أصيل ، وهو آخر النهار ، وعن ابن عباس : كل تسبيح في القرآن هو الصلاة .

(٣٧) ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾

﴿ رجال ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية ، ونياتهم وعزائمهم العالية التي بها صاروا عماراً للمساجد التي هي بيوت الله في أرضه ، ومواطن عبادته وشكره وتوحيده وتنزيهه . ﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ يقول عن الصلاة المكتوبة ، أو عن الصلاة في جماعة . والمراد أن يقيموها كما أمرهم الله ، وأن يحافظوا على مواقيتها وما استحفظهم الله فيها ﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والابصار ﴾ أي يوم القيامة الذي تتقلب فيه القلوب والابصار ، أي من شدة الفزع وعظمة الأهوال .

(٣٨) ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

أي هؤلاء ، من الذين يتقبل الله حسناتهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم وقوله ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ﴿ والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

(٣٩) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعي الكفار فأما الأول فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم

لذين يحسبون أنهم على شيء من الاعمال والاعتقادات ، وليسوا في نفس الأمر على شيء ، فمثلهم في ذلك كالسراب الذي يرى في القيعان من الأرض من بعد كأنه بحر طام ، والقيعة جمع قاع كجار وجيرة ، والقاع أيضاً واحد القيعان كما يقال : جار وجيران ، وهي الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، وإنما يكون ذلك بعد نصف النهار ، وأما الأول فإنما يكون في أول النهار ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء يحسبه ماء قصده ليشرب منه فلما انتهى إليه ﴿ لم يجده شيئاً ﴾ فكذلك الكافر ، يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حصل شيئاً ، فإذا وافى الله يوم القيامة ، وحاسبه عليها ونوقش على أفعاله لم يجد له شيئاً بالكلية ، إما لعدم الإخلاص ، أو لعدم سلوك الشرع كما قال تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا ﴾ وقال ههنا ﴿ ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ .

(٤٠) ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾

﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾ هو العميق ﴿ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ﴾ أي لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا هو المثل الثاني ﴿ ومن لم يجعل الله نوراً فما له من نور ﴾ أي من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر ، كقوله ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾ وهذا في مقابلة ما قال في مثل المؤمنين ﴿ يهدي الله لنوره من يشاء ﴾ فنسأل الله العظيم أن يجعل في قلوبنا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نوراً .

(٤١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من في السموات والأرض أي من الملائكة والأناسي والجان والحيوان حتى الجماد كما قال تعالى ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ ﴾ وقوله ﴿ والطير صافات ﴾ أي في حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه ، وهو يعلم ما هي فاعلة ، ولهذا قال ﴿ كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ أي كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه في عباد الله عز وجل .

(٤٢) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الإله المعبود الذي لا تبتغي العبادة إلا له . ولا معقب لحكمه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي يوم القيامة فيحكم فيه بما يشاء ، أي فهو الخالق المالك ، الإله الحكم في الدنيا والآخرة ، وله الحمد في الأولى والآخرة .

(٤٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة ، وهو الازجاء ﴿ ثم يؤلف بينه ﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿ ثم يجعله ركاما ﴾ أي متراكماً ، أي يركب بعضه بعضاً ﴿ فترى الودق ﴾ أي المطر ﴿ يخرج من خلاله ﴾ أي من خلله . قال عبيد بن عمير الليثي : يبعث الله المنيرة ، فتقم الأرض قماً ، ثم يبعث الله الناشئة فتنشىء السحاب ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف بينه ، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح السحاب ﴿ وينزل من السماء من جبال فيها من برد ﴾ قال بعض النحاة ﴿ من ﴾ الأولى لابتداء الغاية ، والثانية للتبعيض ، والثالثة لبيان الجنس . وهذا إنما يجيء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله ﴿ من جبال فيها من برد ﴾ معناه أن في السماء جبال برد ينزل الله منها البرد ، وأما من جعل الجبال ههنا كناية عن السحاب فإن ﴿ من ﴾ الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضاً ، لكنها بدل من الأولى والله أعلم . وقوله تعالى ﴿ فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ﴾ يحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ فيصيب به ﴾ أي بما ينزل من السماء من نوعي المطر والبرد فيكون قوله ﴿ فيصيب به من يشاء ﴾ رحمة لهم ﴿ ويصرفه عمن يشاء ﴾ أو يؤخر عنهم الغيث ، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ فيصيب به ﴾ أي بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم ، وإتلاف زروعهم ، وأشجارهم ، ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . وقوله ﴿ يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾ أي يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

(٤٤) ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

﴿ يقلب الله الليل والنهار ﴾ أي يتصرف فيهما فيأخذ من طول هذا في قصر هذا حتى يعتدلا ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول الذي كان قصيراً ، ويقصر الذي كان طويلاً ،

والله هو المتصرف في ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ إن في ذلك لعبرة لأولي الابصار ﴾ أي دليلاً على عظمته تعالى .

(٤٥) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يذكر تعالى قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ﴿ فمنهم من يمشي على بطنه ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿ ومنهم من يمشي على رجلين ﴾ كالإنسان والطير ﴿ ومنهم من يمشي على أربع ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ، ولهذا قال ﴿ يخلق الله ما يشاء ﴾ أي بقدرته لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولهذا قال ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ .

(٤٦) ﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يقرر تعالى أنه أنزل في هذا القرآن من الحكم والحِكَم والأمثال البينة المحكمة كثيراً جداً ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولي الألباب والبصائر والنهى ، ولهذا قال ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

(٤٧) ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولاً بألسنتهم ﴿ آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك ﴾ أي يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ، ولهذا قال ﴿ وما أولئك بالمؤمنين ﴾ .

(٤٨) ﴿ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾

﴿ وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ﴾ أي إذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله أعرضوا عنه ، واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً. وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ﴾ .

(٤٩) ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴾

﴿ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين ﴾ أي وإذا كانت الحكومة لهم ، لا عليهم جاءوا سامعين مطيعين ، وهو معنى قوله ﴿ مذعنين ﴾ وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق ، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبي ﷺ ليروج باطله ثم ، فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ، ولهذا لما خالف الحق قصدَه عدل عنه إلى غيره ولهذا قال .

(٥٠) ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

﴿ أفي قلوبهم مرض . . . ﴾ أي لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها ، أو قد عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم ، وأياً ما كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم ، وما هو منوط عليه من هذه الصفات . وقوله تعالى ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ أي بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور . تعالى الله ورسوله عن ذلك .

(٥١) ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾

أي سمعاً وطاعة ، ولهذا وصفهم الله بالفلاح ، وهو نيل المطلوب ، والسلامة من المرهوب فقال ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ .

(٥٢) ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾

﴿ ومن يطع الله ورسوله ﴾ فيما أمره به ، وترك ما نهياه عنه ، ويخشى الله فيما مضى من ذنوبه ، ويتقيه فيما يستقبل ﴿ فأولئك هم الفائزون ﴾ يعني الذين فازوا بكل خير ، وأُمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة .

(٥٣) ﴿ ۞ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقۡسِمُواْۖ طَاعَةٞ مَّعۡرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ

خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهل النفاق الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرتهم ليخرجن في الغزو ، قال تعالى ﴿ قل لا تقسموا ﴾ أي لا تحلفوا ﴿ طاعة معروفة ﴾ قيل : معناه طاعتكم طاعة معروفة ، أي قد علم طاعتكم إنما هي قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي هو خبير بكم ، وبمن يطيع ممن يعصي ، فالحلف وإظهار الطاعة والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق فالخالق تعالى يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شيء من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها .

(٥٤) ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ أي اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ، وقوله ﴿ فإن تولوا ﴾ أي تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ أي إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿ وعليكم ما حملتم ﴾ أي بقبول ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿ وإن تطيعوه تهتدوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط مستقيم ﴿ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ وقوله ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ كقوله ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

(٥٥) ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي أئمة الناس والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، وقد فعله تبارك وتعالى فله الحمد والمنة ، ﴿ ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾ أي فمن خرج عن طاعتي بعد ذلك فقد خرج عن أمر ربه . وكفى بذلك ذنباً عظيماً ، فالصحابة رضي الله عنهم لما كانوا أقوم الناس بعد النبي ﷺ بأوامر الله عز وجل وأطوعهم لله كان نصرهم بحسبهم ، أظهروا كلمة الله في المشارق والمغارب ،

وأيدهم تأييداً عظيماً ، وحكموا في سائر البلاد والعباد ، ولما قصر الناس بعدهم في بعض الأوامر نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة » .

(٥٦) ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بإقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا في ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ ، سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وترك ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك ، ولا شك أن من فعل هذا أن الله سيرحمه كما قال تعالى ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ .

(٥٧) ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ لا تحسبن الذين كفروا ﴾ أي الذين خالفوك وكذبوك يا محمد ﴿ معجزين في الأرض ﴾ أي لا يعجزون الله ، بل هو قادر عليهم وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ، ولهذا قال ﴿ ومأواهم ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ النار ولبئس المصير ﴾ أي بئس المآل مآل الكافرين ، وبئس القرار .

(٥٨) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

هذه الآية الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، وما تقدم في أول السورة فهو استئذان الأجانب : بعضهم على بعض ، فأمر الله المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما ملكت أيمانهم ، وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أحوال ، من قبل صلاة الغداة ، لأن الناس إذ ذاك يكونون نياماً في فراشهم ﴿ وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ﴾ أي في وقت القيلولة ، لأن الإنسان قد يضع ثيابه في تلك الحال مع أهله

﴿ ومن بعد صلاة العشاء ﴾ لأنه وقت النوم ، فيؤمر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال ، لما يخشى أن يكون الرجل على أهله ، أو نحو ذلك من الأعمال ، ولهذا قال ﴿ ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن ﴾ أي إذا دخلوا في حال غير هذه الأحوال ، فلا جناح عليكم في تمكينكم إياهم ، ولا عليهم إن رأوا شيئاً من غير تلك الأحوال لأنه قد أذن لهم في الهجوم ، ولأنهم طوافون عليكم ، أي في الخدمة وغير ذلك . ويغتفر في الطوافين ما لا يغتفر في غيرهم ، ﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم ﴾ .

(٥٩) ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَالُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

يعني إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون في العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال . بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التي يمكن أن يكون الرجل فيها على امرأته وإن لم يكن في الأحوال الثلاث .

(٦٠) ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ والقواعد من النساء ﴾ هن اللواتي انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ﴿ اللاتي لا يرجون نكاحا ﴾ أي لا يبقى لهن شوق إلى التزوج ﴿ فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة ﴾ أي ليس عليهن من الحجر في التستر كما على غيرها من النساء ، ﴿ أن يضعن ثيابهن ﴾ الجلباب ، أو الرداء ﴿ وأن يستعففن خير لهن ﴾ أي وترك وضعهن لثيابهن ، وإن كان جائزاً خيرا وأفضل لهن والله سميع عليم .

(٦١) ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ

﴿ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

اختلف المفسرون رحمهم الله في المعنى الذي رفع لأجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض ههنا ، فقيل : إنها نزلت في الجهاد . وقيل : المراد ههنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات ، فربما سبقه غيره إلى ذلك ، ولا مع الأعرج لأنه لا يتمكن من الجلوس فيفتات عليه جليسه ، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك ﴿ ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم ﴾ إنما ذكر هذا ، وهو معلوم ليعطف عليه غيره في اللفظ ، وليساوي به ما بعده في الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء لأنه لم ينص عليهم ، ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وفي الحديث « أنت ومالك لأبيك » روي في المسند والسنن وقوله﴿ أو بيوت آبائكم﴾ إلى قوله ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ هذا ظاهر ، وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد رحمهما الله في المشهور عنهما ، ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ أي بيوت الرجل من عبد وقهرمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف ﴿ أو صديقكم ﴾ أي بيوت أصدقائكم وأصحابكم فلا جناح عليكم في الأكل منها إذا علمتم أن ذلك لا يشق عليهم ، ولا يكرهون ذلك ﴿ ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ﴾ فهذه رخصة من الله تعالى في أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ، وإن كان الأكل مع الجماعة أبرك وأفضل . وفي مسند الإمام أحمد أن رجلاً قال للنبي ﷺ : إنا نأكل ولا نشبع ، قال : « لعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » رواه أبو داوود وابن ماجه .

﴿ فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم ﴾ فليسلم بعضكم على بعض ، وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله ، وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتاً ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

﴿ كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون ﴾ لما ذكر تعالى ما في هذه السورة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة نبه تعالى عباده على أنه يبين لعباده الآيات بياناً شافياً ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون .

(٦٢) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ

﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

وهذا أيضاً أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول كذلك امرهم بالاستئذان عند الانصراف ، لا سيما اذا كانوا في أمر جامع مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه من صلاة جمعة ، او عيد جماعة او اجتماع في مشورة ونحو ذلك ، امرهم الله تعالى أن لا يتفرقوا عنه ، والحالة هذه الا بعد استئذانه ومشاورته ، وان من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين ، ثم أمر رسوله صلوات الله عليه اذا استأذنه احد منهم في ذلك أن يأذن له إن شاء ، ولهذا قال ﴿ فائذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ﴾ وفي مسند الامام أحمد قال : قال رسول الله ﷺ « إذا انتهى احدكم إلى المجلس فليسلم ، فإذا اراد أن يقوم فليسلم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » وهكذا رواه الترمذي والنسائي .

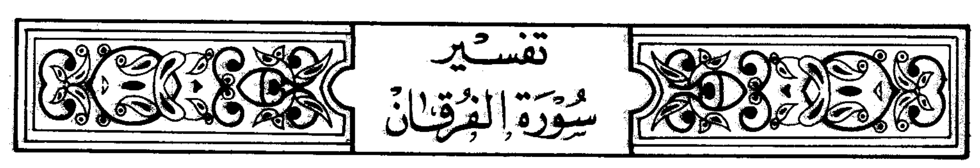
﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٦٣)

كانوا يقولون: يا محمد يا أبا القاسم فنهاهم الله عز وجل عن ذلك اعظاماً لنبيه ﷺ قال: فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله . وقال قتادة : امر الله أن يهاب نبيه ﷺ وأن يبجل ، وأن يعظم وأن يسود ، أو معناه : لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا . ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾ هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث في يوم الجمعة ، ويعني بالحديث الخطبة فيلوذون ببعض اصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد . وقال السدي : كانوا إذا كانوا معه في جماعة لاذ بعضهم ببعض حتى يتغيبوا عنه فلا يراهم . ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره ﴾ أي عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ « من عمل عملاً ليس عليه امرنا فهو ردّ » أي فليحذر وليخش من خالف شريعة رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً ﴿ أن تصيبهم فتنة ﴾ أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة ﴿ أو يصيبهم عذاب اليم ﴾ أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك . روى الامام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما اضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب اللائي يقعن في النار يقعن فيها ، وجعل

يحجزهنّ ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ قال ـ فذلك مثلي ومثلكم ، انا آخذ بحجزكم عن النار ، هلمّ عن النار فتغلبوني وتقتحمون فيها » اخرجاه من حديث عبد الرزاق .

(٦٤) ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون في سرهم وجهرهم فقال ﴿ قد يعلم ما أنتم عليه ﴾ قد للتحقيق كما قال قبلها ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾ أي هو عالم به مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرّة ﴿ ويوم يرجعون إليه ﴾ أي يوم يرجع الخلائق إلى الله وهو يوم القيامة ﴿ فينبئهم بما عملوا ﴾ أي يخبرهم بما عملوا في الدنيا من جليل وحقير وصغير وكبير ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾

يقول تعالى حامداً لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم ، كما قال تعالى ﴿ الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب ﴾ وقال ههنا ﴿ تبارك ﴾ وهو تفاعل من البركة المستقرة الثابتة الدائمة ﴿ الذي نزل الفرقان ﴾ نزل فعل من التكرر والتكثر كقوله ﴿ والكتاب الذي نزل على رسوله . والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة والقرآن نزل منجما مفرقا مفصلا آيات بعد آيات ، واحكاما بعد احكام ، وسورا بعد سور ، وهذا أشد وأبلغ ، وأشد اعتناء بمن أنزل عليه، كما قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا ﴾ ولهذا سماه ههنا الفرقان ، لأنه يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والحلال والحرام ، وقوله ﴿ على عبده ﴾ هذه صفة مدح وثناء ، لأنه اضافة إلى عبوديته ، كما وصفه بها في

اشرف احواله ، وهي ليلة الاسراء فقال ﴿ سبحان الذي اسرى بعبده ليلا ﴾ وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة اليه ﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا ﴾ وقوله ﴿ ليكون للعالمين نذيرا ﴾ اي انما خصه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ الذي جعله فرقانا عظيما ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء ، ويستقل على الغبراء ، كما قال ﷺ « بعثت إلى الأحمر والأسود » .

(٢) ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾

﴿ الذي له ملك السموات . . . ﴾ ونزه نفسه عن الولد وعن الشريك ، وكل شيء مما سواه مخلوق مربوب ، وهو خالق كل شيء ، وربه ، ومليكه والهه ، وكل شيء تحت قهره وتدبيره وتسخيره وتقديره .

(٣) ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله الخالق لكل شيء ، المالك لأزمة الأمور ، الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومع هذا عبدوا معه من الأصنام ما لم يقدر على خلق جناح بعوضة بل هم مخلوقون ، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، فكيف يملكون لعابديهم ؟ ﴿ ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ﴾ أي ليس لهم من ذلك شيء ، بل ذلك كله مرجعه إلى الله عز وجل الذي هو يحي ويميت ، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة : أولهم وآخرهم .

(٤) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن سخافة عقول الجهلة من الكفار في قولهم عن القرآن ﴿ إن هذا إلا إفك ﴾ أي كذب ﴿ افتراه ﴾ يعنون النبي ﷺ ﴿ واعانه عليه قوم آخرون ﴾ أي واستعان على جمعه بقوم آخرين ﴿ فقد جاءوا ظلما وزورا ﴾ أي فقد افتروا هم قولاً باطلاً ، وهم يعلمون أنه باطل ويعرفون كذب أنفسهم فيما زعموه .

(٥) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها ﴾ يعنون كتب الأوائل أي استنسخها ﴿ فهي تملى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ بكرة وأصيلا ﴾ أي في أول النهار وآخره ، وهذا الكلام لسخافته وكذبه وبهته منهم يعلم كل احد بطلانه فإنه قد علم بالتواتر وبالضرورة أن محمداً رسول الله ﷺ لم يكن يعاني شيئاً من الكتابة ، لا في أول عمره ، ولا في آخره ، وقد نشأ بين اظهرهم من اول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من اربعين سنة ، وهم يعرفون مدخله ومخرجه وصدقه ونزاهته وبره وامانته وبعده عن الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة ، حتى أنهم كانوا يسمونه في صغره ، وإلى أن بعث الأمين ، لما يعلمون من صدقه وبره ، فلما أكرمه الله بما اكرمه به نصبوا له العداوة . ورموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها ، وحاروا فيما يقذفونه به ، فتارة من افكهم يقولون : ساحر ، وتارة يقولون شاعر ، وتارة يقولون : مجنون ، وتارة يقولون : كذاب ﴿ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا ﴾ .

(٦) ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ قل انزله الذي يعلم السر في السموات والأرض . . . ﴾ أي انزل القرآن المشتمل على اخبار الأولين والآخرين اخبارا حقا صادقا مطابقا للواقع في الخارج ماضيا ومستقبلا ﴿ يعلم السر ﴾ أي الله الذي يعلم غيب السموات والأرض ، ويعلم السرائر كعلمه بالظواهر ﴿ إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ دعاء لهم إلى التوبة والانابة ، واخبار لهم بأن رحمته واسعة ، وأن حلمه عظيم ، وأن من تاب إليه تاب عليه ، فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتانهم وكفرهم وعنادهم وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا يدعوهم إلى التوبة والاقلاع عما هم فيه إلى الاسلام والهدى .

(٧) ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن تعنت الكفار وعنادهم وتكذيبهم للحق بلا حجة ولا دليل منهم ، وانما تعللوا بقولهم ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ﴾ يعنون كما نأكله ، ويحتاج إليه كما نحتاج إليه ﴿ ويمشي في الأسواق ﴾ أي يتردد فيها واليها طلبا للتكسب والتجارة ﴿ لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا ﴾ يقولون : هلا انزل اليه ملك من عند الله فيكون له شاهدا على صدق ما يدعيه .

(٨) ﴿ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّـٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾

﴿ أو يلقى إليه كنز ﴾ أي علم الكنز ينفق منه ﴿ أو تكون له جنة يأكل منها ﴾ أي تسير معه حيث سار ، وهكذا كله سهل يسير على الله ، ولكن الحكمة في ترك ذلك ، وله الحجة البالغة ﴿ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴾ .

(٩) ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾

﴿ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ﴾ أي جاءوا بما يقذفونك به ، ويكذبون به عليك من قولهم : ساحر مسحور ، مجنون كذاب شاعر وكلها اقوال باطلة ، كل احد ممن له ادنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك ، ولهذا قال ﴿ فضلوا ﴾ عن طريق الهدى ﴿ فلا يستطيعون سبيلا ﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق وطريق الهدى ، فإنه ضال حيثما توجه ، لأن الحق واحد ، ومنهجه متحد يصدق بعضه بعضاً .

(١٠) ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾

﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك . . . ﴾ قال مجاهد : يعني في الدنيا ، قال : وقريش يسمون كل بيت من حجارة قصرا ، كبيرا كان أو صغيرا . عن خيثمة قيل للنبي ﷺ : إن شئت أن نعطيك خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيا قبلك ، ولا نعطي أحدا من بعدك ، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله فقال : « اجمعوها لي في الآخرة » فأنزل الله ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك ﴾ .

(١١) ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾

﴿ بل كذبوا بالساعة ﴾ أي انما يقول هؤلاء هكذا تكذيبا وعنادا ، لا إنهم يطلبون ذلك تبصراً واسترشاداً ، بل تكذيبهم بيوم القيامة يحملهم على قول ما يقولونه من هذه الأقوال ﴿ أعتدنا ﴾ أي ارصدنا ﴿ لمن كذب بالساعة سعيرا ﴾ أي عذاباً اليماً حاراً ، لا يطاق في نار جهنم .

(١٢) ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾

﴿ إذا رأتهم ﴾ أي جهنم ﴿ من مكان بعيد ﴾ يعني في مقام الحشر ﴿ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴾ أي حنقاً عليهم .

(١٣) ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾

﴿ وإذا القوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين ﴾ مثل الزج في الرمح أي من ضيقة وفي الحديث « والذي نفسي بيده إنهم ليستكرهون في النار كما يستكره الوتد في الحائط » ﴿ مقرنين ﴾ مكتفين ﴿ دعوا هنا لك ثبورا ﴾ أي بالويل والحسرة والخيبة .

(١٤) ﴿ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴾

﴿ لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا ﴾ أي لا تدعوا اليوم ويلا واحدا ، وادعوا ويلا كثيرا . وقال الضحاك: الثبور : الهلاك . والأظهر أن الثبور يجمع الهلاك والويل والخسار والدمار .

(١٥) ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴾

يقول تعالى : يا محمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وزفير ، ويلقون في اماكنها الضيقة مقرنين لا يستطيعون حراكا ، ولا استنصارا ولا فكاكا مما هم فيه ، اهذا خير ام جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي اعدها لهم وجعلها لهم جزاء ومصيرا على ما اطاعوه في الدنيا ، وجعل مآلهم اليها .

(١٦) ﴿ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾

﴿ لهم فيها ما يشاءون ﴾ من الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب أحد ، وهم في ذلك خالدون أبدا دائما سرمدا ، بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ولا يبغون عنها حولا . وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم ، واحسن به اليهم ، ولهذا قال ﴿ كان على ربك وعدا مسئولا ﴾ أي لا بد أن يقع ، وأن يكون كما حكاه أبو جعفر بن جرير الطبري عن بعض علماء العربية أن معنى قوله ﴿ وعدا مسئولا ﴾ أي وعدا واجبا .

(١٧) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يقع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم من عبدوا من دون الله من الملائكة وغيرهم ﴿ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ﴾ هو عيسى والعزيز والملائكة ﴿ فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء . . . ﴾ أي فيقول تعالى : للمعبودين : أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم ، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم من غير دعوة منكم لهم . ؟

(١٨) ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾

أي ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك ، لا نحن ولا هم فنحن ما دعوناهم إلى ذلك ، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ، ونحن برآء منهم ومن عبادتهم ﴿ ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ﴾ أي طال عليهم العمر حتى نسوا الذكر ، أي نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ﴿ وكانوا قوماً بوراً ﴾ أي هلكى .

(١٩) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴾

﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ أي فقد كذبكم الذين عبدتم من دون الله فيما زعمتم أنهم لكم أولياء ، وأنهم يقربونكم إلى الله زلفى ﴿ فما تستطيعون صرفا ولا نصرا ﴾ أي لا يقدرون على صرف العذاب عنهم ولا الانتصار لأنفسهم ﴿ ومن يظلم منكم ﴾ أي يشرك بالله ﴿ نذقه عذاباً كبيراً ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جميع من بعثه من الرسل المتقدمين أنهم كانوا يأكلون الطعام ، ويحتاجون إلى التغذي به ، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة ، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم ، فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة ، والصفات الجميلة ، والأقوال الفاضلة ، والأعمال الكاملة ، والخوارق الباهرة ، والأدلة الظاهرة ما يستدل به كل ذي لب سليم ، وبصيرة مستقيمة على صدق ما جاءوا به من الله ﴿ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ﴾ أي اختبرنا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع ممن يعصي ، ولهذا قال ، ﴿ أتصبرون وكان ربك بصيرا ﴾ أي بمن يستحق أن يوحي إليه . وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتلي بك » وفي المسند عن رسول الله ﷺ « لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » وفي الصحيح أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً .

(٢١) ﴿ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ

أنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبرا عن تعنت الكفار في كفرهم وعنادهم في قولهم ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة ﴾ أي بالرسالة كما تنزل على الأنبياء ، فنراهم عيانا فيخبرونا أن محمداً رسول الله ﴿ أو نرى ربنا ﴾ ولهذا قال الله تعالى ﴿ لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً ﴾ .

(٢٢) ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

﴿ يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم ، بل يوم يرونهم لا بشرى يومئذ لهم ، وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، والغضب من الجبار ، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه : أخرجي ايتها الروح الخبيثة في الجسد الخبيث ، اخرجي إلى سموم وحميم وظل من يحموم ، فتأبى الخروج ، وتتفرق في البدن فيضربونه كما قال الله تعالى ﴿ ولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرات ، قال تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم ﴾ . ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ أي وتقول الملائكة للكافرين : حرام محرم عليكم الفلاح اليوم ، وأصل الحجر المنع ، ومنه يقال : حجر القاضي على فلان إذا منعه التصرف اما لفلس او سفه أو صغر أو نحو ذلك ، ومنه سمي الحجر عند البيت الحرام ، لأنه يمنع الطواف أن يطوفوا فيه ، وانما يطاف من ورائه ، ومنه يقال للعقل : حجر لأنه يمنع صاحبه عن تعاطي ما لا يليق .

(٢٣) ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾

﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل . . . ﴾ هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر ، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي ، إما الاخلاص ، وإما المتابعة لشرع الله ، ﴿ هباء ﴾ هو شعاع الشمس اذا دخل الكوة ، والغرض أنهم عملوا اعمالاً اعتقدوا أنها على شيء ، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم احداً إذ أنها

لا شيء بالكلية ، وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق الذي لا يقدر صاحبه منه على شيء بالكلية ، كما قال تعالى ﴿ مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ﴾ .

(٢٤) ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

﴿ أصحاب الجنة يومئذ ﴾ يوم القيامة ﴿ خير مستقراً وأحسن مقيلا ﴾ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ، اصحاب الجنة هم الفائـزون أي بما عملوه من الأعمال المتقبلة نالوا ما نالوا ، وصاروا إلى ما صاروا اليه بخلاف أهل النار فإنهم ليس لهم عمل واحد يقتضي دخول الجنة لهم ، والنجاة من النار . ﴿ مقيلا ﴾ مأوى ومنزلا .

(٢٥) ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم القيامة وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، فمنها انشقاق السماء ، وتفطرها ، وانفراجها بالغمام ، وهو ظلل النور العظيم الذي يبهر الأبصار ، ونزول ملائكة السموات يومئذ فيحيطون بالخلائق في مقام الحشر ، ثم يجيء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

(٢٦) ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾

﴿ الملك يومئذ الحق للرحمن ﴾ وفي الصحيح أن الله يطوي السموات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ثم يقول أنا الملك ، أنا الديان ، اين ملوك الأرض ؟ اين الجبارون اين المتكبرون ؟ ﴿ وكان يوما على الكافرين عسيرا ﴾ فهذا حال الكافرين في هذا اليوم ، واما المؤمنون ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ .

(٢٧) ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾

﴿ ويوم يعضّ الظالم على يديه ﴾ يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله ، وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي معيط أو غيره من الأشقياء ، فإنها عامة في كل ظالم ﴿ يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾ .

(٢٨) ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾

﴿ يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا ﴾ يعني من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق

الضلال من دعاة الضلالة ، سواء في ذلك أمية بن خلف ، أو اخوه أبي بن خلف أو غيرهما .

(٢٩) ﴿ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴾

﴿ لقد أضلني عن الذكر ﴾ وهو القرآن ﴿ بعد إذ جاءني ﴾ أي بعد بلوغه إليّ ﴿ وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴾ أي يخذله عن الحق ، ويصرفه عنه ويستعمله في الباطل بعد بلوغه الحساب .

(٣٠) ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ (٣١)

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين ﴾ أي كما حصل لك يا محمد في قومك من الذين هجروا القرآن، كذلك كان في الأمم الماضية، لأن الله جعل لكل نبي عدواً من المجرمين يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن ، لئلا يهتدي أحد به ، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن ، فلهذا قال ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين . . ﴾ .

(٣٢) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم وكلامهم فيما لا يعنيهم حيث قالوا ﴿ لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ أي هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية ، فأجابهم الله تعالى عن ذلك بأنه إنما نزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع والحوادث وما يحتاج إليه من الأحكام ليثبت قلوب المؤمنين به كقوله ﴿ وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ﴾ ولهذا قال ﴿ لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ بيناه تبييناً ، وفسرناه تفسيراً .

(٣٣) ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾

﴿ ولا يأتونك بمثل ﴾ أي بحجة وشبهة ﴿ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً ﴾ أي ولا

يقولون قولا يعارضون به الحق إلا أجبناهم بما هو الحق في نفس الأمر ، وأبين وأوضح وأفصح من مقالتهم .

﴿ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ ﴿٣٤﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن سوء حال الكفار في معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم في أسوأ الحالات ، وأقبح الصفات ﴿ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴾ وفي الصحيح عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : « إن الذي أمشاه على رجليه قادر أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ ﴿٣٩﴾

يقول الله تعالى متوعداً من كذب رسوله محمداً ﷺ من مشركي قومه ومن خالفه ، ومحذرهم من عقابه وأليم عذابه مما أحله بالأمم الماضية المكذبين لرسله فبدأ بذكر موسى وأنه بعثه وجعل معه أخاه هارون وزيراً ، أي نبياً موازراً ومؤيداً ، وناصراً ، فكذبهما فرعون وجنوده ﴿ فدمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ﴾ وكذلك فعل بقوم نوح حين كذبوا رسوله نوحاً عليه السلام ، ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل ، إذ لا فرق بين رسول ورسول ، ولهذا قال ﴿ وقوم نوح لما كذبوا الرسل ﴾ ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط ، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز وجل ، ويحذرهم نقمته ﴿ فما آمن معه إلا قليل ﴾ ولهذا أغرقهم الله جميعاً ، ولم يبق منهم أحداً من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط ﴿ وجعلناهم للناس آية ﴾ أي عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى ﴿ إنا لما طغا الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله الله عليكم من إنجائكم من الغرق ، وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره . وقوله تعالى ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرسِّ ﴾ وأصحاب الرسِّ هم أهل قرية من قرى ثمود .

﴿ وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾ أي وأمماً أضعاف من ذكر أهلكناهم ، ولهذا قال ﴿ وكلًا ضربنا له الأمثال ﴾ أي بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة ، وأزحنا الأعذار عنهم ﴿ وكلًا تبرنا تتبيراً ﴾ أي أهلكنا إهلاكاً ، كقوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾ والقرن هو الأمة من الناس كقوله ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قروناً آخرين ﴾ وحده بعضهم بمائة وعشرين سنة ، وقيل بمائة ، وقيل بثمانين ، وقيل : أربعين وقيل : غير ذلك ، والأظهر أن القرن هو الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد ، وإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهو قرن آخر كما ثبت في الصحيحين « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » .

(٤٠) ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾

﴿ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴾ يعني قرية قوم لوط ، وهي « سدوم » التي أهلكها الله بالقلب وبالمطر من الحجارة التي من سجيل ، كما قال تعالى ﴿ وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين ﴾ وقال ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل ﴾ وقال ﴿ وإنها لبسبيل مقيم ﴾ ولهذا قال ﴿ أفلم يكونوا يرونها ﴾ أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ، وبمخالفتهم أوامر الله ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ يعني المارين بها من الكفار لا يعتبرون لأنهم لا يرجون نشوراً ، أي معاداً يوم القيامة .

(٤١) ﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴾

يخبر تعالى عن استهزاء المشركين بالرسول ﷺ إذا رأوه ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً ؟ ﴾ أي على سبيل التنقص والازدراء ، فقبحهم الله .

(٤٢) ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

﴿ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا ﴾ يعنون أنه كان يثنيهم عن عبادة الأصنام لولا أن صبروا وتجلدوا واستمروا عليها . قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿ وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ﴾ .

(٤٣) ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

ثم قال تعالى لنبيه ﷺ منبهاً أن من كتب الله عليه الشقاوة والضلال ، فإنه لا يهديه أحد إلا الله عز وجل ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ أي مهما استحسن من شيء ورآه حسناً في هوى نفسه كان دينه ومذهبه كما قال تعالى ﴿ أفمن زين له سو عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ قال ابن عباس : كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زماناً ، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول .

﴿٤٤﴾ ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

أي هم أسوأ حالاً من الأنعام السارحة ، فإن تلك تفعل ما خلقت له ، وهؤلاء خلقوا للعبادة لله وحده لا شريك له فلم يفعلوا ، وهم يعبدون غيره ويشركون به مع قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم .

﴿٤٥﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴾

من ههنا شرع سبحانه وتعالى في بيان الأدلة الدالة على وجوده وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة فقال تعالى ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ﴾ الظل : هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ﴿ ولو شاء لجعله ساكناً ﴾ أي دائماً لا يزول ﴿ ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ﴾ أي لولا أن الشمس تطلع عليه لما عرف ، فإن الضد لا يعرف إلا بضده .

﴿٤٦﴾ ﴿ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾

﴿ ثم قبضناه إلينا ﴾ أي الظل ، وقيل :الشمس ﴿ قبضاً يسيراً ﴾ أي سهلاً ، أو سريعاً ، أو خفيفاً حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة ، وقد أظلت الشمس ما فوقه ، أو ﴿ يسيراً ﴾ قليلاً قليلاً .

﴿٤٧﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾

﴿ وهو الذي جعل لكم الليل لباساً ﴾ أي يلبس الوجود ويغشاه . كما قال تعالى ﴿ والليل إذا يغشى ﴾ ﴿ والنوم سباتاً ﴾ أي قاطعاً للحركة لراحة الأبدان ، فإن الأعضاء والجوارح تكل من كثرة الحركة في الانتشار بالنهار في المعاش ، فإذا جاء الليل وسكن سكنت الحركات فاستراحت فحصل النوم الذي فيه راحة البدن والروح معاً ﴿ وجعل النهار

نشوراً ﴾ أي ينتشر الناس فيه لمعايشهم ومكاسبهم وأسبابهم .

﴿٤٨﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴾

وهذا أيضاً من قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات ، أي بمجيء السحاب بعدها . والرياح أنواع في صفات كثيرة من التسخير ، فمنها ما يثير السحاب ، ومنها ما يحمله ، ومنها ما يسوقه ، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشراً ، ومنها ما قبل ذلك تغم الأرض ، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر ، ولهذا قال ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ أي آلة يتطهر بها .

﴿٤٩﴾ ﴿ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴾

﴿ لنحيي به بلدة ميتاً ﴾ أي أرضاً قد طال انتظارها للغيث ، فهي هامدة لانبات ولا شيء فيها ، فلما جاءها الماء عاشت واكتسبت رباها أنواع الأزاهير والألوان ، كما قال تعالى ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ ﴿ ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً ﴾ أي وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناس محتاجين إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وثمارهم .

﴿٥٠﴾ ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَـٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾

﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ أي أمطرنا هذه الأرض دون هذه ، وسقنا السحاب يمر على الأرض الأخرى فيمطرها ويكفيها ويجعلها غدقاً ، والتي وراءها لم ينزل فيها قطرة من ماء ، وله في ذلك الحجة البالغة ، والحكمة القاطعة . قال ابن عباس وابن مسعود : ليس عام بأكثر مطراً من عام ، ولكن الله يصرفه كيف يشاء ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا . . . ﴾ أي ليذكروا بإحياء الأرض الميتة أن الله قادر على إحياء الأموات ، والعظام الرفات ، أو ليذكر من منع المطر أنما أصابه ذلك بذنب أصابه ، فيقلع عما هو فيه ﴿ فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ﴾ يعني الذين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا . وفي صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذاك مؤمن بي ، كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكواكب » .

﴿٥١﴾ ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴾

﴿ ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً ﴾ يدعوهم إلى الله عز وجل ، ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ .

(٥٢) ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾

﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به ﴾ يعني بالقرآن ﴿ جهاداً كبيراً ﴾ كما قال تعالى ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ .

(٥٣) ﴿ * وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾

أي خلق الماءين : الحلو والملح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال ، وهذا المعنى لا شك فيه ، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن ، وهو عذب فرات ، والله سبحانه وتعالى إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه ، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس فرقه الله تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهاراً وعيوناً في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم وأراضيهم . وقوله ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي مالح مر زعاق ، لا يستساغ ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب . ﴿ وجعل بينهما برزخاً ﴾ أي بين العذب والمالح ، أي حاجزاً وهو اليبس من الأرض ﴿ وحجراً محجوراً ﴾ أي مانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر .

(٥٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾

﴿ وهو الذي خلق من الماء بشراً . . . ﴾ أي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة وعدله وجعله كامل الخلقة ذكراً وأنثى كما يشاء . ﴿ فجعله نسباً وصهراً ﴾ فهو في ابتداء أمره ولد نسيب ، ثم يتزوج فيصير صهراً ، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات ، وكل ذلك من ماء مهين ، ولهذا قال ﴿ وكان ربك قديراً ﴾ .

(٥٥) ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً بلا دليل قادهم إلى ذلك ، ولا حجة أدتهم إليه ، بل بمجرد الآراء والتشهي

والأهواء ، فهم يوالونهم ، ويقاتلون في سبيلهم ، ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم ، ولهذا قال ﴿ وكان الكافر على ربه ظهيراً ﴾ يقول : عوناً للشيطان على ربه بالعداوة والشرك ، أو موالياً .

(٥٦) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾

﴿ وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين ، مبشراً بالجنة لمن أطاع الله ، ونذيراً بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله .

(٥٧) ﴿ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾

﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر ﴾ أي على هذا البلاغ ، وهذا الانذار من أجرة أطلبها من أموالكم ، وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ ﴿ إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً ومسلكاً ومنهجاً يقتدي فيها بما جئت به .

(٥٨) ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾

﴿ وتوكل على الحي الذي لا يموت ﴾ أي في أمورك كلها كن متوكلاً على الله الحي الذي لا يموت أبداً الذي ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ الدائم الباقي السرمدي الأبدي الحي القيوم رب كل شيء ومليكه ، اجعله ذخرك وملجأك ، وهو الذي يتوكل عليه ، ويفزع إليه ، فإنه كافيك وناصرك ، ومؤيدك ومظفرك . ﴿ وسبح بحمده ﴾ أي اقرن بين حمده وتسبيحه ، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك » أي أخلص له العبادة والتوكل . ﴿ وكفى به بذنوب عباده خبيراً ﴾ أي بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة .

(٥٩) ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴾

﴿ الذي خلق السموات والأرض ﴾ أي هو الحي الذي لا يموت ، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها ﴿ في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾ أي يدبر الأمر ويقضي الحق ، وهو خير الفاصلين . ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي استعلم عنه من هو خبير به ، عالم

به ، فاتبعه ، واقتد به ، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ، ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الاطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، فما قاله فهو الحق ، وما أخبر به فهو الصدق ، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه ، فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق ، وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ أو ﴿ فاسأل به خبيراً ﴾ أي ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك ، أو هذا القرآن خبير به .

(٦٠) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴾

﴿ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمٰن قالوا وما الرحمن ﴾ أي لا نعرف الرحمٰن ، وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمٰن ، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب : اكتب « باسم الله الرحمن الرحيم » فقالوا : لا نعرف الرحمٰن ولا الرحيم ، ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم ، ولهذا أنزل الله ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمٰن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ أي هو الله وهو الرحمٰن . ﴿ أنسجد لما تأمرنا ﴾ أي لمجرد قولك ﴿ وزادهم نفوراً ﴾ فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمٰن الرحيم ، ويفردونه بالإلٓهية ويسجدون له .

(٦١) ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾

يقول تعالى ممجداً نفسه ومعظماً على جميل ما خلق في السماوات من البروج ، وهي الكواكب العظام ﴿ وجعل فيها سراجاً ﴾ وهي الشمس المنيرة التي هي كالسراج في الوجود ﴿ وقمراً منيراً ﴾ أي مشرقاً مضيئاً .

(٦٢) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾

﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ﴾ أي يخلف كل واحد منهما صاحبه ، يتعاقبان لا يفتران ، إذا ذهب هذا جاء هذا ، وإذا جاء هذا ذهب ذاك ﴿ لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل . وفي الحديث الصحيح « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

﴿٦٣﴾ ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾

هذه صفات عباد الله المؤمنين ﴿ الذين يمشون على الأرض هوناً ﴾ أي بسكينة ووقار ، من غير جبرية ولا استكبار كقوله ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنعاً ورياء ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما يخط من صبب ، وكأنما الأرض تطوى له ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ أي إذا سفه عليهم الجهال بالقول السيىء لم يقابلوهم عليه بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيراً ، كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً .

﴿٦٤﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾

﴿ والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ أي في طاعته وعبادته ، كما قال تعالى ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ .

﴿٦٥﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾

﴿ والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً ﴾ أي ملازماً دائماً .

﴿٦٦﴾ ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

أي بئس المنزل منظراً ، وبئس المقيل مقاماً .

﴿٦٧﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾

﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴾ أي ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة ، ولا بخلاء على أهليهم فيقصرون في حقهم ، فلا يكفونهم ، بل عدلاً خياراً ، وخير الأمور أوسطها ، لا هذا ، ولا هذا ﴿ وكان بين ذلك قواماً ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴾ روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « من فقه الرجل قصده في معيشته » ولم يخرجوه . وروى أيضاً عن رسول الله ﷺ « ما عال من اقتصد » لم يخرجوه . وروى البزار عن رسول الله ﷺ قال : « ما أحسن القصد في الغنى ، وما أحسن القصد في الفقر ، وما أحسن القصد في العبادة » . وقال الحسن البصري : ليس في النفقة في سبيل الله سرف . وقال إياس بن معاوية : ما جاوزت به أمر الله فهو سرف ، وقال غيره : السرف النفقة في معصية الله .

(٦٨) ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾

روى الإمام أحمد عن عبدالله ، هو ابن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله أنداداً وهو خلقك ، قال : ثم أي ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » قال : ثم أي ؟ قال : « أن تزاني حليلة جارك » قال عبدالله : وأنزل الله تصديق ذلك ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلّهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون . . . ﴾ وقد أخرجه البخاري ومسلم . وقد ذكر أن لقمان الحكيم كان يقول : يا بني ، إياك والزنا ، فإن أوله مخافة وآخره ندامة . ﴿ يلق آثاماً ﴾ جزاء .

(٦٩) ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾

﴿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴾ هذا تفسير لقوله ﴿ يلق آثاماً ﴾ وهو بدل منه . أي يكرر عليه ويغلظ ﴿ ويخلد فيه مهاناً ﴾ أي حقيراً ذليلاً .

(٧٠) ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ إلا من تاب ﴾ أي في الدنيا إلى الله عز وجل من جميع ذلك ، فإن الله يتوب عليه ، وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ﴿ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ أي إنهم بدلوا مكان عمل السيئات بعمل الحسنات ، أو أن تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة والنصوح حسنات ، وما ذاك إلا لأنه كلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر ، فينقلب الذنب طاعة بهذا الاعتبار .

(٧١) ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴾

﴿ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴾ أي فإن الله يقبل توبته كما قال ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ .

(٧٢) ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾

وهذه أيضاً من صفات عباد الرحمٰن أنهم لا يشهدون الزور ، قيل : هو الشرك وعبادة الأصنام ، وقيل : الكذب والفسق ، والكفر واللغو الباطل ، أو هو اللغو والغناء . أو المراد

شهادة الزور ، وهي الكذب متعمداً على غيره كما في الصحيحين عن أبي بكرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » ثلاثاً ، قلنا : بلى ، يا رسول الله ، قال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكأ فجلس فقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت . ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ أي لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به مروا ولم يتدنسوا منه بشيء .

(٧٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾

﴿ والذين إذا ذكروا بآيات ربهم . . . ﴾ لم يصموا عن الحق ، ولم يعموا فيه ، فهم عقلوا عن الحق ، وانتفعوا بما سمعوا من كتابه .

(٧٤) ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾

﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا . . . ﴾ يعني الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من يطيعه ويعبده وحده لا شريك له ﴿ واجعلنا للمتقين إماماً ﴾ أئمة يقتدى بنا في الخير ، وهداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم ، وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثواباً ، وأحسن مآباً ، ولهذا ثبت في صحيح مسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له ، أو علم ينتفع به من بعده ، أو صدقة جارية » .

(٧٥) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴾

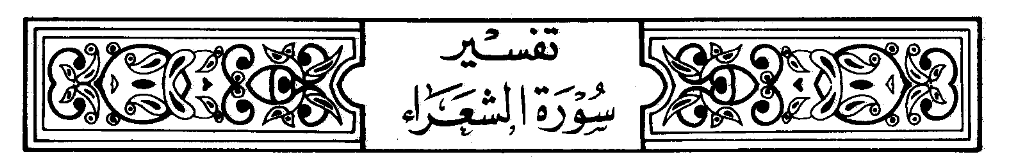
لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من الصفات الجميلة ، والأقوال والأفعال الجليلة قال بعد ذلك كله : ﴿ أولئك ﴾ أي المتصفون بهذه ﴿ يجزون ﴾ يوم القيامة ﴿ الغرفة ﴾ وهي الجنة ﴿ بما صبروا ﴾ أي على القيام بذلك ﴿ ويلقون فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ تحية وسلاماً ﴾ أي يبتدرون فيها بالتحية والإكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

(٧٦) ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي مقيمين لا يظعنون ، ولا يحولون ، ولا يموتون ، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولاً . ﴿ حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ أي حسنت منظراً ، وطابت مقيلاً ومنزلاً .

﴿٧٧﴾ ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾

﴿ قل ما يعبأ بكم ربي ﴾ أي لا يبالي ، ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه ، فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ، ويسجوه بكرة وأصيلاً ﴿ فقد كذبتم ﴾ أيها الكافرون ﴿ فسوف يكون لزاماً ﴾ أي فسوف يكون تكذيبكم لزاماً لكم ، يعني مقتضياً لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة ، ويدخل في ذلك يوم بدر .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ طسٓمٓ ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد مر في أول سورة البقرة .

﴿٢﴾ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن المبين ، أي البين الواضح الجلي الذي يفصل بين الحق والباطل ، والغي والرشد . .

﴿٣﴾ ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ لعلك باخع نفسك ﴾ أي مهمل نفسك مما تحرص وتحزن عليهم ﴿ ألا يكونوا مؤمنين ﴾ وهذه تسلية من الله لرسوله ﷺ في عدم إيمان من يؤمن به من الكفار ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ .

﴿٤﴾ ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾

﴿ إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية . . . ﴾ أي لو نشاء لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهراً ، ولكن لا نفعل ذلك ، لأنا لا نريد من أحد إلا الايمان الاختياري .

﴿٥﴾ ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾

﴿ وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث . . ﴾ أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض

عنه أكثر الناس ، كما قال تعالى ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٦) ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَـٰٓؤُا مَا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ فقد كذبوا فسيأتيهم .. ﴾ أي فقد كذبوا بما جاءهم من الحق فسيعلمون نبأ هذا التكذيب بعد حين ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴾ .

(٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه وجلالة قدره وشأنه الذين اجترؤوا على مخالفة رسوله وتكذيب كتابه ، وهو القاهر العظيم القادر الذي خلق الأرض ، وأنبت فيها من كل زوج كريم ، من زروع وثمار وحيوان ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لئيم .

(٨) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي دلالة على قدرة الخالق للأشياء الذي بسط الأرض ، ورفع بناء السماء ، ومع هذا ما آمن أكثر الناس ، بل كذبوا به وبرسله وكتبه ، وخالفوا أمره ، وارتكبوا نهيه .

(٩) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ وإن ربك لهو العزيز ﴾ أي الذي عز كل شيء ، وقهره وغلبه ﴿ الرحيم ﴾ أي بخلقه ، فلا يعجل على من عصاه ، بل يؤجله ويُنظِره ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

(١٠) ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ (١٥) فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (١٩)

يخبر تعالى عما أمر به عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام حين ناداه من جانب الطور الأيمن ، وكلمه وناجاه ، وأرسله واصطفاه ، وأمره بالذهاب إلى فرعون وملئه ، ولهذا قال ﴿ أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون الا يتقون ـ إلى قوله ـ ﴿ أخاف أن

يقتلون ﴾ هذه أعذار سأل من الله ازاحتها عنه ، كما قال في سورة طه ﴿ رب اشرح لي صدري . ويسر لي امري . واحلل عقدة من لساني . يفقهوا قولي ـ واجعل لي وزيراً من أهلي . هارون اخي . اشدد به أزري . وأشركه في أمري . كي نسبحك كثيراً . ونذكرك كثيراً . إنك كنت بنا بصيراً . قال قد اوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ أي بسبب قتل القبطي الذي كان سبب خروجه من بلاد مصر . ﴿ قال كلا ﴾ أي قال الله له : لا تخف من شيء من ذلك ، كقوله ﴿ سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون اليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ . ﴿ فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون ﴾ كقوله ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ أي إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي ﴿ فاتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين ﴾ كقوله ﴿ إنا رسولا ربك ﴾ أي كل منا أرسل اليك ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ﴾ أي أطلقهم من أسارك وقبضتك ، وقهرك وتعذيبك ، فإنهم عباد الله المؤمنون ، وحزبه المخلصون ، وهم معك في العذاب المهين ، فلما قال له موسى ذلك أعرض فرعون هنالك بالكلية ونظر إليه بعين الازدراء والغمص فقال ﴿ ألم نر بك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين ﴾ أي أما أنت الذي ربيناه فينا وفي بيتنا ، وعلى فراشنا ، وأنعمنا عليه مدة من السنين ، ثم بعد ذلك قابلت الاحسان بتلك الفعلة أن قتلت منا رجلاً ، وجحدت نعمتنا عليك ، ولهذا قال ﴿ وأنت من الكافرين ﴾ أي الجاحدين .

(٢٠) ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾

﴿ قال فعلتها إذاً ﴾ أي في تلك الحال ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي قبل أن يوحي إليّ ، وينعم الله علي بالرسالة والنبوة ، ﴿ وأنا من الضالين ﴾ أي الجاهلين .

(٢١) ﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ ففرت منكم لما خفتكم ﴾ أي انفصل الحال الأول ، وجاء أمر آخر ، فقد أرسلنا الله اليك ، فإن أطعته سلمت ، وإن خالفته عطبت .

(٢٢) ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

أي وما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك ، ومشاق رعيتك ، أفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، أي ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى ما فعلت بهم .

(٢٣) ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرده وطغيانه وجحوده في قوله ﴿ وما رب العالمين ﴾ وذلك أنه كان يقول لقوم ﴿ ما علمت لكم من إلٓه غيري ﴾ ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : إني رسول رب العالمين قال له فرعون : ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري .

(٢٤) ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾

﴿ قال رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالق جميع ذلك ومالكه ، والمتصرف فيه ، وإلٓهه ، لا شريك له ، هو الذي خلق الأشياء كلها ، العالم العلوي ، وما فيه من الكواكب الثوابت ، والسيارات النيرات ، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، وحيوانات ونبات وثمار وما بين ذلك من الهواء والطير ، وما يحتوي عليه الجو ، الجميع عبيد له ، خاضعون ذليلون ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة .

(٢٥) ﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾

فعند ذلك التفت فرعون إلى من حوله من ملئه ورؤساء دولته قائلاً لهم على سبيل التهكم والاستهزاء والتكذيب لموسى فيما قاله ﴿ ألا تستمعون ﴾ ؟ أي ألا تعجبون من هذا في زعمه أن لكم إلٓهاً غيري ؟ .

(٢٦) ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

فقال لهم موسى ﴿ ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي خالقكم وخالق آبائكم الأولين الذين كانوا قبل فرعون وزمانه .

(٢٧) ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾

أي ليس له عقل في دعواه أن ثم رباً غيري .

(٢٨) ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ قال ﴾ أي موسى لأولئك الذين أوعز اليهم فرعون ما أوعز من الشبهة فأجاب موسى بقوله ﴿ رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ أي هو الذي جعل المشرق مشرقاً تطلع منه الكواكب ، والمغرب مغرباً تغرب فيه الكواكب ، ثوابتها وسياراتها مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها ، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر ، وليجعل المشرق مغرباً ، والمغرب مشرقاً .

(٢٩) ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾

لما قامت الحجة على فرعون بالبيان والعقل عدل إلى أن يقهر موسى بيده وسلطانه فظن أنه ليس وراء هذا المقام مقال فقال ﴿ لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

(٣٠) ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾

فعند ذلك ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ أو لو جئتك بشيء مبين ﴾ ؟ أي ببرهان قاطع واضح .

(٣١) ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (٣٢)

أي ظاهر واضح في غاية الجلاء والوضوح ، والعظمة ، ذات قوائم وفم كبير ، وشكل هائل مزعج .

(٣٣) ﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾

﴿ ونزع يده ﴾ أي من جيبه ﴿ فإذا هي بيضاء للناظرين ﴾ أي تتلألأ كقطعة من القمر ، فبادر فرعون بشقاوته إلى التكذيب والعناد .

(٣٤) ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾

أي فاضل بارع في السحر ، فروَّج عليهم فرعون أن هذا من قبيل السحر ، لا من قبيل المعجزة .

(٣٥) ﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾

ثم هيجهم وحرضهم على مخالفته فقال ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ أي أراد أن يذهب بقلوب الناس معه بسبب هذا ، فيكثر أعوانه وأنصاره

وأتباعه ، ويغلبكم على دولتكم ، فيأخذ البلاد منكم ، فأشيروا علي فيه ، ماذا أصنع به ؟

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين . يأتوك بكل سحار عليم ﴾ أي أخره وأخاه حتى تجمع له من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك كل سحار عليم ، يقابلونه ، ويأتون بنظير ما جاء به فتغلبه أنت ، وتكون له النصرة والتأييد ، فأجابهم إلى ذلك وكان هذا من تسخير الله تعالى لهم في ذلك ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴾ ﴿٣٩﴾

ذكر الله تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى عليه السلام والقبط ، وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم فأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهذا شأن الكفر والايمان ما تواجها وتقابلا الا غلبه الايمان ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ﴾ ولهذا لما جاء السحرة وقد جمعوهم من أقاليم بلاد مصر ، وكانوا إذ ذاك أسحر الناس وأصنعهم ، وأشدهم تخييلاً في ذلك ، وكان السحرة جمعاً كثيراً ، وحجاً غفيراً ، واجتهد الناس في الاجتماع ذلك اليوم وقال قائلهم .

﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾

ولم يقولوا : نتبع الحق ، سواء كان من السحرة ، أو من موسى ، بل الرعية على دين ملكهم .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿ فلما جاء السحرة ﴾ أي إلى مجلس فرعون ، وقد جمع خدمه وحشمه ، ووزراءه ورؤساء دولته ، وجنود مملكته ، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الاحسان اليهم ، والتقرب اليه إن غلبوا ، أي هذا الذي جمعتنا من أجله ، ﴿ قالوا أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين ﴾ أي وأخص مما تطلبون ، أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾

وهذا كما تقول الجهلة العوام إذا فعلوا شيئاً : هذا بثواب فلان .

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿ فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ أي تخطفه وتجمعه من كل بقعة وتبتلعه ، فلم تدع منه شيئاً ، فكان هذا أمراً عظيماً جداً ، وبرهاناً قاطعاً للعذر ، وحجة دافعة ، وذلك أن الذين استنصر بهم ، وطلب منهم أن يغلبوا غُلبوا وخضعوا وآمنوا بموسى في الساعة الراهنة ، وسجدوا لله رب العالمين الذي أرسل موسى وهارون بالحق ، وبالمعجزة الباهرة ، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله ، وكان وقحاً جريئاً ، عليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين ، فعدل إلى المكابرة والعناد ، ودعوى الباطل ، فشرع يتهددهم ويتوعدهم ، ويقول ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٤٩﴾

تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم ، وتوعدهم فما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ، وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر إلا أن يكون الله قد أيده به ، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه ، ولهذا قال لهم فرعون : ﴿آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ ﴾ كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم ، ولا تفتاتوا علي في ذلك ، فإن أذنت لكم فعلتم ، وإن منعتكم امتنعتم ، فإني أنا الحاكم المطاع ﴿ إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ﴾ وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل . ثم توعدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب .

﴿ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿ قالوا لا ضير ﴾ أي لا حرج ، ولا يضرنا ذلك . ولا نبالي به ﴿ إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ أي المرجع إلى الله عز وجل ، وهو لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، ولا يخفى عليه ما فعلت بنا ، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء .

(٥١) ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا ﴾ أي ما فارقنا من الذنوب ، وما أكرهتنا عليه من السحر . ﴿ أن كنا أول المؤمنين ﴾ أي بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان فقتلهم كلهم .

(٥٢) ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ (٥٣)

لما طال مقام موسى عليه السلام ببلاد مصر ، وأقام بها حجج الله وبراهينه على فرعون وملئه ، وهم مع ذلك يكابرون ، ويعاندون ، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال ، فأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً من مصر ، وأن يمضي بهم حيث يؤمر ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه عز وجل ، خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حلياً كثيراً ، فلما أصبح فرعون وجنوده وليس في ناديهم داع ولا مجيب غاظ ذلك فرعون ، واشتد غضبه على بني إسرائيل لما يريد الله به من الدمار ، فأرسل سريعاً في بلاده حاشرين ، أي من يحشر الجند ويجمعه كالنقباء والحجاب ونادى فيهم :

(٥٤) ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾

﴿ إن هؤلاء ﴾ يعني بني إسرائيل ﴿ لشرذمة قليلون ﴾ أي لطائفة قليلة .

(٥٥) ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾

أي كل وقت يصل منهم إلينا ما يغيظنا .

(٥٦) ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾

أي نحن كل وقت نحذر من غائلتهم .

(٥٧) ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ (٥٨)

أي فخرجوا من هذا النعيم إلى الجحيم ، وتركوا تلك المنازل العالية ، والبساتين والأنهار والأموال ، والأرزاق والملك ، والجاه الوافر في الدنيا .

(٥٩) ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ كما قال تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ﴾ .

(٦٠) ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين أن فرعون خرج في محفل عظيم ، وجمع كبير ، هو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه ، أولي الحل والعقد والدول من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود ﴿ فأتبعوهم مشرقين ﴾ أي وصلوا إليهم عند شروق الشمس وهو طلوعها .

(٦١) ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

﴿ فلما تراءى الجمعان ﴾ أي رأى كل من الفريقين صاحبه ، فعند ذلك ﴿ قال أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ وذلك أنهم انتهى بهم السير إلى سيف البحر ، فصار أمامهم البحر ، وقد أدركهم فرعون بجنوده ، فلهذا قالوا ﴿ إنا لمدركون ﴾ .

(٦٢) ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾

﴿ قال كلا إن معي ربي سيهدين ﴾ أي لا يصل إليكم شيء مما تحذرون ، فإن الله سبحانه هو الذي أمرني أن أسير ههنا بكم ، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد .

(٦٣) ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر ﴾ فضربه بها ففيها سلطان الله الذي أعطاه ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ أي كالجبل الكبير . قال ابن عباس : صار البحر اثني عشر طريقاً ، لكل سبط طريق ، وزاد السدي : وصار فيه طاقات ينظر بعضهم إلى بعض ، وقام الماء على حيلة كالحيطان ، وبعث الله الريح إلى قعر البحر فلفحته ، فصار يبساً كوجه الأرض ، قال تعالى ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ .

(٦٤) ﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴾

﴿ وأزلفنا ثم الآخرين ﴾ أي قربنا هناك من البحر فرعون وجنوده ، وأدنيناهم إليه .

(٦٥) ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ (٦٦)

أي أنجينا موسى وبني إسرائيل ، ومن اتبعهم على دينهم فلم يهلك منهم أحد ، وأغرق فرعون وجنوده ، فلم يبق رجل منهم إلا هلك .

(٦٧) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (٦٨)

﴿ إن في ذلك لآية ﴾ أي هذه القصة وما فيها من العجائب والنصر والتأييد لعباد الله المؤمنين لدلالة وحجة قاطعة ، وحكمة بالغة ﴿ وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

(٦٩) ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾

هذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم عليه السلام إمام الحنفاء ، أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يتلوه على أمته ، ليقتدوا به في الاخلاص والتوكل وعبادة الله وحده لا شريك له ، والتبري من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبلُ أي من صغره إلى كبره ، فإنه وقت نشأ وشب أنكر على قومه عبادة الأصنام مع الله عز وجل .

(٧٠) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾

أي ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟

(٧١) ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾

أي مقيمين على عبادتها ودعائها .

(٧٢) ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (٧٤)

يعني اعترفوا بأن أصنامهم لا تفعل شيئاً من ذلك ، وإنما رأوا آباءهم كذلك يفعلون ، فهم على آثارهم يهرعون ، فعند ذلك قال لهم إبراهيم :

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٧٧﴾

أي إن كانت هذه الأصنام شيئاً ، ولها تأثير فلتخلص إليّ بالمساءة ، فإني عدو لها ، لا أبالي بها ، ولا أفكر فيها . وهذا كما قال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام ﴿ فأجمعوا أمركم وشركاءكم ﴾ ، وقال هود عليه السلام ﴿ إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون ﴾ وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم فقال ﴿ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ﴾ .

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ﴿٧٨﴾

يعني لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء ﴿ الذي خلقني فهو يهدين ﴾ أي هو الخالق الذي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه ، فكل يجري على ما قدر له ، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾ ﴿٧٩﴾

أي هو خالقي ورازقي بما سخر ويسر منَ الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء ، وأحيا به الأرض ، وأخرج من كل الثمرات رزقاً للعباد ، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً ، وأناسي كثيراً .

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ﴿٨٠﴾

أسند المرض إلى نفسه ، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه ، ولكن أضافه إلى نفسه أدباً ، أي إذا وقعت في مرض فإنه لا بقدر على شفائي أحد غيره بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه .

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ ﴿٨١﴾

أي هو الذي يحيي ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ، فإنه هو الذي يبدىء ويعيد .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ ﴿٨٢﴾

أي لا يقدر على غفران الذنوب في الدنيا والآخرة إلا هو ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وهو الفعال لما يشاء .

(٨٣) ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يؤتيه ربه حكماً ، قال ابن عباس : هو العلم ، وقيل : اللب ، وقيل : النبوة . ﴿ وألحقني بالصالحين ﴾ أي اجعلني من الصالحين في الدنيا والآخرة ، كما قال النبي ﷺ عند الاحتضار : « اللهم في الرفيق الأعلى » قالها ثلاثاً . وفي الحديث في الدعاء « اللهم أحينا مسلمين ، وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين ، غير خزايا ولا مبدلين » .

(٨٤) ﴿ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾

أي واجعل لي ذكراً جميلاً بعدي أذكر به ، ويقتدى بي في الخير ، كما قال تعالى ﴿وتركنا عليه في الآخرين . سلام على إبراهيم . كذلك نجزي المحسنين﴾ .

(٨٥) ﴿ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾

أي أنعم علي في الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعدي ، وفي الآخرة بأن تجعلني من ورثة جنة النعيم .

(٨٦) ﴿ وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾

﴿ واغفر لأبي ﴾ وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ .

(٨٧) ﴿ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾

أي أجرني من الخزي يوم القيامة ، ويوم يبعث الخلائق : أولهم وآخرهم . وفي البخاري عن النبي ﷺ قال : يلقى إبراهيم يوم القيامة أباه ، عليه الغبرة والقترة » وفي رواية أخرى « يلقى إبراهيم أباه ، فيقول : يا رب ، إنك وعدتني أن ﴿لا تخزني يوم يبعثون﴾ ، فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين » .

﴿٨٨﴾ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾

﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون ﴾ أي لا يقي المرء من عذاب الله ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً ﴿ ولا بنون ﴾ أي ولو افتدى بمن على الأرض جميعاً ، ولا ينفع يومئذٍ إلا الإيمان بالله ، وإخلاص الدين له ، والتبري من الشرك وأهله .

﴿٨٩﴾ ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

﴿ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾ أي سالم من الدنس والشرك . أو القلب السليم أن يشهد أن لا إله إلا الله .

﴿٩٠﴾ ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وأزلفت الجنة ﴾ أي قربت وأدنيت من أهلها مزخرفة مزينة لناظريها ، وهم المتقون الذين رغبوا فيها على ما في الدنيا وعملوا لها في الدنيا .

﴿٩١﴾ ﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴾

﴿ وبرزت الجحيم للغاوين ﴾ أي أظهرت وكشفت عنها وبدت منها عنق فزفرت زفرة بلغت منها القلوب الحناجر .

﴿٩٢﴾ ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ﴿٩٣﴾

﴿ وقيل ﴾ لأهلها تقريعاً وتوبيخاً ﴿ أين ما كنتم تعبدون . من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون ﴾ أي ليست الآلهة التي عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغني عنكم اليوم شيئاً ، ولا تدفع عن أنفسها ، فإنكم وإياها اليوم حطب جهنم أنتم لها واردون .

﴿٩٤﴾ ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾

﴿ فكبكبوا فيها هم والغاوون ﴾ فدهوروا وافيها ، والمراد أنه ألقى بعضهم على بعض من الكفار وقادتهم الذين دعوهم إلى الشرك .

﴿٩٥﴾ ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾

﴿ وجنود إبليس أجمعون ﴾ أي ألقوا فيها عن آخرهم .

﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٩٨﴾

أي يقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ، ويقولون وقد عادوا على أنفسهم بالملامة ﴿ تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين ﴾ أي نجعل أمركم مطاعاً كما يطاع أمر رب العالمين ، وعبدناكم مع رب العالمين .

﴿٩٩﴾ ﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

أي ما دعانا إلى ذلك إلا المجرمون .

﴿١٠٠﴾ ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾

﴿ فما لنا من شافعين ﴾ يعني من الملائكة .

﴿١٠١﴾ ﴿ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾

﴿ ولا صديق حميم ﴾ أي قريب . قال قتادة : يعلمون واللّهِ أن الصديق إذا كان صالحاً نفع ، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع .

﴿١٠٢﴾ ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وذلك أنهم يتمنون أنهم يردون إلى دار الدنيا ليعملوا بطاعة ربهم فيما يزعمون ، والله تعالى يعلم أنهم لو ردوا إلى دار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون . وقد أخبر تعالى عن تخاصم أهل النار فقال ﴿إذن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ .

﴿١٠٣﴾ ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿١٠٦﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد ما عبدت الأصنام والأنداد ، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من وبيل عقابه ، فكذبه قومه فاستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل ، فلهذا

قال تعالى ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين . إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون ﴾ أي ألا تخافون الله في عبادتكم غيره .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ ﴿١٠٧﴾

﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي إني رسول من الله إليكم أمين فيما بعثني الله به أبلغكم رسالات ربي ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ ﴿١١٠﴾

أي لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم ، بل ادخر ثواب ذلك عند الله ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ فقد وضح لكم ، وبان صدقي ونصحي ، وأمانتي فيما بعثني الله به وائتمنني عليه .

﴿ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١١٢﴾

يقولون : لا نؤمن لك ، ولا نتبعك ونتأسى في ذلك بهؤلاء الأرذلين الذين اتبعوك وصدقوك ، وهم أراذلنا ، ولهذا ﴿ قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون . قال وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ أي وأي شيء يلزمني من اتباع هؤلاء لي ، ولو كانوا على شيء كانوا عليه لا يلزمني التنقيب عنهم ، والبحث والفحص ، إنما علي أن أقبل منهم تصديقهم إياي وأكل سرائرهم إلى الله عز وجل .

﴿ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١١٤﴾

﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ، ويتابعوه فأبى عليهم ذلك وقال ﴿ وما أنا بطارد المؤمنين ﴾ .

﴿ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ ﴿١١٥﴾

أي إنما بعثت نذيراً ، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني ، وأنا منه ، سواء كان شريفاً ، أو وضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً .

(١١٦) ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾

لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهراً ، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ ، والامتناع الشديد ، وقالوا في الآخر ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ أي لئن لم تنته من دعوتك إيانا إلى دينك لنرجمنك ، فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه .

(١١٧) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١١٨)

كما قال في الآية الأخرى ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ وقال ههنا :

(١١٩) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ (١٢٠)

والمشحون هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيها من كل زوجين اثنين ، أي أنجينا نوحاً ومن اتبعه كلهم ، وأغرقنا من كفر به ، وخالف أمره كلهم أجمعين .

(١٢١) ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ (١٢٢) كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ (١٢٩)

وهذا إخبار من الله تعالى عن عبده ورسوله هود عليه السلام أنه دعا قومه عاداً ، وكان قومه يسكنون الأحقاف ، و هي جبال الرمل قريباً من حضرموت متاخمة لبلاد اليمن ، وكان زمانهم بعد قوم نوح كما قال تعالى ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾ وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب والقوة والبطش الشديد ، والطول المديد ، والأرزاق الدارة والأموال والجنات والأنهار والأبناء والزروع والثمار ، وكانوا مع ذلك يعبدون غير الله معه ، فبعث الله هوداً إليهم : رجلاً منهم رسولاً وبشيراً نذيراً فدعاهم إلى الله وحده ، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته وبطشه ، فقال لهم ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون ﴾ اختلف المفسرون في ﴿ الريع ﴾ بما حاصله أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة ، يبنون هناك بنياناً محكماً هائلاً باهراً ﴿ تعبثون ﴾ أي وإنما تفعلون ذلك عبثاً ، لا للاحتياج إليه ، بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة ، ولهذا

أنكر عليهم نبيهم عليه السلام ذلك ، لأنه تضييع للزمان ، واتعاب للأبدان في غير فائدة ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة . ولهذا قال ﴿ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ والمصانع البروج المشيدة ، والبنيان المخلد ، أي لكي تقيموا فيها أبداً ، وذلك ليس بحاصل لكم ، بل زائل عنكم ، كما زال عمن كان قبلكم . روى ابن أبي حاتم أن أبا الدرداء رضي الله عنه لما رأى ما أحدث المسلمون في الغوطة من البنيان ، ونصب الشجر قام في مسجدهم فنادى : يا أهل دمشق فاجتمعوا إليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : ألا تستحيون ، ألا تستحيون ، تجمعون ما لا تأكلون ، وتبنون ما لا تسكنون ، وتأملون ما لا تدركون ، إنه قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيوعون ، ويبنون فيوثقون ، ويأملون فيطيلون ، فأصبح أملهم غروراً ، وأصبح جمعهم بوراً ، وأصبحت مساكنهم قبوراً ، ألا إن عاداً ملكت ما بين عدن وعمان خيلاً وركاباً ، فمن يشتري مني ميراث عاد بدرهمين ؟

(١٣٠) ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾

﴿ وإذا بطشتم بطشتم جبارين ﴾ أي يصفهم بالقوة والغلظة والجبروت .

(١٣١) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (١٣٥)

﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي اعبدوا ربكم ، وأطيعوا رسولكم . ثم شرع يذكرهم نعم الله عليهم فقال : ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعملون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ أي إن كذبتم وخالفتم ، فدعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب فما نفع فيهم .

(١٣٦) ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قوم هود له بعد ما حذرهم وأنذرهم ، ورغبهم ورهبهم ، وبين لهم الحق ووضحه ﴿ قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ﴾ أي لا نرجع عما نحن فيه ﴿ وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ﴾ . وهكذا الأمر فإن الله تعالى قال ﴿ إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ وقال ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

﴿١٣٧﴾ ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ ﴿١٣٨﴾

﴿ إن هذا إلا خلق الأولين ﴾ يعنون ما هذا الذي جئتنا به الا أخلاق الأولين كما قال المشركون من قريش ﴿ وقالوا اساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ ﴿ وما نحن بمعذبين ﴾ أي لا بعث ولا معاد .

﴿١٣٩﴾ ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٤٠﴾

﴿ فكذبوه فأهلكناهم ﴾ أي استمروا على تكذيب نبي الله هود ومخالفته وعناده فأهلكهم الله ، وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأن أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، أي ريحاً شديدة الهبوب ذات برد شديد جداً ، فكان سبب إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره فسلط الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية . سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً - كاملة - فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية . فهل ترى لهم من باقية ﴾ .

﴿١٤١﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿١٤٥﴾

وهذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله صالح عليه السلام أنه بعثه إلى قومه ثمود ، وكانوا عرباً يسكنون مدينة الحجر التي بين وادي القرى وبلاد الشام ، ومساكنهم معروفة مشهورة ، وكانوا بعد عاد ، وقبل الخليل عليه السلام فدعاهم نبيهم صالح إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوه فيما بلغهم من الرسالة ، فأبوا عليه وكذبوه وخالفوه ، وأخبرهم أنه لا يبتغي بدعوتهم أجراً منهم ، وإنما يطلب ثواب ذلك من الله عز وجل . ثم ذكرهم آلاء الله عليهم .

﴿١٤٦﴾ ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ ﴿١٤٨﴾

يقول لهم واعظاً لهم ومحذرهم نقم الله أن تحل بهم ، ومذكراً بأنعم الله عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة ، وجعلهم في أمن من المحذورات ، وأنبت لهم الجنات ، وفجر لهم العيون الجاريات ، وأخرج لهم من الزروع والثمرات ، ولهذا قال ﴿ وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ عن ابن عباس : أينع وبلغ فهو هضيم ، أو اذا رطب واسترخى .

﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَـٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ ﴿١٥٢﴾

﴿ وتنحتون من الجبال بيوتاً ﴾ فارهين حاذقين ، أو شرهين أشرين ، ولا منافاة بينهما فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشراً وبطراً وعبثاً من غير حاجة إلى سكناها ، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم ، ولهذا قال ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ أي أقبلوا على ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتعبدوه وتوحدوه وتسبحوه بكرة وأصيلاً ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ يعني رؤساءهم وكبراءهم الدعاة لهم إلى الشرك والكفر ومخالفة الحق .

﴿١٥٣﴾ ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ثمود في جوابهم لنبيهم عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة ربهم عز وجل أنهم ﴿ قالوا إنما أنت من المسحرين ﴾ يعنون من المسحورين ، أو من المخلوقين ، لأن لهم سحراً ، والسحر الرئة والأظهر أنهم يقولون له إنما أنت في قولك هذا مسحور لا عقل لك .

﴿١٥٤﴾ ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

﴿ ما أنت إلا بشر مثلنا ﴾ يعني فكيف أوحي اليك دوننا ؟ كما قالوا في الآية الأخرى ﴿ أألزل عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ .

﴿١٥٥﴾ ﴿ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

ثم إنهم اقترحوا عليه آية يأتيهم بها ليعلموا صدقه بما جاءهم به من ربهم ، وقد اجتمع ملؤهم ، وطلبوا منه أن يخرج لهم الآن من هذه الصخرة ناقة عشراء ـ وأشاروا إلى صخرة عندهم ـ من صفتها كذا وكذا ، فعند ذلك أخذ عليهم نبي الله صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم إلى ما سألوا ليؤمنن به وليتبعنه فأعطوه ذلك فقام نبي الله صالح عليه السلام فصلى ثم دعا الله عز وجل أن يجيبهم إلى سؤالهم ، فانفطرت تلك الصخرة التي أشاروا اليها عن ناقة عشراء على الصفة التي وصفوها ، فآمن بعضهم وكفر أكثرهم ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ يعني ترد ماءكم يوماً ، ويوماً تردونه أنتم .

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿١٥٦﴾

﴿ ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم ﴾ فحذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ترد الماء وتأكل الورق والمرعى ، وينتفعون بلبنها ، يحلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تمالئوا على قتلها وعقرها .

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٥٩﴾

﴿ فعقروها فأصبحوا نادمين ﴾ .﴿ فأخذهم العذاب ﴾ ،وهو أن أرضهم زلزلت زلزالاً شديداً ، وجاءتهم صيحة عظيمة ، اقتلعت القلوب من محالها ، وأتاهم من الأمر ما لم يكونوا يحتسبون ، وأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴿ إن في ذلك لآية .... ﴾

﴿ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿١٦٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله لوط عليه السلام ، وهو لوط بن هاران ، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الله قد بعثه إلى أمة عظيمة في حياة إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها التي أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة ، وهي مشهورة ببلاد الغور ، متاخمة لجبال البيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك ، فدعاهم إلى الله عز وجل أن يعبدوه وحده لا شريك له ، وأن يطيعوا رسولهم الذي بعثه الله اليهم ، ونهاهم عن معصية الله ، وارتكاب ما كانوا قد ابتدعوه في العالم مما لم يسبقهم أحد من الخلائق إلى فعله من إتيان الذكور دون الاناث .

﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم

مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ ﴿١٧٥﴾

لما نهاهم نبي الله عن ارتكاب الفواحش ، وغشيانهم الذكور ، وأرشدهم إلى اتيان نسائهم اللاتي خلقهن الله لهم ما كان إلا أن قالوا ﴿ لئن لم تنته يا لوط ﴾ أي عما جئتنا به ﴿ لتكونن من المخرجين ﴾ أي ننفيك من بين أظهرنا كما قال تعالى ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ فلما رأى أنهم لا يرتدعون عما هم فيه وأنهم مستمرون على ضلالتهم تبرأ منهم وقال ﴿ إني لعملكم من القالين ﴾ أي المبغضين ، لا أحبه ولا أرضى به ، وإني بريء منكم ثم دعا الله عليهم فقال ﴿ رب نجني وأهلي مما يعملون ﴾ قال تعالى ﴿ فنجيناه وأهله أجمعين ﴾ أي كلهم ﴿ إلا عجوزاً في الغابرين ﴾ وهي امرأته وكانت عجوز سوء ، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها ، وأنزل الله العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال تعالى ﴿ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطراً فساء مطر المنذرين . إن في ذلك لآية . . ﴾ .

﴿١٧٦﴾ ﴿ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿١٨٠﴾

هؤلاء ـ يعني أصحاب الأيكة ـ هم أهل مدين على الصحيح ، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم ، وإنما لم يقل ههنا : ـ أخوهم شعيب ـ لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة ، وهي شجرة ، وقيل : شجر ملتف كالغيضة ، وكانوا يعبدونها ، فلهذا لما قال : ـ كذب أصحاب الأيكة المرسلين ـ لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب ، وإنما قال ﴿ إذ قال لهم شعيب ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه ، وإن كان أخاهم نسباً ، ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال : إلى ثلاث أمم ، والصحيح أنهم أمة واحدة ، وصفوا في كل مقام بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء فدل ذلك على أنهما أمة واحدة . وما ورد أنهما أمتان غريب ، أو فيه ضعف .

﴿١٨١﴾ ﴿ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴾

يأمرهم عليه السلام بإيفاء المكيال والميزان ، وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال ﴿ أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ﴾ أي إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم ، ولا تبخسوا الكيل فتعطوه ناقصاً وتأخذوه إذا كان لكم تاماً وافياً ، ولكن خذوا كما تعطون ، وأعطوا كما تأخذون .

(١٨٢) ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾

﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ والقسطاس هو الميزان ، وقيل : هو القبان ، أو هو العدل .

(١٨٣) ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ أي لا تنقصوهم أموالهم ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ يعني قطع الطريق ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً ﴾ .

(١٨٤) ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين ﴾ يخوفهم بأس الله الذي خلقهم وخلق آباءهم الأوائل كما قال موسى عليه السلام : ﴿ ربُّكم وربُّ آبائكم الأولين ﴾ .

(١٨٥) ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن جواب قومه له بمثل ما أجابت به ثمود لرسولها تشابهت قلوبهم حيث قالوا ﴿ إنما أنت من المسحرين ﴾ يعنون من المسحورين .

(١٨٦) ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

أي تتعمد الكذب فيما تقوله ، لا أن الله أرسلك إلينا .

(١٨٧) ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ فأسقط علينا كسفاً من السماء ﴾ جانباً من السماء ، أو قطعاً من السماء ، أو عذاباً من السماء ، وهذا شبيه بما قالت قريش ﴿ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ﴾ وبما

قالت أيضاً ﴿ وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب اليم ﴾ .

(١٨٨) ﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

﴿ قال ربي أعلم بما تعملون ﴾ يقول : الله أعلم بكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به ، وهو غير ظالم لكم ، وهكذا وقع بهم كما سألوا جزاء وفاقاً .

(١٨٩) ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (١٩١)

﴿ فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ وهذا من جنس ما سألوه من إسقاط الكسف عليهم ، فإن الله سبحانه وتعالى جعل عقوبتهم أن أصابهم حر عظيم مدة سبعة أيام ، لا يكنهم منه شيء ، ثم أقبلت عليهم سحابة أظلتهم فجعلوا ينطلقون اليها يستظلون بظلها من الحر ، فلما اجتمعوا كلهم تحتها أرسل الله عليهم منها شرراً من نار ، ولهباً ووهجاً عظيماً ، ورجفت بهم الأرض ، وجاءتهم صيحة عظيمة أزهقت أرواحهم ، ولهذا قال ﴿ إنه كان عذاب يوم عظيم ﴾ . ﴿ إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ .

(١٩٢) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ لتنزيل رب العالمين ﴾ أنزله الله عليك ، وأوحاه اليك .

(١٩٣) ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾

وهو جبريل عليه السلام ، كقوله ﴿ فإنه نزله على قلبك بإذن الله ﴾ أي نزل به ملك كريم أمين ذو مكانة عند الله مطاع في الملأ الأعلى .

(١٩٤) ﴿ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾

﴿ على قلبك ﴾ يا محمد سالماً من الدنس ، والزيادة والنقص ﴿ لتكون من المنذرين ﴾ أي لتنذر به بأس الله ونقمته على من خالفه وكذبه ، وتبشر به المؤمنين المتبعين له .

﴿١٩٥﴾ ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾

﴿ بلسان عربي مبين ﴾ أي هذا القرآن الذي أنزلناه اليك أنزلناه باللسان العربي الفصيح الكامل الشامل ليكون بيناً واضحاً ظاهراً قاطعاً للعذر ، مقيماً للحجة ، دليلاً إلى المحجة .

﴿١٩٦﴾ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

يقول تعالى : وإن ذكر هذا القرآن ، والتنويه به لموجود في كتب الأولين المأثورة عن أنبيائهم الذين بشروا به في قديم الدهر وحديثه ، كما أخذ الله عليهم الميثاق بذلك حتى قام آخرهم خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد ﴿ ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ﴾ والزبر ههنا هي الكتب ، وهي جمع زبور .

﴿١٩٧﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ أي أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك أن العلماء من بني اسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها ، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك من آمن منهم ، كعبدالله بن سلام ، وسلمان الفارسي .

﴿١٩٨﴾ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿١٩٩﴾

أي لو نزل الله هذا القرآن على رجل من الأعاجم ممن لا يدري من العربية كلمة ، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته لا يؤمنون به ، كما أخبر الله عنهم ﴿ ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ﴾ .

﴿٢٠٠﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

يقول تعالى : كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد أي أدخلناه في قلوب المجرمين .

﴿٢٠١﴾ ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾

﴿ لا يؤمنون به ﴾ أي بالحق ﴿ حتى يروا العذاب الأليم ﴾ أي حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار .

﴿٢٠٢﴾ ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾ ﴿٢٠٣﴾

﴿ فيأتيهم بغتة ﴾ أي عذاب الله بغتة ﴿ وهم لا يشعرون . فيقولوا هل نحن منظرون ﴾ أي يتمنون حين يشاهدون العذاب أن لو أنظروا قليلاً ليعملوا بزعمهم في طاعة الله ، وكل ظالم وفاجر وكافر إذا شاهد عقوبته ندم ندماً شديداً .

﴿٢٠٤﴾ ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾

﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ هذا إنكار عليهم ، وتهديد لهم ، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً : ائتنا بعذاب الله ، كما قال تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ﴾ .

﴿٢٠٥﴾ ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ ﴿٢٠٧﴾

أي لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر ، وحيناً من الزمان ، وإن طال ، ثم جاءهم أمر الله ، أيُّ شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعيم ؟ ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ .

﴿٢٠٨﴾ ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ ﴿٢٠٩﴾

﴿ وما أهلكنا من قرية ـ إلى قوله ـ وما كنا ظالمين ﴾ كقوله ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ .

﴿٢١٠﴾ ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ ﴿٢١٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، إنه نزل به الروح الأمين المؤيد من الله ﴿ وما تنزلت به الشياطين ﴾ ثم ذكر تعالى أنه يمتنع عليهم ذلك لأنه ما ينبغي لهم أي ليس هو من بغيتهم ، ولا من طلبتهم ، لأن من سجاياهم الفساد ، واضلال العباد ، وهذا فيه الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونور وهدى وبرهان عظيم ، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة ، ولهذا قال تعالى ﴿ وما ينبغي لهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما يستطيعون ﴾ أي ولو انبغى لهم لما استطاعوا

ذلك ، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله ، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسول الله ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه لئلا يشتبه

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٢١٦﴾

يقول تعالى امرا بعبادته وحده لا شريك له ، ومخبرا أن من أشرك به عذبه . ثم قال تعالى آمراً لرسوله ﷺ أن ينذر عشيرته الأقربين ، أي الأدنين إليه ، وأنه لا يخلص أحداً منهم إلا إيمانه بربه عز وجل ، وأمره أن يلين جانبه لمن اتبعه من عباد الله المؤمنين ، ومن عصاه من خلق الله كائناً من كان فليتبرأ منه ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون ﴾ وهذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة ، بل هي فرد من أجزائها كما قال تعالى ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ وقال ﴿ لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ وفي صحيح مسلم « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة : يهودي ولا نصراني ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » وفي نزول هذه الآية أحاديث منها أنه أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ، ثم نادى « يا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيء إليه ، وبين رجل يبعث رسوله ، فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبدالمطلب ، يا بني فهر ، يا بني لؤي ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ، وأنزل الله تبت يدا أبي لهب وتب » رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي والإمام أحمد . ومنها ما روته عائشة أنه لما نزلت ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال : « يا فاطمة ابنة محمد ، يا صفية ابنة عبدالمطلب ، يا بني عبدالمطلب ، لا أملك لكم من الله شيئاً ، سلوني من مالي ما شئتم » رواه الإمام أحمد وانفرد بإخراجه مسلم .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ﴿٢١٧﴾

﴿ وتوكل على العزيز الرحيم ﴾ أي في جميع أمورك ، فإنه مؤيدك ، وحافظك ، وناصرك ، ومظفرك ، ومعلي كلمتك .

(٢١٨) ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ (٢١٩)

﴿ الذي يراك حين تقوم ﴾ أي هو معتن بك ، كما قال ﴿ فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ ﴿ حين تقوم ﴾ يعني إلى الصلاة ، أو من فراشك أو مجلسك . ﴿ وتقلبك في الساجدين ﴾ أي يراك وحدك ويراك في الجمع ، أو تقلبه من صلب نبي إلى صلب نبي حتى أخرجه نبياً .

(٢٢٠) ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ إنه هو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم كما قال تعالى ﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ .

(٢٢١) ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾ (٢٢٣)

يقول تعالى مخاطباً لمن زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ﷺ ليس بحق ، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه أو أنه أتاه رئي من الجان فنزه الله سبحانه وتعالى جناب رسوله عن قولهم وافترائهم ، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند الله ، وأنه تنزيله ووحيه ، نزل به ملك كريم أمين عظيم ، وأنه ليس من قبل الشياطين ، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم ، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة . ولهذا قال ﴿ هل أنبئكم ﴾ أي أخبركم ﴿ على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك ﴾ أي كذوب ﴿ أثيم ﴾ هو الفاجر في أفعاله ﴿ يلقون السمع ﴾ أي يسترقون السمع من السماء ، فيسمعون الكلمة من علم الغيب فيزيدون معها مائة كذبة ، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيحدثون بها فيصدقهم الناس في كل ما قالوه بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء . وفي البخاري : سأل ناس النبي ﷺ عن الكهان فقال : « إنهم ليسوا بشيء » قالوا : يا رسول الله فإنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً ، فقال النبي ﷺ : « تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » .

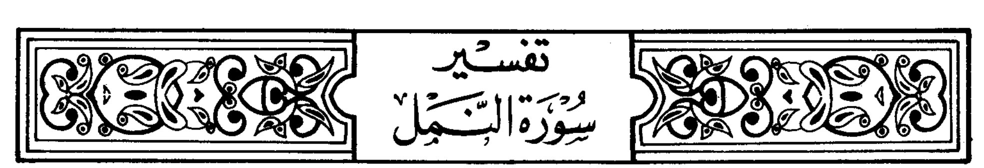
﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٢٢٦﴾

﴿ يتبعهم الغاوون ﴾ يتبعهم ضلال الإنس والجن ﴿ يهيمون ﴾ في كل لغو يخوضون . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد قال : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد ، فقال النبي ﷺ « خذوا الشيطان أو أمسكوا الشيطان ، لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ أكثر قولهم يكذبون فيه .

﴿٢٢٧﴾ ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

لما نزلت ﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ﴾ جاء حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ ، وهم يبكون ، قالوا : قد علم الله حين أنزل هذه الآية أنا شعراء فتلا النبي ﷺ ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ قال « أنتم » ﴿ وذكروا الله كثيراً ﴾ قال : « أنتم » ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال : « أنتم » ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ يردون على الكفار الذي كانوا يهجون به المؤمنين ﴿ وسيعلم الذين ظلموا ﴾ أي من الشعراء وغيرهم ، والآية عامة في كل ظالم .

* * *



تفسير سُورَةُ النَّمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

قد تقدم الكلام في سورة البقرة على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . ﴿ تلك آيات ﴾ هذه آيات ﴿ القرآن وكتاب مبين ﴾ أي بين واضح .

﴿٢﴾ ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٣﴾

﴿ هدى وبشرى للمؤمنين ﴾ أي إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتبعه وصدقه وعمل بما فيه ، وأقام الصلاة المكتوبة ، وآتى الزكاة المفروضة ، وأيقن بالدار الآخرة ، والبعث بعد الموت ، والجزاء على الأعمال خيرها وشرها ، والجنة والنار .

(٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾

﴿ إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي يكذبون بها ، ويستبعدون وقوعها ﴿ زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ﴾ أي حسنا لهم ما هم فيه ، ومددنا لهم في غيهم ، فهم يتيهون في ضلالهم ، وكان هذا جزاء على ما كذبوا من الدار الآخرة .

(٥) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾

﴿ أولئك الذين لهم سوء العذاب ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي ليس يخسر أنفسهم وأموالهم سواهم من أهل المحشر .

(٦) ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾

﴿ وإنك ﴾ يا محمد ﴿ لتلقى ﴾ أي لتأخذ ﴿ القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ أي من عند حكيم عليم ، أي حكيم في أمره ، ونهيه ، عليم بالأمور جليلها وحقيرها ، فخبره هو الصدق المحض ، وحكمه هو العدل التام كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ .

(٧) ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ مذكراً له ما كان من أمر موسى عليه السلام ، كيف اصطفاه وكلمه وناجاه وأعطاه من الآيات العظيمة الباهرة ، والأدلة القاهرة ، وابتعثه إلى فرعون وملئه فجحدوا بها وكفروا واستكبروا عن اتباعه والانقياد له ، فقال تعالى ﴿ إذ قال موسى لأهله ﴾ أي اذكر حين سار موسى بأهله فأضل الطريق ، وذلك في ليل وظلام فآنس من جانب الطور ناراً أي رأى ناراً تأجج وتضطرم فقال ﴿ لأهله إني آنست ناراً سآتيكم منها بخبر ﴾ أي عن الطريق ﴿ أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون به ، وكان كما قال ، فإنه رجع منها بخبر عظيم ، واقتبس منها نوراً عظيماً .

(٨) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

﴿ فلما جاءها نودي أن بورك من في النار ﴾ أي فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيماً حيث انتهى إليها ، والنار تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ، ولا تزداد الشجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصل بعنان السماء ، قال ابن عباس وغيره : لم تكن ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج ﴿ ومن حولها ﴾ أي من الملائكة ﴿ وسبحان الله رب العالمين ﴾ أي الذي يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم ، المباين لجميع المخلوقات ، ولا يكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات .

(٩) ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ يا موسى إنه أنا الله العزيز الحكيم ﴾ أعلمه أن الذي يخاطبه ويناجيه هو ربه العزيز الذي عز كل شيء وغلبه ، الحكيم في أقواله وأفعاله .

(١٠) ﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴾

ثم أمره أن يلقي عصاه من يده ليظهر له دليلاً واضحاً على أنه الفاعل المختار ، القادر على كل شيء ، فلما ألقى موسى تلك العصا من يده انقلبت في الحال حية عظيمة هائلة في غاية الكبر ، وسرعة الحركة مع ذلك ، ولهذا قال ﴿ فلما رآها تهتز كأنها جان ﴾ والجان ضرب من الحيات ، أسرعه حركة ، وأكثره اضطراباً . فلما عاين موسى ذلك ﴿ ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ أي لم يلتفت من شدة فرقه ﴿ يا موسى لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون ﴾ أي لا تخف مما ترى ، فإني أريد أن أصطفيك رسولاً ، وأجعلك نبياً وجيهاً .

(١١) ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء . . . ﴾ هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سيىء ثم أقلع عنه ، ورجع وتاب فإن الله يتوب عليه ، كما قال تعالى ﴿ وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾

(١٢) ﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

﴿ وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ هذه آية أخرى ، ودليل باهر على قدرة الله الفاعل المختار ، وصدق من جعل له معجزة ، وذلك أن الله تعالى أمره أن يدخل يده في جيب درعه ، فإذا أدخلها وأخرجها خرجت بيضاء ساطعة كأنها قطعة قمر ، لها لمعان تتلألأ كالبرق الخاطف . وقوله ﴿ في تسع آيات ﴾ أي هاتان ثنتان من تسع آيات ، أؤيدك بهن وأجعلهن برهاناً لك إلى فرعون وقومه ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

(١٣) ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة ﴾ أي بينة واضحة ظاهرة ﴿ قالوا هذا سحر مبين ﴾ وأرادوا معارضتهم بسحرهم فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين .

(١٤) ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿وجحدوا بها﴾ أي في ظاهر أمرهم ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي علموا في أنفسهم أنها حق من عند الله، ولكن جحدوها، وعاندوها وكابروها ﴿ظلماً وعلواً﴾ أي ظلماً من أنفسهم ، سجية ملعونة ، وعلواً ، واستكباراً عن اتباع الحق ، ولهذا قال ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾ أي أنظر يا محمد كيف كان عاقبة أمرهم في إهلاك الله إياهم ، وإغراقهم عن آخرهم في صبيحة واحدة ، وفحوى الخطاب يقول : احذروا أيها المكذبون لمحمد الجاحدون لما جاء به من ربه أن يصيبكم ما أصابهم بطريق الأولى والأحرى ، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى ، وبرهانه أدل وأقوى من برهان موسى بما آتاه الله من الدلائل المقترنة بوجوده في نفسه وشمائله ، وما سبقه من البشارات من الأنبياء به وأخذ المواثيق له . عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام .

(١٥) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبديه ونبييه : داود وابنه سليمان عليهما السلام من النعم الجزيلة ، والمواهب الجليلة ، والصفات الجميلة وما جمع لهما بين سعادة الدنيا

والآخرة ، والملك والتمكين التام في الدنيا ، والنبوة والرسالة في الدين ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً . . . ﴾ .

(١٦) ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي في الملك والنبوة ، وليس المراد وراثة المال ، إذ لو كان ذلك لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود ، فإنه قد كان لداود مائة امرأة ، ولكن المراد بذلك وراثة الملك والنبوة ، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم ، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » ﴿ وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ﴾ أي أخبر سليمان بنعم الله عليه فيما وهبه له من الملك التام ، والتمكين العظيم ، حتى إنه سخر له الإنس والجن والطير ، وكان يعرف لغة الطير والحيوان أيضاً ، وهذا شيء لم يعطه أحد من البشر فيما علمناه مما أخبر الله به رسوله ﴿ وأوتينا من كل شيء ﴾ أي مما يحتاج إليه الملك ﴿ إن هذا لهو الفضل المبين ﴾ أي الظاهر البين لله علينا .

(١٧) ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

أي وجمع لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ، يعني ركب فيهم في أبهة وعظمة كبيرة في الإنس ، وكانوا هم الذين يلونه والجن ، وهم بعدهم في المنزلة ، والطير ، ومنزلتها فوق رأسه ، فإن كان حر أظلته منه بأجنحتها . وقوله ﴿فهم يوزعون﴾ أي يكف أولهم على آخرهم ، لئلا يتقدم أحد على منزلته التي هي مرتبة له . قال مجاهد : جعل على كل صنف وزعة يردون أولاها على أخراها لئلا يتقدموا في المسير كما يفعل الملوك اليوم .

(١٨) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل ﴾ أي حتى إذا مر سليمان عليه السلام بمن معه من الجيوش والجنود على وادي النمل ﴿ قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ أي خافت النمل أن تحطمها الخيول بحوافرها ، فأمرتهم بالدخول إلى مساكنهم ففهم ذلك سليمان عليه السلام منها .

(١٩) ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي ﴾ أي ألهمني أن أشكر نعمتك التي مننت بها علي من تعليمي منطق الطير والحيوان ، وعلى والدي بالإسلام لك ، والإيمان بك ﴿ وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أي عملاً تحبه وترضاه ﴿ وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ أي إذا توفيتني فألحقني بالصالحين من عبادك ، والرفيق الأعلى من أوليائك . . والغرض أن سليمان عليه السلام فهم قولها ، وتبسم ضاحكاً من ذلك ، وهذا أمر عظيم جداً . وقد ثبت في الصحيح عند مسلم عن النبي ﷺ : « قرصت نبياً من الأنبياء نملة ، فأمر بقرية النمل فأحرقت ، فأوحى الله إليه ، أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح ؟ فهلا نملة واحدة ؟ » .

(٢٠) ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾

﴿ وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ؟ ﴾ أخطأه بصري من الطير أم غاب فلم يحضر ؟ وعن ابن عباس وغيره أن الهدهد كان يدل سليمان عليه السلام على الماء إذا كان بأرض فلاة طلبه فنظر له الماء في تخوم الأرض كما يرى الإنسان الشيء الظاهر على وجه الأرض ، ويعرف كم مساحة بعده من وجه الأرض ، فإذا دلهم عليه أمر سليمان عليه السلام الجان فحفروا له ذلك المكان حتى يستنبط الماء من قراره .

(٢١) ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ لأعذبنه عذاباً شديداً ﴾ يعني نتف ريشه ﴿ أو لأذبحنه ﴾ يعني قتله ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ بعذر واضح .

(٢٢) ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

﴿ فمكث ﴾ أي الهدهد ﴿ غير بعيد ﴾ أي غاب زماناً يسيراً ، ثم جاء فقال لسليمان ﴿ أحطت بما لم تحط به ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه أنت ولا جنودك ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين ﴾ أي بخبر صدق حق يقين ، وسبأ : هم حمير ، وهم ملوك اليمن .

(٢٣) ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾

﴿ إني وجدت امرأة تملكهم ﴾ هي بلقيس بنت شراحيل ملكة سبأ ﴿ وأوتيت من كل شيء ﴾ أي من متاع الدنيا مما يحتاج إليه الملك الممَكَّن ﴿ ولها عرش عظيم ﴾ سرير تجلس عليه عظيم هائل مزخرف بالذهب ، وأنواع الجواهر واللآلىء .

(٢٤) ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ فصدهم عن السبيل ﴾ أي عن طريق الحق ﴿ فهم لا يهتدون ﴾ .

(٢٥) ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾

﴿ ألا يسجدوا لله ﴾ أي فهم لا يهتدون ألا يسجدوا لله ، أي لا يعرفون سبيل الحق التي هي إخلاص السجود لله وحده دون ما خلق من الكواكب وغيرها ﴿ الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ﴾ يعلم كل خبيئة في السماء والأرض . وخبء السموات والأرض ما جعل فيهما من الأرزاق : المطر من السماء ، والنبات من الأرض . ﴿ ويعلم ما تخفون وما تعلنون ﴾ أي يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه من الأقوال والأفعال ، وهذا كقوله تعالى ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ .

(٢٦) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴾

﴿ الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم ﴾ أي هو المدعو « الله » وهو الذي لا إله إلا هو رب العرش العظيم الذي ليس في المخلوقات أعظم منه . ولما كان الهدهد داعياً إلى الخير ، وعبادة الله وحده ، والسجود له نهى عن قتله كما رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : نهى النبي ﷺ عن قتل أربع من الدواب : النملة والنحلة والهدهد والصرد . وإسناده صحيح .

(٢٧) ﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قيل سليمان للهدهد حين أخبره عن أهل سبأ وملكتهم ﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ أي أصدقت في إخبارك هذا ﴿ أم كنت من الكاذبين ﴾ في مقالتك لتتخلص من الوعيد الذي أوعدتك ؟

(٢٨) ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَ

ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿ اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولَّ عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام كتب كتاباً إلى بلقيس وقومها ، وأعطاه ذلك الهدهد فحمله ، قيل : في جناحيه كما هي عادة الطير ، وقيل : بمنقاره ، وذهب إلى بلادهم فجاء إلى قصر بلقيس إلى الخلوة التي كانت تختلي فيها بنفسها فألقاه إليها من كوة هنالك بين يديها ، ثم تولى ناحية أدباً ورياسة ، فتحيرت مما رأت ، وهالها ذلك ، ثم عمدت إلى الكتاب فأخذته ففتحت ختمه وقرأته فإذا فيه :

﴿٣٠﴾ ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَـٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٣١﴾

﴿ إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علي وأتوني مسلمين ﴾ فجمعت عند ذلك أمراءها ووزراءها وكبراء دولتها ومملكتها . ثم قالت لهم : ﴿ يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتاب كريم ﴾ تعني بكرمه ما رأته من عجيب أمره ، كون طائر ذهب به فألقاه إليها ، ثم تولى عنها أدباً ، وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك ولا سبيل لهم إلى ذلك ، ثم قرأته عليهم فعرفوا أنه من نبي الله سليمان عليه السلام ، وأنه لا قبل لهم به ، وهذا الكتاب في غاية البلاغة والوجازة والفصاحة ، فإنه حصل المعنى بأيسر عبارة وأحسنها . ﴿ أن لا تعلوا علي ﴾ لا تمتنعوا ولا تتكبروا ﴿ وأتوني مسلمين ﴾ موحدين مخلصين طائعين .

﴿٣٢﴾ ﴿ قَالَتْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴾

لما قرأت عليهم كتاب سليمان استشارتهم في أمرها ، وما قد نزل بها ، ولهذا قالت ﴿ يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون ﴾ أي حتى تحضرون وتشيرون .

﴿٣٣﴾ ﴿ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾

﴿ قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد ﴾ أي منوا إليها بعددهم وعددهم وقوتهم ، ثم فوضوا اليها بعد ذلك الأمر فقالوا ﴿ والأمر اليك فانظري ماذا تأمرين ﴾ اي نحن ليس بنا عاقة ، ولا بنا بأس ، [illegible] نحارب فما لنا عاقة عنه ، وبعد هذا فالأمر

اليك ، مري فينا رأيك نمتثله ونطيعه ـ قال الحسن البصري رحمه الله فوضوا أمرهم إلى علجة تضطرب ثدياها ، فلما قالوا لها ما قالوا كانت هي أحزم رأياً منهم ، وأعلم بأمر سليمان ، وأنه لا قبل لها بجنوده وجيوشه ، وما سخر له من الجن والانس والطير ، وقد شاهدت من قضية الكتاب مع الهدهد أمراً عجيباً بديعاً ، فقالت لهم : إني أخشى أن نحاربه ونمتنع عليه فيقصدنا بجنوده ، ويهلكنا بمن معه ، ويخلص إلي وإليكم الهلاك ، والدمار دون غيرنا ، ولهذا :

(٣٤) ﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ﴾ أي إذا دخلوا بلداً عنوة أفسدوه أي خربوه ﴿ وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ أي وقصدوا من فيها من الولاة والجنود ، فأهانوهم غاية الهوان ، إما بالقتل أو الأسر وقوله ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ هذا من كلام الرب ، كما قال ابن عباس .

(٣٥) ﴿ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

﴿ وإني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ﴾ أي سأبعث اليه بهدية تليق بمثله ، وأنظر ماذا يكون جوابه بعد ذلك ، فلعله يقبل منا ، ويكف عنا ، أو يضرب علينا خراجاً نحمله إليه في كل عام ، ونلتزم بذلك ، ويترك قتالنا ومحاربتنا . قال قتادة : ما كان أعقلها في إسلامها وشركها ، علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس . وعن ابن عباس وغير واحد : قالت لقومها : إن قبل الهدية فهو ملك فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه .

(٣٦) ﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴾

ذكر غير واحد من المفسرين من السلف وغيرهم أنها بعثت إليه بهدية عظيمة من ذهب وجواهر ولآلىء وغير ذلك ، والصحيح أنها أرسلت إليه بآنية من ذهب . والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ما جاؤوا إليه بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه ، وقال منكراً عليهم ﴿ أتمدونن بمال ؟ ﴾ أي أتصانعونني بمال لأتركم على شرككم وملككم ﴿ فما آتاني الله خير مما آتاكم ﴾ أي الذي أعطاني الله من الملك والمال والجنود خير مما أنتم فيه . ﴿ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴾ أي أنتم الذين تنقادون للهدايا والتحف ، وأما أنا فلا أقبل منكم إلا الإسلام أو السيف .

(٣٧) ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

﴿ ارجع اليهم ﴾ أي بهديتهم ﴿ فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ﴾ أي لا طاقة لهم بقتالها ﴿ ولنخرجنهم منها أذلة ﴾ أي ولنخرجنهم من بلدتهم أذلة ﴿ وهم صاغرون ﴾ أي مهانون مدحورون . فلما رجعت اليها رسلها بهديتها ، وبما قال سليمان سمعت وأطاعت هي وقومها وأقبلت تسير إليه في جنودها خاضعة ذليلة معظمة لسليمان ، ناوية متابعته في الإسلام ، ولما تحقق سليمان عليه السلام قدومهم عليه ، ووفودهم إليه فرح بذلك وسره .

(٣٨) ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾

شخصت إلى سليمان حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والانس ممن تحت يده فقال ﴿ يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴾ وقد وصفوا عرشها أنه من ذهب ، وقوائمه من لؤلؤ وجوهر ، وكان مستراً بالديباج والحرير . وقد كره أن يأخذه بعد إسلامهم ، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم .

(٣٩) ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾

﴿ قال عفريت من الجن ﴾ مارد من الجن ﴿ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ﴾ قبل أن تقوم من مجلسك ، فقد كان يجلس للناس للقضاء ، والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس ﴿ وإني عليه لقوي أمين ﴾ أي قوي على حمله ، أمين على ما فيه من الجواهر .

(٤٠) ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾

﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب ﴾ قيل : هو آصف به برخياء كاتب سليمان ، وكان صديقاً يعلم الاسم الأعظم ﴿ أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ﴾ أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه ، فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك ، فلما عاين سليمان وملؤه ذلك ورآه مستقراً عنده ﴿ قال هذا من فضل ربي ﴾ أي هذا من نعم الله علي ﴿ليبلوني﴾ أي ليختبرني ﴿أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ كقوله ﴿من

عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ وقوله ﴿ ومن كفر فإن ربي غني كريم ﴾ أي هو غني عن العباد وعبادتهم ، أي كريم في نفسه وإن لم يعبده أحد ، فإن عظمته ليست مفتقرة إلى أحد ، وهذا كما قال موسى ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وفي صحيح مسلم « يقول الله تعالى : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه » .

(٤١) ﴿ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

لما جيء سليمان عليه السلام بعرش بلقيس قبل قدومها أمر به أن يغير بعض صفاته ليختبر معرفتها ، وثباتها عند رؤ يته هل تقدم على أنه عرشها ، أو أنه ليس بعرشها فقال ﴿ نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ﴾ قال ابن عباس : نزع منه نصوصه ومرافقه ، وقال مجاهد أمر به فغير ما كان أحمر جعل أصفر ، وما كان أصفر جعل أحمر ، وما كان أخضر جعل أحمر ، غير كل شيء عن حاله .

(٤٢) ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴾

﴿ فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ﴾ أي عرض عليها عرشها وقد غير ونكر ، وزيد فيه ونقص منه فكان فيها ثبات وعقل ، ولها لب ودهاء وحزم ، فلم تقدم على أنه هو لبعد مسافته عنها ، ولا أنه غيره لما رأت من آثاره وصفاته ، وإن بدل ونكر وغير فقالت ﴿ كأنه هو ﴾ أي يشبهه ويقاربه ، وهذا غاية في الذكاء والحزم ﴿ وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ﴾ هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام .

(٤٣) ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴾

﴿ وصدها ما كانت تعبد من دون الله ﴾ وهذا من تمام كلام سليمان عليه السلام ، أي منعها من عبادة الله وحده ، ﴿ ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ﴾ وهي إنما أظهرت الاسلام بعد دخولها إلى الصرح .

(٤٤) ﴿ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ قيل لها ادخلي الصرح ﴾ وذلك أن سليمان عليه السلام أمر الشياطين فبنوا لها قصراً عظيماً من قوارير ، أي من زجاج ، وأجرى تحته الماء ، فالذي لا يعرف أمره يحسب أنه ماء ، ولكن الزجاج يحول بين الماشي وبينه ﴿ فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها ﴾ لا تشك أنه ماء تخوضه ﴿ قال إنه صرح ممرد من قوارير ﴾ فلما وقفت على سليمان دعاها إلى عبادة الله عز وجل وحده ، وعاتبها في عبادة الشمس من دون الله ﴿ قالت إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ فأسلمت وحسن إسلامها .

(٤٥) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن ثمود وما كان من أمرها مع نبيها صالح عليه السلام حين بعثه الله اليهم فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ فإذا هم فريقان يختصمون ﴾ مؤمن وكافر .

(٤٦) ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ﴾ أي لم تدعون بحضور العذاب ، ولا تطلبون من الله رحمته ، ولهذا قال ﴿ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون ﴾ .

(٤٧) ﴿ قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَـٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾

﴿ قالوا اطيرنا بك وبمن معك ﴾ أي ما رأينا على وجهك ووجوه من اتبعك خيراً ، وذلك أنهم لشقائهم كان لا يصيب أحداً منهم سوء إلا قال : هذا من قبل صالح وأصحابه ، كما قال تعالى إخباراً عن قوم فرعون ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ﴾ وقوله ﴿ قال طائركم عند الله ﴾ أي الله يجازيكم على ذلك ﴿ بل أنتم قوم تفتنون ﴾ تبتلون بالطاعة والمعصية ، والظاهر أن المراد بقوله ﴿ تفتنون ﴾ أي تستدرجون فيما أنتم فيه من الضلال .

(٤٨) ﴿ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

يخبر تعالى عن طغاة ثمود ورؤوسهم الذين كانوا دعاة قومهم إلى الضلال والكفر وتكذيب صالح ، وآل بهم الحال إلى أنهم عقروا الناقة ، وهموا بقتل صالح أيضاً ، بأن يبيتوه في أهله ليلاً فيقتلوه غيلة ، ثم يقولوا لأوليائه من أقربيه : إنهم ما علموا بشيء من أمره ، وإنهم لصادقون فيما أخبروهم به من أنهم لم يشاهدوا ذلك ، فقال تعالى ﴿ وكان في المدينة ﴾ أي مدينة ثمود ﴿ تسعة رهط ﴾ أي تسعة نفر ﴿ يفسدون في الأرض ولا

يصلحون ﴾ وإنما غلب هؤلاء على أمر ثمود لأنهم كانوا كبراءهم ورؤساءهم . هؤلاءهم الذين عقروا الناقة ، أي الذين صدر ذلك عن رأيهم ومشورتهم . قبحهم الله ولعنهم ، وقد فعل ذلك . وكان صفات هؤلاء الافساد في الأرض بكل طريق يقدرون عليها .

(٤٩) ﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ﴾ أي تحالفوا وتبايعوا على قتل نبي الله صالح عليه السلام من لقيه ليلاً غيلة ، فكادهم الله وجعل الدائرة عليهم ، ﴿ ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله .. ﴾ عن ابن عباس قالوا حين عقروا الناقة لنبيتن صالحاً وأهله فنقتلهم ، ثم نقول لأولياء صالح : ما شهدنا من هذا شيئاً ، وما لنا به من علم ، فدمرهم الله أجمعين .

(٥٠) ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ (٥٣)

﴿ فتلك بيوتهم خاوية ﴾ أي فارغة ليس فيها أحد ﴿ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ .

(٥٤) ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه أنذر قومه نقمة الله بهم في فعلهم الفاحشة التي لم يسبقهم اليها أحد من بني آدم ، وهي إتيان الذكور دون الاناث ، وذلك فاحشة عظيمة ، استغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء فقال ﴿ أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون ﴾ أي يرى بعضكم بعضاً ، وتأتون في ناديكم المنكر ؟ .

(٥٥) ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾

﴿ أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون ﴾ أي لا تعرفون شيئاً ، لا طبعاً ولا شرعاً ، كما قال في الآية الأخرى ﴿ أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون ﴾ .

(٥٦) ﴿ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

أي يتحرجون من فعل ما تفعلون ومن اقراركم على صنيعكم ، فأخرجوهم من بين

أظهركم ، فإنهم لا يصلحون لمجاورتكم في بلادكم ، فعزموا على ذلك ، فدمر الله عليهم ، وللكافرين أمثالها .

(٥٧) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾

﴿ فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين ﴾ أي من الهالكين مع قومها ، لأنها كانت ردءاً لهم على دينهم ، وعلى طريقتهم في رضاها بأفعالهم القبيحة ، فكانت تدل قومها على ضيفان لوط ، ليأتوا اليهم ، لا أنها كانت تفعل الفواحش تكرمة لنبي الله ﷺ ، لا كرامة لها .

(٥٨) ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

﴿ وأمطرنا عليهم مطراً ﴾ أي حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد . ولهذا قال ﴿ فساء مطر المنذرين ﴾ أي الذين قامت عليهم الحجة ، ووصل إليهم الانذار ، فخالفوا الرسول وكذبوه وهموا باخراجه من بينهم .

(٥٩) ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسول الله ﷺ أن يقول ﴿ الحمد لله ﴾ أي على نعمه على عباده من النعم التي لا تعد ولا تحصى ، وعلى ما اتصف به من الصفات العلى ، والأسماء الحسنىٰ ، وأن يسلم على عباده الذين اصطفاهم واختارهم ، وهم رسله وأنبياؤه الكرام . عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام ، فالمراد بعباده الذين اصطفى هم الأنبياء ، وهو كقوله ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ﴾ وقيل : هم أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين ، ولا منافاة ، فإنهم إذا كانوا من عباد الله الذين اصطفى فالأنبياء بطريق الأولى والأحرى . ﴿ آلله خيرام ما يشركون ﴾ استفهام إنكار على المشركين في عبادتهم مع الله آلهة أخرى .

(٦٠) ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾

ثم شرع تعالى يبين أنه المفرد بالخلق والرزق والتدبير دون غيره فقال تعالى ﴿ أمن خلق السموات ﴾ أي خلق تلك السموات في ارتفاعها وصفائها ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة ، والنجوم الزاهرة ، والأفلاك الدائرة ، وخلق الأرض في استفالها وكثافتها ، وما

جعل فيها من الجبال والأطواد والسهول والأوعار ، والفيافي والقفار ، والزروع والأشجار ، والثمار والبحار والحيوان على اختلاف الأصناف والأشكال والألوان وغير ذلك ﴿ وأنزل لكم من السماء ماء ﴾ أي جعله رزقاً للعباد ﴿ فأنبتنا به حدائق ﴾ أي بساتين ﴿ ذات بهجة ﴾ أي منظر حسن وشكل بهي ﴿ ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ﴾ أي لم تكونوا تقدرون على إنبات أشجارها ، وإنما يقدر على ذلك الخالق الرازق المستقل بذلك المتفرد به دون ما سواه من الأصنام والأنداد كما يعترف به هؤلاء المشركون ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ ﴿ أءله مع الله ﴾ أي أءله مع الله يعبد ، أو يفعل هذا ، وقد تبين لكم ولكل ذي لب مما يعترفون به أنه الخالق الرازق ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق ﴾ ؟ ﴿ بل هم قوم يعدلون ﴾ أي يجعلون لله عدلاً ونظيراً .

(٦١) ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ أمن جعل الأرض قراراً ﴾ أي قارة ساكنة ثابتة لا تحيد ولا تتحرك بأهلها ولا ترجف بهم ، فإنها لو كانت كذلك لما طاب عليها العيش والحياة ، بل جعلها من فضله ورحمته مهاداً وبساطاً ثابتة ، لا تتزلزل ولا تتحرك ﴿ وجعل خلالها أنهاراً ﴾ أي جعل فيها الأنهار العذبة الطيبة ، شقها في خلالها ، وصرفها فيما بين أنهار كبار وصغار وبين ذلك ، وسيرها شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً بحسب مصالح عباده في أقاليمهم وأقطارهم حيث ذرأهم في أرجاء الأرض ، وسير لهم أرزاقهم بجسب ما يحتاجون إليه ﴿ وجعل لها رواسي ﴾ أي جبالاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تحيد بكم ﴿ وجعل بين البحرين حاجزاً ﴾ أي جعل بين المياه العذبة والمالحة حاجزاً أي مانعاً يمنعها من الاختلاط لئلا يفسد هذا بهذا ، فإن الحكمة الآلهية تقتضي بقاء كل منهما على صفته المقصودة منه ، فإن البحر الحلو هو هذه الأنهار السارحة الجارية بين الناس ، والمقصود منها أن تكون عذبة زلالاً يسقي الحيوان والنبات والثمار منها . والبحار المالحة هي المحيطة بالأرجاء والأقطار من كل جانب ، والمقصود منها أن يكون ماؤ ها ملحاً أجاجاً لئلا يفسد الهواء بريحها كما قال تعالى ﴿ وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ أءله مع الله ﴾ ؟ أي فعل هذا ، أو يعبد ؟ ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي في عبادتهم غيره .

﴿٦٢﴾ ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

ينبه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل كما قال تعالى ﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ وهكذا قال هنا ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعاه ﴾ أي من هو الذي لا يلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لا يكشف ضر المضرورين سواه ؟ ﴿ ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ كما قال تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين ﴾ ، وهكذا في هذه الآية ﴿ ويجعلكم خلفاء الأرض ﴾ أي أمة بعد أمة ، وجيلاً بعد جيل ، وقوماً بعد قوم ، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد ، ولم يجعل بعضهم من ذرية بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لا يميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد لكانت تضيق عنهم الأرض ، وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ، ويتضرر بعضهم ببعض ، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ، ويذرأهم في الأرض ، ويجعلهم قروناً بعد قرون ، وأمماً بعد أمم حتى ينقضي الأجل وتفرغ البرية ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدهم عداً ، ثم يقيم القيامة ، ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله . ﴿ أإله مع الله ؟ ﴾ أي يقدر على ذلك ، أو أإله مع الله بعد هذا ؟ وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لا شريك له . ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ أي ما أقل تذكرهم فيما يرشدهم إلى الحق ، ويهديهم إلى الصراط المستقيم .

﴿٦٣﴾ ﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ﴾ أي بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية كما قال تعالى ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾ ﴿ ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته ﴾ أي بين يدي السحاب الذي فيه مطر يغيث الله به عباده المجدبين القنطين ﴿أإله مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ .

﴿٦٤﴾ ﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

أي هو الذي بقدرته وسلطانه يبدأ الخلق ثم يعيده كما قال ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ ﴿ ومن يرزقكم من السماء والأرض ﴾ أي بما ينزل من مطر من السماء ، وينبت من بركات الأرض كما قال تعالى ﴿ والسماء ذات الرجع . والأرض ذات الصدع ﴾ فهو تبارك وتعالى ينزل من السماء ماء مباركاً فيسلكه ينابيع في الأرض ، ثم يخرج به أنواع الزروع والثمار والأزاهير وغير ذلك من ألوان شتى ﴿ كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ أإله مع الله ﴾ أي فعل هذا ، أإله مع الله يعبد ؟ ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ على صحة ما تدعونه من عبادة آلهة أخرى ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في ذلك ، وقد علم أنه لا حجة لهم ولا برهان كما قال تعالى ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ .

﴿٦٥﴾ ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول معلماً لجميع الخلق : إنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله وقوله تعالى ﴿ إلا الله ﴾ استثناء منقطع ، أي لا يعلم أحد ذلك إلا الله عز وجل ، فإنه المنفرد بذلك وحده لا شريك له . ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أي وما يشعر الخلائق الساكنون في السموات والأرض بوقت الساعة كما قال تعالى ﴿ ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾ .

﴿٦٦﴾ ﴿ بَلِ ادَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾

﴿ بل ادارك علمهم في الآخرة ﴾ أي انتهى علمهم وعجز عن معرفة وقتها ، أو تساوى علمهم في ذلك ، كما في الحديث « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » أي تساوى في العجز عن درك ذلك : علم المسؤول وعلم السائل ، أو غاب علمهم .

﴿٦٧﴾ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن منكري البعث من المشركين أنهم استبعدوا إعادة الأجساد بعد صيرورتها عظاماً ورفاتاً وتراباً . ثم قال ﴿ لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ﴾ أي ما زلنا نسمع بهذا نحن وآباؤنا : ولا نرى له حقيقة ولا وقوعاً ﴿ إن هذا إلا أساطير الأولين ﴾ أي

هذا الوعد بإعادة الأبدان أخذه قوم عمن قبلهم من كتب يتلقاه بعض عن بعض ، وليس له حقيقة .

﴿٦٨﴾ ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء ﴿ سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴾ أي المكذبين بالرسل ، وبما جاؤوهم به من أمر المعاد وغيره ، كيف حلت بهم نقمة الله وعذابه ونكاله ، ونجى الله من بينهم رسله الكرام ، ومن اتبعهم من المؤمنين ، فدل ذلك على صدق ما جاءت به الرسل وصحته .

﴿٧٠﴾ ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه ﷺ ﴿ ولا تحزن عليهم ﴾ أي المكذبين بما جئت به ، ولا تأسف عليهم ، ﴿ ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ ﴿ ولا تكن في ضيق مما يمكرون ﴾ أي في كيدك ورد ما جئت به ، فإن الله مؤيدك وناصرك ، ومظهر دينك على من خالفه وعانده في المشارق والمغارب .

﴿٧١﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في سؤالهم عن يوم القيامة ، واستبعادهم وقوع ذلك ﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ .

﴿٧٢﴾ ﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾

قال تعالى مجيباً لهم ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون ﴾ أن يكون قرب ، أو أن يقرب لكم بعض الذي تستعجلون ، وهو كقوله ﴿ ويقولون متى هو؟ قل عسى أن يكون قريباً ﴾ وإنما دخلت اللام في قوله ﴿ ردف لكم ﴾ لأنه ضمن معنى عجل لكم .

﴿٧٣﴾ ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ وإن ربك لذو فضل على الناس ﴾ أي في إسباغه نعمه عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، وهم مع ذلك لا يشكرونه على ذلك إلا القليل منهم .

(٧٤) ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

﴿ وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم الضمائر والسرائر كما يعلم الظواهر ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ ﴿ يعلم السر وأخفى ﴾ ﴿ ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ .

(٧٥) ﴿ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه عالم غيب السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه فقال تعالى ﴿ وما من غائبة ﴾ يعني وما من شيء ﴿ في السماء والأرض إلا في كتاب مبين ﴾ وهذا كقوله ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ .

(٧٦) ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كتابه العزيز ، وما اشتمل عليه من الهدى والبيان والفرقان أنه يقص على بني إسرائيل ، وهم حملة التوراة والإنجيل ﴿ أكثر الذي هم فيه يختلفون ﴾ كاختلافهم في عيسى ، وتباينهم فيه ، فاليهود افتروا والنصارى غلوا ، فجاء القرآن بالقول الوسط الحق العدل أنه عبد من عباد الله ، وأنبيائه ورسله الكرام ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، كما قال تعالى ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ .

(٧٧) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين ﴾ أي هدى لقلوب المؤمنين به ، ورحمة لهم .

(٧٨) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ إن ربك يقضي بينهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ بحكمه وهو العزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿ العليم ﴾ بأفعال عباده وأقوالهم .

(٧٩) ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾

﴿ فتوكل على الله ﴾ أي في جميع أمورك ، وبلغ رسالة ربك ﴿ إنك على الحق المبين ﴾

أي أنت على الحق المبين ، وإن خالفك من خالفك ممن كتبت عليه الشقاوة ، و ﴿ حقت عليهم كلمة ربك أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴾ .

(٨٠) ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾

ولهذا قال ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ أي لا تسمعهم شيئاً ينفعهم ، فكذلك هؤلاء ، على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم وقر الكفر ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴾ .

(٨١) ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

أي إنما يستجيب لك من هو سميع بصير السمع والبصر النافع في القلب والبصيرة ، الخاضع لله ولما جاء عنه على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام .

(٨٢) ﴿ * وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾

هذه الدابة تخرج في آخر الزمان عند فساد الناس ، وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى ابن مريم عليه السلام ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمغرب ، وخسف بالمشرق ، وخسف بجزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن تسوق أو تحشر الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث أقبلوا » وهكذا رواه مسلم ، وأهل السنن . قال ابن جريج عن ابن الزبير : إنه وصف الدابة فقال : رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن أيل ، وعنقها عنق نعامة ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هر ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مفصلين اثنا عشر ذراعاً ، تخرج معها عصا موسى ، وخاتم سليمان ، فلا يبقى مؤمن إلا نكتت في وجهه بعصا موسى نكتة بيضاء ، فتغشو تلك النكتة حتى يبيض لها وجهه ، ولا يبقى كافر إلا نكتت في وجهه نكتة سوداء بخاتم سليمان فتغشو تلك النكتة حتى يسود بها وجهه حتى أن الناس يتبايعون في الأسواق بكم ذا يا مؤمن ، بكم ذا يا كافر ؟ وحتى إن أهل البيت يجلسون على مائدتهم فيعرفون مؤمنهم من كافرهم ، ثم تقول

لهم الدابة : يا فلان أبشر أنت من أهل الجنة ، ويا فلان أنت من أهل النار .

(٨٣) ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة وحشر الظالمين من المكذبين بآيات الله ورسله إلى بين يدي الله عز وجل ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً فقال تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ أي من كل قوم وقرن فوجاً . ﴿ فهم يوزعون ﴾ يدفعون ، أو يرد أولهم على آخرهم ، أو يساقون .

(٨٤) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ حتى إذا جاؤ وا ﴾ ووقفوا بين يدي الله عز وجل في مقام المساءلة ﴿ قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً أم ماذا كنتم تعملون ﴾ أي فيسألون عن اعتقادهم وأعمالهم ، فلما لم يكونوا من أهل السعادة ، وكانوا كما قال الله عنهم ﴿ فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى ﴾ فحينئذٍ قامت عليهم الحجة ، ولم يكن لهم عذر يعتذرون به كما قال الله تعالى ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ .

(٨٥) ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾

﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب ، لأنهم كانوا في الدار الدنيا ظلمة لأنفسهم ، وقد ردوا على عالم الغيب والشهادة الذي لا تخفى عليه خافية .

(٨٦) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

ثم قال تعالى منبهاً على قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، وشأنه الرفيع الذي تجب طاعته والانقياد لأوامره ، وتصديقه أنبيائه فيما جاؤ وا به من الحق الذي لا محيد عنه فقال ﴿ ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه ﴾ أي في ظلام الليل لتسكن حركاتهم بسببه وتهدأ أنفاسهم ، ويستريحوا من نصب التعب في نهارهم ﴿ والنهار مبصراً ﴾ أي منيراً مشرقاً ، فبسبب ذلك يتصرفون في المعايش والمكاسب والأسفار والتجارات وغير ذلك من شؤونهم التي يحتاجون إليها ﴿ إن في ذلك لايات لقوم يؤمنون ﴾ .

﴿٨٧﴾ ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن هول يوم نفخة الفزع في الصور ، وهو كما جاء في الحديث قرن ينفخ فيه ، وفي حديث الصور أن إسرافيل هو الذي ينفخ فيه أولاً نفخة الفزع ويطولها ، وذلك في آخر عمر الدنيا حتى تقوم الساعة على شرار الناس من الأحياء فيفزع من في السموات ومن في الأرض ﴿ إلا من شاء الله ﴾ وهم الشهداء فإنهم أحياء عند ربهم يرزقون ﴿ وكل أتوه داخرين ﴾ أي صاغرين مطيعين لا يتخلف أحد عن أمره كما قال تعالى ﴿ يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ﴾ وقال ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

﴿٨٨﴾ ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾

﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ أي تراها كأنها ثابتة باقية على ما كانت عليه ، وهي تمر مر السحاب ، أي تزول عن أماكنها كما قال تعالى ﴿ يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيراً ﴾ ﴿ صنع الله ﴾ أي يفعل ذلك بقدرته العظيمة ﴿ الذي أتقن كل شيء ﴾ أي أتقن كل ما خلق وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿ إنه خبير بما تفعلون ﴾ أي هو عليم بما يفعل عباده من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء .

﴿٨٩﴾ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾

ثم بين تعالى حال السعداء والأشقياء يومئذٍ فقال ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾ قال قتادة : بالاخلاص ، وقيل : هي « لا إله إلا الله » وقد بين تعالى في الموضع الآخر أن له عشر أمثالها ﴿ وهم من فزع يومئذٍ آمنون ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ لا يحزنهم الفزع الأكبر ﴾ .

﴿٩٠﴾ ﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ﴾ أي من لقي الله مسيئاً لا حسنة له ، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه ، ولهذا قال ﴿ هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ وقال كثير ﴿ ومن جاء بالسيئة ﴾ يعني بالشرك .

(٩١) ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله وآمراً له أن يقول ﴿ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء ﴾ وإضافة الربوبية إلى البلدة على سبيل التشريف لها والاعتناء بها ، كما قال تعالى ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ وقوله تعالى ﴿ الذي حرمها ﴾ أي الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدراً بتحريمه لها كما ثبت في الصحيحين قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينضر صيده ، ولا يلتقط القطعة ، إلا من عرفها ، ولا يختلي خلاها » ﴿ وله كل شيء ﴾ أي هو رب هذه البلدة ، ورب كل شيء ومليكه ، لا إله إلا هو . ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي من الموحدين المخلصين المنقادين لأمره ، المطيعين له .

(٩٢) ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾

﴿ وأن أتلـوَ القرآن ﴾ أي على الناس ، أبلغهم إياه ، كقوله تعالى ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾ . أي أنا مبلغ ومنذر ﴿ فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين ﴾ أي لي أسوة بالرسل ، الذين أنذروا قومهم ، وقاموا بما عليهم من أداء الرسالة إليهم ، وخلصوا من عهدتهم ، وحساب أممهم على الله تعالى ، كقوله تعالى ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقال ﴿ إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴾ .

(٩٣) ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وقل الحمد لله ﴾ أي لله الحمد الذي لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه ، ولهذا قال تعالى ﴿ سيريكم آياته فتعرفونها ﴾ كما قال تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ﴿ وما ربك بغافل عما تعملون ﴾ أي بل هو شهيد على كل شيء . روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ قال : ﴿ يا أيها الناس لا يغترن أحدكم بالله ، فإن الله لو كان غافلاً شيئاً لأغفل البعوضة والخردلة والذرة » .



تفسير سُورَة القَصَص



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ طسٓمٓ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

﴿ تلك ﴾ أي هذه ﴿ آيات الكتاب المبين ﴾ أي الواضح الجلي الكاشف عن حقائق الأمور ، وعلم ما قد كان وما هو كائن .

(٣) ﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق . . . ﴾ كما قال تعالى ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ أي نذكر لك الأمر على ما كان عليه كأنك تشاهد ، وكأنك حاضر .

(٤) ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ إن فرعون علا في الأرض ﴾ أي تكبر وتجبر وطغىٰ ﴿ وجعل أهلها شيعاً ﴾ أي أصنافاً قد صرف كل صنف فيما يريد من أمور دولته ﴿ يستضعف طائفة منهم ﴾ يعني بني إسرائيل ، وكانوا في ذلك الوقت خيار أهل زمانهم . هذا وقد سلط عليهم هذا الملك الجبار العنيد يستعملهم في أخس الأعمال ، ويكدهم ليلاً ونهاراً في أشغاله وأشغال رعيته ، ويقتل مع هذا أبناءهم ، ويستحيي نساءهم إهانة لهم ، واحتقاراً وخوفاً من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته من أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه .

(٥) ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٦)

﴿ ونريد أن نمن على . . . ﴾ وقد فعل تعالى ذلك بهم كما قال تعالى ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ، ولا يغلب ، بل نفذ حكمه ، وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه ، بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده ، وقتلت بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ومرباه على فراشك وفي دارك ، وغذاؤه من طعامك ، وأنت تربيه وتدلله وتتفداه ، وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه ، لتعلم أن رب السموات العلى هو القاهر الغالب العظيم العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ (٧)

ذكروا أن فرعون لما أكثر من قتل ذكور بني إسرائيل خافت القبط أن يفني بني إسرائيل فيلون هم ما كانوا يلونه من الأعمال الشاقة ، فقالوا لفرعون : إنه يوشك إن استمر هذا الحال أن يموت شيوخهم ، وغلمانهم يقتلون ، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما تقوم به رجالهم من الأعمال فيخلص إلينا ذلك ، فأمر بقتل الولدان عاماً ، وتركهم عاماً ، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان ، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها الولدان . وكان لفرعون ناس موكلون بذلك ، وقوابل يدرن على النساء ، فمن رأينها قد حملت أحصوا اسمها ، فإذا كان وقت ولادتها لا يقبلها إلا نساء القبط ، فإن ولدت المرأة جارية تركنها وذهبن ، وإن ولدت غلاماً دخل أولئك الذباحون بأيديهم الشفار المرهفة فقتلوه ومضوا ، قبحهم الله . فلما حملت أم موسى به عليه السلام لم يظهر عليها مخايل الحمل كغيرها ، ولم تفطن لها الدايات ، ولكن لما وضعته ذكراً ضاقت به ذرعاً وخافت عليه خوفاً شديداً ، وأحبته حباً زائداً ، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه ، فالسعيد من أحبه طبعاً وشرعاً ، قال تعالى ﴿ وألقيت عليك محبة مني ﴾ فلما ضاقت به ذرعاً ألهمت في سرها ، وألقي في خلدها ، ونفث في روعها كما قال تعالى ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه . . . ﴾ وذلك أنه كانت في دارها على حافة النيل فاتخذت تابوتاً ومهدت فيه مهداً ، وجعلت ترضع ولدها ، فإذا دخل عليها أحد ممن تخافه

ذهبت فوضعته في ذلك التابوت ، وأرسلته في البحر ، وذهلت أن تربطه فذهب مع الماء ، واحتمله حتى مر به على دار فرعون فالتقطه الجواري فاحتملنه إلى امرأة فرعون ، ولا يدرين ما فيه ، فلما كشفت عنه إذ هو غلام من أحس الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه فأوقع الله محبته في قلبها حين نظرت إليه ، وذلك لسعادتها ، وما أراد الله من كرامتها وشقاوة بعلها .

﴿٨﴾ ﴿ فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾

ولهذا قال ﴿ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴾ واللام هذه ﴿ ليكون لهم ﴾ لام العاقبة ، لا لام التعليل ، لأنهم لم يريدوا بالتقاطه ذلك ﴿ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴾ .

﴿٩﴾ ﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك . . . ﴾ يعني أن فرعون لما رآه همَّ بقتله خوفاً من أن يكون من بني إسرائيل فشرعت امرأته آسية بنت مزاحم تخاصم عنه ، وتذب دونه ، وتحببه إلى فرعون فقالت ﴿ قرة عين لي ولك ﴾ فقال فرعون : أما لك فنعم ، وأما لي ، فلا ، فكان كذلك ، وهداها الله بسببه ، وأهلكه الله على يديه . وقوله ﴿ عسى أن ينفعنا ﴾ وقد حصل لها ذلك ، وهداها الله به وأسكنها الجنة بسببه . وقوله ﴿ أو نتخذه ولداً ﴾ أي أرادت أن تتخذه ولداً وتتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها ولد منه . وقوله تعالى ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي لا يدرون ما أراد الله منه بالتقاطهم إياه من الحكمة العظيمة البالغة ، والحجة القاطعة .

﴿١٠﴾ ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً ، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . ﴿ إن كادت لتبدي به ﴾ أي إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد ، وتخبر بحالها لولا أن الله ثبتها وصبرها . قال تعالى ﴿ لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين ﴾ .

﴿١١﴾ ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ ﴿١٢﴾

﴿ وقالت لأخته قصيه ﴾ أي أمرت ابنتها ، وكانت كبيرة تعي ما يقال لها ، فقالت لها ﴿ قصيه ﴾ أي اتبعي أثره وخذي خبره ، وتطلبي شأنه من نواحي البلد فخرجت لذلك ﴿ فبصرت به عن جنب ﴾ عن جانب ، أو عن جنب بعيد ، أو جعلت تنظر إليه وكأنها لا تريده ، وذلك أنه لما استقر موسى عليه السلام بدار فرعون ، وأحبته امرأة الملك ، واستطلقته منه عرضوا عليه المراضع التي في دارهم ، فلم يقبل منها ثدياً ، وأبى أن يقبل شيئاً من ذلك فخرجوا به إلى السوق لعلهم يجدون امرأة تصلح لرضاعته فلما رأته بأيديهم عرفته ، ولم تظهر ولم يشعروا بها . قال الله تعالى ﴿ وحرمنا عليه المراضع من قبل ﴾ أي تحريماً قدرياً ، وذلك لكرامته عند الله ، وصيانته له أن يرتضع غير ثدي أمه ، ولأن الله سبحانه وتعالى جعل ذلك سبباً إلى رجوعه إلى أمه لترضعه ، وهي آمنة بعدما كانت خائفة، فلما رأتهم حائرين فيمن يرضعه ﴿ قالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون ﴾ فلما قالت ذلك أخذوها وشكوا في أمرها ، وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في سرور الملك ، ورجاء منفعته فأرسلوها ، فلما قالت لهم ذلك وخلصت من أذاهم ذهبوا معها إلى منزلهم فدخلوا به على أمه فأعطته ثديها فالتقمه ففرحوا بذلك فرحاً شديداً وذهب البشير إلى امرأة الملك فاستدعت أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً ، وهي لا تعرف أنها أمه في الحقيقة ، ولكن لكونه وافق ثديها .

﴿١٣﴾ ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ﴾ أي به ﴿ ولا تحزن ﴾ أي عليه ﴿ ولتعلم أن وعد الله حق ﴾ أي فيما وعدها من رده إليها ، وجعله من المرسلين ، فحينئذٍ تحققت برده إليها أنه كائن منه رسول من المرسلين ، فعاملته في تربيته ما ينبغي له طبعاً وشرعاً . وقوله ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي حكم الله في أفعاله وعواقبها المحمودة التي هو المحمود عليها في الدنيا والآخرة ، فربما يقع الأمر كريهاً إلى النفوس ، وعاقبته محمودة في نفس الأمر ، كما قال تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر

لكم ﴾ وقال تعالى ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ﴾ .

(١٤) ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

لما ذكر تعالى مبدأ أمر موسى عليه السلام ذكر أنه لما بلغ أشده واستوى آتاه الله حكماً وعلماً يعني النبوة . ﴿ وكذلك نجزي المحسنين ﴾ .

(١٥) ﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾

ثم ذكر تعالى سبب وصوله إلى ما كان تعالى قدره له من النبوة والتكليم في قضية قتله ذلك القبطي الذي كان سبب خروجه من الديار المصرية إلى بلاد مدين فقال تعالى ﴿ ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ﴾ عن ابن عباس : بين المغرب والعشاء ، وعنه أنه كان نصف النهار ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان ﴾ أي يتضاربان ويتنازعان ﴿ هذا من شيعته ﴾ أي إسرائيلي ﴿ وهذا من عدوه ﴾ أي قبطي ، فاستغاث الإسرائيلي بموسى عليه السلام فوجد موسى فرصة وهي غفلة الناس فعمد إلى القبطي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ أي طعنه بجميع كفه ، أو وكزه بعصا كانت معه فقضى عليه ، أي كان فيها حتفه فمات ﴿ قال ﴾ موسى ﴿ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ .

(١٦) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ (١٧)

﴿ قال رب بما أنعمت علي ﴾ أي بما جعلت الجاه والعز والنعمة ﴿ فلن أكون ظهيراً ﴾ أي معيناً ﴿ للمجرمين ﴾ أي الكافرين بك ، المخالفين لأمرك .

(١٨) ﴿ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن موسى عليه السلام لما قتل ذلك القبطي أنه أصبح ﴿ في المدينة خائفاً ﴾ أي من معرة ما فعل ﴿ يترقب ﴾ أي يتلفت ويتوقع ما يكون من هذا الأمر ، فمر في بعض

الطريق ، فإذا ذلك الذي استنصره بالأمس على ذلك القبطي يقاتل آخر ، فلما مر عليه موسى استصرخه على الآخر فقال له موسى ﴿ إنك لغوي مبين ﴾ أي ظاهر الغواية ، كثير الشر ، ثم عزم موسى على البطش بذلك القبطي فاعتقد الإسرائيلي لخوره وضعفه وذلته أن موسى إنما يريد قصده لما سمعه يقول ذلك فقال يدفع عن نفسه :

(١٩) ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾

﴿ يا موسى ﴾ أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟، وذلك لأنه لم يعلم به إلا هو وموسى عليه السلام ، فلما سمعها ذلك القبطي لقفها في فمه ، ثم ذهب بها إلى باب فرعون وألقاها عنده فعلم فرعون بذلك ، فاشتد حنقه وعزم على قتل موسى ، فطلبوه فبعثوا وراءه ليحضروه لذلك .

(٢٠) ﴿ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾

قال تعالى ﴿ وجاء رجل ﴾ وصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق فسلك طريقاً أقرب من طريق الذي بعثوا وراءه ، فسبق إلى موسى فقال له يا موسى ﴿ إن الملأ يأتمرون بك ﴾ أي يتشاورون فيك ﴿ ليقتلوك فاخرج ﴾ أي من البلد ﴿ إني لك من الناصحين ﴾ .

(٢١) ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لما أخبره ذلك الرجل بما تمالأ عليه فرعون ودولته في أمره خرج من مصر وحده ، ولم يألف ذلك قبله ، بل كان في رفاهية ونعمة ورياسة ﴿ فخرج منها خائفاً يترقب ﴾ أي يتلفت ﴿ قال رب نجني من القوم الظالمين ﴾ أي من فرعون وملئه . فذكروا أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملكاً على فرس فأرشده إلى الطريق،والله أعلم .

(٢٢) ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

﴿ ولما توجه تلقاء مدين ﴾ اي اخذ طريقاً سالكاً مهيعاً فرح بذلك ﴿ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ﴾ أي الطريق الأقوم ، ففعل الله به ذلك ، وهداه إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخرة فجعله هادياً مهدياً .

(٢٣) ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾

﴿ ولما ورد ماء مدين ﴾ أي لما وصل إلى مدين ، وورد ماءها ، وكان لها بئر يرده رعاء الشاء ﴿ وجد عليه أمة من الناس يسقون ﴾ أي جماعة يسقون ﴿ ووجد من دونهم امرأتين تذودان ﴾ أي تكفكفان غنمهما أن ترد مع غنم أولئك الرعاء لئلا يؤذيا ، فلما رآهما موسى عليه السلام رق لهما ورحمهما ﴿ قال ما خطبكما ؟ ﴾ أي ما خبركما لا تردان مع هؤلاء ؟ ﴿ قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء ﴾ أي لا يحصل لنا سقي إلا بعد فراغ هؤلاء ﴿ وأبونا شيخ كبير ﴾ أي فهذا الحال الملجىء لنا إلى ما ترى .

(٢٤) ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

قال الله تعالى ﴿ فسقى لهما ﴾ روى ابن أبي شيبة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، قال : فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، فإذا هو بامرأتين تذودان قال : ما خطبكما ؟ فحدثتاه فأتى الحجر فرفعه ، ثم لم يستق إلا ذنوباً واحداً حتى رويت الغنم . إسناده صحيح . وقوله ﴿ ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير ﴾ قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل ، وهو صفوة الله من خلقه ، وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . وقوله ﴿ إلى الظل ﴾ أي جلس تحت شجرة .

(٢٥) ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

لما رجعت المرأتان سريعاً بالغنم إلى أبيهما أنكر حالهما بسبب مجيئهما سريعاً فسألهما عن خبرهما فقصتا عليه ما فعل موسى عليه السلام ، فبعث إحداهما إليه لتدعوه إلى أبيها ، قال الله تعالى ﴿ فجاءته إحداهما تمشي على استحياء ﴾ أي مشي الحرائر ، كما روي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه قال : جاءت مستترة بكم درعها ، وعنه جاءت تمشي على استحياء قائلة بثوبها على وجهها ليست بسلفع من النساء ولاجة خراجة . هذا إسناد صحيح . السلفع من الرجال : الجور ، ومن النساء الجرية السليطة ، ومن النوق الشديدة

﴿ قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ وهذا تأدب في العبارة ، لم تطلبه طلباً مطلقاً لئلا يوهم ريبة ، بل قالت : إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ، يعني ليثيبك ويكافئك على سقيك لغنمنا ﴿ فلما جاءه وقص عليه القصص ﴾ أي ذكر له ما كان من أمره ، وما جرى من التسبب الذي خرج من أجله من بلده ﴿ قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ يقول : طب نفساً ، وقر عيناً ، فقد خرجت من مملكتهم ، فلا حكم لهم في بلادنا ، ولهذا قال ﴿ نجوت من القوم الظالمين ﴾ .

(٢٦) ﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾

﴿ قالت إحداهما يا أبت استأجره ﴾ أي قالت إحدى ابنتي هذا الرجل ، قيل : هي التي ذهبت وراء موسى عليه السلام قالت لأبيها : ﴿ يا أبت استأجره ﴾ أي لرعيه هذه الغنم ، قال عمر وابن عباس وآخرون : لما قالت ﴿ إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ ، قال لها أبوها : وما علمك بذلك ؟ قالت له : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق رفعها إلا عشرة رجال ، وإني لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال لي : كوني من ورائي ، فإذا اختلفت على الطريق ، فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه . وعن عبدالله بن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : أبو بكر حين تفرس في عمر ، وصاحب يوسف حين قال : أكرمي مثواه ، وصاحبة موسى حين قالت ﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾ .

(٢٧) ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾

﴿ قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين ﴾ أي طلب إليه هذا الشيخ الكبير أن يرعى غنمه ويزوجه إحدى ابنتيه هاتين وقد استدل أصحاب أبي حنيفة بهذه الآية على صحة البيع فيما إذا قال بعتك أحد هدين العبدين بمائة ، فقال : اشتريت ، أنه يصح . والله أعلم . وقوله ﴿ على أن تأجرني ثماني حجج فإن أتممت عشراً فمن عندك ﴾ أي على أن ترعى غنمي ثمان سنين ، فإن تبرعت بزيادة سنتين فهو إليك ، وإلا ففي الثمان كفاية ﴿ وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ أي لا أشاقك ، ولا أؤذيك ، ولا أماريك . وقد استدل أصحاب الإمام أحمد ومن تبعهم في صحة استئجار الأجير بالطعمة والكسوة بهذه الآية ، وروى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه ، وطعمة بطنه »

(٢٨) ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

يقول : إن موسى قال لصهره : الأمر على ما قلت من أنك استأجرتني على ثمان سنين ، فإن أتممت عشراً فمن عندي ، فأنا متى فعلت أقلهما فقد برئت ذمتي من العهد ، وخرجت من الشرط ، ولهذا قال ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان عليّ ﴾ أي فلا حرج علي ، مع أن الكامل وإن كان مباحاً ، لكنه فاضل من جهة أخرى ، وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين وأتمهما ، روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل ، وقد روي مرفوعاً عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « سألت جبريل : أي الأجلين قضى موسى ؟ قال : أتمهما وأكملهما » .

(٢٩) ﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾

قضى موسى عليه السلام أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما ، وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى ﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ أي الأكمل منهما . والله أعلم ﴿ وسار بأهله ﴾ قالوا : كان موسى قد اشتاق إلى بلده وأهله فعزم على زيارتهم في خفية من فرعون وقومه ، فتحمل بأهله وما كان معه من الغنم التي وهبها له صهره فسلك بهم في ليلة مطيرة مظلمة باردة ، فنزل منزلاً ، فجعل كلما أورى زنده لا يضيء شيئاً فتعجب من ذلك ، فبينما هو كذلك ﴿ آنس من جانب الطور ناراً ﴾ أي رأى ناراً تضيء على بعد ﴿ فقال لأهله امكثوا إني آنست ناراً ﴾ أي حتى أذهب إليها ﴿ لعلي آتيكم منها بخبر ﴾ وذلك لأنه قد أضل الطريق ﴿ أو جذوة من النار ﴾ أي قطعة منها ﴿ لعلكم تصطلون ﴾ أي تستدفئون بها من البرد .

(٣٠) ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن ﴾ أي من جانب الوادي مما يلي الجبل عن يمينه من ناحية الغرب كما قال تعالى ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى

الأمر ﴾ فهذا مما يرشد إلى أن موسى قصد النار إلى جهة القبلة والجبل الغربي عن يمينه ، والنار وجدها تضطرم في شجرة خضراء في لحف جبل مما يلي الوادي فوقف باهتاً في أمرها فناداه ربه ﴿ من شاطىء الـواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة ﴾ عن عبدالله قال : رأيت الشجرة التي نودي منها موسى عليه السلام سحرة خضراء ترف . وقوله تعالى ﴿ أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ أي الذي يخاطبك ويكلمك هو رب العالمين ، الفعال لما يشاء ، لا إله غيره ، ولا رب سواه ، تعالى وتقدس وتنزه عن مماثلة المخلوقات في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله سبحانه .

(٣١) ﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾

﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أي التي في يدك ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ أي تضطرب ﴿ كأنها جان ولى مدبراً ﴾ أي في حركتها السريعة مع عظم خلقتها وقوائمها واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها وأضراسها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعتها ، تنحدر في فيها تتقعقع كأنها حادرة في واد ، فعند ذلك ﴿ ولى مدبراً ولم يعقب ﴾ أي ولم يكن يلتفت ، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ، فلما قال الله له ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ رجع فوقف في مقامه الأول .

(٣٢) ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ أي إذا أدخلت يدك في جيب درعك ثم أخرجتها فإنها تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق ، ولهذا قال ﴿ من غير سوء ﴾ أي من غير برص . وقوله تعالى ﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ من الفزع ، أو مما حصل لك من خوفك من الحية ، والظاهر أن المراد أعم من هذا ، وهو أنه أمر عليه السلام إذا خاف من شيء أن يضم إليه جناحه من الرهب ، وهو يده ، فإذا فعل ذلك ذهب عنه ما يجده من الخوف ، وربما إذا استعمل أحد ذلك على سبيل الاقتداء فوضع يده على فؤاده ، فإنه يزول عنه ما يجده ، أو يخف إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة . وقد كان موسى يقول إذا رأى فرعون : اللهم إني أدرأ بك في نحره وأعوذ بك من شره، فنزع الله ما كان في قلب موسى عليه السلام من الرعب وجعله في

قلب فرعون . وقوله ﴿ فذانك برهانان من ربك ﴾ يعني إلقاء العصا وجعلها حية ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار ، وصحة نبوة من جرى هذا الخارق على يديه ، ولهذا قال تعالى ﴿ إلى فرعون وملئه ﴾ أي وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع . ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ أي خارجين عن طاعة الله ، مخالفين لأمره ودينه .

(٣٣) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾

لما أمره تعالى بالذهاب إلى فرعون الذي إنما خرج من ديار مصر فراراً منه ، وخوفاً من سطوته ﴿ قال رب إني قتلت منهم نفساً ﴾ يعني ذلك القبطي ﴿ فأخاف أن يقتلون ﴾ أي إذا رأوني .

(٣٤) ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾

﴿ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً ﴾ وذلك أن موسى عليه السلام كان في لسانه لثغة بسبب ما كان تناول من الجمرة حين خير بينها وبين التمرة أو الدرة ، فأخذ الجمرة فوضعها على لسانه فحصل فيه شدة في التعبير ، ولهذا قال ﴿ واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي . واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي اشدد به أزري وأشركه في أمري ﴾ ﴿ ردءاً ﴾ أي وزيراً ومعيناً ومقوياً لأمري ﴿ يصدقني ﴾ فيما أقوله وأخبر به عن الله عز وجل لأن خبر الاثنين أنجع في النفوس من خبر الواحد ، ولهذا قال ﴿ إني أخاف أن يكذبون ﴾ .

(٣٥) ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

﴿ قال سنشد عضدك بأخيك ﴾ أي سنقوي أمرك ، ونعز جانبك بأخيك الذي سألت له أن يكون نبياً معك كما قال ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ وقوله ﴿ ونجعل لكما سلطاناً ﴾ أي حجة قاهرة ﴿ فلا يصلون إليكما ﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلي أذاكما بسبب إبلاغكما آيات الله ﴿ أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ .

(٣٦) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾

يخبر تعالى عن مجيء موسى وأخيه هارون إلى فرعون وملئه ، وعرضه ما آتاهما الله من المعجزات الباهرة ، والدلالة القاهرة على صدقهما فيما أخبرا به عن الله عز وجل من توحيده ، واتباع أوامره ، فلما عاين فرعون وملؤه ذلك وشاهدوه وتحققوه ، وأيقنوا أنه من عند الله عدلوا بكفرهم وبغيهم إلى العناد والمباهتة ، وذلك لطغيانهم وتكبرهم عن اتباع الحق ، فقالوا ﴿ ما هذا إلا سحر مفترى ﴾ أي مفتعل مصنوع ، وأرادوا معارضته بالحيلة والجاه فما صعد معهم ذلك . وقوله ﴿ وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين ﴾ يعنون عبادة الله وحده لا شريك له ، يقولون : ما رأينا أحداً من آبائنا على هذا الدين ، ولم نر الناس إلا يشركون مع الله آلهة أخرى .

(٣٧) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

﴿ وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ﴾ يعني مني ومنكم ، وسيفصل بيني وبينكم ، ولهذا قال ﴿ ومن تكون له عاقبة الدار ﴾ أي من النصرة والظفر والتأييد ﴿ إنه لا يفلح الظالمون ﴾ أي المشركون بالله عز وجل .

(٣٨) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾

يخبر تعالى عن كفر فرعون وطغيانه وافترائه في دعواه الآلهية لنفسه القبيحة ، لعنه الله كما قال تعالى ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ وذلك لأنه دعاهم إلى الاعتراف له بالآلهية ، فأجابوه إلى ذلك بقلة عقولهم ، وسخافة أذهانهم ، ولهذا قال : ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ وقال تعالى ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ يعني أنه جمع قومه ، ونادى فيهم بصوته العالي مصرحاً لهم بذلك فأجابوه سامعين مطيعين ، ولهذا انتقم الله منه فجعله عبرة لغيره في الدنيا والآخرة . وقوله ﴿ فأوقد لي ياهامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى ﴾ يعني أمر وزيره هامان ، ومدير رعيته ، ومشير دولته أن يوقد له على الطين ، يعني يتخذ له آجراً

لبناء الصرح ، وهو القصر المنيف الرفيع العالي وقد بنى فرعون هذا الصرح الذي لم ير في الدنيا بناء أعلى منه ، وأراد أن يظهر لرعيته تكذيب موسى فيما زعمه في أن الله أرسله ، لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع جل وعلا ، فإنه قال ﴿ وما رب العالمين ﴾ وقال ﴿ لئن اتخذت إلّهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ وقال ﴿ يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلّه غيري ﴾ .

(٣٩) ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴾

﴿ واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ﴾ أي طغوا وتجبروا وأكثروا في الأرض الفساد ﴿ وظنوا أنهم الينا لا يرجعون ﴾ واعتقدوا أنه لا قيامة ولا معاد ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ ولهذا قال تعالى ههنا :

(٤٠) ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ أي أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة ، فلم يبق منهم أحد ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ .

(٤١) ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾

﴿ وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ﴾ أي لمن سلك وراءهم وأخذ بطريقتهم في تكذيب الرسل وتعطيل الصانع . ﴿ ويوم القيامة لا ينصرون ﴾ أي فاجتمع عليهم خزي الدنيا موصولاً بذل الآخرة ، كما قال تعالى ﴿ أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾

﴿ وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ﴾ أي وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتبعين لرسله كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم كذلك ﴿ ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ .

(٤٣) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله موسى الكليم ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم ، من إنزال التوراة عليه بعدما أهلك فرعون وملأه . وقوله تعالى ﴿ من بعدما أهلكنا القرون الأولى ﴾ يعني أنه بعد انزال التوراة لم يعذب أمة بعامة ، بل أمر المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الله من المشركين ، روى ابن جرير عن أبي سعيد الخدري قال : ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء ولا من الأرض بعدما أنزلت التوراة على وجه الأرض غير أهل القرية التي مسخت قردة بعد موسى ثم قرأ ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب من بعدما أهلكنا القرون الأولى ﴾ وقوله ﴿ بصائر للناس وهدى ورحمة ﴾ أي من العمى والغي ، وهدى إلى الحق ورحمة ، أي إرشاداً إلى العمل الصالح ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ به ويهتدون بسببه .

(٤٤) ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدم ، وهو رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم ، وما كان من أمرها قال ﴿ وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ أي وما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه اليك ، وهكذا لما أخبره عن نوح وقومه ، وما كان من انجاء الله له ، واغراق قومه قال تعالى ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ وقال بعد قصة يوسف ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ وقال ههنا بعدما أخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها ﴿ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر ﴾ يعني ما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي ﴿ وما كنت من الشاهدين ﴾ لذلك .

(٤٥) ﴿ وَلَـٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا وَلَـٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾

ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى اليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم ، وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين . وقوله تعالى ﴿ وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ﴾ أي وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم

آياتنا حين أخبرت عن نبيها شعيب ، وما قال لقومه وما ردوا عليه ﴿ ولكنا كنا مرسلين ﴾ أي ولكن نحن أوحينا إليك ذلك ، وأرسلناك إلى الناس رسولاً .

﴿٤٦﴾ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَـٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ﴾ أي أمتك في أصلاب آبائهم أن يؤمنوا بك إذا بعثت . أو إذ نادينا موسى ، وهذا ـ والله علم ـ أشبه بقوله تعالى ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ ، ثم أخبر ههنا بصيغة أخرى أخص من ذلك ، وهو النداء كما قال تعالى ﴿ وإذ نادى ربك موسى ﴾ وقال ﴿ إذ ناداه ربه بالوادى المقدس طوى ﴾ وقال ﴿ وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي ما كنت مشاهداً لشيء من ذلك ، ولكن الله تعالى أوحاه اليك ، وأخبرك به رحمة منه بك وبالعباد بارسالك اليهم ﴿ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾ أي لعلهم يهتدون بما جئتهم به من الله عز وجل .

﴿٤٧﴾ ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولاً ﴾ أي وأرسلناك اليهم رسولاً لتقيم عليهم الحجة ، ولينقطع عذرهم إذا جاءهم عذاب الله بكفرهم فيحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول ولا نذير .

﴿٤٨﴾ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن القوم الذين لو عذبهم قبل قيام الحجة عليهم لاحتجوا بأنهم لم يأتهم رسول أنهم لما جاءهم الحق من عنده على لسان محمد ﷺ قالوا على وجه التعنت والعناد والكفر والجهل والالحاد ﴿ لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ﴾ يعنون ـ والله أعلم ـ من الآيات الكثيرة ، مثل العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وتنقيص الزروع والثمار مما يضيق على أعداء الله ، وكفلق البحر ، وتظليل الغمام ، وإنزال المن

والسلوى إلى غير ذلك من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة التي أجراها الله تعالى على يد موسى عليه السلام حجة وبرهاناً له على فرعون وملئه وبني اسرائيل ، ومع هذا كله لم ينجع في فرعون وملئه ، بل كفروا بموسى وأخيه هارون ، ولهذا قال ههنا ﴿ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة ﴿ قالوا سحران تظاهرا ﴾ أي تعاونا ﴿ وقالوا إنا بكل كافرون ﴾ أي بكل منهما كافرون .

(٤٩) ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

وكثيراً ما يقرن الله بين التوراة والقرآن كقوله تعالى ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ﴾ إلى أن قال ﴿ وهذا كتاب انزلناه مبارك ﴾ وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء فيما أنزل من الكتب المتعددة على أنبيائه أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم ولا أشرف من الكتاب الذي أنزله على محمدﷺ ، وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى بن عمران عليه السلام . والانجيل إنما أنزل متمماً للتوراة ، محلاً لبعض ما حرم علي بني اسرائيل ، ولهذا قال ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ أي فيما تدافعون به الحق ، وتعارضون به من الباطل .

(٥٠) ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

قال تعالى ﴿ فإن لم يستجيبوا لك ﴾ أي فإن لم يجيبوك عما قلت لهم ، ولم يتبعوا الحق ﴿ فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴾ أي بلا دليل ولا حجة ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ﴾ أي بغير حجة مأخوذة من كتاب الله ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

(٥١) ﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ ولقد وصلنا لهم القول ﴾ فصلنا لهم القول ، أي أخبرهم كيف صنع بمن مضى ، وكيف هو صانع ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أو ﴿ وصلنا لهم ﴾ يعني قريشاً ، وهذا هو الظاهر .

(٥٢) ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن العلماء الأولياء من أهل الكتاب، أنهم يؤمنون بالقرآن كما قال تعالى

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ﴾ .

(٥٣) ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾

﴿ إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ أي من قبل هذا القرآن كنا مسلمين ، أي موحدين مخلصين لله مستجيبين له .

(٥٤) ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ﴾ أي هؤلاء المتصفون بهذه الصفة الذين آمنوا بالكتاب الأول ، ثم الثاني ، ولهذا قال ﴿ بما صبروا ﴾ أي على اتباع الحق ، فإن تجشم مثل هذا شديد على النفوس ، وقد ورد في الصحيح « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت له أمة فأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها فتزوجها » وقوله ﴿ ويدرؤون بالحسنة السيئة ﴾ أي لا يقابلون السيء بمثله ، ولكن يعفون ويصفحون ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ أي ومن الذي رزقهم الله من الحلال ينفقون على خلق الله في النفقات الواجبة لأهليهم وأقاربهم ، والزكاة المفروضة المستحبة من التطوعات وصدقات النفل والقربات .

(٥٥) ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴾ أي لا يخالطون أهله ولا يعاشرونهم ، بل كما قال تعالى ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ ﴿ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ أي إذا سفه عليهم سفيه وكلمهم بما لا يليق بهم الجواب عنه أعرضوا عنه ولم يقابلوه بمثله من الكلام القبيح ، ولا يصدر عنهم الا كلام طيب ، ولهذا قال ﴿ لا نبتغي الجاهلين ﴾ أي لا نريد طريق الجاهلين ، ولا نحبها .

(٥٦) ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ : إنك يا محمد ﴿ لا تهدي من أحببت ﴾ أي ليس اليك ذلك ، إنما عليك البلاغ ، والله يهدي من يشاء ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدافعة ، كما

قال تعالى ﴿ ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أي هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، وقد ثبت في الصحيحين أنها نزلت في أبي طالب عم رسول الله ﷺ ، وقد كان يحوطه وينصره ويقوم في صفه ويحبه حباً شديداً طبعياً لا شرعياً ، فلما حضرته الوفاة ، وحان أجله دعاه رسول الله ﷺ إلى الايمان والدخول في الاسلام فسبق القدر فيه ، واختطف من يده ، فاستمر على ما كان عليه من الكفر ، ولله الحكمة التامة .
لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل ، وعبدالله بن أبي أمية ، فقال رسول الله ﷺ « يا عم قل « لا إآله إلا الله » كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبدالله بن أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ، ويعودان له بتلك المقالة حتى كان آخر ما قال : هو على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول « لا إآله إلا الله » فقال رسول الله ﷺ « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله تعالى ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ وأنزل في أبي طالب ﴿ إنك لا تهـدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ أخرجاه من حديث الزهري .

﴿٥٧﴾ ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ يقول تعالى مخبراً عن اعتذار بعض الكفار في عدم اتباع الهدى حيث قالوا لرسول الله ﷺ ﴿ إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ أي نخشى إن اتبعنا ما جئت به من الهدى ، وخالفنا من حولنا من أحياء العرب المشركين أن يقصدونا بالأذى والمحاربة ، ويتخطفونا أينما كنا ، قال الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ أولم نمكن لهم حرماً آمناً ﴾ يعني هذا الذي اعتذروا به كذب وباطل ، لأن الله تعالى جعلهم في بلد أمين ، وحرم معظم آمن منذ وضع ، فكيف يكون هذا الحرم آمناً لهم في حال كفرهم وشركهم ، ولا يكون آمناً لهم ، وقد أسلموا وتابعوا الحق ؟ وقوله تعالى ﴿ يجبى إليه ثمرات كل شيء ﴾ أي من سائر الثمار مما حوله من الطائف وغيره ، وكذلك المتاجر والأمتعة ﴿ رزقاً من لدنا ﴾ أي من عندنا ﴿ ولكن اكثرهم لا يعلمون ﴾ .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾

يقول تعالى معرضاً بأهل مكة في قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها ﴾ أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق ﴿ فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً ﴾ أي دثرت ديارهم فلا ترى الا مساكنهم . وقوله ﴿ وكنا نحن الوارثين ﴾ أي رجعت خراباً ، ليس فيها أحد .

(٥٩) ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن عدله ، وأنه لا يهلك أحداً ظالماً له ، وإنما يهلك من أهلك بعد قيام الحجة عليهم ، ولهذا قال ﴿ وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها ﴾ وهي مكة ﴿ رسولاً يتلو عليهم آياتنا ﴾ فيه دلالة على أن النبي الأمي ، وهو محمد ﷺ ، المبعوث من أم القرى ، رسولاً إلى جميع القرى من عرب وأعجام . ﴿ في أمها ﴾ أي في أصلها وعظيمتها ، كأمهات الرساتيق والأقاليم .

(٦٠) ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة ، والزهرة الفانية بالنسبة إلى ما أعده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة من النعيم العظيم المقيم كما قال تعالى ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ وقال تعالى ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ وقوله تعالى ﴿ أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا يعقل من يقدم الدنيا على الآخرة ؟ .

(٦١) ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾

﴿ أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه . . . ﴾ يقول : أفمن هو مؤمن مصدق بما وعده الله على صالح الأعمال من الثواب الذي هو صائر إليه لا محالة كمن هو كافر مكذب بلقاء الله ووعده ووعيده ، فهو ممتع في الحياة الدنيا أياماً قلائل ﴿ ثم هو يوم القيامة من المحضرين ﴾ من المعذبين ، ثم قد قيل : إنها نزلت في رسول الله ﷺ وفي أبي جهل ، وقيل : في حمزة وعلي وأبي جهل ، والظاهر أنها عامة .

(٦٢) ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يوبخ به الكفار المشركين يوم القيامة حيث يناديهم فيقول ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ يعني أين الآلهة التي كنتم تعبدونها في الدار الدنيا من الأصنام والأنداد ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ وهذا على سبيل التقريع والتهديد كما قال تعالى ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ .

(٦٣) ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾

﴿ قال الذين حق عليهم القول ﴾ يعني الشياطين والمردة والدعاة إلى الكفر ﴿ ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ﴾ فشهدوا عليهم أنهم أغووهم فاتبعوهم ، ثم تبرؤوا من عبادتهم .

(٦٤) ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾

﴿ وقيل ادعوا شركاءكم ﴾ أي ليخلصوكم مما أنتم فيه ، كما كنتم ترجون منهم في الدار الدنيا ﴿ فدعوهم فلم يتسجيبوا لهم ورأوا العذاب ﴾ أي وتيقنوا أنهم صائرون إلى النار لا محالة . وقوله ﴿ لو أنهم كانوا يهتدون ﴾ أي فودوا حين عاينوا العذاب لو أنهم كانوا من المهتدين في الدار الدنيا .

(٦٥) ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

النداء الأول عن سؤال التوحيد ، وهذا فيه إثبات النبوات ، ماذا كان جوابكم للمرسلين اليكم ، وكيف كان حالكم معهم ، وهذا كما يسأل العبد في قبره : من ربك ومن نبيك وما دينك ؟ فأما المؤمن فيشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأما الكافر فيقول : هاه ، هاه ، لا أدري ، ولهذا لا جواب له يوم القيامة غير السكوت ، لأن من كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً .

(٦٦) ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

ولهذا قال ﴿ فعميت عليهم الأنباء يومئذٍ فهم لا يتساءلون ﴾ أي فعميت عليهم الحجج فهم لا يتساءلون بالأنساب .

(٦٧) ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾

﴿ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ فعسى أن يكون من المفلحين ﴾ أي يوم القيامة ، و« عسى » من الله موجبة فإن هذا واقع بفضل الله ومنته لا محالة .

(٦٨) ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه المنفرد بالخلق والاختيار ، وأنه ليس له في ذلك منازع ولا معقب ، قال تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ أي ما يشاء ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فالأمور كلها : خيرها وشرها بيده ، ومرجعها إليه . وقوله ﴿ ما كان لهم الخيرة ﴾ نفي على أصح القولين ، كقوله تعالى ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ وقد اختار ابن جرير أن ﴿ ما ﴾ ههنا بمعنى الذي ، تقديره ويختار الذي لهم فيه الخيرة ، وقد احتج بهذا طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح ، والصحيح أنها نافية ﴿ سبحان الله وتعالى عما يشركون ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئاً .

(٦٩) ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

﴿ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون ﴾ أي يعلم ما تكن الضمائر ، وما تنطوي عليه السرائر ، كما يعلم ما تبديه الظواهر من سائر الخلائق ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ .

(٧٠) ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وهو الله لا إله إلا هو ﴾ أي هو المنفرد بالإلهية ، فلا معبود سواه ، كما لا رب يخلق ما يشاء ويختار سواه ﴿ له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ أي في جميع ما يفعله هو المحمود عليه بعدله وحكمته ﴿ وله الحكم ﴾ أي الذي لا معقب له ، لقهره وغلبته ، وحكمته ورحمته ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي جميعكم يوم القيامة ، فيجزي كل عامل بعمله من خير وشر ، ولا يخفى عليه منهم خافية في سائر الأعمال .

(٧١) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بما سخر لهم من الليل والنهار اللذين لا قوام لهم بدونهما ، وبين أنه لو جعل الليل دائماً عليهم سرمداً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولسئمته النفوس ، وانحصرت منه ، ولهذا قال تعالى ﴿ من إلَه غير الله يأتيكم بضياء ﴾ أي تبصرون به ، وتستأنسون بسببه . ﴿ أفلا تسمعون ؟ ﴾ .

(٧٢) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أنه لو جعل النهار سرمداً، أي دائماً مستمراً إلى يوم القيامة لأضر ذلك بهم ، ولتعبت الأبدان ، وكلت من كثرة الحركة ، والأشغال ، ولهذا قال ﴿ من إلَه غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه ﴾ أي تستريحون من حركاتكم وأشغالكم ﴿ أفلا تبصرون ؟ ﴾ .

(٧٣) ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ ومن رحمته ﴾ أي بكم ﴿ جعل لكم الليل والنهار ﴾ أي خلق هذا وهذا ﴿ لتسكنوا فيه ﴾ أي في الليل ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في النهار بالأسفار والترحال ، والحركات والأشغال ، وهذا من باب اللف والنشر. وقوله ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله بأنواع العبادات في الليل والنهار ، ومن فاته شيء بالليل استدركه بالنهار ، أو بالنهار استدركه بالليل كما قال تعالى ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴾ .

(٧٤) ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

وهذا أيضاً نداء ثان على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلَهاً آخر ، يناديهم الرب تعالى على رؤوس الأشهاد فيقول ﴿ أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ أي في دار الدنيا .

(٧٥) ﴿ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ ونزعنا من كل أمة شهيداً ﴾ يعني رسولاً ﴿ فقلنا هاتوا برهانكم ﴾ أي على صحة ما ادعيتموه من أن لله شركاء ﴿ فعلموا أن الحق لله ﴾ أي لا إلَه غيره فلم ينطقوا ولم يجدوا

جواباً ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم .

(٧٦) ﴿ * إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾

كان قارون ابن عم موسى ، وقد نافق كما نافق السامري فأهلكه البغي لكثرة ماله ﴿ وآتيناه من الكنوز ﴾ أي الأموال ﴿ ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴾ أي ليثقل حملها على كثير من الناس لكثرتها ﴿ إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ﴾ أي وعظه فيما هو فيه صالح قومه ، فقالوا على سبيل النصح والارشاد : لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿ إن الله لا يحب الفرحين ﴾ يعني المرحين ، أو الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

(٧٧) ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ أي استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة في طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصل لك بها الثواب في الدنيا والآخرة ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ أي مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولأهلك عليك حقاً ، ولزورك عليك حقاً ، فآت كل ذي حق حقه ﴿ وأحسن كما أحسن الله إليك ﴾ أي أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ﴿ ولا تبغ الفساد في الأرض ﴾ أي لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به في الأرض ، وتسيء إلى خلق الله ﴿ إن الله لا يحب المفسدين ﴾ .

(٧٨) ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جواب قارون لقومه حين نصحوه وأرشدوه إلى الخير ﴿ قال إنما أوتيته على علم عندي ﴾ أي أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإن الله إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ، ولمحبته لي ، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله فيَّ أني أهل له ، وهذا كقوله ﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم ﴾ أي

على علم من الله بي ﴿ أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ﴾ أي قد كان من هو أكثر منه مالاً ، وما كان ذلك عن محبة منا له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم وعدم شكرهم ، ولهذا قال ﴿ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴾ أي لكثرة ذنوبهم .

(٧٩) ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قارون أنه خرج ذات يوم على قومه في زينة عظيمة ، وتجمل باهر من مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، فلما رآه من يريد الحياة الدنيا ، ويميل إلى زخارفها وزينتها تمنوا أن لو كان لهم مثل الذي أعطى ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ﴾ أي ذو حظ وافر من الدنيا .

(٨٠) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾

﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترونه كما ورد في الحديث الصحيح « يقول الله تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » واقرؤ وا إن شئتم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ وقوله ﴿ ولا يلقاها إلا الصابرون ﴾ أي ولا يلقى الجنة إلا الصابرون ، وكأن ذلك من تمام كلام الذين أوتوا العلم ، أو ولا يلقى هذه الكلمة إلا الصابرون عن محبة الدنيا ، الراغبون في الدار الآخرة ، وكأن ذلك مقطوع من كلام أولئك ، فهو من كلام الله عز وجل وإخباره .

(٨١) ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾

لما ذكر تعالى اختيال قارون في زينته وفخره على قومه ، وبغيه عليهم عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض ، كما ثبت في الصحيح عند البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » ﴿ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ﴾ أي ما أغنى عنه ماله ولا جمعه

ولا خدمه ولا حشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو منتصراً لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ولا من غيره .

(٨٢) ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

﴿ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس ﴾ أي الذين لما رأوه في زينته ﴿ قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ﴾ فلما خسف به أصبحوا يقولون : ﴿ ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر ﴾ أي ليس المال بدال على رضا الله عن صاحبه ، فإن الله يعطي ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة ، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود « إن الله قد قسم بينكم أخلاقكم ، كما قسم أرزاقكم ، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب » ﴿ لولا أن من الله علينا لخسف بنا ﴾ أي لولا لطف الله بنا ، وإحسانه إلينا لخسف بنا ، كما خسف به ، لأنا وددنا أن نكون مثله ﴿ ويكأنه لا يفلح الكافرون ﴾ يعنون أنه كان كافراً ، ولا يفلح الكافرون عند الله ، لا في الدنيا ولا في الآخرة . ﴿ ويكأن ﴾ ألم تر أن ، قال ابن جرير إنه أقوى الأقوال .

(٨٣) ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لا يريدون علواً في الأرض ، أي ترفعاً على خلق الله ، وتجبراً بهم ، ولا فساداً فيهم . وعن علي : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل في قوله تعالى ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً ﴾ وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد » وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمل فهذا لا بأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني أحب أن يكون ردائي حسناً ، ونعلي حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال » .

(٨٤) ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ من جاء بالحسنة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ فله خير منها ﴾ أي ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعف أضعافاً كثيرة ؟ وهذا مقام الفضل . ﴿ ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ كما قال في الآية الأخرى ﴿ ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ وهذا مقام الفضل والعدل .

(٨٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه ببلاغ الرسالة ، وتلاوة القرآن على الناس ، ومخبراً له بأنه سيرده إلى معاد ، وهو يوم القيامة ، فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ﴾ أي إن الذي افترض عليك أداءه إلى الناس ﴿ لرادك إلى معاد ﴾ أي إلى يوم القيامة فيسألك عن ذلك كما قال تعالى ﴿ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴾ أو لرادك إلى الجنة ، ثم سائلك عن القرآن ، أو لرادك إلى الموت ، أو إلى مكة كما أخرجك منها . ﴿ قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ﴾ أي قل لمن خالفك وكذبك يا محمد من قومك من المشركين ومن تبعهم على كفرهم ، قل ربي أعلم بالمهتدي منكم ومني ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار ، ولمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة .

(٨٦) ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾

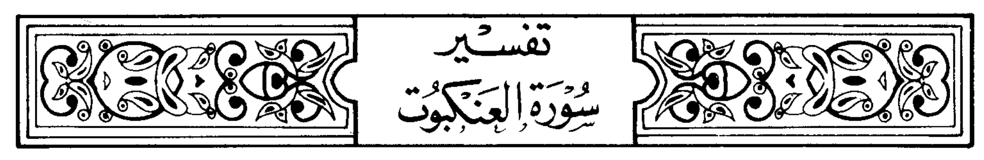
﴿ وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب ﴾ أي وما كنت تظن قبل إنزال الوحي إليك أن الوحي ينزل عليك ﴿ ولكن رحمة من ربك ﴾ أي إنما أنزل الوحي عليك من الله من رحمته بك وبالعباد بسببك ، فإذا منحك هذه النعمة العظيمة ﴿ فلا تكونن ظهيراً ﴾ أي معيناً ﴿ للكافرين ﴾ ولكن فارقهم ونابذهم وخالفهم .

(٨٧) ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ﴾ أي لا تتأثر لمخالفتهم لك ، وصدهم الناس عن طريقك ، لا تلوي على ذلك ولا تباله ، فإن الله معلٍ كلمتك ، ومؤيد دينك ، ومظهر ما أرسلك به على سائر الأديان ، ولهذا قال ﴿ وادع إلى ربك ﴾ أي إلى عبادة ربك وحده لا شريك له ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ .

(٨٨) ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ ولا تدع مع الله إلٓهاً آخر لا إلٓه إلا هو ﴾ أي لا تليق العبادة إلا له ، ولا تنبغي الإلٓهية إلا لعظمته . ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ إخبار بأنه الدائم الباقي الحي القيوم ، الذي يموِّت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى ﴿ كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا ههنا ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ أي إلا إياه ﴿ له الحكم ﴾ أي الملك والتصرف ، ولا معقب لحكمه ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم معادكم فيجزيكم بأعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .



تفسير سورة العنكبوت

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ الٓمٓ ﴾

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ استفهام إنكار ، ومعناه أن الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان ، كما جاء في الصحيح « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء » وهذه الآية كقوله ﴿ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ .

(٣) ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾

أي الذين صدقوا في دعوى الإيمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه ، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ؟ وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة .

(٤) ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

أي لا يحسبن الذين لم يدخلوا في الإيمان أنهم يتخلصون من هذه الفتنة والامتحان ، فإن من ورائهم من العقوبة والنكال ما هو أغلظ من هذا وأطم ، ولهذا قال ﴿ أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ﴾ أي يفوتونا ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي بئس ما يظنون .

(٥) ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ من كان يرجو لقاء الله ﴾ أي في الدار الآخرة وعمل الصالحات ، ورجا ما عند الله من الثواب الجزيل ، فإن الله سيحقق له رجاءه ، ويوفيه عمله كاملاً موفراً ، فإن ذلك كائن لا محالة ، لأنه سميع الدعاء ، بصير بكل الكائنات ، ولهذا قال ﴿ من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم ﴾ .

(٦) ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ﴾ كقوله تعالى ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي من عمل صالحاً فإنما يعود نفع عمله على نفسه ، فإن الله تعالى غني عن أفعال العباد ، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل منهم ما زاد ذلك في ملكه شيئاً ، ولهذا قال ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ﴾ .

(٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ (٩)

يقول تعالى آمراً عباده بالإحسان إلى الوالدين بعد الحث على التمسك بتوحيده ، فإن

الوالدين هما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه غاية الإحسان ، فالوالد بالإنفاق ، والوالدة بالإشفاق ﴿ وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين ، فإياك وإياهما ، فلا تطعهما في ذلك ، فإن مرجعكم إليّ يوم القيامة فأجزيك بإحسانك إليهما وصبرك على دينك ، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك ، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا ، فإن المرء إنما يحشر يوم القيامة مع من أحب ، أي حباً دينياً .

ولهذا قال ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين ﴾ روى الترمذي عن سعد قال : نزلت فيّ أربع آيات فذكر قصته وقال : قالت أم سعد ، أليس الله قد أمرك بالبر ؟ والله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها فنزلت ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . . . ﴾ وهذا الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي .

(١٠) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم ، ولم يثبت الإيمان في قلوبهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم فارتدوا عن الإسلام ، ولهذا قال تعالى ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله كقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ﴾ ثم قال عز وجل ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ أي ولئن جاء نصر قريب من ربك يا محمد ، وفتح ومغانم ليقولن هؤلاء لكم إنا كنا معكم ، أي إخوانكم في الدين ، كما قال تعالى ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ وقال تعالى مخبراً عنهم ههنا ﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾ أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم ، وما تكنه ضمائرهم وإن أظهروا لكم الموافقة ؟

(١١) ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾

﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ أي وليختبرن الله الناس بالضراء والسراء ، لتمييز هؤلاء من هؤلاء ، من يطيع الله في الضراء والسراء ، ومن إنما يطيعه في حفظ نفسه كما قال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ .

(١٢) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن كفار قريش أنهم قالوا لمن آمن منهم واتبع الهدى : ارجعوا عن دينكم إلى ديننا ، واتبعوا سبيلنا ﴿ ولنحمل خطاياكم ﴾ أي وآثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك علينا وفي رقابنا ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي ، قال تعالى تكذيباً لهم ﴿ وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون ﴾ أي فيما قالوه إنهم يحتملون عن أولئك خطاياهم ، فإنه لا يحمل أحد وزر أحد .

(١٣) ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ﴾ إخبار عن الدعاة إلى الكفر والضلالة أنهم يحملون يوم القيامة أوزار أنفسهم ، وأوزاراً أخر بسبب ما أضلوا من الناس من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ، وفي الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من اجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الاثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً » وفي الصحيح « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أول من سن القتل » ﴿ وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ أي يكذبون ويختلقون من البهتان .

(١٤) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ يخبره عن نوح عليه السلام أنه مكث في

قومه هذه المدة يدعوهم إلى الله تعالى ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع هذا ما زادهم ذلك الا فراراً عن الحق ، وإعراضاً عنه ، وتكذيباً له ، وما آمن معه منهم إلا قليل ، ولهذا قال ﴿ فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ أي بعد هذه المدة الطويلة ما نجع فيهم البلاغ والانذار ، فأنت يا محمد لا تأسف على من كفر بك من قومك ، ولا تحزن عليهم ، فإن الله يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وبيده الأمر ، وإليه ترجع الأمور ، ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية ﴾ واعلم أن الله سيظهرك وينصرك ويؤيدك ويذل عدوك ويكبتهم ويجعلهم أسفل السافلين .

(١٥) ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة ﴾ أي الذين آمنوا بنوح عليه السلام ﴿ وجعلناها آية للعالمين ﴾ أي وجعلنا تلك السفينة باقية ، إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الاسلام على جبل الجودي ، أو نوعها ، جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق ، كيف أنجاهم من الطوفان . قال ابن جرير : لو قيل : إن الضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾ عائد إلى العقوبة لكان وجهاً .

(١٦) ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والاخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده لا شريك له ، وتوحيده في الشكر ، فإنه المشكور على النعم ، لا مسدي لها غيره فقال لقومه : ﴿ اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشر في الدنيا والآخرة .

(١٧) ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى أن الأصنام التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم أنتم لها أسماء فسميتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم ، وعن ابن عباس ﴿ وتخلقون إفكاً ﴾ أي تنحتونها أصناماً ، وهي لا تملك لكم رزقاً ﴿ فابتغوا ﴾ أي فاطلبوا ﴿ عند الله الرزق ﴾ أي

لا عند غيره ، فإن غيره لا يملك شيئاً ﴿ واعبدوه واشكروا له ﴾ أي كلوا من رزقه واعبدوه وحده ، واشكروا له على ما أنعم به عليكم ﴿ إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله .

(١٨) ﴿ وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ﴾ أي فبلغكم ما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ يعني إنما على الرسول أن يبلغكم ما أمر الله تعالى به من الرسالة ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فاحرصوا لأنفسكم أن تكونوا من السعداء .

(١٩) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الخليل عليه السلام أنه أرشدهم إلى إثبات المعاد الذي ينكرونه بما يشاهدونه في أنفسهم من خلق الله إياهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ، ثم وجدوا وصاروا أناساً سامعين مبصرين ، فالذي بدأ هذا قادر على إعادته ، فإنه سهل عليه ، يسير لديه ، ثم أرشدهم إلى الاعتبار بما في الآفاق من الآيات المشاهدة من خلق الله الأشياء : السموات وما فيها من الكواكب النيرة الثوابت والسيارات ، والأرضين وما فيها من مهاد وجبال ، وأودية وبراري وقفار ، وأشجار وأنهار ، وثمار وبحار ، كل ذلك دال على حدوثها في أنفسها ، وعلى وجود صانعها الفاعل المختار ، الذي يقول للشيء : كن فيكون ، ولهذا قال ﴿ أولم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير ﴾ كقوله تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

(٢٠) ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ إن الله على كل شيء قدير ﴾ وهذا المقام شبيه بقوله تعالى ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ .

(٢١) ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾

﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ،

ويحكم ما يريد ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، فله الخلق والأمر ، مهما فعل فعدل ، لأنه المالك الذي لا يظلم مثقال ذرة ، كما جاء في الحديث الذي رواه أهل السنن « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » ولهذا قال ﴿ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون ﴾ أي ترجعون يوم القيامة .

(٢٢) ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴾ أي لا يعجزه أحد من أهل سماواته وأرضه ، بل هو القاهر فوق عباده ، فكل شيء خائف منه فقير إليه ، وهو الغني عما سواه ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه ﴾ أي جحدوا وكفروا بالمعاد ﴿ أولئك يئسوا من رحمتي ﴾ أي لا نصيب لهم فيها ﴿ وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي موجع شديد في الدنيا والآخرة .

(٢٤) ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم إبراهيم في كفرهم وعنادهم ومكابرتهم ودفعهم الحق بالباطل أنهم ما كان لهم جواب بعد مقالة ابراهيم هذه المشتملة على الهدى والبيان ﴿ إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه ﴾ وذلك لأنهم قام عليهم البرهان ، وتوجهت عليهم الحجة فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم . ﴿ فأنجاه الله من النار ﴾ أي سلمه منها بأن جعلها عليه برداً وسلاماً ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾

يقول لقومه مقرعاً لهم وموبخاً على سوء صنيعهم في عبادتهم للأوثان : لتحصل لكم المودة في الدنيا فقط ﴿ ثم يوم القيامة ﴾ يعني هذا الحال فتبقى هذه الصداقة والمودة

بغضاً وشنآناً ﴿ يكفر بعضكم ببعض ﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم ، ﴿ ويلعن بعضكم بعضاً ﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع ﴿ كلما دخلت أمة لعنت أختها ﴾ وقال تعالى ﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ ﴿ ومأواكم النار ﴾ أي ومصيركم ومرجعكم بعد عرصات القيامة إلى النار وما لكم من ناصر ينصركم ، ولا منقذ ينقذكم من عذاب الله ، وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك .

(٢٦) ﴿ * فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن إبراهيم إنه آمن له لوط وكان ابن اخي إبراهيم ، ولم يؤمن بإبراهيم من قومه سواه وسوى سارة امرأة إبراهيم الخليل وقد اختار المهاجرة من بين أظهرهم ابتغاء اظهار الدين والتمكن من ذلك ، ولهذا قال ﴿ إنه هو العزيز الحكيم ﴾ أي لله العزة ولرسوله وللمؤمنين به ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله وأحكامه القدرية والشرعية .

(٢٧) ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ ووهبنا له إسحق ويعقوب ﴾ أي إنه لما فارق قومه أقر الله عينه بوجود ولد صالح نبي منه ، وولد له ولد صالح نبي أيضاً في حياة جده . ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ هذه خلعة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله للناس إماماً أن جعل في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى بن مريم ، فقام في ملئهم مبشراً بالنبي العربي القرشي الهاشمي خاتم الرسل على الاطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، ولم يوجد نبي من سلالة اسماعيل سواه ، عليه أفضل الصلاة والسلام . ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن ، وكل أحد يحبه ويتولاه .

(٢٨) ﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه لوط عليه السلام أنه أنكر على قومه سوء صنيعهم ، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال في إتيانهم الذكران من العالمين ، ولم يسبقهم إلى هذه الفعلة أحد من بني آدم قبلهم ، وكانوا مع هذا يكفرون بالله ، ويكذبون رسوله ، ويخالفون ويقطعون السبيل ، أي يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٩)

﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ أي يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها ، لا ينكر بعضهم على بعض شيئاً من ذلك ، فمن قائل كانوا يأتون بعضهم بعضاً في الملأ ، ومن قائل كانوا يتضارطون ويتضاحكون ، ومن قائل كانوا يناطحون بين الكباش ، ويناقرون بين الديوك ، وكل ذلك كان يصدر عنهم ، وكانوا شراً من ذلك . روى الامام أحمد عن أم هانىء قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى ﴿ وتأتون في ناديكم المنكر ﴾ قال « يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه » ورواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم . ﴿ فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين ﴾ وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم ، ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال :

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠) وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (٣١)

لما استنصر لوط عليه السلام بالله عز وجل عليهم بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على ابراهيم عليه السلام في هيئة أضياف ، فجاءهم بما ينبغي للضيف ، فلما رأى إبراهيم أنه لا همة لهم إلى الطعام نكرهم وأوجس منهم خيفة ، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة ، وكانت حاضرة فتعجبت من ذلك ، فلما جاءت إبراهيم بالبشرى وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون ، لعل الله أن يهديهم .

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ (٣٢)

ولما ﴿ قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية ﴾ ﴿ قال إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها

لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴾ أي من الهالكين ، لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم ، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبان حسان .

﴿ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ (٣٣)

فلما رآهم كذلك ﴿ سيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴾ أي اغتم بأمرهم إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة ﴿ وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين ﴾ .

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ (٣٤)

وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد .

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣٥)

ولهذا قال ﴿ ولقد تركنا منها آية بينة ﴾ أي واضحة ﴿ لقوم يعقلون ﴾ كما قال تعالى ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ (٣٧)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله شعيب عليه السلام أنه أنذر قومه أهل مدين فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له ، وأن يخافوا بأس الله ونقمته وسطوته يوم القيامة ، فقال ﴿ يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ﴾ واخشوا اليوم الآخر ﴿ ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد ، وهو السعي فيها ، والبغي على أهلها ، وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، هذا مع كفرهم بالله ورسوله فأهلكهم الله برجفة عظيمة ، زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من

حناجرها ، وعذاب يوم الظلة الذي أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم . ﴿ فأصبحوا في دارهم جاثمين ﴾ ميتين .

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾ ﴿٣٩﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الأمم المكذبة للرسل كيف أبادهم ، وتنوع في عذابهم ، وأخذهم بالانتقام منهم ، فعاد قوم هود كانوا يسكنون الأحقاف ، وهي قريبة من حضرموت بلاد اليمن ، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى ، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً ، وتمر عليها كثيراً ، وقارون صاحب الأموال الجزيلة ، ومفاتيح الكنوز الثقيلة ، وفرعون ملك مصر في زمان موسى ، ووزيره هامان القبطيان الكافران بالله تعالى وبرسوله ﷺ .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي كانت عقوبته بما يناسبه ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ وهم عاد ، وذلك أنهم قالوا : ﴿ من أشد منا قوة ﴾ ؟ فجاءتهم ريح صرصر باردة شديدة البرد ، عاتية شديدة الهبوب جداً ، تحمل عليهم حصباء الأرض ، فتلقيها عليهم ، وتقتلعهم من الأرض ، فترفع الرجل منهم من الأرض إلى عنان السماء ، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه ، فيبقي بدناً بلا رأس ، كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴿ ومنهم من أخذته الصيحة ﴾ وهم ثمود ، قامت عليهم الحجة ، وظهرت لهم الدلالة من تلك الناقة التي انفلقت عنها الصخرة مثل ما سألوا سواء بسواء ، ومع هذا ما آمنوا ، بل استمروا على طغيانهم وكفرهم ، وتهددوا نبيَّ الله صالحاً ، ومن آمن معه ، وتوعدوهم بأن يخرجوهم ويرجموهم ، فجاءتهم صيحة أخمدت الأصوات منهم والحركات ﴿ ومنهم من خسفنا به الأرض ﴾ وهو قارون الذي طغى وبغى وعتا وعصى الرب الأعلى ، ومشى في الأرض مرحاً ، وفرح ومرح ، وتاه بنفسه ، واعتقد أنه أفضل من غيره ، واختال في مشيته فخسف الله به وبداره الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ﴿ ومنهم من أغرقنا ﴾ وهو

فرعون ، ووزيره هامان ، وجنودهما عن آخرهم ، أغرقوا في صبيحة واحدة ، فلم ينج منهم مخبر ﴿ وما كان الله ليظلمهم ﴾ أي فيما فعل بهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي إنما فعل ذلك بهم جزاء وفاقاً بما كسبت أيديهم .

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ﴿٤٢﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ورزقهم ، ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المؤمن قلبه لله ، وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع ، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها ، ثم قال تعالى متوعداً لمن عبد غيره وأشرك به : إنه تعالى يعلم ما هم عليه من الأعمال ، ويعلم ما يشركون به من الأنداد ، وسيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم .

﴿٤٣﴾ ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾

﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ أي وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم ، المتضلعون منه ، روى الإمام أحمد رحمه الله عن عمروابن العاص رضي الله عنه قال : عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مثل . وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص حيث يقول الله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وعن عمرو بن مرة قال : ما مررت بآية من كتاب الله لا أعرفها إلا أحزنني لأنني سمعت الله تعالى يقول ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ .

﴿٤٤﴾ ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه خلق السموات والأرض بالحق ، يعني لا على وجه العبث واللعب ﴿ لتجزى كل نفس بما تسعى ﴾ وقوله ﴿ إن في ذلك لآية للمؤمنين ﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية .

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾

ثم قال تعالى آمراً رسوله والمؤمنين بتلاوة القرآن ، وهو قراءته وإبلاغه للناس ﴿ وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر ﴾ يعني أن الصلاة تشتمل على ترك الفواحش والمنكرات ، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك ، وقد جاء في الحديث مرفوعاً « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بعداً » وتشتمل الصلاة أيضاً على ذكر الله تعالى ، وهو المطلوب الأكبر ، ولهذا قال : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾ أي أعظم من الأول ﴿ والله يعلم ما تصنعون ﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأقوالكم . قال أبو العالية : إن الصلاة فيها ثلاث خصال ، فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليس بصلاة : الإخلاص والخشية وذكر الله ، فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله تعالى يأمره وينهاه .

﴿ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾

قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام ، أو الجزية ، أو السيف ، وقال آخرون : بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين فيجادل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه كما قال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون ﴿ فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى ﴾ وقوله ﴿ إلا الذين ظلموا منهم ﴾ أي حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذٍ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتلون بما يمنعهم ويردعهم ﴿وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقاً ، ولا تصديقه ، فلعله أن يكون باطلاً ، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلقاً على شرط ، وهو أن يكون منزلاً ، لا مبدلاً ولا مؤوّلاً. وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون » .

(٤٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

كما أنزلنا الكتب على من قبلك يا محمد من الرسل كذلك أنزلنا إليك هذا الكتاب ﴿ فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ﴾ أي الذين أخذوه فتلوه حق تلاوته من أحبارهم العلماء الأذكياء كعبدالله بن سلام وسلمان الفارسي وأشباههما ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ يعني العرب من قريش وغيرهم ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون ﴾ أي ما يكذب بها ويجحد حقها إلا من يستر الحق بالباطل ، ويغطي ضوء الشمس بالوصائل ، وهيهات .

(٤٨) ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك ﴾ أي قد لبثت في قومك يا محمد من قبل أن تأتي بهذا القرآن عمراً لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن الكتابة ، بل كل أحد من قومك وغيرهم يعرف أنك رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا صفته في الكتب المتقدمة كما قال تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ﴾ .

(٤٩) ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

﴿ بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ أي هذا القرآن آيات بينة واضحة في الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً يحفظه العلماء ، يسره الله عليهم حفظاً وتلاوة وتفسيراً كما قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

(٥٠) ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعنتهم وطلبهم آيات يعنون ترشدهم إلى أن محمداً رسول الله ﷺ ، كما أتى صالح بناقته ﴿ قل ﴾ يا محمد ﴿ إنما الآيات عند الله ﴾ أي إنما أمر ذلك إلى الله ، فإنه لو علم أنكم تهتدون لأجابكم إلى سؤالكم ، لأن هذا سهل عليه يسير لديه ، ولكنه يعلم منكم أنكم إنما قصدتم التعنت والامتحان ، فلا يجيبكم إلى ذلك ، كما قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها ﴾ وقوله ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ إنما بعثت نذيراً لكم بيِّن النذارة ، فعلي أن أبلغكم رسالة الله تعالى .

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٥١)

ثم قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدلهم على صدق محمد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه ﴿ أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ﴾ أي أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ، ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب ، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلي ، كما قال تعالى ﴿ أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ﴾ وقال تعالى ﴿وقالو لولا أنزل عليه آية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » . ﴿ إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون ﴾ أي إن في هذا القرآن ﴿ لرحمة ﴾ أي بياناً للحق ، وإزاحة للباطل ، وذكرى بما فيه حلول النقمات ، ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين لقوم يؤمنون .

﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٥٢)

ثم قال تعالى ﴿ قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً ﴾ أي هو أعلم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني ، كما قال تعالى ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ وإنما أنا صادق عليه فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيدني بالمعجزات الواضحات والدلائل القاطعات ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ﴾ أي لا تخفى عليه خافية ﴿ والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون ﴾ أي يوم القيامة سيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق ، واتباعهم الباطل كذبوا برسل الله مع قيام الأدلة على صدقهم ، وآمنوا بالطاغوت ، والأوثان بلا دليل فسيجزيهم على ذلك ، إنه حكيم عليم .

(٥٣) ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن جهل المشركين في استعجالهم عذاب الله أن يقع بهم ، وبأس الله أن يحل بهم ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ أي لولا ما حتم الله من تأخير العذاب إلى يوم القيامة لجاءهم العذاب قريباً سريعاً كما استعجلوه ﴿ وليأتينهم بغتة ﴾ أي فجأة ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ .

(٥٤) ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

﴿ يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي يستعجلونك العذاب وهو واقع بهم لا محالة .

(٥٥) ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ﴾ كقوله تعالى ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غـواش ﴾ فالنار تغشاهم من سائر جهاتهم وهذا أبلغ في العذاب الحسي .

(٥٦) ﴿ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ﴾

هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ويعبدوه كما أمرهم ﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾ .

(٥٧) ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون ﴾ أي أينما كنتم يدرككم الموت فكونوا في طاعة الله ، وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإن الموت لا بد منه ، ولا محيد عنه ثم إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ، ووفاه أتم الثواب .

(٥٨) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾

﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي لنسكننهم منازل عالية في الجنة تجري من تحتها الأنهار على اختلاف أصنافها من ماء

وخمر وعسل ولبن يصرفونها ويجرونها حيث شاؤ وا ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يبغون عنها حولاً ﴿ نعم أجر العاملين ﴾ نعمت هذه الغرف أجراً على أعمال المؤمنين .

(٥٩) ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

﴿ الذين صبروا ﴾ أي على دينهم ، وهاجروا إلى الله ، ونابذوا الأعداء ، وفارقوا الأهل والأقرباء ابتغاء وجه الله ، ورجاء ما عنده ، وتصديق موعوده ، روى ابن أبي حاتم أن أبا مالك الأشعري حدثه أن رسول الله ﷺ حدثه أن في الجنة غرفاً ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنهامن ظاهرها ، أعدها الله لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام » ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ في أحوالهم كلها في دينهم ودنياهم .

(٦٠) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

ثم أخبرهم الله تعالى أن الرزق لا يختص ببقعة ، بل رزقه تعالى عام لخلقه حيث كانوا ، وأين كانوا ، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكثر وأوسع وأطيب ، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد في سائر الأقطار والأمصار ، ولهذا قال ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها ﴾ أي لا تطيق جمعه وتحصيله ، ولا تدخر شيئاً لغد ﴿ الله يرزقها وإياكم ﴾ أي الله يقيض لها رزقها على ضعفها ، وييسره عليها ، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه حتى الذر في قرار الأرض ، والطير في الهواء ، والحيتان في الماء ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ويأكل فقال لي : « يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ » قال : قلت : لا أشتهيه يا رسول الله قال : « لكني أشتهيه ، وهذا صبح رابعة لم أذق طعاماً ، ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبئون رزق سنتهم بضعف اليقين ؟ » قال : فوالله ما برحنا ولا رمنا حتى نزلت ﴿ وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴾ فقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل لم يأمرني بكنز الدنيا ، ولا باتباع الشهوات ، فمن كنز دنياه يريدها حياة باقية فإن الحياة بيد الله ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد » هذا حديث غريب . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « سافروا تربحوا ، وصوموا

تصحوا ، واغزوا تغنموا » ﴿ وهو السميع العليم ﴾ أي السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وسكناتهم .

(٦١) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٦٣)

يقول تعالى مقرراً أنه لا إلّه إلا هو ، لأن المشركين الذين يعبدون معه غيره معترفون بأنه المستقل بخلق السموات والأرض والشمس والقمر ، وتسخير الليل والنهار ، وأنه الخالق الرازق لعباده ، ومقدر آجالهم ، واختلافها واختلاف أرزاقهم فتفاوت بينهم ، فمنهم الغني والفقير ، وهو العليم بما يصلح كلاً منهم ، ومن يستحق الغنىٰ ممن يستحق الفقر ، فذكر أنه المستقل بخلق الأشياء المتفرد بتدبيرها ، فإذا كان الأمر كذلك ، فلم يعبد غيره ؟ ولم يتوكل على غيره ؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته ، وكثيراً ما يقرر تعالى مقام الإلّهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية ، وقد كان المشركون يعترفون بذلك ، كما كانوا يقولون في تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

(٦٤) ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ وإن الدار الآخرة لهي الحيوان ﴾ أي الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال له ، ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد ﴿ لو كانوا يعلمون ﴾ أي لآثروا ما يبقى على ما يفنى .

(٦٥) ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾

ثم أخبر تعالى عن المشركين أنهم عند الاضطرار يدعونه وحده لا شريك له ، فهلا يكون هذا منهم دائماً ﴿ فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون ﴾ .

(٦٦) ﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا ﴾ هذه اللام يسميها كثير من أهل العربية والتفسير وعلماء الأصول لام العاقبة ، لأنهم لا يقصدون ذلك ، ولا شك أنها كذلك بالنسبة إليهم ، وأما بالنسبة إلى تقدير الله عليهم ، وتقييضه إياهم لذلك فهي لام التعليل .

(٦٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواء العاكف فيه والباد ، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم . والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً ، ويقتل بعضهم بعضاً ﴿ أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون ﴾ أي أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به وعبدوا غيره من الأصنام والأنداد .

(٦٨) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴾

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ أي لا أحد أشد عقوبة ممن كذب على الله ، فقال : إن الله أوحى إليه ، ولم يوح إليه بشيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، وهكذا لا أحد أشد عقوبة ممن كذب بالحق لما جاءه ، فالأول مفتر ، والثاني مكذب ، ولهذا قال تعالى ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ .

(٦٩) ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ والذين جاهدوا فينا ﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿ لنهدينهم سبلنا ﴾ أي لنبصرنهم سبلنا ، أي طرقنا في الدنيا والآخرة ﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾ .
قال عيسى ابن مريم : إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك .



تفسير سورة الروم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

نزلت هذه الآيات من أول سورة الروم حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام وما والاها من بلاد الجزيرة وأقاصي بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ثم عادت الدولة لهرقل . كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل الكتاب ، فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سيغلبون » فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً ، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين فلم يظهروا فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دون - أراه قال العشر - قال سعيد بن جبير : البضع ما دون العشر ، ثم ظهرت الروم بعدُ ، قال : فذلك قوله ﴿ الم . غلبت الروم - إلى قوله - وهو العزيز الحكيم ﴾ » رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي . وفي رواية « ألا احتطت يا أبا بكر ، فإن البضع ما بين ثلاث إلى تسع » . وتقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة . والروم من سلالة العيص بن إسحق عليه السلام .

﴿٤﴾ ﴿ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾ أي من قبل ذلك ، ومن بعده ﴿ ويومئذٍ يفرح المؤمنون ﴾ .

﴿٥﴾ ﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ بنصر الله ﴾ أي للروم أصحاب قيصر ملك الشام على فارس أصحاب كسرى ، وهم المجوس ، وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء .
﴿ وهو العزيز ﴾ أي في انتصاره وانتقامه من أعدائه ﴿ الرحيم ﴾ بعباده المؤمنين .

(٦) ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وعد الله لا يخلف الله وعده ﴾ أي هذا الذي أخبرناك به يا محمد من أنا سننصر الروم على فارس وعد من الله حق ، وخبر صدق ، لا يخلف ، ولا بد من كونه ووقوعه ، لأن الله قد جرت سنته أن ينصر أقرب الطائفتين المقتتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي أكثر الناس ليس لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وما فيها ، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها ، وهم غافلون في أمور الدين ، وما ينفعهم في الدار الآخرة ، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة .

(٧) ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾

يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال .

(٨) ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على التفكر في مخلوقاته الدالة على وجوده وانفراده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ، ولا رب سواه ، فقال ﴿ أولم يتفكروا في أنفسهم ﴾ يعني به النظر والتدبر والتأمل لخلق الله الأشياء من العالم العلوي والسفلي وما بينهما من المخلوقات المتنوعة الأجناس المختلفة فيعلموا أنها ما خلقت سدى ، ولا باطلاً ، بل بالحق ، وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى وهو يوم القيامة ، ولهذا قال ﴿ وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ﴾ .

(٩) ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

ثم نبههم على صدق رسله فيما جاؤوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحات من إهلاك من كفر بهم ، ونجاة من صدقهم فقال ﴿ أولم يسيروا في الأرض ﴾ أي بإفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين ، ولهذا قال ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ﴾ أي كانت الأمم الماضية ، والقرون السالفة أشد منكم قوة أيها المبعوث إليهم محمد ﷺ ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، وما أوتيتم معشار ما

أوتوا ومكنوا في الدنيا تمكيناً لم تبلغوا إليه ، وعمروا فيها أعماراً طوالاً فعمروها أكثر منكم ، واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ومع هذا فلما جاءتهم رسلهم بالبينات وفرحوا بما أوتوا أخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ، ولا حالت أموالهم ، وأولادهم بينهم وبين بأس الله ، ولا دفعوا عنهم مثقال ذرة ، وما كان الله ليظلمهم فيما أحل بهم من العذاب والنكال ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي ، وإنما أتوا من أنفسهم حيث كذبوا بآيات الله ، واستهزؤوا بها ، وما ذاك إلا بسبب ذنوبهم السالفة ، وتكذيبهم المتقدم . ولهذا قال :

(١٠) ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

أي كانت السوأى عاقبتهم لأنهم كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون .

(١١) ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ الله يبدأ الخلق ثم يعيده ﴾ أي كما هو قادر على بداءته فهو قادر على إعادته ﴿ ثم إليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة ، فيجازى كل بعمله . ثم قال :

(١٢) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾

﴿ يبلس المجرمون ﴾ ييأس المجرمون .

(١٣) ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾

﴿ ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء ﴾ أي ما شفعت فيهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ﴿ وكانوا بشركائهم كافرين ﴾ ، وكفروا بهم وخانوهم أحوج ما كانوا إليهم .

(١٤) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون ﴾ قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعني إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل سافلين فذالك آخر العهد بينهما ، ولهذا قال :

(١٥) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾

﴿يُحْبرون﴾ أي ينعمون ، وقيل : يعني سماع الغناء ، والحبرة أعم .

(١٦) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (١٧)

هذا تسبيح منه تعالى لنفسه المقدسة ، وإرشاد لعباده إلى تسبيحه وتحميده في هذه الأوقات المتعاقبة الدالة على كمال قدرته ، وعظيم سلطانه عند المساء ، وهو إقبال الليل بظلامه ، وعند الصباح ، وهو إسفار النهار بضيائه .

(١٨) ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾

ثم اعترض بحمده مناسبة للتسبيح ، وهو التحميد فقال تعالى ﴿ وله الحمد في السموات والأرض ﴾ أي هو المحمود على ما خلق في السموات والأرض ، ثم قال تعالى ﴿ وعشياً وحين تظهرون ﴾ فالعشاء هو شدة الظلام . والاظهار قوة الضياء ، فسبحان خالق هذا وهذا . فالق الاصباح وجاعل الليل سكناً ، كما قال تعالى ﴿ والنهار إذا جلاها . والليل إذا يغشاها ﴾ وقال تعالى ﴿ والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ﴾ وقال تعالى ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ .

(١٩) ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

﴿ يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ هو ما نحن فيه من قدرته على خلق الأشياء المتقابلة . وهذه الآيات المتتابعة الكريمة كلها من هذا النمط ، فإنه يذكر فيها خلقه الأشياء وأضدادها ، ليدل خلقه على كمال قدرته ، فمن إخراج النبات من الحب ، والحب من النبات ، والبيض من الدجاج ، والدجاج من البيض ، والانسان من النطفة ، والنطفة من الانسان ، والمؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن . وقوله ﴿ ويحي الأرض بعد موتها ﴾ كقوله ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ ولهذا قال ﴿ وكذلك تخرجون ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب ﴿ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ﴾ فأصلكم من تراب ، ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقة ثم مضغة ، ثم صار عظاماً شكله على شكل الانسان ، ثم كسا الله تلك العظام لحماً ، ثم نفخ فيه الروح ، فإذا هو سميع بصير ، ثم خرج من بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبني المدائن

والحصون ، ويسافر في أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ودهاء وفكرو رأي وعلم واتساع في أمور الدنيا والآخرة كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم في فنون المعايش والمكاسب وفاوت بينهم في العلوم والفكر والحسن والقبيح والغنى والفقر والسعادة والشقاوة . روى الامام أحمد ، قال رسول الله ﷺ « إن الله خص آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ، وبين ذلك ، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك »ورواه أبو داود والترمذي . وقال الترمذي حديث حسن صحيح .

(٢١) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي خلق لكم من جنسكم إناثاً تكون لكم أزواجاً ﴿ لتسكنوا اليها ﴾ كما قال تعالى ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة ، وجعل منها زوجها ليسكن اليها ﴾ يعني بذلك حواء ، خلقها الله من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر ، ولو أنه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً ، وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم : إما من جان ، أو حيوان لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم ، وجعل بينهم وبينهن ﴿ مودة ﴾ وهي المحبة ﴿ ورحمة ﴾ وهي الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة ، إما لمحبة لها ، أو لرحمةً بها بأن يكون لها منه ولد ، أو محتاجة إليه في الانفاق ، أو للألفة بينهما ، وغير ذلك ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

(٢٢) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ خلق السموات والأرض ﴾ أي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض في انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار ، وحيوان وأشجار ﴿ واختلاف ألسنتكم ﴾ يعني اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء تتر ، وهؤلاء كرج ،

وهؤلاء روم ، وهؤلاء فرنج ، وهؤلاء بربر ، وهؤلاء تكرور ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء عجم ، وهؤلاء صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد إلى غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله تعالى من اختلاف لغات بني آدم ، واختلاف ألوانهم ، وهي حلاهم . فجميع أهل الأرض ، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لا بد أن يفارقه بشيء من السمعة أو الهيئة أو الكلام ظاهراً كان أو خفياً ﴿ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ﴾ أي ومن الآيات ما جعل الله من صفة النوم في الليل والنهار ، ففيه تحصل الراحة ، وسكون الحركة ، وذهاب الكلال والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعي في الأسباب والأسفار في النهار ، وهذا ضد النوم ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ﴾ أي يعون . روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أصابني أرق من الليل ، فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : قل : « اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حي قيوم ، يا حي يا قيوم ، أنم عيني ، وأهدىء ليلي » فقلتها فذهب عني .

(٢٤) ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿ يريكم البرق خوفاً وطمعاً ﴾ أي تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضة ، وما يأتي بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال ﴿ وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ، ولهذا قال ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾

﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ كقوله ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض

إلا بإذنه ﴾ أي قائمة ثابتة ، بأمره لها ، وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت الأرض غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ، ودعائه إياهم ، ولهذا قال ﴿ ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون ﴾ .

(٣٦) ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾

﴿ وله من في السموات والأرض ﴾ أي ملكه وعبيده ﴿ كل له قانتون ﴾ أي خاضعون خاشعون طوعاً وكرهاً . وعن أبي سعيد مرفوعاً « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

(٣٧) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ يعني أيسر عليه . وفي البخاري ، قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى : كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمني ، ولم يكن له ذلك ، فاما تكذيبه إياي فقوله : لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليه من اعادته ، وأما شتمه إياي فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » ﴿ وله المثل الأعلى في السموات والأرض ﴾ كقوله ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ قال قتادة : مثله : أنه لا إلّه إلا هو ولا رب سواه . ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ، ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله شرعاً وقدراً .

(٣٨) ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له ، كما كانوا يقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ، فقال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أنفسكم ﴿ هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ﴾ أي أيرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله ، فهو وهو فيه على السواء ﴿ تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ﴾ أي تخافون أن يقاسموكم الأموال . والمعنى أن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله أنداداً من خلقه ؟ وهذا كقوله

﴿ ويجعلون لله ما يكرهون ﴾ أي من البنات حيث جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، وجعلوها بنات الله ، وقد كان أحدهم إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم .

(٢٩) ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

﴿ بل اتبع الذين ظلموا ﴾ أي المشركون ﴿ أهواءهم ﴾ أي في عبادتهم الأهواء بغير علم ﴿ فمن يهدي من أضل الله ﴾ أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ وما لهم من ناصرين ﴾ أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ، ولا مجير ، ولا محيد لهم عنه ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

(٣٠) ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى : فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية : ملة إبراهيم الذي هداك الله لها ، وكملها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته ، وتوحيده ، وأنه لا إله غيره ﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وفي الحديث « إني خلقت عبادي حنفاء ، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » ﴿ لا تبديل لخلق الله ﴾ أي ساوى الله بين خلقه في الفطرة على الجبلة المستقيمة ، لا يولد أحد الا على ذلك ولا تفاوت بين الناس في ذلك . أو لا تبدلوا خلق الله فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها فيكون خبراً بمعنى الطلب . وفي الحديث « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصِّرانه أويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء » ثم يقول ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها ﴾ .

(٣١) ﴿ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

﴿ منيبين إليه ﴾ أي راجعين إليه . ﴿ واتقوه ﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ وهي الطاعة العظيمة ﴿ ولا تكونوا من المشركين ﴾ ، أي بل كونوا من الموحدين المخلصين له العبادة ، لا يريدون بها سواه .

(٣٢) ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

﴿ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ أي لا تكونوا من المشركين الذين فرقوا دينهم ، أي بدلوه وغيروه وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء ومثل باطلة ، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء ، وهذه الأمة أيضاً اختلفوا فيما بينهم على نحل ، كلها ضلالة إلا واحدة ، وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه . روى الحاكم في مستدركه أنه سئل ﷺ عن الفرقة الناجية منهم فقال « من كان على ما أنا عليه اليوم وأصحابي » .

(٣٣) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الناس أنهم في حال الاضطرار يدعون الله وحده لا شريك له ، وأنه إذا أسبغ عليهم النعم إذا فريق منهم في حالة الاختيار يشركون بالله ويعبدون معه غيره .

(٣٤) ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ هي لام العاقبة عند بعضهم ، ولام التعليل عند آخرين ، ولكنها تعليل لتقييض الله لهم ذلك . ثم توعدهم بقوله ﴿ فسوف يعلمون ﴾ قال بعضهم : والله لو توعدني حارس درب لخفت منه ، فكيف ، والمتوعد هنا هو الذي يقول للشيء : كن فيكون .

(٣٥) ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾

ثم قال تعالى منكراً على المشركين فيما اختلفوا فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان ﴿ أم أنزلنا عليهم سلطاناً ﴾ أي حجة ﴿ فهو يتكلم ﴾ أي ينطق ﴿ بما كانوا به يشركون ﴾ وهذا استفهام انكاري ، أي لم يكن لهم شيء من ذلك .

(٣٦) ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾

هذا انكار على الانسان من حيث هو إلا من عصمه الله ووفقه ، فإن الانسان إذا أصابته نعمة بطر وقال ﴿ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور﴾ .

(٣٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي هو المتصرف الفاعل لذلك بحكمته وعدله فيوسع على قوم ويضيق على آخرين ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

(٣٨) ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً باعطاء ﴿ ذي القربى حقه ﴾ أي من البر والصلة ﴿ والمسكين ﴾ وهو الذي لا شيء له ينفق عليه ، أو له شيء لا يقوم بكفايته ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المحتاج إلى نفقة ، وما يحتاج إليه في سفره ﴿ ذلك خير للذين يريدون وجه الله ﴾ أي النظر إليه يوم القيامة ، وهو الغاية القصوى ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

(٣٩) ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

﴿ وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله ﴾ أي من أعطى عطية يريد أن يرد الناس عليه أكثر مما أهدى لهم فهذا لا ثواب له عند الله ، وهذا الصنيع مباح ، وإن كان لا ثواب له فيه إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة ، قاله الضحاك ، واستدل بقوله تعالى ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه . وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح ، يعني ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها ، ثم تلا هذه الآية ﴿ وما آتيتم من ربا ليربو . . . ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة ، ولهذا قال ﴿ وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فاولئك هم المضعفون ﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما جاء في الصحيح « وما تصدق أحد بعدل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمٰن بيمينه فيربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه ، أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد » .

(٤٠) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ الله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴾ أي هو الخالق الرازق ، يخرج الانسان من بطن أمه عرياناً ، لا علم له ولا سمع ولا بصر ولا قوى ، ثم يرزقه جميع ذلك بعد ذلك ويرزقه ، الرياش واللباس والمال والأملاك والمكاسب . روى الامام أحمد عن حبة وسواء ابني خالد ، قالا : دخلنا على النبي ﷺ ، وهو يصلح شيئاً فأعناه فقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهز هزت رؤ وسكما ، فإن الانسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل » . وقوله ﴿ ثم يميتكم ﴾ أي بعد هذه الحياة . ﴿ ثم يحييكم ﴾ أي يوم القيامة . وقوله ﴿ هل من شركائكم ﴾ أي الذين تعبدونهم من دون الله ﴿ من يفعل من ذلكم من شيء ﴾ ؟ أي لا يقدر أحد منهم على فعل شيء من ذلك ، بل الله سبحانه هو المستقل بالخلق والرزق والاحياء والاماتة ، ثم يبعث الخلائق يوم القيامة ، ولهذا قال بعد هذا كله ﴿ سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه وتعاظم عزَّ وجلَّ عن أن يكون له شريك ، أو نظير ، أو مساوٍ ، أو ولد ، أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد .

(٤١) ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

المراد بالبر هنا الفيافي ، وبالبحر الأمصار والقرى . وقيل : بل المراد بالبر هو البر المعروف ، وبالبحر هو البحر المعروف . ﴿ ظهر الفساد ﴾ يعني انقطاع المطر عن البر يعقبه القحط ، وعن البحر يعني دوابه . والقول الأول أظهر ، وعليه الأكثرون ، ويؤيده ما قاله ابن اسحق في السيرة : إن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة ، وكتب إليه ببحره ، يعني ببلده . والمعنى بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي . ﴿ ليذيقهم بعض الذي عملوا ﴾ أي ليبتليهم بنقص الأموال والأنفس والثمرات اختباراً منه لهم ، ومجازاة على صنيعهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي عن المعاصي ، كما قال تعالى ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ .

(٤٢) ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾

﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلُ ﴾ أي من قبلكم ﴿ كان أكثرهم مشركين ﴾ أي فانظر ما حل بهم من تكذيب الرسل ، وكفر النعم .

(٤٣) ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالمبادرة إلى الاستقامة في طاعته والمبادرة إلى الخيرات ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ أي يوم القيامة إذا أراد كونه فلا راد له ﴿ يومئذٍ يصدعون ﴾ أي يتفرقون ففريق في الجنة ، وفريق في السعير ، ولهذا قال تعالى :

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون . ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله ﴾ أي يجازيهم مجازاة الفضل ؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما يشاء الله ﴿ إنه لا يحب الكافرين ﴾ ومع هذا هو العادل فيهم الذي لا يجور .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾

يذكر تعالى نعمه على خلقه في إرساله الرياح مبشرات بين يدي رحمته بمجيء الغيث عقبها ، ولهذا قال ﴿ وليذيقكم من رحمته ﴾ أي المطر الذي ينزله فيجيء به العباد والبلاد ﴿ ولتجري الفلك بأمره ﴾ أي في البحر ، وإنما سيرها بالريح . ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في التجارات والمعايش والسير من إقليم إلى إقليم ، وقطر إلى قطر ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون الله على ما أنعم به عليكم من النعم الظاهرة والباطنة التي لا تعدُّ ولا تحصى .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٤٧﴾

هذه تسلية من الله تعالى لعبده. ورسوله محمد ﷺ بأنه وإن كذبه كثير من قومه ومن الناس ، فقد كذبت الرسل المتقدمون مع ما جاؤوا أممهم به من الدلائل الواضحات ، ولكن انتقم الله ممن كذبهم وخالفهم وأنجى المؤمنين بهم ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ أي هو حق أوجبه على نفسه الكريمة تكرماً وتفضلاً ، كقوله تعالى

﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ « ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا هذه الآية ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ .

(٤٨) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

يبين تعالى كيف يخلق السحاب الذي ينزل منه الماء فقال تعالى ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ﴾ إما من البحر كما ذكره غير واحد ، أو مما يشاء الله عز وجل ﴿ فيبسطه في السماء كيف يشاء ﴾ أي يمده فيكثره وينميه ، ويجعل من القليل كثيراً ، ينشىء سحابة ترى في رأى العين مثل الترس ، ثم يبسطها حتى تملأ أرجاء الأفق ، وتارة يأتي السحاب من نحو البحر ثقالاً مملوءة ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلناه به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ فترى المطر وهو القطر يخرج من بين ذلك السحاب ﴿ فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون ﴾ أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ، ووصوله إليهم .

(٤٩) ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾

﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ معنى الكلام أن هؤلاء القوم الذين أصابهم هذا المطر كانوا قانطين من نزول المطر إليهم قبل ذلك ، فلما جاءهم على فاقة فوقع منهم موقعاً عظيماً .

(٥٠) ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ فانظر إلى آثار رحمة الله ﴾ يعني المطر ﴿ كيف يحيي الأرض بعد موتها ﴾ ثم نبه بذلك على إحياء الأجساد بعد موتها وتفرقها وتمزقها فقال تعالى ﴿ إن ذلك لمحيي الموتى ﴾ أي إن الذي فعل ذلك لقادر على إحياء الأموات ﴿ إنه على كل شيء قدير ﴾ .

(٥١) ﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾

﴿ ولئن أرسلنا ريحاً ﴾ يابسة على الزرع الذي زرعوه ، ونبت وشب ، واستوى على سوقه ، ﴿ فرأوه مصفراً ﴾ أي قد اصفر ، وشرع في الفساد ﴿ لظلوا من بعده ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ يكفرون ﴾ أي يجحدون ما تقدم إليهم من النعم .

(٥٢) ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾

يقول تعالى : كما أنك ليس في قدرتك أن تسمع الأموات في أجداثها ، ولا تبلغ كلامك الصم الذين لا يسمعون ، وهم مع ذلك مدبرون عنك ، كذلك لا تقدر على هداية العميان عن الحق ، وردهم عن الضلالة ، بل ذلك إلى الله ، فإنه تعالى بقدرته يسمع الأموات أصوات الأحياء إذا شاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه ، ولهذا قال تعالى :

(٥٣) ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

﴿ إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ أي خاضعون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتبعونه ، وهذا حال المؤمنين ، والأول مثل الكافرين ، كما قال تعالى ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ على توهيم عبدالله بن عمر في روايته مخاطبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر بعد ثلاثة أيام ومعاتبته إياهم ، وتقريعه لهم حتى قال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من قوم قد جيفوا ؟ فقال : « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكن لا يجيبون » وتأولته عائشة على أنه قال : « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق » والصحيح عند العلماء رواية عبدالله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة .

(٥٤) ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴾

ينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال ، فأصله من تراب ، ثم من

نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يصير عظاماً ، ثم تكسى العظام لحماً ، وينفخ فيه الروح ، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى ، ثم يشب قليلاً قليلاً ، حتى يكون صغيراً ، ثم حدثاً ، ثم مراهقاً ، ثم شاباً ، وهو القوة بعد الضعف ، ثم يشرع في النقص فيكتهل ، ثم يشيخ ، ثم يهرم وهو الضعف بعد القوة ، فتضعف الهمة والحركة والبطش ، وتشيب اللحة ، وتتغير الصفات الظاهرة والباطنة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء ﴾ أي يفعل ما يشاء ، ويتصرف في عبيده بما يريد ﴿ وهو العليم القدير ﴾ .

(٥٥) ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾

يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم ينظروا حتى يعذروا إليهم ، قال تعالى ﴿ كذلك كانوا يؤفكون ﴾ .

(٥٦) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا ، فيقولون لهم حين يحلفون : ما لبثوا غير ساعة ﴿ لقد لبثتم في كتاب الله ﴾ أي كتاب الأعمال ﴿ إلى يوم البعث ﴾ أي يوم خلقتم إلى أن بعثتم ﴿ ولكنكم كنتم لا تعلمون ﴾.

(٥٧) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

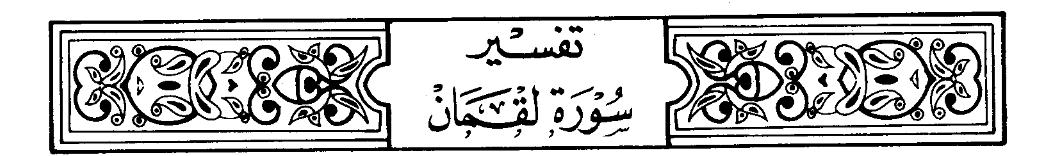
﴿ فيومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ﴾ أي اعتذارهم عما فعلوا ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي ولا هم يرجعون إلى الدنيا كما قال تعالى ﴿ وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين ﴾ .

(٥٨) ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي قد بينا لهم الحق ، ووضحناه لهم ، وضربنا لهم فيه الأمثال ليستبينوا الحق ويتبعوه ﴿ ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون ﴾ أي لو رأوا أي آية كانت ، سواء كانت باقتراحهم أو غيره لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل ، كما قالوا في انشقاق القمر ونحوه ، كما قال تعالى ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ ولذلك قال ههنا :

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ أي اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فإن الله تعالى منجز لك ما وعدك من نصره إياك عليهم ، وجعله العاقبة لك ، ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ أي بل اثبت على ما بعثك الله به ، فإنه الحق الذي لا مرية فيه ، ولا تبدل عنه ، وليس فيما سواه هدى يتبع ، بل الحق كله منحصر فيه .



تفسير سورة لقمان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ ﴿٥﴾

تقدم في أول سورة البقرة الكلام على حروف الهجاء في أوائل السور .

هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة المفروضة بحدودها وأوقاتها وما يتبعها من نوافل راتبة ، وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى مستحقيها ، ووصلوا أرحامهم وقراباتهم ، وأيقنوا بالجزاء في

الدار الآخرة فرغبوا في ثواب ذلك ، لم يراءوا به ولا أرادوا جزاء من الناس ولا شكوراً ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال الله فيهم ﴿ أولئك على هدى من ربهم ﴾ أي على بصيرة وبينة ، ومنهج واضح جلي ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

(٦) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه ، كما قال تعالى ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله ﴾ قال : هو الغناء ، والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . أو لهو الحديث هو الشرك ، أو هو كل كلام يصد عن آيات الله ، واتباع سبيله ، واختاره ابن جرير . وقوله ﴿ ليضل عن سبيل الله ﴾ أي إنما يصنع ذلك للتخالف للإسلام وأهله ﴿ ويتخذها هزواً ﴾ ويتخذ سبيل الله هزواً يستهزىء بها ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي كما استهانوا بآيات الله وسبيله أهينوا يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر .

(٧) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً ﴾ أي هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولى عنها وأعرض وأدبر وتصامم ، وما به من صمم كأنه ما سمعها ، لأنه يتأذى بسماعها إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أي يوم القيامة يؤلمه ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

(٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ (٨) خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٩)

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء في الدار الآخرة الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ،

وعملوا الأعمال الصالحة التابعة لشريعة الله ﴿ لهم جنات النعيم ﴾ أي يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمراكب والنساء والنضرة والسماع الذي لم يخطر ببال أحد ، وهم في ذلك مقيمون دائماً ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً . ﴿ وعد الله حقاً ﴾ أي هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ، لأنه الكريم المنان الفعال لما يشاء ، القادر على كل شيء ﴿ وهو العزيز ﴾ الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ وقوله ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ .

(١٠) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾

بين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض وما فيهما وما بينهما فقال تعالى ﴿ خلق السموات بغير عمد ﴾ أي ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية ، وقيل : لها عمد لا ترونها ﴿ وألقى في الأرض رواسي ﴾ يعني الجبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ، ولهذا قال ﴿ أن تميد بكم ﴾ أي لئلا تميد بكم ﴿ وبث فيها من كل دابة ﴾ أي وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها . ولما قرر سبحانه أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله ﴿ وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴾ أي من كل زوج من النبات كريم ، أي حسن المنظر .

(١١) ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ هذا خلق الله ﴾ أي هذا الذي ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما صادر عن فعل الله وخلقه وتقديره وحده لا شريك له في ذلك ، ولهذا قال تعالى ﴿ فأروني ماذا خلق الذين من دونه ﴾ أي مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بل الظالمون ﴾ يعني المشركين بالله ، العابدين معه غيره ﴿ في ضلال ﴾ أي جهل وعمى ﴿ مبين ﴾ أي واضح ظاهر لا خفاء به .

(١٢) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾

اختلف المفسرون في لقمان : هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني ، وعن ابن عباس : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً ، وقيل : كان قصيراً أفطس الأنف من النبوة ، وقيل : كان من سواد مصر ، ذا مشافر ، أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة ﴿ الحكمة ﴾ الفقه والفهم والعلم والتعبير ﴿ أن اشكر لله ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عز وجل على ما آتاه ومنحه ووهبه من الفضل الذي خصصه به عمن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه ﴿ ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى ﴿ ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون ﴾ وقوله ﴿ ومن كفر فإن الله غني حميد ﴾ أي غني عن العباد لا يتضرر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغني عما سواه ، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه .

(١٣) ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده ، وقد ذكره الله بأحسن الذكر ، وأنه آتاه الحكمة ، وهو يوصي ولده الذي هو أشفق الناس عليه ، وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ، ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ، ولا يشرك به شيئاً ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ أي هو أعظم الظلم .

(١٤) ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ وكثيراً ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن ﴿ وهناً على وهن ﴾ مشقة وهن الولد ، أو جهداً على جهد ﴿ وفصاله في عامين ﴾ أي تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين ﴿ أن اشكر لي ولوالديك إليَّ المصير ﴾ أي فإني سأجازيك على ذلك أوفر الجزاء .

(١٥) ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما ﴾ أي إن حرصا عليك كل الحرص على أن تتابعهما على دينهما فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا معروفاً ، أي محسناً إليهما ﴿ واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾ يعني المؤمنين ﴿ ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ روى الطبراني أن سعد بن أبي وقاص قال : أنزلت في هذه الآية ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي . . . ﴾ قال : كنت رجلاً براً بأمي ، فلما أسلمت ، قالت : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا ، أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي ، فيقال : يا قاتل أمه ، فقلت : لا تفعلي يا أمه ، فإني لا أدع ديني هذا الشيء ، فمكثت يوماً وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا الشيء ، فإن شئت فكلي وإن شئت لا تأكلي . فأكلت .

(١٦) ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله سبحانه عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها فقال ﴿ يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل ﴾ أي إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة خردل ﴿ يأت بها الله ﴾ أي أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط ، وجازى عليها إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، كما قال تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾ ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء ، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السموات والأرض فإن الله يأتي بها ، لأنه لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ولهذا قال ﴿ إن الله لطيف خبير ﴾ أي لطيف العلم ، فلا تخفى عليه الأشياء وإن دقت ولطفت وتضاءلت ﴿ خبير ﴾ بدبيب النمل في الليل البهيم .

(١٧) ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

﴿ يا بني أقم الصلاة ﴾ أي بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ وأمر بالمعروف وانه عن

المنكر ﴾ أي بحسب طاقتك وجهدك . ﴿ واصبر على ما أصابك ﴾ علم أن الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى فأمر بالصبر . ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ أي إن الصبر على أذى الناس لمن عزم الأمور .

(١٨) ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ يقول : لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم ، واستكباراً عليهم ، ولكن ألن جانبك ، وابسط وجهك إليهم ، كما جاء في الحديث « ولو أن تلقى أخاك ، ووجهك إليه منبسط ، وإياك وإسبال الازار ، فإنها من المخيلة ، والمخيلة لا يحبها الله » .

(١٩) ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾

﴿ واقصد في مشيك ﴾ أي امش مقتصداً شيئاً ليس بالبطيء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، بل عدلاً وسطاً بين بين ﴿ واغضض من صوتك ﴾ أي لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه ، ولهذا قال ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ إن أقبح الأصوات لصوت الحمير ، أي غاية من يرفع صوته أن يشبه بالحمير في علوه ورفعه ، ومع هذا هو بغيض إلى الله . وهذا التشبيه يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم لأن رسول الله ﷺ قال : « ليس لنا مثل السوء ، العائد في هبته كالكلب يقيء ، ثم يعود في قيئه » روى النسائي عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً » وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه .

(٢٠) ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار ، وثلج وبرد ، وجعله إياها سقفاً محفوظاً ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار ، وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ،

أي في توحيده وإرساله الرسل ، ومجادلته في ذلك بغير علم ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح ، ولهذا قال تعالى ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ أي مبين مضيء .

(٢١) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

﴿ وإذا قيل لهم ﴾ أي لهؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ اتبعوا ما أنزل الله ﴾ أي على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾ أي لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين ، قال الله تعالى ﴿ أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾ أي فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة ، وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ، ولهذا قال تعالى ﴿ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ .

(٢٢) ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن أسلم وجهه لله ، أي أخلص له العمل ، وانقاد لأمره ، واتبع شرعه ، ولهذا قال ﴿ وهو محسن ﴾ أي في عمله باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾ أي فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنه لا يعذبه ﴿ وإلى الله عاقبة الأمور ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴾ أي لا تحزن عليهم يا محمد في كفرهم بالله ، وبما جئت به ، فإن قدر الله نافذ فيهم ، وإلى الله مرجعهم فينبئهم بما عملوا ، أي فيجزيهم عليه ﴿ إن الله عليم بذات الصدور ﴾ فلا تخفى عليه خافية .

(٢٤) ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ﴾ أي في الدنيا ﴿ ثم نضطرهم ﴾ أي نلجئهم ﴿ إلى عذاب غليظ ﴾ أي فظيع صعب مشق على النفوس كما قال تعالى ﴿ إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به أنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله ﴾ أي إذ قامت عليكم الحجة باعترافكم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

(٢٦) ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

﴿ لله ما في السموات والأرض ﴾ أي هو خلقه وملكه ﴿ إن الله هو الغني الحميد ﴾ أي الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه الحميد في جميع ما خلق ، له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود في الأمور كلها .

(٢٧) ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلا ، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع للبشر على كنهها وإحصائها ، كما قال سيد البشر ، وخاتم الرسل « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى ﴿ ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ، وأمده سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفد ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مداداً ، وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر . ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ أي عزيز قد عز كل شيء وقهره وعليه فلا مانع لما أراد ، ولا مخالف ولا معقب لحكمه ، حكيم في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه .

(٢٨) ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾

﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ أي ما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة ، الجميع هين عليه ﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً

أن يقول له كن فيكون ﴾ ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ﴿ إن الله سميع بصير ﴾ أي كما هو سميع لأقوالهم ، بصير بأفعالهم ، كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة ، كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة ، ولهذا قال تعالى ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة . . . ﴾ .

(٢٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أنه ﴿ يولج الليل في النهار ﴾ يعني يأخذ منه في النهار ، فيطول ذاك ، ويقصر هذا ، وهذا يكون زمن الصيف ، يطول النهار إلى الغاية ، ثم يشرع في النقص ، فيطول الليل ويقصر النهار ، وهذا يكون في الشتاء ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري إلى أجل مسمى ﴾ قيل : إلى غاية محدودة ، وقيل : إلى يوم القيامة ، وكلا المعنيين صحيح . ﴿ وأن الله بما تعملون خبير ﴾ كقوله ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴾ ومعنى هذا أنه تعالى الخالق العالم بجميع الأشياء .

(٣٠) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

﴿ ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴾ أي إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أي الموجود الحق الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ، فإنه الغني عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، لأن كل ما في السموات والأرض ، الجميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم تحريك ذرة إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك . ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ أي العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، فكل خاضع حقير بالنسبة إليه .

(٣١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري فيه الفلك بأمره ، أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوة يحمل بها السفن لما جرت ، ولهذا قال ﴿ ليريكم من

آياته ﴾ أي من قدرته ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي صبار في الضراء ، شكور في الرخاء .

(٣٢) ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

﴿ وإذا غشيهم موج كالظلل ﴾ أي كالجبال والغمام ﴿دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ ﴿ فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد ﴾ قال مجاهد : أي كافر ، كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ﴿ وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ فالختار هو الغدار ، وهو الذي كلما عاهد نقض عهده ، والختر أتم الغدر وأبلغه ﴿ كفور ﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

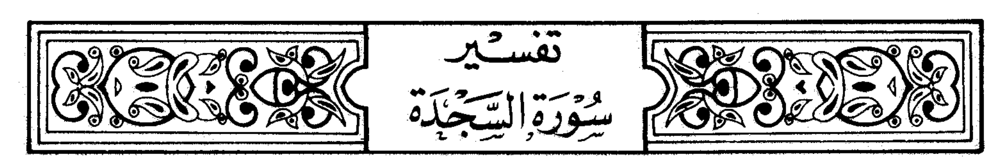
(٣٣) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾

يقول تعالى منذراً للناس يوم المعاد ، وآمراً لهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لا يجزي والد عن ولده ﴾ أي لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه ، وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه . ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أي لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ يعني الشيطان ، فإنه يغر ابن آدم ويعده ويمنيه ، وليس من ذلك شيء ، بل كان كما قال تعالى ﴿ يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ .

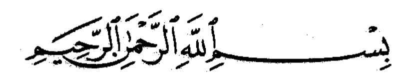
(٣٤) ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى ، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ومن

شاء الله من خلقه ، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك ، وهذه شبيهة بقوله تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب ، روى الإمام أحمد عن أبي بريدة يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ » هذا حديث صحيح الإسناد . عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : من حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب ، ثم قرأت ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وينزل الغيث ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ليلاً أو نهاراً ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام : أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو؟ ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ أخيراً أم شراً ، ولا تدري يا ابن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غداً ، لعلك المصاب غداً ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ أي ليس أحد من الناس يعرف أين مضجعه من الأرض : أفي بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟ وقد جاء في الحديث « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » .



روى البخاري في كتاب الجمعة عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ الم تنزيل ﴾ السجدة ، و﴿ هل أتى على الإنسان ﴾ ورواه مسلم أيضاً . وروى الإمام أحمد عن جابر قال : كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ الم تنزيل ﴾ السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك . تفرد به أحمد .



﴿ الم ﴾ (١)

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ تنزيل الكتاب لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ولا مرية أنه منزل ﴿ من رب العالمين ﴾ .

(٣) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن المشركين ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ بل يقولون افتراه ، أي اختلقه من تلقاء نفسه ﴿ بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ﴾ أي يتبعون الحق .

(٤) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق للأشياء ، فخلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش . ﴿ ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ أي بل هو المالك لأزمة الأمور ، الخالق لكل شيء ، المدبر لكل شيء ، القادر على كل شيء فلا ولي لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿ أفلا تتذكرون ﴾ يعني أيها العابدون غيره ، المتوكلون على من عداه ، تعالى وتقدس ، وتنزه أن يكون له نظير ، أو شريك ، أو وزير ، أو نديد ، أو عديل ، لا إله إلا هو ، ولا رب سواه .

(٥) ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

﴿ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴾ أي يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى تخوم الأرض السابقة ، كما قال تعالى ﴿ الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ﴾ وترفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا . ﴿ في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ .

(٦) ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة ﴾ أي المدبر لهذه الأمور الذي هو شهيد على أعمال عباده ،

يرفع إليه جليلها وحقيرها ، وصغيرها وكبيرها ، هو العزيز الذي قد عزّ كل شيء ، فقهره وغلبه ، ودانت له العباد والرقاب ، الرحيم بعباده المؤمنين ، فهو عزيز في رحمته ، رحيم في عزته ، وهذا هو الكمال ، العزة مع الرحمة ، والرحمة مع العزة ، فهو رحيم بلا ذل .

(٧) ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه الذي أحسن خلق الأشياء وأتقنها وأحكمها . ثم لما ذكر تعالى خلق السموات والأرض شرع في ذكر خلق الإنسان فقال تعالى ﴿ وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين .

(٨) ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾

﴿ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ أي يتناسلون كذلك من نطفة تخرج من بين صلب الرجل ، وترائب المرأة .

(٩) ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ ثم سواه ﴾ يعني ادم لما خلقه من تراب خلقه سوياً مستقيماً ﴿ ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ يعني العقول ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل ، فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل .

(١٠) ﴿ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في استبعادهم المعاد حيث قالوا ﴿ أئذا ضللنا في الأرض ﴾ أي تمزقت أجسامنا وتفرقت في أجزاء الأرض وذهبت ﴿ أئنا لفي خلق جديد ﴾ أي أئنا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنما هو بعيد بالنسبة إلى قدرهم العاجزة ، لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون ، ولهذا قال ﴿ بل هم بلقاء ربهم كافرون ﴾ .

(١١) ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ﴾ الظاهر من هذه الآية أن ملك الموت شخص معين من الملائكة ، وقد سمي في بعض الآثار بعزرائيل ، وهو المشهور ، قاله قتادة وغير واحد ، وله أعوان ، وهكذا ورد في الحديث أن أعوانه ينتزعون الأرواح من

سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الحلقوم تناولها ملك الموت . ﴿ ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي يوم معادكم ، وقيامكم من قبوركم لجزائكم .

(١٢) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾

يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث ، وقاموا بين يدي الله عز وجل حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم ، أي من الحياء والخجل يقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا ﴾ أي نحن الآن نسمع قولك ، ونطيع أمرك كما قال تعالى ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم ﴿ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ وهكذا هؤلاء يقولون ﴿ ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا ﴾ أي إلى دار الدنيا ﴿ نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ أي قد أيقنا ، وتحققنا فيها أن وعدك حق ، ولقاءك حق ، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفاراً يكذبون بآيات الله ، ويخالفون رسله كما قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

(١٣) ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

وقال ههنا ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً ﴾ ﴿ ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين ﴾ أي من الصنفين ، فدارهم النار لا محيد لهم عنها ، ولا محيص لهم منها . نعوذ بالله وكلماته التامة من ذلك .

(١٤) ﴿ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ إنا نسيناكم ﴾ أي سنعاملكم معاملة الناسي ، لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ، ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة ، كما قال تعالى ﴿ فاليوم ننساكم كما

نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴾ أي بسبب كفركم وتكذيبكم .

(١٥) ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴾

يقول تعالى ﴿ إنما يؤمن بآياتنا ﴾ أي إنما يصدق بها ﴿ الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً ﴾ أي استمعوا لها ، وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿ وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴾ أي عن اتباعها والانقياد لها ، كما يفعله الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال تعالى ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ .

(١٦) ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴾ يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم ، والاضطجاع على الفرش الوطيئة ﴿ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ أي خوفاً من وبال عقابه ، وطمعاً في جزيل ثوابه ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية .

(١٧) ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴾ أي فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم ، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد . لما أخفوا أعمالهم كذلك أخفى الله لهم من الثواب ، جزاء وفاقاً ، فإن الجزاء من جنس العمل .

(١٨) ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾

﴿ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي صدقت قلوبهم بآيات الله وعملوا بمقتضاها ، ﴿ أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون ﴾ أي عند الله يوم القيامة .

(١٩) ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

وهي الصالحات ﴿ فلهم جنات المأوى ﴾ أي التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ نزلاً ﴾ أي ضيافة وكرامة ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ .

(٢٠) ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾

﴿ وأما الذين فسقوا ﴾ أي خرجوا عن الطاعة فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم ، والملائكة تقمعهم . ﴿ وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

(٢١) ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ﴾ يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحل بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه ، أو العذاب الأدنى السنون المجدبة ، أو هو القتل والسبي يوم بدر .

(٢٢) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾

﴿ ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴾ أي لا أظلم ممن ذكره الله بآياته وبينها له ووضحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها وتناساها كأنه لا يعرفها . ولهذا قال تعالى متهدداً لمن فعل ذلك ﴿ إنا من المجرمين منتقمون ﴾ أي سأنتقم ممن فعل ذلك أشد الانتقام .

(٢٣) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه آتاه الكتاب ، وهو التوراة ، وقوله تعالى ﴿ فلا تكن في مرية من لقائه ﴾ قال قتادة : يعني به ليلة الاسراء ، روى ابن أبي حاتم قال : قال رسول الله :« أريت ليلة اسريَ بي موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوأة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن النار والدجال » في آيات أراهنَّ الله إياه . ﴿ وجعلناه هدى لبني اسرائيل ﴾ عن ابن عباس ، جعل موسى هدى لبني اسرائيل . أو وجعلنا الكتاب الذي آتيناه إياه هدى لبني إسرائيل .

(٢٤) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾

﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ أي لما كانوا صابرين على أوامر الله ، وترك زواجره ، وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن

المنكر ، ثم لما بدلوا وحرفوا وأولوا سلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاداً صحيحاً ، ولهذا قال ﴿ ولقد آتينا بني اسرائيل الكتاب ﴾ أي لما صبروا عن الدنيا . ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يقتدى به حتى يتحامى عن الدنيا .

(٢٥) ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي من الاعتقادات والأعمال .

(٢٦) ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

يقول تعالى : أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية بتكذيبهم الرسل ، ومخالفتهم إياهم فيما جاؤوهم به من قويم السبل فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر ﴿ هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ ولهذا قال ﴿ يمشون في مساكنهم ﴾ أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها ذهبوا منها ﴿ كأن لم يغنوا فيها ﴾ كما قال تعالى ﴿ فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ إن في ذلك لآيات ﴾ أي إن في ذهاب أولئك القوم ودمارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل ، ونجاة من آمن بهم لآيات وعبراً ومواعظ ، ودلائل متناظرة ﴿ أفلا يسمعون ﴾ أي أخبار من تقدم كيف كان أمرهم .

(٢٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ﴾ يبين تعالى لطفه بخلقه ، وإحسانه اليهم في إرساله الماء ، إما من السماء أو من السيح ، وهو ما تحمله الأنهار ، ويتحدر من الجبال إلى الأراضي المحتاجة إليه في أوقاته ، ولهذا قال ﴿ إلى الأرض الجرز ﴾ وهي التي لا نبات فيها ، كما قال تعالى ﴿ وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً ﴾ أي يبساً لا تنبت شيئاً .

(٢٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن استعجال الكفار ووقوع بأس الله بهم ، وحلول غضبه ونقمته عليهم استبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿ ويقولون متى هذا الفتح ﴾ أي متى تنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تدال علينا ، وينتقم لك منا ، فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين .

(٢٩) ﴿ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَـٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾

قال تعالى ﴿ قل يوم الفتح ﴾ أي إذا حل بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والأخرى ﴿ لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ كما قال تعالى ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأفحش ، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء ، وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل اسلامهم لقوله تعالى ﴿ قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل ، كقوله ﴿ فافتح بيني وبينهم فتحاً ﴾ .

(٣٠) ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾

﴿ فأعرض عنهم وانتظر إنهم ينتظرون ﴾ أي أعرض عن هؤلاء المشركين ، وبلغ ما أنزل إليك من ربك ، كقوله ﴿ اتبع ما أوحي اليك من ربك لا إلّه إلا هو ﴾ ﴿ وانتظر ﴾ فإن الله سينجز لك ما وعدك وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد . وقوله ﴿ إنهم منتظرون﴾ أي أنت منتظروهم منتظرون ، ويتربصون بكم الدوائر ﴿أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون﴾ وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم ، وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك وسيجدون غب ما ينتظرونه فيك ، وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .



تفسير سورة الأحزاب



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى ، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى ، وقد قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله مخافة عذاب الله . ﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أي فهو أحق أن تتبع أوامره ، وتطيعه ، فإنه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله .

(٢) ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

ولهذا قال ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك ﴾ أي من قرآن وسنة ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية .

(٣) ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾

﴿ وتوكل على الله ﴾ أي في جميع أمورك وأحوالك ﴿ وكفى بالله وكيلاً ﴾ أي وكفى به وكيلاً لمن توكل عليه وأناب اليه .

(٤) ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾

يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المعنوي أمراً معروفاً حسياً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت علي كظهر امي ، أماً له ، كذلك لا يصير الدعي ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له ، فقال ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ﴾ كقوله عز وجل ﴿ ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما جعل

أدعياءكم أبناءكم ﴾ هذا هو المقصود بالنفي ، فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوة ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الالحاق وهذه النسبة بقوله ﴿ وما جعل أدعياءكم أبناءكم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ وقال ههنا ﴿ ذلكم قولكم بأفواهكم ﴾ يعني تبنيكم لهم قول ، لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً ، فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان . ﴿ والله يقول الحق ﴾ أي العدل ﴿ وهو يهدي السبيل ﴾ أي الصراط المستقيم . وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له : ذو القلبين ، وأنه كان يزعم أن له قلبين كل منهما بعقل وافر ، فأنزل الله هذه الآية رداً عليه .

(٥) ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الاسلام من جواز ادعاء الأبناء الأجانب ، وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى برد نسبهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر . ﴿ فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم ﴾ أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضاً عما فاتهم من النسب ﴿ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ﴾ أي إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ بعد الاجتهاد ، واستفراغ الوسع ، فإن الله تعالى قد وضع الحرج في الخطأ ، ورفع إثمه ، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى ﴿ ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ وثبت في صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : قال الله عز وجل : قد فعلت » . وفي الحديث « إن الله رفع عن أمتي الخطأ والنسيان والأمر الذي يكرهون عليه » . ﴿ ولكن ما تعمدت قلوبكم ﴾ أي وإنما الاثم على من تعمد الباطل .

(٦) ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾

قد علم الله شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم كان مقدماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ وفي الصحيح « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وما له وولده والناس أجمعين » وفي الصحيح أيضاً أن عمر قال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال ﷺ : « لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك ، فقال : يا رسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء حتى من نفسي ، فقال ﷺ : « الآن يا عمر » ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ أي في الحرمة والاحترام والتوقير والاكرام والاعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالاجماع ﴿ وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ﴾ أي في حكم الله ﴿ من المؤمنين والمهاجرين ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم فقد كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه للأخوة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ . ﴿ إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً ﴾ أي ذهب الميراث ، وبقي النصر والبر والصلة والاحسان والوصية ﴿ كان ذلك في الكتاب مسطوراً ﴾ أي هذا الحكم ، وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض حكم من الله مقدر مكتوب في الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير .

(٧) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة ، وبقية الأنبياء أنه أخذ عليهم العهود والميثاق في اقامة دين الله تعالى وابلاغ رسالته والتعاون والتناصر والاتفاق . ونص من بينهم على هؤلاء الخمسة ، وهم أولوا العزم ، وهو باب عطف الخاص على العام ، وقد صرح بذكرهم في هذه الآية ، وفي قوله تعالى ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ « كنت أول النبيين في الخلق ، وآخرهم في البعث ، فبدأ بي قبلهم » .

(٨) ﴿ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

﴿ ليسأل الصادقين عن صدقهم ﴾ المبلغين المؤدين عن الرسل ﴿ وأعد للكافرين ﴾ أي

من أممهم ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي موجعاً ، فنحن نشهد أن الرسل قد بلغوا رسالات ربهم ، ونصحوا الأمم ، وأفصحوا لهم عن الحق المبين الواضح الجلي الذي لا لبس فيه ولا شك ولا امتراء ، وإن كذبهم من كذبهم من الجهلة المعاندين والمارقين والقاسطين فما جاءت به الرسل هو الحق ، ومن خالفهم فهو على الضلال .

(٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نعمته وفضله وإحسانه إلى عباده المؤمنين في صرفه أعداءهم ، وهزمه إياهم عام تألبوا عليهم ، وتحزبوا ، وذلك في عام الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة على الصحيح المشهور . ﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً ﴾ قال مجاهد : هي الصبا ، ويؤيده الحديث « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » ﴿ وجنوداً لم تروها ﴾ هم الملائكة زلزلتهم ، وألقت في قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يا بني فلان إلي فيجتمعون إليه ، فيقول : النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب .

(١٠) ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾

﴿ إذ جاؤكم من فوقكم ﴾ أي الأحزاب ﴿ ومن أسفل منكم ﴾ هم بنو قريظة ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ أي من شدة الخوف والفزع ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك ، أو ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون . فكانت الظنون مختلفة .

(١١) ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن ذلك الحال حين نزلت الأحزاب حول المدينة ، والمسلمون محصورون في غاية الجهد والضيق ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم أنهم ابتلوا واختبروا وزلزلوا زلزالاً شديداً فحينئذٍ ظهر النفاق ، وتكلم الذين في قلوبهم مرض بما في أنفسهم .

(١٢) ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

أما المنافق فنجم نفاقه ، والذي في قلبه شبهة أو حسكة ضعف حاله ، فتنفس بما يجده من الوسواس في نفسه لضعف ايمانه ، وشدة ما هو فيه من ضيق الحال .

(١٣) ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾

وقوم آخرون قالوا كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب ﴾ يعني المدينة ﴿ لا مقام لكم ﴾ أي ههنا ، يعنون عند النبي ﷺ في مقام المرابطة ﴿ فارجعوا ﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم ﴿ ويستأذن فريق منهم النبي ﴾ هم بنو حارثة ، قالوا : بيوتنا نخاف عليها السراق ، أو القائل لذلك هو أوس بن قيظي ، يعني اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، أي ليس دونها ما يحجبها من العدو ، فهم يخشون عليها منهم قال تعالى ﴿ وما هي بعورة ﴾ أي ليست كما يزعمون ﴿ إن يريدون إلا فراراً ﴾ أي هرباً من الزحف .

(١٤) ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن هؤلاء الذين ﴿ يقولون إن بيوتنا عورة ﴾ أنهم لو دخل عليهم الأعداء من كل جانب من جوانب المدينة وقطر من أقطارها ، ثم سئلوا الفتنة ، وهي الدخول في الكفر لكفروا سريعاً ، وهم لا يحافظون على الايمان ، ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع ، وهذا ذم لهم في غاية الذم .

(١٥) ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾

ثم قال تعالى يذكرهم بما كانوا عاهدوا الله من قبل من هذا الخوف من ذلك أن لا يولوا الأدبار ، ولا يفروا من الزحف ﴿ وكان عهد الله مسؤولاً ﴾ أي وإن الله سيسألهم عن ذلك العهد لا بد من ذلك .

(١٦) ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ثم أخبرهم أن فرارهم ذلك لا يؤخر آجالهم ، ولا يطول أعمارهم ، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرة ولهذا قال تعالى ﴿ وإذاً لا تمتعون إلا قليلاً ﴾ أي بعد هربكم

وفراركم . ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ﴾ .

(١٧) ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

ثم قال تعالى ﴿ قل من ذا الذي يعصمكم من الله ﴾ أي يمنعكم منه ﴿ إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً ﴾ أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث .

(١٨) ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بالمعوقين لغيرهم عن شهود الحرب ، والقائلين لاخوانهم أي أصحابهم وعشرائهم وخلطائهم ﴿ هلم الينا ﴾ أي إلى ما نحن فيه من الاقامة في الظلال والثمار ، ﴿ و ﴾ هم مع ذلك ﴿ لا يأتون البأس إلا قليلاً ﴾ .

(١٩) ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ أشحة عليكم ﴾ أي بخلاء بالمودة والشفقة عليكم ، أو أشحاء في الغنائم ﴿ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت ﴾ أي من شدة خوفه وجزعه ، وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد ﴾ أي فإذا كان الأمن تكلموا كلاماً بليغاً عالياً فصيحاً ، وادعوا لأنفسهم المقامات العالية في الشجاعة والنجدة ، وهم يكذبون في ذلك . أو ﴿ سلقوكم ﴾ استقبلوكم ، قال قتادة : أما عند الغنيمة فأشح قوم ، وأسوؤه مقاسمة ، أعطونا أعطونا ، قد شهدنا معكم ، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذ له للحق ، وهم مع ذلك أشحة على الخير ، أي ليس فيهم خير ، قد جمعوا الجبن والكذب وقلة الخير . ﴿ أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ .

(٢٠) ﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف ﴿ يحسبون الأحزاب لم يذهبوا ﴾ بل هم قريب منهم وإن لهم عودة إليهم ﴿ وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ﴾ أي ويودون إذا جاءت الأحزاب أنهم لا يكونون حاضرين معكم في المدينة ، بل في البادية يسألون عن أخباركم ، وما كان من أمركم مع عدوكم ﴿ ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً ﴾ أي ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جبنهم ، وذلتهم ، وضعف يقينهم ، والله سبحانه وتعالى العالم بهم .

(٢١) ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾

هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسّي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ، ومرابطته ومجاهدته ، وانتظاره الفرج من ربه عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، ولهذا قال تعالى للذين تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ أي هلا اقتديتم به ، وتأسيتم بشمائله ﷺ ، ولهذا قال تعالى ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

(٢٢) ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن عباده المؤمنين المصدقين بموعود الله لهم ، وجعله العاقبة حاصلة لهم في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾ يعنون قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾ أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب ، ولهذا قال تعالى ﴿ وصدق الله ورسوله ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ دليل على زيادة الإيمان وقوته بالنسبة إلى الناس وأحوالهم ، كما قال جمهور الأئمة : إنه يزيد وينقص . ﴿ وما زادهم ﴾ أي ذلك الحال والضيق والشدة ﴿ إلا إيماناً ﴾ بالله ﴿ وتسليماً ﴾ أي انقياداً لأوامره ، وطاعة لرسوله ﷺ .

(٢٣) ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ

وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

لما ذكر عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق فقال ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ﴾ أجله ، أو عهده ﴿ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ﴾ أي وما غيروا عهد الله ولا نقضوه ولا بدلوه أو ﴿ فمنهم من قضى نحبه ﴾ يعني موته على الصدق والوفاء ، ومنهم من ينتظر الموت على مثل ذلك ، ومنهم من لم يبدل تبديلاً .

(٢٤) ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم ﴾ أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا ما يعلمه منهم ، كما قال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ فهذا علم بالشيء بعد كونه ، وإن كان العلم السابق حاصلاً به قبل وجوده ، ولهذا قال تعالى ﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ﴾ أي بصبرهم على ما عاهدوا الله عليه ، وقيامهم به ، ومحافظتهم عليه ﴿ ويعذب المنافقين ﴾ وهم الناقضون لعهد الله ، المخالفون لأوامره ، فاستحقوا بذلك عقابه وعذابه ، ولكن هم تحت مشيئته في الدنيا ، إن شاء استمر بهم على ما فعلوا حتى يلقوه فيعذبهم عليه ، وإن شاء تاب عليهم بأن أرشدهم إلى النزوع عن النفاق إلى الإيمان والعمل الصالح بعد الفسوق والعصيان . ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى بخلقه هي الغالبة لغضبه قال ﴿ إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأحزاب لما أجلاهم عن المدينة بما أرسل عليهم من الريح والجنود الإلهية ، ولولا أن الله جعل رسوله رحمة للعالمين لكانت هذه الريح عليهم أشد من الريح العقيم التي أرسلها على عاد ، ولكن قال تعالى : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ﴾ فسلط عليهم هواءً فرق شملهم ، كما كان سبب اجتماعهم من الهوى ، وهم أخلاط من قبائل شتى ، أحزاب وآراء ، فناسب أن يرسل عليهم الهواء الذي فرق

جماعتهم وردهم خائبين خاسرين بغيظهم وحنقهم لم ينالوا خيراً ، لا في الدنيا مما كان في أنفسهم من الظفر والمغنم ، ولا في الآخرة بما تحملوه من الآثام في مباراة الرسول ﷺ بالعداوة ، وهمهم بقتله ، واستئصال جيشه ، ومن هم بشيء وصدق بفعله فهو في الحقيقة كفاعله . وقوله تعالى ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ أي لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب . اللهم اهزمهم وزلزلهم » وفي قوله تعالى ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون في بلادهم ، وفي الحديث « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزوهم » ﴿ وكان الله قوياً عزيزاً ﴾ أي بحوله وقوته ردهم خائبين لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الإسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة .

(٢٦) ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم ﴾ أي عاونوا الأحزاب ، وساعدوهم على حرب رسول الله ﷺ ﴿ من أهل الكتاب ﴾ يعني بني قريظة من اليهود ﴿ من صياصيهم ﴾ يعني حصونهم ﴿ الرعب ﴾ الخوف ﴿ فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الصغار والنساء .

(٢٧) ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

﴿ وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ وأرضاً لم تطأوها ﴾ قيل : خيبر ، وقيل : مكة ، أو هما

(٢٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢٩)

في البخاري أن عائشة جاءها رسول الله حين أمره الله أن يخبر أزواجه قالت : فبدأ بي

فقال ﴿ إني ذاكر لك أمراً ، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك » وقد علم أن أبويّ لم يكونا يأمراني بفراقه ، قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ إلى تمام الآيتين ، فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبويّ ؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة » .

﴿ فتعالين أمتعكن وأسرحكن . . . ﴾ أي أعطيكن حقوقكن ، وأطلق سراحكن .

(٣٠) ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

﴿ بفاحشة مبينة ﴾ هي النشوز وسوء الخلق ، وعلى كل تقدير هو شرط ، والشرط لا يقتضي الوقوع ، كقوله ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ ﴿ يضاعف لها العذاب ضعفين ﴾ في الدنيا والآخرة . ﴿ يسيراً ﴾ أي سهلاً هيناً .

(٣١) ﴿ * وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾

﴿ ومن يقنت منكن لله ورسوله ﴾ أي تطع الله ورسوله وتستجب ﴿ نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴾ أي في الجنة ، في منازل رسول الله ﷺ في أعلى عليين فوق منازل جميع الخلائق في الوسيلة التي هي أقرب منازل الجنة إلى العرش .

(٣٢) ﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

هذه آداب أمر الله تعالى بها نساء النبي ﷺ ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك ، فقال تعالى مخاطباً لنساء النبي ﷺ بأنهن إذا اتقين الله عز وجل كما أمرهن ، فإنه لا يشبههن أحد من النساء ، ولا يلحقهن في الفضيلة والمنزلة ﴿ فلا تخضعن بالقول ﴾ يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال ، ولهذا قال تعالى ﴿ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴾ أي دغل ﴿ وقلن قولاً معروفاً ﴾ قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير ، ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أي لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها .

(٣٣) ﴿ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾

﴿ وقرن في بيوتكن ﴾ أي الزمن بيوتكن ، فلا تخرجن لغير حاجة ، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليخرجن وهن تفلات » وفي رواية « وبيوتهن خير لهن » روى البزار وأبو داود عن النبي ﷺ قال : « صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها » وهذا إسناد جيد . وقوله تعالى ﴿ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ قال مجاهد : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال فذلك تبرج الجاهلية . وقال قتادة : إذا خرجتن من بيوتكن وكانت لهن مشية وتكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك . وقال مقاتل بن حيان : والتبرج أنها تلقي الخمار على رأسها ولا تشده فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ، ويبدو ذلك منها ، وذلك التبرج . ﴿ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ﴾ نهاهن أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير من إقامة الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهي الإحسان إلى المخلوقين . ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً ﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا لأنهن سبب نزول هذه الآية . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان يمر بباب فاطمة رضي الله عنها ستة أشهر إذا خرج إلى صلاة الفجر يقول : « الصلاة يا أهل البيت ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » .

(٣٤) ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾

﴿ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴾ أي واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة ، فاشكرن الله تعالى على ذلك واحمدنه ﴿ إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴾ أي ذا لطف بكن إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة ، وهي السنة ، خبيراً بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً .

(٣٥) ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول : قلت للنبي ﷺ : ما لنا لا نذكر في

القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر قالت : وأنا أسرح شعري ، ثم خرجت إلى حجرتي حجرة بيتي فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر : « يا أيها الناس ، إن الله تعالى يقول ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ﴾ » إلى آخر الآية . وذكر الإسلام والإيمان دليل على أن الإيمان غير الإسلام ﴿ والقانتين والقانتات ﴾ القنوت هو الطاعة في سكون ﴿ والصادقين والصادقات ﴾ هذا في الأقوال ، فإن الصدق خصلة محمودة ، وهو علامة على الإيمان ، كما أن الكذب أمارة على النفاق ، ومن صدق نجا ﴿ والصابرين والصابرات ﴾ هذه سجية الاثبات ، وهي الصبر على المصائب ، والعلم بأن المقدر كائن لا محالة . ﴿ والخاشعين والخاشعات ﴾ الخشوع السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار والتواضع ، والحامل عليه الخوف من الله ومراقبته كما في الحديث « أعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » ﴿ والمتصدقين والمتصدقات ﴾ الصدقة هي الإحسان إلى الناس المحاويج الضعفاء الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، يعطون من فضول الأموال طاعة لله وإحساناً إلى خلقه ، وفي الحديث « والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » ﴿ والصائمين والصائمات ﴾ وفي الحديث : « والصوم زكاة البدن » أي يزكيه ويطهره وينقيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ﴿ والحافظين فروجهم والحافظات ﴾ أي عن المحارم والمآثم ﴿ والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ﴾ روى ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » وقد رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه ﴿ أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ خبر عن هؤلاء المذكورين كلهم ، أي الله قد هيأ لهم مغفرة منه لذنوبهم ، وأجراً عظيماً ، وهو الجنة .

(٣٦) ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ﴾ انطلق رسول الله ﷺ ليخطب لفتاه زيد بن حارثة ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها ، فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » قالت : يا رسول الله أؤامر في نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية ، قالت : قد رضيته يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » قالت : إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ ، قد أنكحته نفسي . ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله . . . ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس

لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأي ولا قول . وفي الحديث « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

﴿٣٧﴾ ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نبيه ﷺ أنه قال لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وهو الذي أنعم الله عليه بالإسلام ، ومتابعة الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿ وأنعمت عليه ﴾ أي بالعتق من الرق ، وكان سيداً كبير الشأن ، جليل القدر ، حبيباً إلى النبي ﷺ ، يقال له : الحِب ، ويقال لابنه أسامة : الحِب بن الحِب . قالت عائشة : ما بعثه رسول الله في سرية إلا أمره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه . وكان رسول الله ﷺ قد زوجه بابنة عمته زينب بنت جحش فمكثت عنده قريباً من سنة ، ثم وقع بينهما فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ ، فجعل رسول الله ﷺ يقول : « أمسك عليك زوجك واتق الله » قال تعالى ﴿ وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه ﴾ فقد أعلم الله نبيه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد ليشكوها إليه قال : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فقال : قد أخبرتك أني مزوجكها ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه . ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها ﴾ الوطر هو الحاجة والارب ، أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، بمعنى أن الله أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر ﴿ لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً ﴾ أي إنما أبحنا لك تزويجها لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنى زيد بن حارثة ، فكان يقال له : زيد بن محمد . ﴿ وكان أمر الله مفعولاً ﴾ أي وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدره الله تعالى وحتمه ، وهو كائن لا محالة ، كانت زينب رضي الله عنها في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ .

﴿٣٨﴾ ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

﴿ ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له ﴾ أي فيما أحل له ، وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيه زيد بن حارثة رضي الله عنه . وقوله تعالى ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج ﴿ وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ، ولا معدل ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

(٣٩) ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴾

يمدح تبارك وتعالى ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ﴾ أي إلى خلقه ، ويؤدونها بأمانة ﴿ ويخشونه ﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله تعالى ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي وكفى بالله ناصراً ومعيناً . وسيد الناس في هذا المقام ، بل وفي كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة وإبلاغها إلى أهل المشرق والمغرب ، إلى جميع أنواع بني آدم ، وأظهر الله كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع ، فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ ثم ورث مقام البلاغ عنه أمته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم ، بلغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله في ليله ونهاره وحضره وسفره ، وسره وعلانيته ، فرضي الله عنهم وأرضاهم ، ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فبنورهم يقتدي المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفقون ، فنسأل الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمر الله فيه مقال ، ثم لا يقوله ، فيقول الله : ما يمنعك أن تقول منه ؟ فيقول : رب خشيت الناس ، فيقول : فأنا أحق أن يخشى » رواه ابن ماجه .

(٤٠) ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴾

﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ نهى أن يقال بعد هذا : زيد بن محمد ، أي لم يكن أباه ، وإن يكن قد تبناه ، فإنه ﷺ لم يعش له ولد ذكر حتى بلغ الحلم . ﴿ ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ كقوله ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ فهذه الآية نص من الله أنه

لا نبي بعده ، وإن كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بطريق الأولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ ، روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها ، وترك موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بكثرة ذكرهم لربهم تبارك وتعالى : المنعم عليهم بأنواع النعم ، وصنوف المنن ، لما لهم في ذلك من جزيل الثواب ، وجميل المآب . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : وما هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ذكر الله عز وجل . ﴿ وسبحوه بكرة وأصيلاً ﴾ عند الصباح والمساء » .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿ هو الذي يصلي عليكم وملائكته ﴾ هذا تهييج إلى الذكر ، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم ، كقوله ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾ ، وفي الحديث « يقول الله تعالى : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » والصلاة من الله ثناؤه على العبد عند الملائكة ، أو هي الرحمة منه تعالى ، ومن الملائكة الدعاء للناس والاستغفار ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي بسبب رحمته بكم وثنائه عليكم ودعاء ملائكته لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى واليقين ﴿ وكان بالمؤمنين رحيماً ﴾ أي في الدنيا والآخرة .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ شاهداً ﴾ أي لله بالوحدانية ﴿ ومبشراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين بجزيل الثواب ﴿ ونذيراً ﴾

أي للكافرين من وبيل العقاب .

(٤٦) ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾

﴿ وداعياً إلى الله بإذنه ﴾ أي داعياً للخلق إلى عبادة الله عن أمره لك بذلك ﴿ وسراجاً منيراً ﴾ أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند .

(٤٧) ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ (٤٨)

﴿ ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ أي لا تطعهم وتسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ ودع أذاهم ﴾ أي اصفح وتجاوز عنهم ، وكل أمرهم إلى الله تعالى ، فإنه فيه كفاية لهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

(٤٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾

هذه الآية فيها أحكام كثيرة ، منها اطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها . وقوله تعالى ﴿ المؤمنات ﴾ خرج مخرج الغالب ، إذ لا فرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق وقد استدل الكثير بقوله ﴿ إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن ﴾ على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدمه نكاح ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد ، وذهب مالك وأبو حنيفة إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه . وإذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، فعند أبي حنيفة تطلق كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام ، وعند مالك لا تطلق ، لأنه لم يعينها . وحجة الشافعي وأحمد والجمهور هذه الآية ، وقوله ﷺ « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » وقوله « لا طلاق قبل نكاح » وقوله عز وجل ﴿ فما لكم عليهن من عدة تعتدونها ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدة عليها فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها فإنها تعتد منه أربعة أشهر

وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً . وقوله ﴿ فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً ﴾ المتعة هنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها ، قال تعالى ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم ﴾ وقال ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها ، فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين . قال علي بن أبي طلحة : إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقاً أمتعها على قدر عسره ويسره ، وهو السراح الجميل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٥٠)

يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن ، وهن الأجور ههنا . ﴿ وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك ﴾ أي وأباح لك التسري مما أخذت من المغانم ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما ، وملك ريحانة بنت شمعون ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم ، وكانتا من السراري رضي الله عنهما ﴿ وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ﴾ هذا عدل وسط بين الافراط والتفريط ، فإن النصارى لا يتزوجون المرأة إلا إذا كان بينها وبين الرجل سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه ، وبنت أخته وقوله ﴿ اللاتي هاجرن معك ﴾ إلى المدينة ، أو أسلمن . وقوله ﴿ وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك . روى الإمام أحمد أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله ، هل لك فيّ حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها ، فقال : « هي خير منك ، رغبت في النبي فعرضت عليه نفسها » انفرد بإخراجه

البخاري . واللاتي وهبن أنفسهن للنبي كثير منهن خولة بنت حكيم وكانت امرأة صالحة . وعن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله امرأة وهبت نفسها له ، أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً له ، ومخصوصاً به لأنه مردود إلى مشيئته ﴿ إن أراد النبي أن يستنكحها ﴾ أي إن اختار ذلك . ﴿ خالصة لك من دون المؤمنين ﴾ أي لا تحل الموهوبة لغيرك . ولو أن امرأة وهبت نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها . والموت والدخول سواء في تقرير مهر المثل . وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ فأما هو ﷺ فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ، ولو دخل بها لأن له أن يتزوجها بغير صداق ولا ولي ولا شهود وكما في قصة زينب رضي الله عنها . ﴿ قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم ﴾ أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر ما شاؤوا من الاماء ، واشتراط الولي والمهر والشهود ، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه ﴿ لكيلا يكون عليك حرج ﴾ .

﴿ * تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (٥١)

روى الإمام أحمد أن عائشة رضي الله عنها كانت تغير من النساء اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ ، قالت : ألا تستحي المرأة أن تعرض نفسها بغير صداق ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ﴾ فقالت : إني أرى ربك يسارع لك في هواك . ورواه البخاري ، فدل هذا على أن المراد بقوله ﴿ ترجي ﴾ أي تؤخر ﴿ من تشاء منهن ﴾ أي من الواهبات ﴿ وتؤوي إليك من تشاء ﴾ أي من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ، ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك إن شئت عدت فيها فأويتها ، ولهذا قال : ﴿ ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴾ قال عامر الشعبي : في قوله تعالى ﴿ ترجي من تشاء منهن . . . ﴾ : كن نساء وهبن أنفسهن للنبي ﷺ فدخل ببعضهن ، وأرجأ بعضهن لم ينكحن بعده ، منهن أم شريك . قلت : وقوله هذا مخالف لقول ابن عباس المتقدم قريباً من أن النبي ﷺ لم يدخل بواحدة من اللاتي وهبن أنفسهن . وقال آخرون : بل المراد بقوله ﴿ ترجي من تشاء منهن . . . ﴾ أي من أزواجك ، فلا حرج عليك أن تترك القسم لهن فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتجامع من شئت ، وتترك من شئت ، ومع ذلك كان النبي ﷺ يقسم لهن ، ولهذا ذهب

طائفة من الفقهاء الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ ، واحتجوا بهذه الآية . واختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات ، وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم . وهذا الذي اختاره جيد قوي ، وفيه جمع بين الأحاديث ، ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن ﴾ أي إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فإن شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أي ذلك فعلت ؟ ثم مع هذا إن تقسم لهن اختياراً منك ، لا أنه على سبيل الوجوب فرحن بذلك واستبشرن به ، وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك فيهن . وقوله ﴿ والله يعلم ما في قلوبكم ﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، فقد كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه فيعدل ، ثم يقول « اللهم هذا فعلي فيما أملك ، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » رواه الإمام وأهل السنن الأربعة ﴿ وكان الله عليماً ﴾ أي بضمائر السرائر ﴿ حليماً ﴾ أي يحلم ويغفر .

(٥٢) ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء ، إلا ذات المحرم ، فجعلت هذه الآية ﴿ترجي من تشاء منهن ﴾ ناسخة للتي بعدها في التلاوة . ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ﴾ فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن، واستبدال غيرها بها إلا ما ملكت يمينه . عن أبي هريرة : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل بادلني امرأتك ، وأبادلك امرأتي ، أي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله ﴿ ولا أن تبدل بهن من أزواج . . . ﴾ قال : فدخل عيينة بن حصن على النبي ﷺ ، وعنده عائشة ، فدخل بغير إذن فقال له رسول الله : « فأين الاستئذان ؟ » فقال : يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت ، ثم قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هذه عائشة أم المؤمنين » فقال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ قال : « يا عيينة إن الله قد حرم ذلك » فلما أن خرج قالت عائشة : من هذا ؟ قال : « هذا أحمق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيد قومه » .

(٥٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ

وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ۖ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾

هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، ﴿ لا تدخلوا بيوت النبي ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون ﴿ إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ﴾ غير متحينين نضجه ، واستواءه ﴿ ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ﴾ وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً كان أو غيره » ﴿ ولا مستأنسين لحديث ﴾ أي كما وقع لأولئك النفر الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث ونسوا أنفسهم حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى ﴿ إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم ﴾ ولهذا قال ﴿ والله لا يستحيي من الحق ﴾ ولهذا نهاكم عن ذلك وزجركم عنه . ثم قال ﴿ وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ﴾ أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهم كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب ﴿ ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ﴾ أي هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب . وقوله ﴿ وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾ نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده ، قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك . واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته ، هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين .

(٥٤) ﴿ إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

أي مهما تكنه ضمائركم وتنطوي عليه سرائركم فإن الله يعلمه ، فإنه لا تخفى عليه خافية ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ .

(٥٥) ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾

لما أمر تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب بين أن هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة النور ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن . . . ﴾ وقد سأل بعض السلف : لم لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما . ولكن كرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها . وقوله ﴿ ولا نسائهن ﴾ يعني بذلك عدم الاحتجاب من النساء المؤمنات . وقوله تعالى ﴿ وما ملكت أيمانهن ﴾ يعني به أرقاءهن من الذكور والاناث ﴿ واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً ﴾ أي واخشينه في الخلوة والعلانية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ، فراقبن الرقيب .

﴿٥٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء ، أو : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار . عن عطاء بن رباح قال : صلاته تبارك وتعالى سبوح قدوس ، سبقت رحمتي غضبي . والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين ، وأن الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً . روى الإمام أحمد ، قلنا يا رسول الله : قد علمنا كيف السلام عليك ، فكيف الصلاة ؟ قال : « قولوا اللهم صل على محمد ، وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد » . وهذا الحديث قد أخرجه الجماعة في كتبهم . قال النووي : إذا صلى على النبي ﷺ فليجمع بين الصلاة والتسليم ، ولا يقتصر على أحدهما ، وهذا الذي قاله منتزع من هذه الآية الكريمة .

﴿٥٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

يقول الله تعالى متهدداً ومتوعداً من آذاه بمخالفته أوامره وارتكاب زواجره ، وإصراره على ذلك ، وإيذاء رسوله بعيب أو بنقص ـ عياذاً بالله من ذلك ـ نزلت هذه الآية في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزوجه صفية بنت حيي ، والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ﴾ أي ينسبون إليهم ما هم برآء منه لم يعملوه ولم يفعلوه . ﴿ فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ﴾ وهذا هو البهت الكبير أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الذين يعيبوا الصحابة بما قد برأهم الله منه وينتقصونهم بما قد برأهم الله منه ، فإن الله قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم .

(٥٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات وخاصة أزواجه وبناته لشرفهن ـ بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية ، وسمات الإماء ، والجلباب هو الرداء فوق الخمار ﴿ يدنين عليهن من جلابيبهن ﴾ عن ابن عباس أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ويبدين عيناً واحدة ﴿ ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ﴾ أي إذا فعلن ذلك عرفن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر .

(٦٠) ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ثم قال تعالى متوعداً للمنافقين ، وهم الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ﴿ والذين في قلوبهم مرض ﴾ قال عكرمة وغيره : وهم الزناة ههنا ﴿ والمرجفون في المدينة ﴾ يعني الذين يقولون : جاء الأعداء ، وجاءت الحروب ، وهو كذب وافتراء ، لئن لم ينتهوا عن ذلك ﴿ لنغرينك بهم ﴾ أي لنسلطنك عليهم ﴿ ثم لا يجاورونك فيها ﴾ أي في المدينة ﴿ إلا قليلاً ﴾ .

(٦١) ﴿ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴾

﴿ ملعونين ﴾ حال منهم في مدة إقامتهم في المدينة مدة قريبة مطرودين مبعدين ﴿ أينما ثقفوا ﴾ أي وجدوا ﴿ أخذوا ﴾ لذلتهم وقلتهم ﴿ وقتلوا تقتيلاً ﴾ .

(٦٢) ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ﴾ أي هذه سنته في المنافقين إذا تمردوا على نفاقهم وكفرهم ، ولم يرجعوا عما هم فيه أن أهل الإيمان يسلطون عليهم ويقهرونهم ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي وسنة الله في ذلك ، لا تبدل ولا تغير .

(٦٣) ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

يقول تعالى مخبراً لرسوله صلوات الله وسلامه عليه أنه لا علم له بالساعة ، وإن سأل الناس عن ذلك ، وأرشده أن يرد علمها إلى الله عز وجل ﴿ وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً ﴾ كما قال تعالى ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

(٦٤) ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾

﴿ إن الله لعن الكافرين ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم سعيراً ﴾ أي في الدار الآخرة .

(٦٥) ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين مستمرين ، فلا خروج لهم منها ، ولا زوال لهم عنها ﴿ لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ أي وليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه .

(٦٦) ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ﴾

﴿ يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ﴾ أي يسحبون في النار على وجوههم ، وتلوى وجوههم على جهنم يتمنون أنه لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول ، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ﴾ وقال ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾ .

(٦٧) ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾

﴿ وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ قال طاووس : سادتنا يعني الأشراف ، وكبراءنا يعني العلماء ، أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة وخالفنا الرسل ، واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شيء ، فإذا هم ليسوا على شيء .

(٦٨) ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾

﴿ ربنا آتهم ضعفين من العذاب ﴾ أي بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿ والعنهم لعناً كبيراً ﴾ .

(٦٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾

روى البخاري عن رسول الله ﷺ قال : « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً ، لا يرى من جلده شيء استحياء منه فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا الستر إلا من عيب في جلده ، إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرأه مما قالوا لموسى عليه السلام فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه : ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين . . . ﴾ وهذا الحديث من إفراد البخاري دون مسلم . ﴿ وكان عند الله وجيهاً ﴾ أي له وجاهة وجاه عند ربه عز وجل . قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة . وقال غيره من السلف : لم يسأل شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء عز وجل .

(٧٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه ، وأن يقولوا ﴿ قولاً سديداً ﴾ أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه .

(٧١) ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

بأن يصلح لهم أعمالهم ، أي يوفقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية ، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ وذلك أن يجار من نار الجحيم ، ويصير إلى النعيم المقيم .

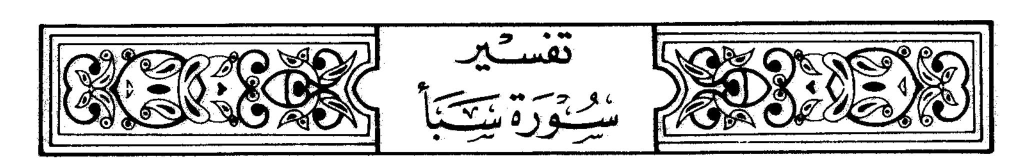
(٧٢) ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

عن ابن عباس الأمانة هي الطاعة عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب ، وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت ، وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها ، فذلك قوله تعالى ﴿ وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا ، حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة » .

(٧٣) ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

﴿ ليعذب الله المنافقين والمنافقات ﴾ أي إنما حمل بني آدم الأمانة ، وهي التكاليف ليعذب الله المنافقين منهم والمنافقات ، وهم الذين يظهرون الإيمان خوفاً من أهله ، ويبطنون الكفر متابعة لأهله ﴿ والمشركين والمشركات ﴾ وهم الذين ظاهرهم وباطنهم على الشرك بالله ومخالفة رسله ﴿ ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي وليرحم المؤمنين من الخلق الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله العاملين بطاعته ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنه له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك ، كما قال تعالى ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون ﴾ ولهذا قال الله تعالى ههنا ﴿ الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع ملكه وعبيده ، وتحت تصرفه ، وتحت تصرفه ، وقهره كما قال

تعالى ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وله الحمد في الآخرة ﴾ فهو المعبود أبداً ، المحمود على طول المدى . ﴿ وهو الحكيم ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ﴿ الخبير ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء .

(٢) ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾

﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ﴾ أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ أي من قطر ورزق ، وما يعرج فيها ، أي من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وهو الرحيم الغفور ﴾ أي الرحيم بعباده ، فلا يعاجل عصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن ذنوب التائبين إليه ، المتوكلين عليه .

(٣) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس عليه السلام ﴿ ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ والثانية هذه ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ والثالثة في سورة التغابن ، وهي قوله تعالى ﴿ زعم الذين كفروا ألن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ، ثم لتنبئن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ وقوله ﴿ عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ لا يعزب عنه : لا يغيب عنه ، أي الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه شيء .

(٤) ﴿ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

ثم بين حكمته في إعادة الأبدان ، وقيام الساعة بقوله ﴿ ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ .

(٥) ﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

﴿ والذين سعوا في آياتنا معاجزين ﴾ أي سعوا في الصد عن سبيل الله تعالى ، وتكذيب

رسله ﴿ أولئك لهم عذاب من رجز أليم ﴾ أي لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين . كما قال تعالى ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ .

(٦) ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾

﴿ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ﴾ هذه حكمة أخرى معطوفة على التي قبلها ، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد عِلموه من كتب الله تعالى في الدنيا رأوه حينئذٍ عين اليقين ، ويقولون يومئذٍ أيضاً ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ وقوله ﴿ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد ﴾ العزيز هو المنيع الجناب الذي لا يغالب ، ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء وغلبه ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وهو المحمود في ذلك كله جل وعلا .

(٧) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة واستهزاءهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق ﴾ أي تفرقت أجسادكم في الأرض ، وذهبت فيها كل مذهب ، وتمزقت كل ممزق ﴿ إنكم ﴾ أي بعد هذا الحال ﴿ لفي خلق جديد ﴾ أي تعودون أحياء ، ترزقون بعد ذلك . وهو في هذا الاخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله تعالى أنه قد أوحي إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد ، لكن لبس عليه كما يلبس على المعتوه والمجنون ، ولهذا قال :

(٨) ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾

﴿ أفترى على الله كذباً أم به جنة ﴾ قال الله عز وجل رداً عليهم ﴿ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ في

العذاب ﴾ أي الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى ﴿ والضلال البعيد ﴾ من الحق في الدنيا .

(٩) ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

ثم قال تعالى منبهاً لهم على قدرته في خلق السموات والأرض ، فقال تعالى ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أي حيثما توجهوا وذهبوا ، فالسماء مطلة عليهم ، والأرض تحتهم ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء ﴾ أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك بظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا . ثم قال ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ تائب ، أو المقبل إلى الله تعالى ، أي إن في النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجاع إلى الله على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ، ووقوع المعاد لأن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها ، وأطوالها وأعراضها ، أنه القادر على إعادة الأجسام ، ونشر الرميم من العظام .

(١٠) ﴿ ۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوي العدد والعُدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل فوقف واستمع لقراءته ثم قال : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود » وقال أبو عثمان النهدي : ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري . ﴿ أوبي ﴾ سبحي ﴿ وألنا له الحديد ﴾ كان لا يحتاج أن يدخله ناراً ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط .

(١١) ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ ۖ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ أن اعمل سابغات ﴾ وهي الدروع ، وهو أول من عملها من الخلق ،

وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿ وقدر في السَّرد﴾ هذا إرشاد لنبيه داود عليه السلام في تعليمه صنعة الدروع ، قال مجاهد في قوله ﴿ وقدر في السَّرد﴾ لا تدق المسمار فيعلق في الحلقة ، ولا تغلظه ، فيقصمها ، واجعله بقدر ﴿ واعملوا صالحاً ﴾ أي في الذي أعطاكم الله من النعم ﴿ إني بما تعملون بصير ﴾ أي مراقب لكم ، بصير بأعمالكم ، وأقوالكم ، لا يخفى علي من ذلك شيء .

(١٢) ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود وعطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بساطه له غدوها شهر ورواحها شهر ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ النحاس ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ أي وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن من ربه أي بقدره وتسخيره لهم بمشيئته على ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا ﴾ أي ومن يعدل منهم ويخرج عن الطاعة ﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ وهو الحريق .

(١٣) ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾

﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ أما المحاريب فهي البناء الحسن ، وهو أشرف شيء في المسكن وصدره ، وقال الضحاك : هي المساجد . وأما التماثيل فهي الصور ، وكانت من نحاس ، أو من طين ، وزجاج ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ الجواب جمع جابية ، وهي الحوض الذي يجيء فيه الماء . والقدور الراسيات ، أي الثوابت في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمها ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ أي وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا . قال أبو عبدالرحمن السلمي : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر ، وأفضل الشكر الحمد . وقد كان آل داود عليهم السلام قائمين بشكر الله قولاً وعملاً . عن ثابت البناني قال : كان داود عليه أفضل السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة ، فكان لا تأتي عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي ، فغمرتهم هذه الآية ﴿ اعملوا آل داود . . . ﴾ وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال : « إن أحب

الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود ، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى » وعن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان ، يا بني لا تكثر النوم بالليل ، فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة » . قال فضيل في قوله تعالى ﴿ اعملوا آل داود شكراً ﴾ قال داود : يا رب ، كيف أشكرك والشكر نعمة منك ؟ قال : « الآن شكرتني علمت أن النعمة مني » وقوله تعالى ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ إخبار عن الواقع .

(١٤) ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمى الله موته على الجان المسخرين له في الأعمال الشاقة ، فإنه مكث متوكأ على عصاه ، وهي منسأته مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض ، وهي الأرضة ضعفت وسقط إلى الأرض وعُلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبينت الجن والإنس أيضاً أن الجن لا يعلمون الغيب كما كانوا يتوهمون ، ويوهمون الناس ذلك .

(١٥) ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر . ﴿ لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ﴾ ثم فسرها بقوله عز وجل ﴿ جنتان عن يمين وشمال ﴾ أي من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾ أي غفور لكم إن استمررتم على التوحيد .

(١٦) ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن

سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ فأعرضوا ﴾ أي عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله ، كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ ﴿ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴾ المراد بالعرم المياه ، وقيل : الوادي ﴿ وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط ﴾ هو الأراك ﴿ وأثل ﴾ هو الطرفاء ، أو هو شجر يشبه الطرفاء ، وقيل : هو السمر . وقوله ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ لما كان أجود هذه الأشجار المبدل بها هو السدر قال ﴿ وشيء من سدر قليل ﴾ فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة ، والأنهار الجارية تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم ، وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الباطل ، ولهذا قال ﴿ ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور ﴾ أي عاقبناهم بكفرهم .

﴿١٨﴾ ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهني الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثماراً ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها ﴾ قيل : هي قرى صنعاء ، أو هي قرى الشام ، أي أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ﴿ قرى ظاهرة ﴾ أي بينة واضحة يعرفها المسافرون ، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى ولهذا قال تعالى ﴿ وقدرنا فيها السير ﴾ أي جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿ سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً .

﴿١٩﴾ ﴿ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾

﴿ فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم ﴾ وذلك أنهم بطروا النعمة ، وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل ، والسير في الحرور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها مع أنهم كانوا في عيش رغيد في من وسلوى ، وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة . ﴿ فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ﴾ أي جعلناهم حديثا للناس ، وسمراً يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والالفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد ههنا وههنا ، ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبا ، وأيادي سبا ، وتفرقوا شذر مذر . ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ أي إن في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة ، وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم .

(٢٠) ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتباع الهوى والشيطان أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع ابليس والهوى وخالف الرشاد والهدى فقال ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾ قال ابن عباس هذه الآية كقوله ﴿ أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴾ وكقوله ﴿ ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

(٢١) ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾

﴿ وما كان له عليهم من سلطان ﴾ أي من حجة . قال الحسن البصري : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شيء ، وما كان إلا غروراً وأماني دعاهم إليها فأجابوه ﴿ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك ﴾ أي إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء فيحسن عبادة الله عز وجل في الدنيا ممن هو منها في شك . ﴿ وربك على كل شيء حفيظ ﴾ أي ومع حفظه ضل من ضل من اتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سلم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

(٢٢) ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾

﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله ﴾ من الآلهة التي عبدتموها من دونه ﴿ وما لهم فيهما من شرك ﴾ أي لا يملكون شيئاً استقلالاً ، ولا على سبيل الشركة ﴿ وما له منهم من ظهير ﴾ أي وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به في الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه .

(٢٣) ﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾

﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ أي لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق ﴾ وهذا أيضاً مقام رفيع في العظمة ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحي فسمع أهل السموات كلامه أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشي وقيل ﴿ حتى إذا فزع عن قلوبهم ﴾ أي زال الفزع عنها ، أو خلى عن قلوبهم ﴿ قالوا الحق ﴾ أي أخبروا بما قالوا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وهو العلي الكبير ﴾ .

(٢٤) ﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مقرراً تفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية أيضاً ، فكما كانوا يعترفون بأنهم لا يرزقهم من السماء والأرض أي بما ينزل من المطر ، وينبت من الزرع إلا الله فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره . وقوله تعالى ﴿وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ هذا من باب اللف والنشر ، أي واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ، ونحن على الهدى ، أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على ما أنتم عليه من الشرك بالله تعالى .

(٢٥) ﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون ﴾ معناه التبري منهم ، أي لستم منا ، ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده ، وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن برآء منكم ، وأنتم برآء منا .

(٣٦) ﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾

﴿ قل يجمع بيننا ربنا ﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ ثم يفتح بيننا بالحق ﴾ أي يحكم بيننا بالعدل ، فيجزي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وستعلمون يومئذٍ لمن العزة والنصرة ، والسعادة الأبدية . ﴿ وهو الفتاح العليم ﴾ أي الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور .

(٣٧) ﴿ قُلۡ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلۡحَقۡتُم بِهِۦ شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ بَلۡ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

﴿ قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ﴾ أي أروني هذه الآلهة التي جعلتموها أنداداً ، وصيرتموها له عدلاً ﴿ كلا ﴾ أي ليس له نظير ولا نديد ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال ﴿ بل هو الله ﴾ أي الواحد الأحد الذي لا شريك له ﴿ العزيز ﴾ أي ذو العزة الذي قد قهر بها كل شيء ، وغلبت كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً .

(٣٨) ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ تسليماً ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ﴾ أي إلا إلى جميع الخلائق من المكلفين ﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

(٣٩) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ وهذا إخبار من الله عن الكفار في استبعادهم قيام الساعة ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ .

(٤٠) ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾

﴿ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ أي لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزاد ولا ينقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم كما قال تعالى ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ﴾ وقال عز وجل ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ .

(٣١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾

يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد ، ولهذا قال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ قال الله تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ومخبراً عن مواقفهم الذليلة بين يديه في حال تخاصمهم وتحاجهم ﴿ يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا ﴾ وهم الأتباع ﴿ للذين استكبروا ﴾ منهم ، وهم قادتهم وسادتهم ﴿ لولا أنتم لكنا مؤمنين ﴾ أي لولا أنتم تصدونا لكنا اتبعنا الرسل ، وآمنا بما جاؤونا به .

(٣٢) ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾

فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا ﴿ أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ﴾ أي أنحن فعلنا بكم أكثر من أنا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل ، لشهوتكم واختياركم لذلك ، ولهذا قالوا ﴿ بل كنتم مجرمين ﴾ .

(٣٣) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار ﴾ أي بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً وتغرونا وتمنونا وتخبرونا أنا على هدى ، وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب مبين ﴿ إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً ﴾ أي نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شبهاً وأشياء من المحال تضلونا بها ﴿ وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ﴾ أي الجميع من السادة والأتباع كل ندم على ما سلف منه ﴿ وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا ﴾ وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ أي

إنما نجزيكم بأعمالكم ، كل بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ .

(٣٤) ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ ، وآمراً له بالتأسي بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه بعث نبياً في قرية إلا كذبه مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال نوح عليه الصلاة والسلام ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ وقال جل وعلا ههنا ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير ﴾ أي نبي أو رسول ﴿ إلا قال مترفوها ﴾ وهم أولوا النعمة والحشمة والثروة والرياسة . قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر ﴿ إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي لا نؤمن به ولا نتبعه .

(٣٥) ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦)

﴿ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴾ أي افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم ، واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ، ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك ، قال الله تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ .

ولهذا قال عز وجل ﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ، ويغني من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة القاطعة الدامغة ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ .

(٣٧) ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾

﴿ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى ﴾ أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لا ينظر إلى

صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه مسلم وابن ماجه .
﴿ إلا من آمن وعمل صالحاً ﴾ أي إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ﴿ فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ وهم في الغرفات آمنون ﴾ أي في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يحذر منه . روى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال: « إن في الجنة لغرفاً ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال ﷺ : « لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » .

﴿٣٨﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

﴿ والذين يسعون في آياتنا معاجزين ﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله ، واتباع رسله ، والتصديق بآياته ﴿ فأولئك في العذاب محضرون ﴾ أي جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

﴿٣٩﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

﴿ قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴾ أي بحسب ما له في ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيراً ، ويضيق على هذا ، ويقتر على هذا رزقه جداً ، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال ﴿ أنظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ﴾ أي كما هم متفانون في الدنيا ، هذا فقير مدقع ، وهذا غني موسع عليه فكذلك هم في الآخرة ، هذا في الغرفات في أعلى الدرجات ، وهذا في الغمرات في أسفل الدركات . وأطيب الناس في الدنيا كما قال ﷺ : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » رواه مسلم ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به ، وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت في الحديث « يقول الله تعالى : أَنفق أُنفق عليك » . وفي الحديث أن ملكين يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً . وقال رسول الله ﷺ : « أنفق بلا لا ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » .

(٤٠) ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صدرهم ليقربوهم إلى الله زلفى فيقول الملائكة ﴿ أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟

(٤١) ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾

﴿ قالوا سبحانك ﴾ أي تعاليت وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿ أنت ولينا من دونهم ﴾ أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿ بل كانوا يعبدون الجن ﴾ يعنون الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ﴿ أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ .

(٤٢) ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

﴿ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً ﴾ أي لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم ، فاليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً ﴿ ونقول للذين ظلموا ﴾ وهم المشركون ﴿ ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

(٤٣) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة ، والأليم من العذاب ، لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات ويسمعونها غضة طرية من لسان رسول الله ﷺ ﴿ قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول ، باطل . عليهم وعلى آبائهم لعائن الله تعالى ﴿ وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى ﴾ يعنون القرآن ﴿ وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴾ .

(٤٤) ﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾

﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴾ أي ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبياً قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يودون ذلك ، ويقولون : لو جاءنا نذير ، أو أنزل علينا كتاب لكنا أهدى من غيرنا ، فلما منَّ الله عليهم بذلك كذبوه وجحدوه وعاندوه .

(٤٥) ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ وكذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم ﴿ وما بلغوا معشار ما آتيناهم ﴾ أي من القوة في الدنيا كما قال تعالى ﴿ ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري لرسلي ؟

(٤٦) ﴿ * قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴾

يقول تبارك وتعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون ﴿ إنما أعظكم بواحدة ﴾ أي إنما آمركم بواحدة ، وهي ﴿ أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ﴾ أي أن تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون ، فينصح بعضكم بعضاً ﴿ ثم تتفكروا ﴾ أي ينظر الرجل لنفسه في أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر في ذلك . وقوله تعالى ﴿ إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ في البخاري أن النبي ﷺ صعد الصفا ذات يوم فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : مالك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم ، أما كنتم تصدقوني » قالوا : بلى ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب . . . ﴾ .

(٤٧) ﴿ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ ما سألتكم من أجر فهو لكم ﴾ أي لا أريد منكم جعلاً ولا عطاء على أداء رسالة الله عز وجل إليكم ، ونصحي إياكم ، وأمركم

بعبادة الله ﴿ إن أجري إلا على الله ﴾ أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿ وهو على كل شيء شهيد ﴾ أي لما لم يجمع الأمور بما أنا عليه من إخباري عنه بإرساله إياي إليكم وما أنتم عليه .

(٤٨) ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾

﴿ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب ﴾ كقوله تعالى ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ أي يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية في السموات ولا في الأرض .

(٤٩) ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾

﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ أي جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهب الباطل وزهق واضمحل ، كقوله تعالى ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعن الصنم منها بسبة قوسه ويقرأ ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ﴿ قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ رواه البخاري ومسلم .

(٥٠) ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي ۚ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

﴿ قل إن ضللت فإنما أضل على نفسي وإن اهتديت فيما يوحي إليّ ربي ﴾ أي الخير كله من عند الله ، وفيما أنزل الله عز وجل من الوحي والحق المبين ، فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ﴿ إنه سميع قريب ﴾ أي سميع لأقوال عباده قريب ، يجيب دعوة الداعي إذا دعاه . وفي الصحيحين « إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سميعاً قريباً مجيباً » .

(٥١) ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

يقول تعالى : ولو ترى يا محمد إذ فزع هؤلاء المكذبون يوم القيامة فلا فوت ، أي فلا مفر لهم ولا وزير لهم ولا ملجأ ﴿ وأخذوا من مكان قريب ﴾ أي لم يمكنوا أن يمعنوا في الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة .

(٥٢) ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾

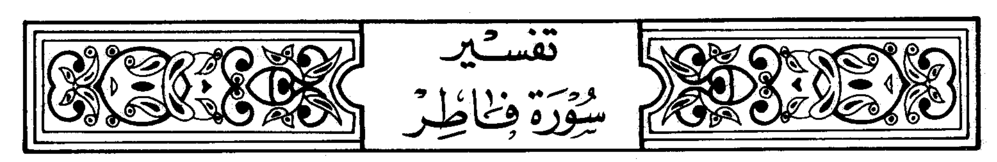
﴿ وقالوا آمنا به ﴾ أي يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله كما قال تعالى ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ وأنى لهم التناوش من مكان بعيد ﴾ أي وكيف لهم تعاطي الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم ، وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا في الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد .

(٥٣) ﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾

﴿ وقد كفروا به من قبل ﴾ أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة ، وقد كفروا بالحق في الدنيا ، وكذبوا الرسل ﴿ ويقذفون بالغيب ﴾ بالظن ، كما قال تعالى ﴿ رجماً بالغيب ﴾ فتارة يقولون : شاعر ، وتارة يقولون : كاهن ، وتارة يقولون : ساحر ، وتارة يقولون : مجنون إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والمعاد .

(٥٤) ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴾

﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل ﴿ كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ أي كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل ، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ ﴿ إنهم كانوا في شك مريب ﴾ أي كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب .



تفسير سُورَةِ فَاطِرٍ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ

﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

عن ابن عباس قال : كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها ، أي بدأتها ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي بديع السموات والأرض ، وقال الضحاك : كل شيء في القرآن ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ فهو خالق السموات والأرض . وقوله تعالى ﴿ جاعل الملائكة رسلاً ﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿ أولي أجنحة ﴾ أي يطيرون بها ليبلغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ مثنى وثلاث ورباع ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له أكثر من ذلك ، كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الاسراء وله ستمائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾ يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء ، وقيل : يزيد في حسن الصوت ، وقرىء في الشاذ ﴿ يزيد في الحلق ﴾ بالحاء المهملة .

(٢) ﴿ مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى أنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وقد روى الإمام أحمد أن المغيرة بن شعبة سمع رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : « لا إلٓه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » . وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وهذه الآية كقوله تبارك وتعالى ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم ﴾ .

(٣) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك فليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا إلٓه إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ أي فكيف تؤفكون ؟ بعد هذا

البيان ، ووضوح هذا البرهان ، وأنتم بعد هذا تعبدون الأنداد والأوثان . والله أعلم .

﴿٤﴾ ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وإن يكذبوك ﴾ أي هؤلاء المشركون بالله ، ويخالفوك يا محمد فيما جئتهم به من التوحيد فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة فإنهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات وأمروهم بالتوحيد فكذبوهم وخالفوهم ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي وسيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء .

﴿٥﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾

﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق ﴾ أي المعاد كائن لا محالة ﴿ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ﴾ أي العيشة الدنيئة بالنسبة إلى ما أعد الله لأوليائه ، وأتباع رسله من الخير العظيم ، فلا تتلهوا عن ذلك الباقي بهذه الزهرة الفانية ﴿ ولا يغرنكم بالله الغرور ﴾ وهو الشيطان ، أي لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع رسل الله وتصديق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفاك .

﴿٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾

﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة ، فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به ﴿ إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ أي إنما يقصد أن يضلكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدو المبين ، نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتابه ، والاقتفاء بطريق رسوله ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالاجابة جدير .

﴿٧﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

لما ذكر تعالى أن أتباع إبليس مصيرهم إلى السعير ذكر بعد ذلك أن الذين كفروا لهم عذاب شديد ، لأنهم أطاعوا الشيطان ، وعصوا الرحمن ، وأن الذين آمنوا بالله ورسله ﴿ وعملوا الصالحات لهم مغفرة ﴾ أي لما كان منهم من ذنب ﴿ وأجر كبير ﴾ على ما عملوه من خير .

﴿٨﴾ ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ

نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ﴾ يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة ، وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أي أفمن كان هكذا قد أضله الله ، ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بقدره كان ذلك ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ أي لا تأسف على ذلك ، فإن الله حكيم في قدره ، إنما يضل ويهدي من يهدي لما له في ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الله عليم بما يصنعون ﴾ .

(٩) ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها ﴿ اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها أنزل من تحت العرش مطراً يعم الأرض جميعاً ، وينبت الأجساد من قبورها كما تنبت الحبة في الأرض ، ولهذا جاء في الصحيح « كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب » ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك النشور ﴾ وفي حديث أبي رزين قال : قلت : يا رسول الله ، كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ قال ﷺ : « يا أبا رزين ، أما مررت بوادي قومك ممحلاً ، ثم مررت به يهتز خضراً ؟ » قلت : بلى ، قال ﷺ : « فكذلك يحيي الله الموتى » .

(١٠) ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

﴿ من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً ﴾ أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله ، فإنه يحصل له مقصوده ، لأنه تعالى مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعاً ، كما قال تعالى ﴿ أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً ﴾ وقوله ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب ﴾ يعني الذكر والتلاوة والدعاء ﴿ والعمل الصالح يرفعه ﴾ قال مجاهد : العمل الصالح يرفع الكلم الطيب ﴿ والذين يمكرون السيئات ﴾ هم المراؤون بأعمالهم ، يعني يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى ، وهم بغضاء إلى

الله عز وجل يراؤون بأعمالهم ﴿ ولا يذكرون الله إلا قليلاً ﴾ والصحيح أنها عامة والمشركون داخلون بطريق الأولى ، ولهذا قال تعالى ﴿ لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور ﴾ أي يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصائر والنهى ، فإنه ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيراً فخير وإن شراً فشر . فالمرائي لا يروج أمره ويستمر إلا على الغبي ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب . وعالم الغيب لا تخفى عليه خافية .

(١١) ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

﴿ والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ﴾ أي ابتدأ خلق أبيكم آدم من تراب ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴿ ثم جعلكم أزواجاً ﴾ أي ذكراً وأنثى لطفاً منه ورحمة لكم ، أزواجاً من جنسكم لتسكنوا إليها ﴿ وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي هو عالم بذلك لا يخفى عليه من ذلك شيء ، بل ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب ﴾ أي ما يعطي بعض النطف من العمر الطويل يعلمه ، وهو عنده في الكتاب الأول ﴿ وما ينقص من عمره ﴾ الضمير عائد على الجنس لا على العين لأن الطويل العمر في الكتاب وفي علم الله تعالى لا ينقص من عمره ، وإنما عاد الضمير على الجنس ، قال ابن جرير : وهذا كقولهم : عندي ثوب ، ونصفه ، أي ونصف ثوب آخر . وعن ابن عباس : يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا وهو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزداد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي سهل عليه ، يسير لديه علمه بذلك وبتفصيله في جميع مخلوقاته ، فإن علمه شامل للجميع ، لا يخفى عليه شيء منها .

(١٢) ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً على قدرته العظيمة في خلقه الأشياء المختلفة خلق البحرين العذب الزلال ، وهو هذه الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار بحسب الحاجة إليها في الأقاليم والأمصار ، والعمران والبراري والقفار ، وهي عذبة سائغ شرابها لمن أراد ذلك ﴿ وهذا ملح أجاج ﴾ أي ، وهو البحر الساكن الذي تسير فيه السفن الكبار ، وإنما تكون مالحة زعافاً مرة . ثم قال تعالى ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً ﴾ يعني السمك ﴿ وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾ كما قال عز وجل ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ وترى الفلك فيه مواخر ﴾ أي تمخره وتشقه بحيزومها وهو مقدمها المسنم الذي يشبه جؤجؤ الطير ، وهو صدره ، وقوله عز وجل ﴿ لتبتغوا من فضله ﴾ أي بأسفاركم بالتجارة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي تشكرون ربكم على تسخيره لكم هذا الخلق العظيم ، وهو البحر تتصرفون فيه كيف شئتم ، وتذهبون أين أردتم ولا يمتنع عليكم شيء منه ، بل بقدرته قد سخر لكم ما في السموات وما في الأرض ، الجميع من فضله ورحمته .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴾ (١٣)

وهذا أيضاً من قدرته التامة ، وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه والنهار بضيائه ، ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاء ﴿ وسخر الشمس والقمر ﴾ أي والنجوم السيارات والثوابت الناقبات بأضوائهن أجرام السموات ، الجميع يسيرون بمقدار وعلى منهاج مقنن محرر ، تقديراً من عزيز عليم ﴿ كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي الذي فعل هذا هو الرب العظيم الذي لا إله غيره ﴿ والذين تدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأنداد التي هي على صورة من تزعمون من الملائكة المقربين ﴿ ما يملكون من قطمير ﴾ القطمير : هو اللفافة التي تكون على نواة التمرة ، أي لا يملكون من السموات والأرض شيئاً ولا بمقدار هذا القطمير .

﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾ (١٤)

﴿ إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ﴾ يعني الآلهة التي تدعونها من دون الله لا تسمع

دعاءكم ، لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ ولو سمعوا ما استجابوا لكم ﴾ أي لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها ﴿ ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ أي يتبرؤ ون منكم ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة .

﴿ * يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات إليه ، وتذللها بين يديه ، فقال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ﴾ أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ، ولهذا قال عز وجل ﴿ والله هو الغني الحميد ﴾ أي هو المتفرد بالغنى وحده لا شريك له ، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله ، ويقدره ويشرعه .

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد ﴾ أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس ، وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ، ولهذا قال ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ وإن تدع مثقلة إلى حملها ﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار أو بعضه ﴿ لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى ﴾ أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كل مشغول بنفسه وحاله ﴿ إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ﴾ أي إنما يتعظ بما جئت به أولوا البصائر والنهى ، الخائفون من ربهم ، الفاعلون ما أمرهم به ﴿ ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه ﴾ أي ومن عمل صالحاً فإنما يعود نفعه على نفسه ﴿ وإلى الله المصير ﴾ أي وإليه المرجع والمآب ، وهو سريع الحساب ، وسيجزي كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ ﴿٢١﴾

يقول تعالى : كما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة كالأعمى والبصير ، لا يستويان ، بل بينهما فرق وبون كثير ، وكما لا تستوي الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، كذلك لا تستوي الأحياء ولا الأموات . وهذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمنين ، وهم الأحياء ، وللكافرين ، وهم الأموات ، كقوله تعالى ﴿ أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ﴾ فالمؤمن بصير سميع في نور عيش على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقر به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون . والكافر أعمى أصم في ظلمات يمشي لا خروج له منها ، بل هو يتيه في غيه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضي به ذلك إلى الحرور والسموم والحميم ، ﴿ وظل من يحموم لا بارد ولا كريم ﴾ .

(٢٢) ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾ (٢٣)

﴿ إن الله يسمع من يشاء ﴾ أي يهديهم إلى سماع الحجة وقبولها والانقياد لها ﴿ وما أنت بمسمع من في القبور ﴾ أي كما لا ينتفع الأموات بعد موتهم وصيرورتهم إلى قبورهم ، وهم كفار بالهداية والدعوة إليها كذلك هؤلاء المشركون الذين كتب عليهم الشقاوة ، لا حيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم . ﴿ إن أنت إلا نذير ﴾ أي إنما عليك البلاغ والإنذار ، والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء .

(٢٤) ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ أي بشيراً للمؤمنين ، ونذيراً للكافرين ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل ﴿ إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ﴾ .

(٢٥) ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾

﴿ وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات ﴾ وهي المعجزات

الباهرات ، والأدلة القاطعات . ﴿ وبالزبر ﴾ وهي الكتب ﴿ وبالكتاب المنير ﴾ أي الواضح البين .

(٣٦) ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ ثم أخذت الذين كفروا ﴾ أي ومع هذا كله كذب أولئك رسلهم فيما جاؤ وهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً .

(٣٧) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾

يقول تعالى منبهاً على كمال قدرته في خلقه الأشياء المتنوعة المختلفة من الشيء الواحد ، وهو الماء الذي ينزله من السماء ، يخرج به ثمرات مختلفاً ألوانها من أصفر وأحمر وأخضر وأبيض إلى غير ذلك من ألوان الثمار ، كما هو المشاهد من تنوع ألوانها وطعومها وروائحها ﴿ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها ﴾ أي وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان ، كما هو المشاهد أيضاً من بيض وحمر ، وفي بعضها طرائق ، وهي الجدد ، جمع جدة مختلفة الألوان أيضاً ، ومنها غرابيب سود . الغرابيب الجبال الطوال السود ، والعرب إذا وصفوا الأسود بكثرة السواد قالوا : أسود غربيب .

(٣٨) ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

﴿ ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ﴾ أي كذلك الحيوانات من الأناس والدواب ، وهو كل ما دب على القوائم ، والأنعام من باب عطف الخاص على العام ، كذلك هي مختلفة أيضاً ، فالناس منهم بربر وحبوش ، وطماطم في غاية السواد ، وصقالبة وروم في غاية البياض . والعرب بين ذلك : والهنود دون ذلك ، ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ﴾ وكذلك الدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى في الجنس الواحد ، بل النوع الواحد ، ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير الموصوف بصفات الكمال

المنعوت بالأسماء الحسنى أتم كلما كانت المعرفة به أتم وكلما كان العلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر .

(٢٩) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾

يخبر تعالى عن عباده المؤمنين الذين يتلون كتابه ، ويؤمنون به ، ويعملون بما فيه من إقام الصلاة والانفاق مما رزقهم الله تعالى في الأوقات المشروعة ليلاً ونهاراً سراً وعلانية ﴿ يرجون تجارة لن تبور ﴾ أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله .

(٣٠) ﴿ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴾

﴿ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله ﴾ أي ليوفيهم ثواب ما عملوه ، ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر لهم ﴿ إنه غفور ﴾ أي لذنوبهم ﴿ شكور ﴾ للقليل من أعمالهم .

(٣١) ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾

يقول تعالى ﴿ والذي أوحينا إليك ﴾ يا محمد من الكتاب ، وهو القرآن ﴿ هو الحق مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها ، كما شهدت له هي بالتنويه ، وأنه منزل من رب العالمين ﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾ أي هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه ، ولهذا فضل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضل النبيين بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

(٣٢) ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾

يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدق لما بين يديه من الكتب الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة ، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع فقال تعالى ﴿ فمنهم

ظالم لنفسه ﴾ وهو المفرط في فعل بعض الواجبات المرتكب لبعض المحرمات ﴿ ومنهم مقتصد ﴾ وهو المؤدي للواجبات التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات ﴿ ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ وهو الفاعل للواجبات والمستحبات التارك للمحرمات والمكروهات وبعض المباحات . وعن ابن عباس : قال هم أمة محمد ﷺ ، ورَّثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب .

﴿٣٣﴾ ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن ، أي جنات الاقامة ، يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ﴾ كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا ، فأباحه الله لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » ، وقال : « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » .

﴿٣٤﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾ وهو الخوف من المحذور ، أزاحه عنا وأراحنا مما كنا نتخوفه ونحذره من هموم الدنيا والآخرة . روى الطبراني عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل لا إلٓه إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور ، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون : ﴿ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴾ .

﴿٣٥﴾ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾

﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾ يقولون : الذي أعطانا هذه المنزلة وهذا المقام من فضله ومنِّه ورحمته لم تكن أعمالنا تساوي ذلك ، كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لن يدخل أحداً منكم عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله تعالى برحمة منه وفضل » ﴿ لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها

لغوب ﴾ أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء . والنصب واللغوب كل منهما يستعمل في التعب ، وكأن المراد بنفي هذا وهذا عنهم أنهم لا تعب على أبدانهم ولا أرواحهم . والله أعلم .

(٣٦) ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾

لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان ما للأشقياء فقال ﴿ والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ﴾ كما قال تعالى ﴿ لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار فلا يموتون فيها ولا يحييون » فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لا سبيل إلى ذلك ، قال تعالى ﴿ لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها ﴾ كما قال عز وجل ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ كذلك نجزي كل كفور ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب بالحق .

(٣٧) ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

﴿وهم يصطرخون فيها﴾ أي ينادون فيها يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم ﴿ ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ﴾ أي يسألون الرجعة إلى الدنيا ليعملوا غير عملهم الأول ، وقد علم الرب جل جلاله أنه لو ردهم إلى الدار الدنيا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ، فلهذا لا يجيبهم إلى سؤالهم ، ولذا قال ﴿ أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير ﴾ أي أوما عشتم في الدنيا أعماراً لو كنتم ممن ينتفع بالحق لانتفعتم به في مدة عمركم ﴿ وجاءكم النذير ﴾ الشيب ، والصحيح أنه رسول الله ﷺ ﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ أي فذوقوا عذاب النار جزاء على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعمالكم فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنكال والأغلال .

(٣٨) ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

يخبر تعالى بعلمه غيب السموات والأرض ، وأنه يعلم ما تكنه السرائر ، وما تنطوي عليه الضمائر ، وسيجازي كل عامل بعمله .

(٣٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾

﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ﴾ أي يخلف قوم لآخرين قبلهم ، وجيل لجيل قبلهم ﴿ ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ﴾ أي كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة بخلاف المؤمنين ، فإنهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة ، وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين .

(٤٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات ﴾ أي ليس لهم شيء من ذلك . ما يملكون من قطمير. وقوله ﴿ أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ليس الأمر كذلك ﴿ بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ أي بل إنما اتبعوا ذلك في أهوائهم وآرائهم وأمانيهم التي تمنوها لأنفسهم ، وهي غرور وباطل وزور .

(٤١) ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾

ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره ، وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال ﴿ إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ﴾ أي أن تضطربا عن أماكنهما كما قال عز وجل ﴿ ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ﴾ ﴿ ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ﴾ أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور أن يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه ، وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجل ، ويستر آخرين ويغفر ، ولهذا قال تعالى ﴿ إنه كان حليماً غفوراً ﴾ .

(٤٢) ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾

يخبر تعالى عن قريش والعرب أنهم أقسموا بالله جهد أيمانهم قبل إرسال الرسول إليهم ﴿ لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ﴾ أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل ، كقوله تعالى ﴿ أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ﴾ وكقوله ﴿ وإن كانوا ليقولون ، لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلصين ﴾ قال تعالى ﴿ فلما جاءهم نذير ﴾ وهو محمد ﷺ بما أنزل معه من الكتاب العظيم ، وهو القرآن المبين ﴿ ما زادهم إلا نفوراً ﴾ أي ما ازدادوا إلا كفراً إلى كفرهم .

(٤٣) ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

ثم بين بقوله ﴿ إستكباراً في الأرض ﴾ أي استكبروا عن اتباع آيات الله ﴿ ومكر السيىء ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله ﴿ ولا يحيق المكر السيىء إلا بأهله ﴾ أي وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . كقوله تعالى ﴿ إنما بغيكم على أنفسكم ﴾ ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ وقوله تعالى ﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين ﴾ يعني عقوبة الله لهم على تكذيبهم رسله ، ومخالفتهم أمره ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي لا تغير ولا تبدل ، بل هي جارية كذلك في كل مكذب ﴿ ولن تجد لسنة الله تحويلاً ﴾ أي ﴿ وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له ﴾ ولا يكشف ذلك عنهم ويحوله عنهم أحد .

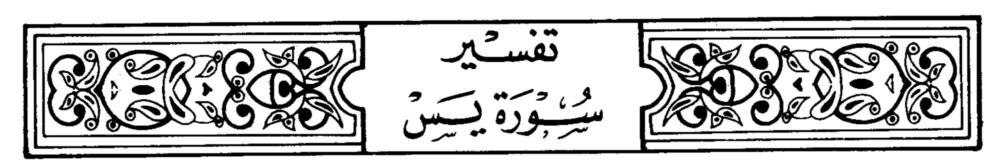
(٤٤) ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به من الرسالة سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين كذبوا الرسل كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها ، فخلت منهم منازلهم ، وسلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العَدد والعُدد ، وكثرة الأموال والأولاد ، فما أغنى ذلك شيئاً ، ولا دفع عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء

أمر ربك ، لأنه تعالى لا يعجزه شيء إذا أراد كونه في السموات والأرض ﴿ إنه كان عليماً قديراً ﴾ أي عليم بجميع الكائنات ، قدير على مجموعها .

(٤٥) ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾

﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ﴾ أي لو آخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك جميع أهل السموات والأرض ، وما يملكونه من دواب وأرزاق ﴿ ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ﴾ أي ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذٍ ويوفي كل عامل بعمله فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية ، ولهذا قال ﴿ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ .



تفسير سُورة يسٓ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

روى الترمذي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن « يس » ومن قرأ « يس » كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » . ثم قال : هذا حديث غريب .

(١) ﴿ يسٓ ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ (٥) لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (٧)

﴿ والقرآن الحكيم ﴾ أي المحكم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿ إنك ﴾ أي يا محمد ﴿ لمن المرسلين . على صراط مستقيم ﴾ أي على منهج ودين قويم ، وشرع مستقيم ﴿ تنزيل العزيز الرحيم ﴾ أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي

جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين ، كما قال تعالى ﴿ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله ﴾ ﴿ لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون ﴾ يعني بهم العرب ، فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم ، كما أن ذكر بعض الأفراد لا ينفي العموم ، والله يقول ﴿ يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ لقد حق القول على أكثرهم ﴾ لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتم عليهم في أم الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ فهم لا يؤمنون ﴾ بالله ولا يصدقون به .

(٨) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾

يقول تعالى : إنا جعلنا هؤلاء المحتوم عليهم بالشقاء نسبتهم إلى الوصول إلى الهدى كنسبة من جعل في عنقه غل فجمع يديه مع عنقه تحت ذقنه فارتفع رأسه فصار مقمحاً ، ولهذا قال تعالى ﴿ فهم مقمحون ﴾ والمقمح هو الرافع رأسه .

(٩) ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾

﴿ وجعلنا من بين أيديهم سداً ﴾ عن الحق ﴿ ومن خلفهم سداً ﴾ عن الحق فهم يترددون في الضلالات ﴿ فأغشيناهم ﴾ أي أغشينا أبصارهم عن الحق ﴿ فهم لا يبصرون ﴾ أي لا ينتفعون بخير ، ولا يهتدون إليه . جعل الله تعالى السد بينهم وبين الإسلام والإيمان فهم لا يخلصون إليه ﴿ إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون . ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ .

(١٠) ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾ أي قد ختم الله عليهم بالضلالة ، فما يفيد فيهم الانذار ، ولا يتأثرون به .

(١١) ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾

﴿ إنما تنذر من اتبع الذكر ﴾ أي إنما ينتفع بإنذارك المؤمنون الذين يتبعون الذكر ، وهو القرآن العظيم ﴿ وخشي الرحمٰن بالغيب ﴾ أي حيث لا يراه أحد إلا الله تبارك وتعالى ، يعلم أن الله مطلع عليه ، وعالم بما يفعل ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ أي لذنوبه ﴿ وأجر كريم ﴾ أي كثير واسع حسن جميل كما قال تبارك وتعالى ﴿ إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ .

(١٢) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ إنا نحن نحيي الموتى ﴾ أي يوم القيامة . وفيه إشارة إلى أن الله يحيي قلب من يشاء من الكفار الذين قد ماتت قلوبهم بالضلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ﴿ ونكتب ما قدموا ﴾ أي من الأعمال ، وفي قوله تعالى ﴿ وآثارهم ﴾ قولان ، أحدهما نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضاً ، إن خير فخير ، وإن شراً فشر ، كقوله ﷺ : « من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » رواه مسلم . والثاني أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية . روى الإمام أحمد عن جابر قال : خلت البقاع حول المسجد فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : « إنه بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك ، فقال ﷺ : « يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » . وهذا رواه مسلم . ﴿ وكل شيء أحصيناه في إمام مبين ﴾ أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور ، مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا هو أم الكتاب .

(١٣) ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَـٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

يقول تعالى : واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك ﴿ مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ .

(١٤) ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾

﴿ إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما ﴾ أي بادروهما بالتكذيب ﴿فعززنا بثالث﴾ أي قويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث . قيل : كان اسم الرسولين الأولين : شمعون ويوحنا والثالث بولص والقرية أنطاكية ﴿ فقالوا ﴾ أي لأهل تلك القرية ﴿ إنا إليكم مرسلون ﴾ أي من ربكم الذي خلقكم ، يأمركم بعبادته وحده لا شريك له . وزعم قتادة بن دعامة أنهم كانوا رسل المسيح عليه السلام إلى أهل أنطاكية .

(١٥) ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾

﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ أي فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ، فلم لا يوحي إلينا

مثلكم ؟ ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة وهذه كقوله ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤ نا ﴾ وقوله ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ﴾ وههنا قالوا ﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمٰن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾ .

(١٦) ﴿ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾

﴿ قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون ﴾ أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم آنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار .

(١٧) ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾

﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ يقولون : إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والآخرة وإن لم تجيبوا فستعلمون غب ذلك .

(١٨) ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

فعند ذلك قال لهم أهل القرية ﴿ إنا تطيرنا بكم ﴾ أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا ﴿ لئن لم تنتهوا لنرجمنكم ﴾ بالحجارة ﴿ وليمسنكم منا عذاب أليم ﴾ أي عقوبة شديدة .

(١٩) ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾

فقالت لهم رسلهم ﴿ طائركم معكم ﴾ أي مردود عليكم ﴿ أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله وإخلاص العبادة له قابلتمونا بهذا الكلام وتوعدتمونا وتهددتمونا ، بل أنتم قوم مسرفون .

(٢٠) ﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

﴿ وجاء رجل ﴾ هو حبيب النجار ﴿ قال يا قوم اتبعوا المرسلين ﴾ يحض قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم .

(٢١) ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

﴿ اتبعوا من لا يسألكم أجراً ﴾ أي على إبلاغ الرسالة ﴿ وهم مهتدون ﴾ أي فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له .

(٢٢) ﴿ وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ ومالي لا أعبد الذي فطرني ﴾ أي وما منعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

(٢٣) ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

﴿ أأتخذ من دونه آلهة ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ﴿ إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون ﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئاً ، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿ فلا كاشف له إلا هو ﴾ وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذونني مما أنا فيه .

(٢٤) ﴿ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ إني إذاً لفي ضلال مبين ﴾ أي إن اتخذتها آلهة من دون الله .

(٢٥) ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴾

﴿ إني آمنت بربكم ﴾ الذي كفرتم به ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاسمعوا قولي ، ويحتمل أن يكون خطابه للرسل بقوله ﴿ إني آمنت بربكم ﴾ أي الذي أرسلكم ﴿ فاسمعون ﴾ أي فاشهدوا لي بذلك عنده .

(٢٦) ﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ (٢٧)

قال ابن إسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصه من دبره ، وقال الله له : ﴿ ادخل الجنة ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها ، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها ، فلما رأى الثواب ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون ﴾ قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً ، لا تلقاه غاشاً ، لما عاين من كرامة الله ﴿ قال يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله .

(٢٨) ﴿ * وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴾

يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى عليهم لأنهم كذبوا رسله ، وقتلوا وليه ، ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم وما احتاج في إهلاكه إياهم إلى إنزال جند من الملائكة ، بل الأمر كان أيسر من ذلك .

(٢٩) ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴾

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ فأهلك الله تعالى ذلك الملك وأهل أنطاكية فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية .

(٣٠) ﴿ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ يا حسرة على العباد ﴾ أي يا ويل العباد ﴿ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ أي يكذبون ويجحدون ما أرسل به من الحق .

(٣١) ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرة ولا رجعة ، ولم يكن الأمر كما زعم كثير من جهلتهم وفجرتهم من قولهم ﴿ إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ وهم القائلون بالدور من الدهرية ، وهم الذين يعتقدون جهلاً منهم أنهم يعودون إلى الدنيا كما كانوا فيها ، فرد الله عليهم باطلهم فقال تبارك وتعالى : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾

(٣٢) ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

﴿ وإن كل لما جميع لدينا محضرون ﴾ أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم كلها خيرها وشرها .

(٣٣) ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾

﴿ وآية لهم ﴾ أي دلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة ، وإحيائه الموتى ﴿ الأرض

الميتة ﴾ أي إذا كانت ميتة هامدة لا شيء فيها من النباتات ، فإذا أنزل الله تعالى عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ولهذا قال تعالى ﴿ أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون ﴾ أي جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم .

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٣٥﴾

﴿ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ﴾ أي جعلنا فيها أنهاراً سارحة في أمكنة يحتاجون إليها ليأكلوا من ثمره ، لما امتن على خلقه بإيجاد الزروع عطف بذكر الثمار وتنوعها وأصنافها . وقوله تعالى ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ أي وما ذاك كله إلا من رحمة الله بهم ، لا بسعيهم ولا كدهم ولا بحولهم وقوتهم ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي فهلا يشكرونه على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى . واختار ابن جرير ، بل جزم به ، ولم يحك غيره إلا احتمالاً أن ﴿ ما ﴾ في قوله تعالى ﴿ وما عملته أيديهم ﴾ بمعنى الذي ، تقديره : ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم ، أي غرسوه ونصبوه .

﴿٣٦﴾ ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ﴾ أي من زروع وثمار ونبات ﴿ ومن أنفسهم ﴾ فجعلهم ذكراً وأنثى ﴿ ومما لا يعلمون ﴾ أي من مخلوقات شتى لا يعرفونها ، كما قال جلت عظمته ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ .

﴿٣٧﴾ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴾

يقول تعالى : ومن الدلالة لهم على قدرته تبارك وتعالى العظيمة خلق الليل والنهار : هذا بظلامه ، وهذا بضيائه ، وجعلهما يتعاقبان ، يجيء هذا فيذهب هذا ، ويذهب هذا فيجيء هذا ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ يغشي الليل والنهار يطلبه حثيثاً ﴾ ولهذا قال عز وجل ههنا ﴿ وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ﴾ أي نصرمه منه فيذهب فيقبل الليل ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ فإذا هم مظلمون ﴾ كما جاء في الحديث « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم .

(٣٨) ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾

﴿ والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ في معنى قوله ﴿ لمستقر لها ﴾ أي المكاني تحت العرش كما في الحديث « مستقرها تحت العرش ، أو مستقرها الزماني : منتهى سيرها ، وهو يوم القيامة ، يبطل سيرها ، وتسكن حركتها ، وتكور ، وينتهي هذا العالم إلى غايته ، وهذا هو مستقرها الزماني » . ﴿ذلك تقدير العزيز ﴾ الذي لا يخالف ولا يمانع ﴿ العليم ﴾ بجميع الحركات والسكنات .

(٣٩) ﴿ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾

﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ أي جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور ، كما أن الشمس يعرف بها الليل والنهار ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ أي العذق اليابس .

(٤٠) ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾

﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ﴾ قال مجاهد : لكل منهما حد لا يعدوه ، ولا يقصر دونه ، إذا جاء سلطان هذا ذهب هذا ، وإذا ذهب سلطان هذا جاء سلطان هذا ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يقول : لا ينبغي إذا كان ليل أن يكون ليل آخر حتى يكون النهار ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل . قال مجاهد : ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ يطلبان حثيثين ، يسلخ أحدهما من الآخر . والمعنى في هذا أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ولا تراخ ، لأنهما مسخران دائبين ، يتطالبان طلباً حثيثاً . ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ يعني الليل والنهار والشمس والقمر كلهم يسبحون ، أي يدورون في فلك السماء .

(٤١) ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾

﴿ أنا حملنا ذريتهم ﴾ أي آباءهم ﴿ في الفلك المشحون ﴾ أي في السفينة المملوءة من الأمتعة والحيوانات التي أمر الله تبارك وتعالى نوحاً أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين .

(٤٢) ﴿ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴾

﴿ وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ يعني بذلك الإبل ، فإنها سفن البر يحملون عليها ويركبونها ، أو هي السفن ، جعلت من بعد سفينة نوح على مثل سفينة نوح .

(٤٣) ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴾

﴿ وإن نشأ نغرقهم ﴾ يعني الذين في السفن ﴿ فلا صريخ لهم ﴾ فلا مغيث لهم مما هم فيه ﴿ ولا هم ينقذون ﴾ أي مما أصابهم .

(٤٤) ﴿ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾

﴿ إلا رحمة منا ﴾ وهذا استثناء منقطع ، تقديره ولكن برحمتنا نسيركم في البر والبحر ، ونسلمكم إلى أجل مسمى ، ولهذا قال تعالى ﴿ ومتاعاً إلى حين ﴾ أي إلى وقت معلوم عند الله عز وجل .

(٤٥) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تمادي المشركين في غيهم وضلالهم وعدم اكتراثهم بذنوبهم التي أسلفوها ، وما يستقبلون بين أيديهم يوم القيامة ﴿ وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم ﴾ من الذنوب ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ أي لعل الله باتقائكم ذلك يرحمكم ويؤمنكم من عذابه ، وتقدير الكلام أنهم لا يجيبون إلى ذلك ، بل يعرضون عنه ، واكتفى عن ذلك بقوله تعالى :

(٤٦) ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾

﴿ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم ﴾ أي على التوحيد وصدق الرسل ﴿ إلا كانوا عنها معرضين ﴾ أي لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها .

(٤٧) ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ﴾ أي وإذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين ﴿ قال الذين كفروا للذين آمنوا ﴾ أي عن الذين آمنوا من الفقراء ، أي قالوا لمن أمرهم من المؤمنين بالإنفاق محاجين لهم فيما أمروهم به ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ أي هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ، ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم ﴿ إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ أي في أمركم لنا بذلك .

(٤٨) ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم ﴿ متى هذا الوعد ﴾ ﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ .

(٤٩) ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾

قال الله عز وجل ﴿ ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون ﴾ أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهذه والله أعلم نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع ، والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذا أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ورفع ليتا ، وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم .

(٥٠) ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ فلا يستطيعون توصية ﴾ أي على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ ولا إلى أهلهم يرجعون ﴾ ثم يكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم ، ثم بعد ذلك نفخة البعث .

(٥١) ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾

هذه هي النفخة الثالثة ، وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴾ والنسلان هو المشي السريع ، كما قال تعالى ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ .

(٥٢) ﴿ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾

﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ ؟ يعنون قبورهم التي كانوا يعتقدون في الدار الدنيا أنهم لا يبعثون منها ، فلما عاينوا ما كذبوا به في محشرهم ﴿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ﴾ وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرقاد ، فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ﴿ هذا ما وعد الرحمٰن وصدق المرسلون ﴾ قال الحسن : إنما يجيبهم بذلك الملائكة ، ولا منافاة إذ الجمع ممكن . والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴿٥٣﴾ فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ ﴿٥٤﴾

﴿ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ وقال جلت عظمته ﴿ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴾ ﴿ فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ﴾ أي من عملها ﴿ ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ .

﴿٥٥﴾ ﴿إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم ﴿ في شغل فاكهون ﴾ أي في نعيم معجبون ، أي به ، أو شغلهم افتضاض الأبكار ، أو شغلوا بسماع الأوتار .

﴿٥٦﴾ ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾

﴿ هم وأزواجهم ﴾ أي وحلائلهم ﴿ في ظلال ﴾ أي في ظلال الأشجار ﴿ على الأرائك متكئون ﴾ الأرائك هي السرر تحت الحجال .

﴿٥٧﴾ ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون﴾

﴿ لهم فيها فاكهة ﴾ أي من جميع أنواعها ﴿ ولهم ما يدعون ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذ . روى ابن أبي حاتم ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل مشمر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب الكعبة نور كلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخير ونعمة في محلة عالية بهية » قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها ، قال ﷺ : « قولوا : إن شاء الله » فقال القوم : إن شاء الله . وكذا رواه ابن ماجة في كتاب الزهد من سننه .

﴿٥٨﴾ ﴿ سلام قولا من رب رحيم ﴾

﴿ سلام قولاً من رب رحيم ﴾ قال ابن عباس : فإن الله نفسه سلم على أهل الجنة ، وهذا الذي قاله ابن عباس كقوله تعالى ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ .

(٥٩) ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عما يؤول إليه حال الكفار يوم القيامة من أمره لهم أن يمتازوا بمعنى يتميزون عن المؤمنين في موقفهم كقوله تعالى ﴿ ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم ﴾ وقال تعالى ﴿ ويوم تقوم الساعة يومئذٍ يتفرقون ﴾ ﴿ يومئذٍ يصدعون ﴾ .

(٦٠) ﴿ * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

﴿ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ هذا تقريع من الله تعالى للكفرة من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان ، وهو عدو لهم مبين ، وعصوا الرحمٰن ، وهو الذي خلقهم ورزقهم ، ولهذا قال :

(٦١) ﴿ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ﴾ أي قد أمرتكم في دار الدنيا بعصيان الشيطان ، وأمرتكم بعبادتي ، وهذا هو الصراط المستقيم فسلكتم غير ذلك ، واتبعتم الشيطان فيما أمركم به ، ولهذا قال عز وجل :

(٦٢) ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً ﴾ خلقاً كثيراً ﴿ أفلم تكونوا تعقلون ﴾ أي أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له ، وعدو لكم إلى اتباع الشيطان .

(٦٣) ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

يقال للكفرة من بني آدم يوم القيامة ، وقد برزت الجحيم لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ هذه جهنم التي كنتم توعدون ﴾ أي هذه التي حذرتكم الرسل فكذبتموهم .

(٦٤) ﴿ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

﴿ اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون ﴾ كما قال تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم فيها تكذبون ﴾ .

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ ﴿٦٥﴾

هذا حال الكفار والمنافقين يوم القيامة حيث ينكرون ما اجترحوه في الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾

﴿ ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون ﴾ أي لو نشاء لأضللناهم عن الهدى فكيف يهتدون ؟

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٦٧﴾

﴿ ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم ﴾ أهلكناهم ، أو لغيرنا خلقهم ، أو لجعلنا هم حجارة ﴿ فما استطاعوا مضياً ﴾ أي إلى الأمام ﴿ ولا يرجعون ﴾ إلى الوراء ، بل يلزمون حالاً واحداً ، لا يتقدمون ولا يتأخرون .

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾

يخبر تعالى عن ابن آدم أنه كلما طال عمره رده إلى الضعف بعد القوة ، والعجز بعد النشاط ﴿ أفلا يعقلون ﴾ أي يتفكرون بعقولهم في ابتداء خلقهم ، ثم صيرورتهم إلى سن الشيبة ، ثم إلى الشيخوخة ، ليعلموا أنهم خلقوا لدار أخرى لا زوال لها ، ولا انتقال منها ، ولا محيد عنها ، وهي الدار الآخرة .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له ﴾ يقول عز وجل مخبراً عن نبيه ﷺ أنه ما علمه الشعر ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ولا تقتضيه جبلته ، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحفه ، أو لم يتمه . ولهذا قال ﴿ وما علمناه الشعر ﴾ يعني محمداً ﷺ ، ما علمه الله الشعر ﴿ وما ينبغي له ﴾ أي وما يصلح له ﴿ إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ أي ما هذا الذي علمناه ﴿ إلا ذكر وقرآن مبين ﴾ أي مبين واضح جلي لمن تأمله وتدبره . ولهذا قال :

﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ لينذر من كان حياً ﴾ أي لينذر هذا القرآن المبين كل حي على وجه الأرض ، كقوله

﴿لأنذركم به ومن بلغ﴾ وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب، مستنير البصيرة، وقال الضحاك : عاقلاً ﴿ ويحق القول على الكافرين ﴾ أي هو رحمة للمؤمنين ، وحجة على الكافرين .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على خلقه من هذه الأنعام التي سخرها لهم ﴿ فهم لها مالكون ﴾ قال قتادة : مطبقون ، أي جعلهم يقهرونها ، وهي ذليلة لهم ، لا تمنع منهم ، بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه ، وساقه وذاك ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير ، أو أكثر لسار الجميع بسير الصفير . وقوله ﴿ فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ﴾ أي منها يركبون في الأسفار ، ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ﴿ ومنها يأكلون ﴾ إذا شاءوا انحروا واجتزوا .

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾

﴿ ولهم فيها منافع ﴾ أي ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين ﴿ ومشارب ﴾ أي من ألبانها وأوبالها لمن يتداوى ونحو ذلك ﴿ أفلا يشكرون ﴾ أي أفلا يوجدون خالق ذلك ، ومسخره ولا يشركون به غيره ؟

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿٧٤﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم الأنداد آلهة مع الله يبتغون بذلك أن تنصرهم تلك الآلهة وترزقهم وتقربهم إلى الله زلفى .

﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ ﴿٧٥﴾

﴿ لا يستطيعون نصرهم ﴾ أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك ، وأقل وأذل وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل ﴿ وهم لهم جند محضرون ﴾ يعني عند الحساب ، يريد أن هذه الأصنام محشورة مجموعة يوم القيامة محضرة عند حساب عابديها ليكون ذلك أبلغ في حزنهم وأدل عليهم في إقامة الحجة عليهم .

(٧٦) ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

﴿ فلا يحزنك قولهم ﴾ أي تكذيبهم لك ، وكفرهم بالله ﴿ إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ﴾ أي نحن نعلم جميع ما هم فيه ، وسنجزيهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ولا صغيراً ، ولا كبيراً ، بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً .

(٧٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾

جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ ، وفي يده عظم رميم ، وهو يفته ، ويذروه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال ﷺ : « نعم ، يميتك الله تعالى ، ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر « يس » ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ﴾ إلى آخرهن ﴿ الإنسان ﴾ للجنس ، يعم كل منكر للبعث ﴿ أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ أي أولم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين .

(٧٨) ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾

﴿ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ﴾ أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده ، ولهذا قال عز وجل :

(٧٩) ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ﴾ أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرقت وتمزقت ؟

(٨٠) ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾

﴿ الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ﴾ أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء . وقيل المراد

بذلك : شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز ، فيأتي من أراد قدح نار ، وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء .

(٨١) ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً منبهاً على قدرته العظيمة في خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت ، والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وبحار وقفار وما بين ذلك ، ومرشداً إلى الاستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء العظيمة كقوله تعالى ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال عز وجل ههنا ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ ﴾ أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ﴿ بلى وهو الخلاق العليم ﴾ .

(٨٢) ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى يقول : يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيت فاستغفروني أغفر لكم ، وكلكم فقير إلا من أغنيت ، إني جواد ماجد واجد أفعل ما أشاء ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إذا أردت شيئاً فإنما أقول له كن فيكون » .

(٨٣) ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾ أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل المتفضل .

* * *



تفسير سُورَةُ الصَّافَّاتِ



عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ، ويؤمنا بالصافات ، تفرد به النسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ ﴿٥﴾

روى مسلم عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : « فضلنا على الناس بثلاث ، جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض كلها مسجداً ، وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء » وروى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي عن جابر بن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربهم ؟ » قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال ﷺ : « يتمون الصفوف المتقدمة ، ويتراصون في الصف » ﴿ فالزاجرات زجراً ﴾ أنها تزجر السحاب ، أو ما زجر الله عنه في القرآن ﴿ فالتاليات ذكراً ﴾ الملائكة يجيئون بالكتاب والقرآن من عند الله إلى الناس ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ فالملقيات ذكراً . عذراً أو نذراً ﴾ ﴿ إن إلهكم لواحد رب السموات والأرض ﴾ هذا هو المقسم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو ، رب السموات والأرض ﴿ وما بينهما ﴾ أي من المخلوقات ﴿ ورب المشارق ﴾ أي هو المالك المتصرف في الخلق بتسخيره بما فيه من كواكب ثوابت وسيارات تبدو من المشرق ، وتغرب من المغرب ، واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه . وقال ﴿ رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعني في الشتاء والصيف للشمس والقمر . يخبر تعالى أنه زين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب ، فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوءها جرم السماء الشفاف ، فتضيء لأهل الأرض .

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى

ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ ﴿١٠﴾

فقوله جل وعلا ههنا ﴿ وحفظاً ﴾ تقديره وحفظناها حفظاً ﴿ من كل شيطان مارد ﴾ يعني المتمرد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ﴾ أي لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى ، وهي السموات ومن فيها من الملائكة إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويقذفون ﴾ أي يرمون ﴿ من كل جانب ﴾ أي من كل جهة يقصدون السماء منها ﴿ دحوراً ﴾ أي رجماً يدحرون به ويزجرون ويمنعون من الوصول إلى ذلك ﴿ ولهم عذاب واصب ﴾ أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر وقوله تبارك وتعالى ﴿ إلا من خطف الخطفة ﴾ أي إلا من اختطف من الشياطين الخطفة ، وهي الكلمة يسمعها من السماء فيلقيها إلى الذي تحته ، ويلقيها الآخر إلى الذي تحته ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها بقدر الله تعالى قبل أن يأتيه الشهاب فيحرقه ، فيذهب بها الآخر إلى الكاهن ﴿ فأتبعه شهاب ثاقب ﴾ أي مستنير .

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ ﴿١١﴾

يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث : أيما أشد خلقاً هم أم السموات والأرض وما بينهما من الملائكة والمخلوقات العظيمة ؟ ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله ﴿ إنا خلقناهم من طين لازب ﴾ هو الجيد الذي يلتزق بعضه ببعض .

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ بل عجبت ويسخرون ﴾ أي بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب ، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون مما تقول لهم من ذلك ﴿ وإذا رأوا آية ﴾ أي دلالة واضحة على ذلك ﴿ يستسخرون ﴾ يستهزؤ ون ﴿ وقالوا إن هذا إلا سحر مبين ﴾ أي أن هذا الذي جئت به إلا سحر مبين ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . أو

آباؤنا الأولون ﴾ يستبعدون ذلك ويكفرون به ﴿ قل نعم وأنتم داخرون ﴾ أي قل لهم يا محمد نعم ، تبعثون يوم القيامة بعدما تصيرون تراباً وعظاماً ، وأنتم داخرون ، أي حقيرون تحت القدرة العظيمة كما قال تعالى ﴿ وكل آتوه داخرين ﴾ ثم قال جلت عظمته ﴿ فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون ﴾ أي فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض فإذا هم قيام بين يديه ، ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾

يخبر تعالى عن قيل الكفار يوم القيامة أنهم يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين ﴾ فتقول لهم الملائكة والمؤمنون ﴿ هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴾ وهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ، ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميز الكفار من المؤمنين في الموقف في محشرهم ومنشرهم ، ولهذا قال الله تعالى ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ وأشباههم وأمثالهم ، فيجيء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر ، ﴿ وما كانوا يعبدون من دون الله ﴾ أي من الأصنام والأنداد وتحشر معهم في أماكنهم وقوله تعالى ﴿ فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أي أرشدوهم إلى طريق جهنم . وقوله تعالى ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ أي قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا . روى ابن أبي حاتم قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة ، لا يغادره ولا يفارقه ، وإن دعا رجل رجلاً » ثم قرأ ﴿ وقفوهم إنهم مسؤولون ﴾ ورواه الترمذي . ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ ما لكم لا تناصرون ﴾ أي كما زعمتم أنكم جميع منتصر ﴿ بل هم اليوم مستسلمون ﴾ أي منقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾

قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾

يذكر تعالى أن الكفار يتلاومون في عرصات القيامة كما يتخاصمون في دركات النار ﴿ فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ﴾ وهكذا قال لهم ههنا ﴿ إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ﴾ عن ابن عباس يقولون : كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ، لأنا كنا أذلاء ، وكنتم أعزاء ، أو كنتم تأتوننا من قبل الحق ، وتزينون لنا الباطل ، وتصدوننا عن الحق ، وتأتوننا من حيث نأمنكم . وقوله تعالى ﴿ بل لم تكونوا مؤمنين ﴾ تقول القادة من الجن والإنس للأتباع : ما الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان .

﴿٣٠﴾ ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ وما كان لنا عليكم من سلطان ﴾ أي من حجة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿ بل كنتم قوماً طاغين ﴾ أي بل كان فيكم طغيان ، ومجاوزة للحق ، فلهذا استجبتم لنا ، وتركتم الحق الذي جاءتكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به فخالفتموهم ﴿ فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون . فأغويناكم إنا كنا غاوين ﴾ يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله أنا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿ فأغويناكم ﴾ أي دعوناكم إلى الضلالة ﴿ إنا كنا غاوين ﴾ أي فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا . قال الله تبارك وتعالى ﴿ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون ﴾ أي الجميع في النار كل بحسبه ﴿ إنا كذلك نفعل بالمجرمين . إنهم كانوا ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ أي يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون ﴿ ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ﴾ أي أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ، يعنون رسول الله ﷺ . قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم ﴿ بل جاء بالحق ﴾ يعني رسول الله ﷺ ، جاء بالحق في جميع شرعة الله تعالى له من الأخبار والطلب ﴿ وصدق المرسلين ﴾ أي صدقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة

والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً للناس : ﴿ إنكم لذائقوا العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ أي استثنى من ذلك عباده المخلصين كما قال تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ ولهذا قال جل جلاله ههنا ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون في الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة إلى ما يشاء الله من التضعيف . وقوله جل وعلا ﴿ أولئك لهم رزق معلوم ﴾ يعني الجنة ، ثم فسره بقوله ﴿ فواكه ﴾ أي متنوعة ﴿ وهم مكرمون ﴾ أي يخدمون ويرفهون وينعمون ﴿ في جنات النعيم . على سرر متقابلين ﴾ أي لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض . وقوله تعالى ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ كما قال تعالى ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون . بأكواب وأباريق وكأس من معين . لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ نزه الله سبحانه وتعالى خمر الجنة عن الآفات التي في خمر الدنيا من صداع الرأس ووجع البطن ، وهو الغول ، وذهابها بالعقل جملة فقال تعالى ههنا ﴿ يطاف عليهم بكأس من معين ﴾ أي بخمر من أنهار جارية ، لا يخافون انقطاعها ولا فراغها . وقوله ﴿ لذة للشاربين ﴾ أي طعمها طيب كلونها ، وطيب الطعم دليل على طيب الريح بخلاف خمر الدنيا في جميع ذلك ﴿ لا فيها غول ﴾ يعني لا يؤثر فيهم غولاً ، وهو وجع البطن . ﴿ ولا هم عنها ينزفون ﴾ لا تذهب عقولهم . عن ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السكر والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزهها عن هذه الخصال .

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن . وقوله تبارك

وتعالى ﴿ عين ﴾ أي حسان الأعين ، وقيل : ضخام الأعين ، وهو يرجع إلى الأول ، وهي النجلاء العيناء ، فوصف عيونهن بالحسن والعفة كقول « زليخا » في يوسف ﴿ فذلكن الذي لمتنني فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ أي هو مع هذا الجمال عفيف تقي نقي ، وهكذا الحور العين ﴿ خيرات حسان ﴾ ولهذا قال عز وجل ﴿ وعندهم قاصرات الطرف عين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ وصفهن بترافة الأبدان بأحسن الألوان ، أو كأنهن اللؤلؤ المكنون ، أي هو محصون لم تمسه الأيدي . روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزنوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا ، لواء الحمد يومئذٍ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر ، يطوف عليَّ ألف خادم كأنهم البيض المكنون ، أو اللؤلؤ المكنون » .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ ﴿٦١﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة أنه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أي عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم واجتماعهم في تنادمهم ومعاشرتهم في مجالسهم ، وهم جلوس على السرر ، والخدم بين أيديهم يسعون ويجيئون بكل خير عظيم من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين ﴾ يعني شيطاناً ، أو هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا . ولهذا ﴿ قال قائل منهم إني كان لي قرين . يقول أئنك لمن المصدقين ﴾ أي أأنت تصدق بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، يعني يقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون ﴾ لمحاسبون ، أو لمجزيون بأعمالنا ؟ قال الله تعالى ﴿ قل هل أنتم مطلعون ﴾ أي مشرفون ، يقوله المؤمن لأصحابه وجلسائه من أهل الجنة ﴿ فاطلع فرآه في سواءالجحيم ﴾ في وسط الجحيم . ﴿ قال تالله

إن كدت لتردين ﴾ يقول المؤمن مخاطباً الكافر : والله إن كدت لتهلكني لو أطعتك ﴿ ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين ﴾ أي ولولا فضل الله علي لكنت مثلك في سواء الجحيم حيث أنت ، محضر معك في العذاب ، ولكنه تفضل علي ورحمني ، وهداني للإيمان ، وأرشدني إلى توحيده ﴿ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ أفما نحن بميتين . إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين ﴾ هذا من كلام المؤمن مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة والإقامة في دار الكرامة ، بلا موت فيها ولا عذاب ، ولهذا قال جل جلاله ﴿ إن هذا لهو الفوز العظيم ﴾ وقوله ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ قال قتادة : هذا من كلام أهل الجنة ، وقال ابن جرير : من كلام الله تعالى ، ومعناه : لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة . وما ذكروه هنا من قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل تدخل في عموم هذه الآية الكريمة .

(٦٢) ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ ﴿٦٤﴾

يقول الله تبارك وتعالى : أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة ، وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ خير ضيافة وعطاء ﴿ أم شجرة الزقوم ﴾ أي التي في جهنم ، قال بعضهم : إنها شجرة تمتد فروعها إلى جميع محال جهنم ، أو هو جنس شجر يقال له : الزقوم ﴿ إنا جعلناها فتنة للظالمين ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا : صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله ﴿ إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ﴾ غذيت من النار ، ومنها خلقت . قال أبو جهل لعنه الله : إنما الزقوم الثمر والزبد ، أتزقمه .

(٦٥) ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ طلعها كأنه رؤوس الشياطين ﴾ هذا تبشيع لها وتكريه لذكرها ، فإنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر وقوله تعالى ﴿ فإنهم لآكلون منها فمالئون منها

البطون ﴾ ذكر تعالى أنهم يأكلون من هذه الشجرة التي لا أبشع منها ، ولا أقبح من منظرها مع ما هي عليه من سوء الطعم والريح ، والطبع ، فإنهم ليضطروا إلى الأكل منها ، لأنهم لا يجدون إلا إياها ، وما هو في معناها ، كما قال تعالى ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع . لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . وقوله تعالى ﴿ ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ﴾ يعني شرب الحميم على الزقوم ، أو مزجاً من حميم . ﴿ ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم ﴾ أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة في هذا وتارة في هذا كما قال تعالى ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنهم ألفوا آباءهم ضالين ﴾ أي إنما جازيناهم بذلك ، لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان . ولهذا قال ﴿ فهم على آثارهم يهرعون ﴾ قال مجاهد : شبيهة بالهرولة ، وقال سعيد بن جبير : يسفهون .

﴿٧١﴾ ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ ﴿٧٤﴾

يخبر تعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرون بأس الله ، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره ، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم ، فأهلك المكذبين ودمرهم ، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم ، ولهذا قال ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المنذرين إلا عباد الله المخلصين ﴾ .

﴿٧٥﴾ ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴾ ﴿٨٢﴾

لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة شرع يبين ذلك مفصلاً ، فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام وما لقي من قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل

مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما طال عليه ذلك ، واشتد عليهم تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ، فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ، فغضب الله تعالى لغضبه عليهم ، ولهذا قال الله عز وجل ﴿ ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ﴾ أي له ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴾ وهو التكذيب والأذى ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي يذكر بخير ، قال مجاهد : يعني لسان صدق للأنبياء كلهم ، أو أبقى الله عليه الثناء الحسن في الآخرين وقوله تعالى : ﴿ سلام على نوح في العالمين ﴾ مفسر لما أبقى عليه من الذكر الجميل ، والثناء الحسن أنه يسلم عليه في جميع الطوائف والأمم ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى نجعل له لسان صدق يذكر بعده بحسب مرتبته في ذلك ﴿ إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ أي المصدقين الموحدين الموقنين ﴿ ثم أغرقنا الآخرين ﴾ أي أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف ، ولا ذكر ولا عين ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿ وإن من شيعته لإبراهيم ﴾ يقول : من أهل دينه ، أو على منهاجه وسنته ﴿ إذ جاء ربه بقلب سليم ﴾ يعني شهادة أن لا إله إلا الله وسئل محمد بن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، أو سليم من الشرك ، أو لا يكون لعاناً . ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ولهذا قال عز وجل ﴿ أئفكاً آلهة دون الله تريدون . فما ظنكم برب العالمين ﴾ يعني ما ظنكم أنه فاعل بكم إذا لا قيتموه وقد عبدتم معه غيره ؟

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ ﴿٩٨﴾

إنما قال ابراهيم عليه السلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسرها ، فقال لهم كلاماً هو حق

في نفس الأمر ، فهموا منه أنه سقيم على مقتضى ما يعتقدون ﴿ فتولوا عنه مدبرين ﴾ قال قتادة : والعرب تقول عن تفكر : نظر في النجوم ، يعني قتادة: أنه نظر إلى السماء متفكراً فيما يلهيهم به فقال ﴿ إني سقيم ﴾ أي ضعيف . وفي الحديث « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله ، قوله ﴿ إني سقيم ﴾ وقوله ﴿ بل فعله كبيرهم هذا ﴾ وقوله في سارة هي أختي » مخرج في الصحاح والسنن ، ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله ، حاشا وكلا ، ولما ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً ، وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب» ﴿فراغ إلى آلهتهم﴾ أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء ﴿ فقال ألا تأكلون ﴾ وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرك لهم فيه ، فلما نظر إبراهيم إلى ما بين أيديهم من الطعام قال ﴿ ألا تأكلون . ما لكم لا تنطقون ﴾ وقوله ﴿ فراغ عليهم ضرباً باليمين ﴾ مال عليهم ضرباً باليمين ، ولهذا تركهم جذاذاً الا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون . ﴿ فأقبلوا اليه يزفون ﴾ أي يسرعون . فلما جاؤ وا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم فقال ﴿ أتعبدون ما تنحتون ﴾ أي أتعبدون من دون الله من الأصنام ما أنتم تنحتونها وتجعلونها بأيديكم ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ مصدرية أي خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي ، تقديره والله خلقكم والذي تعملونه ، والأول أظهر ، وفي الحديث مرفوعاً « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته » فلما قامت عليهم الحجة عدلوا إلى أخذه باليد والقهر فقالوا ﴿ ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم ﴾ ونجاه الله من النار ، وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها ولهذا قال تعالى ﴿ وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ﴾ .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ ﴿١٠١﴾

يقول تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام : إنه بعدما نصره الله على قومه ، وأيس من إيمانهم بعدما شاهدوا من الآيات العظيمة هاجر من بين أظهرهم وقال ﴿ إني ذاهب إلى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين ﴾ يعني أولاداً مطيعين ، يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم ، قال الله تعالى ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ وهذا الغلام هو اسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام وهو اكبر من اسحق باتفاق المسلمين . وذهب جماعة إلى أن الذبيح اسحاق ، وما أظن ذلك تلقى

إلا عن أخبار أهل الكتاب من غير حجة ، وهذا كتاب الله شاهد ومرشد إلى أنه إسماعيل ، فإنه ذكر البشارة بغلام حليم ، وذكر أنه الذبيح ، ثم قال بعد ذلك ﴿ وبشرناه باسحق نبياً من الصالحين ﴾ .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (١٠٢)

﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي كبر وترعرع ، وصار يذهب مع أبيه ويمشي معه ﴿ قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ﴾ قال عبيد بن عمير: رؤ يا الأنبياء وحي ، ثم تلا هذه الآية ﴿قال يا بني إني أرى في المنام . . . ﴾ ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصابرين ﴾ أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عز وجل ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد . ولهذا قال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾ .

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾ (١١٣)

﴿ فلما أسلما وتله للجبين ﴾ أي فلما تشهدا وذكر الله تعالى إبراهيم على الذبح والولد شهادة الموت . وقيل : استسلما وانقادا إبراهيم امتثل أمر الله تعالى ، وإسماعيل طاعة لله ولأبيه ﴿ وتله للجبين ﴾ أكبه على وجهه . روى الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : لما أمر إبراهيم بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم ، ثم ذهب جبريل إلى حجرة العقبة فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الحجرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ثم تله للجبين ، وعلى اسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت ، إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره فاخلعه حتى تكفنني فيه فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه ﴿ أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤ يا ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ وقوله ﴿ إنا كذلك

نجزي المحسنين ﴾ أي هكذا نصرف عمن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، وقد استدل بهذه الآية على صحة النسخ ، فقد شرع الله لإبراهيم ذبح ولده ثم نسخه عنه ، وصرفه إلى الغداء ﴿ إن هذا لهو البلاء المبين ﴾ أي الاختبار الواضح الجلي حيث أمر بذبح ولده فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى ، منقاداً لطاعته . ولهذا قال تعالى ﴿ وإبراهيم الذي وفى ﴾ وقوله ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ عن ابن عباس كان أفتى الذي جعل عليه نذراً أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الابل ، ثم قال بعد ذلك : لو كنت آفتينه بكبش لأجزاه أن يذبح كبشاً ، فإن الله تعالى قال ﴿ وفديناه بذبح عظيم ﴾ وقوله ﴿ وبشرناه باسحٰق نبياً من الصالحين ﴾ لما تقدمت البشارة بالذبح ، وهو اسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحق ﴿ نبياً ﴾ حال مقدرة أي منه نبي صالح . ﴿ وباركنا عليه وعلى إسحٰق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ .

(١١٤) ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ (١١٦) وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (١١٨)

يذكر تعالى ما أنعم به على موسى وهارون من النبوة والنجاة بمن آمن معهما من قهر فرعون وقومه ، وما كان يعتمد في حقهم من الاساءة العظيمة من قتل الأبناء ، واستحياء النساء ، واستعمالهم في أخس الأشياء ، ثم بعد هذا كله نصرهم عليهم ، وأقر أعينهم منهم فغلبوهم ، وأخذوا أرضهم وأموالهم ، وما كانوا جمعوه طول حياتهم . ثم أنزل الله عز وجل على موسى الكتاب العظيم الواضح الجلي المستبين ، وهو التوراة ﴿ وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم ﴾ أي في الأقوال والأفعال .

(١١٩) ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ (١١٩) سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١٢٢)

﴿ وتركنا عليهما في الآخرين ﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً ، وثناء حسناً ، ثم فسره بقوله ﴿ سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزي المحسنين . إنهما من عبادنا المؤمنين ﴾ .

(١٢٣) ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ

ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

عن ابن مسعود قال : إلياس هو إدريس . وقال وهب بن منبه : هو الياس بن نسى ، بعثه الله في بني اسرائيل بعد حزقيل عليهما السلام ، وكانوا قد عبدوا صنماً يقال له : بعل ، فدعاهم إلى الله تعالى ، ونهاهم عن عبادة ما سواه ، وكان قد آمن به ملكهم ، ثم ارتد واستمروا على ضلالتهم ، ولم يؤمن به منهم أحد ، فدعا الله عليهم فحبس عنهم القطر ثلاث سنين ، ثم سألوه أن يكشف ذلك عنهم ، ووعدوه الايمان به إن هم أصابهم المطر ، فدعا الله تعالى لهم فجاءهم الغيث فاستمروا على أخبث ما كانوا عليه من الكفر ، فسأل الله أن يقبضه إليه ، ﴿ إذ قال لقومه ألا تتقون ﴾ أي ألا تخافون الله عز وجل في عبادتكم غيره ﴿ أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين ﴾ بعلاً يعني رباً ، أو كانوا يعبدون امرأة اسمها بعل ، أو بعل اسم صنم كان يعبده أهل مدينة ، يقال لها : بعلبك غربي دمشق . وقوله تعالى ﴿ أتدعون بعلاً ﴾ أي أتعبدون صنماً ؟ ﴿ وتذرون أحسن الخالقين . الله ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له . قال الله تعالى ﴿ فكذبوه فإنهم لمحضرون ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ أي الموحدين منهم ، وهذا استثناء منقطع من مثبت . وقوله تعالى ﴿ وتركنا عليه في الآخرين ﴾ أي ثناء جميلاً ﴿ سلام على إلياسين ﴾ كما يقال في إسماعيل : إسماعين ، وهي لغة بني أسد . ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين . إنه من عبادنا المؤمنين ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن عبده ورسوله لوط عليه السلام أنه بعثه إلى قومه فكذبوه فنجاه الله تعالى من بين أظهرهم هو وأهله إلا امرأته فإنها هلكت مع من هلك من قومها ، فإن الله تعالى أهلكهم بأنواع من العقوبات ، وجعل محلتهم من الأرض بحيرة منتنة قبيحة المنظر والطعم والريح ، وجعلها بسبيل مقيم ، يمر بها المسافرون ليلاً ونهاراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون ﴾ أي أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله

عليهم ، ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ .

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَـٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾

في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه ، وفي رواية إلى أبيه ﴿ إذ أبق إلى الفلك المشحون ﴾ هو الموقر المملوء بالأمتعة ﴿ فساهم ﴾ أي قارع ﴿ فكان من المدحضين ﴾ أي المغلوبين . وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب ، وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر لتخف بهم السفينة ، فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام ثلاث مرات ، وهم يضنون به أن يلقى من بينهم ، فتجرد من ثيابه ليلقي نفسه ، وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله حوتاً أن يشق البحار وأن يلتقم يونس عليه السلام ، فلا يهشم له لحماً ، ولا يكسر له عظماً ، فجاء ذلك الحوت ، وألقى يونس عليه السلام نفسه فالتقمه الحوت ، ﴿ فلولا أنه كان من المسبحين. للبث في بطنه إلى يوم يبعثون ﴾ قال تعالى ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين . فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ ﴿ فنبذناه ﴾ أي ألقيناه ﴿ بالعراء ﴾ في الأرض التي ليس فيها نبات ولا بناء ﴿ وهو سقيم ﴾ أي ضعيف البدن ﴿ وأنبتنا عليه شجرة من يقطين ﴾ من القرع . وذكر بعضهم في القرع فوائد : منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ، ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب وجودة تغذية ثمره ، وأنه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحب الدباء ، ويتتبعه من حواشي الصحفة . وقوله تعالى ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ قيل : إنما كانت رسالة يونس بعدما نبذه الحوت ، وقيل : أرسل اليهم قبل أن يلتقمه الحوت ، ولا مانع أن يكون الذين أرسل إليهم أولاً أمر بالعود اليهم بعد خروجه من الحوت ، فصدقوه كلهم وآمنوا به ، وحكى البغوي أنه أرسل إلى أمة أخرى بعد خروجه من الحوت كانوا مائة ألف أو يزيدون . وقوله ﴿ أو يزيدون ﴾ أي بل يزيدون ، وكانوا مائة وثلاثين ألفاً ، وقيل : أكثر . ﴿ فآمنوا ﴾ أي فآمن هؤلاء القوم الذين أرسل اليهم يونس عليه

السلام جميعهم ﴿ فمتعناهم إلى حين ﴾ أي إلى وقت آجالهم ، كقوله جلت عظمته ﴿ فلولا كانت قرية آمن فنفعها إيمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴾ (١٥٦)

يقول تعالى منكراً على هؤلاء المشركين في جعلهم لله تعالى البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، أي من الذكور ، أي يودون لأنفسهم الجيد ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ﴾ أي يسوؤه ذلك . ولا يختار لنفسه إلا البنين . يقول عز وجل : فكيف نسبوا إلى الله تعالى القَسْم الذي لا يختارونه لأنفسهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ فاستفتهم ﴾ أي سلهم على سبيل الانكار عليهم ﴿ ألربك البنات ولهم البنون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذاً قسمة ضيزى ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون ﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم كقوله جل وعلا ﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ أي يسألون عن ذلك يوم القيامة . وقوله جلت عظمته ﴿ ألا إنهم من إفكهم ﴾ أي من كذبهم ﴿ ليقولون . ولد الله ﴾ أي صدر منه الولد ﴿ وإنهم لكاذبون ﴾ فذكر الله عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب ، فجعلوهم بنات الله ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله . تعالى الله وتقدس ، وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم . ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿ أصطفى البنات على البنين ﴾ أي أيُّ شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين ؟ ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ أي أما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿ أفلا تذكرون . أم لكم سلطان مبين ﴾ أي حجة على ما تقولونه .

﴿ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٦٠)

﴿ فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين ﴾ أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب

منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوزه العقل بالكلية . وقوله تعالى ﴿ وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ﴾ قال المشركون : الملائكة بنات الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : فمن أمهاتهن ؟ قالوا : بنات سروات الجن . ﴿ ولقد علمت الجنة ﴾ أي الذين نسبوا اليهم ذلك ﴿ إنهم لمحضرون ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك وافترائهم ، وقولهم الباطل بلا علم ﴿ سبحان الله عما يصفون ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن أن يكون له ولد ، وعما يصفه به الظالمون الملحدون علواً كبيراً . وقوله تعالى ﴿ إلا عباد الله المخلصين ﴾ استثناء منقطع ، وهو من مثبت ، إلا أن يكون الضمير في قوله تعالى ﴿ عما يصفون ﴾ عائد إلى الناس جميعهم ، ثم استثنى منهم المخلصين ، وهم المتبعون للحق المنزل على كل نبي مرسل .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخاطباً للمشركين ﴿ فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم ﴾ أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضل منكم ممن ذرىء للنار ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ﴾ فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة . ثم قال تبارك وتعالى منزهاً للملائكة مما نسبوا إليه من الكفر بهم ، والكذب عليهم أنهم بنات الله ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ أي له موضع مخصوص في السموات ، ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه . روى ابن عساكر أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه : « أطت السماء ، وحق لها أن تئط ، ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد » ثم قرأ ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم . وإنا لنحن الصافون . وإنا لنحن المسبحون ﴾ وفي الحديث « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم » رواه مسروق عن عائشة في هذه الآية ، أو معناه تقدم الرجال وتؤخر النساء في صلاة الرجال والنساء جميعاً . ﴿ وإنا لنحن الصافون ﴾ أي نقف

صفوفاً في الطاعة ﴿ وإنا لنحن المسبحون ﴾ نصطف فنسبح الرب ونمجده ، ونقدسه ونـنزهه عن النقائص ، فنحن عبيد له ، فقراء إليه ، خاضعون لديه ﴿ وإن كانوا ليقولون . لو أن عندنا ذكراً من الأولين . لكنا عباد الله المخلصين ﴾ أي قد كانوا يتمنون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكرهم بأمر الله ، وما كان من أمر القرون الأولى ، ويأتيهم بكتاب الله ، ولهذا قال الله ﴿ فكفروا به فسوف يعلمون ﴾ وعيد أكيد ، وتهديد شديد على كفرهم بربهم عز وجل ، وتكذيبهم رسوله ﷺ .

(١٧١) ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٧٥﴾

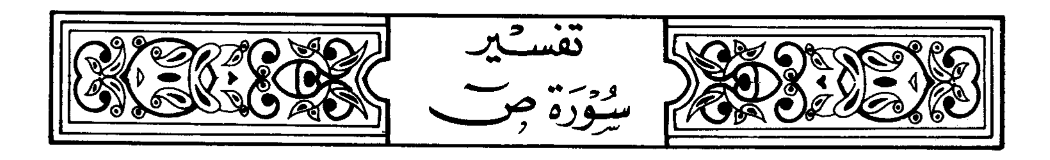
يقول تبارك وتعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ﴾ أي تقدم في الكتاب الأول أن العاقبة للرسل وأتباعهم في الدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴾ ﴿ إنهم لهم المنصورون ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ وإن جندنا لهم الغالبون ﴾ أي تكون لهم العاقبة والنصرة والظفر ﴿ وأبصرهم فسوف يبصرون ﴾ أي انظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنكال بمخالفتك وتكذيبك ، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد ﴿ فسوف يبصرون ﴾ .

(١٧٦) ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿١٧٩﴾

﴿ أفبعذابنا يستعجلون ﴾ أي هم إنما يستعجلون العذاب لتكذيبهم وكفرهم بك ، فإن الله يغضب عليهم بذلك ، ويعجل لهم العقوبة ، ومع هذا أيضاً كانوا من كفرهم وعنادهم يستعجلون العذاب والعقوبة . قال تبارك وتعالى ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ أي فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم . وثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : صبح رسول الله ﷺ خيبر ، فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش ، رجعوا وهم يقولون : محمد والله محمد والخميس ، فقال النبي ﷺ : « الله أكبر . خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » وقوله تعالى ﴿ وتولَّ عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والله سبحانه وتعالى أعلم .

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿١٨٢﴾

ينزه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ويقدسها ويبرئها عما يقول الظالمون المكذبون المعتدون ، وتنزه وتقدس عن قولهم علواً كبيراً . ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ سبحان ربك رب العزة ﴾ أي العزة التي لا ترام ﴿ عما يصفون ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين ﴿ وسلام على المرسلين ﴾ أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وحقيقته ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴾ أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال . روى الطبراني عن رسول الله ﷺ أنه قال « من قال دبر كل صلاة ﴿ سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين ﴾ ثلاث مرات فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر » . وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .



تفسير سُورَة صٓ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ ﴿٢﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة . وقوله ﴿ والقرآن ذي الذكر ﴾ أي والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ، ونفع لهم في المعاش والمعاد ﴿ ذي الذكر ﴾ كقوله تعالى ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴾ أي تذكيركم أو ﴿ ذي الذكر ﴾ ذي الشرف ، أي ذي الشأن والمكانة ، ولا منافاة بين القولين ، فإنه كتاب شريف مشتمل على التذكير والاعذار والانذار . واختلفوا في جواب القسم فقال بعضهم : هو قوله تعالى ﴿ إن كل الا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ وقيل : قوله تعالى ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ وهذا الثاني فيه بعد كبير . ﴿ في عزة ﴾ أي استكبار عنه وحمية ﴿ وشقاق ﴾ أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة .

﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴾ ﴿٣﴾

﴿كم أهلكنا من قبلهم من قرن﴾ أي من أمة مكذبة ﴿فنادوا﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى وليس ذلك بمجد عنهم شيئاً ﴿ ولات حين مناص ﴾ ليس بحين نداء ، ولا نزو ولا فرار .

(٤) ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين في تعجبهم من بعثة رسول الله ﷺ بشيراً ونذيراً ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ﴾ أي بشر مثلهم ﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب ﴾ .

(٥) ﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾

﴿ أجعل الآلهة آلهاً واحداً ﴾ أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو؟ أنكر المشركون ذلك قبحهم الله تعالى ، وتعجبوا من ترك الشرك بالله ، فإنهم كانوا قد تلقوا عن آبائهم عبادة الأوثان ، وأشربته قلوبهم ، فلما دعاهم الرسول ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم ، وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجبوا وقالوا ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ﴾ .

(٦) ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴾

﴿ وانطلق الملأ منهم ﴾ وهم سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم ﴿ أن امشوا ﴾ أي استمروا على دينكم ﴿ واصبروا على آلهتكم ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد . وقوله تعالى ﴿ إن هذا لشيء يراد ﴾ قال ابن جرير : إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء ، وأن يكون له منكم أتباع ولسنا نجيبه إليه .

(٧) ﴿ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾

﴿ ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ﴾ أي ما سمعنا بهذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ التوحيد ﴿ في الملة الآخرة ﴾ يعني النصرانية قالوا : لو كان هذا القرآن حقاً لأخبرتنا به النصارى ﴿ إن هذا إلا اختلاق ﴾ أي تخرص .

(٨) ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾

﴿ أأنزل عليه الذكر من بيننا ﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم ، ولهذا لما قالوا : هذا الذي دل على جهلهم وقلة فعلهم في استبعادهم إنزال

القرآن على الرسول من بينهم قال الله تعالى ﴿ بل لما يذوقوا عذاب ﴾ أي إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا إلى حين قولهم ذلك ، عذاب الله تعالى ونقمته ، سيعلمون غب ما قالوا ، وما كذبوا به يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً .

(٩) ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾

ثم قال تعالى مبيناً أنه المتصرف في ملكه الفعال لما يشاء الذي يعطي ما يشاء من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب ﴾ أي العزيز الذي لا يرام جنابه ، الوهاب الذي يعطي ما يريد لمن يريد .

(١٠) ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾

﴿ أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب ﴾ أي إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب .

(١١) ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾

﴿ جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب ﴾ أي هؤلاء الجند المكذبون الذين هم في عزة وشقاق سيهزمون ويغلبون ويكبتون كما كبت الذين من قبلهم من الأحزاب المكذبين .

(١٢) ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل ، وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(١٣) ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴾

وقوله تعالى ﴿ أولئك الأحزاب ﴾ أي كانوا أكثر منكم ، وأشد قوة ، وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ، ولهذا قال عز وجل :

(١٤) ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾

﴿ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ﴾ فجعل علة إهلاكهم هو تكذيبهم بالرسل ، فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر .

(١٥) ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾

﴿ وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ أي ليس لها مثنوية ، أي ما ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها أي فقد افتريت ودنت وأزفت ، وهذه الصيحة هي نفخة الفزع التي يأمر الله تعالى إسرافيل أن يطولها فلا يبقى أحد من أهل السموات والأرض إلا فزع إلا من استثنى الله عز وجل .

(١٦) ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾

هذا إنكار من الله تعالى على المشركين في دعائهم على أنفسهم بتعجيل العذاب ، فإن القط هو الكتاب ، وقيل : هو الحظ والنصيب ، قال ابن جرير : سألوا تعجيل ما يستحقونه من الخير والشر في الدنيا ، وهذا الذي قاله جيد .

(١٧) ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

ولما كان هذا الكلام منهم على وجه الاستهزاء والاستبعاد قال الله تعالى لرسوله ﷺ : آمراً له بالصبر على أذاهم ومبشراً له على صبره بالعاقبة والنصر والظفر ﴿ اصبر على ما يقولون ﴾ وقوله ﴿ واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب ﴾ يذكر تعالى عن عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام أنه كان ذا أيد ، والأيد القوة في العلم والعمل ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾ قال قتادة : أعطى داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة ، وفقهاً في الإسلام ، وقد ذكر أنه كان يقوم ثلث الليل ، ويصوم نصف الدهر ، وهذا ثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ، كان ينام في نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى ، وإنه كان أواباً » وهو الرجاع إلى الله عز وجل في جميع أموره وشؤونه .

(١٨) ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾

﴿ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق ﴾ أي إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال تعالى ﴿ يا جبال أوبي معه والطير ﴾ وكذلك كانت الجبال تسبح بتسبيحه ، وترجع بترجيعه ، إذا مر به الطير وهو سابح فسمعه ، وهو يترنم بقراءة الزبور لا يستطيع الذهاب ، بل يقف في الهواء ، ويسبح معه ، وتجيبه الجبال الشامخات ترجع معه وتسبح تبعاً له .

(١٩) ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

﴿ والطير محشورة ﴾ أي محبوسة في الهواء ﴿ كل له أواب ﴾ أي مطيع .

(٢٠) ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾
﴿ وشددنا ملكه ﴾ أي وجعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك ﴿ وآتيناه الحكمة ﴾ يعني الفهم والعقل والفطنة أو الحكمة النبوة ﴿ وفصل الخطاب ﴾ الشهود والإيمان ، أو إصابة القضاء وفهم ذلك ، أو « أما بعد » .

(٢١) ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ (٢٢)

قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الاسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ﴿ ففزع منهم ﴾ لأنه كان في محرابه ، وكان أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلا بشخصين قد تسورا عليه المحراب ، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما .

(٢٣) ﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾
﴿ وعزني في الخطاب ﴾ أي غلبني يقال : عز يعز إذا قهر وغلب .

(٢٤) ﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾
﴿ وظن داود أنما فتناه ﴾ أي اختبرناه ﴿ وخر راكعاً ﴾ أي ساجداً ﴿ وأناب ﴾ .

(٢٥) ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾
﴿ فغفرنا له ذلك ﴾ أي ما كان منه مما يقال فيه : حسنات الأبرار سيئات المقربين . والجديد من مذهب الشافعي أن سجدة « ص » ليست من عزائم السجود ، بل هي سجدة شكر ، والدليل ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس أنه قال : السجدة في « ص » ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها . ورواه البخاري وأبو داود

والترمذي والنسائي . وروى النسائي أن النبي ﷺ قال : « سجدها داود توبة ، وسجدها شكراً » وقوله تعالى ﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي وإن له يوم القيامة لقربة يقربه الله بها ، وحسن مرجع ، وهو الدرجات العالية في الجنة ، لتوبته وعدله التام في ملكه ، كما جاء في الصحيح « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا » وروى الإمام أحمد رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة ، وأقربهم منه مجلساً إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة ، وأشدهم عذاباً إمام جائر » .

(٢٦) ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾

هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد ، والعذاب الشديد . قال الوليد بن عبدالملك لأبي زرعة : أيحاسب الخليفة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنت أكرم على الله أم داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعده في كتابه فقال : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . . . ﴾ وقوله ﴿ بما نسوا يوم الحساب ﴾ أي بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب .

(٢٧) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً ، وإنما خلقهم ليعبدوه ويوحدوه ، ثم يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ، ويعذب الكافر ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا ﴾ أي الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً ، وإنما يعتقدون هذه الدار فقط ﴿ فويل للذين كفروا من النار ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدة لهم .

(٢٨) ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾

ثم بين تعالى أنه من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ أي لا نفعل ذلك ، ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها هذا المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر . وهذا الإرشاد يدل العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنه لا بد من معاد وجزاء ، فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، وترى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بد من حكمة الحكيم العليم العادل الذي لا يظلم مثقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار فتعين أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة . ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة ، والمآخذ العقلية الصريحة قال تعالى :

(٢٩) ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

أي ذوو العقول ، وهي الألباب ، جمع لب وهو العقل . قال الحسن البصري : والله ما تدبره بحفظ حروفه ، وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول : قرأت القرآن كله ، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل . رواه ابن أبي حاتم .

(٣٠) ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً أنه وهب لداود سليمان ، أي نبياً كما قال عز وجل ﴿ وورث سليمان داود ﴾ أي في النبوة ، وإلا فقد كان له بنون غيره ، فإنه كان عنده مائة امرأة حرائر . وقوله تعالى ﴿ نعم العبد إنه أواب ﴾ ثناء على سليمان بأنه كثير الطاعة والعبادة والانابة إلى الله عز وجل .

(٣١) ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾

﴿ إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد ﴾ أي إذ عرض على سليمان عليه الصلاة والسلام في حال مملكته وسلطانه الخيل الصافنات ، وهي التي تقف على ثلاث وطرف حافر الرابعة . والجياد : السراع .

(٣٢) ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾

ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر . والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً ، بل نسياناً ، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن

صلاة العصر حتى صلاها بعد المغرب ، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه . ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والخيل تراد للقتال .

(٣٣) ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾

﴿ ردوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ ثم أمر بها فعقرت . قال السدي : ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف . وعن ابن عباس جعل يمسح أعراف الخيل ، وعراقيبها حبالها . وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال : لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذنب لها . وهذا الذي رجح ابن جرير فيه نظر ، لأنه يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولاسيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوضه الله عز وجل ما هو خير منها ، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل .

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾

﴿ ولقد فتنا سليمان ﴾ أي اختبرناه بأن سلبناه الملك ﴿ وألقينا على كرسيه جسداً ﴾ يعني شيطاناً جلس على كرسيه أربعين يوماً ﴿ ثم أناب ﴾ أي رجع إلى ملكه وسلطانه وأبهته .

(٣٥) ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾

﴿ قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴾ أي لا يصلح أن يسلبنيه بعدي كما كان من قضية الجسد الذي ألقي على كرسيه ، لا أنه يحجر على من بعده من الناس ، والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله . وهذا هو ظاهر من السياق من الآية ، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تغلب عليّ البارحة ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ﴾ وكذا رواه مسلم والنسائي .

(٣٦) ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾

﴿ فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب ﴾ حيث أراد من البلاد .

(٣٧) ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴾

﴿ والشياطين كل بناء وغواص ﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غواصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها .

(٣٨) ﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾

﴿ وآخرين مقرنين في الأصفاد ﴾ أي موثوقون في الأغلال والأكيال ممن قد تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى .

(٣٩) ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

﴿ هذا عطاؤ نا فامنن أو أمسك بغير حساب ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام ، والسلطان الكامل كما سألتنا فأعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب .

(٤٠) ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾

﴿ وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب ﴾ أي في الدار الآخرة .

(٤١) ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾

﴿ بنصب وعذاب ﴾ قيل : بنصب في بدني ، وعذاب في مالي وولدي ، فعند ذلك استجاب له أرحم الراحمين .

(٤٢) ﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴾

وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ففعل ، فأنبع الله تعالى عيناً وأمره أن يغتسل منها ، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى ، ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر فأنبع له عيناً أخرى ، وأمره أن يشرب منها فأذهبت جميع ما كان في بطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ﴾ وقد كان عليه السلام أصيب في جسده حتى لم يبق فيه مغرز إبرة سليماً سوى قلبه ، ولم يبق له شيء من الدنيا يستعين به على مرضه ، غير أن زوجته حفظت وده لايمانها بالله ورسوله ، فكانت تخدم الناس بالأجرة وتطعمه وتخدم نحواً من ثماني عشرة

سنة ، وكان يخرج إلى حاجته ، فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ ، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فاستبطأته فالتفتت تنظر فأقبل عليها ـ قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ـ فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك ، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ، فوالله القدير على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ، قال : فإني أنا هو . روى الامام أحمد قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خر عليه جراد من ذهب فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه ، فناداه ربه عز وجل ، يا أيوب ، ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال عليه الصلاة والسلام بلى يا رب ، ولكن لا غنى لي عن بركتك » انفرد باخراجه البخاري . ولهذا قال تعالى :

﴿٤٣﴾ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

﴿ ووهبنا له أهله ومثلهم معهم ﴾ قال الحسن وقتادة : أحياهم الله تعالى بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم . وقوله عز وجل ﴿ رحمة منا ﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿ وذكرى لأولي الألباب ﴾ أي لذوي العقول ، ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج والمخرج والراحة .

﴿٤٤﴾ ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

﴿ وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث ﴾ وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ، ووجد عليها في أمر فعلته ، قيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إياه فلامها على ذلك وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة ، وقيل : لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة والرحمة والشفقة والاحسان أن تقابل بالضرب فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضغثاً ، وهو المشراخ فيه مائة قضيب فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برت يمينه وخرج من حنثه ، ووفى بنذره ، وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب اليه . ولهذا قال تعالى ﴿ إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب ﴾ أثنى الله عليه ومدحه بأنه رجاع منيب .

﴿٤٥﴾ ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

يخبر تعالى عن فضائل عباده المرسلين ، وأنبيائه العابدين ﴿ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار ﴾ يعني بذلك العمل الصالح والعلم النافع ، والقوة في العبادة ، والبصيرة النافذة ﴿ أولي الأيدي ﴾ أولي القوة ﴿ والأبصار ﴾ الفقه في الدين .

(٤٦) ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾

﴿ إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار ﴾ أي جعلناهم يعملون للآخرة ، نزع الله من قلوبهم حب الدنيا وذكرها ، وأخلصهم بحب الآخرة وذكرها .

(٤٧) ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾

﴿ وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ أي لمن المختارين المجتبين الأخيار ، فهم أخيار مختارون .

(٤٨) ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ (٤٨) هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ (٤٩)

﴿ واذكر اسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار هذا ذكر ﴾ أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكر ، أو هو القرآن العظيم . يخبر تعالى عن عباده المؤمنين السعداء أن لهم في الدار الآخرة لحسن مآب ، وهو المرجع والمنقلب . ثم فسره بقوله تعالى .

(٥٠) ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾

﴿ جنات عدن ﴾ أي جنات إقامة ﴿ مفتحة لهم الأبواب ﴾ أي مفتحة لهم أبوابها ، أي إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها .

(٥١) ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾

﴿ متكئين فيها ﴾ قيل : متربعين على سرر تحت الحجال ﴿ يدعون فيها بفاكهة كثيرة ﴾ أي مهما طلبوا وجدوا وأحضروا كما أرادوا ﴿ وشراب ﴾ أي من أي أنواعه شاؤوا وأتتهم به الخدم.

(٥٢) ﴿ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴾

﴿ وعندهم قاصرات الطرف ﴾ أي عن غير أزواجهن ، فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ أتراب ﴾ أي متساويات في السن والعمر .

(٥٣) ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾

﴿ هذا ما توعدون ليوم الحساب ﴾ أي هذا الذي ذكرناه من صفة الجنة هي التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون اليها بعد بعثهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار .

﴿٥٤﴾ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾

ثم أخبر تعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء فقال تعالى ﴿ إن هذا لرزقنا ما له من نفاد ﴾ كقوله تعالى ﴿ ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ﴾ وكقوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ وكقوله ﴿ لهم أجر غيرَ ممنون ﴾ أي غير مقطوع وكقوله ﴿ اكلها دائم وظلها ﴾ .

﴿٥٥﴾ ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ ﴿٦٤﴾

لما ذكر تبارك وتعالى مآل السعداء ثنى بذكر حال الأشقياء ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال عز وجل : ﴿ هذا وإن للطاغين ﴾ وهم الخارجون عن طاعة الله عز وجل ، المخالفون لرسل الله ﷺ ﴿ لشر مآب ﴾ أي لسوء منقلب ومرجع . ثم فسره بقوله جل وعلا ﴿ جهنم يصلونها ﴾ أي يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ فبئس المهاد . هذا فليذوقوه حميم وغساق ﴾ أما الحميم فهو الحائر الذي قد انتهى حره ، وأما الغساق فهو ضده ، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم ، ولهذا قال عز وجل ﴿ وآخر من شكله أزواج ﴾ أي وأشياء من هذا القبيل : الشيء وضده يعاقبون بها ، أو ألوان من العذاب كالزمهرير والسموم وشرب الحميم وأكل الزقوم والصعود والهوى إلى غير ذلك من الأشياء المتضادة ﴿هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ﴿ مقتحم ﴾ أي داخل معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار ﴾ أي لأنهم من أهل جهنم فيقول لهم الداخلون : ﴿ بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا﴾ أي أنتم دعوتمونا إلى ما أفضى بنا إلى هذا المصير ﴿فبئس القرار﴾ أي فبئس المنزل والمستقر والمصير . ﴿ قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار ﴾ كما قال تعالى ﴿ قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً في النار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ﴾ أي لكل منكم عذابه بحسبه . ﴿ وقالوا ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار . أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ هذا إخبار عن

الكفار في النار أنهم يفتقدون رجالاً كانوا يعتقدون أنهم على ضلالة ، وهم المؤمنون في زعمهم ﴿ أتخذناهم سخرياً ﴾ أي في دار الدنيا ﴿ أم زاغت عنهم الأبصار ﴾ يسلُّون أنفسهم بالمحال ، يقولون : أو لعلهم معنا في جهنم ، ولكن لم يقع بصرنا عليهم ، فعند ذلك يعرفون أنهم في الدرجات العاليات ﴿ إن ذلك لحق تخاصم أهل النار ﴾ إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ولعن بعضهم لحقٌّ لا مرية فيه ولا شك .

﴿٦٥﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله ﴿ إنما أنا منذر ﴾ لست كما تزعمون ، ﴿ وما من إلَه إلا الله الواحد القهار ﴾ أي هو وحده قد قهر كل شيء وغلبه .

﴿٦٦﴾ ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴾

﴿ رب السموات والأرض ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرف فيه ﴿ العزيز الغفار ﴾ أي غفار مع عظمته وعزته .

﴿٦٧﴾ ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿٦٨﴾

﴿ قل هو نبأ عظيم ﴾ أي خبر عظيم ، وشأن بليغ ، وهو إرسال الله تعالى إيايَ إليكم أو هو القرآن . ﴿ أنتم عنه معرضون ﴾ أي غافلون .

﴿٦٩﴾ ﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجته ربه في تفضيله عليه . روى الامام أحمد عن معاذ رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج ﷺ فثوب بالصلاة فصلى وتجوز في صلاته ، فلما سلم قال ﷺ : « كما أنتم » ثم أقبل الينا فقال : « إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت ، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة ، فقال يا محمد : أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري ـ أعادها ثلاثاً ـ فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري ، فتجلى لي كل شيء وعرفت ، فقال : يا محمد ، فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في

الكفارات ، قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات ، قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم ، إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك ـ وقال رسول الله ﷺ : إنها حق ، فادرسوها وتعلموها » هذا حديث المنام المشهور ، ومن جعله يقظة فقد غلط ، وهو في السنن من طرق . وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن ، فإن هذا قد فسر ، وأما الاختصام الذي في القرآن فقد فسر بعد هذا ، وهو قوله تعالى : ﴿ إذ قال ربك ... ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ ﴿٨١﴾

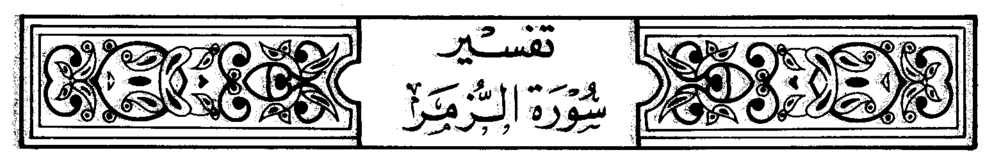
أعلم الله الملائكة قبل خلق آدم بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إعظاماً وإكراماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله عز وجل ، فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنساً ، كان من الجن فخانه طبعه وجبلته احوج ما كان إليه ، فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادعى أنه خير من آدم ، فإنه مخلوق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى وكفر بذلك فأبعده الله عز وجل وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ، ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة ، وأنزل من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه ، فلما أمن الهلاك إلى يوم القيامة تمرد وطغى وقال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿٨٥﴾

﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى ، وهي قوله تعالى ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ قال فالحق والحق أقول . لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ﴾ أي أنا الحق ، والحق أقول .

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ ﴿٨٨﴾

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين : ما أسألكم على هذا البلاغ وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ﴿ وما أنا من المتكلفين ﴾ أي وما أريد على ما أرسلني الله تعالى به ، ولا أبتغي زيادة عليه ، بل ما أمرت به أديته ، لا أزيد عليه ولا أنقص منه ، وإنما أبتغي بذلك وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، وعن ابن مسعود قال : يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ، ومن لم يعلم ، فليقل : الله اعلم ، فإن من العلم أن يقول الرجل لما لا يعلم : الله أعلم ، فإنه عز وجل قال لنبيكم ﷺ ﴿ قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين ﴾ ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ يعني القرآن ، فإنه ذكر لجميع المكلفين من الإنس والجن . ﴿ للعالمين ﴾ الإنس والجن . وقوله ﴿ ولتعلمن نبأه ﴾ أي خبره وصدقه ﴿ بعد حين ﴾ أي عن قريب ، وقيل : يوم القيامة .



تفسير سُورَةُ الزُّمَرِ

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول ما يريد أن يفطر ، ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم ، وكان ﷺ يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿١﴾

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب ، وهو القرآن العظيم من عنده تبارك وتعالى ، فهو الحق

الذي لا مرية فيه ، ولا شك ، ﴿ العزيز ﴾ أي المنيع الجناب ﴿ الحكيم ﴾ أي في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(٢) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾

﴿ فاعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي فاعبد الله وحده لا شريك له ، وادع الخلق إلى ذلك ، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ، ولهذا قال :

(٣) ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له ، أو الدين الخالص : شهادة أن لا إلٓه إلا الله . ثم أخبر عز وجل عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفىٰ ﴾ أي إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين في زعمهم فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله تعالى في نصرهم ورزقهم ، وما ينوب بهم من أمور الدنيا ، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به .

(٤) ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء ﴾ أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون ، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عز وجل ﴿ لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين ﴾ ﴿ قل إن كان للرحمٰن ولد فأنا أول العابدين ﴾ كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم . ﴿ سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كل شيء عبد لديه ، فقير إليه ، وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء فدانت له ، وذلت وخضعت . تبارك وتعالى عما يقول الظالمون الجاحدون علواً كبيراً .

(٥) ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ

ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾

يختبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض وما بين ذلك من الأشياء ، وبأنه مالك الملك ، المتصرف فيه ، يقلب ليله ونهاره ﴿ يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل ﴾ أي سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر حثيثاً ، كقوله تبارك وتعالى ﴿ يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً ﴾ وقوله عز وجل ﴿ وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ﴾ أي إلى مدة معلومة عند الله تعالى ، ثم ينقضي يوم القيامة ﴿ ألا هو العزيز الغفار ﴾ أي مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ، ثم تاب وأناب إليه .

(٦) ﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾

﴿ خلقكم من نفس واحدة ﴾ أي خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم وألسنتكم وألوانكم من نفس واحدة ، وهو آدم عليه السلام ﴿ ثم جعل منها زوجها ﴾ وهي حواء عليها السلام ﴿ وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ﴾ أي وخلق لكم من ظهور الأنعام ثمانية أزواج ، وهي المذكورة في سورة الأنعام وثمانية أزواج من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين . وقوله عز وجل ﴿ يخلقكم في بطون أمهاتكم ﴾ أي قدركم في بطون أمهاتكم ﴿ خلقاً من بعد خلق ﴾ يكون أحدكم أولاً نطفة ، ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة ، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصباً وعروقاً وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ في ظلمات ثلاث ﴾ يعني في ظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة التي هي كالغشاوة والوقاية على الولد وظلمة البطن . وقوله جل جلاله ﴿ ذلكم الله ربكم ﴾ أي هذا الذي خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم هو الرب له الملك والتصرف في جميع ذلك ﴿ لا إله إلا هو ﴾ أي الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿ فأنى تصرفون ﴾ أي فكيف تعبدون معه غيره ؟ أين يذهب بعقولكم ؟

(٧) ﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن نفسه تبارك وتعالى أنه الغني عما سواه من المخلوقات كما قال موسى عليه الصلاة والسلام ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وفي صحيح مسلم « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً » وقوله تعالى ﴿ ولا يرضى لعباده الكفر ﴾ أي لا يحبه ولا يأمر به ﴿ وإن تشكروا يرضه لكم ﴾ أي يحبه لكم ويزدكم من فضله ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي لا تحمل نفس عن نفس شيئاً ، بل كل مطالب بأمر نفسه ﴿ ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي فلا تخفى عليه خافية .

(٨) ﴿ * وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

﴿ وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منيباً إليه ﴾ أي عند الحاجة يتضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ﴿ ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل ﴾ أي في حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع ﴿ وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴾ أي في حال العافية يشرك بالله ، ويجعل له أنداداً ﴿ قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار ﴾ أي قل لمن هذه حالته وطريقته ومسلكه ﴿ تمتع بكفرك قليلاً ﴾ وهو تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، كقوله تعالى ﴿ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴾ .

(٩) ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

يقول عز وجل : أمن هذه صفته كمن أشرك بالله وجعل له أنداداً ؟ لا يستوون عند الله ، كما قال تعالى ﴿ ليسوا سواء ﴾ ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ أي في حال سجوده وفي حال قيامه ، والقنوت هو الخشوع في الصلاة والطاعة لله عز وجل ولرسوله ﷺ ﴿ آناء الليل ﴾ جوف الليل . ﴿ يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ﴾ أي في حال عبادته خائف راج ، ولا بد في العبادة من هذا وهذا ، وأن يكون الخوف في مدة الحياة هو الغالب ، فإذا كان الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه . روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : دخل رسول الله ﷺ على رجل وهو في الموت ، فقال له : « كيف

تجدك ؟ » فقال : أرجو وأخاف ، فقال رسول الله ﷺ : « لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله عز وجل الذي يرجو وأمنه الذي يخافه » ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ أي هل يستوي هذا والذي قبله ممن جعل لله أنداداً ليضل عن سبيله ﴿ إنما يتذكر أولوا الألباب ﴾ أي إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب ، وهو العقل .

(١٠) ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ﴾ أي لمن أحسن العمل في هذه الدنيا حسنة في دنياهم وأخراهم . ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ فهاجروا فيها وجاهدوا واعتزلوا الأوثان . وعن عطاء في قوله تبارك وتعالى ﴿ وأرض الله واسعة ﴾ قال : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ثم قرأ ﴿ ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ يعني في الجنة .

(١١) ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾

﴿ قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ﴾ أي إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له .

(١٢) ﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ وأمرت لأن أكون أول المسلمين ﴾ قال السدي : يعني من أمته ﷺ .

(١٣) ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد ، وأنت رسول الله ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ وهو يوم القيامة ، وهذا شرط ، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والأحرى .

(١٤) ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى (١٤) فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (١٥)

﴿ قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ﴾ وهذا أيضاً تهديد وتبر منهم ﴿ قل إن الخاسرين ﴾ أي إنما الخاسرون كل الخسران ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أي تفارقوا فلا التقاء لهم أبداً ، وسواء ذهب أهلوهم إلى الجنة وقد ذهبوا إلى النار ، أو أن الجميع أسكنوا النار ، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور . ﴿ ألا ذلك هو الخسران المبين ﴾ أي هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح .

(١٦) ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾

ثم وصف حالهم في النار فقال ﴿ لهم من فوقهم ظلل من النارومن تحتهم ظلل ﴾ كما قال عز وجل ﴿ لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش وكذلك نجزي الظالمين ﴾ . وقال تعالى ﴿ يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون ﴾ وقوله جلاله ﴿ ذلك يخوف الله به عباده ﴾ أي إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده لينزجروا عن المحارم والمآثم . وقوله تعالى ﴿ يا عباد فاتقون ﴾ أي اخشوا بأسي وسطوتي وعذابي ونقمتي .

(١٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾

﴿ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها ﴾ قيل : نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبي ذر الغفاري ، وسلمان الفارسي ، والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم ممن اجتنب عبادة الأوثان وأناب إلى عبادة الرحمٰن ، فهؤلاء هم الذين ﴿ لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ . ثم قال تعالى ﴿ فبشر عباد ﴾ .

(١٨) ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾

﴿ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ﴾ أي يفهمون ويعملون بما فيه كقوله تعالى ﴿ فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ ﴿ أولئك الذين هداهم الله ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة ﴿ وأولئك هم أولوا الألباب ﴾ أي ذوو العقول الصحيحة والفطر المستقيمة .

(١٩) ﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴾

يقول تعالى : أفمن كتب الله أنه شقي تقدر أن تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك ؟ أي لا يهديه أحد من بعد الله ، لأنه من يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهده فلا مضل له . ﴿ أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار ﴾ .

(٢٠) ﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

ثم أخبر عز وجل عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة ، وهي القصور الشاهقة ﴿ من فوقها غرف مبنية ﴾ طباق فوق طباق ، مبنيات محكمات ، مزخرفات عاليات . روى الامام أحمد رحمه الله عن رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفاً يرى بطونها من ظهورها ، وظهورها من بطونها » فقال أعرابي : لمن هي يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « لمن أطاب الكلام ، وأطعم الطعام ، وصلى بالليل والناس نيام » ورواه الترمذي وروى الامام أحمد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف كما تراءون الكوكب الدري الغارب في الأفق الطالع في تفاضل أهل الدرجات ، فقالوا : يا رسول الله : أولئك النبيون ؟ فقال ﷺ : « بلى ، والذي نفسي بيده ، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل » ورواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

(٢١) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَـٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَـٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ (٢١) أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢٢)

يخبر تعالى عن أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال عز وجل ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، وينبعه عيوناً ما بين صغار وكبار بحسب الحاجة اليه ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ (ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ﴾ أي ثم يخرج بالماء النازل من السماء والنابع من الأرض زرعاً مختلفاً ألوانه ، أي أشكاله وطعومه وروائحه ومنافعه ﴿ ثم يهيج ﴾ أي بعد نضارته وشبابه يكتهل فتراه مصفراً قد خالطه اليبس ﴿ ثم يجعله حطاماً ﴾ أي ثم يعود يابساً يتحطم ﴿ إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب ﴾ أي الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا تكون خضرة نضرة حسناء ثم تعود عجوزاً شوهاء ، والشاب يعود شيخاً هرماً كبيراً ضعيفاً وبعد ذلك يموت ، فالسعيد من كان حاله بعد . إلى خير . وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء ، وينبت به زروعاً وثماراً ، ثم يكون بعد ذلك حطاماً كما قال تعالى ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه

الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ﴾ أي فلا تلين عند ذكره ، ولا تخشع ولا تعي ولا تفهم ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ .

(٢٣) ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

هذا مدح من الله عز وجل لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم قال الله تعالى هو ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني ﴾ . الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف ، أو ﴿ مثاني ﴾ هو ترديد القول ليفهموا عن ربهم تبارك وتعالى ، أو تكون في السورة آية ، وفي السورة الأخرى آية تشبهها ، أو القرآن يشبه بعضه بعضاً ويرد بعضه على بعض ، أو إن سياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد فهذان من المتشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ، ثم صفة النار ، وما اشبه هذا ، فهذا من المثاني كقوله ﴿ إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم ﴾ ، وأما اذا كان السياق كله في معنى واحد يشبه بعضه بعضاً فهو المتشابه . وليس هذا من المتشابه المذكور في قوله تعالى ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ﴾ ذاك معنى آخر . وقوله تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . . ﴾ أي هذه هي صفات الأبرار ، عند سماع كلام الجبار المهيمن العزيز الغفار ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد ، والتخويف والتهديد ، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف ﴿ ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ لما يرجون ويأملون من رحمته ولطفه ، فهم مخالفون لغيرهم من الفجار ﴿ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ﴾ أي هذه صفة من هداه الله ، ومن كان على خلاف ذلك فهو ممن أضله الله ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

(٢٤) ﴿ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ﴾ ويقرّع ، فيقال له ولأمثاله من الظالمين ﴿ ذوقوا ما كنتم تكسبون ﴾ كمن يأتي آمناً يوم القيامة كما قال تعالى ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾ وقوله ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ .

(٢٥) ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

﴿ كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ يعني القرون الماضية

المكذبة للرسل أهلكهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق .

(٢٦) ﴿ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ﴾ أي بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشفي المؤمنين منهم ، فليحذر المخاطبون من ذلك ، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل ، وخاتم الأنبياء ﷺ . والذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا ، ولهذا قال جل جلاله ﴿ ولعذاب الآخرة اكبر لو كانوا يعلمون ﴾ .

(٢٧) ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ﴾ أي بينا فيه بضرب الأمثال ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان كما قال تبارك وتعالى ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ﴾ وقال ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ﴾ .

(٢٨) ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

﴿ قرآناً عربياً غير ذي عوج ﴾ أي هو قرآن بلسان عربي مبين ، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس ، بل هو بيان ووضوح وبرهان ، وإنما جعله الله كذلك ، وأنزله بذلك ﴿ لعلهم يتقون ﴾ أي يحذرون ما فيه من الوعيد ، ويعملون بما فيه من الوعد .

(٢٩) ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ﴾ أي يتنازعون في ذلك العبد المشترك بينهم ﴿ ورجلاً سلماً ﴾ أي مسالماً ﴿ لرجل ﴾ أي خالصاً لا يملكه أحد غيره ﴿ هل يستويان مثلاً ؟ ﴾ أي لا يستوي هذا وهذا ، كذلك لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله ، والمؤمن المخلص الذي لا يعبد الا الله وحده لا شريك له فأين هذا من هذا ؟ ولما كان هذا المثل ظاهراً بيناً جلياً قال ﴿ الحمد لله ﴾ أي على إقامة الحجة عليهم ﴿ بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي فلهذا يشركون بالله .

(٣٠) ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (٣١)

﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ هذه الآية من الآيات التي استشهد بها الصديق رضي الله عنه

عند موت الرسول ﷺ حتى تحقق الناس موته مع قوله عز وجل ﴿ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين ﴾ ومعنى هذه الآية أنكم ستنقلون من هذه الدار لا محالة ، وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة ، وتختصمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشرك بين يدي الله عز وجل فيفصل بينكم ، ويفتح بالحق ، وهو الفتاح العليم ، فينجي المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين . ثم إن هذه الآية ، وإن كان سياقها في المؤمنين والكافرين ، وذكر الخصومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شاملة لكل متنازعين في الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة. عن ابن الزبير قال: لما نزلت ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزبير: يا رسول الله: أتكرر علينا الخصومة؟ ﷺ: «نعم» قال رضي الله عنه: إن الأمر إذاً لشديد . رواه ابن أبي حاتم والامام احمد ، وعنده زيادة : ولما نزلت ﴿ ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم ﴾ قال الزبير : أي رسول الله ، أي نعيم تسأل عنه ؟ وإنما نعيمنا الأسودان : الثمر والماء ، قال ﷺ : « أما إن ذلك سيكون » .

(٣٢) ﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾

يقول عز وجل مخاطباً للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولداً ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ومع هذا كذبوا بالحق اذ جاءهم على ألسنة الرسل ، ولهذا قال تعالى ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه ﴾ أي لا أحد أظلم من هذا ، لأنه جمع بين طرق الباطل ، كذب على الله ، وكذب رسول الله وقال الباطل ، ورد الحق ، ولهذا قال تعالى ﴿ أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ وهم الجاحدون المكذبون .

(٣٣) ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾

﴿ والذي جاء بالصدق وصدق به ﴾ الذي جاء بالصدق هو رسول الله ، ﴿ وصدق به ﴾ هم المؤمنون المسلمون ﴿ أولئك هم المتقون ﴾ اتقوا الشرك .

(٣٤) ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ لهم ما يشاؤ ون عند ربهم ﴾ يعني في الجنة ، مهما طلبوا وجدوا ﴿ ذلك جزاء المحسنين ﴾ .

(٣٥) ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ﴾ كما قال جل جلاله ﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

(٣٦) ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾

﴿ أليس الله بكاف عبده ﴾ يعني أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه . روى ابن أبي حاتم عن رسول الله ﷺ « قد أفلح من هدى إلى الإسلام ، وكان عيشه كفافاً ، وقنع به » ورواه الترمذي والنسائي ﴿ ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ يخوف المشركون الرسول ﷺ ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلاً منهم وضلالاً . قال عز وجل ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

(٣٧) ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾

﴿ ومن يهد الله فما له من مضل أليس الله بعزيز ذي انتقام ﴾ ؟ أي منيع الجناب ، لا يضام من استند إلى جنابه ، ولجأ إلى بابه ، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ، ولا أشد انتقاماً منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ .

(٣٨) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾

﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله ﴾ يعني المشركين ، كانوا يعترفون بأن الله عز وجل هو الخالق للأشياء كلها ، ومع هذا يعبدون معه غيره مما لا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته ﴾ أي لا تستطيع شيئاً من الأمر . روى ابن أبي حاتم مرفوعاً « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك ،

جفت الصحف ، ورفعت الأقلام ، واعمل لله بالشكر في اليقين ، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً » ﴿ قل حسبي الله ﴾ أي الله كافيّ ﴿ عليه يتوكل المتوكلون ﴾ روى ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ : « من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله تعالى ، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله عز وجل أوثق منه بما في يديه ، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليتق الله عز وجل » .

(٣٩) ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قل يا قوم اعملوا على مكانتكم ﴾ أي على طريقتكم ، وهذا تهديد ووعيد ﴿ إني عامل ﴾ أي على طريقتي ومنهجي ﴿ فسوف تعلمون ﴾ أي ستعلمون غب ذلك ووباله .

(٤٠) ﴿ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

﴿ من يأتيه عذاب يخزيه ﴾ أي في الدنيا ﴿ ويحل عليه عذاب مقيم ﴾ أي دائم مستمر لا محيد له عنه ، وذلك يوم القيامة . أعاذنا الله منها .

(٤١) ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ للناس بالحق ﴾ أي لجميع الخلق من الإنس والجن لتنذرهم به ﴿ فمن اهتدى فلنفسه ﴾ أي فإنما يعود نفع ذلك الى نفسه ﴿ ومن ضل فإنما يضل عليها ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك على نفسه ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي بموكل أن تهتدوا .

(٤٢) ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء ، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى بما يرسل من الحفظة الذين يفيضونها من الأبدان والوفاة الصغرى عند المنام ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى اجل مسمى ثم اليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون . وهو القاهر

فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ فذكر الوفاتين : الصغرى ثم الكبرى ، وفي هذه الآية ذكر الكبرى والصغرى ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى ﴾ فيه دلالة على انها تجتمع في الملأ الأعلى ، كما ورد وفي الحديث المرفوع عن رسول الله ﷺ « إذا أوى أحدكم الى فراشه فلينفض بداخله إزاره ، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ، ثم ليقل : باسمك ربي وضعت جنبي ، وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » ﴿ فيمسك التي قضى عليها الموت ﴾ التي قد ماتت ويرسل الأخرى الى أجل مسمى . ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله ، وهم الأصنام والأنداد التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها عقل تعقل به ، ولا سمع تسمع به ، ولا بصر تبصر به ، بل هي حجارات أسوأ حالاً من الحيوان بكثير ، ثم قال : قل : أي يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعاء لهم عند الله تعالى : أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له ،فمرجعها كلها اليه ﴿ من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه ﴾ ﴿ له ملك السموات والأرض ﴾ أي هو المتصرف في جميع ذلك ﴿ ثم اليه ترجعون ﴾ أي يوم القيامة فيحكم بينكم بعدله ، ويجزي كلاً بعمله .

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

﴿ وإذا ذكر الله وحده ﴾ أي إذا قيل : لا آله الا الله وحده ﴿ اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ أي انقبضت ونفرت ، أو كفرت واستكبرت كما قال تعالى ﴿ إنهم كانوا اذا قيل لهم : لا إلَه إلا الله يستكبرون ﴾ أي عن المتابعة والانقياد لها ، فقلوبهم لا تقبل الخير ، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر ﴿ وإذا ذكر الذين من دونه ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ إذا هم يستبشرون ﴾ أي يفرحون ويسرون .

(٤٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى بعد ما ذكر المشركين ما ذكر من المذمة لهم في حبهم الشرك ونفرتهم عن التوحيد ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ﴾ أي أدع الله وحده لا شريك له الذي خلق السموات والأرض وفطرها أي جعلها على غير مثال سبق ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ أي السر العلانية ﴿ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي في دنياهم، أي ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم وقيامهم من قبورهم.

(٤٧) ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾

﴿ ولو أن للذين ظلموا ﴾ وهم المشركون ﴿ وما في الأرض جميعاً ومثله معه ﴾ أي ولو أن ما في الأرض وضعفه معه ﴿ لافتدوا به من سوء العذاب ﴾ أي الذي أوجبة الله تعالى لهم يوم القيامة ، ومع هذا لا يقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾ أي وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن في بالهم ولا في حسابهم .

(٤٨) ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ وبدا لهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا في الدار الدنيا من المحارم والمآثم ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي وأحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به في الدار الدنيا .

(٤٩) ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن الإنسان أنه في حال الضراء يتضرع الى الله عز وجل ، وينيب اليه ، ويدعوه ، وإذا خوله نعمة بغى وطغى وقال ﴿ إنما أوتيته على علم ﴾ أي لما يعلم الله تعالى من استحقاقي له ، ولولا أني عند الله خصيص لما خولني ، قال قتادة ، ﴿ على علم عندي ﴾ على خبر عندي . قال الله عز وجل ﴿ بل هي فتنة ﴾ أي ليس الأمر كما زعم ، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه أيطيع أم يعصي ؟ مع

علمنا المتقدم بذلك فهي فتنة أي اختبار ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون ، ويدعون ما يدعون .

(٥٠) ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي قد قال هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم. ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ أي فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون .

(٥١) ﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

﴿ فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء ﴾ أي من المخاطبين ﴿ سيصيبهم سيئات ما كسبوا ﴾ أي كما أصاب أولئك ﴿ وما هم بمعجزين ﴾ .

(٥٢) ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يوسعه على قوم ، ويضيقه على آخرين ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ أي لعبراً وحججاً .

(٥٣) ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم الى التوبة والانابة وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب منها ، ورجع عنها ، وإن كانت مهما كانت وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر ، ولا يصح حمل هذا على غير توبة لأن الإله لا يغفر لمن لم يتب منه ،روى البخاري أن ناساً من اهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا ، وزنوا فأكثروا ، فأتوا محمداً ﷺ فقالوا : إن الذي تقول وتدعوا اليه لحسن ، لو تخبرنا أن لما عملنا وكفارة فنزل ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخـر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ﴾ ونزل ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . . ﴾ ورواه مسلم وأبو داوود النسائي .

(٥٤) ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾

﴿ وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له . . . ﴾ أي ارجعوا الى الله واستسلموا له ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴾ أي بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة .

(٥٥) ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم ﴾ وهو القرآن العظيم ﴿ من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون ﴾ أي من حيث لا تعلمون ولا تشعرون .

(٥٦) ﴿ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾

﴿ أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله ﴾ أي يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة ، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل . وقوله تبارك وتعالى ﴿ وإن كنت لمن الساخرين ﴾ أي انما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزيء ، غير موقن مصدق .

(٥٧) ﴿ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ (٥٧) أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ (٥٨)

﴿ أو أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين ﴾ . أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين ﴾ أي تود لو أعيدت الى الدنيا لتحسن العمل .

(٥٩) ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾

أي قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا ، وقامت حججي عليك فكذبت واستكبرت عن اتباعها ، وكنت من الكافرين بها الجاحدين لها .

(٦٠) ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه ، وتبيض وجوه ، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف ، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، قال تعالى ههنا ﴿ ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله ﴾ أي في دعواهم شريكاً وولداً ﴿ وجوههم مسودة ﴾ أي بكذبهم وافترائهم . وقوله تعالى ﴿ أليس في جهنم مثوى للمتكبرين ﴾ أي أليست جهنم كافية سجناً وموئلاً لهم ، فيها الخزي والحق والهوان بسبب تكبرهم وتجبرهم وإبائهم عن الانقياد للحق .

(٦١) ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ وينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم ﴾ أي بما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لا يمسهم السوء ﴾ أي يوم القيامة . ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ أي ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم امنو له من كل فزع ، مزحزحون عن كل شر ، نائلون كل خير .

(٦٢) ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكها ، والمتصرف فيها ، وكل تحت تدبيره وقهره وكلاءته .

(٦٣) ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ المقاليد هي المفاتيح . أو خزائن السموات والأرض ، والمعنى أن أزمة الأمور بيده وتبارك وتعالى ، له الملك والحمد ، وهو على كل شيء قدير ﴿ والذين كفروا بآيات الله ﴾ أي بحججه وبراهينه ﴿ أولئك هم الخاسرون ﴾ .

(٦٤) ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (٦٥)

﴿ قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . . . ﴾ عن ابن عباس أن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ الى عبادة آلهتهم ، ويعبدوا معه آلهة فنزلت . وهذه كقوله تعالى ﴿ ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون ﴾ .

(٦٦) ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

﴿ بل الله فاعبدوكن من الشاكرين ﴾ أي أخلص العبادة لله وحده لا شريك له أنت ومن اتبعك وصدقك .

(٦٧) ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾ أي ما قدر المشركون الله حق قدره حين عبدوا معه غيره ، وهو العظيم الذي لا أعظم منه ، القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء ، وكل شيء تحت قدره وقدرته . روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر من الأحبار الى

رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد ، إن الله عز وجل يجعل السموات على اصبع ، والأرض على اصبع ، والشجر على اصبع ، والماء والثرى على اصبع ، وسائر الخلق على اصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر ، ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه . . . ﴾ ورواه الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي .

٦٨ ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى مخبراً عن هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الآيات العظيمة ، والزلازل الهائلة ﴿ ونفخ في الصور . . . ﴾ هذه النفخة هي الثانية ، وهي نفخة الصعق ، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض الا من شاء الله ، كما جاء مصرحاً به مفسراً في حديث الصور المشهور ، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت وينفرد الحي القيوم الذي كان أولاً ، وهو الباقي آخراً بالديمومة والبقاء ويقول ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه فيقول ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أنا الذي كنت وحدي ، وقد قهرت كل شيء ، وحكمت بالفناء على كل شيء ، ثم يحي أول من يحي إسرافيل ، ويأمره أن ينفخ في الصور أخرى ، وهي النفخة الثالثة : نفخة البعث ، قال الله عز وجل ﴿ ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾ أي أحياء بعد ما كانوا عظاماً ورفاتاً صاروا أحياء ينظرون الى أهوال يوم القيامة ، كما قال تعالى ﴿ فإنما هي زجرة واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ .

٦٩ ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وأشرقت الأرض بنور ربها ﴾ أي أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق جل وعلا للخلائق لفصل القضاء ﴿ ووضع الكتاب ﴾ كتاب الأعمال ﴿ وجيء بالنبيين ﴾ يشهدون على الأمم بأنهم يلقوهم رسالات اليهم ﴿ والشهداء ﴾ أي الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر ﴿ وقضي بينهم بالحق ﴾ أي بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .

(٧٠) ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾

﴿ ووفيت كل نفس ما عملت ﴾ أي من خير وشر ﴿ وهو أعلم بما يفعلون ﴾ .

(٧١) ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

يخبر تعالى عن الأشقياء الكفار كيف يساقون للنار،وإنما يساقون سوقاً عنيفاً بزجر وتهديد ووعيد كما قال عز وجل ﴿ يوم يدعون الى نار جهنم دعا﴾ أي يدفعون اليها دفعاً ، وهذا وهم عطاش ظماء ﴿ حتى إذا جاؤ وها فتحت أبوابها ﴾ أي بمجرد وصولهم اليها فتحت لهم أبوابها سريعاً لتعجل لهم العقوبة ،ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية الذين هم غلاظ الأخلاق شداد القوى على وجه التقريع والتوبيخ والتنكيل﴿ ألم يأتكم رسل منكم ﴾ ؟ أي من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والأخذ عنهم ﴿ يتلون عليكم آيات ربكم ﴾ أي يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة دعواكم اليه ﴿ وينذرونكم لقاء يومكم هذا ﴾ أي ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم ﴿ بلى ﴾ أي قد جاؤ ونا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين ﴾ أي ولكن كذبناهم وخالفناهم لما سبق لنا من الشقوة التي كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق الى الباطل .

(٧٢) ﴿ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ولهذا لم يسند هذا القول الى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم يستحقون ما هم فيه بما يحكم العدل الخبير عليهم به ولهذا قال جل وعلا ﴿ قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ﴿ فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي فبئس المقيل لكم بسبب تكبركم في الدنيا ، وإبائكم عن اتباع الحق ، فهو الذي صيركم الى ما أنتم فيه فبئس الحال ، وبئس المآل .

(٧٣) ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفداً الى الجنة زمراً ، أي جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة يناسب بعضها بعضاً . ﴿ حتى اذا جاؤ وها ﴾ أي وصلوا الى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط ، على قنطرة بين الجنة والنار، فاقتضى لهم مظالم كانت بينهم في الجنة، حتى اذا هذبوا ونقوا اذن لهم في دخول الجنة ﴿ حتى اذا جاؤ وها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ﴾ لم يذكر الجواب ههنا ، وتقديره حتى اذا جاؤ وها وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً ، وتلقتهم الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء كما تلقى الزبانية الكفرة بالتثريب والتأنيب ، فتقديره اذا كان هذا سعدوا وطابوا وسرو او فرحوا ، واذا حذف الجواب ههنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل . ومن زعم أن الواو في قوله ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ واو الثمانية ، واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ « ان في الجنة ثمانية أبواب ، باب فيها يسمى باب الريان لا يدخله الا الصائمون » رواه البخاري وسلم .

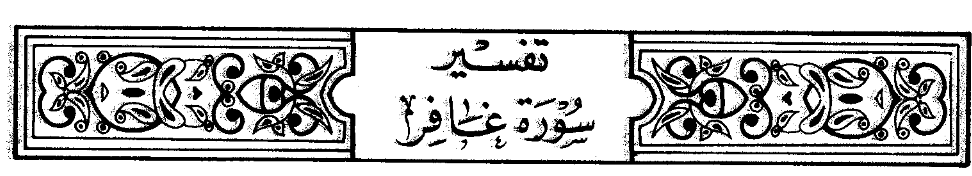
(٧٤) ﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴾

﴿ وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي يقول المؤمنون اذا عاينوا في الجنة ذلك الثواب الوافر ، والعطاء العظيم ، والنعيم المقيم ، والملك الكبير ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ أي الذي كان وعدنا على ألسنة رسله الكرام ﴿وأورثنا الأرض ﴾ أي أرض الجنة ﴿ نتبوأ منها حيث نشاء ﴾ أي أين شئنا حللنافنعم أجر العاملين فنعم الأجر أجرنا على عملنا وفي الصحيحين « أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ الؤلؤ وإذا اترابها المسك ».

(٧٥) ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى حكمه في أهل الجنة والنار ، وأنه نزل كلاً في المحل الذي يليق به ، ويصلح له ، وهو العادل في ذلك الذي لا يجور أخبر عن ملائكته أنهم محدقون من حول العرش المجيد يسجون بحمد ربهم ، ويمجدونه ويعظمونه ويقدسونه وينزهونه عن النقائض والجور ، وقد فصل القضية ، وقضى الأمر ، وحكم بالعدل ، ولهذا قال عز وجل ﴿ وقضي بينهم ﴾ أي بين الخلائق ﴿ بالحق ﴾ ثم قال ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ أي نطق الكون أجمعه ناطقه وبهيمه لله رب العالمين بالحمد في حكمة وعد له ، ولهذا لم يسند القول الى القائل ، بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات تمهدت له بالحمد . قال قتادة : افتتح الخلق بالحمد في قوله ﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ﴾ واختتم بالحمد في قوله تبارك وتعالى ﴿ وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ .

* * *



تفسير سورة غافر

كره بعض السلف أن يقال : الحواميم ، وإنما يقال : « آل حم . قال عبدالله ابن مسعود » : « آل حم » ديباح القرآن . وعن ابن عباس إن لكل شيء لباباً ، ولباب القرآن « آل حم » .

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ حم ﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة فقد تقدم في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ﴾ أي تنزيل هذا الكتاب وهو القرآن من الله ذي العزة والعلم ، فلا يرام جنابه ، ولا يخفى عليه الذروان تكاثف حجابه .

(٣) ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ غافر الذنب وقابل التوب ﴾ أي يغفر ما سلف من الذنب ، ويقبل التوبة في المستقبل

عمن تاب اليه ، وخضع لربه ﴿ شديد العقاب ﴾ أي عن ثمر وطغى وآثر الحياة الدنيا ، وعتا عن أوامر الله تعالى وبغى . ﴿ ذي الطول ﴾ ذي السعة والغنى ، أو ذي الخير الكثير ، أو ذي المن ، والمعنى أن المتفضل على عباده ، المتطول عليهم بما هم فيه من المعنى والانعام التي لا يطيقون القيام بشكر واحدة منها ﴿ وان تعدوا انعمة الله لا تحصوها ﴾ ﴿ لا آله إلا هو ﴾ أي لا نظير له في جميع صفاته ، فلا إله غيره ، ولا رب سواه ﴿ اليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب فيجازي كل عامل بعمله ﴿ وهو سريع الحساب ﴾ .

(٤) ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴾

يقول تعالى : ما يدفع الحق ، ويجادل فيه بعد البيان وظهور البرهان ﴿ إلا الذين كفروا ﴾ أي الجاحدون لآيات الله وحججه وبراهينه ﴿ فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ أي في أموالها ونعيمها وزهوتها .

(٥) ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه بأن له أسوة بمن سلف من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم قد كذبهم أممهم وخالفوهم ، وما آمن بهم الا القليل فقال ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ وهو أول رسول بعثه الله ينهى عن عبادة الأوثان ﴿ والأحزاب من بعدهم ﴾ أي من كل أمة ﴿ وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾ أي حرصوا على قتله بكل ممكن ومنهم من قتل رسوله ﴿ وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ﴾ أي ما حلوا بالشبهة ليردوا الحق الواضح الجلي . روى الطبراني عن النبي ﷺ « من أعان باطلاً حرض به حقاً فقد برئت منه ذمة الله تعالى وذمة رسول الله ﷺ » وقوله جل جلاله ﴿ فأخذتهم ﴾ أي أهلكتهم على ما صنعوا من هذه الأثام والذنوب العظام ﴿فكيف كان عقاب ﴾ أي فكيف بلغك عذابي لهم ، ونكالي بهم ؟ قد كان شديداً موجباً مؤلماً .

(٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾

﴿ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ أي كما حقت كلمة العذاب على الذين كفروا من الأمم السالفة كذلك حقت على المكذبين من هؤلاء الذين كذبوك وخالفوك يا محمد بطريقة الأولى والأحرى ، لأن من كذبك فلا وثوق له بتصديق غيرك .

﴿٧﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾

يخبر تعالى عن الملائكة المقربين من حملة العرش الأربعة ومن حوله من الملائكة المقربين بأنهم يسجون بحمد ربهم، أي يقرنون بين التسبيح الدال على نفي النقائص والتحميد المقتضي لإثبات صفات المدح ﴿ ويؤمنون به ﴾ أي خاشعون له ، أذلاء بين يديه ، ﴿ويستغفرون للذين آمنوا ﴾ أي من أهل الأرض ممن آمن بالغيب ، فقيض الله تعالى ملائكته المقربين أن يدعوا للمؤمنين بظهر الغيب ، ولما كان هذا من سجايا الملائكة عليهم الصلاة والسلام كانوا يؤمنون على دعاء المؤمن لأخيه بظهر الغيب ، كما ثبت في صحيح مسلم « اذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك آمين ، ذلك بمثله » . . وحملة العرش اليوم أربعة ، فإذا كان يوم القيامة كانوا ثمانية كما قال تعالى ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾ ﴿ ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً ﴾ أي رحمتك تسع ذنوبهم وخطاياهم ، وعلمك محيط بجميع أعمالهم وأقوالهم وحركاتهم وسكناتهم . ﴿ فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ أي فاصفح عن المسيئين اذا تابوا وأنابوا وأقلعوا عما كانوا فيه ، واتبعوا ما أمرتهم به من فعل الخيرات وترك المنكرات ﴿ وقهم عذاب الجحيم ﴾ أي وزحزحهم عن عذاب الجحيم ، وهو العذاب الموجع الأليم .

﴿٨﴾ ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ﴾ أي اجمع بينهم وبينهم لتقر بذلك أعينهم بالاجتماع في منازل متجاورة كما قال تعالى ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ أي ساوينا بين الكل في المنزلة لتقر أعينهم ، وما نقصنا العالي حتى يساوي الداني ، بل رفعنا ناقص العمل فساويناه بكثير العمل تفضلاً منا ومنة ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ الذي لا يمانع ولا يغالب ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ الحكيم ﴾ في أقوالك وأفعالك من شرعك وقدرك .

﴿٩﴾ ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

﴿ وقهم السيئات ﴾ أي فعلها ، أو وبالها ممن وقعت منه ﴿ ومن تق السيئات يومئذٍ ﴾ أي

يوم القيامة ﴿ فقد رحمته ﴾ أي لطفت به وغيبته من العقوبة ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم ينادون يوم القيامة وهم في غمرات النيران يتلظون ، وذلك عندما باشروا من عذاب الله تعالى ما قبل لأحد به ، فمقتوا عند ذلك أنفسهم ، وأبغضوها غاية البغض بسبب ما أسلفوا من الأعمال السيئة التي كانت سبب دخولهم النار فأخبرتهم الملائكة عند ذلك اخباراً عالياً ، نادوهم نداء بأن مقت الله تعالى لهم في الدنيا حين كان يعرض عليهم الإيمان فيكفرون أشد من مقتكم أيها المعذبون أنفسكم اليوم في هذه الحالة .

(١١) ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾

﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين واحييتنا اثنتين ﴾ كقوله تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون) ، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية . ﴿ فهل الى خروج من سبيل ﴾ أي فهل أنت مجيبنا الى أن تعيدنا الى الدار الدنيا ، فإنك قادر على ذلك ، لنعمل غير الذي كنا نعمل ، فإن عدنا الى ما كنا فيه فإنا ظالمون ، فأجيبوا أن لا سبيل الى عودكم ومرجعكم الى الدار الدنيا . ثم علل المنع من ذلك بأن سجاياكم لا تقبل الحق ، ولا تقتضيه ، بل تمجه وتنفيه ، .

(١٢) ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾

ولهذا قال ﴿ ذلكم بأنه اذا دعي الله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا ﴾ أي أنتم هكذا تكونون ، وإن رددتم الى الدار الدنيا كما قال عز وجل ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فالحكم لله العلي الكبير ﴾ أي هو الحاكم في خلقه العادل الذي يجور ، فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء لا آله الا هو .

(١٣) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾

﴿ هو الذي يريكم آياته ﴾ أي يظهر قدرته لخلقه بما يشاهدونه في خلقه العلوي والسفلي من الآيات العظيمة الدالة على كمال خالقها ومبدعها ومنشئها ﴿ وينزل لكم من السماء رزقاً ﴾ وهو المطر الذي يخرج به من الزروع والثمار ما هو مشاهد بالحس من اختلاف

ألوانه وطعومه ، وروائحه وأشكاله وألوانه ، وهو ماء واحد ، فبالقدرة العظيمة فاوت بين هذه الأشياء ﴿ وما يتذكر ﴾ أي يعتبر ويتفكر في هذه الأشياء ، ويستدل بها على عظمة خالقها ﴿ الا من ينيب ﴾ أي من هو بصير منيب الى الله تبارك وتعالى .

(١٤) ﴿ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾ أي فأخلصوا لله وحده العبادة والدعاء ، وخالفوا المشركين في مسلكهم ومذهبهم . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول عقب الصلوات المكتوبات « لا إله الا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا حول ولا قوة الا بالله ، لا إله الا الله ، ولا نعبد الا اياه له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن لا إله الا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . وروى ابن ابي حاتم عن النبي ﷺ قال : « ادعوا الله تبارك وتعالى ، وأنتم موقنون بالاجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه » .

(١٥) ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وارتفاع عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها . وقوله تعالى ﴿ يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده ﴾ كقوله جلت عظمته ﴿ ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله الا أنا فاتقون ﴾ وقوله ﴿ لينذر يوم التلاق ﴾ عن ابن عباس : يوم التلاق اسم من أسماء يوم القيامة ، حذر الله منه عباده .

(١٦) ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ۚ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء ﴾ أي ظاهرون بادون ، كلهم لا شيء يكنهم ولا يظلهم ولا يسترهم ، أي الجميع في علمه على السواء ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ في حديث الصور أنه عز وجل إذا قبض أرواح جميع خلقه فلم يبق سواه وحده لا شريك له حينئذ يقول : لمن الملك اليوم ؟ ثلاث مرات ، ثم يجيب نفسه قائلاً ﴿ لله الواحد القهار ﴾ أي الذي وحده قد قهر كل شيء وغلبه .

(١٧) ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

يخبر تعالى عن عدله في حكمه بين خلقه أنه لا يظلم مثقال ذرة من خير ولا من شر ، بل

يجزي بالحسنة عشر أمثالها ، وبالسيئة واحدة ، ولهذا قال ﴿لا ظلم اليوم﴾ كما ثبت في صحيح مسلم « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » وقوله ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي يحاسب الخلائق كلهم كما يحاسب نفساً واحدة .

(١٨) ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾

يوم الآزفة اسم من أسماء يوم القيامة ، سميت بذلك لاقترابها ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ وقوله ﴿ إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ﴾ أي وقفت القلوب في الحناجر من الخوف ، فلا تخرج ولا تعود الى أماكنها . ﴿ كاظمين ﴾ ساكنين ، لا يتكلم احد الا باذنه ، او باكين ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ﴾ أي ليس للذين ظلموا أنفسهم بالشرك من قريب منهم ينفعهم ، ولا شفيع فيهم ، بل تقطعت بهم الأسباب من كل خير .

(١٩) ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾

﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم ، وفيهم المرأة الحسناء ، أو تمر به ، وبهم المرأة الحسناء ، فإذا غفلوا ألحظ اليها ، فإذا فطنوا غض بصره عنها ، فإذا غفلو ألحظ ، فإذا فطنوا غض ، وقد اطلع الله من قلبه أنه ودَّ لو اطَّلع على فرجها .

(٢٠) ﴿ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

﴿ والله يقضي بالحق ﴾ أي يحكم بالعدل ، وهو قادر على أن يجزي بالحسنة الحسنة ، وبالسيئة السيئة . ﴿ والذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان والأنداد ﴿ لا يقضون بشيء ﴾ أي لا يملكون شيئاً ، ولا يحكمون بشيء ﴿ إن الله هو السميع البصير ﴾ أي سميع لأقوال خلقه ، بصير بهم ، فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وهو الحاكم العادل في جميع ذلك .

(٢١) ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾

﴿ أو لم يسيروا ﴾ هؤلاء المكذبون برسالتك بالحمد ﴿ في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ﴾ أي من الأمم المكذبة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما حل

بهم من العذاب والنكال مع أنهم أشد من هؤلاء قوة ﴿ وآثاراً في الأرض ﴾ أي أثروا في الأرض من البنايات والمعالم والديارات ما لا يقدر هؤلاء عليه . وقال تعالى ﴿ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴾ أي مع هذه القوة العظيمة ، والبأس الشديد أخذهم الله بذنوبهم ، وهي كفرهم برسلهم ﴿ وما كان لهم من الله من واق ﴾ أي وما وقع عنهم عذاب الله أحد ، ولا رده عنهم راد ، ولا وقاهم واق . ثم ذكر علة أخذه إياهم ، وذنوبهم التي ارتكبوها واجترحوها فقال تعالى

(٢٢) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالدلائل الواضحات ، والبراهين القاطعات ﴿ فكفروا ﴾ أي مع هذا البيان والبرهان كفروا وجحدوا ﴿ فأخذهم الله ﴾ أي أهلكهم ودمر عليهم ، وللكافرين أمثالها ﴿ إنه قوي شديد العقاب ﴾ أي ذو قوة عظيمة وبطش شديد ﴿ وهو شديد العقاب ﴾ أي عقابه شديد أليم وجيع . أعاذنا الله تبارك وتعالى منه .

(٢٣) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

يقول تعالى مسلياً نبيه محمداً ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ، ومبشراً له بأن العاقبة والنصرة له في الدنيا والآخرة ، كما لموسى بن عمران عليه السلام ، فإن الله تعالى أرسله بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، ولهذا قال تعالى ﴿ بآياتنا وسلطان مبين ﴾ والسلطان هو الحجة والبرهان .

(٢٤) ﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾

﴿ الى فرعون ﴾ وهو ملك القبط بالديار المصرية ﴿ وهامان ﴾ وهو وزير في مملكته ﴿وقارون ﴾ وكان أكثر الناس في زمانه مالاً وتجارة ﴿فقالوا ساحر كذاب ﴾ أي كذبوه وجعلوه ساحراً مجنوناً مموهاً كذاباً في أن الله أرسله .

(٢٥) ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾

﴿ فلما جاءهم بالحق من عندنا ﴾ أي بالبرهان القاطع الدال على أن الله عز وجل أرسله اليهم ﴿ قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم ﴾ وهذا أمر ثان من فرعون بقتل

ذكور بني إسرائيل ، اما الأول فكان لأجل الاحتراز من وجود موسى أو لإذلال هذا الشعب وتقليل عددهم ، أو لمجموع الأمرين ، وأما الأمر الثاني فللعلة الثانية ، ولاهانة هذا الشعب ، ولكي يتشاءموا بموسى عليه السلام ﴿ وما كيد الكافرين الا في ضلال ﴾ أي وما مكرهم وقصدهم الذي هو تقليل عدد بني اسرائيل لئلا ينصروا عليهم الا ذاهل وهالك في ضلال .

(٢٦) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾

﴿ وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ﴾ وهذا عزم من فرعون لعنه الله تعالى على قتل موسى عليه السلام أي قال لقومه: دعوني حتى أقتل لكم هذا ﴿وليدع ربه﴾ أي لا أبالي منه ، وهذا في غاية الجحد والعناد ﴿ إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد ﴾ يعني موسى ، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ، ويغير رسومهم وعاداتهم ، وهذا كما يقال : صار فرعون مذكراً ، يعني واعظاً يشفق على الناس من موسى عليه الصلاة والسلام .

(٢٧) ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾

﴿ وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ أي لما بلغه قول فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى . . ﴾ قال موسى عليه السلام ، استجرت بالله ، وعذت به من شره وشر امثاله ، ولهذا قال ﴿ إني عذت بربي وربكم ﴾ أيها المخاطبون ﴿ من كل متكبر ﴾ أي عن الحق مجرم ﴿لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان اذا خاف قوماً قال : « اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم ، وندرأ بك في نحورهم » .

(٢٨) ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾

المشهور أن هذا الرجل المؤمن كان قبطياً من آل فرعون ، ولو كان اسرائيلياً لأوشك ان يعاجل بالعقوبة ، لأنه منهم وقد كان هذا الرجل يكتم إيمانه عن قومه القبط ، فلم يظهر

الا هذا اليوم حين قال فرعون ﴿ ذروني أقتل موسى ﴾ فأخذت الرجل غضبة لله عز وجل « وأفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر » كما ثبت بذلك الحديث ، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون ، وهي قوله﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ﴾ ؟ ﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ أي كيف تقتلون رجلاً لكونه يقول ﴿ ربي الله ﴾ وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق . ثم تنزل معهم في المخاطبة فقال ﴿ وان يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ﴾ يعني إذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به فمن العقل والرأي التام والحزم أن تتركوه ونفسه فلا تؤذوه ، فإن يك كاذباً فإن الله سيجازيه على كذبه بالعقوبة في الدنيا والآخرة ، وان يك صادقاً ، وقد آذيتموه يصيبكم بعض الذي يعدكم ، فإن يتوعدكم إن خالفتموه بعذاب في الدنيا والآخرة ، فمن الجائز عندكم أن يكون صادقاً ، فينبغي على هذا أن لا تتعرضوا له ، بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه ﴿ ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ﴾ أي لو كان هذا الذي يزعم ان الله تعالى أرسله اليكم كاذباً كما تزعمون لكان أمره بيناً يظهر لكل أحد في أقواله وأفعاله ، فكانت تكون في غاية الاختلاف والاضطراب ، وهذا نرى أمره سديداً ومنهجه مستقيماً ، ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله وأرشده الى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

(٢٩) ﴿ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

ثم قال المؤمن محذراً قومه زوال نعمة الله عنهم ، وحلول نقمة الله بهم ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض ﴾ أي قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة ، والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى ، وتصديق رسوله ﷺ ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله ﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ ؟ أي لا تغني عنكم هذه الجنود وهذه العساكر ، ولا ترد عنا شيئاً من بأس الله إن أرادنا بسوء ﴿ قال فرعون ﴾ لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذي كان أحق بالملك من فرعون ﴿ ما أريكم الا ما أرى ﴾ أي ما أقول لكم وأشير عليكم الا ما أراه لنفسي ، وقد كذب فرعون ، فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿ وما أهديكم الا سبيل الرشاد ﴾ أي وما أدعوكم الا الى سبيل الحق ، وقد كذب أيضاً في ذلك .

(٣٠) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ

وَالَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ﴿٣١﴾

هذا أخبار من الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال ﴿ يا قوم اني أخاف عليكم مثل يوم الاحزاب ﴾ أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود الذين من بعدهم من الأمم المكذبة ، كيف حل بهم بأس الله ، وما رده عنهم راد ، ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ أي إنما أهلكهم الله بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره .

﴿٣٢﴾ ﴿ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ﴾

﴿ ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد ﴾ يعني يوم القيامة ، وسمي بذلك .

﴿٣٣﴾ ﴿ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾

﴿يوم تولون مدبرين ﴾ أي ذاهبين هاربين ﴿ ما لكم من الله من عاصم ﴾ أي لا مانع يمنعكم من بأس الله وعذابه ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أي من أضله الله فلا هادي له غيره .

﴿٣٤﴾ ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾

﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ يعني أهل مصر ، قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى عليه الصلاة والسلام ، وهو يوسف عليه الصلاة والسلام ، كان عزيز أهل مصر ، وكان رسولاً يدعو الى الله أمته بالقسط ، فما أطاعوه تلك الطاعة الا بمجرد الوزارة والجاه الدنيوي ، ولهذا قال تعالى ﴿ فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ أي يئستم فقلتم طامعين ﴿ لن يبعث الله من بعده رسولاً ﴾ ، وذلك لكفرهم وتكذيبهم ﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أي كحالكم هذا يكون حال من يضله الله لاسرافه في أفعاله وارتياب قلبه .

﴿٣٥﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ

يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾

﴿ الذين يجادلون في الله بغير سلطان أتاهم ﴾ أي الذين يدفعون الحق بالباطل ، ويحاولون الحجج بغير دليل وحجة معهم من الله تعالى ، فإن الله عز وجل يمقت ذلك أشد المقت ، ولهذا قال ﴿ كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أي والمؤمنون أيضاً من تكون هذه وصفته ، فإن من كانت هذه صفته يطبع الله على قلبه ، فلا يعرف بعد ذلك معروفاً ، ولا ينكر متكبراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر ﴾ أي على اتباع الحق ﴿ جبار ﴾ .

(٣٦) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وعتوه وتمرده وافترائه في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام أنه أمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً ، وهو القصر العالي المنيف الشاهق ، وكان اتخاذه من الآجر المضروب من الطين المشوي ، كما قال تعالى ﴿ فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً ﴾ وقوله ﴿ لعلي أبلغ الاسباب ﴾

(٣٧) ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾

﴿ أسباب السموات ﴾ أبواب السموات ، أو طرق السموات ﴿ فأطلع الى إلّه موسى وإني لأظنه كاذباً ﴾ وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه الصلاة والسلام في أن الله أرسله اليه . قال تعالى ﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل ﴾ أي بصنعه هذا الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به الى تكذيب موسى عليه الصلاة والسلام ولهذا قال ﴿ وما كيد فرعون الا في تباب ﴾ الا في خسار .

(٣٨) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾

يقول المؤمن لقومه من تمرد وطغى وآثر الحياة الدنيـا ونسي الجبار الأعلى فقال لهم ﴿ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ أي لا كما كذب فرعون في قوله ﴿ وما أهديكم الا سبيل الرشاد ﴾ ثم زهدهم في الدنيا التي قد آثروها على الأخرى ، وصدتهم عن التصديق برسول الله موسى عليه الصلاة والسلام فقال :

(٣٩) ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾

﴿ يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أي قليلة زائلة فانية ، عن قريب تذهب وتضمحل ﴿ وإن الآخرة هي دار القرار ﴾ أي الدار التي لا زوال لها ، ولا انتقال منها ولا ظعن عنها الى غيرها ، بل إما نعيم وإما جحيم . ولهذا قال جلت عظمته :

(٤٠) ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ﴾ أي واحدة مثلها ﴿ ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أي لا تقدر بجزاء ، بل يثيبه الله عز وجل ثواباً كثيراً لا انقضاء له ولا نفاد .

(٤١) ﴿ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

يقول لهم المؤمن : ما بالي أدعوكم الى النجاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وتصديق رسولــه الذي بعثه ﴿ وتدعونني الى النار ﴾

(٤٢) ﴿ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾

﴿ تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم ﴾ أي على جهل بلاد ليل ﴿ وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار ﴾ أي هو في عزته وكبريائه يغفر ذنب من تاب اليه .

(٤٣) ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴾

﴿ لا جرم أن ما تدعونني اليه ﴾ يقول : حقاً ، أو لا كذب ، يقول : إن الذي تدعونني اليه من الأصنام والأنداد ﴿ ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ﴾ الوثن ليس له شيء ، فلا ينفع ولا يضر في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ وأن مردنا الى الله ﴾ أي في الدار الآخرة ، فيجازي كلاً بعمله ، ولهذا قال ﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾ أي خالدين فيها بإسرافهم ، وهو شركهم بالله عز وجل .

(٤٤) ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ، ونهيتكم عنه ،

ونصحتكم ، ووضحت لكم وتندمون حيث لا ينفعكم الندم ﴿ وأفوض أمري الى الله ﴾ أي وأتوكل على الله وأستعينه ، وأقاطعكم وأباعدكم ﴿ ان الله بصير بالعباد ﴾ أي هو بصير بهم . تعالى وتقدس ، فيهدي من يستحق الهداية ، ويضل من يستحق الاضلال ، وله الحجة البالغة ، والحكمة التامة والعذر النافذ .

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله مع موسى عليه السلام . وأما في الآخرة فالجنة . ﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ وهو الغرق في اليم ، ثم النقلة منه الى الجحيم ، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساء الى قيام الساعة ، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار . ولهذا قال ﴿ ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ أي أشده ألماً ، وأعظمه نكالاً . وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب بالبرزخ في القبور ، وهي قوله تعالى ﴿ النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ﴾ صباحاً ومساء ما بقيت الدنيا ، يقال لهم : يا آل فرعون هذه منازلكم توبيخاً ونقمة وصغاراً لهم . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « إن أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وان كان من أهل النار ، فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله عز وجل اليه يوم القيامة » أخرجاه في الصحيحين .

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ ﴿٤٧﴾

يخبر تعالى عن تحاج أهل النار في النار وتخاصمهم ، وفرعون وقومه من جملتهم ، فيقول الضعفاء ، وهم الأتباع للذين استكبروا وهم القادة والسادة والكبراء ﴿ إنا كنا لكم تبعاً ﴾ أي أطعناكم فيما دعوتمونا اليه في الدنيا من الكفر والضلال ﴿ فهل انتم مغنون عنا نصيباً من النار ﴾ أي قسطاً تتحملونه عنا .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ﴾ أي لا نتحمل عنكم شيئاً ، كفى بنا ما عندنا وما حملنا

من العذاب والنكال ﴿ إن الله قد حكم بين العباد ﴾ أي مقسم بيننا العذاب بقدر ما يستحقه كل منا .

(٤٩) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

﴿ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب ﴾ لماعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب منهم ، ولا يستمع لدعائهم سألوا الخزنة ، وهم كالسجانين لأهل النار أن يدعوا الله تعالى في أن يخفف عن الكافرين ، ولو يوماً واحداً من العذاب ، فقالت لهم الخزنة رادين عليهم .

(٥٠) ﴿ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴾

﴿ أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ﴾ أي أو ما قامت عليكم الحجج في الدنيا على ألسنة الرسل ؟ ﴿ قالوا بلى قالوا فادعوا ﴾ أي أنتم لأنفسكم ، فنحن لا ندعوا لكم ، ولا نسمع منكم ، ولا نود خلاصكم ، ونحن منكم براء ، ثم نخبركم أنه دعوتم أو لم تدعوا لا يستجاب لكم ، ولا يخفف عنكم ، ولهذا قالوا ﴿ وما دعاء الكافرين الا في ضلال ﴾ .

(٥١) ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أورد ابن جرير رحمه الله هنا سؤالاً فقال : قد علم ان بعض الأنبياء قتله قومه بالكلية كيحيى وزكريا وشعيا ، ومنهم من خرج من بين أظهرهم إما مهاجراً كإبراهيم ، وإما الى السماء كعيسى فأين النصره في الدنيا ؟ ثم أجاب عن ذلك بجوابين : أحدهما أن يكون الخبر خرج عاماً والمراد به البعض ، قال : وهذا سائغ في اللغة ، والثاني ان يكون المراد بالنصر الانتصار لهم ممن آذاهم ، وسواء كان ذلك بحضرتهم أو في غيبتهم ، أو بعد موتهم كما فعل بقتلة زكريا ويحيى وشعيا ، سلط عليهم من أعدائهم من أهانهم وسفك دماءهم . ﴿ ويوم يقوم الأشهاد ﴾ أي يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأكبر وأجل .

(٥٢) ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾

﴿ يوم لا ينفع الظالمين ﴾ وهم المشركون ﴿معذرتهم ﴾ أي لا يقبل منهم عذر ولا فدية ﴿ ولهم اللعنة﴾ أي الإبعاد والطرد من الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار ﴾ وهي النار ، وبئس

المنزل والمقيل . أو ولهم سوء العاقبة .

(٥٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

﴿ولقد آتينا موسى الهدى﴾ وهو ما بعثه الله عز وجل به من الهدى والنور ﴿وأورثنابني اسرائيل الكتاب﴾ أي جعلنا لهم العاقبة وأورثناهم بلاد فرعون ، وأمواله وحواصله وأرضه بما صبروا على طاعة الله تبارك وتعالى ، واتباع رسول موسى ﷺ وفي الكتاب بالذي أورثوه وهو التوراة .

(٥٤) ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

﴿هدى وذكرى لأولي الألباب﴾ وهي العقول الصحيحة السليمة .

(٥٥) ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾

﴿فاصبر﴾ أي بالحمد ﴿إن وعد الله حق﴾ أي وعدناك أنا سنعلي كلمتك ، ونجعل العاقبة لك ، ولمن اتبعك ، والله لا يخلف الميعاد ، وهو الذي أخبرناك به حق الأمر فيه ولا شك ﴿واستغفر لذنبك﴾ هذا تهييج للأمة على الاستغفار ﴿وسبح بحمد ربك بالعشي﴾ أي في أواخر النهار وأوائل الليل ﴿والإبكار﴾ وهي أوائل النهار وأواخر الليل .

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

﴿إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم﴾ أي يدفعون الحق بالباطل ، ويردون الحجج الصحيحة بالشبه الفاسدة بلا برهان ولا حجة من الله ﴿إن في صدورهم إلا كبرما هم ببالغيه﴾ أي ما في صدورهم إلا كبر على اتباع الحق، واحتقار لمن جاءهم به ، وليس ما يرومونه من إخماد الحق ، وإعلاء الباطل بحاصل لهم ، بل الحق هو المرفوع ، وقولهم وقصدهم هو الموضوع ﴿فاستعذ بالله﴾ أي من حال مثل هؤلاء ﴿إنه هو السميع البصير﴾ أو من شر مثل هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان .

(٥٧) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى منبهاً على أنه يعيد الخلائق يوم القيامة ، وأن ذلك سهل عليه يسير لديه بأنه خلق السموات والأرض ، وخلقهما أكبر من خلق الناس بدأة وإعادة ، فمن قدر على ذلك

فهو قادر على ما دونه بطريق الأولى والأحرى ، ولهذا قال ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ فلهذا لا يتدبرون هذه الحجة ولا يتأملونها كما كان كثير من العرب يعترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض وينكرون المعاد استبعاداً وكفراً وعناداً ، وقد اعترفوا بما هو أولى مما أنكروا .

﴿٥٨﴾ ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ما تتذكرون ﴾ أي كما لا يستوي الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ، والبصير الذي يرى ما انتهى اليه بصره ، بل بينهما فرق عظيم ، كذلك لا يستوى المؤمنون الأبرار ، والكفرة الفجار ﴿ قليلاً ما تتذكرون ﴾ أي ما أقل ما يتذكركثير من الناس .

﴿٥٩﴾ ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إن الساعة لآتية ﴾ أي لكائنة واقعة ﴿ لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ﴾ أي لا يصدقون بها بل يكذبون بوجودها .

﴿٦٠﴾ ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

هذا من فضله تبارك وتعالى وكرمه أنه ندب عباده إلى دعائه وتكفل لهم بالإجابة كما كان سفيان الثوري يقول : يا من أحب عباده إليه من سأله فأكثر سؤاله ، ويا من أبغض عباده إليه من لم يسأله ، وليس احد كذلك غير الرب . ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي ﴾ عن دعائي وتوحيدي ﴿ سيدخلون جهنم داخرين ﴾ أي صاغرين حقيرين . روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس ، يعلوهم كل شيء من الصغار ، حتى يدخلوا سجناً في جهنم ، يقال له : « بولس » تعلوهم نار الأنيار ، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار » .

﴿٦١﴾ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على خلقه بما جعل لهم من الليل الذي يسكنون فيه ويستريحون من حركات ترددهم في المعايش بالنهار ، وجعل النهار مبصراً أي مضيئاً ليتصرفوا بالأسفار ، وقطع الأقطار ، والتمكن من الصناعات ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس

لا يشكرون ﴾ أي لا يقومون بشكر نعم الله عليهم .

﴿٦٢﴾ ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ أي الذي فعل هذه الأشياء هو الله الواحد الأحد خالق الأشياء ، الذي لا إله غيره ولا رب سواه ﴿ فأنى تؤفكون ﴾ أي كيف تعبدون غيره من الأصنام التي لا تخلق شيئاً ، بل هي مخلوقة منحوتة .

﴿٦٣﴾ ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾

﴿ كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون ﴾ أي كما ضل هؤلاء بعبادة غير الله كذلك أفك الذين من قبلهم فعبدوا غيره بلا دليل ولا برهان ، بل بمجرد الجهل والهوى ، وجحدوا حجج الله وآياته .

﴿٦٤﴾ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ الذي جعل لكم الأرض قراراً ﴾ أي جعلها لكم مستقراً بساطاً مهاداً تعيشون عليها ، وتتصرفون فيها ، وتمشون في مناكبها . وأرساها بالجبال لئلا تميد بكم أكمل الصور في أحسن تقويم ﴿ ورزقكم من الطيبات ﴾ أي من المآكل والمشارب في الدنيا ، فذكر أن خلق الدار والسكان والأرزاق فهو الخالق الرازق ﴿ ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴾ أي فتعالى وتقدس وتنزه رب العالمين كلهم .

﴿٦٥﴾ ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ هو الحي لا إله الا هو ﴾ أي هو الحي أزلاً وأبداً ، لم يزل ولا يزال ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴿ لا إله الا هو ﴾ أي لا نظير له ولا عديل له ﴿ فادعوه مخلصين له الدين ﴾ أي موحدين له ، مقرين بأنه لا إله إلا هو. ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ قال ابن جرير ، كان جماعة من أهل العلم يأمرون : من قال « لا إله الا الله » أن يتبعها بالحمد لله رب العالمين عملاً بهذه الآية ، ثم روي عن ابن عباس قال : من قال لا إله إلا الله فليقل على أثرها الحمد لله رب العالمين . وذلك قوله تعالى ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ﴾ .

(٦٦) ﴿ * قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

يقول تعالى : قـل يا محمد لهؤلاء المشركين ، إن الله عز وجل ينهى أن يعبد أحد سواه من الأصنام والأنـداد والأوثـان ﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات . . . ﴾ .

(٦٧) ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وقد بين تبارك وتعالى أنه لا يستحق العبادة أحد سواه في قوله جلت عظمته ﴿ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة . . . ﴾ أي هو الذي يقلبكم في الأطوار كلها وحده لا شريك له ، وعن أمره وتدبيره وتقديره يكون ذلك كله ﴿ ومنكم من يتوفى من قبل ﴾ أي من قبل أن يوجد ويخرج إلى هذا العالم ، بل تسقطه أمه سقطاً ، ومنهم من يتوفى صغيراً وشاباً وكهلاً قبل الشيخوخة . ﴿ ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴾ تتذكرون البعث .

(٦٨) ﴿ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

﴿ هو الذي يحي ويميت ﴾ أي هو المتفرد بذلك ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ﴿ فإذا قـضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾ أي لا يخالف ولا يمانع ، بل ما شاء كان لا محالة .

(٦٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾

يقول تعالى : ألا تعجب يا محمد من هؤلاء المكذبين بآيات الله ، ويجادلون في الحق بالباطل كيف تصرف عقولهم عن الهدى الى الضلال .

(٧٠) ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا ﴾ أي من الهدى والبيان ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد من الرب جل جلاله لهؤلاء كما قال تعالى ﴿ ويل يومئذ للمكذبين ﴾ .

(٧١) ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (٧٢)

﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ أي متصلة بالأغلال بأيدي الزبانية ، يسحبون على وجوههم ، تارة الى الحميم ، وتار الى الجحيم ، ولهذا قال تعالى ﴿ يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ كما قال تبارك وتعالى ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ .

(٧٣) ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾ (٧٤)

﴿ ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله ؟ ﴾ أي قيل لهم أين الأصنام التي كنتم تعبدونها من دون الله ، هل ينصرونكم اليوم ؟ ﴿ قالوا ضلوا عنا ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعونا ﴿ بل لم نكن ندعوا من قبل شيئاً ﴾ أي جحدوا عبادتهم ،﴿كذلك يضل الله الكافرين ﴾ .

(٧٥) ﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾

أي تقول لهم الملائكة : هذا الذي أنتم فيه جزاء على فرحكم في الدنيا بغير الحق ، ومرحكم وأشركم وبطركم .

(٧٦) ﴿ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾

﴿ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴾ أي فبئس المنزل والمقيل الذي فيه الهوان والعذاب الشديد لمن استكبر عن آيات الله واتباع دلائله وحججه .

(٧٧) ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ، ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ﴾ فإن الله تعالى سينجز لك ما وعدك من النصر والظفر على قومك ، وجعل العاقبة لك ، ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة ﴿ فإن ما نرينك بعض الذي نعدهم ﴾ أي في الدنيا ، وكذلك وقع فإن الله تعالى أقر أعينهم من كبرائهم وعظمائهم أبيدوا في يوم بدر ، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته ﷺ . وقوله عز وجل ﴿ أو نتوفينك فإلينا يرجعون ﴾ أي فنذيقهم العذاب الشديد في الآخرة .

(٧٨) ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ

أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

ثم قال تعالى مسلياً له ﴿ ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ﴾ أي منهم من أوحينا اليك خبرهم وقصصهم مع قومهم كيف كذبوهم ، ثم كانت للرسل العاقبة والنصرة ﴿ ومنهم من لم نقصص عليك ﴾ وهم أكثر ممن ذكر بأضعاف أضعاف ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية الا باذن الله ﴾ أي ولم يكن لواحد من الرسل أن يأتي قومه بخارق للعادات إلا أن يأذن الله له في ذلك فيدل ذلك على صدقه فيما جاءهم به ﴿ فإذا جاء أمرالله ﴾ وهو عذابه ونكاله المحيط بالمكذبين ﴿ قضي بالحق ﴾ فينجي المؤمنين ، ويهلك الكاذبين ، ولهذا قال عز وجل ﴿ وخسر هنالك المبطلون ﴾ .

(٧٩) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (٨٠)

يقول تعالى ممتناً على عباده بما خلق لهم الأنعام ، وهي الإبل والبقر والغنم ، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، فالإبل تركب وتؤكل وتحلب ويحمل عليها الأثقال في الأسفار والرحال الى البلاد النائبة ، والأقطار الشاسعة ، والبقر تؤكل ، ويشرب لبنها ، وتحرث عليها الأرض . والغنم تؤكل ويشرب لنها ، والجميع تجز أصوافها وأشفارها وأدبارها فيتخذ منها الأثاث والثياب والأمتعة . ولهذا قال تعالى ﴿ لتركبوا منها ومنها تأكلون . ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة في صدوركم . . . ﴾ .

(٨١) ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾

﴿ ويريكم آياته ﴾ أي حججه وبراهينه في الآفاق وفي أنفسكم ﴿ فأي آيات الله تنكرون ﴾ أي لا تقدرون على إنكار شيء من آياته إلا أن تعاندوا وتكابروا .

(٨٢) ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن الأمم المكذبة بالرسل في قديم الدهر ، وماذا حل بهم من العذاب الشديد مع شدة قواهم ، وما أثروه في الأرض ، وجمعوه من الأموال ، فما أغنى عنهم ذلك شيئاً ، ولا رد عنهم ذرة من بأس الله ، وذلك لأنهم لما جاءتهم الرسل بالبينات ، والحجج القاطعات ، والبراهين الدافعات ، لم يلتفتوا اليهم ، ولا أقبلوا عليهم ، واستغنوا بما

عندهم من العلم في زعمهم عما جاءتهم به الرسل .

(٨٣) ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ﴾ بجهالتهم فأتاهم من بأس الله تعالى ما لا قبل لهم به (وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤ ون ﴾ أي يكذبون ويستبعدون وقوعه .

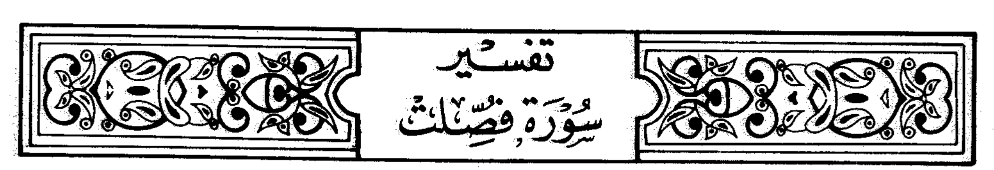
(٨٤) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾

﴿ فلما رأوا بأسنا ﴾ أي عاينوا وقوع العذاب ﴿ قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أي وحدوا الله عز وجل وكفروا بالطاغوت ، ولكن حيث لا تقال العثرات ، ولا تنفع المعذرة ، كما قال فرعون ﴿ آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴾ قال تعالى ﴿ آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ﴾ أي فلم يقبل الله منه .

(٨٥) ﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾

﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ أي هذا حكم الله في جميع من تاب عند معاينة العذاب أنه لا يقبل ، ولهذا جاء في الحديث « إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » أي فإذا غرغر ، وبلغت الروح الحنجرة ، وعاين الملك فلا توبة حينئذٍ . ولهذا قال تعالى (وخسر هنالك الكافرون ﴾ .

* * *



تفسير سُورَةِ فُصِّلَتْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ حم ﴾

قد تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿ تنزيل من الرحمٰن الرحيم ﴾ القرآن منزل من الرحمٰن الرحيم كقوله ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ﴾ . وقوله ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين . نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ .

(٣) ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

﴿ كتاب فصلت آياته ﴾ أي بينت معانيه وأحكمت آياته ﴿قرآناً عربياً ﴾ أي في حال كونه قرآناً عربياً بيناً واضحاً ، فمعانيه مفصلة ، وألفاظه واضحة غير مشكلة كقوله ﴿ كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ﴾ أي هو معجز من حيث لفظه ومعناه ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وقوله تعالى ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي إنما يعرف هذا البيان والوضوح العلماء الراسخون .

(٤) ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

﴿ بشيراً ونذيراً ﴾ أي تارة يبشر المؤمنين ، وتارة ينذر الكافرين ﴿ فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ﴾ أي أكثر قريش فهم لا يفهمون منه شيئاً مع بيانه ووضوحه .

(٥) ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾

﴿ وقالوا قلوبنا في أكنة ﴾ أي في غلف مغطاة ﴿ مما تدعونـا اليه وفي آذاننا وقر ﴾ أي صمم عما جئتنا به ﴿ ومن بيننا وبينك حجاب ﴾ فلا يصل الينا شيء مما تقول ﴿ فاعمل إننا عاملون ﴾ أي اعمل أنت على طريقتك ، ونحن على طريقتنا لا نتابعك .

(٦) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المكذبين المشركين ﴿ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إلَه واحد ﴾ لا كما تعبدونه من الأصنام والأنداد والأرباب المتفرقين ، إنما الله إلَه واحد ﴿ فاستقيموا اليه ﴾ أي أخلصوا له العبادة على منوال ما أمركم به على السنة الرسل ﴿ واستغفروه ﴾ أي لسالف الذنوب ﴿ وويل للمشركين ﴾ أي دمار لهم وهلاك عليهم .

(٧) ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴾

﴿ الذين لا يؤتون الزكاة ﴾ الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله ، وهذا كقوله تعالى ﴿ قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها ﴾ وكقوله تعالى ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى ﴾ وقوله تعالى ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ والمراد بالزكاة ههنا طهارة النفس من الأخلاق الرذيلة ، ومن أهم ذلك طهارة النفس من الشرك ، وزكاة المال إنما سميت زكاة لأنها تطهره من الحرام ، وتكون سبباً لزيادته ، وبركته ، وكثرة نفعه ، وتوفيقاً إلى استعماله في الطاعات أو معناها لا يؤدون الزكاة ، وهذا هو الظاهر عند كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير ، وفيه نظر ، لأن ايجاب الزكاة انما كان في السنة الثانية من الهجرة إلى المدينة على ما ذكره غير واحد ، وهذه الآية مكية ، اللهم إلا أن يقال : لا يبعد أن يكون أصل الصدقة والزكاة كان مأموراً به في ابتداء البعثة ، كقوله تعالى ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ فأما الزكاة ذات النصب والمقادير فإنما يبين أمرها بالمدينة .

(٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ غير مقطوع ولا مجبوب ، كقوله تعالى ﴿ ماكثين فيه أبداً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ .

(٩) ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ (١٠)

هذه إنكار من الله تعالى على المشركين الذين عبدوا معه غيره ، وهو الخالق لكل شيء ، القاهر لكل شيء ، المقتدر على كل شيء فقال ﴿ قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ﴾ أي نظراء وأمثالاً تعبدونها معه ﴿ ذلك رب العالمين ﴾ أي الخالق للأشياء هو رب العالمين كلهم . وهذا المكان فيه تفصيل لقوله تعالى ﴿ خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴾ ففصل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء فذكر أنه خلق الأرض أولاً ، لأنها كالأساس والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف ﴿ في يومين ﴾ يعني يوم الأحد ويوم الاثنين ﴿ وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها ﴾ أي جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس وقدر فيها أقواتها ، وهو ما يحتاج إليه أهلها من الأرزاق والأماكن التي تغرس ، يعني يوم الثلاثاء والأربعاء ، فهما مع اليومين السابقين أربعة ، ولهذا قال ﴿ في أربعة أيام سواء للسائلين ﴾ أي لمن أراد السؤال عن ذلك ليعلمه .

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (١١)

﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان ﴾ وهو بخار الماء المتصاعد منه حين خلقت الأرض ﴿ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها ﴾ أي استجيبا لأمري ، وانفعلا لفعلي طائعتين ، أو مكرهتين (قالتا أتينا طائعين ﴾ أي بل نستجيب لك مطيعين بما فينا مما تريد خلقه من الملائكة والجن والإنس جميعاً مطيعين لك .

﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (١٢)

﴿ فقضاهن سبع سموات في يومين ﴾ أي ففرغ من تسويتهن سبع سموات في يومين آخرين ، وهما الخميس والجمعة ﴿ وأوحى في كل سماء أمرها ﴾ أي ورتب مقرراً في كل سماء ما تحتاج اليه من الملائكة وما فيها من الأشياء التي لا يعلمها إلا هو ﴿وزينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهي الكواكب المنيرة المشرقة على أهل الأرض ﴿ وحفظاً ﴾ أي حرساً من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ أي العزيز الذي قد عز كل شيء فغلبه وقهره ، العليم بجميع حركات المخلوقات وسكناتهم .

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ (١٤)

يقول تعالى قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق : إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين ﴿ صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أي ومن شاكلهما ممن فعل فعلهما ﴿ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ أي في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله اليهم الرسل ، يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ، ومبشرين ومنذرين ، أو ما أحل الله بأعدائه من النقم ، وما ألبس أولياءه من النعم ، ومع هذا ما آمنوا ولا صدقوا ، بل كذبوا وجحدوا ﴿ قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ﴾ أي لو أرسل الله رسلاً لكانوا ملائكة من عنده ﴿ فإنا بما أرسلتم به ﴾ أي أيها البشر ﴿ كافرون ﴾ أي لا نتبعكم وأنتم بشر مثلنا .

(١٥) ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

﴿ فأما عاد فاستكبروا في الأرض ﴾ أي بغوا وعتوا وعصوا ﴿ وقالوا من أشد منا قوة ؟ ﴾ أي منوا بشدة تركيبهم وقواهم واعتقدوا أنهم يمتنعون بها من بأس الله ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ؟ ﴾ أي أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة ، فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها ، وأن بطشه شديد .

(١٦) ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴾

﴿ فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً ﴾ وهي شديدة الهبوب ، وقيل : الباردة ﴿ في أيام نحسات ﴾ أي متتابعات ﴿ لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى ﴾ أشد خزياً لهم ﴿ وهم لا ينصرون ﴾ أي في الأخرى ، كما لم ينصروا في الدنيا ، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ، ويدرأ عنهم النكال .

(١٧) ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ وأما ثمود فهديناهم ﴾ بينا لهم ، أو دعوناهم ﴿ فاستحبوا العمى على الهدى ﴾ أي بصرناهم وبينا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام فخالفوه وكذبوه وعقروا ناقة الله التي جعلها آية على صدق نبيهم ﴿ فأخذتهم صاعقة العذاب الهون ﴾ أي بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلاً وهواناً وعذاباً ونكالاً ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي من التكذيب والجحود .

(١٨) ﴿ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ ونجينا الذين آمنوا ﴾ أي من بين أظهرهم لم يمسسهم سوء ، ولا نالهم من ذلك ضرر ، بل نجاهم الله تعالى مع نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام بإيمانهم بتقواهم لله عز وجل .

(١٩) ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾

﴿ ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ﴾ أي اذكر لهؤلاء المشركين يوم يحشرون

إلى النار ، يوزعون ، أي تجمع الزبانية أولهم على آخرهم .

(٢٠) ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

﴿ حتى إذا ما جاؤ وها ﴾ أي وقفوا عليها ﴿ شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ﴾ أي بأعمالهم مما قدموه ، وأخروه ، لا يكتم منه حرف .

(٢١) ﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾

﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ﴾ أي لاموا أعضاءهم وجلودهم حين شهدوا عليهم ، فعند ذلك أجابتهم الأعضاء ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة ﴾ أي فهو لا يخالف ، ولا يمانع ، واليه ترجعون . روى البزار قال: ضحك رسول الله ﷺ ذات يوم وتبسم فقال ﷺ : « ألا تسألوني عن أي شيء ضحكت ؟ » قالوا : يا رسول الله ، من أي شيء ضحكت ؟ قال ﷺ : « عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : أي ربي ، أليس وعدتني أن لا تظلمني ؟ قال : بلى ، فيقول : فإني لا أقبل علي شاهداً إلا من نفسي ، فيقول تبارك وتعالى : أوليس كفى بي شهيداً ، وبالملائكة الكرام الكاتبين - قال - فيردد هذا الكلام مراراً - قال - فيختم علي فيه ، وتتكلم أركانه بما كان يعمل ، فيقول بعداً ، لكنَّ وسحقاً ، عنكن كنت أجادل . ورواه ابن أبي حاتم ، وقد أخرجه مسلم والنسائي .

(٢٢) ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾

﴿ وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ﴾ أي تقول لهم الأعضاء والجلود حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه ، بل كنتم تجاهرون بالكفر والمعاصي ، ولا تبالون منه في زعمكم ، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

﴿ وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم ﴾ أي هذا الظن الفاسد ، وهو اعتقادكم أن الله

تعالى لا يعلم كثيراً مما تعملون ، هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم ﴿ فأصبحتم من الخاسرين ﴾ أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم .

(٢٤) ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾

﴿ فإن يصبروا فالنار مثوى لهم ﴾ أي سواء عليهم صبروا أم لم يصبروا ، هم في النار ، لا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها ﴿ وإن يستعتبوا﴾ وإن طلبوا أن يستعتبوا ويبدوا أعذاراً ﴿ فما هم من المعتبين ﴾ فما لهم أعذار ، ولا تقال لهم عثرات .

(٢٥) ﴿ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي أضل المشركين ، وأن ذلك بمشيئته ، وكونه وقدرته ، وهو الحكيم في أفعاله بما قيض لهم من القرناء من شياطين الإنس والجن ﴿ فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي حسنوا لهم أعمالهم في الماضي ، وبالنسبة إلى المستقبل ، فلم يروا أنفسهم الا محسنين . ﴿ وحق عليهم القول ﴾ أي كلمة العذاب كما حق على أمم قد خلت من قبلهم ممن فعل كفعلهم من الجن والإنس ﴿ إنهم كانوا خاسرين ﴾ أي استووا هم وإياهم في الخسار والدمار .

(٢٦) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾

﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن ﴾ أي تواصوا فيما بينهم أن لا يطيعوا للقرآن ، ولا ينقادوا لأوامره ﴿ والغوا فيه ﴾ أي إذا تلي لا تسمعوا له ، والغوا فيه ، يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله ﷺ . أو ﴿ والغوا فيه ﴾ عيبوه ، أو اجحدوا به ، وأنكروه وعادوه ﴿ لعلكم تغلبون ﴾ هذا حال هؤلاء الجهلة من الكفار ومن سلك مسلكهم عند سماع القرآن ، وقد أمر الله بخلاف ذلك فقال ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ .

(٢٧) ﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (٢٨)

ثم قال عز وجل منتصراً للقرآن ، ومنتقماً ممن عاداه من أهل الكفران ﴿ فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ﴾ أي في مقابلة ما عملوه عند سماع القرآن ﴿ ولنجزينهم أسوأ الذي

كانوا يعملون ﴾ أي بشر أعمالهم ، وسيء أفعالهم . ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون ﴾ .

(٢٩) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

﴿ وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا ﴾ إبليس ، وابن آدم الذي قتل أخاه ، فابليس يدعو به كل صاحب شرك ، وابن آدم يدعو به كل صاحب كبيرة . وفي الحديث « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل » . ﴿ نجعلهما تحت أقدامنا ﴾ أي أسفل منا في العذاب ، ليكونا أشد عذاباً منا ، ولهذا قال ﴿ ليكونا من الأسفلين ﴾ أي في الدرك الأسفل من النار .

(٣٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ﴾ أي أخلصوا العمل لله ، وعملوا بطاعة الله على ما شرع الله لهم . روى الامام أحمد أن رجلاً قال : يا رسول الله ، مرني بأمر في الإسلام لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال ﷺ « قل آمنت بالله ثم استقم » قلت : فما أتقي ؟ فأومأ إلى لسانه . ﴿ تتنزل عليهم الملائكة ﴾ يعني عند الموت قائلين ﴿ ألَّا تخافوا ﴾ أي مما تقدمون عليه من أمر الآخرة ﴿ ولا تحزنوا ﴾ على ما خلفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال ، أو دين ، فإنا نخلفكم فيه ﴿ وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ﴾ فيبشرونهم بذهاب الشر ، وحصول الخير . وهذا كما جاء في حديث البراء رضي الله عنه قال : « إن الملائكة تقول لروح المؤمن : أخرجي أيتها الروح الطيبة في الجسد الطيب ، كنت تعمرينه ، اخرجي إلى رَوْح وريحان ، ورب غير غضبان .

(٣١) ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾

﴿ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ أي تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار : نحن كنا أولياءكم ، أي قرناءكم في الحياة الدنيا ، نسددكم ونوفقكم ، ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم في الآخرة ، نؤنس منكم الوحشة في القبور ، وعند النفخة في الصور ، ونؤمنكم يوم البعث والنشور ، ونجاوزبكم الصراط المستقيم ،

ونوصلكم إلى جنات النعيم ﴿ ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ﴾ أي في الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه النفوس ، وتقربه العيون ﴿ ولكم فيها ما تدعون ﴾ أي مهما طلبتم وجدتم ، وحضر بين أيديكم كما اخترتم .

(٣٢) ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾

﴿ نزلاً من غفور رحيم ﴾ أي ضيافة وعطاء وإنعاماً من غفور لذنوبكم ، رحيم بكم رؤوف حيث غفر وستر ورحم ولطف .

(٣٣) ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله ﴾ أي دعا عباد الله إليه ﴿ وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ أي وهو في نفسه مهتد بما يقوله ، فنفعه لنفسه ولغيره لازم ومتعد ، وليس هو من الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه ، وينهون عن المنكر ويأتونه ، بل يأتمر بالخير ويترك الشر ، ويدعو الخلق إلى الخالق ، تبارك وتعالى ، وهذه عامة في كل من دعا إلى خير ، وهو في نفسه مهتد ، ورسول الله ﷺ أولى الناس بذلك . وقيل : المراد بها المؤذنون الصلحاء ، كما ثبت في صحيح مسلم : « المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة » وفي السنن مرفوعاً « الإمام ضامن ، والمؤذن مؤتمن ، فأرشد الله الأئمة ، وغفر للمؤذنين » .

(٣٤) ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾

﴿ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ﴾ أي فرق عظيم بين هذه وهذه ﴿ ادفع بالتي هي أحسن ﴾ أي من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه ، كما قال عمر رضي الله عنه : ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه . ﴿ فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ﴾ وهو الصديق ، أي إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إليه إلى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه ولي لك حميم ، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك .

(٣٥) ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا ﴾ أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على

ذلك ، فإنه يشق على النفوس ﴿ وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ أي ذو نصيب وافر من السعادة في الدنيا والآخرة .

(٣٦) ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

﴿ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ﴾ أي إن شيطان الإنس ربما ينخدع بالإحسان إليه ، فأما شيطان الجن فإنه لا حيلة فيه إذا وسوس إلا الاستعاذة بخالقه الذي سلطه عليك ، فإذا استعذت بالله ، والتجأت إليه كفه عنك ورد كيده .

(٣٧) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾

يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة ، وأنه لا نظير له ، وأنه على ما يشاء قادر ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ﴾ أي أنه خلق الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ، وهما متعاقبان لا يفتران ، ﴿ لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ أي ولا تشركوا به ، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به .

(٣٨) ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾

﴿ فإن استكبروا ﴾ أي عن إفراد العبادة له ، وأبوا إلا أن يشركوا معه غيره ﴿ فالذين عند ربك ﴾ يعني الملائكة ﴿ يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون ﴾ كقوله عز وجل ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ وفي الحديث « لا تسبوا الليل ولا النهار ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح ، فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذاباً لقوم » .

(٣٩) ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ أي على قدرته على إعادة الموتى ﴿ أنك ترى الأرض خاشعة ﴾ أي هامدة لا نبات فيها ، بل هي ميتة ﴿ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴾ أي أخرجت من جميع ألوان الزروع والثمار ﴿ إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

(٤٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ

ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ إن الذين يلحدون في اياتنا ﴾ الإلحاد وضع الكلام على غير مواضعه ، أو هو الكفر والعناد ﴿ لا يخفون علينا ﴾ فيه تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، أي إنه تعالى عالم بمن يلحد في آياته وأسمائه وصفاته ، وسيجزيه على ذلك بالعقوبة والنكال . ولهذا قال ﴿ أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة ﴾ أي أيستوي هذا وهذا ؟ لا يستويان . ثم قال عز وجل تهديداً للكفرة :وقوله ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ وعيد ، أي خيراً أو شراً ، إنه عالم بكم ، وبصير بأعمالكم ، ولهذا قال ﴿ إنه بما تعملون بصير ﴾ .

(٤١) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾

﴿ إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ﴾ هو القرآن ﴿ وإنه لكتاب عزيز ﴾ أي منيع الجناب ، لا يرام أن يأتي أحد بمثله .

(٤٢) ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾

﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ أي ليس للبطلان إليه سبيل ، لأنه منزل من رب العالمين ، ولهذا قال ﴿ تنزيل من حكيم حميد ﴾ أي حكيم في أقواله وأفعاله ، حميد بمعنى محمود ، أي في جميع ما يأمر به وينهى عنه ، الجميع محمودة عواقبه وغاياته .

(٤٣) ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ أي ما يقال لك من التكذيب إلا كما قد قيل للرسل من قبلك ، فكما كذبت كذبوا ، وكما صبروا على أذى قومهم لهم فاصبر أنت على أذى قومك لك ﴿ إن ربك لذو مغفرة ﴾ أي لمن تاب إليه ﴿ وذو عقاب أليم ﴾ أي لمن استمر على كفره وطغيانه وعناده وشقاقه ومخالفته .

(٤٤) ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

لما ذكر تعالى القرآن وفصاحته وبلاغته وأحكامه في لفظه ومعناه ، ومع هذا لم يؤمن به المشركون نبه على أن كفرهم به كفر عناد وتعنت كما قال عز وجل ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴾ وكذلك لو أنزلنا القرآن بلغة العجم لقالوا على

وجه التعنت والعناد ﴿ لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي ﴾ أي لقالوا : هلا نزل مفصلاً بلغة العرب ، ولأنكروا ذلك فقالوا : أعجمي وعربي ، أي كيف ينزل كلام أعجمي على مخاطب عربي لا يفهمه ؟ ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾ أي قل يا محمد : هذا القرآن لمن آمن به هدى لقلبه ، وشفاء لما في الصدور من الشكوك والريب ﴿ والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر ﴾ أي لا يفهمون ما فيه ﴿ وهو عليهم عمى ﴾ أي لا يهتدون إلى ما فيه من البيان كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ ﴿ أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ كأن من يخاطبهم يناديهم من مكان بعيد لا يفهمون ما يقول .

(٤٥) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ﴾ أي كذِّب وأوذي ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى ﴾ بتأخير الحساب إلى يوم المعاد ﴿ لقضي بينهم ﴾ أي لعجل العذاب ، ﴿ بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ﴾ ﴿ وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ أي وما كان تكذيبهم له عن بصيرة منهم لما قالوا ، بل كانوا شاكين فيما قالوه غير محققين لشيء كانوا فيه .

(٤٦) ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك على نفسه ﴿ ومن أساء فعليها ﴾ أي إنما يرجع وبال ذلك عليه ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ أي لا يعاقب أحداً إلا بذنبه ، ولا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول إليه .

(٤٧) ﴿ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴾

﴿ إليه يرد علم الساعة ﴾ أي لا يعلم ذلك أحد سواه ، كما قال محمد ﷺ ، وهو سيد البشر لجبريل عليه السلام ، وهو من سادات الملائكة حين سأله عن الساعة ، فقال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل » ﴿ وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ﴾ أي الجميع بعلمه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، وقد قال سبحانه ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ﴾ ﴿ ويوم يناديهم أين

شركائي ﴾ أي يوم القيامة ينادي الله المشركين على رؤوس الخلائق : أين شركائي الذين عبدتموهم معي ﴿ قالوا آذناك ﴾ أي أعلمناك ﴿ ما منا من شهيد ﴾ أي ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكاً .

(٤٨) ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾

﴿ وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل ﴾ أي ذهبوا فلم ينفعوهم ﴿ وظنوا ما لهم من محيص ﴾ أي وظن المشركون يوم القيامة ، وهذا بمعنى اليقين ﴿ ما لهم من محيص ﴾ أي لا محيد عن عذاب الله كقوله ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

(٤٩) ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴾

يقـول تعـالى : لا يمل الإنسان من دعاء ربه بالخير ، وهو المال وصحة الجسم وغير ذلك ، وإن مسه الشر ، وهو البلاء أو الفقر ﴿ فيؤوس قنوط ﴾ أي يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير .

(٥٠) ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾

﴿ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ﴾ أي إذا أصابه خير ورزق بعدما كان في شدة ليقولن هذا لي ، إني كنت أستحقه عند ربي ﴿ وما أظن الساعة قائمة ﴾ أي يكفر بقيام الساعة ، أي لأجل أنه خول نعمة يبطر ويفخر ويكفر ، كما قال تعالى ﴿ كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى ﴾ ﴿ ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى ﴾ أي ولئن كان ثم معاد فليحسنن إلي ربي كما أحسن إلي في هذه الدار ، يتمنى على الله عز وجل مع إساءته العمل وعدم اليقين .قال تعالى ﴿ فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ ﴾يتهدد تعالى من كان هذا عمله واعتقاده بالعقاب والنكال .

(٥١) ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ﴾ أي أعرض عن الطاعة ، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله عز وجل ﴿ وإذا مسه الشر ﴾ أي الشدة ﴿ فذو دعاء عريض ﴾ أي يطيل المسألة في الشيء الواحد ، فالكلام العريض ما طال لفظه ، وقل معناه ، والوجيز عكسه ، وهو ما قل ودل .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (٥٢)

يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن ﴿ أرأيتم إن كان ﴾ هذا القرآن ﴿ من عند الله ثم كفرتم به ﴾ أي كيف ترون حالكم عند الذي أنزله على رسوله ؟ ولهذا قال عز وجل ﴿ من أضل ممن هو في شقاق بعيد ﴾ ؟ أي في كفر وعناد ومشاقة للحق ، ومسلك بعيد من الهدى .

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (٥٣)

﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ﴾ أي سنظهر لهم دلالاتنا وحججنا على كون القرآن حقاً منزلاً من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية ﴿ في الآفاق ﴾ من الفتوحات وظهور الإسلام على الأقاليم وسائر الأديان ، ودلائل في أنفسهم ، قالوا : وقعة بدر وفتح مكة ، ونحو ذلك من الوقائع التي حلت بهم ، نصر الله بها محمداً ﷺ وصحبه ، وخذل فيها الباطل وحزبه ، ويحتمل أن المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والاختلاط والهيئات العجيبة . وقوله ﴿ حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ﴾ أي كفى بالله شهيداً على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد أن محمداً ﷺ صادق فيما أخبر به عنه .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ (٥٤)

﴿ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ﴾ أي في شك من قيام الساعة ، ولهذا لا يتفكرون فيه ، ولا يعملون له ، ولا يحذرون منه بل هو عندهم هدر لا يعبأون به ، وهو كائن لا محالة ، وواقع لا ريب فيه ﴿ ألا إنه بكل شيء محيط ﴾ أي المخلوقات كلها تحت قهره ، وفي قبضته ، وتحت طي علمه ، وهو المتصرف فيها بحكمه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا إله إلا هو .



تفسير سُورَةُ الشُّورَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ﴾ ۝٢

تقدم الكلام على الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

۝٣ ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله ﴾ أي كما أنزل إليك هذا القرآن كذلك أنزل الكتب والصحف على الأنبياء قبلك ﴿ العزيز ﴾ أي في انتقامه ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله . روى الإمام مالك عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ « أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يأتيني الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها : فلقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ﷺ لينعصر عرقاً . أخرجاه في الصحيحين ، ولفظه للبخاري .

۝٤ ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي الجميع عبيد له وملك له تحت قهره وتصريفه ﴿ وهو العلي العظيم ﴾ كقوله تعالى ﴿ وهو الكبير المتعال ، وهو العلي الكبير ﴾ .

۝٥ ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ تكاد السموات يتفطرن من فوقهن ﴾ أي فرقاً من العظمة . ﴿ والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ إعلام بذلك وتنويه به .

(٦) ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾

﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ﴾ يعني المشركين ﴿ الله حفيظ عليهم ﴾ أي شهيد على أعمالهم ، يحصيها ويعدها عداً ، وسيجزيهم بها أوفر الجزاء ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ أي إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل .

(٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى : وكما أوحينا إلى الأنبياء قبلك ﴿ أوحينا إليك قرآناً عربياً ﴾ أي واضحاً جلياً بيناً ﴿ لتنذر أم القرى ﴾ وهي مكة ﴿ ومن حولها ﴾ أي من سائر البلاد شرقاً وغرباً ، وسميت مكة أم القرى لأنها أشرف من سائر البلاد لأدلة كثيرة منها أنه ﷺ وقف بالحزورة في سوق مكة وقال : « والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ ، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت » رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . ﴿ وتنذر يوم الجمع ﴾ وهو يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد . وقوله تعالى ﴿ لا ريب فيه ﴾ أي لا شك في وقوعه ، وأنه كائن لا محالة . وقوله جل جلاله ﴿ فريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ كقوله تعالى ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾ أي يغبن أهل الجنة أهل النار ، وكقوله ﴿ إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقي وسعيد ﴾ .

(٨) ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

﴿ ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ﴾ أي إما على الهداية ، وإما على الضلالة ، ولكنه تعالى فاوت بينهم ، فهدى من يشاء إلى الحق ، وأضل من يشاء عنه ، وله الحكمة والحجة البالغة . ولهذا قال ﴿ ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴾ . روى ابن جرير أن موسى عليه السلام قال : يا رب ، خلقك الذين خلقتهم جعلت منهم فريقاً في الجنة وفريقاً في النار ، لو أدخلتهم كلهم الجنة ، فقال : يا موسى ، ارفع درعك فرفع ، قال : قد رفعت ، قال : ارفع فرفع ، فلم يترك شيئاً ، قال : يا رب قد رفعت ، قال : ارفع قال : قد رفعت إلا ما لا خير منه ، قال : كذلك أدخل خلقي كلهم في الجنة إلا ما لا خير فيه .

(٩) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، ومخبراً أنه هو الولي الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، فإنه القادر على إحياء الموتى ، وهو على كل شيء قدير .

(١٠) ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

﴿ وما اختلفتم فيه من شيء ﴾ أي مهما اختلفتم فيه من الأمور ، وهذا عام في جميع الأشياء ﴿ فحكمه إلى الله ﴾ أي هو الحاكم فيه بكتابه وسنة نبيه ﷺ ، كقوله جل وعلا ﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ﴾ وقوله عز وجل ﴿ ذلكم الله ربي ﴾ أي الحاكم في كل شيء، ﴿ عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ أي أرجع في جميع الأمور .

(١١) ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ أي خالقهما وما بينهما ﴿ جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ﴾ أي من جنسكم وشكلكم منة عليكم وتفضلاً ، جعل من جنسكم ذكراً وأنثى ﴿ ومن الأنعام أزواجاً ﴾ أي وخلق لكم من الأنعام ثمانية أزواج . وقوله تبارك وتعالى ﴿ يذرؤكم فيه ﴾ أي يخلقكم فيه ، أي في ذلك الخلق على هذه الصفة لا يزال يذرؤكم فيه ذكوراً وإناثاً خلقاً من بعد خلق ، وجيلاً بعد جيل ، ونسلاً بعد نسل من الناس والأنعام ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ أي ليس كخالق الأزواج كلها شيء لأنه الفرد الصمد الذي لا نظير له ﴿ وهو السميع البصير ﴾ .

(١٢) ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ له مقاليد السموات والأرض ﴾ هو المتصرف الحاكم فيهما ﴿ يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ أي يوسع على من يشاء ويضيق على من يشاء ، وله الحكمة والعدل التام ﴿ إنه بكل شيء عليم ﴾ .

(١٣) ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن

﴿ يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾

يقول تعالى لهذه الأمة ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ﴾ فذكر أول الرسل بعد آدم وهو نوح عليه السلام ، وآخرهم وهو محمد ﷺ ، ثم ذكر من بين ذلك من أولي العزم : إبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، وهذه الآية انتظمت ذكر الخمسة كما اشتملت آية الأحزاب عليهم في قوله تبارك وتعالى ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ﴾ والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وفي الحديث « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ، ديننا واحد » أي القدر المشترك بينهم هو عبادة الله وحده لا شريك له ، وإن اختلفت شرائعهم ومناهجهم ، كقوله جل جلاله ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا ﴿ أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ أي وصى جميع الأنبياء بالائتلاف والجماعة ، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف . وقوله جل جلاله ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ﴾ أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد ﴿ الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ أي هو الذي يقدر الهداية لمن يستحقها ، ويكتب الضلالة على من آثرها على طريق الرشد .

﴿ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ (١٤)

﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم ﴾ أي إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم وقيام الحجة عليهم ، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة . ثم قال عز وجل ﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم ﴾ أي لولا الكلمة السابقة من الله تعالى بإنظار العباد بإقامة حسابهم إلى يوم المعاد لعجل لهم العقوبة في الدنيا سريعاً . وقوله جلت عظمته ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم ﴾ يعني الجيل المتأخر بعد القرن الأول المكذب للحق ﴿ لفي شك منه مريب ﴾ أي ليسوا على يقين من أمرهم وإيمانهم ، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم ، بلا دليل ولا برهان ، وهم في حيرة من أمرهم ، وشك مريب ، وشقاق بعيد .

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ (١٥)

يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على عشر كلمات مستقلات ، كل منها منفصلة عن التي قبلها ، حكم برأسها ، قالوا : ولا نظير لها سوى آية الكرسي ، فإنها أيضاً عشرة فصول كهذه . وقوله ﴿ فلذلك فادع ﴾ أي فللذي أوحينا إليك من الدين الذي وصينا به جميع المرسلين قبلك أصحاب الشرائع الكبار المتبعة كأولي العزم وغيرهم فادع الناس إليه . وقوله عز وجل ﴿ ولا تتبع أهواءهم ﴾ يعني المشركين فيما اختلقوه فيه وكذبوه وافتروه من عبادة الأوثان . وقوله جل وعلا ﴿ وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ﴾ أي صدقت بجميع الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء لا نفرق بين أحد منهم . وقوله ﴿ وأمرت لأعدل بينكم ﴾ أي في الحكم كما أمرني الله . وقوله جلت عظمته ﴿ الله ربنا وربكم ﴾ أي هو المعبود لا إله غيره ، فنحن نقر بذلك اختياراً ، وأنتم وإن لم تفعلوه اختياراً فله يسجد من في العالَمِيْن طوعاً وإجباراً . وقوله تبارك وتعالى ﴿ لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴾ أي نحن برآء منكم ، كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ . وقوله ﴿ لا حجة بيننا وبينكم ﴾ أي لا خصومة ، وذلك قبل نزول آية السيف ، فهذه الآية مكية ، وآية السيف بعد الهجرة . وقوله عز وجل ﴿ الله يجمع بيننا ﴾ أي يوم القيامة ، كقوله ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ وإليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب يوم الحساب .

(١٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾

يقول تعالى متوعداً الذين يصدون عن سبيل الله من آمن به ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له ﴾ أي يجادلون المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ليصدوهم عما سلكوه من طريق الهدى ﴿ حجتهم داحضة عند ربهم ﴾ أي باطلة عند الله ﴿ وعليهم غضب ﴾ أي منه ﴿ ولهم عذاب شديد ﴾ أي يوم القيامة .

(١٧) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾

﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق ﴾ يعني الكتب المنزلة من عنده على أنبيائه ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل والانصاف ، وهذه كقوله تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وقوله ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان . ألا تطغوا

في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ وما يدريك لعل الساعة قريب ﴾ فيه ترغيب فيها ، وترهيب منها ، وتزهيد في الدنيا .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (١٨)

﴿ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ﴾ أي يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ، وإنما يقولون ذلك تكذيباً واستبعاداً وكفراً وعناداً . ﴿ والذين آمنوا مشفقون منها ﴾ أي خائفون وجلون من وقوعها ﴿ ويعلمون أنها الحق ﴾ أي كائنة لا محالة فهم مستعدون لها ، عاملون من أجلها . وقد روي من طرق تبلغ درجة التواتر في الصحاح والحسان والسنن والمسانيد ، وفي بعض ألفاظه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ بصوت جهوري ، وهو في بعض أسفاره فناداه فقال : يا محمد ، فقال له رسول الله ﷺ نحواً من صوته « هاؤم » فقال له : متى الساعة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « ويحك إنها كائنة ، فما أعددت لها ؟ » فقال : حب الله ورسوله ، فقال ﷺ : « أنت مع من أحببت » . فقوله في الحديث « المرء مع من أحب » هذا متواتر لا محالة ، والغرض أنه لم يجبه عن وقت الساعة ، بل أمره بالاستعداد لها . وقوله تعالى ﴿ ألا إن الذين يمارون في الساعة ﴾ أي يجادلون في وجودها ويدفعون وقوعها ﴿ لفي ضلال بعيد ﴾ أي في جهل مبين ، لأن الذي خلق السموات والأرض قادر على إحياء الموتى بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴾ (١٩)

يقول تعالى مخبراً عن لطفه بخلقه في رزقه إياهم عن آخرهم ، لا ينسى أحداً منهم ، سواء في رزقه البر والفاجر ، كقوله عز وجل ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ﴾ . وقوله جل جلاله ﴿ يرزق من يشاء ﴾ أي يوسع على من يشاء ﴿ وهو القوي العزيز ﴾ أي لا يعجزه شيء .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ (٢٠)

﴿ من كان يريد حرث الآخرة ﴾ أي عمل الآخرة ﴿ نزد له في حرثه ﴾ أي نقويه ونعينه على ما هو بصدده ، ونكثر نماءه ، ونجزيه بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى

ما يشاء الله ﴿ ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب ﴾ أي ومن كان إنما سعيه ليحصل له شيء من الدنيا ، وليس له إلى الآخرة هَمٌّ البتة بالكلية حرمه الله الآخرة ، والدنيا إن شاء أعطاه منها ، وإن لم يشأ لم يحصل لا هذه ولا هذه . وفاز الساعي بهذه النية بالصفقة الخاسرة في الدنيا والآخرة .

(٢١) ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾ أي هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم ، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والوصيلة والسائبة والحام ، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأموال الفاسدة ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « رأيت عمرو بن لحي بن قحفة يجر قصبه في النار » لأنه أول من سيب السوائب . وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة ، وهو أول من فعل هذه الأشياء ، وهو الذي حمل قريشاً على عبادة الأصنام . لعنه الله وقبحه ، ولهذا قال تعالى ﴿ ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم ﴾ أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الانظار إلى يوم المعاد ﴿ وإن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير .

(٢٢) ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾

﴿ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا ﴾ أي في عرصات القيامة ﴿ وهو واقع بهم ﴾ أي الذي يخافون منه واقع بهم لا محالة ، هذا حالهم يوم معادهم ، وهم في هذا الخوف والوجل ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤ ون عند ربهم ﴾ فأين هذا من هذا ؟ أي أين من هو في العرصات في الذل والهوان والخوف المحقق عليه بظلمه ممن هو في روضات الجنات فيما يشاء من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومناظر ومناكح وملاذ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؟ ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ أي الفوز العظيم ، والنعمة التامة السابغة الشاملة العامة .

(٢٣) ﴿ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا

ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

يقول تعالى لما ذكر روضات الجنات لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي هذا حاصل لهم كائن لا محالة ببشارة الله تعالى لهم به . وقوله عز وجل ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من كفار قريش : لا أسألكم على هذا البلاغ والنصح لكم مالاً تعطونيه ، وإنما أطلب منكم أن تكفوا شركم عني ، وتذروني أبلغ رسالات ربي إن لم ينصروني ، فلا تؤذوني بما بيني وبينكم من القرابة . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال في خطبته بغدير خم « إني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي ، وإنهما لم يفترقا حتى يردا على الحوض » وقوله عز وجل ﴿ ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ﴾ أي ومن يعمل حسنة نزد له فيها حسناً أي أجراً وثواباً ، كقوله تعالى ﴿ إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ ﴿ إن الله غفور شكور ﴾ أي يغفر الكثير من السيئات ، ويكثر القليل من الحسنات ، فيستر ويغفر ويضاعف ويشكر .

(٢٤) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ أم يقولون افترى على الله كذباً فإن يشأ الله يختم على قلبك ﴾ أي لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يختم على قلبك ﴾ أي يطبع على قلبك ، وسلبك ما كان آتاك من القرآن . وقوله جلت قدرته ﴿ ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته ﴾ أي يحققه ويثبته ويبينه ويوضحه بكلماته ، أي بحججه وبراهينه ﴿ إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما تكنه الضمائر ، وتنطوي عليه السرائر .

(٢٥) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

يقول تعالى ممتناً على عباده بقبول توبتهم إليه إذا تابوا ، ورجعوا إليه : إنه من كرمه وحلمه أنه يعفو ويصفح ويستر ويغفر كقوله ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ « لَلَّهُ تعالى أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كانت راحلته بأرض فلاة فانقلبت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ، ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي

وأنا ربك ـ أخطأ من شدة الفرح ـ » ﴿ ويعفو عن السيئات ﴾ أي يقبل التوبة في المستقبل ، ويعفو عن السيئات في الماضي ﴿ ويعلم ما تفعلون ﴾ أي هو عالم بجميع ما فعلتم وصنعتم وقلتم ، ومع هذا يتوب على من تاب إليه .

﴿ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (٢٦)

﴿ ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ معناه يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم ولأصحابهم وإخوانهم ، أو يستجيبون للحق ، كقوله تعالى ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ والمعنى الأول أظهر لقوله تعالى ﴿ ويزيدهم من فضله ﴾ أي يستجيب دعاءهم ويزيدهم فوق ذلك ﴿ والكافرون لهم عذاب شديد ﴾ لما ذكر المؤمنين وما لهم من الثواب الجزيل ذكر الكافرين وما لهم عنده يوم القيامة من العذاب الشديد الموجع المؤلم يوم معادهم وحسابهم .

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ (٢٧)

﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ أي لو أعطاهم فوق حاجتهم من الرزق لحملهم ذلك على البغي والطغيان من بعضهم على بعض أشراً وبطراً ، وكان يقال : خير العيش ما لا يلهيك ولا يطغيك ﴿ ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير ﴾ أي ولكن يرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم ، وهو أعلم بذلك ، فيغني من يستحق الغنى ، ويفقر من يستحق الفقر ، كما جاء في الحديث « إن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى ، ولو أفقرته لأفسدت عليه دينه ، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر ، ولو أغنيته لأفسدت عليه دينه » .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ (٢٨)

﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ أي من بعد إياس الناس من نزول المطر ينزله عليهم في وقت حاجتهم وفقرهم إليه ، كقوله عز وجل ﴿ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ وينشر رحمته ﴾ أي يعم بها الوجود على أهل ذلك القطر وتلك الناحية ﴿ وهو الولي الحميد ﴾ أي هو المتصرف لخلقه بما ينفعهم في دنياهم وأخراهم ، وهو المحمود العاقبة في جميع ما يقدره ويفعله .

﴿٢٩﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾

﴿ ومن آياته ﴾ الدالة على عظمته وقدرته العظيمة ، وسلطانه القاهر ﴿ خلق السموات والأرض وما بث فيهما ﴾ أي ذرأ فيهما ، أي في السموات والأرض ﴿ من دابة ﴾ وهذا يشمل الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات على اختلاف أشكالهم وألوانهم ولغاتهم وطباعهم وأجناسهم وأنواعهم ، وقد فرقهم في أرجاء أقطار السموات والأرض . ﴿ وهو ﴾ مع هذا كله ﴿ على جمعهم إذا ما يشاء قدير ﴾ أي يوم القيامة يجمع الأولين والآخرين وسائر الخلائق في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، فيحكم فيهم بحكمه العدل الحق .

﴿٣٠﴾ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٣١﴾

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ﴾ أي مهما أصابكم أيها الناس من المصائب ، فإنما هي سيئات تقدمت لكم ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ أي من السيئات ، فلا يجازيكم عليها ، بل يعفو عنها . وفي الحديث الصحيح « والذي نفسي بيده ما يصيب المؤمن من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن إلا كفر الله عنه بها من خطاياه حتى الشوكة يشاكها » .

﴿٣٢﴾ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾

يقول تعالى : ومن آياته الدالة على قدرته الباهرة ، وسلطانه تسخيره البحر لتجري فيه الفلك بأمره ، وهي الجواري في البحر كالأعلام أي كالجبال .

﴿٣٣﴾ ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

﴿ إن يشأ يسكن الريح ﴾ أي التي تسير في البحر كالسفن لو شاء لسكنها حتى لا تتحرك السفن ، بل تبقى راكدة لا تجيء ولا تذهب ، بل واقفة على ظهره ، أي على وجه الماء . ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار ﴾ في الشدائد ﴿ شكور ﴾ في الرخاء .

﴿٣٤﴾ ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

﴿ أو يوبقهن بما كسبوا ﴾ أي ولو شاء لأهلك السفن وغرَّقها بذنوب أهلها الذين هم

راكبون فيها ﴿ ويعف عن كثير ﴾ أي من ذنوبهم ، ولو أخذهم بجميع ذنوبهم لأهلك كل من ركب البحر .

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

﴿ ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴾ أي لا محيد لهم عن بأسنا ونقمتنا ، فإنهم مقهورون بقدرتنا .

(٣٦) ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾

يقول تعالى محقراً لشأن الحياة الدنيا وزينتها وما فيها من الزهوة والنعيم الفاني بقوله تعالى ﴿ فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا ﴾ أي مهما حصلتم وجمعتم فلا تغتروا به ، فإنما هو متاع الحياة الدنيا ، وهي دار دنيئة فانية زائلة ، لا محالة ﴿ وما عند الله خير وأبقى ﴾ أي وثواب الله تعالى خير من الدنيا ، وهو باق سرمدي ، فلا تقدموا الفاني على الباقي ، ولهذا قال تعالى ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي للذين صبروا على ترك الملاذ في الدنيا ﴿ وعلى ربهم يتوكلون ﴾ أي ليعينهم على الصبر في أداء الواجبات ، وترك المحرمات .

(٣٧) ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش واذا ما غضبواهم يغفرون ﴾ أي سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس ، ليس سجيتهم الأنتقام من الناس . وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ ما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله .

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

﴿ والذين استجابوا لربهم ﴾ أي اتبعوا رسله ، وأطاعوا أمره ، واجتنبوا زجره ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ وهي أعظم العبادات لله عز وجل ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أي لا يبرمون أمراً حتى يتشاوروا فيه ، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها ، كما قال تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وذلك بالاحسان الى خلق الله ، الأقرب منهم فالأقرب .

(٣٩) ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾

﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون ﴾ أي فيهم قوة الانتصار ممن ظلمهم واعتدى

عليهم ، ليسوا بالعاجزين ، ولا الأذلين ، بل يقدرون على الانتقام ممن بغى عليهم ، وإن كانوا مع هذا إذا قدروا عفوا ، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته ﴿ لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم ﴾ مع قدرته على مؤاخذتهم ومقابلتهم على صنيعهم اليه .

(٤٠) ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ كقوله تعالى ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ وقوله تعالى ﴿ فمن عفا وأصلح فأجره على الله ﴾ أي لا يضيع ذلك عند الله ، كما صح ذلك في الحديث « وما زاد الله تعالى عبداً بعفو الاعز » وقوله تعالى ﴿ إنه لا يحب الظالمين ﴾ أي المعتدين ، وهو المبتدىء بالسيئة .

(٤١) ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾

﴿ ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ﴾ أي ليس عليهم جناح في الانتصار ممن ظلمهم .

(٤٢) ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ إنما السبيل ﴾ أي الحرج والتعنت ﴿ على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ﴾ أي يبدؤون الناس بالظلم ﴿ أولئك لهم عذاب أليم ﴾ أي شديد موجع .

(٤٣) ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾

﴿ ولمن صبر وغفر ﴾ أي صبر على الأذى ، وستر السيئة ﴿ إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ أي لمن حق الأمور التي أمر الله بها ، أي لمن الأمور المشكورة ، والأفعال الحميدة التي عليها ثواب جزيل وثناء جميل .

(٤٤) ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه ما شاء كان ، ولا راد له ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا موجد له ، وأنه من هداه فلا مضل له ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، كما قال عز وجل ﴿ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾ . ثم قال تعالى مخبراً عن الظالمين وهم

المشركون بالله ﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي يوم القيامة تمنوا الرجعة الى الدنيا ﴿ يقولون هل الى مرد من سبيل ﴾ كما قال عز وجل ﴿ ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ .

(٤٥) ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾

﴿ وتراهم يعرضون عليها ﴾ أي على النار ﴿ خاشعين من الذل ﴾ أي الذي قد عزاهم بما أسلفوا من عصيان الله تعالى ﴿ ينظرون من طرف خفي ﴾ ذليل ، أي ينظرون إليها مسارقة خوفاً منها ، والذين يحذرون منه واقع بهم لا محالة وما هو أعظم مما في نفوسهم ، أجارنا الله من ذلك ﴿ وقال الذين آمنوا ﴾ أي يقولون يوم القيامة ﴿ إن الخاسرين ﴾ أي الخسار الأكبر ﴿ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ﴾ أي ذهب بهم الى النار ، فعدموا لذتهم في دار الأبد وخسروا أنفسهم ، وفرق بينهم وبين أحبابهم وأصحابهم وأهاليهم وقراباتهم فخسروهم ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ أي دائم سرمدي أبدي ، لا خروج لهم منها ، ولا محيد لهم عنها .

(٤٦) ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾

﴿ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم دون الله ﴾ أي ينقذونهم مما هم فيه من العذاب والنكال ﴿ ومن يضلل الله فما له من سبيل ﴾ أي ليس له خلاص .

(٤٧) ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾

لماذا ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة من الأهوال والأمور العظام الهائلة حذر منه وأمر بالاستعداد له فقال ﴿استجيبوا لربّكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله﴾ أي إذا أمر بكونه فإنه كلمح البصر يكون ، وليس له دافع ، ولا مانع ﴿ مالكم من ملجأ يومئذٍ ومالكم من نكير ﴾ أي ليس لكم حصن تتحصنون فيه ، ولا مكان يستركم ، وتتنكرون فيه ، فتغيبون عن بصره تبارك وتعالى ، بل هو محيط بكم بعلمه وبصره وقدرته ، فلا ملجأ منه إلا إليه .

(٤٨) ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا

﴿رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾

﴿ فإن أعرضوا ﴾ يعني المشركين ﴿ فما أرسلناك عليهم حفيظاً ﴾ أي ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ إن عليك الا البلاغ ﴾ أي إنما كلفناك أن تبلغهم رسالة الله اليهم ﴿ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ﴾ أي إذا أصابه رخاء ونعمة فرح بها ﴿ وإن تصبهم ﴾ يعني الناس ﴿ سيئة ﴾ أي جدب ونعمة وبلاء وشدة ﴿ فإن الإنسان كفور ﴾ يجحد ما تقدم من النعم ، ولا يعرف الا الساعة الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشر وبطر ، وإن أصابته محنة يئس وقنط .

(٤٩) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾

يخبر الله تعالى أنه خالق السموات والأرض ومالكهما والمتصرف فيهما ، وأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأنه يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ولا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، وأنه يخلق ما يشاء ﴿ يهب لمن يشاء إناثاً ﴾ أي يرزقه الإناث فقط ، قال البغوي : ومنهم لوط ﴿ ويهب لمن يشاء الذكور ﴾ أي يرزقه البنين فقط . قال البغوي : كابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ، لم يولد له أنثى .

(٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾

﴿ أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ﴾ أي ويعطي لمن يشاء من الناس الزوجين الذكر والأنثى ، أي من هذا أو هذا، قال البغوي: كمحمد ﷺ ﴿ويجعل من يشاء عقيماً﴾ أي لا يولد له. قال البغوي : كيحى وعيسى عليهما الصلاة والسلام فجعل الناس أربعة أقسام ، منهم من يعطيه البنات ، ومنهم من يعطيه البنين ، ومنهم من يعطيه النوعين ذكراً وإناثاً ومنهم من يمنعه هذا وهذا فيجعله عقيماً لا نسل له ولا ولد له ﴿ إنه عليم ﴾ أي بمن يستحق كل قسم من هذه الأقسام ﴿ قدير ﴾ أي على ما يشاء من تفاوت الناس في ذلك .

(٥١) ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

هذه مقامات الوحي بالنسبة الى جناب الله عز وجل ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عز وجل ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى

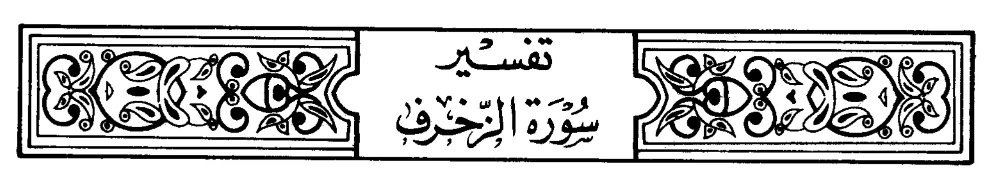
تستكمل رزقها وأجلها ، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب » وقوله تعالى ﴿ أو من وراء حجاب ﴾ كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام ، فإنه سأل الرؤية بعد التكليم فحجب عنها . وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنهما « ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب ، وإنه كلم أباك كفاحاً » ولكن هذا في عالم البرزخ ، والآية إنما هي في دار الدنيا . وقوله عز وجل ﴿ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ كما ينزل جبريل وغيره من الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ﴿ إنه علي حكيم ﴾ فهو عليم خبير حكيم .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٥٢)

﴿ وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ﴾ يعني القرآن ﴿ ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ أي على التفصيل الذي شرع لك في القرآن ﴿ ولكن جعلناه ﴾ أي القرآن ﴿ نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ كقوله تعالى ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإنك ﴾ بالحمد ﴿ لتهدي إلى صراط مستقيم ﴾ وهو الخلق القديم ، ثم فسره بقوله تعالى :

﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (٥٣)

﴿ صراط الله ﴾ أي شرعه الذي أمر به الله ﴿ الذي له ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي ربهما ومالكهما والمتصرف فيهما والحاكم الذي لا معقب لحكمه ﴿ ألا إلى الله تصير الأمور ﴾ أي ترجع الأمور فيفصلها ويحكم فيها سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .



تفسير سورة الزخرف



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ﴾ (١)

تقدم الكلام عن الحروف المقطعة أول سورة البقرة .

(٢) ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾

﴿ والكتاب المبين ﴾ أي البين الواضح الجلي المعاني والألفاظ ، لأنه نزل بلغة العرب التي هي أفصح اللغات للتخاطب بين الناس .

(٣) ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

ولهذا قال ﴿ إنا جعلناه ﴾ أي أنزلناه ﴿ قرآناً عربياً ﴾ أي بلغة العرب فصيحاً واضحاً ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي تفهمونه وتتدبرونه .

(٤) ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم ﴾ بين شرفه في الملأ الأعلى ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض ، فقال تعالى ﴿ وإنه ﴾ أي القرآن ﴿ في أم الكتاب ﴾ أي اللوح المحفوظ ﴿ لدينا ﴾ أي عندنا ﴿ لعلي ﴾ أي ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل ﴿ حكيم ﴾ أي محكم بريء من اللبس والزيغ ، وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله .

(٥) ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾

﴿ أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ﴾ أي تحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ، ولم تفعلوا ما أمرتم به .

(٦) ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ وكم أرسلنا من نبي في الأولين ﴾ أي في شيع الأولين .

(٧) ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

﴿ وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤ ون ﴾ أي يكذبونه ويسخرون به .

(٨) ﴿ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ فأهلكنا أشد منهم بطشاً ﴾ أي فأهلكنا المكذبين بالرسل ، وقد كانوا أشد بطشاً من هؤلاء المكذبين لك يا محمد ﴿ ومضى مثل الأولين ﴾ سنتهم ، أو عقوبتهم أي جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم .

(٩) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

يقول تعالى : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ من خلق السموٰات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله وحده لا شريك له ، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد .

(١٠) ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

﴿ الذي جعل لكم الأرض مهداً ﴾ أي فراشاً قراراً ثابتة تسيرون عليها رتقدمون وتنامون وتنصرفون مع أنها مخلوقة على تيار الماء ، لكنه أرساها بالجبال لئلا تحيد هكذا وهكذا ﴿ وجعل لكم فيها سبلاً ﴾ أي طرقاً بين الجبال والأودية ﴿ لعلكم تهتدون ﴾ أي في سيركم من بلد إلى بلد ، وقطر إلى قطر ، وإقليم الى إقليم .

(١١) ﴿ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

﴿ والذي نزل من السماء ماء بقدر ﴾ أي بحسب الكفاية لزرعكم وثماركم وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم ﴿ فأنشرنا به بلدة ميتاً ﴾ أي أرضاً ميتة ، فلما جاءها اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ثم نبه تعالى باحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها فقال ﴿ كذلك تخرجون ﴾ .

(١٢) ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾

﴿ والذي خلق الأزواج كلها ﴾ أي مما تنبت الأرض من سائر الأصناف من نبات وزروع وثمار وأزاهير وغير ذلك ومن الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها ﴿ وجعل لكم من الفلك ﴾ أي السفن ﴿ والأنعام ما تركبون ﴾ أي ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها وشربكم ألبانها ، وركوبكم ظهورها . ولهذا قال جل وعلا :

(١٣) ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾

﴿ لتستووا اعلى ظهوره ﴾ أي لتستووا متمكنين مرتفقين ﴿ على ظهوره ﴾ أي على ظهور هذا الجنس ﴿ ثم تذكروا نعمة ربكم ﴾ أي فيما سخر لكم ﴿ إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ﴾ أي مقاومين ، ولولا تسخير الله لنا هذا ما قدرنا عليه .

(١٤) ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾

﴿ وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ أي لصائرون اليه بعد مماتنا ، واليه سيرنا الأكبر ، وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة ، كما نبه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله تعالى ﴿ وتـزودوا فإن خير الزاد التقوى ﴾ وباللباس الدنيوي على اللباس الأخروي في قوله تعالى ﴿ وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ﴾ روى الإمام أحمد أن النبي ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثاً ثم قال : « سبحـان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا لمنقلبون ، ثم يقول : اللهم إني أسألك في سفري هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا السفر ، واطوِ لنا البعيد ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم اصحبنا في سفرنا ، واخلفنا في أهلنا » .

(١٥) ﴿ وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما افتروا وكذبوا في جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم ، وبعضها لله تعالى فقال ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين ﴾ ثم قال تعالى :

(١٦) ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾

﴿ أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ﴾ وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار ، ثم ذكر تمام الإنكار فقال جلت عظمته .

(١٧) ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾

أي إذا بشر أحـد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة ، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به ، ويتوارى من القوم من خجله من ذلك ، يقول تبارك وتعالى . فكيف تأنفون أنتم من ذلك وتنسبونه إلى الله عز وجل ؟

(١٨) ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾

﴿ أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ﴾ أي المرأة الناقصة يكمل نقصها بلبس الحلي منذ تكون طفلة ، وإذا خاصمت فلا عبارة لها ، بل هي عاجزة عيية ، أو من يكون هكذا ينسب إلى جناب الله العظيم ، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن في الصورة ، والمعنى فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلي وما في معناه ليجبر ما فيها من نقص .

(١٩) ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾

﴿ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ﴾ أي اعتقدوا فيهم ذلك فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك فقال ﴿ أشهدوا خلقهم ﴾ أي شاهدوه ، وقد خلقهم الله إناثاً ﴿ ستكتب شهادتهم ﴾ أي بذلك ﴿ ويسألون ﴾ عن ذلك يوم القيامة ، وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد .

(٢٠) ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾

﴿ وقالوا لو شاء الرحمٰن ما عبدناهم ﴾ أي لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام التي هي على صور الملائكة التي هي بنات الله ، فإنه عالم بذلك ، وهو يقررنا عليه فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ : أحدها جعلهم لله ولداً . تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ، والثاني دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمٰن إناثاً ، الثالث عبادتهم لهم مع ذلك كله بلا دليل ولا برهان ، ولا إذن من الله عز وجل ، بل بمجرد الآراء والأهواء والتقليد للاسلاف والكبراء والآباء والخبط في الجاهلية الجهلاء ، الرابع احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قدراً ، وقد جهلوا في هذا الاحتجاج جهلاً كبيراً ، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الانكار ، فإنه منذ بعث الرسل ، وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له وينهى عن عبادة ما سواه . قال تعالى بعد أن ذكر حجتهم هذه ﴿ ما لهم بذلك من علم ﴾ أي بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿ إن هم الا يخرصون ﴾ أي يكذبون ويتقولون .

(٢١) ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً عليهم في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة ﴿ أم آتيناهم كتاباً من قبله ﴾ أي من قبل شركهم ﴿ فهم به مستمسكون ﴾ أي فيما هم فيه ، أي ليس الأمر كذلك .

(٢٢) ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾

﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ أي ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد بأنهم كانوا على أمة ، والمراد بها الدين ههنا ، وفي قوله تبارك وتعالى ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة ﴾ ﴿ وإنا على آثارهم ﴾ أي وراءهم ﴿ مهتدون ﴾ دعوى منهم بلا دليل .

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾

ثم بين جل وعلا أن مقالة هؤلاء قد سبقهم اليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل تشابهت قلوبهم ، فقالوا مثل مقالتهم ﴿ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ .

﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ ﴿٢٤﴾

ثم قال عز وجل ﴿ قل ﴾ أي يا محمد لهؤلاء المشركين ﴿ أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ أي ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به لما انقادوا لذلك لسوء قصدهم ، ومكابرتهم للحق وأهله .

﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿٢٥﴾

قال تعالى ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ أي من الأمم المكذبة بأنواع العذاب ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ أي كيف بادوا وهلكوا ، وكيف نجى الله المؤمنين ؟

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء ، ووالد من بعث بعده من الأنبياء الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال ﴿ إنني براء مما تعبدون ﴾ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ إلا الذي فطرني فإنه سيهدين وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾ أي هذه الكلمة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان ، وهي لا إله إلا الله ، أي جعلها دائمة في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله تعالى من ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي إليها .

﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٢٩﴾

﴿ بل متعت هؤلاء ﴾ يعني المشركين ﴿ وآباءهم ﴾ أي فتطاول عليهم العمر في ضلالهم

﴿ حتى جاءهم الحق ورسول مبين ﴾ أي بين الرسالة والنذارة .

(٣٠) ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴾

﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ أي كابروه وعاندوه ، ودفعوا بالصدور والراح كفراً وحسداً وبغياً .

(٣١) ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾

﴿ وقالوا ﴾ أي كالمعترضين على الذي أنزله تعالى وتقدس ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ أي هلا كان انزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير في أعينهم من القريتين ؟ يعنون مكة والطائف ، وقد ذكر غير واحد أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة ، وعروة بن مسعود الثقفي .

(٣٢) ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ ؟ أي ليس الأمر مردوداً اليهم ، بل إلى الله عز وجل ، و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ ، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلباً ونفساً وأشرفهم بيتاً ، وأطهرهم أصلاً ، ثم قال تعالى مبيناً أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة فقال ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ﴾ قيل : معناه ليسخر بعضهم بعضاً في الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ﴿ ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ أي رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا .

(٣٣) ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾

﴿ ولولا أن يكون الناس أمة واحدة ﴾ أي لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ﴿ لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج ﴾ أي سلالم ودرجاً من فضة ﴿ عليها يظهرون ﴾ أي يصعدون .

(٣٤) ﴿ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴾

﴿ ولبيوتهم أبواباً ﴾ أغلاقاً على أبوابهم ﴿ وسرراً عليها يتكئون ﴾ أي جميع ذلك يكون فضة .

(٣٥) ﴿ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ وزخرفاً ﴾ أي ذهباً ﴿ وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ﴾ أي إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله تعالى ، أي يجعل لهم بحسناتهم التي يعملونها في الدنيا مآكل ومشارب ليوافوا الآخرة ، وليس لهم عند الله تبارك وتعالى حسنة يجزيهم بها ، كما ورد به الحديث الصحيح وورد في حديث آخر « لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء » أسنده البغوي ﴿ والآخرة عند ربك للمتقين ﴾ أي لهم خاصة ، لا يشاركهم فيها أحد غيرهم .

(٣٦) ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

﴿ ومن يعش ﴾ أي يتعامى ويتغافل ويعرض ﴿ عن ذكر الرحمن ﴾ والعشا في العين ضعف بصرها ، والمراد ههنا عشا البصيرة ﴿ نقيض له شيطاناً فهو له قرين ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ .

(٣٧) ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (٣٧) حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ (٣٨)

﴿ وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون . حتى إذا جاءنا ﴾ أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله ويهديه إلى صراط الجحيم ، فإذا وافى الله عز وجل يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به ، ﴿ قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين ﴾ والمراد بالمشرقين ههنا هو ما بين المشرق والمغرب ، وانما استعمل ههنا تغليباً ، كما يقال : القمران والعمران والأبوان .

(٣٩) ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

﴿ ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون ﴾ أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار ، واشتراككم في العذاب الأليم .

(٤٠) ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

أي ليس ذلك إليك ، إنما عليك البلاغ ، وليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، وهو الحكيم العدل في ذلك .

﴿٤١﴾ ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾

﴿ فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون ﴾ أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ، ولو ذهبت أنت .

﴿٤٢﴾ ﴿ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَـٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴾

﴿ أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون ﴾ أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ، ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكمه في نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم .

﴿٤٣﴾ ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ فاستمسك بالذي أوحي اليك انك على صراط مستقيم ﴾ أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك ، فإنه هو الحق وما يهدي اليه هو الحق المفضي إلى صراط مستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم ، والخير الدائم المقيم .

﴿٤٤﴾ ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾

﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ قيل : معناه لشرف لك ولقومك ، أو لتذكير لك ولقومك ، وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم ، كقوله تعالى ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ .

﴿٤٥﴾ ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾

﴿ واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس اليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد .

﴿٤٦﴾ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله موسى عليه الصلاة والسلام أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة والأتباع والرعايا من القبط وبني اسرائيل ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وينهاهم عن عبادة ما سواه ، وأنه بعث معه آيات عظاماً ، كيده وعصاه ، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات ، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها وكذبوها وسخروا منها ، وضحكوا ممن جاءهم بها .

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها ﴾ ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم وخبالهم ، وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى عليه الصلاة والسلام ، ويتلطفون له في العبارة بقولهم :

﴿٤٩﴾ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿ يا أيها الساحر ﴾ أي العالم ، وكان علماء زمانهم هم السحرة ، ولم يكن السحر في زمانهم مذموماً عندهم ، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم ، لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك ، وإنما هو تعظيم في زعمهم ففي كل مرة يعدون موسى عليه السلام إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا به ، ويرسلوا معه بني اسرائيل ، وفي كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه . ﴿ فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون ﴾ .

﴿٥١﴾ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده أنه جمع قومه فنادى فيهم متبجحاً مفتخراً بملك مصر وتصرفه فيها ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ؟ ﴾ قال قتادة : قد كانت لهم جنات وأنهار وماء ﴿ أفلا تبصرون ﴾ أي أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك ؟ يعني وموسى وأتباعه فقراء ضعفاء ، وهذا كقوله تعالى ﴿ فحشر فنادى . فقال أنا ربكم الأعلى . فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ .

﴿٥٢﴾ ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

﴿ أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ﴾ يقول : بل أنا أخير من هذا الذي هو مهين ، يعني فرعون لعنه الله بذلك أنه خير من موسى عليه الصلاة والسلام ، وقد كذب في قوله هذا كذباً بيناً واضحاً ، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ﴿ مهين ﴾ حقير أو ضعيف ، أو لا ملك له ولا سلطان ﴿ ولا يكاد يبين ﴾ يعني لا يكاد يفصح عن كلامه فهو عيي حصر ، وهذا كذب وافتراء ، فإنه وإن كان أصاب لسانه شيء من جهة الجمرة فقد سأل الله عز وجل أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله ، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له ذلك في قوله ﴿ قد أوتيت سؤلك يا موسى ﴾ .

(٥٣) ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾

﴿ فلولا ألقي عليه اسورة من ذهب ﴾ وهي ما يجعل في الأيدي من الحلي ﴿ أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾ أي يكتنفونه خدمة ، ويشهدون بتصديقه . .

(٥٤) ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ﴾ أي استخف عقولهم فدعاهم إلى الصلاة فاستجابوا له ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

(٥٥) ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ﴾ آسفونا : أسخطونا ، أو أغضبونا . وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيت الله تبارك وتعالى يعطي العبد ما يشاء ، وهو مقيم على معاصيه فإنما ذلك استدراج منه له » ثم تلا ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم . . . ﴾ وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : وجدت النقمة مع الغفلة ، يعني قوله تعالى ﴿ فلما آسفونا انتقمنا منهم . . . ﴾ .

(٥٦) ﴿ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾

﴿ فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ ﴿ سلفاً ﴾ لمثل من عمل بعملهم ﴿ ومثلاً ﴾ أي عبرة لمن بعدهم . والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب .

(٥٧) ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن تعنت قريش في كفرهم وتعمدهم العناد والجدل ﴿ ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون ﴾ يضحكون ، أي أعجبوا بذلك ، أو يعرضون . لما نزل

قول الله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ قال عبد الله بن الزبعري : سلوا محمداً أكل ما يعبد من دون الله في جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيراً ، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال « كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ، ومن أمرهم بعبادته » فأنزل الله ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون . . ﴾ وقوله ﴿ وقالوا اتخذ الرحمٰن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ﴾ثم هي خطاب لقريش ، وهم كانوا يعبدون الأصنام والأنداد ، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه ، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلاً منهم ، ليسوا يعتقدون صحتها .

(٥٨) ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾

﴿ وقالوا أآلهتنا خير أم هو﴾ أي آلهتنا خير منه ، أو آلهتنا خير من محمد وقوله تبارك وتعالى ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً ﴾ أي مراء ، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية لأنها أي ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله ﴾ لما لا يعقل . روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أورثوا الجدل » ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون ﴾ وقد رواه الترمذي وابن ماجه وابن جرير ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٥٩) ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾

﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه ﴾ يعني عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، ما هو إلا عبد من عباد الله عز وجل أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة ﴿ وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾ أي دلالة وحجة وبرهاناً على قدرتنا على ما نساعد .

(٦٠) ﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴾

﴿ ولو نشاء لجعلنا منكم ﴾ أي بدلكم ﴿ ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ يخلفونكم فيها ، أو يعمرون الأرض بدلكم .

(٦١) ﴿ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾

﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾ المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ﴾ أي قبل موت عيسى عليه الصلاة والسلام وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة

إماماً عادلاً مقسطاً . وقوله تعالى ﴿ فلا تمترن بها ﴾ أي لا تشكوا فيها ، إنها واقعة وكائنة لا محالة ﴿ واتبعون ﴾ أي فيما أخبركم به ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ .

(٦٢) ﴿ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

﴿ ولا يصدنكم الشيطان ﴾ أي عن اتباع الحق ﴿ إنه لكم عدو مبين ﴾ .

(٦٣) ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

﴿ ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئتكم بالحكمة ﴾ أي بالنبوة ﴿ ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه ﴾ يعني من الأمور الدينية ، لا الدنيوية ﴿ فاتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ وأطيعون ﴾ فيما جئتكم به .

(٦٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾

﴿ إن الله ربي وربكم فاعبدوه ﴾ أي أنا وأنتم عبيد له ، فقراء اليه ، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له ﴿ هذا صراط مستقيم ﴾ أي هذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم ، وهو عبادة الرب جل وعلا وحده .

(٦٥) ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم ﴾ أي اختلف الفرق ، وصاروا شيعاً فيه ، منهم من يقر بأنه عبدالله ورسوله ، وهو الحق ، ومنهم من يدعي أنه ولد الله ، ومنهم من يقول : إنه الله . تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم ﴾ .

(٦٦) ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

يقول تعالى : هل ينظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿ إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ أي فإنها كائنة لا محالة وواقعة ، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين ، فإذا جاءت إنما تجيء وهم لا يشعرون بها فحينئذٍ يندمون كل الندم حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم .

(٦٧) ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ أي كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله عز وجل ، فإنه دائم بدوامه ، وهذا كما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ﴿ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار وما لكم من ناصرين ﴾ . وفي الحديث « لو أن رجلين تحابا في الله ، أحدهما بالمشرق ، والآخر بالمغرب لجمع الله بينهما يوم القيامة ، يقول : هذا الذي أحببته فيَّ » .

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿٦٩﴾

﴿ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ ثم بشرهم فقال ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ﴾ أي آمنت قلوبهم وبواطنهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم .

﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ ﴿٧٠﴾

﴿ ادخلوا الجنة ﴾ أي يقال لهم : ادخلوا الجنة ﴿ أنتم وأزواجكم ﴾ أي نظراؤكم ﴿ تحبرون ﴾ أي تنعمون وتسعدون .

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ ﴿٧١﴾

﴿ يطاف عليهم بصحاف من ذهب ﴾ أي زباديّ آنية لطعامهم ﴿ وأكواب ﴾ وهي آنية الشراب ، أي من ذهب لا خراطيم لها ولا عرى ﴿ وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴾ أي طيب الطعام والريح وحسن المنظر . ﴿ وأنتم فيها ﴾ أي في الجنة ﴿ خالدون ﴾ أي لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولاً .

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿٧٢﴾

﴿ وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ﴾ أي أعمالكم الصالحة كانت سبباً لشمول رحمة الله إياكم ، فإنه لا يدخل أحداً الجنة عمله ، ولكن برحمة الله وفضله ، وإنما الدرجات ينال تفاوتها بحسب الأعمال الصالحات .

﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ ﴿٧٣﴾

﴿ لكم فيها فاكهة كثيرة ﴾ أي من جميع الأنواع ﴿ منها تأكلون ﴾ أي مهما اخترتم وأردتم ، ولما ذكر الطعام والشراب ذكر بعده الفاكهة لتتم النعمة والغبطة .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ ﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ثنى بذكر الأشقياء فقال ﴿ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يفتر عنهم ﴾ أي ساعة واحدة ﴿ وهم فيه مبلسون ﴾ أي آيسون من كل خير .

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ ﴾

﴿ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ﴾ أي بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجة عليهم ، وإرسال الرسل إليهم فكذبوا وعصوا ، فجوزوا بذلك جزاء وفاقاً ﴿ وما ربك بظلام للعبيد ﴾ .

﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧ ﴾

﴿ ونادوا يا مالك ﴾ وهو خازن النار . روى البخاري عن أبي يعلى عن أبيه ، قال : «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿ ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك ﴾ أي يقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه » . فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك ﴿ قال إنكم ماكثون ﴾ أي لا خروج لكم منها ، ولا محيد لكم عنها .

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨ ﴾

﴿ لقد جئناكم بالحق ﴾ أي بيناه لكم ووضحناه وفسرناه ﴿ ولكن أكثركم للحق كارهون ﴾ أي ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه ، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه ، وتصد عن الحق ، وتأباه وتبغض أهله ، فعودوا على أنفسكم بالملامة ، واندموا حيث لا تنفعكم الندامة .

﴿ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ ﴾

أرادوا كيد شر فكدناهم ، وهذا كقوله تعالى ﴿ ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون ﴾ وذلك أن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه فكادهم الله تعالى ، ورد وبال ذلك عليهم . ولهذا قال :

(٨٠) ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾

﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم ﴾ أي سرهم وعلانيتهم ﴿ بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ أي نحن نعلم ما هم عليه ، والملائكة أيضاً يكتبون أعمالهم صغيرها وكبيرها .

(٨١) ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾

﴿ قل إن كان للرحمٰن ولد فأنا أول العابدين ﴾ أي لو فرض هذا لعبدته على ذلك ، لأني عبد من عبيده ، مطيع لجميع ما يأمرني به ، ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته ، فلو فرض هذا لكان هذا ، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى ، والشرط لا يلتزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً ، كما قال تعالى ﴿ لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار ﴾ .

(٨٢) ﴿ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

﴿ سبحان رب السموات والأرض رب العرش عما يصفون ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد ، فإنه فرد أحد صمد ، لا نظير له ولا كفء له ، فلا ولد له .

(٨٣) ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾

﴿ فذرهم يخوضوا ﴾ أي في جهلهم وضلالهم ﴿ ويلعبوا ﴾ في دنياهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ وهو يوم القيامة ، أي فسوف يعلمون كيف مصيرهم ومآلهم وحالهم في ذلك اليوم .

(٨٤) ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴾

﴿ وهو الذي في السماء إلٰه وفي الأرض إلٰه ﴾ أي هو إلٰه من في السماء ، وإلٰه من في الأرض ، يعبده أهلهما ، وكلهم خاضعون له أذلاء بين يديه ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ وهذه الآية كقوله سبحانه وتعالى ﴿ وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون ﴾ أي هو المدعو الله في السموات وفي الأرض .

(٨٥) ﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما ، بلا مدافعة ولا ممانعة فسبحانه وتعالى عن الولد ، وتبارك أي استقر له السلامة من العيوب والنقائص لأنه الرب العلي العظيم المالك للأشياء الذي بيده أزمة الأمور نقضاً

وإبراماً ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ أي لا يجليها لوقتها إلا هو ﴿ وإليه ترجعون ﴾ أي فيجازي كلًّا بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

(٨٦) ﴿ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ولا يملك الذين يدعون من دونه ﴾ أي من الأصنام والأوثان ﴿ الشفاعة ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة لهم . ﴿ إلا من شهد بالحق وهم يعلمون ﴾ هذا استثناء منقطع أي لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم ، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له .

(٨٧) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون ﴾ أي ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله ، العابدين معه غيره ﴿ من خلقهم ليقولن الله ﴾ أي هم معترفون أنه الخالق للأشياء جميعها وحده لا شريك له في ذلك ، ومع هذا يعبدون معه غيره ممن لا يملك شيئاً ، ولا يقدر على شيء ، لهم في ذلك في غاية الجهل والسفاهة ، وسخافة العقل . ولهذا قال ﴿ فأنى يؤفكون ﴾ .

(٨٨) ﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ أي وقال محمد ﷺ أي شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه ، فقال : ﴿ يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون ﴾ كما أخبر تعالى في الآية الأخرى ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ ﴿ وقيله ﴾ معطوف على ﴿ وعنده علم الساعة ﴾ وتقديره : وعنده علم الساعة وعلم قيله .

(٨٩) ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ فاصفح عنهم ﴾ أي المشركين ﴿ وقل سلام ﴾ أي لا تجادلهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيىء ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلاً وقولاً . ﴿ فسوف يعلمون ﴾ هذا تهديد من الله تعالى لهم ، ولهذا أحل بهم بأسه الذي لا يرد ، وأعلى دينه وكلمته وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد حتى دخل الناس في دين الله أفواجاً وانتشر الإسلام في المشارق والمغارب .

* * *



تفسير سُورَةُ الدُّخَانِ



روى الترمذي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ حمٓ الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك » ثم قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿حمٓ﴾

تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

(٢) ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (٣)

يقول تعالى مخبراً عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة ، وهي ليلة القدر ، كما قال عز وجل ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ وكان ذلك في شهر رمضان ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ . ومن قال : إنها ليلة نصف شعبان فقد أبعد النجعة ، فإن نص القرآن أنها في رمضان . وحديث « تقطع الآجال من شعبان إلى شعبان حتى إن الرجل لينكح ويولد له ، وقد أخرج اسمه في الموتى » حديث مرسل ، ومثله لا يعارض به النصوص . ﴿ إنا كنا منذرين ﴾ أي معلمين الناس ما ينفعهم ويضرهم شرعاً لتقوم حجة الله على عباده .

(٤) ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

﴿ فيها يفرق كل أمر حكيم ﴾ أي ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السنة ، وما يكون فيها من الآجال ، والأرزاق ، وما يكون فيها إلى آخرها . وقوله ﴿ حكيم ﴾ أي محكم لا يبدل ولا يغير . ولهذا قال جل جلاله :

(٥) ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾

﴿ أمراً من عندنا ﴾ أي جميع ما يكون ويقدره الله تعالى ، وما يوجبه فبأمره وإذنه وعلمه

﴿ إنا كنا مرسلين ﴾ أي إلى الناس رسولاً يتلو عليهم آيات الله مبينات ، فإن الحاجة كانت ماسة إليه .

(٦) ﴿ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ (٧)

﴿ رحمة من ربك إنه هو السميع العليم رب السموات والأرض وما بينهما ﴾ أي الذي أنزل القرآن هو رب السموات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما ﴿ إن كنتم موقنين ﴾ أي إن كنتم متحققين .

(٨) ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

﴿ لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت ﴾ .

(٩) ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾

يقول تعالى : بل هؤلاء المشركون في شك يلعبون ، أي قد جاءهم الحق اليقين ، وهم يشكون فيه ويمترون ولا يصدقون به .

(١٠) ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين ﴾ عن ابن مسعود : إن قريشاً لما أبطأت عن الإسلام ، واستعصت على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف ، فأصابهم من الجهد والجوع حتى أكلوا العظام والميتة ، وجعلوا يرفعون أبصارهم إلى السماء فلا يرون إلا الدخان ، وفي رواية فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد ، فقيل : يا رسول الله استسق الله لمضر ، فإنها قد هلكت فاستسقى ﷺ فسقوا فنزلت : ﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ فلما أصابهم الرفاهية عادوا إلى حالهم فأنزل الله ﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ يعني في يوم بدر . ﴿ بدخان مبين ﴾ هو خيال رأوه بأعينهم من شدة الجوع والجهد . على رأي ابن مسعود أو هو دخان مبين واضح يراه كل أحد ، والدخان من الآيات المنتظرة ، عن ابن عمر قال : يخرج

الدخان فيأخذ المؤمن كهيئة الزكام ويدخل مسامع الكافر والمنافق حتى يكون كالرأس الحنيذ أي المشوي على الرضف .

(١١) ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ يغشى الناس ﴾ أي يغشاهم ويعمهم ، ولو كان أمراً خيالياً يخص أهل مكة المشركين كما قال ابن مسعود لما قيل فيه : ﴿ يغشى الناس ﴾ وقوله تعالى ﴿ هذا عذاب أليم ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً .

(١٢) ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون ﴾ أي يقول الكافرون إذا عاينوا عذاب الله وعقابه سائلين رفعه وكشفه عنهم .

(١٣) ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ (١٣) ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ (١٤)

﴿ أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون ﴾ يقول : كيف لهم بالتذكر وقد أرسلنا إليهم رسولاً بين الرسالة والنذارة ، ومع هذا تولوا عنه وما وافقوه ، بل كذبوه وقالوا معلم مجنون .

(١٥) ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴾

﴿ إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون ﴾ هذا يحتمل معنيين أحدهما : لو كشفنا عنكم العذاب ، ورجعناكم إلى الدار الدنيا لعدتم إلى ما كنتم فيه من الكفر والتكذيب ، كقوله تعالى ﴿ ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴾ والثاني أن يكون المراد : إنا مؤخروا العذاب عنكم قليلاً بعد انعقاد أسبابه ووصوله إليكم ، وأنتم مستمرون فيما أنتم فيه من الطغيان والضلال ، ولا يلزم من الكشف عنهم أن يكون باشرهم كقوله تعالى ﴿ إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .

(١٦) ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾

﴿ يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون ﴾ فسر ذلك ابن مسعود بيوم بدر ، وهذا قول جماعة ، وقال ابن عباس : هي يوم القيامة .

(١٧) ﴿ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾

يقول تعالى : ولقد اختبرنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون ، وهم قبط مصر ﴿ وجاءهم رسول كريم ﴾ يعني موسى كليم الله عليه الصلاة والسلام .

(١٨) ﴿ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾

﴿ أن أدوا إلى عباد الله ﴾ كقوله عز وجل ﴿ أن أرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية ﴾ وقوله تعالى ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ أي مأمون على ما أبلغكموه .

(١٩) ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ وأن لا تعلوا على الله ﴾ أي لا تستكبروا عن اتباع آياته ، والانقياد لحججه ، والإيمان ببراهينه ، كقوله عز وجل ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ ﴿ إني آتيكم بسلطان مبين ﴾ أي بحجة ظاهرة واضحة ، وهي ما أرسله الله به من الآيات البينات والأدلة القاطعات .

(٢٠) ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴾

﴿ وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون ﴾ هو الرجم باللسان ، وهو الشتم ، وقيل : الرجم بالحجارة ، أي أعوذ بالله الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل .

(٢١) ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴾

﴿ وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون ﴾ أي فلا تتعرضوا لي ، ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي الله بيننا .

(٢٢) ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴾

﴿ فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ﴾ فأمره الله أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه .

(٢٣) ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴾

﴿ فأسر بعبادي ليلاً إنكم متبعون ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ .

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (٢٤)

﴿ واترك البحر رهواً إنهم جند مغرقون ﴾ لما جاوز موسى عليه السلام وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلاً بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم فأمره الله تعالى أن يتركه على حاله ساكناً ، وبشره بأنهم جند مغرقون فيه ، وأنه لا يخاف دركاً ولا يخشى ﴿ رهواً ﴾ كهيئته طريقاً يبساً ، لا تأمره يرجع ، بل اتركه على هيئته .

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (٢٦)

﴿ كم تركوا من جنات ﴾ بساتين ﴿ وعيون وزروع ﴾ والمراد بها الأنهار والآبار ﴿ ومقام كريم ﴾ وهي المساكن الأنيقة ، والأماكن الحسنة .

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (٢٨)

﴿ ونعمة كانوا فيها فاكهين ﴾ أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤ وا ، ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد ، فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة ، وفارقوا الدنيا ، وصاروا إلى جهنم وبئس المصير ، واستولى على البلاد المصرية ، وتلك الحواصل الفرعونية ، والممالك القبطية بنو إسرائيل ، كما قال تعالى ﴿ كذلك وأورثناها بني إسرائيل ﴾ .

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ (٢٩)

أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها ففقدتهم ، فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم ، وفي الحديث « ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » وتلا هذه الآية ﴿ فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ رواه الحافظ أبو يعلى .

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ (٣٠) مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِّنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٣١)

﴿ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون ﴾ يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله ، وتسخيره إياهم في الأعمال المهينة الشاقة ﴿ من فرعون إنه كان عالياً من المسرفين ﴾ أي مستكبراً جباراً عنيداً .

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

﴿ ولقد اخترناهم على علم على العالمين ﴾ اختيروا على أهل زمانهم ذلك كقوله عز وجل لمريم ﴿ واصطفاك على نساء العالمين ﴾ أي في زمنها ، فإن خديجة رضي الله عنها إما أفضل منها ، أو مساوية لها في الفضل ، وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وفضل عائشة رضي الله عنها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام .

(٣٣) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾

﴿ وآتيناهم من الآيات ﴾ الحجج والبراهين وخوارق العادات ﴿ ما فيه بلاء مبين ﴾ أي اختبار ظاهر جلي لمن اهتدى به .

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (٣٦)

يقول تعالى منكراً على المشركين في إنكارهم البعث والمعاد ، وأنه ما ثم إلا هذه الحياة الدنيا بعد الممات ، ولا بعث ولا نشور ، ويحتجون بآبائهم الماضين الذين ذهبوا فلم يرجعوا ، فإن كان البعث حقاً ﴿ فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ وهذه حجة باطلة ، وشبهة فاسدة ، فإن المعاد إنما هو يوم القيامة ، لا في الدار الدنيا ، بل بعد انقضائها وذهابها وفراغها يعيد الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين لنار جهنم وقوداً .

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾

ثم قال تعالى متهدداً لهم ومتوعداً ، ومنذراً لهم بأسه الذي لا يرد كما حل بأشباههم ونظرائهم من المشركين المنكرين للبعث كقوم تبع ، وهم سبأ حيث أهلكهم الله عز وجل ، وخرب بلادهم ، وشردهم في البلاد ، وفرقهم شذر مذر ﴿ أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ﴾ .

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٩)

يقول تعالى مخبراً عن عدله وتنزيهه نفسه عن اللعب والعبث الباطل كقوله تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾

وقال ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ .

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿ يوم الفصل ﴾ وهو يوم القيامة يفصل الله تعالى فيه بين الخلائق ، فيعذب الكافرين ، ويثيب المؤمنين ﴿ ميقاتهم أجمعين ﴾ أي يجمعهم كلهم أولهم وآخرهم .

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿ يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ﴾ أي لا ينفع قريب قريباً كقوله سبحانه ﴿ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون ﴾ وكقوله تعالى ﴿ ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم ﴾ أي لا يسأل أخاً له عن حاله ، وهو يراه عياناً ﴿ ولا هم ينصرون ﴾ أي لا ينصر القريب قريبه ولا يأتيه نصره من خارج ، ثم قال ﴿ إلا من رحم الله ﴾ أي لا ينفع يومئذٍ إلا رحمة الله عز وجل بخلقه ﴿ إنه هو العزيز الرحيم ﴾ أي هو عزيز ذو رحمة واسعة .

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عما يعذب به الكافرين الجاحدين للقائه ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ والأثيم أي في قوله وفعله ، وهو الكافر ، وذكر غير واحد أنه أبو جهل ، ولا شك في دخوله في هذه الآية ، ولكن ليست خاصة به . قال مجاهد : ولو وقعت قطرة منها في الأرض لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، وقد جاء نحوه مرفوعاً ﴿ كالمهل ﴾ قالوا : كعكر الزيت ﴿ يغلي في البطون كغلي الحميم ﴾ أي من حرارتها ورداءتها .

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿ خذوه ﴾ أي الكافر ، وقد ورد أنه تعالى إذا قال للزبانية : « خذوه » ابتدره سبعون ألفاً منهم . ﴿ فاعتلوه ﴾ أي سوقوه سحباً ودفعاً في ظهره ﴿ إلى سواء الجحيم ﴾ أي وسطها ﴿ ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ﴾ كقوله تعالى ﴿ يصب من فوق رؤوسهم

الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴾ وقوله تعالى ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ أي قولوا له ذلك على وجه التهكم والتوبيخ ﴿ إن هذا ما كنتم به تمترون ﴾ كقوله تعالى ﴿ يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٥٢) يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ (٥٣) كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٥٤) يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ (٥٥)

لما ذكر تعالى حال الأشقياء عطف بذكر السعداء ، ولهذا سمى القرآن تعالى فقال ﴿ إن المتقين ﴾ أي لله في الدنيا ﴿ في مقام أمين ﴾ أي في الآخرة، وهو الجنة، قد أمنوا فيها من الموت والخروج ، ومن كل هم وحزن ، وجزع وتعب ونصب ومن الشيطان وكيده ، وسائر الآفات والمصائب ﴿ في جنات وعيون ﴾ وهذا في مقابلة ما أولئك فيه من شجرة الزقوم وشرب الحميم ﴿ يلبسون من سندس ﴾ وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوه ﴿ وإستبرق ﴾ وهو ما فيه بريق ولمعان ، وذلك كالرياش وما يلبس على أعالي القماش ﴿ متقابلين ﴾ أي على السرر ، لا يجلس أحد منهم وظهره إلى غيره ﴿ كذلك وزوجناهم بحور عين ﴾ أي هذا العطاء مع ما قد منحناهم من الزوجات الحسان : الحور العين اللاتي ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ وقوله عز وجل ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ أي مهما طلبوا من أنواع الثمار أحضر لهم ، وهم آمنون من انقطاعه وامتناعه ، بل يحضر لهم كلما أرادوا .

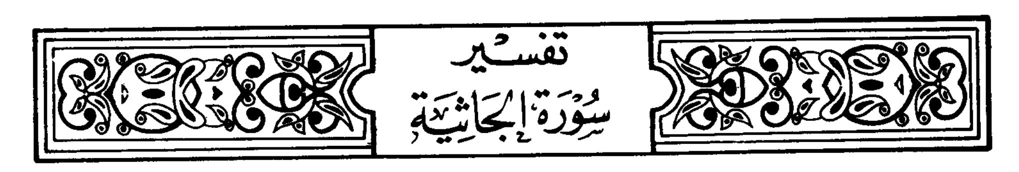
﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (٥٦) فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (٥٧)

﴿ لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾ هذا استثناء يؤكد النفي ، فإنه استثناء منقطع ، ومعناه أنهم لا يذوقون الموت أبداً ، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « يؤتى بالموت في صورة كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار ، ثم يذبح ، ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت » وفي الحديث « يقال لأهل الجنة: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تعيشوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً » رواه مسلم ، وقوله تعالى ﴿ ووقاهم عذاب الجحيم ﴾ أي مع هذا النعيم المقيم قد وقاهم وسلمهم ونجاهم وزحزحهم عن العذاب الأليم في دركات الجحيم ، فحصل لهم المطلوب ، ونجاهم من

المرهوب . ولهذا قال عز وجل ﴿ فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي إنما كان هذا بفضله عليهم ، وإحسانه اليهم ، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿ فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون ﴾ أي إنما يسرنا هذا القرآن الذي أنزلناه سهلاً واضحاً بيناً بلسانك الذي هو أفصح اللغات وأجلاها وأعلاها ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ أي يتفهمون ويعملون ، ثم كان مع هذا الوضوح والبيان من الناس من كفر وخالف وعاند ، قال الله لرسوله ﷺ مسلياً له وواعداً له بالنصر ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك ﴿ فارتقب ﴾ أي انتظر ﴿ إنهم مرتقبون ﴾ أي فسيعلمون لمن تكون النصرة والظفر وعلو الكلمة في الدنيا والآخرة ، فإنها لك يا محمد ولإخوانك من النبيين والمرسلين ومن اتبعكم من المؤمنين ، كما قال تعالى ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ﴾ ﴿١﴾

تقدم الكلام عن الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٥﴾

يرشد تعالى خلقه إلى التفكر في آلائه ونعمه وقدرته العظيمة التي خلق بها السموات والأرض وما فيهما من المخلوقات المختلفة الأجناس والأنواع من الملائكة والجن والإنس والدواب والطيور والوحوش والسباع والحشرات وما في البحر من الأصناف المتنوعة ،

واختلاف الليل والنهار في تعاقبهما دائبين ، لا يفتران : هذا بظلامه ، وهذا بضيائه ، وما أنزل الله تبارك وتعالى من السحاب من المطر في وقت الحاجة اليه ، وسماه رزقاً لأن به يحصل الرزق ﴿ فأحيا به الأرض بعد موتها ﴾ أي بعدما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شيء ﴿وتصريف الرياح﴾ أي جنوباً وشمالاً، ودبوراً وصبا، برية وبحرية، ليلية ونهارية، ومنها ما هو للمطر ، ومنها ما هو للقاح ، ومنها ما هو للأرواح ، ومنها ما هو عقيم لا ينتج . قال سبحانه وتعالى أولاً ﴿ لآيات للمؤمنين ﴾ ، ثم يوقنون ، ثم يعقلون وهو ترق من حال شريف إلى ما هو أشرف منه وأعلى .

(٦) ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ تلك آيات الله ﴾ يعني القرآن بما فيه من الحجج والبينات ﴿ نتلوها عليك بالحق ﴾ أي متضمنة الحق من الحق ، فإذا كانوا لا يؤمنون بها ولا ينقادون لها فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ؟ .

(٧) ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾

﴿ ويل لكل أفاك أثيم ﴾ أي أفاك في قوله كذاب حلاف مهين ، أثيم في فعله وقلبه ، كافر بآيات الله .

(٨) ﴿ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ يسمع آيات الله تتلى عليه ﴾ أي تقرأ عليه ﴿ ثم يصر ﴾ أي على كفره وجحوده استكباراً وعناداً ﴿ كأن لم يسمعها ﴾ أي كأنه ما سمعها ﴿ فبشره بعذاب أليم ﴾ أي فأخبره أن له عند الله تعالى يوم القيامة عذاباً أليماً موجعاً .

(٩) ﴿ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ﴾ أي إذا حفظ شيئاً من القرآن كفر به ، واتخذه سخرياً وهزواً . ﴿ أولئك لهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما استهان بالقرآن ، واستهزأ به ، ولهذا روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال نهى رسول الله ﷺ أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو .

(١٠) ﴿ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ثم فسر العذاب الحاصل له يوم معاده فقال ﴿ من ورائهم جهنم ﴾ أي كل من اتصف بذلك سيصير إلى جهنم يوم القيامة ﴿ ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ﴾ أي لا تنفعهم أموالهم ولا أولادهم ﴿ ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ﴾ أي ولا تغني عنهم الآلهة التي عبدوها من دون الله شيئاً ﴿ ولهم عذاب عظيم ﴾ .

(١١) ﴿ هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾

﴿ هذا هدى ﴾ يعني القرآن ﴿ والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ وهو المؤلم الموجع .

(١٢) ﴿ ۞ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يذكر تعالى نعمه على عبيده فيما سخر لهم من البحر ﴿ لتجري الفلك فيه بأمره ﴾ وهي السفن فيه بأمره تعالى ، فإنه هو الذي أمر البحر بحملها ﴿ ولتبتغوا من فضله ﴾ أي في المتاجر والمكاسب ﴿ ولعلكم تشكرون ﴾ أي على حصول المنافع المجلوبة اليكم من الأقاليم النائية والآفاق القاصية .

(١٣) ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض ﴾ أي من الكواكب والجبال ، والبحار والأنهار ، وجميع ما تنتفعون به ، أي الجميع من فضله وإحسانه وامتنانه ، ولهذا قال ﴿ جميعاً منه ﴾ أي من عنده وحده لا شريك له في ذلك ، كما قال تبارك وتعالى ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ .

(١٤) ﴿ قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

﴿ قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ﴾ أي ليصفحوا عنهم ويتحملوا الأذى منهم ، وكان هذا في ابتداء الإسلام أمروا أن يصبروا على أذى المشركين ، وأهل الكتاب ، ليكون ذلك كالتأليف لهم ، ثم لما أصروا على العناد وشرع الله للمؤمنين الجهاد والجلاد . قال مجاهد : ﴿ لا يرجون أيام الله ﴾ لا ينالون نعم الله . ﴿ ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون ﴾ أي اذا صفحوا عنهم في الدنيا فإن الله مجازيهم بأعمالهم السيئة في الآخرة ، ولهذا قال تعالى .

(١٥) ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾

﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون ﴾ أي تعودون إليه يوم القيامة فتعرضون بأعمالكم عليه فيجزيكم بأعمالكم خيرها وشرها .

(١٦) ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

يذكر تعالى ما أنعم به على بني اسرائيل من إنزال الكتب عليهم ، وإرسال الرسل اليهم ، وجعله الملك فيهم ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات ﴾ أي من المآكل والمشارب ﴿ وفضلناهم على العالمين ﴾ أي في زمانهم .

(١٧) ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

﴿ وآتيناهم بينات من الأمر ﴾ أي حججاً وبراهين ، وأدلة قاطعات ، فقامت عليهم الحجج ، ثم اختلفوا بعد ذلك من بعد قيام الحجة ، وإنما كان ذلك بغياً منهم بعضهم على بعض ﴿ إن ربك ﴾ يا محمد ﴿ يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ أي سيفصل بينهم بحكمه العدل . وهذا فيه تحذير لهذه الأمة أن تسلك مسلكهم ، وأن تقصد منهجهم . ولهذا قال جل وعلا :

(١٨) ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ﴾ أي ﴿ اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إلّه إلا هو وأعرض عن المشركين ﴾ ﴿ ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ .

(١٩) ﴿ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

﴿ إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ أي وماذا تغني عنهم ولايتهم لبعضهم ؟ فإنهم لا يزيدونهم إلا خساراً ودماراً وهلاكاً ﴿ والله ولي المتقين ﴾ وهو تعالى يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات .

(٢٠) ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

﴿ هذا بصائر للناس ﴾ يعني القرآن ﴿ وهدى ورحمة لقوم يوقنون ﴾ .

(٢١) ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

يقول تعالى : لا يستوي المؤمنون والكافرون ، كما قال عز وجل ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ وقال تبارك وتعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ أي عملوها وكسبوها ﴿ أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ﴾ أي نساويهم بهم في الدنيا والآخرة ﴿ ساء ما يحكمون ﴾ أي ساء ما ظنوا بنا ، وبعد لنا أن نساوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة ، وفي هذه الدار .

(٢٢) ﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ وخلق الله السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ .

(٢٣) ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

﴿ أفرأيت من اتخذ إلٓهة هواه ﴾ أي إنما يأتمر بهواه ، فمهما رآه حسناً فعله ، ومهما رآه قبيحاً تركه ﴿ وأضله الله على علم ﴾ يحتمل قولين : أحدهما وأضله الله لعلمه أنه يستحق ذلك ، والآخر وأضله الله بعد بلوغ العلم إليه ، وقيام الحجة عليه ، والثاني يستلزم الأول ، ولا ينعكس ﴿ وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ﴾ أي فلا يسمع ما ينفعه ، ولا يعي شيئاً يهتدي به ، ولا يرى حجة يستضيء بها ، ولهذا قال ﴿ فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ كقوله تعالى ﴿ من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون ﴾ .

(٢٤) ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾

يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد ﴿ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ﴾ أي ما ثم إلا هذه الدار ، يموت قوم ويعيش آخرون ، وما ثم معاد ولا قيامة ، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد ، وتقوله الفلاسفة الآلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى ، فكابروا العقول ، وكذبوا المنقول ، ولهذا قالوا ﴿ وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ قال الله تعالى ﴿ وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴾ أي يتوهمون ويتخيلون . فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا الصحيح وأبو داود والنسائي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول تعالى يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر ، بيدي الأمر ، أقلب ليله ونهاره » فإن العرب في جاهليتهم إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا : يا خيبته الدهر ، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه ، وإنما فاعلها هو الله تعالى ، فكأنهم إنما سبوا الله عز وجل ، لأنه فاعل ذلك في الحقيقة ، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار ، لأن الله تعالى هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال . وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث .

(٢٥) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ﴾ أي إذا استدل عليهم وبين لهم الحق ، وأن الله قادر على إعادة الأبدان بعد فنائها وتفرقها ﴿ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ أي أحيوهم إن كان ما تقولونه حقاً .

(٢٦) ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

﴿ قل الله يحييكم ثم يميتكم ﴾ أي كما تشاهدون ذلك يخرجكم من العدم الى الوجود ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ ؟ أي الذي قدر على البداءة قادر على الاعادة بطريق الأولى والأحرى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ ﴿ ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ﴾ أي إنما يجمعكم إلى يوم القيامة ، لا يعيدكم في الدنيا حتى تقولوا ﴿ ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ﴾ ﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ﴾ ﴿ لأي يوم أجلت ليوم الفصل ﴾ ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ وقال ههنا

﴿ ثم يجمعكم ليوم القيامة لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ أي فلهذا ينكرون المعاد ، ويستبعدون قيام الأجساد ، قال تعالى ﴿ إنهم يرونه بعيداً ونراه قريباً ﴾ أي يرون وقوعه بعيداً ، والمؤمنون يرون ذلك سهلاً قريباً .

(٢٧) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، والحاكم فيهما في الدنيا والآخرة ، ولهذا قال عز وجل ﴿ ويوم تقوم الساعة ﴾ أي يوم القيامة ﴿ يومئذٍ يخسر المبطلون ﴾ وهم الكافرون بالله، الجاحدون بما أنزله على رسله من الآيات البينات والدلائل الواضحات. قال ابن أبي حاتم : قدم سفيان الثوري المدينة فسمع المعافري يتكلم ببعض ما يضحك به الناس ، فقال له : يا شيخ ، أما علمت أن لله تعالى يوماً يخسر فيه المبطلون ؟ قال : فما زالت تعرف في المعافري حتى لحق بالله تعالى .

(٢٨) ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿وترى كل أمة جاثية﴾ أي على ركبها من الشدة والعظمة، ويقال: إن هذا إذا جيء بجهنم، فإنها تزفر زفرة لا يبقى أحد إلا جثا لركبتيه حتى إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ويقول : نفسي نفسي ، لا أسألك اليوم إلا نفسي ، وحتى عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام يقول: لا أسألك اليوم الا نفسي، لا أسألك مريم التي ولدتني. ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها ﴾ يعني كتاب أعمالها ، كقوله عز وجل ﴿ ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء ﴾ ولهذا قال سبحانه ﴿ اليوم تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي تجازون بأعمالكم خيرها وشرها ﴿ ينبأ الأنسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ .

(٢٩) ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ﴾ أي ستحضر جميع أعمالكم من غير زيادة ولا نقص ﴿ إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون ﴾ أي إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم .

(٣٠) ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

يخبر تعالى عن حكمه في خلقه يوم القيامة فقال تعالى ﴿ فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي امنت قلوبهم ، وعملت جوارحهم الأعمال الصالحة ، وهي الخالصة الموافقة للشرع ﴿ فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ وهي الجنة كما ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء ﴿ ذلك هو الفوز المبين ﴾ أي البين الواضح .

﴿٣١﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾

﴿ وأما الذين كفرو أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم ﴾ أي يقال لهم : ذلك تقريعاً وتوبيخاً ، أما قرأت عليكم آيات الله تعالى فاستكبرتم وأعرضتم عن سماعها ﴿ وكنتم قوماً مجرمين ﴾ في أفعالكم مع ما اشتملت عليه قلوبكم من التكذيب .

﴿٣٢﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾

﴿ وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها ﴾ أي اذا قال لكم المؤمنون ذلك ﴿ قلتم ما ندري ما الساعة ﴾ أي لا نعرفها ﴿ إن نظن إلا ظناً ﴾ أي إن نتوهم وقوعها الا توهماً ، أي مرجوحاً ، ولهذا قال ﴿ وما نحن بمستيقنين ﴾ أي بمحققين .

﴿٣٣﴾ ﴿ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾

﴿ وبدا سيئات ما عملوا ﴾ أي وظهر لهم عقوبة أعمالهم السيئة ﴿ وحاق بهم ﴾ أي أحاط بهم ﴿ ما كانوا به يستهزؤ ن ﴾ أي من العذاب والنكال .

﴿٣٤﴾ ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾

﴿ وقيل اليوم ننساكم ﴾ أي نعاملكم معاملة الناس لكم في نار جهنم ﴿ كما نسيتم لقاء يومكم هذا ﴾ أي فلم تعملوا له لأنكم لم تصدقوا به ﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ في الصحيح أن الله تعالى يقول لبعض العبيد يوم القيامة « ألم أزوجك ألم أكرمك ؟ ألم أسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب ، فيقول : أظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا ، فيقول الله تعالى : فاليوم أنساك كما نسيتني » .

﴿٣٥﴾ ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

﴿ ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً ﴾ أي إنما جازيناكم هذا الجزاء ، لأنكم اتخذتم حجج الله عليكم سخرياً تسخرون وتستهزؤ ن بها ﴿ وغرتكم الحياة الدنيا ﴾ أي خدعتكم فاطمأننتم لها فأصبحتم من الخاسرين ، ولهذا قال عز وجل ﴿ فاليوم لا يخرجون منها ﴾ أي من النار ﴿ ولا هم يستعتبون ﴾ أي لا يطلب منهم العتبى ، بل يعذبون بغير حساب ولا عتاب ، كما تدخل طائفة من المؤمنين الجنة بغير عذاب ولا حساب .

﴿٣٦﴾ ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

ثم لما ذكر تعالى حكمه في المؤمنين والكافرين قال ﴿ فلله الحمد رب السموات والأرض ﴾ أي المالك لهما وما فيهما ، ولهذا قال ﴿ رب العالمين ﴾ .

﴿٣٧﴾ ﴿ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ وله الكبرياء في السموات والأرض ﴾ يعني السلطان ، أي هو العظيم المجيد الذي كل شيء خاضع لديه، فقير إليه وقد ورد في الحديث الصحيح يقول الله تعالى : « العظمة إزاري ، والكبرياء ردائي ، فمن نازعني واحداً منهما أسكنته ناري » رواه مسلم ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الذي لا يغالب ولا يمانع ﴿ الحكيم ﴾ في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره . تعالى وتقدس ، لا إله إلا هو .

* * *



تفسير سورة الأحقاف



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿١﴾ ﴿ حمٓ ﴾

تقدم أول سورة البقرة الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور

﴿٢﴾ ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

يخبر تعالى أنه أنزل الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ صلوات الله وسلامه عليه دائماً الى يوم الدين ، ووصف نفسه بالعزة التي لا ترام ، والحكمة في الأقوال والأفعال ﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴾ .

﴿٣﴾ ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾

﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ﴾ أي لا على وجه العبث ﴿وأجل

مسمى ﴾ أي وإلى مدة معينة مضروبة لا تزيد ولا تنقص ﴿ والذين كفرو عما أنذروا معرضون﴾ أي لا هون عما يراد لهم ، وقد أنزل الله اليهم كتاباً ، وأرسل اليهم رسولاً ، وهم معرضون عن ذلك كله ، أي وسيعلمون غب ذلك .

(٤) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ قل ﴾ أي لهؤلاء المشركين العابدين مع الله غيره ﴿ أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ﴾ أي أرشدوني إلى أي مكان الذي استقلوا بخلقه من الأرض ﴿ أم لهم شرك في السموات ﴾ ؟ أي ولا شرك لهم في السموات ولا في الأرض ، وما يملكون من قطمير ، إن الملك والتصرف كله لله عز وجل ، فكيف تعبدون معه غيره ، وتشركون به ؟ من أرشدكم الى هذا ؟ من دعاكم اليه ؟ أهو أمركم به ؟ أم هو شيء اقترحتموه من عند أنفسكم ؟ ولهذا قال ﴿ ائتوني بكتاب من قبل هذا ﴾ أي هاتوا كتاباً من كتب الله المنزلة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يأمركم بعبادة هذه الأصنام﴿ أو أثارة من علم ﴾ أي دليل بين على هذا المسلك الذي سلكتموه ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ أي لا دليل لكم ، لا نقلياً ولا عقلياً على ذلك .

(٥) ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾

﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ﴾ ؟ أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً ، ويطلب منها ما لا تستطيعه إلى يوم القيامة ، وهي غافلة عما يقول ، لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش ، لأنها جماد حجارة صم .

(٦) ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾

﴿ وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ أي سيخونونهم أحوج ما يكونون اليهم .

(٧) ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

يقول عز وجل مخبراً عن المشركين في كفرهم وعنادهم : إنهم اذا تتلى عليهم آيات الله

بينات ، أي في حال بيانها ووضوحها وجلائها يقولون ﴿ هذا سحر مبين ﴾ أي سحر واضح ، وقد كذبوا وافتروا ، وضلوا وكفروا .

(٨) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ أم يقولون افتراه ﴾ يعنون محمداً ﷺ . قال الله عز وجل ﴿ قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً ﴾ أي لو كذبت عليه ، وزعمت أنه أرسلني ، وليس كذلك لعاقبني أشد العقوبة ، ولم يقدر أحد من أهل الأرض ، لا أنتم ، ولا غيركم أن يجيرني منه ﴿ هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم ﴾ هذا تهديد لهم ، ووعيد أكيد ، وترهيب شديد ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ترغيب لهم الى التوبة والإنابة ، أي ومع هذا كله إن رجعتم وتبتم تاب عليكم وعفا عنكم ، وغفر ورحم .

(٩) ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ أي لست بأول رسول طرق العالم ، بل قد جاءت الرسل من قبلي ، فما أنا بالأمر الذي لا نظير له حتى تستنكروني ، وتستبعدوا بعثتي اليكم ، فإنه قد أرسل الله جل وعلا قبلي جميع الأنبياء الى الأمم . ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ عن الحسن البصري في قوله تعالى ﴿ وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ﴾ قال : أما في الآخرة فمعاذ الله ، وقد علم أنه في الجنة ، ولكن قال : لا أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا ، أخرج كما أخرجت الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من قبلي ؟ أم أقتل كما قتلت الأنبياء من قبلي ؟ ولا أدري أيخسف بكم أو ترمون بالحجارة ؟ وهذا القول هو الذي عوَّل عليه ابن جرير ، وأنه لا يجوز غيره ، ولا شك إن هذا هو اللائق به ﷺ ، فإنه بالنسبة الى الآخرة جازم أنه يصير إلى الجنة ومن اتبعه ، وأما في الدنيا فلم يدر ما كان يؤول اليه أمره وأمر مشركي قريش إلى ماذا أيؤمنون أم يكفرون فيعذبونه فيستأصلون بكفرهم ؟ وأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أم العلاء قالت : طاولهم في السكنى حين اقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين عثمان بن مظعون رضي الله عنه ، فاشتكى عثمان رضي الله عنه عندنا ، فمرضناه ، حتى إذا توفي أدرجناه في أثوابه ، فدخل علينا رسول الله ﷺ فقلت : رحمك الله أبا السائب ، شهادتي عليك لقد أكرمك الله عز وجل ،

فقال رسول الله ﷺ وما يدريك أن الله تعالى أكرمه ؟ فقلت : لا أدري ، بأبي أنت وأمي ، فقال رسول الله ﷺ : « أما هو فقد جاءه اليقين من ربه وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل به » فقلت : والله لا أزكي أحداً بعده أبداً ، وأحزنني ذلك فنمت فرأيت لعثمان رضي الله عنه عيناً تجري ، فجئت الى رسول الله ﷺ فأخبرته بذلك، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك عمله» انفرد به البخاري دون مسلم. وفي هذا وأمثاله دلالة على أنه لا يقطع لمعين بالجنة إلا الذي نص الشارع على تعيينهم كالعشرة وابن سلام والعميصاء وسراقة وعبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، والقراء السبعين الذين قتلوا ببئر معونة ، وزيد بن حارثة ، وجعفروا بن رواحة ، وما أشبه هؤلاء رضي الله عنهم ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى اليَّ ﴾ أي إنما أتبع ما ينزله الله علي من الوحي ﴿ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ أي بين النذارة ، أمري ظاهر لكل ذي لب وعقل .

(١٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ قل أرأيتم إن كان ﴾ هذا القرآن ﴿ من عند الله وكفرتم به ﴾ أي ما ظنكم به ما الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب الذي جئتكم به قد أنزله علي لأبلغكموه ، وقد كفرتم به وكذبتموه ﴿وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله﴾ أي وقد شهدت بصدقه وصحته الكتب المتقدمة المنزلة على الأنبياء قبلي بشرت به ، وأخبرت ما أخبر هذا القرآن به ﴿ فآمن ﴾ أي هذا الذي شهد بصدقه من بني إسرائيل لمعرفته بحقيقته ﴿ واستكبرتم ﴾ أنتم عن اتباعه ﴿ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ وهذا الشاهد اسم جنس يعمم عبدالله ابن سلام وغيره ، فإن هذه الآية مكية نزلت قبل عبد الله بن سلام رضي الله عنه .

(١١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾

﴿ وقال الذين كفرو للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ﴾ أي قالوا عن المؤمنين بالقرآن : لو كان القرآن خيراً ما سبقنا هؤلاء اليه ، يعنون بلالاً وعماراً وصهيباً وخباباً رضي الله عنهم وأشباههم ﴿ وإذ لم يهتدوا به ﴾ أي بالقرآن ﴿ فسيقولون هذا إفك قديم ﴾ أي كذب قديم ، أي مأثور عن الناس الأقدمين فينقصون القرآن وأهله ، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله ﷺ « بطر الحق وغمط الناس »

(١٢) ﴿ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ ومن قبله كتاب موسى ﴾ وهو التوراة ﴿ اماماً ورحمة وهذا كتاب ﴾ يعني القرآن ﴿ مصدق ﴾ أي لما قبله من الكتب ﴿ لساناً عربياً ﴾ أي فصيحاً بيناً واضحاً ﴿ لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين ﴾ أي مشتمل على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين .

(١٣) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ﴾ أي فيما يستقبلون ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ على ما خلفوا .

(١٤) ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي الأعمال سبب لنيل الرحمة لهم ، وسبوغها عليهم .

(١٥) ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾

لما ذكر تعالى في الآية التوحيد له واخلاص العبادة والاستقامة اليه عطف بالوصية بالوالدين كما هو مقرون في غير ما آية من القرآن فقال ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ أي أمرناه بالإحسان اليهما ، والحنو عليهما ، عن سعد رضي الله عنه قال : قالت أم سعد لسعد : أليس قد أمر الله بطاعة الوالدين ، فلا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تكفر بالله تعالى ، فامتنعت من الطعام والشراب حتى جعلوا يفتحون فاها بالعصا ، ونزلت هذه الآية ﴿ ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً ﴾ رواه مسلم وأهل السنن إلا ابن ماجه . ﴿ حملته أمه كرها ﴾ أي قاست بسببه في حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل وكرب الى غير ذلك مما تنال الحوامل من التعب والمشقة . ﴿ ووضعته كرهاً ﴾ أي بمشقة أيضاً من الطلق وشدته ﴿ وحمله وفصاله ثلاثون شهراً ﴾ وقد استدل علي رضي الله عنه بهذه الآية مع التي في لقمان ﴿ وفصاله في عامين ﴾ وقوله تبارك وتعالى ﴿ والوالدات يرضعن أولادهن حولين

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ، وهو استنباط قوي صحيح ، ووافقه عليه عثمان وجماعة من الصحابة رضي الله عنهم . ﴿ حتى إذا بلغ أشده ﴾ أي قوي وشب وارتجل ﴿ وبلغ أربعين سنة ﴾ أي تناهى عقله ، وكمل فهمه ، وحلمه ﴿ قال رب أوزعني ﴾ أي ألهمني ﴿ أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه ﴾ أي في المستقبل ﴿ وأصلح لي في ذريتي ﴾ أي نسلي وعقبي ﴿ إني تبت اليك وإني من المسلمين ﴾ وهذا فيه إرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة ، والأنانية الى الله عز وجل ، ويعزم عليها .

(١٦) ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾

﴿ أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ﴾ أي هؤلاء المتصفون بما ذكرنا ، التائبون الى الله ، المنيبون إليه ، المستدركون ما فات بالتوبة والاستغفار هم الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم فيغفر لهم الكثير من الزلل ، ونتقبل منهم اليسير من العمل ﴿ في أصحاب الجنة ﴾ أي هم في جملة أصحاب الجنة ، وهذا حكمهم عند الله ، كما وعد الله عز وجل من تاب اليه وأناب ، ولهذا قال تعالى ﴿ وعد الصدق الذي كانوا يوعدون ﴾ .

(١٧) ﴿ وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾

لما ذكر تعالى حال الداعين للوالدين البارين بهما وما لهم عنده من الفوز والنجاة عطف بحال الأشقياء العاقين للوالدين فقال ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما ﴾ وهذا عام في كل من قال هذا ، ومن زعم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما فقوله ضعيف لأن عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أسلم بعد ذلك ، وحسن إسلامه ، وكان من خيار أهل زمانه ، وروى العوفي عن ابن عباس أنها نزلت في ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي صحة هذا نظر والله أعلم ، ﴿ أتعدانني أن أخرج ﴾ أي أبعث ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ أي قد مضى الناس فلم يرجع منهم خبر ﴿وهما يستغيثان الله ﴾ أي يسألان الله فيه أن يهديه ويقولا لولدهما ﴿ ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ .

(١٨) ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾

﴿ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ أي دخلوا في زمرة أشباههم وأضرابهم من الكافرين الخاسرين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة .

(١٩) ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

﴿ ولكل درجات مما عملوا ﴾ أي لكل عذاب بحسب عمله ﴿ وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يظلمهم مثقال ذرة فما دونها .

(٢٠) ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾

﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً، وقد تورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن كثير من طيبات المآكل والمشارب وتنزه عنها، وكان يقول: إني أخاف أن أكون كالذين قال الله لهم ووبخهم وقرعهم ﴿ أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ﴾ فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون ﴾ فجوزوا من جنس عملهم ، فكما متعوا أنفسهم ، واستكبروا عن اتباع الحق ، وتعاطوا الفسق والمعاصي جازاهم الله تبارك وتعالى بعذاب الهون ، وهو الإهانة والخزي والآلام الموجعة ، والحسرات المتتابعة ، والمنازل في الدركات المفظعة . أجارنا الله من ذلك كله .

(٢١) ﴿ ۞ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه ﴿واذكر أخا عاد ﴾ وهو هود عليه الصلاة والسلام بعثه الله إلى عاد الأولى ، وكانوا يسكنون الأحقاف جمع حقف وهو الجبل من الرمل ، قال قتادة : ذكر لنا أن عاداً كانوا حياً باليمن أهل رمل مشرفين على البحر

بأرض يقال لها : الشحر . ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾ يعني وقد أرسل الله تعالى إلى من حول بلادهم في القرى مرسلين ومنذرين ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ .

(٢٢) ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

﴿ قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ﴾ ؟ أي لتصدنا عن آلهتنا ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعاداً منهم وقوعه .

(٢٣) ﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾

﴿ قال إنما العلم عند الله ﴾ أي الله أعلم بكم إن كنتم مستحقين لتعجيل العذاب فسيفعل ذلك بكم ، وأما أنا فمن شأني أني أبلغكم ما أرسلت به ﴿ ولكني أراكم قوماً تجهلون ﴾ أي لا تعقلون ولا تفهمون .

(٢٤) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم ﴾ أي لما رأوا العذاب مستقبلهم اعتقدوا أنه عارض ممطر ففرحوا واستبشروا به ، وقد كانوا ممحلين إلى المطر . قال الله تعالى ﴿ بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ﴾ أي هو العذاب الذي قلتم ﴿ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ .

(٢٥) ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

﴿ تدمر ﴾ أي تخرب ﴿ كل شيء ﴾ من بلادهم مما شأنه الخراب ﴿ بأمر ربها ﴾ أي بإذن الله لها ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ أي قد بادوا كلهم ، ولم تبق لهم باقية ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ أي هذا حكمنا فيمن كذب رسلنا ، وخالف أمرنا .

(٢٦) ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

يقول تعالى : ولقد مكنا الأمم السالفة في الدنيا من الأموال والأولاد ، وأعطيناهم منها ما

لم نعطكم مثله، ولا قريباً منه ﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ أي وأحاط بهم العذاب والنكال الذي كانوا يكذبون به ويستبعدون وقوعه، أي فاحذروا أيها المخاطبون أن تكونوا مثلهم فيصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب في الدنيا والآخرة .

(٢٧) ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

﴿ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى ﴾ يعني أهل مكة ، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد وكانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن ، وثمود وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وكذلك سبأوهم أهل اليمن ، ومدين وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة ، وكذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضاً . وقوله عز وجل ﴿ وصرفنا الآيات ﴾ أي بيناها وأوضحناها ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ .

(٢٨) ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً ۖ بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

﴿ فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ﴾ أي فهل نصروهم عند احتياجهم إليهم ﴿ بل ضلوا عنهم ﴾ أي بل ذهبوا عنهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿ وذلك إفكهم ﴾ أي كذبهم ﴿ وما كانوا يفترون ﴾ في اتخاذهم إياهم آلهة ، وقد خابوا وخسروا في عبادتهم إياها ، واعتمادهم عليها .

(٢٩) ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾

روى الامام أحمد عن الزبير ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ﴾ قال بنخلة ، ورسول الله ﷺ يصلي العشاء الآخرة ﴿ كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ وعن ابن عباس أنهم سبعة من جن نصيبين . وعن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم ، وإنما أوحي إليه قول الجن . وهذا الذي حكاه ابن عباس إنما هو أول ما سمعت الجن قراءة رسول الله ﷺ وعلمت حاله لم يقرأ عليهم ، ولم يرهم ، ثم بعد ذلك أتاه داعي الجن فقرأ عليهم القرآن ، ودعاهم إلى الله عز وجل كما رواه عبدالله بن مسعود . وقوله تعالى ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن ﴾ أي طائفة من الجن ﴿ يستمعون القرآن

فلما حضروه قالوا أنصتوا ﴾ أي استمعوا ، وهذا أدب منهم ﴿ فلما قضي ﴾ أي فرغ كقوله تعالى ﴿فإذا قضيت الصلاة﴾ وقوله ﴿ولوا إلى قومهم منذرين﴾ أي رجعوا إلى قومهم فأنذروهم ما سمعوه من رسول الله ﷺ كقوله تعالى ﴿ ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ .

(٣٠) ﴿ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

ثم إنه تعالى فسر إنذار الجن لقومهم فقال مخبراً عنهم ﴿ قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ﴾ ولم يذكروا عيسى عليه السلام لأن عيسى عليه السلام أنزل عليه الإنجيل ، فيه مواعظ وترقيقات ، وقليل من التحليل والتحريم ، وهو في الحقيقة كالمتمم لشريعة التوراة ، فالعمدة هو التوراة ، فلهذا قالوا ﴿ أنزل من بعد موسى ﴾ وهكذا قال ورقة بن نوفل : بخ بخ هذا الناموس الذي كان يأتي موسى ، يا ليتني أكون فيها جذعاً ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ أي من الكتب المنزلة على الأنبياء قبله . وقولهم ﴿ يهدي إلى الحق ﴾ أي في الاعتقاد والإخبار ﴿ وإلى طريق مستقيم ﴾ في الأعمال ، فإن القرآن مشتمل على شيئين : خبر وطلب ، فخبره صدق ، وطلبه عدل ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ .

(٣١) ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ يا قومنا أجيبوا داعي الله ﴾ فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً ﷺ إلى الثقلين الجن والإنس ، حيث دعاهم إلى الله تعالى ، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم ، وهي سورة الرحمٰن ولهذا قال ﴿ أجيبوا داعي الله وآمنوا به ﴾ وقوله تعالى ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ قيل : ﴿ من ﴾ هذه زائدة ، وفيه نظر ، لأن زيادتها في الإثبات قليل ، وقيل : إنها على بابها للتبعيض ﴿ ويجركم من عذاب أليم ﴾ أي ويقيكم من عذابه الأليم .

(٣٢) ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض ﴾ أي بل قدرة الله شاملة له ومحيطة به ﴿ وليس له من دونه أولياء ﴾ أي لا يجيرهم منه أحد ﴿ أولئك في ضلال مبين ﴾ وهذا

مقام تهديد وترهيب ، فدعوا قومهم بالترغيب والترهيب ولهذا نجع في كثير منهم ، وجاؤوا إلى رسول الله ﷺ وفوداً وفوداً .

(٣٣) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى : أولم ير هؤلاء المنكرون للبعث يوم القيامة المستبعدون لقيام الأجساد يوم المعاد ﴿ أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعيَ بخلقهن ﴾ أي ولم يكرثه خلقهن ، بل قال لها : كوني فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة ، بل طائعة خائفة وجلة ، أفليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ؟ ﴿ بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ .

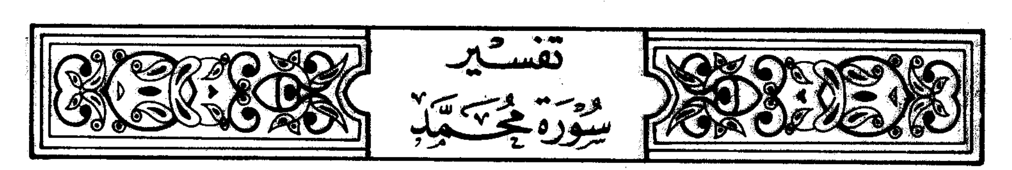
(٣٤) ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

ثم قال جل جلاله متهدداً ومتوعداً لمن كفر به ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق ﴾ أي يقال لهم : أما هذا حق ؟ ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون ؟ ﴾ ﴿ قالوا بلى وربنا ﴾ أي لا يسعهم إلا الاعتراف ﴿ قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾ .

(٣٥) ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

ثم قال تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على تكذيب من كذبه من قومه ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ أي على تكذيب قومهم . وقد اختلفوا في تعداد أولي العزم على أقوال ، وأشهرها أنهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء كلهم محمد ﷺ .
﴿ من ﴾ في قوله تعالى ﴿ من الرسل ﴾ لبيان الجنس . روى ابن أبي حاتم عن مسروق قال : قالت لي عائشة رضي الله عنها : ظل رسول الله ﷺ صائماً ، ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، ثم طواه ، ثم ظل صائماً ، ثم قال : « يا عائشة ، إن الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد ، يا عائشة ، إن الله لم يرض من أولي العزم من الرسل إلا الصبر على مكروهها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدي ، ولا قوة إلا

بالله » . ﴿ ولا تستعجل لهم ﴾ أي لا تستعجل لهم حلول العقوبة بهم ﴿ كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ وقوله جل وعلا ﴿ بلاغ ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما أن يكون تقديره : وذلك لبث بلاغ ، والآخر أن يكون تقديره : هذا القرآن بلاغ . وقوله تعالى ﴿ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ أي لا يهلك على الله إلا هالك ، وهذا من عدله عز وجل أنه لا يعذب إلا من يستحق العذاب .



تفسير سُورَةِ مُحَمَّدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾

﴿ الذين كفروا ﴾ أي بآيات الله ﴿ وصدوا ﴾ غيرهم ﴿ عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ أي أبطلها وأذهبها ، ولم يجعل لها ثواباً ولا جزاء ، كقوله تعالى ﴿ وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ .

(٢) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾

ثم قال جل وعلا ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي آمنت قلوبهم وسرائرهم ، وانقادت لشرع الله جوارحهم وبواطنهم ﴿ وآمنوا بما نزل على محمد ﴾ عطف خاص على عام ، وهو دليل على أنه شرط في صحة الإيمان بعد بعثته ﷺ . وقوله تبارك وتعالى ﴿ وهو الحق من ربهم ﴾ جملة معترضة حسنة . ولهذا قال جل جلاله ﴿ كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﴾ أي أمرهم ، أو شأنهم . وقد جاء في حديث تشميت العاطس « يهديكم الله ويصلح بالكم » .

(٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴾

ثم قال عز وجل ﴿ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ﴾ أي إنما أبطلنا أعمال الكفار ، وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شؤونهم ، لأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، أي اختاروا الباطل على الحق ﴿ وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس أمثالهم ﴾ أي يبين لهم مآل أعمالهم ، وما يصيرون إليه في معادهم .

(٤) ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

يقول تعالى مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه في حروبهم مع المشركين ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ أي إذا واجهتموهم فاحصدوهم حصد السيوف ﴿ حتى إذا أثخنتموهم ﴾ أي أهلكتموهم قتلاً ﴿ فشدوا الوثاق ﴾ أي الأسارى الذين تأسرونهم ، ثم أنتم بعد انقضاء الحرب ، وانفصال المعركة مخيرون في أمرهم ، إن شئتم مننتم عليهم فأطلقتم أساراهم مجاناً ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم ، وتشارطونهم عليه ، والظاهر أن هذه الآية نزلت بعد وقعة بدر ، فإن الله سبحانه عاتب المؤمنين على الاستكثار من الأسارى يومئذٍ ، ليأخذوا منهم الفداء ، والتقليل من القتل يومئذٍ فقال ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض . . . ﴾ وقوله عز وجل ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ حتى ينزل عيسى عليه السلام ، وكأنه أخذه من قوله ﷺ « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يقاتل أخرهم الدجال » أو ﴿ حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ حتى لا يبقى مشرك . وهذا كقوله تعالى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ﴾ وقوله عز وجل ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ﴾ أي هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ﴿ ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ أي ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الأعداء ، ليختبركم ويبلو أخباركم . ثم لما كان شأن القتال أن يقتل كثير من المؤمنين قال ﴿ والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم ﴾ أي لن يذهبها ، بل يكثرها وينميها ويضاعفها . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « يعطى الشهيد ست خصال : عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفزع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » تفرد به أحمد رحمه الله . وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « يغفر

للشهيد كل شيء إلا الدين » وفي الحديث « يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته » رواه أبو داود والإمام مسلم .

(٥) ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾

﴿ سيهديهم ﴾ أي إلى الجنة كقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ وقوله عز وجل ﴿ ويصلح بالهم ﴾ أي أمرهم وحالهم .

(٦) ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

﴿ ويدخلهم الجنة عرفها لهم ﴾ أي عرفهم بها وهداهم إليها . قال مجاهد : يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها أحداً . وقد ورد الحديث الصحيح بذلك أن رسول الله ﷺ قال : « إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا بقنطرة بين الجنة والنار ، يتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة ، والذي نفسي بيده إن أحدهم بمنزله في الجنة أهدى منه بمنزله الذي كان في الدنيا » .

(٧) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ كقوله عز وجل ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويثبت أقدامكم ﴾ كما جاء في الحديث « من بلغ ذا سلطان حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله تعالى قدميه على الصراط يوم القيامة » .

(٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾

﴿ والذين كفروا فتعساً لهم ﴾ عكس تثبيت الأقدام للمؤمنين الناصرين لله تعالى ولرسوله ﷺ وقد ثبت في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » أي فلا شفاه الله عز وجل . ﴿ وأضل أعمالهم ﴾ أي أحبطها وأبطلها .

(٩) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾

﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ﴾ أي لا يريدونه ولا يحبونه ﴿ فأحبط أعمالهم ﴾ .

﴿ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (١٠)

﴿ أفلم يسيروا في الأرض ﴾ يعني المشركين بالله المكذبين لرسوله ﴿ فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم ﴾ أي عاقبهم بتكذيبهم وكفرهم ، أي ونجى المؤمنين من بين أظهرهم . ولهذا قال ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (١١)

﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ ولهذا لما قال أبو سفيان صخر بن حرب رئيس المشركين يوم أحد حين سأل عن النبي ﷺ وعن أبي بكر وعمر فلم يجب وقال : أما هؤلاء فقد هلكوا ، وأجابه عمر فقال : كذبت يا عدو الله ، بل أبقى الله تعالى على ما يسوءك ، وإن الذين عددت لأحياء ، فقال أبو سفيان : يوم بيوم بدر ، والحرب سجال ، أما إنكم ستجدون مثلة لم آمر بها ، ولم أنه عنها ، ثم ذهب يرتجز ويقول : اعل هبل اعل هبل ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا تجيبوه » ؟ فقالوا : يا رسول الله ، وما نقول ؟ قال ﷺ قولوا : « الله أعلى وأجل » ثم قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال ﷺ : « ألا تجيبوه » ؟ قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟ قال : قولوا : « الله مولانا ولا مولى لكم » .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (١٢)

﴿ إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي يوم القيامة ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ﴾ أي في دنياهم يتمتعون بها ، ويأكلون منها كأكل الأنعام خضماً وقضماً ، ليس لهم همة إلا في ذلك . ولهذا ثبت في الصحيح « المؤمن يأكل في معي واحد ، والكافر يأكل في سبعة أمعاء » . ثم قال تعالى ﴿ والنار مثوى لهم ﴾ أي يوم جزائهم .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (١٣)

﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك ﴾ يعني مكة ﴿ أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد لأهل مكة في تكذيبهم لرسول الله ﷺ ، وهو سيد الرسل ، وخاتم النبيين ، فإذا كان الله عز وجل قد أهلك الأمم الذين كذبوا الرسل قبله بسببهم ، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء ، فماذا ظن هؤلاء أن يفعل الله بهم في الدنيا والأخرى ؟ فإنه رفع عن كثير العقوبة في الدنيا وجود الرسول نبي الرحمة ، بأن العذاب يوفر على الكافرين به في معادهم ﴿ من قريتك التي أخرجتك ﴾ أي الذين أخرجوك من بين أظهرهم. روى ابن أبي حاتم لما خرج رسول الله ﷺ من مكة إلى الغار، فالتفت إلى مكة وقال : « أنت أحب بلاد الله إلى الله ، وأنت أحب بلاد الله إليَّ ، ولولا أن المشركين أخرجوني لم أخرج منك » فأعدا الأعداء من عدا على الله تعالى في حرمه ، أو قتل غير قاتله .

(١٤) ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾

﴿ أفمن كان على بينة من ربه ﴾ أي على بصيرة ويقين في أمر الله ودينه بما أنزل الله في كتابه من الهدى والعلم ، وبما جبله الله عليه من الفطرة المستقيمة ﴿ كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ﴾ أي ليس هذا كهذا ، كقوله تعالى ﴿ أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴾ .

(١٥) ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾

﴿ مثل الجنة التي وعد المتقون ﴾ أي نعتها ﴿ فيها أنهار من ماء غير آسن ﴾ غير متغير ، تقول : أسن الماء إذا تغير ريحه . ﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أي بل في غاية البياض والحلاوة والدسومة . وفي حديث مرفوع « لم يخرج من ضروع الماشية » ﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أي ليست كريهة الطعم والرائحة كخمر الدنيا ، بل حسنة المنظر ، والطعم والرائحة والفعل ﴿ لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ ﴿ بيضاء لذة للشاربين ﴾ وفي حديث مرفوع « لم يعصرها الرجال بأقدامهم » ﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أي وهو في غاية الصفاء ، وحسن اللون والطعم والريح . وفي حديث مرفوع « لم يخرج من بطون النحل » ﴿ ولهم فيها من كل

الثمرات ﴾ كقوله عز وجل ﴿ يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ﴾ وقوله سبحانه وتعالى ﴿ كمن هو خالد في النار ﴾ أي أهؤلاء الذين ذكرنا منزلتهم من الجنة كمن هو خالد في النار ؟ ليس هؤلاء كهؤلاء ، وليس من هو في الدرجات كمن هو في الدركات (وسقوا ماء حميماً ﴾ أي حاراً شديدالحر ، لا يستطاع ﴿ فقطع امعاءهم ﴾ أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء . عياذاً بالله من ذلك .

(١٦) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين في بلادتهم وقله فهمهم حيث كانوا يجلسون إلى رسول الله ﷺ ، ويستمعون كلامه فلا يفهمون منه شيئاً ، فإذا خرجوا من عنده ﴿ قالوا للذين أوتوا العلم ﴾ من الصحابة رضي الله عنهم ﴿ ماذا قال آنفاً ﴾ أي الساعة . لا يعقلون ما قال ولا يكترثون له . قال الله تعالى ﴿ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ﴾ أي فلا فهم صحيح ، ولا قصد صحيح .

(١٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾

﴿ والذين اهتدوا زادهم هدى ﴾ أي والذين قصدوا الهداية وفقهم الله تعالى لها فهداهم اليها وثبتهم عليها وزادهم منها ﴿ وآتاهم تقواهم ﴾ أي ألهمهم رشدهم .

(١٨) ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾

﴿ فهل ينظرون إلا السّاعة أن تأتيهم بغتة ﴾ أي وهم غافلون ﴿ فقد جاء أشراطها ﴾ أي أمارات اقترابها، كقوله تعالى ﴿ هذا نذير من النذر الأولى. أزفت الآزفة. ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ فبعثه رسول الله ﷺ من أشراط الساعة ، لأنه خاتم الرسل الذي أكمل الله تعالى به الدين ، وأقام به الحجة على العالمين ، وقد أخبر ﷺ بأمارات الساعة وأشراطها ، وأبان عن ذلك وأوضحه بما لم يؤته نبي قبله . وفي البخاري « بعثت أنا والساعة كهاتين » ﴿ فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم ﴾ أي فكيف للكافرين بالتذكر إذا جاءتهم القيامة حيث لا ينفعهم ذلك ؟ كقوله تعالى ﴿ يومئذٍ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ﴾ .

(١٩) ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾ هذا إخبار بأنه لا إله إلا الله ، ولا يتأتى كونه آمراً بعلم ذلك ولهذا عطف عليه قوله عز وجل ﴿ واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ كان يقول « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني ، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت وما أنت أعلم به مني ، أنت إلهي لا إله إلا أنت » وفي الصحيح أنه قال « يا أيها الناس توبوا إلى ربكم فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » .

﴿ والله يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ أي يعلم تصرفكم في نهاركم ، ومستقركم في ليلكم ، كقوله تعالى ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ وقيل : يعلم متقلبكم ومثواكم في الآخرة ، وقيل : يعلم متقلبكم في الدنيا ، ومثواكم في الآخرة . والأول أولى وأظهر .

(٢٠) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين أنهم تمنوا شرعية الجهاد، فلما فرضه الله عز وجل نكل كثير من الناس ، كقوله تعالى ﴿ فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب ﴾ وقال عز وجل ههنا ﴿ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ﴾ أي مشتملة على حكم القتال . ولهذا قال ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت ﴾ أي من فزعهم ورعبهم وجبنهم من لقاء الأعداء . ثم قال مشجعاً لهم ﴿ فأولى لهم ﴾ .

(٢١) ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾

﴿ طاعة وقول معروف ﴾ أي وكان الأولى بهم أن يسمعوا أو يطيعوا أي في الحالة الراهنة ﴿ فإذا عزم الأمر ﴾ أي جد الحال ، وحضر القتال ﴿ فلو صدقوا الله ﴾ أي أخلصوا له النية ﴿ لكان خيراً لهم ﴾ .

(٢٢) ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴾

﴿ فهل عسيتم إن توليتم ﴾ أي عن الجهاد ونكلتم عنه ﴿ أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا

أرحامكم ﴾ ؟ أي أن تعودوا إلى ما كنتم فيه من الجاهلية الجهلاء ، تسفكون الدماء ، وتقطعون الأرحام .

(٢٣) ﴿ أُولَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾

﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عموماً ، وعن قطع الأرحام خصوصاً ، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام ، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأمثال وبذل الأموال ، وفي الحديث الذي رواه البخاري « خلق الله تعالى الخلق ، فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقوى الرحمن عز وجل ، فقال : من ، فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال تعالى : ألا ترضى أن أصل من وصلك ، وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى ، قال : فذاك لك » قال أبو هريرة: اقرؤ وا إن شئتم ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ﴾ .

(٢٤) ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

يقول تعالى آمراً بتدبر القرآن وتفهمه وناهياً عن الإعراض عنه ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ أي بل على قلوب أقفالها ، فهي مطبقة لا يخلص اليها شيء من معانيه .

(٢٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾

﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعدما يتبين لهم الهدى ﴾ أي فارقوا الإيمان ورجعوا إلى الكفر ﴿ الشيطان سول لهم ﴾ أي زين لهم ذلك وحسنه ﴿ وأملى لهم ﴾ أي غرَّهم وخدعهم .

(٢٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴾

﴿ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر ﴾ أي ما لؤ وهم وناصحوهم في الباطن على الباطل ، وهذا شأن المنافقين يظهرون خلاف ما يبطنون ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله يعلم إسرارهم ﴾ أي ما يسرونه وما يخفونه ، فالله مطلع عليه ، وعالم به ، كقوله تبارك وتعالى ﴿ والله يكتب ما يبيتون ﴾ .

(٢٧) ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

﴿ فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ أي كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم ، وتعاصت الأرواح في أجسادهم ، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب ، كما قال سبحانه ﴿ ولو ترى إذ يتوفى الذين كفرو الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ﴾ .

(٢٨) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

ولهذا قال سبحانه ههنا ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾

(٢٩) ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾

﴿ أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ ؟ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين ، بل سيوضح أمرهم ، ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر ، وقد أنزل الله في ذلك سورة « براءة » فبين فيها فضائحهم ، وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم ، ولهذا كانت تسمى الفاضحة . والأضغان جمع ضغن ، وهو باقي النفوس من الحسد والحقد للأسلام وأهله والقائمين بنصره .

(٣٠) ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ﴾ يقول عز وجل : ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فوقهم عياناً ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين ستراً منه على خلقه وحملاً للأمور على ظاهر السلامة ، وردا للسرائر الى عالمها ﴿ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم ، بفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه : ما أسر احد سريرة الا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه . وفي الحديث « ما أسر أحد سريرة إلا اكساه الله تعالى جلبابها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » روى الإمام أحمد عن أبي مسعود عقبة بن عمرو رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال « إن منكم منافقين ، فممن سميت فليقم ـ ثم قال ـ قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ، ثم قال : « إن فيكم أو منكم منافقين فاتقوا الله » قال فمر عمر رضي الله عنه برجل ممن سمى مقنع

قد كان يعرفه فقال : مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله ﷺ ، فقال : بعداً لك سائر اليوم .

(٣١) ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾

﴿ ولنبلونكم ﴾ أي لنختبرنكم بالأوامر والنواهي ﴿ حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ وليس في تقدم علم الله تعالى بم هو كائن أنه سيكون ، شك ولا ريب ، فالمراد حتى نعلم وقوعه ، ولهذا يقول إبن عباس في مثل هذا :﴿ حتى نعلم ﴾ أي لنرى .

(٣٢) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾

يخبر تعالى بمن كفرو وصد عن سبيل الله وخالف الرسول وشاقه وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى أنه لن يضر الله شيئاً ، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها ، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته جناح بعوضة من خير ، بل يحبطه ويمحقه بالكلية ، كما أن الحسنات يذهبن السيئات .

(٣٣) ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

روى الإمام أحمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ يرون أنه لا يضر مع لا إلّه إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل فنزلت ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل . ﴿ ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ أي بالردة .

(٣٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾

﴿ إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم ﴾ كقوله سبحانه وتعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾.

(٣٥) ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾

﴿ فلا تهنوا ﴾ أي لا تضعفوا عن الأعداء ﴿ وتدعوا إلى السلم ﴾ أي المهادنة والمسالمة

ووضع القتال بينكم وبين الكفار في حال قوتكم وكثرة عَددكم وعُددكم ﴿ وأنتم الأعلون ﴾ أي في حال علوكم على عدوكم ، فأما إذا كان الكفار فيهم قوة وكثرة بالنسبة الى جميع المسلمين ، ورأى الإمام في المهادنة والمعاهدة مصلحة فله أن يفعل ذلك ، كما فعل رسول الله ﷺ حين صده كفار قريش عن مكة ، ودعوه إلى الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين ، فأجابهم ﷺ إلى ذلك . وقوله جلت عظمته ﴿ والله معكم ﴾ فيه بشارة عظيمة بالنصر والظفر على الأعداء . ﴿ ولن يتركم أعمالكم ﴾ أي ولن يحبطها ويبطلها ، ويسلبكم اياها ، بل يوفيكم ثوابها ، ولا ينقصكم منها شيئاً .

(٣٦) ﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾

يقول تعالى تحقيراً لأمر الدنيا تهويناً لشأنها ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ﴾ أي حاصلها ذلك إلا ما كان منها لله عز وجل ولهذا قال تعالى ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴾ أي هو غني عنكم ، لا يطلب منكم شيئاً ، وإنما فرض عليكم الصدقات من الأموال مواساة لأخوانكم الفقراء ، ليعود نفع ذلك عليكم ، ويرجع ثوابه إليكم .

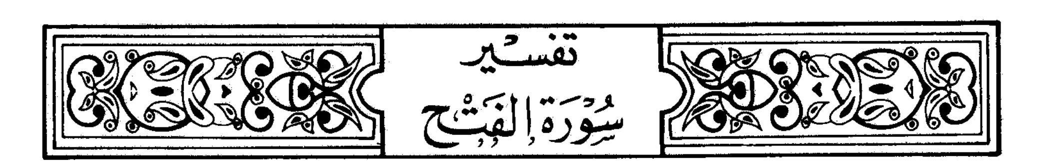
(٣٧) ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴾

﴿ إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ﴾ أي يحرجكم تبخلوا ﴿ ويخرج أضغانكم ﴾ قال قتادة : قد علم الله أن في إخراج الأموال اخراج الأضغان ، وصدق ، فإن المال محبوب ، ولا يصرف الا فيما هو أحب الى شخص منه .

(٣٨) ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾

﴿ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ﴾ أي لا يجيب إلى ذلك ﴿ ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ﴾ أي إنما نقص نفسه من الأجر ، وإنما يعود وبال ذلك عليه . ﴿ والله الغني ﴾ أي عن كل ما سواه ، وكل شيء فقير اليه دائماً ، ولهذا قال تعالى ﴿ وأنتم الفقراء ﴾ أي بالذات إليه ، فوصفه بالغنى وصف لازم له ، ووصف الخلق بالفقر وصف لازم لهم لا ينفكون عنه . وقوله تعالى ﴿ وإن تتولوا ﴾ أي عن طاعته واتباع شرعه ﴿ يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴾ أي ولكن يكونون سامعين مطيعين له ولأوامره . روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن أبي هريرة قال : إن رسول الله ﷺ تلا هذه

الآية ﴿ وإن تتولوا يستبدل قوماً . . . ﴾ قالوا : يا رسول الله ، من هؤلاء الذين إن تولينا استبدوا بنا، ثم لا يكونوا أمثالنا ؟ قال : فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ، ثم قال « هذا وقومه»، ولو كان الدين عند الثريا لتناوله رجال من الفرس » تفرد به مسلم .



تفسير سُورَةِ الفَتْح

روى الإمام أحمد عن معاوية بن قرة قال: سمعت عبد الله بن مغفل يقول: قرأ رسول الله ﷺ عام الفتح في مسيره سورة الفتح على راحلته فرجع فيها ، قال معاوية : لولا أني أكره أن يجتمع الناس علينا لحكيت قراءته . أخرجاه من حديث شعبة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾

نزلت هذه السورة الكريمة لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة حين صده المشركون عن الوصول الى المسجد الحرام ، فيقضي عمرته فيه ، وحالوا بينه وبين ذلك ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ، ثم يأتي من قابل ، فأجابتهم إلى ذلك على تكره من جماعة من الصحابة ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما نحر ﷺ هديه حيث أحصر ورجع أنزل الله هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل ذلك الصلح فتحاً باعتبار ما فيه من المصلحة ، وما آل الأمر اليه ، كما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه وغيره أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعد الفتح صلح الحديبية . ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ﴾ أي بيناً ظاهراً ، والمراد به صلح الحديبية ، فإنه حصل بسببه خير جزيل ، وأمن الناس ، واجتمع بعضهم ببعض ، وتعلم المؤمن مع الكافر ، وانتشر العلم النافع والإيمان .

(٢) ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ هذا من خصائصه ﷺ التي لا يشاركه فيها

غيره ، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره « غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ ، وهو ﷺ في جميع اموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه ، لا من الأولين ولا من الآخرين ، وهو ﷺ أكمل البشر على الاطلاق ، وسيدهم في الدنيا والآخرة ﴿ ويتم نعمته عليك ﴾ أي في الدنيا والآخرة ﴿ ويهديك صراطاً مستقيماً ﴾ أي بما يشرعه لك من الشرع العظيم ، والدين القويم .

(٣) ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴾

﴿ وينصرك الله نصراً عزيزاً ﴾ أي بسبب خضوعك لأمر الله عز وجل يرفعك الله وينصرك على أعدائك ، كما جاء في الحديث الصحيح « وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً ، وما تواضع أحد لله عز وجل الا رفعه الله تعالى » وعن عمر رضي الله عنه أنه قال : ما عاقبت أحداً عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله تبارك فيه .

(٤) ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾

﴿ هو الذي أنزل السكينة ﴾ أي جعل الطمأنينة ، وقيل : الرحمة ، وقيل : الوقار في قلوب المؤمنين، وهم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا الله ولرسوله ، وانقادوا لحكم الله ورسوله ، فلما اطمأنت قلوبهم بذلك واستقرت زادهم ايماناً مع ايمانهم ، وقد استدل بها البخاري وغيره من الأئمة على تفاضل الإيمان في القلوب .
﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ فلو شاء الله لا نتصر من الكافرين إذا لو أرسل عليهم ملكاً واحداً لأباد خضراءهم ، ولكنه تعالى شرع لعباده المؤمنين الجهاد والقتال لما له في ذلك من الحكمة البالغة ، والحجة القاطعة ، والبراهين الواقعة ، ولهذا قال جلت عظمته ﴿ وكان الله عليماً حكيماً ﴾ .

(٥) ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾

﴿ ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ويكفر عنهم سيئاتهم ﴾ أي خطاياهم وذنوبهم ، فلا يعاقبهم عليها ، بل يعفو ويصفح ، ويغفر ويستر ، ويرحم ويشكر ﴿ وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً ﴾ كقوله عز

وجل ﴿ فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ﴾ .

(٦) ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء ﴾ أي يتهمون الله تعالى في حكمه ، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أن يقتلوا ويذهبوا بالكلية ، ولهذا قال تعالى ﴿ عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ .

(٧) ﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

ثم قال الله عز وجل مؤكداً لقدرته على الانتقام من الأعداء أعداء الإسلام من الكفرة والمنافقين ﴿ ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ .

(٨) ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

﴿ إنا أرسلناك شاهداً ﴾ أي على الخلق ﴿ ومبشراً ﴾ أي للمؤمنين ﴿ ونذيراً ﴾ أي للكافرين .

(٩) ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه ﴾ أي تعظموه ﴿ وتوقروه ﴾ من التوقير ، وهو الاحترام والإجلال والإعظام ﴿ وتسبحوه ﴾ أي تسبحون الله ﴿ بكرة وأصيلاً ﴾ أي أول النهار وآخره .

(١٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

ثم قال عز وجل لرسوله ﷺ تشريفاً له وتعظيماً وتكريماً ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾ كقوله جل جلاله ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ أي

هو حاضر معهم ، يسمع أقوالهم ، ويرى مكانهم ، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم ، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسول الله ﷺ ، كقوله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ روى ابن أبي حاتم: «من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله» وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ في الحجر « والله ليبعثنه الله عز وجل يوم القيامة ، له عينان ينظر بهما ، ولسان ينطق به ، ويشهد على من استلمه بالحق ، فمن استلمه فقد بايع الله تعالى » . ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ أي إنما يعود وبال ذلك على الناكث ، والله غني عنه ﴿ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً ، وهذه البيعة هي بيعة الرضوان ، وكانت تحت شجرة سمرة بالحديبية ، وكان الصحابة رضي الله عنهم الذين بايعوا رسول الله يومئذٍ ألفاً وثلاثمائة . عن جابر رضي الله عنه قال : كنا يومئذٍ ألفاً وأربعمائة ، ووضع يده في ذلك الماء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه حتى رووا كلهم . أخرجاه .

(١١) ﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴾

يقول تعالى مخبراً رسوله ﷺ بما يعتذر به المخلفون من الأعراب الذين اختاروا المقام في أهليهم وشغلهم وتركوا المسير مع رسول الله ﷺ فاعتذروا بشغلهم بذلك ، وسألوا أن يستغفر لهم الرسول ﷺ ، وذلك قول منهم ، لا على سبيل الاعتقاد ، بل على وجه التقية والمصانعة ، ولهذا قال تعالى ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ﴾ أي لا يقدر أحد أن يرد ما أراده الله فيكم ، تعالى وتقدس ، وهو العليم بسرائركم وضمائركم ، وإن صانعتمونا ونافقتمونا ، ولهذا قال تعالى ﴿ بل كان الله بما تعملون خبيراً ﴾ .

(١٢) ﴿ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾

﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ﴾ أي اعتقدتم أنهم يقتلون وتستأصل شأفتهم ، وتستباد خضراؤهم ، ولا يرجع منهم مخبر ﴿ وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ أي هلكى ، أو فاسدين .

(١٣) ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾

﴿ ومن لم يؤمن بالله ورسوله ﴾ أي من لم يخلص العمل في الظاهر والباطن لله ، فإن الله سيعذبه في السعير ، وإن أظهر للناس ما يعتقدون خلاف ما هو عليه في نفس الأمر .

(١٤) ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ثم بين تعالى أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض ﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفور رحيماً ﴾ أي لمن تاب إليه ، وأناب ، وخضع لديه .

(١٥) ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحونها أنهم يسألون أن يخرجوا معهم إلى المغنم ، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجادلتهم ومصابرتهم ، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأذن لهم في ذلك معاقبة لهم من جنس ذنبهم ، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين ، فلا يقع غير ذلك شرعاً ولا قدراً ، ولهذا قال تعالى ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية وقيل : ﴿ يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ يعني بتثبيطهم المسلمين عن الجهاد ﴿ قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ﴾ أي وعد الله أهل الحديبية قبل سؤالكم الخروج معهم ﴿ فسيقولون بل تحسدوننا ﴾ أي نشرككم في المغانم ﴿ بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ، ولكن لا فهم لهم .

(١٦) ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن

تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

اختلف المفسرون في هؤلاء القوم الذين يدعون إليهم الذين هم أولوا بأس شديد على أقوال : أحدها أنهم هوازن ، الثاني أنهم ثقيف ، الثالث بنو حنيفة ، الرابع هم أهل فارس ، أو هم فارس والروم ، أو هم أهل الأوثان أو هم رجال أولوا بأس شديد ، ولم يعين فرقة ، وهو اختيار ابن جرير ، وبه يقول ابن جريج . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قوماً صغار الأعين ذلف الأنوف ، كأن وجوههم المجان المطرقة » قال سفيان : هم الترك . رواه ابن أبي حاتم ، وفسر أبو هريرة رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ « تقاتلوا قوماً فعالهم الشعر » قال : هم البارزون يعني الأكراد . وقوله تعالى ﴿ تقاتلونهم أو يسلمون ﴾ يعني شرع لكم جهادهم وقتالهم ، فلا يزال ذلك مستمراً عليهم ، ولكم النصرة عليهم ، أو يسلمون فيدخلون في دينكم بلا قتال ، بل باختيار . ثم قال عز وجل ﴿ فإن تطيعوا ﴾ أي تستجيبوا أو تنفروا في الجهاد ، وتؤدوا الذي عليكم فيه ﴿ يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل ﴾ يعني زمن الحديبية حيث دعيتم فتخلفتم ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ .

﴿١٧﴾ ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

ثم ذكر تعالى الأعذار في ترك الجهاد ، فمنها لازم كالعمى والعرج المستمر ، وعارض كالمرض الذي يطرأ أياماً ، ثم يزول فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى برأه ثم قال تبارك وتعالى مرغباً في الجهاد وطاعة الله ورسوله ﴿ ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول ﴾ أي ينكل عن الجهاد ويقبل على المعاش ﴿ يعذبه عذاباً أليماً ﴾ في الدنيا بالمذلة ، وفي الآخرة بالنار .

﴿١٨﴾ ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، وعدتهم ألف وأربعمائة ، والشجرة كانت سمرة بأرض الحديبية . ﴿ فعلم ما في قلوبهم ﴾ أي من الصدق والوفاء والسمع والطاعة ﴿ فأنزل السكينة ﴾ وهي الطمأنينة ﴿ عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ﴾ وهو ما أجرى الله عز وجل على أيديهم من الصلح بينهم وبين أعدائهم ، وما

حصل بذلك من الخير المستمر المتصل بفتح خيبر وفتح مكة ، ثم فتح سائر البلاد والأقاليم عليهم ، وما حصل لهم من العز والنصر والرفعة في الدنيا والآخرة .

(١٩) ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ ، روى ابن أبي حاتم عن إياس بن سلمة عن أبيه قال : بينما نحن قائلون ، إذ نادى منادي رسول الله ﷺ : أيها الناس ، البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، قال : فثرنا إلى رسول الله ﷺ ، وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قول الله تعالى ﴿ لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . . . ﴾ فبايع رسول الله ﷺ لعثمان رضي الله عنه باحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لابن عفان يطوف بالبيت ، ونحن ههنا ، فقال رسول الله ﷺ « لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » .

(٢٠) ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

قال مجاهد في قوله تعالى ﴿ وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ﴾ : هي جميع المغانم إلى اليوم ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني فتح خيبر ﴿ فعجل لكم هذه ﴾ يعني صلح الحديبية ﴿ وكف أيدي الناس عنكم ﴾ أي لم ينلكم سوء مما كان أعداؤكم أضمروه لكم من المحاربة والقتال ، وكذلك كف أيدي الناس عنكم الذين خلفتموهم وراء ظهوركم عن عيالكم وحريمكم ﴿ ولتكون آية للمؤمنين ﴾ أي يعتبرون بذلك ، فإن الله تعالى حافظهم وناصرهم على سائر الأعداء مع قلة عددهم ، وليعلموا بصنيع الله هذابهم أنه العالم بعواقب الأمور ، وأن الخيرة فيما يختاره لعباده المؤمنين ، وإن كرهوه في الظاهر ، كما قال الله عز وجل ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾ ﴿ ويهديكم صراطاً مستقيماً ﴾ أي بسبب انقيادكم لأمره ، واتباعكم طاعته ، وموافقتكم رسوله ﷺ .

(٢١) ﴿ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

﴿ وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ أي وغنيمة أخرى ، وفتحاً آخر معيناً لم تكونوا تقدرون عليها قد يسرها الله عليكم ، وأحاط بها لكم ، فإنه تعالى يرزق عباده المتقين له من حيث لا يحتسبون ، وعن ابن عباس : هذه الغنيمة هي خيبر ، وقال قتادة : هي مكة .

(٢٢) ﴿ وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً ﴾ يقول عز وجل مبشراً لعباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصر الله رسوله وعباده المؤمنين عليهم ، ولانهزم جيش الكفر فاراً مدبراً لا يجدون ولياً ولا نصيراً ، لأنهم محاربون لله ولرسوله ولحزبه المؤمنين .

(٢٣) ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾ أي هذه سنة الله وعادته في خلقه . ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل ، كما فعل تعالى يوم بدر بأوليائه المؤمنين ، نصرهم الله على أعدائه من المشركين مع قلة عدد المسلمين وعُددهم ، وكثرة المشركين وعُددهم .

(٢٤) ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾

﴿ وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة . . . ﴾ هذا امتنان من الله تعالى على عباده المؤمنين حين كف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين ، فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، بل صان كلاً من الفريقين ، وأوجد بينهم صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعاقبة لهم في الدنيا والآخرة . روى الامام أحمد لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلاً من أهل مكة بالسلاح من قبل جبل التنعيم ، يريدون غرة رسول الله ﷺ ، فدعا عليهم فأخذوا ، فعفا عنهم ، ونزلت هذه الآية . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي .

(٢٥) ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار من مشركي العرب من قريش ومن ما لأهم على نصرتهم

على رسول الله ﷺ ﴿ هم الذين كفروا ﴾ أي هم الكفار دون غيرهم ﴿ وصدوكم عن المسجد الحرام ﴾ أي وأنتم أحق به ، وأنتم أهله في نفس الأمر ﴿ والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ﴾ أي وصدوا الهدي أن يصل إلى محله ، وهذا من بغيهم وعنادهم ، وكان الهدي سبعين بدنة ﴿ ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات ﴾ أي بين أظهرهم ممن يكتم إيمانه ويخفيه منهم خيفة على أنفسهم من قومهم لكنا سلطناكم عليهم فقتلتموهم ، وأبدتم خضراءهم ، ولكن بين أفنائهم من المؤمنين والمؤمنات أقوام لا تعرفونهم حالة القتل ، ولهذا قال تعالى ﴿ لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ﴾ أي إثم وغرامة ﴿ ليدخل الله في رحمته من يشاء ﴾ أي يؤخر عقوبتهم ليخلص من بين أظهرهم المؤمنين ، وليرجع كثير منهم إلى الإسلام . ﴿ لو تزيلوا ﴾ أي لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم ﴿ لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً ﴾ أي لسلطناكم عليهم فلقتلتموهم قتلاً ذريعاً .

(٢٦) ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾

﴿ إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ﴾ وذلك حين أبوا أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم » وأبوا أن يكتبوا : « هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » ﴿ فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ﴾ وهي قول « لا إله إلا الله » ﴿ وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ أي كان المسلمون أحق بها وكانوا أهلها ﴿ وكان الله بكل شيء عليماً ﴾ أي هو عليم بمن يستحق الخير ممن يستحق الشر .

(٢٧) ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾

كان رسول الله ﷺ قد رأى في المنام أنه دخل مكة وطاف بالبيت ، فأخبر أصحابه بذلك . وهو بالمدينة ، فلما ساروا عام الحديبية لم يشك جماعة منهم أن هذه الرؤ يا تتفسر هذا العام ، فلما وقع ما وقع من قضية الصلح ، ورجعوا عامهم ذلك على أن يعودوا من قابل وقع في نفس بعض الصحابة ، رضي الله عنهم من ذلك شيء ، حتى سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه في ذلك ، فقال له فيما قال : أفلم تكن تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ قال : « بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ » قال : لا ، قال النبي ﷺ :

« فإنك آتيه ومطوف به » وبهذا أجاب الصديق رضي الله عنه أيضاً حذو القذة بالقذة ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤ يا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله ﴾ هذا لتحقيق الخبر وتوكيده ، وليس هذا من الاستثناء في شيء ﴿ آمنين ﴾ أي في حال دخولكم ﴿ محلقين رؤ وسكم ومقصرين ﴾ حال مقدرة ، لأنهم في حال دخولهم لم يكونوا محلقين ومقصرين ، وإنما كان هذا في ثاني الحال ، كان منهم من حلق رأسه ، ومنهم من قصره ، وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « رحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله . قال ﷺ : « والمقصرين » في الثالثة ، أو الرابعة . ﴿ لا تخافون ﴾ حال مؤكدة في المعنى ، فأثبت لهم الأمن حال الدخول ، ونفى عنهم الخوف حال استقرارهم في البلد ، لا يخافون من أحد ، وهذا كان في عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع . ﴿ فعلم ما لم تعلموا ﴾ أي فعلم الله عز وجل من الخيرة والمصلحة في صرفكم عن مكة ، ودخولكم إليها عامكم ذلك ما لم تعلموا أنتم ﴿ فجعل من دون ذلك ﴾ أي قبل دخولكم الذي وعدتم به في رؤ يا النبي ﷺ ﴿ فتحاً قريباً ﴾ وهو الصلح الذي كان بينكم وبين أعدائكم من المشركين .

(٢٨) ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ﴾ أي بالعلم النافع ، والعمل الصالح ، فإن الشريعة تشتمل على شيئين : علم وعمل ، فالعلم الشرعي صحيح ، والعمل الشرعي مقبول ، فاخباراتها حق ، وإنشاءاتها عدل . ﴿ ليظهره على الدين كله ﴾ أي على أهل جميع الأديان من سائر أهل الأرض من عرب وعجم ومليين ومشركين . ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ أي أنه رسول الله ، وهو ناصره .

(٢٩) ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقاً بلا شك ولا ريب فقال ﴿ محمد رسول الله ﴾ وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه رضي الله عنهم فقال ﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديداً عنيفاً على الكفار ، براً رحيماً بالأخيار ، غضوباً عبوساً في وجه الكفار ، ضحوكاً بشوشاً في وجه أخيه المؤمن ﴿ تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة ، وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالاخلاص فيها لله عز وجل ، والاحتساب عند الله جزيل الثواب وهو الجنة ﴿ سيماهم في وجوههم من أثر السجود ﴾ يعني السمت الحسن ، أو الخشوع والتواضع . قال أحدهم لمجاهد : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلباً من فرعون . وفي الحديث « من كثرت صلاته بالليل حن وجهه بالنهار » رواه ابن ماجه . والصحيح أنه موقوف . ﴿ ذلك مثلهم في التوراة ﴾ إذ نوهت بهم الكتب المنزلة ، والأخبار المتداولة . ﴿ ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه ﴾ أي فراخه ﴿ فآزره ﴾ أي شده ﴿ فاستغلظ ﴾ أي شب وطال ﴿ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ﴾ أي فكذلك أصحاب رسول الله آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك في رواية عنه بتكفير الذين يبغضون الصحابة ووافقه طائفة من العلماء على ذلك . والأحاديث في فضل الصحابة ، والنهي عن التعرض لهم بمباديهم كثيرة . ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم ﴾ ﴿ من ﴾ هذه لبيان الجنس ﴿ مغفرة ﴾ أي لذنوبهم ﴿ وأجراً عظيماً ﴾ أي ثواباً جزيلاً ، ورزقاً كريماً ، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل . وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمتهم ، ولهم الفضل والسبق . وفي الحديث « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » .

* * *



تفسير سُورَةُ الحُجُرَات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذه آيات أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول ﷺ من التوقير والاحترام والتبجيل والاعظام فقال تبارك وتعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ﴾ أي لا تسرعوا في الأشياء بين يديه ، أي قبله ، بل كونوا تبعاً له في جميع الأمور ، أو لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة ، أو لا تقضوا أمراً دون الله ورسوله من شرائع دينكم ، أو لا تقدموا بين يدي الله ورسوله بقول ولا فعل ، ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم به ﴿ إن الله سميع ﴾ أي لأقوالكم ﴿ عليم ﴾ بنياتكم .

(٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ﴾ هذا أدب ثان أدب الله تعالى به المؤمنين ، أن لا يرفعوا أصواتهم بين يدي النبي ﷺ فوق صوته ، روى البخاري عن ابن أبي مليكة قال : كاد الخيران أن يهلكا : أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، رفعا أصواتهما حين قدم عليه ركب بني تميم ، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس ، وأشار الآخر برجل آخر فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي ، قال : ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك ، فأنزل الله هذه الآية . وروى البخاري عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس رضي الله عنه ، فقال رجل يا رسول الله ، أنا أعلم لك علمه ، فأتاه فوجده في بيته منكساً رأسه ، فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شر ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ فقد حبط عمله ، فهو من أهل النار ، فأتى الرجل النبي ﷺ فأخبره أنه قال : كذا وكذا ، فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة فقال : « اذهب إليه ، فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل الجنة » تفرد به البخاري من هذا الوجه . ﴿ أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عنده خشية أن يغضب من ذلك ، فيغضب الله تعالى لغضبه ، فيحبط عمل من أغضبه ، وهو لا يدري ،

كما جاء في الصحيح « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى لا يلقي لها بالاً يكتب له بها الجنة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى لا يلقي لها بالاً يهوي بها في النار أبعد ما بين السماء والأرض » .

(٣) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

ثم ندب الله تعالى إلى خفض الصوت عنده ، وحث على ذلك ، وأرشد إليه ، ورغب فيه فقال ﴿ إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ﴾ أي خلصها لها ، وجعلها أهلاً ومحلاً ﴿ لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ روى الإمام أحمد عن مجاهد قال : كتب إلى عمر : يا أمير المؤمنين ، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهي المعصية ، ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضي الله عنه : إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ .

(٤) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

ثم إنه تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات ، وهي بيوت نسائه كما يصنع أجلاف العرب ، فقال : ﴿ أكثرهم لا يعقلون ﴾ .

(٥) ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك فقال عز وجل ﴿ ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ﴾ أي لكان لهم في ذلك الخيرة ، والمصلحة في الدنيا والآخرة ، ثم قال تعالى داعياً لهم إلى التوبة والإنابة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ وقد ذكر أنها نزلت في الأقرع بن حابس التميمي رضي الله عنه ، روى الإمام أحمد أن الأقرع بن حابس نادى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد يا محمد ، وفي رواية يا رسول الله فلم يجبه ، فقال : يا رسول الله ، إن حمدي لزين ، وإن ذمي لشين ، فقال : « ذاك الله عز وجل » .

(٦) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

يأمر تعالى بالتثبت في خبر الفاسق ليحتاط له ، لئلا يحكم بقوله فيكون في نفس الأمر

كاذباً أو مخطئاً ، فيكون الحاكم بقوله قد اقتفى وراءه ، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين ، ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال لاحتمال فسقه في نفس الأمر ، وقبلها آخرون لأنا إنما أمرنا بالتثبت عند خبر الفاسق ، وهذا ليس بمحقق الفسق ، لأنه مجهول الحال . وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط حين بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق ، فلما سمع بذلك القوم تلقوه يعظمون أمر رسول الله ﷺ ، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : إن بني المصطلق قد منعوني صدقاتهم ، فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون ، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فصغوا له حين صلى الظهر فقال : نعوذ بالله من سخط الله وسخط رسوله ، بعثت إلينا رجلاً مصدقاً فسررنا بذلك ، وقرت به أعيننا ، ثم إنه رجع من بعض الطريق فخشينا أن يكون ذلك غضباً من الله تعالى ومن رسوله ﷺ ، فلم يزالوا يكلمونه حتى جاء بلال فأذن بصلاة العصر ونزلت . قال قتادة : فكان رسول الله ﷺ يقول : « التثبت من الله والعجلة من الشيطان » .

(٧) ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾

﴿ واعلموا أن فيكم رسول الله ﴾ أي اعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم ، وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ﴾ ثم بين أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم فقال ﴿ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ﴾ أي لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم ﴿ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ﴾ أي حببه إلى نفوسكم ، وحسنه في قلوبكم . ﴿ وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ﴾ أي وبغض إليكم الكفر والفسوق ، وهي الذنوب الكبار ، ﴿ والعصيان ﴾ وهي جميع المعاصي ، وهذا تدريج لكمال النعمة ﴿ أولئك هم الراشدون ﴾ أي المتصفون بهذه الصفة هم الراشدون الذين قد آتاهم الله رشدهم .

(٨) ﴿ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ فضلاً من الله ونعمة ﴾ أي هذا العطاء الذي منحكموه هو فضل منه عليكم ، ونعمة من

لدنه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية ، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره .

(٩) ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً بالاصلاح بين الفئتين الباغيتين بعضهم على بعض ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ فسماهم مؤمنين مع الاقتتال ، وبهذا استدل البخاري بأنه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت ، لا كما يقول الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة وغيرهم ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ حتى ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه ﴿ فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ﴾ أي اعدلوا بينهما فيما كان أصاب بعضهم لبعض بالقسط ، وهو العدل ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ وفي الحديث « إن المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ بين يدي الرحمٰن عز وجل بما أقسطوا في الدنيا رواه ابن أبي حاتم ، ورواه النسائي ، وإسناده جيد قوي ، ورجاله على شرط الصحيح .

(١٠) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ أي الجميع إخوة في الدين ، كما قال رسول الله ﷺ « المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه » . وفي الصحيح « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » وفي الصحيح « إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك : « آمين » ولك بمثله » . ﴿ فأصلحوا بين أخويكم ﴾ يعني الفئتين المقتتلتين ﴿ واتقوا الله ﴾ أي في جميع أموركم ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ وهذا تحقيق منه تعالى للرحمة لمن اتقاه .

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

ينهى تعالى عن السخرية بالناس ، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم كما ثبت في الصحيح

عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الكبر بطر الحق ، وغمص الناس ، ويروى وغمط الناس » والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم وهذا حرام ، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى ، وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له ، ولهذا قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ﴾ فنص على نهي الرجال وعطف بنهي النساء . وقوله تبارك وتعالى ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أي لا تلمزوا الناس ، والهماز اللماز من الرجال مذموم ملعون ، كما قال تعالى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ والهمز بالفعل ، واللمز بالقول ، كما قال تعالى ﴿ هماز مشاء بنميم ﴾ أي يحتقر الناس ويهمزهم طاغياً عليهم ، ويمشي بينهم بالنميمة ، وهي اللمز بالمقال ، ولهذا قال تعالى ههنا ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ كما قال تعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً . وقوله تعالى ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ أي لا تداعوا بالألقاب ، وهي التي يسوء الشخص سماعها . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قدم المدينة ، وليس فينا - يعني بني سلمة - رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله ، إنه يغضب من هذا ، فنزلت ﴿ ولا تنابزوا بالألقاب ﴾ وقوله جل جلاله ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾ أي بئس الصفة والاسم الفسوق ، وهو التنابز بالألقاب ، كما كان في أهل الجاهلية ، تتناعتون بعدما دخلتم في الاسلام وعقلتموه ﴿ ومن لم يتب ﴾ أي من هذا ﴿ فأولئك هم الفاسقون ﴾ .

(١٢) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾

يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً ، فليجتنب كثير منه احتياطاً ، فعن عمر رضي الله عنه : ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً وأنت تجد لها في الخير محلاً . وروى ابن ماجه عن ابن عمر قال : رأيت النبي ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفسي بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله تعالى حرمة منك : ماله ودمه وأن يظن به خيراً » وروى البخاري وأبو داود عن رسول الله ﷺ « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ يقول : « من ستر عورة مؤمن فكأنما

استحيا موءودة من قبرها » وروى سفيان الثوري عن معاوية قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم » ﴿ ولا تجسسوا ﴾ أي بعضكم على بعض ، والتجسس غالباً يطلق في الشر ، ومنه الجاسوس ، وأما التحسس فيكون غالباً في الخير ، كما قال تعالى ﴿ يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ﴾ وقد يستعمل كل منهما في الشر ، كما في الحديث « لا تجسسوا ولا تحسسوا . . . » ، ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ فيه نهي عن الغيبة ، روى أبو داود ، قيل : يا رسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » ورواه الترمذي وقال حسن صحيح . وروى أبو داود أن عائشة قالت : قلت للنبي ﷺ : حسبك من صفية كذا وكذا ـ تعني قصيرة ـ فقال ﷺ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾ أي كما تكرهون هذا طبعاً فاكرهوا ذاك شرعاً ، فإن عقوبته أشد من هذا ، وهذا من التنفير عنها ، والتحذير منها ، كما قال ﷺ : « العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يرجع في قيئه » ﴿ واتقوا الله ﴾ أي فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه ﴿ إن الله تواب رحيم ﴾ أي تواب على من تاب إليه ، رحيم لمن رجع إليه واعتمد عليه .

(١٣) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً للناس أنه خلقهم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ، وهما آدم وحواء ، وجعلهم شعوباً ، وهي أعم من القبائل ، وبعد القبائل مراتب أخر كالفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك ، فجميع الناس في الشرف بالنسبة الطينية إلى آدم وحواء عليهما السلام سواء ، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية ، وهي طاعة الله تعالى ، ومتابعة رسوله ﷺ ، ولهذا قال تعالى بعد النهي عن الغيبة واحتقار بعض الناس بعضاً منبهاً على تساويهم في البشرية ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾ أي ليحصل التعارف بينهم كل يرجع إلى قبيلته ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ أي إنما يتفاضلون عند الله تعالى بالتقوى ، لا بالأحساب ، روى البخاري عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ : أي الناس أكرم ؟ قال « أكرمهم عند الله أتقاهم » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فأكرم الناس يوسف نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن نبي الله ، ابن خليل الله » قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : « فعن معادن العرب

تسألوني ؟ » قالوا : نعم ، قال : « فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا » ورواه النسائي . وروى مسلم عن رسول الله ﷺ « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ورواه ابن ماجه . وروى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله » تفرد به أحمد رحمه الله . وروى الطبراني عن رسول الله ﷺ « المسلمون إخوة ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ أي عليم بكم ، خبير بأموركم ، فيهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، ويرحم من يشاء ، ويعذب من يشاء ، ويفضل من يشاء على من يشاء ، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة ، وهذه الأحاديث الشريفة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تشترط ، ولا يشترط سوى الدين لقوله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

(١٤) ﴿ * قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى منكراً على الأعراب الذين أول ما دخلوا في الإسلام ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم بعدُ ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم ﴾ وقيل في قوله ﴿ ولكن قولوا أسلمنا ﴾ أي استسلمنا خوف القتل والسبي وقيل : نزلت في قوم امتنوا بإيمانهم على رسول الله ﷺ ، والصحيح الأول ، وهو أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان ، ولم يحصل لهم بعدُ ، فأدبوا وأُعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعدُ ، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا ﴿ وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ﴾ أي لا ينقصكم من أجوركم شيئاً كقوله عز وجل ﴿ وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ أي لمن تاب إليه وأناب .

(١٥) ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾

﴿ إنما المؤمنون ﴾ أي إنما المؤمنون الكمَّل ﴿ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ أي وبذلوا جهدهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ أي في قولهم إذا قالوا : مؤمنون ، لا كبعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة .

﴿١٦﴾ ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

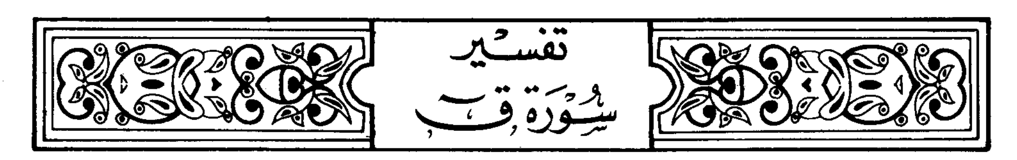
﴿ قل أتعلمون الله بدينكم ﴾ اي أتخبرونه بما في ضمائركم ﴿ والله يعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ اي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾.

﴿١٧﴾ ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ يمنُّون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا علي اسلامكم ﴾ يعني الأعراب الذين يمنون باسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله رداً عليهم ﴿ قل لا تمنوا علي اسلامكم ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم ، ولله المنة عليكم فيه ﴿ بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين ﴾ اي في دعواكم ذلك ، كما قال النبي ﷺ للأنصار يوم صفين « يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله لي ؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ؟ كلما قال شيئا ، قالوا : الله ورسوله أمن ».

﴿١٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

ثم كرر تعالى عمله بجميع الكائنات ، وبصره بأعمال المخلوقات فقال ﴿ إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾.



تفسير سُورَةُ قٓ

هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح ، وقيل : من الحجرات . روى الإمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً سنتين أو سنة وبعض سنة ، وما أخذت ﴿ قٓ والقرآن المجيد ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ كان يقرؤ ها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس . ورواه مسلم . والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار ، كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾

تقدم الكلام عن حروف الهجاء في أول سورة البقرة ﴿ والقرآن المجيد ﴾ أي الكريم العظيم الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ وجواب القسم ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم . . ﴾ وفي هذا نظر ، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم ، وهو اثبات النبوة واثبات المعاد وتقريره وتحقيقه ، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً ، وهذا كثير في أقسام القرآن كما في قوله ﴿ ص والقرآن ذي الذكر . بل الذين كفروا في عزة وشقاق ﴾ .

(٢) ﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾

﴿ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول اليهم من البشر ، وليس هذا بعجيب ، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس .

(٣) ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾

ثم قال عز وجل مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿ أئذامتنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴾ أي يقولون : أئذامتنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا ، وصرنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب ؟ ﴿ ذلك رجع بعيد ﴾ أي بعيد الوقوع . والمعنى أنهم يعتقدون استحالته وعدم إمكانه .

(٤) ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴾

قال تعالى رداً عليهم ﴿ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى ، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، وإلى أين صارت ﴿ وعندنا كتاب حفيظ ﴾ أي حافظ لذلك ، فالعلم شامل ، والكتاب فيه أيضاً كل الأشياء مضبوطة .

(٥) ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾

ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال ﴿ بل كذبوا

بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج ﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق ، مهما قال بعد ذلك فهو باطل ، والمريج المختلف المضطرب الملتبس كقوله تعالى ﴿ إنكم لفي قول مختلف . يؤفك عنه من أفك ﴾ .

(٦) ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾

يقول تعالى منبهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعدين لوقوعه ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ﴾ أي بالمصابيح ﴿ وما لها من فروج ﴾ يعني من شقوق ، أو صدوع ، كقوله تبارك وتعالى ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ أي كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً .

(٧) ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

﴿ والأرض مددناها ﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿ وألقينا فيها رواسي ﴾ وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ﴾ وقوله : ﴿ بهيج ﴾ أي حسن المنظر .

(٨) ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾

﴿ تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ﴾ أي ومشاهدة خلق السموات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب ، أي خاضع خائف وجل رجاع إلى الله عز وجل .

(٩) ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴾

﴿ ونزلنا من السماء ماء مبارَكاً ﴾ أي نافعاً ﴿ فأنبتنا به جنات ﴾ أي حدائق وبساتين ونحوها ﴿ وحب الحصيد ﴾ وهو الزرع الذي يراد لِحَبِّهِ وادخاره .

(١٠) ﴿ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾

﴿ والنخل باسقات ﴾ أي طوالاً شاهقات ﴿ لها طلع نضيد ﴾ أي منضود .

(١١) ﴿ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾

﴿ رزقاً للعباد ﴾ أي للخلق ﴿ وأحيينا به بلدة ميتاً ﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة ، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها ، وذلك بعد ما كانت لا نبات فيها ، فأصبحت تهتز خضراء ، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك ، كذلك يحي الله الموتى ، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبَعث ، كقوله عز وجل ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقوله سبحانه ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير ﴾ وقال سبحانه ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ﴾ .

(١٢) ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ (١٤)

يقول تعالى متهدداً لكفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم من النقمات والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح ، وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود. وعاد وفرعون وإخوان لوط﴾ وهم أمته الذين بعث اليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور ، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض ، وأحال أرضهم بحيرة منتنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق . ﴿ وأصحاب الأيكة ﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿ وقوم تبع ﴾ وهو اليماني ﴿ كل كذب الرسل ﴾ أي كل من هذه الأمم ، وهؤلاء القرون كذبوا رسولهم ، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل ، كقوله جل وعلا ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ أي وإنما جاءهم رسول واحد ، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم . ﴿ فحق وعيد ﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال ، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم ، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك .

(١٥) ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

﴿ أفعيينا بالخلق الأول ﴾ أي أفعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شكٍّ من الإعادة ﴿ بل

هم في لبس من خلق جديد ﴾ والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا ، والإعادة أسهل ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

(١٦) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر . وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل » ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه ، ومن تأوله على العلم فإنما فسر لئلا يلزم حلول أو اتحاد ، وهما منفيان بالإجماع . تعالى الله وتقدس ، ولكن اللفظ لا يقتضيه ، فإنه لم يقل : وأنا أقرب إليه من حبل الوريد ، وإنما قال ﴿ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ كما قال في المحتضر ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ يعني ملائكته ، وكما قال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ فالملائكة نزلت بالذكر ، وهو القرآن باذن الله عز وجل ، وكذلك الملائكة اقرب إلى الإنسان من حبل وريده .

(١٧) ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾

﴿ إذ يتلقى المتلقيان ﴾ يعني الملكين اللّذين يكتبان عمل الإنسان ﴿ عن اليمين وعن الشمال قعيد ﴾ أي مترصد .

(١٨) ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

﴿ ما يلفظ ﴾ أي ابن آدم ﴿ من قول ﴾ أي ما يتكلم من كلمة ﴿ إلا لديه رقيب عتيد ﴾ أي إلا ولها من يرقبها ويكتبها ، لا يترك كلمة ولا حركة .

(١٩) ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾

﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق ، أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه ﴿ ذلك ما كنت منه تحيد ﴾ أي هذا هو الذي كنت تعز منه قد جاءك ، فلا محيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص . والمخاطب الإنسان من حيث هو ، وقيل : الكافر ، وقيل : غير ذلك .

(٢٠) ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴾

﴿ ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد ﴾ وذلك يوم القيامة ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته ، وانتظر أن يؤذن له » قالوا : يا رسول الله كيف نقول ؟ قال ﷺ : « قولوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فقال القوم : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(٢١) ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾

﴿ وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد ﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر ، وملك يشهد عليه بأعماله .

(٢٢) ﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾

﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ والمخاطب بذلك الكافر ، أو كل أحد من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام ، أو المخاطب بذلك النبي ﷺ ، والمعنى على هذا لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك ، فكشفنا عنك غطاءك بانزاله اليك فبصرك اليوم حديد ، والظاهر من السياق خلاف هذا ، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو . والمراد بقوله ﴿ لقد كنت في غفلة من هذا ﴾ يعني من هذا اليوم ﴿ فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾ أي قوي ، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك ، قال الله تعالى ﴿ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا ﴾ وقال عز وجل ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون ﴾ .

(٢٣) ﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل ، ويقول ﴿ هذا ما لدي عتيد ﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان . قال مجاهد : هذا كلام السائق ، يقول : هذا ابن آدم الذي وكلتني به قد أحضرته ، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد ، وله اتجاه وقوة . فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل ، فيقول :

(٢٤) ﴿ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴾

﴿ ألقيافي جهنم كل كفار عنيد ﴾ ولغة بعض العرب يخاطبون المفرد بالتثنية ، كقوله :

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر ... وإن تتركاني أحم عرضاً ممنعاً

والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد ، فالسائق أحضره إلى عرضة الحساب ، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بالقائه في نار جهنم وبئس المصير ﴿ كل كفار ﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿ عنيد ﴾ معاند للحق ، معارض له بالباطل مع علمه بذلك .

﴿٢٥﴾ ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴾

﴿ مناع للخير ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق ، ولا بر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿ معتد ﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد . قال قتادة : معتد في منطقه وسيره وأمره . ﴿ مريب ﴾ أي شاك في أمره ، مريب لمن نظر في أمره .

﴿٢٦﴾ ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾

﴿ الذي جعل مع الله إلٰهاً آخر ﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿ فألقياه في العذاب الشديد ﴾ .

﴿٢٧﴾ ﴿ * قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾

﴿ قال قرينه ﴾ هو الشيطان الذي وكل به ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً ، يتبرأ منه شيطانه فيقول ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ أي ما أضللته ﴿ ولكن كان في ضلال بعيد ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً ، قابلاً للباطل ، معانداً للحق .

﴿٢٨﴾ ﴿ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾

﴿ قال لا تختصموا لدي ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن ، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول للإنسي : ربنا هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني ، ويقول الشيطان ﴿ ربنا ما أطغيته ﴾ فيقول الله لهما ﴿ لا تختصموا لدي ﴾ أي عندي ﴿ وقد قدمت إليكم بالوعيد ﴾ أي قد أعذرت إليكم على ألسنة الرسل ، وأنزلت الكتب ، وقامت عليكم الحجج والبينات والبراهين .

﴿٢٩﴾ ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

﴿ ما يبدل القول لدي ﴾ يعني قد قضيت ما أنا قاضي ﴿ وما أنا بظلام للعبيد ﴾ أي لست أعذب احداً بذنب أحد ، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه .

﴿٣٠﴾ ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

﴿ يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ﴾ في البخاري عن النبي ﷺ « يلقى في النار فتقول : هل من مزيد ؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول : قط قط .

(٣١) ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾

﴿ وأزلفت ﴾ أي أدنيت وقربت ﴿ الجنة للمتقين ﴾ من المتقين ﴿ غير بعيد ﴾ وذلك يوم القيامة ، وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة ، وكل ما هو آت قريب .

(٣٢) ﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾

﴿ هذا ما توعدون لكل أواب ﴾ أي رجاع تائب مقلع ﴿ حفيظ ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكثه .

(٣٣) ﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾

﴿ من خشي الرحمٰن بالغيب ﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل ، كقوله ﷺ « ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » ﴿ وجاء بقلب منيب ﴾ أي ولقي الله عز وجل يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه .

(٣٤) ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴾

﴿ ادخلوها ﴾ أي الجنة ﴿ بسلام ﴾ أي سلموا من عذاب الله عز وجل ، وسلم عليهم ملائكة الله ﴿ ذلك يوم الخلود ﴾ أي يخلدون في الجنة ، فلا يموتون أبداً ، ولا يظعنون أبداً ، ولا يبغون عنها حولاً .

(٣٥) ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا ۖ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾

﴿ لهم ما يشاؤ ون فيها ﴾ أي مهما اختاروا وجدوا ومن أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم ﴿ ولدينا مزيد ﴾ كقوله سبحانه ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ أي والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم .

(٣٦) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴾

يقول تعالى : وكم أهلكنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿ من قرن هم أشد منهم بطشاً ﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، ولهذا قال تعالى ههنا : ﴿ فنقبوا في البلاد ﴾ ضربوا في الأرض يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم

بها ﴿ هل من محيص ﴾ أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره ، وهل نفعهم ما جمعوه ، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل ، فأنتم أيضاً لا مفر لكم ، ولا محيد ولا مناص ولا محيص .

(٣٧) ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾

﴿ إن في ذلك لذكرى ﴾ أي لعبرة ﴿ لمن كان له قلب ﴾ أي لب يعي به ، أي عقل ﴿ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ أي استمع الكلام فوعاه ، وتعقله بعقله ، وتفهمه بلبه .

(٣٨) ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

﴿ ولقد خلقنا السموات . . . ﴾ فيه تقرير للمعاد ، لأن من قدر على خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن قادر على أن يحي الموتى بطريق الأولى والأحرى ﴿ وما مسنا من لغوب ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب .

(٣٩) ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾

﴿ فاصبر على ما يقولون ﴾ يعني المكذبين ، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسراء ثنتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر ، وقبل الغروب في وقت العصر ، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً ، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه ، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسراء بخمسَ صلوات ، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب .

(٤٠) ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾

﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أي فصل له ، كقوله ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ ﴿ وأدبار السجود ﴾ هو التسبيح بعد الصلاة .

(٤١) ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾

﴿ واستمع يوم ينادي المناد من مكان قريب ﴾ يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء .

(٤٢) ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴾

﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ﴿ ذلك يوم الخروج ﴾ أي من الأجداث .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴾ ﴿٤٣﴾

﴿ إنا نحن نحي ونميت وإلينا المصير ﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، وإليه مصير الخلائق كلهم ، فيجازي كلاً بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿ يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً ﴾ وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء ، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرافيل فينفخ في الصور ، وقد أودعت الأرواح في ثقب الصور ، فإذا نفخ إسرافيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين السماء والأرض فيقول الله عز وجل : وعزتي وجلالي لترجعين : كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره ، فترجع كل روح إلى جسدها ، فتدب فيه كما يدب السم في اللديغ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ . وفي صحيح مسلم « أنا أول من تنشق عنه الأرض » ﴿ ذلك حشر علينا يسير ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا ، يسيرة لدينا ، كما قال جل جلاله ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وقال سبحانه ﴿ ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة ﴾ .

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ نحن أعلم بما يقولون ﴾ أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب ، فلا يهولنك ذلك ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى ، وليس ذلك مما كلفت به ، أو لا تتجبر عليهم ، والقول الأول أولى . ﴿ فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك ، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده ، ويرجو وعده .

* * *



تفسير سُورَةِ الذاريات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴾ (٤)

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال : لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى ، ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنبأتكم بذلك ، فقام إليه ابن الكواء فقال : يا أمير المؤمنين ، ما معنى قوله تعالى ﴿ والذاريات ذرواً ﴾ قال : الريح ، قال ﴿ فالحاملات وقراً ﴾ قال : السحاب ، قال ﴿ فالجاريات يسراً ﴾ قال : السفن ، قال ﴿ فالمقسمات أمراً ﴾ قال : الملائكة .

(٥) ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ (١١)

﴿ إنما توعدون لصادق ﴾ أي لخبر صادق . ﴿ وإن الدين ﴾ وهو الحساب ﴿ لواقع ﴾ أي لكائن لا محالة ﴿ والسماء ذات الحبك ﴾ ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء ، أو ذات طرائق . ﴿ إنكم لفي قول مختلف ﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسل ﴿ لفي قول مختلف ﴾ أي مضطرب ، لا يلتئم ولا يجتمع ، أو ما بين مصدق ومكذب به . ﴿ يؤفك عنه من أفك ﴾ أي إنما يروج على من هو ضال في نفسه ، لأنه قول باطل ، إنما ينقادله ، ويضل بسببه ، ويؤفك عنه من هو مأفوك ضال غمر لا فهم له ، كما قال تعالى ﴿ فإنكم وما تعبدون . ما أنتم عليه بفاتنين . إلا من هو صال الجحيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ قتل الخراصون ﴾ الكذابون ، كقوله تعالى ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ والخراصون هم الذين يقولون : لا نبعث ولا يوقنون أو ﴿ قتل الخراصون ﴾ لعن المرتابون ﴿ الذين هم في غمرة ساهون ﴾ الذين هم في الكفر والشك غافلون لاهون .

(١٢) ﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (١٤)

﴿ يسألون أيان يوم الدين ﴾ وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً . ﴿ يوم هم على النار يفتنون ﴾ يعذبون ، أو كما يفتن الذهب على النار ، أو يحرقون . ﴿ ذوقوا فتنتكم ﴾ عذابكم ، أو حريقكم ﴿ هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ أي يقال لهم : ذلك تقريعاً وتحقيراً وتصغيراً .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن المتقين لله عز وجل أنهم يوم معادهم يكونون في جنات وعيون بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من العذاب والنكال والحرق والاغراق ﴿ آخذين ما آتاهم ربهم ﴾ أي عاملين بما آتاهم الله من الفرائض ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴾ أي قبل أن يفرض عليهم الفرائض كانوا محسنين في الأعمال أيضاً ، وهذا تفسير ابن جرير ، وفيه نظر ، لذلك فإن قوله عز وجل ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك ﴾ أي في الدار الدنيا ﴿ محسنين ﴾ كقوله جل وعلا ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ ثم إنه تعالى بين إحسانهم في العمل فقال جل وعلا ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ قيل إن ﴿ ما ﴾ في قوله ﴿ ما يهجعون ﴾ نافية ، تقديره كانوا قليلاً من الليل لا يهجعون ، وقيل : ﴿ ما ﴾ مصدرية تقديره كانوا قليلاً من الليل هجوعهم ونومهم . ﴿ وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ يصلون ، أو يؤخرون الاستغفار إلى الأسحار ، كما قال تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ ولما وصفهم بالصلاة ثنى بوصفهم بالزكاة والبر والصلة فقال ﴿ وفي أموالهم حق ﴾ أي جزء مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم ، أما السائل فمعروف، وهو الذي يتبدى بالسؤال ، وله حق . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ « للسائل حق وإن جاء على ظهر فرس » وأما المحروم فهو المحارف الذي ليس له في الإسلام سهم ، أي لا سهم له في بيت المال ، ولا كسب له ، ولا حرفة يتقوت منها . وفي الحديث « ليس المسكين بالطواف الذي ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه » وهذا الحديث قد أسنده الشيخان في صحيحيهما . ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ أي فيها من الآيات الدالة على عظمة

الخالق وقدرته الباهرة مما قد ذرأ فيها من صنوف النباتات والحيوانات والمهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار واختلاف ألسنة الناس وألوانهم ، وما جبلوا عليه من الارادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم ، والحركات والسعادة والشقاوة ، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو من أعضائهم في المحل الذي هو محتاج إليه فيه ، ولهذا قال ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ فمن تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة ﴿ وفي السماء رزقكم ﴾ يعني المطر ﴿ وما توعدون ﴾ يعني الجنة . ﴿ فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴾ يقسم تعالى بنفسه الكريمة أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة ، وهو حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه ، كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ ﴿٢٦﴾

﴿ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ﴾ أي الذين أرصد لهم الكرامة . ﴿ قالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون ﴾ ﴿ فراغ إلى أهله ﴾ أي انسل خفية في سرعة ﴿ فجاء بعجل سمين ﴾ أي من خيار ماله ، وفي الآية الأخرى ﴿ فما لبث أن جاء بعجل حنيذ ﴾ أي مشوي على الرضف .

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ فقربه إليهم ﴾ أي أدناه منهم ﴿ قال ألا تأكلون ؟ ﴾ تلطف في العبارة ، وعرض حسن ، وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة ، فإنه جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وبسرعة ، ولم يمتن عليهم أولاً فقال : نأتيكم بطعام ، بل جاء به بسرعة وخفاء ، وأتى بأفضل ما وجد من ماله ، وهو عجل فتي سمين مشوي ، ﴿ فقربه إليهم ﴾، لم يضعه وقال : اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم ، ولم يأمرهم أمراً يشق على سامعه بصيغة الجزم ، بل قال ﴿ ألا تأكلون ؟ ﴾ على سبيل العرض والتلطف ، كما يقول القائل اليوم : إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل . ﴿ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم ﴾

فالبشارة له هي بشارة لها ، لأن الولد منهما ، فكل منهما بشر به ﴿ فأقبلت امرأته في صرة ﴾ أي في صرخة عظيمة ورنة . ﴿ فصكت وجهها ﴾ أي ضربت بيدها على جبينها تعجباً كما تتعجب النساء من الأمر الغريب ﴿ وقالت عجوز عقيم ﴾ أي كيف ألد ، وأنا عجوز ، وقد كنت حال الصبا عقيماً لا أحبل ؟ ﴿ قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴾ أي عليم بما يستحقونه من الكرامة ، حكيم في أقواله وأفعاله .

﴿ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟) أي ما شأنكم ، وفيم جئتم ؟ ﴿ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين ﴾ يعنون قوم لوط ﴿ لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة ﴾ أي معلمة ﴿ عند ربك للمسرفين ﴾ أي مكتتبة عنده بأسمائهم ، كل حجر عليه اسم صاحبه ﴿ فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين ﴾ وهم لوط وأهل بيته إلا امرأته ﴿ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾ احتج بهذه من ذهب إلى رأي المعتزلة ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان والإسلام ، لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين ، وهذا الاستدلال ضعيف لأن هؤلاء كانوا قوماً مؤمنين ، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس ، فاتفق الاسمان ههنا لخصوصية الحال ، ولا يلزم ذلك في كل حال . ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم ﴾ أي جعلناها عبرة بما أنزلنا بهم من العذاب والنكال ، وحجارة السجيل ، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة ، ففي ذلك عبرة للمؤمنين ﴿ الذين يخافون العذاب الأليم ﴾ .

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين ﴾ أي بدليل باهر وحجة قاطعة ﴿ فتولى بركنه ﴾ أي فأعرض فرعون عما جاءه به موسى من الحق المبين استكباراً وعناداً . قال مجاهد : تعزز بأصحابه ﴿ وقال ساحر أو مجنون ﴾ أي لا يخلو أمرك فيما جئتني به من أن تكون ساحراً أو مجنوناً ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم ﴾ أي ألقيناهم ﴿ في اليم ﴾ وهو البحر

﴿ وهو مليم ﴾ أي وهو ملوم جاحد فاجر معاند .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ ﴿٤٦﴾

﴿ وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾ أي المفسدة التي لا تنتج شيئاً ﴿ ما تذر من شيء أتت عليه ﴾ أي مما تفسده الريح ﴿ إلا جعلته كالرميم ﴾ أي كالشيء الهالك البالي . ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » ﴿ وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين ﴾ إلى وقت فناء آجالكم ﴿ فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ﴾ وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام فجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بكرة النهار ﴿ فما استطاعوا من قيام ﴾ أي من هرب ولا نهوض ﴿ وما كانوا منتصرين ﴾ أي لا يقدرون على أن ينتصروا مما هم فيه ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أي وأهلكنا قوم نوح من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ .

﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿٥١﴾

يقول تعالى منبهاً على خلق العالم العلوي والسفلي ﴿والسماء بنيناها﴾ أي جعلناها سقفاً محفوظاً رفيعاً ﴿ بأيد ﴾ أي بقوة ﴿ وإنا لموسعون ﴾ أي قد وسعنا أرجاءها ، ورفعناها بغير عمد حتى استقلت كما هي ﴿ والأرض فرشناها ﴾ أي جعلناها فراشاً للمخلوقات ﴿ فنعم الماهدون ﴾ أي وجعلناها مهداً لأهلها ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ أي جميع المخلوقات أزواج : سماء وأرض ، وليل ونهار ، وشمس وقمر ، وبر وبحر ، وضياء وظلام ، وإيمان وكفر ، وموت وحياة ، وشقاء وسعادة ، وجنة ونار ، حتى الحيوانات والنباتات ، ولهذا قال تعالى ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له ﴿ ففروا إلى الله ﴾ أي الجأوا إليه ، واعتمدوا في أموركم عليه ﴿ إني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ أي لا تشركوا به شيئاً ﴿ إني لكم منه نذير مبين ﴾ .

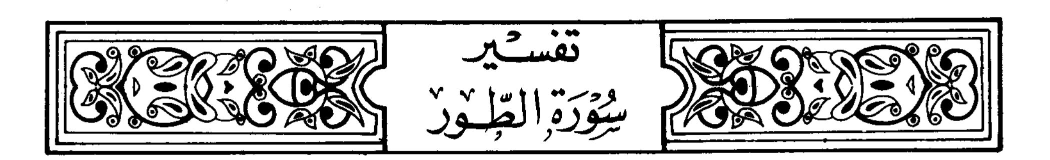
﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ ﴿٥٣﴾

يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ : وكما قال لك هؤلاء المشركون قال المكذبون الأولون لرسلهم ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به ؟ ﴾ أي أوصى بعضهم بعضاً بهذه المقالة ؟ ﴿ بل هم قوم طاغون ﴾ أي لكن هم قوم طغاة ، تشابهت قلوبهم ، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿ فتول عنهم ﴾ أي فأعرض عنهم يا محمد ﴿ فما أنت بملوم ﴾ يعني فما نلومك على ذلك ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ أي إنما تنتفع بها القلوب المؤمنة ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ أي إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي ، لا لاحتياجي إليهم ، أو إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً ، أو إلا ليعرفون ﴿ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴾ ومعنى الآية أنه تبارك وتعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له ، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء ، ومن عصاه عذبه أشد العذاب ، وأخبر أنه غير محتاج إليهم ، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم ، فهو خالقهم ورازقهم . روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ ، قال الله تبارك وتعالى « يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك » ورواه الترمذي وابن ماجة . وروى الإمام أحمد أن حبة وسواة ابني خالد ، يقولون : أتينا رسول الله ﷺ ، وهو يعمل عملاً ، أو يبني بناء ، فأعناه عليه ، فلما فرغ دعا لنا وقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهز هزت رؤوسكما ، فإن الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يعطيه الله ويرزقه » . وقد ورد في بعض الكتب الإلٓهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب إليك من

كل شيء ﴿ فإن للذين ظلموا ذنوباً ﴾ أي نصيباً من العذاب ﴿ مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون ﴾ أي فلا يستعجلوا ذلك ، فإنه واقع لا محالة ﴿ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ يعني يوم القيامة .



تفسير سُورَةِ الطُّورْ

روى مالك عن الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجاه من طريق مالك . وروى البخاري عن أم سلمة قالت : شكوت إلى رسول الله ﷺ أني اشتكي فقال : « طوفي من وراء الناس وأنت راكبة » فطفت ، ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾ ﴿٣﴾

يقسم تعالى بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة أن عذابه واقع بأعدائه، وأنه لا دافع له عنهم ، فالطور هو الجبل الذي يكون فيه أشجار ، مثل الذي كلم الله عليه موسى وأرسل منه عيسى ، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طوراً ، إنما يقال له : جبل ﴿ وكتاب مسطور ﴾ قيل : هو اللوح المحفوظ ، وقيل : الكتب المنزلة المكتوبة التي تقرأ على الناس جهاراً ، ولهذا قال : ﴿ في رق منشور ﴾ .

﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ

إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٦﴾

﴿ والبيت المعمور ﴾ ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال في حديث الاسراء بعد مجاوزته إلى السماء السابعة « ثم رفع بي إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً لا يعودون إليه آخر ما عليهم » يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، كذلك ذاك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة ، ولهذا وجد إبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور لأنه باني الكعبة الأرضية ، والجزاء من جنس العمل ، وهو بحيال الكعبة ، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها ، ويصلون إليه ، والذي في السماء الدنيا يقال له : بيت العزة . ﴿ والسقف المرفوع ﴾ عن علي رضي الله عنه : يعني السماء : ثم تلا ﴿ وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون ﴾ أو هو العرش ، فإنه سقف لجميع المخلوقات ﴿ والبحر المسجور ﴾ هو الماء الذي تحت العرش الذي ينزل الله منه المطر الذي تحيا به الأجساد في قبورها يوم معادها ، وقال الجمهور : هو هذا البحر . والمراد بالمسجور أنه يوقد يوم القيامة ناراً ، كقوله ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ أي أضرمت فتصير ناراً تتأجج محيطة بأهل الموقف ، أو المسجور المملوء ، أو الفارغ ، أو الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها . روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله ﷺ قال : « ليس من ليلة إلا والبحر يشرف فيها ثلاث مرات يستأذن الله تعالى أن ينفضخ عليهم فيكفه الله عز وجل » . ﴿ إن عذاب ربك لواقع ﴾ هذا هو المقسم عليه ، أي لواقع بالكافرين ﴿ ما له من دافع ﴾ أي ليس له دافع يدفعه عنهم إذا أراد الله بهم ذلك . روى ابن أبي الدنيا أن عمر خرج يعس المدينة ذات ليلة فمر بدار رجل من المسلمين فوافقه قائماً يصلي فوقف يستمع قراءته فقرأ ﴿ والطور ـ حتى بلغ ـ إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع ﴾ قال : قسم ورب الكعبة حق ، فنزل عن حماره واستند إلى حائط فمكث ملياً ، ثم رجع إلى منزله ، فمكث شهراً يعوده الناس ، لا يدرون ما مرضه ؟ رضي الله عنه . ﴿ يوم تمور السماء موراً ﴾ تتحرك تحريكاً ﴿ وتسير الجبال سيراً ﴾ أي تذهب فتصير هباء منبثاً ، وتنسف نسفاً ﴿ فويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي ويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ، ونكاله بهم وعقابه لهم ﴿ الذين هم في خوض يلعبون ﴾ أي هم في الدنيا يخوضون في الباطل ، ويتخذون دينهم هزواً ولعباً ﴿ يوم يدعون ﴾ أي يدفعون ويساقون ﴿ إلى نار جهنم دعاً ﴾ أي يدفعون فيها دفعاً ﴿ هذه النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ أي تقول لهم الزبانية ذلك تقريعاً وتوبيخاً ﴿ أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها ﴾ أي ادخلوها دخول من تغمره من جميع جهاتها ﴿ فاصبروا أو

لا تصبروا سواء عليكم ﴾ أي سواء صبرتم على عذابها ونكالها أم لم تصبروا ، لا محيد لكم عنها ، ولا خلاص لكم منها ﴿ إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي ولا يظلم الله أحداً ، بل يجازي كلاً بعمله .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

أخبر الله تعالى عن حال السعداء فقال ﴿ إن المتقين في جنات ونعيم ﴾ وذلك بضد ما أولئك فيه من العذاب والنكال ﴿ فاكهين بما آتاهم ربهم ﴾ أي يتفكهون بما آتاهم الله من النعيم من أصناف الملاذ من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب وغير ذلك ﴿ ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ﴾ أي وقد نجاهم من عذاب النار ، وتلك نعمة مستقلة بذاتها على حدتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة التي فيها من السرر ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي هذا بذاك تفضلاً منه وإحساناً ﴿ متكئين على سرر مصفوفة ﴾ السرر في الحجال . روى ابن أبي حاتم أن رسول الله قال : « إن الرجل ليتكىء المتكأ مقدار أربعين سنة ، ما يتحول عنه ولا يمله ما اشتهت نفسه ولذت عينه » ﴿ مصفوفة ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ، كقوله ﴿ على سرر متقابلين ﴾ ﴿ وزوجناهم بحور عين ﴾ أي وجعلنا لهم قرينات صالحات ، وزوجات حساناً من الحور العين .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن فضله وكرمه وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة ، وإن لم يبلغوا عملهم لتقر أعين الآباء

بالأبناء عندهم في منازلهم فيجمع بينهم على أحسن الوجوه بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ، ولا ينقص ذلك من عمله ومنزلته للتساوي بينه وبين ذاك . ولهذا قال ﴿ ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء ﴾ عن ابن عباس قال : إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته ، وإن كانوا دونه في العمل لتقربهم عينه ، ثم قرأ ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان . . ﴾ وهذا من فضله تعالى على الابناء ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء ببركة دعا الأبناء فقد روى الامام احمد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة ، فيقول : يا رب ، أنى إلي هذه ؟ فيقول : باستغفار ولدك لك » إسناده صحيح ، وله شاهد في صحيح مسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ولما أخبر سبحانه عن مقام الفضل ، وهو رفع درجة الذرية الى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك أخبر عن مقام العدل ، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد فقال تعالى ﴿ كل امرىء بما كسب رهين ﴾ أي مرتهن بعمله ، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس ، سواء كان أباً او ابناً . وقوله ﴿ وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون﴾ أي وألحقناهم بفواكه ولحوم من أنواع شتى مما يستطاب ويشتهى . وقوله ﴿ يتنازعون فيها كأساً ﴾ أي يتعاطون فيها كأساً أي من الخمر . ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ أي لا يتكلمون فيها بكلام لاغ ، أي هذيان ، واثم أي فحش ، كما يتكلم به الشربة من أهل الدنيا . قال ابن عباس : اللغو الباطل ، والتأثيم الكذب . فنزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها ، فنفى عنها صداع الرأس ، ووجع البطن ، وإزالة العقل بالكلية ، وأخبر أنها لا تحملهم الكلام الشيء الفارغ عن الفائدة المتضمن هذياناً وفحشاً ، وأخبر بحسن منظرها ، وطيب طعمها ومخبرها فقال ﴿ بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ﴾ وقوله ﴿ ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون ﴾ اخبار عن خدمهم وحشمهم في الجنة كأنهم اللؤلؤ الرطب المكنون في حسنهم وبهائهم ، ونظافتهم وحسن ملابسهم . وقوله تعالى (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ﴾ أي أقبلوا يتحادثون ويتساءلون عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا ، وهذا كما يتحادث أهل الشراب على شرابهم إذا أخذ فيهم الشراب بما كان من أمرهم ﴿ قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين﴾ أي كنا في الدار الدنيا، ونحن بين أهلينا خائفين من ربنا ، مشفقين من عذابه وعقابه ﴿ فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم ﴾ أي فتصدق علينا وأجارنا مما نخاف ﴿ إنا كنا من قبل ندعوه ﴾ أي نتضرع إليه فاستجاب لنا وأعطانا سؤالنا ﴿ إنه هو البر الرحيم ﴾.

﴿٢٩﴾ ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

يقول الله تعالى آمراً رسوله ﷺ بأن يبلغ رسالته إلى عباده ، وأن يذكرهم بما أنزل الله عليه ، ثم نفى عنه ما يرميه به أهل البهتان والفجور فقال ﴿ فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ﴾ أي لست بحمد الله بكاهن كما تقوله الجهلة من كفار قريش ، والكاهن الذي يأتيه الرئى من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء ﴿ ولا مجنون ﴾ وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس . ثم قال تعالى منكراً عليهم في قولهم في الرسول ﷺ ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ أي قوارع الدهر ، والمنون الموت ، ننتظره ونصبر عليه حتي يأتيه الموت فنستريح منه ومن شأنه ، قال تعالى ﴿ قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾ أي انتظروا فإني معكم ، وستعلمون لمن تكون العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿ أم تأمرهم أحلامهم بهذا ﴾ أي عقولهم تأمرهم بهذا الذي يقولون فيك من الأقاويل الباطلة التي يعلمون في أنفسهم أنها كذب وزور ﴿أم هم قوم طاغون﴾ أي والله هم قوم طاغون ضلال معاندون ، فهذا هو الذي يحملهم على ما قالوه فيك ﴿أم يقولون تقوله ؟﴾ أي اختلقه وافتراه من عند نفسه ، يعنون القرآن ، قال تعالى ﴿ بل لا يؤمنون ﴾ أي كفرهم هو الذي يحملهم على هذه المقالة .

﴿٣٤﴾ ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ أي إن كانوا صادقين في قولهم : تقوله وافتراه فليأتوا بمثل ما جاء به محمد ﷺ من هذا القرآن ، فإنهم لو اجتمعوا هم وجميع أهل الأرض من الجن والإنس ما جاؤوا بمثله ولا بعشر سور من مثله ولا بسورة من مثله .

﴿٣٥﴾ ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ

ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿٤٣﴾

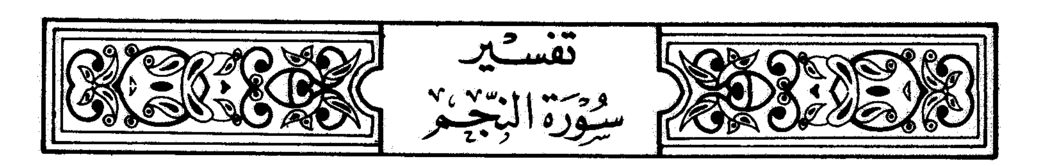
هذا المقام في إثبات الربوبية ، وتوحيد الألوهية فقال تعالى ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون ﴾ أي أوجدوا من غير موجد ؟ أم هم أوجدوا أنفسهم ، أي لا هذا ولا هذا ، بل هو الله الذي أنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً . روى البخاري عن محمد ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال : سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور ، فلما بلغ هذه الآية ، ﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون ﴾ كاد قلبي أن يطير . وهذا الحديث مخرج في الصحيحين. ﴿ أم عندهم خزائن ربك ﴾ أي أهم المتصرفون في الملك ، وبيدهم مفاتيح الخزائن ﴿ أم هم المصيطرون ﴾ أي المحاسبون للخلائق ، ليس الأمر كذلك ، بل الله عز وجل هو المالك المتصرف الفعال لما يريد ﴿ أم لهم سلم يستمعون فيه ﴾ أي مرقاة إلى الملأ الأعلى ﴿ فليأت مستمعهم بسلطان مبين ﴾ أي فليأت الذي يستمع لهم بحجة ظاهرة على صحة ما هم فيه من الفعال والمقال ، أي وليس لهم سبيل إلى سبيل ، فليسوا على شيء ، ولا لهم دليل . ثم قال منكراً عليهم فيما نسبوه إليه من البنات ، وجعلهم الملائكة إناثاً ، واختيارهم لأنفسهم الذكور على الاناث بحيث إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، هذا وقد جعلوا الملائكة بنات الله ، وعبدوهم مع الله ، فقال تعالى ﴿ أم له البنات ولكم البنون ﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد﴿ أم تسألهم أجراً ﴾ أي أجره على ابلاغك إياهم رسالة الله ، أي لست تسألهم على ذلك شيئاً ﴿ فهم من مغرم مثقلون ﴾ أي فهم من أدنى شيء يتبرمون منه ، ويثقلهم ويشق عليهم ﴿ أم عندهم الغيب فهم يكتبون ﴾ أي ليس كذلك ، فإنه لا يعلم أحد من أهل السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿ أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون ﴾ يقول تعالى أم يريد هؤلاء بقولهم هذا في الرسول وفي الدين غرور الناس ، وكيد الرسول وأصحابه ، فكيدهم إنما يرجع وباله على أنفسهم فالذين كفروا هم المكيدون ﴿ أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون ﴾ وهذا إنكار شديد على المشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد مع الله ، ثم نزه نفسه الكريمة عما يقولون ويفترون ويشركون فقال ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ ﴿٤٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين بالعناء والمكابرة للمحسوس ﴿ وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً ﴾ أي عليهم يعذبون به لما صدقوا ولما أيقنوا ، بل يقولون ﴿ هذا سحاب مركوم﴾ أي متراكم ﴿ فذرهم ﴾ أي دعهم يا محمد ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ﴾ أي لا ينفعهم كيدهم ولا مكرهم الذي استعملوه في الدنيا لا يجزي عنهم يوم القيامة شيئاً ﴿ ولا هم ينصـرون ﴾.

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ﴾ أي قبل ذلك في الدار الدنيا ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ أي نعذبهم في الدنيا ، ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون ، فلا يفهمون ما يراد بهم ، بل اذا جلى عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه ، كما جاء في الحديث « إن المنافق إذا مرض وعوفي ، مثله في ذلك كمثل البعير ، لا يدري فيما عقلوه ولا فيما أرسلوه » وفي الأثر الإلّهي : كم أعصيك ولا تعاقبني ؟ قال الله تعالى : يا عبدي ، كم أعافيك وأنت لا تدري ؟ وقوله تعالى ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا﴾ أي اصبر على أذاهم ولا تبالهم ، فإنك بمرأى منا ، وتحت كلاءتنا ، والله يعصمك من الناس . وقوله تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أي إلى الصلاة ، سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إلّه غيرك . أو ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أي من قومك من فراشك ، أو إذا أراد الرجل أن يقوم من مجلسه قال : سبحانك اللهم وبحمدك . روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن رباح أنه قال ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ﴾ أي حين تقوم من كل مجلس إن كنت أحسنت ازددت خيراً ، وإن كنت غير ذلك كان هذا كفارة له . ﴿ ومن الليل فسبحه ﴾ أي اذكره واعبده بالتلاوة والصلاة في الليل كما قال تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإدبار النجوم ﴾ هما الركعتان اللتان قبل صلاة الفجر ، فإنهما مشروعتان عند ادبار النجوم ، أي عند جنوحها للغيبوبة . وقد روى ابن سيلان عن أبي هريرة مرفوعاً « لا تدعوهما وإن طردتكم الخيل » يعني ركعتي الفجر . رواه أبو داود . وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : لم يكن رسول الله ﷺ على شيء من النوافل أشد تعاهداً منه على ركعتي الفجر ، وفي لفظ لمسلـم « ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها » .



تفسير سورة النجم

روى البخاري عن عبدالله قال : أول سورة أنزلت فيها سجدة « والنجم » قال : فسجد النبي ﷺ وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفاً من تراب فسجد عليه ، فرأيته بعد ذلك قتل كافراً ، وهو أمية بن خلف ، وقد جاء أنه عتبة بن ربيعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ (٩)

قال الشعبي وغيره : الخالق يقسم بما شاء من خلقه ، والمخلوق لا ينبغي له أن يقسم إلا بالخالق ، رواه ابن أبي حاتم . واختلف المفسرون في معنى قوله ﴿والنجم﴾، فقيل : هو الثريا إذا سقطت مع الفجر ، أو هي الزهرة ﴿ إذا هوى ﴾ إذا رمى به الشيطان ، أو هو القرآن إذا نزل ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم . وإنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . في كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ . ﴿ ما ضل صاحبكم وما غوى ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو الشهادة للرسول ﷺ بأنه راشد تابع للحق ليس بضال ، وهو الجاهل الذي يسلك غير طريق الحق بغير علم ، والغاوي هو العالم بالحق العادل عنه قصداً إلى غيره ، فنزه الله رسوله وشرعه عن مشابهة أهل الضلال كالنصارى وطرائق اليهود ، وهي علم الشيء وكتمانه والعمل بخلافه ، بل هو صلاة الله وسلامه عليه ، وما بعثه الله به من الشرع العظيم في غاية الاستقامة والاعتدال والسداد ، ولهذا قال ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾ أي ما يقول قولاً عن هوى وغرض ﴿ إن هو إلا وحي يوحى ﴾ أي إنما يقول ما أمر أن يبلغه إلى الناس كاملاً موفوراً من غير زيادة ولا نقصان ﴿ علمه شديد القوى ﴾ وهو جبريل عليه السلام ﴿ ذو مرة ﴾ أي ذو قوة ، أو ذو منظر حسن ﴿ فاستوى ﴾ يعني جبريل عليه السلام ﴿ وهو بالأفق الأعلى ﴾ يعني جبريل استوى في الأفق الأعلى . والأفق الأعلى الذي يأتي منه الصبح ،

أو هو مطلع الشمس . ﴿ ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ﴾ أي فاقترب جبريل إلى محمد لما هبط عليه إلى الأرض حتى كان بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين أي بقدرهما إذا مدا ﴿ أو أدنى ﴾ هذه الصيغة تستعمل في اللغة لاثبات المخبر عنه ونفي ما زاد عليه كقوله تعالى ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة ﴾ أي ما هي بألين من الحجارة ، بل هي مثلها ، أو تزيد عليها في الشدة والقسوة ، وكذا قوله ﴿ يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ وقوله ﴿ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون ﴾ .

(١٠) ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ في الحديث « رأيت جبريل له ستمائة جناح » ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي رأى رسول الله ﷺ جبريل عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى ﴾ عن ابن عباس : رآه بفؤاده مرتين ﴿ عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى﴾ روى الامام أحمد أنه أسرى برسول الله ﷺ فانتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء السابعة اليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها ، واليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها ، ويغشاها فراش من ذهب ، وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثاً أعطي الصلوات الخمس ، وخواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته . ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ ما ذهب يميناً ولا شمالاً ، ﴿ وما طغى ﴾ ما جاوز ما أمر به ، وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة ، فإنه ما فعل إلا ما أمر به ، ولا سأل فوق ما أعطى ﴿ لقد رآى من آيات ربه الكبرى ﴾ كقول ﴿ لنريـه من آياتنا ﴾ أي الدالة على قدرتنا وعظمتنا . وبهاتين الآيتين استدل من ذهب من أهل السنة على أن الرؤ ية تلك الليلة لم تقع ، لأنه قال ﴿ لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك .

(١٩) ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن

يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مقرعاً للمشركين في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان ، واتخاذهم لها البيوت مضاهاة للكعبة التي بناها خليل الرحمٰن عليه السلام ﴿ أفرأيتم اللات ﴾ وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله فقالوا اللات يعنون مؤنثة منه ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً ، وكانت صخرة بيضاء ، بالطائف ، تعظمها ثقيف ويفتخرون بها على من عداهم من احياء العرب. وفي البخاري قال رسول الله ﷺ «من حلف فقال في حلفه، واللات والعزى فليقل لا إلـه إلا الله ، ومن قال لصاحبه : تعال اقامرك فليتصدق » وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك ، كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية ﴿ والعزى ﴾ وكانت لبني كنانة بنخلة ، وكان سدنتها وحجابها من بني شيبان من سليم ، وقد بعث اليها رسول الله خالد بن الوليد ليهدمها . ﴿ ومناة الثالثة الأخرى ﴾ وكانت مناة بالمشلل عند قديد بين مكة والمدينة ، وكان خزاعة والأوس والخزرج في جاهليتها يعظمونها ويهلون منها للحج إلى الكعبة . وقد كانت بجزيرة العرب طواغيت أخر تعظمها العرب كتعظيم الكعبة غير هذه الثلاث التي نص عليها في كتابه العزيز ، وانما أفرد هذه بالذكر لأنها أشهر من غيرها . ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ أي أتجعلون له ولداً ، وتجعلون ولده أنثى ، وتختارون لأنفسكم الذكور ؟ فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت هذه القسمة غير عادلة ، كما قال سبحانه ﴿ تلك اذاً قسمة ضيزى ﴾ أي جور باطلة ، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً . ثم قال تعالى منكراً عليهم فيما ابتدعوه وأحدثوه من الكذب والافتراء والكفر من عبادة الأصنام وتسميتها آلهة ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤ كم ﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿ ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ أي من حجة ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ أي ليس له مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ، وإلا حظ نفوسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين ﴿ ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ أي ولقد أرسل الله اليهم الرسل بالحق المنير ، والحجة القاطعة ، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤ وهم به ولا انقادوا له . ثم قال تعالى ﴿ أم للإنسان ما تمنى ﴾ أي ليس كل من تمنى خيراً حصل له ﴿ ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ﴾ أي ما كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال ، ولا

كل من ود شيئاً يحصل له ، وفي مسند الامام أحمد قال رسول الله ﷺ « إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما يكتب له من أمنيته » وقوله ﴿ فلله الآخرة والأولى ﴾ أي انما الأمر كله لله ، مالك الدنيا والآخرة ، والمتصرف في الدنيا والآخرة فهو الذي ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ﴿ وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأصنام والأنداد عند الله ؟ وهو تعالى لم يشرع عبادتها ولا اذن فيها ، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله ، وانزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى ، وجعلهم لها نبات الله . تعالى الله عن ذلك ، ولهذا قال تعالى ﴿ وما لهم به من علم ﴾ أي ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه ، بل هو كذب وزور وافتراء ، وكفر شنيع ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ أي لا يجدي شيئاً ولا يقوم أبداً مقام الحق ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: « إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» وقوله تعالى ﴿ فأعرض عن من تولى عن ذكرنا﴾ أي أعرض عن الذي تولى عن الحق واهجره ﴿ ولم يرد الا الحياة الدنيا ﴾ أي وإنما أكثر همه ومبلغ علمه الدنيا ، فذاك هو مبلغ ما لا خير فيه ، ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك مبلغهم من العلم ﴾ أي طلب الدنيا والسعي لها هو غاية ما وصلوا اليه ، وقد روى الامام أحمد عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ «الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » وفي الدعاء المأثور « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » وقوله تعالى ﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ أي هو الخالق لجمتع المخلوقات ، والعالم بمصالح عباده ، وهو الذي يهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وذلك كله عن قدرته وعلمه وحكمته ، وهو العادل الذي لا يجور ابداً لا في شرعه ولا في قدره .

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ﴿٣١﴾

بِالْحُسْنَى ﴿٣١﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ ﴿٣٢﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه الغني عما سواه الحاكم في خلقه بالعدل ، وخلق الخلق بالحق ﴿ ليجزي الذين أساؤ وا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ أي يجازي كلاً بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، ثم فسر المحسنين بأنهم الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، أي لا يتعاطون المحرمات الكبائر ، وإن وقع منهم بعض الصغائر فإنه يغفر لهم ويستر عليهم ، كما قال ﴿ الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ﴾ وهذا استثناء منقطع لأن اللمم من صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال . روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال ابو هريرة عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين النظر ، وزنا اللسان النطق ، والنفس تمنى وتشهى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه » أخرجاه في الصحيحين . وروى ابن جرير عن ابن مسعود قال : زنا العينين النظر ، وزنا الشفتين التقبيل ، وزنا اليد البطش ، وزنا الرجلين المشي ، ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه ، فإن تقدم بفرجه كان زانياً ، وإلا فهو اللمم . قال عبد الرحمن بن نافع الذي يقال له ابن لبابة الطائفي قال : سألت أبا هريرة عن قول الله ﴿ الا اللمم ﴾ قال : القبلة والغمزة والنظرة والمباشرة ، فإذا مس الختان الختان فقد وجب الغسل ، وهو الزنا . وعن ابن عباس : اللمم هو الذي يلم بالفاحشة ثم يتوب ، وقال : قال رسول الله ﷺ :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك ما ألما ؟

وهكذا رواه الترمذي ثم قال : هذا حديث صحيح حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث زكريا بن اسحق . ﴿ إن ربك واسع المغفرة ﴾ أي رحمته وسعت كل شيء ، ومغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها .

﴿٣٣﴾ ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ ﴿٤١﴾

يقول تعالى ذاماً لمن تولى عن طاعة الله ﴿ أفرأيت الذي تولى ﴾ (فلا صدق ولا صلى

ولكن كذب وتولى) ﴿ وأعطى قليلاً وأكدى ﴾ أطاع قليلاً ثم قطعه ، كمثل القوم الذين يحفرون بئراً فيجدون في أثناء الحفر صخرة تمنعهم من تمام العمل فيقولون : أكدينا ويتركون العمل . ﴿ أعنده علم الغيب فهو يرى ؟ ﴾ أي عند هذا الذي قد أمسك يده خشية الانفاق ، وقطع معروفه ، أعنده علم الغيب أنه سينفد ما في يده حتى قد أمسك عن معروفه ، فهو يرى ذلك عياناً ، أي ليس الأمر كذلك ، وإنما أمسك عن الصدقة والمعروف والبر والصلة بخلاً وشحاً وهلعاً ، ولهذا جاء في الحديث « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذي العرش اقلالاً » وقد قال تعالى ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ وقوله تعالى ﴿ أم لم ينبأ بما في صحف موسى . وابراهيم الذي وفى ﴾ أي بلغ جميع ما أمر به أو ﴿ وفى ﴾ طاعة الله ، وأدى رسالته إلى خلقه ، ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن ﴾ فقام بجميع الأوامر ، وترك جميع النواهي ، وبلغ الرسالة على التمام والكمال ، فاستحق بهذا أن يكون للناس إماماً يقتدى به في جميع أحواله وأقواله وأفعاله . ثم شرع تعالى يبين ما كان أوحاه في صحف إبراهيم وموسى فقال ﴿ أن لا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ أي كل نفس ظلمت نفسها بكفر أو شيء من الذنوب فإنما عليها وزرها لا يحمله عنها أحد ﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾ أي كما لا يحمل عليه وزر غيره ، كذلك لا يحصل من الأجر إلا ما كسب هو لنفسه . ومن هذه الآية استنبط الشافعي رحمه الله ومن اتبعه أن القراءة لا يحصل اهداء ثوابها إلى الموتى لأنه ليس من عملهم ولا كسبهم ، ولهذا لم يندب إليه رسول الله ﷺ أمته ولا حثهم عليه ولا أرشدهم إليه بنص ولا إيماء ، ولم ينقل ذلك عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ، ولو كان خيراً لسبقونا إليه ، وباب القربات يقتصر فيه على النصوص ، ولا يتصرف فيه بأنواع الأقيسة والآراء ، فأما الدعاء والصدقة فذاك مجمع على وصولهما ، ومنصوص من الشارع عليهما . وأما الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: من ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية، أو علم ينتفع به » فهذه الثلاثة هي في الحقيقة من سعيه وكده وعمله ، كما جاء في الحديث « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وإن ولده من كسبه » والصدقة الجارية كالوقف ونحوه هي من آثار عمله ووقفه ، وقد قال تعالى ﴿ إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ والعلم الذي نشره في الناس فاقتدى به الناس بعده هو أيضاً من سعيه وعمله . وثبت في الصحيح « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل اجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً » وقوله تعالى ﴿ وأن سعيه سوف يرى ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ أي الأوفر .

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ ﴿٥٢﴾

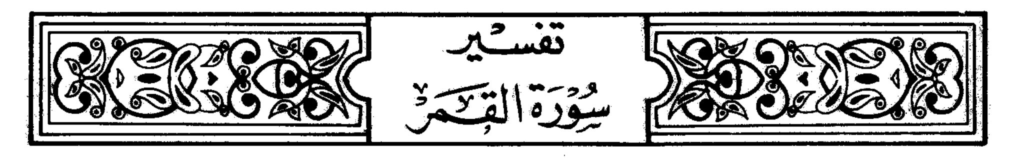
﴿ وأن إلى ربك المنتهى ﴾ أي المعاد يوم القيامة ﴿ وأنه هو أضحك وأبكى ﴾ أي خلق في عباده الضحك والبكاء وسببهما وهما مختلفان ﴿ وأنه هو أمات وأحيا ﴾ كقوله ﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ ﴿ وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى ﴾ كقوله ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى. ألم يك نطفة من مني يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأن عليه النشأة الأخرى ﴾ أي كما خلق البداءة هو قادر على الإعادة ، وهي النشأة الآخرة يوم القيامة ﴿ وأنه هو أغنى وأقنى ﴾ أي ملك عباده المال ، وجعله قنية مقيماً عندهم لا يحتاجون إلى بيعه ، فهذا تمام النعمة عليهم ﴿ وأنه هو رب الشعرى ﴾ هو هذا النجم الوقاد الذي يقال له : مرزم الجوزاء ، كانت طائفة من العرب يعبدونه ﴿ وأنه أهلك عاداً الأولى ﴾ وهم قوم هود ﴿ وثمود فما أبقى ﴾ أي دمرهم فلم يبق منهم أحداً ﴿ وقوم نوح من قبل ﴾ أي من قبل هؤلاء ﴿ إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ﴾ أي أشد تمرداً من الذين من بعدهم .

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿ والمؤتفكة أهوى ﴾ يعني مدائن لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ﴿ فغشاها ما غشى ﴾ يعني من الحجارة التي أرسلها عليهم ﴿ فبأي آلاء ربك تتمارى ﴾ أي ففي أي نعم الله عليك أيها الإنسان تمتري ؟، أو يا محمد ، والأول أولى .

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ ﴿٦٢﴾

﴿ هذا نذير ﴾ يعني محمداً ﷺ ﴿ من النذر الأولى ﴾ أي من جنسهم ، أرسل كما أرسلوا ، كما قال تعالى ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾ ﴿ أزفت الآزفة ﴾ أي اقتربت القريبة ، وهي القيامة ﴿ ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ أي لا يدفعها إذاً من دون الله أحد ، ولا يطلع على علمها سواه ، والنذير الحذر لما يعاين من الشر الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم ﴿ إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴾ وفي الحديث « أنا النذير العريان » أي الذي أعجله شدة ما عاين من الشر فبادر إلى انذار قومه فجاءهم عرياناً مسرعاً ، وهو مناسب لقوله ﴿ أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة ﴾ وقوله ﴿ أفمن هذا الحديث تعجبون ﴾ من أن يكون صحيحاً ﴿ وتضحكون ﴾ منه استهزاء وسخرية ﴿ ولا تبكون ﴾ أي كما يفعل الموقنون به ، كما أخبر عنهم ﴿ ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأنتم سامدون ﴾ عن ابن عباس قال : الغناء ، هي بحانية ، اسمد لنا ، أي غنِّ لنا ، أو ﴿ سامدون ﴾ معرضون . ثم قال تعالى آمراً لعباده بالسجود له ، والعبادة وهي المتابعة لرسوله ﷺ والتوحيد والاخلاص ﴿ فاسجدوا لله واعبدوا ﴾ أي فاخضعوا له وأخلصوا ووحدوه . روى البخاري عن ابن عباس قال : سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس . انفرد به دون مسلم .



تفسير سُورَةُ القَمَرْ

كان رسول الله ﷺ يقرأ بقاف واقتربت الساعة في الأضحى والفطر ، وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار ، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد وبدء الخلق واعادته وإثبات النبوات وغير ذلك من المقاصد العظيمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (٣)

يخبر تعالى عن اقتراب الساعة وفراغ الدنيا وانقضائها كما قال تعالى ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ وقال ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ روى الامام أحمد عن خالد بن عمير قال : خطب عتبة بن غزوان ، قال بهر . وقال قبل هذه المرة : خطبنا

رسول الله ﷺ قال : فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصرم وولدت حذاء ، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء يتصابها صاحبها ، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها فانتقلوا منها بخير ما يحضرنكم ، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عاماً ما يدرك لها قعراً ، والله لتملؤ ونه أفعجبتم ؟ والله لقد ذكر لنا أن ما بين مصراعي الجنة مسيرة أربعين عاماً ، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام » انفرد به مسلم . وروى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال : سأل أهل مكة النبي ﷺ آية فانشق القمر بمكة مرتين فقال ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ ورواه مسلم ﴿ وإن يروا آية ﴾ أي دليلاً وحجة وبرهاناً ﴿ يعرضوا ﴾ أي لا ينقادوا له ، بل يعرضون عنه ويتركونه وراء ظهورهم ﴿ ويقولوا سحر مستمر ﴾ أي ويقولون هذا الذي شاهدناه من الحجج سحر سحرنا به . ومعنى ﴿ مستمر ﴾ أي ذاهب ، أو باطل مضمحل لا دوام له ﴿ وكذبوا واتبعوا أهواءهم ﴾ أي كذبوا بالحق إذ جاءهم ، واتبعوا ما أمرتهم به آراؤهم وأهواؤهم من جهلهم وسخافة عقولهم وقوله ﴿ وكل أمر مستقر ﴾ معناه أن الخير واقع بأهل الخير ، والشر واقع بأهل الشر . قال مجاهد : ﴿ كل أمر مستقر ﴾ أي يوم القيامة .

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ ﴿٥﴾

﴿ ولقد جاءهم من الأنباء ﴾ أي من الأخبار عن قصص الأمم المكذبين بالرسل ، وما حل بهم من العقاب والنكال والعذاب مما يتلى عليهم في هذا القرآن ﴿ ما فيه مزدجر ﴾ أي ما فيه واعظ لهم عن الشرك والتمادي على التكذيب . ﴿ حكمة بالغة ﴾ أي في هدايته تعالى ﴿ فما تغني النذر ﴾ يعني أي شيء تغني النذر عمن كتب الله عليه الشقاوة ، وختم على قلبه ؟ فمن الذي يهديه من بعد الله ؟ وهذه الآية كقوله الله تعالى ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ وقوله تعالى ﴿ فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ ﴿٨﴾

يقول تعالى : فتول يا محمد عن هؤلاء الذين إذا رأوا آية يعرضوا ويقولوا هذا سحر مستمر ، أعرض عنهم وانتظرهم ﴿ يوم يدع الداع إلى شيء نكر ﴾ أي إلى شيء منكر فظيع ، وهو موقف الحساب ، وما فيه من البلاء ، بل والزلزال والأهوال ﴿ خشعاً أبصارهم ﴾ أي ذليلة أبصارهم ﴿ يخرجون من الأجداث ﴾ وهي القبور ﴿ كأنهم جراد

منتشر ﴾ أي كأنهم في انتشارهم وسرعة سيرهم إلى موقف الحساب إجابة للداعي جراد منتشر في الآفاق ، ولهذا قال ﴿ مهطعين ﴾ أي مسرعين ﴿ إلى الداع ﴾ لا يخالفون ولا يتأخرون ﴿ يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ أي يوم شديد الهول ، عبوس قمطرير ﴿ فذلك يوم عسير . على الكافرين غير يسير ﴾ .

﴿ * كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (١٧)

﴿ كذبت ﴾ قبل قومك يا محمد ﴿ قوم نوح فكذبوا عبدنا ﴾ أي صرحوا له بالتكذيب ، واتهموه بالجنون ﴿ وقالوا مجنون وازدجر ﴾ أي استطير جنوناً ، أو انتهروه وزجروه وتواعدوه ﴿ لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴾ وهذا متوجه حسن ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ﴾ أي إني ضعيف عن هؤلاء ، وعن مقاومتهم فانتصر أنت لدينك . قال الله تعالى ﴿ ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ﴾ هو الكثير ﴿ وفجرنا الأرض عيوناً ﴾ أي نبعث جميع أرجاء الأرض حتى التنانير التي هي محال النيران تبعث عيوناً ﴿ فالتقى الماء ﴾ أي من السماء والأرض ﴿ على أمر قد قدر ﴾ أي أمر مقدر ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودسر ﴾ هي المسامير ، وواحدها دسار ، ويقال : دسير ، كما يقال : حبيك وحباك والجمع حبك . أو الدسر أضلاع السفينة ، ﴿ تجري بأعيننا ﴾ أي بأمرنا ، بمرأىً منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿ جزاء لمن كان كفر ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم بالله ، وانتصاراً لنوح عليه السلام ﴿ ولقد تركناها آية ﴾ أي أبقى الله سفينة نوح حتى ادركها أول هذه الأمة ، والظاهر أن المراد من ذلك جنس السفن ، كقوله تعالى ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي فهل من يتذكر ويتعظ ﴿ فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي كيف كان عذابي لمن كفر بي وكذب رسلي ، ولم يتعظ بما جاءت به نذري ، وكيف انتصرت لهم ،

وأخذت لهم بالثأر ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر ﴾ أي سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه لمن أراده ، ليتذكر الناس ، كما قال تعالى ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ﴾ وقال تعالى ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً ﴾ .

﴿١٨﴾ ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ﴿٢٢﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم هود أنهم كذبوا رسولهم أيضاً كما صنع قوم نوح ، وأنه تعالى أرسل ﴿ عليهم ريحاً صرصراً ﴾ وهي الباردة الشديدة البرد ﴿ في يوم نحس ﴾ أي عليهم ﴿ مستمر ﴾ عليهم نحسه ودماره ، لأنه يوم اتصل فيه عذابهم الدنيوي بالأخروي ﴿ تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر ﴾ وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه فيسقط إلى الأرض فتثلغ رأسه ، فيبقى جثة بلا رأس ، ولهذا قال ﴿ كأنهم أعجاز نخل منقعر فكيف كان عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

﴿٢٣﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ ﴿٣١﴾

وهذا إخبار عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم صالحاً ﴿ فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذاً لفي ضلال وسعر ﴾ يقولون لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا ، ثم تعجبوا من القاء الوحي عليه خاصة من دونهم ، ثم رموه بالكذب فقالوا ﴿ بل هو كذاب أشر ﴾ أي متجاوز في حد الكذب . قال تعالى ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ وهذا تهديد لهم ، ووعيد أكيد . ثم قال تعالى ﴿ إنا مرسلو الناقة فتنة لهم ﴾ أي اختباراً لهم ، أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء طبق ما سألوا لتكون حجة عليهم في تصديق

صالح عليه السلام فيما جاءهم به . ثم قال تعالى آمراً لعبده ورسوله صالح عليه السلام : ﴿ فارتقبهم واصطبر ﴾ أي انتظر ما يؤول إليه أمرهم ، واصبر عليهم فإن العاقبة لك ، والنصر في الدنيا والآخرة ﴿ ونبئهم أن الماء قسمة بينهم ﴾ أي يوم لهم ويوم للناقة ، كقوله تعالى ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ وقوله تعالى ﴿ كل شرب محتضر ﴾ قال مجاهد : إذا غابت حضروا الماء ، وإذا جاءت حضروا اللبن . ثم قال تعالى ﴿ فنادوا صاحبهم ﴾ هو عاقر الناقة ، واسمه قدار بن سالف ، وكان أشقى قومه كقوله تعالى ﴿ إذا نبعث أشقاها ﴾ ﴿ فتعاطى ﴾ أي حسر ﴿ فعقر . فكيف كان عذابي ونذر ﴾ أي فعاقبتهم فكيف كان عقابي لهم على كفرهم بي ، وتكذيبهم رسولي ﴿ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر ﴾ أي فبادوا عن آخرهم ، لم تبق منهم باقية ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد يبسى الزرع والنبات . والمحتظر : هو المرعي بالصحراء حين ييبس ويحترق وتسفيه الريح .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن قوم لوط كيف كذبوا رسولهم وخالفوه ، وارتكبوا المكروه من اتيان الذكور ، وهي الفاحشة التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، ولهذا أهلكهم الله هلاكاً لم يهلكه أمة من الأمم، فإنه تعالى أمر جبريل عليه السلام فحمل مدائنهم حتى وصل بها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسلها ، وأتبعت بحجارة من سجيل منضود ، ولهذا قال ههنا : ﴿ إنا أرسلنا عليهم حاصباً ﴾ وهي الحجارة ﴿ إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴾ أي خرجوا من آخر الليل فنجوا مما أصاب قومهم ولم يؤمن بلوط من قومه أحد ، ولا رجل واحد ، حتى ولا امرأته ، فقد أصابها ما أصاب قومها ، وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء ، ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك نجزي من شكر . ولقد أنذرهم بطشتنا ﴾ أي ولقد كان قبل حلول العذاب بهم قد أنذرهم بأس الله وعذابه ، فما التفتوا إلى ذلك ، ولا أصغوا إليه ، بل شكوا فيه ، وتماروا به ﴿ ولقد

راودوه عن ضيفه ﴾ وذلك ليلة ورد عليه جبريل وميكائيل وإسرافيل في صورة شباب مرد حسان محنة من الله بهم ، فأضافهم لوط عليه السلام ، وبعثت امرأته العجوز السوء إلى قومها فأعلمتهم بأضياف لوط ، فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان ، فأغلق لوط دونهم الباب ، فجعلوا يحاولون كسر الباب ، وذلك عشية ، ولوط عليه السلام يدافعهم ، ويمانعهم دون أضيافه ويقول لهم ﴿ هؤلاء بناتي ﴾ يعني نساءهم ﴿ إن كنتم فاعلين . قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق ﴾ أي ليس لنا فيهن أرب ﴿ وإنك لتعلم ما نريد ﴾ فلما اشتد الحال ، وأبوا الا الدخول خرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم ، يقال : إنها غارت من وجوههم ، وقيل : إنه لم تبق لهم عيون بالكلية ، فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان ، ويتوعدون لوطاً عليه السلام إلى الصباح ، قال تعالى ﴿ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴾ أي لا محيد لهم عنه ، ولا انفكاك لهم منه ﴿ فذوقوا عذابي ونذر . ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ ﴾

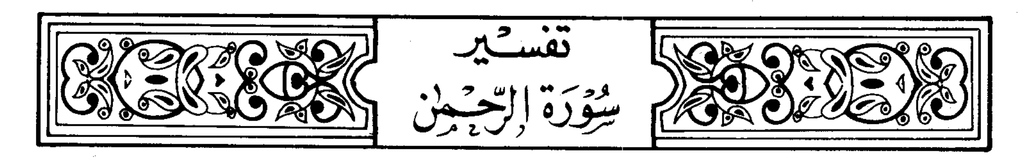
يقول تعالى مخبراً عن فرعون وقومه إنهم جاءهم رسول الله موسى وأخوه هارون بالبشارة إن آمنوا ، والنذارة إن كفروا ، وأيدهما بمعجزات عظيمة ، وآيات متعددة فكذبوا بها ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، أي فأبادهم الله ولم يبق منهم مخبر ولا عين ولا أثر . ثم قال تعالى ﴿ أكفاركم ﴾ أي أيها المشركون من كفار قريش ﴿ خير من أولئكم ﴾ يعني من الذين تقدم ذكرهم ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل ، وكفرهم بالكتب ، أأنتم خير من أولئكم ؟ ﴿ أم لكم براءة في الزبر ﴾ أي أمعكم من الله براءة أن لا ينالكم عذاب ولا نكال ؟ ثم قال تعالى ﴿ أم يقولون نحن جميع منتصر ﴾ أي يعتقدون أنهم يتناصرون ، وأن جمعهم يغني عنهم من أرادهم بسوء . قال تعالى ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ أي سيتفرق شملهم ويغلبون . روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر « أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم في الأرض أبداً » فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده وقال : حسبك يا رسول الله ، ألححت على ربك

فخرج ، وهو يثب في الدرع وهو يقول ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴾ ﴿٥٥﴾

يقول تعالى عن المجرمين : إنهم في ضلال عن الحق ، وسوء مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء ، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق . ثم قال تعالى ﴿ يوم يسحبون في النار على وجوههم ﴾ أي كما كانوا في سوء وشك وتردد أورثهم ذلك النار ، وكما كانوا ضلالاً يسحبون فيها على وجوههم لا يدرون أين يذهبون ، ويقال لهم تقريعاً وتوبيخاً ﴿ ذوقوا مس سقر ﴾ وقوله تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ كقوله ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديراً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى ﴾ أي قدر قدراً وهدى الخلائق إليه ، ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه وهو علمه الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها قبل برئها ، وردوا بهذه الآية ، وبما شاكلها من الآيات ، وما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عصر الصحابة . وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة » زاد ابن وهب « وكان عرشه على الماء » . ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه كما أخبر بنفوذ قدره فيهم فقال ﴿ وما أمرنا إلا واحدة ﴾ أي إنما نأمر بالشيء مرة واحدة لا نحتاج إلى تأكيد بثانية ، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجوداً كلمح بالبصر ، لا يتأخر طرفة عين ﴿ ولقد أهلكنا أشياعكم ﴾ يعني أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل ﴿ فهل من مدكر ﴾ أي فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك وقدر لهم من العذاب ، كما قال تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ﴾ وقوله تعالى ﴿ وكل شيء فعلوه في الزبر ﴾ أي مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام ﴿ وكل صغير وكبير ﴾ أي من أعمالهم ﴿ مستطر ﴾ أي

مجموع عليهم ، ومسطر في صحائفهم ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . روى الإمام أحمد عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « يا عائشة ، إياك ومحقرات الذنوب ، فإن لها من الله طالباً » ورواه النسائي وابن ماجه . ﴿ إن المتقين في جنات ونهر ﴾ أي بعكس ما الأشقياء فيه من الضلال والسعر ، والسحب في النار على وجوههم مع التوبيخ والتقريع والتهديد . ﴿ في مقعد صدق ﴾ أي في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه ﴿ عند مليك مقتدر ﴾ أي عند الملك العظيم ، الخالق للأشياء كلها ومقدرها ، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون . روى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو يبلغ به النبي ﷺ قال : « المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمٰن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا » انفرد بإخراجه مسلم والنسائي .



تفسير سُورَةُ الرَّحْمٰن

روى الترمذي عن جابر قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال : لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن مردوداً منكم ، كنت كلما أتيت على قوله ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قالوا : لا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » ثم قال : هذا حديث غريب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ ﴿٤﴾

يخبر تعالى عن فضله ورحمته أنه أنزل على عباده القرآن ، ويسر حفظه وفهمه على من رحمه فقال تعالى ﴿ الرحمٰن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان ﴾ يعني النطق ، وقيل : علمه الخير والشر ، والأول أحسن وأقوى لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن ، وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق ، وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها .

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿١٣﴾

﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ أي يجريان متعاقبين بحساب مقنن ، لا يختلف ولا يضطرب ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ ﴿ والنجم والشجر يسجدان ﴾ أجمعوا على أن الشجر ما قام على ساق . ولكن ما المراد بالنجم هنا ، فقيل : هو ما انبسط على وجه الأرض ، يعني من النبات ، وقيل : هو النجم الذي في السماء ، وهذا القول هو الأظهر ـ والله أعلم ـ لقوله تعالى ﴿ ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس ﴾ وقوله تعالى ﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ﴾ يعني العدل ، كما قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ وهكذا قال ههنا ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ أي خلق السموات والأرض بالحق والعدل لتكون الأشياء كلها بالحق والعدل ، ولهذا قال ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ، أي لا تبخسوا الوزن ، بل زنوا بالحق والقسط كما قال تعالى ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ وقوله تعالى ﴿ والأرض وضعها للأنام ﴾ أي كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات لتستقر لما على وجهها من الأنام ، وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم وألسنتهم في سائر أقطارها وأرجائها .
﴿ فيها فاكهة ﴾ أي مختلفة الألوان والطعوم والروائح ﴿ والنخل ذات الأكمام ﴾ أفرده بالذكر لشرفه ونفعه : رطباً ويابساً . والأكمام هي أوعية الطلع ، وهو الذي يطلع فيه القنو ، ثم ينشق عن العنقود ، فيكون بسراً ، ثم رطباً ، ثم ينضج ، ويتناهى يفعه واستواؤه ﴿ والحب ذو العصف ﴾ يعني التين ﴿ والريحان ﴾ خضر الزرع ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أي فبأي الآلاء يا معشر الجن والإنس تكذبان ؟ أي النعم ظاهرة عليكم ، وأنتم مغمورون بها لا تستطيعون إنكارها ولا جحودها فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون به : اللهم ، ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٢٣﴾

يذكر تعالى خلقه الإنسان من صلصال كالفخار ، وخلق الجان من مارج من نار ، وهو طرف لهبها ، ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان . رب المشرقين ورب المغربين ﴾ يعني مشرقي الصيف والشتاء ، ومغربي الصيف والشتاء ، وقال في الآية الأخرى ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ وذلك باختلاف مطالع الشمس وتنقلها في كل يوم وبروزها منه إلى الناس ، وقال في الآية الأخرى ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ وهذا المراد منه جنس المشارق والمغارب . ولما كان في اختلاف هذه المشارق والمغارب مصالح للخلق من الجن والإنس قال ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ وقوله تعالى ﴿ مرج البحرين ﴾ أي أرسلهما ﴿ يلتقيان ﴾ أي منعهما أن يلتقيا بما جعل بينهما من البرزخ الفاصل بينهما، والمراد بقوله ﴿البحرين﴾ الملح والحلو، فالحلو هذه الأنهار السارحة بين الناس ﴿بينهما برزخ لا يبغيان﴾ أي وجعل بينهما برزخاً، وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا ، وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ، ويزيله عن صفته التي هي مقصودة منه . ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ أي من مجموعهما فإذا وجد ذلك من أحدهما كفى ، كما قال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم ﴾ والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن ، وقد صح هذا الاطلاق . واللؤلؤ معروف ، وأما المرجان فقيل : هو صغار اللؤلؤ ، وقيل : هو الخرز الأحمر ، وقيل : هو نوع من الجواهر أحمر اللون ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿٢٤﴾ ﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿ وله الجوار المنشآت ﴾ يعني السفن التي تجري ﴿ في البحر ﴾ قال مجاهد : ما رفع قلعه من السفن فهي منشآت ، وما لم يرفع قلعه فليس بمنشآت . وقال قتادة : المنشئات يعني المخلوقات ﴿ كالأعلام ﴾ أي كالجبال في كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم مما فيه صلاح للناس في جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع ، ولهذا قال ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿٢٦﴾ ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٣٠﴾

يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون ، وكذلك أهل السماوات إلا من شاء الله ، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم ، فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت ، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً ، قال قتادة : أنبأ بما خلق ثم أنبأ أن ذلك كله فانٍ . وفي الدعاء المأثور : يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والاكرام لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث ، أصلح لنا شأننا كله ، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، ولا إلى أحد من خلقك . وقال الشعبي : إذا قرأت ﴿ كل من عليها فان ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ ﴿ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴾ وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ذو الجلال والإكرام ، أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يطاع فلا يخالف ، ولما أخبر تعالى عن تساوي أهل الأرض كلهم بحكمه العدل قال ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ . وقوله تعالى ﴿ يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن ﴾ وهذا إخبار عن غناه عما سواه ، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات ، وأنهم يسألونه بلسان حالهم وقالهم ، وأنه ﴿ كل يوم هو في شأن ﴾ أي من شأنه أن يجيب داعياً ، أو يعطي سائلاً ، أو يفك عانياً أو يشفي سقيماً ، ويحيي حياً ، ويميت ميتاً ، ويربي صغيراً ويفك أسيراً ، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم ومنتهى شكواهم . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٣٨﴾

﴿ سنفرغ لكم أيها الثقلان ﴾ هذا وعيد من الله تعالى للعباد ، وليس بالله شغل ، أي سنقضي لكم ، قال البخاري : سنحاسبكم لا يشغله شيء عن شيء ، وهو معروف في كلام العرب ، يقال : لأتفرغن لك ، وما به شغل ، يقول : لآخذنك على غرتك وقوله

تعالى ﴿ أيها الثقلان ﴾ الثقلان : الإنس والجن ، كما جاء في الصحيحين : « يسمعه كل شيء إلا الثقلين » وفي رواية « الإنس والجن » ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم قال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ أي لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره ، بل هو محيط بكم ، لا تقدرون على التخلص من حكمه ، ولا النفوذ عن حكمه فيكم ، أينما ذهبتم أحيط بكم . وهذا في مقام الحشر ، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب ، فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿ إلا بسلطان ﴾ أي إلا بأمر الله ﴿ يقول الانسان يومئذٍ أين المفر . كلا لا وزر إلى ربك يومئذٍ المستقر﴾ ولهذا قال: ﴿يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران ﴾ الشواظ : هو لهب النار ، أو هو الدخان ﴿ ونحاس ﴾ دخان النار ، أو هو النحاس الصفر يذاب فيصب على رؤ وسهم ، والمعنى لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار ، والنحاس المذاب عليكم لترجعوا ، ولهذا قال ﴿ فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ﴿ فإذا انشقت السماء ﴾ يوم القيامة كما دلت عليه هذه الآيات مع ما شاكلها من الآيات الواردة في معناها ﴿ فكانت وردة كالدهان ﴾ أي تذوب كما يذوب الدردى والفضة في السبك وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم . وعن ابن عباس ﴿وردة كالدهان﴾ هو الأديم الأحمر ، كالغرس الورد . وقال مجاهد : ﴿ كالدهان ﴾ كألوان الدهان . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٤٥﴾

﴿ فيومئذٍ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان ﴾ وهذه كقوله تعالى ﴿ هذا يوم لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فهذا في حال . وثم في حال يسأل الخلائق عن جميع أعمالهم قال الله تعالى ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون ﴾ ﴿ يعرف المجرمون بسيماهم ﴾ أي بعلامات تظهر عليهم . قال قتادة : يعرفون باسوداد الوجوه وزرقة العيون ، وهذا كما يعرف المؤمنون بالغرة والتحجيل من آثار الوضوء ﴿ فيؤخذ بالنواصي والاقدام ﴾ أي يجمع الزبانية ناصيته مع قدميه ويلقونه في النار ﴿ هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ﴾ أي هذه النار التي كنتم تكذبون بوجودها ، ها هي حاضرة تشاهدونها عياناً ،

يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتصغيراً وتحقيراً . وقوله تعالى ﴿ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴾ أي تارة يعذبون في الجحيم ، وتارة يسقون من الحميم ، وهو الشراب الذي هو كالنحاس المذاب يقطع الامعاء والأحشاء وقوله ﴿ آن ﴾ أي حار ، قد بلغ الغاية في الحرارة ، لا يستطاع من شدة ذلك . وعن القرظي ﴿ حميم آن ﴾ أي حاضر كقوله تعالى ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي حاضرة شديدة الحر لا تستطاع ، وكقوله ﴿ غير ناظرين إناه ﴾ يعني استواءه ونضجه ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٥٥﴾

﴿ ولمن خاف مقام ربه ﴾ بين يدي الله عز وجل يوم القيامة ﴿ ونهى النفس عن الهوى ﴾ ولم يطع ولا آثر الحياة الدنيا ، وعلم أن الآخرة خير وأبقى فأدى فرائض الله ، واجتنب محارمه فله عند ربه يوم القيامة جنتان ، كما روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن » وأخرجه بقية الجماعة إلا أبا داود . وروى ابن جرير عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق ؟ فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾ فقلت : وإن زنى وإن سرق يا رسول الله ؟ فقال : « وإن رغم أنف أبي الدرداء » ورواه النسائي . وهذه الآية عامة في الإنس والجن فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا ، ولهذا امتن الله تعالى على الثقلين بهذا الجزاء فقال ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم نعت هاتين الجنتين فقال ﴿ ذواتا أفنان ﴾ أي أغصان نضرة حسنة تحمل من كل ثمرة نضيجة فائقة . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ أو ﴿ ذواتا أفنان ﴾ واسعتا الفناء ﴿ فيهما عينان تجريان ﴾ أي تسرحان لسقي تلك الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ قال الحسن البصري : إحداهما يقال لها : تسنيم ، والأخرى سلسبيل ﴿ فيهما من كل فاكهة زوجان ﴾ أي من

جميع أنواع الثمار مما يعلمون ، وخير ما يعلمون ، ومما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ﴿ متكئين ﴾ يعني أهل الجنة ، والمراد بالاتكاء هنا الاضطجاع ﴿ على فرش بطائنها من استبرق ﴾ وهو ما غلظ من الديباج . قال أبو عمران الجوني : هو الديباج المزين بالذهب ، فنبه على شرف الظهارة بشرف البطانة فهذا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، وعن ابن مسعود قال : هذه البطائن فكيف لو رأيتم الظواهر ؟ ﴿ وجنى الجنتين دان ﴾ أي ثمرهما قريب إليهم ، متى شاؤ وا تناولوه على أي صفة كانوا ، كما قال تعالى ﴿ قطوفها دانية ﴾ وقال ﴿ ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ أي لا تمتنع ممن تناولها ، بل تنحط إليه من أغصانها ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٦١﴾

ولما ذكر الفرش وعظمتها قال بعد ذلك ﴿ فيهن ﴾ أي الفرش ﴿ قاصرات الطرف ﴾ أي غضيضات عن غير أزواجهن فلا يرين شيئاً في الجنة أحسن من أزواجهن ، وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها : والله ما أرى في الجنة شيئاً أحسن منك ، ولا في الجنة شيئاً أحب إلي منك ، فالحمد لله الذي جعلك لي ، وجعلني لك ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ أي بل هن عرب أتراب ، لم يطأهن أحد قبل أزواجهن من الإنس والجن ، وهذه أيضاً من الأدلة على دخول مؤمني الجن الجنة . ثم قال سبحانه ينعتهن ﴿ كأنهن الياقوت والمرجان ﴾ في صفاء الياقوت ، وبياض المرجان ، فجعلوا المرجان هنا اللؤلؤ ، روى ابن أبي حاتم عن النبي ﷺ قال : « إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة من حرير حتى يرى مخها » وروى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين ، على كل واحدة سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء الثياب» ﴿هل جزاء الاحسان إلا الاحسان﴾ أي ليس لمن أحسن العمل في الدنيا إلا الاحسان إليه في الآخرة روى البغوي عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الاحسان ﴾ وقال « هل تدرون ما قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « يقول : هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة » ولما كان

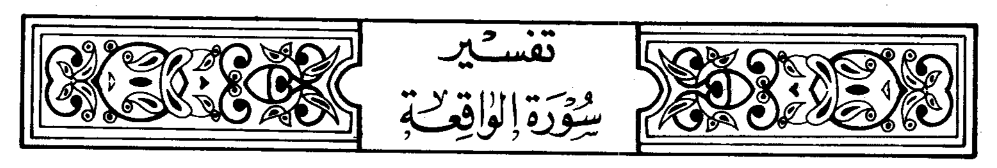
في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل ، بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ .

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ﴿٧٥﴾

هاتان الجنتان دون اللتين قبلهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة بنص القرآن ، قال الله تعالى ﴿ ومن دونهما جنتان ﴾ ﴿ مدهامتان ﴾ ممتلئتان من الخضرة ﴿ فيهما عينان نضاختان ﴾ أي فياضتان ، أو ممتلئتان ولا تنقطعان ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما . عن عمر بن الخطاب قال : جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد ، أفي الجنة فاكهة ؟ قال : نعم ، ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ » قالوا : أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا ؟ قال : « نعم ، وأضعاف » قالوا : فيقضون الحوائج ؟ قال : « لا ، ولكنهم يعرقون ويرشحون فيذهب الله ما في بطونهم من أذى » وروي أن رسول الله ﷺ قال : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كالبعير المقتب » ثم قال ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ قيل : المراد خيرات كثيرة حسنة في الجنة ، وقيل : خيرات جمع خيرة ، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه ، ولهذا قرأ بعضهم ﴿ فيهن خيِّرات حسان ﴾ بتشديد الياء ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ ثم قال ﴿ حور مقصورات في الخيام ﴾ خيام اللؤلؤ . روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال : « إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة ، عرضها ستون ميلاً ، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون » وأخرجه مسلم . ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾ .

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ﴿٧٨﴾

﴿ متكئين على رفرف خضر ﴾ يعني الوسائد ، أو الرفرف المجالس ، أو رياض الجنة ﴿ وعبقري حسان ﴾ العبقري الزرابي ، وعن الحسن البصري : هي بسط أهل الجنة ، لا أبالكم فاطلبوها . ﴿ هل جزاء الاحسان إلا الإحسان ﴾ فوصف أهلها بالإحسان ، وهو أعلى المراتب والنهايات . ثم قال ﴿ تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴾ أي هو أهل أن يجل فلا يعصى ، وأن يكرم فيعبد ، ويشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ﴿ ذي الجلال والاكرام ﴾ ذي العظمة والكبرياء . روى الامام أحمد ، قال رسول الله ﷺ « أجلوا الله يغفر لكم » وفي الحديث الآخر « إن من اجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم ، وذي السلطان ، وحامل القرآن غير الغالي فيه ، ولا الجافي عنه » . وروى الحافظ أبو يعلى أن رسول الله ﷺ قال : « ألظوا بياذا الجلال والاكرام » وكذا رواه الترمذي . وروى مسلم عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد ، يعني بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والاكرام » .



تفسير سُورَةِ الوَاقِعَةِ

قال أبو اسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال أبو بكر يا رسول الله قد شبت ، قال : شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت » رواه الترمذي ، وقال : حسن غريب . وروى الحافظ ابن عساكر قال : مرض عبدالله مرضه الذي توفي فيه فعاده عثمان بن عفان ، فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتهي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا آمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : ألا آمر لك بعطاء؟ قال : لا حاجة لي فيه، قال : ما يكون لبناتك من بعدك، قال: أتخشى على بناتي الفقر ؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ

ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ﴿١٢﴾

الواقعة من أسماء يوم القيامة ، سميت بذلك لتحقق كونها ووجودها ، كما قال تعالى ﴿ فيومئذٍ وقعت الواقعة ﴾ وقوله تعالى ﴿ ليس لوقعتها كاذبة ﴾ أي ليس لوقوعها إذا أراد الله كونها صارف يصرفها ، ولا دافع يدفعها كما قال تعالى ﴿ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ وقال ﴿ سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين ليس له دافع ﴾ وقوله ﴿ خافضة رافعة ﴾ أي تخفض أقواماً إلى أسفل سافلين إلى الجحيم ، وإن كانوا في الدنيا أعزاء ، وترفع آخرين إلى أعلى عليين إلى النعيم المقيم ، وإن كانوا في الدنيا وضعاء ﴿ إذا رجت الأرض رجاً ﴾ أي حركت تحريكاً واضطربت بطولها وعرضها ، أي زلزلت زلزالاً ﴿ وبست الجبال بساً ﴾ أي فتت فتاً ، أي صارت الجبال ﴿ كثيباً مهيلاً ﴾ ﴿ فكانت هباء منبثاً ﴾ كرهج الغبار يسطع ، ثم يذهب فلا يبقى منه شيء ﴿ وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ أي ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف . ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة . والسابقون السابقون ﴾ اثنان في الجنة ، وواحد في النار ﴿ والسابقون السابقون ﴾ هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أو هم أهل عليين ، أو هم الذين صلوا إلى القبلتين ، أو هم من كل أمة . ﴿ أولئك المقربون . في جنات النعيم ﴾ .

﴿١٣﴾ ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء السابقين المقربين أنهم ثلة أي جماعة من الأولين ، وقليل من الآخرين وقد اختلفوا بقوله الأولين والآخرين ، فقيل : المراد بالأولين الأمم الماضية ، وبالآخرين هذه الأمة ، وهو اختيار ابن جرير واستأنس بقوله ﷺ « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة » ومما يستأنس به لهذا القول ما رواه الامام ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : لما نزلت ﴿ ثلة من الأولين وقليل من الآخرين ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ فنزلت

﴿ ثلة من الأولين . وثلة من الآخرين ﴾ فقال النبي ﷺ « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، بل أنتم نصف أهل الجنة ، أو شطر أهل الجنة ، وتقاسمونهم النصف الثاني » وقيل ، وهو الراجح ، المراد بقوله ﴿ ثلة من الأولين ﴾ أي من صدر هذه الأمة ﴿ وقليل من الآخرين ﴾ أي من هذه الأمة ، فيحتمل أن تعم الآية جميع الأمم ، كل أمة بحسبها ، ولهذا ثبت في الصحاح وغيرها من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال « خير القرون قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » فأما الحديث الذي رواه الامام أحمد عن عمار بن ياسر قال : قال رسول الله ﷺ « مثل أمتي مثل المطر ، لا يدري أوله خير أم آخره » فهذا الحديث بعد الحكم بصحة اسناده محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في ابلاغه إلى من بعدهم كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها ، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها ، والفضل للمتقدم ، وكذلك الزروع هو محتاج إلى المطر الأول ، وإلى المطر الثاني ، ولكن العمدة الكبرى على الأول ، واحتياج الزرع إليه آكد . ﴿ على سرر موضونة ﴾ أي مرمولة بالذهب ، يعني منسوجة به ﴿ متكئين عليها متقابلين ﴾ أي وجوه بعضهم إلى بعض ليس أحد وراء أحد ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أي مخلدون على صفة واحدة ، لا يتكبرون عنها ، ولا يشيبون ولا يتغيرون ﴿ بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴾ أما الأكواب فهي الكيزان التي لا خراطيم لها ولا آذان ، والأباريق التي جمعت الوصفين ، أي لها خراطيم وآذان ﴿ من معين ﴾ من عين جارية ليس من أوعية تنقطع وتفرغ ، بل من عيون سارحة . ﴿ لا يصدعون عنها ولا ينزفون ﴾ أي لا تصدع رؤوسهم ، ولا تنزف عقولهم ، بل هي ثابتة مع الشدة المطربة ، واللذة الحاصلة ﴿ وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون﴾ أي ويطوفون عليهم بما يتخيرون من الثمار ، وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها﴿ حور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون ﴾ أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه . ﴿ جزاء بما كانوا يعملون ﴾ أي هذا الذي أتحفناهم به مجازاة لهم على ما أحسنوا من العمل ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ﴾ أي لا يسمعون في الجنة كلاماً لاغياً أي عبثاً خالياً عن المعنى ، أو مشتملاً على معنى حقير أو ضعيف كما قال تعالى ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أي كلمة لاغية ﴿ ولا تأثيماً ﴾ أي كلاماً فيه قبح ﴿ إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ أي إلا التسليم منهم بعضهم على بعض كما قال تعالى ﴿ تحيتهم فيها سلام ﴾ وكلامهم أيضاً سالم من اللغو والاثم .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ

مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾

لما ذكر تعالى مآل السابقين ، وهم المقربون عطف عليهم بذكر أصحاب اليمين ، وهم الأبرار ، ومنزلتهم دون المقربين ، فقال ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ﴾ أي أيُّ شيء أصحاب اليمين ، وما حالهم وكيف مآلهم ؟ ثم فسر ذلك فقال ﴿ في سدر مخضود ﴾ هو الذي لا شوك فيه ، وموقر بالثمر ، فإن سدر الدنيا كثير الشوك ، قليل الثمر ، وفي الآخرة على العكس من هذا ، كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله لينفعنا بالاعراب ومسائلهم ، قال : أقبل أعرابي يوماً ، فقال : يا رسول الله ، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها ، فقال رسول الله ﷺ وما هي ؟ قال : السدر ، فإن له شوكاً مؤذياً ، فقال رسول الله ﷺ : أليس الله تعالى يقول ﴿ في سدر مخضود ﴾ خضد الله شوكة فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، فإنها لتنبت ثمراً تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من طعام ، ما فيها لون يشبه الآخر » ﴿ وطلح منضود ﴾ هو الموز ﴿ وظل ممدود ﴾ في البخاري « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ، اقرؤ وا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾ ﴿ وماء مسكوب ﴾ يجري في غير اخدود ﴿ وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة ﴾ أي وعندهم من الفواكه الكثيرة المتنوعة في الألوان مما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لا تنقطع صيفاً ولا شتاء ، بل أكلها دائم مستمر أبداً مهما طلبوا وجدوا ، لا يمتنع عليهم بقدرة الله شيء ﴿ وفرش مرفوعة ﴾ أي عالية وطيئة ناعمة .

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾

﴿ إنا أنشأناهن ﴾ جرى الضمير على غير مذكور ، لكن لما دل السياق ، وهو ذكر الفرش على النساء اللاتي يضاجعن فيها اكتفى بذلك عن ذكرهن ، وعاد الضمير عليهن ، ﴿ كما في قوله ﴿ حتى توارت بالحجاب ﴾ يعني الشمس على المشهور من قولي المفسرين ﴿ أنشأناهن ﴾ أعدناهن في النشأة الأخرى بعدما كن عجائز ، رمصاً ، صرن ﴿ أبكاراً ﴾ أي بعد الثيوبة عدن أبكاراً ﴿ عرباً ﴾ متحببات إلى أزواجهن بالحلاوة والظرافة والملاحة ﴿ أتراباً ﴾ في سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة ، ومع ذلك هن متساويات في الأخلاق

المتواخيات بينهن ليس بينهن تباغض ولا تحاسد ، يعني لا كما كن ضرائر متعاديات ﴿ لأصحاب اليمين ﴾ أي خلقن لأصحاب اليمين ، أو ادخرن ، أو زوجن لأصحاب اليمين ﴿ ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ﴾ أي جماعة من الأولين وجماعة من الآخرين .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ ﴿٥٦﴾

لما ذكر تعالى أصحاب اليمين عطف عليهم بذكر أصحاب الشمال فقال ﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ﴾ أي أي شيء هم فيه أصحاب الشمال ؟ ثم فسر ذلك فقال ﴿ في سموم ﴾ وهو الهواء الحار ﴿ وحميم ﴾ وهو الماء الحار ﴿ وظل من يحموم ﴾ ظل من دخان ﴿ لا بارد ﴾ أي ليس طيب الهبوب ﴿ ولا كريم ﴾ ولا حسن المنظر ﴿ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ﴾ أي كانوا في الدار الدنيا منعمين مقبلين على لذات أنفسهم ، لا يلوون على ما جاءتهم به الرسل ﴿ وكانوا يصرون ﴾ أي يقيمون ولا ينوون توبة ﴿ على الحنث العظيم ﴾ وهو الكفر بالله ، وجعل الأوثان الأصنام أرباباً من دون الله ﴿ وكانوا يقولون أئذامتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤ نا الأولون ؟ ﴾ يعني أنهم يقولون ذلك مكذبين به ، مستبعدين لوقوعه ﴿ قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ﴾ أي أخبرهم يا محمد أن الأولين والآخرين من بني آدم سيجمعون إلى عرصات القيامة ، لا يغادر منهم أحد ﴿ معلوم ﴾ أي هو موقت محدود ، لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يزيد ولا ينقص ﴿ ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لآكلون من شجر من زقوم . فمالئون منها البطون ﴾ وذلك أنهم يقبضون ويسجرون حتى يأكلوا من شجر الزقوم حتى يملأوا منها بطونهم ﴿ فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم ﴾ وهي الابل العطاش ، واحدها أهيم ، والأنثى هيماء ﴿ هذا نزلهم يوم الدين ﴾ أي هذا الذي

وصفنا هو ضيافتهم عند ربهم يوم حسابهم .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۝٥٧ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ ﴾

يقول تعالى مقرراً للمعاد ، وراداً على المكذبين به من أهل الزيغ والالحاد من قالوا ﴿ أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴾ وقولهم ذلك صدر منهم على وجه التكذيب والاستبعاد فقال تعالى ﴿ نحن خلقناكم ﴾ أي نحن ابتدأنا خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، أفليس الذي قدر على البداءة بقادر على الاعادة بطريق الأولى والأحرى ؟ ولهذا قال ﴿ فلولا تصدقون ﴾ أي فهلا تصدقون بالبعث . ثم قال تعالى مستدلاً عليهم بقوله ﴿ أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ ؟ أي أنتم تقرونه في الأرحام وتخلقونه فيها أم الله الخالق لذلك ؟ ثم قال تعالى ﴿ نحن قدرنا بينكم الموت ﴾ أي صرفناه بينكم ، قال الضحاك : ساوى فيه بين أهل السماء والأرض ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي وما نحن بعاجزين ﴿ على أن نبدل أمثالكم ﴾ أي نغير خلقكم يوم القيامة ﴿ وننشئكم فيما لا تعلمون ﴾ أي من الصفات والأحوال . ثم قال تعالى ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴾ أي قد علمتم أن الله أنشأكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً فخلقكم ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، فهلا تتذكرون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة ، وهي البداءة قادر على النشأة الأخرى ، وهي الاعادة بطريق الأولى والأحرى ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ .

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝٦٣ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝٦٤ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝٦٥ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٦٧ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝٦٩ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۝٧٠ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝٧١ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۝٧٢ ﴾

﴿ أفرأيتم ما تحرثون ؟ ﴾ وهو شق الأرض وإثارتها والبذر فيها ﴿ أأنتم تزرعونه ؟ ﴾ أي تنبتونه في الأرض ﴿ أم نحن الزارعون ﴾ أي بل نحن الذين نقره قرارة وننبته في الأرض

﴿ لو نشاء لجعلناه حطاماً ﴾ أي نحن أنبتناه بلطفنا ، ورحمتنا ، وأبقيناه لكم رحمة بكم ، ولو نشاء لأيبسناه قبل استوائه واستحصاده ﴿ فظلتم تفكهون ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ إنا لمغرمون بل نحن محرومون ﴾ أي لو جعلناه حطاماً لظللتم تفكهون في المقالة تنوعون كلامكم ، فتقولون تارة ﴿ إنا لمغرمون ﴾ أي ملقون للشر ، أو لمولع بنا ، أو معذبون ، وتارة تقولون ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي لا يثبت لنا مال ، ولا ينتج لنا ربح ، أو مجدودون أي لاحظ لنا . ثم قال تعالى ﴿ أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن ﴾ يعني من السحاب ﴿ أم نحن المنزلون ﴾ يقول : بل نحن المنزلون ﴿ لو نشاء جعلناه أجاجاً ﴾ أي زعاقاً مراً ، لا يصلح لشرب ولا زرع ﴿ فلولا تشكرون ﴾ أي فهلا تشكرون نعمة الله عليكم في انزاله المطر عليكم عذباً زلالاً ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ أي تقدحون من الزناد ، وتستخرجونها من أصلها ﴿ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ أي بل نحن الذين جعلناها مودعة في موضعها ، وللعرب شجرتان ، إحداهما المرخ ، والأخرى العفار ، إذا أخذ منهما غصنان أخضران فحك أحدهما بالآخر تناثر من بينهما شرر النار .

(٧٣) ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَـٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَـٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ﴿٧٤﴾

﴿ نحن جعلناها تذكرة ﴾ أي تذكر النار الكبرى ﴿ ومتاعاً للمقوين ﴾ للمسافرين ، ومنه قولهم أقوت الدار إذا رحل عنها أهلها ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة .

(٧٥) ﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿٨٢﴾

هذا قسم ، وقال بعض المفسرين : ﴿ لا ﴾ ههنا زائدة ، وتقديره أقسم بمواقع النجوم ، وجوابه ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ وقال آخرون ﴿ لا ﴾ ههنا ليست زائدة لا معنى لها ، بل يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسماً به على معنى كقول عائشة رضي الله عنها : لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط ، وهكذا ههنا تقدير الكلام لا أقسم بمواقع النجوم ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحراً وكهانة ، بل هو قرآن كريم ، وقال بعض أهل

العربية : معنى قوله ﴿ فلا أقسم ﴾ فليس الأمر كما تقولون ، ثم استأنف القسم بعد ذلك فقال : أقسم . ﴿ بمواقع النجوم ﴾ يعني نجوم القرآن ، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً في السنين بعدُ ، وقيل : يعني ﴿ بمواقع النجوم ﴾ الأنواء التي كان أهل الجاهلية إذا مطروا قالوا : مطرنا بنوء كذا وكذا . وقوله ﴿ وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم ، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم به عليه ﴿ إنه لقرآن كريم ﴾ أي إن هذا القرآن الذي نزل على محمد ﷺ لكتاب عظيم ﴿ في كتاب مكنون ﴾ أي معظم في كتاب معظم محفوظ موقر ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ عن ابن عباس : الكتاب الذي في السماء لا يمسه إلا الملائكة ، أو لا يمس القرآن إلا المطهرون من الجنابة والحدث . وفي الحديث « لا يمس القرآن إلا طاهر » قال ابن زيد : زعمت كفار قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين ، فأخبر الله أنه لا يمسه إلا المطهرون كما قال تعالى ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ ﴿ تنزيل من رب العالمين ﴾ أي هذا القرآن من الله رب العالمين ، وليس هو كما يقولون : إنه سحر أو كهانة ، أو شعر ، بل هو الحق الذي لا مرية فيه ، وليس وراءه حق نافع ﴿ أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ﴾ أي مكذبون غير مصدقين ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾ أي وتجعلون رزقكم بمعنى شكركم أنكم تكذبون ، أي تكذبون بهذا الشكر .

﴿٨٣﴾ ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ﴿٨٧﴾

﴿ فلولا إذا بلغت ﴾ أي الروح ﴿ الحلقوم ﴾ أي الحلق ، وذلك حين الاحتضار ، كما قال تعالى ﴿ كلا إذا بلغت التراقي وقيل من راق وظن أنه الفراق والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ وأنتم حينئذٍ تنظرون ﴾ أي إلى المحتضر ، وما يكابده من سكرات الموت ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ﴾ أي بملائكتنا ﴿ ولكن لا تبصرون ﴾ أي ولكن لا ترونهم ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين . ترجعونها ﴾ معناه فهلا ترجعون هذه النفس التي قد بلغت الحلقوم إلى مكانها الأول ومقرها من الجسد إن كنتم غير مدينين .

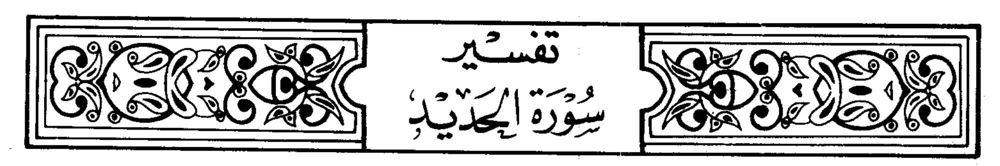
﴿٨٨﴾ ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ

﴿ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَـٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ ﴿٩٢﴾

هذه الأحوال الثلاثة هي أحوال الناس عند احتضارهم ، إما أن يكون من المقربين ، أو يكون ممن دونهم من أصحاب اليمين ، وإما أن يكون من المكذبين بالحق ، الضالين عن الهدى ، الجاهلين بأمر الله ، ولهذا قال ﴿ فأما إن كان ﴾ أي المحتضر ﴿ من المقربين ﴾ وهم الذين فعلوا الواجبات ، وتركوا المحرمات والمكروهات ، وبعض المباحات ﴿ فروح وريحان وجنة نعيم ﴾ أي فلهم روح وريحان وتبشرهم الملائكة بذلك عند الموت ﴿ وأما إن كان من أصحاب اليمين ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من أصحاب اليمين ﴿ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ أي تبشرهم الملائكة بذلك ، تقول لأحدهم : سلام لك أي لا بأس عليك ، أنت إلى سلامة ، أنت من أصحاب اليمين . ﴿ وأما إن كان من المكذبين الضالين ﴾ .

﴿٩٣﴾ ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ ﴿٩٦﴾

﴿ فنزل من حميم ﴾ أي وأما إن كان المحتضر من المكذبين بالحق الضالين عن الهدى ﴿ فنزل ﴾ أي فضيافة ﴿ من حميم ﴾ وهو المذاب الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود ﴿ وتصلية جحيم ﴾ أي وتقرير له في النار التي تغمره من جميع جهاته . ثم قال تعالى ﴿ إنه هذا لهو حق اليقين ﴾ أي إن هذا الخبر لهو حق اليقين الذي لا مرية فيه ، ولا محيد لأحد عنه ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ روى الإمام أحمد لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال « اجعلوها في ركوعكم » ولما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال رسول الله ﷺ « اجعلوها في سجودكم » .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات والأرض ، أي من الحيوانات والنباتات ، كما قال

في الآية الأخرى ﴿ تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ وقوله تعالى ﴿ وهو العزيز ﴾ أي الذي خضع له كل شيء ﴿ الحكيم ﴾ في خلقه وأمره وشرعه .

(٢) ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿ له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ﴾ أي هو المالك المتصرف في خلقه ، فيحيي ويميت ، ويعطي من يشاء ما يشاء ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

(٣) ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن . . ﴾ روى الإمام أحمد عن عرباض بن سارية أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد ، وقال « إن فيهن آية أفضل من ألف آية » وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن غريب . والآية المشار إليها ـ والله أعلم ـ قوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ﴾ قال البخاري : قال يحيى : الظاهر على كل شيء علماً ، والباطن على كل شيء علماً . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شيء ، منزل التوراة والانجيل والفرقان ، فالق الحب والنوى ، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته ، أنت الأول ، فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر ، فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن ، ليس دونك شيء ، اقض عنا الدين ، وأغننا من الفقر » ورواه مسلم في صحيحه .

(٤) ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن خلقه السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم أخبر تعالى باستوائه على العرش بعد خلقهن ﴿ يعلم ما يلج في الأرض ﴾ أي يعلم عدد ما يدخل فيها من حب وقطر ﴿ وما يخرج منها ﴾ من نبات وزروع وثمار كما قال تعالى ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في

ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما ينزل من السماء ﴾ أي من الأمطار والثلوج والبرد والاقدار والأحكام مع الملائكة الكرام . ﴿ وما يعرج فيها ﴾ أي من الملائكة والأعمال ، كما جاء في الصحيح « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل » وقوله تعالى ﴿ وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾ أي رقيب عليكم ، شهيد على أعمالكم حيث كنتم وأين كنتم من بر أو بحر في ليل أو نهار ، في البيوت أو في القفار ، الجميع في علمه على السواء ، وتحت بصره وسمعه ، فيسمع كلامكم ، ويرى مكانكم ، ويعلم سركم ونجواكم ، كما قال تعالى ﴿ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور ﴾ وقال تعالى ﴿ سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ فلا إله غيره ولا رب سواه . وقد ثبت في الحديث أن رسول الله قال لجبريل حين سأله عن الاحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٥) ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾

﴿ له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي هو المالك للدنيا والآخرة ، كما قال تعالى ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ وهو المحمود على ذلك ، كما قال تعالى ﴿ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة ﴾ فجميع ما في السموات والأرض ملك له ، وأهلهما عبيد أرقاء أذلاء بين يديه كما قال تعالى ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ ولهذا قال ﴿ وإلى الله ترجع الأمور ﴾ أي إليه المرجع يوم القيامة ، فيحكم في خلقه بما يشاء ، وهو العادل الذي لا يجور ، ولا يظلم مثقال ذرة ، بل إن يكن عمل أحدهم حسنة واحدة يضاعفها إلى عشر أمثالها ﴿ ويؤت من لدنه أجراً عظيماً ﴾ .

(٦) ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴾ أي هو المتصرف في الخلق ، يقلب الليل والنهار ، ويقدرهما بحكمته كما يشاء فتارة يطول الليل ويقصر النهار ، وتارة بالعكس ، وتارة يتركهما معتدلين ، وتارة يكون الفصل شتاء ، ثم ربيعاً ، ثم قيظاً ، ثم خريفاً ، وكل ذلك بحكمته وتقديره لما يريده بخلقه ﴿ وهو عليم بذات الصدور ﴾ أي يعلم السراء وإن دقت وإن خفيت .

(٧) ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

أمر تبارك وتعالى بالإيمان بالله وبرسوله على الوجه الأكمل ، والدوام والثبات على ذلك والاستمرار ، وحث على الانفاق ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ أي مما هو معكم على سبيل العارية ، فإنه قد كان في أيدي من قبلكم ، ثم صار إليكم فأرشد تعالى إلى استعمال ما استخلفهم فيه من المال في طاعته ، فإن يفعلوا وإلا حاسبهم عليه ، وعاقبهم لتركهم الواجبات فيه . وقوله ﴿ مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك ، فلعل وارثك أن يطيع الله فيه فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك ، أو يعصي الله فيه فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان . روى الإمام أحمد عن مطرف يعني عبدالله بن الشخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول « ألهاكم التكاثر » يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ورواه مسلم وزاد « وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » . وقوله تعالى ﴿ فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ﴾ ترغيب في الإيمان والإنفاق في الطاعة .

(٨) ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ أي وأي شيء يمنعكم من الإيمان بالله ، والرسول بين أظهركم ، يدعوكم إلى ذلك ، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به . روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه « أي المؤمنين أعجب إليكم إيماناً ؟ قالوا الملائكة ، قال : وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم ، قالوا فالأنبياء ، قال : وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم ، قالوا : فنحن ، قال : وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم ؟ ولكن أعجب المؤمنين إيماناً قوم يجيئون بعدكم يجدون صحفاً يؤمنون بما فيها . ﴿ وقد أخذ ميثاقكم ﴾ كما قال تعالى ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا ﴾ ويعني بذلك بيعة رسول الله ﷺ .

(٩) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ﴾ أي حججاً واضحات ودلائل باهرات ، وبراهين

قاطعات ﴿ ليخرجكم من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الجهل والكفر والآراء المتضادة إلى نور الهدى واليقين والإيمان ﴿ وإن الله بكم لرؤوف رحيم ﴾ أي في إنزاله الكتب ، وإرساله الرسل ، وإزاحة العلل ، وإزالة الشبه .

(١٠) ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ وما لكم أن لا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض ﴾ أي أنفقوا ولا تخشوا فقراً وإقلالاً ، فإن الذي أنفقتم في سبيله هو مالك السموات والأرض ، وبيده مقاليدهما ، وعنده خزائنهما ، وهو مالك العرش بما حوى ، وهو القائل ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ وقال ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ وقوله ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ﴾ أي لا يستوي هذا ومن لم يفعل كفعله ، وذلك أنه قبل فتح مكة كان الحال شديداً ، فلم يكن يؤمن حينئذ إلا الصديقون ، وأما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهوراً عظيماً ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى ﴾ والجمهور على أن المراد بالفتح ههنا فتح مكة ، وقيل : صلح الحديبية . ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ فلخبرته فاوت بين ثواب من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن فعل ذلك بعد ذلك .

(١١) ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً ﴾ هو الانفاق في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، والصحيح أنه أعم من ذلك ، فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة ، وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية ﴿ وله أجر كريم ﴾ أي جزاء جميل ، ورزق باهر ، وهو الجنة يوم القيامة . روى ابن أبي حاتم لما نزلت هذه الآية ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ﴾ قال أبو الدحداح الأنصاري : يا رسول الله ، وإن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح » قال : أرني يدك يا رسول الله ، قال : فناوله يده قال : فإني قد أقرضت ربي حائطي ـ وله حائط فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها ـ قال : فجاء أبو الدحداح فناداها ، يا أم الدحداح ، قالت : لبيك ، قال : اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل ، وفي رواية قالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح ، ونقلت منه متاعها

وصبيانها ، وإن رسول الله ﷺ قال : « كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح » .

(١٢) ﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المؤمنين المتصدقين أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة بحسب أعمالهم . كما قال ابن مسعود : في قوله تعالى ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾ قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم ، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه ، يتقد مرة ويطفأ مرة . وقوله ﴿ وبأيمانهم ﴾ أي وبأيمانهم كتبهم كما قال ﴿ فمن أوتي كتابه بيمينه ﴾ وقوله : ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يقال لهم : بشراكم اليوم جنات ، أي لكم البشارة بجنات تجري من تحتها الأنهار ﴿ خالدين فيها ﴾ أي ماكثين فيها أبداً ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(١٣) ﴿ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾

﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ وهذا إخبار منه تعالى عما يقع يوم القيامة في العرصات من الأهوال المزعجة ، والزلازل العظيمة ، والأمور الفظيعة ، وإنه لا ينجو يومئذٍ إلا من آمن بالله ورسوله وعمل بما أمر الله به ، وترك ما زجر الله عنه ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ وهي خدعة الله التي خدع بها المنافقين حيث قال ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ فيرجعون إلى المكان الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئاً فينصرفون إليهم وقد ضرب بينهم بسور له باب ﴿ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ فما يزال المنافق مغتراً حتى يقسم النور ، ويميز الله بين المنافق والمؤمن ﴿ أنظرونا نقتبس من نوركم ﴾ فإنا كنا معكم في الدنيا ، قال المؤمنون ﴿ ارجعوا وراءكم ﴾ من حيث جئتم من الظلمة فالتمسوا هنالك النور ﴿ فضرب بينهم بسور ﴾ هو حائط بين الجنة والنار . قال الله تعالى ﴿ وبينهما حجاب ﴾ ﴿ باطنه فيه الرحمة ﴾ أي الجنة وما فيها ﴿ وظاهره من قبله العذاب ﴾ أي النار .

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (١٤)

﴿ ينادونهم ألم نكن معكم ﴾ أي ينادي المنافقون المؤمنين : أما كنا معكم في الدار الدنيا نشهد معكم الجمعات ، ونصلي معكم الجماعات ونقف معكم بعرفات ، ونحضر معكم الغزوات ، ونؤدي معكم سائر الواجبات ؟ ﴿ قالوا بلى ﴾ أي فأجاب المؤمنون المنافقين قائلين : بلى ، قد كنتم معنا ﴿ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ﴾ أي ﴿ فتنتم أنفسكم ﴾ باللذات والمعاصي ، والشهوات ، ﴿ وتربصتم ﴾ أي أخرتم التوبة من وقت إلى وقت ﴿ وارتبتم ﴾ أي بالبعث بعد الموت ﴿ وغرتكم الأماني ﴾ أي قلتم سيغفر لنا . وقيل : غرتكم الدنيا ﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ أي ما زلتم في هذا حتى جاءكم الموت ﴿ وغركم بالله الغرور ﴾ أي الشيطان . ومعنى هذا الكلام من المؤمنين للمنافقين أنكم كنتم معنا ، أي بأبدان لا نية لها ، ولا قلوب معها ، وإنما كنتم في حيرة وشك ، فكنتم تراؤون الناس ولا تذكرون الله إلا قليلاً .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١٥)

﴿ فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ﴾ أي لو جاء أحدكم اليوم بملء الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به من عذاب الله ما قبل منه . وقوله تعالى ﴿ مأواكم النار ﴾ أي هي مصيركم ، وإليها منقلبكم . وقوله تعالى ﴿ هي مولاكم ﴾ أي هي أولى بكم من كل منزل على كفركم وارتيابكم وبئس المصير .

﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١٦)

يقول تعالى : أما آن للمؤمنين ﴿ أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ أي تلين عند الذكر والموعظة وسماع القرآن ، فتفهمه وتنقاد له وتسمع له وتطيعه ، عن ابن عباس أنه قال : إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن فقال ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ﴾ عن ابن مسعود قال : ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن . . ﴾ إلا أربع سنين . رواه مسلم . قال قتادة : ذكر لنا أن شداد بن أوس كان يروي عن رسول الله ﷺ قال : « إن أول ما يرفع من الناس الخشوع » وقوله تعالى ﴿ ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل

فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالذين حملوا الكتاب من قبلهم من اليهود والنصارى لما تطاول عليهم الأمد بدلوا كتاب الله الذي بأيديهم ، واشتروا به ثمناً قليلاً ، ونبذوه وراء ظهورهم ، وأقبلوا على الآراء المختلفة ، والأقوال المؤتفكة ، وقلدوا الرجال في دين الله ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فعند ذلك قست قلوبهم فلا يقبلون موعظة ، ولا تلين قلوبهم بوعد ولا وعيد ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ أي في الأعمال فقلوبهم فاسدة ، وأعمالهم باطلة .

(١٧) ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

﴿ اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها . . ﴾ فيه إشارة إلى أن الله تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن ، والدلائل . ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل ، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الضلال ، والمضل لمن أراد بعد الكمال ، الذي هو لما يشاء فعال ، وهو الحكيم العدل في جميع الفعال ، اللطيف الخبير الكبير المتعال .

(١٨) ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

يخبر تعالى عما يثيب به المصدقين والمصدقات بأموالهم على أهل الحاجة والفقر والمسكنة ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ أي دفعوه بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله ، لا يريدون جزاء ممن أعطوه ، ولا شكراً ، ولهذا قال ﴿ يضاعف لهم ﴾ أي يقابل لهم الحسنة بعشر أمثالها ، ويزاد على ذلك إلى سبعمائة ضعف وفوق ذلك ﴿ ولهم أجر كريم ﴾ أي ثواب جزيل حسن ومرجع صالح ومآب كريم .

(١٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾

﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ هذا تمام الجملة ، وصف الله المؤمنين بالله ورسله بأنهم صديقون . ﴿ والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون ﴾ هذه مفصولة ﴿ والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ﴾ فهم ثلاثة أصناف : يعني المصدقين ، والصديقين ، والشهداء كما قال تعالى ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴾ ففرق بين الصديقين

والشهداء فدل على أنهما صنفان ، ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد . ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ لما ذكر السعداء ومآلهم عطف بذكر الأشقياء وبين حالهم .

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (٢٠)

يقول تعالى موهناً أمر الحياة الدنيا ومحقراً لها ﴿ إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ﴾ أي إنما حاصل أمرها عند أهلها هذا ، كما قال تعالى ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾. ثم ضرب الله مثل الحياة الدنيا في أنها زهرة فانية ، ونعمة زائلة فقال ﴿ كمثل غيث ﴾ وهو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس ، كما قال تعالى ﴿ وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ﴾ وقوله ﴿ أعجب الكفار نباته ﴾ أي يعجب الزراع نبات ذلك الزرع الذي نبت بالغيث ، وكما يعجب الزراع ذلك ، كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار ، فإنهم أحرص شيء عليها ، وأميل الناس إليها ﴿ ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ﴾ أي يهيج الزرع فتراه مصفراً بعدما كان خضراً نضراً ، ثم يكون بعد ذلك كله حطاماً ، أي يصير يبساً متحطماً ، هكذا الحياة الدنيا تكون أولاً شابة ، ثم تكتهل ، ثم تكون عجوزاً شوهاء ، والإنسان يكون كذلك في أول عمره ، وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأعطاف ، بهي المنظر ، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه ، ويفقد بعض قواه ، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ، ضعيف القوى ، قليل الحركة ، يعجزه الشيء اليسير ، كما قال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ ولما كان هذا المثل دالاً على زوال الدنيا وانقضائها وفراغها لا محالة ، وأن الآخرة كائنة لا محالة حذر من أمرها ، ورغب فيما فيها من الخير ، فقال ﴿ وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أي ليس في الآخرة الآتية القريبة إلا إما هذا ، وإما هذا : إما عذاب شديد ، وإما مغفرة من الله ورضوان . وقوله تعالى ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ أي هي متاع فانٍ غار لمن ركن إليه ، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ، ولا معاد وراءها ،

وهي حقيرة قليلة بالنسبة إلى الدار الآخرة،روى ابن جرير عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها » اقرؤوا ﴿ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ وهذا الحديث ثابت في الصحيح بدون هذه الزيادة . والله أعلم . وروى الإمام قال رسول الله ﷺ : « للجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » انفرد بإخراجه البخاري .

(٢١) ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ والمراد جنس السماء والأرض ﴿ أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ أي هذا الذي أهلهم الله له هو من فضله ومنه عليهم ، وإحسانه إليهم ، جاء في الصحيح أن فقراء المهاجرين قالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالأجور بالدرجات العلى والنعيم المقيم ، قال : « وما ذاك ؟ » قالوا : يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق ، قال : « أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ، تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين » قال : فرجعوا فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال ما فعلنا ، ففعلوا مثله فقال رسول الله ﷺ « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

(٢٢) ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يخبر تعالى عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية فقال ﴿ ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم ﴾ أي في الآفاق وفي نفوسكم ﴿ إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ﴾ أي من قبل أن نخلق الخليقة ، ونبرأ النسمة ﴿ إن ذلك على الله يسير ﴾ أي إن علمه تعالى الأشياء قبل كونها ، وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله عز وجل ، لأنه يعلم ما كان وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون .

(٢٣) ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ﴾ أي أعلمناكم بتقدم علمنا ، وسبق كتابتنا للأشياء قبل

كونها وتقديرنا الكائنات قبل وجودها لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم . وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم ، فلا تأسوا على ما فاتكم ، لأنه لو قدر شيء لكان ﴿ ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ أي أعطاكم ﴿ والله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أي مختال في نفسه ، متكبر فخور على غيره .

(٢٤) ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ﴾ أي يفعلوا المنكر ويحضون الناس عليه ﴿ ومن يتول ﴾ أي عن أمر الله وطاعته ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ كما قال موسى ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ .

(٢٥) ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

يقول تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ﴾ أي بالمعجزات ، والحجج الباهرات ، والدلائل القاطعات ﴿ وأنزلنا معهم الكتاب ﴾ وهو النقل الصدق ﴿ والميزان ﴾ وهو العدل ، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ أي بالحق والعدل ، وهو اتباع الرسل فيما أخبروا به ، وطاعتهم فيما أمروا به ، فإن الذي جاؤوا به هو الحق الذي ليس وراءه حق ، كما قال تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ ﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ أي وجعلنا الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة عليه ، ولهذا أقام رسول الله ﷺ بمكة بعد النبوة ثلاث عشرة سنة توحى إليه السور المكية ، وكلها جدال مع المشركين ، وبيان وإيضاح للتوحيد ، وبينات ودلالات ، فلما قامت الحجة على من خالف شرع الله الهجرة وأمرهم بالقتال بالسيوف ، وضرب الرقاب ، والهلم لمن خالف القرآن وكذب به وعانده ، وقد روى الامام أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ، ومن تشبه بقوم فهو منهم » ولهذا قال ﴿ فيه بأس شديد ﴾ يعني السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ﴿ ومنافع للناس ﴾ أي في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والازميل والمجرفة والآلات التي يستعان بها على الحراثة والحياكة والطبخ والخبز ، وما لا قوام للناس بدونه

وغير ذلك ﴿ وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ﴾ أي من نيته في حمل السلاح نصرة الله ورسوله ﴿ إن الله قوي عزيز ﴾ أي هو قوي عزيز ، ينصر من نصره من غير احتياج منه إلى الناس ، وإنما شرع الجهاد ليبلو بعضكم ببعض .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾

يخبر تعالى أنه منذ بعث نوحاً عليه السلام لم يرسل بعده رسولاً ولا نبياً إلا من ذريته ، وكذلك إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن ، لم ينزل من السماء كتاباً ، ولا أرسل رسولاً ، ولا أوحى إلى بشر من بعده إلا وهو من سلالته ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب ﴾ حتى كان آخر أنبياء بني اسرائيل عيسى ابن مريم الذي بشر من بعده بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما ، ولهذا قال تعالى ﴿ ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل ﴾ وهو الكتاب الذي أوحاه الله إليه ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه ﴾ وهم الحواريون ﴿ رأفة ﴾ أي رقة ﴿ ورحمة ﴾ بالخلق . وقوله ﴿ ورهبانية ابتدعوها ﴾ أي ابتدعها أمة النصارى ﴿ ما كتبناها عليهم ﴾ أي ما شرعناها ، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم . وقوله تعالى ﴿ إلا ابتغاء رضوان الله ﴾ فيه قولان ، أحدهما أنهم قصدوا بذلك رضوان الله ، والآخر : ما كتبنا عليهم ذلك ، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله . وقوله تعالى ﴿ فما رعوها حق رعايتها ﴾ أي فما قاموا بما التزموه حق القيام ، وهذا ذم لهم من وجهين : أحدهما الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله ، والثاني في عدم قيامهم بما التزموه مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل ﴿ فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم ﴾ هم الذين آمنوا بي وصدقوني ﴿ وكثير منهم فاسقون ﴾ وهم الذين كذبوني وخالفوني .

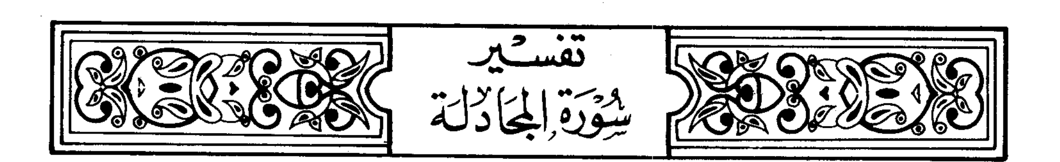
﴿٢٨﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ﴾ أجرين بايمانهم

بعيسى ابن مريم، وبايمانهم بمحمد ﷺ ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ القرآن واتباعهم النبي ﷺ . في الحديث « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران ، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه فله اجران ، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » ﴿ يؤتكم كفلين ﴾ أي ضعفين ﴿ من رحمته ﴾ وزادهم ﴿ ويجعل لكم نوراً تمشون به ﴾ يعني هدى يتبصر به من العمى والجهالة ﴿ ويغفر لكم ﴾ ففضلهم بالنور والمغفرة .

(٢٩) ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله ﴾ أي ليتحققوا أنهم لا يقدرون على رد ما أعطاه الله ولا إعطاء ما منع الله ﴿ وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .



تفسير سُورَةِ المجادلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

روى الامام أحمد عن عائشة قالت : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه ، وأنا في ناحية البيت ما أسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها . . . ﴾ وهكذا رواه البخاري تعليقاً .

(٢) ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾

روى الامام أحمد عن خولة بنت ثعلبة قالت : فيّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله

صدر سورة المجادلة ، قالت : كنت عنده ، وكان شيخاً كبيراً ، قد ساء خلقه ، قالت : فدخل علي يوماً فراجعته بشيء فغضب ، فقال : أنت علي كظهرامي ، قالت : ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة ، ثم دخل علي ، فإذا هو يريدني عن نفسي ، قالت : قلت : كلا والذي نفس خويلة بيده لا تخلص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه ، قالت : فواثبني فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عني ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتي ، فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه ، قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « يا خويلة ، ابن عمك شيخ كبير فاتقي الله فيه » قالت : فوالله ما برحت حتى نزل في قرآن ، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سري عنه ، فقال لي « يا خويلة ، قد أنزل الله فيك ، وفي صاحبك قرآناً » ، ثم قرأ علي : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها إلى قوله تعالى ﴿ وللكافرين عذاب اليم ﴾ قالت : فقال لي رسول الله ﷺ « مريه فليعتق رقبة » قالت : فقلت له : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق ، قال : « فليصم شهرين متتابعين » قالت : فقلت : والله إنه لشيخ كبير ، ما به من صيام ، قال « فليطعم ستين مسكيناً : وسقاً من تمر » قالت : فقلت : والله يا رسول الله ، ما ذاك عنده ، قالت : فقال رسول الله ﷺ « فإنا سنعينه بفرق من تمر » قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بفرق آخر ، قال : « قد أصبت وأحسنت فاذهبي فتصدقي به عنه ، ثم استوصي بابن عمك خيراً » ورواه ابو داود في كتاب الطلاق . ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ أصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أن الجاهلية كانوا إذا ظاهر أحدهم من امرأته قال لها : أنت علي كظهرأمي ، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياساً على الظهر ، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقاً ، فأرخص الله لهذه الأمة ، وجعل فيه كفارة ، ولم يجعله طلاقاً كما كانوا يعتمدونه في جاهليتهم ، وعن ابن عباس : قال كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية : أنت علي كظهرامي حرمت عليه ، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس ، وكان تحته ابنة عم له ، يقال لها خويلة بنت ثعلبة فظاهر منها فأسقط في يديه ، وقال : ما أراك إلا قد حرمت علي ، وقالت له : مثل ذلك ، قال فانطلقي إلى رسول الله ﷺ ، فأتت رسول الله ﷺ فوجدت عنده ماشطة تمشط رأسه فقال : « يا خويلة » ما أمرنا في أمرك بشيء ، فأنزل الله على رسوله ﷺ ، فقال « يا خويلة أبشري » قالت : خيراً فقرأ عليها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما ، إلى قوله تعالى والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن

يتماسا ﴾ قالت : وأي رقبة لنا ؟ والله ما يجد رقبة غيري ، قال ﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين ﴾ قالت : والله لولا أنه يشرب في اليوم ثلاث مرات لذهب بصره ، قال ﴿ فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ﴾ قالت : من أين ؟ ما هي الأكلة إلى مثلها قال : فدعا بشطر وسق : ثلاثين صاعاً ، والوسق ستون صاعاً فقال : ليطعم ستين مسكيناً ، وليراجعك . وهذا اسناد جيد قوي . ﴿ ماهن امهاتهم إن امهاتهم إلا اللائي ولدنهم ﴾ أي لا تصير المرأة بقول الرجل أنت على كأمي ونحو ذلك لا تصير امه بذلك ، وإنما أمه التي ولدته ، ولهذا قال ﴿ وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ﴾ أي كلاماً فاحشاً باطلاً ﴿ وإن الله لعفو غفور ﴾ أي عما كان منكم في الجاهلية ، وهكذا عما كان من سبق اللسان ، ولم يقصر إليه المتكلم .

(٣) ﴿ وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ قال الشافعي : العود : هو أن يمسكها بعد المظاهرة زماناً يمكنه أن يطلق فيه فلا يطلق ، وقال أحمد بن حنبل : هو أن يعود إلى الجماع ، أو يعزم عليه ، فلا تحل له حتى يكفر بهذه الكفارة ، وقال أبو حنيفة : هو أن يعود إلى الظهار بعد تحريمه ، ورفع ما كان عليه أمر الجاهلية ، فمتى ظاهر الرجل من امرأته فقد حرمها تحريماً لا يرفعه إلا الكفارة ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ والمس النكاح . وعن ابن عباس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إني ظاهرت من امرأتي فوقعت عليها قبل أن اكفر ، فقال : ما حملك على ذلك يرحمك الله ؟ » قال : رأيت خلخالها في ضوء القمر ، قال : « فلا تقربها حتى تفعل ما أمرك الله عز وجل » رواه أهل السنن ، وقال الترمذي : حسن غريب صحيح . ﴿ فتحرير رقبة ﴾ أي فإعتاق رقبة كاملة من قبل أن يتماسا ، فههنا الرقبة مطلقة غير مقيدة بالايمان ، وفي كفارة القتل مقيدة بالايمان فحمل الشافعي رحمه الله ما أطلق ههنا على ما قيد هناك ، لاتحاد الموجب ، وهو عتق الرقبة ﴿ ذلكم توعظون به ﴾ أي تزجرون به ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي خبير بما يصلحكم ، عليم بأحوالكم .

(٤) ﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين

مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله ﴾ أي شرعنا هذا لهذا ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي محارمه فلا تنتهكوها ﴿ وللكافرين عذاب اليم ﴾ أي الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة لا تعتقدوا أنهم ناجون من البلاء ، كلا ليس الأمر كما زعموا ، بل لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة .

(٥) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

يخبر تعالى عن الذين شاقوا الله ورسوله، وعاندوا شرعه ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي أهينوا ولعنوا وأخزوا كما فعل بمن أشبههم ممن قبلهم ﴿ وقد أنزلنا آيات بينات ﴾ أي واضحات لا يعاندها ولا يخالفها إلا كافر فاجر مكابر ﴿ وللكافرين عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا من اتباع شرع الله ، والانقياد له ، والخضوع لديه .

(٦) ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ وذلك يوم القيامة يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ﴿ فينبئهم عما عملوا ﴾ أي فيخبرهم بالذي صنعوا من خير وشر ﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ أي ضبطه الله وحفظه عليهم ، وهم قد نسوا ما كانوا عملوا ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي لا يغيب عنه شيء ، ولا يخفى ولا ينسى شيئاً .

(٧) ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة ﴾ أي من سر ثلاثة ﴿ إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ﴾ أي مطلع عليهم ، يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم ورسله أيضاً مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله به وسمعه له ، كما قال تعالى ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ وقال تعالى ﴿ أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم ﴾ قال الامام أحمد : افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم .

﴿٨﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَـٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

﴿ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى . . . ﴾ كان بين النبي ﷺ وبين اليهود موادعة ، وكانوا إذا مر بهم الرجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله ، أو بما يكره المؤمن ، فإذا رأى المؤمن ذلك خشيهم فترك طريقه عليهم فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى ، فلم ينتهو او عادوا إلى النجوى فأنزل الله تعالى هذه الآية . ﴿ ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصيت الرسول ﴾ أي يتحدثون فيما بينهم بالاثم ، وهو ما يختص بهم ﴿ والعدوان ﴾ وهو ما يتعلق بغيرهم ، ومنه معصية الرسول ومخالفته يصرون عليها ، ويتواصون بها ﴿ وإذا جاؤ وك حيوك بما لم يحيك به الله ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : دخل على رسول الله ﷺ يهود ، فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقالت عائشة : وعليكم السام ، قالت : فقال رسول الله ﷺ : « يا عائشة ، إن لا يحب الغمش ولا التغمش » قلت : ألا تسمعهم يقولون : السام عليك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أو ما سمعت أقول وعليكم ؟ » وفي رواية في الصحيح أنها قالت لهم : عليكم السام واللعنة ، وأن رسول الله ﷺ قال : « إنه يستجاب لنا فيهم ، ولا يستجاب لهم فينا » وقوله تعالى ﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ﴾ أي يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام ، وإيهام السلام ، وإنما هو شتم في الباطل ، ومع هذا يقولون في أنفسهم : لو كان هذا نبياً لعذبنا الله بما نقوله في الباطن ، لأن الله يعلم ما نسره ، فلو كان هذا نبياً حقاً لأوشك أن يعاجلنا الله بالعقوبة في الدنيا ، فقال الله تعالى ﴿ حسبهم جهنم ﴾ أي جهنم كفايتهم في الدار الآخرة ﴿ يصلونها فبئس المصير ﴾ .

﴿٩﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصيـة الرسول﴾ أي كما يتناجى به الجهلة من كفرة أهل الكتاب ومن ما لأهم على ضلالهم من المنافقين ﴿ وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون ﴾ أي فيخبركم بجميع أعمالكم وأقوالكم التي قد أحصاها عليكم ، وسيجزيكم بها . روى الامام أحمد عن صفوان بن محرز قال : كنت

آخذاً بيد ابن عمر إذ عرض له رجل ، فقال : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كتفه ويستره من الناس ، ويقرره بذنوبه ، ويقول له : أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ، أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى في نفسه أن قد هلك ، قال : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين . أخرجاه في الصحيحين من حديث قتادة .

(١٠) ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ إنما النجوى ﴾ وهي المسارة حيث يتوهم مؤمن بها سوءاً ﴿ من الشيطان ليحزن الذين آمنوا ﴾ يعني إنما يصدر هذا من المتناجين عن تسويل الشيطان وتزيينه ﴿ ليحزن الذين آمنوا ﴾ أي ليسوءهم ﴿ وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله ﴾ ومن أحسن من ذلك شيئاً فليستعذ بالله ، وليتوكل على الله فإنه لا يضره شيء باذن الله . وقد وردت السنة بالنهي عن التناجي حيث يكون في ذلك تأذ على مؤمن كما روى الامام أحمد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون صاحبهما ، فإن ذلك يحزنه » أخرجاه من حديث الأعمش . وفي رواية « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » انفرد باخراجه مسلم عن أبي الربيع .

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مؤدباً عباده المؤمنين ، وآمراً لهم أن يحسن بعضهم إلى بعض في المجالس ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، كما جاء في الحديث الصحيح « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » وفي الحديث الآخر « ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » ولهذا أشباه كثيرة ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ قال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية يوم الجمعة ، وكان رسول الله ﷺ يومئذ في الصفة ، وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ،

فجاء ناس من أهل بدر ، وقد سبقوا إلى المجالس فقاموا حيال رسول الله ﷺ ، فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي ﷺ عليهم ، ثم سلموا على القوم بعد ذلك فردوا عليهم فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فعرف النبي ﷺ ما يحملهم على القيام ، فلم يفسح لهم فشق ذلك على النبي ﷺ ، فقال لمن حوله من المهاجرين والأنصار من غير أهل بدر « قم يا فلان ، وأنت يا فلان » فلم يزل يقيمهم بعدة النفر الذين هم قيام بين يديه من المهاجرين والأنصار أهل بدر ، فشق ذلك على من أقيم من مجلسه ، وعرف النبي ﷺ الكراهة في وجوههم ، فقال المنافقون : ألستم تزعمون أن صاحبكم هذا يعدل بين الناس ؟ والله ما رأيناه قبلُ عدل على هؤلاء ، إن قوماً أخذوا مجالسهم ، وأحبوا القرب من نبيهم فأقامهم وأجلس من أبطأ عنه ، فبلغنا أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله رجلاً يفسح لأخيه » فجعلوا يقومون بعد ذلك سراعاً فيفسح القوم لاخوانهم ، ونزلت هذه الآية يوم الجمعة . رواه ابن أبي حاتم . وقد روى الامام الشافعي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « لا يقم الرجل الرجل من مجلسه فيجلس فيه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » . وقد اختلف الفقهاء في جواز القيام للوارد إذا جاء على أقوال : فمنهم من رخص في ذلك محتجاً بحديث « قوموا لسيدكم » ومنهم من منع من ذلك محتجاً بحديث « من أحب أن يتمثل الرجال له قياماً فليتبوأ مقعده من النار » ومنهم من فصل فقال : يجوز عند القدوم من سفر ، وللحاكم في محل ولايته ، كما دل عليه قصة سعد بن معاذ ، فإنه لما استقدمه النبي ﷺ حاكماً في بني قريظة فرآه مقبلاً قال للمسلمين : « قوموا إلى سيدكم » وما ذاك إلا ليكون أنفذ لحكمه ، والله أعلم . فأما اتخاذه ديدناً فإنه من شعار العجم . وقد جاء في السنن أنه لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ ، وكان اذا جاء لا يقومون له لما يعلمون من كراهته ذلك . وفي الحديث المروي في السنن أن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى به المجلس ، ولكن حيث يجلس يكون صدر ذلك المجلس . وقيل في قوله تعالى ﴿ فافسحوا يفسح الله لكم ﴾ يعني في مجالس الحرب ﴿ وإذا قيل انشزوا فانشزوا ﴾ أي انهضوا إلى القتال . ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات ﴾ أي لا تعتقدوا أنه إذا فسح أحد منكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج أن يكون ذلك نقصاً في حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ بمن يستحق ذلك وبمن لا يستحقه .

(١٢) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ ، أي يساره فيما بينه وبينه أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام ﴿ ذلك خير لكم وأطهر ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فإن لم تجدوا ﴾ أي إلا من عجز عن ذلك ﴿ فإن الله غفور رحيم ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها .

(١٣) ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات ﴾ أي أخفتم من استمرار هذا الحكم عليكم من وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﴿ فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم . . . ﴾ فنسخ وجوب ذلك عنهم . وقد قيل : إنه لم يعمل بهذه الآية قبل نسخها سوى علي بن أبي طالب ، قدم ديناراً صدقة تصدق به ، ثم ناجى رسول الله ﷺ .

(١٤) ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى منكراً على المنافقين في موالاتهم الكفار في الباطن ، وهم في نفس الأمر ، لا معهم ، ولا مع المؤمنين ﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني اليهود الذين كان المنافقون يمالئونهم ويوالونهم في الباطن . ثم قال تعالى ﴿ ما هم منكم ولا منهم ﴾ أي هؤلاء المنافقون ليسوا في الحقيقة منكم أيها المؤمنون ، ولا من الذين يوالونهم ، وهم اليهود . ثم قال تعالى ﴿ ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ﴾ يعني المنافقون يحلفون على الكذب ، وهم عالمون بأنهم كاذبون فيما حلفوا ، وهي اليمين الغموس .

(١٥) ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ أي أرصد الله لهم على هذا الصنيع العذاب الأليم على أعمالهم السيئة وهي موالاة الكافرين ، ونصحهم ، ومعاداة المؤمنين وغشهم . ولهذا قال تعالى :

(١٦) ﴿ ٱتَّخَذُوٓا أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، واتقوا

بالأيمان الكاذبة فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم صدقهم فاغتر بهم فحصل بهذا صد عن سبيل الله لبعض الناس ﴿ فلهم عذاب مهين ﴾ أي في مقابلة ما امتهنوا من الحلف باسم الله العظيم في الأيمان الكاذبة الحانثة .

(١٧) ﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

﴿ لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ﴾ أي لن يدفع ذلك عنهم بأساً إذا جاءهم ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

(١٨) ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾

﴿ يوم يبعثهم الله جميعاً ﴾ أي يحشرهم يوم القيامة عن آخرهم ، فلا يغادر منهم أحداً ﴿ فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ﴾ أي يحلفون بالله عز وجل أنهم كانوا على الهدى والاستقامة كما كانوا يحلفون للناس في الدنيا ، لأن من عاش على شيء مات عليه ، وبعث عليه ، ويعتقدون أن ذلك ينفعهم عند الله كما كان ينفعهم عند الناس ، فيجرون عليهم الأحكام الظاهرة . ثم قال تعالى منكراً عليهم حسبانهم ﴿ ألا إنهم هم الكاذبون ﴾ فأكد الخبر عنهم بالكذب . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان في ظل حجرة من حجره ، وعنده نفر من المسلمين قد كاد يقلص عنهم الظل قال : « إنه سيأتيكم إنسان ينظر بعيني شيطان ، فإذا أتاكم فلا تكلموه » فجاء رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ﷺ فكلمه فقال : « علام تشتمني أنت وفلان وفلان ؟ » نفر دعاهم بأسمائهم ، قال : فانطلق الرجل فدعاهم فحلفوا له ، واعتذروا إليه ، قال : فأنزل الله عز وجل هذه الآية . ورواه الإمام أحمد .

(١٩) ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

﴿ استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ﴾ أي استحوذ على قلوبهم الشيطان حتى أنساهم أن يذكروا الله عز وجل ، وكذلك يصنع بمن استحوذ عليه . وقد روى أبو داود عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان ، فعليك بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية » (يعني صلاة الجماعة) ثم قال تعالى ﴿ أولئك حزب الشيطان ﴾ يعني الذين استحوذ عليهم

الشيطان فأنساهم ذكر الله .ثم قال تعالى﴿ ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴾ .

(٢٠) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المعاندين المحادين لله ولرسوله ، يعني الذين هم في حد ، والشرع في حد ، أي مجانبون للحق مشاقون له ، هم في ناحية والهدى في ناحية ﴿ أولئك في الأذلين ﴾ أي في الأشقياء المبعدين المطرودين عن الصواب الأذلين في الدنيا والآخرة .

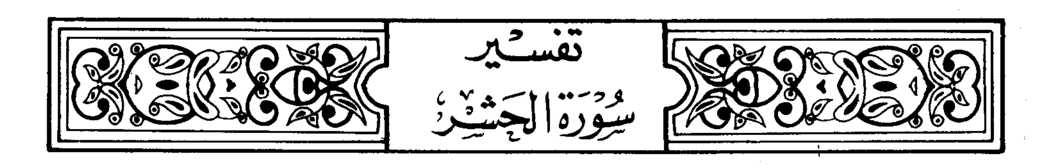
(٢١) ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾

﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ﴾ أي قد حكم وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يمانع ولا يبدل بأن النصرة له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة .

(٢٢) ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ أي لا يوادون المحادين ولو كانوا من الأقربين ﴿ ولو كانوا آباءهم ﴾ نزلت في أبي عبيدة ، قتل أباه يوم بدر ﴿ أو أبناءهم ﴾ نزلت في الصديق ، هم يومئذٍ بقتل ابنه عبدالرحمٰن ﴿ أو إخوانهم ﴾ نزلت في مصعب بن عمير ، قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذٍ ﴿ أو عشيرتهم ﴾ نزلت في عمر ، قتل قريباً له يومئذٍ ، وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا عتبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذٍ . ﴿ أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ﴾ أي من اتصف بأنه لا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أباه أو أخاه فهذا ممن كتب الله له السعادة وقررها في قلبه ، وزين الإيمان في بصيرته ﴿ وأيدهم بروح منه ﴾ أي قواهم ﴿ ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ لما سخطوا على الأقارب والعشائر في الله تعالى عوضهم الله بالرضا عنهم ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم والفوز العظيم والفضل العميم ﴿ أولئك حزب الله ﴾ أي هؤلاء حزب الله ، أي عباد الله وأهل كرامته

﴿ ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ تنويه بفلاحهم وسعادتهم ونصرتهم في الدنيا والآخرة في مقابلة ما ذكر عن أولئك بأنهم حزب الشيطان وأنهم هم الخاسرون .



عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : سورة الحشر ؟ قال : أنزلت في بني النضير . رواه البخاري ومسلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

يخبر تعالى أن جميع ما في السموات والأرض من شيء يسبح له ويمجده ويقدسه ويصلي له ويوحده ﴿ وهو العزيز ﴾ أي منيع الجناب ﴿ الحكيم ﴾ في قدره وشرعه .

(٢) ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني يهود بني النضير ، كان رسول الله ﷺ لما قدم المدينة هادنهم وأعطاهم عهداً وذمة على أن لا يقاتلهم ولا يقاتلوه فنقضوا العهد الذي كان بينهم وبينه ، فأحل الله بهم بأسه الذي لا مرد له وأنزل عليهم قضاءه الذي لا يصد ، فأجلاهم النبي ﷺ وأخرجهم من حصونهم الحصينة التي ما طمع فيها المسلمون وظنوا هم أنها ما نعتهم من بأس الله ، فما أغنى عنهم من الله شيئاً ، وجاءهم من الله ما لم يكن ببالهم ، وسيرهم رسول الله ﷺ وأجلاهم من المدينة ، فكان منهم طائفة ذهبوا إلى أذرعات من أعالي الشام ، وهي أرض الحشر والنشر ، ومنهم طائفة ذهبوا إلى خيبر ، وكان قد أنزلهم منها على أن لهم ما حملت إبلهم ، فكانوا يخربون ما في

بيوتهم من المنقولات التي يمكن أن تحمل معهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ أي تفكروا في عاقبة من خالف أمر الله ، وخالف رسوله ، وكذب كتابه كيف يحل به من بأسه المخزي له في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من العذاب الأليم . ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ يعني بني النضير ﴿ من ديارهم لأول الحشر ﴾ عن ابن عباس قال : من شك في أن أرض المحشر ههنا يعني الشام فليقرأ هذه الآية ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا . . ﴾ قال لهم رسول الله ﷺ : « اخرجوا » قالوا : إلى أين ؟ قال : « إلى أرض المحشر » ﴿ ما ظننتم أن يخرجوا ﴾ أي في مدة حصاركم لهم وقصرها ، وكانت ستة أيام مع شدة حصونهم ومنعتها ، ولهذا قال تعالى ﴿ وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ﴾ أي جاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ، كما قال تعالى ﴿ قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون ﴾ ﴿ وقذف في قلوبهم الرعب ﴾ أي الخوف والهلع ، والجزع . وكيف لا يحصل لهم ذلك وقد حاصرهم الذي نصر بالرعب مسيرة شهر صلوات الله وسلامه عليه . ﴿ يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ﴾ هو نقض ما استحسنوه من سقوفهم وأبوابهم وحملها على الإبل . قال مقاتل بن حيان : كان رسول الله ﷺ يقاتلهم ، فإذا ظهر على درب أو دار هدم حيطانها ليتسع المكان للقتال ، وكان اليهود إذا علوا مكاناً ، أو غلبوا على درب أو دار نقبوا من أدبارها ودروبها ، يقول تعالى ﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ .

(٣) ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾

﴿ ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ﴾ أي لولا أن كتب الله عليهم هذا الجلاء ، وهو النفي من ديارهم وأموالهم لكان لهم عند الله عذاب آخر من القتل والسبي ، روى ابن أبي حاتم عن عروة بن الزبير قال : كانت وقفة بني النضير ، وهم طائفة من اليهود على رأس ستة أشهر من وقفة بدر ، وكان منزلهم بناحية من المدينة ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على الجلاء ، وأن لهم ما أقلت الإبل من الأموال والأمتعة إلا الحلقة ، وهي السلاح . فأجلاهم رسول الله ﷺ قبل الشام . وقوله تعالى ﴿ ولهم في الآخرة عذاب النار ﴾ أي حتم لازم لا بد منه .

(٤) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

﴿ ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ﴾ أي إنما فعل الله بهم ذلك ، وسلط عليهم رسوله ، وعباده المؤمنين ، لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزل الله على رسله المتقدمين في البشارة بمحمد ﷺ ، وهم يعرفون ذلك كما يعرفون أبناءهم . ثم قال تعالى ﴿ ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ﴾ .

(٥) ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾

﴿ ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين ﴾ اللين : نوع من التمر سوى العجوة . أو هو جميع النخل . وذلك أن رسول الله ﷺ لما حاصرهم أمر بقطع نخيلهم إهانة لهم ، وإرهاباً ، وإرعاباً لقلوبهم .

(٦) ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يقول تعالى مبيناً ما الفيء وما صفته وما حكمه ، فالفيء كل ما أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بني النضير هذه ، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة ، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ فأفاء الله على رسوله ، ولهذا تصرف فيه كما يشاء فرده على المسلمين في وجود البر والمصالح في هذه الآيات ، فقال تعالى ﴿ وما أفاء الله على رسوله منهم ﴾ أي من بني النضير ﴿ فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ﴾ يعني الابل ﴿ ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير ﴾ أي هو قدير لا يغالب ، ولا يمانع ، بل هو القاهر لكل شيء .

(٧) ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ﴾ أي جميع البلدان التي تفتح هكذا فحكمها حكم أموال بني النضير . ولهذا قال تعالى ﴿ فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . . . ﴾ فهذه مصارف أموال الفيء ووجوهه ﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ أي جعلنا هذه المصارف لمال الفيء كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها

الأغنياء ، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ أي مهما أمركم به فافعلوه ، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه ، فإنه إنما يأمر بخير ، وإنما ينهى عن شر . روى ابن أبي حاتم قال : جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت : بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة ، أشيء وجدته في كتاب الله تعالى ، أو عن رسول الله ﷺ ؟ قال : بلى شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ ، قالت : والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول ، قال : فما وجدت فيه ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ؟ قالت : بلى ، قال : فإني سمعت رسول الله ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة ، قالت : فلعله في بعض أهلك ، قال : فادخلي فانظري فدخلت فنظرت ، ثم خرجت ، قالت : ما بأساً ، فقال لها : أما حفظت وصية العبد الصالح ؟ ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ . ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ أي اتقوه في امتثال أوامره، وترك زواجره، فإنه شديد العقاب لمن عصاه، وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجرَ ونهاه.

(٨) ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾

يقول تعالى مبيناً حال الفقراء المستحقين لمال الفيء فقال ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ أي خرجوا من ديارهم ، وخالفوا قومهم ابتغاء مرضاة الله ورضوانه ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ أي هؤلاء الذين صدقوا قولهم بفعلهم ، وهؤلاء هم سادات المهاجرين .

(٩) ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

ثم قال تعالى مادحاً للأنصار ، ومبيناً فضلهم وشرفهم وكرمهم وعدم حسدهم ، وإيثارهم مع الحاجة فقال تعالى ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ﴾ أي سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين ، وآمنوا قبل كثير منهم ، قال عمر رضي الله عنه : وأوصي الخليفة بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئهم . رواه البخاري . وقوله تعالى ﴿ يحبون من هاجر إليهم ﴾ أي من كرمهم ، وشرف أنفسهم

يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . روى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ، ولا أحسن بذلاً في كثير ، لقد كفونا المؤنة ، وأشركونا في المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال : « لا ، ما أثنيتم عليهم ، ودعوتهم الله لهم » وروى البخاري عن أنس قال : دعا النبي ﷺ الأنصار أن يقطع لهم البحرين ، قالوا : لا ، إلا أن تقطع لاخواننا من المهاجرين مثلها ، قال : « أما لا ، فاصبروا حتى تلقوني ، فإنه سيصيبكم أثرة » تفرد به البخاري من هذا الوجه . ﴿ ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ﴾ أي ولا يجدون في أنفسهم حسداً للمهاجرين فيما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة . قال الحسن البصري : ﴿ حاجة ﴾ يعني حسداً ﴿ مما أوتوا ﴾ قال قتادة : فيما أعطي إخوانهم ، ومما يستدل به على هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد عن أنس قال : كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ، قد علق نعليه بيده الشمال ، فلما كان الغد قال رسول الله ﷺ : « مثل ذلك » فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى ، فلما كان في اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ مثل مقالته أيضاً فطلع ذلك الرجل على مثل حالته الأولى ، فلما قام رسول الله ﷺ تبعه عبدالله بن عمرو بن العاص فقال : إني لاحيت أبي فأقسمت أني لا أدخل عليه ثلاثاً ، فإن رأيت أن تؤمني إليك حتى تمضي فعلت ، قال : نعم ، قال أنس : فكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث ، فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله وكبر ، حتى يقوم لصلاة الفجر ، قال عبدالله : غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً ، فلما مضت الليالي الثلاث ، وكدت أن أحتقر عمله قلت : يا عبدالله ، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرات : « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلعت أنت الثلاث مرات ، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك ؟ فأقتدي به فلم أرك تعمل كبير عمل ، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ ؟ قال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ، قال عبدالله : فهذه التي بلغت بك ، وهي التي لا تطاق . ورواه النسائي في اليوم والليلة . وهذا إسناد جيد على شرط الصحيحين .
﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ يعني حاجة أي يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم ، ويبدؤون بالناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ أي من سلم من الشح فقد أفلح ونجح .

(١٠) ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

﴿ والذين جاؤوا من بعدهم . . . ﴾ هؤلاء هم القسم الثالث ممن يستحق فقراؤهم من مال الفيء ، وهم المهاجرون ، ثم الأنصار ، ثم التابعون لهم بإحسان . ﴿ غلاً ﴾ أي بغضاً وحسداً . وما أحسن ما استنبط الإمام مالك من هذه الآية أن الذي يسب الصحابة ليس له في مال الفيء نصيب ، لعدم إنصافه بما مدح الله به هؤلاء .

(١١) ﴿ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

يخبر تعالى عن المنافقين كعبدالله بن أبي وأضرابه حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم ، فقال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا . . . ﴾ قال تعالى ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ أي لكاذبون فيما وعدهم به ، إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به ، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه .

(١٢) ﴿ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

ولهذا قال تعالى ﴿ ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ﴾ أي لا يقاتلون معهم ﴿ ولئن نصروهم ﴾ أي قاتلوا معهم ﴿ ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ﴾ وهذه بشارة مستقلة بنفسها .

(١٣) ﴿ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

﴿ لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ﴾ أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله كقوله تعالى ﴿ إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ .

(١٤) ﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ يعني أنهم من جبنهم وهلعهم لا يقدرون على مواجهة جيش الاسلام بالمبارزة والمقابلة ، بل إما في

حصون ، أو من وراء جدر محاصرين فيقاتلون للدفع عنهم ضرورة . ﴿ بأسهم بينهم شديد ﴾ أي عداوتهم فيما بينهم شديدة ﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾ أي تراهم فتحسبهم مؤتلفين ، وهم مختلفون غاية الاختلاف . قال إبراهيم النخعي : يعني أهل الكتاب والمنافقين . ﴿ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴾ .

(١٥) ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

﴿ كمثل الذين من قبلهم قريباً ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾ كمثل ما أصاب كفار قريش يوم بدر ، أو كمثل الذين من قبلهم يعني يهود بني قينقاع ، وهذا القول أشبه بالصواب فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله ﷺ قد أجلاهم قبل هذا .

(١٦) ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك ﴾ يعني مثل هؤلاء اليهود في اغترارهم بالذين وعدوهم النصر من المنافقين وقول المنافقين لهم لئن قوتلتم لننصرنكم ، ثم لما حقن الحقائق وجد بهم الحصار والقتال تخلوا عنهم وأسلموهم للهلكة ، مثالهم في هذا كمثل الشيطان إذ سول للإنسان ـ والعياذ بالله ـ الكفر ، فإذا دخل فيما سوله له تبرأ وتنصل وقال ﴿ إني أخاف الله رب العالمين ﴾ .

(١٧) ﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

﴿ فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ﴾ أي فكان عاقبة الآمر بالكفر ، والفاعل له ، ومصيرهما إلى النار خالدين فيها . ﴿ وذلك جزاء الظالمين ﴾ أي جزاء كل ظالم .

(١٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

روى الإمام أحمد عن المنذر بن جرير عن أبيه قال : كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حفاة عراة مجتالي النمار ، أو العباء ، متقلدي السيوف ، عامتهم من مضر ، بل كلهم من مضر ، فتغير وجه رسول الله ﷺ لما رأى ما بهم من الفاقة ، قال : فدخل ، ثم خرج ، فأمر بلالاً فأذن وأقام الصلاة ، فصلى ، ثم خطب فقال : ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً

كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ وقرأ ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ تصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة » قال : فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، ثم تتابع الناس ، حتى رأيت كومين من طعام وثياب ، حتى رأيت رسول الله ﷺ يتهلل وجهه كأنه مذهبة ، فقال رسول الله ﷺ « من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » انفرد بإخراجه مسلم . فقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أمر بتقواه ، وهو يشمل فعل ما أمر به ، وترك ما عنه زجر ﴿ ولتنظر نفس ما قدمت لغد ﴾ أي حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة يوم معادكم وعرضكم على ربكم ﴿ واتقوا الله ﴾ تأكيد ثان ﴿ إن الله خبير بما تعملون ﴾ أي اعلموا أنه عالم بجميع أعمالكم وأحوالكم ، لا تخفى عليه منكم خافية ، ولا يغيب عنه من أموركم جليل ولا حقير .

(١٩) ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾ أي لا تنسوا ذكر الله فينسيكم العمل لمصالح أنفسكم التي تنفعكم في معادكم ، فإن الجزاء من جنس العمل ، ولهذا قال تعالى ﴿ أولئك هم الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن طاعة الله الهالكون يوم القيامة ، الخاسرون يوم معادهم .

(٢٠) ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة ﴾ أي لا يستوي هؤلاء وهؤلاء في حكم الله تعالى يوم القيامة ﴿ أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ أي الناجون المسلَّمون من عذاب الله عز وجل .

(٢١) ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

يقول تعالى معظماً لأمر القرآن، ومبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن تخشع له القلوب، وتتصدع

عند سماعه لما فيه من الوعد الحق ، والوعيد الأكيد ﴿ لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ﴾ أي فإذا كان الجبل في غلظته وقساوته لو فهم هذا القرآن فتدبر ما فيه لخشع وتصدع من خوف الله عز وجل ، فكيف يليق بكم أيها البشر أن لا تلين قلوبكم ، وتخشع وتتصدع من خشية الله ، وقد فهمتم عن أمر الله وتدبرتم كتابه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ﴾ وقد ثبت في الحديث المتواتر أن رسول الله ﷺ لما علا المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع ، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر فعند ذلك حن الجذع وجعل يئن كما يئن الصبي الذي يسكت لما كان يسمع من الذكر والوحي عنده . ففي بعض روايات هذا الحديث قال الحسن البصري : فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله ﷺ من الجذع . وهكذا هذه الآية الكريمة إذا كانت الجبال الصم لو سمعت كلام الله وفهمته لخشعت وتصدعت من خشيته فكيف بكم وقد سمعتم وفهمتم ؟

(٢٢) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

﴿ هو الله الذي لا إلٰه إلا هو عالم الغيب والشهادة ﴾ أخبر تعالى أنه لا إلٰه إلا هو ، فلا رب غيره ، ولا إلٰه للوجود سواه ، وكل ما يعبد من دونه فباطل ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، أي يعلم جميع الكائنات المشاهدات لنا والغائبات عنا فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء من جليل وحقير وصغير وكبير حتى الذر في الظلمات ﴿ هو الرحمٰن الرحيم ﴾ والمراد أنه ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع المخلوقات ، فهو رحمٰن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

(٢٣) ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

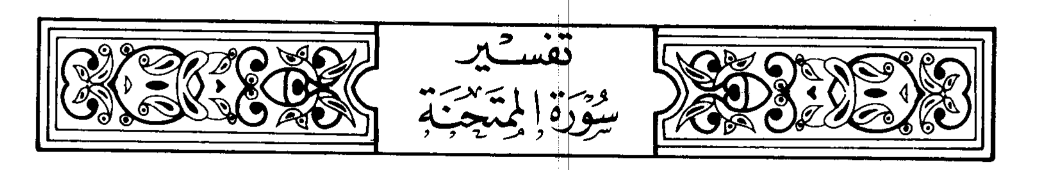
﴿ هو الله الذي لا إلٰه إلا هو الملك ﴾ أي المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ﴿ القدوس ﴾ أي الطاهر ، تقدسه الملائكة الكرام ﴿ السلام ﴾ أي من جميع العيوب والنقائص لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ المؤمن ﴾ أي أمن خلقه من أن يظلمهم ﴿ المهيمن ﴾ الشاهد على خلقه بأعمالهم ، بمعنى هو رقيب عليهم ﴿ العزيز ﴾ أي الذي قد عز كل شيء فقهره ، وغلب كل الأشياء فلا ينال جنابه لعزته وعظمته وجبروته وكبريائه ، ولهذا قال ﴿ الجبار المتكبر ﴾ أي الذي لا تليق الجبرية إلا له ، ولا التكبر إلا

لعظمته وفي الصحيح « العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما عذبته » ﴿ سبحان الله عما يشركون ﴾ .

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (٢٤)

﴿ هو الله الخالق الباريء المصور ﴾ أي الخلق والتقدير ، والبرء هو القرى ، وهو التنفيذ ، وإبراز ما قدره وقرره إلى الوجود ، وليس كل من قدر شيئاً ورتبه يقدر على تنفيذه وإيجاده سوى الله عز وجل ﴿ الخالق الباريء المصور ﴾ أي الذي إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، كقوله تعالى ﴿في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ ولهذا قال : ﴿ المصور ﴾ أي الذي ينفذ ما يريد إيجاده على الصفة التي يريدها . وقوله تعالى ﴿ له الأسماء الحسنى ﴾ وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ « إن لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة ، وهو وتر يحب الوتر » ورواه الترمذي وابن ماجه ، وزاد بعد قوله « وهو يحب الوتر » واللفظ للترمذي « هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمٰن ، الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، الخالق ، الباريء ، المصور ، الغفار ، القهار ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، العليم ، القابض ، الباسط ، الخافض ، الرافع، المعز ، المذل ، السميع ، البصير ، الحكم ، العدل ، اللطيف ، الخبير ، الحليم ، العظيم ، الغفور ، الشكور ، العلي ، الكبير ، الحفيظ ، المقيت ، الحسيب ، الجليل ، الكريم ، الرقيب ، المجيب ، الواسع ، الحكيم ، الودود ، المجيد ، الباعث ، الشهيد ، الحق ، الوكيل ، القوي ، المتين ، الولي ، الحميد ، المحصي، المبدىء ، المعيد ، المحيي ، المميت ، الحي ، القيوم ، الواجد ، الماجد ، الواحد ، الصمد ، القادر ، المقتدر ، المقدم ، المؤخر ، الأول ، الآخر ، الظاهر ، الباطن ، الوالي ، المتعالي ، البر ، التواب ، المنتقم ، العفو ، الرؤوف ، مالك الملك ، ذو الجلال والاكرام ، المقسط ، الجامع ، الغني ، المغني ، المعطي ، المانع ، الضار ، النافع ، النور ، الهادي ، البديع ، الباقي ، الوارث ، الرشيد ، الصبور . ﴿ يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز ﴾ أي فلا يرام جنابه ﴿ الحكيم ﴾ في شرعه وقدره . روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ قال : « من قال حين يصبح ثلاث مرات . أعوذ بالله السميع من الشيطان الرجيم ، ثم قرأ ثلاث آيات من آخر

سورة الحشر ، وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً ، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة » ورواه الترمذي .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (١)

كان سبب نزول صدر هذه السورة الكريمة قصة حاطب بن أبي بلتعة ، وذلك أن حاطباً هذا كان رجلاً من المهاجرين ، وكان من أهل بدر أيضاً ، وكان له بمكة أولاد ومال ، ولم يكن من قريش أنفسهم ، بل كان حليفاً لعثمان ، فلما عزم رسول الله على فتح مكة لما نقض أهلها العهد فأمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهيز لغزوهم ، وقال اللهم عم عليهم خبرنا » فعمد حاطب هذا فكتب كتاباً وبعثه مع امرأة من قريش إلى أهل مكة يعلمهم بما عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم يداً ، فأطلع الله تعالى على ذلك رسوله ﷺ استجابة لدعائه فبعث في أثر المرأة فأخذ الكتاب منها . وهذا بيِّن في هذا الحديث المتفق على صحته . ﴿ يخرجون الرسول وإياكم ﴾ هذا مع ما قبله من التهييج على عداوتهم وعدم موالاتهم لأنهم أخرجوا الرسول وأصحابه من بين أظهرهم لما هم عليهم من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ﴿ أن تؤمنوا بالله ربكم ﴾ أي لم يكن لهم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله رب العالمين ﴿ إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي ﴾ أي إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً عليكم وسخطاً لدينكم ﴿ تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ﴾ أي تفعلون ذلك وأنا العالم بالسرائر والضمائر والظواهر ﴿ ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ .

(٢) ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾

﴿ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ﴾ أي لو قدروا عليكم لما اتقوا فيكم من أذى ينالونكم به بالمقال والفعال ﴿ ودوا لو تكفرون ﴾ أي ويحرصون على أن لا تنالوا خيراً فهم عداوتهم لكم كامنة وظاهرة ، فكيف توالون مثل هؤلاء ؟ وهذا تهييج على عداوتهم أيضاً .

(٣) ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

﴿ لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾ أي قراباتكم لا تنفعكم عند الله إذا أراد الله بكم سوءاً ، ونفعهم لا يصل إليكم إذا أرضيتموهم بما يسخط الله . ومن وافق أهله على الكفر ليرضيهم فقد خاب وخسر وضل عمله ولا ينفعه عند الله قرابته من أحد ، ولو كان قريباً إلى نبي من الأنبياء . روى الإمام أحمد عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أين أبي ؟ قال : « في النار » فلما قفى دعاه فقال : « إن أبي وأباك في النار » ورواه مسلم وأبو داود .

(٤) ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين الذين أمرهم بمصارمة الكافرين وعداوتهم ومجانبتهم والتبري منهم ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه ﴾ أي وأتباعه الذين آمنوا به ﴿ إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ﴾ أي تبرأنا منكم ﴿ ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ﴾ أي بدينكم وطريقكم ﴿ وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً ﴾ يعني وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم ما دمتم على كفركم فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ أي إلى أن توحدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له ، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأوثان والأنداد . وقوله تعالى ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وذلك أن بعض المؤمنين كانوا يدعون لآبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون إن

إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأنزل الله عز وجل ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ أي ليس لكم في ذلك أسوة أي في الاستغفار للمشركين ﴿ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ أي توكلنا عليك في جميع الأمور وسلمنا أمورنا إليك وفوضناها إليك ، وإليك المصير ، أي المعاد في الدار الآخرة .

(٥) ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا ﴾ معناه لا تعذبنا بأيديهم ، ولا بعذاب من عندك ، فيقولوا لو كان هؤلاء على حق ما أصابهم هذا . ﴿ واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ أي واستر ذنوبنا عن غيرك ، واعف عنها فيما بيننا وبينك ﴿ إنك أنت العزيز ﴾ أي الذي لا يضام من لاذ بجنابك ﴿ الحكيم ﴾ في أقوالك وأفعالك وشرعك وقدرك .

(٦) ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾

﴿ لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ وهذا تأكيد لما تقدم . وقوله ﴿ لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ﴾ تهييج إلى ذلك لكل مؤمن بالله والمعاد . ﴿ ومن يتول ﴾ أي عما أمر الله به ﴿ فإن الله هو الغني الحميد ﴾ كقوله ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ الغني الذي قد كمل في غناه ، هذه صفته لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار ، والحميد المستحمد إلى خلقه ، أي هو المحمود في جميع أقواله وأفعاله ، لا إلّه غيره ولا رب سواه .

(٧) ﴿ * عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَاللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى لعباده المؤمنين بعد أن أمرهم بعداوة الكافرين ﴿ عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ﴾ أي محبة بعد البغضة ، ومودة بعد النفرة ، وألفة بعد الفرقة ﴿ والله قدير ﴾ أي على ما يشاء من الجمع بين الأشياء المتنافرة ، والمتباينة ، والمختلفة ، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة ، فتصبح مجتمعة متفقة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ أي يغفر للكافرين كفرهم إذا تابوا منه ، وأنابوا إلى ربهم ، وأسلموا له ، وهو الغفور الرحيم بكل من تاب إليه من أي ذنب .

(٨) ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ﴾ ولم يظاهروا ، أي يعاونوا على إخراجكم ، أي لا ينهاكم عن الاحسان إلى الكفرة الذين لا يقاتلونكم في الدين كالنساء والضعفة منهم ﴿ أن تبروهم ﴾ أي تحسنوا إليهم ﴿ وتقسطوا إليهم ﴾ أي تعدلوا ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ روى الإمام أحمد عن أسماء بنت أبي بكر قالت : قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا ، فأتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت وهي راغبة ، أفأصلها ؟ قال : « نعم ، صلي أمك » أخرجاه . روى الإمام أحمد : قدمت قتيلة على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا ضباب وقرظ وسمن ، وهي مشركة فأبت أسماء أن تقبل هديتها وتدخلها بيتها ، فسألت عائشة النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين . . . ﴾ فأمرها أن تقبل هديتها ، وأن تدخلها بيتها . ﴿ إن الله يحب المقسطين ﴾ في الحديث الصحيح « المقسطون على منابر من نور عن يمين العرش ، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا » .

(٩) ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ﴾ أي إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة ، فقاتلوكم وأخرجوكم ، وعاونوا على إخراجكم ، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم ، ويأمركم بمعاداتهم ، ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال ﴿ ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴾ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

جاء في معاهدة صلح الحديبية بين النبي ﷺ وبين كفار قريش أنه لا يأتينك منا أحد وإن كان على دينك إلا رددته إلينا ، فهاجرت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط فخرج أخواها : عمارة والوليد حتى قدما على رسول الله ﷺ فكلماه فيها أن يردها إليهما فنقض الله العهد بينه وبين المشركين في النساء خاصة ، فمنعهم أن يردوهن إلى المشركين ، وأنزل الله آية الامتحان ، وقد سئل ابن عباس : كيف كان امتحان رسول الله ﷺ النساء ؟ قال : كان يمتحنهن : بالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض ، وبالله ما خرجت التماس دنيا ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله . وقيل : كان امتحانهن أن يشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله . ﴿ فامتحنوهن ﴾ فاسألوهن عما جاء بهن ، فإن كان جاء بهن غضب على أزواجهن ، أو سخطة ، أو غيره ولم يؤمن فارجعوهن ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار ﴾ فيه دلالة على أن الإيمان يمكن الاطلاع عليه يقيناً ﴿ لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن ﴾ هذه الآية هي التي حرمت المسلمات على المشركين ، وقد كان جائزاً في ابتداء الإسلام أن يتزوج المشرك المؤمنة . ﴿ وآتوهم ما أنفقوا ﴾ يعني أزواج المهاجرات من المشركين ، ادفعوا إليهم الذي غرموه عليهن من الأصدقة ﴿ ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ﴾ يعني إذا أعطيتموهن أصدقتهن فانكحوهن ، أي تزوجوهن بشرطه من انقضاء العدة والولي وغير ذلك ﴿ ولا تمسكوا بعصم الكوافر ﴾ تحريم من الله عز وجل على عباده المؤمنين نكاح المشركات ، والاستمرار معهن ﴿ واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ﴾ أي وطالبوا بما أنفقتم على أزواجكم اللاتي يذهبن إلى الكفار إن ذهبن . وليطالبوا بما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين ﴿ ذلكم حكم الله يحكم بينكم ﴾ أي في الصلح واستثناء النساء منه ، والأمر بهذا كله هو حكم الله يحكم به بين خلقه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي عليم بما يصلح عباده ، حكيم في ذلك .

(١١) ﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا ﴾ هذا في الكفار الذين ليس لهم عهد إذا فرت إليهم امرأة ، ولم يدفعوا إلى زوجها شيئاً ، فإذا جاءت منهم امرأة لا يدفع إلى زوجها شيء حتى يدفع إلى زوج الذاهبة إليهم مثل نفقته عليهم .

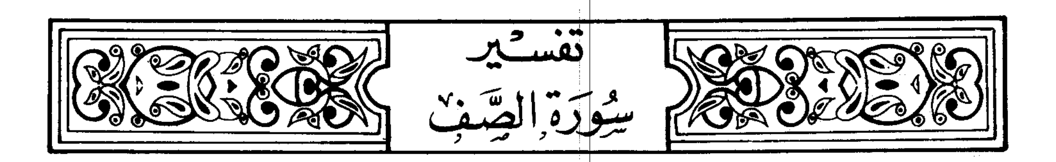
﴿١٢﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

روى البخاري عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك . . ﴾ قالت عائشة : فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله ﷺ : « قد بايعتك » كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة في المبايعة ، ما يبايعهن إلا بقوله « قد بايعتك على ذلك » . هذا لفظ البخاري .
أي من جاءك منهن يبايعنك على هذه الشروط فبايعها على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن أموال الناس الأجانب ، فإما إذا كان الزوج مقصراً في نفقتها فلها أن تأكل من ماله بالمعروف ما جرت به عادة أمثالها ، وإن كان من غير علم عملاً بحديث هند بنت عتبة أنها قالت : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني ، فهل علي جناح إن أخذت من ماله بغير علمه ؟ فقال رسول الله ﷺ : « خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك » أخرجاه في الصحيحين . وقوله تعالى ﴿ ولا يزنين ﴾ كقوله تعالى ﴿ ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ ﴿ ولا يقتلن أولادهن ﴾ وهذا يشمل قتله بعد وجوده كما كان أهل الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الاملاق ، ويعم قتله ، وهو جنين كما قد يفعله بعض الجهلة من النساء تطرح نفسها لئلا تحبل ، إما لغرض فاسد ، أو ما أشبهه ﴿ ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ﴾ أي لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهم ﴿ ولا يعصينك في معروف ﴾ فيما أمرتهن به من معروف ، ونهيتهن عنه من منكر .

﴿١٣﴾ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾

ينهي تبارك وتعالى عن موالاة الكافرين في آخر هذه السورة كما نهى عنها في أولها فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ﴾ يعني اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليه ولعنه واستحق من الله الطرد والابعاد ، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأخلاء ، وقد يئسوا من الآخرة ، أي من ثواب الآخرة ونعيمها في حكم الله عز وجل . وقوله تعالى ﴿ كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ فيه قولان

أحدهما كما يئس الكفار الأحياء من قراباتهم الذين في القبور أن يجتمعوا بهم بعد ذلك لأنهم لا يعتقدون بعثاً ، ولا نشوراً ، فقد انقطع رجاؤهم منهم فيما يعتقدونه ، والثاني يعني من مات من الذين كفروا فقد يئس الأحياء من الذين كفروا أن يرجعوا إليهم ، أو يبعثهم الله عز وجل .



روى الامام أحمد عن عبدالله بن سلام قال : تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ﷺ فيسأله أي الأعمال أحب إلى الله فلم يقم أحد منا ، فأرسل رسول الله ﷺ إلينا رجلاً فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة ، يعني سورة الصف كلها .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ﴾ إنكار على من يعد وعداً ، أو يقول قولاً لا يفي به ، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من علماء السلف إلى أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً سواء ترتب عليه عزم للموعود أم لا ، واحتجوا أيضاً من السنة بما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » .

﴿٣﴾ ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

﴿ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ روى الامام أحمد وأبو داود عن عبدالله بن عامر بن ربيعة قال : أتانا رسول الله ﷺ وأنا صبي ، فذهبت لأخرج لألعب ، فقالت أمي : يا عبدالله ، تعال أعطك ، فقال لها رسول الله ﷺ « وما أردت أن تعطيه ؟ » قالت : تمراً ، فقال : « أما إنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة » وذهب الامام مالك

رحمه الله إلى أنه إذا تعلق بالوعد عزم على الموعود وجب الوفاء به ، كما لو قال لغيره : تزوج ، ولك علي كل يوم كذا ، فتزوج وجب عليه أن يعطيه ما دام كذلك ، لأنه تعلق به حق آدمي ، وذهب الجمهور إلى أنه لا يجب مطلقاً وحملوا الآية على انها نزلت حين تمنوا فريضة الجهاد عليهم ، فلما فرض نكل عنه بعضهم . قال المؤمنون : لو نعلم أحب الأعمال إلى الله لعملنا به فدلهم الله على أحب الأعمال إليه فقال :

(٤) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾ فبين لهم فابتلوا يوم أحد بذلك فولوا عن النبي ﷺ مدبرين فنزلت هذه الآية ، وقال : أحبكم إلي من قاتل في سبيلي . روى الامام أحمد ، أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة يضحك الله إليهم : الرجل يقوم من الليل ، والقوم إذا صفُّوا للصلاة ، والقوم إذا صفُّوا للقتال » ورواه ابن ماجه . ﴿ كأنهم بنيان مرصوص ﴾ أي ملتصق بعضه ببعض ، مثبت لا يزول .

(٥) ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أنه قال لقومه ﴿ لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم ﴾ أي لم توصلون الأذى إلي ، وأنتم تعلمون صدقي فيما جئتكم به من الرسالة ، وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ فيما أصابه من الكفار من قومه وغيرهم ، وأمر له بالصبر ، ولهذا قال « رحمة الله على موسى : لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر » وفيه نهي للمؤمنين أن ينالوا من النبي ﷺ. أو يوصلوا إليه أذى ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ أي فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به أزاغ الله قلوبهم عن الهدى ، وأمسكها الشك والحيرة والخذلان ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

(٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل . . . ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي ، وأنا

مصداق ما أخبرت عنه ، وأنا مبشر بمن بعدي ، وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد ، فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني اسرائيل ، وقد أقام في ملأ بني اسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة . ﴿ فلما جاءهم بالبينات ﴾ أي فلما جاءهم أحمد ، أي المبشر به في الأعصار المتقادمة المنوه بذكره في القرون السالفة ، قال الكفرة : ﴿ هذا سحر مبين ﴾ .

(٧) ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

يقول تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يفتري الكذب على الله ، ويجعل له أنداداً وشركاء ، وهو يدعى إلى التوحيد والاخلاص ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ .

(٨) ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ (٨) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (٩)

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ أي يحاولون أن يردوا الحق بالباطل ، ومثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس بفيه ، وكما أن هذا مستحيل كذلك ذاك مستحيل ، ولهذا قال تعالى ﴿ والله متم نوره ولو كره الكافرون ﴾ .﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ .

(١٠) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ﴾ ثم فسر هذه التجارة العظيمة التي لا تبور ، التي هي محصلة للمقصود ، ومزيلة للمحذور فقال تعالى :

(١١) ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

﴿ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي من تجارة الدنيا ، والكد لها ، والتصدي لها وحدها .

(١٢) ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

﴿ يغفر لكم ذنوبكم ﴾ أي إن فعلتم ما أمرتكم به ، ودللتكم عليه غفرت لكم الزلات ، وأدخلتكم الجنات ، والمساكن الطيبات والدرجات العاليات ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ﴾ .

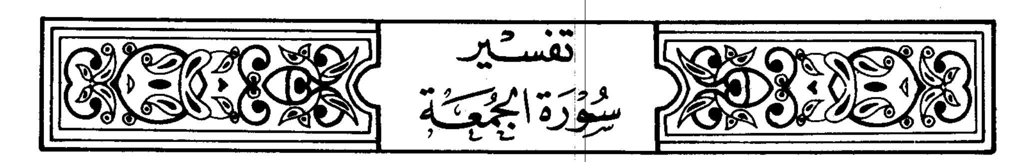
(١٣) ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ وأخرى تحبونها ﴾ أي وأزيدكم على ذلك زيادة تحبونها ، وهي ﴿ نصر من الله وفتح قريب ﴾ أي إذا قاتلتم في سبيله ، ونصرتم دينه تكفل الله بنصركم ، قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ وقوله تعالى ﴿ وفتح قريب ﴾ أي عاجل . فهذه الزيادة هي خير الدنيا موصول بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله ، ونصر الله ودينه ، ولهذا قال تعالى ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

(١٤) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم ، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى بن مريم حين قال : ﴿ من أنصاري إلى الله ﴾ أي من معيني في الدعوة إلى الله عز وجل ؟ ﴿ قال الحواريون ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿ نحن أنصار الله ﴾ أي نحن أنصارك على ما أرسلت به وموازروك على ذلك ، ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين ، وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج : « من رجل يؤ ويني حتى أبلغ رسالة ربي ، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي » حتى قيض الله له عز وجل الأوس والخزرج من أهل المدينة ، فبايعوه ووازروه وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم ، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفواله بما عاهدوا الله عليه ، ولهذا سماهم الله الأنصار وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم . ﴿ فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة ﴾ أي لما بلغ عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من

بني اسرائيل بما جاءهم به ، وضلت طائفة ، فخرجت عما جاءهم به ، وجحدوا نبوته ، ورموه وأمه بالعظائم ، وهم اليهود ، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من النبوة ، وافترقوا فرقاً وشيعاً ، فمن قائل منهم : إنه ابن الله ، وقائل : إنه ثالث ثلاثة : الأب والابن وروح القدس ، ومن قائل : إنه الله . تعالى الله عن ذلك كله . ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم ﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿ فأصبحوا ظاهرين ﴾ أي عليهم ، وذلك ببعثة محمد ﷺ .



تفسير سُورَةُ الجُمُعَةِ

عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين رواه مسلم في صحيحه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له ما في السموات وما في الأرض ، أي من جميع المخلوقات ناطقها وجامدها ﴿ الملك القدوس ﴾ أي هو مالك السموات والأرض ، المتصرف فيهما بحكمه ، وهو المقدس ، أي المنزه عن النقائص الموصوف بصفات الكمال ﴿ العزيز الحكيم ﴾ .

(٢) ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم ﴾ الأميون هم العرب ، وتخصيص الأميين بالذكر لا ينفي من عداهم ، ولكن المنة عليهم أبلغ وأكثر . وذلك أن العرب كانوا قديماً

متمسكين بدين إبراهيم الخليل عليه السلام فبدلوه وغيروه وقلبوه وخالفوه ، واستبدلوا بالتوحيد شركاً ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، وكذلك أهل الكتاب قد بدلوا كتبهم وحرفوها وغيروها وأولوها فبعث الله محمداً صلوات الله وسلامه عليه بشرع عظيم كامل ، شامل لجميع الخلق ، فيه هدايته والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة ، ورضا الله عنهم ، والنهي عما يقربهم إلى النار وسخط الله تعالى ، حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب في الأصول والفروع ، وجمع له تعالى ، وله الحمد والمنة جميع المحاسن ممن كان قبله ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ولا يعطيه أحداً من الآخرين . فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين .

(٣) ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزير الحكيم ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا جلوساً عند النبي ﷺ ، فأنزلت عليه سورة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ قالوا : من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سئل ثلاثاً ، وفينا سلمان الفارسي فوضع رسول الله ﷺ يده على سلمان الفارسي ثم قال « لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال ، أو رجل من هؤلاء » ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير ، وقيل : هم الأعاجم ، وكل من صدق النبي ﷺ وغير العرب . ﴿ وهو العزيز الحكيم ﴾ أي ذو العزة والحكمة في شرعه وقدره .

(٤) ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ يعني ما أعطاه محمداً ﷺ من النبوة العظيمة ، وما خص به أمته من بعثته ﷺ .

(٥) ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها ، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً أي كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها ، فهو

يحملها حملاً حسياً ، ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه حفظوه لفظاً ، ولم يتفهموه ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه ، وبدلوه ، فهم أسوأ حالاً من الحمير لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها ﴿ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ روى الامام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « من تكلم يوم الجمعة ، والامام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، والذي يقول أنصت ليس له جمعة » .

(٦) ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾

﴿ قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ﴾ أي إن كنتم تزعمون أنكم على هدى ، وأن محمداً وأصحابه على ضلالة فادعوا بالموت على الضال من الفئتين إن كنتم صادقين أي فيما تزعمونه .

(٧) ﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

﴿ ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم ﴾ أي بما يعملون لهم من الكفر والظلم والفجور ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ .

(٨) ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ كقوله تعالى في سورة النساء ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ﴾ .

(٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

إنما سميت الجمعة جمعة لأنها مشتقة من الجمع ، فإن أهل الإسلام يجتمعون فيه كل أسبوع مرة بالمعابد الكبار ، وفيه كمل جميع الخلائق ، فإنه اليوم السادس من السنة التي خلق الله فيها السموات والأرض ، وفيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها ، وفيه تقوم الساعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياه كما

ثبتت بذلك الأحاديث الصحيحة . وقد أمر الله تعالى المؤمنين بالاجتماع لعبادته يوم الجمعة فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ﴾ أي اقصدوا واعمدوا واهتموا في سيركم اليها ، وليس المراد بالسعي ههنا المشي السريع ، وإنما هو الاهتمام بها ، كقوله تعالى ﴿ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ﴾ فأما المشي السريع إلى الصلاة فقد نهى عنه لما أخرجاه في الصحيحين « إذا سمعتم الاقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ، ولا تسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » لفظ البخاري ﴿ فلما بلغ معه السعي ﴾ أي المشي معه . ويستحب لمن جاء إلى الجمعة أن يغتسل قبل مجيئه لما ثبت في الصحيحين « إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل » ولهما « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » وروى الامام أحمد « من اغتسل يوم الجمعة ، ومس من طيب أهله إن كان عنده ، ولبس من احسن ثيابه ، ثم خرج حتى يأتي المسجد ، فيركع إن بدا له ، ولم يؤذ أحداً ، ثم أنصت ، إذا خرج إمامه حتى يصلي كانت كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى » وقوله ﴿ إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ﴾ والمراد بهذا النداء النداء الثاني الذي كان يفعل بين يدي رسول الله ﷺ إذا خرج فجلس على المنبر ، فإنه كان حينئذٍ يؤذن بين يديه ، فهذا هو المراد ،فأما النداء الأول الذي زاده أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه فإنما كان هذا لكثرة الناس ، كما رواه البخاري رحمه الله . قوله تعالى ﴿ وذروا البيع ﴾ أي اسعوا إلى ذكر الله واتركوا البيع إذا نودي للصلاة ، ولهذا اتفق العلماء رضي الله عنهم على تحريم البيع بعد النداء الثاني ، واختلفوا هل يصح إذا تعاطاه متعاط أم لا ؟ على قولين ، وظاهر الآية عدم الصحة كما هو مقرر في موضعه . ﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ أي ترككم البيع ، وإقبالكم إلى ذكر الله وإلىٰ الصلاة خير لكم ، أي في الدنيا والآخرة إن كنتم تعلمون .

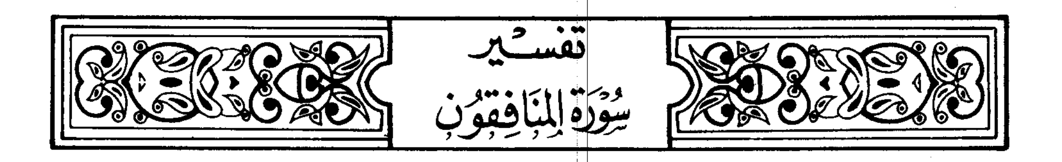
﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ فإذا قضيت الصلاة ﴾ أي فرغ منها ﴿ فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ لما حجر عليهم في التصرف بعد النداء ، أمرهم بالاجتماع أذن لهم بعد الفراغ في الانتشار في الأرض ، والابتغاء من فضل الله ، كما كان عراك بن مالك رضي الله عنه إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال : اللهم إني أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين . رواه ابن أبي حاتم ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾ أي في حال بيعكم وشرائكم وأخذكم ،

وإعطائكم اذكروا الله ذكراً كثيراً ، ولا تشغلكم الدنيا عن الذي ينفعكم في الدار الآخرة . ولهذا جاء في الحديث « من دخل سوقاً من الأسواق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة » .

(١١) ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

يعاتب تعالى على ما كان وقع من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذٍ فقال تعالى ﴿ وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً ﴾ أي على المنبر تخطب . روى الامام أحمد عن جابر قال : قدمت غير مرة المدينة ، ورسول الله ﷺ يخطب فخرج الناس وبقي اثنا عشر رجلاً فنزلت هذه الآية . أخرجاه في الصحيحين ﴿ وتركوك قائماً ﴾ دليل على أن الامام يخطب يوم الجمعة قائماً ﴿ قل ما عند الله ﴾ أي الذي عند الله من الثواب في الدار الآخرة ﴿ خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين ﴾ أي لمن توكل عليه ، وطلب الرزق في وقته .



تفسير سُورَةُ المُنَافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين أنهم إنما يتفوهون بالإسلام إذا جاؤ وا النبي ﷺ ، فأما في باطن الأمر فليسوا كذلك ، بل على الضد من ذلك ، ولهذا قال تعالى ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ﴾ أي إذا حضروا عندك واجهوك بذلك ، وأظهروا لك ذلك ، وليس كما يقولون ، ولهذا اعترض بجملة مخبرة أنه رسول الله فقال ﴿ والله يعلم إنك لرسوله ﴾ ثم قال تعالى ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ أي فيما أخبروا

به ، وإن كان مطابقاً للخارج ، لأنهم لم يكونوا يعتقدون صحة ما يقولون ولا صدقه ، ولهذا كذبهم بالنسبة إلى اعتقادهم .

(٢) ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

﴿ اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ﴾ أي اتقوا الناس بالأيمان الكاذبة ، والحلفان الآثمة ليصدقوا فيما يقولون ، فاغتربهم من لا يعرف جلية أمرهم ، فاعتقدوا أنهم مسلمون ، فربما اقتدى بهم فيما يفعلون ، وصدقهم فيما يقولون ، وهم من شأنهم أنهم كانوا في الباطن لا يألون الاسلام وأهله خبالاً ، فحصل بهذا القدر ضرر كبير على كثير من الناس ، ولهذا قال تعالى ﴿ فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ﴾ ﴿ جنة ﴾ أي تقية يتقون به القتل .

(٣) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ﴾

﴿ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ أي إنما قدر عليهم النفاق لرجوعهم عن الإيمان إلى الكفران ، واستبدالهم الضلالة بالهدى ، فطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون ، أي فلا يصل إلى قلوبهم هدى ، ولا يخلص اليها خير ، فلا تعي ولا تهتدي .

(٤) ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴾

﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ﴾ أي وكانوا أشكالاً حسنة ، وذوي فصاحة وألسنة ، وإذا سمعهم السامع يصغي إلى قولهم لبلاغتهم ، وهم مع ذلك في غاية الضعف والخور ، والهلع والجزع والجبن ، ولهذا قال تعالى : ﴿ يحسبون كل صيحة عليهم ﴾ أي كلما وقع أمر ، أو كائنة ، أو خوف يعتقدون لحينهم أنه نازل بهم ، كما قال تعالى ﴿ أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيراً ﴾ فهم جهامات وصور بلا معان ، ولهذا قال تعالى ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ أي كيف يصرفون عن الهدى إلى الضلال .روى الامام أحمد أن النبي ﷺ قال« إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ،وطعامهم نهبة ،وغنيمتهم غلول ،ولا يقربون المساجد إلا هجراً ، ولا يأتون

الصلاة إلا دبراً ، مستكبرين ، لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ (٥)

يقول تعالى مخبراً عن المنافقين عليهم لعائن الله أنهم ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ﴾ أي صدوا وأعرضوا عما قيل لهم استكباراً عن ذلك ، واحتقاراً لما قيل لهم . ولهذا قال تعالى ﴿ رأيتهم يصدون وهم مستكبرون ﴾ .

﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ (٦)

ثم جزاهم على ذلك فقال ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٨)

روى الامام أحمد عن زيد بن أرقم قال : خرجت مع عمي في غزاة فسمعت عبدالله بن أبي ابن سلول يقول لأصحابه : لا تنفقوا على من عند رسول الله ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فذكرت ذلك لعمي فذكره عمي لرسول الله ﷺ فأرسل إلي رسول الله ﷺ فحدثته ، فأرسل إلى عبدالله بن أبي ابن سلول وأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه ، فأصابني هم لم يصبني مثله قط ، وجلست في البيت ، فقال عمي : ما أردت إلا أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، قال : حتى أنزل الله ﴿ إذا جاءك المنافقون . . . ﴾ قال : فبعث إلي رسول الله فقرأها رسول الله ﷺ علي ثم قال « إن الله صدقك » .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ (٩)

يقول تعالى آمراً لعباده المؤمنين بكثرة ذكره ، وناهياً لهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذلك ، ومخبراً لهم أنه ينهاهم عن التلهي بمتاع الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره ، فإنه من الخاسرين الذين يخسرون أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ثم حثهم على الانفاق في طاعته .

(١٠) ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١١)

﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ فكل مفرط يندم عند الاحتضار ، ويسأل طول المدة ، ولو شيئاً يسيراً ليستغيث ويستدرك ما فاته ، وهيهات ، كان ما كان ، وآت ما هو آت ، وكل بحسب تفريطه ، قال الله تعالى ﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴾ وروى الترمذي عن ابن عباس قال : من كان له مال يبلغه حج بيت ربه ، أو تجب عليه فيه زكاة فلم يفعل سأل الرجعة عند الموت ، فقال رجل يا ابن عباس : اتق الله فإنما الرجعة للكفار ، فقال : سأتلو عليك بذلك قرآناً ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون ﴾ قال فما يوجب الزكاة ؟ قال : إذا بلغ المال مائتين فصاعداً ، قال : فما يوجب الحج ؟ قال : الزاد والراحلة . روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء قال : ذكرنا عند رسول الله الزيادة في العمر فقال : « إن الله لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما الزيادة في العمر أن يرزق الله العبد ذرية صالحة يدعون له ، فيلحقه دعاؤهم في قبره » .



تفسير سورة التغابن



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ﴾

هذه السورة هي آخر المسبحات ، والمخلوقات كلها تسبح بارءها وخالقها ومالكها ، ولهذا قال ﴿ له الملك وله الحمد ﴾ أي هو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلقه ويقدره ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ أي مهما أراد كان بلا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .

(٢) ﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير ﴾

﴿ هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن ﴾ أي هو الخالق لكم على هذه الصفة ، وأراد منكم ذلك ، فلا بد من وجود مؤمن وكافر ، وهو البصير بمن يستحق الهداية ممن يستحق الضلال ، وهو شهيد على أعمال عباده ، وسيجزيهم بها أتم الجزاء ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ .

(٣) ﴿ خلق السموات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير ﴾

﴿ خلق السموات والأرض بالحق ﴾ أي بالعدل والحكمة ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ أي أحسن أشكالكم كقوله تعالى ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم . الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ وكقوله ﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ﴾ وقوله تعالى ﴿ واليه المصير ﴾ أي المرجع والمآب .

(٤) ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾

ثم أخبر تعالى عن علمه بجميع الكائنات السمائية والأرضية والنفسية فقال تعالى ﴿ يعلم ما في السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور ﴾ .

(٥) ﴿ ألم يأتكم نبؤا الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأمم الماضين ، وما حل بهم من العذاب والنكال في مخالفة الرسل ، والتكذيب بالحق فقال تعالى ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل ﴾ أي خبرهم وما كان من أمرهم ﴿ فذاقوا وبال أمرهم ﴾ أي وخيم تكذيبهم ، ورديء أفعالهم ، وهو ما حل بهم في الدنيا من العقوبة والخزي ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي في الدار الآخرة مضاف إلى هذا الدنيوي .

(٦) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالحجج والدلائل والبراهين ﴿ فقالوا أبشر يهدوننا ﴾ أي استبعدوا أن تكون الرسالة في البشر ، وأن يكون هداهم على يدي بشر مثلهم ﴿ فكفروا وتولوا ﴾ أي كذبوا بالحق ، ونكلوا عن العمل ﴿ واستغنى الله ﴾ أي عنهم ﴿ والله غني حميد ﴾ .

(٧) ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار والمشركين والملحدين أنهم يزعمون أنهم لا يبعثون ﴿ قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤ ن بما عملتم ﴾ أي لتخبرن بجميع أعمالكم : جليلها وحقيرها صغيرها وكبيرها ﴿ وذلك على الله يسير ﴾ أي بعثكم ومجازاتكم ، وهذه هي الآية الثالثة التي أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربه عز وجل على وقوع المعاد ووجوده ، فالأولى في سورة يونس ﴿ ويستنبؤ نك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين ﴾ والثانية في سورة سبأ ﴿ وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ﴾ والثالثة هي هذه ﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾ .

(٨) ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ يعني القرآن ﴿ والله بما تعملون خبير ﴾ أي فلا تخفى عليه من أعمالكم خافية .

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٩)

﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ وهو يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه يجمع فيه الأولون والآخرون في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، كما قال تعالى ﴿ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ وقال تعالى ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾ وقوله تعالى ﴿ذلك يوم التغابن﴾ قال ابن عباس : هو اسم من أسماء يوم القيامة ، وذلك أن أهل الجنة يغبنون أهل النار ، وقال مقاتل بن حيان : لا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنة ، ويذهب بأولئك إلى النار ، وقد فسر ذلك بقوله تعالى ﴿ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (١٠) ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١)

يقول تعالى مخبراً بما أخبر به في سورة الحديد ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ ، وهكذا قال ههنا ﴿ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله﴾ بأمر الله ، يعني عن قدره ومشيئته ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾ أي ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره ، فصبر واحتسب ، واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه ، وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه ، ويقيناً وصدقاً ، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه ، أو خيراً منه . وعن ابن عباس ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ يعني يهد قلبه لليقين فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، أو معنى ﴿يهدقلبه﴾ يسترجع أي يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفي الحديث المتفق عليه « عجباً لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » وروى الامام أحمد عن عبادة بن الصامت أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال : « إيمان بالله ، وتصديق به ، وجهاد في سبيل الله » قال : أريد أهون من هذا يا رسول الله ، قال : « لا تتهم الله في شيء قضى لك به » لم يخرجوه .

(١٢) ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ﴾ هذا أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع ، وفعل ما به أمر ، وترك ما عنه نهى وزجر ﴿ فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ أي إن نكلتم عن العمل فإنما عليه ما حمل من البلاغ ، وعليكم ما حملتم من السمع والطاعة ، قال الزهري : من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم .

(١٣) ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

ثم قال تعالى مخبراً أنه الأحد الصمد الذي لا إلٓه غيره فقال تعالى ﴿ الله لا إلٓه إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فهذا خبر عن التوحيد ، ومعناه معنى الطلب ، أي وحدوا الالٓهية له ، وأخلصوها لديه ، وتوكلوا عليه ، كما قال تعالى ﴿ رب المشرق والمغرب لا إلٓه إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ .

(١٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الأزواج والأولاد أن منهم من هو عدو الزوج والوالد ، بمعنى أنه يلتهي به عن العمل الصالح ، كقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ فاحذروهم ﴾ يعني على دينكم . وقال مجاهد : ﴿ إن من ازواجكم وأولادكم عدواً لكم ﴾ قال : عجل الرجل على قطيعة الرحم ، أو معصية ربه ، فلا يستطيع الرجل مع حبه إلا أن يطيعه ، وعن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية فقال : رجال أسلموا من مكة فأرادوا أن يأتوا رسول الله ﷺ ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين ، فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله تعالى ﴿ وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم ﴾ رواه ابن أبي حاتم والترمذي وقال : حسن صحيح . ورواه ابن جرير والطبراني .

(١٥) ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾

﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم ﴾ يقول تعالى : إنما الأموال والأولاد فتنة ، أي اختبار وابتلاء من الله تعالى لخلقه ليعلم من يطيعه ممن يعصيه . وقوله تعالى

﴿ والله عنده ﴾ أي يوم القيامة . ﴿ أجر عظيم ﴾ روى الامام أحمد عن عبدالله بن بريدة سمعت أبا بريدة يقول : كان رسول الله ﷺ يخطب ، فجاء الحسن والحسين رضي الله عنهما ، عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران ، فنزل رسول الله ﷺ من المنبر فحملها فوضعهما بين يديه ، ثم قال « صدق الله ورسوله ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران ، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما» ورواه أهل السنن .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ⑯

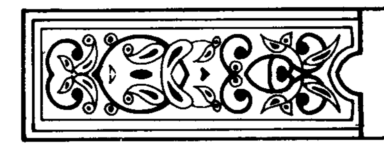
﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ أي جهدكم وطاقتكم كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » . روى ابن أبي حاتم في قوله ﴿ اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ قال : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيبهم ، وتقرصت جباههم، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾ أي كونوا منقادين لما يأمركم به الله ورسوله ، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة ، ولا تقدموا بين يدي الله ورسوله ولا تتخلفوا عما به أمرتم ، ولا ترتكبوا ما عنه زجرتم . وقوله ﴿ وأنفقوا خيراً لأنفسكم ﴾ أي وابذلوا مما رزقكم الله على الأقارب والفقراء والمساكين وذوي الحاجات ، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله اليكم يكن خيراً لكم في الدنيا والآخرة ، وإن لم تفعلوا يكن شراً لكم في الدنيا والآخرة ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ⑰ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ ⑱

﴿ إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ﴾ أي مهما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ، ومهما تصدقتم من شيء فعليه جزاؤه ونزل ذلك منزلة القرض له كما ثبت في الصحيحين أن الله يقول : من يقرض غير ظلوم ولا عديم . ولهذا قال ﴿ يضاعفه لكم ويغفر لكم ﴾ أي ويكفر عنكم سيئاتكم ﴿ والله شكور ﴾ أي يجزي على القليل بالكثير ﴿ حكيم ﴾ أي يصفح ويغفر ويستر ويتجاوز عن الذنوب والزلات والخطايا والسيئات .



تفسير سُورَةُ الطَّلَاق



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ (١)

خوطب النبي ﷺ أولاً تشريفاً وتكريماً ، ثم خاطب الأمة تبعاً فقال تعالى ﴿ يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : طلق رسول الله ﷺ حفصة فأتت أهلها فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فقيل له : راجعها ، فإنها صوامة قوامة ، وهي من أزواجك ونسائك في الجنة ، ورواه ابن جرير . وروى البخاري أن عبدالله بن عمر طلق امرأة له وهي حائض ، فذكر عمر لرسول الله ﷺ فتغيظ رسول الله ﷺ ثم قال : « ليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض فتطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهراً قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر بها الله عز وجل . ورواه مسلم ، ولفظه « فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء » . قسم الفقهاء الطلاق إلى طلاق سنة ، وطلاق بدعة ، فطلاق السنة أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، أو حاملاً قد استبان حملها ، والبدعة هو أن يطلقها في حال الحيض ، أو في طهر قد جامعها فيه ، ولا يدري أحملت أم لا ، وطلاق ثالث ، لا سنة فيه ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والآيسة ، وغير المدخول بها ﴿ وأحصوا العدة ﴾ أي احفظوها ، واعرفوا ابتداءها وانتهاءها لئلا تطول العدة على المرأة فتمتنع من الأزواج ﴿ واتقوا الله ربكم ﴾ أي في ذلك ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن ﴾ أي في مدة العدة لها حق السكنى على الزوج ما دامت معتدة منه ، فليس للرجل أن يخرجها ، ولا يجوز لها أيضاً الخروج لأنها معتقلة لحق الزوج أيضاً ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ أي لا يخرجن من بيوتهن إلا أن ترتكب المرأة فاحشة مبينة فتخرج من المنزل ، والفاحشة المبينة تشمل الزنا ، وتشمل ما إذا نشزت المرأة ، أو بذت على أهل الرجل وآذتهم في الكلام والفعال ﴿ وتلك حدود الله ﴾ أي شرائعه ومحارمه ﴿ ومن يتعد حدود الله ﴾ أي يخرج عنها ويتجاوزها إلى غيرها ولا يأتمر بها

﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ أي بفعل ذلك ﴿ لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ﴾ أي إنما أبقينا المطلقة في منزل الزوج في مدة العدة لعل الزوج يندم على طلاقها ، ويخلق الله في قلبه رجعتها ، فيكون ذلك أيسر وأسهل .

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ﴿٣﴾

يقول تعالى فإذا بلغت المعتدات أجلهن ، أي شارفن على انقضاء العدة ، وقاربن ذلك ، ولكن لم تفرغ العدة بالكلية فحينئذٍ إما أن يعزم الزوج على إمساكها ، وهو رجعتها إلى عصمة نكاحه ، والاستمرار بها على ما كانت عليه عنده ﴿ بمعروف ﴾ أي محسناً إليها في صحبتها ، وإما أن يعزم على مفارقتها بمعروف ، أي من غير مقابحة ولا مشاتمة ولا تعنيف ، بل يطلقها على وجه جميل ، وسبيل حسن . ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ﴾ أي على الرجعة إذا عزمتم عليها ﴿ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ أي هذا الذي أمرناكم به من الإشهاد وإقامة الشهادة إنما يأتمر به من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يخاف عقاب الله في الدار الآخرة ، ومن ههنا ذهب الشافعي في أحد قوليه إلى وجوب الاشهاد في الرجعة كما يجب عنده في ابتداء النكاح وقد قال بهذا طائفة من العلماء ، ومن قال بهذا يقول : إن الرجعة لا تصح إلا بالقول ليقع الاشهاد عليها . وقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ أي ومن يتق الله فيما أمره به ، وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، أي من جهة لا تخطر بباله . روى الإمام أحمد عن أبي ذر قال : جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ حتى فرغ من الآية ثم قال : « يا أبا ذر ، لو أن الناس كلهم أخذوا بها لكفتهم » قال فجعل يتلوها ويرددها علي حتى نعست ، ثم قال « يا أبا ذر كيف تصنع إذا أخرجت من المدينة ؟ » قلت : إلى السعة والدعة فأكون حمامة من حمام مكة ، قال : « كيف تصنع إذا أخرجت من مكة ؟ » قال : إلى السعة والدعة ، إلى الشام والأرض المقدسة ، قال : « وكيف تصنع إذا أخرجت من الشام » ؟ قلت : إذاً والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي ، قال :

« أوخير من ذلك » قلت : أوخير من ذلك ؟ قال : « تسمع وتطيع ، وإن كان عبداً حبشياً » ﴿ إن الله بالغ أمره ﴾ أي منفذ قضاءه وأحكامه في خلقه بما يريده ويشاؤه وقد جعل الله لكل شيء قدراً كقوله تعالى ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾

﴿٤﴾ ﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴾

يقول تعالى مبيناً لعدة الآيسة ، وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها أنها ثلاثة أشهر عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض ، وكذا الصغار اللائي لم يبلغن سن الحيض ، إن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر ، ولهذا قال تعالى ﴿ واللائي لم يحضن ﴾ وقوله تعالى ﴿ إن ارتبتم ﴾ أي إن رأين دماً وشككتم في كونه حيضاً أو استحاضة ، وارتبتم فيه ، أو إن ارتبتم في حكم عدتهن ، ولم تعرفوه فهو ثلاثة أشهر ﴿ وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن ﴾ أي ومن كانت حاملاً فعدتها بوضعه ، ولو كان بعد الطلاق أو الموت بفواق ناقة في قول جمهور العلماء من السلف والخلف . ﴿ ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً ﴾ أي يسهل له أمره وييسره عليه ، ويجعل له فرجاً قريباً ومخرجاً عاجلاً .

﴿٥﴾ ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾

﴿ ذلك أمر الله أنزله إليكم ﴾ أي حكمه وشرعه أنزله إليكم بواسطة رسول الله ﷺ ﴿ ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴾ أي يذهب عنه المحذور ، ويجزل له الثواب على العمل اليسير .

﴿٦﴾ ﴿ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده إذا طلق أحدهم المرأة أن يسكنها في منزله حتى تنقضي عدتها فقال ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم ﴾ أي عندكم ﴿ من وجدكم ﴾ يعني سعتكم ، قال قتادة : إن لم تجد إلا جنب بيتك فأسكنها فيه ﴿ ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ﴾ يعني يضارها لتفتدي منه بمالها ، أو تخرج من مسكنه ، أو يطلقها فإذا بقي يومان راجعها . ﴿ وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ﴾ قال كثير من العلماء : هذه في البائن

إن كانت حاملاً أنفق عليها حتى تضع حملها ، قالوا : بدليل أن الرجعية تجب نفقتها سواء كانت حاملاً ، أو حائلاً ، وقال آخرون : بل السياق كل في الرجعيات ، وإنما نص على الانفاق على الحامل ، وإن كانت رجعية لأن الحمل تطول مدته غالباً ، فاحتيج إلى النص على وجوب الانفاق إلى الوضع لئلا يتوهم أنه إنما تجب النفقة بمقدار مدة العدة . ﴿ فإن أرضعن لكم ﴾ أي إذا وضعن حملهن وهن طوالق فقدبن بانقضاء عدتهن ، ولها حينئذٍ أن ترضع الولد ، وأن تمتنع منه ، ولكن بعد أن تغذيه باللبأ ، وهو باكورة اللبن الذي لا قوام للمولود غالباً إلا به ، فإن أرضعت استحقت أجر مثلها ، ولها أن تعاقد أباه أو وليه على ما ينفقان عليه من أجرة ، ولهذا قال تعالى ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾ وقوله تعالى ﴿ وأتمروا بينكم بمعروف ﴾ أي ولتكن أموركم فيما بينكم بالمعروف من غير إضرار ولا مضارة ﴿ وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾ أي وإن اختلف الرجل والمرأة فطلبت المرأة في أجرة الرضاع كثيراً ، ولم يجبها الرجل إلى ذلك ، أو بذل الرجل قليلاً ولم توافقه عليه فليسترضع له غيرها ، فلو رضيت الأم بما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها .

(٧) ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾

﴿ لينفق ذو سعة من سعته ﴾ أي لينفق على المولود والده أو وليه بحسب قدرته ﴿ ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ كقوله تعالى ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ وقوله تعالى ﴿ سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴾ وعد منه تعالى ، ووعده حق لا يخلفه ، وهذه كقوله تعالى ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾ .

(٨) ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

يقول تعالى متوعداً لمن خالف أمره وكذب رسله ، وسلك غير ما شرعه ، ومخبراً عما حصل بالأمم السالفة بسبب ذلك فقال تعالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربها ورسله ﴾ أي تمردت وطغت واستكبرت عن اتباع أمر الله ، ومتابعة رسله ﴿ فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً ﴾ أي منكراً فظيعاً .

(٩) ﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾

﴿ فذاقت وبال أمرها ﴾ أي غب مخالفتها ، وندموا حيث لا ينفعهم الندم ﴿ وكان عاقبة أمرها خسراً ﴾ .

(١٠) ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴾

﴿ أعد الله لهم عذاباً شديداً ﴾ أي في الدار الآخرة ، مع ما لهم من العذاب في الدنيا . ﴿ فاتقوا الله يا أولي الألباب ﴾ أي الأفهام المستقيمة ، لا تكونوا مثلهم فيصيبكم ما أصابهم يا أولي الألباب ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بالله ورسله ﴿ قد أنزل الله إليكم ذكراً ﴾ يعني القرآن ، كقوله تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ .

(١١) ﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾

﴿ رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبينات ﴾ أي في حال كونها مبينة واضحة جلية ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ أي من ظلمات الكفر ، والجهل إلى نور الإيمان والعلم ، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نوراً لما يحصل به من الهدى ، كما سماه روحاً لما يحصل به من حياة القلوب . ﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً قد أحسن الله له رزقاً ﴾ .

(١٢) ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته التامة ، وسلطانه العظيم ، ليكون ذلك باعثاً على تعظيم ما شرع من الدين القويم ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ﴾ أي سبعاً أيضاً كما ثبت في الصحيحين « من ظلم قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين » وفي صحيح البخاري « خسف به إلى سبع أرضين » ومن حمل ذلك على سبعة أقاليم فقد أبعد النجعة ، وأغرق في النزع ، وخالف القرآن والحديث بلا مستند .



تفسير سُورَةُ التَّحْرِيمِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴿٣﴾

قيل : نزلت في شأن مارية ، وكان رسول الله ﷺ قد حرمها . روى النسائي عن أنس أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها ، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها فأنزل الله عز وجل هذه الآية . وروى ابن جرير أن رسول الله ﷺ أصاب أم إبراهيم في بيت بعض نسائه ، فقالت : أي رسول الله ، في بيتي وعلى فراشي ، فجعلها عليه حراماً فقالت : أي رسول الله ، كيف يحرم عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل ، كما في البخاري عند هذه الآية عن عائشة قالت : كان النبي ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، ويمكث عندها ، فتواطأت أنا وحفصة على أيتنا ، دخل عليها فلتقل له : أكلت مغافير ، إني أجد منك ريح مغافير ، قال : « لا ، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود له ، وقد حلفت ، لا تخبري بذلك أحداً » ﴿ تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم ﴾ ﴿ وإن تظاهرا عليه ﴾ عائشة وحفصة . ﴿ وصالح المؤمنين ﴾ أبو بكر وعمر ، أو علي بن أبي طالب . روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : قال عمر : بلغني شيء كان بين أمهات المؤمنين وبين النبي ﷺ ، فاستقريتهن أقول : لتكفن عن رسول الله ﷺ ، أو ليبدلنه الله أزواجاً خيراً منكن ، حتى أتيت آخر أمهات المؤمنين فقالت : يا عمر ، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن ، فأنزل الله ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن. . . ﴾ وهذه المرأة التي ردته هي أم سلمة ، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري .

(٤) ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

﴿ إن تتوبا إلى الله . . . ﴾ قال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، ما يشق عليك من أمر النساء ؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكال ، وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك . وقلما تكلمت ـ وأحمد الله ـ بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولي فنزلت هذه الآية : آية التخير ﴿ عسى ربه إن طلقكن . . . ﴾ .

(٥) ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ قَـٰنِتَـٰتٍ تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ ثَيِّبَـٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾

﴿ سائحات ﴾ صائمات ، أو مهاجرات ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ منهن ثيبات ، ومنهن أبكار ليكون ذلك أشهى إلى النفس ، فإن التنوع يبسط النفس .

(٦) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾

﴿ قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ﴾ أدبوهم وعلموهم أن يعملوا بطاعة الله ، ويتقوا معاصيه . روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن رسول الله ﷺ : « مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، فإذا بلغ عشر سنين فاضربوه عليها » قال الفقهاء : وهكذا في الصوم ، ليكون ذلك تمريناً له على العبادة لكي يبلغ وهو يستمر على العبادة والطاعة ومجانبة المعصية وترك المنكر . ﴿ وقودها الناس ﴾ وقودها أي حطبها الذي يلقى فيها جثث بني آدم ﴿ والحجارة ﴾ قيل : المراد بها الأصنام التي تعبد ، لقوله تعالى ﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ﴾ وقيل : هي حجارة من كبريت أنتن من الجيف . روى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً . . . ﴾ وعنده بعض أصحابه ، وفيهم شيخ ، فقال الشيخ : يا رسول الله ، حجارة جهنم كحجارة الدنيا ؟ فقال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لصخرة من صخر جهنم أعظم من جبال الدنيا كلها » قال : فوقع الشيخ مغشياً عليه ، فوضع النبي ﷺ يده على فؤاده ، فإذا هو حي ، فناداه قال : « يا شيخ ، قل : لا إله إلا الله » فقالها فبشره بالجنة ، فقال أصحابه : يا رسول الله أمن بيننا ؟ قال : « نعم » يقول الله تعالى ﴿ ذلك

لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ » هذا حديث مرسل غريب . ﴿ عليها ملائكة غلاظ ﴾ أي طباعهم غليظة ، قد نزعت من قلوبهم الرحمة بالكافرين بالله ﴿ شداد ﴾ أي تركيبهم في غاية الشدة والكثافة والمنظر المزعج . ﴿ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ أي مهما أمر به تعالى يبادرون إليه ، لا يتأخرون عنه طرفة عين ، وهم قادرون على فعله ، ليس بهم عجز عنه ، وهؤلاء هم الزبانية . عياذاً بالله منهم .

(٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾

﴿ يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾ أي يقال للكفرة يوم القيامة : لا تعتذروا فإنه لا يقبل منكم ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون ، وإنما تجزون اليوم بأعمالكم .

(٨) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾ أي توبة صادقة جازمة تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب ، وتجمعه ، وتكفه عما كان يتعاطاه من الدناءات . ﴿ توبة نصوحاً ﴾ يتوب ثم لا يعود ، روى الإمام أحمد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « التوبة من الذنب أن يتوب منه ثم لا يعود فيه » . ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح هو أن يقلع عن الذنب في الحاضر ، ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل ، ثم إن كان الحق لآدمي رده إليه بطريقة . وهل من شرط التوبة النصوح الاستمرار على ذلك إلى الممات ، كما في الحديث « ثم لا يعود فيه أبداً » أو يكفي العزم على أن لا يعود في تكفير الماضي بحيث لو دفع منه ذلك الذنب بعد ذلك لا يكون ضاراً في تكفير ما تقدم لعموم قوله عليه الصلاة والسلام « التوبة تجب ما قبلها » وللأول أن يحتج بما ثبت في الصحيح « من أحسن في الإسلام لم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية ، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر » . فإذا كان هذا في الإسلام الذي هو أقوى من التوبة فالتوبة بطريق الأولى . ﴿ عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ و« عسى » من الله موجبة ﴿ يوم لا يخزي الله

النبي والذين آمنوا معه ﴾ أي ولا يخزيهم معه ، يعني يوم القيامة ﴿ نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير ﴾ .

(٩) ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله بجهاد الكفار والمنافقين ، هؤلاء بالسلاح والقتال ، وهؤلاء باقامة الحدود عليهم ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أي في الدنيا ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ أي في الآخرة .

(١٠) ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾

﴿ ضرب الله مثلاً للذين كفروا ﴾ أي في مخالطتهم المسلمين ، ومعاشرتهم لهم أن ذلك لا يجدي عنهم شيئاً ، ولا ينفعهم عند الله إن لم يكن الإيمان حاصلاً في قلوبهم ﴿ امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ﴾ نبيين رسولين عندهما في صحبتهما ليلاً ونهاراً يؤاكلانهما ويضاجعانهما ويعاشرانهما أشد العشرة والاختلاط ﴿ فخانتاهما ﴾ أي في الايمان ، لم توافقاهما على الإيمان ، ولا صدقتاهما في الرسالة ، فلم يجد ذلك كل شيئاً ، ولا دفع عنهما محذوراً ، ولهذا قال ﴿ فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ﴾ أي لكفرهما ﴿ وقيل ﴾ أي للمرأتين ﴿ ادخلا النار مع الداخلين ﴾ . وليس المراد بقوله ﴿ فخانتاهما ﴾ في فاحشة ، بل في الدين ، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة لحرمة الأنبياء ، أما خيانة امرأة نوح فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما خيانة امرأة لوط فكانت تدل قومها على أضيافه . وقد استدل بهذه الآية الكريمة بعض العلماء على ضعف الحديث الذي يأثره كثير من الناس : من أكل مع مغفور له غفر له . وهذا الحديث لا أصل له ، وإنما يروي هذا بعض الصالحين أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال : يا رسول الله ، أنت قلت : من أكل مع مغفور له غفر له ؟ قال : لا ، ولكني الآن أقوله .

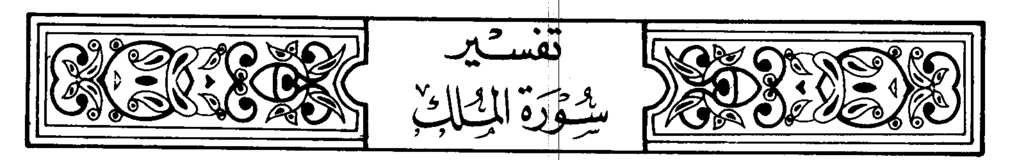
(١١) ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

وهذا مثل ضربه الله للمؤمنين أنهم لا تضرهم مخالطة الكافرين إذا كانوا محتاجين اليهم كما قال تعالى ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك

فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ قال قتادة : كان فرعون أعتى أهل الأرض . وأكفرهم ، فوالله ما ضر امرأته كفر زوجها حين أطاعت ربها ، ليعلموا أن الله حكم عدل ، لا يؤاخذ أحداً إلا بذنبه ﴿ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ﴾ قالت العلماء : اختارت الجار قبل الدار ﴿ ونجني من فرعون وعمله ﴾ أي خلصني منه ، فإني أبرأ اليك من عمله ﴿ ونجني من القوم الظالمين ﴾ وهذه المرأة هي آسية بنت مزاحم .

(١٢) ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾

﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها ﴾ أي حفظته وصانته ، والإحصان هو العفاف والحرية ﴿ فنفخنا فيه من روحنا ﴾ أي بواسطة الملك ، وهو جبريل ، فإن الله بعثه اليها فتمثل لها في صورة بشر سوي ، وأمره الله أن ينفخ بفيه في جيب درعها ، فنزلت النفخة فولجت في فرجها ، فكان منه الحمل بعيسى عليه السلام ، ولهذا قال تعالى ﴿ فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه ﴾ أي بقدره وشرعه ﴿ وكانت من القانتين ﴾ وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت عمران ، وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام » .



روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة في القرآنين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذي بيده الملك » ورواه أهل السنن الأربعة .



(١) ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أي هو المتصرف في جميع المخلوقات بما يشاء ، لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل ، لقهره وحكمته وعدله ، ولهذا قال ﴿ وهو على كل شيء قدير ﴾ .

(٢) ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾

﴿ الذي خلق الموت والحياة ﴾ استدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودي ، لأنه مخلوق ، ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم ، أي ليختبرهم أيهم أحسن عملاً كما قال تعالى ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ﴾ فسمي الحال الأول ، وهو العدم موتاً ، وسمي هذه النشأة حياة ، ولهذا قال ﴿ ثم يميتكم ثم يحييكم ﴾ روى ابن أبي حاتم : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أذل بني آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ، ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ، ثم دار بقاء » ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ أي خير عملاً ، ولم يقل : أكثر عملاً ﴿ وهو العزيز الغفور ﴾ أي هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب وأناب بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

(٣) ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾

﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً ﴾ أي طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات ، بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثاني ، كما دل على ذلك حديث الاسراء . ﴿ ما ترى في خلق الرحمٰن من تفاوت ﴾ ليس فيه اختلاف ولا تنافر ، ولا مخالفة ، ولا نقص ، ولا عيب ، ولا خلل ، ولهذا قال تعالى ﴿ فارجع البصر هل ترى من فطور ﴾ أي انظر إلى السماء فتأملها هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ، أو شقوقاً .

(٤) ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾

﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ مرتين ﴿ ينقلب إليك البصر خاسئاً ﴾ ذليلاً صاغراً ﴿ وهو حسير ﴾ وهو كليل ، من الإعياء، ومعنى الآية أنك لو كررت البصر مهما كررت لرجع إليك البصر ﴿ خاسئاً ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً .

(٥) ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾

﴿ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح ﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت ﴿ وجعلناها رجوماً للشياطين ﴾ عاد الضمير في قوله ﴿ وجعلناها ﴾ على جنس المصابيح ، لا على عينها ، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء ، بل بشهب من

دونها ، وقد تكون مستمدة منها . والله أعلم ﴿ وأعتدنا لهم عذاب السعير ﴾ أي جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى .

(٦) ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

﴿ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴾ أي بئس المآل والمنقلب .

(٧) ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾

﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً ﴾ يعني الصياح ﴿ وهي تفور ﴾ تغلي بهم كما يغلي الحب القليل في الماء الكثير .

(٨) ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾

﴿ تكاد تميز من الغيظ ﴾ أي يكاد ينفصل بعضها من بعض من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ﴿ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴾ .

(٩) ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾

يذكر تعالى عدله في خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، وإرسال الرسول اليه ، كما قال تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ﴾ .

(١٠) ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير ﴾ أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها ، أو نسمع ما أنزله الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله ، والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم .

(١١) ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

﴿ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم » وفي حديث آخر « لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة » .

(١٢) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصي ، ويقوم بالطاعات حيث لا يراه احد إلا الله تعالى بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أي تكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت في الصحيحين « سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » فذكر منهم امرأة دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » . وروى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن أنس ، قال : قالوا : يا رسول الله : إنا نكون عندك على حال ، فإذا فارقناك ، كنا على غيره ، قال : كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا : الله ربنا في السرو العلانية، قال : « ليس ذلكم النفاق » .

(١٣) ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

﴿ وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ﴾ أي بما يخطر في القلوب .

(١٤) ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

﴿ ألا يعلم من خلق ﴾ ؟ أي ألا يعلم الخالق ، وقيل : معناه ألا يعلم الخالق مخلوقه ؟ والأول أولى ، لقوله ﴿ وهو اللطيف الخبير ﴾ .

(١٥) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾

ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض ، وتذليله إياها لهم ، بأنه جعلها قارة ساكنة ، لا يمتد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأ فيها من المنافع ، ومواضع الزروع والثمار ، فقال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها ﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها وترددوا في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم ، ولهذا قال ﴿ وكلوا من رزقه ﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل . روى الامام أحمد عن رسول الله ﷺ « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً » رواه الترمذي والنسائي ، وابن ماجه ﴿ وإليه النشور ﴾ أي المرجع يوم القيامة . ﴿ في مناكبها ﴾ هي الجبال . روى ابن أبي حاتم أنه قرأ هذه الآية ﴿ فامشوا في مناكبها ﴾ فقال لأم ولد له : إن علمت ما مناكبها ؟ فأتت عتيقة ، فقالت : هي الجبال ، فسأل أبا الدرداء ، فقال : هي الجبال .

(١٦) ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾

وهـذا أيضـاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم به ، وعبادتهم معه غيره ، وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ، ولا يعجل كما قال تعالى ﴿ ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ﴾ وقال ههنا ﴿ أإمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ أي تذهب وتجيء وتضطرب .

(١٧) ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾

﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي ريحاً فيها حصباء تدفعكم ، كما قال تعالى ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ ، وهكذا توعدهم ههنا بقوله ﴿ فستعلمون كيف نذير ﴾ أي كيف يكون إنذاري وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

(١٨) ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

﴿ ولقد كذب الذين من قبلهم ﴾ أي من الأمم السالفة ، والقرون الخالية ﴿ فكيف كان نكير ﴾ أي فكيف كان انكاري عليهم ، ومعاقبتي لهم ، أي عظيماً شديداً .

(١٩) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾

﴿ أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبض ﴾ أي تارة يصففـن أجنحتهن في الهواء ، وتارة تجمع جناحاً ، وتنشر جناحاً ﴿ ما يمسكهن ﴾ أي في الجو ﴿ إلا الرحمٰن ﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه ﴿ إنه بكل شيء بصير ﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته ، وهذه كقوله تعالى ﴿ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾

(٢٠) ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصراً ورزقاً منكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه فقال تعالى ﴿ أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمٰن ﴾ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ، ولهذا قال تعالى ﴿ إن الكافرون إلا في غرور ﴾ .

(٢١) ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه ﴾ أي من هذا الذي إذا قطع الله

عنكم رزقه يرزقكم بعده ، أي لا أحد يعطي ويمنع ، ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله وحده لا شريك له ، أي وهم يعلمـون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ، ولهذا قال ﴿ بل لجوا ﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ في عتو ونفور ﴾ أي في معاندة واستكبار ونفور على ادبارهم عن الحق ، لا يسمعون له ولا يتبعونه .

﴿٢٢﴾ ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

ثم قال تعالى ﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكباً على وجهه ، أي يمشي منحنياً ، لا مستوياً على وجهه ، أي لا يدري أين يسلك ، ولا كيف يذهب ، بل تائه حائر ضال ، أهذا أهدي ﴿ أمن يمشي سوياً ﴾ أي منتصب القامة ﴿ على صراط مستقيم ﴾ أي على طريق واضح بين ، وهو في نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة ، هذا مثلهم في الدنيا ، وكذلك يكونون في الآخرة ، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم ، يفضي به إلى الجنة الغيماء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿ أحشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴾ أزواجهم : أشباههم . روى الامام أحمد : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » ؟ وهذا الحديث مخرج في الصحيحين .

﴿٢٣﴾ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

﴿ قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴾ أي العقول والادراك ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ أي قلما تستعملون هذه القوى التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره ، وترك مزاجره .

﴿٢٤﴾ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

﴿ قل هو الذي ذرأكم في الأرض ﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض وأرجائها مع اختلاف ألسنتكم في لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم ، وأشكالكم وصوركم ﴿ وإليه تحشرون ﴾ أي تجمعون بعد هذا التفرق والشتات يجمعكم كما فرقكم ، ويعيدكم كما بدأكم .

٢٥ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾ أي متى يقع هذا الذي تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد التفرق .

٢٦ ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

﴿ قل إنما العلم عند الله ﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عز وجل ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿ وإنما أنا نذير مبين ﴾ أي ، وإنما علي البلاغ ، وقد أديته إليكم .

٢٧ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾

﴿ فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا ﴾ أي لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ، لأن كل ما هو آت آت ، وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أي فأحاط بهم ذلك ، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون . وبدا لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿ هذا الذي كنتم به تدعون ﴾ أي تستعجلون .

٢٨ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

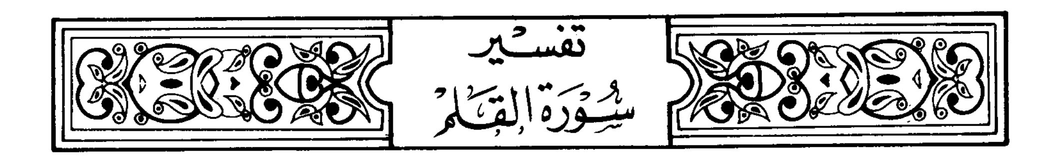
يقول تعالى ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله ، الجاحدين لنعمه ﴿ أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ أي خلصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والانابة والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله ، أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

٢٩ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

﴿ قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا ﴾ أي آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه توكلنا في جميع أمورنا ، كما قال تعالى ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ ، ولهذا قال تعالى ﴿ فستعلمون من هو في ضلال مبين ﴾ أي منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة .

(٣٠) ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾

ثم قال تعالى إظهاراً للرحمة في خلقه ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً ﴾ أي ذاهباً في الأرض إلى أسفل ، فلا ينال بالفؤوس الحداد، ولا السواعد الشداد ، والغائر عكس النابع . ولهذا قال تعالى ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض ، أي لا يقدر على ذلك إلا الله عز وجل ، فمن فضله وكرمه أنبع لكم المياه ، وأجراها في سائر أقطار الأرض بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة ، والكثرة ، فلله الحمد والمنة .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾

قد تقدم الكلام على حروف الهجاء في أول سورة البقرة ؛ وأن قوله ﴿ ن ﴾ كقوله ﴿ ص ، ق ﴾ ﴿ والقلم ﴾ الظاهر أنه جنس القلم الذي يكتب به ، كقوله ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ فهو قسم منه تعالى ، وتنبيه لخلقه على ما أنعم به عليهم من تعليم الكتابة التي بها تنال العلوم . ﴿ وما يسطرون ﴾ وما يكتبون ، أو وما يعملون ، أي وما يسطرون يعني الملائكة ، وما تكتب من أعمال العباد .

(٢) ﴿ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾

﴿ ما أنت بنعمة ربك بمجنون ﴾ أي لست ـ ولله الحمد ـ بمجنون كما يقوله الجهلة من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين فنسبوك فيه إلى الجنون .

(٣) ﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴾

﴿ وإن لك لأجراً غير ممنون ﴾ أي بل إن لك الأجر العظيم ، والثواب الجزيل الذي لا

ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق ، وصبرك على أذاهم . ومعنى غير ممنون : غير مقطوع ، كقوله ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ ﴿ فلهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع عنهم :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٤)

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ وإنك لعلى دين عظيم ، وهو الإسلام ، أو لعلى أدب عظيم . سئلت عائشة عن خُلُق رسول الله قالت : كان خلقه القرآن ، تقول : كما هو في القرآن ، ومعنى هذا أنه عليه الصلاة والسلام صار امتثال القرآن امراً ونهياً ، سجية له فمهما أمره القرآن فعله ، ومهما نهاه عنه تركه ، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم ، من الحياء والكرم والشجاعة والصفح والحلم ، وكل خلق جميل ، كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال : خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال : أف قط ، ولا قال لشيء فعلته لم فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله : ألا فعلته ؟ وكان ﷺ أحسن الناس خلقاً ، ولا مسست خزاً ولا حريراً ولا شيئاً كان ألينْ من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت مسكاً ولا عطراً كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ . روى البخاري : كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهاً ، وأحسن الناس خلقاً ، ليس بالطويل ولا بالقصير . وروى الامام أحمد عن عائشة قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادماً له قط ، ولا ضرب امرأة ، ولا ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا خير بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإذا كان إثماً كان أبعد الناس من الاثم ، ولا انتقم من شيء يؤتى إليه إلا أن تنتهك حرمات الله ، فيكون هو ينتقم لله عز وجل . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » تفرد به الإمام أحمد .

﴿ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴾ (٥)

﴿ فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون ﴾ أي فستعلم يا محمد ، وسيعلم مخالفوك ومكذبوك من المفتون الضال منك ومنهم ؟

﴿ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴾ (٦)

وهذا كقوله تعالى ﴿ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر ﴾ كقوله تعالى ﴿ وإنا أو إياكم لَعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ ⑦

﴿ إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ أي هو يعلم تعالى أي الفريقين منكم ومنهم هو المهتدي ، ويعلم الحزب الضال عن الحق .

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ⑧ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ⑨ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ⑩ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ⑪ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ⑫ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ⑬ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ⑭ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑮ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ ⑯

يقول تعالى : كما أنعمنا عليك وأعطيناك الشرع المستقيم ، والخلق العظيم ﴿ فلا تطع المكذبين . ودوالو تدهن فيدهنون ﴾ لو ترخص لهم فيرخصون ﴿ ولا تطع كل حلاف مهين ﴾ وذلك أن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي بأيمانه الكاذبة التي يجترىء بها على أسماء الله تعالى ، واستعمالها في كل وقت في غير محلها . المهين : الكاذب ، أو هو الضعيف القلب ، قال الحسن : كل حلاف مكابر مهين ضعيف . ﴿ هماز ﴾ مغتاب ﴿ مشاء بنميم ﴾ يعني الذي يمشي بين الناس ويحرش بينهم ، وينقل الحديث لفساد ذات البين ، وهي الحالقة . وقد ثبت في الصحيحين : مر رسول الله ﷺ بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » وفي الحديث « لا يدخل الجنة قتات » رواه الجماعة إلا ابن ماجه ﴿ مناع للخير معتد أثيم ﴾ أي يمنع ما عليه وما لديه من الخير ﴿ معتد ﴾ في تناول ما أحل الله له ، يتجاوز فيها الحد المشروع ﴿ أثيم ﴾ أي يتناول المحرمات ﴿ عتل بعد ذلك زنيم ﴾ أما العتل فهو الغليظ الغظ وأما الزنيم ، ففي البخاري : رجل من قريش له زنمة مثل زنمة الشاة ، ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالسوء كشهرة الشاة الزنمة من بين اخواتها . وإنما الزنيم في لغة العرب هو الدعي في القوم . ﴿ أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾ يقول هذا في مقابلة ما أنعم الله عليه من المال والبنين كفر بآيات الله عز وجل وأعرض عنها وزعم أنها كذب مأخوذ من أساطير الأولين . ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ سنبين أمره بياناً واضحاً حتى يعرفوه ، ولا يخفى عليهم كما لا تخفى عليهم السمة على الخراطيم .

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ⑰ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ⑱

فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْاْ مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿٢١﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لكفار قريش فيما أهدى اليهم من الرحمة العظيمة واعطاهم من النعمة الجسيمة ، وهو بعثة محمد ﷺ فقابلوه بالتكذيب والرد والمحاربة ولهذا قال تعالى ﴿ إنا بلوناهم ﴾ أي اختبرناهم ﴿ كما بلونا أصحاب الجنة ﴾ وهي البستان المشتمل على انواع الثمار والفواكه ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ﴾ أي حلفوا فيما بينهم ليجذن ثمرها ليلاً لئلا يعلم بهم فقير ، ولا سائل ليتوفر ثمرها عليهم ولا يتصدقوا منه بشيء ﴿ ولا يستثنون ﴾ أي فيما حلفوا به ، ولهذا حنثهم الله في أيمانهم فقال تعالى ﴿ فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴾ أي أصابتها آفة سماوية ﴿ فأصبحت كالصريم ﴾ أي كالليل الأسود ، أو مثل الزرع اذا حصد ، أي هشيماً يبساً ﴿ فتنادوا مصبحين ﴾ أي نادى بعضهم بعضاً وقت الصبح .

﴿٢٢﴾ ﴿ أَنِ ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٣٣﴾

﴿ أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين ﴾ أي تريدون الصرم ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون ﴾ أي يتناجون فيما بينهم بحيث لا يسمعون أحداً كلامهم ﴿ فانطلقوا وهم يتخافتون أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ﴾ أي يقول بعضهم لبعض : لا تمكنوا اليوم فقيراً يدخلها عليكم ﴿وغدوا على حرد ﴾ أي قوة وشدة ﴿ قادرين ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون ﴿ فلما رأوها قالوا إنا لضالون ﴾ أي بل هي هذه ، ولكن نحن لا حظ لنا ولا نصيب ﴿ قال أوسطهم ﴾ أعد لهم وخيرهم ﴿ ألم أقل لكم لولا تسبحون ﴾ ؟ هو قول القائل : إن شاء الله ، أو هلا تسبحون الله وتشكرونه على ما أعطاكم وأنعم به عليكم ﴿ قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ﴾ أتوا بالطاعة حيث لا تنفع ، وندموا واعترفوا حيث لا ينجع ، ولهذا قالوا ﴿ إنا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي يلوم

بعضهم بعضاً على ما كانوا أصروا عليه من منع المساكين من حق الجذاء ، فما كان جواب بعضهم لبعض الا الاعتراف بالخطيئة والذنب ﴿ قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ﴾ أي اعتدينا وبغينا وطغينا وجاوزنا الحد حتى أصابنا ما أصابنا ﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ﴾ قيل : رغبوا في بذلها لهم في الدنيا ، وقيل : احتسبوا ثوابها في الدار الآخرة ﴿ كذلك العذاب ﴾ أي هكذا عذاب من خالف أمر الله وبخل بما آتاه الله ، وأنعم به عليه ، ومنع حق المسكين والفقير وذوي الحاجات ، وبدل نعمة الله كفراً ﴿ ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ أي هذه عقوبة الدنيا كما سمعتم ، ولعذاب الآخرة أشق .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

لما ذكر تعالى حال أهل الجنة الدنيوية ، وما أصابهم فيها من النقمة حين عصوا الله عز وجل ، وخالفوا أمره بين أن لمن اتقاه وأطاعه في الدار الآخرة جنات النعيم التي لا تبيد ولا تفرغ ولا ينقص نعيمها . ثم قال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ﴾ أي أفنساوي بين هؤلاء وهؤلاء في الجزاء ؟ كلا ورب الأرض والسماء ، ولهذا قال ﴿ ما لكم كيف تحكمون ﴾ أي كيف تظنون ذلك . ﴿ أم لكم كتاب فيه تدرسون . إن لكم فيه لما تخيرون ﴾ يقول تعالى : أفبأيدكم كتاب منزل من السماء تدرسونه وتحفظونه وتتداولونه بنقل الخلف عن السلف متضمن حكماً مؤكداً كما تدعونه ؟ .

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

﴿ إن لكم فيه لما تخيرون . أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم لما تحكمون ﴾ أي أمعكم عهود منا ومواثيق مؤكدة ﴿ إن لكم لما تحكمون ﴾ أي إنه سيحصل لكم ما تريدون وما تشتهون ﴿ سلهم أيهم بذلك زعيم ﴾ أي قل لهم : من هو المتضمن المتكفل بهذا ؟ ﴿ أم لهم شركاء ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ﴾ .

﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ

وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ﴿٤٧﴾

لما ذكر تعالى أن للمتقين عند ربهم جنات النعيم بين متى ذلك كائن وواقع فقال تعالى ﴿ يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ يعني يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأهوال والزلازل والبلاء والامتحان والأمور العظام . في البخاري « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليجد فيعود ظهره طبقاً واحداً » وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وفي غيرهما من طرق ، وله ألفاظ ، وهو حديث طويل مشهور ﴿ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ﴾ أي في الدار الآخرة باجرامهم وتكبرهم في الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه . ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه مع صحتهم وسلامتهم كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة ، إذا تجلى الرب فيسجد له المؤمنون ، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقاً واحداً كلما أراد أحدهم أن يسجد خر لقفاه ، عكس السجود ، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون . ﴿ فذرني ومن يكذب بهذا الحديث ﴾ يعني القرآن ، وهذا تهديد شديد ، أي دعني وإياه ، مني ومنه ، أنا أعلم به كيف أستدرجه وأمده في غيه ، وأنظره ثم آخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولهذا قال : ﴿ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾ أي وهم لا يشعرون ، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة ، وهو في نفس الأمر اهانة كما قال سبحانه ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ ﴿ وأملي لهم إن كيدي متين ﴾ أي وأؤخرهم وأنظرهم وأمهلهم، وذلك من كيدي ومكري بهم، ولهذا قال ﴿إن كيدي متين﴾ أي عظيم لمن خالف أمري، وكذب رسلي، واجترأ على معصيتي. وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ قال «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ والمعنى في ذلك أنك يا محمد تدعوهم إلى الله عز وجل ، بلا أجر تأخذه منهم ، بل ترجو ثواب ذلك عند الله عز وجل ، وهم يكذبون بما جئتهم به بمجرد الجهل والكفر والعناد .

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴾ ﴿٤٩﴾

﴿ فاصبر ﴾ يا محمد على أذى قومك لك وتكذيبهم ، فإن الله سيحكم لك عليهم ، ويجعل العاقبة لك ، ولأتباعك في الدنيا والآخرة ﴿ ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ يعني ذا النون ، وهو يونس عليه السلام حين ذهب مغاضباً على قومه فكان من أمره ما كان ركوبه في البحر ، والتقام الحوت ، وشرود الحوت به في البحار ، وظلمات غمرات اليم ، وسماعه يسبح البحر بما فيه للعلي القدير الذي لا يرد ما أنقذه من التقدير ، فحينئذٍ نادى في الظلمات ﴿ أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ قال الله تعالى ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾﴿لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم ﴾ فأمر الله الحوت فألقاه بالعراء .

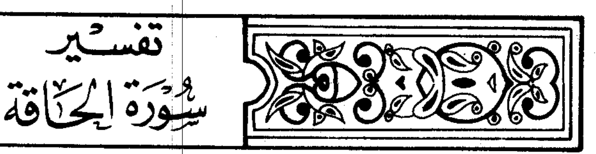
(٥٠) ﴿ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿ فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾ روى الامام أحمد عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينبغي لأحد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى » وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة .

(٥١) ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٥٢)

﴿ وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك ﴾ لينقذونك ﴿ بأبصارهم ﴾ أي يعينونك بأبصارهم ، يعني يحسدونك لبغضهم اياك ، لولا وقاية الله لك ، وحمايته إياك منهم ، وفي هذه الآية دليل على أن العين واصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل كما وردت بذلك الأحاديث المروية من طرق متعددة كثيرة. روى أبو داود عن رسول الله ﷺ « لا رقية إلا من عين أو حمة أو دم لا يرقأ » وروى مسلم في صحيحه « العين حق ، لو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا» انفرد به دون البخاري وعن ابن عباس كان رسول الله ﷺ يعوذ الحسن والحسين يقول «أعيذ كما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة » ويقول : « هكذا كان ابراهيم يعوذ اسحاق وإسماعيل عليهما السلام » أخرجه البخاري وأهل السنن . وقوله تعالى ﴿ ويقولون إنه لمجنون ﴾ أي يزدرونه بأعينهم ، ويؤذونه بألسنتهم ، ويقولون إنه لمجنون ، أي لمجيئه بالقرآن ، قال الله تعالى ﴿ وما هو إلا ذكر للعالمين ﴾ .

* * *

تفسير سُورَة الحَاقَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴾ (٨)

الحاقة من أسماء القيامة ، لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد ، ولهذا عظم الله أمرها فقال ﴿ وما أدراك ما الحاقة ﴾ ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين فقال ﴿ فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ﴾ وهي الصيحة التي أسكتتهم والزلزلة التي أسكنتهم ﴿ وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر ﴾ أي باردة ﴿ عاتية ﴾ أي شديدة الهبوب ﴿ سخرها عليهم ﴾ أي سلطها عليهم ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ﴾ أي كوامل ، متتابعات مشائيم ﴿ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴾ أي جعلت الريح تضرب بأحدهم فيخر على أم رأسه فينشرح رأسه ، وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخلة إذا خرت بلا أغصان . وقد ثبت في الصحيحين : « نصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » ﴿ فهل ترى لهم من باقية ﴾ أي هل تحس منهم من أحد من بقاياهم ، أو ممن ينتسب إليهم ، بل بادوا عن آخرهم ، ولم يجعل الله لهم خلفاً .

﴿ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (١٢)

﴿ وجاء فرعون ومن قبله ﴾ من الأمم المشبهين له ﴿ والمؤتفكات ﴾ وهم الأمم المكذبون بالرسل ﴿ بالخاطئة ﴾ وهي التكذيب بما أنزل الله ، أو ﴿ بالخاطئة ﴾ بالمعصية ، أو بالخطايا ﴿ فعصوا رسول ربهم ﴾ وهذا جنس ، أي كل كذب رسول الله إليهم كما قال تعالى ﴿ كل كذب الرسل فحق وعيد ﴾ ومن كذب برسول فقد كذب بالجميع ، كما قال تعالى ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين ﴾ ﴿ كذبت عاد المرسلين ﴾ ﴿ كذبت ثمود

المرسلين﴾ وإنما جاء إلى كل أمة رسول واحد ولهذا قال ههنا ﴿فعصوا رسول بهم فأخذهم اخذة رابية ﴾ أي عظيمة شديدة أليمة . ﴿ إنا لما طغى الماء ﴾ أي زاد على الحد بإذن الله ، وارتفع على الموجود ، وذلك بسبب دعوة نوح عليه السلام على قومه حين كذبوه وخالفوه فعبدوا غير الله فاستجاب الله له ، وعم أهل الأرض بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة ، فالناس كلهم من سلالة نوح وذريته ولهذا قال ممتناً على الناس ﴿ إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية ﴾ وهي السفينة الجارية على وجه الماء ﴿ لنجعلها لكم تذكرة ﴾ عاد الضمير على الجنس لدلالة المعنى عليه ، أي وأبقينا لكم من جنسها ما تركبون على تيار الماء في البحار كما قال تعالى ﴿ وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه ﴾ ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أي وتفهم هذه النعمة وتذكرها أذن عقلت عن الله فانتفعت بما سمعت من كتاب الله .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة ، وأول ذلك نفخة النزع ، ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور ، وهي هذه النفخة ، وقد أكدها ههنا بأنها واحدة ، لأن أمر الله لا يخالف ولا يمانع ، ولا يحتاج إلى تكرار ولا تأكيد ﴿ وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ﴾ فمدت مد الأديم العكاظي ، وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿ فيومئذٍ وقعت الواقعة ﴾ أي قامت القيامة ﴿ وانشقت السماء فهي يومئذٍ واهية ﴾ كقوله تعالى ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ ﴿ والملك على أرجائها ﴾ الملك اسم جنس ، أي الملائكة على أرجاء السماء أي على حافاتها ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذٍ ثمانية ﴾ أي يوم القيامة يحمل العرش ثمانية من الملائكة ، ويحتمل أن يكون المراد بهذا العرش العرش العظيم ، أو العرش الذي يوضع في الأرض يوم القيامة لفصل القضاء ﴿ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ أي تعرضون على عالم السر والنجوى الذي لا يخفى عليه شيء من أموركم ، بل هو عالم بالظواهر والسرائر والضمائر . روى الامام أحمد عن أبي موسى قال . قال رسول الله ﷺ : « يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات ، فأما عرضتان فجدال ومعاذير ، وأما الثالثة فعند ذلك تطير الصحف في

الأيدي ، فآخذ بيمينه ، وآخذ بشماله » ورواه ابن ماجه .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

يخبر تعالى عن سعادة من يؤتي كتابه بيمينه يوم القيامة ، وفرحه بذلك ، وأنه من فرحه يقول لكل من لقيه ﴿ هاؤم اقروا كتابيه ﴾ أي خذوا اقرؤ وا كتابيه ، لأنه يعلم أن الذي فيه خير وحسنات محضة لأنه ممن يدل الله سيئاته حسنات ﴿ إني ظننت أني ملاق حسابيه ﴾ أي قدراً موقتاً في الدنيا أي هذا اليوم كائن لا محالة ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ أي مرضية . ﴿في جنة عالية﴾ أي رفيعة قصورها، حسان حورها، نعيمة دورها، دائم حبورها. وقد ثبت في الصحيح « إن الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » ﴿ قطوفها دانية ﴾ قريبة ، يتناولها أحدهم ، وهو نائم على سريره ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ أي يقال لهم ذلك تفضلاً عليهم وامتناناً واحساناً ، وإلا فقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اعملوا وسددوا وقاربوا ، واعلموا أن أحداً منكم لن يدخله عمله الجنة » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ، قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » .

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال الأشقياء إذا أعطي أحدهم كتابه في العرصات بشماله ، فحينئذٍ يندم غاية الندم ﴿ فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية ﴾ يعني موتة لا حياة بعدها . قال قتادة : تمنى الموت ، ولم يكن شيء في الدنيا أكره اليه

منه ﴿ ما أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه ﴾ أي لم يدفع عني مالي ولا جاهي عذاب الله وبأسه ، بل خلص الأمر إلى وحدي ، فلا معين لي ولا مجير ، فعندها يقول الله عز وجل ﴿ خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه ﴾ أي يأمر الزبانية أن تأخذه عنفاً من المحشر فتغله ، أي تضع الأغلال في عنقه ، ثم توردە إلى جهنم فتصليه إياها ، أي تغمره فيها ﴿ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم . ولا يحض على طعام المسكين ﴾ أي لا يقوم بحق الله عليه من طاعته وعبادته ، ولا ينفع خلقه ولا يؤدي حقهم ، فإن لله على العباد أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وللعباد بعضهم على بعض حق الاحسان والمعاونة على البر والتقوى ، ولهذا أمر الله بإقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وقبض النبي ﷺ وهو يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » وقوله تعالى ﴿ فليس له اليوم ههنا حميم . ولا طعام إلا من غسلين . لا يأكله إلا الخاطئون ﴾ أي ليس له اليوم من ينقذه من عذاب الله تعالى ، لا حميم ، وهو القريب ، ولا شفيع يطاع ، ولا طعام له ههنا إلا من غسلين ، هو شر طعام أهل النار، وقيل: هو الزقوم ، أو هو الدم والماء يسيل من لحومهم .

﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿٤٣﴾

يقول تعالى مقسماً لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم إن القرآن كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة فقال تعالى ﴿ فلا أقسم بما تبصرون . وما لا تبصرون . إنه لقول رسول كريم ﴾ يعني محمداً ﷺ ، أضافه إليه على معني التبليغ ، لأن الرسول من شأنه أن يبلغ عن المرسل . ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون . ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون . تنزيل من رب العالمين ﴾ روى الامام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : خرجت أتعرض رسول الله ﷺ قبل أن أسلم ، فوجدته سبقني إلى المسجد ، فقمت خلفه فاستفتح سورة الحاقة فجعلت أعجب ما تأليف القرآن ، قال : فقلت : هذا والله شاعر ، كما قالت : قريش ،قال فقرأ وإنه لقول رسول كريم ﴿وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ﴾ قال : فقلت : كاهن ، قال : فقرأ ﴿ ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين . ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ إلى آخر السورة . قال

فوقع الإسلام في قلبي كل موقع ، فهذا من جملة الأسباب التي جعلها الله مؤثرة في هداية عمر رضي الله عنه .

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾ ﴿٥٢﴾

﴿ ولو تقول علينا ﴾ أي محمد ﷺ ، لو كان كما يزعمون مفترياً علينا ، فزاد في الرسالة أو نقص منها ، أو قال شيئاً من عنده فنسبه الينا ، وليس كذلك لعاجلناه بالعقوبة ، ولهذا قال تعالى ﴿ لأخذنا منه باليمين ﴾ أي لانتقمنا منه باليمين ، لأنها أشد في البطش ﴿ ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ هو نياط القلب ، وقيل : هو البطين ﴿ فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ أي فما يقدر أحد منكم أن يحجز بيننا وبينه إذا أردنا به شيئاً من ذلك ، والمعنى في ذلك بل هو صادق بار راشد ، لأن الله عز وجل مقرر له ما يبلغه عنه ، ومؤيد له بالمعجزات الباهرات ، والدلالات القاطعات ثم قال تعالى ﴿ وإنه لتذكرة للمتقين ﴾ يعني القرآن ، كما قال سبحانه ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ﴾ أي مع هذا البيان والوضوح سيوجد منكم من يكذب بالقرآن ﴿ وإنه لحسرة على الكافرين ﴾ وإن التكذيب لحسرة على الكافرين يوم القيامة ، ويحتمل عود الضمير على القرآن ، أي وإن القرآن والإيمان به لحسرة في نفس الأمر على الكافرين ، كما قال تعالى ﴿ كذلك سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به ﴾ وقال تعالى ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ ولهذا قال ههنا ﴿ وإنه لحق اليقين ﴾ أي الخبر الصدق الحق الذي لا مرية فيه ولا شك ولا ريب . ثم قال تعالى ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ أي الذي أنزل هذا القرآن العظيم .



تفسير سُورَةِ المعارج



بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴾ (٢)

فيه تضمين دل عليه حرف الباء ، كأن تقديره « استعجل » أي استعجل سائل بعذاب واقع ، كقوله تعالى ﴿ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ﴾ أي وعذابه واقع لا محالة . وفي النسائي أن هذا السائل هو النضر بن الحارث . أو هو سؤال الكفار عن عذاب الله ، وهو واقع بهم ، أو دعا داع بعذاب يقع في الآخرة ، وهو قولهم : ﴿ اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾ وقوله تعالى ﴿ واقع للكافرين ﴾ أي مرصد معد للكافرين ﴿ ليس له دافع ﴾ أي لا دافع له إذا أراد الله كونه .

(٣) ﴿ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴾ (٧)

﴿ من الله ذي المعارج ﴾ ذي الدرجات ، أو معارج السماء ، أو ذي الفواضل والنعم ﴿ تعرج الملائكة والروح إليه ﴾ ﴿ تعرج ﴾ تصعد ، وأما الروح فهم خلق من خلق الله يشبهون الناس وليسوا ناساً ، ويحتمل أن يكون المراد به جبريل ، ويكون من باب عطف الخاص على العام وقوله تعالى ﴿ في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾ روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس : هو يوم القيامة . وإسناده صحيح ﴿ فاصبر صبراً جميلاً ﴾ أي اصبر يا محمد على تكذيب قومك لك واستعجالهم العذاب استبعاداً لوقوعه ﴿ إنهم يرونه بعيداً ﴾ أي وقوع العذاب ، وقيام الساعة ، يراه الكفرة بعيد الوقوع ، بمعنى مستحيل الوقوع ﴿ ونراه قريباً ﴾ أي المؤمنون يعتقدون كونه قريباً ، وإن كان له أمد لا يعلمه إلا الله عز وجل ، لكن كل ما هو آت فهو قريب ، وواقع لا محالة .

(٨) ﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ

ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ يوم تكون السماء كالمهل ﴾ كدردي الزيت ﴿ وتكون الجبال كالعهن ﴾ أي كالصوف المنفوش ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا يسأل حميم حميماً يبصرونهم ﴾ أي لا يسأل القريب قريبه عن حاله ، وهو يراه في أسوأ الأحوال ، فتشغله نفسه عن غيره ، بل يفر بعضهم من بعض بعد ذلك . وقوله تعالى ﴿ يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيه . وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤ ويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه . كلا ﴾ أي لا يقبل منه فداء ، ولو جاء بأهل الأرض ، وبأعز ما يجده من المال ، ولو بملء الأرض ذهباً ، أو من ولده الذي كان في الدنيا حشاشة كبده ، يود يوم القيامة اذا رأى الأهوال أن يفتدي من عذاب الله به ولا يقبل منه ﴿ فصيلته ﴾ قبيلته وعشيرته ﴿ إنها لظى ﴾ يصف النار وشدة حرها . ﴿ نزاعة للشوى ﴾ هي جلدة الرأس ، أو أطراف اليدين والرجلين ﴿ تدعو من أدبر وتولى . وجمع فأوعى . ﴾ أي تدعو النار اليها أبناءها الذين خلقهم الله لها ، وقدر لهم أنهم في الدار الدنيا يعملون عملها ، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ذلق ، ثم تلتقطهم من بين أهل المحشر كما يلتقط الطير الحب ، وذلك أنهم كما قال الله عز وجل ، كانوا ممن أدبر وتولى ، أي كذب بقلبه ، وترك العمل بجوارحه ﴿ وجمع فأوعى ﴾ أي جمع المال بعضه على بعض ، فأوعاه أي أوكاه ، ومنع حق الله منه من الواجب عليه في النفقات ، ومن اخراج الزكاة ، وقد ورد في الحديث « ولا توعي فيوعي الله عليك » .

﴿١٩﴾ ﴿ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان ، ما هو مجبول عليه من الأخلاق الدنيئة ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ﴾ ثم فسره ﴿ إذا مسه الشر جزوعاً ﴾ أي إذا مسه الضر فزع وجزع وانخلع قلبه من شدة الرعب وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير ﴿ وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ أي إذا حصلت له نعمة من الله بخل بها على غيره ، ومنع حق الله فيها . روى الامام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « شر ما في الرجل : شح هالع ، وجبن خالع » ورواه أبو داود . ثم قال تعالى ﴿ إلا المصلين ﴾ أي ، الانسان من حيث هو

متصف بصفات الذم إلا من عصمه الله ووفقه وهداه إلى الخير ويسر له أسبابه ، وهم المصلون ﴿ الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ قيل : معناه يحافظون على أوقاتها وواجباتها ، وقيل : المراد بالدوام هنا السكون والخشوع ، وقيل : المراد بذلك الذين اذا عملوا عملاً داوموا عليه وأثبتوه ، كما جاء في الصحيحين عن عائشة عن رسول الله ﷺ قال : « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

﴿ والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ أي في أموالهم نصيب مقرر لذوي الحاجات ﴿ والذين يصدقون بيوم الدين ﴾ أي يوقنون بالمعاد والحساب والجزاء ، فهم يعملون عمل من يرجو الثواب ، ويخاف العقاب ، ولهذا قال تعالى ﴿ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ﴾ أي خائفون وجلون ﴿ إن عذاب ربهم غير مأمون ﴾ أي لا يأمنه أحد ممن عقل عن الله أمره إلا بأمان من الله تبارك وتعالى ﴿ والذين هم لفروجهم حافظون ﴾ أي يكفونها عن الحرام ، ويمنعونها أن توضع في غير ما أذن الله فيه ، ولهذا قال تعالى ﴿ إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ﴾ أي من الإماء ﴿ فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ﴾ وقوله تعالى ﴿ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ﴾ أي إذا ائتمنوا لم يخونوا ، وإذا عاهدوا لم يغدروا ، وهذه صفات المؤمنين ، وضدها صفات المنافقين ، كما ورد في الصحيح « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» وفي رواية « إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر » وقوله تعالى ﴿ والذين هم بشهاداتهم قائمون ﴾ أي محافظون عليها ، لا يزيدون فيها ولا ينقصون منها ، ولا يكتمونها ﴿ ومن يكتمها فإنه آثم قلبه ﴾ ثم قال تعالى ﴿ والذين هم على صلاتهم يحافظون ﴾ أي على مواقيتها وأركانها وواجباتها ومستحباتها ، يحافظون ، فافتتح الكلام بذكر الصلاة ، وافتتحه بذكرها فدل على الاعتناء بها ، والتنويه بشرفها ﴿ أولئك في جنات مكرمون ﴾ أي مكرمون بأنواع الملاذ والمسار .

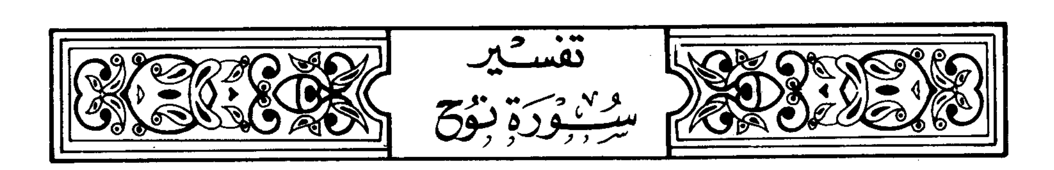
﴿ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ ﴿٤١﴾

يقول تعالى منكراً على الكفار الذين كانوا في زمن النبي ﷺ ، وهم مشاهدون له ، ولما أرسله الله به من الهدى ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرات ، ثم مع هذا كله فارون منه ، متفرقون عنه ، شاردون يميناً وشمالاً فرقاً فرقاً ، وشيعاً شيعاً كما قال تعالى ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين . كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ﴾ وهذه مثلها فإنه تعالى قال ﴿ فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ﴾ أي فما لهؤلاء الكفار الذين عندك يا محمد مهطعين ، أي مسرعين نافرين منك ﴿ عن اليمين وعن الشمال عزين ﴾ واحده عزة ، أي متفرقين ، وهو حال من مهطعين ، أي في حال تفرقهم واختلافهم كما قال الامام أحمد في أهل الأهواء : فهم مخالفون للكتاب ، مختلفون في الكتاب ، متفقون على مخالفة الكتاب . ﴿ أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم . كلا ﴾ أي أيطمع هؤلاء والحالة هذه من فرارهم عن الرسول ﷺ . ونفارهم عن الحق أن يدخلوا جنات النعيم ؟ كلا ، بل مأواهم جهنم ، ثم قال تعالى مقرراً لوقوع المعاد والعذاب بهم الذي أنكروا كونه ، واستبعدوا وجوده مستدلاً عليهم بالبداءة التي الاعادة أهون منها ، وهم معترفون بها ، فقال تعالى ﴿ إنا خلقناهم مما يعلمون ﴾ أي من المنى الضعيف ، كما قال تعالى ﴿ ألم نخلقكم من ماء مهين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب ﴾ أي الذي خلق السموات والأرض ، وجعل مشرقاً ومغرباً ، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها ، وتغيب في مغاربها ، وتقرير الكلام : ليس الأمر كما تزعمون أن لا معاد ولا حساب ، ولا بعث ولا نشور ، بل كل ذلك واقع وكائن لا محالة ، وقد شاهدوا من عظيم قدرة الله ما هو أبلغ من إقامة القيامة ، وهو خلق السموات والأرض ، وتسخير ما فيهما من المخلوقات من الحيوانات والجمادات ، وسائر صنوف الموجودات ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ وقال ههنا ﴿ فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدل خيراً منهم ﴾ أي يوم القيامة نعيدهم بأبدان خير من هذه ، فإن قدرته صالحة لذلك ﴿ وما نحن بمسبوقين ﴾ أي بعاجزين . كما قال تعالى ﴿ أيحسب الانسان الن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ .

﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ﴿٤٤﴾

﴿ فذرهم ﴾ يا محمد ﴿ يخوضوا ويلعبوا ﴾ أي دعهم في تكذيبهم وكفرهم وعنادهم ﴿ حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون ﴾ أي فسيعلمون غب ذلك ، ويذوقون وباله ﴿ يوم يخرجون من الأجداث سراعاً كأنهم إلى نصب يوفضون ﴾ أي يقومون من القبور اذا دعاهم الرب تعالى لموقف الحساب ينهضون سراعاً كأنهم في إسراعهم إلى الموقف كما كانوا في الدنيا يهرولون إلى النصب وهو الصنم ، يبتدرون أيهم يستلمه ؟ وقوله تعالى ﴿ خاشعة أبصارهم ﴾ أي خاضعة ﴿ ترهقهم ذلة ﴾ أي في مقابلة ما استكبروا في الدنيا عن الطاعة ﴿ ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون ﴾ .



تفسير سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٤﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أرسله إلى قومه آمراً له أن ينذرهم بأس الله قبل حلوله بهم ، فإن تابوا وأنابوا رفع عنهم ، ولهذا قال تعالى ﴿ أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . ﴾ أي مبين النذارة ، ظاهر الأمر واضحه ﴿ أن اعبدوا الله واتقوه ﴾ أي اتركوا محارمه ، واجتنبوا مآثمه ﴿ وأطيعون ﴾ فيما آمركم به ، وأنهاكم عنه ﴿ يغفر لكم من ذنوبكم ﴾ أي إذا فعلتم ما آمركم به ، وصدقتم ما أرسلت به إليكم غفر الله لكم ذنوبكم ، و﴿ من ﴾ ههنا قيل : بزيادتها ، ولكن القول بزيادتها في الاثبات قليل ، ومنه قول بعض العرب : قد كان من مطر ، وقيل : إنها بمعنى ﴿ عن ﴾ تقديره يصفح لكم عن ذنوبكم ، وقيل : إنها للتبعيض ، أي يغفر لكم الذنوب

العظيمة التي وعدكم على ارتكابكم إياها الانتقام ﴿ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ أي يمد في أعماركم ، ويدرأ عنكم العذاب الذي إن لم تجتنبوا ما نهاكم عنه أوقعه بكم، وقد يستدل بهذه الآية من يقول : إن الطاعة والبر وصلة الرحم يزاد بها في العمر حقيقة كما ورد به الحديث : « صلة الرحم تزيد في العمر » وقوله تعالى ﴿ إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ أي بادروا بالطاعة قبل حلول النقمة ، فإنه إذا أمر الله تعالى بكون ذلك لا يرد ولا يمانع ، فإنه العظيم الذي قد قهر كل شيء ، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات .

(٥) ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ (٧)

يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أنه اشتكى إلى ربه عز وجل ما لقي من قومه ، وما صبر عليهم في تلك المدة الطويلة التي هي ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وما بين لقومه ووضح لهم ، ودعاهم إلى الرشد والسبيل الأقوم ، فقال : ﴿ رب إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ﴾ أي لم أترك دعاءهم في ليل ولا نهار امتثالاً لأمرك ، وابتغاء لطاعتك ﴿ فلم يزدهم دعائي إلا فراراً ﴾ أي كلما دعوتهم ليقتربوا من الحق فروا منه وحادوا عنه ﴿ وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ﴾ أي سدوا آذانهم لئلا يسمعوا ما أدعوهم إليه ﴿ واستغشوا ثيابهم ﴾ تنكروا له لئلا يعرفهم ، أو غطوا رؤوسهم لئلا يسمعوا ما أقول ﴿ وأصروا ﴾ أي استمروا على ما هم فيه من الشرك والكفر العظيم الفظيع ﴿ واستكبروا استكباراً ﴾ أي واستنكفوا عن اتباع الحق والانقياد اليه .

(٨) ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾

﴿ ثم إني دعوتهم جهاراً ﴾ أي جهرة بين الناس .

(٩) ﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾

﴿ ثم إني أعلنت لهم ﴾ أي كلاماً ظاهراً بصوت عال ﴿وأسررت لهم إسراراً ﴾ أي فيما بيني وبينهم ، فنوع عليهم الدعوة لتكون أنجع فيهم .

(١٠) ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴾

﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ﴾ أي ارجعوا إليه ، وارجعوا عما أنتم فيه ، وتوبوا

إليه من قريب ، فإنه من تاب إليه تاب عليه ولو كانت ذنوبه مهما كانت في الكفر والشرك .

(١١) ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾

﴿ يرسل السماء عليكم مدراراً ﴾ أي متواصلة الأمطار ، ولهذا تستحب قراءة هذه السورة في صلاة الاستسقاء ، روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه صعد المنبر ليستسقي فلم يزد على الاستغفار ، وقراءة الآيات في الاستغفار ، ومنها هذه الآية ﴿ فقلت استغفروا ربكم . . ﴾ ثم قال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر .

(١٢) ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾

﴿ ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه ، واطعتموه كثر الرزق عليكم ، وأسقاكم من بركات السماء ، وأنبت لكم من بركات الأرض ، وأنبت الزرع ، وأدر لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين ، أي أعطاكم الأموال والأولاد ، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار ، وخللها بالأنهار الجارية بينها . هذا مقام الدعوة بالترغيب ، ثم عدل بهم إلى مقام الدعوة بالترهيب فقال :

(١٣) ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾

﴿ مالكم لا ترجون لله وقاراً ﴾ أي عظمة ، أي لا تخافون بأسه ونقمته .

(١٤) ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾

﴿ وقد خلقكم أطواراً ﴾ من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة .

(١٥) ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾

﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً ﴾ أي واحدة فوق واحدة .

(١٦) ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾

﴿ وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً ﴾ أي فاوت بينهما في الاستنارة ، فجعل كلاً منهما أنموذجاً على حدة ، ليعرف الليل والنهار بمطلع الشمس ومغيبها ، وقدر للقمر منازل وبروجاً ، وفاوت نوره فيزداد حتى يتناهى ، ثم يشرع في النقص حتى يستتر ليدل على مضي الشهور والأعوام .

(١٧) ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ﴾ هذا اسم مصدر ، والاتيان به هنا أحسن .

(١٨) ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾

﴿ ثم يعيدكم فيها ﴾ أي إذا متم ﴿ ويخرجكم إخراجاً ﴾ أي يوم القيامة يعيدكم كما بدأكم أول مرة .

(١٩) ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴾

﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً ﴾ أي بسطها ومهدها وقررها وثبتها بالجبال الراسيات الشم الشامخات .

(٢٠) ﴿ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

﴿ لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾ أي خلقها لكم لتستقروا عليها ، وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها ، وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته في خلق السموات والأرض ، ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية ، فهو الخالق الرازق ، جعل السماء بناء ، والأرض مهاداً ، وأوسع على خلقه من رزقه ، فهو الذي يجب أن يعبد ويوحد ، ولا يشرك به أجد ، لأنه لا نظير له ولا عديل له ، ولا ندله ولا كفء ، ولا صاحبة ولا ولد ، ولا وزير ولا مشير ، بل هو العلي الكبير .

(٢١) ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام أنه أنهى إليه وهو العليم الذي لا يعزب عنه شيء أنه مع البيان المتقدم ذكره ، والدعوة المتنوعة المشتملة على الترغيب تارة ، والترهيب اخرى أنهم عصوه وخالفوه وكذبوه ، واتبعوا أبناء الدنيا ممن غفل عن أمر الله ، ومتع بمال وأولاد ، وهي في نفس الأمر استدراج وإنظار لا إكرام ، ولهذا قال . ﴿واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً ﴾.

(٢٢) ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴾

﴿ ومكروا مكراً كباراً ﴾ أي عظيماً ، كبيراً ، والعرب تقول : أمر عجيب وعجاب أي مكروا مكراً عظيماً بأتباعهم في تسويلهم لهم أنهم على الحق والهدى .

﴿٢٣﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾

﴿ وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ﴾ وهذه أسماء أصنامهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ، وهي أسماء رجال صالحين من قوم نوح عليه السلام ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصاباً ، وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ، ونسخ العلم عبدت .

﴿٢٤﴾ ﴿ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا ﴾

﴿ وقد أضلوا كثيراً ﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقاً كثيراً ، فإنه استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم ، وسائر صنوف بني آدم ، وقد قال الخليل عليه السلام في دعائه ﴿ واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾ وقوله ﴿ ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً ﴾ دعاء منه على قومه لتمردهم وكفرهم وعنادهم كما دعا موسى على فرعون وملئه في قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ﴾ وقد استجاب الله لكل من النبيين في قومه ، وأغرق أمته بتكذيبهم لما جاء به .

﴿٢٥﴾ ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴾

﴿ مما خطيئاتهم أغرقوا ﴾ أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم ، وإصرارهم على كفرهم ، ومخالفتهم رسولهم ﴿ أغرقوا فأدخلوا ناراً ﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار ﴿ فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً ﴾ أي لم يكن لهم معين ولا مغيث ولا مجير ينقذهم من عذاب الله ، كقوله تعالى ﴿ لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ﴾ .

﴿٢٦﴾ ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾

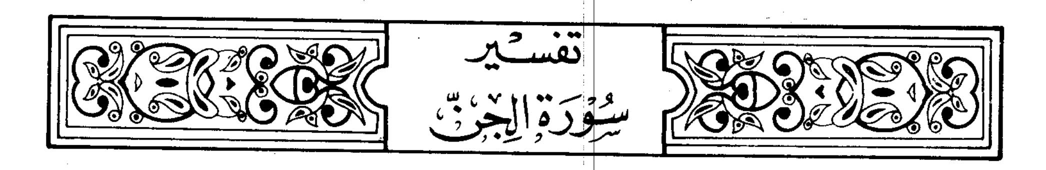
﴿ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ أي لا تترك على وجه الأرض منهم أحداً ولا دياراً وهو الذي يسكن الدار ، فاستجاب الله له فأهلك جميع من على وجه الأرض من الكافرين ، حتى ولد نوح لصلبه الذي اعتزل عن ابيه وقال ﴿ سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ﴾ .

﴿٢٧﴾ ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾

﴿ إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ﴾ أي إنك إن أبقيت منهم أحداً أضلوا عبادك أي الذين تخلقهم بعدهم ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ أي فاجراً في الأعمال ، كافراً في القلب ، وذلك لخبرته بهم ، ومكثه بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(٢٨) ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾

﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً ﴾ يعني مسجدي ، ولا مانع من حمل الآية على ظاهرها ، وهو أنه دعا لكل من دخل منزله وهو مؤمن ﴿ وللمؤمنين والمؤمنات ﴾ دعاء لجميع المؤمنين والمؤمنات ، وذلك يعم الأحياء منهم والأموات ﴿ ولا تزد الظالمين الا تباراً ﴾ أي خساراً في الدنيا والآخرة .



تفسير سُورَةُ الجِنّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله أن يخبر قومه أن الجن استمعوا القرآن فآمنوا به وصدقوه ، وانقادوا له فقال تعالى ﴿ قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً ﴾ .

(٢) ﴿ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾

﴿ يهدي إلىٰ الرشد ﴾ أي إلى السداد والنجاح ﴿ فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً ﴾ .

(٣) ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾

﴿ وأنه تعالى جد ربنا ﴾ أي فعله وأمره وقدرته ، أو تعالى ربنا ﴿ ما اتخذ صاحبة ولا ولداً ﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد ، أي قالت الجن ذلك حين أسلموا . ويحتمل أنه اسم جنس لكل من زعم أن لله صاحبة أو ولداً .

(٤) ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴾

﴿ وأنه كان يقول سفيهنا ﴾ يعنون إبليس ﴿ على الله شططاً ﴾ أي جوراً وباطلاً وزوراً .

(٥) ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾

﴿ وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذباً ﴾ أي ما حسبنا أن الإنس والجن يتمالئون على الكذب على الله تعالى في نسبة الصاحبة والولد إليه ، فلما سمعنا هذا القرآن ، وآمنا به علمنا أنهم كانوا يكذبون على الله في ذلك .

(٦) ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾

﴿ وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن ﴾ أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الانس ، لأنهم كانوا يعوذون بنا إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها ، كما كانت عادة العرب في جاهليتها ، يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسؤهم ، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته ، فلما رأت الجن أن الانس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً ، أي خوفاً وإرهاباً وذعراً حتى بقوا أشد منهم مخافة ، وأكثر تعوذاً بهم كما قال قتادة : ﴿ فزادوهم رهقاً ﴾ أي إثماً ، وازدادت الجن عليهم بذلك جراءة ، أو خوفاً .

(٧) ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾

﴿ وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً ﴾ أي لن يبعث الله بعد هذه المدة رسولاً .

(٨) ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾

يخبر تعالى عن الجن حين بعث الله رسوله محمداً ﷺ ، وأنزل عليه القرآن ، وكان من حفظه له أن السماء ملئت حرساً شديداً ، وحفظت من سائر ارجائها ، وطردت الشياطين عن مقاعدها التي كانت تقعد فيها قبل ذلك لئلا يسترقوا شيئاً من القرآن فيلقوه على ألسنة الكهنة فيلتبس الأمر ويختلط ولا يدرى من الصادق . وهذا من لطف الله تعالى بخلقه ، ورحمته بعباده ، وحفظه لكتابه العزيز ، ولهذا قال الجن ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ﴾ .

(٩) ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾

﴿ وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ﴾ أي من يروم

أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً رصداً له لا يتخطاه ، ولا يتعداه ، بل يمحقه ويهلكه .

(١٠) ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾

﴿ وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً ﴾ وهذا من أدبهم في العبارة ، حيث أسندوا الشر إلى غير فاعل ، والخير أضافوه إلى الله عز وجل . وقد ورد في الحديث الصحيح « والشر ليس لك » وقد كانت الكواكب يرمى بها قبل ذلك ، ولكن ليس بكثير ، بل في الأحيان بعد الأحيان .

(١١) ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم ﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك ﴾ أي غير ذلك ﴿ كنا طرائق قدداً ﴾ أي طرائق متعددة مختلفة ، وآراء متفرقة ، أو منا المؤمن ، ومنا الكافر .

(١٢) ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾

﴿ وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً ﴾ أي نعلم أن قدرة الله حاكمة علينا ، وأنا لا نعجزه في الأرض ، ولو أمعنا في الهرب فإنه علينا قادر لا يعجزه أحد منا .

(١٣) ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴾

﴿ وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به ﴾ يفتخرون بذلك ، وهو مفخر لهم ، وشرف رفيع ، وصفة حسنة . وقولهم : ﴿ فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً ﴾ فلا يخاف أن ينقص من حسناته ، أو يحمل عليه غير سيئاته ، كما قال تعالى ﴿ فلا يخاف ظلماً ولا هضماً ﴾ .

(١٤) ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾

﴿ وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون ﴾ أي منا المسلم ، ومنا القاسط ، وهو الجائر عن الحق ، الناكب عنه ، بخلاف المقسط ، فإنه العادل ﴿ فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً ﴾ أي طلبوا لأنفسهم النجاة .

(١٥) ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾

﴿ وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً ﴾ أي وقوداً تسعر بهم .

(١٦) ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (١٧)

﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً . لنفتنهم فيه ﴾ في معنى هذا قولان أحدهما : لو استقاموا على طريقة الاسلام وعدلوا اليها ، واستمروا عليها ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ أي كثيراً ، والمراد بذلك سعة الرزق ، ومعنى ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ على هذا : لنختبرهم فيه ليتبين من يستمر على الهداية ممن يرتد على الغواية ، والثاني ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة ﴾ على طريقة الضلال ﴿ لأسقيناهم ماء غدقاً ﴾ أي لأوسعنا عليهم الرزق استدراجاً ، ويتأيد بقوله تعالى ﴿ لنفتنهم فيه ﴾ وقوله ﴿ ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذاباً صعداً ﴾ أي عذاباً مشقاً شديداً موجعاً مؤلماً ، أو ﴿ عذاباً صعداً ﴾ أي مشقة ، لا راحة معها .

(١٨) ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾

﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ قال قتادة : كانت اليهود والنصارى اذا دخلوا كنائسهم ، وبيعهم أشركوا بالله ، فأمر الله نبيه ﷺ أن يوحدوه وحده .

(١٩) ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴾

﴿ وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ﴾ تلبدت الإنس والجن على هذا الأمر ليطفئوه ، فأبى الله إلا أن ينصره ويمضيه ويظهره على من ناوأه .

(٢٠) ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾

﴿ قل ﴾ أي قال لهم الرسول لما آذوه وخالفوه وكذبوه وتظاهروا عليه ليبطلوا ما جاء به من الحق على عداوته ﴿ إنما أدعو ربي ﴾ أي إنما أعبد ربي وحده لا شريك له ، وأستجير به ، وأتوكل عليه ﴿ ولا أشرك به أحداً ﴾ .

(٢١) ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾

﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ أي إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ، وعبد من عباد الله ، ليس إلي من الأمر شيء في هدايتكم ولا غوايتكم ، بل المرجع في ذلك كله إلى الله عز وجل .

(٢٢) ﴿ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾

ثم أخبر عن نفسه أيضاً أنه لا يجيره من الله أحد ، أي لو عصيته ، فإنه لا يقدر أحد على انقاذي من عذابه ﴿ ولن أجد من دونه ملتحداً ﴾ ملجأ .

(٢٣) ﴿ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾

﴿ إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾ أي لا يجيرني منه ويخلصني إلا إبلاغي الرسالة التي أوجب أداءها علي ﴿ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ أي أنا أبلغكم رسالة الله ، فمن يعصي بعد ذلك فله جزاء على ذلك جهنم خالدين فيها أبداً ، أي لا محيد لهم عنها ولا خروج لهم منها .

(٢٤) ﴿ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴾

﴿ حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ﴾ أي حتى إذا رأى هؤلاء المشركون من الجن والإنس ما يوعدون يوم القيامة فسيعلمون يومئذٍ من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، هم أم المؤمنون الموحدون لله تعالى ، أي بل المشركون لا ناصر لهم بالكلية ، وهم أقل عدداً من جنود الله عز وجل .

(٢٥) ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴾

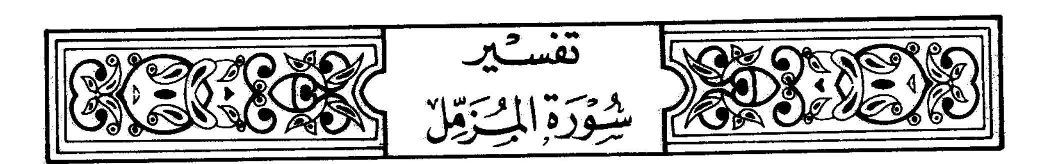
يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يقول للناس إنه لا علم له بوقت الساعة ولا يدري أقريب وقتها أم بعيد ﴿ قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ﴾ أي مدة طويلة .

(٢٦) ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾

﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول ﴾ هذه كقوله تعالى ﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ﴾ وهكذا قال ههنا : إنه يعلم الغيب والشهادة ، وإنه لا يطلع أحد من خلقه على شيء من علمه إلا مما أطلعه تعالى عليه ﴿ إلا من ارتضى من رسول ﴾ وهذا يعم الرسول الملكي والبشري . ثم قال تعالى ﴿ فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ﴾ أي يخصه بمزيد معقبات من الملائكة يحفظونه من أمر الله ، ويساوقونه على ما معه من وحي الله .

﴿ لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ﴾ ليعلم نبي الله أن الرسل قد بلغت عن الله ، وأن الملائكة حفظتها ودفعت عنها . ﴿ وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ .



تفسير سورة المزمل

روى البزار عن جابر قال : اجتمعت قريش في دار الندوة ، فقالوا : سموا هذا الرجل اسماً يصد الناس عنه ، فقالوا : كاهن ، قالوا : ليس بكاهن ، قالوا : مجنون ، قالوا : ليس بمجنون ، قالوا : ساحر ، قالوا : ليس بساحر ، فتفرق المشركون عن ذلك ، فبلغ النبي ﷺ فتزمل في ثيابه وتدثر فيها ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : ﴿ يا أيها المزمل ﴾ ﴿ يا أيها المدثر ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ ﴿٩﴾

يأمر تعالى رسوله ﷺ أن يترك التزمل ، وهو التغطي بالليل ، وينهض إلى القيام لربه عز وجل ، كما قال تعالى ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وكذلك كان ﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به ، من قيام الليل ، وقد كان واجباً عليه وحده كما قال تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ وههنا بين له مقدار ما يقوم، فقال تعالى ﴿ يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلاً ﴾ يا أيها النائم ، أو المزمل في ثيابه ، أو يا محمد زملت القرآن . ﴿ نصفه ﴾ بدل من الليل ﴿ أو انقص منه قليلاً أو زد عليه ﴾ أي أمرناك أن تقوم نصف الليل بزيادة قليلة ،

أو نقصان قليل ، لا حرج عليك في ذلك . وقوله تعالى ﴿ ورتل القرآن ترتيلاً ﴾ أي اقرأه على تمهل ، فإنه يكون عوناً على فهم القرآن وتدبره ، وكذلك كان يقرأ صلوات الله عليه . قالت عائشة رضي الله عنها : كان يقرأ السورة فيرتلها حتى تكون أطول من أطول منها . ﴿ إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً ﴾ أي العمل به ، وقيل : ثقيلاً وقت نزوله من عظمته كما قال زيد بن ثابت رضي الله عنه : أنزل على رسول الله ﷺ ، وفخذه على فخذي فكادت ترض فخذي . ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلاً ﴾ ناشئة الليل : ساعاته وأوقاته ، وكل ساعة منه تسمى ناشئة ، وهي الآنات ، والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان ، وأجمع على التلاوة ، ولهذا قال ﴿ هي أشد وطأ وأقوم قيلاً ﴾ أي أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام الليل لأنه وقت انتشار الناس ، ولغط الأصوات ، وأوقات المعاش . ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً ﴾ تطوعاً كثيراً . ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾ أي أخلص له العبادة . ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً ﴾ أي هو المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل .

(١٠) ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾

يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ بالصبر على ما يقوله من كذبه من سفهاء قومه ، وأن يهجرهم هجراً جميلاً ، وهو الذي لا عتاب معه .

(١١) ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾

ثم قال له متهدداً لكفار قومه ومتوعداً ، وهو العظيم الذي لا يقوم لغضبه شيء ﴿ وذرني والمكذبين أولي النعمة ﴾ أي دعني والمكذبين المترفين أصحاب الأموال ، فإنهم على الطاعة أقدر من غيرهم ، وهم يطالبون من الحقوق بما ليس عندهم ﴿ ومهلهم قليلاً ﴾ أي رُويداً ، كما قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .

(١٢) ﴿ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴾

ولهذا قال ههنا ﴿ إن لدينا أنكالاً ﴾ وهي القيود ﴿ وجحيماً ﴾ وهي السعير المضطرمة .

(١٣) ﴿ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴾

﴿ وطعاماً ذا غصة ﴾ ينشب في الحلق ، فلا يدخل ولا يخرج ﴿ وعذاباً أليماً ﴾ .

(١٤) ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴾

﴿ يوم ترجف الأرض والجبال ﴾ أي تزلزل ﴿ وكانت الجبال كثيباً مهيلاً ﴾ أي تصير ككثبان الرمل بعدما كانت حجارة صماً ، ثم إنها تنسف نسفاً ، فلا يبقى منها شيء إلا ذهب حتى تصير الأرض ﴿ قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ﴾ أي وادياً ﴿ ولا أمتاً ﴾ أي رابية ، ومعناه لا شيء ينخفض ولا شيء يرتفع .

(١٥) ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾

ثم قال مخاطباً لكفار قريش ، والمراد سائر الناس ﴿ إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم ﴾ أي بأعمالكم ﴿ كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ﴾ .

(١٦) ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴾

﴿ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴾ أي شديداً ، أي فاحذروا أنتم أن تكذبوا هذا الرسول فيصيبكم ما أصاب فرعون حيث أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما قال الله تعالى ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ وأنتم أولى بالهلاك والدمار إن كذبتم رسولكم ، لأن رسولكم أشرف وأعظم من موسى بن عمران .

(١٧) ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾

﴿ فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ يوماً ﴾ معمولاً لتتقون . ويحتمل أن يكون معمولاً لكفرتم ، فعلى الأول : كيف يحصل لكم أمان من يوم هذا الفزع العظيم إن كفرتم ، وعلى الثاني : كيف يحصل لكم تقوى إن كفرتم يوم القيامة وجحدتموه ، وكلاهما معنى حسن ، ولكن الأول أولى . ومعنى قوله ﴿ يوماً يجعل الولدان شيباً ﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله .

(١٨) ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾

﴿ السماء منفطر به ﴾ أي بسبب شدته وهوله ﴿ كان وعده مفعولاً ﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً أي واقعاً لا محالة ، وكائناً لا محيد عنه .

(١٩) ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

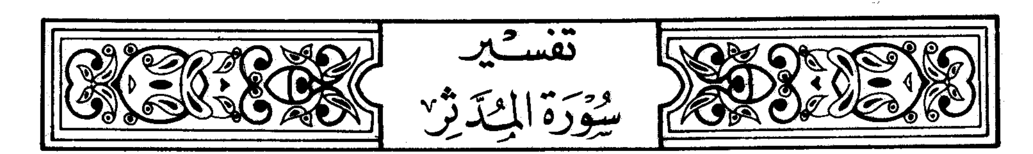
﴿ إن هذه ﴾ أي السورة ﴿ تذكرة ﴾ أي يتذكر بها أولوا الألباب ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه

سبيلاً ﴾ أي فمن شاء الله هدايته ، كما قيده في السورة الأخرى ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ .

﴿ * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ (٢٠)

﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك ﴾ أي تارة هكذا ، وذلك كله من غير قصد منكم ، ولكن لا تقدرون على المواظبة على ما أمركم به من قيام الليل لأنه يشق عليكم ، ولهذا قال ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ أي تارة يعتدلان ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، وهذا من هذا ﴿ علم أن لن تحصوه ﴾ أي الفرض الذي أوجبه عليكم ﴿ فاقرؤوا ما تيسر من القرآن ﴾ أي من غير تحديد بوقت ، أي ولكن قوموا من الليل ما تيسر ، وعبر عن الصلاة بالقراءة ، كما قال في سورة سبحان ﴿ ولا تجهر بصلاتك ﴾ أي بقراءتك ، ﴿ ولا تخافت بها ﴾ . وقد استدل أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمه الله بهذه الآية ﴿ فاقرءوا ما تيسر من القرآن ﴾ على أنه لا يجب قراءة الفاتحة في الصلاة ، بل لو قرأ بها أو بغيرها من القرآن ولو بآية أجزأه ، واعتضدوا بحديث المسيء صلاته الذي هو في الصحيحين « ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن » وقد أجابهم الجمهور بحديث عبادة بن الصامت وهو في الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « كل صلاة لا يقرأ فيها بأم القرآن ، فهي خداج ، فهي خداج ، فهي خداج غير تمام» وقوله ﴿ علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله ﴾ أي علم أن سيكون من هذه الأمة ذوو أعذار في ترك قيام الليل : من مرضى لا يستطيعون ذلك ، ومسافرين في الأرض يبتغون من فضل الله في المكاسب والمتاجر ، وآخرين مشغولين بما هو الأهم في حقهم من الغزو في سبيل الله ، وهذه

الآية ، بل السورة كلها مكية ، ولم يكن القتال شرع بعدُ فهي من أكبر دلائل النبوة ، لأنه من باب الاخبار بالمغيبات المستقبلة ، ولهذا قال تعالى ﴿ فاقرءوا ما تيسر منه ﴾ أي قوموا بما تيسر عليكم منه . ومذهب الحسن البصري أنه كان يرى حقاً واجباً على حملة القرآن أن يقوموا ولو بشيء منه في الليل ، ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل نام حتى أصبح فقال : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه » فقيل : معناه نام عن المكتوبة ، وقيل : عن قيام الليل ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ أي أقيموا صلاتكم الواجبة عليكم ، وآتوا الزكاة المفروضة ، وهذا يدل لمن قال : إن فرض الزكاة نزل بمكة ، لكن مقادير النصب والمخرج لم يتبين إلا بالمدينة . وقد قال ابن عباس وغير واحد من السلف : إن هذه الآية نسخت الذي كان الله قد أوجبه على المسلمين أولاً من قيام الليل ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لذلك الرجل « خمس صلوات في اليوم والليلة » قال : هل علي غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تطوع » وقوله تعالى ﴿ وأقرضوا الله قرضاً حسناً ﴾ يعني من الصدقات ، فإن الله يجازي على ذلك أحسن الجزاء وأوفره كما قال تعالى ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ وقوله ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً ﴾ أي جميع ما تقدمونه بين أيديكم فهو لكم حاصل ، وهو خير مما أبقيتموه لأنفسكم في الدنيا . روى الحافظ أبو يعلى « قال رسول الله ﷺ : « أيكم ماله أحب إليه من مال وارثه ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه ، قال : « اعلموا ما تقولون » قالوا : ما نعلم إلا ذلك يا رسول الله ، قال : « إنما مال أحدكم ما قدم . ومال وارثه ما أخر » ورواه البخاري . ثم قال تعالى ﴿ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ أي أكثروا من ذكره ، واستغفاره في أموركم كلها فإنه غفور رحيم لمن استغفره .



تفسير سُورَةُ المُدَّثِّر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ ﴾

ثبت في صحيح البخاري عن جابر أنه كان يقول : أول شيء نزل من القرآن ﴿ يا أيها

المدثر ﴾ وخالفه الجمهور فذهبوا إلى أن أول القرآن نزولاً قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ وقوله ﴿ قم فأنذر ﴾ أي شمر عن ساق العزم ، وأنذر الناس ﴿ وربك فكبر ﴾ أي عظم .

﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ وثيابك فطهر ﴾ سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال : لا تلبسها على معصية ، ولا على غدرة ، أي طهر نفسك من الإثم ، واجعل عملك صالحاً ، وقيل : لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طائب ، أو اغسلها بالماء ، فقد كان المشركون لا يتطهرون فأمره الله أن يتطهر ، أو طهر قلبك ونيتك ، أو حسن خلقك . ﴿ والرجز فاهجر ﴾ والأصنام فاهجر ، أو اترك المعصية ﴿ ولا تمنن تستكثر ﴾ لا تمنن بعملك على ربك تستكثره أو لا تمنن بالنبوة على الناس تستكثرهم بها ﴿ ولربك فاصبر ﴾ أي اجعل صبرك على أذاهم لوجه ربك عز وجل ﴿ فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذٍ يوم عسير . على الكافرين غير يسير ﴾ ﴿ الناقور ﴾ : الصور ، وفي الحديث « كيف أنعم ، وصاحب القرن قد التقم القرن ، وحنى جبهته ينتظر متى يؤمر فينفخ » فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فما تأمرنا يا رسول الله ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا » رواه الإمام أحمد ﴿عسير﴾ شديد . ﴿غير يسير﴾ غير سهل عليهم كما قال تعالى ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴾ وقد قرأ زرارة بن أبي أوفى قاضي البصرة في صلاة الصبح هذه السورة ، فلما وصل إلى قوله تعالى ﴿ فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذٍ يوم عسير . على الكافرين غير يسير ﴾ شهق شهقة ثم خر ميتاً . رحمه الله تعالى .

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا فكفر بأنعم الله ، وبدلها كفراً ، وقابلها بالجحود بآيات الله ، والافتراء عليها من قول البشر ، وقد عدد الله عليه نعمه حيث قال تعالى ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ أي خرج من بطن أمه وحده ، لا مال له ولا ولد ، ثم رزقه الله تعالى ﴿ وجعلتَ له مالاً ممدوداً ﴾ أي واسعاً كثيراً ، ﴿ و ﴾ جعل له ﴿ بنين شهوداً ﴾ أي حضوراً عنده ، لا يغيبون ولا يسافرون بالتجارات ، بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم ، وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ، ويتملى بهم ، وهذا أبلغ في النعمة ، وهو إقامتهم عنده ﴿ ومهدت له تمهيداً ﴾ أي مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك . ﴿ ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ﴾ أي معانداً ، وهو الكفر على نعمه بعد العلم ، قال الله تعالى ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال : « ويل » واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره . و« الصعود » جبل من نار يتصعد فيه الكافر سبعين خريفاً ثم يهوي به كذلك فيه أبداً » وقد رواه الترمذي . قال مجاهد ﴿ سأرهقه صعوداً ﴾ أي مشقة من العذاب ﴿ إنه فكر وقدر ﴾ أي إنما أرهقناه صعوداً ، أي قربناه من العذاب الشاق لبعده عن الإيمان لأنه فكر وقدر ، أي تروى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال ﴿ وقدر ﴾ أي تروى ﴿ فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر ﴾ دعاء عليه ﴿ ثم نظر ﴾ أي أعاد النظرة والتروي ﴿ ثم عبس ﴾ أي قبض بين عينيه وقطب ﴿ وبسر ﴾ أي كلح وكره ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ أي صرف عن الحق ، ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ﴿ فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ﴾ أي هذا سحر ينقله محمد ممن قبله ، ويحكيه عنهم ، ولهذا قال ﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾ أي ليس بكلام الله . وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش قال تعالى ﴿ سأصليه سقر ﴾ أي سأغمره فيها من جميع جهاته . ﴿ وما أدراك ما سقر ﴾ وهذا تهويل لأمرها وتفخيم ، ثم فسر ذلك بقوله ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ أي تأكل لحومهم وعروقهم وعصبهم وجلودهم ، ثم تبدل غير ذلك ، وهم في ذلك لا يموتون ولا يحيبون ﴿ لواحة للبشر ﴾ أي تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل ﴿ عليها تسعة عشر ﴾ أي من مقدمي الزبانية ، عظيم خلقهم ، غليظ خُلُقُهم .

﴿٣١﴾ ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ

ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ ﴿٣٧﴾

﴿ وما جعلنا أصحاب النار ﴾ أي خزانها ﴿ إلا ملائكة ﴾ أي زبانية غلاظاً شداداً ، وذلك رد على مشركي قريش حين ذكر عدد الخزانة ، فقال أبو جهل : يا معشر قريش ، أما يستطيع كل عشرة منكم لواحد منهم ، فتغلبونهم ، فقال الله تعالى ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أي شديدو الخلق ، لا يقاومون ، ولا يغالبون ، وقد قيل : إن أبا الأشد قال : يا معشر قريش ، اكفوني منهم اثنين ، وأنا أكفيكم منهم سبعة عشر إعجاباً منه بنفسه ، وكان قد بلغ من القوة فيما يزعمون أنه كان يقف على جلد البقرة ، ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدميه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه . قال السهيلي : وهو الذي دعا رسول الله ﷺ إلى مصارعته ، وقال : إن صرعتني آمنت بك ، فصرعه النبي ﷺ مراراً فلم يؤمن ، قال : وقد نسب ابن إسحاق خبر المصارعة إلى ركانة بن عبد يزيد ، ولا منافاة بين ما ذكراه . ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ اختباراً منا للناس ﴿ ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ﴾ أي ليعلموا أن هذا الرسول حق ، فإنه نطق بمطابقة ما بأيديهم من الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء قبله . وقوله تعالى ﴿ ويزداد الذين آمنوا إيماناً ﴾ أي إلى إيمانهم بما يشهدون من صدق أخبار نبيهم محمد ﷺ ﴿ ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي من المنافقين ﴿ والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً ﴾ أي يقولون : ما الحكمة في ذكر هذا ههنا ؟ قال الله تعالى ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي بمثل هذا وأشباهه يتأكد الإيمان في قلوب أقوام ، ويتزلزل عند آخرين ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة . وقوله تعالى ﴿ وما يعلم جنود ربك إلا هو ﴾ أي ما يعلم عددهم وكثرتهم إلا هو تعالى لئلا يتوهم متوهم أنهم تسعة عشر فقط . وقد ثبت في حديث الاسراء المروي في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال في صفة البيت المعمور الذي في السماء السابعة « فإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم » ﴿ وما هي ﴾ أي النار التي وصفت ﴿ إلا ذكرى للبشر ﴾ ﴿ كلا والقمر . والليل إذ أدبر ﴾ أي ولى ﴿ والصبح إذا أسفر ﴾ أي أشرق ﴿ إنها لإحدى الكبر ﴾ أي العظائم ، يعني النار ﴿ نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن

يتقدم أو يتأخر ﴾ أي لمن شاء أن يقبل النذارة ، ويهتدي للحق ، أو يتأخر عنها ويولي دبرها .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴾ (٤٤)

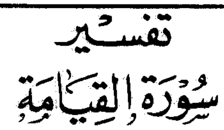
﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ أي متعلقة بعملها يوم القيامة ﴿ إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون . عن المجرمين ﴾ أي يسألون المجرمين ، وهم في الغرفات ، وأولئك في الدركات قائلين لهم ﴿ ما سلككم في سقر . قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين ﴾ أي ما عبدنا ربنا ولا أحسنا إلى خلقه من جنسنا .

﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ (٥١) بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً (٥٢) كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ (٥٣) كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾ (٥٦)

﴿ وكنا نخوض مع الخائضين ﴾ أي نتكلم فيما لا نعلم ، قال قتادة : كلما غوى غاوٍ غوينا معه ﴿ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين ﴾ يعني الموت ، كقوله تعالى ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وقال رسول الله ﷺ « أما هو - يعني عثمان بن مظعون - فقد جاءه اليقين من ربه » قال الله تعالى ﴿ فما تنفعهم شفاعة الشافعين ﴾ أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة شافع فيه ، لأن الشفاعة إنما تنجع إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة ، فإنه له النار لا محالة خالداً فيها .

ثم قال تعالى ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ ﴾ أي فما لهؤلاء الكفرة الذين قبلك معرضين عما تدعوهم إليه ، وتذكرهم به ﴿ كأنهم حمر مستنفرة . فرت من قسورة ﴾ أي كأنهم في نفارهم عن الحق ، وإعراضهم عن حمر من حمر الوحش إذا فرت ممن يريد صيدها من أسد ، أو رام ﴿ بل يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفاً منشرة ﴾ أي بل يريد كل واحد من هؤلاء المشركين أن ينزل عليه كتاب كما أنزل الله على النبي ﷺ ، كقوله تعالى ﴿ وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله الله أعلم

حيث يجعل رسالته ﴾ ، أو أن يؤتوا براءة بغير عمل ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة ﴾ أي إنما أفسدهم عدم إيمانهم بها ، وتكذيبهم بوقوعها . ﴿ كلا إنه تذكرة ﴾ أي حقاً إن القرآن تذكرة ﴿ فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله ﴾ كقوله تعالى ﴿ وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ أي هو أهل أن يخاف منه ، وهو أهل أن يغفر ذنب من تاب إليه وأناب . روى الامام أحمد عن أنس بن مالك قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ وقال : « قال ربكم : أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إلَه ، فمن اتقى أن يجعل معي إلَهاً كان أهلاً أن أغفر له » ورواه الترمذي وابن ماجه .


تفسير سُورَةِ القِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾

إذا كان المقسم عليه منتفياً جاز الاتيان بـ ﴿ لا ﴾ قبل القسم لتأكيد النفي ، والمقسم عليه ههنا هو إثبات المعاد ، والرد على ما يزعمه الجهلة من العباد من عدم بعث الأجساد ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾ أقسم بهما جميعاً معاً ، فأما يوم القيامة فمعروف ، وأما النفس اللوامة فعن الحسن البصري إن المؤمن والله ما نراه إلا يلوم نفسه : ما أردت بكلمتي ، ما أردت بأكلتي ، ما أردت بحديث نفسي ؟ وأن الفاجر يمضي قدماً ما يعاتب نفسه . وعن الحسن : ليس أحد من أهل السموات والأرضين إلا يلوم نفسه يوم القيامة .

(٣) ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ

بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ﴿١٥﴾

﴿ أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ﴾ أي يوم القيامة ، أيظن أنا لا نقدر على إعادة عظامه ، وجمعها من أماكنها المتفرقة ؟ ﴿ بلى قادرين على أن نسوي بنانه ﴾ أي أن نجعله خفاً أو حافراً ، أي أن نجعل أصابعة مستوية ﴿ بل يريد الإنسان ليفجر أمامه ﴾ يعني يمضي قدماً ، أو يعني الأمل ، يقول : أعمل ثم أتوب قبل يوم القيامة ، ويقال : هو الكفر بالحق بين يدي يوم القيامة ، أو ليمضي أمامه راكباً رأسه . ﴿ يسأل أيان يوم القيامة ﴾ أي يقول : متى يوم القيامة ، وإنما سؤ اله سؤ ال استبعاد لوقوعه ، وتكذيب لوجوده ﴿ فإذا برق البصر ﴾ أي حار ، كقوله تعالى ﴿ لا يرتد اليهم طرفهم ﴾ أي بل ينظرون من الفزع هكذا وهكذا ، لا يستقر لهم بصر على شيء من شدة الرعب ، والمقصود أن الأبصار تنبهر يوم القيامة وتخشع وتحار وتذل من شدة الأهوال ، ومن عظم ما تشاهده يوم القيامة من الأمور ﴿ وخسف القمر ﴾ أي ذهب ضوءه ﴿ وجمع الشمس والقمر ﴾ كوراً ﴿ يقول الانسان يومئذٍ أين المفر ﴾ أي إذا عاين ابن آدم هذه الأهوال يوم القيامة حينئذٍ يريد أن يفر ، ويقول : أين المفر ، أي هل من ملجأ أو موئل ؟ قال تعالى ﴿ كلا لا وزر ﴾ أي لا نجاة ، كقوله تعالى ﴿ مالكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير ﴾ أي ليس لكم مكان تتنكرون فيه ، وكذا قال ههنا ﴿ لا وزر ﴾ أي ليس لكم مكان تعتصمون فيه ، ولهذا قال ﴿ إلى ربك يومئذٍ المستقر ﴾ أي المرجع والمصير . ﴿ ينبأ الانسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ أي يخبر بجميع أعماله قديمها وحديثها ، أولها وآخرها ، صغيرها وكبيرها ، كما قال تعالى ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً ﴾ ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ أي هو شهيد على نفسه ، عالم بما فعله ولو اعتذر وأنكر كما قال تعالى ﴿ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ .

﴿١٦﴾ ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ﴿٢٣﴾

هذا تعليم من الله عز وجل لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره ، وأن ييسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه ، وأن يبينه له ، ويفسره ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية تلاوته ، والثالثة تفسيره ، وإيضاح معناه ، ولهذا قال تعالى ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ﴾ أي بالقرآن كما قال تعالى ﴿ ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى

اليك وحيه ﴾ ثم قال تعالى ﴿ إن علينا جمعه ﴾ أي في صدرك ﴿ وقرآنه ﴾ أي أن تقرأه ﴿ فإذا قرأناه ﴾ أي تلاه عليك الملك عن الله تعالى ﴿ فاتبع قرآنه ﴾ فاستمع له ، ثم اقرأه كما أقرأك ﴿ ثم إن علينا بيانه ﴾ أي بعد حفظه وتلاوته نبينه لك ونوضحه ، ونلهمك معناه على ما أردنا . ﴿ كلا بل تحبون العاجلة . وتذرون الآخرة ﴾ أي إنما يحملهم على التكذيب بيوم القيامة ومخالفة ما أنزله الله عزوجل على رسوله ﷺ من الوحي الحق والقرآن العظيم أنهم إنما همتهم إلى الدار الدنيا العاجلة ، وهم لاهون متشاغلون عن الآخرة ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة ﴾ من النضارة ، أي حسنة بهية مشرقة مسرورة ﴿ إلى ربها ناظرة ﴾ أي تراه عياناً ، كما رواه البخاري في صحيحه « إنكم سترون ربكم عِياناً » وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله عزوجل في الدار الآخرة في الأحاديث الصحيحة من طرق متواترة عند أئمة الحديث ، لا يمكن دفعها ولا منعها .

(٢٤) ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ (٢٥)

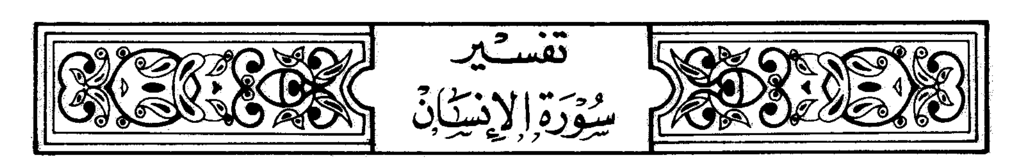
﴿ ووجوه يومئذٍ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ هذه وجوه الفجار تكون يوم القيامة باسرة ، أي كالحة ، عابسة ﴿ تظن ﴾ أي تستيقن ﴿ فاقرة ﴾ داهية ، وشر .

(٣٦) ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ (٢٨) وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ (٣٥) أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (٤٠)

يخبر تعالى عن حالة الاحتضار ، وما عنده من الأهوال ، ثبتنا الله هنالك بالقول الثابت، فقال تعالى ﴿ كلا ﴾ حقاً ﴿ إذا بلغت التراقي ﴾ أي انتزعت الروح من الجسد ، وبلغت العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق ﴿ وقيل : من راق ﴾ أي من طبيب شاف ، أو من يرقى يروحه : ملائكة الرحمة ، أو ملائكة العذاب ؟ ﴿ والتفت الساق بالساق ﴾ آخر يوم من أيام الدنيا ، وأول يوم من أيام الآخرة ، فتلتقي الشدة بالشدة إلا ومن رحمه الله ، أو الأمر العظيم بالأمر العظيم ، ﴿ إلى ربك يومئذٍ المساق ﴾ أي المرجع والمآب ﴿ فلا صدق ولا صلى ولكن كذب وتولى ﴾ هذا إخبار عن الكافر الذي كان في الدار الدنيا مكذباً بقلبه متولياً عن العمل بقالبه ، فلا خير فيه باطناً ولا

ظاهراً ﴿ ثم ذهب إلى أهله يتمطى ﴾ أي جذلان أشراً بطراً كسلاناً ، لا همة له ولا عمل ﴿ أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى ﴾ وهذا تهديد ووعيد أكيد من الله تعالى للكافر به المتبختر في مشيه ، أي يحق لك أن تمشي هكذا ، وقد كفرت بخالقك وبارئك ﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ يعني لا يبعث ، أو لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يترك في قبره سدى لا يبعث ، بل هو مأمور منهي في الدنيا ، محشور إلى الله في الدار الآخرة . والمقصود هنا إثبات المعاد ، والرد على من أنكره من أهل الزيغ والجهل والعناد ، ولهذا قال تعالى مستدلاً على الاعادة بالبداءة فقال تعالى ﴿ ألم يك نطفة من مني يمنى ﴾ أي أما كان الانسان نطفة ضعيفة من ماء مهين ؟ ﴿ يمنى ﴾ يراق من الاصلاب في الأرحام ﴿ ثم كان علقة فخلق فسوى ﴾ أي فصار علقة ، ثم مصنفه، ثم شكل ونفخ فيه الروح ، فصار خلقاً آخر سوياً ، سليم الأعضاء ، ذكراً أو أنثى باذن الله وتقديره ، ولهذا قال ﴿ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾ ثم قال تعالى ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ﴾ أي أما هذا الذي أنشأ هذا الخلق السوي من هذه النطفة الضعيفة بقادر على أن يعيده كما بدأه ، وتناول القدرة للاعادة إما بطريق الأولى بالنسبة للبداءة ، وإما مساوية على القولين في قوله تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ والأول أشهر . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه مر بهذه الآية ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى ﴾ قال : سبحانك فبكى .

* * *



في صحيح مسلم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ﴿ ألم تنزيل﴾ السجدة و﴿ هل أتى على الإنسان ؟ ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الانسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه ، فقال تعالى ﴿ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

(٢) ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾

ثم بين ذلك فقال ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج ﴾ أي أخلاط، والمشيج: الشيء المختلط بعضه في بعضه ، وعن ابن عباس : ماء الرجل ، وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا ، ثم ينتقل بعد ذلك من طور إلى طور ، وحال إلى حال ، ولون إلى لون ﴿ نبتليه ﴾ أي نختبره ، كقوله تعالى ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ ﴿ فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾ أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية . وقوله جل وعلا

(٣) ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أي بيناه ووضحناه وبصرناه ، كقوله تعالى ﴿ وهديناه النجدين ﴾ أي بينا له طريق الخير وطريق الشر . أو ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ يعني خروجه من الرحم ، وهذا قول غريب ، والصحيح المشهور الأول . ﴿ إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد ، روى مسلم قال : قال رسول الله ﷺ « كل الناس يغدو : فبائع نفسه فموبقها أو مهلكها » .

(٤) ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾

يخبر تعالى عما أرصده للكافرين من خلقه به من السلاسل والأغلال والسعير ، وهو اللهب والحريق في نار جهنم كما قال تعالى ﴿ إذ الأغلال في اعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يسجرون ﴾ .

(٥) ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾

ولما ذكر ما أعده لهؤلاء الأشقياء من السعير قال بعده ﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً ﴾ وقد علم ما في الكافور من التبريد والرائحة الطيبة مع ما يضاف إلى ذلك من اللذاذة في الجنة .

(٦) ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾

﴿ عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ﴾ أي هذا الذي مزج لهؤلاء الأبرار من الكافور هو عين يشرب بها المقربون من عباد الله صرفاً بلا مزج ويروون بها ، ولهذا ضمن يشرب معنى يروي حتى عداه بالباء ، ونصب عيناً على التمييز ﴿ يفجرونها تفجيراً ﴾ أي يتصرفون فيها حيث شاؤوا ، وأين شاؤوا من قصورهم ودورهم ومجالهم ومحالهم ، والتفجير هو الاتباع .

(٧) ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴾

﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ﴾ أي يتعبدون الله فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع ، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر . روى الامام مالك عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه » رواه البخاري .

(٨) ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴾

﴿ ويطعمون الطعام على حبه ﴾ قيل : على حب الله تعالى ، وقيل : على حب الطعام ، أي ويطعمون الطعام في حال محبتهم وشهوتهم له ، وهذا هو الأظهر ، كقوله تعالى ﴿ وآتى المال على حبه ﴾ وكقوله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وفي الصحيح « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » أي في حال محبتك للمال، وحرصك عليه، وحاجتك إليه ﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾ عن ابن عباس كان أسراؤهم يومئذٍ مشركين، ويشهد لهذا أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسارى فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الفداء ، وقيل : هم العبيد ، واختاره ابن جرير، فعموم الآية للمسلم والمشرك. وقد أوصى رسول الله ﷺ بالاحسان إلى الأرقاء في غير ما حديث حتى إنه كان آخر ما أوصى أنه أن جعل يقول « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

(٩) ﴿ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴾

﴿ إنما نطعمكم لوجه الله ﴾ أي رجاء ثواب الله ورضاه ﴿ لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ﴾ أي لا نطلب منكم مجازاة تكافئوننا بها ، ولا أن تشكرونا عند الناس .

(١٠) ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴾

﴿ إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ﴾ أي إنما نفعل هذا ، لعل الله أن يرحمنا ، ويتلقانا بلطفه في اليوم العبوس القمطرير ، أي الطويل ، أو هو تقليص الوجه وما بين العينين من الهول ، أو العبوس : الشر ، والقمطرير : الشديد .

(١١) ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾

﴿ فوقاهم الله شر ذلك اليوم ﴾ أي آمنهم مما خافوا منه ﴿ ولقاهم نضرة ﴾ أي في وجوههم ﴿ وسروراً ﴾ أي في قلوبهم .

(١٢) ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾

﴿ وجزاهم بما صبروا ﴾ أي بسبب صبرهم أعطاهم ونولهم وبوأهم جنة وحريراً ، أي منزلاً رحباً ، وعيشاً رغداً ولباساً حسناً .

(١٣) ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴾

يخبر تعالى عن أهل الجنة ، وما هم فيه من النعيم المقيم ، وما أسبغ عليهم من الفضل العظيم فقال تعالى ﴿ متكئين فيها على الأرائك ﴾ الأرائك هي السرر تحت الحجال ﴿ لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ﴾ أي ليس عندهم حر مزعج ، ولا برد مؤلم ، بل هي مزاج واحد دائم سرمدي ، لا يبغون عنها حولاً .

(١٤) ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴾

﴿ ودانية عليهم ظلالها ﴾ أي قريبة اليهم أغصانها ﴿ وذللت قطوفها تذليلاً ﴾ أي متى تعاطاه دنا القطف وتدلى من أعلى غصنه ، كأنه سامع طائع .

(١٥) ﴿ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴾

﴿ ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب ﴾ أي يطوف عليهم الخدم بأواني الطعام ، وهي من فضة وأكواب الشراب ، وهي الكيزان التي لا عرى لها ولا خراطيم ﴿ كانت قواريرا ﴾ .

(١٦) ﴿ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾

﴿ قوارير من فضة ﴾ أي بياض الفضة في صفاء الزجاج ، والقوارير لا تكون إلا من زجاج ، فهذه الأكواب هي من فضة ، وهي مع هذا شفافة يرى ما في باطنها من ظاهرها ، وهذا مما لا نظير له في الدنيا ﴿ قدروها تقديراً ﴾ أي على قدر ريِّهم لا تزيد ولا تنقص ، بل هي معدة لذلك ، مقدرة بحسب ري صاحبها .

(١٧) ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾

﴿ ويسقون ﴾ يعني الأبرار أيضاً فت هذه الأكواب ﴿ كأساً ﴾ أي خمراً ﴿ كان مزاجها زنجبيلاً ﴾ فتارة يمزج لهم الشراب بالكافور ، وهو بارد ، وتارة بالزنجبيل ، وهو حار ، ليعتدل الأمر ، وهؤلاء يمزج لهم من هذا تارة ، ومن هذا تارة ، وأما المقربون فإنهم يشربون من كل منهما صرفاً .

(١٨) ﴿ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴾

﴿ عيناً فيها تسمى سلسبيلاً ﴾ أي الزنجبيل عين في الجنة تسمى سلسبيلاً .

(١٩) ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾

﴿ ويطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ أي يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان الجنة ﴿ مخلدون ﴾ أي على حالة واحدة مخلدون عليها ، لا يتغيرون عنها ، لا تزيد أعمارهم عن تلك السن ﴿ إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ﴾ أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة ، وكثرتهم ، وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحليهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً ، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا ، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنثور على المكان الحسن .

(٢٠) ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾

﴿ وإذا رأيت ﴾ أي وإذا رأيت يا محمد ﴿ ثم ﴾ أي هناك ، يعني في الجنة ونعيمها وسعتها وارتفاعها وما فيها من الحبرة والسرور ﴿ رأيت نعيماً وملكاً كبيراً ﴾ أي مملكة لله هناك عظيمة ، وسلطاناً باهراً .

(٢١) ﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾

﴿ عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق ﴾ أي لباس أهل الجنة فيها الحرير ، ومنه سندس ، وهو رفيع الحرير كالقمصان ونحوها مما يلي أبدانهم ، والاستبرق ، منه ما فيه بريق ولمعان ، وهو مما يلي الظاهر ، كما هو المعهود في اللباس . ﴿ وحلوا أساور من فضة ﴾ وهذه صفة الأبرار ، وأما المقربون فكما قال تعالى ﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير ﴾ ولما ذكر تعالى زينة الظاهر بالحرير والحلي قال بعده ﴿ وسقاهم ربهم شراباً طهوراً ﴾ أي طهر بواطنهم من الحسد والحقد والغل والأذى وسائر الأخلاق الرديئة .

(٢٢) ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾

﴿ إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أي يقال لهم : ذلك تكريماً لهم ، وإحساناً إليهم كما قال تعالى ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ ﴿ وكان سعيكم مشكوراً ﴾ أي جزاكم الله تعالى على القليل بالكثير .

(٢٣) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴾

يقول تعالى ممتناً على رسوله ﷺ بما أنزله عليه من القرآن العظيم تنزيلاً ﴿ إنا نحن نزَّلنا عليك القرآن تنزيلاً ﴾ .

(٢٤) ﴿ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴾

﴿ فاصبر لحكم ربك ﴾ أي كما أكرمتك بما أنزلت عليك ، فاصبر على قضائه وقدره ، واعلم أنه سيدبرك بحسن تدبيره ﴿ ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً ﴾ أي لا تطع الكافرين والمنافقين إن أرادوا صدك عما أنزل إليك من ربك ، وتوكل على الله ، فإن الله يعصمك من الناس ، فالآثم هو الفاجر في أفعاله ، والكفور هو الكافر قلبه .

(٢٥) ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾

﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ﴾ أي أول النهار وآخره .

(٢٦) ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾

﴿ ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ كقوله تعالى ﴿ ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً ﴾ .

(٢٧) ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾

ثم قال منكراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا ، والاقبال عليها ، والانصباب إليها ، وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿ إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلاً ﴾ يعني يوم القيامة .

(٢٨) ﴿ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴾

﴿ نحن خلقناهم وشددنا أسرهم ﴾ يعني خلقهم ﴿ وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلاً ﴾ أي إذا شئنا بعثناهم يوم القيامة وبدلناهم . فأعدناهم يوم القيامة وبدلناهم . فأعدناهم خلقاً جديداً ، وهذا استدلال بالبداءة على الرجعة ، أو وإذا شئنا أتينا بقوم آخرين غيرهم ، كقوله تعالى ﴿ إن يشأ يذهبكم ويأت بآخرين ﴾ .

(٢٩) ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾

﴿ إن هذه تذكرة ﴾ يعني هذه السورة تذكرة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً ﴾ أي طريقاً

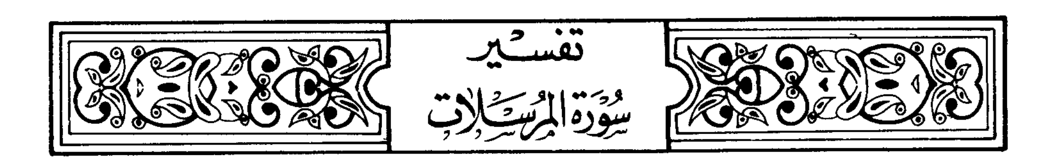
ومسلكاً ، أي من شاء اهتدى بالقرآن .

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

﴿ وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله ﴾ أي لا يقدر أحد أن يهدي نفسه ، ولا يدخل في الإيمان ، ولا يجر لنفسه نفعاً ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ ﴿ إن الله كان عليماً حكيماً ﴾ أي عليماً بمن يستحق الهداية فييسرها له ، ويقيض له أسبابها ، ومن يستحق الغواية فيصرفه عن الهدى ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدامغة .

(٣١) ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

﴿ يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً ﴾ أي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ، فمن يهده فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له .



تفسير سُورَةِ المُرسَلات

روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غار بمنى إذ نزلت عليه ﴿ والمرسلات ﴾ فإنه ليتلوها ، وإني لأتلقاها من فيه ، وإن فاه الرطب بها إذ وثبت علينا حية فقال النبي ﷺ « اقتلوها » فابتدرناها فذهبت ، فقال النبي ﷺ : « وقيت شركم كما وقيتم شرها » وأخرجه مسلم . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس أن أم الفضل سمعته يقرأ ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ فقالت : يا بني ، أذكرتني بقراءتك هذه السورة ، إنها لآخر من سمعت من رسول الله ﷺ يقرأ بها في المغرب . أخرجاه في الصحيحين .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا (١) فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا (٢) وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا (٣) فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا (٤) فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ (٧) فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ (٨) وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ (٩) وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ (١٠) وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ (١١) لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ (١٢)

﴿ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿١٥﴾

﴿ والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشراً . فالفارقات فرقاً ، فالملقيات ذكراً . عذراً أو نذراً ﴾ يعني الملائكة ، فإنها تنزل بأمر الله على الرسل ، تفرق بين الحق والباطل ، والهدى والغي ، والحلال والحرام ، وتلقي إلى الرسل وحياً فيه إعذار إلى الخلق ، وإنذار لهم عقاب الله إن خالفوا أمره ، أو هي الرياح ترسل ، وتعصف وتنشر السحاب في آفاق السماء كما يشاء الرب جل وعز ﴿ إنما توعدون لواقع ﴾ هذا هو المقسم عليه بهذه الأقسام ، أي ما وعدتم به من قيام الساعة ، والنفخ في الصور ، وبعث الأجساد ، وجمع الأولين والآخرين في صعيد واحد ، ومجازاة كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، إن هذا كله لواقع أي لكائن لا محالة . ثم قال تعالى ﴿ فإذا النجوم طمست ﴾ أي ذهب ضوؤها . كقوله تعالى ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ ﴿ وإذا السماء فرجت ﴾ أي انفطرت وانشقت وتدلت أرجاؤها ، ووهت أطرافها ﴿ وإذا الجبال نسفت ﴾ أي ذهب بها فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كقوله تعالى ﴿ ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً ﴾ ﴿ وإذا الرسل أقتت ﴾ جمعت أو أجلت ، أو أوعدت ﴿ لأي يوم أجلت ﴾ يقول تعالى : لأي يوم أجلت الرسل ، وأرجىء أمرها ﴿ ليوم الفصل ﴾ ليوم قيام الساعة . ثم قال تعالى معظماً لشأنه ﴿ ما أدراك ما يوم الفصل . ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي ويل لهم من عذاب الله غداً . وفي الحديث ﴿ ويل ﴾ واد في جهنم . ولا يصح .

﴿١٦﴾ ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ ألم نهلك الأولين ﴾ يعني من المكذبين للرسل المخالفين لما جاؤهم به ﴿ ثم نتبعهم الآخرين ﴾ أي ممن أشبههم . ولهذا قال تعالى ﴿ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ .

﴿٢٠﴾ ﴿ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَـٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَـٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَـٰمِخَـٰتٍ وَأَسْقَيْنَـٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿٢٨﴾

ثم قال تعالى ممتناً على خلقه ، ومحتجاً على الاعادة بالبداءة ﴿ ألم نخلقكم من ماء

مهين ﴾ أي ضعيف حقير بالنسبة إلى قدرة الباري عز وجل ، وفي حديث بشر بن جحاش « ابن آدم أنى تعجزني ، وقد خلقتك مثل هذه » ﴿ فجعلناه في قرار مكين ﴾ يعني جمعناه في الرحم ، وهو قرار الماء من الرجل والمرأة ، والرحم معد حافظ لما أودع فيه من الماء ﴿ إلى قدر معلوم ﴾ يعني إلى مدة معينة ، من ستة أشهر ، أو تسعة أشهر . ولهذا قال تعالى ﴿ فقدرنا فنعم القادرون . ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ ألم نجعل الأرض كفاتاً . أحياء وأمواتاً ﴾ كفاتاً كناً ، يكفت الميت فلا يرى منه شيء ، قال الشعبي : بطنها لأمواتكم ، وظهرها لأحيائكم ﴿ وجعلنا فيها رواسي شامخات ﴾ يعني الجبال رسى بها الأرض لئلا تميد وتضطرب ﴿ وأسقيناكم ماء فراتاً ﴾ أي عذباً زلالاً من السحاب ، أو مما أنبعه من عيون الأرض ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي ويل لمن تأمل هذه المخلوقات الدالة على عظمة خالقها ، ثم بعد هذا يستمر على تكذيبه وكفره .

﴿ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَـٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَـٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَـٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَـٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿٤٠﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار المكذبين بالمعاد والجزاء والجنة والنار أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون . انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ﴾ يعني لهب النار إذا ارتفع وصعد معه دخان فمن شدته وقوته له ثلاث شعب ﴿ لا ظليل ولا يغني من اللهب ﴾ أي ظل الدخان المقابل للهب لا ظليل هو نفسه ، ولا يغني من اللهب ، يعني ولا يقيهم حر اللهب ﴿ إنها ترمي بشرر كالقصر ﴾ أي يتطاير الشرر من لهبها كالقصر ، قال ابن مسعود : كالحصون . ﴿ كأنه جمالة صفر ﴾ أي كالإبل السود ، أو كقطع النحاس ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين . هذا يوم لا ينطقون ﴾ أي لا يتكلمون ﴿ ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ أي لا يقدرون على الكلام . ولا يؤذن لهم فيه ليعتذروا ، بل قد قامت عليهم الحجة ﴿ ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ﴾ وعرصات القيامة حالات ، والرب تعالى يخبر عن هذه الحالة تارة ، وعن هذه الحالة تارة ليدل على شدة الأهوال والزلازل يومئذٍ ، ولهذا يقول بعد كل فصل من هذا الكلام ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ﴿ هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ﴾ وهذه مخاطبة من الخالق تعالى

لعباده ، يعني أنه جمعهم بقدرته في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر . ﴿ فإن كان لكم كيد فكيدون ﴾ تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، أي إن قدرتم على أن تتخلصوا من قبضتي ، وتنجوا من حكمي فافعلوا ، فإنكم لا تقدرون على ذلك ، كما قال تعالى ﴿ يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴾ وقد قال تعالى ﴿ ولا تضرونه شيئاً ﴾ وفي الحديث « يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتضروني » ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ .

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن عباده المتقين الذين عبدوه بأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، إنهم يوم القيامة يكونون في جنات وعيون ، أي بخلاف ما أولئك الأشقياء فيه من ظل اليحموم ، وهو الدخان الأسود المنتن . وقوله ﴿ وفواكه مما يشتهون ﴾ أي ومن سائر أنواع الثمار مهما طلبوا وجدوا ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون ﴾ أي يقال لهم : ذلك على سبيل الاحسان إليهم ثم قال تعالى مخبراً خبراً مستأنفاً ﴿ إنا كذلك نجزي المحسنين ﴾ أي هذا جزاؤنا لمن أحسن العمل ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ وقوله تعالى ﴿ كلوا ﴾ خطاب للمكذبين بيوم الدين ، وأمرهم أمر تهديد ووعيد ﴿ وتمتعوا قليلاً ﴾ أي مدة قليلة قريبة قصيرة ﴿ إنكم مجرمون ﴾ أي ثم تساقون إلى نار جهنم التي تقدم ذكرها ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ كما قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ أي إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة امتنعوا من ذلك ، واستكبروا عنه ، ولهذا قال تعالى ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فبأي حديث بعده يؤمنون ﴾ أي إذا لم يؤمنوا بهذا القرآن فبأي كلام يؤمنون به ؟ كقوله تعالى ﴿ فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴾ ؟ . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة يرويه : إذا قرأ ﴿ والمرسلات عرفاً ﴾ ـ فقرأ ـ فبأي حديث بعد يؤمنون ؟ فليقل آمنت بالله ، وبما أنزل .

* * *



تفسير سُورَةِ النَّبَأ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٣﴾

يقول تعالى منكراً على المشركين في تساؤلهم عن يوم القيامة إنكاراً لوقوعها ﴿عم يتساءلون عن النبأ العظيم﴾ أي عن أي شيء يتساءلون عن أمر القيامة ، وهو النبأ العظيم ، يعني الخبر الهائل ، المفظع الباهر ، أو هو القرآن ، والأظهر الأول ﴿الذي هم فيه مختلفون﴾ يعني أن الناس فيه على قولين مؤمن به وكافر .

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ ﴿١٦﴾

﴿كلا سيعلمون . ثم كلا سيعلمون﴾ وهذا تهديد شديد ، ووعيد أكيد ، ثم شرع تبارك وتعالى يبين قدرته العظيمة على خلق الأشياء الغريبة ، والأمور العجيبة الدالة على قدرته على ما يشاء من أمر المعاد وغيره فقال ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً﴾ أي ممهدة للخلائق ، ذلولاً لهم ، قارة ساكنة ثابتة ﴿والجبال أوتاداً﴾ أي جعلها لها أوتاداً ، أرساها بها وثبتها وقررها حتى سكنت ولم تضطرب بمن عليها . ثم قال تعالى ﴿وخلقناكم أزواجاً﴾ يعني ذكراً وأنثى ، يتمتع كل منهما بالآخر ، ويحصل التناسل بذلك ، كقوله تعالى ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ وقوله تعالى ﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي قطعاً للحركة لتحصل الراحة من كثرة الترداد والسعي في المعايش في عرض النهار ﴿وجعلنا الليل لباساً﴾ أي يغشى الناس ظلامه وسواده كما قال تعالى ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أو ﴿لباساً﴾ سكناً . وقوله تعالى ﴿وجعلنا النهار معاشاً﴾ أي جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه ، والذهاب والمجيء للمعاش

والتكسب والتجارة وغير ذلك . وقوله تعالى ﴿ وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ﴾ يعني السموات السبع في اتساعها وارتفاعها وإحكامها وإتقانها وتزيينها بالكواكب الثوابت ، والسيارات ، ولهذا قال تعالى ﴿ وجعلنا سراجاً وهاجاً ﴾ يعني الشمس المنيرة على جميع العالم التي يتوهج ضوؤ ها لأهل الأرض كلهم . وقوله تعالى ﴿ وأنزلنا من المعصرات ﴾ من الرياح ، ومعنى هذا القول أنها تستدر المطر من السحاب كما قال تعالى ﴿ الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ﴾ أي من بينه ﴿ ماء ثجاجاً ﴾ منصباً متتابعاً . ومنه قول النبي ﷺ « أفضل الحج العج والثج » يعني صب دماء البدن . وقوله ﴿ لنخرج به ﴾ أي لنخرج بهذا الماء الكثير الطيب النافع المبارك ﴿ حباً ﴾ يدخر للأناس والأنعام ﴿ ونباتاً ﴾ أي خضراً يؤكل رطباً ﴿ وجنات ﴾ أي بساتين وحدائق من ثمرات متنوعة وألوان مختلفة ، وطعوم وروائح متفاوتة ، وإن كان ذلك في بقعة واحدة من الأرض مجتمعاً ، ولهذا قال ﴿ وجنات ألفافاً ﴾ أي مجتمعة ، وهذه كقوله تعالى ﴿ وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .

(١٧) ﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخبراً عن يوم الفصل ، وهو يوم القيامة أنه مؤقت بأجل معدود ، لا يزاد عليه ، ولا ينقص منه ، ولا يعلم وقته على التعيين إلا الله عز وجل كما قال تعالى ﴿ وما نؤخره إلا لأجل معدود ﴾ ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً ﴾ زمراً زمراً ، أو تأتي كل أمة مع رسولها ، كقوله تعالى ﴿ يوم ندعو كل أناس بإمامهم ﴾ عن رسول الله ﷺ « ما بين النفختين أربعون » قالوا : أربعون يوماً ؟ قال : « أبيت » قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : « أبيت » قالوا : أربعون سنة ؟ قال : « أبيت » قال : « ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل ، ليس من الانسان شيء إلا يبلى ، إلا عظماً واحداً ، وهو عجب الذنب ، ومنه يركب الخلق يوم القيامة » ﴿ وفتحت السماء فكانت أبواباً ﴾ أي طرقاً ومسالك لنزول الملائكة ﴿ وسيرت الجبال ﴾ كقوله تعالى ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ﴾ ﴿ فكانت سراباً ﴾ أي يخيل إلى الناظر أنها شيء وليست بشيء ،

وبعد هذا تذهب ، فلا عين ولا أثر ﴿ إن جهنم كانت مرصاداً ﴾ أي مرصدة معدة ﴿ للطاغين ﴾ وهم المردة العصاة المخالفون للرسل ﴿ مآباً ﴾ أي مرجعاً ومنقلباً ومصيراً ونزلاً ﴿ لابثين فيها أحقاباً ﴾ أي ماكثين فيها مدة من الزمان ، والحقب : ثمانون سنة ، كل سنة اثنا عشر شهراً ، كل شهر ثلاثون يوماً ، كل يوم ألف سنة . والصحيح أنها لا انقضاء لها ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً ﴾ أي لا يجدون في جهنم برداً لقلوبهم ، ولا شراباً طيباً يتغذون به ﴿ إلا حميماً وغساقاً ﴾ استثنى من البرد الحميم ، ومن الشراب الغساق ، فأما الحميم فهو الحار الذي قد انتهى حره وحموه ، وأما الغساق فهو ما اجتمع فيه من صديد أهل النار وعرقهم ودموعهم وجروحهم فهو بارد لا يستطاع من برده ولا يواجه من نتنه ﴿ جزاء وفاقاً ﴾ أي هذه العقوبة وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا .

﴿٢٧﴾ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ ﴿٣٠﴾

﴿ إنهم كانوا لا يرجون حساباً ﴾ أي لم يكونوا يعتقدون أن ثم داراً يجازون فيها ويحاسبون ﴿ وكذبوا بآياتنا كذاباً ﴾ أي وكانوا يكذبون بحجج الله ودلائله على خلقه التي أنزلها على رسله ﷺ، فيقابلونها بالتكذيب والمعاندة ﴿ كذاباً ﴾ أي تكذيباً ، وهو مصدر من غير الفعل ﴿ وكل شيء أحصيناه كتاباً ﴾ أي وقد علمنا أعمال العباد كلهم ، وكتبناها عليهم ، وسنجزيهم على ذلك ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً ﴾ أي يقال لأهل النار : ذوقوا ما أنتم فيه ، فلن نزيدكم إلا عذاباً من جنسه ، وآخر من شكله أزواج .

﴿٣١﴾ ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ ﴿٣٦﴾

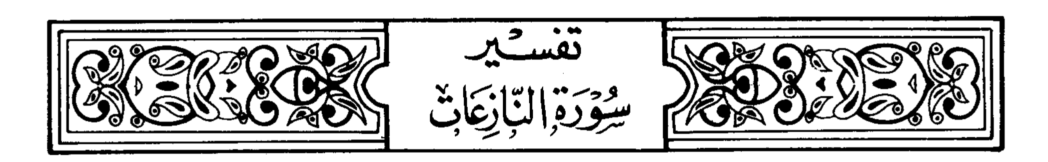
يقول تعالى مخبراً عن السعداء وما أعدَّ لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم فقال تعالى ﴿ إن للمتقين مفازاً ﴾ تنزهاً ، فازوا فنجوا من النار ﴿ حدائق ﴾ بساتين من النخيل وغيرها ﴿ وأعناباً وكواعب أتراباً ﴾ أي وحوراً كواعب ، أي نواهد ، يعنون أن ثديهن نواهد ، لم يتدلين . لأنهن أبكار عرب أتراب ، أي في سن واحد ﴿ وكأساً دهاقاً ﴾ مملوءة متتابعة

﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً ﴾ كقوله ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ أي ليس فيها كلام لاغ عار عن الفائدة ، ولا إثم كذب ، بل هي دار السلام ، وكل ما فيها سالم من النقص . وقوله ﴿ جزاء من ربك عطاء حساباً ﴾ أي هذا الذي ذكرناه جازاهم الله به ، وأعطاهموه بفضله ومنه وإحسانه ورحمته ﴿ عطاء حساباً ﴾ أي كافياً وافياً سالماً كثيراً ، تقول العرب : أعطاني فأحسبني ، أي كفاني ، ومنه حسبي الله أي الله كافيّ .

﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ۝٣٩ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ۝٤٠ ﴾

يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وأنه رب السموات والأرض وما فيهما وما بينهما وأنه الرحمٰن الذي شملت رحمته كل شيء وقوله تعالى ﴿ لا يملكون منه خطاباً ﴾ أي لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبته إلا بإذنه كقوله تعالى ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقوله تعالى ﴿ يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون ﴾ والمراد بالروح هنا أرواح بني آدم ، أو هم بنو آدم ، أو أنهم خلق من خلق الله على صور بني آدم ، وليسوا بملائكة ولا ببشر ، وهم يأكلون ويشربون ، أو هو جبريل ، ويستشهد لهذا القول بقوله عز وجل ﴿ نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ ، أو الروح هو القرآن ، كقوله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ﴾ أو أنه ملك من الملائكة يقدر جميع المخلوقات ﴿ إلا من أذن له الرحمٰن ﴾ كقوله تعالى ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وكما ثبت في الصحيح « ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل » ﴿ وقال صواباً ﴾ أي حقاً ، ومن الحق « لا إله إلا الله » ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾ أي الكائن لا محالة ﴿ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً » أي مرجعاً ، وطريقاً يهتدي إليه ، ومنهجاً يمر به عليه وقوله تعالى ﴿ إنا أنذرناكم عذاباً قريباً ﴾ يعني يوم القيامة ، لتأكد وقوعه صار قريباً ، لأن كل ما هو آت آت ﴿ يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ﴾ أي يعرض عليه جميع أعماله خيرها وشرها قديمها وحديثها ، كقوله تعالى ﴿ ووجدوا ما عملوا حاضراً ﴾ وكقوله تعالى ﴿ ينبأ الانسان يومئذٍ بما قدم وأخر ﴾ ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً ﴾ أي يود الكافر يومئذٍ أنه كان في الدار الدنيا تراباً ، ولم يكن خلق ولا خرج إلى الوجود ، وذلك حين عاين عذاب الله ، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد

سطرت عليه بأيدي الملائكة ، السفرة الكرام البررة ، وقيل : إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء ، فإذا فرغ من الحكم بينها ، قال لها كوني تراباً ، فتصير تراباً ، فعند ذلك يقول الكافر ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ أي كنت حيواناً فأرجع إلى التراب .



تفسير سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ ﴿١٤﴾

﴿ والنازعات غرقاً ﴾ الملائكة حين تنزع أرواح بني آدم ، فمنهم من تأخذ روحه بعسر ، فتفرق في نزعها ، ومنهم من تأخذ روحه بسهولة ، وكأنما حلته من نشاط ، وهو قوله ﴿ والناشطات نشطاً ﴾ ، ﴿ والسابحات سبحاً ﴾ الملائكة ، أو النجوم ، أو السفن ﴿ فالسابقات سبقاً ﴾ هي الملائكة سبقت إلى الإيمان والتصديق ، أو هي النجوم ، أو هي الخيل في سبيل الله ﴿ فالمدبرات أمراً ﴾ هي الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض بأمر ربها ﴿ يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ هما النفختان : الأولى والثانية ، روى ابن أبي حاتم كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس، اذكروا الله ، جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه » ﴿ قلوب يومئذٍ واجفة ﴾ خائفة ﴿ أبصارها خاشعة ﴾ أي أبصار أصحابها ، وإنما أضيفت اليها للملابسة ، أي ذليلة حقيرة مما عاينت من الأهوال ﴿ يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ﴾ يعني مشركي قريش ومن قال بقولهم في انكار المعاد ، يستبعدون وقوع البعث بعد المصير إلى الحافرة ، وهي القبور ﴿ أئذا كنا عظاماً نخرة ﴾ أي بالية ﴿ تلك إذاً كرة خاسرة ﴾ قالت قريش : لئن أحيانا الله بعد أن نموت لنخسرن . ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾ فإنما هو أمر من الله ، لا

مثنوية فيه ، ولا تأكيد ، فإذا الناس قيام ينظرون ، وهو أن يأمر تعالى إسرافيل فينفخ في الصور نفخة البعث ، فإذا الأولون والآخرون قيام بين يدي الرب عز وجل ينظرون ﴿ وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر ﴾ ﴿ فإذا هم بالساهرة ﴾ الساهرة الأرض كلها .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ﴾

يخبر تعالى رسوله محمداً ﷺ عن عبده ورسوله موسى عليه السلام أنه ابتعثه إلى فرعون، وأيده الله بالمعجزات ، ومع هذا استمر على كفره وطغيانه حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، وكذلك عاقبة من خالفك وكذب بما جئت به ، ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ أي هل سمعت بخبره ؟ ﴿ إذ ناداه ربه ﴾ أي كلمه نداء ﴿ بالواد المقدس ﴾ أي المطهر ﴿ طوى ﴾ وهو اسم الوادي على الصحيح .

﴿ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أي تجبر وتمرد وعتا ﴿ فقل هل لك إلى أن تزكى ﴾ أي قل له : هل لك أن تجيب إلى طريقة ومسلك تزكى به ، أي تسلم وتطيع ﴿ وأهديك إلى ربك ﴾ أي أدلك على عبادة ربك ﴿ فتخشى ﴾ فيصير قلبك خاضعاً له ، مطيعاً خاشعاً بعدما كان قاسياً خبيثاً بعيداً من الخير ﴿ فأراه الآية الكبرى ﴾ فأظهر له موسى مع هذه الدعوة الحق حجة قوية ، ودليلاً واضحاً على صدق ما جاءه به من عند الله ﴿ فكذب وعصى ﴾ أي فكذب بالحق ، وخالف ما أمره به من الطاعة ، وحاصله أنه كفر قلبه فلم ينفعل لموسى بباطنه ولا بظاهره وعلمه بأن ما جاء به حق لا يلزم منه أنه مؤمن به لأن المعرفة علم القلب ، والايمان عمله ، وهو الانقياد للحق ، والخضوع له . وقوله تعالى ﴿ ثم أدبر يسعى ﴾ أي في مقابلة الحق بالباطل ، وهو جمعه السحرة ليقابلوا ما جاء به موسى عليه السلام من المعجزات الباهرات ﴿ فحشر فنادى ﴾ أي في قومه ﴿ فقال أنا ربكم الأعلى ﴾ وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله : ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ بأربعين سنة ، قال تعالى ﴿ فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ﴾ أي انتقم الله منه انتقاماً

جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين في الدنيا ﴿ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ﴾ أي لمن يتعظ وينزجر .

(٢٧) ﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ ﴾ (٣٣)

يقول تعالى محتجاً على منكري البعث في اعادة الخلق بعد بعثه ﴿أأنتم﴾ أيها الناس ﴿ أشد خلقاً أم السماء ﴾ يعني بل السماء أشد خلقاً منكم ﴿ بناها ﴾ فسره بقوله ﴿ رفع سمكها فسواها ﴾ أي جعلها عالية البناء بعيدة الفناء ، مستوية الأرجاء ، مكللة بالكواكب في الليلة الظلماء . وقوله تعالى ﴿ وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ﴾ أي جعل ليلها مظلماً أسود حالكاً ، ونهارها مضيئاً مشرقاً نيراً واضحاً ﴿ وأخرج ضحاها ﴾ أي أنار نهارها . وقوله تعالى ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ فسره بقوله ﴿ أخرج منها ماءها ومرعاها ﴾ فقد خلق الله الأرض قبل خلق السماء ، ولكن إنما دحيت بعد خلق السماء بمعنى أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل . وعن ابن عباس ﴿ دحاها ﴾ ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى وشقق فيها الأنهار ، وجعل فيها الجبال والرمال والسيل والآكام . ﴿ والجبال أرساها ﴾ أي قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها ، وهو الحكيم العليم ، الرؤوف بخلقه ، الرحيم ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي دحا الأرض ، فأنبع عيونها ، وأظهر مكنونها ، وأجرى أنهارها ، وأنبت زروعها وأشجارها وثمارها ، وثبت جبالها لتستقر بأهلها ، ويقر قرارها ، كل ذلك متاعاً لخلقه ، ولما يحتاجون إليه من الأنعام التي يأكلونها ويركبونها مدة احتياجهم اليها في هذه الديار إلى أن ينتهي الأمد وينقضي الأجل .

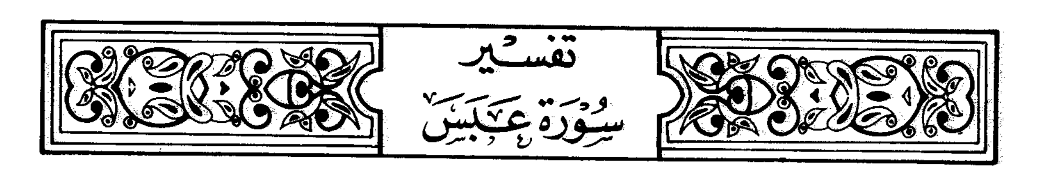
(٣٤) ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (٣٩)

﴿ فإذا جاءت الطامة الكبرى ﴾ وهو يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تطم على كل أمر هائل مفظع كما قال تعالى ﴿ والساعة أدهى وأمر ﴾ ﴿ يوم يتذكر الانسان ما سعى ﴾ أي حينئذٍ يتذكر ابن آدم جميع عمله خيره وشره كما قال تعالى ﴿ يومئذٍ يتذكر الانسان وانى له الذكرى ﴾ ﴿ وبرزت الجحيم لمن يرى ﴾ أي أظهرت للناظرين فرآها الناس عياناً ﴿ فأما

من طغى ﴾ أي تمرد وعتا ﴿ وآثر الحياة الدنيا ﴾ أي قدمها على أمر دينه وأخراه ﴿ فإن الجحيم هي المأوى ﴾ أي فإن مصيره إلى الجحيم ، وإن مطعمه من الزقوم ومشربه من الحميم .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٤١) يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا (٤٢) فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ (٤٤) إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ (٤٦)

﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ﴾ أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل ، وخاف حكم الله فيه ، ونهى نفسه عن هواها ، وردها إلى طاعة مولاها ﴿ فإن الجنة هي المأوى ﴾ أي منقلبه ومصيره ومرجعه إلى الجنة الفيحاء . ثم قال تعالى ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ﴾ ليس علمها اليك ، ولا إلى أحد من الخلق ، بل مردها ومرجعها إلى الله عز وجل ، فهو الذي يعلم وقتها على التعيين ﴿ ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ﴾ وقال ههنا ﴿ إلى ربك منتهاها ﴾ ولهذا سأل جبريل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة قال: « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » وقوله تعالى ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾ أي إنما بعثتك لتنذر الناس ، وتحذرهم من بأس الله وعذابه ، فمن خشي الله ، وخاف مقامه ووعيده اتبعك فأفلح وأنجح ، والخيبة والخسار على من كذبك وخالفك . وقوله تعالى ﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها ﴾ أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو من ضحى من يوم .



تفسير سُورَةِ عَبَسَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ (٧)

ذكر غير واحد من المفسرين أن رسول الله ﷺ كان يخاطب بعض عظماء قريش ، وقد طمع في اسلامه ، فبينما هو يخاطبه ، ويناجيه إذ أقبل ابن أم مكتوم ، وكان ممن أسلم قديماً ، فجعل يسأل رسول الله ﷺ عن شيء، ويلح عليه، وود النبي ﷺ أن لو كف ساعته تلك ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل طمعاً ورغبة في هدايته ، وعبس في وجه ابن أم مكتوم ، وأعرض عنه ، وأقبل على الآخر فأنزل الله تعالى ﴿ عبس وتولى . أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى ﴾ أي يحصل له زكاة وطهارة نفس ﴿ أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ أي يحصل له اتعاظ وازدجار عن المحارم ﴿ أما من استغنى فأنت له تصدى ﴾ أي أما الغني فأنت تتعرض له لعله يهتدي ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ أي ما أنت بمطالب به إذا لم يحصل له زكاة .

﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾

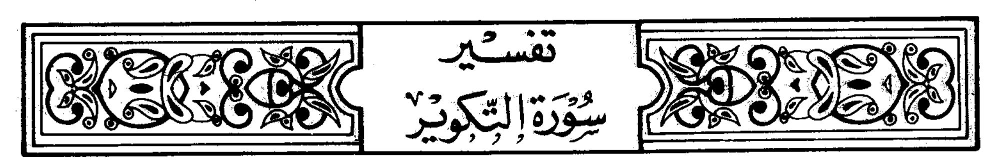
﴿ وأما من جاءك يسعى . وهو يخشى ﴾ أي يقصدك ويؤمك ليهتدي بما تقول له ﴿ فأنت عنه تلهى ﴾ أي تتشاغل ومن ههنا أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يخص بالانذار أحداً ، بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف والفقير والغني ، والسادة والعبيد ، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ، وله الحكمة البالغة ، والحجة الدافقة ﴿ كلا إنها تذكرة ﴾ أي هذه السورة أو الوصية بالمساواة بين الناس في ابلاغ العلم بين شريفهم ووضيعهم ، أو ﴿ إنها تذكرة ﴾ يعني القرآن ﴿ فمن شاء ذكره ﴾ أي فمن شاء ذكر الله عز وجل في جميع أموره ، ويحتمل عود الضمير إلى الوحي لدلالة الكلام عليه . ﴿ في صحف مكرمة . ﴾ أي هذه السورة أو العظة ، وكلاهما متلازم ، بل جميع القرآن في صحف مكرمة ، أي معظمة موقرة ﴿ مرفوعة ﴾ أي عالية القدر ﴿ مطهرة ﴾ أي من الدنس والزيادة والنقص . وقوله تعالى ﴿ بأيدي سفرة ﴾ هي الملائكة ، ومنه يقال : السفير الذي يسعى بين الناس في الصلح والخير ﴿ كرام بررة ﴾ أي خلقهم كريم ، حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة كاملة ، ومن ههنا ينبغي لحامل القرآن أن يكون في أفعاله وأقواله على السداد والرشاد ، روى الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ «الذي يقرأ القرآن ، وهو ماهر به مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرؤه ، وهو عليه شاق ، له أجران » أخرجه الجماعة .

﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى ذاماً لمن أنكر البعث والنشور من بني آدم ﴿ قتل الانسان ﴾ لعن الانسان ، وهذا لجنس الانسان المكذب لكثرة تكذيبه بلا مستند ، بل بمجرد الاستبعاد وعدم العلم ﴿ ما أكفره ﴾ أي ما أشد كفره ، ويحتمل أن يكون المراد ، أي شيء جعله كافراً ، أي ما حمله على التكذيب بالمعاد ؟ ﴿ من أي شيء خلقه . من نطفة خلقه فقدره ﴾ أي قدر أجله ورزقه وعمله وشقي أم سعيد ﴿ ثم السبيل يسره ﴾ يسر عليه خروجه من بطن أمه ﴿ ثم أماته فأقبره ﴾ أي إنه بعد خلقه له أماته فأقبره ، أي جعله ذا قبر ، ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ أي بعثه بعد موته ، ومنه يقال : البعث والنشور ﴿ كلا لما يقض ما أمره ﴾ كلا ، ليس الأمر كما يقول هذا الانسان الكافر من أنه قد أدّى حق الله عليه في نفسه وما له ﴿ لما يقـض ما أمره ﴾ لم يؤد ما فرض عليه عز وجل من الفرائض لربه عز وجل ﴿ فلينظر الانسان إلى طعامه ﴾ فيه امتنان ، وفيه استدلال باحياء النبات من الأرض الهامدة على احياء الأجسام بعدما كانت عظاماً بالية ، وتراباً متمزقاً ﴿ أنا صببنا الماء صباً ﴾ أي أنزلناه من السماء على الأرض ﴿ ثم شققنا الأرض شقاً ﴾ أي أسكناه فيها ، فدخل في تخومها ، وتخلل في اجزاء الحب المودع فيها فنبت وارتفع وظهر على وجه الأرض ﴿ فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً ﴾ فالحب كل ما يذكر من الحبوب ، والعنب معروف ، والقضب هو الفصفصة التي تأكلها الدواب رطبة ، ويقال لها : القت أيضاً ، أو القضب العلق ﴿ وزيتوناً ﴾ وهو معروف ، وهو أدم ، وعصيره أدم ، ويستصبح به ويدهن به ﴿ ونخلاً ﴾ يؤكل فجاً ، ويسراً ورطباً وتمراً ونيئاً ومطبوخاً ، ويعتصر منه رب وخل ﴿ وحدائق غلباً ﴾ أي بساتين ، قال الحسن وقتادة : ﴿ غلباً ﴾ نخلاً غلاظاً كراماً ، أو ﴿ غلباً ﴾ طوالاً ﴿ وفاكهة واباً ﴾ أما الفاكهة فكل ما يتفكه به من الثمار ، واما الأب فهو ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ، ولا يأكله الناس ، وفي رواية هو الحشيش للبهائم . ﴿ متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾ أي عيشة لكم ولأنعامكم في هذه الدار إلى يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ ﴿٤٢﴾

﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ الصاخة اسم من أسماء يوم القيامة ، عظمه الله وحذر عباده منه ، أو هي صيحة يوم القيامة ، سميت بذلك لأنها تصخ الأسماع ، أي تبالغ في أسماعها حتى تكاد تصمها . ﴿ يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ﴾ أي يراهم ويفر منهم ، ويبتعد منهم ، لأن الهول عظيم ، والخطب جليل ﴿ لكل امرىء منهم يومئذٍ شأن يغنيه ﴾ وقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذٍ مسفرة ضاحكة مستبشرة ﴾ أي يكون الناس هنالك فريقين : وجوه مستنيرة مسرورة فرحة ، قد ظهر البشر على وجوههم ، وهؤلاء هم أهل الجنة ﴿ ووجوه يومئذٍ عليها غبرة . ترهقها قترة ﴾ أي يعلوها ، وتغشاها قترة أي سواد ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ أي الكفرة قلوبهم ، الفجرة في أعمالهم ، كما قال تعالى ﴿ ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴾ .



تفسير سُورَةُ التَّكْوِيرِ

روى الإمام أحمد ، قال رسول الله ﷺ « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وهكذا رواه الترمذي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ ﴿٤﴾

﴿ إذا الشمس كورت ﴾ يعني أظلمت ، وذهب ضوؤها ، أو جمع بعضها إلى بعض ، ثم لفت فرمي بها ، وإذا فعل بها ذلك ذهب ضوؤها . ﴿ وإذا النجوم انكدرت ﴾ أي انتثرت كما قال تعالى ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ وأصل الانكدار الانصباب ﴿ وإذا الجبال

سيرت ﴾ أي زالت عن أماكنها ونسفت فتركت الأرض قاعاً صفصفاً ﴿ وإذا العشار ﴾ الإبل ﴿ عطلت ﴾ تركت وسيبت .

﴿ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ وإذا الوحوش حشرت ﴾ أي جمعت ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ فإذا هي نار تتأجج ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾ أي جمع كل شكل إلى نظيره ﴿ وإذا الموءودة سئلت . بأي ذنب قتلت ﴾ أي سألت ، والموءودة هي المدفونة في التراب كراهية البنات . جاء قيس بن عاصم ، إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني وأدت بنات لي في الجاهلية قال : « أعتق عن كل واحدة منهن رقبة » قال : يا رسول الله ، إني صاحب إبل ، قال : « فانحر عن كل واحدة منهن بدنة » ﴿ وإذا الصحف نشرت ﴾ أعطي كل إنسان صحيفته بيمينه ، أو بشماله ﴿ وإذا السماء كشطت ﴾ اجتذبت ، أو تتكشط فتذهب ﴿ وإذا الجحيم سعرت ﴾ أحميت ﴿ وإذا الجنة أزلفت ﴾ أي قربت إلى أهلها ﴿ علمت نفس ما أحضرت ﴾ هذا هو الجواب ، أي إذا وقعت هذه الأمور حينئذٍ تعلم كل نفس ما عملت ، وأحضر ذلك لها .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

﴿ فلا أقسم بالخنس . الجوار الكنس ﴾ هي النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل ، أو هي النجوم الدراري التي تجري تستقبل المشرق ، وإنما قيل للنجوم الخنس ، أي في حال طلوعها ، ثم هي جوار في فلكها ، وفي حال غيبوبتها يقال لها : الكنس من قول العرب : أوى الظبي إلى كناسه إذا تغيب فيه ﴿ والليل إذا عسعس ﴾ إذا أقبل بظلامه ، أو

إذا أدبر وذهب وتولى ﴿ والصبح إذا تنفس ﴾ أي إذا طلع ، وأضاء ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾ يعني إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أي ملك شريف حسن الخلق بهي المنظر ، وهو جبريل عليه السلام ﴿ ذي قوة ﴾ كقوله تعالى ﴿ علمه شديد القوى . . ذو مرة ﴾ أي شديد الخلق ، شديد البطش والفعل ﴿ عند ذي العرش مكين ﴾ أي له مكانة عند الله عز وجل ، ومنزلة رفيعة ﴿ مطاع ثم ﴾ أي له وجاهة ، وهو مسموع القول ، مطاع في الملأ الأعلى ﴿ أمين ﴾ صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جداً أن الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل كما زكى عبده ورسوله البشري محمداً ﷺ بقوله ﴿ وما صاحبكم بمجنون ﴾ ﴿ ولقد رآه بالأفق المبين ﴾ يعني ولقد رأى محمد جبريل الذي يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التي خلقه الله عليها ، له ستمائة جناح ﴿ بالأفق المبين ﴾ أي البين ، وهي الرؤ ية الأولى التي كانت بالبطحاء ، وهي المذكورة في قوله : ﴿ علمه شديد القوى . ذو مرَّة فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ والظاهر والله أعلم أن هذه السورة نزلت قبل ليلة الاسراء لأنه لم يذكر فيها غير هذه الرؤ ية ، وهي الأولى . وأما الثانية وهي المذكورة في قوله تعالى ﴿ ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى ﴾ فتلك إنما ذكرت في سورة النجم ، وقد نزلت بعد سورة الاسراء ﴿ وما هو على الغيب بضنين ﴾ أي وما محمد على ما أنزله الله عليه ببخيل، بل يبذله لكل أحد ، قال قتادة : كان القرآن غيباً فأنزل الله على محمد ﷺ ، فما ضن به على الناس ، بل نشره وبلغه وبذله لكل من أراده ﴿ وما هو بقول شيطان رجيم ﴾ أي وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أي لا يقدر على حمله ولا يريده ، ولا ينبغي له ، كما قال تعالى ﴿ وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فأين تذهبون ﴾ أي فأين تذهب عقولكم في تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه حقاً من عند الله عز وجل ﴿ إن هو إلا ذكر للعالمين ﴾ أي هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون ﴿ لمن شاء منكم أن يستقيم ﴾ أي من أراد الهداية فعليه بهذا القرآن فإنه مناجاة له وهداية ، ولا هداية فيما سواه ﴿ وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ أي ليست المشيئة موكولة إليكم ، فمن شاء اهتدى ، ومن شاء ضل ، بل ذلك كله تابع لمشيئة الله تعالى رب العالمين . قال أبو جهل : الأمر إلينا ، إن شئنا استقمنا ، وإن شئنا لم نستقم فأنزل الله تعالى ﴿ وما تشاؤ ون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .



تفسير سُورَةِ الإِنفِطَارِ



روى النسائي عن جابر قال : قام معاذ فصلى العشاء الآخرة فطول فقال النبي ﷺ : « أفتان أنت يا معاذ ؟ أين كنت عن ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ ، ﴿ والضحى ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ » وأصل الحديث مخرج في الصحيحين ، ولكن ذكر ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ في إفراد النسائي . وعن عبدالله بن عمر عن النبي ﷺ قال : « من سره أن ينظر إلى القيامة رأي العين فليقرأ ﴿ إذا الشمس كورت ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ ، و ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١٢)

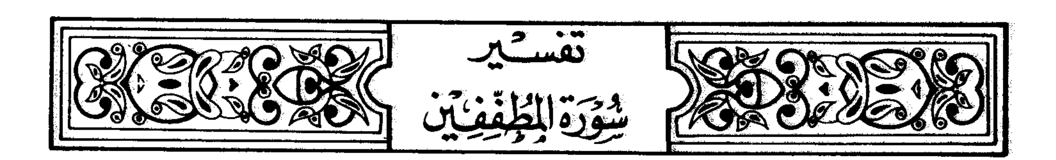
﴿ إذا السماء انفطرت ﴾ أي انشقت ، كما قال تعالى ﴿ السماء منفطر به ﴾ ﴿ وإذا الكواكب انتثرت ﴾ أي تساقطت ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ فجر بعضها في بعض فذهب ماؤها ، أو اختلط عذبها بمالحها ، أو ملئت . ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾ بحثت ، قال السدي : تبعثر : تحرك فيخرج من فيها ﴿ علمت نفس ما قدمت وأخرت ﴾ أي إذا كان هذا حصل هذا . وقوله تعالى ﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم ﴾ ؟ هذا تهديد ، لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب حيث قال : ﴿ الكريم ﴾ حتى يقول قائلهم : غره كرمه ، بل المعنى في هذه الآية : ما غرك يا ابن آدم بربك الكريم ، أي العظيم حتى أقدمت على معصيته وقابلته بما لا يليق ، كما جاء في الحديث « يقول الله تعالى يوم القيامة : يا ابن آدم ، ما غرك بي ؟ يا ابن آدم ، ماذا أجبت المرسلين ؟ » وقوله تعالى ﴿ الذي خلقك فسواك فعدلك ﴾ أي ما غرك بالرب الكريم الذي جعلك سوياً

مستقيماً معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال . روى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه ، فوضع عليها أصبعه ، ثم قال : « قال الله عز وجل : يا ابن آدم ، أنى تعجزني ، وقد خلقتك من مثل هذه ؟ حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين ، وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق ، وأنى أوان الصدقة » ؟ ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ أي في أي شبه أب أو أم أو خال أو عم . في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله ، إن امرأتي ولدت غلاماً أسود ، قال : « وهل لك من إبل ؟ » قال : نعم ، قال : « فما ألوانها ؟ » قال : حمر ، قال : « فهل فيها من أورق ؟ » قال : نعم ، قال : « فأنى أتاها ذلك ؟ » قال : عسى أن يكون نزعة عرق ، قال : « وهذا عسى أن يكون نزعة عرق » وقال عكرمة في قوله تعالى ﴿ في أي صورة ما شاء ركبك ﴾ إن شاء في صورة قرد ، وإن شاء في صورة خنزير ، أو في صورة كلب ، ومعنى هذا أن الله قادر على خلق النطفة على شكل قبيح من الحيوانات المنكرة الخلق ، ولكن بقدرته ولطفه وحلمه يخلقه على شكل حسن مستقيم معتدل تام حسن المنظر والهيئة . وقوله ﴿ كلا بل تكذبون بالدين ﴾ أي إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب . ﴿ وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما تفعلون ﴾ يعني وإن عليكم لملائكة حفظة كراماً ، فلا تقابلوهم بالقبائح ، فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم . روى ابن أبي حاتم أن رسول الله ﷺ قال : « أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين : الجنابة والغائط ؛ فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجرم حائط ، أو ببعيره ، أو ليستره أخوه » وروى البزار عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من حافظين يرفعان إلى الله عز وجل ما حفظا في يوم فيرى في أول الصحيفة وفي آخرها استغفاراً إلا قال الله تعالى قد غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة » .

(١٣) ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ ﴿١٩﴾

يخبر تعالى عما يصير الأبرار إليه من النعيم ، وهم الذي أطاعوا الله عز وجل ، ولم يقابلوه بالمعاصي ، روى ابن عساكر عن النبي ﷺ قال : « إنما سماهم الله الأبرار ، لأنهم بروا الآباء والأبناء » . ثم ذكر ما يصير إليه الفجار من الجحيم والعذاب المقيم ولهذا قال

﴿ يصلونها يوم الدين ﴾ أي يوم الحساب والجزاء والقيامة ﴿ وما هم عنها بغائبين ﴾ أي لا يغيبون عن العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم من عذابها ، ولا يجابون إلى ما يسألون من الموت أو الراحة ، ولو يوماً واحداً . وقوله تعالى ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ﴾ تعظيم لشأن يوم القيامة ، ثم أكده بقوله ﴿ ثم ما أدراك ما يوم الدين ﴾ ثم فسره بقوله ﴿ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ﴾ أي لا يقدر أحد على نفع أحد ، ولا خلاصه مما هو فيه إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، وفي الحديث « يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، لا أملك لكم من الله شيئاً » ﴿ والأمر يومئذٍ لله ﴾ كقوله تعالى ﴿ لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار ﴾ وكقوله ﴿ الملك يومئذٍ الحق للرحمن ﴾ قال قتادة ﴿ والأمر يومئذٍ لله ﴾ والأمر واللهِ اليوم لله ، لا ينازعه فيه يومئذٍ أحد .



تفسير سُورَةِ المُطَفِّفِين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

روى النسائي وابن ماجه عن ابن عباس قال : لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ فحسنوا الكيل بعد ذلك . والمراد بالتطفيف ههنا البخس في المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاهم . ولهذا فسر تعالى المطففين الذين وعدهم بالخسار والهلاك ، وهو الويل بقوله تعالى ﴿ الذين إذا اكتالوا على الناس ﴾ أي من الناس ﴿ يستوفون ﴾ أي يأخذون حقهم بالوافي الزائد ﴿ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ أي ينقصون ، وقد أمر الله تعالى بالوفاء في الكيل والميزان فقال تعالى ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ وقال تعالى ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف

نفساً إلا وسعها ﴾ وقال تعالى ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ وأهلك الله قوم شعيب ودمرهم على ما كانوا يبخسون الناس في الميزان والمكيال . ثم قال تعالى متوعداً لهم ﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم ﴾ ؟ أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من يعلم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول ، كثير الفزع ، جليل الخطب ، من خسر فيه أدخل ناراً حامية ؟ وقوله تعالى ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ أي يقومون حفاة عراة غرلاً ، في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ، ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه،روى الإمام مالك عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ حتى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه » رواه البخاري ، ورواه مسلم .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا قَالَ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ ﴿١٧﴾

يقول تعالى حقاً ﴿ إن كتاب الفجار لفي سجين ﴾ أي إن مصيرهم ومأواهم لفي سجين ، فقيل من السجن ، وهو الضيق ، يقال : فسيق ، وخمير وسكير ونحو ذلك ، ولهذا عظم أمره فقال تعالى ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ ؟ أي هو أمر عظيم ، وسجن مقيم ، وعذاب أليم ، ثم قد قال قائلون : هي تحت الأرض السابعة ، قال تعالى ﴿ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ﴾ وقوله تعالى ﴿ كتاب مرقوم ﴾ ليس تفسيراً لقوله ﴿ وما أدراك ما سجين ﴾ وإنما هو تفسير لما كتب لهم من المصير إلى سجين ، أي مرقوم مكتوب مفروغ منه . لا يزاد فيه أحد ، ولا ينقص منه أحد ﴿ ويل يومئذٍ للمكذبين ﴾ أي إذا صاروا يوم القيامة إلى ما أوعدهم الله من السجن والعذاب المهين . ثم قال تعالى مفسراً للمكذبين الفجار الكفرة ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ أي لا يصدقون بوقوعه ، ولا يعتقدون كونه ، ويستبعدون أمره . قال تعالى ﴿ وما يكذب به إلا كل معتد أثيم ﴾ أي معتد في أفعاله من تعاطي الحرام ، والمجاوزة في تناول المباح ، والأثيم في أقواله إن حدث كذب ، وإن وعد أخلف ، وإن خاصم فجر . وقوله تعالى ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال

أساطير الأولين ﴾ أي إذا سمع كلام الله تعالى من الرسول يكذب به ، ويظن به ظن السوء ، فيعتقد أنه مجموع من كتب الأوائل ، كما قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ﴾ وقال تعالى ﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ أي ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما قالوا ، بل هو كلام الله ووحيه وتنزيله على رسوله ﷺ ، وإنما حجب قلوبهم عن الإيمان به ما عليها من الرين الذي قد لبس قلوبهم من كثرة الذنوب والخطايا ، والرين للكافرين ، والقيم للأبرار ، والغين للمقربين . وقد روى ابن جرير والترمذي والنسائي وابن ماجه عن النبي ﷺ قال : « إن العبد إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب منها صقل قلبه ، وإن زاد زادت ، فذلك قول الله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال الترمذي : حسن صحيح، وقوله تعالى ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ أي لهم يوم القيامة منزل ، ونزل سجين ، ثم هم يوم القيامة مع ذلك محجوبون عن رؤية ربهم وخالقهم . قال الإمام أبو عبدالله الشافعي : وفي هذه الآية دليل على أن المؤمنين يرونه عز وجل يومئذٍ ، وهذا الذي قاله الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في غاية الحسن ، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية ، كما دل عليه منطوق قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ وكما دلت على ذلك الأحاديث الصحاح المتواترة في رؤية المؤمنين ربهم عز وجل في الدار الآخرة بالأبصار في عرصات القيامة ، وفي روضات الجنان الفاخرة .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

يقول تعالى : حقاً إن كتاب الابرار ، وهم بخلاف الفجار لفي عليين أي مصيرهم إلى عليين ، وهو بخلاف سجين . عن ابن عباس ﴿لفي عليين ﴾ يعني الجنة ، ولهذا قال تعالى معظماً أمره ، ومفخماً شأنه ﴿ وما أدراك ما عليون ﴾ ثم قال تعالى مؤكداً لما كتب لهم ﴿ كتاب مرقوم . يشهده المقربون ﴾ وهم الملائكة . ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ أي يوم القيامة ، هم في نعيم مقيم ، وجنات فيها فضل عميم ﴿ على الأرائك ﴾ وهي السرر تحت الحجال ﴿ ينظرون ﴾ قيل : معناه ينظرون في ملكهم وما أعطاهم الله من الخير والفضل الذي لا ينقضي ولا يبيد ، وقيل : معناه ينظرون إلى الله عز وجل ، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾ فذكر عن هؤلاء

أنهم يباحون النظر إلى الله عز وجل ، وهم على سررهم وفرشهم .

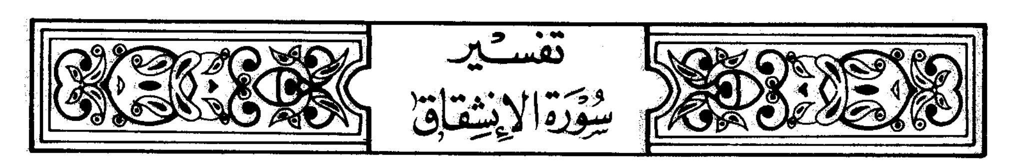
﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴾ ﴿٢٨﴾

﴿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ﴾ أي صفة الترافة والحشمة والسرور والدعة والرياسة مما هم فيه من النعيم العظيم ﴿ يسقون من رحيق مختوم ﴾ أي يسقون من خمر من الجنة ، والرحيق من أسماء الخمر . روى الامام أحمد عن النبي ﷺ قال « أيما مؤمن سقى مؤمناً شربة ماء على ظمأ سقاه الله تعالى يوم القيامة من الرحيق المختوم ، وأيما مؤمن أطعم مؤمناً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مؤمن كسا مؤمناً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة » ﴿ ختامه مسك ﴾ أي خلطه مسك ، وعن أبي الدرداء قال : شراب أبيض مثل الفضة يختمون به شرابهم ، ولو أن رجلاً من أهل الدنيا أدخل اصبعه فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد طيبها . رواه ابن جرير . ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ أي وفي مثل هذه الحال فليتفاخر المتفاخرون ، وليتباه المتباهون ، ويكاثر ويستبق إلى مثله المستبقون كقوله تعالى ﴿ لمثل هذا فليعمل العاملون ﴾ ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾ أي ومزاج هذا الرحيق الموصوف من تسنيم أي من شراب يقال له : تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة وأعلاه ﴿ عيناً يشرب بها المقربون ﴾ أي يشربها المقربون صرفاً ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾

يخبر تعالى عن المجرمين أنهم كانوا في الدار الدنيا يضحكون من المؤمنين ، أي يستهزئون بهم ويحتقرونهم ، وإذا مروا بالمؤمنين يتغامزون عليهم محتقرين لهم ﴿ وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ﴾ أي وإذا رجع هؤلاء المجرمون إلى منازلهم انقلبوا اليها فاكهين ، أي مهما طلبوا وجدوا ، ومع هذا ما شكروا نعمة الله عليهم ، بل اشتغلوا بالقوم المؤمنين ، يحقرونهم ويحسدونهم ﴿ وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون ﴾ أي لكونهم

على غير دينهم ، قال الله تعالى ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ أي وما بعث هؤلاء المجرمون حافظين على هؤلاء المؤمنين ما يصدر منهم من أعمالهم وأقوالهم ، ولا كلفوا بهم ، فلم اشتغلوا بهم ، وجعلوهم نصب أعينهم ؟ كلما قال تعالى ﴿ اخسئوا فيها ولا تكلمون . إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين . فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون . إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ ، ولهذا قال ههنا ﴿ فاليوم ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك ﴿ على الأرائك ينظرون ﴾ أي إلى الله عز وجل ﴿ هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟ يعني قد جوزوا أوفر الجزاء، وأتمه ، وأكمله .



تفسير سُورَةُ الانشِقَاقِ

روى مالك أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد بها ، فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها . رواه مسلم والنسائي من طريق مالك به . وروى البخاري عن أبي رافع قال : صليت مع أبي هريرة العتمة فقرأ ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ فسجد ، فقلت له ، فقال : سجدت خلف أبي القاسم ﷺ ، فقلت : فلا أسجد بها حتى ألقاه .

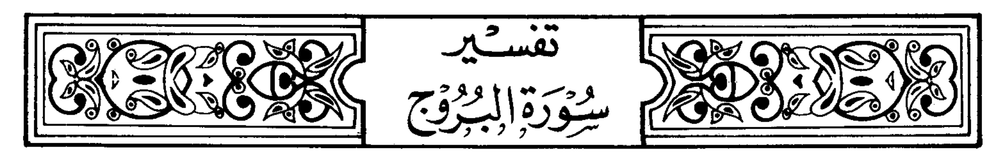
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴾ (١٥)

﴿ إذا السماء انشقت ﴾ وذلك يوم القيامة ﴿ وأذنت لربها ﴾ أي استمعت لربها ، وأطاعت أمره فيما أمرها به من الانشقاق ، وذلك يوم القيامة ﴿ وحقت ﴾ أي وحق لها أن تطيع أمره ، لأنه العظيم الذي لا يمانع ، ولا يغالب ، بل قد قهر كل شيء ، وذل لـه كل شيء . ثم قال ﴿ وإذا الأرض مدت ﴾ أي بسطت وفرشت ووسعت ﴿ وألقت ما فيها وتخلت ﴾ أي ألقت ما في بطنها من الأموات ، وتخلت منهم ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ ﴿ يا أيها الانسان إنك كادح إلى ربك كدحاً ﴾ أي إنك سـاع إلى ربك سعياً وعامل عملاً ﴿ فملاقيه ﴾ ثم إنك ستلقى ما عملت من خير أو شر ، ويشهد لذلك ما رواه الطيالسي عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « قال جبريل : يا محمد ، عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه » أو فملاق ربك ، ومعناه فيجازيك بعملك ويكافئك على سعيك . ﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ أي سهلاً بلا تعسير أي لا يحقق عليه جميع دقائق أعماله ، فإن من حوسب كذلك هلك لا محالة ، روى الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « من نوقش الحساب عذب » قالت : فقلت : أفليس قال الله تعالى ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قال « ليس ذاك بالحساب ، ولكن ذلك الرضى ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب » وهكذا رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير ﴿ وينقلب إلى أهله مسروراً ﴾ أي ويرجع إلى أهله في الجنة ﴿ وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ﴾ أي بشماله من وراء ظهره ، تثنى يده إلى ورائه ، ويعطى كتابه بها كذلك ﴿ فسوف يدعو ثبوراً ﴾ أي خساراً وهلاكاً ﴿ ويصلى سعيراً . إنه كان في أهله مسروراً ﴾ أي فرحاً لا يفكر في العواقب ، ولا يخاف مما أمامه ، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾ أي كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ، ولا يعيده بعد موته ، والحور هو الرجوع. قال الله تعالى ﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ يعني بلى سيعيده الله كما بدأه ، ويجازيه على أعماله خيرها وشرها ، فإنه كان به بصيراً ، أي عليماً خبيراً .

(١٦)﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ۩ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ﴿٢٥﴾

﴿ فلا أقسم بالشفق ﴾ الشفق : حمرة الأفق ، إما قبل طلوع الشمس ، وإما بعد غروبها . وصح عن مجاهد أنه النهار كله ﴿ والليل وما وسق ﴾ أي جمع ، كأنه أقسم بالضياء والظلام ﴿ والقمر إذا اتسق ﴾ أي اذا اجتمع واستوى . قال قتادة إذا استدار ، ومعنى كلامهم أنه إذا تكامل نوره وأبدر، جعله مقابلاً لليل وما وسق ﴿ لتركبن طبقاً عن طبق ﴾ روى البخاري عن ابن عباس : حالاً بعد حال ، قال هذا نبيكم ﷺ . ﴿ فما لهم لا يؤمنون . وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ أي فماذا يمنعهم من الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، وما لهم إذا قرأت عليهم آيات الله وكلامه ، وهو هذا القرآن لا يسجدون إعظاماً وإكراماً واحتراماً ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾ أي من سجيتهم التكذيب والعناد والمخالفة للحق ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾ يكتمون في صدورهم ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ أي فأخبرهم يا محمد بأن الله عز وجل قد أعد لهم عذاباً أليماً ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ هذا استثناء منقطع ، يعني لكن الذين آمنوا أي بقلوبهم ، وعملوا الصالحات ، أي بجوارحهم ﴿ لهم أجر ﴾ أي في الدار الآخرة ﴿ غير ممنون ﴾ غير مقطوع ، كما قال تعالى ﴿ عطاء غير مجذوذ ﴾ أو غير منقوص ، أو غير ممنون عليهم فيه ، وهذا القول الأخير عن بعضهم قد أنكره غير واحد ، فإن الله عز وجل له المنة على أهل الجنة في كل حال وآن ولحظة ، وإنما دخلوها بفضله ورحمته ، لا بأعمالهم ، فله المنة دائماً سرمداً ، والحمد لله وحده أبداً ، ولهذا يلهمون تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس ، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين .



تفسير سُورَةِ البُرُوج

روى الامام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في النساء بالسماء ذات البروج ، والسماء والطارق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ ﴿٣﴾

يقسم تعالى بالسماء وبروجها ، وهي النجوم العظام ﴿ واليوم الموعود . وشاهد ومشهود ﴾ روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ واليوم الموعود ﴾ يوم

القيامة ﴿ وشاهد ﴾ يوم الجمعة وما طلعت ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة ، وفيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا أعطاه إياها . ولا يستعيذ من شر إلا أعاذه ﴿ ومشهود ﴾ يوم عرفة .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ قتل أصحاب الأخدود ﴾ أي لعن أصحاب الأخدود ، وجمعه أخاديد ، وهي الحفر في الأرض ، وهذا خبر عن قوم من الكفرة عمدوا إلى من عندهم من المؤمنين بالله عز وجل فقهروهم وأرادوهم أن يرجعوا عن دينهم فأبوا عليهم فحفروا لهم في الأرض أخدوداً ، وأججوا فيه ناراً ، وأعدوا لها وقوداً يسعرونها به ، ثم أرادوهم فلم يقبلوا منهم فقذفوهم فيها ، ولهذا قال تعالى ﴿ قتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾ أي مشاهدون لما يفعل بأولئك المؤمنين . ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ أي وما كان لهم عندهم ذنب إلا إيمانهم بالله العزيز الذي لا يضام من لاذ بجنابه المنيع الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، وإن كان قد قدر على عباده هؤلاء هذا الذي وقع بهم بأيدي الكفار به فهو العزيز الحميد ، وإن خفي سبب ذلك على كثير من الناس . ثم قال تعالى ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ من تمام الصفة أنه المالك لجميع السموات والأرض وما فيهما وما بينهما ﴿ والله على كل شيء شهيد ﴾ أي لا يغيب عنه شيء في جميع السموات والأرض ، ولا يخفى عليه خافية . ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي حرقوا ﴿ ثم لم يتوبوا ﴾ أي لم يقلعوا عما فعلوا ، ويندموا على ما أسلفوا ﴿ فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق ﴾ وذلك أن الجزاء من جنس العمل ، قال الحسن البصري ؛ انظروا إلى هذا الكرم والجود ؛ قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ

ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ بخلاف ما أعد لأعدائه من الحريق ، والجحيم ، ولهذا قال ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾ ثم قال تعالى ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ أي إن بطشه وانتقامه من اعدائه الذين كذبوا رسله وخالفوا أمره لشديد عظيم قوي ، فإنه تعالى ذو القوة المتين ، ما شاء كان كما يشاء في مثل لمح البصر ، أو هو أقرب . ولهذا قال تعالى ﴿ إنه هو يبدىء ويعيد ﴾ أي من قوته وقدرته التامة يبدي الخلق ويعيده كما بدأه بلا ممانع ولا مدافع ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ أي يغفر ذنب من تاب إليه ، وخضع لديه ، ولو كان الذنب من أي شيء كان . والودود هو الحبيب ﴿ ذو العرش المجيد ﴾ أي صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق . ﴿ فعال لما يريد ﴾ أي مهما أراد فعله ، لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل لعظمته وقهره ، وحكمته وعدله ، عن أبي بكر الصديق أنه قيل له : ـ وهو في مرض الموت ـ هل نظر اليك الطبيب ؟ قال : نعم ، قالوا : فما قال لك ؟ قال : قال لي : إني فعال لما أريد . وقوله تعالى ﴿ هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود ﴾ أي هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس ، وأنزل عليهم من النقمة التي لم يردها عنهم أحد ، وهذا تقرير لقوله تعالى ﴿ إن بطش ربك لشديد ﴾ أي إذا أخذ الظالم أخذه أخذاً أليماً شديداً ، أخذ عزيز مقتدر .

﴿١٩﴾ ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾ أي هم في شك وريب وكفر وعناد ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾ أي هو قادر عليهم قاهر لا يفوتونه ولا يعجزونه ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ أي عظيم كريم ﴿ في لوح محفوظ ﴾ أي هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص ، والتحريف والتبديل .

* * *



تفسير سُورَةِ الطَّارِقِ



روى عبدالله بن الامام أحمد عن أبي حبل العدواني عن أبيه أنه أبصر رسول الله ﷺ في مشرق ثقيف ، وهو قائم على قوس او عصا حين أتاهم يبتغي عندهم النصر فسمعته يقول « والسماء والطارق » حتى ختمها ، قال : فوعيتها في الجاهلية ، وأنا مشرك ، ثم قرأتها في الاسلام ، قال : فدعتني ثقيف ، فقالوا : ماذا سمعت من هذا الرجل ؟ فقرأتها عليهم ، فقال : من معهم من قريش : نحن أعلم بصاحبنا ، لو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه . وروى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ المغرب فقرأ البقرة والنساء ، فقال النبي ﷺ : « أفتان أنت يا معاذ ، ما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق ، والشمس وضحاها ، ونحوها ؟ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

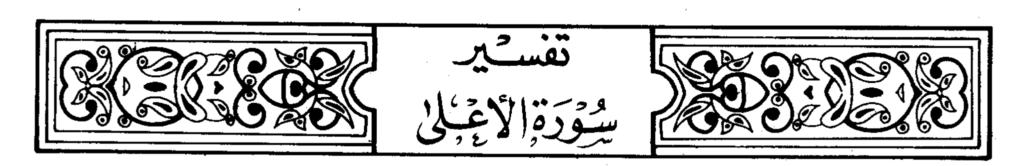
﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ ﴿١٠﴾

يقسم تبارك وتعالى بالسماء ، وما جعل فيها من الكواكب النيرة ، ولهذا قال تعالى ﴿ والسماء والطارق ﴾ ثم قال ﴿ وما أدراك ما الطارق ﴾ ثم فسره بقوله ﴿ النجم الثاقب ﴾ قال قتادة وغيره : إنما سمي النجم طارقاً ، لأنه إنما يرى بالليل ، ويختفي بالنهار ، ويؤيده ما جاء في الحديث الصحيح : نهى أن يطرق الرجل أهله طروقاً ، أي يأتيهم فجأة بالليل ، وفي الحديث الآخر المشتمل على الدعاء « إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن » وقوله تعالى ﴿ الثاقب ﴾ المضيء ، أو يثقب الشياطين إذا أرسل عليها ﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ أي كل نفس عليها من الله حافظ يحرسها من الآفات ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلينظر الانسان ممَّ خلق ﴾ تنبيه للانسان على ضعف أصله الذي خلق منه ، وإرشاد له الى الاعتراف بالمعاد ، لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الاعادة بطريق الأولى كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ وقوله تعالى ﴿ خلق من ماء دافق ﴾ يعني الذي يخرج وفقاً من الرجل ومن المرأة

فيتولد منهما الولد بإذن الله عزّ وجلّ ، ولهذا قال ﴿ يخرج من بين الصلب والترائب ﴾ يعني صلب الرجل ، وترائب المرأة ، وهو صدرها ﴿إنه على رجعه لقادر ﴾ فيه قولان أحدهما على رجع هذا الماء الدافق الى مقره الذي خرج منه لقادر على ذلك ، والثاني أنه على رجع هذا الانسان المخلوق من ماء دافق ، أي اعادته وبعثه الى الدار الآخرة لقادر . لأن من قدر على البداءة قدر على الاعادة . ﴿ يوم تبلى السرائر ﴾ أي يوم القيامة تبلى فيه السرائر ، أي تظهر وتبدو ، ويبقى السر علانية ، والمكنون مشهور ، وقد ثبت في الصحيحين عن ابن عمران رسول الله ﷺ قال : «يرفع لكل غادر لواء عند أسته ، يقال : هذه غدرة فلان ابن فلان ﴿ فماله ﴾ أي الانسان يوم القيامة ﴿ من قوة ﴾ أي في نفسه ﴿ ولا ناصر ﴾ أي من خارج منه ، أي لا يقدر على أن ينقذ نفسه من عذاب الله ، ولا يستطيع له أحد ذلك .

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ ذات الرجع ﴾ هو المطر ، أو هو السحاب فيه المطر ، أو ترجع رزق العباد كل عام ، ولولا ذلك لهلكوا ، وهلكت مواشيهم ، أو ترجع نجومها وشمسها وقمرها يأتين من ههنا ﴿ والأرض ذات الصدع ﴾ هو انصداعها عن النبات ﴿ إنه لقول فصل ﴾ حق ، أو حكم عدل ﴿ وما هو بالهزل ﴾ أي بل هو جد حق . ثم أخبر عن الكافرين بأنهم يكذبون به ويصدون عن سبيله فقال ﴿ إنهم يكيدون كيداً ﴾ أي يمكرون بالناس في دعوتهم إلى خلاف القرآن ، ﴿ وأكيد كيداً ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فمهل الكافرين ﴾ أي أنظرهم ولا تستعجل لهم ﴿ أمهلهم رويداً ﴾ أي قليلاً ، أي وسترى ماذا أحل بهم من العذاب والنكال والعقوبة والهلاك ، كما قال تعالى ﴿ نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ ﴾ .



تفسير سُورَةِ الأعلى

والدليل على ذلك ما رواه البخاري عن البراء بن عازب قال : أول من قدم علينا من أصحاب النبي ﷺ مصعب بن عمير ، وابن أم مكتوم فجعلا يقرءاننا القرآن ، ثم جاء عمار بن ياسر ، وبلال وسعد ، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين ، ثم جاء النبي ﷺ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون : هذا

رسول الله ﷺ قد جاء ، فما جاء حتى قرأت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ في سور مثلها .
وروى الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يحب هذه السورة ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ تفرد به أحمد . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » وروى الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ قرأ في العيدين بسبح اسم ربك الأعلى ، وهل أتاك حديث الغاشية ، وإن وافق يوم الجمعة قرأهما جميعاً ، وقد رواه مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي والنسائي .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ (٣) وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ (٤) فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ (٥) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ (٦) إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (٨)

روى الإمام أحمد لما نزلت ﴿ فسبح باسم ربك العظيم ﴾ قال لنا رسول الله ﷺ « اجعلوها في ركوعكم » فلما نزلت ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ قال : « اجعلوها في سجودكم » ورواه أبو داود وابن ماجه ﴿ الذي خلق فسوى ﴾ أي خلق الخليقة وسوَّى كل مخلوق في أحسن هيئة ﴿ والذي قدر فهدى ﴾ هدى الإنسان للشقاوة والسعادة ، وهدى الأنعام لمراتعها ، كقوله تعالى ﴿ ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » ﴿ والذي أخرج المرعى ﴾ أي من جميع صنوف النباتات والزروع ﴿ فجعله غثاء أحوى ﴾ هشيماً متغيراً ، قال ابن جرير : وكان بعض أهل العلم بكلام العرب يرى أن ذلك من المؤخر الذي معناه التقديم ، وأن معنى الكلام ، والذي أخرج المرعى ، أحوى ، أخضر إلى السواد فجعله غثاء بعد ذلك ، ثم قال ابن جرير : وهذا وإن كان محتملاً إلا أنه غير صواب لمخالفته أقوال أهل التأويل وقوله تعالى ﴿ سنقرئك ﴾ أي يا محمد ﴿ فلا تنسى ﴾ وهذا إخبار من الله تعالى ووعد منه له بأنه سيقرئه قراءة لا ينساها ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي إلا ما يشاء الله رفعه فلا عليك أن تتركه ﴿ إنه يعلم الجهر وما يخفى ﴾ أي يعلم ما يجهر به العباد وما يخفونه من أقوالهم

وأفعالهم ، لا يخفى عليه من ذلك شيء ﴿ ونيسرك لليسرى ﴾ أي نسهل عليك أفعال الخير ، وأقواله ، ونشرع لك شرعاً سهلاً سمحاً مستقيماً عدلاً ، لا اعوجاج فيه ، ولا حرج ولا عسر .

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

﴿ فذكر إن نفعت الذكرى ﴾ أي ذكر حيث تنفع التذكرة ، ومن ههنا يؤخذ الأدب في نشر العلم ، فلا يضعه عند غير أهله ﴿ سيذكر من يخشى ﴾ أي سيتعظ بما تبلغه يا محمد من قلبه يخشى الله ويعلم أنه ملاقيه ﴿ ويتجنبها الأشقىٰ . الذي يصلى النار الكبرى . ثم لا يموت فيها ولا يحيى ﴾ أي لا يموت فيستريح ، ولا يحيى حياة تنفعه ، بل هي مضرة عليه ، لأنه بسببها يشعر ما يعاقب به من أليم العذاب ، وأنواع النكال .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ أي طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة ، وتابع ما أنزل الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ﴿ وذكر اسم ربه فصلى ﴾ أي أقام الصلاة في أوقاتها ابتغاء رضوان الله ، وطاعة لأمر الله ، وامتثالاً لشرع الله ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا ﴾ أي تقدمونها على أمر الآخرة ، وتبدونها على ما فيه نفعكم ، وصلاحكم في معاشكم ومعادكم ﴿ والآخرة خير وأبقى ﴾ أي ثواب الله في الدار الآخرة خير من الدنيا ، وأبقى ، فإن الدنيا دانية فانية ، والآخرة شريفة باقية ، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى ، ويهتم بما يزول عنه قريباً ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد ؟ روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له » ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى ﴾ روى أبو بكر البزار عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ قال النبي ﷺ « كان كل هذا ، أو كان هذا في صحف إبراهيم وموسى » .

* * *



تفسير سُورَةُ الغَاشِيَة



عن النعمان بن بشير : كان النبي ﷺ يقرأ بسبح اسم ربك الأعلى والغاشية في صلاة العيد ويوم الجمعة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ ﴿٢﴾

﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ الغاشية من أسماء يوم القيامة . روى ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون قال : مر النبي ﷺ على امرأة تقرأ ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ فقام يستمع ويقول : « نعم قد جاءني » وقوله تعالى ﴿ وجوه يومئذٍ خاشعة ﴾ أي ذليلة ، تخشع ولا ينفعها عملها .

﴿٣﴾ ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ ﴿٧﴾

﴿ عاملة ناصبة ﴾ أي قد عملت عملاً كثيراً ، ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة ناراً حامية ﴿ تسقى من عين آنية ﴾ أي قد انتهى حرها وغليانها ﴿ ليس لهم طعام إلا من ضريع ﴾ هو شجر من نار ، أو هو الزقوم ، أو هو الحجارة ، أو هو الشبرق ، وتسميه قريش في الربيع الشبرق ، وفي الصيف الضريع ، وهو شجرة ذات شوك لاطئة بالأرض ، وهو سم ﴿ لا يسمن ولا يغني من جوع ﴾ يعني لا يحصل به مقصود ، ولا يندفع به محذور .

﴿٨﴾ ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ ﴿١٦﴾

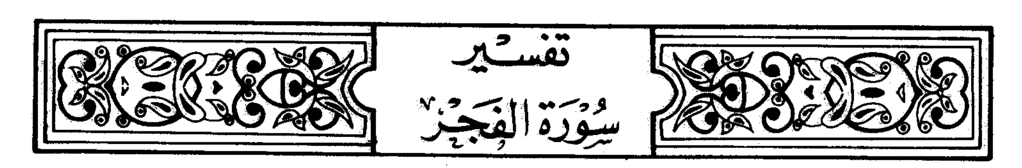
لما ذكر تعالى حال الأشقياء ثنى بحال السعداء فقال ﴿ وجوه يومئذٍ ﴾ أي يوم القيامة ﴿ ناعمة ﴾ أي يعرف النعيم فيها ، وإنما حصل لها ذلك بسعيها ، وقال سفيان :

﴿ لسعيها راضية ﴾ قد رضيت عملها ﴿ في جنة عالية ﴾ أي رفيعة بهية في الغرفات آمنون ﴿ لا تسمع فيها لاغية ﴾ أي لا تسمع في الجنة التي هم فيها كلمة لغو ، كما قال تعالى ﴿ لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ﴾ وقال تعالى ﴿ لا لغو فيها ولا تأثيم ﴾ وقال تعالى ﴿ لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاماً سلاماً ﴾ ﴿ فيها عين جارية ﴾ أي سارحة ، وهذه نكرة في سياق الاثبات ، وليس المراد بها عيناً واحدة ، وإنما هذا جنس ، يعني فيها عيون جاريات ﴿ فيها سرر مرفوعة ﴾ أي عالية ناعمة ، كثيرة الفرش ، مرتفعة السمك ، عليها الحور العين ، قالوا : فإذا أراد ولي الله أن يجلس على تلك السرر تواضعت له ﴿ وأكواب موضوعة ﴾ يعني أواني الشرب معدة مرصدة لمن أرادها من أربابها . ﴿ ونمارق مصفوفة ﴾ النمارق : الوسائد ﴿ وزرابي مبثوثة ﴾ الزرابي : البسط . مبثوثة : أي ههنا ، وههنا لمن أراد الجلوس عليها . روى أبو بكر بن أبي داود عن أسامة بن زيد يقول : قال رسول الله ﷺ : « ألا هل من مشمر إلى الجنة ، فإن الجنة لا خطر لها ، هي ورب العكبة نور يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سليمة ، وفاكهة خضرة ، وحبرة ونعمة ، في محلة عالية بهية ؟ » قالوا : نعم ، يا رسول الله ، نحن المشمرون لها ، قال : قولوا : « إن شاء الله » قال القوم : إن شاء الله . ورواه ابن ماجه .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده بالنظر في مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ﴾ ؟ فإنها خلق عجيب ، وتركيبها غريب ، فإنها في غاية القوة ، والشدة ، وهي مع ذلك تلين للحمل الثقيل ، وتنقاد للقائد الضعيف ، وتؤكل ، وينتفع بوبرها ، ويشرب لبنها . ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل ، وكان شريح القاضي يقول : اخرجوا بنا حتى ننظر ﴿ إلى الإبل كيف خلقت ﴾ ﴿ وإلى السماء كيف رفعت ﴾ ، أي كيف رفعها الله عز وجل عن الأرض هذا الرفع العظيم كما قال تعالى ﴿ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ ﴿ وإلى الجبال

كيف نصبت ﴾ أي جعلت منصوبة ، فإنها ثابتة راسية لئلا تميد الأرض بأهلها ، وجعل فيها ما جعل من المنافع والمعادن . ﴿ وإلى الأرض كيف سطحت ﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت ﴿ فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمسيطر ﴾ أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ وقوله ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ كقوله ﴿ وما أنت عليهم بجبار ﴾ أي لست تخلق الإيمان في قلوبهم ﴿ إلا من تولى وكفر ﴾ أي تولى عن العمل بأركانه ، وكفر بالحق بجنانه ولسانه ﴿ فيعذبه الله العذاب الأكبر ﴾ روى الإمام أحمد أن أبا أمامة الباهلي مر على خالد بن يزيد بن معاوية ، فسأله عن كلمة سمعها من رسول الله ﷺ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ألا كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله » تفرد بإخراجه الإمام أحمد . ﴿ إن علينا إيابهم ﴾ أي مرجعهم ومنقلبهم ﴿ ثم إن علينا حسابهم ﴾ أي نحن نحاسبهم على أعمالهم ، ونجازيهم بها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .



تفسير سورة الفجر

روى النسائي عن جابر قال : صلى معاذ صلاة ، فجاء رجل فصلى معه فطول ، فصلى في ناحية المسجد ، ثم انصرف فبلغ ذلك معاذاً ، فقال : منافق ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فسأل الفتى ، فقال : يا رسول الله ، جئت أصلي معه فطول علي ، فانصرفت وصليت في ناحية المسجد فعلفت ناقتي ، فقال رسول الله ﷺ : « أفتان يا معاذ ؟ أين أنت من سبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والفجر ، والليل إذا يغشى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾

أما الفجر فمعروف ، وهو الصبح ، قيل : هو فجر يوم النحر خاصته ، وهو خاتمة الليالي العشر ، وقيل : المراد بذلك الصلاة التي تفعل عنده ، وقيل : المراد به جميع النهار . والليالي العشر : هي عشر ذي الحجة ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس مرفوعاً « ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام » يعني عشر ذي الحجة ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله ؟ قال : « ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجلاً خرج بنفسه وماله ، ثم لم يرجع من ذلك بشيء » روى الإمام أحمد عن جابر عن النبي ﷺ قال : « إن العشر عشر الأضحى ، والوتر يوم عرفة ، والشفع يوم النحر » ورواه النسائي ﴿ والليل إذا يسر ﴾ إذا ذهب . ﴿ هل في ذلك قسم لذي حجر ﴾ أي الذي عقل ولب وحجا ، وإنما سمى العقل حجراً لأنه يمنع الانسان من تعاطي ما لا يليق به من الأفعال والأقوال ، ومنه حجر البيت ، لأنه يمنع الطائف من اللصوق بجدار الشامي ، ومنه حجر اليمامة ، وحجر الحاكم على فلان إذا منعه من التصرف ﴿ ويقولون حجراً محجوراً ﴾ كل هذا من قبيل واحد ، ومعنى متقارب ، وهذا القسم هو بأوقات العبادة ، وبنفس العبادة من حج وصلاة وغير ذلك من أنواع القرب التي يتقرب بها إليه عباده المتقون ، المطيعون له ، الخائفون منه ، المتواضعون لديه الخاشعون لوجهه الكريم .

ولما ذكر هؤلاء وعبادتهم وطاعتهم قال بعده ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ ؟ وهؤلاء كانوا متمردين عتاة جبارين خارجين عن طاعته مكذبين لرسله ، جاحدين لكتبه ، فذكر تعالى كيف أهلكهم ودمرهم ، وجعلهم أحاديث وعبراً فقال ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد ﴾ وهؤلاء عاد الأولى ، وقوله ﴿ إرم ﴾ عطف بيان زيادة تعريف بهم وقوله ﴿ ذات العماد ﴾ لأنهم كانوا يسكنون بيوت الشعر التي ترفع بالأعمدة الشداد . وقد كانوا أشد الناس في زمانهم خلقة ، وأقواهم بطشاً ، ولهذا ذكرهم هود بتلك النعمة ، وأرشدهم إلى أن يستعملوها في طاعة ربهم الذي خلقهم ﴿ فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ﴾ وقال ههنا ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم ﴿ وفرعون ذي الأوتاد ﴾ يقال : كان فرعون يوتد أيديهم وأرجلهم في أوتاد من حديد يعلقهم بها ﴿ الذين طغوا في البلاد . فأكثروا فيها الفساد ﴾ أي تمردوا وعتوا وعاثوا في الأرض بالافساد والأذية للناس ﴿ فصب عليهم ربك سوط عذاب ﴾ أي أنزل عليهم رجزاً من السماء ، وأحل بهم عقوبة لا يردها عن القوم المجرمين ﴿ إن ربك لبالمرصاد ﴾ يسمع ويرى ، يعني يرصد خلقه فيما يعملون ، ويجازي كلا بسعيه في الدنيا والأخرى . وسيعرض الخلائق كلهم عليه فيحكم فيهم بعدله ، ويقابل كلا بما يستحقه ، وهو المنزه عن الظلم والجور .

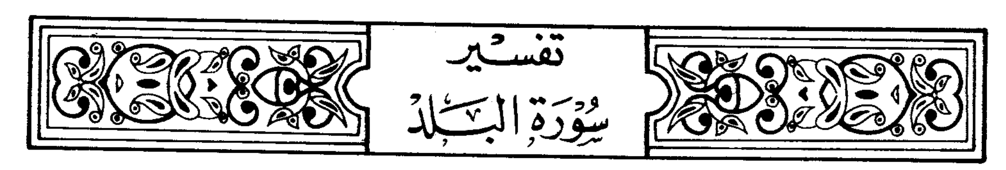
﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

يقول تعالى منكراً على الإنسان في اعتقاده إذا وسع الله تعالى عليه في الرزق ليختبره في ذلك ، فيعتقد أن ذلك من الله إكرام له ، وليس كذلك ، بل هو ابتلاء وامتحان ، كما قال تعالى ﴿ أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون ﴾ وكذلك في الجانب الآخر إذا ابتلاه وامتحنه وضيق عليه في الرزق يعتقد أن ذلك من الله إهانة له ، قال الله تعالى ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم ، لا في هذا ، ولا في هذا ، فإن الله تعالى يعطي المال من يحب ومن لا يحب ؟ ويضيق على من يحب ومن لا يحب ، وإنما المراد في ذلك على طاعة الله في كل من الحالين إذا كان غنياً بأن يشكر الله على ذلك ، وإذا كان فقيراً بأن يصبر . وقوله تعالى ﴿ بل لا تكرمون اليتيم ﴾ فيه أمر بالإكرام له كما جاء في الحديث « خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يساء إليه ، ثم قال بأصبعه ، أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » ﴿ ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ يعني لا يأمرون بالإحسان إلى الفقراء ، والمساكين ، ويحث بعضهم على بعض في ذلك ﴿ وتأكلون التراث ﴾ يعني الميراث ﴿ أكلاً لماً ﴾ أي من أي جهة حصل لهم من حلال أو حرام ﴿ وتحبون المال حباً جماً ﴾ أي كثيراً ، زاد بعضهم فاحشاً .

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

يخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى ﴿ كلا ﴾ أي حقاً ﴿ إذا دكت الأرض دكاً دكاً ﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم ﴿ وجاء ربك ﴾ يعني لفصل القضاء بين خلقه ، وذلك بعدما يستشفون إليه بسيد ولد آدم على الاطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه بعدما يسألون أولي العزم من

الرسل واحداً بعد واحد ، فكلهم يقول : لست بصاحبكم حتى تنتهي النوبة إلى محمد ﷺ فيقول : « أنا لها ، أنا لها » فيذهب فيشفع عند الله تعالى في أن يأتي لفصل القضاء ، فيشفعه الله تعالى في ذلك ، وهي أول الشفاعات ، وهي المقام المحمود ﴿ وجيء يومئذٍ بجهنم ﴾ روى مسلم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذٍ لها سبعون ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » وهكذا رواه الترمذي ﴿ يومئذٍ يتذكر الإنسان ﴾ أي عمله ، وما كان أسلفه في قديم دهره وحديثه ﴿ وأنى له الذكرى ﴾ أي وكيف تنفعه الذكرى ﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ يعني يندم على ما كان سلف منه من المعاصي إن كان عاصياً ، ويود لو كان ازداد من الطاعات إن كان طائعاً . ﴿ فيومئذٍ لا يعذب عذابه أحد ﴾ أي ليس أحد أشد عذاباً من تعذيب الله من عصاه ﴿ ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ أي وليس أحد أشد قبضاً ووثقاً من الزبانية لمن كفر بربهم عز وجل ، وهذا في حق المجرمين من الخلائق والظالمين ، فأما النفس الزكية ، وهي الساكنة الثابتة الدائرة مع الحق ، فيقال لها : ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك ﴾ أي إلى جواره وثوابه وما أعد لعباده في جنته ﴿ راضية ﴾ أي في نفسها ﴿ مرضية ﴾ أي قد رضيت عن الله ، ورضي عنها ، وأرضاها ﴿ فادخلي في عبادي ﴾ أي في جملتهم ﴿ وادخلي جنتي ﴾ وهذا يقال لها عند الاحتضار وفي يوم القيامة أيضاً ، كما أن الملائكة يبشرون المؤمن عند احتضاره ، وعند قيامه من قبره ، فكذلك ههنا . روى الحافظ ابن عساكر في ترجمة رواحة بنت أبي عمرو الأوزاعي عن أبي أمامة أن رسول الله ﷺ قال لرجل « قل : اللهم إني أسألك نفساً بك مطمئنة ، تؤمن بلقائك ، وترضى بقضائك ، وتقنع بعطائك » .



تفسير سُورَةِ البَلَدْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠ ﴾

هذا قسم من الله تبارك وتعالى بمكة أم القرى في حال كون الساكن فيها حلالاً ، لينبه على عظمة قدرها في حال إحرام أهلها . عن مجاهد ﴿ لا أقسم بهذا البلد ﴾ ﴿ لا ﴾ رد عليهم ﴿ أقسم بهذا البلد ﴾ يعني مكة ﴿ وأنت حل بهذا البلد ﴾ قال : أنت يا محمد يحل لك أن تقاتل به ، أو ما أصبت فيه فهو حلال لك ، أو أنت به من غير حرج ولا إثم ، أو أحلها الله له ساعة من نهار ، وهذا المعنى قد ورد به الحديث المتفق على صحته « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شجره ، ولا يختلى خلاه ، وإنما أحلت لي ساعة من نهار ، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب » وفي لفظ آخر « فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا : إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » وقوله تعالى ﴿ ووالد وما ولد ﴾ الوالد الذي يلد ، وما ولد : العاقر الذي لا يولد له ، وقيل : الوالد العاقر ، وما ولد : الذي يلد ، وقيل : الوالد : آدم ، وما ولد : ولده ، وهذا حسن قوي ، لأنه تعالى لما أقسم بأم القرى ، وهي المساكن ، أقسم بعد بالساكن ، وهو آدم أبو البشر ، وولده ﴿ لقد خلقنا الانسان في كبد ﴾ يعني منتصباً ، والكبد الاستواء والاستقامة ، ومعنى هذا أنا خلقناه سوياً مستقيماً ، كقوله تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ ، أو في شدة خلق ، أو ﴿ في كبد ﴾ نطفة ثم علقة ، ثم مضغة ، يتكبد في الخلق ، أو في مشقة ، أو يكابد أمراً من أمر الدنيا ، وأمراً من أمر الآخرة ، أو يكابد مضايق الدنيا ، وشدائد الآخرة ﴿ أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ﴾ أيظن ابن آدم أن لن يسأل عن هذا المال من أين اكتسبه ، وأين أنفقه ؟ ﴿ يقول أهلكت مالاً لبداً ﴾ أي يقول ابن آدم : أنفقت مالاً كثيراً ﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾ أي أيحسب أن لم يره الله عز وجل ﴿ ألم نجعل له عينين ﴾ أي يبصر بهما ﴿ ولساناً ﴾ أي ينطق به فيعبر عما في ضميره ﴿ وشفتين ﴾ يستعين بهما على الكلام ، وأكل الطعام ، وجمالاً لوجهه وفمه ﴿ وهديناه النجدين ﴾ الطريقين : الخير والشر ، ونظير هذه الآية قوله تعالى ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ .

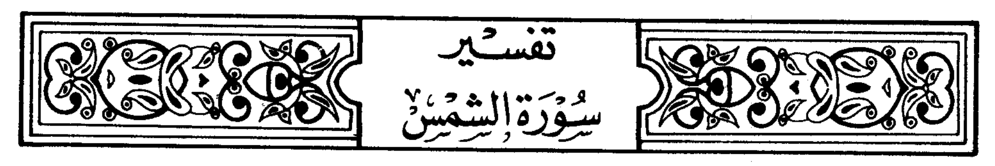
(١١) ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾ (١٧)

﴿ فلا اقتحم ﴾ أي دخل ﴿ العقبة ﴾ جبل في جهنم ، قال قتادة : إنها عقبة قحمة شديدة

فاقتحموها بطاعة الله تعالى أو ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ أي أفلا سلك الطريق التي فيها النجاة والخير ، ثم بينها فقال تعالى ﴿ وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة ﴾ ذي مجاعة ، والسغب الجوع ﴿ يتيماً ذا مقربة ﴾ أي ذا قرابة ، روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ يقول : « الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم اثنتان : صدقة ، وصلة رحم » وقد رواه الترمذي والنسائي ، وهذا إسناد صحيح ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ أي نقيراً مدقعاً لاصقاً بالتراب ، وهو الوقعاء ، أو هو المطروح في الطريق الذي لا يبيت له ، ولا شيء يقيه من التراب ﴿ ثم كان من الذين آمنوا ﴾ أي ثم هو مع هذه الأوصاف الجميلة الطاهرة مؤمن بقلبه ، محتسب ثواب ذلك عند الله عز وجل ﴿ وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ﴾ أي كان من المؤمنين العاملين صالحاً ، المتواصين بالصبر على أذى الناس ، وعلى الرحمة بهم ، كما جاء في الحديث « الراحمون يرحمهم الرحمٰن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » وفي الحديث الآخر « لا يرحم الله من لا يرحم الناس » .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾ ﴾

﴿ أولئك أصحاب الميمنة ﴾ أي المتصفون بهذه الصفات من أصحاب اليمين ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ﴾ أي أصحاب الشمال ﴿ عليهم نار مؤصدة ﴾ أي مطبقة عليهم ، فلا محيد لهم عنها ، ولا خروج لهم منها .



تفسير سُورَةِ الشَّمْسِ

في الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ : « هلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا

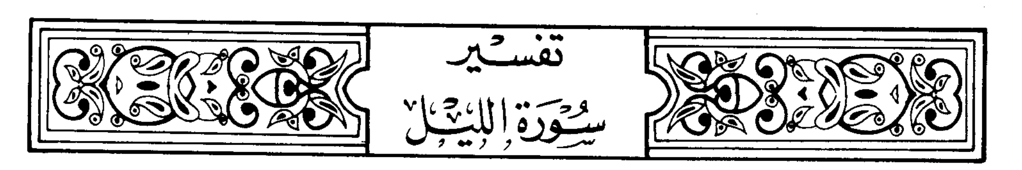
وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ والشمس وضحاها ﴾ هو ضوؤها ، أو النهار كله ، والصواب أن يقال : أقسم الله بالشمس ونهارها ، لأن ضوء الشمس الظاهر هو النهار ﴿ والقمر إذا تلاها ﴾ تبعها ﴿ والنهار إذا جلاها ﴾ إذا غشيها النهار ﴿ والسماء وما بناها ﴾ يحتمل أن تكون ﴿ ما ﴾ ههنا مصدرية بمعنى والسماء وبنائها ، ويحتمل أن تكون بمعنى ﴿ من ﴾ يعني والسماء وبانيها ﴿ والأرض وما طحاها ﴾ أي خلق فيها ، أو بسطها ، وهو الأشهر ﴿ ونفس وما سواها ﴾ أي خلقها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ أي فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، بين لها ذلك ، وهداها إلى ما قدر لها . ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ يحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى نفسه ، أي بطاعة الله ، وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل ﴿ وقد خاب من دساها ﴾ أي أخملها ووضع منها بخذلانه إياها عن الهدى حتى ركب المعاصي ، وترك طاعة الله عز وجل ، ويحتمل أن يكون المعنى قد أفلح من زكى الله نفسه ، وقد خاب من دس الله نفسه ، روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول في الله عز وجل ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾ قال النبي ﷺ « أفلحت نفس زكاها الله عز وجل » وروى الطبراني عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ إذا مر بهذه الآية ﴿ ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقف ثم قال : « اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وخير من زكاها » .

﴿١١﴾ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴾ ﴿١٥﴾

يخبر تعالى عن ثمود أنهم كذبوا رسولهم بسبب ما كانوا عليه من الطغيان ، والبغي قال محمد بن كعب ﴿ بطغواها ﴾ أي بأجمعها ، والأول أولى ﴿ إذ نبعث أشقاها ﴾ أي أشقى القبيلة ، وهو قدار بن سالف عاقر الناقة ، قال الله تعالى ﴿ فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر ﴾ وكان هذا الرجل عزيزاً فيهم ، شريفاً في قومه نسيباً رئيساً مطاعاً . . ﴿ فقال لهم رسول الله ﴾ يعني صالحاً عليه السلام ﴿ ناقة الله ﴾ أي احذروا ناقة الله أن تمسوها بسوء ﴿ وسقياها ﴾ أي لا تعتدوا عليها في سقياها ، فإن لها شرب يوم ، وكلم شرب يوم معلوم . قال الله تعالى ﴿ فكذبوه فعقروها ﴾ أي كذبوه فيما جاءهم به فأعقبهم ذلك أن عقروا الناقة التي أخرجها الله من الصخرة آية لهم ، وحجة عليهم ﴿ فدمر عليهم ربهم بذنبهم ﴾ أي غضب عليهم ، فدمر عليهم ﴿ فسواها ﴾ أي فجعل العقوبة نازلة عليهم

على السواء . قال قتادة : بلغنا أن أحيمر ثمود لم يعقر الناقة حتى تابعه صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم ، فلما اشترك القوم في عقرها دمدم الله عليهم بذنبهم فسواها ﴿ ولا يخاف عقباها ﴾ أي لا يخاف الله من أحد تبعة ، أو لم يخف الذي عقرها عاقبة ما صنع ، والأول أولى لدلالة السياق عليه .



تفسير سورة الليل

تقدم قوله ﷺ لمعاذ « فهلا صليت بسبح اسم ربك الأعلى ، والشمس وضحاها ، والليل إذا يغشى » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ ﴾

أقسم الله تعالى ﴿ بالليل إذا يغشى ﴾ أي إذا غشى الخليقة بظلامه ﴿ والنهار إذا تجلى ﴾ أي بضيائه وإشراقه ﴿ وما خلق الذكر والأنثى ﴾ كقوله تعالى ﴿ وخلقناكم أزواجاً ﴾ وقوله ﴿ ومن كل شيء خلقنا زوجين ﴾ ولما كان القسم بهذه الأشياء المتضادة كان المقسم عليه أيضاً متضاداً . ولهذا قال تعالى ﴿ إن سعيكم لشتى ﴾ أي أعمال العباد التي اكتسبوها متضادة ، ومتخالفة ، فمن فاعل خيراً ، ومن فاعل شراً ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ أي أعطى ما أمر بإخراجه ، واتقى الله في أموره ﴿ وصدق بالحسنى ﴾ أي بالمجازاة على ذلك ، أو بلا إله إلا الله ، أو بما أنعم الله عليه ﴿ فسنيسره لليسرى ﴾ يعني للخير ﴿ وأما من بخل ﴾ أي بما عنده ﴿ واستغنى ﴾ أي بخل بماله ، واستغنى عن ربه عز وجل ﴿ وكذب بالحسنى ﴾ أي بالجزاء في الدار الآخرة ﴿ فسنيسره للعسرى . وما يغني عنه ماله إذا تردى ﴾ أي إذا مات ، أو إذا تردى في النار .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

﴿ إن علينا للهدى ﴾ أي نبين الحلال والحرام ، أو من سلك طريق الهدى وصل إلى الله ، وهو كقوله تعالى ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ ﴿ وإن لنا للآخرة والأولى ﴾ أي االجميع ملكنا ، وأنا المتصرف فيها ﴿ فأنذرتكم ناراً تلظى ﴾ أي توهج . روى البخاري عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل توضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه » ﴿ لا يصلاها إلا الأشقى ﴾ أي لا يدخلها دخولاً يحيط به من جميع جوانبه إلا الأشقى ، ثم فسره فقال ﴿ الذي كذب ﴾ أي بقلبه ﴿ وتولى ﴾ أي عن العمل بجوارحه وأركانه . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدخل النار إلا شقي » وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كل أمتي تدخل الجنة يوم القيامة إلا من أبى » قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟ قال : « من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى » ورواه البخاري ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ أي وسيزحزح عن النار التقي النقي الأتقى ، ثم فسره بقوله ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى ﴾ أي يصرف ماله في طاعة ربه ليزكي نفسه وماله ، وما وهبه الله من دين ودنيا ﴿ وما لأحد عنده من نعمة تجزى ﴾ أي ليس بذله ماله في مكافأة من أسدى إليه معروفاً ، فهو يعطي في مقابلة ذلك ، وإنما دفعه ذلك ﴿ ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ أي طمعاً في أن يحصل رؤ يته في الدار الآخرة في روضات الجنات ، قال الله تعالى ﴿ ولسوف يرضى ﴾ أي ولسوف يرضى من اتصف بهذه الصفات . وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه حتى إن بعضهم حكى الاجماع من المفسرين على ذلك ، ولا شك أنه داخل فيها ، وأولى الأمة بعمومها ، فإن لفظها لفظ العموم . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة : يا عبدالله هذا خير » فقال أبو بكر : يا رسول الله ، ما على من يدعي منها ضرورة فهل يدعي منها كلها أحد ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم » .



تفسير سورة الضحى



بسم الله الرحمن الرحيم

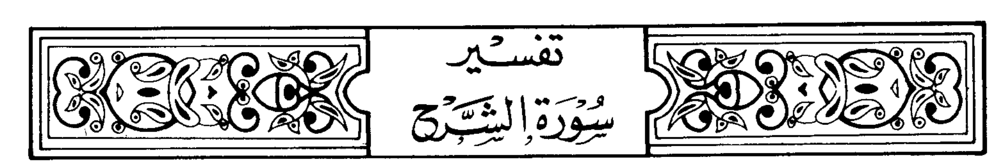
﴿ وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (٣)

روى الإمام أحمد عن جندب يقول : اشتكى النبي ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين فأتت امرأة فقالت : يا محمد ، ما أرى شيطانك إلا قد تركك ، فأنزل عز وجل ﴿ والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى ﴾ رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم وابن جرير . وهذا قسم منه تعالى بالضحى ، وما جعل فيه من الضياء ﴿ والليل إذا سجى ﴾ أي سكن فأظلم وادلهم ﴿ ما ودعك ربك ﴾ أي ما تركك ، ﴿ وما قلى ﴾ أي وما أبغضك .

﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (١١)

﴿ وللآخرة خير لك من الأولى ﴾ أي وللدار الآخرة خير لك من هذه الدار ، ولهذا كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا ، وأعظمهم لها اطراحاً ، كما هو معلوم بالضرورة من سيرته ، ولما خير عليه الصلاة والسلام في آخر عمره بين الخلد في الدنيا إلى آخرها ، ثم الجنة ، وبين الصيرورة إلى الله عز وجل اختار ما عند الله على هذه الدنيا الدنية ، روى الإمام أحمد عن ابن مسعود قال : اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه ، فلما استيقظ جعلت أمسح جبينه ، وقلت : يا رسول الله ، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً ، فقال رسول الله ﷺ : « ما لي وللدنيا ، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » ورواه الترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي : حسن صحيح . وقوله تعالى ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ أي في الدار الآخرة يعطيه حتى يرضيه في أمته ، وفيما أعده له من الكرامة ، ومن جملته نهر الكوثر الذي حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف ، وطينه مسك أذفر » ثم قال تعالى يعدد نعمه على عبده ورسوله محمد

صلوات الله وسلامه عليه ﴿ ألم يجدك يتيماً فآوى ﴾ وذلك أن أباه توفي ، وهو حمل في بطن أمه ، ثم توفيت آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنين ، ثم كان في كفالة جده اعبدالمطلب إلى أن توفي ، وله من العمر ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، ثم لم يزل يحوطه وينصره ، ويرفع من قدره ويوقره ، ويكف عنه أذى قومه بعد أن ابتعثه الله على رأس أربعين سنة من عمره ، هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان ، وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره إلى أن توفي أبو طالب قبل الهجرة بقليل ، فأقدم عليه سفهاء قريش وجهالهم فاختار الله له الهجرة من بين أظهرهم إلى بلد الأنصار من الأوس والخزرج ، كما أجرى الله سنته على الوجه الأتم الأكمل ، فلما وصل إليهم آووه ونصروه وحاطوه وقاتلوا بين يديه رضي الله عنهم أجمعين ، وكل هذا من حفظ الله له وكلاءته وعنايته به . وقوله تعالى ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ كقوله ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ﴾ وقوله تعالى ﴿ ووجدك عائلاً فأغنى ﴾ أي كنت فقيراً ذا عيال فأغناك الله عمن سواه فجمع الله له بين مقام الفقير الصابر والغني الشاكر ، صلوات الله وسلامه عليه . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنعه الله بما آتاه » ثم قال تعالى ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر ﴾ أي كما كنت يتيماً فآواك فلا تقهر اليتيم ، أي لا تذله وتنهره وتهنه ، ولكن أحسن إليه ، وتلطف به ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ أي وكما كنت ضالاً فهداك الله فلا تنهر السائل في العلم المسترشد ، ولا تكن جباراً ولا متكبراً ولا فحاشاً ، ولا فظاً على الضعفاء من عباد الله ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ أي وكما كنت عائلاً فقيراً فأغناك الله فحدث بنعمة الله عليك .



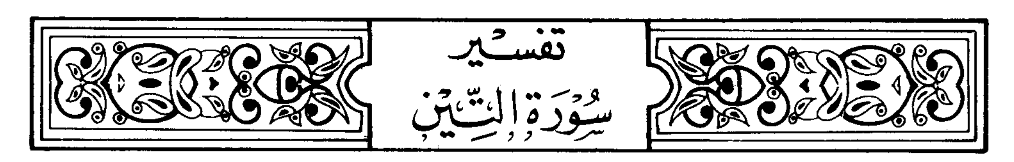
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ ﴿٦﴾

﴿ ألم نشرح لك صدرك ﴾ أي نورناه ، وجعلناه فسيحاً رحباً واسعاً ﴿ ووضعنا عنك وزرك ﴾ بمعنى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴿ الذي أنقض ظهرك ﴾ أي أثقلك حمله ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ لا أذكر إلا ذكرتَ معي ، أشهد أن لا إلّه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾ أخبر تعالى أن مع العسر يوجد اليسر ، ثم أكد هذا الخبر . روى ابن أبي حاتم عن أنس قال : كان النبي ﷺ جالساً ، وحياله حجر فقال : « لو جاء العسر فدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يدخل عليه فيخرجه » فأنزل الله ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾ ورواه أبو بكر البزار . وفي الحديث « لن يغلب عسر يسرين » .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾

﴿ فإنها فرغت فانصب ﴾ أي إذا فرغت من أمور الدنيا وأشغالها ، وقطعت علائقها فانصب إلى العبادة ، وقم إليها نشيطاً فارغ البال ، وأخلص إلى ربك النية والرغبة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ أي بعد فراغك من الصلاة ، وأنت جالس . عن ابن مسعود : إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل . قال زيد بن أسلم والضحاك : ﴿ فإذا فرغت ﴾ أي من الجهاد ﴿ فانصب ﴾ أي في العبادة ﴿ وإلى ربك فارغب ﴾ أي اجعل نيتك ورغبتك إلى الله عز وجل .



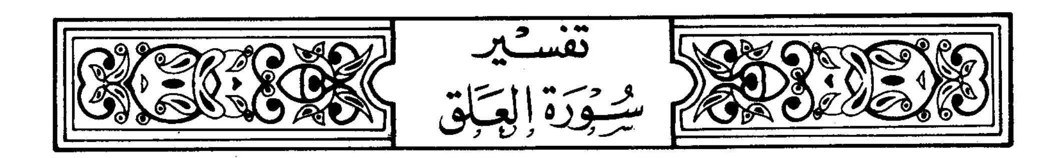
تفسير سُورَةِ التِّينِ

عن البراء بن عازب كان النبي ﷺ يقرأ في سفره في إحدى الركعتين بالتين والزيتون ، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً أو قراءة منه . أخرجه الجماعة في كتبهم .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

﴿ والتين ﴾ قال مجاهد : هو تينكم هذا ﴿ والزيتون ﴾ قال مجاهد وعكرمة : هذا الزيتون الذي تعصرون . ﴿ وطور سينين ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام ﴿ وهذا البلد الأمين ﴾ يعني مكة ﴿ لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ﴾ هذا هو المقسم عليه ، وهو أنه تعالى خلق الانسان في أحسن صورة وشكل ، منتصب القامة ، سوي الأعضاء حسنها ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أي إلى النار ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ أي غير مقطوع ﴿ فما يكذبك ﴾ أي يا ابن آدم ﴿ بعد بالدين ﴾ أي بالجزاء في المعاد ، ولقد علمت البداءة وعلمت أن من قدر على البداءة فهو قادر على الرجعة بطريق الأولى ، فأي شيء يحملك على التكذيب بالمعاد ، وقد عرفت هذا ؟ ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ أي أما هو أحكم الحاكمين الذي لا يجور ولا يظلم أحداً ، ومن عدله أن يقيم القيامة ، فينتصف للمظلوم في الدنيا ممن ظلمه ، وفي الحديث عن أبي هريرة مرفوعاً « فإذا قرأ أحدكم ﴿ والتين والزيتون ﴾ فأتى على آخرها ﴿ أليس الله بأحكم الحاكمين ﴾ فليقل : بلى ، وأنا على ذلك من الشاهدين » .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (٥)

روى الإمام أحمد عن عائشة قالت : أول ما بدىء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يأتي حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالي ذوات العدد ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ، فيتزود لمثلها حتى فجأه الوحي ، وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه فقال : إقرأ ، قال رسول الله ﷺ « فقلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فغطني الثانية حتى بلغ مني

الجهد ثم أرسلني فقال : إقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق - حتى بلغ - ما لم يعلم ﴾ » قال : فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة . . . » .

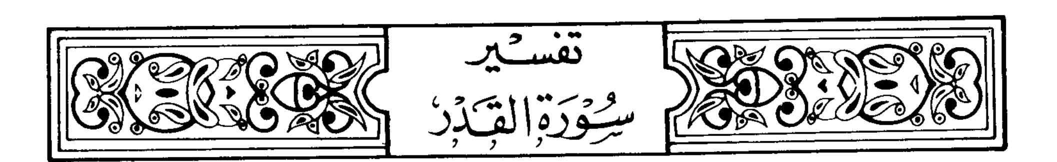
﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ﴿١٦﴾

يخبر تعالى عن الانسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله ، ثم تهدده ، وتوعده ، ووعظه فقال ﴿ إن إلى ربك الرجعى ﴾ أي إلى الله المصير ، والمرجع ، وسيحاسبك على ما لك من أين جمعته ، وفيم صرفته . وفي الحديث « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا » ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ﴾ نزلت في أبي جهل لعنه الله ، توعد النبي ﷺ على الصلاة عند البيت فوعظه تعالى بالتي هي أحسن أولاً فقال ﴿ أرأيت إن كان على الهدى ﴾ أي فما ظنك إن كان هذا الذي تنهاه على الطريق المستقيمة في فعله ﴿ أو أمر بالتقوى ﴾ بقوله وأنت تزجره وتتوعده على صلاته ، ولهذا قال ﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾ أي أما علم هذا الناهي لهذا المهتدي أن الله يراه ، ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله أتم الجزاء ﴿ كلا لئن لم ينته ﴾ أي لئن لم يرجع عما هو فيه من الشقاق والعناد ﴿ لنسفعاً بالناصية ﴾ لنسمنها سواداً يوم القيامة ﴿ ناصية كاذبة خاطئة ﴾ يعني ناصية أبي جهل ﴿ كاذبة ﴾ في مقالها ، ﴿ خاطئة ﴾ في أفعالها .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ ﴿١٩﴾

﴿ فليدع ناديه ﴾ أي قومه وعشيرته ، أي ليدعهم يستنصر بهم ﴿ سندع الزبانية ﴾ وهم ملائكة العذاب حتى يعلم من يغلب ، أحزبنا أم حزبه ؟ روى البخاري عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلي عند الكعبة لأطأن عنقه ، فبلغ النبي ﷺ فقال : « لئن فعل لأخذته الملائكة » وكذا رواه الترمذي والنسائي . ﴿ كلا لا تطعه ﴾ يعني محمداً ﷺ أي لا تطعه فيما ينهاك عنه من المداومة على العبادة وكثرتها وصلي حيث شئت ، ولا تباله ، فإن الله حافظك وناصرك ، وهو يعصمك من الناس ﴿ واسجد

واقترب ﴾ في الصحيحين عن رسول الله ﷺ « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء » .



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ ﴿٥﴾

يخبر تعالى أنه أنزل القرآن ليلة القدر ، وهي الليلة المباركة ، قال الله عز وجل ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وهي ليلة القدر ، وهي من شهر رمضان ، كما قال تعالى ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن ﴾ أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفصلاً بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله ﷺ . ثم قال تعالى معظماً لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر . ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ وقوله ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ﴾ أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة ، لكثرة بركتها ، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة كما يتنزلون عند تلاوة القرآن ، ويحيطون بحلق الذكر ، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم بصدق تعظيماً له ، وأما الروح فقيل : المراد به جبريل عليه السلام فيكون من عطف الخاص على العام ، وقيل : هم ضرب من الملائكة ﴿ من كل أمر ﴾ قال مجاهد : سلام هي من كل أمر ، أي هي سالمة لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءاً ، أو يعمل فيها أذى ﴿ سلام هي حتى مطلع الفجر ﴾ عن الشعبي قال فيها : تسليم الملائكة ليلة القدر على أهل المساجد حتى يطلع الفجر .



تفسير سُورَةِ البَيِّنَةِ



روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ لأبي بن كعب : « إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ قال : وسماني لك ؟ قال : « نعم » فبكى . ورواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (١)

أما أهل الكتاب فيهم اليهود والنصارى ، والمشركون عبدة الأوثان والنيران من العرب ومن العجم . قال مجاهد : لم يكونوا ﴿ منفكين ﴾ يعني منتهين حتى يتبين لهم الحق ﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ أي هذا القرآن .

﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ (٢)

ثم فسر البينة بقوله ﴿ رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة ﴾ يعني محمداً ﷺ ، وما يتلوه من القرآن العظيم الذي هو مكتتب في الملأ الأعلى في صحف مطهرة ، كقوله ﴿ في صحف مكرمة . مرفوعة مطهرة . بأيدي سفرة . كرام بررة ﴾ .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ (٣)

﴿ فيها كتب قيمة ﴾ أي في الصحف المطهرة كتب قيمة عادلة مستقيمة ليس فيها خطأ لأنها من عند الله عز وجل .

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ (٤)

﴿ وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ﴾ كقوله ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ يعني بذلك أهل الكتب المنزلة على الأمم قبلنا بعدما أقام الله عليهم الحجج والبينات تفرقوا واختلفوا في الذي أراده الله من كتبهم ، واختلفوا اختلافاً كثيراً كما جاء في الحديث المروي من طرق « إن اليهود اختلفوا على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى اختلفوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستتفرق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » قالوا : من

هم يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي ».

﴿٥﴾ ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾ كقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إلّه إلا أنا فاعبدون ﴾ ولهذا قال ﴿ حنفاء ﴾ أي متحنفين من الشرك إلى التوحيد ﴿ ويقيموا الصلاة ﴾ وهي أشرف عبادات البدن ﴿ ويؤتوا الزكاة ﴾ وهي الاحسان إلى الفقراء والمحاويج ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ أي الملة القائمة العادلة ، أو الأمة المستقيمة المعتدلة .

﴿٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾

يخبر تعالى عن مآل الفجار من كفرة أهل الكتاب والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة ، وأنبياء الله المرسلة أنهم يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها ، أي ماكثين لا يحولون عنها ولا يزولون ﴿ أولئك هم شر البرية ﴾ أي شر الخليقة .

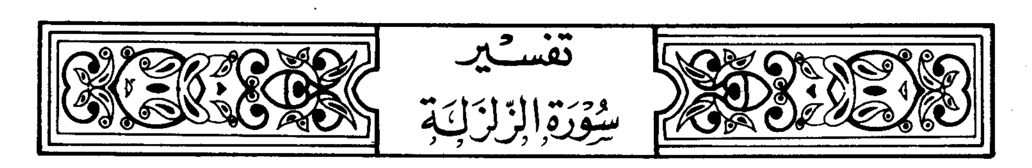
﴿٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾

ثم أخبر تعالى عن حال الأبرار الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملو الصالحات بأبدانهم بأنهم خير البرية ، وقد استدل بهذه الآية على تفضيل المؤمنين من البرية على الملائكة ، لقوله تعالى ﴿ أولئك هم خير البرية ﴾ .

﴿٨﴾ ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾

﴿ جزاؤهم عند ربهم ﴾ أي يوم القيامة ﴿ جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ أي بلا انفصال ولا انقضاء ولا فراغ ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من النعيم المقيم . ﴿ ورضوا عنه ﴾ فيما منحهم من الفضل العميم . ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ أي هذا الجزاء حاصل لمن خشي الله ، واتقاه حق تقواه ، وعبده كأنه يراه ، وعلم أنه إن لم يره فإنه يراه . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة

رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، كلما كانت هيقة استوى عليه ، ألا أخبركم بخير البرية ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « رجل في ثلة من غنمه يقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ألا أخبركم بشر البرية ؟ » قالوا : بلى ، قال : « الذي يسأل بالله ولا يعطي به » .



تفسير سُورَةِ الزَلزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ ﴿٦﴾

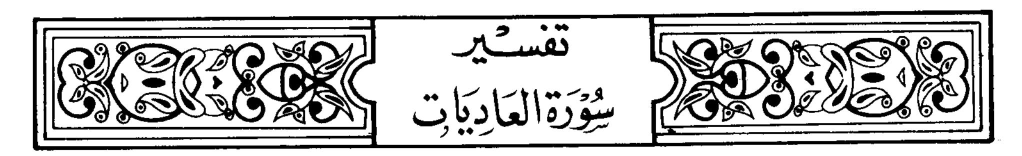
﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ أي تحركت من أسفلها ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ يعني ألقت ما فيها من الموتى . روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « تلقي الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قتلت ، ويجيء القاطع فيقول : في هذا قطعت رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً » . ﴿ وقال الانسان ما لها ﴾ أي استنكر أمرها بعدما كانت قارة ساكنة ثابتة ، وهو مستقر على ظهرها ، أي تقلبت الحال فصارت متحركة مضطربة ، قد جاءها من أمر الله تعالى ما قد أعده لها من الزلزال الذي لا محيد لها عنه ، ثم ألقت ما في بطنها من الأموات من الأولين والآخرين ، وحينئذٍ استنكر الناس أمرها ، وتبدلت الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار . وقوله تعالى ﴿ يومئذٍ تحدث أخبارها ﴾ أي تحدث بما عمل العاملون على ظهرها . روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يومئذٍ تحدث أخبارها ﴾ قال : « أتدرون ما أخبارها ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا . فهذه

أخبارها » ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب . وفي الحديث « تحفظوا من الأرض ، فإنها أمكم ، وإنه ليس من أحد عامل فيها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة » .

﴿ بأن ربك أوحى لها ﴾ أي أذن لها ﴿ يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ﴾ أي يرجعون عن موقف الحساب أنواعاً وأصنافاً ما بين شقي وسعيد ، مأمور به إلى الجنة ، ومأمور به إلى النار ﴿ ليروا أعمالهم ﴾ أي ليعملوا ويجازوا بما عملوه في الدنيا من خير وشر .

(٧) ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ ﴿٨﴾

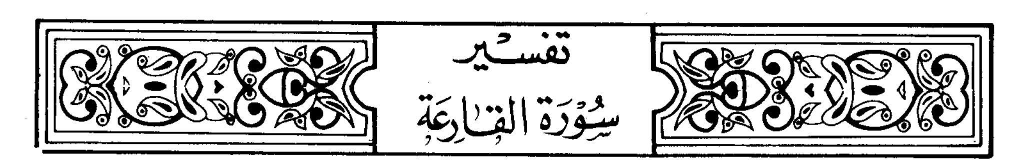
﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « الخيل لثلاثة : لرجل أجر ، ولرجل ستر ، وعلى رجل وزر ، فأما الذي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال طيلها في مرج أو روضة ، فما أصابت في طيلها ذلك في المرج والروضة كانت له حسنات ، ولو أنها قطعت طيلها فاستنت شرفاً أو شرفين كانت آثارها ، وأرواثها حسنات له ، ولو أنها مرت بنهر فشربت منه ولم يرد أن تسقى به كان ذلك حسنات له، وهي لذلك الرجل أجر، ورجل ربطها تغنياً وتعففاً ، ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها فهي له ستر . ورجل ربطها فخراً ورياء ونواء فهي على ذلك وزر ، فسئل رسول الله ﷺ عن الحمر فقال : « ما أنزل الله فيها شيئاً إلا هذه الآية الفاذة الجامعة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ . ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ يعني وزن أصغر النمل .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴾ ﴿١١﴾

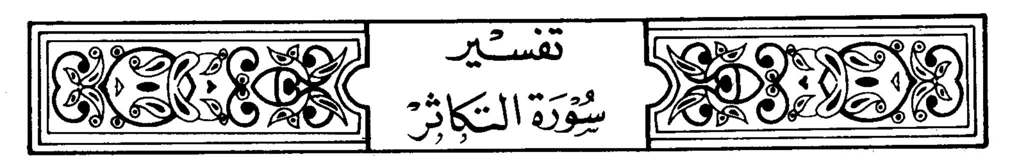
يقسم تعالى بالخيل اذا أجريت في سبيله قعدت ، وضجت ، وهو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو ﴿ فالموريات قدحاً ﴾ يعني اصطكاك نعالها للصخر فتقدح منه النار ﴿ فالمغيرات صبحاً ﴾ يعني الاغارة وقت الصباح كما كان رسول الله ﷺ يغير صباحاً ، ويستمع الأذان ، فإن سمع أذاناً وإلا أغار ﴿ فأثرن به نقعاً ﴾ يعني غباراً في مكان معترك الخيول ﴿ فوسطن به جمعاً ﴾ أي توسطن ذلك المكان كلهن جمع ﴿ إن الانسان لـربه لكنود ﴾ هذا هو المقسم عليه ، بمعنى إنه لنعم ربه لكفور جحود . قال الحسن : الكنود هو الذي يعد المصائب وينسى نعم الله عليه . روى ابن أبي حاتم عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : « ﴿ إن الانسان لـربه لكنود ﴾ قال : الكنود الذي يأكل وحده ، ويضرب عبده ، ويمنع رفده » ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ وإن الله على ذلك لشهيد ، ويحتمل أن يعود الضمير على الانسان ، فيكون التقدير : وإن الانسان على كونه كنوداً لشهيد ، أي بلسان حاله ، أي ظاهر ذلك عليه في أقواله وأفعاله ، كما قال تعالى ﴿ ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ ﴿ وإنه لحب الخير لشديد ﴾ أي وإنه لحب الخير ، أي المال لشديد ، وفيه مذهبان : أحدهما أن المعنى وإنه لشديد المحبة للمال ، والثاني وإنه لحريص بخيل من محبة المال . وكلاهما صحيح . ثم قال تبارك وتعالى مزهداً في الدنيا ومرغباً في الآخرة ، ومنبهاً على ما هو كائن بعد هذه الحال ، وما يستقبله الانسان من الأهوال ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾ أي أخرج ما فيها من الأموات ﴿ وحصل ما في الصدور ﴾ يعني أبرز وأظهر ما كانوا يسرون في نفوسهم ﴿ إن ربهم بهم يومئذٍ لخبير ﴾ أي لعالم بجميع ما كانوا يصنعون ويعملون ، ومجازيهم عليه أوفر الجزاء ، ولا يظلم مثقال ذرة .



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾ ﴾

القارعة من أسماء يوم القيامة ، كالحاقة والطامة والصاخة والغاشية وغير ذلك ، ثم قال تعالى معظماً أمره' ومهولاً لشأنها ﴿ وما أدراك ما القارعة ﴾ ثم فسر ذلك بقوله ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ﴾ أي في انتشارهم وتفرقهم وذهابهم ومجيئهم من حيرتهم مما هم فيه كأنهم فراش مبثوث ، كما قال تعالى في الآية الأخرى ﴿ كأنهم جراد منتشر ﴾ وقوله تعالى ﴿ وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ يعني قد صارت كأنها الصوف المنفوش الذي قد شرع في الذهاب والتمزق . العهن : الصوف . ثم أخبر تعالى عما يؤول إليه عمل العاملين ، وما يصيرون إليه من الكرامة والإهانة بحسب أعمالهم فقال : ﴿ فأما من ثقلت موازينه ﴾ أي رجحت حسناته على سيئاته ﴿ فهو في عيشة راضية ﴾ يعني في الجنة . ﴿ وأما من خفت موازينه ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته . ﴿ فأمه هاوية ﴾ قيل : معناه فهو ساقط هاو بأم رأسه في نار جهنم ، وعبر عنه بأمه ، يعني دماغه ، وقيل : معناه فأمه التي يرجع اليها ، ويصير في المعاد إليها هاوية ، وهي اسم من أسماء النار ، وإنما قيل للهاوية : أمه ، لأنه لا مأوى له غيرها . كقوله تعالى ﴿ مأواهم جهنم ﴾ ولهذا قال تعالى مفسراً للهاوية ﴿ وما أداك ماهيه . نار حامية ﴾ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « نار بني آدم التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم » قالوا : يا رسول الله ، إن كانت لكافية ؟ فقال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً » . ورواه البخاري ، ورواه مسلم . وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « اشتكت النار إلى ربها فقالت : يا رب ، أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين : نفس في الشتاء ، ونفس في الصيف ، فأشد ما تجدون في الشتاء من بردها ، وأشد ما تجدون في الصيف من حرها » وفي الصحيحين« إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة ،فإن شدة الحر من فيح جهنم » .



تفسير سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ۝٨

يقول تعالى : أشغلكم حب الدنيا ونعيمها ، وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها ، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت ، وزرتم المقابر ، وصرتم من أهلها ؟ . روى الامام أحمد عن عبدالله بن الشخير عن أبيه قال : انتهيت إلى رسول الله ﷺ ، وهو يقول : « ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ يقول ابن آدم : مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ورواه مسلم والترمذي والنسائي . وروى البخاري قال : قال رسول الله ﷺ « يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد : يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله » وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي . وروى الامام أحمد « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان : الحرص والأمل » أخرجاه في الصحيحين . روى ابن أبيْ حاتم عن أبي بريدة في قوله ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار : في بني حارثة ، وبني الحارث ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت احداهما : فيكم مثل فلان بن فلان ، وفلان ؟ وقال الآخرون : مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت احدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ، يشيرون إلى القبور ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك ، فأنزل الله ﴿ ألهاكم التكاثر . حتى زرتم المقابر ﴾ لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل . والصحيح أن المراد بـ زرتم المقابر أي صرتم إليها ، ودفنتم فيها ، كما جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده فقال : لا بأس طهور إن شاء الله » فقال : قلت : طهور ؟ بل هي حمى تغور ، على شيخ كبير ، تزيره القبور ، قال : « فنعم اذن » وقوله تعالى ﴿ كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون ﴾ قال الحسن البصري : هذا وعيد بعد وعيد . وقوله ﴿ كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي لو علمتم حق العلم لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى صرتم إلى المقابر . ثم قال ﴿ لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم ، وهو قوله ﴿ كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون ﴾ توعدهم بهذا الحال ، وهو رؤية أهل النار التي إذا زفرت زفرة واحدة خر كل ملك مقرب ، ونبي مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال على ما جاء به الأثر المروي في ذلك وقوله تعالى ﴿ ثم لتسألن يومئذٍ عن النعيم ﴾ أي ثم لتسألن يومئذٍ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك .



تفسير سُورَةُ العَصْرِ



ذكر الطبراني قال : كان الرجلان من اصحاب رسول الله ﷺ اذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ، ثم يسلم أحدهما على الآخر . وقال الشافعي رحمه الله : لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ ۝٣

العصر : الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم من خير وشر فأقسم تعالى بذلك على أن الانسان لفي خسر ، أي في خسارة وهلاك ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ أي فاستثنى من جنس الانسان عن الخسران، الذين آمنوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ وهو اداء الطاعات ، وترك المحرمات ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ أي على المصائب والأقدار ، وأذى من يؤذي ممن يأمرونه بالمعروف ، وينهونه عن المنكر .

* * *



تفسير سورة الهمزة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ (٩)

الهماز بالقول ، واللماز بالفعل ، يعني يزدري الناس وينتقص بهم ، وقيل : المراد بذلك الأخنس بن شريق ، قال مجاهد : هي عامة . وقوله تعالى ﴿ الذي جمع مالاً وعدده ﴾ أي جمعه بعضه على بعض ، وأحصى عدده كقوله تعالى ﴿ وجمع فأوعى ﴾ قال محمد بن كعب في قوله ﴿ جمع مالاً وعدده ﴾ ألهاه ماله بالنهار : هذا إلى هذا ، فإذا كان الليل نام كأنه جيفة منتنة . وقوله تعالى ﴿ يحسب أن ماله أخلده ﴾ أي أيظن أن جمعه المال يخلده في هذه الدار ﴿ كلا ﴾ أي ليس الأمر كما زعم ، ولا كما حسب . ثم قال تعالى ﴿ لينبذن في الحطمة ﴾ أي ليلقين هذا الذي جمع مالاً فعدده في الحطمة ، وهي اسم صفة من أسماء النار لأنها تحطم من فيها ، ولهذا قال ﴿ وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة . التي تطلع على الأفئدة ﴾ قال ثابت البناني : تحرقهم إلى الأفئدة ، وهم أحياء ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة كقوله تعالى ﴿ إنها عليهم مؤصدة ﴾ أي مطبقة . وقوله تعالى ﴿ في عمد ممددة ﴾ قال عطية العوفي : عمد من حديد ، وقال السدي : من نار ، وعن ابن عباس : يعني الأبواب هي الممددة ، أو هي القيود الثقال .



تفسير سُورَةُ الفِيلِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ۝٥

هذه من النعم الذي امتن الله بها على قريش فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ، ومحو أثرها من الوجود فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم ، وأضل عملهم ، وردهم بشر خيبة ، وكانوا قوماً نصارى ، وكان دينهم اذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان ، ولكن كان هذا من باب الارهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ، ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم يا معشر قريش على الحبشة لخيرتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء . ﴿ طيراً أبابيل ﴾ شتى متتابعة مجتمعة قال الكسائي : سمعت بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل إبيل . ﴿ من سجيل ﴾ السجيل : الشديد الصلب . والعصف : ورق الزرع الذي لم يقضب ، واحدته عصفة . والمعنى أن الله أهلكهم ودمرهم وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً ، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح . لما أطل رسول الله ﷺ يوم الحديبية على الثنية التي تهبط به على قريش بركت ناقته فزجروها فألحت ، فقالوا : خلأت القصواء ، أي حرنت فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل ، ثم قال : والذي نفسي بيده لا يسألوني اليوم خطة يعظمون فيها حرمات الله الا أجبتهم اليها » ثم زجرها فقامت . والحديث من افراد البخاري . وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة « إن الله حبس عن مكة الفيل وسلط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حرمتها اليوم لحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد النائب » .



تفسير سُورَةِ قُرَيْش



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾ ۝٤

هذه سورة مفصولة عما قبلها في المصحف الامام ، كتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمٰن الرحيم » وإن كانت متعلقة بما قبلها ، لأن المعنى حبسنا عن مكة الفيل ، وأهلكنا أهله لايلاف قريش أي لائتلافهم واجتماعهم في بلدهم آمنين . وقيل : المراد بذلك ما كانوا يألفونه من الرحلة في الشتاء إلى اليمن ، وفي الصيف إلى الشام في المتاجر وغير ذلك ، ثم يرجعون إلى بلدهم آمنين في أسفارهم ورحلتهم في شتائهم وصيفهم ، وأما في حال إقامتهم في البلد فكما قال الله تعالى ﴿ أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ لايلاف قريش إيلافهم ﴾ بدل من الأول ومفسر له ، ولهذا قال : ﴿ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قال ابن جرير : الصواب أن اللام لام التعجب كأنه يقول : اعجبوا لايلاف قريش ونعمتي عليهم في ذلك ، قال : وذلك لاجماع المسلمين على أنهما سورتان منفصلتان مستقلتان . ثم أرشدهم إلى شكر هذه النعمة العظيمة فقال ﴿ فليعبدوا رب هذا البيت ﴾ أي فليوحدوه بالعبادة ، كما جعل لهم حرماً آمناً ، وبيتاً محرماً ﴿ الذي أطعمهم من جوع ﴾ أي هو رب البيت ، وهو الذي أطعمهم من جوع ﴿ وآمنهم من خوف ﴾ أي تفضل عليهم بالأمن والرخص فليفردوه بالعبادة وحده لا شريك له ولا يعبدوا من دونه صنماً ولا نداً ولا وثناً ، ولهذا من استجاب لهذا الأمر جمع الله له بين أمن الدنيا وأمن الآخرة ، ومن عصاه سلبهما الله منه . ﴿ ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾.



تفسير سُورَةُ المَاعُون

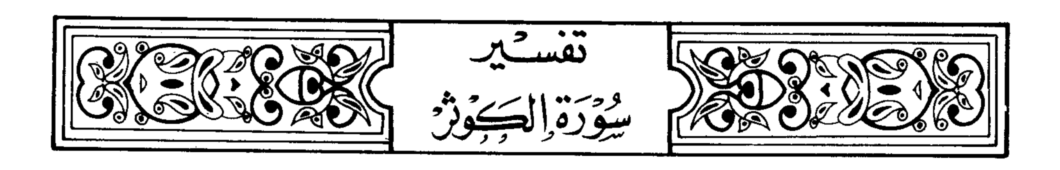


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (١) فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (٧)

يقول تعالى : أرأيت يا محمد الذي يكذب بالدين ، وهو المعاد والجزاء والثواب ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾ أي هو الذي يقهر اليتيم ويظلمه حقه ، ولا يطعمه ، ولا يحسن إليه ﴿ ولا يحض على طعام المسكين ﴾ كما قال تعالى ﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين ﴾ يعني الفقير الذي لا شيء يقوم بأوده وكفايته . ﴿ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ يعني المنافقين الذين يصلون في العلانية ، ولا يصلون في السر ، ولهذا قال ﴿ للمصلين ﴾ الذين هم من أهل الصلاة ، وقد التزموا بها ، ثم هم عنها ساهون ، إما عن فعلها بالكلية ، وإما عن فعلها في الوقت المقدر لها شرعاً فيخرجها عن وقتها بالكلية ، وإما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائماً أو غالباً ، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها ، والتدبر لمعانيها ، فاللفظ يشمل ذلك كله ، ولكن من اتصف بشيء من ذلك كان له قسط من هذه الآية ، ومن اتصف بجميع ذلك فقد تم له نصيبه منها ، وكمل له النفاق العملي كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، تلك صلاة المنافق ، يجلس يرقب الشمس ، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعاً لا يذكر الله فيها إلا قليلاً » قال عطاء بن دينار : الحمد لله الذي قال ﴿ عن صلاتهم ساهون ﴾ ولم يقل : في صلاتهم ساهون . قال الله تعالى ﴿ إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون

الله إلا قليلاً ﴾ وقال تعالى ههنا ﴿ الذين هم يراؤ ون ويمنعون الماعون ﴾ أي لا أحسنوا عبادة ربهم ولا أحسنوا إلى خلقه حتى ولا بإعارة ما ينتفع به ويستعان به مع بقاء عينه ، ورجوعه إليهم ، فهؤلاء لمنع الزكاة وأنواع القربات أولى وأولى ﴿ الماعون ﴾ متاع البيت .



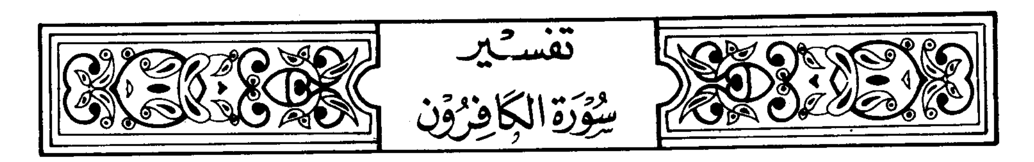
تفسير سُورَةِ الكَوثَر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ (٣)

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال : أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه متبسماً ، إما قال لهم ، وإما قالوا له : لم ضحكت ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه أنزلت علي آنفاً سورة » فقرأ ﴿ بسم الله الرحمٰن الرحيم . إنا أعطيناك الكوثر ﴾ حتى ختمها ، فقال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هو نهر أعطانيه ربي عز وجل في الجنة ، عليه خير كثير ، ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد الكواكب ، يختلج العبد منهم ، فأقول : يا رب ، إنه من أمتي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » وقد استدل به كثير من القراء على أن هذه السورة مدنية ، وكثير من الفقهاء على أن البسملة من السورة ، وأنها منزلة معها . ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ الكوثر نهر في الجنة كما جاء في الأحاديث . وروى البخاري عن ابن عباس : أنه الخير الذي أعطاه الله إياه . ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ أي كما أعطيناك الخير الكثير في الدنيا والآخرة ، ومن ذلك النهر الذي تقدمت صفته فأخلص لربك صلاتك المكتوبة ، والنافلة ، ونحرك ، فاعبده وحده لا شريك له ، وانحر على اسمه وحده لا شريك له كما قال تعالى ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ وقوله

تعالى ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ أي إن مبغضك يا محمد ، ومبغض ما جئت به من الهدى والحق والبرهان الساطع ، والنور المبين هو الأبتر الأقل الأذل المنقطع . كان العاصي بن وائل إذا ذكر رسول الله ﷺ يقول : دعوه ، فإنه رجل أبتر لا عقب له ، فإذا هلك انقطع ذكره ، فأنزل الله تعالى هذه السورة : روى البزار عن ابن عباس قال : قدم كعب بن الأشرف مكة ، فقالت له قريش : أنت سيدهم ، ألا ترى إلى هذا المنصر المنبتر من قومه ؟ يزعم أنه خير منا ، ونحن أهل الحجيج ، وأهل السدانة ، وأهل السقاية ، فقال : أنتم خير منه ، قال : فنزلت ﴿ إن شانئك هو الأبتر ﴾ وإسناده صحيح . ولما كان الأبتر الذي إذا مات انقطع ذكره توهموا لجهلهم أنه إذا مات بنوه انقطع ذكره ، وحاشا وكلا ، بل قد أبقى ذكره الله على رؤوس الأشهاد ، وأوجب شرعه على رقاب العباد ، مستمراً على دوام الآباد ، إلى يوم المحشر والمعاد. صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم التناد .



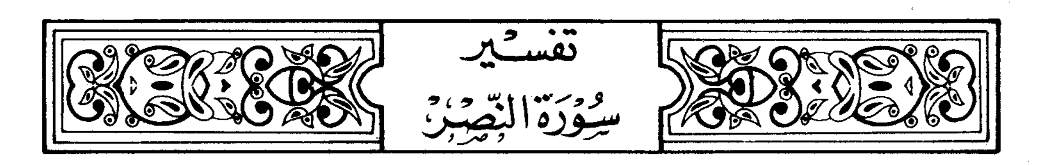
تفسير سُورَةِ الكَافِرُونَ

ثبت في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قرأ بهذه السورة ، وبقل هو الله أحد في ركعتي الطواف . وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر . وروى الإمام أحمد أنه قرأ بهما في الركعتين بعد المغرب . وروى الإمام أحمد عن الحارث بن جبلة قال : قلت : يا رسول الله ، علمني شيئاً أقوله عند منامي قال : « إذا أخذت مضجعك من الليل فاقرأ ﴿ قل يا أيها الكافرون . . . ﴾ فإنها براءة من الشرك » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾

هذه السورة سورة البراءة من العمل الذي يعمله المشركون ، وهي آمرة بالاخلاص فيه ﴿ قل يا أيها الكافرون ﴾ يشمل كل كافر على وجه الأرض ، ولكن المواجهون بهذا الخطاب كفار قريش ، وقيل لجهلهم دعوا رسول الله إلى عبادة أوثانهم سنة ويعبدون معبوده سنة ، فأنزل الله هذه السورة وأمر رسوله فيها أن يتبرأ من دينهم بالكلية ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ وهو الله وحده لا شريك له ﴿ ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ أي ولا أعبد عبادتكم ، أي لا أسلكها ولا أقتدي بها ، وإنما أعبد الله على الوجه الذي يحبه ويرضاه ﴿ لكم دينكم ﴾ الكفر ﴿ ولي دين ﴾ الإسلام .



تفسير سُورَةُ النَّصْرِ

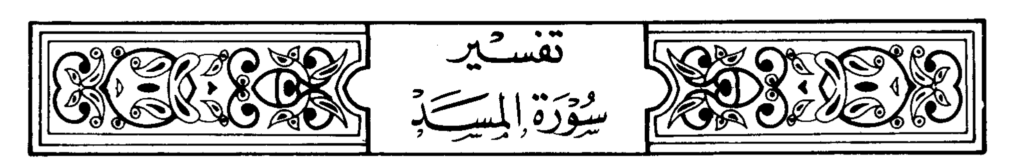
هذه السورة تعدل ربع القرآن ، وإذا زلزلت تعدل ربع القرآن ، وقيل : إنها آخر سورة نزلت ، عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال : « إنه قد نعيت إلي نفسي » فبكت ، ثم ضحكت ، وقالت : أخبرني أنه نعيت إليه نفسه فبكيت ، ثم قال : « اصبري فإنك أول أهلي لحاقاً بي » فضحكت . رواه الحافظ البيهقي ، ورواه النسائي بدون ذكر فاطمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (٣)

روى البخاري عن ابن عباس قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال : لم يدخل هذا معنا ، ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه ممن قد علمتم ،

فدعاهم ذات يوم ، فأدخله معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم يومئذٍ إلا ليريهم ، فقال : ما تقولون في قول الله عز وجل ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ ؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ، فلم يقل شيئاً ، فقال لي : أكذلك تقول ، يا ابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال : ما تقول ؟ فقلت : هو أجل رسول الله ﷺ ، أعلمه له ، قال ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ فذلك علامة أجلك ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ فقال عمر بن الخطاب : لا أعلم منها إلا ما تقول . تفرد به البخاري .

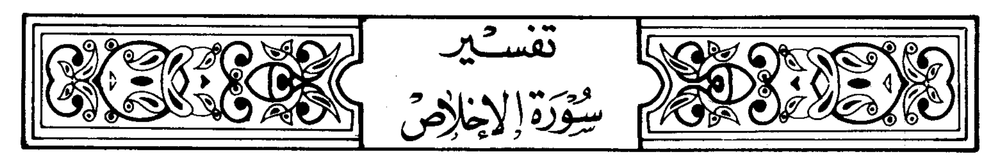


تفسير سُورَةُ المَسَد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾

روى البخاري عن ابن عباس أن النبي ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش فقال : « أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقوني ؟ » قالوا نعم ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : ألهذا جمعتنا ؟ تباً لك ، فأنزل الله ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ إلى آخرها . أي خسرت وخابت وضل عمله وسعيه ﴿ وتب ﴾ أي وقد تب أي تحققت خسارته وهلاكه . ﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾ يعني ولده ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ أي ذات شرر ولهب وإحراق شديد ﴿ وامرأته حمالة الحطب ﴾ وكانت زوجته من سادات نساء قريش وهي أم جميل ، واسمها أروى بنت حرب ، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده ، فلهذا تكون يوم القيامة عوناً عليه في نار جهنم ، ولهذا قال تعالى ﴿ حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾ يعني تحمل الحطب فتلقي على زوجها ليزداد على ما هو فيه ، وهي مهيأة لذلك مستعدة له . أو ﴿ حمالة الحطب ﴾ كانت تمشي بالنميمة ، واختاره ابن جرير . وقال مجاهد : ﴿ في جيدها حبل من مسد ﴾ أي طوق من حديد .



تفسير سُورَة الإخلاص

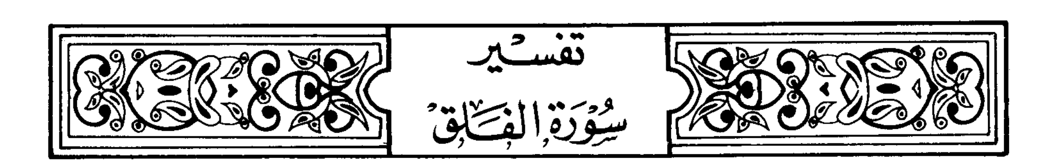
روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد ، انسب لنا ربك ، فأنزل الله ﴿ قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ وكذا رواه الترمذي وابن جرير وروى البخاري عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما ، وقرأ فيهما ﴿ قل هو الله أحد ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الفلق ﴾ و ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده ، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده ، يفعل ذلك ثلاث مرات » وهكذا رواه أهل السنن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾

قال عكرمة : لما قالت اليهود نحن نعبد عزيرا بن الله، وقالت النصارى : نحن نعبد المسيح ابن مريم ، وقالت المجوس : نحن نعبد الشمس والقمر ، وقالت المشركون : نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿ قل هو الله أحد ﴾ يعني هو الواحد الأحد الذي لا نظير له ، ولا وزير له ، ولا نديد له ، ولا شبيه ولا عديل . ولا يطلق هذا اللفظ على أحد إلا على الله عز وجل ، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله . وقوله تعالى ﴿ الله الصمد ﴾ يعني الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم ، وعن ابن عباس هو السيد الذي قد كمل في سؤدده ، والشريف الذي قد كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وهو الله سبحانه هذه صفته ، لا تنبغي إلا له ، ليس له كفء ، وليس كمثله شيء ، سبحان الله الواحد القهار . أو ﴿ الصمد ﴾ الذي لا يخرج منه شيء ولا يطعم ، والذي لا جوف له ، أو هو الذي لم يلد ولم يولد ، وهو تفسير جيد ، لأنه جعل ما بعده تفسيراً له . ﴿ لم يلد ولم يولد ﴾ أي ليس له ولد ولا والد ولا صاحبة ﴿ ولم يكن له كفواً

أحد ﴾ يعني لا صاحبة له ، وهذا كما قال تعالى ﴿ بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء ﴾ أي هو خالق كل شيء ومالكه ، فكيف يكون له من خلقه نظير يساميه ، أو قريب يدانيه ؟ تعالى وتقدس وتنزه .



روى الإمام مالك عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين ، وينفث فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها . ورواه البخاري .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ ﴿٥﴾

﴿ الفلق ﴾ الصبح ، أو الخلق ، أو بيت في جهنم ، أوجب في قعر جهنم ، أو من أسماء جهنم ، والصواب هو القول الأول . ﴿ من شر ما خلق ﴾ أي من شر جميع المخلوقات ﴿ ومن شر غاسق إذا وقب ﴾ قال مجاهد : غاسق الليل إذا وقب غروب الشمس . حكاه البخاري عنه ، أو الشمس إذا غربت ، أو ﴿ إذا وقب ﴾ الليل إذا ذهب ، أو الكوكب ﴿ ومن شر النفاثات في العقد ﴾ يعني السواحر إذا رقين ونفثن في العقد . وفي الحديث أن جبريل جاء إلى النبي ﷺ فقال : اشتكيت يا محمد ؟ فقال : « نعم » فقال : باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ، ومن شر حاسد وعين ، الله يشفيك ، ولعل هذا كان من شكواه حين سحر ، ثم عافاه الله تعالى وشفاه ، ورد كيد السحرة الحساد من اليهود في رؤوسهم ، وجعل تدميرهم في تدبيرهم ، وفضحهم ، ولكن مع هذا لم يعاتبه يوماً من الدهر أي فما ذكر ذلك لليهودي الذي سحره ولا رآه في وجهه حتى مات بل كفى الله وشفا وعافى . واليهودي اسمه لبيد بن أعصم . وحديث سحره ﷺ رواه البخاري ورواه مسلم ورواه الإمام أحمد .



تفسير سُورَةِ النَّاسِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ۝٦

هذه ثلاث صفات من صفات الرب عز وجل ، الربوبية ، والملك ، والإلهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه ، فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له ، فأمر المستعيذ أن يتعوذ بالمتصف بهذه الصفات من شر الوسواس الخناس ، وهو الشيطان الموكل بالإنسان ، فإنه ما من أحد من بني آدم إلا وله قرين يزين له الفواحش ، ولا يألوه جهداً في الخبال ، والمعصوم من عصمه الله . وقد ثبت في الصحيح أنه « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه » قالوا : وأنت يا رسول الله ؟ قال : « نعم إلا أن الله أعانني عليه فأسلم ، فلا يأمرني إلا بخير » وثبت في الصحيحين عن أنس قصة زيارة صفية للنبي ﷺ وهو معتكف ، وخروجه معها ليلاً ليردها إلى منزلها ، فلقيه رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال رسول الله ﷺ : « على رسلكما ، إنها صفية بنت حيي » فقالا سبحان الله يا رسول الله ، فقال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً » ، أو قال : شراً ﴿ الوسواس الخناس ﴾ عن ابن عباس قال : إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس فإذا ذكر الله خنس ﴿ من الجنة والناس ﴾ تفسير للذي يوسوس في صدور الناس من شياطين الإنس والجن .

انتهى هذا المختصر ولله الحمد والمنة ، وله الفضل في البدء والختم .

صبيحة يوم الخميس ٢٣ / ربيع الأول / ١٤٠٢

محمد كريم راجح



فهرست